هويتى مصر



نكبة توطين الهكسوس
(النكبة المصرية)

الجزء الأول
من عرش حور إلى قرون الشيطان

إفتكار البندارى
(نفرتارى أحمس)

هويتي مصر

نكبة توطين الهكسوس

(النكبة المصرية)

(ج١)

من عرش حور إلى قرون الشيطان

افتكار البنداري

(نفرتاري أحمس)

اسم الكتاب: نكبة توطين الهكسوس

اسم المؤلف: إفتكار البنداري

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٩/١٣٨٤١

الترقيم الدولي: **978-977-463-429-9**

تصميم الغلاف: وليد عبد الرحمن

لماذا هذا الكتاب؟

في ٢٠١١، يوم الزلزلة العظيم..

ليس فقط فيما اجتاح بلدنا من فوضى هبت بزئيرها المزعج المخيف كالريح الهوجاء السموم من الاتجاهات الأربعة، كالغول الجائع يكاد يكتسح في طريقه كل شيء، مسلحا بالنيران وأصوات الرصاص والعصابات، تنتهك حرمات كل شيء، لكن أيضا فيما اجتاح نفوسنا وعقولنا من اهتزازات أوشكت أن تقتلعنا من الجذور.. الجذور رأس مالنا الحقيقي كمصريين.

ففي خضم الميدان الهايج بأحسن أنواع البشر وأسوأها، وتحت الأضواء الساطعة، علت أصوات تتصارع كالذئاب اللاهثة على فريسة مكبلة، هذا يرفع شعار "مصر إسلامية"، وذاك "مصر عربية"، وذاك "مصر مدنية ليبرالية"، وهذا "مصر علمانية"، وآخر "مصر أم الدنيا لكل المذاهب والأجناس".. عددهم قليل وصوتهم كالهدير.. في الظل، في البيوت والأرياف والحواري، العدد الأضخم من الناس، الغالبية، تتردد في صدورهم كلمة واحدة فقط "مصر"، لا قبلها شيء، ولا بعدها شيء، لكن لا يعرفون كيف يوصلونها، صوتهم مكلوم مكتوم، يتركون المتعلمين الذين صرفوا عليهم دماء قلوبهم يتحدثون عن مصر كيفما شاءوا.. يتخيلون أنهم الأدرى والأعلم.

أنا من المتعلمين، لكني فلاحة تربية فلاحين، ربوني على أنها مصر، مصر وفقط، لم أسمع في قريتي كلمات مصر الإسلامية ومصر المدنية ومصر الليبرالية ومصر العلمانية وغيرها، فتكلمت في الميدان وسط المتعلمين بكلام الفلاحين، قلت إنها مصر وبس، مصر المصرية.. فضحك بعضهم، وسخروا.

إنهم يهزون كل شيء هزا، قالوا إن "ثورة يناير ٢٠١١ هي أفضل الثورات في تاريخ مصر"، ومنهم من قال: "هي الثورة الوحيدة في تاريخ مصر".. لم يذكروا ثورات ١٨٨١ و ١٩١٩ و ١٩٥٢ إلا بالشتايم، وتزيد الشتايم لثورتي ١٨٨١ و١٩٥٢ لأن قادهما جيش الفلاحين، قالوا إنها ثورات عسكر وانقلابات، لكنهم يمدحون محمد علي وإسماعيل وفاروق والمماليك ونابليون والإسكندر والمعز لدين الله وهارون الرشيد وصلاح الدين، ألم يكونوا عسكر؟ نعم عسكر، لكنهم عسكر أجانب، ليسوا فلاحين... هل السر إذن في كراهية الفلاحين؟ ولماذا يكروهون الفلاحين؟

إنهم يكرهون ثوراتنا.. لكنهم يمجدون ثورات فرنسا وإنجلترا وروسيا التي قادتها تنظيمات عالمية وفجرت براكين الدم والمدابح والحروب الأهلية والاحتلالات على العالم.. لماذا يكرهون ثورات الفلاحين إذن؟ هل لأنهم ضد الحروب الأهلية والاحتلالات والتنظيمات العالمية؟ أم لأنهم المصريون الحقيقون؟

لم يكن ميدان التحرير في ٢٠١١ مجرد ميدان ثورة تهتف لمصر.. كان ميدانا يضم مصريين حقيقيين يهتفون بحريتها، ويضم أيضا "مصريين" مزيفين دعاة كل احتلال قديم يتمنون أن يعود ليحتل مصر ! إن روايح الهكسوس تهب في كل مكان، هكسوس الشرق والغرب والجنوب والبحر، بل إن بعض "قادة الميدان" هكسوس حقا.

قبل زلزلة ٢٠١١ كنا كأننا نسير على بحر بلا أمواج، لا حركةَ لا روح، كأنه لوح زجاج ميت، لا نعرف إلى أين نسير، وإذا فجأة تلاطمتنا الأمواج العاتية، كل موجة كالجبل تريد أن تدفعنا بكل قوتها أمامها، تفرقنا، كل مجموعة من المصريين سارت برغبة منها أو رغما عنها في اتجاه.. تقتلعنا من الجذور، تفرقنا أشتاتا أشتاتا.. وقائد كل موجة من الهكسوس، كالشيطان يرانا ولا نراه !

في ٢٠١٢.. البلد تشغي بورش عمل ومناقشات حادة حول الدستور الجديد المقترح وضعه، الخناقات منصوبة حوله بين جميع الناس- خاصة المتعملين- وسط محاولات حزبية قبيحة لاقتناص مصر لهذا الحزب أو هذا التنظيم، خصوصا مع تنمر تنظيم الإخوان المسلمين وجماعات السلفيين، ومن يصفون أنفسهم بـ"الثوريين" من علمانيين وشيوعيين وليبراليين وعروبيين.. الحيرة تمزقنا، والبلد تختنق... وروايح الهكسوس تسمم الهواء.

في قاعة من قاعات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة العريقة، احتشد لفيف من الأساتذة الخبراء في القانون والدستور والعلوم السياسية مع عشرات من الجمهور، عرض فيها الأساتذة مشروعاتهم المقترحة للدستور المنتظر، فرَّقوا علينا نسخا ورقية من المقترحات لنقرأها ونقول رأينا كعينة من الجمهور، فلما طلبت الكلمة قلت لصاحب المشروع الذي في يدي:

- أنا قريت مشروع الدستور، بس ما لقيتش فيه حاجة عن هوية مصر خالص، حاجة تميز مصر.

الدكتور: حاجة عن هوية مصر وتميز مصر زي إيه مثلا؟!

- يعني مثلا في تعريف الدولة والنظام السياسي المكتوب فيه زي دول تانية كتير، وفي النظام الاقتصادي ما لقتش حاجة تعرف نظام الاقتصاد في مصر ويكون معبر عن هويتها.

الدكتور متململا باستياء: يعني عايزانا نكتب في تعريف الدولة ومصر إيه مثلا؟

قلت بعفوية طفولية.. أو فلاحية:

- يعني الدستور يبين إن مصر مصرية.

الدكتور: مصر مصرية؟! يعني إيه مصرية؟؟

ثم ضحك، وضحك آخرون معه، ضحك سخرية.

لم يغضبني ضحكهم ولا سخريتهم، ففضلا عن أنهم أساتذتنا وكبراءنا، فأيضا هذه الإجابة لو قلتها أمام كثير من المصريين- أصحاب الشهادات العالية- سيضحكون لأنه مر علينا أجيال وأجيال، بل قرون، لم يكن من حقنا أن نقول إن مصر مصرية، ولا أن حق مصر أن يكون لها نظامها الخاص في الحكم والاقتصاد والثقافة وكل مجالات الحياة كما كانت عليه لآلاف السنين وهي حرة.

يقولون في مشاريع الدستور مصر مدنية/ علمانية.. هناك عشرات الدول تصف نفسها هكذا.. فمن فيهم مصر؟

يقولون إن مصر إسلامية، هناك ٥٦ دولة تقول إنها إسلامية... فمن فيهم مصر؟

يقولون مصر عربية، هناك ٢٢ دولة تقول إنها عربية.. فمن فيهم مصر؟

يقولون مصر اقتصادها اشتراكي، أو يتبع السوق الحر، هناك عشرات الدول هكذا، فمن فيهم مصر؟

هناك في الأرياف والحواري، بعيدا عن الجامعات الفخمة، والشهادات الفخيمة، والنظريات المنفوخة، إذا قلت مصر مصرية سأجد كثيرا ممن يقول: "أيوة طبعا بلدنا مصرية أومال أجنبية يعني يا بنتي؟!".. هناك حيث ما زالت بقية طاهرة من الحزبية السياسية والدينية وعُقد الهوية المستوردة.

يقول توفيق الحكيم في لقاء مع التلفزيون المصري وفي كتابه "مصر بين عهدين" إنه حين ذهب سعد زغلول مع زميليه إلى المندوب البريطاني وينجت يطلبون تصريحا بالسفر لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح بباريس سألهم: مصر من التي ستعرضون قضيتها؟! فقالوا مصر بلدنا، قال: لا نعرف بلدا مستقلة اسمها مصر، بل بلد إما تابعة لحكم العثمانيين أو لثقافة العرب، اسمها القطر المصري وليس مصر، وكانت النتيجة- يقول الحكيم- أن المصريين قرروا أن يملأوا كل مكان في مصر باسم مصر، وطعم مصر، وهوية مصر، فخرجت مشاريع بنك مصر كلها تحمل اسم مصر، والمسارح والروايات والأشعار تتحدث عن مصر الخالصة، لا عثمانية ولا عربية ولا أوروبية.

وفي ندوة في بيت السناري- التابع لمكتبة الإسكندرية- وجدت مع زميل كتاب عن تاريخ مصر من الفتح العربي وحتى العثماني، الكلام فيه عن سياسة العرب في مصر والطولونيين والإخشيديين والعبيديين (الفاطميين) والمماليك، لم أجد فيه مصر السعيدة بحكم هؤلاء التي يصورونها لنا في التعليم والمسلسلات، لم أجد إلا مصر مغصوبة يتيمة منهوبة تدوسها أقدام كل الأجناس الأجنبية، عرب وعجم، مسلمون أو مسيحيون أو ويهود.

قلت أكيد هذا الكتاب كتبه مستشرقون أعداء للإسلام وللعرب، نظرت في المراجع وجدتها من أئمة الكتب القديمة، ابن عبد الحكم، الكندي، الطبري، المقريزي، ابن تغري بردي، ابن إياس، إلخ، عرب مسلمون لا يفترون على العرب ولا الإسلام، قررت اشتري هذه المراجع التاريخية القديمة أو اقرأها من على الإنترنت... وتأكدت أن مصر حينها لم تكن مصر تلك التي يعلمونها لنا في المدارس والمسلسلات الدينية

حتى يقنعونا بأن "مصر عربية"، وأسعد عصورها عصور "الخلافة الإسلامية" حين هبطت عليها هجرات أجنبية بوجه غير وجه مصر، يا ترى كم عصر من العصور تعلمناه بمعلومات كاذبة، معلومات تريد أن تقول لنا إن مصر.. ليست مصرية.

إن معظم كتبنا ومسلسلاتنا وأفلامنا تقول لنا إن أعظم عصور مصر وهي يحكمها الأجانب، نادر أن تقول إن أعظم عصورها حين حكمها أولادها، فلاحوها.. هل هذا يستقيم مع بلد تصف نفسها بأنها "بلد حرة"؟

يقال إن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ زورت التاريخ، وأن حكم الأجانب قبلها كان "فل الفل"، إذن فلنعود إلى الكتب والصحف الصادرة قبل ١٩٥٢ لنعرف الحقيقة، عدت وقرأت وعرفت، لكن الحقيقة ناقصة، إنه لنعرف حقيقة ٢٣ يوليو يلزم أن نقرأ المكتوب أيام محمد علي والإنجليز، ولنعرف حقيقة ذلك يلزم أن نقرأ المكتوب أيام العثمانيين والمماليك، ولمعرفة حقيقة أيامهم يلزم أن نعرف ما كان عليه الحال قبلهم أيام الأيوبيين، ولنعرف حقيقة هؤلاء وهل كانوا خيرا أم شر على مصر يلزم أن نعرف حال مصر قبلهم أيام العبيديين (الفاطميين)، وهكذا، فيلزم أن نقرأ ما كان قبلهم أيام العرب ثم الرومان واليونان والفرس إلخ.. حتى نأتي إلى الأرض الثابتة، الأصل، في أزمنة الحكم المصري الخالص، نجلس وسط المصريين الحقيقيين، قبل أن تشوبهم الشوائب، يوم أن كان لا صوت فوق صوت الفلاح، نسمع منهم هل كان حال مصر أفضل أم ما كان عليه في عصور الأجانب (الهكسوس من كل جنس)؟

الشوارع مليئة بالكتب، الأرصفة، المكتبات المجانية في المدارس والجامعات وقصور الثقافة، المكتبات العامة، سور الأزبكية، ليس أكثر ولا أرخص من الكتب في مصر، الإنترنت مكتبة عظمى، ببلاش تقريبا، من يريد أن يعرف حقيقته وتاريخه فليغرف وليقرأ، لكن ماذا نقرأ وكيف نقرأ في هذا المحيط الخضم، إن الحدث الواحد حوله ألف كتاب يكذب بعضهم بعضا، وأحيانا يصدق بعضهم بعضها...

أين تاريخ مصر.. بل أين مصر! عايزة أشوف بلدي، هذه الروح الدافية التي تسكننا، عايزة أشوفها من غير أي سحب وضباب.

بالتأكيد توجد الحقيقة والمصريون الحقيقيون الذين يخبروننا بها بين هذه الكتب، ولكن كيف نجدهم.

دلّني زميل على كلية الآثار، أن أدرس فيها، إن من يريد أن يقرأ التاريخ حقا يجب أن يكون عنده الحس العلمي لاختيار الكتاب، يعرف من كتبه، كيف كتبه، ما دقه مصادره، في كلية الآثار بداية من ٢٠١٣، وعلى إيدين أساتذتها العظام، ولعدة سنوات، علموني وأهدوني هذا الحس العلمي في الاختيار.

أهم ملحوظة في هذا المشوار الشاق، أنه كلما عاد المصري في قراءة كتب التاريخ للوراء- المكتوبة على يد المعاصرين لكل فترة- أكثر ما يسمعه يصدر من الكتب هو صوت المستوطنين الأجانب، هؤلاء القادمين من اليونان، أو جزيرة العرب، أو الشام، أو المغرب، أو القوقاز، أو بلاد الروم، أو الأتراك، هؤلاء يملأون كتب التاريخ القديم بصخبهم ومعاركهم وأطماعهم وآرائهم، يصفهم المؤرخون مثل المقريزي والجبرتي بأنهم "المصريين"، مع أنهم في نفس الوقت يشهدون بأنهم ليسوا مصريين، يقولوا فلان القادم من الشام،

وفلان المجلوب من بلاد الغز (الترك)، وفلان القادم من المغرب، إلخ.

أين المصريون الحقيقيون غير الوافدين إذن؟ انقرضوا؟ أم هم هؤلاء الذين يوصفون في هذه الكتب العتيقة بتعالي بكلمة "الفلاحين" و"المحليين"، الكم المهمل في الأرياف الواسعة، الكل يتصارع لحلب عروقهم إلى آخر نقطة دم، ليس لهم كلمة وصوت في كتب التاريخ في معظم عصور الاحتلالات، كل هذه القرون صوتهم مكتوم، وغيرهم من كل الأجناس يتحدثون باسمهم !

قبل الاحتلالات.. منقوش السؤال والجواب، حين كانت مصر كشمس رع، ظاهرة صافية، بلا ضباب، من هنا، من أزمنة التاريخ المصري القديم قبل الاحتلالات، جايز أن نعثر على بذور الحقيقة، من هنا نسير مع موكب التاريخ عصر وراء عصر، نسير وراء الفلاح نفسه، كيف كان، وكيف أصبح، وماذا حصل له في الاحتلالات، كيف جاءت الاحتلالات أساسا، خنع لها، أم غُصب عليها، أم قاومها، كيف غار صوته وصورته في جوف ظلمات التاريخ حتى ظنناه انقرض رغم أنه باقي لحما ودما.. يعرق ويكدح ويقدم الإنجازات، ويكتبونها على غير اسمه !

حين يسير القارئ بمهل مع كتب التاريخ- المكتوبة في كل عصر- يستكشف، وإن كان بصعوبة، إجابات على أسئلة حيرتنا كمصريين:

- كيف سقطت مصر العظمى وتسلمها احتلال بين قدميه ليسلمها لأقدام احتلال آخر مئات السنين؟

- أين ذهب المصريون؟ المصريون الحقيقيون أحفاد مينا ومنتوحتب وأحمس؟ هل هاجروا من بلدهم كما يدعي البعض؟ هل أبادتهم نهائيا سيوف المحتلين؟ هل تكاثر عليهم المستوطنون الأجانب فذابوا فيهم فلم يعد في مصر مصريون أصلاء؟ أم ما زالوا ملتصقين بأرضهم كطمي النهر؟

- من إذن يستحق أن يُقال عليهم مصريون اليوم؟

- هل حقيقي أن مصر بوتقة للهجرات الأجنبية، أما الحقيقة أن هذه الهجرات محرقة المصريين؟ أشنع محرقة عانى منها بشر لمئات السنين المتواصلة.

- من حقا أثَّر في الآخر، هل تمصرت الهجرات الأجنبية أم صبغت كل هجرة مصر بصبغتها حتى صارت كمن يرتدى قناعا قبيحا مرقعا من كل الأشكال والألوان؟

- هل حقيقي تاريخ مصر "طبقات" كطبقات "التورتة"، فرعوني ويوناني وروماني وعربي وعثمانلي وإنجليزي إلخ كما يقال؟ أم أنها مجرد "أقنعة" ألصقها المستوطنون المحتلون غصبا على وجه مصر الصبوح لتخفيه ويبررون وجودهم وفرض ثقافتهم على مصر؟

- لماذا كلما زادت "الطبقات" المصطنعة (الأقنعة) فوق وجه مصر كلما زادت الجرائم، المظالم، الشرور، العادات القبيحة، الحزبية، القلق، وتباعد المصريون عن بعضهم، وتباعد المصريون عن مصر، وتكبروا

على كلمة الفلاح؟

- لماذا يمجد معظم المصريين المتعلمين محتليهم؟ يسخرون أنفسهم لكتابة كتب تمجد المحتلين من كل لون وتقدمهم كأصحاب "فضل" على مصر!

- لماذا في مصر ما زال أحفاد المحتلين والمستوطنين يفتخرون بأصول أجنبية لأجدادهم؟ لماذا بكل جرأة يقف شخص يقول أنا مصري من أصل يوناني، أو مصري من أصل قبلي عربي، أو مصري من أصل أرمني، أو مصري من أصل تركي؟ ولماذا بعضنا يقبل هذا منهم ويشجعهم؟

- ما تأثير كل هذا على ما تكابده مصر من سقطات كلما نهضت؟ ومن أزمة هوية، من سؤال: "من نحن؟".

- أين ذهبت لغة المصريين المقدسة؟ إحدى أقدم وأزهى لغات الأرض؟ لماذا فقد المصريون لغتهم في حين لم يفقد الترك والفرس والهنود والأوروبيون لغاتهم؟ وهل فقدناها تماما أم ما زال فيها الرمق؟

- ما هي أساسا أسباب نهضة مصر في أي زمن وما هي أسباب سقوطها واحتلالها؟

- هل حقا مصر "مقبرة الغزاة"، أم الحقيقة أن مصر "جنة الغزاة"؟ أكثر الدول التي يجيد الغزاة احتلالاها عبر التسلسل واللسان المعسول، ولا يجد فيها الغزاة عقابا حقيقيا على ما اقترفوه من جرائم- عدا مرات نادرة- بل يجدون أحيانا التكريم والتمجيد، حتى أن كثيرا من شوارع ومدن مصر مسماة بأسامي الغزاة!

- من قاوم الغزاة حقا؟ من سالت دماءهم فيضانا كفيضان النيل وهم يثورون ضد استيطان الأجانب؟ وما أن يثوروا حتى يظهر على الساحة من يدَّعون أنهم مصريون ويقتلون ثوراتهم.

- كيف تحول مصريون متعلمون من روح واحدة إلى أحزاب وشيع وتنظيمات تكره بلدها وتعبد الأجنبي؟

- كيف تحولنا من أننا نعرف أن مهمتنا المقدسة هي حماية مصر أرضا وهوية، وبنائها بأيدي وعقول وأموال المصريين إلى الظن بأن تمليك الأجانب للأرض وتقديم شرف الجنسية المصرية لهم باسم استثمار أو منح، وخلط الأجناس بالمصريين هو الطريق لتنمية مصر؟

من يتحدث باسمنا ويقول هذا الكلام؟ هل نحن المصريون حقا؟ أم المستمصرون المجنسون وبواقي الاحتلال؟ أم أرواح شريرة بداخلنا صنعها التاريخ المزور، تسكن أجسادنا وتنطق باسمنا، بعد أن نجح المحتلون في تصفية المصريين من مصريتهم وذاكرتهم، وإن بقيت عروقهم تحمل دماء مينا وأحمس.

- من يحكم مصر حقا؟ .... هل المصريون الحقيقيون أم ظلال وأفكار وهويات الاحتلال، وبواقي دماء احتلالية لم تتطهر من أصول دخيلة؟

هذا وغيره يحاول الكتاب استكشافه، ويستطيع المصري وهو يسير في موكب التاريخ مع كتبه القديمة أن يلمسه، ويجد إجابات له، شرط أن يقرأ بعين فلاح، ويشعر بقلب فلاح، ويقيم الأحداث بعقل الفلاح، ذاك

الذي لا يؤمن له بأصل أو هوية إلا أرض مصر ولونها.. فلا تختلط أمامه الأوراق، لا تختلط الأجناس، ولا يتوه وسط الثقافات الدخيلة، ولا يتمزق أو يضل بسبب الخطوط والفواصل الوهمية التي اختلقها بعض كتاب التاريخ في القرن ١٩ لتمزيق تاريخ المصريين بتقسيمه إلى (فرعوني، قبطي، يوناني، روماني، عربي، فاطمي، أيوبي، مملوكي، عثماني، حديث) يستطيع أن يلتقط صوت جده الفلاح وسط ضجيج كل أصوات التاريخ التي زحمت بلاده في الماضي، مهما انخفض صوت جده، سيصل قلبه بقلبه، ودمه بدمه، وأرضه بأرضه، ومصريته بمصريته.

يراه وهو وحده الثابت في هذه الأرض، هو وحده الحقيقة، الكل يتغير، المحتلون والجاليات الأجنبية واللغات والأديان، الثابت الوحيد طوال هذه الآلاف من السنين هو الفلاح المصري "كيمتي" وأرضه (وهما وحدة واحدة لا تتجزأ)، المغروسة فيها قدمه المشققة من طول الزرع في طينها، القابضة يداه الخشنتان من الشقا على الفأس وهو يزرع، والقابضة على آداة الحرفة وهو يصنع، وعلى الطوبة وهي يبني، الباسمة شفتاه رغم كل شيء، المرفوعة عيناه إلى السماء أملا وعشما في النجاة.

لكن هذا عمل شاق طويل، سار فيه الكثير والكثير من أساتذتنا مثل الدكاترة سليم حسن، عبد العزيز صالح، سيدة كاشف، آمال الروبي، زبيدة عطا، علي بركات، عاصم الدسوقي، رءوف عباس، سامي عزيز، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، وآلاف غيرهم، وأنجزوا، في كل المجالات، وهم يتتبعون حال الفلاح في الهوية واللغة والدين والأخلاق والملابس والآداب والأغاني والأكلات والثورات وعلاقته بالأجناس والثقافات الوافدة، وعدد السكان، حاله في الزراعة والصناعة والتعليم، من أول الزمان وحتى الآن، دخلوا إلى الأرشيفات العتيقة ومخازن البرديات والوثائق المخفية تحت ركام التراب، واستخرجوا منها في رسائل الماجستير والدكتوراة المعلومات المكنوزة المخفية أو المهملة عن المصريين الحقيقيين، وكيف كان حالهم في كل عصر، فقط يحتاجون اليوم الذي تفوق فيه الدولة لمصريتها، وتلملم مجهود هؤلاء الأساتذة الفلاحين، وتنشيء المكتبات المخصوصة التي يتوجه إليها المصري ليعرف من هو المصري الحقيقي، وكيف كان، وكيف أصبح، في كل المجالات، بتاريخ كتبه المصريون الحقيقيون.

مهمتي أني كنت عازمة- بمشيئة الله- على أن استغل دراستي الإعلامية والأثرية في أن ألملم بعض مجهود هؤلاء الأساتذة في هذا الكتاب، ليجد المصري الخطوط العريضة لمسيرة أجداده في كل هذه المجالات بعيدا عن الغشاوة التي دفع كثير من هؤلاء الأساتذة من أعمارهم لتزول وتشرق شمس مصر مرة أخرى، لكن وجدت أنه بالتأكيد لا يحويها كتاب، بل سلسلة كتب، كل كتاب يخص مجال من هذه المجالات، وتحمل السلسلة اسم "هويتي مصر".

أما من أين أبدأ، فإن حال مصر الآن هي من فرضت البداية، فمنذ ٢٠١١ ومصر في عملية تغيير لدمها وجلدها وروحها، طوفان من الأجناس يُقذفون على مصر باسم لاجئين وعمالة وتجار، ملايين دخلوا في وقت قصير، وفي وقت قصير أيضا سيطروا على مناطق واسعة من الأرض والاقتصاد والثقافة، وما أن استقروا حتى تدفقت ورائهم قوانين تسهيل تمليك وتجنيس وتوطين الأجانب! طوفان من أجناس متصارعة عرقيا وطائفيا وقبليا، تخربت بلادهم لحزبيتهم وطائفيتهم، فمن له مصلحة في أن يحدفهم بأسباب الخراب

إلى مصر؟

إن قصة تسليم مصر للهكسوس من جديد بدأت ١٩٧٤، بقوانين صنعت مراكز قوى أجنبية تحكم البلد باسم مستثمرين ومجنسين ومستشارين وبيوت الخبرة الأجنبية، ثم جاءوا اليوم طوفانا من البشر، بالملايين، باسم لاجئين ومستثمرين، لسانهم حلو ووعودهم براقة، بل ويفرضون لونهم وهويتهم وأسمائهم على كل شارع ومكان يسيطرون عليه، ويمحون كل ما يخص مصر، قدموا لمصر بأعداد لم تشهدها مصر للأجانب في تاريخها، إن من يتابع رصد وتحاليل أساتذتنا في تحليل فترات سقوط وصعود مصر ليوقن كل اليقين أن ما تمر به مصر اليوم هو الطريق إلى النهاية، نهاية مصر بكاملها، فقد تجمع في سماء مصر وأرضها كافة أسباب احتلال مصر وسقوطها بل وإبادتها.

يشير الحكيم "إيبو ور" للمستوطنين الأجانب في برديته كأحد أسباب انتشار الفوضى في نهاية االأسرة ٦ قبل سقوطها: "انظر! لا صانع يعمل، والعدو يحرم البلاد حرفها[١]" فبعد أن كثر المستوطنون: ""تخربت الأقاليم، وتوافدت قبائل قواسة غريبة إلى مصر، ومنذ أن وصلوا لم يستقر المصريون في أي مكان (...) وأصبح الأجانب مصريين في كل مكان... وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا أغرابا وأهملوا جانبا[٢]".

ويتتبع نيكولا جريمال جذور الاحتلال الهكسوسي في نهاية الدولة الوسطى قبل سقوطها فيرصد أن تدفق العمالة الآسيوية هو بداية حركة هجرة متصلة وسلمية، ولكنها ثابتة ودؤوبة، أدت إلى استقرار بعض الشعوب على الحدود الشمالية الشرقية لمصر، جاءت بعد أن طردتها من مواطنها الأصلية هجرات جديدة هاجمت الشام، حتى إذا آن الأوان نزع المهاجرون إلى الاتحاد ليحتلوا المناطق التي تقع تحت إيديهم، وعادت الآليات التي كانت وراء سقوط الدولة القديمة إلى الظهور، وتتمثل في إضعاف الدولة وما ترتب عليه من انفراط عقد وحدة البلاد[٣].

ويرصد فرانسيس فيفر في كتابه عن أسباب سقوط الدولة الحديثة بعد الأسرة ٢٠ في يد المستوطنين الأجانب: "شقية هي أرض مصر، كم تعرضت للأطماع طوال العقدين الماضيين! أطماع الوزراء، أطماع كبار الكهنة والنساخ، بل أطماع الأعيان الأجانب أيضا، لقد فتحت غزوات الفراعنة في القرون الأخيرة باب البلاط الملكي أمام هؤلاء الأجانب. في البداية كانوا سفراء لبلادهم، ثم أصبحوا مستشارين بارعين لدى الفراعنة، وأخذوا يؤسسون سلالات قوية من الأعيان تحيط بأصحاب العرش"[٤].

وبتعبير د. عبد العزيز صالح فإنه على الرغم من هذا التساهل النسبي في توطين الأجانب يعتبر مكرمة للخلق المصري، إلا أنه جرَّ على مصر بعد ذلك شرورا كثيرة كانت في غنى عنها لو أنها استأصلت شأفة أعدائها من جذورها[٥]"؛ لأن "الخطر كل الخطر كان يتمثل في ألا يخلو إخلاص هؤلاء النزلاء لها من

(١)- موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، الجزء ١٧، الهيئة العامة للكتاب، مشروع مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ص ٢٩٧
(٢)- الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول مصر والعراق)، د. عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو، ط٢ منقحة، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٣٦٠
(٣)- انظر: تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر لدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، القاهرة، ص ٢٣٧
(٤)- الفرعون الأخير رمسيس الثالث: أو زوال حضارة عريقة، فرانسيس فيفر، ترجمة فاطمة البهلول، دار الحصاد، ص ١١
(٥)- الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول مصر والعراق)، مرجع سابق، ص ٢٣٨

شوائب، وأن يتمصروا بمظهرهم وليس في مخبرهم، وأن يظل بعضهم على استعداد للتنكر لها متى سنحت لهم فرصة أو ألمت بها نكبة، وما كان أكثر احتمالات النكبات عليها في ذلك الزمان[٦]".

منذ ٢٠١١ كأنهم في سباق محموم، لتفريغ مصر مما بقي من مصريتها، ومن حقوق أولادها فيها، ومن التعريف الحقيقي لكلمة مصري، نشطت الكتابات عن أصول المصريين، ومن أصحاب الحق في مصر أساسا، وادعت أن لكل الأجناس "حق" في مصر- عدا المصريين الحقيقيين أنفسهم- تزاحمت الأعمال الأدبية والفنية لتحقير كل ما هو مصري أصلي (فلاح)، وبتمجيد كل ما هو أجنبي ودخيل، وصل اليوم المجنسون ومزدوجو الجنسية بسرعة البرق إلى أعلى المناصب في مصر (قادة الثقافة والفكر ومنصب المحافظ على سبيل المثال)، تشجيع المصريين على الهجرة وخفض المواليد مقابل تشجيع الأجانب على القدوم لمصر وتجنيسهم، تحميل الفلاحين مسئولية كافة المصائب والنكبات التي تعرضت لها مصر وتبرئة الأجانب والمحتلين، وعلو الصوت أكثر وأكثر بأن مصر حين يحكمها أجنبي أفضل من مصر حين يحكمها المصري الفلاح، يا ترى ما هو سبب هذه الحمى؟

ولذا كانت البداية بهذا الكتاب... رصد مأخوذ من كتب أساتذتنا، ومن كتب وشهادات المؤرخين القدامى والمعاصرين لكل فترة حرية أو احتلال، لأسباب صعود أو سقوط مصر، وكيف كان حال مصر حقا وهي حرة، وكيف كان حالها تحت الاحتلال، وكيف كان حال مصر حقا وهي مصرية خالصة، وكيف حال مصر وهي "لخبطيطة" مشوهة من ثقافة "كل الأجناس".

وعلى هذا يبدأ الكتاب بما رآه الأجداد أنها الأصول والملامح الحقيقية لمصر، وعقيدتها (ماعت)، بل وسبب خلق مصر من الأساس، ووظيفتها في هذه الحياة، وشروط تحقيق هذه الوظيفة، وعهدها مع الإله، والعقاب المنتظر لأولادها حين تخلو عن هذا العهد، ثم أسباب احتلالها، ودور الهجرات الأجنبية في جلب الاحتلالات، ونتائج كل فترة احتلال واستيطان أجنبي تعرضت لها مصر، وملامح الاحتلال الاستيطاني الجديد الذي وضعه قدمه الأولى بالفعل في مصر مؤخرا، وهو مقسم إلى جزئين:

الجزء الأول: مصر وأحوالها مع الهكسوس منذ الأزل وحتى ١٩٥٢.

الجزء الثاني: مصر وأحوالها مع الهكسوس منذ ١٩٥٢ وحتى ٢٠١٩

علَّها وعسى تكون صرخة تنضم لصرخات من سبقونا، توقظنا، قبل أن تُباد مصر إلى الأبد.

وحتى لا يأتي يوم نقول ما ردده جدنا "إيبو ور" بعد فوات الآوان عاضا أصابع الندم وهو يرى مصر في نهاية الأسرة ٦ تسقط أمام عينيه، والدم يملأ كل مكان، على يد من فرضوا في مركزية وسيادة الدولة، وعلى يد الأجانب الذين استوطنوا في مصر وقت غفلتها:

"ليتني رفعت صوتي في ذلك الوقت حتى كنت أنقذ نفسي من الألم الذي أنا فيه الآن، فالويل لي، لأن

[٦]- نفس المرجع، ص ٢٤٠

البؤس عمَّ في هذا الزمان"(٧).

وقبل القراءة... لا تتفاجئ

هذا الكتاب:

لا يجامل أحدا، لا يجامل أي جنسية أجنبية، لا يجامل أي أصحاب دين، لا يبرر لأي مذهب يتخذه أصحابه وسيلة للسيطرة وسرقة أوطان غيرهم، لا يتحسب لأي لوم إلا إذا كان يختص بدقة المعلومات، لا يبرر لأي عصر أو شخص داس على رقبة الفلاح ليخفي صوت مصر الحقيقي يوما ما.

هذا الكتاب:

لا يصف أي أجنبي حكم مصر إلا بأنه "احتلال" و"اغتصاب" لمصر، أيا كانت لغته أو دينه أو عرقه، فالهكسوسي احتلال، والكوشي والآشوري احتلال، والفارسي احتلال، واليوناني والروماني احتلال، والعربي احتلال، والعبيدي (الفاطمي) والأيوبي والمملوكي والعثمانلي احتلال، والفرنسي والإنجليزي والإسرائيلي احتلال، سوا كان دين هؤلاء غير معروف أو إسلامي أو مسيحي أو يهودي، فكل من هو أجنبي وقدم لمصر ليأخذ حكمها أو مناصبها وثروتها وهويتها ويتكبر على الفلاح وداس عليه، وأصر على أن يحتفظ بأصله الأجنبي ويتفاخر به هو احتلال خبيث.

هذا الكتاب:

حين ينطق كلمة مصري في الكتاب فهي تكون في موضوعين، إما على لسان المصدر والمرجع الذي ينقل عنه، وهنا التزام بأمانة النقل ويكون معنى مصري على حسب ما يقصد المرجع، كأن يصف مثلا الجبرتي المماليك بأنهم مصريين أو مصرلية، رغم أنهم طبعا ليسوا مصريين.

والموضع الثاني هو على لسان صاحبة الكتاب، وهي لن تعني إلا الفلاح المصري الذي لا يعرف له أصلا إلا أنه ابن مصر، ذلك الباقي يحمل دم وعروق أجداده من آلاف السنين، أو ذاك الذي قدم في عصر من العصور إلى مصر في صحبة احتلال أو غيره، لكن نفض عن نفسه كل أصل أجنبي وكل غبار وافد، ولم يرضَ لنفسه أن يعيش إلا مصريا خالصا، فلاحا، لا يعتز بأي نسب أجنبي يخص بلد ما أو قبيلة أو أي عرق أجنبي، ولا يعين أي احتلال، بل ويقضي عمره لنصرة مصرية مصر، ونصرة بانيها الفلاح، ورفعه فوق رقبة محتليه، هاتفا "مصر للمصريين"... المصريين الحقيقيين.

وأما المقصود في الكتاب بالهكسوس- ومعناها الأجانب في اللغة المصرية- فهو كل ما هو أجنبي لا يناسب هوية مصر، سواء الأجناس أو النظريات والأفكار والعادات والتقاليد الأجنبية، مهما تم تزويقها وتلميعها لتخفي ببريقها الزايف وجه مصر المشرق الحلو الأصيل.. أعذب وجه على الأرض.

---

(٧)- الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء، محرم كمال، الألف كتاب الثاني، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص١١

لمن هذا الكتاب؟

إلى الفَلاحة المصرية الأولى التي وقعت عليها عيناي.. وأرضعتني الفِلاحة حتى آخر عمرها... أمي

إلى الفلاح الأول الذي أطعمني بعرقه ودمه روح أرض مصر، وسقاني ريحتها العطرة... خالي

إلى الفلاح المصري القراري في كل زمان.. وريث حور وحامي ماعت

لك أنت.... ليس إلا

وحدك من ستسمعني.. وحدك من ستفهمني.. وحدك من تستحق أن يُبذل لك كل العمر والتعب

يا أعظم المخلوقات.

يا أثبت من حمل رسالة الله في أرضه.



مصر ليست دولة تاريخية

مصر جاءت أولا ثم جاء التاريخ[٨]

[٨]- مقولة منسوبة للأديب نجيب محفوظ لم تستطع الكاتبة الوصول لمصدر يؤكد نسبتها له، ولكن أيا كان قائلها فهي حقيقة

الفصل الأول: أزمنة الحكم المصري الحر القديم

(من الأزل- ١٠٦٩ ق.م)

مصر × الهكسوس

ماعت × إزفت



المشهد ا: فوق التل الأزلي

في البدء كانت الكلمة.. وجاءت مصر

(الميلاد)

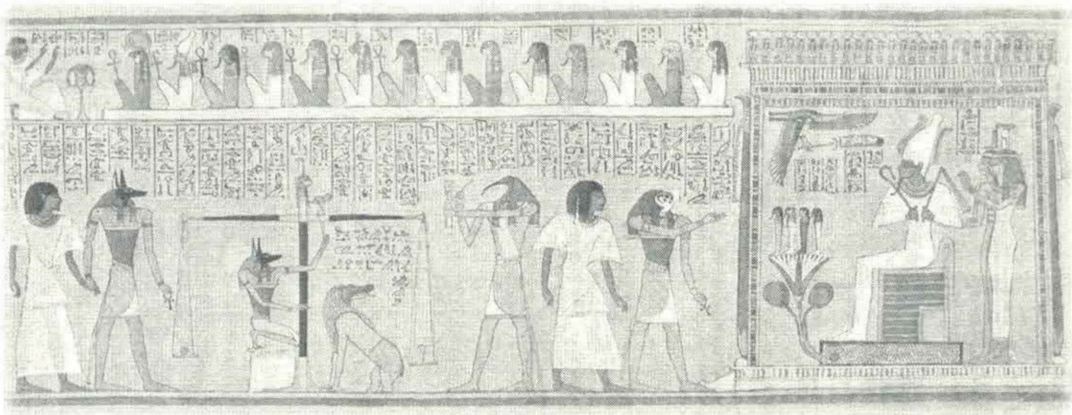
في ليلة ليست ككل الليالي، لا يعرف تاريخها إلا الإله الواحد، والكون ظلمة وعدم، بزغت من تحت مياه المحيط الأزلي "نون"، الكامنة فيه أسرار حياة كل شيء، ربوة هرمية "التل الأزلي"، وبكلمة ألقاها الإله من فوقه، أمر بخلق كل شيء، ومن روحه خلق الهواء والنور "شو"، والرطوبة والندى "تفنوت"، ومن اختلاط "شو" و"تفنوت" تخلَّقت الأرض "جب"، والسماء "نوت"، وكانا ملتصقان، فأمر الإله أن يرفع "شو" السماء عن الأرض، ويملأ ما بينهما بالنور والهواء، فتنفست الحياة، وتخلَّق عن التصاق "جب" (مذكر)، و"نوت" (مؤنث) ٤ كائنات "أوزير" (أوزيريس)، و"إيسة" (إيزيس)، و"سيت"، و"نبت حت" (نفتيس)، وما فيهم من خير وشر، أرسل لهم الإله رسوله "تحوت" بألواح الحكمة والأخلاق وصفات الحق "ماعت"، وصفات الباطل "إزفت"؛ ليهتدوا بها في مشوار الحياة الطويل لنصرة الحق المبين، وكتب "تحوت" أول سطر في هذه المعركة الباقية بقاء "التل الأزلي"، معركة الحق والباطل[1].

هذه أقدم وأشهر فكرة حوتها كتب وجدران الأجداد المصريين عن قصة الخلق، وهدف الخلق، وبداية مصر، وهدف مصر، وقصة مصر، وقضية مصر... والفلاح.

علَّم أوزير المصريين الذين خلقهم الإله من الصلصال، وقيل من دموعه، الزراعة والحكم الرشيد، تزوج أوزير الشهير بالأسمر والأخضر (لون طمي مصر وزرعها) من إيسة، وسيت من نبت حت، ودار صراع حول عرش مصر، قتل سيت أوزير، ألقاه في النيل، اختبئت إيسة في أحراش الوجه البحري لتربي ابنها حور بعيدا عن جواسيس سيت، احتضنها الفقراء، عملت في ورشة نسيج لتربيه، علمته بإرشاد من تحوت الحكمة وأصول الحق "ماعت"، ومسئوليته في استعادة عرش أبيه، وأصول القتال والمبارزة، عاد لعمه يسترد عرش أبيه، أحاط به الأهالي يقوون قلبه، وبعد مبارزة مريرة لجأ للمحكمة، فحكمت محكمة

(١)- للمزيد عن مذاهب الخلق في العقيدة المصرية انظر: فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، د. عبد العزيز صالح، مجلة "المجلة" (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر)، س ٣، ع ٢٦، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٣٣- ٤٦، وتستخدم الباحثة الأسماء الأصلية للمقدسات والشخصيات المصرية كما تعلمنا في كلية الآثار لأن الاحتلال اليوناني شوهها بتسميتها حسب نطقه، مثل تحويله أوزير إلى أوزيريس.

قضاة مصر وحكمائها يرأسهم "رع"، بأن عرش مصر حق لـ حور، فحكم مصر بـ"ماعت"[٢]، ترك وصاياه لأبناءها، وعرشها وحكمتها وعهدها والصولجان أمانة يحفظونها من الغزاة والمعتدين، وغدر السنين.



على يمين الصورة إيسة ونبت حت يقفان وراء أوزير بلونه الأخضر الزرعي وأمامه حور برأس صقر يقدم له أحد الخاضعين للحساب في محكمة الآخرة وخلفه تحوت برأس أبو منجل يسجل أعمال الناس (بردية في المتحف البريطاني)

غفل الأبناء، شُرِخ العرش، وسقط الصولجان في يد أشرار أرادوا فصل الوجه البحري، أو غزاة من الصحاري الموحشة، تركت لنا الآثار بقايا مقمعة (سلاح قديم)، مقمعة الملك العقرب تحكي نقوشها أنه قهرهم ليعيد الطمأنينة لمصر، والسلامة للعرش، وأمسك الملك العقرب بالفأس، أمامه الفلاحون يقدمون له الحبوب ليزرعها.. هكذا أقدم الصور والنقوش لأصحاب عرش مصر، قدمته فلاحا مقاتلا، زارعا مناضلا، الملك الفلاح، والفلاح الملك، الأمين على عمار أرضها، وطهارة عرشها من الأجانب والأشرار، والحافظ للعهد، عهد نصرة "ماعت".



العقرب يقف شامخا ممسكا بالفأس ليفتتح مشروع زراعي وأمامه فلاح ثاني يقدم له سلة الحبوب (محفوظة في متحف الأشمولين البريطاني)

(٢)- انظر: الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول مصر والعراق)، د. عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو، ط٢ منقحة، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٣٢٦- ٣٣٣

عاد شعب الفلاحين ليغفل عن رسالته، فسقط، من التل الأزلي، بزغ الملك الفلاح مينا، قاد شعب الفلاحين لطرد الغزاة والأشرار، وعمَّر بالزرع الديار، وتلألأت العروسة، عاد شعب الفلاحين ليغفل عن رسالته، فسقط، اختطف أهل الصحاري العروسة، حتى بزغ من التل الأزلي الملك الفلاح من جديد، فينتصر، ويتكرر السقوط، والصعود، والسقوط، والصعود، حتى جاء السقوط الأكبر، الأعنف والأقبح، الذي ما زال مستمرا...

هل يعود الملك الفلاح وشعب الفلاحين وحدانية مصر اليوم؟ كيف والفلاحون المتعلمون يتكبرون على كلمة الفلاحين، كيف وهم باتوا يقتلون مصر وروحها "ماعت"، ويجلبون الهكسوس بأيديهم، ويتبنون روحهم "إزفت".. ويسلمون التل الأزلي- بأيديهم- لكل الأجناس، يسلمونه للمسيخ الدجال!



كاريكاتير أوروبي يصور روتشيلد (راعي الاحتلالات وتوطين الأجانب وتقسيم البلاد والوكيل العصري للمسيخ الدجال) يقدم مشروبا مغريا لتماسيح النيل، كناية عن تقديمه قروضه المشئومة لمصر في القرن ١٩ ليستكمل احتلالها ويبيد شخصية الفلاحين بتوطين الجاليات الأجنبية وثقافاتها بشكل منظم حتى اليوم (مصدر الصورة موقع عائلة روتشيلد (٣) **www.rothschildarchive.org**)

---

(٣)- Exhibition – Rothschilds in Caricature, 8: Feeding time

https://www.rothschildarchive.org/exhibitions/rothschild_in_caricature/feeding_time

المشهد ٢: فجر مصر قبل مينا

(التكوين)

تعود معظم المصريين أن يؤرخوا لأنفسهم بداية من حكم أحد أبرز الأجداد المؤسسين للدولة المصرية، وهو نعرمر (مينا)، ولكن آثارنا تنطق بأنه لم يكن المؤسس الأول، فالتأسيس يعود لزمن طويل قبل هذا الرجل العظيم، وما كان عصره إلا إعادة الأمر لنصابه، وهو ما بات يعرفه العالم باسم "الدولة" و"الحكومة المركزية".. أعظم الاختراعات التي قدمتها مصر للعالم.

وبحسب دراسات جرت على حجر "بالرمو" الذي سجل عليه الأجداد تأريخا لحكام مصر حتى الأسرة ٥، فإن مصر شهدت وحدة تامة قبل مينا، وربما كانت عاصمتها مدينة أون (عين شمس)، واتفقت على معبود رئيسي لها هو حور (حورس)[٤]، ولكن تعرضت لفوضى وغزو احتل أجزاء من الوجه البحري، فجاء مينا ليعيد الأمر إلى أصله.

وعلى هذا يقسم علماء الآثار مراحل تاريخ مصر القديم إلى ما يلي:

١- عصور ما قبل التأريخ (العصور الحجرية)، وترجع لعشرات آلاف من السنين.

٢- فجر التأريخ المصري، ويسمى عصور ما قبل الأسرات، وشهد مراحل متقدمة للتكوين والنضج وتحويل مصر لمجتمع متماسك مستقر متعاون.

٣- بداية العصور التاريخية (أي بداية التأريخ بالكتابة)، وتشمل الأسرتين الأولى والثانية (من ٣١٥٠ ق.م – ٢٧٠٠ ق.م)

٤- عصور الدولة القديمة (الأسرة ٣- ٦ من ٢٧٠٠- ٢٢٠٠ ق.م)

---

[٤]- انظر: مصر الفرعونية، أحمد فخري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، "مكتبة الأسرة" القاهرة، ٢٠١٢، ص ٤١، و"فجر الضمير" جيمس هنري بريستيد، ترجمة سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١١، ص ٣٧

٥- عصر اللامركزية الأولى (الزفتة الأولى[٥]) الأسرات ٧-١٠ من ٢٢٠٠-١٩٩١ ق.م .

٦- عصور الدولة الوسطى الأسرتان ١١-١٢ من ١٩٩١-١٦٣٣ ق.م.

٧- عصر اللامركزية الثانية (الزفتة الثانية) الأسرات ١٣ و١٤ و١٧، فيما كانت الأسرتان ١٥ و١٦ هكسوسية، من ١٦٣٣- ١٥٥٢ ق.م.

٨- عصور الدولة الحديثة الأسرات ١٨-٢٠ من ١٥٥٢- ١٠٩٦ أو ٩٤٥ ق.م.

٩- عصر اللامركزية الثالثة وليل الاحتلالات الطويل (الزفتة الثالثة) من الأسرة ٢١- ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من ١٠٦٩ ق.م- ١٩٥٢ بعد الميلاد[٦].

▲▲▲العصور الحجرية ما قبل التأريخ (طفولة مصر)

وتسمى بالعصور الحجرية لأن نشاط المصري فيها- وكل البشر المعاصرين له- اعتمد على الحجر في صناعة آواني الطعام والسلاح والصيد، وشهدت في نهايتها العصر النحاسي نسبة لاكتشاف النحاس، وشهد معظم العالم حينها "نمطا واحدا" في العيشة، حتى تعلم الإنسان في آواخرها الزراعة؛ فنقلت البشر من حياة "جمع الطعام" إلى حياة "إنتاج الطعام"[٧] وبدأ بها تميز بيئة حضارية عن بيئة أخرى، وظهر إبداع وحكمة الله في اختلاف الشعوب والحضارات، وألا يكون العالم نمطا واحدا.

ففي آخر مرحلة من مراحل هذه العصور وهي (العصر الحجري الحديث) بدأ فجر الحضارة المصرية أو مرحلة التكوين، ليس التكوين البشري فهو موجود في كل الدنيا منذ نزول آدم للأرض، ولكن التكوين الحضاري المميز لمصر، بمعنى بروز ملامح الحضارة المصرية بالشكل الذي نمت وظهرت واستمرت عليه بالشكل المعروف لها، وتميزت به بين حضارات العالم أجمع.

▲▲▲ عصور ما قبل الأسرات (صبا مصر)

ويمتد لآلاف السنين، غير متفق على عددها، ما بين ألفين - ١٢ ألف سنة أو أكثر في العصور قبل حكم "مينا"، وفيها الجذور الواضحة التي قامت عليها حضارة مصر في العصور اللاحقة، فيما يخص أساليب الزراعة، العقيدة والأخلاق وموقع مصر من معركة الخير والشر (ماعت)، الحكم المركزي، روح التعاون

---

(٥)- لفظ الزفتة مأخوذ من الكلمة المصرية القديمة "إزفت"، وتعني الشر والفوضى: Alan Gardiner, Egyptian grammar, 3 edition, Griffith institute Ashmolean museum, Oxford, page 555
وهي عدو المصريين الأول لأنها عكس النظام والخير "ماعت"، وكلمة زفت التي ننطقها كمصريين حاليا موروثة منها.

(٦)- أرقام الفترات من ١- ٨ مأخوذة من "تاريخ مصر القديمة"، نيكولا جريمال، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر لدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٤٩٧- ٥١١، أما رقم ٩ فاجتهاد شخصي، فالعلماء يصفون الفترات حتى الاحتلال اليوناني بأنها أيضا أنها عصور "حكم مصري"، وهذا يحتاج إعادة نظر، فهي فترات حكم مصر فيها حكام أجانب غزاة مباشرة من الخارج كالكوشي والآشوري والفارسي أو أجانب احتلوا مصر من الداخل وقت ضعف الدولة المصرية كالاحتلال الهجين من تحالف قبائل شعوب البحر وقبائل قادمة من وراء الحدود الغربية.

(٧)- مختار السويفي في مقدمة ترجمته لكتاب "الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة"، سيريل ألدريد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢، ص ٢٤.

والتآخري، البناء بالطوب اللبن ومعمار المنازل والمعابد، تصميم الملابس، الملاحة وبناء السفن، وصنعة النسيج، ونحت التماثيل، والرسم، وعلاقة مصر التجارية بجيرانها، ومعاركها مع الغزاة، تكوين الرموز المصرية الخالدة مثل حور (حورس) ومين، ونخبت إلخ، وألعاب شهيرة مثل الضامة والسيجة والنحلة، أما التطور الأكبر فهو ظهور الكتابة.

ويطلق العلماء على عصور ذلك الزمان أسامي: حضارة جرزة، حضارة عمرة، بأسوان وقنا، حضارة البداري بأسيوط، حضارة مرمدة بني سلامة جنوب غرب الدلتا، حضارة نقادة بقنا، حضارة الفيوم، حضارة المعادي وحلوان، حضارة نبتا بالايا جنوب غرب أسوان، إلخ، وهي تقع في نهاية العصر الحجري الحديث[٨]، وهي ليست حضارات منفصلة، ولكن أطلقوها على تجمعات وقرى وجدوا بقاياها متناثرة في أنحاء مصر، في الوجهين القبلي والبحري، فميزوا كل تجمع باسم لسهولة التعرف عليه وعلى خصائصه، والزمن الذي ينتمي إليه.

ويدل امتداد تلك التجمعات على طول الوادي على أن مصر كلها كانت زاخرة بهذا النمط من الحياة المستقرة، وللقرى على طول النيل خصائص مشتركة دلت على "وحدة الجنس والبيئة، ووحدة المطالب المحدودة والكماليات المحدودة أيضا"، بحسب تعبير الراحل الدكتور عبد العزيز صالح.

فمنذ الوهلة الأولى تترك الحضارة المصرية انطباعا بأنها كل متجانس، اكتسبت بفضل امتدادها الزمني غير المألوف مكانة خاصة في تاريخ البشرية[٩].

وفي ذلك الزمان البعيد حددت مصر أيضا من هم أعدائها، ومصادر الخطر القادم لها من الخارج، وهذا بناء على المعارك المرسومة على الآثار المتروكة من ذلك الزمن، ويمكن اختصار كلمة "أعداء مصر"، ليس في جنس دون جنس، بل في عبارة موجزة: "كل من طمع واعتدى".

ويقع معظمنا في خطأ تاريخي أننا نتصور أن الغزوات الخارجية لم تذق مصر مرارة علقمها وحنظلها إلا في الفترة ما بين الدولتين الوسطى والحديثة، أي وقت الاحتلال الهكسوسي الأشهر، ولكن نظرة لآثارنا تثبت أن مصر لم يمر عليها أي وقت دون أن تكون هدفا ومطمعا للشعوب والقبايل المحيطة بها، من كل الأجناس، كأنها متحزمة بحلقة نار، حتى في أبعد العصور عمقا في جوف التاريخ.

وكثير من تلك المعارك القديمة لم يأتِ من الشرق فقط- كما يتوهم أيضا الكثير منَّا- ولكن التهديدات ومحاولات الغزو كانت مستمرة من الحدود الغربية والجنوبية كذلك، حتى أطلَّ الخطر برأسه الأسود من الحدود الشمالية (البحرية) أيضا في الأسرة ٢٠.

ونختار منها هنا مثالين لنعرف تاريخ ومصدر التهديدات التي تحيط بمصر حتى الآن:

---

(٨)- مزيد من التفاصيل عن عصور زمن التكوين، انظر "الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول مصر والعراق)"، ص ٣٨- ٦٧، ومصر الفرعونية، أحمد فخري، ص ٢٧-٤٥

(٩)- تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، مصدر سابق،، ص ٢٤

① معركة سكين جبل العركي

معركة مسجلة على سكينة عثر عليها علماء الآثار في منطقة جبل العركي في نجع حمادي بمحافظة قنا، فتسمت على اسمه، وحاليا موجودة بمتحف اللوفر، وترجع لفترة حضارة جرزة.

صور الفنان على أحد وجهي مقبضها معركة جرت على البر، كما جرت في مراكب على الماء بين فريقين اتخذ أحدهما هيئة المصريين واتخذ ثانيهما هيئة الليبيين وكانت الغلبة للمصريين[١٠].

وفي رأي عبد العزيز صالح فالمعركة جرت عند السواحل المصرية الشمالية الغربية القريبة من الحدود الليبية، وإن صح ذلك فإنها ستكون أقدم معركة بحرية في تاريخ مصر، وأقدم من معركة الدلتا البحرية التي ستقع بعد ذلك بأكثر من ٢٠٠٠ سنة بين رمسيس الثالث وقبائل شعوب البحر في الأسرة ٢٠، وانتهت كذلك بانتصار مصر.



النقوش على سكين العركي تظهر مصريين بشعور قصيرة وأعدائهم بشعور طويلة ويتضح فيها أن المعركة برية ونهرية أو بحرية مما يدلل على شدتها وضخامتها (متحف اللوفر)

② معركة صلاية العقبان

صلاية "العقبان" الموجود جزء منها في المتحف البريطاني والجزء الثاني في متحف أشموليان تصور محاربين يبدو من ملامحهم أنهم ليبيون، فهم ملتحون وشعرهم طويل، ويسير أسيران أوثقت أذرعهم خلف ظهريهما[١١].

ومعنى كلمة ليبيين هنا قبائل قادمة من ناحية ما عُرف لاحقا باسم ليبيا، وليس بالضرورة شعب مقيم

---

(١٠)- انظر نفس المرجع ص ٦٣

(١١)- تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، مرجع سابق، ص ٤٨

فيها، فتلك المنطقة كانت ممرا للقبائل الغازية لمصر والقادمة من بلاد شتى.

وفي الصلاية أسد بجوار ثور، وهما من رموز الحكم المصري، ويعاون الحاكم في مهمته أنثى العقاب "نخبة" وهي التي ستظهر في العصور المصرية اللاحقة تفرد جناحيها فوق رأس حاكم مصر خلال معاركه تعبيرا عن حمايته، وهي رمز الوجه القبلي[١٢]؛ ما يعني أن أهالي الوجه القبلي كان لهم دور في طرد الغزاة من الوجه البحري وقتها، وهذا يؤشر لوحدانية الدولة المصرية منذ ما قبل مينا.

3 مقمعة العقرب

وجدها العلماء في معبد نخن بأسوان، تجسد أقدم النقوش للملك الفلاح وهو يزرع الأرض، ممسكا بالفأس يشق الأرض في افتتاح مشروع للزراعة، وأمامه رجل دين ومزارعين يقدمون له السنابل والبذور، وفي جانب آخر من المقمعة يرفع الناس رايات، معلق في بعضها أقواس الحرب ونبات البردي، فسرها العلماء بأنها تعبر عن انتصار العقرب على أهل الأقواس الذين احتلوا الوجه البحري، لأن الأقواس ترمز في الفكر المصري لقبايل الغزاة، والبردي يدل على الوجه البحري[١٣].

ونظر الأجداد إلى حكامهم في فترة ما قبل الأسرات نظرة امتنان وتقديس، وصفوهم بـ"أتباع حور"، وأيضا "المبجلون" كما جاء في بردية "تورين"، و"أنصاف آلهة" كما جاء في تاريخ مانيتون[١٤]؛ ظنا منهم أنهم لم يكونوا بشرا تقليديين مثل الحكام التاليين في عصور الأسرات.

▲▲▲ جذور هوية مصر (النخاع)

قبل الغوص في تاريخ مصر، ورؤية ملامح الشخصية المصرية، يصح إلقاء نظرة على الفرق بين هوية مصر وهويات البلاد المجاورة لها في ذلك الزمان؛ ما يسهل إعادة استكشاف هوية مصر في العصر الحاضر، بعد أن حاصر مصر خلال الاحتلالات الهكسوسية من كل جنس شبكة من الهويات الوافدة، تتصارع على اختطافها كما تتصارع الوحوش على فريستها الثمينة الغافلة.

والهوية لأي بلد هي تفاصيل كثيرة تتراص جنب بعضها لتظهر الصورة الكاملة لهذه البلد، تفاصيل تخص أخلاق شعبها، نظرة هذا الشعب لعلاقته ببعضه، ولعلاقته بأرضه، المناخ، التكوين الجغرافي، الأكل واللبس والحلي وما يتعلق بهما من معاني، الشكل الجسماني، الأنشطة الاقتصادية الماهر فيها، اللغة، علاقته بالله والدين وأسلوبه في ممارسته، هدفه من الحياة، موقفه من الحرب والسلام ومن بقية الشعوب، موقفه في الأزمات، محاصيله، ألعابه، وانعكاس كل هذا على عمارته وسلوكياته وفنونه وعلومه وحروبه وأعياده ومزاجه، حتى ألوانه المفضلة، وكل شيء.

---

(١٢)- نفس المرجع

(١٣)- حضارة مصر القديمة وآثارها- الجزء الأول، عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٢٦٥- ٢٦٧

(١٤)- "مصر الفرعونية"، مرجع سابق، ص ٥٢

لذا لا يُفهم "هوية" أمة بمجرد جانب واحد من حياتها، لكن كل هذه الأمور سوا العميقة أو ما يبدو منها سطحيا؛ لأن كلها إفراز بعض، وانعكاس على بعض، وعند اكتمال الصورة يصح هنا الإشارة إليها ليقال "هذه مصر"، ونفس الأمر لاكتمال صورة أي أمة أخرى فتصبح هي هويتها.

ونستعين في ذلك بتحليل للدكتور عبد العزيز صالح أورده في كتابيه اللذين باتا مرجعا رائدا لدارسي المصريات: "حضارة الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق"، و"حضارة مصر القديمة وآثارها" عن الفروق بين هوية مصر وكل من العراق والشام والجزيرة العربية.

وبداية قال: "رسمت لمصر طريقها الحضاري القديم عوامل عدة، كان منها موقعها المتميز، وضخامة نصيبها من نهر النيل، وخصوبة أرضها، ووفرة أعداد سكانها، مع جَلدهم، ووحدة لغتهم، وندرة الفوارق الجنسية بينهم، وسهولة الاتصال بين جماعاتهم سهولة نسبية، وقدم إدراكهم لوحدة وطنهم، واستقرار نظم الحكم بينهم، ثم توفر عدد كبير من المواد الأولية في أرضهم، مع حصانة حدودهم حصانة طبيعية نسبية على الرغم من شدة اتساعها وامتدادها"[١٥].

"ولسنا نعني بتعداد كل هذه العوامل أنها حققت "المثالية" في تاريخ مصر وحضارتها، ولكننا نعني أنها كانت من المقومات الأولية لتكييف التربة التي نشأ فيها تاريخ مصر، وأنها كانت من العوامل المساعدة على إظهار الجوانب الطيبة فيه، بغير أن ننفي قيام عوامل أخرى مضادة لها من داخل مصر ومن خارجها"[١٦].

❶ (عيلة واحدة)

وفي حديث صالح عن تأثير النيل وجريانه في خط واحد من أول حدود مصر إلى نهايتها طولا قال إن خاصية الامتداد الرأسي الطويل لنهر النيل من الجنوب إلى الشمال أدت إلى توزيع مواطن العمران على جانبيه الطويلين توزيعها رأسيا أكثر منه أفقيا، وهي ظاهرة أدت إلى تكاثف السكان، وسهولة الاتصال بينهم؛ ما أوحى لمفكريهم بعمل أول وحدة سياسية كبيرة مستقرة معروفة في تاريخ البشرية كلها[١٧].

ولكن هذا لم يكن كافيا، فالنيل يجري بنفس الطريقة في بلدان عدة ولم يخلق شعبا واحدا مثل المصريين ولا دولة مبكرة، فهناك عوامل أخرى مزجت المصريين ببعضهم وبأرضهم.

يقول عنها صالح إن محنة المصاعب التي خلقها جموح فيضان النيل ومشقة الزراعة حوَّلها المصريون إلى منحة لخلق الدولة المتعاونة: "والواقع أن أمور النيل والزراعة لم تكن هينة دائما في أوئل عصور التحضر المصري القديم، وإنما تخللتها مصاعب وظواهر ظلت تتطلب من أهلها كثيرا من الصبر والجهد المتصل، وإن يكن جهدا منتجا في حد ذاته؛ ففيضانات النهر كانت، على الرغم من جودها وانتظام

---

[١٥]- الشرق الأدنى القديم القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٣١
[١٦]- مرجع سابق
[١٧]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٣

مواسمها، تستدعي من أهلها اليقظة الجماعية لمواجهتها، وتستدعي منهم التعاون لتقليل خطرها[18].

وتسبب تراص القرى بجوار بعضها إلى كثرة التزاوج بين أبنائها، فلم يظهر ما يدل على الطبقية المانعة أو العصبيات[19]، وأدت فترات الشعور بالخطر من محاولات القبايل في البلاد المجاورة لغزو مصر إلى التوحد أكثر؛ لأن طمع بدو الصحراويين الشرقية والغربية في خصوبة أراضها كان دافعا لأهلها على التعاون لدرء شرهم، وحافزا لهم على التجمع في وحدات سياسية مبكرة متكاتفة[20].

ويتفق معه سيريل ألدريد بقوله إن هذا العمل البارع الذي قام به الفلاحون الأوائل بتحويل القوة التدميرية لمياه الفيضان إلى قوة إنتاجية جعلهم يعتادون على نمط أو نظام معين للحياة، ونشأت بالضرورة منشآت أو سلطات سياسية لتدير هذه المشروعات الواسعة النطاق لمنفعة الجميع، وتشرف على استمرارها بالنجاح والنمو المطلوب للجماعة كلها[21].

كما كان للمناخ تأثيره على نسج هوية مصر مقارنة بغيرها؛ لأن البيئة المناخية في مصر، كانت ولا تزال، ذات تأثير على وجدان أهلها؛ فهي إذا قورنت ببيئات أخرى تعتبر بيئة مأمونة العواقب، هينة الحدة، قليلة التقلب، ليس فيها صراع الظواهر الطبيعية أو مظاهر الرهبة والصخب العنيف الذي يوجه الناس إلى اعتياد الصخب والعنف، أو يطبعهم بطابع التمرد والقلق وتقلب الأهواء والمشاعر والعادات[22].

ولهذا لم يكن من الغريب أن يترتب على ما ألفه المصريون من غلبه الخير على الشر في أحوال نيلهم وواديهم وصحراواتهم ومناخهم بعض الأثر في صبغ حضارتهم بصبغة الاستقرار والاتصال، وصبغ حياتهم السياسية بطابع الهدوء والاستمرار، ثم الإيحاء إليهم بنوع من الشعور التلقائي بالكفاية، كفاية الجهد المنتج في الأرض، وكفاية الموارد النسبية بها، فضلا عن كفاية الحضارة في بلدهم بوجه عام دون حاجة إلى مدد خارجي كبير[23].

حتى الأرباب لم يكونوا متنافرين، واتجه المصريون لافتراض روابط الزيجة والأبوة والبنوة بين أربابهم، وترتب على ذلك أن الإله الأكبر للدولة لم يكن رئيسا لآلهة متنافرين، وإنما متقاربين، لأغلبهم صلة بمن سواه، ولأغلبهم نصيب من صفات الآخرين، ولكل منهم نصيب من رعاية الدولة وملوكها[24].

وأكمل الله تعالى على مصر هذه النعمة لاحقا بأن المسيحية والإسلام ليسا متنافرين الأصل، وليسا متنافرين مع الدين المصري القديم في معظم الأمور، فكلهم متفقون على وجود إله خالق علوي، له كل صفات الرحمة والقوة والقدسية والعلم والكمال والطهارة، وعلى أن التقوى خير زاد، والآخرة هي الحياة

---

[18]- نفس المرجع

[19]-انظر نفس المرجع، ص ٥٧

[20]- نفس المرجع، ص ٥٦

[21]- انظر "الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة"، سيريل ألدريد، مرجع سابق، ص ٤٦

[22]- حضارة مصر القديمة وآثارها، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ٤

[23]- نفس المرجع

[24]-انظر: القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، نجلاء فتحي شهاب، رسالة دكتوراة، كلية الآثار جامعة القاهرة ٢٠١٢، ص ٤٣-٤٤

الخالدة، وعلى أن قيمة الإنسان أن يكون بجانب الخير ضد الشر.

2 (أمة في ذاتها)

وفي رسالة للدكتوراة فريدة بجامعة القاهرة، عن القومية والشعور الوطني في التاريخ المصري القديم، بعنوان "القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، خلصت د. نجلاء فتحي إلى أن مما جعل من مصر أول أمة في التاريخ، وأمة قائمة بذاتها ما يلي:

التجانس البيئي والجنسي، اللغة، الدين الذي يحث المصري على حب وحماية مصر، ويعطي للحاكم الشرعية في العرش بقدر عمله على حماية مصر، والاتصال الجغرافي على طول الوادي[٢٥].

بل إنه على أساس إحساسهم بالتضامن والالتحام ببعضهم، حرص الأجداد في التخطيط العمراني لمدنهم على أن تكون متصلة ببعضها، غير مبعثرة ولا متناثرة، حتى تلك التي تقام بعيدا عن وادي النيل، للحفاظ على إحساس الحاجة لبعض، والوصل الروحي والوجداني والتواصل الذي انطبع في نفوس المصريين إزاء وطنهم وبعضهم، وداوموا على الوصل بسيناء والواحات عبر الأنشطة الاقتصادية والحملات الحربية لإبعاد القبايل الغازية عنها.

ونضيف لهذه العوامل في تكوين "وحدانية المصريين"، هو "الاتصال الروحي" التاريخي على مدار الأجيال في وجدان وجينات المصريين، سوا بين أبناء الجيل الواحد أو بين الجيل وما سبقه من أجيال، فلم يشهد تاريخ المصريين فترة فراغ في مصر من المصريين الأصليين، فلم يُهاجروا هجرات عظمى، ولم يُخلوا بلدهم يوما، بل امتدد تيار الدم المصري في العروق يوصل جيل بجيل، رغم الهجرات الوافدة والمذابح التي تعرضوا لها كما سنرى.

ويقول عبد العزيز صالح إن المصريين نسبوا أنفسهم إلى بلدهم فقط (لا لقبائل ولا طوائف ولا مذاهب ولا أعراق مختلفة)، فقالوا إنهم "كيمتيو" أي أهل كيمة، وردد أدباؤهم أن شعبهم هو شعب الشمس، والشعب النبيل، وشعب السماء، وشعب الإله، وادعوا أنهم صور من ربهم الأكبر تشكلوا من لحمه، وخلقوا من عينيه، ونزلوا من دموعه[٢٦].

وأنه اعتبر المصريون أنفسهم "أمة قائمة بذاتها"، ولم يعترفوا صراحة بفترات الاختلاط الجنسي القديم إلا في مرات قليلة، وهو اختلاط لم يبرأ من مثله شعب قديم على الإطلاق، واعتادوا على أن يطلقوا على أنفسهم اسم "رمث"، بمعنى الناس، و"رمثن كيمة" بمعنى أهل مصر، و"رمثن باتا" بمعنى ناس الأرض[٢٧].

---

(٢٥)- انظر نفس المرجع، ص ١٧

(٢٦)- حضارة مصر القديمة وآثارها، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ١٨

(٢٧)- نفس المرجع

وعلى هذا صار المصريون من أقدم- إن لم يكونوا أقدم- الشعوب شعورا بأنهم عائلة واحدة، فاستخدموا كلمة "أخي" في مخاطبة بعضهم، وفي نص "نجاة البحار"، والمعروف أيضا باسم "البحار الغريق" جاء: "عندما تبلغ (أرض) الوطن، وتكون هناك بين إخوتك"[٢٨]، ويخاطب سنفرو العلماء والحكماء حوله بكلمتي يا "أخي"، ويا "صديقي"، أو "صاحبي" رغم مقامه المبجل كحاكم غير عادي[٢٩]، ويخاطب الزوج والزوجة بعضهما بكلمتي أخويا وأختي- كما هو الحال حتى اليوم- حتى ظن علماء أجانب خطأ أن زواج الإخوة شائع بين كل المصريين.

وعن إحساس تواصل الأجيال كأنها خط واحد أو نهر واحد، نرى مثلا رمسيس الثاني يتحدث عن الحكام الذين سبقوه بقوله "آبائي" و"أجدادي"، حتى ممن هم ليسوا من أسرته الحاكمة، بل يقصد حكام مصر عموما، فكل جيل ينظر على أنه موجة مولدة من الموجات المديدة السابقة في نهر الأجيال الماضية، وجذورها ممدودة بلا نهاية في عمق الأرض.

عامل آخر- من أهم وأبقى العوامل- وهو وحدة القيم بين المصريين، وهي ليست أي قيم، بل تكاد تكون في بعضها خاصة بمصر، أو هي أول من أخرجها للعالم، وأشد من حافظ عليها، فهي التي جعلت الدين والوطن عند المصريين عملة واحدة، ورسمت حدود أعذب علاقة بين المصري وربه ووطنه وحكومته ونفسه وكافة المخلوقات والكون والشعوب الأخرى، ولخصها الأجداد في اسم "ماعت"، هي الحبل السُري الذي ربط وجمَّع أرواح المصريين ووحدانيتهم الوطنية "جيل ورا جيل" مثلما ربط النيل وجمَّع وحدانيتهم البشرية على ضفتيه العطرتين، هي القيم والأصول التي أوصت بها السماء المصريين من قديم الأزل، حين تربع الإله فوق التل الأزلي، وعلى أساسها صنعوا حضارتهم ودولتهم الواحدة، قبل أي عوامل خاصة بالجغرافيا واللغة، وسنعرض لهذه القيم الخالدة في مكان خاص بها في صفحات تالية، ويمكن تلخيصها مؤقتا هنا في عبارة واحدة "مصر في الأرض والله في السماء" والمعنى: عمار مصر بالخير في الأرض هو الطريق إلى رضا الإله.

3 (تاسوع وحدانية الهوية المصرية)

فإذن عوامل تكوين وخلود الأمة المصرية كـ"أمة في ذاتها"، و"الأمة الواحدة"، تشع في هذا التاسوع:

١- وحدة قيم "ماعت"

٢- التواصل الروحي "الأخوة"

٣- التواصل التاريخي

٤- الاتصال الجغرافي

---

(٢٨)- انظر: القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، مرجع سابق، ص ٩٩

(٢٩)- راجع قصة سنفرو والحكماء في: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ٣٣٦

٥- التجانس البيئي

٦- التجانس الجنسي

٧- وحدانية الانتماء لمصر (لا لقبيلة أو طائفة أو عرق دخيل ولا لأي بلد آخر، ولا لمذهب عالمي[٣٠])

٨- وحدة اللغة

٩- الدين (وإن كان الدين لا يختلف عن ماعت، بل هي عماده)

وأي عامل دخيل يغزو مصر أو يتسلل إليها لنزع فقرة من فقرات هذا العمود الفقري لمصر يلزم التعامل معه كعدو يسعى لخلخلة مصر تمهيدا لاغتيالها وتفريغها وتحويلها إلى مكسورة الظهر، سهلة لكل الأجناس والتنظيمات والتقسيمات كما حدث فعلا في أوقات غفلة المصريين أمام الهكسوس من كل جنس.

④ (مصر.. المقدسة المعشوقة)

وعلى أساس الإحساس الجماعي بهذا التجانس، والتناغم، والتآلف بينهم من ناحية، وبينهم وبين بيئتهم الوسطية العذبة من ناحية أخرى، تخلقت في دمائهم حرارة المحبة والإخوة والانتماء لأرضهم.

وبتعبير صالح، ردد الأجداد اسم كيمة في نصوصهم بروح التكريم، ومنهم من افتحر في نصوصه بأنه "من ثمرة كيمة"، ومن أدباؤهم من افتخر في مقدمة كتبه بأنها "ثمرة كاتب من كيمة"[٣١].

وآمن حكامنا بأن شرعية توليهم حكم مصر، بل شرعية حياتهم نفسها، هي في الحفاظ على علو شأن مصر، فها هو تحوتمس الأول في نقش على لوحة العرابة المدفونة "أبيدوس" بمحافظة سوهاج أعدها لتسجيل حروبه وانتصاراته في السودان وآسيا على القبايل التي تهدد مصر بالغزو يقول: "عملت على أن تصبح كيمة فوق رأس كل أرض بأهلها"[٣٢].

ولأن المحن أشد ما تظهر حقيقة علاقة الشعب ببعضه وببلده، فمن قبله قال جده أحمس يصف تلاحم المصريين مع جيشهم في حرب التحرير لطرد الهكسوس خلال المعارك النهرية، وكيف كان الناس على الضفتين الشرقية والغربية للنيل يتطوعون بكل شيء: "لقد هبطت النيل بقوتي لطرد الآسيويين بأمر آمون ذي الرأي السديد، كان الشرق والغرب يحضرون الدهن والنبيذ، والجيش يزود بالإمدادات من كل

(٣٠)- المذاهب العالمية التي تربي أصحابها على والولاء لبلاد أجنبية ولمشروعات إمبراطورية تجعل الولاء لهذا المذهب والبلد الراعية له- ولو أجنبية- فوق الولاء للوطن، وتحارب الحدود الجغرافية بين البلاد وتحارب الحكومات الوطنية، مثل: المانوية، الشيعة، الشيوعية، الليبرالية الرأسمالية، الماسونية، الصهيونية، الإخوان المسلمين، مذهب المواطن العالمي "العولمة"، القومية العربية، طرق الصوفية الدولية، وغيرها كثير مما تبدعه في كل جيل قريحة الشيطان والتنظيمات الساعية لحكم العالم وتكوين ما يسمى بـ"الحكومة العالمية".

-[٣١] حضارة مصر القديمة وآثارها- الجزء الأول، عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٧

[٣٢]- القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، رسالة دكتوراة، مرجع سابق، ص٧٩

مكان"[٣٣].

ومن بعده جاء في نقوش أبو سمبل لوصف رمسيس الثاني: "عظيم المعجزات الذي يضع مصر في فرح"[٣٤].

وعلى هذا فهم وضعوا ما وصفته الدكتورة نجلاء فتحي، بأنه "أقدم نشيد وطني"، وتركه الأجداد منقوشا على جدران الأهرام، أي نصوص الأهرام، يهتفون فيه:

تحية لكِ يا عين حور

يا من زينك كاملا بيديه

إنه هو الذي زينك

إنه هو الذي شيدك

إنه هو الذي أسسك

و"عين حور" هو اسم من أسماء مصر، أي عين الإله المقدسة، تكريما لمكانتها، ويبدأ النشيد بالسلام على حور (حورس) الذي زين مصر بكلتا يديه[٣٥].

ويتضح فيه أن الأجداد لم يعشقوا مصر لمجرد خيراتها المادية، ولكن لأنها صنعة الإله ونعمته، تحمل رسالة الإله للأرض، وفي أعماقهم يؤمنون بأنها صُنع يد مقدسة، وأن محبتها من محبة الإله، ومحبتها هي قربان للإله، فلم يعرفوا ما يُشاع الآن عن أن الدين والوطن مختلفان ومتخاصمان، بل يوقنون بأنهما متكاملان كوجهي العملة، يعكس كلا منهما الآخر، ويحميه، ويحوله لما ينفع الناس.

ولذا لم يعتد المصريون في الأزمنة القديمة إلى هجر مصر أو التآمر عليها في الحروب والأزمات لمجرد أنها في خطر أو جفّ ضرعها- إلا قلة نادرة - بل معظمهم يرون أن حمايتها ومساعدتها على القيام من عثراتها واجب مقدس لتكمل رسالتها المقدسة في معركة الخير والشر.

▲▲▲ فرق الهوية بين مصر وجيرانها

ولتوضيح الفروق بين طبائع وهويات الشعوب قارن صالح أيضا بين تأثير التضاريس والمناخ والبيئة عموما على سبيل المثال على تكوين هوية كل من مصر والعراق والشام والجزيرة العربية.

---

(٣٣)- نفس المرجع، ص ٣٦

(٣٤)- نفس المرجع، ص ٩٧

(٣٥)- القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، مرجع سابق، ص ١٢٥
وحور من أبرز المقدسات المصرية، وهو ابن أوزير "أوزيريس" الذي خلّص مصر من الشر والعدوان ممثلين في عدوه مغتصب عرش مصر "ست" وقاد أقدم معركة معروفة في مصر ضد االشر.

فمثلا عن تأثير فيضان النيل على مصر وفيضان دجلة والفرات على العراق قال إن شدة انحدار دجلة والفرات جعلت الملاحة فيهما غير مأمونة العواقب، عكس التدرج غير المحسوس في انسياب النيل من قبلي لبحري، وعدم انتظام مواسم فيضانات دجلة والفرات، وشدة اندفاعها، جعلها تظهر في الأدب العراقي بصفة "زوبعة الفيضان"؛ "للتعبير عن أمر كاسح مدمر"، خاصة وأنه "عادة ما تشتد هذه الفيضانات في غير فترات الحاجة الملحة إليها، بحيث قد تعنف خلال مواسم الحصاد[٣٦].

- وهذا الأمر، إضافة للتمدد العريض لأراضي ما بين النهرين، وحولهما وحول فروعها، أدى لصعوبة وجود وحدة سياسية وحضارية واحدة، بل تميز تاريخ العراق القديم بقيام وحدات سياسية مستقلة عن بعضها، بنظام الدويلات، خالية من مشاعر الترابط بين أهلها، وتغلب صراعات المطامع والهويات على العلاقات بينهم، ولم تشهد وحدة سياسية إلا في عصور متأخرة، مع استمرار الحروب الداخلية بين البابليين والآشوريين[٣٧]، غذتها هجرات أجنبية إليهم لم تنقطع.

ولذا لم يكن غريبا أن ينعكس هذا على أن تنطبع الحياة في العراق وقتها بمشاعر الحدة والتوتر، كما اصطبغت بهذا كثير من فنونهم وأساطيرهم التي آثرت الميل إلى إشاعة الرهبة، والاهتمام بالخلود في الدنيا أكثر من الآخرة، على خلاف المصريين القدماء الذين اهتموا أكثر بالآخرة، وما تميزت به فنون مصر من عذوبة وملامح هادئة مطمئنة في معظم الأحوال[٣٨].

وبخصوص هوية بلاد الشام أشار صالح إلى أن الاختلاف الحاد بين تضاريسها، وخاصة الحواجز الجبلية بين أراضيها التي تعرقل تواصل سكانها، في مقابل سهولة وصول الأجانب لأراضيها من الخارج، تسبب أيضا في صعوبة ظهور وحدة سياسية وروحية في الشام التي تشكل تاريخها السياسي من إمارات متناحرة أو متنافسة، مع استسهال السكان الهجرة الجماعية إلى بلدان أخرى.

وترتب على تنوع تضاريسها كثرة التباين بين ميول أهلها، أهل الجبال، وأهل السواحل، وأهل السهول والوديان، وأهل الصحاري، وصعوبة اتحادهم في وحدة قومية صريحة، ولم يلتئم شملها في وحدة سياسية كبيرة طوال عصورها القديمة[٣٩].

وعن سبب استسهال كثير من أهل الشام للهجرة، فيعود ذلك لطبيعة تكوينهم، فهم من قبائل وجماعات جاءته بالغزو أو السرسبة حين رأته أخصب وأهنأ عيشا من مناطقها القديمة في الجزيرة العربية أو في داخل آسيا، ثم تغادره إذا ما حلت به كوارث ورأت مناطق أخرى أطيب في العيش[٤٠].

وكان لقبائل الجزيرة العربية دورها في حركة الهجرة والاستيطان وتغيير تركيبة السكان في العراق والشام الواقعتين شمالها، وما ترتب على ذلك من زيادة الصراعات القبلية والعرقية، حين تترك مناطق

---

(٣٦)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح ، ص ٥

(٣٧)- انظر: نفس المرجع

(٣٨)- انظر: المرجع السابق، ص ٧

(٣٩)- انظر نفس المرجع

(٤٠)- انظر: المرجع السابق ص ٨

الجفاف والخطر في الجزيرة وتتجه إلى هناك بأسلوب التسلل البطيء، وكل هجرة تعتمد على الهجرة التي سبقتها في تهيئة الحال لها[٤١].

وبعد التمكين حين يتعرف المهاجرون على مواطن الضعف في حدود دويلات الهلال الخصيب، يتربصون بها الدوائر، حتى إذا تفككت وحدتها وضعفت قوتها وخفت قبضتها عن حماية ذمارها، لأسباب داخلية أو لأسباب خارجية، تسربوا إليها أسرا وعشائر وشاركوا أهلها معايشهم، أو اندفعوا إليها قبائل وجيوشا إذا توافرت لهم الزعامات القوية، ثم تغلبوا على أهلها وسيطروا على أرضهم وحكمهم[٤٢]، وعلى هذا ظهرت لهم هناك دويلات وممالك مثل الغساسنة والحيرة والأنباط.

ونفس الأسلوب اتبعته هجرات من مناطق أخرى، فظهر في العراق والشام ما يسمى بالأكديين والبابليين والآراميين والأموريين والخابيرو والعابيرو والكلدانيين والآشوريين والميتانيين والعبرانيين، ظلت ممالك وإمارات في صراع وشقاق معظم تاريخها؛ فكل واحدة تكبرت عن الذوبان مع السكان.

أما عن اختلاف هوية مصر مع الجزيرة العربية، فإنه كان لاتساع مساحة الجزيرة واختلاف مناخها من منطقة لأخرى، وتفرق موارد مياهها حسب المناطق المطيرة أو الجافة، وقلة سكانها مقارنة بمساحتها، أن كان السكان فيها متفرقين في مسافات بعيدة، فتكونت القبايل وعصبياتها، وكثرت المنازعات بينها رغم وحدة الجنس واللغة[٤٣]، ولم تسنح لهم فرصة التوحد إلا برابطة الإسلام، وبعد معارك عدة، وسرعان ما انفكت عراهم بعد سنين قليلة مجددا لقبائل وإمارات ومذاهب وممالك متحاربة في صراعات الحكم (العباسية والأموية والبويهية والحمدانية والقرامطة والأندلس والأدارسة والشيعة والسنة إلخ).

وبالمثل، يمكن أن نجد تشابهات أو اختلافات بين ظروف تلك البلاد وبين بلاد اليونان أو الكوشيين (السودان وما ورائها)، أو المناطق الواقعة بعد الحدود الغربية المصرية في ذلك الحين.

ولذا ظهرت مصر طوال التاريخ بمظهر البعيد عن التآمر على الغير؛ لعدم اعتيادها على وجود سكان متنافرين متآمرين على بعضهم ومتنافسين، فغاب منها الطمع أيضا فيما خارج حدودها، ولرضاها بما فيها، ولقلة الصراعات بين أهلها، ولاحترامهم وعشقهم لأرضهم، ولم تتعدَ حدودها للخارج إلا دفاعا عن النفس وكيل العقاب لمن سبق واعتدى عليها- كما حدث في زحفها لبلاد الشام في الشرق بعد أن جاء منها الهكسوس لاحتلال مصر، ولبلاد كوش في الجنوب بعد أن غزوا مصر من الجنوب وتحالفوا مع الهكسوس ضدها، في حين مالت معظم الأمم إلى التآمر والغزو والاحتلال بسبب وبدون سبب، وكثرت غزواتهم ومطامعهم في مصر، سواء بالسلاح أو بالتسلل.

هذه الطلة السريعة على عوامل تكوين الهوية المصرية والفروق بينها وبين هويات بلاد أخرى مهمة لفهم سبب ما اعترى حضارة مصر من سقطات ووقوعها تحت الأسر والاحتلال لمئات السنين فيما بعد؛

---

(٤١)- انظر: نفس المرجع ص ١٢-١٣، و"تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة"، عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ٢٠١٠

(٤٢)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ١٣

(٤٣)- انظر: نفس المرجع، ص ٩-١١، وتاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، مرجع سابق.

لغفلتها عن هذه الفروق خلال تعاملها مع الشعوب الأخرى، وقبولها استيطان بعضهم فيها، فيؤدي تنافر الطباع والطموحات إلى خرابها، فمع الاحترام لكل الهويات والشعوب- ولكل شعب مزاياه وعيوبه- فإن كل هوية أولى بأرضها التي نبتت فيها وكونتها، لا أن تفرضها على غيرها كما سعت الشعوب الغازية لغرس هوياتها في مصر التي فتحت لهم أبوابها كما يفتح الرجل الغافل بيته الآمن للريح السموم.

▲▲▲ أكبر عيوب مصر

كما لا يوجد إنسان مبرأ من العيوب، فكذلك لا يوجد بلد مهما بلغت حضارتها مبرأة منها، ولمصر نقاط ضعف أحسن الأعادي استغلالها، منها: ضعف الذاكرة، الاطمئنان للشعوب بلا حذر، نسيان الثأر ممن ظلمها، البلادة في التعامل مع دروس التاريخ، وكلها عوامل تتصل بكلمة واحدة.. التاريخ.

ولو انعقدت الأبحاث والمؤتمرات المخلصة لتبحث عن إجابة سؤال واحد وهو:

ما الذي جعل مصر، وهي أعظم الحضارات وصاحبة الشعب الواحد الأكثر حبا لأرضه، تقع في يد الاحتلالات مئات السنوات، وتتقلب بين أيدي وأقدام شعوب الأرض من كل ملة وجنس، بما فيهم العبيد والمرتزقة والجواري؟

قد لا تبعد الإجابات عن عبارة.. "البلادة في التعامل مع دروس التاريخ".

يقول أ. ب كلوت، المشرف على تأسيس القصر العيني في القرن ١٩، فيما سرده من صفات حسنة وسيئة عن المصريين في كتابه "لمحة عامة إلى مصر": "فتراهم لهذا السبب لا يهتمون من شئونهم إلا بما يتعلق منها بحاضرهم، غير ملتفتين إلى مستقبلهم، وهم يشبهون لصوص نابلي لا يحركون ساكنا إلا إذا عضهم الجوع بنابه، فالنظر إلى المستقبل لا يمتد عندهم إلى أبعد من الغد"[٤٤]، بلا ولا أبعد من اليوم، فلا يلتفت إلى إلى الوراء ليدرس تاريخه كما يجب، وينتظر الضربة من العدو قبل أن يتحرك لإزاحته.

فحالة الطمأنينة والاستقرار التي تنعَّم بها المصري بعرقه وقيمه، وإحساسه بقوته مقابل غيره من الشعوب، جعله يركن إلى السلام إلى درجة لا يفكر جيدا فيما تدبره له هذه الشعوب.

وعدم طمع المصري في غيره من شعوب، وعدم تآمره عليهم، وافتقاده لمهارات التآمر، جعله يفتقد التنبؤ المبكر بمؤامراتهم عليه، ولا يهتم بتتبع أساليبهم الجديدة في التسلل إليه، بل ولا يعرف عدوه إلا إذا رفع في وجهه السلاح، وجاءه غازيا بالجيوش والعصابات المكشرة عن أنيابها في عدوان صريح، ويرى بعينيه دمه يقطر من سيف عدوه علامة تأكيد العدوان، ولكن إذا جاءت إليه الأعادي في صورة هجرات بلا سلاح، تتسلل إلى بلاده "سلميا" باللسان الحلو أو بطلب نجدته، أو في توب تاجر أو لاجئ أو صديق، فإنه يكون حسن الظن وسريع التصديق، يفتح لهم حدود بلاده بيديه مرحبا مهللا، وربما شاكرا لهم أنهم اختاروا

[٤٤]- لمحة إلى مصر، كلوت بك، ترجمة محمد مسعود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١، ص ٢٨٩- ٢٩٠

بلده بالذات ليأتوها، ولا يفيق من غفلته إلا بعد أن يكون "وقع في الخية"، والسيف انغرز في جانبيه، فيندم يوم لا ينفع المصري الندم.

▲▲▲ الوصية الحارسة (العهد)

إن الآباء المؤسسين، أو ربما السماء، وضعوا لمصر الدواء لنقاط ضعفها السابقة، ومن هذا الدواء الوصية التي سجلتها نصوص الأهرام- وهي قلب قضية هذا الكتاب- بألا تفتح بواباتها (حدودها) للأجانب الطامعين فيها، والذين يحاولون غزوها، سواء من الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب، فالإله أسس هذه الحدود لحمايتها، ولعلمه بأنها مطمع الجميع.. وفي هذا إشارة لوجود حدود لمصر منذ أقدم العصور، والمصريون ملزمون بتحصينها ماديا ومعنويا.

فجاء في نصوص الأهرام ضمن "النشيد الوطني" السابق الإشارة إليه:

"إن البوابات التي فوقك كبوابات حامية.... إنها سوف لا تفتح للغربيين، إنها سوف لا تفتح للشرقيين، إنها سوف لا تفتح للجنوبيين، إنها سوف لا تفتح للشماليين، إنها سوف لا تفتح لهؤلاء الذين في وسط الأرض، إنها سوف تفتح لحورس"(٤٥).

وفي ترجمة أخرى وكاملة لهذه الوصية، أو هذا العهد، قام بها هنري بريستد في كتابه "تطور الفكر والدين في مصر القديمة"، يقول النص:

التحية لك يا عين حور (مصر)

التي زانها بكلتا ذراعيه

إنه لا يسمح لكِ (يا مصر) أن تصغي إلى أهل الغرب

إنه لا يسمح لكِ أن تصغي إلى أهل الشرق

إنه لا يسمح لكِ أن تصغي إلى أهل الجنوب

إنه لا يسمح لكِ أن تصغي إلى أهل الشمال

إنه لا يسمح لكِ أن تصغي إلى القاطنين بوسط الأرض

ولكن تصغين إلى حورس

إنه هو الذي زانك

إنه هو الذي شيدك

إنه هو الذي أسسك

---

(٤٥)- القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، مرجع سابق، ص ١٢٥- ١٢٦

إنك تفعلين لأجله كل شيء يقوله لكِ

إن الأبواب الموجودة عليكِ تستوي ثابتة مثل "إنموتف"

إنها لا تنفتح لسكان الغرب

إنها لا تنفتح لسكان الشرق

إنها لا تنفتح لسكان الشمال

إنها لا تنفتح لسكان الجنوب

إنها لا تنفتح للقاطنين وسط الأرض

إنها تنفتح لحورس

إنه هو الذي صنعها

إنه هو الذي أقامها

إنه هو الذي نجاها من كل سوء أوقعه "ست" عليها

إنه هو الذي أقام دعائمك

فأمر الإله مصر أن تكون الأصول التي وضعها لها هي مرجعيتها، ولا تسلم نفسها للشعوب الكائنة وراء الحدود وثقافاتهم، فهو الأدرى بما يصلح لها؛ لأنه هو من أسسها ووضع قواعدها[٤٦].



عين حور "وجات" وعن يمينها "نخبة" رمز الوجه القبلي وعن شمالها "واجيت" رمز الوجه البحري (مقتنيات توت عنخ آمون بالمتحف المصري)
قلادة معبرة عن مصر التي سماها الأجداد "عين حور" ولأجلها انتصر حور على الشر

وهذه هي الوصية الصارمة الحارسة الخالدة بعدم استقبال وتوطين هجرات أو ثقافات أجنبية التي لمَّا

---

[٤٦]- تطور الفكر والدين في مصر القديمة، جيمس هنري بريستيد، ترجمة زكي سوس، دار الكرنك للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٠- ٤٥، وكلمة "إنموتف" المذكورة في "الأبواب الموجودة عليكِ تستوي ثابتة مثل إنموتف" تعني "عمود أمه" (نفس المرجع)

خالفها الأجداد في بعض العصور، كان عقاب الله لمصر شديدا ومرعبا، بالخراب والاحتلال.

ولمس هذا مؤرخون قدامى، تأملوا في أسباب سقوط مصر المدوي قبل ميلاد المسيح، ونقل عنهم أ. ب، كلوت: "لو أن مصر استطاعت أن تقي نفسها شر الاتصال بالأجانب، أو لو كانت طبيعة وجه أرضها وشكل سطحها من الوجهة الحربية بحيث يصدان عنها الغارات الأجنبية، لما بقي شك في قدرتها على صيانة وجودها وإطالة أمد حياتها بما كان مسنونا لها من الأنظمة العالية والقوانين الحكيمة لتدبير مرافقها ومصالحها من كل نوع، ولكن مصر لا تملك من وسائط الدفاع الطبيعية عن كيانها ما يكترث به أو يُعتمد عليه (...) فهي بهذا الوصف فريسة سهلة ولقمة سائغة جذبت إليها من جميع النواحي عظماء الفاتحين الذين طالما طمحت أنظارهم إلى خيراتها الزراعية وموقعها الجميل بين ٣ من قارات العالم"، و"لقد أدرك واضعو قوانينها القديمة هذه الحقيقة من بادئ الأمر، وحسبوا لعواقبها الحساب؛ فحرَّموا على الأمة المصرية باسم الدين كل اتصال بالأجانب أو اختلاط بهم؛ خشية أن يستفز هذا الاختلاط هؤلاء إلى محاولة الوقوف على أسرارها والعلم بمواطن ضعفها؛ فينشطوا إلى فتحها وامتلاكها، وطالما لبث فريق الكهنوت عزيز الجانب رهيب المقام بكثرة عدده وامتداد نفوذه، واستقرار صولته، فإنه كان يحول دون كل اتصال بالأجانب؛ فأمنت البلاد شرهم ووقت نفسها عاقبة أطماعهم، ولكن ملوك الأسرة السادسة والعشرين رأوا أن يلقوا عن عاتقهم نير النفوذ الكهنتي ويستبدوا بالأمر؛ فمهدوا السبل لذلك الإتصال الذي كانت عاقبته شرا وبالا على مصر؛ إذ بلغ بأحدهم وهو الملك أبساميتك الأول أن اتخذ لنفسه جندا من الإغريق والكاريين واليونانيين المجمكين[٤٧]". والأسرة ٢٦ من قبيلة أجنبية مستوطنة وليست أسرة مصرية.

وسنختبر دقة هذا التشخيص فيما سنقابله من أحداث، بين أمجاد تحلق بها مصر، وأصفاد تأسرها.

ولو أن الاتصال بالأجانب اقتصر على تبادل التجارة والعلوم لما كان فيه ضرر، أما وقد صمَّ حكام مصر وبعض مثقفيها آذانهم عن صوت الأجداد، وفتحوا البلد لاستيطان هجرات تسللت في أي ثوب، أو استقدموا الأجانب للتوظيف محل المصريين، واعتمدوا هويات أجنبية محل المصرية؛ فزلزلت هنا الأرض الطيبة زلزالها.

▲▲▲ العقيدة المصرية القتالية والأقواس التسعة

إذا وزعت ورق اليوم (في سنة ٢٠١٩) على المصريين- خاصة المتعلمين- وطلبت منهم الإجابة على سؤال واحد مكتوب فيها وهو: من هم أعداء مصر؟ أو من عدو مصر في نظرك، ماذا ستكون الإجابة؟

لن تكون إجابة.. بل إجابات، بل آلاف الإجابات، يختلف فيها تقييم "العدو" باختلاف انتماء المصري المعاصر نفسه، فهل انتماءه لمصر وحدها لا قبلها شيء ولا بعدها شي أم ينتمي لشيء آخر خارج الحدود، وتختلف الإجابات باختلاف التيار الديني أو السياسي الذي قد يكون منتمي إليه (ليبرالي، شيوعي، اشتراكي، عروبي، "إخوان مسلمين"، جماعات دينية سلفية، عولمي، إلخ)، ونوعية التعليم (حكومي/

[٤٧]- لمحة إلى مصر، كلوت بك، مرجع سابق، ص ٢٣- ٢٤

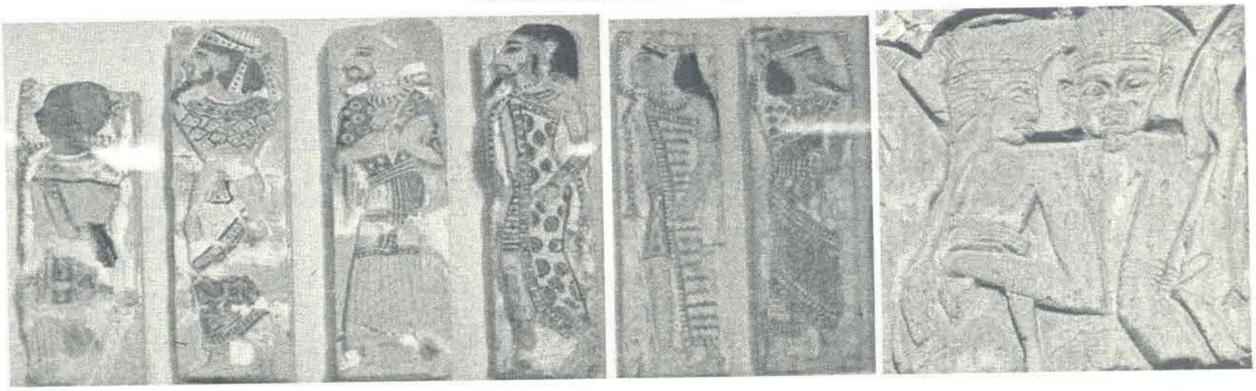
أجنبي)، وهل هو مصري خالص الدم أم "خلاسي"[٤٨] الدم، أي هجين من أبوين أحدهما غير مصري، أو "خلاسي" الجنسية، أي يحمل جنسية أخرى أو أكثر بجانب الجنسية المصرية وأعطى يمين الولاء لدول أخرى غير مصر، أو "خلاسي" الهوية، أي من هؤلاء الذين لهم أجداد قدموا إلى مصر في عصر سابق ولكنهم لم يتخلصوا من الانتماء للبلد التي قدم منها هؤلاء الأجداد الأباعد وما زالوا يحتفظون بالولاء لها بجانب أو قبل الولاء لمصر (مثل بواقي قبائل عربية أو بعض بواقي اليونان والأرمن والترك إلخ)، أو "خلاسي" الزواج، أي متزوج أو متزوجة من أجانب وأولادهم حملوا جنسية بلد الأجنبي، إلخ.

ما هذا كله؟! إن هذا كله لم يكن موجودا في معظم تاريخ مصر بين المصريين، بل لم يكن بينهم أساسا كلمة "اختلاف الانتماء" فيما يخص تحديد من هو العدو، لأنه لم يكن بينهم أساسا "اختلاف انتماء" حول مصر؛ لأنه أساسا لم يكن هناك انتماء ديني أو سياسي أو في الدم أو التعليم إلخ بعيدا عن مصر، بل كله متمحور حول مصر (كيمة)، لأن المصريين كانوا مصريين (كيمتيو) وفقط، لا توصيف آخر يخترقهم.

ومن الشواهد على هذا في تاريخ مصر الطويل القديم هو ما عرفناه وقتها باسم "الأقواس التسعة"، وهي الاسم الدال على أعداء مصر، وجاء من أن كل عدو من أعداء مصر جسده الفنان المصري في شكل قوس، باعتبار أن الأعداء في أقدم الزمن كانوا يغيرون على مصر ويهاجمونها من وراء الحدود برمي السهام، والأقواس التسعة تعبر عن الأقوام التي اعتبرها الأجداد أنهم أعداء مصر، وهي ليست بالضرورة ٩ بالتمام، بل يضاف إليها إذا استجد أعداء ، والثابت أنها تتوزع ما بين أقوام وقبائل تأتي من الحدود الجنوبية (الكوشيون أي أقوام السودان والحبش وما جاورهم من زنوج)، وأقوام وقبائل تأتي من الحدود الغربية (مثل التحنو والتمحو والليبو)، وأقوام وقبائل تأتي من الحدود الشرقية (مثل الشاسو والعامو) وهم في الشام وشمال الجزيرة العربية، وظل الأعداء يهاجمون مصر من هذه الحدود الثلاثة طوال تاريخ مصر القديم، حتى هبَّت أمواج البحر الأبيض المتوسط بأقوام وقبائل تهدف لغزو مصر من الحدود الشمالية في الأسرة ٢٠ (تسموا بقبائل شعوب البحر لأنهم قادمون من جزر البحر الأبيض وما وراءها كالأناضول)، وبذلك استحكمت دائرة العداء حول مصر من الحدود الأربعة.

---

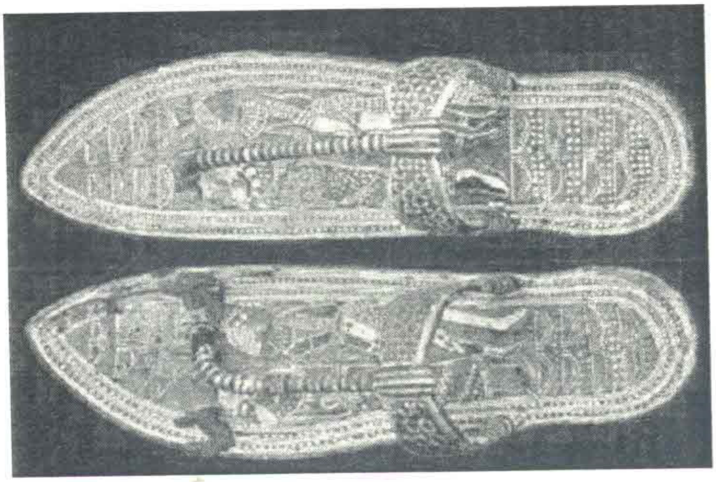
[٤٨]- كلمة خلاسي يقال: ولد خِلاسي: وُلد بين أبوين أبيض وأسود، ودجاج خلاسي تولَّد بين دجاج هندي وفارسي (المعجم الوسيط) أي الخليط أو الهجين، هذا المعنى الحرفي لغويا، ومنه معنى عام وهو ذلك الذي تتعدد في صدره وعروقه الانتماءات لاختلاط الدم والأنساب أو اختلاط الثقافات والولاءات، وفي اللغة المصرية الدارجة يطلق على هذا النوع كلمة "بزرميط".



أمثلة من النقوش المصرية للأقوام المدرجين تحت مسمى أعداء (الأقواس التسعة) وهم الكوشيين غزاة الجنوب والقبائل الغازية من الغرب والغازية من الشرق (الصور الستة الأولى وهي في المتحف المصري) ثم انضم لهم القبائل القادمة من البحر شمالا (الصورة الأخيرة على يمين الناظر وهي من معبد هابو)

وثبت تصنيف المصريين لهؤلاء الأعداء بأنهم أعداء منذ أقدم معارك نعرف أنهم خاضوها ضد الغزاة (مثل المعارك المنقوشة على سكين جبل العركي قبل عصر مينا) وحتى سقوط مصر في الاحتلالات المتوالية التي لم تنتهِ إلا في ١٩٥٢، فلماذا ظل الثبات المصري على تصنيف الأعداء مهما تغير الحكام والأجيال؟

ظل هذا التصنيف ثابت لأن الانتماء المصري ظل ثابتا طول تلك الأزمنة قبل الاحتلالات، وهو أنه لمصر وحدها، لا يشاركه فيها أي بلد أو شعب آخر، وعلى هذا فإن العدو ليس هو الذي ينتمي إلى جنس معين، أو دين معين، أو لغة معينة، ولكن العدو في عقيدة مصر وجيشها وشعبها عموما هو "من طمع واعتدى"، أيا كان لونه أو جنسه أو دينه أو لغته أو بلده، وجار كان أم بعيد، مدام قد "طمع أواعتدى"





رسم الأجداد الشعوب المعتدية على الصنادل ورسموها على مسند القدمين عند الجلوس على الكرسي لاستمرار تذكر الأعداء، وربما من هنا جاءت الكلمة التي نقولها "فلان تحت جزمتي" (الصندل من مقبرة حوي بالأقصر، والكرسي والمسند من مجموعة توت عنخ آمون بالمتحف المصري)

وعلى هذا سنرى في الصفحات القادمة خلال تتبع المعارك المصرية أن طوال أزمنة الحكم المصري القديم ظل الجيش يحارب على الحدود الثلاثة، ثم على الحدود الأربعة، وفي نفس الوقت لم تكن العلاقة مع الجيران أو الأباعد علاقة حرب دائمة، فهم من القديم ساروا على درب "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها"، فإن اقتصرت الشعوب الأخرى في علاقتها مع مصر على التجارة والعلاقات السياسية الطبيعية كانت مصر نعم

الصديق لهؤلاء، وإن لم يكونوا هم نعم الصديق لها دائما، وإنما يستغلون اطمئنانها إلى ما يظهرونه من سلام وصداقة للاستعداد للانقضاض على مصر وهي في حالات استرخاء من جديد.. وما أبشعه حينها من هجوم، خاصة حين يأتيها من الداخل، على أيدي من فتحت لهم أبوابها للاستيطان تجارا ولاجئين ومهاجرين وأزواج وزوجات حتى تكتلوا وتمكنوا، ثم انقضوا، كما حصل في نهايات الأسرة ٦ والأسرة ١٣ والأسرة ٢٠.

أما إذا عدنا للاندهاش حول لماذا إذن "انكسر" هذا الثابت المصري، وتحول المصريون- خاصة المتعلمين، وبما فيهم الرؤساء والوزراء ورجال الجيش والداخلية والتعليم والإعلام والاقتصاد والأزهر والكنيسة ونواب البرلمان- إلى انتماءات، كأنهم هم أنفسهم تحولوا إلى قبائل وأقوام وليسوا شعب واحد، وهذه هي النكبة الكبرى في مسيرتهم، فهذا هو ما يحاول هذا الكتاب الإجابة عليه.. قبل أن تذوق مصر من جراء هذه النكبة ما لم تذقه في احتلالاتها السابقة جميعا... الإبادة التامة لمصر شعبا ودولة.

وقـف الخلـق ينظـرون جميعـا كيف أبني قواعد المجد وحدي

وبناة الأهرام في سالف الدهـر كفـوني الكـلام عنـد التحـدي

أنا تاج العلاء في مفـرق الشرق ودراتـــه فرائـــد عقـــدي

إن مجـدي في الأوليات عريـق من له مثـل أولياتــي ومجــدي[1]

---

[1]- حافظ إبراهيم الأعمال الكاملة، قصيدة مصر تتحدث عن نفسها، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ٢١٢

المشهد ٣: الولادة الجديدة

(الدولة القديمة)

▲▲▲ العصر العتيق (التحرير واستعادة المركزية)

العصر العتيق صفة يطلقها علماء الآثار على الأسرتين ١ و٢ من الأسرات الحاكمة، وفيه ترسخت أكثر دعائم نظام الحكم المركزي ونظام الدولة المصرية كامل الأركان، أرضا وشعبا وحكومة وعقيدة وحضارة، ونضجت، وبدت فيه متلألأة كالعروسة أو كالبدر في السماء الظلماء.

وتبدأ الأسرة الأولى بمؤسسها العظيم نعرمر الشهير بـ"مينا" وهو لقب يعني الثابت والخالد؛ ما يدل على اعتزاز الأجداد به وبدوره في تاريخهم.

ويُستدل على هذا بكتابة اسمه في سجلات الأجداد الخالدين المكتوبة في عصور لاحقة له، مثل "قائمة أبيدوس" في عهد سيتي الأول وقائمة "بردية تورين" في عهد رمسيس الثاني، وهما جاءا بعده بمئات السنين، وتحتوى على أسماء الحكام الذين سبقوه، ووضعوه فيها في موضع مكرم.

ومن أشهر آثار عصر مينا صلايته الشهيرة التي تزين المتحف المصري، وأهميتها أنها أول تجسيد لحاكم مصر وهو يرتدي تاج الوجهين القبلي والبحري، وأهميتها فيما يخص موضوع الكتاب أنها تكشف معارك تبدو ضخمة بين مصر وغزاة هددوا أرض مصر ووحدانيتها بعد أن تسربوا إليها واستوطنوها.

وقد لا تنحصر الصلاية في معارك بين وجه قبلي ووجه بحري في سبيل التوحيد كما يقول البعض، فقد وصف سيريل ألدريد الشخصين المهزومين في أسفل الوجه الأول للصلاية بأنهما اثنين من الآسيويين، والشخص الذي يطأ الثور ذراعه اليمنى بأنه "ربما كان من الليبيين"[١]، وفي هذا إشارة إلى أن هؤلاء ليسوا من المصريين سكان الوجه البحري، ولكن غزاة متسللين من الشرق والغرب، بدليل شكلهم المختلف واللحية غير المصرية.

كما رأى أن اللوحة (الصلاية) تمثل انتصار التجسيد الحي لحاكم مصر على قوى الشر والعدوان، وسواء ظهر الحاكم في صورة رجل أو صقر أو ثور فإنا نراه يقوم بإخضاع الغزاة من الآسيويين أو الليبيين المجاورين لمصر، ونشر الدكتور على رضوان، العميد الأسبق لكلية الآثار بجامعة القاهرة، آراء

[١]- الفن المصري االقديم: سيريل ألدريد، ترجمة أحمد زهير، وزارة الثقافة، هيئة الآثار المصرية، ص ٥٥

بأن منظر دك الحصن هو "بسط النفوذ على جماعات البدو عند حدود مصر الشمالية الشرقية"[٢].



صلاية نعارمر وجه وظهر (المتحف المصري)

وأشهر حكام العصر بعد مينا: حور عحا، جر، دن، عجيب، واجي، قاعا، خع سخموي.

▲▲▲ معارك العصر العتيق مع الهكسوس وعلاقاته الخارجية

الاستقرار والبناء الضخم للدولة لم يسلم- كالعادة- من تهديدات أعدائها في الشرق والغرب، بل كان يخطف بريقه ألباب وأنظار المحيطين بمصر، فيضعون الخطة تلو الأخرى للسيطرة على هذا البلد المهيب، أو على الأقل الحصول على بعض خيراته والاستمتاع ببعض ما يستمتع به.

فتبدأ القبايل بالتسلل إلى حواف الدلتا الشرقية والغربية على حين غفلة من أهلها، واشتبكت معهم القوات المصرية في عدة معارك زمن الملكين "بر إبسن" و"خع سخم" في نهاية الأسرة الأولى.

وحدث في عهد الملك "ني نثر" السابق لعهد "بر إبسن" أن هاجمت قبائل قادمة من ليبيا الوجه البحري واحتلوه عنوة، وانفصلوا به عن الوجه القبلي، فلما أعقبه "بر إبسن" لم يحكم غير الوجه القبلي، ولكنه اعتزم الكفاح، وتسمى باسم "سخم إب"، أي الجسور، وتلقب بلقب يعطي معنى "الذي خرج للحق" أو "انبعث النظام"، ولكنه لم ينته في كفاحه إلى شيء[٣].

فخلفه "خع سخم" الذي هاجم أراضي الدلتا وقاتل الغزاة المسيطرين عليها قتالا عنيفا حتى انتصر عليهم في نهاية عهده[٤]، وهكذا يتضح أنه في أقدم العصور كان يأتي من الغرب أكثر الغزاة لمصر، وتسللا، ثم

---

[٢]- تاريخ الفن في العالم القديم، علي رضوان، دار شركة الحريري، ط٢، ٢٠٠٤، ص ٤٦
[٣]- الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول مصر والعراق)، عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو، ط٢ منقحة، ص ٧٩
[٤]- انظر نفس المرجع

بعد التمكين يرفعون السلاح.

وسجلت بطاقة من عهد "دن" من الأسرة الأولى، أخبار نصره على أهل الشرق لأول مرة، كما قال كاتبها، وسجلت بطاقات من عهد ولده "عنجإب" نشاطا مماثلا ضد قوم أطلقت عليهم اسم "الإونتيو" ربما بمعنى "أصحاب العمد، ويغلب على الظن أنهم من الأقوام الشرقيين الذين أشارت إليهم بطاقة أبيه، أي من بدو الصحراء الشرقية وبدو سينا، وربما ما ورائها أيضا(٥). وما ورائها يعني الشام وشمال الجزيرة العربية التي تفد منها القبايل لسيناء.

وذهب الباحثون **De Rouge, R.Weill, and Y. yadin** إلى أن مصر لها حصون وعمليات دفاعية في المناطق الأسيوية منذ عهد نعرمر (مينا)، وأيام خلفائه "جر" و"دن"، واستدلوا على نشاطها هناك من صورة حصن نقشت على صلاية مينا، ومن ذكر حصن يدعى "باب عن" وآخر يدعى "ونة" في جنوب فلسطين على آثار العصر نفسه(٦).

وأشار علي رضوان إلى منطقة "عين بصور"، جنوب فلسطين، وفيها وجد علماء آثار مبني من الطوب اللبن فيه أكثر من ٩٠ قطعة عليها أختام لحكام مصر في الأسرة الأولي, اعتبارا من الملك "جر"، مع كميات من الفخار المصري، وتشير الاختام إلي أن موظفين مصريين لهم إقامة متواصلة في المبني الذي وصفه العالم الأمريكي آلان شومان بأنه نقطة مراقبة حدود مصرية للتفتيش(٧)، وهو ما يؤشر لحدود مصر في ذلك العصر عند رفح.

وانقضى عصر بداية الأسرات بعد امتداده ٥٠٠ سنة حافلة بالبناء والمعارك، بعد انتقال الحكم من أسرته الثانية إلى فرع حاكم جديد يتصل بها برابطة الدم والنسب، مكونا الأسرة الثالثة.

وظلت سيرة حكامه عطرة خالدة، تتناقلها الأجيال في معظم التاريخ المصري القديم، فكانوا في حكاياتهم يردون إليه أصول بعض معارفهم وعلومهم القديمة، فتضمنت بردية طبية من الدولة الحديثة فصلا ردته إلى عهد الملك "دن"(٨)، وذكر المؤرخ مانيتون (في القرن الثاني قبل الميلاد) أن الملك "جر"، ألف كتابا في التشريح، وذكر المؤرخ ديودور الصقلي (في القرن الأول قبل الميلاد) أن الكهان أخبروه بأن مينا أول من علم الناس أسلوب الحياة المهذبة وطقوس العبادة، وأرشدهم إلى فوائد البشنين [زهرة اللوتس] وكيف يصنعون الخبز منه(٩).

---

(٥)- نفس المرجع، ص ٨٧
(٦)- نفس المرجع ص ٨٨
(٧)- "سـيناء تراب وتراث مصر منذ الأزل ١"، علي رضوان، صحيفة الأهرام، العدد ٤٤٣٠٥، تاريخ ٢٦- ٣ -٢٠٠٨
(٨)- الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ٨٩
(٩)- نفس المرجع



بعض أبرز وجوه المصريين حاكمين ومحكومين حتى الأسرة ٦، ويظهر فيهم الكمال الفني في إظهار التجانس والتناغم وإخراج المشاعر من نظرات تأمل أو سعادة أأو كبرياء أو أسى أو تحدي

▲▲▲ بناة الأهرام (وهج المركزية والمصرية)

الأسرة الثالثة أسسها "نب كا"، أي سيد الروح أو روح السيد، قفزة مدهشة في تاريخ مصر الحضاري، ففيها انتقلت من بناء أبنية الآخرة (المعابد والمقابر) من الطوب اللبن إلى البناء بالحجر، بكل ما يتضمنه من دلالات على التطور في علوم الهندسة والفلك وشق الطرق بين المحاجر والعمران والنحت وحسن إدارة أعداد كبيرة من العمال الذي كانت تتطلبه هذه الأبنية والصناعات والفنون المرتبطة بها.

واستهلت هذه الأسرة العريقة بناء الأهرام حتى عُرفت الدولة القديمة بأنها "عصر بناة الأهرام"، ومنها: هرم زوسر، هرما سنفرو، أهرام خوفو وخفرع ومنكاورع، هرم ونيس، هرم تيتي، هرم بيبي الأول.

وتلألأ هذا العصر بنجوم عمالقة الفن والطب والهندسة والعمارة والسياسة والإدارة والأدب والحكمة، مثل الطبيب والمهندس إيمحوتب وزير "زوسر" والمشرف على بناء هرمه الشهير، وحسي رع طبيب الأسنان، وحم إيونو المشرف على بناء هرم خوفو، وبتاح حتب أحد أشهر الحكماء المعلمين[١٠]، إضافة إلى حكامه الأشهر مثل زوسر وخوفو وخفرع ومنكاورع وونيس وتيتي وجد كا رع إسيسي.

ومن أشهر إنجازات الدولة القديمة بجانب ما سبق، انتشار الكتابة، والنحت على جدران الأبنية مثل

---

[١٠]- مزيد عن أحداث وإنجازات الدولة القديمة انظر "مصر الفرعونية"، أحمد فخري، الهيئة العامة للكتاب، مشروع "مكتبة الأسرة" القاهرة، ٢٠١٢، من ص ٧٣- ١٢٣

الأهرام والمقابر بعد أن كانت خالية منها في السابق؛ ما يدل على تقدم فنون الكتابة والنقش، وتنظيم القضاء والمحاكم، ونضج التقويم الشمسي الذي قسم السنة إلى ٣٦٥ يوما تتكون من ١٢ شهرا + شهر يتكون من ٥ أيام مخصصة للاحتفال بموالد حور (حورس) وإيسه (إيزيس) وأوزير (أوزيريس) وست ونبت حت (نفتيس)، وكل شهر ٣٠ يوما، والشهر مقسم إلى ٣ أسابيع، كل أسبوع ١٠ أيام.

وتطورت الكتابة من اقتصارها على الخط المقدس "الهيروغليفي" المنحوت على الجدران إلى خط المعاملات اليومية "الهيراطيقي" بعد زيادة عدد السكان والمعاملات اليومية، وهو اختصار علامات الخط الهيروغليفي لتكون أبسط ويسهل كتابتها، والفرق بينهما يشبه الفرق بين الخط الكوفي المخصص للكتابة المنمقة على جدران المساجد وخط الرقعة الخاص بالمعاملات اليومية.

وأخرج المصريون أشكالا بديعة من الأثاث والحلي والملابس، وارتقوا أكثر في نحت التماثيل من كل صنوف الأحجار وأشقها في القطع والنحت، ونطقت ملامح وجهها بالمشاعر، من فرح وحزن وهموم وشموخ وتأمل ونشاط وصرامة ووداعة، لا ينقصها إلا دبيب الروح لتنطق، مثل تماثيل نفرت وزوجها رع حتب من الأسرة ٤، وتمثال الكاتب الشهير من الأسرة ٥ بالمتحف المصري، بخلاف اللوحات المرسومة، كأنها لوحات معاصرة ناطقة ومتحركة مثل لوحة أوز ميدوم ورحلات الصيد.

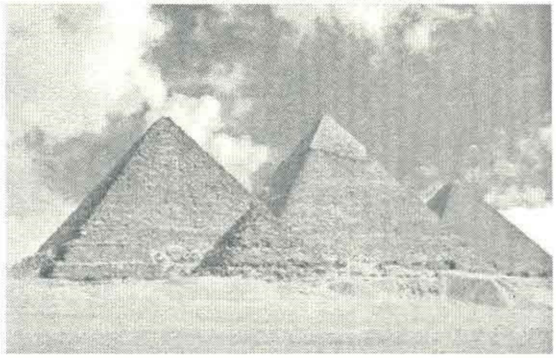
وفي كل هذه الأعمال اتسم الخيال المصري بالاعتدال والجد، واعتمد على المنطق في كل تعبيراته الخلاقة[١١].

ولم يكن الهرم في مصر مجرد بناء هو الأضخم في الدنيا حينها، ولكنه الرمز الذي يجسد التل الأزلي، أصل الحياة السليمة، وكل ما حوته حضارة مصر من روح دينية راقية وعلوم هندسية وفلكية ومعمارية وكفاءة إدارية وقوة أمنية وحربية، علت مصر بها القمة، كما أن هرمها رمز للمركزية المصرية التي تحكم العائلة وتحكم الدولة وتصون وحدانية مصر أرضا وروحا وشعبا في سبيكة واحدة، ولولاها ما خرجت هذه الحضارة بهذه الصورة الفريدة.

وفي هذا يقول هنري بريستيد: "يجب علينا ألا ننظر للهرم من وجهة ضخامة بنائه، بل علينا أيضا أن نتخذه مثلا ظاهرا لانتقال القطر من الوحشية إلى النظام والمدنية، ولوجود حكومة مركزية قوية تسوس البلاد في نظام دقيق تحت إدارة شخص واحد[١٢]". وإن كان الشخص الواحد رمز المركزية لكن سلطاته مجسدة في الحكومة ككل.

---

(١١)- الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة: سيريل ألدريد، مترجم، مرجع سابق، ص ٦٧
(١٢)- الشرطة والأمن الداخلي في مصر القديمة، بهاء الدين إبراهيم، هيئة الآثار المصرية، مشروع المائة كتاب، ص ٢٣



الهرم.. رمز الانتقال من الفوضى والوحشية إلى النظام والحضارة

▲▲▲ معارك بناة الأهرام مع الهكسوس وعلاقاتهم الخارجية

رغم المحاولات الدائمة من القبايل والشعوب المحيطة لغزو مصر، إلا أن الدولة المصرية لم تقطع علاقاتها نهائيا بهم، فالله كتب على الشعوب التعارف والتبادل التجاري حين وزَّع أرزاقه، وجعل في كل بلد ما ليس في الآخر من المنتجات، فنشَّطت الدولة القديمة علاقاتها الخارجية لتصدير البضايع المصرية الفريدة واستيراد بضايع أجنبية، ولم يكن في هذا ضير طالما كانت الدولة تقوم بذلك دون إسراف في الاستيراد، ودون أن تغفل عن مطامع البلاد المحيطة، ودون أن تفتح حدودها لتوطين قبائل وشعوب هذه البلاد وعوايدهم المعادية لـ"ماعت"، وهو ما حرصت عليه مصر معظم عصر الدولة القديمة، حافظة العهد، ثم غفلت عنه في الـ ١٠٠ سنة الأخيرة منها، فكان السقوط القاسي والمدوي في الأسرة ٦.

ففي عهد سنفرو، ظهر تقدم واضح في الملاحة والتجارة الخارجية، خاصة مع فينيقيا (لبنان)، وظهر في حوليات سنفرو في قايمة "بالرمو"[١٣] ورود ٤٠ سفينة منها محملة بأخشاب[١٤] الأرز.

وظهر اسم ابنه خوفو على آثار معبد في جبيل بلبنان ما يشير لوجود علاقات مصرية لبنانية، وظهرت واحدة من أقدم رحلات مصر إلى بلاد بونت في أفريقيا في الأسرة ٥ أيام ساحورع[١٥].

أما عن المعارك مع الغزاة، فكانت مفتوحة على كل الجبهات، فسجلت حوليات سنفرو نشاطا حربيا على الحدود الشرقية والجنوبية والغربية، لتأديب العصاة، ورد القبايل الغزاة، فسجل المصريون على صخور سيناء في وادي المغارة نقوشا لسنفرو يضرب بمقمعته رأس زعماء القبايل الغازية، ووصفته الأجيال التالية بأنه أعظم حماة سيناء، واسمها القديم "تا مفكات"، أي أرض الفيروز، نفس الاسم الذي نصفه به اليوم،

---

[١٣]- حجر بالرمو منقوش في عصر الأسرة ٥، يشمل قايمة بأسامي حكام مصر منذ ما قبل الأسرات وحتى الأسرة الخامسة، ونبذة عن إنجازاتهم، وفيه إشارة لملوك يرتدون التاج المزدوج قبل مينا، وضاعت معظم أجزائه، والأجزاء الباقية موزعة على متاحف القاهرة ولندن وبالرمو في صقلية. انظر "مصر الفرعونية"، أحمد فخري، مرجع سابق، ص ٥٢

[١٤]- الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ١٠١

[١٥]- انظر نفس المرجع، ص ١٠٥ و ١٢٥

وظلت نقاط حراسة على الحدود الشرقية تحمل اسم سنفرو لمئات السنين[١٦].

وفي الأسرة ٥ استمرت حملات القوات المصرية في جبهة الشرق لصد غزو القبايل لسيناء، وفي عهد ساحورع بالذات حصل نشاط حربي ضد فريق من عصاة القبايل في جبهة الحدود الغربية، وصورت جدران معبده زعماء هذه القبايل وزوجاتهم وأولادهم في هيئة المستسلمين لسطوته[١٧].

ومن أشهر وأكبر معارك مصر لصد الغزاة في ذلك الزمان الحملات الحربية اللي قادها إلى أرض كنعان القائد الشهير "وني" في أول الأسرة ٦، وسببها أنه توافد على كنعان أيام الملك ببي الأول، أو قبله، هجرات متقطعة سماها المصريون باسم "عامو حري شوشع"، بمعنى بدو الرمال، يحتمل أنها فرع من الهجرات الأمورية بالشام، هددت طرق التجارة، وحاولت أن تثير الاضطرابات وتعبر الحدود لمصر، فعهد "ببي" إلى "وني" بحماية تجارة مصر وحدودها[١٨].

وبالفعل، خرج "وني" في ٥ حملات، ٤ عن طريق البر والخامسة عن طريق البر والبحر، فحصر العدو بين فكي كماشة، وتكللت حملاته كلها بالنجاح بحسب ما سجله عنها[١٩]، والنجاح الأعظم لرجال هذه الفترة هو تنبههم لمخاطر الهجرات والغزاة قبل أن يتعدوا الحدود إلى داخل مصر.

وكلمة "عامو" أطلقها الأجداد على جماعات تسكن الشام، ويترجمها البعض إلى "الآسيويين"، والهجرات الأمورية هي نفس الهجرات التي تراكمت واستوطنت الشام، وزحفت مع جماعات أخرى إلى مصر بطريق السرسبة والدحلبة في وقت لاحق، وعرفناهم باسم الهكسوس.

ومن آداب الجندية المصرية اللي خلَّدها "وني" في تسجيل الحملات، وهي نابعة من القيم المصرية "ماعت"، وتظهر الفارق بين جيش وظيفته حماية بلده وبين شعوب وقبايل غازية تعيش بالسطو على بلاد غيرها أنه "نظم مسيرة الجنود على خير وجه، وترتب على حكمته في رسم خطته أنه لم يحدث أن تنازع جندي مع زميله، أو اغتصب جندي كسرة خبز من عابر سبيل، أو اغتصب نعله، ولم يحدث أن نهب أحد جنوده خرقة من قرية، أو سلب عنزة من عشيرة، حتى جاوز بجيشه مناطق الحدود الشمالية الشرقية، أو جاوز الجزيرة الشمالية وبوابة إيمحوتب، وساقة حور نب ماعت (أحد ألقاب سنفرو)[٢٠].

وبعد رجوع "وني" بالجيش ونجاح حملاته كتب في تقريره للملك "ببي" عن نتائجها ما يشبه القصيدة، تبدأ في كل سطر بكلمة "عاد الجيش سالما، فينشد فرحا: "عاد الجيش سالما...، بعد أن فعل كذا وكذا...عاد الجيش سالما بعد أن دمر أرض أهل الرمال...، عاد سالما بعد أن أسقط حصونهم"[٢١].

---

(١٦)- للمزيد عن الأنشطة الاقتصادية والحربية في سيناء، وأسماءها المصرية وآثارها منذ أقدم العصور المصرية وحتى نهاية الدولة الحديثة انظر: مواقع الآثار المصرية القديمة- الجزء الأول"، عبد الحليم نور الدين، ط ٨، الخليج العربي للطباعة والنشر، ص ٤٧١- ٤٨٤

(١٧)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ١٢٨

(١٨)- نفس المرجع، ص ١٣٤

(١٩)- نفس المرجع

(٢٠)- نفس المرجع، ص ١٣٤- ١٣٥

(٢١)- نفس المرجع، ص ١٣٥

لكن يبدو أن سكرة هذه الانتصارات وتلك القوة ألقت بساتر أسود من الغفلة على أعين الحاكم ورجال الدولة وقيادات الجيش.. وهذا عيب آخر من "عيوب مصر".. السَكرة والتراخي بعد كل انتصار، والتوهم بأنه خلاص "الأمن بقى مستتب"، و"كله تحت السيطرة".

فالأحداث التالية تكشف أنهم نسوا كيف تسلل الأجانب في العصر العتيق (الأسرتان ١ و٢) من الحدود الغربية والشرقية، واستوطنوا حواف سيناء والدلتا، وتسللوا إلى الداخل، واحتلوا مساحات من الوجه البحري بعد التأكد من دبيب الضعف والتراخي في مصر حين تطمئن للغد ولما حولها.

واطمئن المصريون إلى بعض القبايل القادمة من نواحي ليبيا غربا وكوش جنوبا الذين سمحوا لهم- وفق ما ورد في تقرير "وني"- بالاشتراك في معارك الجيش بكنعان[٢٢]، لسبب غير واضح، حتى أصبح هؤلاء من أشد معاول الخراب التي أسقطت هيلمان الدولة القديمة بعد أن عرفوا أسرار البلاد ودروبها واختراق مؤسساتها.

وربما كان هؤلاء الغرباء ممن تسللوا في عهود سابقة في أطراف المحافظات مثل أسوان وغرب الدلتا والواحات لأسباب تخص هروبهم من الحروب والمجاعات في بلادهم فدخلوا مصر بصفة "لاجئين"، أو كتجار أو كطالبي رزق وعمل، أو كحراس لأبواب الحدود لكونهم أدرى بشعاب الصحاري ومداخل الحدود لخلفيتهم القَبلية، وادعوا أنهم تمصروا، فاطمئنت لهم الدولة، فكانت الطامة الكبرى.. وانشرخ الهيلمان.

---

[٢٢]- انظر: المرجع السابق، ص ١٣٥

"ليتني رفعت صوتي في ذلك الوقت حتى كنت أنقذ نفسي من الألم الذي أنا فيه الآن، فالويل لي، لأن البؤس عمّ في هذا الزمان"(1)

(١)- الحكيم "إيبو ور" لائمًا نفسه على سكوته وهو يرى الأجانب يستوطنون بلاده والفساد يعم دون أن يحذر شبعه، انظر: الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء، محرم كمال، الألف كتاب الثاني، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص١١

المشهد ٤: سقوط الدولة المركزية (الزفتة الأولى)

٢٣٠٠-١٩٩١ ق.م

العقاب الشنيع

▲▲▲ "ماعت" و"إزفت"

سمّى أجدادنا الحق والنظام والأصول الصحيحة لحياتهم ومبادئهم بكلمة "ماعت"، والتي باتباعها تعيش مصر حياة سليمة مطمئنة هنية، وقالوا إنهم من أنزلها إلى مصر هو رع.

ويصفها علماء المصريات الأجانب بأنها (النظام، والحق، والصدق، والعدالة، وحفظ التوازن الكوني والبيئي)[١]، فيما اختصرها علماء مصريون بتعبير مصري بليغ هو "الأصول"، و"دستور المصريين".

أي الأصول التي تأسست عليها مصر فيما يخص علاقتها بالإله خالقها وبالدولة، وتناسبها في نظام الحكم المركزي والاقتصاد والعمارة والعادات والتقاليد والعلاقات الأسرية والأخلاق وعلاقة المصريين ببلدهم وببعضهم وبالأجانب وبالكون كله، بل وترسم هدف المصريين من الحياة نفسها.

يقول أحد أعمدة علم المصريات في العالم د.علي رضوان[٢] إن "ماعت" بالنسبة للمصريين هي "ناموس الحياة"، أي قانونها ودستورها، الذي وضعه "رع" ليكون فيه خير البشر والكون، وببساطة هي "اتباع السلوك السليم، والنهج القويم، والخلق الكريم".

وتحدثت نصوص الأهرام ((**Pyr.1775** عن فضل إشاعة "ماعت" في الكون، فنسمعها تقول: "إن السماء تكون في سلام، والأرض تكون في سرور، ذلك أنه قد أُشيع أن الملك سوف يضع "الماعت" لتحل محل (الباطل)"[٣]، وفي نص إصلاحات توت عنخ آمون ورد: "لقد أزاح الفوضى عن الأرضين (الوجهين القبلي والبحري) حتى تكون ماعت هي الباقية[٤]"، فهدف حياة المصريين هو إقامة "ماعت".

ولأنها الأصول الغير قابلة للتغيير مهما تبدلت الأحوال والعصور، قال عنها الحكيم "بتاح حتب": "إنها لا تتغير ولا تتبدل منذ زمن الذي أوجدها"، أي منذ الزمن الذي كان يحكم فيه رع الأرض مباشرة قبل أن يخلق البشر ليكونوا خلفاء له في حكمها، وأوصاهم بتنفيذ شريعته في الأرض "ماعت".

وجاء في نصوص الأهرام **Pyr, 265** عن الحاكم الصالح أنه "الذي يضع الماعت في مكان الباطل"،

---

[١]- المزيد عن "ماعت" طالع كتاب مآعت فلسفة العدالة في مصر القديمة، أنًا مانسيني، مرجع سابق
[٢]- انظر تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥
[٣]- نفس المرجع
[٤]- نفس المرجع

أي بدل الباطل[٥].

وينبه بتاح حتب إلى أن: "الذي يفعل الماعت فذلك الذي يكون بعيدا عن الضلال"، وفي موضع آخر يحذر من أنه "يحل العقاب دائما بالذي يتخطى قواعدها"، أي يتعدى حدود الماعت[٦].

وسجَّل الفلاح الفصيح في شكواه الثالثة إلى المسئول الحكومي: "إن صلاح الأرض (مصر) ينحصر في تطبيق الماعت"[٧]، أي الحق والأصول.

ومجلس ماعت (محكمة الأرباب) هو الذي قضى بحق حور (حورس) في عرش مصر خلفا لأبيه أوزير[٨] بعد أن سيطر عليه "ست" في أقدم قصة مصرية تحكي انتصار الحق على الباطل.

ولشريعة "ماعت" أكبر الأثر في تشكيل شخصية المصريين ونفسيتهم، فانعكست على أعمالهم، بل وعلى وجوههم، سواء الحقيقية أو التماثيل، فتحب النظر فيها، لأنها تشعرك بالسماحة والسكينة والطمأنينة والحيوية والأمل، وترى فيها حلاوة مهما كان حظ ملامحها من الجمال.

وفي مقابل "ماعت" توجد الفوضى، وهي تطفو بضياع الحق والأصول، وتشتت الفكر، وانهيار الأخلاق والحكومة المركزية التي تحفظ وحدانية مصر ومبادئها، وبفتح الحدود أمام الهجرات الأجنبية القادمة بهويات ومطامع وأرواح معاكسة لـ ماعت، وسمى الأجداد هذه الفوضى بـ "إزفت"، وهي الكلمة التي ما زلنا نستخدمها حتى اليوم، بنطقها "زفت" أو "زفتة"، وتعنى الباطل والخراب والضياع والمذلة، وهي الشر الذي من أهداف حياة المصريين محاربته تقربا إلى الإله.

ولم يترك لنا الأجداد كتابا جامعا لقوانين ومبادئ "ماعت"، أو ربما تركوا ولكن لم يعثر عليه العلماء، لكنهم تركوا مقتطفات تدل عليها، من نصائح وتعاليم الحكماء في التربية والسلوكيات والمعاملات مع الإله والناس والحيوانات والنباتات والبيئة والتجارة، أو في نظام حكم مصر نسبوها لـ"ماعت"، وتعاليم وأوامر الحكام للوزراء عن الطريقة الأحسن لمعاملة الناس، وعن دور الحاكم في الأرض ونسبوها لـ""ماعت" وتقاليد مصر في التعامل مع الشعوب الأخرى خلال أحداث التاريخ في السلم أو حين غزوا مصر، والتي استقوها أيضا من ""ماعت".

▲▲▲ (دستور المصريين)

أبرز مبادئ "ماعت" (الأصول) لعمار مصر:

١- الأخلاق الطيبة وتقوى اليوم الآخر

---

(٥)-نفس المرجع
(٦)- نفس المرجع
(٧)- نفس المرجع
(٨)- نفس المرجع

٢- حياة المصريين مع بعضهم قائمة على الإخوة والتعاون

٣- هدف حياة المصري نصرة الإله الخالق على الشيطان

٤- وظيفة الحاكم تطبيق "ماعت" باعتباره خليفة للإله (صانع ماعت) في حكم مصر

٥- الحكم المركزي للدولة

٦- النظام الهرمي في علاقات الأسرة، وإدارة الحكم

٧- منع ظهور مراكز قوى اقتصادية أو اجتماعية تناطح الحكومة

٨- السلاح حصري بيد الدولة

٩- مصر فوق الجميع

١٠- مصر أمة بذاتها، حصرية لأهلها

١١- اليقظة الدائمة لبوابات حور (الحدود) وطرد المتسللين أولا بأول

١٢- الاعتماد على البيئة المصرية في تدبير احتياجات البلاد

١٣- منع استيراد هوية من الخارج في الفن والثقافة والاقتصاد والدين والحكم وحتى المظهر

١٤- العلاقات مع البلاد الأخرى في حدود التعاون لتبادل التجارة والخبرات بما يحفظ مصلحة مصر، لا اندماج ولا انصهار

١٥- نسالم من يسالمنا، نعادي من يعادينا

١٦- إحياء ذكرى وحكمة الأجداد ورموز مصر

١٧- العَدَل والوسطية في كل أمر

▼▼▼ دستور الشيطان لمصر

أبرز أسلحة "إزفت" (الفوضى والهرم المقلوب) لإسقاط مصر:

١- ضياع الأخلاق وانتشار الإلحاد

٢- حياة المصريين مع بعضهم تقوم على التناحر والتنافس

٣- هدف الحياة نصرة الشيطان على الإله الخالق

٤- الحاكم سلطته شكلية ولا وصاية للدولة في حفظ مبادئ وهوية المصريين

٥- الدولة اللامركزية

٦- العشوائية وزوال الحدود في العلاقات الأسرية وفي نظام الحكم

٧- ظهور مراكز قوى اقتصادية واجتماعية تناطح الدولة في الحكم والقرار

٨- السلاح مشاع للجميع

٩- تشتت الولاءات لتيارات ومذاهب وجماعات بعيدا عن مصر

١٠- مصر مشاع لكل الشعوب (تدويل مصر[٩])

١١- التراخي في حماية بوابات حور (الحدود) من تسلل الأجانب، وقبول توطينهم

١٢- الإسراف في استيراد البضائع

١٣- استيراد الهويات الأجنبية ونظم الحياة والحكم المعلبة

١٤- العلاقات مع العالم تتعدى حدود التعاون، إلى الاندماج والانصهار

١٥- نعادي من يسالمنا، نسالم من يعادينا، ونكافئه

١٦- تحقير الأجداد وترك رموز مصر إلى الرموز الأجنبية

١٧- التطرف في كل أمر

هذه النقاط لم ترد نصا هكذا في بردية واحدة، ولكنها خلاصة يستشفها الباحثون في النصوص المتعلقة بـ ماعت، والأوامر والنواهي في وصايا الحكماء والأجداد، وفي الخطوات التي اتخذها الأجداد وأدت لصعودهم، وأيضا التي اتخذوها وأدت لسقوطهم، كذلك من الدساتير ووثائق العمل السرية والمعلنة للتنظيمات الدولية السرية التي ظهرت في القرون الأخيرة وأعلنت بوضوح خططها ووسائلها لنشر الفوضى "إزفت" والحروب في العالم، وكان لمصر من شرورها وخططها نصيب كبير كما سيتضح في

---

[٩]- كلمة "تدويل مصر" هدف حقيقي لأعادي مصر في القديم والحديث، ووردت على لسانهم صريحة، ومنهم وزير المستعمرات البريطاني ألفرد ملنر وقت ثورة ١٩١٩ حين دعا لتحويل مصر إلى مصب وموطن للجاليات الأجنبية، وتصطبغ كل مدينة فيها بصبغة أجنبية ويكون للأجانب السيطرة، وسنتابع هذا عند الحديث عن توطين الهجرات في مصر خصوصا من الاستيطان الإغريقي، مرورا بالاحتلال الإنجليزي، وصولا لقوانين التجنيس والتوطين الحالية.

فصول لاحقة[١٠].

▲▲▲ "كتالوج مصر"

تدور هذه الأيام، خاصة بعد ثورة ٢٠١٣، عبارة تقول إن من عبقرية مصر أن شعبها "مالوش كتالوج"، أي لا يتوقع أحد كيف سيتصرف في المصاعب التي تواجهه.

وللحق، وللتاريخ.. هذه عبارة خاطئة تماما، بل مضللة- ولو عن غير قصد- فالشعب "اللي مالوش كتالوج" هو شعب "مالوش أصول راسخة ولا هوية"، فلا ميراث تاريخي أودستور أخلاقي وفكري يسير عليه، وشعب غير متجانس؛ لذا يصعب عليه وعلى غيره التنبؤ بردود فعله، وشعب كهذا عند الأزمات والمخاطر يتشتت ولا يصمد، وينهار كبيت من الرمل مع خبطة أول موجة.

أما شعب مصر، أقدم وأرسخ أهل الأرض كشعب واحد له هوية ورسالة، فإنه ابن أصول وطبع وهوية واضحة كشمس رع[١١]، والشعوب الأخرى تعرفه، أما من لا يتوقع ردود فعله في بعض المواقف، فهذا جهل منه بطبيعته وتاريخه، أو ظن أن الخطط التي وضعت لتدمير وإفساد المصريين في العصور الأخيرة أتت ثمارها ودمرته تماما.

فللمصريين ""كتالوج"، بل ولهم "كتالوج للصعود والعمار"، واضح جدا هو، ماعت، وآن الأوان أن ينتبهوا له، فحينما يتبعونه ينجون من كل مكيدة وتوهان، ولهم "كتالوج للسقوط والدمار" واضح جدا، هو إزفت، حينما يتبعونه يسقطون أشنع سقطة.

وسجَّل هذا لنا بتاح حتب في الأسرة ٥:

"إن الذي يفعل الماعت فذلك الذي يكون بعيدا عن الضلال"، "يحل العقاب دائما بالذي يتخطى قواعدها"[١٢].

وهنا.. نبدأ أمثلتنا الشاهدة على ذلك من تاريخنا القديم وحتى الآن، التي لأجلها يخرج هذا الكتاب، وفيها نختبر صحة أو خطأ ما ورد في المبادئ الـ ١٧ من "دستور عمار مصر"، و"دستور سقوط مصر"، أي "أصول حياة المصريين"، و"دستور الشيطان".

---

[١٠]- لمراجعة هذا انظر كأمثلة: ماعت فلسفة العدالة في مصر القديمة، مرجع سابق، ماعت مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية، يان آسمان، فجر الضمير، جيمس هنري بريستيد، ترجمة سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١، تاريخ الشرق الأدنى- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، مصر الفرعونية، أحمد فخري، مرجع سابق، الوعي السياسي عند قدماء المصريين، فايز أنور عبد المطلب، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، أحجار على رقعة الشطرنج وليم جاي كار، ترجمة سعيد جزائرلي، دار النفائس، الماسونية والماسون في مصر ١٧٩٨- ١٩٦٤، وائل إبراهيم الدسوقي، دار الكتب والوثائق القومية، الشيطان أمير العالم، وليم جاي كار، ترجمة عماد إبراهيم، الأهلية للنشر والتوزيع، بروتوكولات حكماء صهيون، فكتور ماسدون، الحرية للنشر والتوزيع، القاهرة، الفكر الفلسفي في مصر القديمة، د. مصطفى النشار، الدار المصرية السعودية للنشر والتوزيع، ط١.

[١١]- شمس رع مقصود بها في ثقافة الأجداد أي "الشمس في عز الضهر"، يعني في أقوى مراحلها وأكثرها ضياءً وإشعاعا

[١٢]- انظر: تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

▲▲▲ السقوط الكبير

فيما يخص مكانة "ماعت" و"إزفت" في العصر العتيق والدولة القديمة، فإنه على مدار ألف سنة (منذ مينا حتى الأسرة ٦) اتبعت مصر كما رأينا وصفة عمارها وهي "ماعت"؛ فقام بها نظام قومي ثابت الأركان، يمثله ويحافظ عليه الحاكم بصفته نائبا عن الله في تطبيق "ماعت" على الأرض[١٣]، وأثمرت أعظم الإنجازات التي ما زالت تبهر الدنيا حتى اليوم.

لكن.. نهاية الأسرة ٦ سقطت مصر في واحدة من أشنع "الزفتات" في تاريخها. فكيف تركت نفسها لتسقط هكذا؟

❶ طاعون اللامركزية

بدأ انهيار مصر تدريجيا في الأسرة ٦ (التي استمرت ٢٦٠ عاما) باتباع حكامها وبعض مثقفيها- بلا وعي- وصفة الفوضى "إزفت"؛ فنهشتها الطواعين بكل وحشية وقسوة.

ففي ذلك العصر كثرت عطايا الحكام من الأراضي لكبار رجال الدولة، وبمرور الوقت تضخمت الثروات في أيديهم، وتكونت عائلات ذات سطوة، وفي نهاية الأسرة اهتزت هيبة الحاكم وقوة الحكومة المركزية مع مطامع مراكز القوة الصاعدة- الموظفين الكبار والعائلات الثرية- في الاستحواذ على نصيب من السلطة[١٤]، وصار لهم فعلا في محافظاتهم سلطة وكلمة قوية في الإدارة تساوت مع سلطة حاكم الدولة، بل وزادت عليها في النهاية، وبالتدريج بسطوا نفوذهم على معابدها وضرايبها.

ومع الزمن، اعتبر بعض المحافظين أن المحافظات (تُسمى في كتاب علماء الآثار أقاليم) حكرا خاصا على عائلاتهم في مناصبها وإدارتها ومالها، حتى في أمور القضاء، ووصلوا لدرجة توريث المنصب لأولادهم بعد أن كان منصب المحافظ بالتعيين من جانب الحكومة، وامتنعوا عن إرسال الضرايب وعائدات الموارد للخزينة العامة بالعاصمة منف، وعن إرسال الشباب للتجنيد، فانهار أعظم ما تم بناء مصر على أساسه، وهو الدولة المركزية الحازمة ونظامها الهرمي[١٥].

وانعكس هذا على موظفي الدولة الأصغر، ففي رسالة رد بها قائد صغير على وزير عصره، رفض طلبا له بأن يذهب مع فرقة من الجند يعملون في طرة إلى العاصمة لتوزيع الكساوي عليهم في احتفال خاص، وقال القائد للوزير إن هذا الأمر يتطلب التضحية بـ ٦ أيام هو أحوج إليها لأداء ما أوكل إليه من المهام، أما توزيع الملابس على الجند فيمكن أن يتم في يوم واحد إن أرسلها الوزير إلى الجند في مكانهم

---

(١٣)- انظر: موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، ج ١٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٢٩٣

(١٤)- انظر: فجر الضمير، جيمس هنري بريستيد، ترجمة سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٥٣

(١٥)- خلال فوضى يناير ٢٠١١ ظهرت دعوات لانتخاب المحافظين بدلا من التعيين وتوسيع صلاحياتهم بحجة الديمقراطية، فيما كانت أحزاب أسسها رجال أعمال خصيصا للانتخابات وتنظيم الإخوان الدولي وعائلات معينة تتحفز لاقتناص منصب المحافظ، ولو حدثت فعلا انتخابات للمحافظين لصارت محافظات مصر خلال ١٠ سنوات مقسمة إقطاع إقطاع للحزب الفلاني، وإقطاع لرجل الأعمال العلاني، وأخرى لعائلة التلاني، وتلك للإخوان، إلخ، وتأخذ المحافظات صبغات دينية وحزبية متصارعة، وتنفلت عرى مصر تماما.

مع رجال البريد[١٦].

وغير الواضح ما الذي دفع الحكام إلى الصمت أمام توسيع صلاحيات المحافظين وكبار الأغنياء في إدارة الدولة، إلا ما تكشفه آثار قليلة عن دخول العيلة الحاكمة في علاقات نسب معهم وتزاوج السلطة والمال، فمثلا ورث ببي الثاني في نهاية الأسرة ٦ الحكم عن أبيه ببي الأول وهو طفل ابن ٦ سنين، فصار الوصي عليه أمه وخاله، وكان خاله من أسرة لها سلطة في الوجه القبلي، وأتاح صغر سن ببي الثاني له إدارة شئون الدولة ككل.

وشكّل ضعف شخصية ببي الثاني عاملا إضافيا لطمعهم في مزيد من السلطة، وإلى جانب ذلك طال حكم ببي الثاني إلى فترة مهولة، ٩٠ سنة (مات وعمره حوالي ٩٦ سنة)، فلم تتوفر فرصة لظهور حاكم قوي يزيل آثار أخطاء سابقيه قبل أن تستفحل[١٧].

فلت الزمام من يد الحكومة المركزية، حتى عجزت عن أن تفرض علي المحافظين تطهير قنوات الري وصيانتها لضمان توزيع مياه الفيضان وإدارة الزراعة بما يحمي البلاد من فترات الجفاف[١٨].

2 طاعون توطين الأجانب

واستفحل الأمر باستعانة محافظين بالأجانب الذين تسللوا واستوطنوا مصر في عمل فرق قتالية تشتغل لصالحهم، فعاثوا في الأرض فسادا في الأرض دون خشية من الحكومة[١٩]، ويبدو أنهم من نسل الأجانب المستمصرين زورا أيام قائد الجيش "وني" في الأسرة ٥، واستقدموا آخرين من خلف الحدود، واكتشفت الحكومة متأخرا أن أعناقهم ما زالت تشرأب لحكم مصر نفسها.

وإضافة لهؤلاء، تضخم الخطر الأجنبي في مصر بالهجرات الأمورية[٢٠] التي كسر "وني" شوكتها في فلسطين في عهد "ببي الأول"، فقد تجرأت على حدود مصر من جديد، وهددوا طرق تجارتها مع الشام، ثم تسربت إلى أراضي الدلتا لتستقر فيها، وعجزت الحكومة المفككة عن تأديبهم وإلزامهم حدود الطاعة[٢١].

وترتب على هذه الأوضاع انتشار الفساد، وقلة محاكمة الفاسدين، والإهمال في رعاية مشاريع الري، فانتشر السخط بين الناس، وزاد السخط أكثر بتجرؤ الأجانب المستوطنين على المصريين بعد أن تعلموا حرفهم وأسرارهم، ولم يردعهم شيء عن نشر الجرائم والنهب، وساعدهم في ذلك تسلح من التحق منهم بالجيش والخدمات الأمنية، وقدوم غزوات جديدة من الشرق استغلت الحدود المهملة.

---

[١٦]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ١٤٠

[١٧]- استمر حكم ببي الثاني ٩٠ سنة، لأنه حكم، اسميا، في عمر السادسة، وعاش حتى عمر الـ ٩٦ عاما، وهو أطول حكام مصر في تاريخها عمرا وحكما بعد رمسيس الثاني الذي حكم ٦٠ عاما، والاثنان من الاستثناءات النادرة في هذا الأمر في تاريخ مصر كله.

[١٨]- انظر: تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، مرجع سابق، ص ١٧٩

[١٩]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق ص ١٤٢

[٢٠]- الهجرات الأمورية صارت من المكونات الأساسية لسكان الشام في ذلك الزمان، ولم تفقد طموحها في غزو مصر رغم الخساير التي تكبدتها على يد الجيش المصري، فهم لا ينسون هدفهم، ولكنهم في نفس الوقت لا يصلون إليه إلا إذا غفلت مصر عن خطرهم وآمنت لهم وهم يتسللون إليها على دفعات في ستار تاجر أو عامل أو لاجئ إلخ.

[٢١]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق،ص ١٤٢

عبرت عن هذه الأحوال بردية مشهورة باسم بردية الحكيم "إيبو ور" أي إيبو العظيم[٢٢]، وهو رجل يبدو من حديثه المتسم بالفجيعة في البردية أنه كان معاصرا للأحداث، وذا مقام رفيع، وبعد أن سرد صورا باكية لها، وجه اللوم الشديد للحاكم في ذلك الوقت، محملا إياه نصيبا كبيرا من المسئولية، لأنه كان يرى الأمور تستفحل والأجانب يتزايدون في البلاد، ولا يحرك ساكنا.

فعن سيطرة الأجانب على الحرف والصناعات في البلاد بعد أن تعلموها واحتكروها وقللوا فرصة أهلها في العمل قال "إيبو ور": "انظر! لا صانع يعمل، والعدو يحرم البلاد حرفها[٢٣]"، و"أصبح الأجانب مصريين في كل مكان"؛ أي تجرأوا على أن يضعوا أنفسهم موضع المصريين في هذا الانقلاب العام[٢٤].

ولأن الأجانب معتادون على حمل السلاح في بلادهم نقلوا هذا الأمر لمصر، فانتشر السلاح في الشوارع، وفي هذا يشكو "إيبو ور": "(والبلاد) ملأى بالعصابات، ويذهب الرجل ليحرث ومعه درعه... حقا فإن الوجه قد شحب، وحامل القوس أصبح مستعدا، والمجرمون في كل مكان، ولا يوجد رجل من رجال الأمس... حقا إن الناهبين في كل مكان[٢٥]".

وحامل القوس صفة أطلقها المصريون بشكل عام على القبايل التي تهاجم الحدود من حين لآخر، لأنها تهاجم المصريين من على بعد برمي الأقواس لتتجنب مواجهتهم في فترات قوتهم.

ويواصل "إيبو ور": "حقا فإن المواطنين قد ألقي بهم على أحجار الطواحين. وهؤلاء الذين كانوا يرتدون الكتان الجميل أصبحوا يُضربون[٢٦]"، "لقد أصبح بناءو (الأهرام) عمالا في الحقول[٢٧]"، بعد أن توقفت حركة بناء المشاريع العظيمة.

وإذا ما سقطت الدولة الحاكمة، وانتشرت عادات الأجانب، وانفتحت شهيتهم للنهب، وصار صوت الفاسد هو الأعلى، يحل غضب الإله، وتغوص "ماعت" في الظلام، فتذبل الأخلاق، ويجد الشيطان فرصته لتحريك النفوس الضعيفة. وفي ذلك حكى "إيبو ور": "حقا لقد... عمت الوقاحة (في كل البلاد) عند كل الناس. والرجل يقتل أخاه من أمه. فما العمل في ذلك؟[٢٨]".

بل وصل الأمر للتجرؤ على مؤسسات الدولة، بما فيها المحاكم (مقر ماعت) ذات القدسية في النفوس.

ويصف "إيبو ور" هذا المشهد الذي ندهش لتكراره في تاريخ مصر كثيرا في زمن الاحتلالات وحتى فوضى ٢٠١١: "لقد سلبت كتابات قاعة المحاكمة الفاخرة، وأصبح المكان السري مكشوفا (...) وفي الحق

---

(٢٢)- البردية مشهورة كذلك باسم بردية "ليدن"، نسبة إلى متحف ليدن الهولندي المحفوظة به الآن، وممزق منها الأجزاء التي تحتوي اسم الملك في ذلك العصر ونهاية الأحداث.

(٢٣)- موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، الجزء ١٧، الهيئة العامة للكتاب، مشروع مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ص ٢٩٧

(٢٤)- نفس المرجع، ص ٣٠٢

(٢٥)- نفس المرجع، ص ٣٠٣

(٢٦)- نفس المرجع، ص ٣٠٦

(٢٧)- نفس المرجع، ص ٣٠٥

(٢٨)- نفس المرجع ص ٣٠٧

لقد فتحت الإدارات العامة، ونهبت قوائمها، وصار العبيد أصحاب العبيد، وفي الحق لقد ذبح الموظفون وسُلبت قوائمهم، فتعسا لي بسبب البؤس في مثل هذا الزمن! (...)[٢٩]".

ويستمر في وصفه بحسب ترجمة د. سليم حسن: "ألقيت قوانين دار القضاء في العراء، ووطئت بالأقدام في الشوارع، ومزقها الغوغاء في الأزقة، وأخذ العوام يروحون ويجيئون في دور (القضاء الكبيرة)، ونُفِي القضاة في الأرض، واحترقت البوابات والأعمدة والأسوار[٣٠]".

ووفق سليم حسن في سفره الضخم "موسوعة مصر القديمة" فإن هذا السلوك يعبر عن منتهى سقوط الدولة وقتها، فقد "كانت هذه فعلة شنعاء في نظر النظام المصري؛ إذ كان سحب الكتابات والوثائق من المصالح العامة للاستشهاد بها أو للإطلاع عليها من الأمور المنظمة تنظيما دقيقا[٣١]".

ووصل الأمر لمنتهاه، وربما الهدف من كل هذه الفوضى، فيقول "إيبو ور": "لقد تجاسر بعض الخوارج فحرموا البلاد المَلَكية (الحكم المركزي)[٣٢].. انظر! إن سر الأرض (مصر) الذي لا يعرف أحد حدوده قد أفشي، وأصبح مقر الملك رأسا على عقب.. انظر! إن مصر قد أصبحت تصب الماء [لغيرها][٣٣]".

و"تصب الماء لغيرها" أي أن مصر تبدل حالها من أنه بعد أن كان الجميع يخدمها، باتت تخدم غيرها من الأجانب.

ويكمل الحكيم مندهشا ملتاعا: "والأجانب الذين كانو يخشونها والذين عرف الشعب (تفاهتهم) أصبحوا يقولون لن تستطيع مصر أن تأتي شيئا، فالرمال (المحيطة بها) هي كل حمايتها![٣٤]".

وظهر عجز الدولة عن كبح جماح الجنود الأجانب في جيشها بحيث "أصبحت خيرات مصر نهبا مشاعا" لكل من نزلها من غير أهلها، بحسب عبد العزيز صالح مترجما بدوره قول "إيبور ور" عن هذا: "إن الجنود الذين جندناهم من أجل صالحنا أصبحوا ضمن الأسيويين، ألا بعدا للخراب الذي حدث (في مصر)، فقد جعل الأسيويين يعرفون أحوال البلاد[٣٥]".

وربما المعنى أن المجندين من الليبيين والكوشيين انضموا للمستوطنين وللغزاة القادمين من الشام في تحالف ضد مصر لنشر الفتن والسيطرة عليها بعد أن عرفوا أسرارها لطول إقامتهم.

---

[٢٩]- نفس المرجع ص ٣٠٨

[٣٠]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٣٦١

[٣١]- موسوعة مصر القديمة، مرجع سابق، هامش ص ٢٩٧

[٣٢]- الملكية هنا المقصود بها الدولة وأركانها، وليس المقصود نوع الحكم ملكي وجمهوري كما في العصر الحديث، وسر الأرض مقصود به أسرار مصر وأسرار الحكم والوثائق الهامة.

- تكرر هذا الأمر عدة مرات في عصور لاحقة خلال الاحتلالات، كما تكرر في أحداث يناير ٢٠١١ حين تجرأ البعض على اقتحام مؤسسات الدولة مثل مقرات أمن الدولة والمحاكم وأقسام الشرطة بحجة السخط على الحكومة، وإن كان اختيار تلك الأماكن والجرأة عليها غير بعيد عنه تخطيط أجنبي تورط فيه بعض المتظاهرين الغافلين، مثلما يبدو أن حدث في الأسرة ٦.

[٣٣] - نفس المرجع، ص ٣٠٩

[٣٤]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٣٥٩

[٣٥]- نفس المرجع، ص ٣٦٠

وعجزت الدولة عن صد هجرات جديدة للبدو استغلت الأمر؛ فتجاوزوا حدودها، وتسربوا إلى أراضي الدلتا، وشاركوا المصريين معايشهم، واعتبروا أنفسهم من أصحاب البلاد وخاصة أهلها[٣٦].

ويواصل الحكيم في والألم يحز في نفسه شارحا كيف استغلت القبايل والجماعات التي تراقبنا وتترصد أحوالنا وراء الحدود، كيف استغلت هذه الفوضى لتضرب ضربتها: "تخربت الأقاليم، وتوافدت قبائل قواسة غريبة إلى مصر، ومنذ أن وصلوا لم يستقر المصريون في أي مكان (...) وأصبح الأجانب مصريين في كل مكان... وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا أغرابا وأهملوا جانبا".

فصار المصريون أغرابا في أوطانهم، يعاملون كأنهم من درجة أقل من الأجانب، وانطبق عليهم حقا المثل المصري: "البيت بيت أبونا، والغرب بيطردونا"، وكان من الطبيعي أن يعز الأمن في البلد: "(يقولون) الطرق محروسة، ولكن القوم يختبئون على الأشجار حتى يأتي سارٍ بليل فينهبون ما يحمله ويسلبونه ما عليه، ويشوهون وجهه بالعصا، وربما قتلوه ظلما[٣٧]".

وتأثر الوجه البحري بشدة باضطراب الأمن لقرب طرفيه من الغزاة الآسيويين في الشرق والقادمين من ليبيا في الغرب، ويصف "إيبو ور" حاله: "أصبحت أراضي الأحراش (أي الوجه البحري) كلها غير مستورة، وامتلأ قلب الوجه البحري بالطرق المطروقة، ولكن ما الذي يستطيع الإنسان أن يفعله؟..".

وتخاصم المحافظون مع بعضهم، واستأثر بعضهم بثروات محافظاتهم، ومنعوا عن خزائن الحكومة المركزية ضرايب أغلب مناطق الصعيد، وعلقت بردية "إيبو ور" على هذا: "الحق أن أسوان وجرجا في أرض الصعيد لم تعودا تؤديان الضرائب نتيجة لشيوع الفتن، فعزَّ الغلال..، ومنتجات المصانع، فكيف يسير بيت المال إذن بغير موارده؟....قَلَّت سفن الصعيد، وتخربت المدن، وأصبح الصعيد خرابا يبابا[٣٨]".

وعلى هذا: "أصبحت العاصمة (منف) في خوف من العوز، والناس يأكلون الحشائش ويتبلعون بالماء"، بحسب تعبيره، إضافة إلى توقف سبل التجارة مع غرب آسيا بعد أن هددتها الهجرات الأمورية، فيكمل: "ما عاد أحد يبحر اليوم نحو جبيل، فما الذي سوف نفعله إذن بخصوص أخشاب الأرز (التي اعتدنا أن نصنع منها) توابيتنا، والزيوت التي يحنط الكبراء بها، و(ترد من) هناك، ومما يجاور كفتيو [تكريت]. ما عاد يأتي من ذلك شيء حتى أصبح مجيء أهل الواحات بمنتجاتهم (البسيطة) شيئا ذا بال"[٣٩].

وشاع الهرج والمرج خلال فترة الانقلاب على الدولة، ووصفه "إيبو ور" بكلمات بليغة: "عزَّ الابتسام وما عاد أحد يبتسم، وأصبح الحزن يسود البلاد...، وما عزَّ الصخب في سنوات الصخب (حتى بدا كأنه) لا نهاية للصخب"، وكنتيجة: "قست القلوب، وغزا الوباء الأرض، (وسرى) الدم في كل مكان، وأصبح مجرى النهر قبرا، وغدا مكان التطهر فيه بلون الدم، وإذا قصده الناس ليرتووا منه عافوا جثث البشر

---

(٣٦)- نفس المرجع

(٣٧)- نفس المرجع

(٣٨)- انظر: نفس المرجع

(٣٩)- المرجع السابق، ص ٣٦٠

وظلوا على ظمئهم إلى الماء(٤٠)".

ويصف علماء هذا الوصف بالمبالغة، لكن من سيتابع ما سيحصل للمصريين من مذابح ومجاعات وغوص الأعادي والمستوطنين الأجانب في دمائهم وأعراضهم خلال عصور احتلالات التالية، لن يشعر أن ما وصفه الجد "إيبو ور" كان مبالغة.

وصوَّر حيرة الناس في هذه الفوضى بأنهم كانوا رجالا ثلاثة: رجلا يعلم ما حدث ويوافق عليه، ورجلا يجهل تماما، وثالثا علم بما حدث ولكنه لا يدري إن كان خيرا أم شرا، وكره بعض الناس دنياهم وآثروا الانتحار، سواء لضياع حقوقهم القديمة، أو لأسفهم عما أصاب المعابد والمقابر، أو لأسفهم عما أصاب بلدهم من اضطراب لم يعرفوا علاجه.

ويقول: "وفارق النبل الدنيا, وأصبحت ربات البيوت يقلن أني لنا ما نأكله, وذبلت أجسادهن في الأعمال, وتحطمت قلوبهن من ذل السؤال(٤١)".

ووصل الأمر لانتهاك حرمة الموتى والتجرؤ على الأهرام، وهو من أشد الفواجع التي قال عنها "إيبو ور" متعجبا: "فقد وقعت أحداث لم نسمع عنها منذ ظلمات الماضي السحيق. إذ قامت الغوغاء بخلع الملك! أجل إن الذي دفن بصفته "الصقر" قد انتزعوه من تابوته! لقد نهبت حجرة الدفن وسلب ما بها! ووصل بنا الأمر إلى الحد الذي قامت زمرة من الأفراد- تجهل كل شيء عن أمور الحكم- بتقويض النظام الملكي [الدولة المركزية] في البلاد(٤٢)".

وفي إشارة إلى أن سرقة الأهرامات وسرقة أجساد الملوك من توابيتها تم منذ ذلك الوقت قال "إيبو ور" : "ومخبأه [أي تابوت الملك] الأهرام قد أصبح خلوا"(٤٣).

وانتهكت المقدسات؛ فلم يقف المهاجمون عند حد حرمان البلاد من حاكمها، وهو الضامن الأوحد لاستتباب النظام، بل دمروا جسد الحاكم المتوفى فحرموا بذلك الأجيال السابقة من حياة الآخرة؛ فكان الظن أن سلامة الجسد تساعد الروح في التعرف على صاحبها.

وبتعبير سليم حسن، لقد قوضوا بفعلتهم الشنعاء هذه بنية الهرم الكوني؛ فتصدع وتداعى، وأصبحت مصر "عالما مقلوبا رأس على عقب"، فوقعت فريسة الفوضى الواقفة لها بالمرصاد لتنقضِ عليها كلما تقاعس الملك عن واجباته أو اختفى(٤٤).

والمقصود بالملك هنا ليس الحاكم في حد ذاته وحده، وإنما الحكومة المركزية ككل ونظامها (ماعت).

---

(٤٠)- نفس المرجع، ص ٣٦١

(٤١)- نفس المرجع، ص ٣٦١- ٣٦٢

(٤٢)- تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، مرجع سابق، ص ١٧٨

(٤٣)- موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، مرجع سابق، ص ٣٠٩

(٤٤)- نفس المرجع

وموجها اللوم بقوة للحاكم الموجود وقتها، ولكنه بلا حول ولا قوة، قال له "إيبو ور": "إن القيادة والفطنة والصدق معك, غير أن ما تبثه في طول البلاد هو الفوضى وغوغاء الذين يتخاصمون (...) فالأكاذيب تتلي عليك، والبلاد قش ملتهب[٤٥]".

أما رد الحاكم عليه فجاء كصوت يائس يقول إنه حاول حماية شعبه بالوقوف في وجه الغزاة والأجانب الذين كانوا يهاجمون البلاد، فجاوبه "إيبو ور" بأن هذا لم يكن كافيا، وإنه يعلم حسن نيته ولكن ذلك لا يكفي: "إنك جعلت الناس يعيشون بسبب ما فعلته [من محاولات صد الفساد والإهمال والأجانب في وقت متأخر] ولكنك تغطي وجوههم خوفا من الغد"[٤٦]، إشارة فيما يبدو إلى أن الحاكم لم يكن من الشجاعة والبصيرة أن يواجه نذر الخطر من البداية ويكاشف شعبه بها.

وكما وجه الكاتب اللوم للحاكم لأنه تهاون وهو يتابع هيبة وحدود الدولة تتهاوى، وجه اللوم لنفسه وبقية الناس الذين لم يتحركوا أو يطلقوا تحذيراتهم بقوة من البداية، فقال: "ليتني رفعت صوتي في ذلك الوقت حتى كنت أنقذ نفسي من الألم الذي أنا فيه الآن. فالويل لي؛ لأن البؤس عمَّ في هذا الزمان[٤٧]".

وفي إشارة إلى أن هذه الفوضى لم تكن تلقائية، وإنما كان وراءها تدبير محكم قال "إيبو ور": "وانقلبت العاصمة في ساعة"، "وقلبوا أوضاع العاصمة رأسا على عقب، واقتحموا دواوينها ومزقوا وثائقها[٤٨]".

وتزخر كتب علماء الآثار التي تتناول هذه البردية بالقول إن سبب هذه الفوضى الجامحة وغير المعتادة في مصر هو انتشار المجاعات والفساد وسوء الحكم، أي لأسباب داخلية محضة، ولذا سموها بـ"أول ثورة اجتماعية أو شعبية في التاريخ".

غير أن الأمر يحتاج لإعادة نظر، وأن يبتعد المفسرون عن تأثرهم بالنظريات الاشتراكية الماركسية في تفسير الثورات، والتي تحصرها في فساد وتسلط الحاكم والفقر؛ فالمجاعات والفساد سبب صحيح، لكن ظهرا في مصر في عدة عصور ولم يقدم الشعب على تخريب بلاده، بما فيه الاعتداء على حرمة الأموات والمحاكم والمعابد ومؤسسات الدولة وبهذا الغِل، أو انتشار أعمال القتل والدم بهذه الغزارة.

والنظر للعلاقة بين هذه الفوضى وبين ظهور مراكز قوى فاسدة تناطح الدولة، وانفتاح البلاد على الأجانب بشكل واسع، وقيامهم بنشر الفتن في كل مكان، خاصة مع اختلاف التقاليد بين الأجانب المعتادين على العنف والتسلط على غيرهم وبين الشعب المصري المسالم الغافل عن التآمر قد يوضح الصورة أكثر لنخرج بتفسير أصح، ويناسب الظروف المصرية.

وفي ذلك يقول صالح: "وتجمعت عيوب النظام القديم مع سوءات المهاجرين واضطراب الثائرين

---

[٤٥]- موسوعة مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٣١٥
[٤٦]- الفكر الفلسفي في مصر القديمة، د. مصطفى النشار، الدار المصرية السعودية للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ص ٩١.
[٤٧]- موسوعة مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٢٩٩
[٤٨]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ١٤٢

والموتورين[٤٩]".

ويرفض عالم المصريات نيكولا جريمال أن تكون هذه الفوضى الدامية ثورة شعبية، فيقول: "ويرى البعض أن الأزمة التي اجتاحت مصر هي ثورة اجتماعية، وهو أمر مستبعد؛ نظرا لأنها لم تفضِ إلى شكل جديد من الحكومات، بل استمر النظام القديم، وهو نفس ما حدث بعد كل "عصر انتقالي"، فما يرويه "إيبو ور" من أحداث إنما يشبه هبة أكثر شرائح المجتمع حرمانا، والتي لم تتحرك بسبب ما تعانيه من ظلم اجتماعي، وهو أمر بعيد كل البعد عن روح النظام السياسي السائد، إنما حدث نتيجة تأثيرات خارجية وفدت على مصر لتجد تربة صالحة في بلد أصابه الوهن والإنهاك[٥٠]".

أي أن وجود عدد كبير من الأجانب، ومن قبائل ومناطق اعتادت حمل السلاح والفوضى ورفض الخضوع للدولة ولـ ماعت، واعتادت الطمع في مصر، وتغلغلت في مؤسسات الدولة بما فيها الجيش، ووجود رغبة عندها لهدم مصر- لمجرد الهدم- يلزم أن يوضع في الحسبان جيدا عند تفسير وقوع مصر في فوضى بهذا الحجم المخيف.

ورغم سوءات هذه الفوضى الشاملة، إلا أن صالح رأى أنه أيضا المصريون استغلوها في مراجعة أمورهم، فأخرجوا من المر شرابا حلوا، فقال "إنها استثارت نوعا من الوعي القومي لدى المفكرين الذين عزَّ عليهم عجزهم عن دفع البلاء عن وطنهم قبل وقوعه، وعزَّ عليهم أنهم لم ينشطوا عند ظهور بوادر الخطر ولم يتلافوها، وصعب عليهم أن تنتهك حرمات البلاد وتبتذل مقدساتها الدينية والتقليدية تحت أبصارهم وأسماعهم، سواء بأيدي المهاجرين أم بأيدي المواطنين الموتورين[٥١]".

ولأن عقيدة مصر تؤمن بأن ماعت قد تختفي ولكنها لا تموت، وبأن الخير ينتصر على الشر حتما في النهاية، ففي آخر البردية تكلم "إيبو ور" عن الأمل في أنه سيظهر في مصر حاكم منقذ (الفلاح المقاتل) وصفه بأنه: "من يعمل للبناء، ولا يفرق بين جرئ وهياب، وصوره "رجلا يستطيع أن يحيل اللهب بردا وسلاما، ويمكن أن يعتبره قومه راعيا للناس أجمعين، ليس في قلبه ضغينة، وإذا تفرقت رعيته قضى يومه يجمعها[٥٢]".

وهذه الصفات هي التي يحلم بها المصريون في حاكمهم كلما حلت بهم الفوضى أو الاحتلالات، لأنها تعبر عن وظيفة الحاكم المصري والحكومة بأجمعها التي كلفها بها الله منذ ظهور الدولة في مصر، فالحاكم هو الراعي القوي الصالح، المكلف بحماية وحدانية الدولة وإقامة "ماعت".

وتصدق الآثار على كثير مما قالته، ففي الأسرات ٧ و٨ و٩ تبدو مصر كمن غرق في ظلام دامس، آثارها قليلة، ومستوى الكثير منها ليس بجودة ما قبلها أو بعدها، ولا يوجد ما يدل على مشاريع كبرى أو

---

[٤٩]- نفس المرجع، ص ٣٦١
[٥٠]- تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، مرجع سابق، ص ١٧٨- ١٧٩
[٥١]- الشرق الأدنى القديم-مصر والعراق، مرجع سابق، ص ١٤٢
[٥٢]- نفس المرجع، ص ١٣٤

تجارة خارجية نشطة؛ ما دل على غياب الحكم المركزي، وانتشار النزاعات، وغياب ماعت، حتى قال المؤرخ مانيتون في كتابه عن تاريخ مصر الذي وضعه أيام الاحتلال اليوناني إنه تعاقب على مصر في الأسرة السابعة ٧٠ ملكا في ٧٠ يوما! وإن كان الرقم مبالغا ولكنه تعبير مجازي عن الخلخلة.

3 أين الجيش؟

ويثور سؤال.. أين كان الجيش في ذلك الوقت؟

الإجابة المحتملة أن الجيش وقتها لم يكن جيشا نظاميا بالشكل الذي ظهر عليه في الأسرة ١٧ أو١٨، وإنما يتألف من ضباط وجنود يتدربون كاحتياط تستدعيهم الحكومة من المحافظات كلما حل بالبلد خطر وعزمت على شن حملات حربية على الحدود لصد غزوات قبايل الشرق والغرب والجنوب.

وحين تزايد نفوذ المحافظين وكبار العائلات بالتدريج في وقت كانت الحكومة المركزية تذبل، امتنع محافظون عن إرسال الشباب للتجنيد والتدريب، واحتفظوا بهم كقوة مسلحة أو حراسة خاصة بهم في داخل المحافظة، بل وبعضهم فضّل الأجانب المستوطنين عليهم في ذلك، فتفكك الجيش بشكل غير مباشر، وفقد قدرته على الالتئام والتوحد السريع عند اندلاع الخطر.

وإلى ذلك يشير صالح بقوله: "وكوَّن كل حاكم [حاكم إقليم أي محافظ] من أولئك الحكام جيشا محليا وأسطولا محليا بما يناسب إمكانيات إقليمه [محافظته]"، وضرب مثلا على هذا بمحتويات مقبرة "مسحتي" محافظ أسيوط التي تضم ماكيتات لفرقة جنود تابعة للمحافظة(٥٣)، وموجودة بالمتحف المصري.

وشكلت هذه الطريقة في استخدام الجنود بشكل محلي خطرا جديدا على وحدة البلاد؛ لأن وجودهم تحت إمرة المحافظين مباشرة شجع هؤلاء المحافظين على التنافس المسلح فيما بينهم، ودفع أقوياءهم إلى الطمع في السيطرة على المحافظات الأخرى(٥٤).

كما تجلى انهيار الجيش في احتلال الغزاة للوجه البحري مجددا بعد سقوط الدولة المركزية، وفي ذلك قال نيكولا جريمال: "والأدهى من ذلك أن البدو "الساكنين فوق الرمال" الذين حاربهم "أوني" في زمن سابق أخذوا يجتاحون الدلتا عند نهاية الأسرة الثامنة(٥٥)".

وبتتبع الأسباب والنتائج التي رمت مصر مقيدة الأغلال بين نار وأنياب الفوضى "إزفت" نهاية الأسرة ٦ كما نقلتها لنا البرديات والآثار.. كم منها ينطبق عليه ما ورد في البنود الـ ١٧ لدستور خراب مصر؟

واللافت أنه في تحذيرات "إيبو ور" ردد عبارة "والأجداد قد تنبأوا(٥٦)"، فهل يقصد وصية الأجداد

---

(٥٣)- انظر نفس المرجع، ص ١٤٥
(٥٤)- انظر نفس المرجع
(٥٥)- تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، مرجع سابق، ص ١٧٩-١٨٠
(٥٦)- موسوعة مصر القدية، سليم حسن، مرجع سابق، ص ٣٠٢

والأرباب المؤسسين بعدم التفريط في ""ماعت" وبعدم الغفلة عن الحدود وانتشار الأجانب في البلاد؟

"إن البوابات [الحدود] التي فوقك كبوابات حامية.... إنها سوف لا تفتح للغربيين، إنها سوف لا تفتح للشرقيين، إنها سوف لا تفتح للجنوبيين، إنها سوف لا تفتح للشماليين، إنها سوف لا تفتح لهؤلاء الذين في وسط الأرض، إنها سوف تفتح لحورس"[٥٧].

فاستحقت الأجيال التي لم تلتزم بها عقاب الإله الذي حذر منه بتاح حتب في الأسرة ٥:

"إن الذي يفعل الماعت فذلك الذي يكون بعيدا عن الضلال"، "يحل العقاب دائما بالذي يتخطى قواعدها"[٥٨].

(٥٧) - وصية نصوص الأهرام، القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، مرجع سابق، ص ١٢٥- ١٢٦

(٥٨) - انظر تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

قد غفونا وانتبهنا فإذا نحن غرقى وإذا المـوت أمـم

ثم كانت فترة مقدورة غرّ فينا الدهـر ضعفٌ فهجـم

فتماسكنا فكانت قـوة زلزلت ركن الليـالي فانهــدم

كان في الأنفس جـرح من هوى نظر اللـه إليه فالتأم

فنشدنا العيش حرا طلقا تحت ظل اللـه لا ظـل الأمم

آفة المرء إذا المرء ونى آفة الشعب إذا الشعب انقسم

ليس منا مَن يَني أو ينثني أو يَعُقّ النيلَ في رعي الذمم[1]

[1]- حافظ إبراهيم الأعمال الكاملة، قصيدة قد غفونا، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١٧٠

المشهد ٥: الولادة الجديدة (الدولة الوسطى)

(١٩٩١-١٦٣٣ ق.م)

(شروق ماعت)

▲▲▲ معركة التحرير

المتتبع لسير زعماء مصر في التاريخ القديم، يجد أن من ترك بصمته في عمارها وصلاحها يبدأ عهده يتفقد الحدود المصرية بإرسال حملات تفتيشية تطرد من تسلل إلى داخلها- أو يطرد احتلال قائم- ويتفقد حالة الحكم ما إن كان خالصا للدولة أم تناطحه مراكز قوى يلزم ردعها، ويتفقد حالة الأرض ليقيم مشاريع الري والزراعة ويواصل مشاريع سلفه، ويتفقد القوانين وأحوال الناس ليعلم إن كانت "ماعت" في مكانها أم محجوبة ليعيدها إلى عرشها وتتلألأ بها مصر تحت شمس رع.

واستمرت الفوضى التي تفجرت في الأسرة ٦ وسرعة تعاقب الحكام وأدعياء الشرعية ١٥٠ سنة، حتى وصل الحال إلى أن مصر في الأسرة ١٠ حوالي سنة ٢١٣٠ ق.م أصبح يحكمها عائلتان.

العائلة الأولى عائلة الأناتفة، نسبة إلى مؤسسها "إنتف"، وتحكم الوجه القبلي حتى طيبة، ثم العائلة الإهناسية، نسبة إلى تمركزها في أهناسيا ببني سويف، وحكمت المحافظات من بعد طيبة وحتى منف في الجيزة، فيما الوجه البحري يرعى فيه الأجانب رعي الخنازير، القبايل الآسيوية في شرقه، والقبايل القادمة من نواحي ليبيا في غربه.

وكلا من العائلتين يسعيان لإعادة توحيد الحكم في البلاد تحت حكومة مركزية واحدة كما كانت في العصور السالفة، ودخلا في معارك واجه فيها المصريون بعضهم في مشاهد مؤلمة.

وفي فترة وئام اعترف "إنتف الأول" في طيبة بشرعية "خيتي الأول" من العائلة الأهناسية كحاكم لكل مصر، ثم تصارع خلفاؤهما على الحكم، ونشبت بينهما معارك مركزها في مدينة "ثني" قرب أبيدوس في سوهاج، وهي المدينة التي تفصل بين منطقة نفوذ كل منهما[٢].

---

(٢)- للمزيد عن هذه الفترة انظر رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، رمضان عبده علي، وزارة الآثار، المجلس الأعلى للآثار، مشروع المائة كتاب، القاهرة، الجزء الثاني ص ٣٠٢- ٣٠٨

ومن مآثر البيت الأهناسي أنه رغم التنافس مع البيت الطيبي إلا أنه سعى لتحرير الوجه البحري من الأجانب، وأعاد فتح طرق التجارة مع فينيقيا لاستيراد خشب الأرز.

فقد سعى الآسيويون المتسللون للانخراط داخل الشعب المصري، حتى اتبعوا عاداته وتسموا أحيانا بأسمائه، مع احتفاظهم فيما بينهم بعاداتهم وتقاليدهم وأسماءهم وأسرارهم، ليضمنوا ألا تقوم مقاومة ضدهم تحرمهم مما سيطروا عليه من أرض وثروة، ولكن ظل المصريون خارج الوجه البحري، وربما فيه، ينكرون على البدو المتمصرين سيادتهم، فاستغل خيتي هذه الروح، ونجح مع جيشه في إبعاد بعض الأموريين وكسر شوكة بعضهم الآخر[٣].

ووردت سياسة خيتي الثالث (أو الرابع) في ردع الأجانب عن مصر في تعاليم مشهورة ألقاها على ابنه وولي عهده مري كارع وحفظها المصريون لأجيال قادمة، معروفة باسم "تعاليم خيتي"، ويوجد نسخ منها في متاحف موسكو وكوبنهاجن والأرمتياج، وتشمل إلى جانب سياسته ضد الأجانب الغزاة والمتسللين، سياسته في الحكم.

ومما ورد فيها ويظهر روح وتفاصيل "ماعت" في الحكم والإدارة والأخلاق: "استخدم اللباقة في كلماتك، إذا كنت تريد أن تصل إلى أغراضك، إنه بالنسبة للملك اللسان مثل السيف، والكلمة أكثر قوة من كل الأسلحة، لا أحد يستطيع أن يخدع خطيب ماهر، ومن هو متكبر فهو يسعى للنهاية، ولا تكن قاسيا، وتحكم في نفسك فهذا شيء حسن، وشيد لنفسك أثرا خالدا بحب رعاياك، وقوِ حدودك، لأنه من الأفضل أن تكون مستعدا للأحداث المقبلة[٤]".

وقال عن خطر الأجانب: "هؤلاء الأجانب كانوا بمثابة حائط مغلق، ولكنني فتحته... وعملت على أن يعاقبهم الوجه البحري، وسلبت ممتلكاتهم، واستوليت على قطيعهم، حتى أصاب الآسيويين التقزز من مصر، وبناء عليه لا تشغل بالك بهذا، إن الآسيويين من الآن فصاعدا مثل التمساح على الشاطئ (البلاد)، في مقدوره أن يبتلع رجلا بمفرده، ولكن لا يستطيع أن يستولي على أرض بها مدن عديدة[٥]"، وعلى هذا الأساس تحدث لابنه عن أهمية إنشاء مدن محصنة شمال شرق مصر، وتعميرها بخير الرجال، يسكنونها ويزرعون ما حولها، ويتحصنون بها حين الشدة، ويصدون منها غارات القبايل الغازية.

فقال له: "لا تتهيب العدو فهو لا يغير إلا على الموطن المنعزل، ولا يجرؤ على مهاجمة مدينة عامرة بالسكان (...) أقم الحصون في كل المناطق الشمالية، ولاحظ أن سمعة الرجل فيما يفعله ليست بالشيء الهين، والبلد العامرة بالسكان لن يمسها سوء، فابن مدنا[٦]".

ولكن هذا لا يكفي دون تعود المصريين على التحفز للخطر طول الوقت، والاستعداد له قبل أن يقع، فالوقاية

---

[٣]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ١٤٨

[٤]- رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٣١١- ٣١٢

[٥]- نفس المرجع، ص ٣١٣

[٦]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ١٤٩

خير من العلاج، وعلى هذا حث ابنه على "بث الروح الحربية في البلاد والعناية بمجنديها الشبان[٧]".

وهوَّن عليه شأن أعدائه البدو وضعف حيلتهم في عبارات تدل على معرفته بعاداتهم وأحوال المناطق التي يعتصمون بها وتتوافد هجراتهم منها قائلا: "هذا هو شأن البرابرة، فالعدو اللعين موطنه وعر، وماؤه آسن، حزون بكثرة غاياته، سيئة طرقاته بما يكتنفها من المرتفعات، ولذلك لم يستقر في مكان واحد، واستمر دائم الترحال، وظل يشاغب منذ عهد (الإله) حور، فلا هو يَغلب ولا هو يُغلب[٨]".

ما يعني أن ينتبه المصريون إلى أنهم في رباط دائم، لا تسكرهم نشوة نصر، ولا يغرهم حالة قوة، فعدوهم "ديب مسعور"، يحوم بلا هوادة حول الحدود الأربعة، ينتصب يراقبنا في لهفة للحظة غفلة، فيقفز غارسا أنيابه تقطر بالدماء في رقابنا، كالشيطان لا ييأس ولا ينتهي، السطو طبعه، وهو كثير الحيل.

وتوفي خيتي، ثم توفي ابنه مري كارع، وتعاقب حكام ضعاف على الأسرة ١٠، فاستغلت أسرة الأناتفة الحال لإحكام سيطرتها على أهناسيا وإعادة مصر إلى الحكم القوي الواحد، وأسسوا الأسرة ١١.

▲▲▲ عودة الروح

تمكن المصريون في عصر منتوحتب الثاني من تحقيق حلم البلاد في الرجوع لأصلها تحت ظل حكم واحد بعد سنوات طويلة من المعارك أفنى فيها منتوحتب شبابه، فسيطر على أهناسيا، وطارد المتمردين إلى الصحراء، ثم التفت إلى الدلتا لاستكمال تحريرها من الغزاة، فهدأت روح البلاد بعد طول شقاء، وكأنه هو المخلص الذي اشتاقت إليه بردية "إيبو ور".

وأعاد المناصب القديمة مثل الوزير (أي رئيس الوزراء) وحامل الأختام، وثبَّت المخلصين في مناصبهم، وأزاح المتمردين، وخفف سلطات المحافظين، فاختفى لقب "حاكم الإقليم العظيم" وغيره من الألقاب الضخمة التي انتحلها المحافظون لأنفسهم خلال عصر اللامركزية الأولى[٩].

ومع إعادته للمركزية المقدسة أحيا روح اليقظة في تتبع العدو التي أخذت بها الدولة القديمة في أوقات صحوها، فقاد حملة في الصحراء الغربية ضد قبائل الـ"تمحو" والـ"تحنو"، وفي سيناء ضد بدو الـ "منتيو"، وأمَّن حدود البلاد ضد تسلل الآسيويين، وطاردهم حتى نهر الليطاني داخل الشام، وحاول استعادة ما كان لمصر من نفوذ في النوبة عند نهاية الأسرة السادسة[١٠]".

وإذا كان منتوحتب الثاني محاربا عظيما، فقد كان أيضا بناءً عظيما[١١]، فشحذ همة شعبه لترميم آثار الأجداد في إلفنتين ودندرة والكاب وأبيدوس، وإقامة مبانٍ ضخمة جديدة مثل معبده العظيم في الدير

---

[٧]- نفس المرجع، ١٤٨

[٨]- نفس المرجع، ص ١٤٩

[٩]- انظر نفس المرجع، ص ١٥٦

[١٠]- انظر تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، مرجع سابق، ص ٢٠٢

[١١]- انظر تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، مرجع سابق، ص ٢٠١

البحري، الذي أقامت حتشبسوت بعد ذلك بمئات السنين معبدها على شاكلته، وضم معبد منتوحوتب مقبرة لجنوده الذين استشهدوا خلال معارك تطهير البلاد، ودفنهم في معبده إلى جواره تكريما لهم.

واتخذ لنفسه في السنة ٣٩ من حكمه- بعد أن أتم التحرير وعودة المركزية المقدسة وتطهير الحدود- لقب "سما تاوي"، أي موحد الوجهين، واتخذ من طيبة، واسمها "واسط" باللغة المصرية، عاصمة.

وعن عودة هيبة مصر بعودة هيبة حاكمها ودور هذا في ردع الأجانب قال قائد بالجيش وهو يسجل النصر على الغزاة الآسيويين: "كان الخوف منه [أي من حاكم مصر] هو الذي جعلهم يخشونني، وكانت سطوته هي التي جعلتهم يرهبونني، كما أن حب (الأرباب) له هو الذي جعل الأرضين [مصر] تعشقانه[١٢]".

ونلمس في هذه الكلمات البسيطة النظرة المصرية للدين والوطن، أنهما عملة واحدة، فرضا الإله عن حاكم مصر هو الذي جعل مصر وأهلها يحبون الحاكم، والحاكم نفسه اكتسب حب الإله بأن أعاد الحرية الطمأنينة لمصر، وأعادها مرهوبة الجانب من جيرانها.. فـ "عمار مصر.. الطريق إلى الإله".

وسجل قائد آخر على صخور أبيسكو قرب الشلال الأول (في أسوان) أنه كان ضمن حملة قادها منتوحتب الثاني بنفسه للحدود الجنوبية، وشن حملة لفرض هيبة مصر في نفوس أهل "جاتي" بالشام[١٣].

وفي نفس الوقت، ازدهرت من جديد حركة العلم والفن والأدب مع رفرفة روح الناس بالفرحة لما عادت مصر لأصلها كما حفظها وجدانهم، فتجدد الأمل وانتعش الإحساس بالثقة والاطمئنان والقوة، وبلغ الأدب المصري في الدولة الوسطى مبلغا عظيما تعلمته الأجيال التالية في المدارس حتى عصر الدولة الحديثة، ومن أشهر نصوصه قصة الملاح الناجي، وقصة سنوهي التي تتحدث عن أهمية الوطن، وخطيئة تركه، وخطيئة العيش الطويل في بلاد أجنبية، كما حصل تقدم كبير في علوم اللغة، حتى تسمى عصر الدولة الوسطى بأنه العصر الذهبي للغة المصرية واتقان الخط الهيراطيقي.

---

(١٢)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ١٥٦

(١٣)- انظر نفس المرجع ص ١٥٩



تمثال منتوحتب الثاني منحوت على شكل أوزيري وتلون الجسد باللون الأسود رمز اللانتقال للعالم الآخر في شكل المومياء (المتحف المصري)

توفي الفلاح المقاتل منتوحتب الثاني حوالي ٢٠١٠ ق.م بعد ٥١ من الحكم المضني، طواها في الكفاح والبناء؛ فحفظت له الأجيال اللاحقة ذكراه العطرة، وكرموه كتكريم مينا وزوسر وأحمس، وخلال الاحتفالات بذكرى الأجداد حملوا تمثاله على الأعناق بشكل مميز كمينا وأحمس، اعترافا بدور الثلاثة في تحمل المشاق الرهيبة لإعادة البلاد إلى طبيعتها الأولى، بعد أن تسلموا الحكم وهي في حالة احتلال أو تشتت، وإعادة "ماعت" (الحق والأصول) إلى نصابها.

▲▲▲ وصفة عمار مصر

اتبع منتوحتب وجيله "وصفة عمار مصر" الرباعية لإنقاذها وإحيائها، وهي خلاصة دستور المصريين "ماعت":

١- جمع شمل البلاد تحت حكم مركزي قوي مهاب رادع

٢- منع أي مراكز قوى تناطح الدولة

٣- تطهير البلاد وحدودها من المتسللين والمستوطنين الأجانب

٤-السير على الأصول المصرية "ماعت" في كل نواحي الحكم والحياة

وخلفه ابنه منتوحتب الثالث، ورغم أنه كان كبير السن، ولم يستمر حكمه أكثر من ١٢ عاما، لكنه أكمل مشروعات والده في تنمية البلاد، وأقام التحصينات لحماية حدودها، وبعث حملة لتنشيط التجارة مع بلاد

بونت في شرق أفريقيا عادت محملة بالخيرات[١٤].

وبوفاته ساد الغموض الفترة التالية له، ولم تظهر وثائق تكشف أحوال البلاد، إلا أن المعروف أنه تسلم الحكم منتوحتب الرابع، ومنه انتقل لأسرة جديدة في ظروف غامضة، هي الأسرة ١٢ صانعة المجد العريض، أسسها أمنمحات الأول، وكان قبل الحكم قائدا في الجيش ثم رئيسا للوزراء.

وبخبراته الحربية، واصل أمنمحات مشوار منتوحتب الثاني بتقوية تحصين حدود مصر، فقاد بنفسه حملة للحدود الشرقية، ودعَّم التحصينات التي بناها أسلافه، وشيد حصونا على الحدود بين مصر وفلسطين اشتهرت فيما بعد باسم "أسوار الأمير"، وفي فترة متأخرة باسم "جدار الوالي".

وفي الداخل، ركَّز على إعادة تنظيم الجهاز الإداري، واستهل حكمه بنقل العاصمة من طيبة إلى مدينة جديدة اسسها باسم "إثت تاوي"، اللشت حاليا، قرب الفيوم، وأرجع نظام التجنيد العسكري[١٥]، وأرسل حملة بقيادة ابنه سنوسرت لمطاردة المتمردين والخصوم الذين لجأوا إلى القبايل في الحدود الغربية.

واتبع أمنمحات الأول سياسة منتوحتب الثاني في أنه ثبَّت المحافظين المتوافقين مع سياسته مثل حاكم إقليم الوعل في الصعيد، وأبعد من كانوا على خلاف مثل محافظي آبو في أسوان والقوصية في أسيوط، وهو ما يعني زوال توريث هذه المناصب، وعودة هيبة العاصمة على الجميع.

وحتى بالنسبة لمن عيَّنهم من المحافظين حرص على أن يشعروا بأن يده [الدولة] هي اليد العليا، فتدخل بنفسه في تحديد حدود المحافظات، ورسم سياستها، وتعيين موارد الري فيها، وتحديد سلطاتهم[١٦].

وبعد مشوار طويل استمر ٣٠ سنة في البناء والحرب انتهت حياة أمنمحات باغتياله لأسباب غامضة ومختلف عليها عند علماء الآثار، وهو من الاغتيالات النادرة التي تعرض لها الحكام المصريون في التاريخ القديم، فيما كانت الاغتيالات منهجا منظما في العائلات الحاكمة في بلاد أخرى معاصرة لمصر في ذلك الزمان أو لاحقة كبلاد النهرين واليونان والرومان والعرب والأتراك إلخ.

وتسلم سنوسرت الأول الحكم بعده في سلام، دون شقاق أو صراع مع أحد على الحكم، واتصف عهده الذي استمر ٣٤ عاما بأنه عهد أمن وسلام، اتبع سياسة أبيه في حب التشييد والبناء، واهتم اهتماما خاصا بتعمير واستصلاح الأراضي الزراعية في الفيوم التي حوّلها إلى جنة واسعة، وفي ذات الوقت شن حملات لصد مخاطر القبايل المغيرة على مصر من شمال السودان، فوصل بقواته للشلال الثالث في بلاد كوش (السودان الحالي وما ورائه).

وهنا.. أطلَّ بوجهه الكاحل خطر آخر بقرونه الحادة وروحه الوحشية من الحدود الجنوبية، فبعد أن كانت الحدود الشرقية والحدود الغربية صاحبة النصيب الأكبر في اهتمام الحكام السابقين، وجَّه سنوسرت

---

[١٤]- تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، ص ٢٠٣

[١٥]- للمزيد عن أمنمحات الأول انظر نفس المرجع، ص ٢٠٦

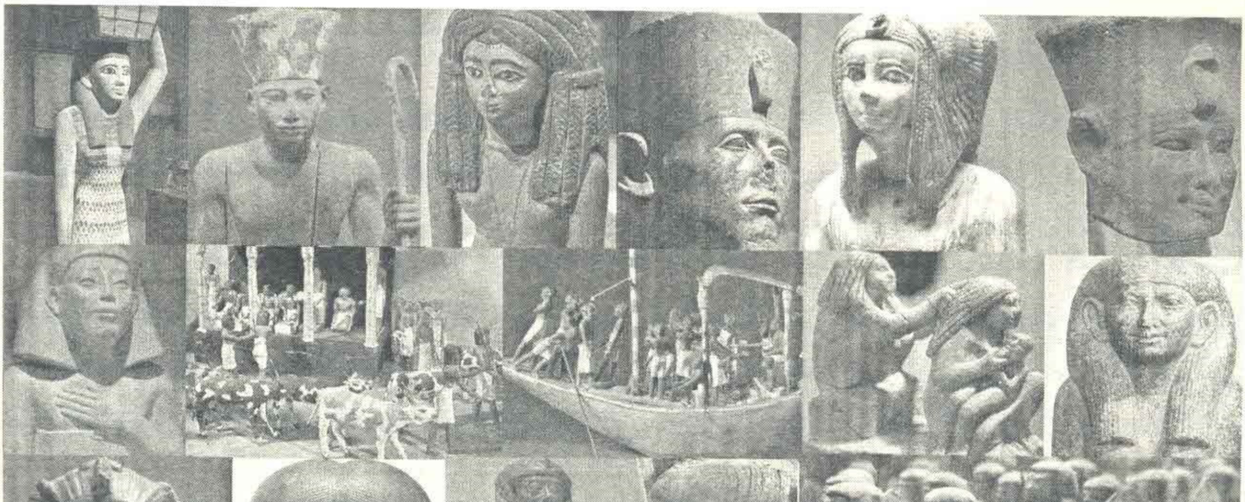
[١٦]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ١٦٦

الأول اهتماما خاصا بالحدود الجنوبية لزيادة مطامع القبايل الكوشية في مصر.

فأرسل لها حملات حربية، ودعَّم الحصون ضد هجرات زنجية دفعت أمامها جماعات سودانية (؟) إلى منطقة النوبة؛ فأشاعت الاضطرابات فيها، وأطلقت النصوص المصرية اسم "كاش" منذ ذلك الحين على منطقة النوبة العليا (واقعة ضمن شمال السودان حاليا) التي تمتد من الشلال الثاني وقد حُرِّف هذا الاسم فيما بعد إلى كوش، وذلك في مقابل الاستمرار على تسمية منطقة النوبة السفلى [المشهورة باسم النوبة المصرية] التي تمتد فيما بين الشلال الأول والشلال الثاني باسم "واوات"[١٧].

وفرض الأمن والنظام في الواحات بالصحراء الغربية، وفي سيناء لتأمين مناطق العمال في المحاجر وطرق التجارة مع بلاد الشام[١٨].

سارت الأمور في البناء والتشييد والسلم على حالها الطيب في عهد خلفائه أمنمحات الثاني وسنوسرت الثاني الذي استكمل تعمير الفيوم وتوسيع استصلاح الأراضي بها التي كانت تغطيها المستنقعات والبرك في عهد الدولة القديمة، بل وأنشأ فيها سدا عظيما لإمداد مصر بالمياه في أوقات الجفاف، اشتهر باسم "سد اللاهون" جعل من الفيوم سلة غذاء لمصر.



بعض أبرز وجوه المصريين حاكمين ومحكومين من الأسرتين ١١ و ١٢ وفن التعبير فيها استكمال لما كان عليه في الدولة القديمة

وتميز فن النحت بخصائص تعكس التجديد في الإبداع المصري، فابتعد لحد ما عن المثالية الشديدة في تصوير وجه الحاكم المميزة للدولة القديمة، فأطلق الفنان ليده العنان لتهدينا ملامح أكثر واقعية وإنسانية، فنرى في وجه سنوسرت الثالث مثلا ملامح مجهدة، ولكن حازمة، كأنما تعكس إصرار صاحبها على

---

(١٧)- انظر نفس المرجع، ص ١٧٦

(١٨)- تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٢١١-٢١٢

استكمال مهمته مهما كلفه الأمر، ولم يرفض أن تظهر التجاعيد في وجهه، ما أسس لظهور المدرسة الواقعية في الفن، وظهر ميل فنانينا لإظهار خضوع الحكام- مثل بقية الناس- للأرباب[١٩].

ويعتبر سنوسرت الثالث من أقوى الحكام وأكثرهم تأثيرا في نفوس الناس وقتها، حتى أن الفنانين عكسوا قوة بأسه وشكيمته وحبه للبناء والحرب في الملامح اللي نحتوا بها تماثيله، ويحسها المتأمل لتمثاله الشامخ في المتحف المصري بالقاهرة، حتى أنه يردد التعبير المصري إنه "شايل الهم".

وأحسن سنوسرت الثالث الاستفادة من ثمار تعب وكفاح أسلافه بأن واصل تحقيق الأهداف التي خططوا لها على مراحل، ولم يتيسر لهم تحقيقها دفعة واحدة.

ولأنه ممن احترموا "ماعت" استكمل سنوسرت الثالث عمل أجداده في القضاء المبرم على النفوذ الباقي لبعض المحافظين ومراكز القوى، فإن كان أسلافه على مدى ١٠٠ سنة نجحوا في ترويض العائلات الكبيرة التي استأثرت بالحكم والثروة خلال عصور الفوضى، لكنهم لم يصلوا للقضاء التام على نفوذها، تركة عصر الفوضى الأولى كانت ثقيلة؛ فظل بعضها محتفظ بتوريث المنصب لأولاده، فأنهى سنوسرت الثالث بعد أن قويت شوكة توريث منصب المحافظ، وقلل ثرواتهم، بل وألغى منصب حاكم الإقليم نهائيا[٢٠] كفترة انتقالية لتخليص المحافظات من التحالفات الموروثة.

وعوضا عن ذلك استحدث تنظيما إداريا تولى فيه الوزير [رئيس الوزراء] الإشراف الكامل المباشر على المحافظات عبر ٣ وزارات: وزارة للوجه القبلي وأخرى للوجه البحري وثالثة لـ "رأس الجنوب، وتشمل إلفنتين والنوبة بأسوان، وأتى هذا بنتائج طيبة؛ إذ فقد كبار العائلات سلطانهم؛ وبالتالي برزت الناس من ذوي الحالة المتوسطة، الأمر الذي يمكن تتبعه في زيادة النذور المرسلة لـ أوزير في معبد أبيدوس[٢١].

وفي الوقت نفسه أشّعت لسنوسرت الثالث شخصية حربية عنيدة قوية الإرادة حتى أنه أعلن "تبرأه من كل ولد له لا ينهج منهاجه في الحرب وحماية حدود بلاده وتوسيعها[٢٢]".

فقد واجهت مصر في عهده حركات مريبة قرب حدودها الشمالية والجنوبية معا، فاضطر الرجل إلى التوغل الحربي في دول الجوار لتأمين الحدود وطرق التجارة وبث الاحترام في نفوس الجيران، وقاد أغلب حملاته بنفسه إلى أواسط فلسطين، وله معركة فيها قرب سكيم أو سشم الحالية[٢٣].

وعودة تجرؤ قبائل الشرق والجنوب على مصر مجددا سببها سياسة السلام التي اتبعها قبله أمنمحات الثاني وسنوسرت الثاني وهما منشغلان بالبناء في الداخل، وهبوط روح التحفز والمراقبة الشديدة للحدود.

فقد ظلت هجرات الزنوج والسودانيين التي ظهرت أيام سنوسرت الأول تهدد النوبة، فحاربهم

---

(١٩)- انظر المتحف المصري، محمد صالح علي وهووريج سوروزيان، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، ص ٣٥ -

(٢٠)- انظر تاريخ مصر القديمة، جريمال، ص ٢١٥- ٢١٦

(٢١)- للمزيد عن هذا الإصلاح انظر المرجع السابق، ص ٢١٥- ٢١٦

(٢٢)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ١٧٤

(٢٣)- نفس المرجع ص ١٨٠

سنوسرت الثالث ٤ مرات، ومهد لحروبه معهم بشق فتحة واسعة بين صخور الشلال الأول- رغم صلابتها- بلغ عرضها ٢٠ ذراعا، وبلغ طولها ١٥٠ ذراعا وعمقها ١٥ ذراعا لتيسر انتقال الجيش والأسطول، وزاد الجنود الحصون فوق المرتفعات على ضفتي النيل وفوق الجزر من أسوان حتى وادي حلفا[٢٤].

وترك سنوسرت الثالث، الذي حكم ٣٦ سنة، في معبد حصن سمنة قرب وادي حلفا [عند الشلال الثاني بالسودان حاليا] نصبين من الجرانيت لتحديد حدود مصر الجنوبية، وأمر ألا يتعداها زنجي قط عن طريق البر أو النيل، إلا من ابتغى التجارة في سوق إيقن الكبير بأسوان، أو وفد في مهمة، فأولئك يعاملون بالحسنى، ولكن بغير أن تتعدى سفنهم شمالي سمنة[٢٥].

وتدل أنشطة حكام مصر الحربية المتواصلة هذه في النوبة وسيناء حتى رفح وفي الصحراء الغربية حتى مرسى مطروح لطرد الغزاة، وإقامة حصون وقلاع في هذه الأطراف لمنع عودتهم على أنه لمصر حدودها المعروفة طوال ذلك التاريخ، ولم تختلف كثيرا عما هي الآن، وفي هذا رد واضح على من يدعي أن فكرة الحدود "بدعة حديثة"، أو بدعة وضعها "الاستعمار الأوروبي"، وأن البلاد مشاع للجميع.

وحظي سنوسرت بنصيب كبير من تمجيد شعبه، واحتفظت الأجيال بذكراه، فظلت بعض حصون النوبة تسمى باسمه، وذكره تحوتمس الثالث، المحارب العظيم، بالخير بعد نحو ٤ قرون من وفاته، وشيد له نصبا باسمه، وعندما وفد المؤرخون الإغريق والرومان بعده بمئات السنين سمعوا عنه حكايات شيقة[٢٦].

وتسلم الأمانة ابنه أمنمحات الثالث، وحكم ٤٥ عاما، عاشها جيله في استكمال مشاريع آبائه وأجداده، فبنى هرمين في دهشور وهوارة بالجيزة والفيوم، ودَّعم الحصون عند سمنة على الحدود مع كوش (السودان) وحصون سيناء، وإلى جانب استكمال مشاريع الري في الفيوم كثَّف التواجد البشري في سيناء، فبعد أن كانت معسكرات العمال في المحاجر ومناجم الفيروز والنحاس موسمية جعلها دائمة تضم منازل وآبار وجبانات، وأجرى توسعات في معبد حتحور "سيدة الفيروز" بسرابيط الخادم وسط سيناء[٢٧].

وهكذا صارت مصر "ماعت" مجسدة على الأرض.. في أكمل صورة يتمناها البشر من العز والأمن، في عالم يموج وقتها ويتزلزل بالحروب الأهلية والعرقية والمذابح الشنيعة في الشام وبلاد النهرين (العراق) وعيلام (إيران)، وغيرها لتوالي استيطان الهجرات الكثيفة في أراضيهم وعدم نضج عقيدة الدولة الوطن والحكم المركزي عندهم حتى ذلك الوقت.

وبمراجعة الأسباب والنتائج التي حرر بها الزعماء في الأسرتين ١١ و١٢ مصر من نار الفوضى الدامية كما نقلتها لنا البرديات والآثار.. كم منها ينطبق عليه ما ورد في البنود الـ ١٧ لدستور عمار مصر؟

---

[٢٤]- نفس المرجع

[٢٥]- نفس المرجع ١٨٠-١٨١

[٢٦]- المرجع السابق، ص ١٨١

[٢٧]- انظر: تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٢١٧- ٢١٨

"إن السماء تكون في سلام، والأرض تكون في سرور، ذلك أنه قد أُشيع أن الملك سوف يضع "الماعت" لتحل محل (الباطل)"[٢٨].

(نصوص الأهرام **Pyr.1775**)

"إنه قد محا الظلم لأنه أحب العدل (**ماعت**) كثيرا"

(نقش يصف أمنمحات الأول بعد ٣ أجيال من وفاته[٢٩])

"إنها [**ماعت**] لا تتغير ولا تتبدل منذ زمن الذي أوجدها"

(الحكيم بتاح حتب)

إنه "الذي يضع **الماعت** في مكان الباطل"[٣٠]، أي بدل الباطل

(نصوص الأهرام **Pyr, 265** عن صفة الحاكم الصالح)

"إن صلاح الأرض (مصر) ينحصر في تطبيق **الماعت**"[٣١]

(الفلاح الفصيح في شكواه الثالثة)

---

[٢٨]- راجع تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

[٢٩]- موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، ج ١٧، مرجع سابق، ص ٣٢٢

[٣٠]- فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

[٣١]- نفس المرجع

تاني تاني تاني

حنروح للحيرة تاني

ونضيع ونجري ورا الأمــاني

ويغيب القمر ونعيش الســهر

وأهـات الألم في ليالي النـدم

بتصحي الطريق خطاوينا وأنين السنين

والسما بتبكي علينا والنــاي الحـــزين

حتى نجوم ليالـيـنا والقـمر غايبيـــــن[١]

---

[١]- أغنية موعود، كلمات محمد حمزة، ألحان بليغ حمدي، غناء عبد الحليم حافظ

المشهد ٦: سقوط الدولة المركزية (الزفتة الثانية)

١٦٣٣- ١٥٥٢ ق.م

مصر تدفع الجزية

▼▼▼ ونسيت مصر.. !

في فيلم "العتبة الخضرا" سأل الرجل الطيب مبروك التاجر الماكر يوسف: "إنت إزاي بتكسب الفلوس دي كلها؟"، فقاله:" ببص على السوق محتاج إيه وأوفره، ولو لقتوش محتاج أخليه محتاج[٢]".

مبروك يمثل مصر في سلامة نيتها مع الآخرين، هذه الطيبة التي تظن أن الجميع مثلها طيبون- مداموا لا يرفعون في وجهها السلاح- فتصدق ما يقولونه لها، فيبيعون لها الوهم والفخ (العتبة الخضرا)، ويوسف هو أعادي مصر الدايمين الذين إذا فشلوا في اختراقها بالسلاح اخترعوا لها الحجج لتقبلهم في أرضها، وأغروها ببضايع لا تحتاجها في الأساس، ولكن بسحر لسان تاجر محترف "تزويق البضاعة" يوهمونها أنها تحتاجها، فتفتح لهم أبوابها على مصراعيها.

ودايما.. تبدأ مؤشرات الانهيار في مصر في اللحظة التي تصل فيها شدة لمعان القوة المصرية إلى أشدها، وتخطف أبصار جيرانها، ولكنها، وياللعجب، تخطف كذلك أبصار المصريين عن رؤية أعاديهم ومكايدهم أحيانا، وعن حماية بلدهم من "رباعي السقوط".

▼▼▼ وصفة خراب مصر

لم يقصد حاكم مصري خالص المصرية اتباعها مطلقا، ولكن بعضهم اتبعوها عن غفلة وإهمال، والغفلة نتيجتها أشنع من الخيانة.

و(وصفة خراب مصر) هي "رباعي السقوط" المعاكس تماما لـ"رباعي العمار" (وصفة عمارة مصر) وهذا الرباعي المعاكس هو خلاصة البنود الـ ١٧ لدستور الشيطان "إزفت":

---

(٢)ـ فيلم العتبة الخضرا، تأليف جليل البنداري، إخراج فطين عبد الوهاب، تمثيل: إسماعيل يس وأحمد مظهر وصباح

١- اللامركزية في الحكم وضعف قبضة الدولة

٢- ظهور مراكز قوى سياسية واقتصادية وفنية ودينية تناطح الدولة

٣- إهمال الحدود وفتح أبواب مصر لهجرات أجنبية وتوطينها

٤- السير على دساتير ووصفات أجنبية في الحكم والحياة مخالفة لـ ماعت

ففي أيام سنوسرت الثالث، وبفضل قضائه هو وأسلافه أعمارهم في حماية مصر من الغزوات، وفي فلاحة أرضها وعمارتها، وتفتيت مراكز القوى الشاذة، وصلت مصر لأعلى سماء المجد، وباتت كالشمس المتلألأة بين جيرانها، توقظ بداخل الطامعين حنين العودة إلى غزوها من جديد.

ولأن مصر وقتها حصنت الحدود، وباتت قادرة على ردع من يرفع في وجهها السلاح، فكان التسلل بإلقاء السلاح- مؤقتا- والدخول في ثوب التجارة وطلب العمل في المهن الشاقة واللسان الحلو لقبول لجوئهم لمصر هربا من الهجرات الأمورية التي تمزق الشام هو سلاح الاختراق.

ولأن مصر وقتها عامرة بالمشاريع القومية الكبيرة، وبالإنتاج الوفير، وبحركة التجارة مع أفريقيا والشام، فقد استوعبت هؤلاء، ووجدوا من أشفق على أحوالهم، ومن تغريه بضايعهم وصناعاتهم الغريبة الطريفة القادمين بها؛ لأنهم كانوا تجارا شاطرين، رغم عدم حاجة المصريين لها أساسا، لكن ذاكرة المصريين "تصفر فيها الريح".

وأعطى المسئولون فرص عمل لمن طلبها، خاصة في الوظائف الشاقة والصغيرة، ولم ينتبهوا إلى أنهم خلال سنوات سيتكتلون ويحصلون على وظائف أكبر وأكبر، وينشرون الفتن والأزمات مجددا، حتى يحكمها ذلك الغريب الذي جاء متوسلا الرزق والأمان.

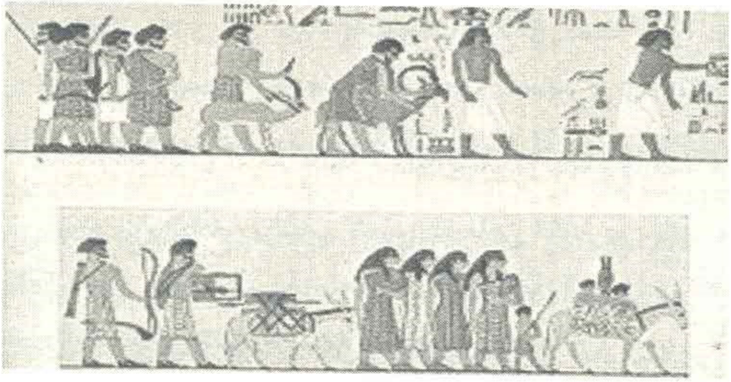
واحتفظت نصوص من عهد الدولة الوسطى بأسماء كنعانية كثيرة عمل أصحابها في مناجم ومحاجر سيناء، وأتباعا وإماء في المعابد والبيوت المصرية[٣]، وبعض الأيدي العاملة الأجنبية جاءت ومعها تقنيات جديدة، وبدأت عملية تسلل بطيئة مهدت الطريق أمام السيطرة الآسيوية إذا حانت الفرصة[٤].

كما ارتدى التسلل ثوب التجارة، وتظهر لنا مقبرة "خنوم حتب الثاني" في بني حسن بالمنيا نقوشا لجماعة أجنبية يتزعمهم شخص ذكرته باسم "إبشيا" قادمة للمنيا، وفيها رجال ونساء وأطفال، تحمل هدايا للمحافظ أو بضايع للتجارة، غير أن وجود نساء وأطفال يعني أنهم جاءوا بنية الاستيطان.

---

[٣]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ١٧٩

[٤]- انظر: تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، مرجع سابق، ص ٢١٣- ٢١٤



منظر مأخوذ من نقش في مقبرة خنوم حتب الثاني بالمنيا فيه (من أعلى يمين الناظر) مصريان يقودان شوام بعائلاتهم لتقديمهم إلى مسئول البلدة فور قدومهم لمصر، ويعتقد علماء مصريات أنهم تجار أو مهاجرين أو لاجئين شكلوا مقدمة الغزو الهكسوسي الاستيطاني

وكان أمنمحات الثالث، ابن سنوسرت الثالث، شخصية هادئة مالت إلى حياة السلم مثل جديه أمنمحات الثاني وسنوسرت الثاني، واستحب مشاريع العمران[٥]، ففيما يبدو اطمئن إلى أن مصر فرضت هيبتها بشكل "نهائي" على جيرانها من كرمة في السودان جنوبا وحتى ببيلوس في لبنان، وأن الحصون التي أقامها أسلافه واستكملها هو عند أسوان وسيناء كافية لردعهم، فحدث ارتخاء وتسلل الأجانب، واستهان بأمر الدخلاء بوهم أنهم فئة قليلة، وأن "كله تحت السيطرة"، و"مين يقدر على مصر؟".

ويبدو أن من أسباب غفلة مصر أيضا عن هدف هذا التسلل هو المديح الهايل الذي غمرها به المهاجرون، وما يتضمنه من تبجيل لمصر وتعداد لفضائلها عليهم، وتقليدهم لها في ثقافتها وصناعاتها، إضافة إلى إغراءها بأنواع جديدة من بضايع الفضة والأحجار الكريمة والزيوت ومواد التجميل، سال لها لعاب مصريين كثرت في أيديهم الثروات بعد عودة مصر إلى مركزيتها.

وكذلك العلاقات التجارية الحسنة التي كانت بين مصر وبعض إمارات الشام التي جعلت حركة الذهاب والإياب بين البلدين تبدو "طبيعية"، واطمئن المصريون لأهلها.

وفي ذلك يقول جريمال: "وفي غضون ذلك كانت مصر المثل الذي سار أهل مدينة "بيبلوس" [جبيل على ساحل لبنان] على هديه، فتلقب زعماؤها بالألقاب المصرية، واستخدموا علاماتها الهيروغليفية والمنتجات التي صُنعت على ضفاف نهر النيل[٦]".

ولم ترفض مصر من ناحيتها أن تفتح مجالات العمل أمام الراغبين فيه من شيوخ جنوب سوريا ورجالهم في عمليات استغلال الفيروز في شبه جزيرة سيناء، ولم تأبَ أن تفتح أمام الراغبين منهم في

---

[٥]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ١٧٤
[٦]- تاريخ مصر القديمة، ص ٢١٤

الاستقرار فيها باب الوظائف في عاصمتها ذاتها"[٧]!، بحسب عبد العزيز صالح.

وكما يقول جريمال: "واستقبلت مصر في عهده [أمنمحات الثالث] جمعا غفيرا من العمالة الشرقية من فلاحين وجنود وحرفيين وفدوا إلى مصر، وقد شدهم إشعاعها الحضاري وفرص العمل المتوفرة نتيجة مشاريع التنمية في طول البلاد وعرضها على حد سواء[٨]".

واتسعت صلات مصر التجارية والثقافية بالشام، لاسيما الميناءين التجاريين جبيل وأوجاريت، وعثر في مقابر أمراء هذين الميناءين على آثار مصرية وصلتهم على هيئة الهدايا من أمنمحات الثالث وخلفه أمنمحات الرابع[٩]، واستغل الصناع في الشام البضائع المصرية فقلدوها[١٠].

وهكذا، اطمأنت مصر لمن ظنتهم "أصدقائها" لدرجة الدخول في معارف شخصية على مستوى العائلات الحاكمة، فتبادل أميرات مصريات وأميرات شاميات الهدايا، ومنها تمثال على هيئة أبو الهول للأميرة "إتا" بنت أمنمحات الثاني عُثر عليه في قطنة شمالي حمص بسوريا، وتمثال يجسد "خنمة نفرة حجة"، أخت سنوسرت الثاني، كما وصل الود لدرجة أن مصريات تسموا بأسامي معبودات شاميات كربة جبيل[١١] في انحراف غريب وقتها عن الاعتزاز المعلوم بالدين المصري.

ولم تلتفت الحكومة إلى الإنذارات التي ترّن في الآذان عن نوايا جماعات شامية نحو مصر، مثل مشاكل الحدود التي تنشب بين الحاميات المصرية وبدو الصحاري الفلسطينية من حين إلى آخر.

ومن تأثير انفتاح أمنمحات الثالث الغير محسوب مع الجيران أن سرت روح الارتخاء في خلفائه، أمنمحات الرابع، وحور أوت إب، ونفرو سوبك، ويبدو أنهم كانوا من الحكام الضعاف قليلي الوعي، فيما كان بالتزامن يقوي المهاجرون شوكتهم في الداخل[١٢].

وانتهت الأسرة ١٢ مع حكم الملكة نفرو سوبك القصير حوالي ١٧٨٥ ق. م، وانتقل الحكم للأسرة ١٣، واستمر في معظم عصر الأسرة ١٣ الاستقرار النسبي، والفضل الأول في ذلك لتقاليد العمل العريق بمؤسسات الحكومة والجهاز الإداري[١٣]، بتعبير جريمال.

لكن مع خفوت روح التحدى والحزب واستشعار الخطر، دبَّ الضعف في الأوصال نهاية الأسرة ١٣، وظهرت معالمه بقيام الأسرة ١٤ في سخا بكفر الشيخ بالوجه البحري لمنافسة الأسرة ١٣، فتشتت الحكم

---

(٧)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ١٨٢
(٨)- تاريخ مصر القديمة، ص ٢١٨
(٩)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، ص ١٨١
(١٠)- نفس المرجع، ص ١٧٨
(١١)- انظر: نفس المرجع
(١٢)- يشبه ما جرى في عهد أمنمحات الثالث من ارتخاء وقلة وعي ما حدث في عهد الرئيس حسني مبارك، فبعد عقود من الحروب والكفاح خلدت مصر إلى السلم، وتراخت يداها عن الحدود، وظنت أنها طوت عهود الحروب، وقابلت استعطاف فلسطينيين لها في الشرق وسودانيين لها في الجنوب بأذرع مفتوحة، فتركت فلسطينيين يتسللون إلى البلاد بعدة أشكال، منها الأنفاق، والسودانيين تتكاثر أعدادهم باسم لاجئين، إضافة لتسلل جماعات من ليبيا، وظهرت مخاطر الأنفاق وتوطين الأجانب بعد عام ٢٠١١ في ضرب الاقتصاد والأعمال الإرهابية، خاصة أن مصر غفلت كذلك عن تسلل أعدائها لها فكريا بالتنظيمات والتيارات الفكرية التي خربت هوية ونفوس كثير من أبنائها، وجعلتهم "ضد الوطن".
(١٣)- انظر: تاريخ مصر القديمة، جريمال، ص ٢٣٨- ٢٣٩

المركزي من جديد، وانشرخ قلب مصر، وتفرَّقت السلطات، وتمزق الجيش بينهم، وتعاقب الحكام بشكل سريع مهزوزين، وحكم معظمهم لفترات صغيرة، وأطلَّت فوضى جديدة بوجهها الأغبر في تاريخ مصر(١٤).

▼▼▼ الغزو.. هكسوس الشرق والجنوب

تحت عنوان "الغزو" يتتبع جريمال جذور الاحتلال الهكسوسي فيحكي أن تدفق العمالة الآسيوية هو بداية حركة هجرة متصلة وسلمية، ولكنها ثابتة ودؤوبة، أدت إلى استقرار بعض الشعوب على الحدود الشمالية الشرقية لمصر، جاءت بعد أن طردتها من مواطنها هجرات جديدة هاجمت الشام، حتى إذا آن الأوان نزع المهاجرون إلى الاتحاد ليحتلوا المناطق التي تقع تحت إيديهم، وعادت الآليات التي كانت وراء سقوط الدولة القديمة إلى الظهور، وتتمثل في إضعاف الدولة وما ترتب عليه من انفراط عقد وحدة البلاد. وأخذت مصر الحقيقية تتحصن في جنوب البلاد(١٥).

وتشير عبارة أن "مصر الحقيقية" أخذت "تتحصن في جنوب البلاد"، إلى أن المهاجرين (الذين سماهم المصريون بعد ذلك بالهكسوس) مارسوا انتهاكات وفظايع ضد المصريين، وطردوا بعضهم من أراضيهم بالوجه البحري، فذهب بعضهم إلى الوجه القبلي الذي لم يصله الاحتلال الاستيطاني.

وصف آخر يورده تريفور برايس للهكسوس بأنهم "هجرات شعوب كنعان"، وأنهم خلال الدولة الوسطى "استقرت بشكل نهائي في دلتا مصر وبأعداد كبيرة لا حصر لها، وبالفعل اعتبر بعض الباحثين أن أولئك المهاجرين كانوا سببا في انهيار السيطرة السياسية التي وصلت بالحكم إلى انهياره، وربما كانوا بالفعل عنصرا هاما من العناصر التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية المصرية بعد حكم أسر المملكة المتوسطة"(١٦).

واستولى الهكسوس على الحكم في شمال شرق مصر بالتدريج وعلى مراحل، فأولا وطدوا أقدامهم في فرعشة وتل الصحابة عند مخرج وادي الطميلات، وفي بوباستس وإنشاص وفي تل اليهودية على مسافة ٢٠ كم شمال مدينة هليوبوليس (أون بالمصري القديم وعين شمس حاليا)(١٧).

واستغرق هذا الزحف حوالي ٥٠ سنة- أي ببطء شديد لم يلحظه المصريون- لينتهي سنة ١٦٧٥ ق. م في عهد الملك رقم ٣٣ أو ٣٤ في قائمة ملوك الأسرة ١٣(١٨).

وتضم بردية بروكلين (**Pap.Brooklyn 35.1446**) التي تتناول أول عهد الملك سوبك حتب الثالث في الأسرة ١٣- وهي خاصة بمسائل الخدم في الوجه القبلي، قايمة لـ ٤٥ آسيويا من الرجال والنساء

---

(١٤)- للمزيد انظر: رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، رمضان عبده علي، ج٢، مرجع سابق، ص ٤٥٣- ٤٧٣
(١٥)- انظر: تاريخ مصر القديمة، جريمال، ص ٢٣٧
(١٦)- رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم، تريفور برايس، ترجمة رفعت السيد علي، دار العلوم للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ص ٣٦
(١٧)- تاريخ مصر القديمة، ص ٢٤٢
(١٨)- نفس المرجع ص ٢٤١

والولدان ألحقوا بخدمة موظف واحد في الوجه القبلي، ويعلق ويليام هايس على البردية بعد أن درسها وتأملها: "وإذا ما تصورنا أن مثل هذا العدد سيوجد عند الأغنياء من المصريين في ذلك الوقت في مصر العليا، فعند ذلك سيصبح عدد الآسيويين كبيرا أكثر مما يتصوره الإنسان، وساء لعبت هذه المجموعات من العبيد أم لم يلعبوا في التعجيل أو تمهيد الطريق لاحتلال الهكسوسن فهذا أمر صعب قبوله، إلا أنه كان للتزاوج وما شاكل هذا أثره في إضعاف مقاومة المصريين للهكسوس الذين سيندفعون بعد فترة إلى البلاد"[١٩]، في إشارة فيما يبدو لصنع الهكسوس روابط عاطفية وعلاقات مصلحة مع بعض المصريين، فالبتأكيد غرس هؤلاء في منازل وأماكن عمل الأغنياء وأصحاب النفوذ، وبهذه الكثرة، وفي مجتمع يقدم حسن النية مع الغريب على الشك، بالتأكيد لن يمر مرور الكرام.

وواضح أن الخطر حاوط المصريين من كل اتجاه، فتخلخلت الحدود الغربية والجنوبية أيضا على وقع دبيب الضعف في مؤسسات الدولة المركزية، حتى لجأ الناس إلى ما أسماه علماء الآثار بـ"نصوص اللعنة"، وهي نصوص لأدعية يطلب الناس من رجال الدين كتابتها على تماثيل صغيرة من الطين، تمثل الشيوخ الليبيين وحكام كوش وحكام مدن الشام، ذكروا منها بيبلوس (الجبيل)، أورشليم (القدس)، عسقلون (عسقلان)، يافا، كوشو، العناكيم، حبرون (الخليل)، عشتاروت، أكر (عكا)، شاروهين (غزة)، وغيرها، على أمل أن تصب الأرباب لعناتها عليهم، ثم يكسرونها أو يلقونها في النار، وهو ما يوضح أنهم بدأوا يتجرعون مرارة استيطان هجرات تابعة لهؤلاء[٢٠].

كما يكشف عن ضعف مؤسسات الدولة التي لم يعد الأهالي يرون فيها القدرة على ردع تجرؤ الأجانب عليهم في البلاد[٢١] فلجأوا لأساليب بدائية لتفريغ ما في صدورهم من غيظ أو فزع وخوف من المجهول.

ونصوص اللعنة باقي منها حاليا أن الناس من باب المرح أو الدعابة يقصون الورق على شكل عروسة أو يشكلون عروسة من عجين أو طين، ويخرمونها بشوكة أو عود وهم يصبون اللعنات على العزول والخصوم مثل: "رقيتك واسترقيتك من عين فلانة وشوكة في عين فلان" الذي تمثله العروسة، وعقب ذلك يحرق الشخص الورقة أو يكسر عروسة الطين على أمل كسر الشر.

ولأن أعداء مصر دايما يتحالفون ضدها في وقت ضعفها، فقد تحالف الهكسوس القادمون من الشرق مع الكوشيين في السودان وبلاد الزنج المهاجمين لها من الجنوب، وانحصر المصريون بين فكي الكماشة، وهذا بخلاف تجرؤ القبايل الهاجمة عليهم من الغرب، وعشعشة الأجانب بالداخل.

ووصف المؤرخ المصري مانيتون غزو الهكسوس لمصر خلال كلامه عن ملك سماه توتيمايوس: "وفي عهده كيف لا أدرى عصف بنا غضب الرب، ووفد غزاة من الشرق مجهولو الأصل إلى أرضنا دون توقع، وكلهم أمل في النصر، فهاجموها عنوة واستولوا عليها بسهولة، وتغلبوا على حكامها، وحرقوا مدننا

[١٩]- مجموعة الملوك المسماة "سوبك حتب" في الأسرة ١٣، د. أحمد محمود صابون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص ٣١- ٣٢
[٢٠]- انظر: رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، ج ٣، مرجع سابق، ص ٨- ١٢
[٢١]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعرق، ص ١٨٥

في وحشية، وسووا معابد الأرباب بالأرض، وعاملوا المواطنين بخشونة وفظاظة، وذبحوا بعضهم، واسترقوا نساء بعض آخر وأطفالهم[٢٢]".

لكن واضح من تسلسل الأحداث أن الغزو لم يأتِ فجأة كما قال مانيتون الذي كتب تاريخه بعد ١٦٠٠ سنة من الأحداث، فالغزو العسكري هو آخر خطوة بعد أن تمكنت جماعاتهم المتسللة في الداخل، وغزل علاقات قوية مع عائلات مصرية، وتحصنوا عبرها بالنفوذ، وعلموا الأسرار، فلما تأكدوا من ضعف مؤسسات الدولة، وإهمالها لـ ماعت، بذروا الشقاق والنزاع في مصر، فطابت لهم الثمرة، ولم تعد تحتاج إلا طوبة ترمى عليها لتسقطها، فاستدعوا بني جلدتهم المسلحين من الشام ليضربوا الضربة الأخيرة.

وكلمة "هكسوس" عند المصريين لا تعني شعبا بعينه، ولكن تعني القبايل الرعوية الأجنبية، وهي تسمية تشبه كما نقول الآن "الفرنجة" على الغرب، ولا نقصد بها بريطانيا فقط أو فرنسا فقط، بل كل القادمين من أوروبا، أو نطلق كلمة العرب على كل دول الخليج وليس دولة بعينها.

وفي رأي الدكتور صالح[٢٣] فالهكسوس خليط من هجرات آرية غزت الشام مع جماعات أمورية من سكان سهول الشام، وتحالفوا سويا، واتجهوا للجنوب ناحية الحدود المصرية، وتسربوا منها إلى الداخل ببطء، وكوّن المهاجرون نفوذا لهم بالداخل، فتشجعوا على غزوها بالضربة القاضية بمساعدة المهاجرين القدامى الذين عرفوا أسرار البلاد ووثقوا علاقتهم بأهلها.

ويبدو أنهم شنوا حربا نفسية على المصريين أيضا بنشر قصص الأهوال التي تقوم بها الهجرات الجديدة في الشام بالأسلحة الجديدة التي لا يملك المصريون مثلها، وذلك لتخويف الناس، وكسر روحهم المعنوية، خاصة وهم يعلمون ألا جيش مركزي أو حكومة قوية تقوي ظهرهم[٢٤]، وهو ما يشبه الحرب النفسية التي تُروى أو تُصور عن جرائم الإرهابيين والدواعش في العصر الحالي.

ومن أنواع الأسلحة الجديدة التي فاجئ الغزاة بها المصريين العربات الحربية، والأقواس المركبة الكبيرة المصنوعة من (طبقات) الخشب ومن القرون ومن أوتار شديدة، وكانت ترمي بشدة وإلى مدى أبعد من مرمى الأقواس المصرية القديمة[٢٥].

ولما استولى الهكسوس على سيناء ومعظم الدلتا، تجرأوا على منف العظيمة، ونهبوا كنوزها، وفضوا أسرارها.. نفس الكاس الذي ذاقته في أهوال زلزال السقوط نهاية الأسرة ٦.. نفس الكاس!

وأول حاكم منهم اسمه ساليتس، وظهرت بين أسامي ملوكهم أسامي آسيوية مثل خيان ويعقوب، وخوفا من هجمات المصريين أنشأوا عاصمة لهم أقصى شرق الوجه البحري، محصنة تحصينا شديدا في مدينة "حت وعرة"، سماها اليونان بعد ذلك أفاريس أو أورايس، لتكون قريبة من مواطنهم في الشام، فيسهل

---

(٢٢)- المرجع السابق ص ١٨٦
(٢٣)- نفس المرجع، ص ١٨٨
(٢٤)- انظر: نفس المرجع
(٢٥)- نفس المرجع ص ١٨٩

وصول مدد إليهم إذا ما هاجمهم المصريون لطردهم ذات يوم[٢٦].

وفي نفس الوقت حاولوا التشبه بالمصريين في الأسماء والملبس وبعض أشكال العمارة والعادات، ليكسروا حدة كراهية المصريين لهم، وقدسوا المعبود "ست"، وإن احتفظوا بالكثير أيضا من أسمائهم وعاداهم ودينهم، وجعلوا من أنفسهم الطبقة الأعلى في مناطق سيطرتهم التي بقي فيها مصريون[٢٧].

ولم ينعدم اختلاطهم بالمصريين، ولكن انعزالهم في جزء من البلاد، وكونهم قوم غزاة جعل هذا الاختلاط على نطاق ضيق رغم احتمال بقائهم في مصر ١٠٨ سنة بحسب بردية "تورين"[٢٨]، وظلت صدور المصريين تموج بالغضب منهم وتحين الفرص لطردهم.

أما نفوذ المصريين في وقت احتلال الهكسوس فتراجع نحو الوجه القبلي من بعد المنيا، مع بقاء مصريين أيضا في غرب الدلتا تمسكوا بأراضيهم وكونوا ما عُرف بالأسرة ١٤، وكوَّن الهكسوس الأسرتين ١٥ و١٦، فيما كوَّن المصريون في الوجه القبلي الأسرة ١٧، ويدفعون الجزية للهكسوس في الغالب بحسب د. سليم حسن[٢٩].

▲▲▲ هزيمة الحصار الشيطاني

ولنا أن نتخيل الضيقة والحصار الشديد الذي كابده الأجداد خلال تجهيزهم حرب التحرير ضد الهكسوس، ورغم هذا استطاعوا الفكاك منه وهزيمة الهكسوس بكل حلفائهم.

فقد سيطر الهكسوس على معظم ثروات مصر، مناجم سيناء، الأراضي الخصبة الواسعة وأحراش البردي في الوجه البحري، وأراضي مصر ومناجمها الحجرية حتى المنيا، وتحكموا في طرق التجارة بين مصر والشام، وهدد حلفاؤهم الكوشيون جنوب أسوان ومناجمها ومحاجرها، وطرق التجارة مع أفريقيا، فبات المصريون لا يسيطرون على أرضهم سوا المساحة ما بين المنيا وأسوان، وهي الأقل في الثروات من الأماكن التي يسيطر عليها الهكسوس والكوشيون، فلم يعد في يد المصريين من ثروة البلد سوا مساحة من الأرض الزراعية، إضافة لبعض الصناعات.

وفي هذه الظروف، تولى أمر المصريين في الوجه القبلي أسرة من طيبة هي الأسرة ١٧، أسسها رع حتب، قررت رغم الحصار الخانق إعداد الأهالي للقتال[٣٠].

---

[٢٦] - المرجع السابق، ص ١٨٩- ١٩٠

[٢٧]- انظر: نفس المرجع، ص ١٩٠

[٢٨]- انظر: نفس المرجع

[٢٩]- موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، ج٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، ص ١٥٤

[٣٠]- تكرر هذا التحدي الرهيب الخاص بـ"الحصار" أمام المصريين عدة مرات في العصر الحديث، منها وقوفهم عزل من السلاح ومن ثروة بلدهم في وجه أكبر إمبراطورية مسلحة في العالم، بريطانيا، خلال ثورة ١٩١٩، وإقامة المشروعات العظمى وتأميم قناة السويس بعد عام ١٩٥٢ رغم الحصار الغربي وقلة الموارد، وخوض حرب الاستنزاف وإعادة بناء الجيش والانتصار في حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ رغم أن مصر مخنوقة اقتصاديا، فقناة السويس مغلقة، والسياحة متوقفة، والبترول وخيرات سيناء في يد إسرائيل.

جرى إعادة تنظيم وتسليح الجيش في سرية تامة، وفي نفس الوقت ركزت الأسرة ١٧ على إحياء الروح والثقة والعزة في النفوس، واعتزاز المصريين بتاريخ بلادهم أيام الأجداد، ليشتاقوا إلى رؤيتها حرة من جديد، فحافظ جيلها على التراث المعماري والأدبي الذي تركته الدولة القديمة والوسطى، واهتموا بتدريس الأدب المصري والحكمة الموروثة والتعاليم والوصايا، مثل تعاليم "بتاح حتب" و"كاجمني"، واهتموا بترميم وتجديد المعابد والمنشآت التي شيدها أسلافها كترميم معبد "مين" في أسوان وأوزير (أوزيريس) في سوهاج، ورغم قلة الموارد شيدت مبانٍ جديدة في الكرنك وأبيدوس[٣١].

وليس معروفا على وجه اليقين متى بدأ الكفاح المسلح ضد الهكسوس، لكن ظهرت ملابس القتال وأدوات حربية كأقواس وسهام مدفونة مع إنتف السابع، أحد أجداد أحمس، في مقبرته[٣٢]، غير معروف هل استعملها في معارك ضدهم، أما كانت دلالة على إعلانه الحرب عليهم وتجهيز البلاد لذلك[٣٣].

وتبدأ الأدلة القاطعة على الكفاح المسلح بعهد "تا عا" الثاني (سكننرع) والد أحمس في بردية دراسية لتلميذ مصري اسمه "بنتاؤور" في عهد مرنبتاح ابن رمسيس الثاني (بعد طرد الهكسوس بـ ٣٠٠ سنة) تتناول قصة تحرير مصر، كتب أن أرض مصر كانت تئن تحت وطأة الوباء، وأنه لم يكن فيها سيد يعتبر ملك زمانه، فبينما حكم الملك سكننرع في مدينة طيبة (الجنوبية) حل الوباء في مدينة العامو (الهكسوس)، وبمعنى آخر استقر الملك إيبي (ملك الهكسوس) في حة وعرة"[٣٤].

ويظهر تقزز المصريين من الهكسوس في أنهم استمروا حتى مئات السنين بعد طردهم في وصفهم بـ"الوباء"، وفي مواضع أخرى وصفوهم بـ"الهمج" و"الطاعون"، ويبدو أن ملك الهكسوس "إيبي" حاول استعراض قوته واستفزاز سكننرع وإذلاله بإهانة دينه، فجمع "إيبي" كتبته وحكماءه كما روت البردية، وشاورهم في الأمر، فأوحوا إليه بحيلة ماكرة عقبوا عليها بقولهم "ولسوف نرى إذن قدرة ربه الذي يحتمي به، وهو الذي لا يعتمد على إله غير آمون رع ملك الأرباب[٣٥]".

واتبع "إيبي" مشورتهم فأوفد رسولا إلى سكننرع يقول له: "أسكتوا أفراس الماء في البحيرة الشرقية بطيبة؛ فضجيجها يحرمني النوم في نهاري وليلي، وأصواتها تطن في مسامع مدينتي[٣٦]".

وأضافت البردية أن سكننرع عامل الرسول كما تنبغي معاملة الرسل، فأكرمه وهاداه، ثم جمع كبار

---

(٣١)- انظر الإنجازات التنموية للأسرة ١٧ في تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، ص ٢٤٤- ٢٤٦

(٣٢)- نفس المرجع، ص ٢٤٦

(٣٣)- اللافت أن جريمال رغم حديثه عن الحروب بين مصر والهكسوس إلا أنه استغل أن الهكسوس قلدوا مظاهر حضارية مصرية في الأدب والدين والعلوم، وتعلم المصريين أسلحة جديدة كالعربات الحربية من الهكسوس، ووجود بعض الاختلاط بسبب الجوار، ووجود فترة ارتخاء أو سلام في العلاقات ليقول إنهم بشكل عام عاشوا في سلام، ولم يكن بينهم كراهية، وزاد بأن اعتبر أن للهكسوس "فضل" حضاري على المصريين، وعجز عن أن يفسر لماذا إذن حاربهم المصريون وطردوهم شر طردة، وهذا أسلوب مكرر في كتابات بعض علماء المصريات الأجانب؛ لشيوع أحاديث عن وجود علاقة بين اليهود والهكسوس. انظر جريمال، ص ٢٤٢- ٢٤٨

(٣٤)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ١٩١

(٣٥)- نفس المرجع

(٣٦)- نفس المرجع

رجال الدولة ليشاورهم في الأمر.. وهنا انتهى درس البردية قبل أن تتضح بقية الأحداث، ولكنه نمَّ عن أن المصريين ظلوا يطوون صدورهم على كره الهكسوس وذكريات احتلالهم، وأنه لم يكن في وسع ملك الهكسوس أن يعتبر نفسه ملكا على مصر كلها، وأنه ضاق بنشاط أهل طيبة وقلق من النتائج التي يمكن أن تترتب عليه(٣٧).

وإذا كانت بقية الأحداث لم تتضح في البردية، فقد تحدثت عنها رأس سكننرعَ التي توجتها ٥ جراح عميقة من ضربات سيف ومقمعة وبضعة سهام، ودل كل جرح منها على بداية الجهاد المسلح في عهد صاحبه واستبساله واستماتته في الظفر بمآربه(٣٨)، وهو يرقد الآن في قاعة الجثامين (المومياوات) بالمتحف المصري، ويبدو على حالته أن تحنيطها تم على عجل في ظروف طوارئ.

واستلم ابنه كامس راية الكفاح بعد استشهاده، ودل على ذلك ٣ لوحات من الحجر في معبد الكرنك، نصبها المصريون في عهد كامس، ودرس تاريخي كتبه تلميذ على لوحة خشبية صغيرة، معروفة باسم لوحة كارنرفون.

صور الدرس المراحل الأولى للجهاد أيام كامس، فوصفه بأنه حاكم فاضل، وأن رع شاء أن يجعله حاكما فعليا ووهبه الجرأة في الحق، وأنه ضاق بأحوال البلاد فقال في مجلس بلاطه: "كيف أقدر نفوذي هذا إذا كان هناك حاكم في حة وعرة وحاكم آخر في كاش؟ ولا زلت شريكا لهكسوسي وزنجي، وكل منا يسيطر على رقعة من هذه البلاد؟ وإني لا أكاد أبلغ منف، وقد سيطر (العدو) على منطقة الأشمونين (بالمنيا حاليا)، وما عاد أحد يأمن السلب والنهب والعبودية للبدو الأسيويين(٣٩)".

ولم يجد في البداية من المسئولين حوله حماسة كافية للقتال واستكمال مشوار سكننرع، فقد خشوا أن ينتهي إلى أن يحتل الهكسوس ما تبقى من أرض مصر، فحاول كامس أن يستفزهم للحرب، وقال: "ولسوف أقاتل (العدو) وأبقر بطنه، وإن غايتي أن أحرر مصر وأستبيح دماء العامو".

وانطلق كامس بالجيش، وصدق ظنه في سواد شعبه، فهرع إليه أهل الشرق والغرب (ضفتا النيل شرقا وغربا)، كما قال، وأمدوا الجيش أينما حل بالمؤنة والزاد، ووصف مسيرته مع جيشه فقال: "أبحرت في عزم لأجلي الهكسوس وفقا لأمر آمون ذي الرأي الرشيد، وجيشي أمامي مستبسل كأنه شعلة من نار(٤٠)".

بدأ بمدن مصر الوسطى فطهرها من الهكسوس، وعاقب الخانعين لهم في نفروسي (بالمنيا)، منهم نائب للهكسوس فيها يسمى تيتي بن ببيي، من المصريين الندرة الذين اندمجوا مع الهكسوس، فصب الجيش نار غضبه عليه، وقال عنه كامس: "وقد أرسلت فرقة من المجاو على حين قضيت يومي في محاولة فرض الحصار على تيتي بن بيبي في منطقة نفروسي لأنني لم أكن أرغب في أن أتركه يفر، لقد تحديت الآسيويين، وبهذه المناسبة قضيت الليلة فوق سطح سفينتي، وقلبي يملؤه الفرح، وفي الصباح انقضضت

---

(٣٧)- نفس المرجع، ص ١٩١- ١٩٢
(٣٨)- نفس المرجع
(٣٩)- نفس المرجع
(٤٠)- نفس المرجع

عليه مثل الصقر، وقضيت عليه في اللحظة التي كان ينظف فيها أسنانه (أي عند قيامه من النوم)، وهدمت جدرانه وقضيت على أفراد قواته، وأرغمت زوجته على أن تقذف بنفسها من أعلى شاطئ النهر، وكان جنودي مثل الذئاب التي تنقض على الفريسة[٤١]".

وبعدها يمم وجه شطر الجنوب ليتخلص من أحد ضلعي الكماشة التي تحاصره، وهو الكوشيين حلفاء الهكسوس، وتتحدث عن ذلك نصوص في الكرنك يظهر فيها أنه شن حملة مفاجئة على كوش، وأجبر واليها الجديد على أن يوقف صداقته للهكسوس، ثم اندار إلى الشمال لقطع الإمدادات التي تصل الهكسوس عن طريق فروع النيل[٤٢].

ويبدو أن عنصر المفاجئة لعب دورا كبيرا في الانتصارات التي حققها كامس، مع تراخي الهكسوس بعد أن ظنوا أنهم صاروا حقا "سيد" مصر بلا منازع.

كما جرى الهجوم في وقت توهم فيه الهكسوس وجود فترة سلام بينهم وبين المصريين، وكان الجيش أعد أسطولا حربيا نهريا قويا لهذه المعركة، وحاملات نهرية للعجلات الحربية، وأدخل تحسينات غير متوقعة على صناعتها، جهلها حتى الهكسوس الذين يُنسب إليهم اختراعها[٤٣].

وهنا انقسم الهكسوس على أنفسهم، وخرج بعضهم عن طاعة ملكهم، وأحرز كامس نصرا في بعض المعارك النهرية، ووصف دخوله إحدى المدن في أسلوب لطيف قال فيه (أو قال على لسانه أحد أدباء عصره): "لمحت نساء العدو فوق دياره يتطلعن من النوافذ إلى الشاطئ، وحين سمعن صوتي لم يستطعن حراكا، ومددن أنوفهن من خلال (شقوق) الجدران كأفراخ القطا في جحورها حين كانت أنادي: هذا أوان الهجوم، ها أنذا ولسوف أنتصر"[٤٤].

وكأنه في هذه المعارك وبهذه الروح والكلمات يجسد ما ردده حفيده بعد آلاف السنين، الفلاح محمود حسن إسماعيل، بالروح الموصولة، أمام هكسوس العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦ في رائعته "أنا النيل مقبرة للغزاة":

يد الله في يدنا أجمعين تصب الهلاك على المعتدين

فشقوا إليهم جحيم الفناء أسودا كواسر تحمي العرين

يد الله في يد مصر قسم على كل عادٍ تشب العدم

تدك الطغاة وتحمي الحياة وترفع للشمس نور القلم

---

[٤١]- رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، رمضان عبده علي، مرجع سابق، ص ٤٠- ٤١

[٤٢]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ١٩٣

[٤٣]- انظر: رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٤٠-٤٢

[٤٤]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٣٤

سنمضي لهم في لهيب الشرر ونزحف للنصر زحف القَدر

ومن كل بيت ومن كل شبر لظى الموت يخرج من كل صدر

على كل باغ يسوق الحِمام لنحمي ترابك يا أرض مصـر[٤٥]

ففي إطار الحرب المعنوية توعد كامس الهكسوس بقوله: "لقد خابت آمالك أيها الخاسيء الذي اعتاد على أن يقول أنا السيد ولا مثيل لي. أما (عاصمتك) فسوف أمحوها ولن أجعل أحدا يعثر لها على أثر، وسوف أدمر قرى (شعبك)، وأحرق ديارهم حتى تصبح تلالا حمراء إلى الأبد، جزاء وفاقا على ما ألحقوه بمصر من دمار، وسوف يسمع الناس (عويل) الهكسوس حين يفارقون مصر سيدتهم (مرغمين)[٤٦]".

ويمكن مقارنة قول الهكسوسي "أنا السيد ولا مثيل لي" بعد التمكين بما متوقع أنه كان يقوله الهكسوس خلال هجرتهم لمصر بالدحلبة وهم يتوددون بخبث للمصريين بحلو العبارات وبالمديح في مصر وأهلها كي يحصلوا على ثقتهم.

وحاول ملك الهكسوس أن يوقع كامس مرة أخرى بين فكي الكماشة، فأرسل إلى حاكم كوش عند الحدود الجنوبية- وكان يلقبه بـ "ولدي"- ويحرضه على كامس، ويشجعه على مهاجمته من الجنوب حتى ينحصر بينهما، وحينئذ يغلبانه ويقتسمان مصر معا، كما قال[٤٧].

وقذف الهكسوسي برسله على طريق الواحات ليكونوا بمأمن من عيون كامس (المخابرات)، ولكن العيون علمت بأمرهم، فأرسل كامس سرية من الجيش ترصدت الرسل واستولت على الرسالة، ثم أطلقتهم لينقلوا إلى ملكهم خيبة أمله، وخشى أن يعيد الحليفان الكرَّة، فوضع بعض وحداته في مصر الوسطى والواحات، ورحل هو إلى واسط (طيبة)، وكان يوم عودته إليها يوما مشهودا، وصفه كاتبه قائلا: "طابت رحلة الحاكم إلى الجنوب، وجنوده أمامه لم ينقصوا، ولم يخسر أحدهم رفيقه، ولم تشتك قلوب (المدنيين) منهم...، وأصبح إقليم طيبة كأنه في عيد الفيضان، وهرع النسوة والرجال يتطلعون إلى الأمير، وأسرعت كل زوجة إلى زوجها تعانقه، وقد خلت الوجوه من آثار الدموع[٤٨]".

وتوفي القائد العظيم كامس في ظروف غير معروفة قبل أن يدخل معركته الفاصلة ضد الهكسوس، فخلفه أخوه أحمس، وأتم عمله وعمل أبيه، وانتفع باشتداد عزائم مواطنيه، فاستفزهم ولبوا نداءه لاستكمال الجهاد والانتقام، وخرجوا معه لمهاجمة الهكسوس في عقر عاصمتهم (حة وعرة)[٤٩] وعمره ما بين ١٦-١٨ سنة، مستندا على عزم وخبرات قواد الجيش الكبار الذين عاصروا أبيه وأخيه مثل أحمس بن إبانا وأحمس بن نخبت، وكذلك جدته تي تي شيري، وأمه إياح حتب.

---

(٤٥)- أغنية: أنا النيل مقبرة للغزاة، تأليف محمود حسن إسماعيل، ألحان رياض السنباطي، غناء نجاح سلام

(٤٦)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٣٤

(٤٧)- انظر: نفس المرجع

(٤٨)- نفس المرجع

(٤٩)- مرجع سابق، ص ١٩٣

وقال أحمس بن إبانا وهو يتحدث عن دوره في الحرب قائدا للسفن النهرية إنه اشترك مع أحمس في محاصرة عاصمة الهكسوس، وإن المعارك دارت حولها وإلى الجنوب منها في البر وعلى الماء عدة مرات[٥٠]، وعندما جلا الهكسوس عن مصر لم ييأسوا من الرجوع لها مرة أخرى، فجمعوا فلولهم في معقلهم القديم، شاروهين (في غزة)، وتحصنوا بها، فأدرك أحمس أنه لن يأمن على حدوده ما داموا قريبين، فلحقهم بالجيش وفرض الحصار حولهم نحو ٣ سنوات حتى اضطروا للجلاء عنها.

وهكذا لفظت مصر الهكسوس أغرابا كما دخلوها، على الرغم من طول إقامتهم فيها[٥١]، وتطهَّر جوفها من سمومهم.

وليأمن عدم عودتهم، قاد أحمس حملاته في جوف الشام لتعقب الهكسوس في سنوات حكمه الـ٢٥، وخرج في العام ٢٢ على رأس حملة قادته إلى شواطئ الفرات ليصبح أول حاكم مصري يصل إلى هناك[٥٢].

وإلى جانب أسماء العظام من المقاتلين في حرب التحرير مثل سكننرع وأحمس وكامس وأحمس ابن أبانا وأحمس ابن نخبت إلخ احتفظ التاريخ بأسماء عظيمات من أبطال الحرب جسدنَّ دور الست المصرية الأصيل في حفظ مصر وقت المحن، وسلما وحربا، بحماية القوة المعنوية، واقتدينَّ فيه ببطولات كفاح إيسة "إيزيس" لنصرة ابنها حور "حورس" ضد أهل الشر "سيت"، وهنَّ: تتي شيري (أم سكننرع وجدة كامس وأحمس)، و إياح حوتب (زوجة سكننرع وأم كامس وأحمس) و أحمس نفرتاي (زوجة أحمس)[٥٣].

وصفت نصوص أحمس جدته تيتي شيري بألقاب كألقاب إيسة أيضا، ومنها العالمة أو العارفة، وقال عن إياح حتب إنها "ربة الأرض، وسيدة الحاونبو، رفيعة السمعة في كل قطر أجنبي. التي دبرت سياسة القوم...، القديرة الجليلة التي أحكمت شئون مصر، وجمعت (صفوف جيشها)، ورعت أهلها، وأعادت الفارين، ولمت (شتات) المهاجرين [ربما يقصد المشردين المصريين من الأراضي التي احتلها الهكسوس]، وهدأت (قلق) الصعيد، وأرهبت عصاته، الملكة إياح حوتب لها الحياة"[٥٤].

وهكذا.. تجرعت مصر مرة أخرى مرار وذل سيطرة الأجانب عليها، ومرار وذل تفكك عرى حكمها المركزي المقدس، وتشتت جيشها، ونسيان تاريخ الأجداد في الإنجازات والخطايا، والاطمئنان الأعمى لغيرها من شعوب وتوطينهم في عروقها، تجرعت هذا ١٠٨ سنة تحت حكم الهكسوس الهمج.

صحيح أنها خرجت من هذه المحنة بعود صلب، وأثبتت قدرتها على تجاوز أشنع المحن، وشمخت بانتصارها على تحالف الأشرار والشيطان، ولكن... أليس كان من الأحسن أن توفر طوفان من الدم نزفته حين غزاها الهمج وأشاعوا في أهلها أولاد الأصول القتل والأسر، وطوفان آخر من الدم لتحرير نفسها؟

---

[٥٠]- نفس المرجع، ص ١٩٤
[٥١]- نفس المرجع
[٥٢]- تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، ص ٢٥٢
[٥٣]- اسم أحمس من الأسامي التي تسمى بها البنات والأولاد، ومثله اسم "تي"، وكما نسمي حاليا مثلا: رضا، عطية، إيمان على الأولاد والبنات.
[٥٤]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ١٩٤- ١٩٥

وأليس الأليق بها وبقدسيتها لو وفرت على نفسها المذلة والهوان والخراب تحت حكم الطاعون الذي تكبر وتجبر عليها عشرات السنين، وأفرغ أحقاده فيها، وهي الشريفة ست الحضارات؟

أليس الأولى بها وبذكائها أنه بعد المحنة العظمى التي طحنت عظامها العزيزة بعد سقوط الأسرة ٦ أن تعتنق مبدأ "الوقاية خير من العلاج"، والذي هو خلاصة كافة تعاليم ووصايا "ماعت"؟

ونظرة للأسباب والنتائج التي رمت مصر مقيدة الأغلال بين نار وأنياب الفوضى "إزفت" نهاية الأسرة ١٣ كما نقلتها لنا البرديات والآثار.. كم منها ينطبق عليه ما ورد في البنود الـ ١٧ لدستور خراب مصر؟ دستور الشيطان، ونسيانها العهد الخالد الذي أوصاها به من صنعها:

إن الأبواب [الحدود] الموجودة عليكِ [يا مصر] تستوي ثابتة مثل "إنموتف"

إنها لا تنفتح لسكان الغرب

إنها لا تنفتح لسكان الشرق

إنها لا تنفتح لسكان الشمال

إنها لا تنفتح لسكان الجنوب

إنها لا تنفتح للقاطنين وسط الأرض

إنها تنفتح لحورس

إنه هو الذي صنعها

إنه هو الذي أقامها

إنه هو الذي نجاها من كل سوء أوقعه "ست" عليها

إنه هو الذي أقام دعائمك[٥٥]

فاستحقت الأجيال التي لم تلتزم بالوصية العهد عقاب الإله الذي حذر منه بتاح حتب:

"إن الذي يفعل الماعت فذلك الذي يكون بعيدا عن الضلال"، "يحل العقاب دائما بالذي يتخطى قواعدها"[٥٦].

---

[٥٥]- تطور الفكر والدين في مصر القديمة، جيمس هنري بريستيد، ترجمة زكي سوس، مرجع سابق، ص ٤٠- ٤٥

[٥٦]- انظر: تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

ومصر عارفة وشايفة وبتصبر..

لكنها في خطفة زمن تعبر..

وتسترد الاسم والعناوين..(١)

(١)- قصيدة ضحكة المساجين، تأليف: عبد الرحمن الأبنودي

المشهد ٧: الولادة الجديدة (الدولة الحديثة)

١٥٥٣- ١٠٩٦ أو ٩٤٥ق.م

(شروق ماعت)

▲▲▲ عودة الروح

عادت الروح لمصر من جديد، وهدأ قلقها، وعادت طيورها الغاضبة لتستقر بأمان على غصون أشجارها، وزهور السشن (اللوتس) تضحك وهي تتفتح لطلوع الشمس، فقد زاح الطاعون عن أرض مصر الطاهرة، ورجعت ماعت من غربتها، وفرد الصقر حور جناحيه على الأرض المقدسة بكاملها، بلا نقصان، واستعد المصريون لكتابة صفحة جديدة لمجدهم في بناء الحضارة بأقلام تحوت[٢] بعد أن كتبوها في هدم وقلع الشر.

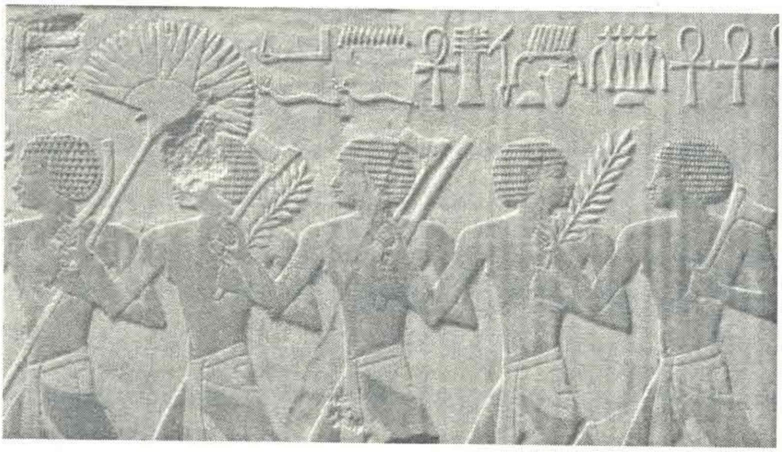
فمع تطهير الجيش لمصر من الهكسوس أعادت بقية المؤسسات التنظيم الإداري للدولة وبنائها على الأسس والأصول المصرية المعروفة، وإصلاح ما أفسده الهكسوس في الوجه البحري وشمال الوجه القبلي، وصارت واسط (طيبة) التي تخرج منها الأوامر لتنفيذ كل هذا أشهر عواصم العالم وأكثرها رهبة وهيلمان، أما منف، أول عاصمة في عصر مينا، فرجع إليها بهاؤها بعد شفاءها من الطاعون، واختارها حكام الأسرة ١٨ لتكون مقر القيادة المركزية للجيش، ومقر ولي العهد يتدرب فيها على شئون الحكم والحرب، فهي تتوسط البلاد، وقريبة من الحملات المستمرة إلى بلاد الشام.

ومع انتعاش الثقة من جديد في ربوع مصر تمتعت العلوم والفنون والآداب والفكر الديني بمرحلة جديدة من الازدهار والتطوير، من معالمها عماير الأسرة ١٨ الفخمة الضخمة من معابد في الكرنك وغرب طيبة، والمقابر المحفورة في بطن صخور وادي الملوك، وهي تعتبر أهراما في بدعها الهندسية والفنية وحجم الجهد المبذول فيها (وهذا تعبير مجازي لشدة إعجازها)، وظهور اختراع الساعة المائية المنسوب إلى رجل اسمه "أمنمحات" في عهد أمنحتب الأول ابن أحمس، وظهور بردية "إبريس" المصدر الرئيسي لمعارفنا

---

(٢)- تحوت/ جحوتي يرمز في حضارة مصر للرسول بين السماء وأهل مصر، حافظ الحكمة وكاتبها في السجلات الأزلية، وله دوره في مساعدة **إيسة** على إخفاء وتربية **حور**، ويعد أحد المعلمين الأوائل للمصريين، صوره الفنان على شكل جسد إنسان برأس طائر أبو منجل، يمسك بيده أقلاما وأوراق، يكتب ويسجل؛ ولذا في محكمة الآخرة هو الذي ينشر كتاب كل شخص ليظهر هل هو من الصالحين أو الظالمين، للمزيد انظر: معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة، مانفرد لوكر، ترجمة صلاح الدين رمضان، مكتبة مدبولي، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٨٣- ٨٤

حول الطب المصري القديم[٣].



جنود الجيش خلال احتفال في الأسرة ١٨ يمسكون غصن نبات مع سلاح حربي تجسيدا لمعنى الفلاح المقاتل، يد تزرع وتبني ويد تحمل السلاح (المتحف المصري في برلين)

وتوفي أحمس وعمره في الأربعين، بعد نحو ٢٥ عاما قضاها في الكفاح والبناء لم يركن فيها لمباهج الحكم، وخلفه ابنه أمنحتب الأول ليواصل سياسة أبيه في البناء، وكذلك في الحروب الخارجية لتأمين الحدود، فكان محاربا لا يُشق له غبار، فأكمل الحملات في الشام والسودان لقطع أي فرصة تجميع الهكسوس لصفوفهم من جديد.

وحكم بعد أمنحوتب الأول أخوه تحوتمس الأول وواصل حملاته، وكان يقول إن ساعة الحرب أشهى عنده من يوم هنيئ، وإنه يتشوق للقتال وينشرح كلما بلغه نبأ تحرك الأعداء[٤].

وفي عهد هذه الأسرة المجيدة استكمل المصريون بناء أول جيش نظامي كامل في التاريخ بصورة تناسب أن يكون جيشا هجوميا، وليس دفاعيا فقط، فقد آمنوا- وإن كان متأخرا- أن ما يليق بمصر هو مبدأ "الهجوم خير وسيلة للدفاع"، وليس شرطا أن يكون الهجوم اعتداءا على الغير بلا سبب، ولكن أن يظل الجيش ومن ورائه بقية الشعب في حالة تحفز وترقب لدرء الخطر وهو يلوح من بعيد، قبل أن يصل للحدود.. وما أكثر الأخطار المتربصة بمصر وأدومها.

فبات للجيش العظيم معسكراته ومقاره الدائمة، وقسمه القادة إلى ألوية وأجنحة تعمل تحت قيادة مركزية، وشكلوا أول "هيئة أركان حرب"، وهو النظام الذي عملت به جيوش العالم بعد ذلك وللآن[٥].

واستغل تحوتمس الأول القوة الدافعة في نفسه والروح الحربية المعبأة في شعبه، فمدَّ سلطان مصر إلى قرب الشلال الرابع (شمال الخرطوم بالسودان)، ودفعه ظهور دولة ميتاني[٦] في منطقة تقع الآن بين سوريا

[٣]- تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، مصدر سابق، ص ٢٦٣

[٤]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، مصدر سابق، ص ٢٠٥

[٥]- انظر: المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الإمبراطورية ١٥٧٠ ق.م- ١٠٧٨، أحمد قدري، ترجمة مختار السويفي، محمد العزب موسى، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١٤، ص ١٣ و١٧

[٦]- تكونت ميتاني من مهاجرين حطوا على تلك المنطقة خلال الهجرات الأمورية والهندو أوروبية، وزالت بعد وقت قصير

والعراق، وتهديدها لنفوذ مصر في شمال الشام إلى التوغل أكثر في الشرق، حتى نهر الفرات، ونصب على شاطئه الشرقي نصبا حدد به حدود سيطرة مصر في عهده، فامتدت على حد تعبير النصوص من قرن الأرض في الجنوب (أي الشلال الرابع) إلى أطراف المياه المعكوسة في الشمال[٧].

والمياه المعكوسة أطلقها المصريون على الفرات لأنه يجري من الشمال للجنوب على عكس النيل الذي يجري من الجنوب للشمال، وتندروا على ذلك بقولهم إنها المياه "اللي بتخلي الطالع نازل"[٨].

وظل الرجل فخورا بما أداه لمصر، ومن قوله بين كهنة أوزير في أبيدوس: "أطلقت حدود تامري[٩] (مصر) إلى ما تحيط الشمس به، وعوضت أهلها بعد خوف قوة (وأمنا)، وأقصيت الشر عنها، وجعلتها فوق رأس الدنيا كلها، وجعلت الجميع أتباعا لها[١٠]".

وكلمة "أطلقت حدود تا مري إلى ما تحيط الشمس به" هو أقدم التعابير التي تعبر عن اتساع سيطرة أي دولة، و استخدمت بريطانيا شبيهه فيما بعد في كلمة "الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس"، ولكن مع الفارق، أن توسعات مصر خارج حدودها إلى هذا الحد اضطرارية؛ فمصر لم تسعَ إلى السيطرة على هذه البلاد إلا بعد أن أرسلت تلك البلاد إليها جحافل الغزاة مرات تلو المرات، حتى بعد أن أكرمت مصر- في وقت غفلة- ضيافتهم وآوتهم، فانقلبوا ضدها وأهانوا أهلها وجعلوا أعزتها أذلة.

أما بريطانيا ومعظم الإمبراطوريات الأخرى، فاستهدفت توسعاتها بلدانا لم يصلها منها أي شر، فهاجمت البلاد الآمنة؛ طمعا في ثرواتها ومواقعها، أو لتنفيذ رغبات شيطانية للتنظيمات الخفية التي تحكمها لنشر الدم والخراب (إزفت) في العالم.

وفي ذلك يقول عبد العزيز صالح: "خرج أولو الرأي المصريون من محنة الهكسوس وقد غلب على تفكيرهم أنه لا أمان لاستقلالهم من غدر أعدائهم إلا إذا واصلوا الاهتمام بجيشهم وزادوا قوته الحربية، وأنه لا أمان لاقتصادهم من اعتداءات الهكسوس إلا إذا أبعدوهم عن مسالك تجارتهم الخارجية جهد ما يستطيعون، وأحاطوهم بأنصارهم جهد ما يستطيعون، وأنه لا أمان لمستقبل بلدهم من غزو هجرات شعوبية جديدة غريبة إلا إذا سيطروا بأنفسهم على مداخل الهجرات في شمال الشام وأطراف العراق[١١]".

وشجع خلفاء أحمس على استمرار هذه السياسة ظهور دولة ميتاني ثم ظهور دولة أخرى مجاورة تكونت من هجرات أيضا استوطنت الأناضول، وتسمت بأرض الحيثيين، أو "خاتي"، وسعي البلدان إلى التوسع باستمالة الإمارات الشامية الخاضعة لمصر ليتمردوا عليها، ويتحالفوا ضدها[١٢].

---

[٧]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٠٦

[٨]- نفس المرجع

[٩]- و"تا مري" معناها أرض الفيضان أو الأرض المرتفعة[٩] أصل كلمة "دميرة" التي يطلقها زراعنا على الأرض المغمورة بطمي الفيضان.

[١٠]- نفس المرجع

[١١]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٠٤

[١٢]- هذا التحالف بين إمارات شامية مع قوى خارجية ضد مصر سيتكرر باستمرار حتى نصل للعصر الحاضر حين تحالفت بعض بلاد وجماعات الشام مع تركيا تارة، ومع إيران تارة، ومع روسيا تارة، ومع دول عربية تارة، ضد مصر، ومن أسباب هذا أن الشام من القديم مكونة من أعراق

ظهر خطر الدولتين الناشئتين في عهد حتشبسوت، حفيدة أحمس، ولكن حتشبسوت التي حكمت ٢٠ عاما صرفت معظم جهدها لتنمية مصر في الداخل وتوسعة التجارة، خاصة مع أفريقيا، ورحلتها الشهيرة لبلاد بونت، ولم تبذل مجهودا حربيا بما يكفي، فتجرأت الجماعات المعادية على الحاميات المصرية في بلاد الشام، وعندما خلفها تحوتمس الثالث في الحكم، لم يكد يفرغ من تتويجه حتى هرع كالسهم إلى تنظيم الحملات الحربية لردع هذا الخطر الجديد.

واستجاب لتحريضات ميتاني ضد مصر بعض أمراء الشام وشيوخ بدوها، لاسيما وأنه كانت لا تزال تعيش بينهم بقية من ذراري الهكسوس الذين طردهم المصريون[١٣].

وتزعم التحالف الجديد أمير قادش (حمص بسوريا)، فاتجه بحلفائه وخيلهم ورجلهم، على حد تعبير النصوص المصرية، إلى شمال فلسطين، وسيطر على مدينة مجدو (بلدة تل المتسلم بشمال فلسطين)، وجعلها مركزا لأطماعه، ومد نفوذه حتى شاروهين معقل الهكسوس القديم، وبذلك اقترب من مصر[١٤].

وانتهت معركة مجدو بانتصار مصر المحكم على تحالف الأمراء السوريين والميتانيين، وكان سلاحها عنصر المفاجئة والمباغته، وخطة تحوتمس الثالث الشهيرة في اختيار أضيق طريق إلى مكان تمركز القوات المعادية، والذي لم يدر ببالها أن يقدم جيش على العبور منه، لأنه طريق لا يكفي إلا لمرور رجل واحد، أو فرس واحدة، وعلى جانبيه مرتفعات لو وقف فوقها العدو لقضى على الجيش العابر بسهامه في لمح البصر، وشجع تحوتمس قواته بأنه تقدمهم في السير[١٥].

ومن عوامل النجاح أيضا خطة تسيير الأسطول المصري بالتنسيق مع الجيش البري، والتطويرات الجديدة على سلاح المركبات الحربية لتكون أكثر قدرة على المناورة وأكثر خفة في الحركة لإرباك صفوف العدو، وغير ذلك من أشكال الخطط والتسليح المبتكرة.

وتقول موسوعة كمبريدج عن الجيش المصري وقتها: "كان جيشا وطنيا هائل الحجم، يتألف معظمه من جنود محترفين، سواء من الجنود العاملين في الخدمة العسكرية أو جنود الاحتياط، ويقوم على قيادته ضباط محترفون مدربون على أعلى مستوى، ويؤدون وظائفهم وواجباتهم الحربية في إدارة الفرق والأسلحة المنوطة بهم قيادتها بشكل منظم ومنسق ودقيق، كما لو كانوا حلقات مترابطة في سلسلة القيادة العامة[١٦]".

وفرَّ ملك ميتاني الذي وصفته حوليات تحوتمس بـ "الخاسيء" لبلد بعيد، وعبرت السفن المصرية نهر الفرات، وهي المرة الأولى التي يتم فيها نقل السفن الحربية عن طريق البر لمسافة حوالي ٢٥٠ ميلا، وعلى ضفاف الفرات أقام نصبين سجل عليهما أخبار نصره، وعيَّن بهما حدود فتوحاته، وعبر تحوتمس

وقبائل ومذاهب مختلفة عن بعضها، ومتصارعة فيما بينها، ولم تعرف معنى للدولة الوطنية لتتجانس تحت ظلها، وتستقوي بقوى خارجية على بعضها؛ ما يسهل للبلاد الأخرى أن تستميل هذه وتلك بدوافع سياسية أو مالية أو دينية.

(١٣)- مرجع سابق، ص ٢٠٨

(١٤)- نفس المرجع

(١٥)- المزيد عن الخطة النصر في مجدو انظر: المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الإمبراطورية، أحمد قدري، ص ١٤- ١٧، رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، رمضان عبده علي، ج٣، ص ١٤٩- ١٥٥، الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز صالح، ص ٢٠٨- ٢١٣

(١٦) - المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الإمبراطورية، مرجع سابق، ص ١٧

حينذاك عن اتساع حدود دولته بعبارة قريبة من عبارة جده تحوتمس الأول، قال فيها إنه: "جعل حدوده من بداية الأرض إلى أقاصي آسيا (الغربية)[١٧]".

وبعد إعادة تثبيت وجود مصر في الشام وهزيمة القوى الجديدة، لم يركن تحوتمس الثالث إلى السلم وحياة الرفاهية، رغم أنه صار أقوى وأغنى حاكم في الدنيا، فخرج للشام ٨ مرات أخرى بقصد الاستطلاع وتوطيد الأمن[١٨]، فكان بذلك أيضا من أوفى من طبقوا ماعت بأنه لم يغفل عن مطاردة العدو وتحصين الحدود حتى في عز انتصاره واستقرار البلاد.

وفي نفس الوقت وفَّى الزعيم المصري الخالد بدوره كخليفة للإله في تطبيق ماعت على أرض مصر، فحكم أهلها بالعدل والرحمة والاحترام والإخوة بين المصريين، بحسب ما تظهره النصوص.

فمن ناحيته وقع رئيس الوزارة تحت مراقبة شديدة وتوجيه من الحاكم، ويظهر ذلك في خطابات التكليف التي يوجهها له الحاكم خلال مراسم توليه منصبه في قاعة مجلس الحكم، وفيها يأمره باتباع الأساليب السليمة في الحكم وإدارة الرعية، الموروثة من سلفهم الصالح.

ومن هذه التكاليف نسخة منقوشة على جدران مقبرة "رخ مي رع"، الوزير (رئيس الوزارة) في عهد تحوتمس الثالث، في الأقصر، يظهر فيها أصداء تعاليم خيتي لابنه مري كا رع، وحديث "إيبو ور"، و"الفلاح الفصيح" وغيرهم ممن رددوا تعاليم ماعت عن سمات الحاكم باعتباره الراعي الصالح.

يقول له تحوتمس: "تأمل (خد بالك) ، إن منصب الوزير ليس حلوا قط، بل إنه مر المذاق كالصبر (...) تأمل إن القصد منه ألا يجعل لنفسه ولا لموظفي إدارته اعتبارا ما، وألا يتخذ من الشعب عبيدا، تأمل إذا حضرك شاك من الوجه القبلي أو الوجه البحري مستعدا للمحاكمة... لأجل سماع قضيته فواجبك أن ترى كل إجراء لازم لذلك قد اتخذ حسب القانون، وأن يكون كل تصرف يتفق مع العرف الجاري".

""تأمل (خد بالك)، عندما يكلف حاكم بسماع قضايا عليك أن تجعلها علنية، وبذلك تجعل الماء والهواء ينقلان كل ما عساه أن يفعل، تأمل فإنه بذلك لن يبقى سلوكه خافيا، وعلى ذلك إذا أتى أي أمر (غير مرض) يلام عليه فيجب ألا ينصب ثانية بأمر من رئيسه، بل يجب أن يعلم الناس فعلته التي فعلها بواسطة القاضي الذي حاكمه".

وفي نفس الوقت دعاه لأن يكون وسطا في تطبيق العدل، فلا يتجنى على أقربائه خوفا من أن يتهمه الناس بالتحيز لهم، وضرب له مثلا عندما ظلم أحد الوزراء قريبه خوفا من كلام الناس، وإعتبرها "مبالغة منه (أي الوزير) في تنفيذ العدالة، فالمحاباة بغيضة عند الله، وهذا تعليم يجب أن تسير على سنته".

"يجب أن تراعي من تعرفه كما تراعي من لا تعرفه، وكذلك الفرد الذي يلتجئ إليك كالفرد البعيد عنك،

---

[١٧]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع ساق، ص ٢٠٨- ٢١٣

[١٨]- نفس المرجع، ص ٢١٢

فإذا سار حاكم على حسب هذه الطريقة فإنه سيصيب النجاح في هذه الإدارة".

وفي لمسة حانية راقية على أصحاب الشكاوى قال له: "لا تتخط مدعيا (شاكيا) قبل أن تسمع شكايته (...) وإذا رفضت شكايته فعليك أن تجعله يسمع السبب الذي من أجله رفضت شكايته، تأمل! (خد بالك) يقال إن المدعي (الشاكي) يفضل سماع أقواله عن أن يفصل في القضية التي حضر من أجلها".

وفي نفس الوقت طلب منه أن يحفظ هيبة منصب الوزير، فقال: ""لا تغضبن على رجال ظلما، بل اغضب على من يستحق الغضب عليه، ابعث الرهبة في نفسك حتى يخشاك الناس، لأن ذلك الموظف الذين تخشاه الناس هو الموظف الحقيقي".

ولكن هذه الرهبة يجب أن يكون مصدرها قوته في الحق وليس "الشخط والنتر": "تأمل (خد بالك)، إن شهرة الموظف تنحصر في أن يقول ما هو حق، تأمل، إن الرجل إذا بعث الخوف منه مرات عدة أكثر مما يجب فقد يدعو ذلك إلى اتهام الناس له بعدم الاستقامة".

وبذلك يلتزم الوزير بدوره في ميزان صلاح البلد: " تأمل (خد بالك) إن عمله (الوزير) ينحصر في القيام بأداء الإشراف الدقيق لأنه كاتب "ماعت" (....) فلا تتبعن هواك في أمور قد عرفت مبادئها القويمة[١٩]"،وبعد انتهاء مراسم التنصيب، يخرج الوزير في موكب رسمي يتقدمه حرس الشرف.

ولهذا، لم يمنع كون تحوتمس الثالث محاربا في معظم حياته، وحازما في حكمه، من أن يصفه "رخ مي رع" بأنه "كان أبا وأما للناس أجمعين[٢٠]".

[١٩]- النص وارد في موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ٥٦٩- ٥٧١، وللمزيد انظر: الخطاب السياسي في مصر القديمة، مصطفى النشار، دار قباء للطباعة والنشر، ط ١، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٦٤- ٧٩

[٢٠]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ١٩٨



تحوتمس الثالث بملامح الطمأنينة والرضا التي طبعت عصره تتويجا لكفاح الأجيال السابقة ضد الهكسوس وفي تعمير مصر (تمثال في متحف الأقصر)

وبعد ٢٨ سنة من الحكم الرشيد خلف تحوتمس الثالث ابنه أمنوحتب الثاني، وكان مثل أبيه محاربا وبناءً عظيما، ثم تحوتمس الرابع (ابن أمنحوتب الثاني)، وسار على درب أجداده أيضا في اليقظة والعمل الدؤوب، حتى جاء ابنه أمنوحتب الثالث ليبدأ معه عصر ارتخاء جديد لمصر، وهي في قمة مجدها وغناها- كعادتها القديمة- فيتبعه عصر جديد من القلق والفوضى، تحوي في جوفها السؤال الحيران... لماذا تعيد مصر خطاياها وتذبح نفسها بيدها قبل أن يذبحها أعاديها؟

ويتجدد السؤال أيضا: بمراجعة الأسباب والنتائج التي حررت بها الأسرتان ١٧ و١٨ مصر من لهيب نار الفوضى المتوحشة كما نقلتها لنا البرديات والآثار.. كم منها ينطبق عليه ما ورد في البنود الـ ١٧ لدستور المصريين؟

"إن السماء تكون في سلام، والأرض تكون في سرور، ذلك أنه قد أُشيع أن الملك سوف يضع "الماعت" لتحل محل (الباطل)".

(نصوص الأهرام **Pyr.1775**)

"لقد أزاح الفوضى عن الأرضين (الوجهين القبلي والبحري) حتى تكون ماعت هي الباقية".

(نص إصلاحات توت عنخ آمون)

"إنها لا تتغير ولا تتبدل منذ زمن الذي أوجدها".

(الحكيم بتاح حتب)

إنه "الذي يضع الماعت في مكان الباطل"، أي بدل الباطل.

(نصوص الأهرام **Pyr, 265** عن صفة الحاكم الصالح)

"إن صلاح الأرض (مصر) ينحصر في تطبيق الماعت"[٢١].

(الفلاح الفصيح في شكواه الثالثة إلى المسئول)



ملامح المصريين حكاما ومحكومين في زمن الولادة الثالثة تملؤها الطمأنينة والثقة والجد إلا أنها لم تتحسب للغد ولم تتعظ من دروس الماضي

▼▼▼ونسيت مصر.. ٤ أفخاخ

بعد ٢٨ سنة من الحكم الرشيد خلف تحوتمس الثالث ابنه أمنوحتب الثاني، وكان مثل أبيه محاربا وبناءً عظيما، ثم تحوتمس الرابع (ابن أمنحوتب الثاني)، وسار على درب أجداده في اليقظة والعمل الدؤوب، حتى جاء ابنه أمنوحتب الثالث ليبدأ في نهاية حكمه عصر ارتخاء جديد لمصر، وهي في قمة مجدها وغناها- كعادتها القديمة- فيتبعه عصر من القلق والفوضى، تحوي في جوفها السؤال الحيران... لماذا تعيد مصر خطاياها وتذبح نفسها بيدها قبل أن يذبحها أعاديها؟!

فخلال مرحلة القوة والتوسع غير المسبوقين، وبعد هزيمة التحالف الميتاني- الشامي في حرب مجدو توالت مشاهد حكام البلاد المجاورة كآشور وبابل وقبرص وميتاني والشام يبعثون إلى مصر الرسل تخطب ودها، ورغم اليقظة الكبيرة لتحوتمس الثالث، إلا أنه وقع في فخ جديد من أفخاخ الأعداء المنصوبة لمصر، وهو

[٢١]- تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

الزواج من الأجنبيات لتوثيق هذا "الود"، ولم يكن زواج الأجانب بالأمر المعتاد أو المحبب قبل هذا التاريخ في مصر، ووردت عنه أمثلة نادرة أو غير مؤكدة.

وتوسع خلفاؤه في هذا الزواج، إضافة لوقوعهم في ٣ أفخاخ أخرى منها أفخاخ قديمة لم نتعلم منها الدرس، هي: توطين أسرى الحرب والعبيد والجاليات الأجنبية، وفتح الباب واسعا لتوظيف أبناء البلاد المفتوحة، توظيف الأجانب في الجيش المصري.

فكانت أخبث ٤ أفخاخ سقطت فيها مصر، فعلت فيها ما لم تستطع جيوش الدنيا وقتها أن تفعله.

❶ فخ الزواج بالأجانب

بداية من عصر تحوتمس الثالث، بدأ زواج حكام مصر بأميرات آسيويات؛ ظنا منهم على ما يبدو أن هذا يضمن ولاء بلادهم لمصر بعلاقة النسب فيما يعرف الآن بالزواج الدبلوماسي، فتزوج ٣ أميرات سوريات، وبعده تزوج أبناؤه وأحفاده من ممالك ميتاني والحيثيين وبابل، هذا بخلاف أعداد كبيرة من الجواري والرقيق الواصلة لمصر من الشام وكوش، ومنها ما يرسله حكام البلاد الأجنبية إلى حكام مصر على سبيل "الهدية" والتودد[٢٢]، والزوجة الأجنبية تأتي وفي ذيلها "زوفة" من أهلها وخدمها ليؤنسوا غربتها، فيسكنون قصور الحكام، ويشغلون وظائف مميزة جعلتهم مطلعين على أحوال البلد، وبالتدريج متحكمين فيها، ولو من وراء ستار.

يقول برايس في كتابه "رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى" الخاص بتحليل الرسائل المتبادلة بين حكام مصر وبابل وآشور وميتاني والحيثيين، وما تضمنته من أحاديث عن الزواج الدبلوماسي بين عائلاتهم: "أُستُغلت أميرات كثيرات كأدوات دبلوماسية بإرسالهن إلى بلاد أجنبية كأفضل وسيلة ملائمة لتحقيق مصالح ممالك آبائهن"، و"كانت العروس الملكية تأتي إلى موطنها الجديد تصحبها مجموعة من الخدم من موطنها الأصلي"، ضاربا المثل بأنه "جاءت الأميرة الميتانية كيلوحيبا إلى مصر وبرفقتها ٣١٧ امرأة من خدمتها"[٢٣].

ودخل زواج الحكام والمسئولين المصريين بأجنبيات في طور "الحُمَّى"- كناية عن كثرته- بعد نجاح المفاوضات العسيرة بين مصر وميتاني لتقسيم مناطق النفوذ في الشام أيام تحوتمس الرابع بأن يكون لمصر حتى حمص واللاذقية بسوريا، ولميتاني ما بعدها شمالا؛ فتزوج تحوتمس الرابع من ابنة الملك الميتاني آرتاتاما، وتزوج ابنه أمنحوتب الثالث بالأميرة تادوحيبا ابنة الميتاني توشراتا وبابنة ملك بابل كاداشمان إنليل الأول، وتزوج إخناتون ورمسيس الثاني من ميتان وبابل والحيثيين[٢٤].

لم ينتبه حكام مصر لخطية الزواج بأجنبيات على مستقبل البلاد، إلا أنهم اتخذوا خطوة إيجابية برفضهم تزويج أميرات مصريات للأجانب، فبوصف برايس: ""كان طريق الزواج والمصاهرات مع ملوك مصر ذات

---

(٢٢)- انظر: الشرق الأدنى القديم،عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ٢١٥- ٢١٦
(٢٣)- رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم، تريفور برايس، ترجمة رفعت السيد علي، دار العلوم للنشر والتوزيع،، ص ١٨٥
(٢٤)- نفس المرجع، ص ٦٦- ٦٧، ١٦١، ١٦٩، ١٨٥

اتجاه واحد"، بمعنى أن الحاكم المصري كان "راغبا على الدوام في استقبال زوجات أجنبيات ذوات حسب رفيع، إلا أن أيًا من فراعنة مصر لم يوافق أبدا على إرسال أميرات مصريات ليكنَّ زوجات لملوك أجانب، كان ذلك تقليدا راسخا لا استثناء له".

وحين جسَّ الملك البابلي كاداشمان-إنليل النبض ليكون أول حاكم أجنبي يتزوج بأميرة مصرية، متشجعا بأن أخته متزوجة من أمنحوتب الثالث، جاءه الرد الحاسم من أمنحوتب: "لم يحدث من بداية الزمن أن أُعطيت ابنة ملك مصري كزوجة لأي ملك أجنبي"، والسبب عند برايس: "يعود إلى كبرياء الفراعنة واعتدادهم بأنفسهم، وفي المحافظة على صورة الفراعنة الراسخة كأهم وأعظم ملوك المنطقة"، وقبولهم تزويج بناتهم بالأجانب يقلل من درجتهم، و"يبدو أن الملوك الأجانب قد تفهموا ذلك وقبلوه"[٢٥] فواضح أنهم وازنوا الأمر ورأوا أن مكاسبهم من العلاقة بمصر، وترسيخ قدم بها على يد بناتهم وحاشياتهم، سيعوضهم.

والطيب في رفض المصريين تزويج أميراتهم للأجانب هو ألا تكون الست المصرية وسيلة لنقل العرش إلى أجنبي إذا ما توفي حاكم مصر ولم يترك وريثا ذكرا للعرش من أبنائه، فتتخذ البلد الأجنبي الفرصة لتدعي حق الأميرة المصرية وزوجها وأولادها في عرش مصر[٢٦] "بالقانون".

كما أن الأميرات المصريات- مثلهن مثل معظم المصريين- لا يجيدنَّ مهارات التسلط والسيطرة والتجسس والمؤامرات والتكتل في البلاد التي ينتقلون إليها للزواج أو العمل، أو تسخير ثروة البلد التي هنَّ فيها لبلدهنَّ الأصلي، فلن يكنَّ وسيلة لوضع قدم مصر في الدولة التي يتزوجنَّ فيها، أي أنها زيجة تأتي بالخسارة على مصر من كل النواحي.

② فخ توطين أسرى الحرب والعبيد

ضمن الهدايا التي يتبادلها الحكام في ذلك العصر هي العبيد، وأحيانا يكونوا ضمن جهاز العروسة الأجنبية، وبعض البلاد، ومنها الحيثيون، برعوا في استغلال العبيد كوسيلة للاختراق، أو برعوا في التخلص من العبيد المشاغبين تحت اسم "هدايا" لبلاد غيرهم، فيكونوا تخلصوا من شغبهم وفي نفس الوقت تبقى "بجميلة وبمعروف" على الملك الأجنبي، ويأخذون مقابلها هدية أخرى ثمينة.

ومثال لذلك إرسال بودحيبا زوجة ملك الحيثيين عبيدها القوقاز ضمن جهاز ابنتها إلى رمسيس الثاني، وكان القوقازيون يشتهرون بأنهم خطرون وعدوانيون، حتى وهم أسرى، بحسب وصف برايس، الذي توقع أن "لا يوجد شك أن بودحيبا كانت سعيدة بانتهاز تلك الفرصة للتخلص من أولئك الأسرى القوقازيين بإرسالهم إلى

---

[٢٥]- المرجع السابق، ص ١٧٩- ١٨١

[٢٦]- مواد قانون الجنسية المصرية الحالي، فيما يخص تجنيس الأجانب، كتجنيس أولاد المصرية، والزوجة الأجنبية، وتجنيس المقيم الأجنبي بعد ١٠ سنين، وتجنيس المستثمر الأجنبي مقابل وديعة إلخ، هو بمثابة بوابة لنقل عرش مصر إلى الأجانب "بالقانون" أيضا، بل هو أسرع طريق مختصر لهذا، خاصة وأن معظم الوظائف في مصر وتمليك الأراضي والترشح لانتخابات المحليات والبرلمان لا تطلب في المتقدم لها "فيما يخص الجنسية إلا أن يكون مصريا وبالكثير "من أبوين مصريين"، دون الاشتراط أن يكونوا غير مجنسين، وحتى الرئيس لا يُشترط أن يكون جداه مباشرة غير مجنسين، أو أن تكون زوجته من أبوين غير مجنسين، أي في النهاية يسهل على الأجنبي بعد جيل أو جيلين على الأكثر أن يصلوا إلى أرفع مناصب الدولة.. بالقانون.. بورقة ابتدعها الأجانب باسم "التجنيس"، ستدفع مصر ثمنها غاليا.

مصر كعبيد"، وأعلن رمسيس أنه يرحب بإرسالهم إلى مصر، ولكنه نصح الملكة بأن تشدد الحراسة عليهم، حتى وهم ما زالوا في الحبس الحيثي حتى لا يشكلون أي خطر على المرتحلين في حفلة العرس[٢٧].

وليس مفهوما لماذا قبل رمسيس الثاني هؤلاء العبيد رغم علمه بأنهم خطرين ومشاغبين؟ إلا إن كان ثقة زائدة في النفس بأنه "كله تحت السيطرة"، وهو ما ستظهر مشاكله في دور الأجانب المشاغبين في تحطيم عظام الأسرة ١٩ التي كونها جد ووالد رمسيس الثاني وإسقاطها، وتحطيم عظام مصر نفسها فيما بعد.

واستخدم الحكام بداية من الأسرة ١٨ وحتى الأسرة ٢٠ الأسرى المجلوبين من البلاد المفتوحة، أو المستسلمين، في بعض المهن، وليتهم ما فعلت، وليتهم بحثوا عن وسيلة للتخلص منهم كما فعل الحيثيون بدلا من تراكمهم في مصر التي وجدوا فيها فرصا أرقى بكثير من البلاد الأخرى، ورغم هذا لم يرحموها حين تكتلوا عليها كما سنرى، فتباهى بعض حكام مصر بكثرة ما لديهم من أسرى حرب- كدليل على القوة والانتصارات- ولم يدر بخلدهم أن هؤلاء أنفسهم سيحولون المصريين كلهم، بل مصر نفسها، إلى أسرى حرب لديهم عما قريب.

3 فخ توظيف أبناء البلاد المفتوحة والجاليات الأجنبية

فتحت مصر الباب لتوظيف أجانب من أبناء البلاد المفتوحة والمقيمين في مصر في أعمال الترجمة والإدارات الحكومية المتصلة بإدارة تلك البلاد على أساس درايتهم بشئون بلادهم، كما سنرى في حكاية السوري "إرسو" وكيف استغل وظيفته في السيطرة على القصر.

وطبيعي أن انفتحت أبواب مصر واسعا أمام بضائع البلاد المفتوحة وتجارها، فانتشروا فيها، وأغراهم الثراء السريع في استيطانها وسط غفلة من أهلها الذين نسوا كيف بدأ الاحتلال الهكسوسي بالاستيطان باسم تاجر ولاجئ وعامل، وقبله توغل الأجانب بنفس الأسلوب ليساهموا في إسقاط الدولة القديمة.

4 فخ تشغيل الأجانب في الجيش المصري

وهو ما سنتابعه بالتفاصيل والوقائع في الحديث تحت عنواني "النار تصل الجيش والمعبد"، و"تصفية الجيش المصري" في الصفحات التالية، وهو عنوان قاسي، ولكنه ما حصل، وبدأ تشغيل أسرى الحرب والمستوطنين الأجانب في مهام صغيرة جدا في أعمال معاونة، لم تبدُ أنها تشكل خطرا، ثم تطور الأمر بمرور السنين إلى تجنيد، ثم ترقية إلى ضباط، ثم قيادات، ثم دخول الضباط والقيادات في مصاهرات مع العائلات المصرية النافذة، ثم الانفراد بقيادة الجيش نفسه.. ثم تولي أجنبي (ادعى التمصر كذبا) وظيفة القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية.

▼▼▼ الغنى الفاحش مفسدة لمصر

---

[٢٧]- المرجع السابق، ص ١٩٢

في عصور الدولة الحديثة وصلت مصر إلى مرحلة من الغنى الفاحش لم تصلها طوال تاريخها.

فإلى جانب الإنتاج الداخلي مع دوران عجلة البناء من معابد ومقابر وتنشيط المحاجر والمناجم، وتطوير مشاريع الري وازدهار كافة الصناعات، تدفق على مصر ثروات من البلاد المفتوحة كالجزية والهدايا، ونسمع رنّات هذا الثراء على لسان الملوك الأجانب في رسائلهم لحكام مصر، فيقول حاكم "ميتاني" بعد الصلح معه وزواج أمنحوتب الثالث من ابنته: "أخي، أرجو أن تهديني ذهبا كثيرا لا يُحصى، وإني على ثقة من أن أخي سوف يحقق ذلك ويهديني ذهبا أكثر من الذهب الذي حصل والدي عليه، أليس الذهب في بلد أخي كتراب الأرض؟ بارك الأرباب فيه حتى يصبح الذهب في أرض أخي أضعاف ما هو عليه الآن، وعسى ما أطلبه لا يضايق أخي ولا يضيق به قلبه، ...، وسوف أرد لأخي فضله عشرة أمثال مما يشتهيه"[٢٨]، أي حصل على الصلح، وصلة النسب مع حاكم مصر، والثروة، ومساعدة مصر لهم وقت اللزوم، في المقابل أخذت مصر منهم اللسان الحلو وهدايا والغرق في جمال بناتهم.

وإن كان حكام مصر بداية من أحمس وحتى تحوتمس الرابع (٨ حكام) قاوموا إغراء هذه الثروات، وواصلوا كفاحهم في الداخل والخارج لحماية البلد، إلا أن أمنحوتب الثالث، ابن تحوتمس الرابع، وبعد أن بدأ عهده بحملات تفتيشية في البلاد المفتوحة، إلا أنه في الجزء الأخير من عهده مال إلى حياة السلم والدعة والخمول وحفلات القصر الصاخبة، خاصة بعد الصلح مع ميتاني، وتبدى ذلك في تماثيله التي اتسم بعضها بالسمنة مقارنة بتماثيل أسلافه الممشوقة، إضافة لكثرة الوصل مع الأجنبيات اللاواتي ملأن القصور، ويبدو أنهنَّ كسرنَّ حدة العداء في الصدور المصرية للبلاد التي قدمنَ منها رغم مطامعها، فعميت الأبصار عن مؤامراتها.

وانتقلت نيران الثراء الفاحش من قصور الحكم إلى المعابد، وحسب تعبير هنري بريستيد فإن "ثروة العاهلية [الدولة] أفسدت أخلاق الكهنة"[٢٩].

ولم يكن من بأس على أثرياء مصر في أن يستمتعوا بما أفاءته عليهم جهود أسلافهم من نعمة ونعيم، ولكن الضرر أوشك أن يقع بهم حين استمرأوا النعمة واستناموا إلى النعيم[٣٠]، بحسب تعبير عبد العزيز صالح، فتراخت قبضتهم ظنا منهم أن الدنيا دانت لهم، و"كله تحت السيطرة"، وآن لهم أن يريحوا أنفسهم، واستسهلوا إسناد بعض الأعمال للموظفين الأجانب ترفعًا عنها.

أدى هذا إلى تبدل الاستقرار الخارجي في نهاية عهد أمنحوتب الثالث شيئا فشيئا، فبدأت القوة الحيثية الفتية تعبث بالحدود السورية والميتانية، وتغري ضعاف النفوس من الإقليمين بالعمل لصالحها[٣١].

وعندما خفّت الإدارة المصرية وقلّت حملاتها الحربية أغار بعض أمراء الشام على جيرانهم، وهددت

---

[٢٨]- الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ٢١٦

[٢٩]- فجر الضمير، جيمس هنري بريستيد، ترجمة سليم حسن، مرجع سابق، ص ٤٥

[٣٠]- الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٢١٦

[٣١]- انظر الشرق الأدنى القديم،عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ٢١٧

قبائل الخابيرو والعابيرو البدوية الأمن وسبل التجارة، فتوالت صرخات الاستغاثة من الأمراء الشوام الموالين لأمنحوتب، فوجدت الاستجابة مرة، ولكنها وجدت الإهمال مرات.

فلم يقدِّر أمنحوتب خطورة هذه الأحوال تقديرها الصحيح، واستمر يظن في نفسه السيادة، واستمر يستمتع برسائل المديح القادمة من أمراء بابل والميتان وبعض أمراء آسيا الصغرى التي أخمدت شعلة الحذر في الصدور، وشرّ ما أعماه عن تبين حقيقة الأوضاع هو جماعة من أمراء كنعان ومن الخابيرو العابيرو، مهروا في النفاق، واستمروا يضللونه ويضللون ولده إخناتون من بعده، ويسرفون في إظهار الود والطاعة لمصر، ويسرفون في الوقت نفسه في إضمار الحقد لها[٣٢].

وصورت هذه البلبلة مجموعة رسائل محفوظة بديوان رسائل أمنحوتب الثالث وإخناتون"، وتُسمى في علم الآثار برسائل تل العمارنة، موزعة الآن على المتحف المصري ومتاحف أجنبية، وتتضمن المراسلات المتبادلة بين أمنحوتب الثالث وإخناتون وبين ملوك الشرق وحكام الشام في عهديهما.

ويُفهم من رسائل العمارنة أنه كان من بين حكام الإمارات الفينيقية (اللبنانية) حاكم للأموريين اسمه "ريب أدي" ظل مواليا لمصر حتى آخر حياته مع حكام إمارات فينيقية أخرى كبيروت وصور وصيدا وعكا، وفي المقابل ظهر حاكم اسمه "عبدو عشرتا" سيطر على جزء من حوض العاصي، ومد نفوذه بالقوة على حساب جيرانه؛ فاحتل عرقة وقطنة وحماة وأرواد، ونافق المصريين والحيثيين في وقت واحد، يوهم كل طرف أنه تبعه ويعمل لحسابه.

وبعث "ريب أدى" بشكاوى إلى مصر عن مطامع وخبث "عبدو عشرتا"، وترجى أمنحتب أن ينجده، وفي الوقت نفسه كان "عبدو عشرتا" يبعث رسائل لمصر ينكر فيها كل ما يتهمه به حلفاء مصر، ويؤكد أنه خاضع كامل الخضوع لمصر، لدرجة أنه يقول في رسائله لأمنحوتب الثالث: "إلى الملك شمسي ومولاي، يقول عبدو عشرتا عبدك وتراب قدميك: أجثو عند قدمي مولاي الملك سبعا، وسبعا، فأنا خادم الملك وجرو بيته (الجرو هو الكلب الصغير)، وأحرس أرض أمور أو كلها من أجل مولاي وسيدي[٣٣]".

وفي نهاية المطاف أرسل أمنحوتب الثالث حملة تأديبية قبضت على عبدو عشرتا، وقتلته، لكن سار أبناؤه، وخاصة عزيرو، على نفس مسلكه.

وكتب "ريب أدي" متحسرا على تراجع الهيبة المصرية هناك: ""كان حكام كنعان إذا رأوا جنديا مصريا ولوا الأدبار، أما الآن فإن أبناء عبدو عشرتا يستخفون بالمصريين ويهددونني بأسلحة فتاكة"، وغدا الرجل في عاصمته جبيل حسيرا محصورا كعصفور في قفص.

وفي رسالة ثانية قال لأمنحوتب: ""قديما كان للملك عندنا قلعة وحامية، وكان الملك يكفل تموينها من إياريموتا، ولكن عزيرو يهاجمنا الآن مرارا دون خوف، ولم يبق لي حاشية أو مؤنة بعد أن أصبحت قراي

---

[٣٢]- انظر: نفس المرجع

[٣٣]- مرجع سابق، ص ٢١٧

الآن في حوزة عزيرو، وهو يظهر لي الرغبة في أن أنضم إليه، ولكن لماذا أنضم إليه؟ إنهم أجراء أبناء عبدو عشرتا هؤلاء يبغون مصالحهم ويخلفون مدن مولاي الملك طعاما للنيران"[٣٤].

"وكتب حاكم مدينة تونيب يردد نفس الشكوى، ويذكر أمنحوتب الثالث بسياسة جده تحوتمس الثالث في استمرار تفقد الأحوال في الشام لتثبيت النفوذ المصري بها: "مولاي ملك مصر، نحن أهل تونيب أتباعك، ندعو لك بالحياة ونقبل قدميك، إن أمَتك مدينة تونيب تقول من ذا الذي كان يستطيع أن ينهب توتيب دون أن ينتقم لها منخبريا (تحوتمس الثالث) ويفعل بالناهب ما فعل بها".

"وليسأل مولانا شيوخ رجاله (كبار السن الذين عاصروا تحوتمس) ليعرف إذا ما كنا نقول الحقيقة أم غيرها. إذا لم يدركنا مشاة ملك مصر وعرباته قبل فوات الفرصة فإن عزيرو سيصنع معنا ما صنعه في مدينة ني، وحينئذ لن نبكي وحدنا بل سيبكي معنا أيضا ملك مصر مما يرتكبه عزيرو من أعمال لأنه سيرفع يده حينذاك ضد مولانا[٣٥]".

وفي إشارة للتجاهل التام من أمنحوتب لهذه النداءات قالت رسائل تونيب: "إن مدينتك تونيب تبكي، ودموعها تجري، ولا ناصر لنا، أرسلنا ٢٠ رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم نتلق ردا منه"[٣٦].

ومضى عزيرو في طريقه، واستولى على ألازا (شمال طرابلس) وأرداتا (قرب زغرتا بشمال لبنان) وحرق أوجاريت (راس شمرا باللاذقية السورية) ودمر سميرا، وظل يرسل خطاباته المخادعة إلى إخناتون يظهر ولاءه فيها، ويدَّعي أنه إنما يستولى على المدن ليحميها من الحيثيين، وأنه يخرب بعضها حتى لا يستفيدوا منها، وبلغت به الثقة في القدرة على خداع إخناتون أن يراسل الملك بأمله في أن يرى وجه مولاه البهي، وذهب إليه بالفعل ورجع آمنا من عنده؛ ويقول دونالدريد فورد إنه ذهب لمصر باستدعاء من إخناتون لمحاكمته، وظل طويلا، لكنه عاد سليما؛ ليوطد تحالفه مع الحيثيين ضد المدن السورية المعادية له وضد مصر[٣٧].

وبتحريض الحيثيين[٣٨] ظهر شخص مثل عبدو عشرتا اسمه "لا بآيو" حاكم مدينة سشم الذي تعاون هو وأولاده مع قبايل العابيرو، وبلغت الصفاقة به في نفاقه لإخناتون- وبمعنى أدق محاولة تغييبه عن الحقيقة- أن قال له في رسالة: "وهل إذا طلب الملك إمرأتي أستطيع أن أمنعها؟ وإذا كتب إليَّ أن إضرب قلبك بخنجر ومت، فهل أخالف أمر مولاي؟"، وعندما لقى "لا بآيو" حتفه خلفه في الشر والنفاق ولداه[٣٩].

---

[٣٤]- مرجع سابق، ص ٢١٧- ٢١٨، وأخناتون ذلك الفرعون المارق، دونالدريد فورد، ترجمة بيومي قنديل، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ص ٢١٣

[٣٥]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢١٧

[٣٦]- نفس المرجع

[٣٧]- انظر: مرجع سابق، ص ٢١٨، وأخناتون ذلك الفرعون المارق، مرجع سابق، ص ٢١٤- ٢١٦

[٣٨]- منطقة الحيثيين هي التي قامت عليها تركيا في القرون الأخيرة، ونفس الدور الحيثي في تسليط حكام وقبائل شامية ضد مصر هو نفس ما تفعله تركيا في تسليط جماعات في سوريا وفلسطين ضد مصر الآن، وهذه المنطقة ترمي على مصر الشر دائما، فهي نفس الأرض التي قامت عليها أيضا بيزنطة (الجزء الشرقي للإمبراطورية الرومانية التي احتلت مصر)

[٣٩]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢١٨- ٢١٩

فلماذا يا ترى هذا الصمت من الحكومة المصرية وقتها، وميلها لتصديق الكاذب المنافق عن الصادق؟

يتأمل دونالدريد فورد، ثم يجيب: "يذهب رأيي إى أن عزيرو كان واحدا من القلائل الذين سبروا غور أخناتون بشكل كامل، فلقد وزن بصفته شيخ قبيلة لا ينقصه لا الدهاء ولا سعة الحيلة، أي المكافئ لـ "بلطجي"، أو "قبضاي" الشوارع الخلفية للمدن حاليا، الحدود التي تفرضها التربية الراقية وحياة الدعة على حاكم تختلف ثقافته بوجه عام عن ثقافته هو. ولقد كان في طوع أخناتون أن يوظف عناصر وحشية، وإن كانت فعالة في السياسة، غير أنه لم يشأ أن يكيف نفسه مع التنظيم الضروري اللازم لإطلاق حملة تتمتع بالكفاءة والقدرة، وكان في وسع أخناتون أن يوجه تهمة شنيعة، إلا أن خاطره كان يطيب بسهولة ويسر"[٤٠].

هذا التحليل لا ينطبق فقط على عزيرو، بل على كل أعداء مصر والطامعين فيها، ولا على إخناتون فقط، بل معظم المصريين في أوقات ترك الحيطة ونسيان التاريخ، فأمثال عزيرو على مر التاريخ يعرفون أن المصريين في هذه الأوقات يركنون إلى السلم، وتؤثر فيهم الكلمة الحلوة والوعود المغموسة في المديح أو الخضوع، وليس المشكلة أن هذا يؤدي لخسارة مناطق نفوذ خارجية، فهي في النهاية ليست أراضينا، ولكن تؤدي لتمكين العدو من أرض مصر نفسها حين يتغلغل بنفس الأساليب داخل أروقة الحكم، كما سيحدث في السنين المقبلة.

وتزيد فرص التمكين الأجنبي من مصر حين يسكر أهلها في الغنى الفاحش، فتثقل الأقدام عن الحركة، ويتراخى العقل عن التفكير في مؤامرات الغير، وتغريهم قوتهم بالاطمئنان للمنافقين، وينفر بعضهم من الكفاح، ولأن مصر دولة "وسطية"، وعَدَلها في وسطيتها، فإن الغنى الفاحش لا يجلب لها إلا الشر، ولأهلها الكسل، وللأجانب الفرص.

▼▼▼ الثعابين في القصر

لسوء الحظ تزامنت هذه الظروف مع انشغال إخناتون بفكره الديني الجديد، وخلافه مع رجال الدين وظهور نزاع داخلي، وبحسب رأي عبد العزيز صالح فإن إخناتون وقع في خطأ أنه بحسب دعوته الدينية التي تقول إن كل الشعوب متساوية فإن الإخاء والمساواة بينها سيكون هو الكفيل بإنهاء الحروب والصراعات، ولكن خاب ظنه[٤١] كما خاب ظن كل من سعى بعده لدمج الشعوب أو تحويل العالم إلى أمة واحدة بحسن أو بسوء نية، كالإسكندر وكنيسة روما والخلافة الإسلامية والدولة الشيوعية العالمية والعولمة، فهي فكرة عكس حكمة الله في خلقه، "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات" (المائدة، الآية ٤٨)

قوبلت أفكار إخناتون بالمقاومة الشديدة من علماء الدين بمعابد آمون الذين رأوا فيها أفكارا متأثرة

---

[٤٠]- أخناتون ذلك الفرعون المارق، دونالدريد فورد، مرجع سابق، ص ٢١٦

[٤١]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢١٩

بالاندماج والاختلاط بالأجانب مع الانفتاح الإمبراطوري عليهم، وأصروا على النزعة القومية التي تدعو المصريين إلى الحذر من الأفكار الأجنبية[٤٢]. ربما خشوا أن تكون أفكار المساواة شعارات صدرها له من يريدونه أن يساوي بين المصريين والأجانب، فتنكسر مقاومة المصري لكل ما هو أجنبي، وتنفتح حدود بلاده للقادمين بلا حدود.

وزاد من غفلة إخناتون عن الخطر أنه أحاطت به حاشية طمأنته إلى بأس جيشه "الأمن مستتب"، وأحاط به أجانب من أبناء المناطق المفتوحة أو المتحالفة مع مصر، خدعوه وأعموا عينيه عن حقيقة مجريات الأمور في الخارج، منهم رجل يدعى توتو تضخم نفوذه حتى راسله أحد المنافقين ذات مرة قائلا له: "لا أستطيع أن انحرف عن كلمات سيدي وربي وشمسي، ولا أحيد عن كلمات سيدي توتو...، فأنا أخشى مولاي الملك وأخاف توتو...[٤٣]".

هذه الرسالة إشارة إلى أن أبناء البلاد المفتوحة أخذوا مناصب حساسة داخل القصر الحاكم، حتى أنهم كانوا مسئولين عن تسلم الرسائل بين حاكم مصر وأمراء البلدان المجاورة، فمتوقع أنهم من سيتحكمون فيما يصل إليه منها بحسب طبيعة علاقتهم بمن يرسلها وأهدافه، كما شارك بعضهم في مؤامرات سممت جو البلد، منها مؤامرة سجلتها جدران مقبرة "ماحو" رئيس الشرطة، دبرها اثنان من الأجانب وواحد مصري، ويتوقع د. عبد المنعم أبو بكر أن هدفها كان اغتيال إخناتون[٤٤].

توفي إخناتون بعد ١٤ سنة من الحكم، وخلفه حكام لم يعمروا في الحكم لأسباب الوفاة السريعة مثل سمنخ كا رع وتوت عنخ آمون، أو لكبر السن مثل آي، فازدادت الأمور تدهورا، وضعفت قبضة الدولة المركزية، فانتشر الفساد والرشوة في كل مكان، وابتزاز المزارعين والتجار بالإتاوات.

لم يترك "آي" وليا للعهد، فتولى حكم البلاد حور محب، القائد السابق للجيش بعد أن تزوج من "موت نجمة" ابنة "آي"، ولم يكن حور محب من أبناء العيلة الحاكمة.

▲▲▲ الوقاية من إزفت

استحق حور محب لقب المنقذ، وفي ذلك يشبه أمنمحات الأول في الدولة الوسطى، فكلاهما جاء في مرحلة غامضة مرتبكة، البلد تفتقد فيها للحكم القوي، وتنجرف شيئا فشيئا بعيدا عن ماعت إلى فوضى "زفتة" جديدة تلقي بها إلى بير الخراب والاحتلال، وكلاهما لا ينتمي للعيلة الحاكمة التي سبقته، كما أن كلاهما كان قائدا للجيش ورئيسا للوزرا، وكما انكتب لمصر على يد أمنمحات النجدة فانتشلها من حافة البير إلى البراح، فعل ذات الأمر حور محب، فكانا ممن نفذا مبدأ "الوقاية خير من العلاج".

بدأ القائد الجديد بأن هدَّأ التوتر الداخلي وأعاد الحياة الدينية إلى ما كانت عليه قبل إخناتون، وحذف سيرة

---

(٤٢)- انظر: رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، رمضان عبده علي، مرجع سابق، الجزء ٣، ص ٢٧٥

(٤٣)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢١٩

(٤٤)- إخناتون، د. عبد المنعم أبو بكر، دار القلم (وزارة الثقافة)، القاهرة، ١٩٦١، ص ٧٩

إخناتون ومن جاءوا بعده من السجلات الحكومية، وكأن الحكم توقف عند أمنحوتب الثالث، وليس للحكام من إخناتون وحتى آي (أي أتباع آتون) شرعية.

ولحظ مصر، كان به حسم وصرامة ومحبة عالية للكفاح ومواجهة الفاسدين، فجاب أرجاء مصر يتفقد أحوالها بعد القلقلة التي هزتها؛ فوضع أجراءات مشددة لمكافحة الانفلات، بدأت بالتفتيش على الموظفين، وحذر القضاة من الاتصال بالناس، أو قبول أي هدايا، وعاقب بالموت من يخالف ذلك، ووضع في مناصب القضاة أشخاصا محمودي السيرة، لديهم القدرة الكافية على فهم مشاكل الناس وحلها، أما العقوبات فجعلها رادعة بالنسبة للاعتداء على السفن الخاصة بنقل محاصيل الضرايب وحماية أصحاب السفن من عدوان قطاع الطرق، ومعاقبة من يتأخر في توريد الضرايب المستحقة لدور العبادة، ومعاقبة الموظفين الذي يعملون بتجارة الرق، ومنع الاستيلاء على جلود الحيوانات من المزارعين[٤٥]، وتعهد في قوانينه "أن يحمي دافعي الضرايب وعمال المزارع، ففرض على المعتدين والمرتشين عقوبات كالجلد بالسياط وجدع الأنف والنفي إلى ثارو على الحدود الشمالية الشرقية، والتزم بالحزم مع رجال الجيش أيضا، فعمل على المساواة بينهم وبين غيرهم في الردع والعقاب، خاصة بعد أن انجرف بعضهم للفساد في وقت الاضطرابات والانفلات[٤٦].

وإلى جانب هذه الإصلاحات الداخلية كان لحور محب دور عظيم في حماية الحدود المصرية [أبواب حور]، بإعادة تنظيم أمور الجيش ومراتب رجاله، كما أشار في مراسيمه إلى أنه وضع بروتوكولا يخص سراي الحكم، ويحدد مراتب الموظفين وأيهم يتقدم على الآخر[٤٧].

توفي حور محب بعد ٢٨ سنة من الحكم، طواها جيله في إعادة الأمور إلى نصابها فيما يخص استعادة الهيبة المصرية في الداخل والخارج، وتطبيق "ماعت" بقدر ما تيسر له، وإن لم يتضح موقفه من الأجانب الذين كانوا يملئون قصور الحكم وكبار رجال الدولة، وهل أبقى عليهم أم أبعدهم.

وترك البلد مطمئنة، عاهدا بالحكم إلى قائد الجيش رمسيس الأول ١٢٩٥ ق.م[٤٨]، وبه بدأت الأسرة ١٩، وهكذا انتهت الأسرة ١٨ بملك عظيم هو حور محب كما بدأت بملك عظيم هو أحمس[٤٩].

▼▼▼ البناء بيد والهدم باليد الأخرى

الأسرة ١٩ من أعظم وأشهر الأسرات الحاكمة المصرية، خاصة نصفها الأول، لكنها مثلت أكبر مثال للتناقض والازدواجية في الحكم على الأمور في مصر، وهو ما سنعاني منه حتى الآن.

فهذه الأسرة سعت لبناء مصر وحمايتها بشكل مبهر، غامر حكامها بأرواحهم في قيادة الحروب إلى

---

(٤٥)- انظر: رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، الجزء ٣، ص ٣٣٠- ٣٣١

(٤٦)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٠٢

(٤٧)- مصر الفرعونية، أحمد فخري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مشروع مكتبة الأسرة، ٢٠١٢، ص ٢٦٦

(٤٨)- بحسب التقدير التاريخي الوارد في كتاب تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، ص ٥٠٤

(٤٩)- مصر الفرعونية، أحمد فخري، مرجع سابق، ص ٢٦٦

عمق الشام وإلى الحدود الغربية لصد الخطر عنها، وبنوا المشاريع الفخمة، وفي نفس الوقت يحشون مصر بأسباب سقوطها المدوي الذي ستشهده نهاية الأسرة ٢٠، وهو التوسع غير المسبوق في الزواج بأجنبيات، وتوطين أعداد ضخمة من الأجانب، والانفتاح الكبير على الأعداء مثل الحيثيين بعد معاهدة السلام، والأخطر الاستعانة بجنسيات عديدة في الجيش والمعابد، بل وفي قيادة الجيش.

تولى رمسيس الأول وهو كبير السن، فلم يحكم سوى عامين، وأورث الحكم لابنه سيتي الأول، القائد الحربي العظيم، قائد قوات الحدود الشمالية الشرقية في حصن ثارو بسيناء، وهي الوظيفة التي يتولاها أمهر القادة؛ نظرا لعظم التهديدات التي تواجه مصر حينها من جهة الشرق، خاصة مع صعود قوة الحيثيين، وتعاظم خطر هجرات جديدة وفدت على الشام، هي هجرات قبائل شعوب البحر.. التي ستكون طامة مصر الكبرى على يديها بعد نحو ٢٥٠ سنة.

ولما ارتقى سيتي العرش سار على خطى حور محب في تشديد العقوبات على الفاسدين، وتوعد في مراسيمه من يسلب راعيا ويتسبب في هلاك الماشية بضربه ٢٠٠ عصا، وتغريمه أضعافا مضاعفة عن الماشية المفقودة، ووعظ خلفاءه فقال: "إن من عطل مصالح غيره لقى جزاءه بالمثل، والمغتصب سوف يغتصب..." ثم خوفهم عذاب الآخرة قائلا: "سيكون (المردة) حمرا مثل لهب الجحيم، وسوف يشوون لحوم من لايستمعون إلى قولي[٥٠]".

ومن الآثار التي تدل على التقدم العلمي في عصر سيتي خريطة مرسومة على بردية لمناطق مناجم وادي الحمامات في الشرقية وطرق الوصول إليها، وتعتبر أول أو ثاني خريطة من نوعها عرفت حتى الآن من العالم القديم، والخريطة الأولى يقول أثريون إنها خريطة "نفر العراقية"، وإن كانت أقرب للتخطيط منها للخريطة[٥١]، كما عُثر من عهده على أقدم خريطة حربية جغرافية مصورة، نقشها المنهدسون في الكرنك وصورت المحطات والحصون المنتشرة على الحدود الشرقية حتى بداية فلسطين[٥٢].

ومن الأحاديث الطريفة اللي سجلتها نصوص سيتي الأول وتكشف جانبا من علاقاته مع الرعية أن سيتي أراد أن يتحقق من أحوال الصحراء ومسالك المناجم، وكان يظن أنه تتوفر فيها مجار مائية كافية، ولكنه بعد أن سار فيها ولمس قسوتها راجع نفسه فقال: "ما أتعس الطريق الذي يعوزه الماء، وكيف يكون حال المسافرين فيه إذا أرادوا أن يتقوا جفاف حلوقهم؟ ومواطنهم بعيدة والصحراء مديدة؟ فيالتعاسة من يظمأ في البرية..."، هلم إلى عقلي حتى أفكر في راحتهم وأكفل لهم ما يصون حياتهم ويجعلهم يترحمون علي في السنين المقبلة، وأمر رجاله بأن يحفروا بئرا فيه[٥٣].

وفيما يخص المعارك والعلاقات الخارجية، تزامن مع وصول سيتي الأول للحكم انهيار دولة ميتاني على يد الحيثيين فتفرغوا لتحريض من والاهم من أمراء الشام على المصريين.

---

[٥٠]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٢١- ٢٢٢
[٥١]- انظر المرجع السابق، ص ٢٢٢ والهوامش
[٥٢]- نفس المرجع
[٥٣]- نفس المرجع، ص ٢٢٢- ٢٢٣

وعاد العابيرو- وصفهم دونالدريد فورد بأنهم "يشبهون الغجر في صعلكتهم"[٥٤]- لإثارة الشغب مستغلين فرصة انتقال الحكم في مصر، ونزعوا وجه نفاقهم القديم، وأظهروا وجههم الحقيقي، فدفعوا ببدو الصحراء من الشاسو إلى الحدود المصرية، واستولوا على الحصون والحاميات المصرية جنوب فلسطين، ويقال إنه واتتهم الجرأة على ذلك بتحريض من "مواتلي" ملك الحيثيين، فخرج إليهم سيتي الأول على رأس جيش كبير سلك طريق حور "حورس" الحربي في شمال سيناء- أطول طريق حربي، ويمتد من غرب سيناء إلى رفح- وكسر شوكتهم، وأعاد الحاميات، وتغلغل في فلسطين، وحاول السكان الوقوف ضد المصريين لكن تعرضوا لهزيمة قبل استكمال لملمة تحالفهم[٥٥].

كما التقى الجيش المصري في معركة مع الحيثيين في قادش انتهت إلى معاهدة بين الجانبين، وهي معركة ستتجدد في نفس المكان في عصر رمسيس الثاني.

وفي غضون ذلك هبت هجرات قادمة من آسيا وجزر شرق البحر المتوسط، كالريح السموم المحملة بالعقارب والثعابين، سماها الأجداد في وثائقهم بـ"شعوب البحر"، يعمل أفرادها مرتزقة لمن يجزل لهم العطاء، ثم تحول هدفها لاجتياح الحيثيين والشام وصولا إلى مصر، ولما عزَّ عليها أن تصل لمصر عبر السواحل الشمالية، أبحرت إلى السواحل الليبية، ونزلت هناك، تمهيدا لغزو مصر من الغرب[٥٦].

واختارت بداية أسلوب التسلل والسرسبة إلى مصر بحثا عن أماكن استقرار، خاصة وأن أراضي الواحات في الصحراء الغربية معروفة حينها بوفرة مراعيها وأنعامها، ويبدو أنه كان ضمن هذه الجماعات قبائل التحنو والمشواش، ونجح سيتي الأول في محاصرتها بسهولة، ولكنه لم يقض على الخطر كله، فبقيت جذوره، وسوف يسبب هذا المتاعب لخلفائه[٥٧]"، في إشارة فيما يبدو لبقاء بعضها في الصحراء المصرية قرب الدلتا يتحينون الفرصة للتسلل والانقضاض.

وحكم سيتي ١٥ سنة، وخلفه ابنه صاحب الشهرة التي هزت الدنيا كلها في عهده وحتى الآن، رمسيس الثاني، أعاد الحيثيون في عهده الكرَّة بتحريض إمارات الشام ضد مصر، وعلى رأس الحيثيين ملك يسمى موتاللي لم يقل عن رمسيس طموحا ورغبة في إثبات جبروت دولته، فاستعد للحرب، وشكَّل تحالفا ضد مصر ينتمي إلى ما لا يقل عن ٢٠ طائفة وجنسية[٥٨].

وبهذه المناسبة، يلاحظ أنه في معظم الحروب التي واجهتها مصر قديما وحديثا كان أعدائها ليسوا عدوا واحدا، بل تحالفا من إمارات وطوايف، فلم يكن لمصر عدو واحد فقط في أي عصر.

ودخلت مصر مع الحيثيين في معارك استمرت ١٨ سنة، فازت مصر ببعضها وفاز الحيثيون ببعضها الآخر، انتهت باتفاقية سلام بعد أن تيقن الجانبان أنه لن يقضي على خصمه القضاء المبرم، كما لجأ إليها الحيثيون وهم

---

[٥٤]- أخناتون ذلك الفرعون المارق، دونالدريد فورد، مرجع سابق، ص ٢١٣

[٥٥]- انظر: رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، رمضان عبده علي، مرجع سابق، الجزء ٣، ص ١٥

[٥٦]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ٢٢٨

[٥٧]- انظر رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ١٧

[٥٨]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق ص ٢٢٩

يراقبون صعود نجم خطر جديد قريب منهم هو آشور في العراق، وخطر هجمات شعوب البحر الآرية التي تهدد الحيثيين ومصر على السواء، إضافة إلى الصراعات الداخلية بين الحيثيين على العرش بعد وفاة موتاللي عدو رمسيس اللدود، حتى أن خليفته خاتوسيلي طلب من مصر مؤازرته ضد خصومه داخل بلاده[٥٩].

ومن ضمن شروط المعاهدة عدم الاعتداء على حدود الدولة الأخرى في الشام، وأن تتعهد كل دولة بنجدة الأخرى بجيشها لو تعرضت لاعتداء مسلح، وألا تأوي الخوارج من الأخرى "المتمردين واللاجئين السياسيين"، ويُلاحظ أن الحيثيين أكثر من استفاد من هذه المعاهدة، فهم بالفعل طلبوا من مصر في الأزمات النجدة والقمح، خصوصا وقت تعرضهم لصراعات أو هجمات الهجرات الجديدة، فيما لم تطلب منهم مصر دعما يذكر، وهكذا حال مصر في معظم المعاهدات قديما وحديثا، الطرف الآخر يستفيد أكثر منها لتجرؤه في المطالب منها ليأخذ بالسلم ما لم يأخذه بالحرب، فيما تتساهل هي معه، وهو ما يحتاج لدراسة.

ووصل الأمر أن تزوج رمسيس الثاني من ابنه ملك الحيثيين، وأكرمها ومنحها اسما مصريا هو "ماعت- نفرو رع"، وألقاب الملكات المصريات الرسميات، وعلى حد النصوص المصرية أصبح الملكان "قلبا واحدا كأخوين، ولم تعد هناك حفيظة في قلب أحدهما على الآخر[٦٠]".

وفي إطار سرعة نسيان مصر لماضي أعدائها معها وما يضمرونه لها، تورط رمسيس في الانفتاح الشديد على سوريا بإغراق البلاد بالسوريين، متوهما ولائهم التام له بعد إحكام سيطرته على بلادهم، وأدخل في بلاطه عددا من الأمراء والموظفين السوريين الذين سيؤدي تأثيرهم إلى طبع البلاد بالطابع الشرقي، فقد سمى رمسيس ابنته الكبرى والمفضلة عنده "بنت عنات"، وعنات معبودة بالشام، ولهذا الأمر مغزاه الخطير عندما نعلم أن هذه الابنة كان يمكن أن ترث [تورث؟] العرش، وفي السنوت الأخيرة من حكمه أصبح رمسيس الثاني آسيويا حقيقيا في بعض عاداته، وبين نسائه الكثير من الأميرات الشرقيات[٦١] بحسب وصف أستاذ المصريات الدكتور رمضان عبده علي.

▼▼▼ النار تصل الجيش والمعبد

وصلت ثقة رمسيس الثاني بالآسيويين بعد علاقات النسب إلى أن ولّى شخصا منهم اسمه "أورحيا" قيادة القوات بالجيش، بل وأقحمه في تولي أمور وجدان المصريين داخل المعبد بأن تولى منصب المشرف على معبد الرمسيوم بطيبة ورئيس العمال، وتحدث بردية **Ansatasi I** عن ضم أجانب إلى الجيش المصري في عهد سيتي الثاني[٦٢].

وتوغل إلى معبد الكرنك عائلة آسيوية اسمها "ديديا" أسسها شخص اسمه "بشي بعل"، مرجح أنه أحد أبناء المهاجرين الأجانب أو أنه ولد في مصر، وتوالت أجيال عائلته وتضخمت حتى وصلت إلى جيل

---

[٥٩]- انظر: مرجع سابق، ٢٣٢

[٦٠]- مرجع سابق ص ٢٣٣، ورؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، مصدر سابق، الجزء الرابع، ص ٣٧

[٦١]- انظر: رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، رمضان عبده علي، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ٣٩-٤٠

[٦٢]- الوعي السياسي عند قدماء المصريين، فايز أنور عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ص ١٤٣

"ديديا" الذي صار في واسط (طيبة) رئيسا للرسامين في الكرنك، وحملت لوحته المحفوظة في متحف اللوفر بباريس نصا حوى أسماء أجنبية أصولها من الشام مثل عائلة "قاها" المكونة من أخيه "با"، وابنه "خورو"، وأمه "تانيهسي" وغيرهم[٦٣].

وبدأ هذا التساهل صغيرا، بأن بدأ سيتي الأول، والد رمسيس الثاني، في إلحاق أسرى الحرب من سوريا بالعمل في حراسة المعابد[٦٤]، ولم يدر بخلد أحد وقتها أن أحدا من بني جنسهم سيصل إلى أن يكون مشرفا على المعبد نفسه، بل وقائدا للجيش المصري في يوم من الأيام.

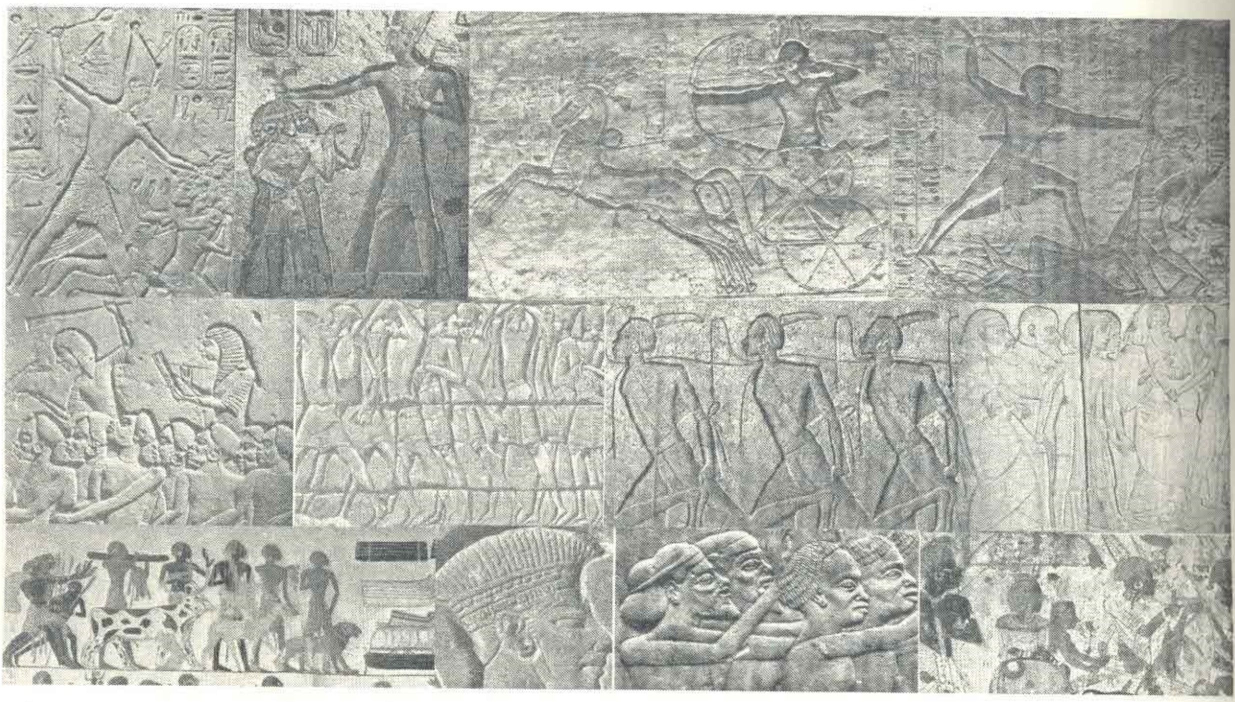
وقبل هذا التاريخ تسلل الأجانب إلى المعابد بأسلوب ناعم، بمعنى أنه بعد أن كان المصريون يحتقرون المعبودات الآسيوية بسبب مرارة تجربتهم مع الهكسوس، وحطموها باعتبارها "طاعون" فإن كثرة الاختلاط بالأجانب بعد فتوحات الأسرة ١٨ أفسحت المجال للآسيويين أن يسوقوا دعاية إيجابية لمعبوداتهم، خاصة في مجال قدرتها الحربية، مثل عنات وعشتارت- بالرغم من أنهم في معظم الحروب كانوا مهزومين ولم تنفعهم هذه القدرة- وحصدوا ثمار هذه الدعاية بأن أقنعوا المصريين بإدخال هذه المعبودات للمعابد المصرية التي كانت محرمة على أي عبادة أجنبية [٦٥]، وبالتالي كان من السهل أن يقنعوهم بإدخال أجانب لتولي الأمور في المعابد بحجة أنهم أدرى بشئون هذه المعبودات، أو لخدمة الجالية الآسيوية المتغلغلة في مصر، فظهرت معابد آسيوية في منف وطيبة الغربية.

ويصف علماء مصريات هذا الأمر بالإيجابي وأنه يدل على "تسامح" المصريين، ولكن مستقبل الأحداث سيكشف أنه لم يكن "تسامحا"، بل تفريطا منكرا، فالتسامح الحق أن المصريين يتركون ديانة شعوب البلاد المفتوحة وشأنها في تلك البلاد، أما نقلها إلى مصر وبنفوذ أصحابها بهذه الطريقة، رغم الخبرات السابقة بعداوتهم لمصر ومطامعهم فيها، فهو تفريط غير مقنع مع أي مبرر.

ويرى آخرون مثل "إ. ماير"، أن مركز الآلهة الآسيويين تعزز وتدعم في مصر بسبب المقاومة المستمرة للآسيويين ضد الحكم المصري الذي تسبب للآسيويين في خسارة نفوذهم في الشام[٦٦]، وغير واضح المعنى تماما من كلام ماير، ولكن ربما قصد أنه فيما كانت تلحق بالآسيويين هذه الخسائر للنفوذ في بلادهم فإنهم تسللوا لمصر تحت عدة أسماء ودعموا وجودهم بنفوذ ثقافي وديني ليعوضوا ما فقدوه ويكسبوا مكانه نفوذا في مصر الحصينة نفسها، وهذا في حد ذاته انتصار كبير لهم على المصريين سيدفع الأجداد ونحن حتى اليوم ثمنه غاليا.

---

(٦٣)- نفس المرجع، ص ١٤٣- ١٤٤
(٦٤)- نفس المرجع، ص ١٤٣
(٦٥)- انظر: المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الإمبراطورية ١٥٧٠- ١٠٨٧ ق.م، أحمد قدري، مرجع سابق، ص ٣١- ٣٣
(٦٦)- انظر: نفس المرجع، ص ٣٣



أشكال الوجود الأجنبي في الدولة الحديثة (الصف الأعلى الأجانب المعتدين تحت سلاح الجيش المصري، والصف الأوسط الأجانب المعتدين من الكوشيين والآسيويين وقبائل شعوب البحر يقودهم جنود مصريون بعد أسرهم، والصف الثالث أبناء البلاد المفتوحة في كوش وآسيا يأتون إلى مصر لتقديم الهدايا والجزية، وبعضهم عمل في الجيش والوظائف الحكومية بعد التظاهر بالولاء واستوطن مصر فكانت الطامة الكبرى التي قلبت الآية وجعلت المصريين يقعون تحت سلاح وأسر كافة هذه الشعوب الأجنبية ويدفعون لها الجزية

▼▼▼ طاعون قبائل شعوب البحر "نا خاسوت با يَّم"

ومع حروب مصر في الشرق اقترب خطر آخر من الغرب وهو هجرات شعوب البحر الآرية[٦٧] التي لمع خطرها بداية من عهد سيتي الأول (والد رمسيس الثاني)، واستعد لها الجيش في عهد رمسيس بتقوية الحصون على الحدود الغربية، ومنها حصن الغربيات قرب برج العرب، وحصن آخر عند العلمين، وحصن زاوية أم الرخم على مسافة ٢٥ كم من غرب مرسى مطروح[٦٨].

ومكان هذه الحصون يؤشر إلى حدود مصر الغربية وأنها امتدت لما بعد مرسى مطروح، كما تشير الحصون في سينا وعند رفح منذ عصر مينا إلى حدود مصر الشرقية، والحصون المقامة في سمنة عند الشلال الثاني أيام سنوسرت الثالث وغيره إلى حدود مصر الجنوبية- كما سبق الذكر- وهو ما يؤكد مجددا أن مصر دولة ذات حدود منذ القدم، لم تختلف كثيرا عما هي عليه الآن، تحصنها وتحميها طوال عصور

[٦٧]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ٢٣٤

[٦٨]- انظر: مصر والأجانب في الألفية الأولى قبل الميلاد، جونتر فيتمان، ترجمة بعد الجواد مجاهد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٣٠، وحضارة مصر الفرعونية، أحمد فخري، مرجع سابق، ص ٢٨٠

حريتها، وتبذل الدم لاستردادها وقت احتلالها، ولم تكن الحدود فكرة مستجدة كما يزعم محترفو تزوير التاريخ في التنظيمات العالمية الآن.

في أثناء هذا، توفي رمسيس الثاني وهو في الثمانين بعد أن حكم ٦٧ عاما، وهو رقم قياسي، في حين كان معظم حكام مصر- عدا "ببي الثاني" الذي توفي في التسعين- يتوفون في الستينات أو الخمسينات أو الأربعينات أو الثلاثينات، وأحيانا العشرينات[٦٩].

وبعد رمسيس حكم ابنه مرنبتاح متحملا عبء صد الهجرات الغربية التي تزعمتها شيخ قبيلة ريبو (تحولت إلى ليبيو ثم لوبيا وتسمت ليبيا لاحقا على اسمهم)، وضم إليه أعدادا من ٥ جماعات آرية مهاجرة من جزر البحر المتوسط، وهي: الإقوش والتورشا والروكي (اللوكي) والشرادنة والشكرش (الشكلش)، اندفعوا بنسائهم وأولادهم وقطعانهم القليلة، وطمعوا في أن يعبروا البراري إلى الدلتا ليستقروا في أرضها الخصبة[٧٠].

ويبدو أن الانشغال في حروب الجبهة الشرقية أتاح الفرصة لاختراق الحصون الغربية، فوصل المهاجرون حتى فرع النيل الكانوبي غرب الدلتا بأعداد كثيرة، فأعد لهم مرنبتاح ما استطاع من قوة، وذكر في نصوصه أنه استنصر ربه بتاح فأوحى إليه والنصر وقال له: "إثبت وانزع الشك من قلبك[٧١]".

ولأن هذه المعركة من المعارك القليلة التي دارت رحاها داخل مصر منذ طرد الهكسوس، ذاع نبأ النصر برنة عظيمة في أرجاء البلد، ووصف أحد الشعراء مرنبتاح المنتصر بأنه "شمس بددت الغيوم التي رانت على مصر، وأنه جعل تامري (مصر) ترى أشعة الكوكب، وأنه كمن أزاح جبلا من النحاس من فوق أكتاف الناس، ووهب نسمة الحياة لشعب كاد يختنق[٧٢]".

ووصف هزيمة المعتدين على لسان شيوخهم بقوله: "وشيخا يقول لولده "وانكبتاه على ليبيا، حرم أهلها المعيشة الطيبة (في مصر)، وما عادوا يجرأون على السعي بين المزارع، وتوقف سعيهم في يوم واحد.. وجثا شيوخ (المهاجرين) يقولون سلاما سلاما[٧٣]".

وعنهم قال جونتر فيتمان في كتابه "مصر والأجانب في الألفية الأولى قبل الميلاد": "وانضمت الجماعات المعروفة باسم "شعوب البحر" إلى الليبيين، وبالتأكيد لم يكن من قبيل المصادفة أن النوبيين [يقصد الكوشيين من السودانيين والزنج حاليا] أيضا كانوا قد بدأوا يتقدمون من الجنوب نحو البلاد في الوقت ذاته، ومن المؤكد أيضا أن ذلك لم يكن سوى اتفاق مدبر على النحو الذي عرفناه من قبل في لوحة كاموزا [كامس][٧٤].

---

[٦٩]- راجع أعمار الحكام على البطاقات التعريفية لجثامينهم في قاعة المومياوات بالمتحف المصري بالقاهرة.

[٧٠]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٢٦

٥٩- انظر: مصر القديمة، نيكولا جريمال مصر- ص ٣٥١

-[٧١] انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٢٦

[٧٢]- نفس المرجع

[٧٣]- نفس المرجع

[٧٤]- مصر والأجانب في الألفية الأولى قبل الميلاد، مرجع سابق، ص ٢٧

ويقصد اللوحة التي تحدثت عن التحالف بين الكوشيين والهكسوس ضد مصر لمحاصرتها بأسلوب الكماشة، فتكرر الأمر بعد ٣٠٠ سنة بتحالفهم مع القادمين من ليبيا، وهو ما يذكرنا بأسلوب التحالفات المكررة لأعداء مصر في كافة الاتجاهات ضدها... والتاريخ دواير.

كما قال نيكولا جريمال في هذا أيضا نقلا عن النصوص المصرية إن مرنبتاح "سحق تمردا في كوش، ويبدو أن الليبيين القاطنين في "مرماريكا" (طبرق حاليا) كانوا وراء هذا التمرد، فقد بدأت ليبيا تلعب دورا متزايد التأثير على الأحداث الجارية في البحر المتوسط[٧٥]"*.

لكن لم يساعد ذلك الليبيين في شيء، فقد حقق المصريون النصر بعد ٦ ساعات من القتال في شمال غرب الدلتا، وفر زعيم المهاجرين تحت جنح الظلام حافي القدمين،[٧٦] بتعبير النصوص.

غير أن "الغفلة المصرية اللي بتجيب الكافية" و"التسامح الساذج" المعتاد من مصر ظهر في هذا الموقف أيضا رغم ما عانته البلد من هذه القبايل، فرغم وضوح مطامعها استخدم المصريون بعض المهاجرين القدماء من المشاوش والقحق في الجيش، وخاصة إسناد مهمة مراقبة المهاجرين الجدد في الصحراء الغربية؛ ظنا منهم أن القدماء ومن رموا السلاح وأعلنوا الطاعة قد تمصروا، أو نفضوا عن أنفسهم البداوة القديمة، وأنهم بخبرتهم بدروب الصحراء والطرق أقدر على مراقبة الهجرات الجديدة عند الحدود، فيما سيتضح فيما بعد أنهم سيكونون عونا للهجرات الجديدة على احتلال مصر من الداخل[٧٧].

وفي ذات الوقت هرع إلى مصر أبناء البلاد التي خربتها جحافل شعوب البحر في الشرق كالحيثيين والشوام باسم لاجئين يبحثون عن الأمن وفرص العمل، وتوغلوا في مؤسسات الدولة كالسوس في العظام.

وبعد حكم ١١ سنة توفى مرنبتاح، فيما الكثير من الملفات الداخلية والخارجية مفتوحة، وتحتاج إلى حسم وتنظيم، ولسوء حظ مصر خلَفه حكام ضعاف شهد عهدهم اضطرابات سياسية داخلية، ظهر أثرها في قصر مدد حكمهم، بحيث كانت أطول مدة هي ٧ سنوات لابنه سيتي الثاني- الذي تورط في ضم مزيد من الأجانب إلى الجيش- فيما تولى سي بتاح الحكم لأقل من سنة واحدة.

ولم يكشف التاريخ الكثير عن غموض هذه الفترة التي استمرت ١٥ عاما، هي ما تبقى من عمر الأسرة ١٩، وأهدرت هذه السنوات القصيرة الكثير من جهود الحكام الأقوياء السابقين[٧٨].

وكالعادة، انعكس الضعف الحكومي على انهيار القانون والأخلاق (ماعت)، وظهر في استغلال أصحاب النفوس الضعيفة الحال لانتهاك الحقوق ونشر الفساد، فأظهرت برديات من ذلك العصر شكاوى العمال في بلدة دير المدينة بالأقصر من انتشار الرشوة والنهب والتسلط والقتل والرشوة، فأشارت برديات العهد لعامل

---

[٧٥]- تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٣٥٠

*والشيء بالشيء يُذكر، ولأن التاريخ السيء يتكرر عند الغفلة، فلا يخفى التحالف بين جماعات إرهابية في غزة وليبيا والسودان لاستهداف حدود مصر بتهريب السلاح والمخدرات والإرهابيين، خاصة بعد سنة ٢٠١١.

[٧٦]- الأجانب في مصر في الألفية الأولى قبل الميلاد، مرجع سابق، ص ٢٧

[٧٧]- انظر: الشرق الأدنى- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٢٧

[٧٨]- راجع قائمة سنوات حكم الملوك في كتاب "تاريخ مصر القديمة"، جريمال، مرجع سابق، ص ٥٠٤

يتهم أحد رؤسائه بالسلب والرشوة والشروع في القتل، واتهم وزير الصعيد بقبول الرشوة،، وتجرأ البعض على شتم الحاكم[٧٩].

▼▼▼ اغتصاب عائلة "إرسو" السورية للحكم

وعودة إلى الخطر الشرقي مجسدا في ثمرة الاستيطان السوري في مصر خلال عهد حكام سابقين، ففي نهاية الأسرة ١٩ ارتقى إلى الحكم الأمير رمسيس سي بتاح، ابن سيتي الثاني، وكان طفلا، تولت الوصاية عليه زوجة أبيه الملكة تاوسرت، واشترك معها في الوصاية رجل يدعى "باي"، وهو من سوريا، وظيفته حامل الأختام والكاتب الملكي، وهي وظائف حساسة تتعلق بأسرار البلاد.

ولم يذكر المصريون هذا الشخص وتاوسرت بالخير، فيبدو أنه مارس الخديعة لأرملة الملك المتوفي التي عينته مشرفا على الخزانة (وزارة المالية)، وأن مكانته في البلاط بلغت مستوى جعله يشبه نفسه بحكام مصر، حتى أنه استطاع أن يجهز لنفسه مقبرة في وادي الملوك، ويستهزأ بدين مصر، وهو ذات الشخص الذي تشير إليه بردية "هاريس" باسم "إرسو"، وبعبارات تنسب إليه أسباب الفوضى التي سادت وقتها[٨٠].

ومما جاء في البردية: "سادت مصر الاضطرابات، وأصبح كل شخص يضع قانونه الخاص، وعلى امتداد عدة سنوات لم تعرف مصر حكومة قبل أن تنتقل إلى عصر "الآخرين"، وتحكم الأعيان وعمد القرى في البلاد، وذبح الإنسان زميله ورفيقه، غنيا كان أم فقيرا، وسيطرت على مصر خلال السنوات الفارغة عائلة غريبة، كان "إرسو" السوري واحد من أفرادها، واعتبر نفسه من الأعيان، وبصفته الإدارية سيطر "إرسو" على البلاد بأسرها، وتآمر هو وأعوانه للسطو على الناس! وعوملت الآلهة كما لو كانت من البشر، فلم تقدم لها القرابين في معابدها[٨١]".

وبلوغ عائلة ذلك السوري هذا المبلغ وتأثيره على الملكة "تاوسرت" وفي تولية الحاكم الجديد لم تأتِ دفعة واحدة بالتأكيد، فيبدو أنه سبقها عشرات السنوات منذ أتت تلك العائلة بصحبة إحدى الزوجات الأجنبيات أو كموظفين في إدارات البلاد المفتوحة أو لاجئين أو تجار، وتدرجوا في الوظائف وكيد المكائد حتى وصلوا إلى هذه المكانة، وأظهروا التمصر ربما، وساهموا في نشر المعابد الآسيوية في مصر، حتى تمكنوا، واستغلوا كل فرصة لنشر الفتن والفوضى "إزفت" التي لا يصل الأجانب في مصر إلى المناصب والثروات إلا في ظلها.

وقال عنهم فرانسيس فيفر في كتابه الذي يروي قصة سقوط مصر في الأسرة ٢٠ على يد المستوطنين الأجانب " الفرعون الأخير رمسيس الثالث: أو زوال حضارة عريقة": "شقية هي أرض مصر، كم تعرضت للأطماع طوال العقدين الماضيين! أطماع الوزراء، أطماع كبار الكهنة والنساخ، بل أطمع الأعيان

---

[٧٩]- انظر: الشرق الأدنى- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٢٧

[٨٠]- تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٣٥٥

[٨١]- مرجع سابق، ص ٣٥٥

الأجانب أيضا، لقد فتحت غزوات الفراعنة في القرون الأخيرة باب البلاط الملكي أمام هؤلاء الأجانب. في البداية كانوا سفراء لبلادهم، ثم أصبحوا مستشارين بارعين لدى الفراعنة، وأخذوا يؤسسون سلالات قوية من الأعيان تحيط بأصحاب العرش"[٨٢].

وصل بهم شعور السطوة لسب دين مصر والتكبر على أهلها رغم ما أظهر الحكام مما يوصف بـ"التسامح" في تركهم يعبدون معبوداتهم الآسيوية في مصر، وكما قال "إيبو ور" في برديته عن الفوضى التي نشرها الأجانب نهاية الأسرة ٦ قبل ألف سنة: "وأصبح الأجانب مصريين في كل مكان وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا أغرابا وأهملوا جانبا[٨٣]"، "انظر! إن مصر أصبحت تصب الماء [لغيرها][٨٤]".

ولنا أن نتخيل كيف هبطت مصر من القمة أيام مرنبتاح إلى القاع في عهد خلفائه خلال ١٥ سنة فقط، وذلك لأن أعمدتها منذ احتضنت الأجانب وأفكارهم ومعبوداتهم نهاية الأسرة ١٨ يرعى فيها السوس دون أن يشعر شعبها، وحين حانت الفرصة للسوس لقنص السلطة وهدم أركانها، فعلوا ذلك بسهولة في سنين معدودة، أعادت للمصريين الذكريات المريرة لأجواء سقوط الأسرة ٦.. وتاريخ الغفلانين دواير.

▼▲▼ انتصارات فاخرة وخطايا غادرة

اختتمت الأسرة ١٩ حكمها بتولي "تاوسرت" الحكم لمدة عامين فقط، ثم انطوت صفحة الأسرة في ظروف غير واضحة، إلا أن انتقال الحكم إلى الأسرة ٢٠ جاء سلميا وهادئا، وأسسها "ست نخت"، وهو رجل كبير في السن لم يعمر غير سنتين، خلفه ابنه رمسيس الثالث الذي يصفه علماء الآثار بأنه آخر حكام مصر العظام في تاريخنا القديم.

قدمت الأسرة الجديدة نفسها على أنها "اللي هتعدل المايلة"، وتجدد حياة مصر، وقالت بردية "هاريس" بعد أن سردت جرايم عيلة "إرسو" السورية في اغتصاب السلطة: "وعندما شاءت الآلهة أن يظهروا رحمتهم ويصححوا الأوضاع في مصر ويعيدوها إلى سيرتها الأولى، نصبوا ولدهم الذي خرج من صلبهم "ست نخت" حاكما على البلاد كلها، وجعلوه على عرشهم الكبير، فتجلى على هيئة خبري ست الغضوب، وأعاد السلام إلى الأرض القلقة، وفتك بالغادرين فيها، وطهَّر عرش مصر العظيم"[٨٥].

وخرج من صلبهم على ما يبدو المقصود ليس المعنى الحرفي، بل أنه حاكم مصري شرعي وليس مغتصبا أو دخيلا.. فبموجب عهد "ماعت" والوصية الحارسة مصر لا يحكمها إلا المصريون، من ترابها وصلبها.

غير أن تطهير الداخل لم يكن التحدي الوحيد، فخلال فترة الانفلات نهاية الأسرة ١٩ عادت قبائل

---

[٨٢]- الفرعون الأخير رمسيس الثالث: أو زوال حضارة عريقة، فرانسيس فيفر، ترجمة فاطمة البهلول، دار الحصاد، ص ١١
[٨٣]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٣٦٠
[٨٤]- موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، الجزء ١٧، مرجع سابق ، ص ٣٠٩
[٨٥]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٣٥

شعوب البحر للتسلل بحرية إلى غرب الدلتا والاستيطان، فنهبوا مدنا هناك وفق الفصل التاريخي لبردية هاريس **P.Harris** حتى تلاطمت خلال عهد رمسيس الثالث موجات جديدة من المهاجرين، تدعمها جماعات من جزر بحر إيجة[٨٦].

وأخذ رمسيس الثالث نصيبا كبيرا من شجاعة وهمة رمسيس الثاني الذى تسمى باسمه تيمنا به، فوقع على كتفيه عبء حماية مصر من مصير دولة الحيثيين التي سقطت ركاما تحت أقدام هجرات شعوب البحر، وهي هجرات شرسة عاتية تشبه في عصور تالية هجمات التتار التي لم تبقِ ولم تذر في روسيا وفارس والعراق والشام، ولم تنكسر إلا على باب مصر.

فخاضت مصر في عهده ٣ حروب ضخمة لصد هذه الهجرات، الأولى عند الحدود الشرقية لمنعهم من اجتياح مصر من ناحية فلسطين وهزمتهم مصر، فانتقلوا عبر البحر الذي يجيدون القتال على أمواجه لمهاجمة مصر من الشمال عند سواحل الدلتا، فهزمتهم مصر، فتحركوا إلى الغرب ونزلوا على السواحل الليبية وتحالفوا مع قبائل قديمة سبقتهم بالهجرة إلى هناك، واجتاحوا الحدود المصرية، فهزمتهم مصر.

ووصفت النصوص المصرية تحركات هؤلاء المهاجرين وخيبة مسعاهم وصفًا شيقا على لسان رمسيس الثالث، فقال: "تآمرت شعوب أجنبية في جزرها، وسريعا زالت بلاد وشردت الحرب أهلها، ولم تستطع بلد أن تثبت أمام أسلحتهم، ابتداء من خاتي [الحيثيين] وقدي وقرقميش وأرزاوا إلى إرس "ألاسيا" في آن واحد [أي من آسيا الصغرى وشمال سوريا وشواطئ الفرات إلى قبرص في عرض البحر] ، واجتمع عسكرهم في بقعة واحدة (بأرض) آمور [الشام]، فشردوا أهلها، وأصبحت أرضها كأنها لم تكن، ثم تقدموا نحو مصر، ولكن النار كانت على استعداد للقائهم، وتألف حلفهم [تحالفهم] من برستي "البلستي"[٨٧] والثكر والشكرش والدانيين "أو الدانونيين"، والوشاوش، واتحدوا جميعًا ووضعوا أيديهم على البلاد في مدار الأرض كلها، واستبشروا وملأتهم الثقة بأنفسهم وقالوا: سوف تنجح مشاريعنا[٨٨]".

"ولكن عقل الإله كان واعيًا وعلى استعداد لأن يقتنصهم كالطيور...، وهكذا نظمت حدودي في "جاهي" [بلدة جنوب الشام]، وأعددت أمامهم الأمراء وقادة الحاميات والماريانو، وأمرت بتحصين مصبات الأنهار لتكون كالسد الكبير، وزودتها بسفن وزوارق ناقلات للجنود امتلأت جميعها من مقدماتها إلى مؤخراتها بمحاربين مهرة مسلحين. وتألفت قوات المشاة من خيرة شباب مصر، وكانوا أشبه بالأسود الزائرة على قمم الجبال. وتألفت فرق الفرسان من عدائين مهرة وقادة قادرين، ومن كل فارس عربة متين، وهزت الخيول أعطافها واستعدت لسحق الشعوب الأجنبية تحت حوافرها، وكنت "مونتو" المقتدر، أقف على رأسهم، ليشهدوا بأنفسهم ما تفعله يداي.. أما من بلغ حدودي، فلم تبق منهم باقية، وانمحت قلوبهم وأرواحهم إلى الأبد[٨٩]".

---

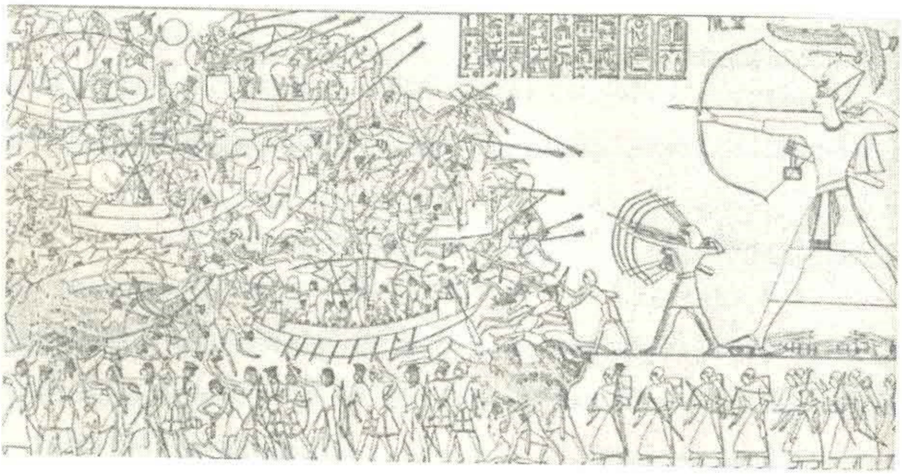
[٨٦]- انظر: الأجانب في مصر في الألفية الأولى قبل الميلاد، مرجع سابق، ص ٢٧- ٢٨

[٨٧]- البلستي قبائل استقرت في كنعان بعد هزيمتها من مصر وعكست عليها اسمها فصار "فلسطين"، خاصة بعد تردد الاسم في التوراة (الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٣٨)، ولو كانت مصر في قوتها الأولى لطاردتهم إلى شمال الشام كما فعلت مع الهكسوس

[٨٨]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٣٦

[٨٩]- نفس المرجع، ص ٢٣٧

وبعد هزيمتهم في فلسطين تحدثت النصوص عن هزيمتهم في معركة البحر المتوسط عند السواحل المصرية، والمعروفة تاريخيا باسم "معركة الدلتا البحرية"، أول معركة بحرية في تاريخ مصر منذ آلاف السنين[٩٠]، إن لم تكن الأولى في تاريخها، وحكت النصوص: "وأما من أتوا "بجموعهم معا عن طريق البحر، فقد واجهتهم نار حامية على مصبات الأنهار، وأحاط بهم على البر سد من الحراب، واستدرجوا إلى الداخل، وحوصروا، وألقوا على وجوههم على الشاطئ، ثم قتلوا ومزقوا إربًا من القدم حتى الرأس، وغرقت سفنهم وأمتعتهم في البحر[٩١]".



نقوش معركة الدلتا البحرية رسيس الثالث والجنود على يمين الناظر وقبايل العدو على الشمال تنقلب مراكبهم في البحر (معبد هابو)

فأين ذهبت وتفرقت فلول تلك القبايل والجماعات بعد هزيمتها شرقا وشمالا، وانهيارها عند أقدام مصر بعد أن فعلت الأفاعيل ببلدان أخرى قبل أن تصل إلى مصر؟

تشتت في جزر البحر وسواحله، واحتفظت بعض هذه الجزر والسواحل بأسمائها، وهكذا يتجه رأي إلى الربط بين الشرادنة وبين السرادنة "سردينيا"، وبين الشكلش "شكرش" والصقليين، والربط بين الثكر وبين الصقليين أيضًا أو الطروادين[٩٢]، كما سبق واستقرت "بلستي" في كنعان وأعطوها اسم فلسطين، ونزلت قبائل أخرى إلى السواحل الليبية، وهي التي تهمنا هنا.

فلم يحمدوا لرمسيس الثالث أنه سمح لهم بالمعيشة قرب مصر بعدما أعلنوا السلم والطاعة، وعادوا للغدر، فظهرت بينهم جماعات جديدة ذكرتها المصادر المصرية بأسماء قريبة من الأسباط والقايقاش والشايتيت والهاسا والباقان، واستجاب لهم عدد من بني جلدتهم الذين سبق وأن استوطنوا غرب الدلتا،

---

(٩٠)- إن صح أن المعركة بين المصريين والقبايل القادمة من الغرب في نقوش سكين جبل العركي التي ترجع إلى ما قبل الأسرات جرت عند السواحل المصرية الشمالية أيضا.

(٩١)- مرجع سابق، ص ٢٣٦-٢٣٧

(٩٢)- نفس المرجع، ص ٢٣٧

وعاونوهم، فاشتدت القوات المصرية عليهم، وأحبطت مشاريعهم، وكسرت شرتهم[٩٣].

وبذلك انتهت محاولاتهم لدخول مصر عن طريق العنف، وبدأوا يتسللون إليها تسللًا سلميًا بطيئًا، فتسامح رمسيس الثالث معهم باسم مصر، كما تسامح مع أسراهم الذين بدأهم بالشدة ثم عاد عليهم بالعفو، واكتفى بإحكام الرقابة عليهم، فقال حين غضبته عليهم: "اعتقلت قادتهم في حصون تحمل اسمي، ووليت عليهم ضباطا ورؤساء قبائل، واعتبرتهم عبيدا مدموغين باسمي، وعومل نساؤهم وأطفالهم نفس المعاملة، ووهبت قطعانهم إلى دار آمون"، ثم قال بعد أن خف غضبه: "وضعتهم في الحصون، ودمغتهم باسمي، وكانت جماعاتهم الحربية تقدر بمئات الألوف، وخصصت لهم مخصصات من الكساء والزاد، تصرف من الخزانة وشون الغلال كل عام[٩٤]".

وأضافت بردية من أواخر عصر رمسيس الثالث أن الشرادنة استقروا في مدنهم التي خصصها لهم، وأقام بعضهم في حصونه، وآخرون وسط المزارع التي سمح لهم بها.. فتفشت المستوطنات الأجنبية.

أما الطامة الكبرى فإدخال بعضهم في سلك التجنيد وزرعهم بداخل الوجه القبلي بعد أن كان بعيدا عن يد الهجرات لحد كبير، فأضافت بردية أخرى كتبها صاحبها بعد عهده أن رمسيس الثالث أنشأ للمجندين منهم محلَّة في الوجه القبلي ليعيشوا فيها، وبتعبير عبد العزيز صالح فإنه على الرغم من أن هذا التساهل النسبي يعتبر مكرمة للخلق المصري في جملته، إلا أنه جرَّ على مصر بعد ذلك شرورا كثيرة كانت في غنى عنها لو أنها استأصلت شأفة أعدائها من جذورها[٩٥].

والأدق فإن هذا لم يكن بـ"مكرمة للخلق المصري"، بل غفلة ترفضها ماعت، وضعف للذاكرة، وتهاون يتناقض مع ما عاناه المصريون طوال التاريخ من توطين الأجانب، وخاصة بأعداد كبيرة مجتمعة أو دخلت على دفعات صغيرة غير محسوسة، وفتح مؤسسات الدولة لهم.

وهنا نبَّه صالح إلى أن الأصح كان الاستمرار في قتال هؤلاء الدخلاء حتى يجلوا عن مصر كلها، ويعودوا من حيث أتوا، ولا يتسامح معهم رمسيس الثالث أو ينخدع بعد أن رموا السلاح وتوسلوا له أن يعيشوا خدما في مصر، واستجابوا لرغبته في الحديث باللغة المصرية، وتوهم في سكرة انتصاراته الثلاثية العظيمة أن قوة الجيش وقتها وإحكام الرقابة عليهم والإجراءات التي اتخذها لتمصيرهم كافية لتغييرهم أو لردعهم عن أي غدر جديد.

وبحسب جريمال، فقد تكاثروا وأنجبوا الذرية التي جددت الآليات التي مهدتت للغزوات التي شهدتها مصر في أواخر الدولة الوسطى (الهكسوس)، وتحالف المستوطنون القدماء مع المستوطنين الجدد من أسرى الحرب، وتركزوا في مناطق محددة "مستوطنات"، ثم استولوا على السلطة عندما غرقت الدولة في

---

[٩٣]- انظر مرجع سابق ص ٢٣٨
[٩٤]- نفس المرجع
[٩٥]- مرجع سابق، ص ٢٣٨

بحار الفوضى[٩٦].

وتحركت الرمال تحت أقدام المصريين لما سمح رمسيس الثالث لهم ولآخرين كالآسيويين والكوشيين بالخدمة تحت قيادة الجيش المصري، ظنا منه أنهم سيكونون عونا له في صد هجمات المناطق التي أتوا منها لخبرتهم بها، ولم يكتفِ بهؤلاء القادمين من الغرب، بل فتح أبواب مصر من الشرق أمام اللاجئين الفارين من أمام الهجرات التي دمرت بلادهم، فتتحدث نقوش جدران معبد هابو بمدينة واسط (طيبة[٩٧]) عن كيف أن هؤلاء أتوا للاحتماء بمصر، يتوددون لأهلها بالكلمات المعسولة لقبولهم، فيقول: "إن رئيس آمور [الشام] أصبح رمادا وبذرته لا وجود لها، وكل قومه أخذوا أسرى وشُتتوا وأخضعوا، وكل من بقي على قيد الحياة في بلاده كان يأتي بالثناء ليرى شمس مصر العظيمة تطلع عليه، ويقولون: "الرفعة لـ رع، إن أرضنا قد دمرت، ولكننا نحن في أرض الحياة (مصر) حيث بُدد الظلام[٩٨]".

انخدع رمسيس بابتهالهم لـ رع، وهو يتباهى بأن أرض مصر ظلت هي الوحيدة الباقية صامدة ومستقرة وكاملة بعد أن مزقت هجرات شعوب البحر البلدان الأخرى، وتباهى بأن من كانوا أعداء مصر بالأمس باتوا يمدحونها ويمدحون دينها، ويعترفون بفضلها بعد أن وجدوا فيها الأمان.

فقد أسكر النصر رمسيس والحكومة جميعا، وخدرت أعصابه نفس الأسطوانة الملعونة من المدائح وأغاني المهاجرين لمصر والمصريين، ومظهر الخضوع، وظن أنهم استكانوا لما رأوه من شدته من ناحية، وما أتاحه لهم من فرص من ناحية، ونسي أن مصر قبل عهده وعهد والده "ست نخت" مباشرة تحولت إلى قِدر يغلي بالماء الفاسد، يسلق ويهري عظام المصريين، لما تمكنت عائلات أجنبية مثل عيلة "إرسو" من رقبتها وحقَّروا معابدها، وكانوا قبل التمكين أيضا يمدحون مصر ودينها وحكامها.

ورفع رمسيس الثالث بعض الأجانب إلى مناصب القيادة، وكان يعلن لهم قراراته إلى جانب غيرهم من القادة وكبار الموظفين المصريين، واعتقد أن الأمان الذي يوفره لهم كفيل ببث الإخلاص في قلوبهم، بتعبير عبد العزيز صالح، وزاد نصيب القصور الحكام وكبار رجال الدولة من الزيجات الأجنبيات، وتقبلت أعدادًا أكثر من الجواري، سواء بفعل ظروف الحرب وكثرة سباياها، أو حبًّا في ملاحة الشماليات ودفء الجنوبيات، وتقبلت القصور إلى جانب الجواري أعدادًا من الحشم الأجانب عملوا خدما وسقاه ووصفاء[٩٩].

وزاد رمسيس الثالث فعين بعض أولئك الأجانب في وظائف البلاط والقضاء، أما المعابد فنصيبها من الأرقاء والأسرى الأجانب والمتمصرين أضخم، بحيث ذكرت النصوص أنه خصص ٢٦٠٧ من أسراه لأملاك آمون، و٢٠٩٣ لأملاك رع، و٢٠٥ لأملاك بتاح، لكي يعملوا بأسماء هذه المعابد في المزارع والمحاجر والمناجم، بل وفي شئون العبادة نفسها.

---

[٩٦]- تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، مرجع سابق، ص ٣٥٧- ٣٥٨

[٩٧]- الاسم ما زال حيا واحتفظت به بلدة بجوار الأقصر، ونسمعه في أغنية "الأقصر بلدنا" تشدو: "مش برضو منها؟ أني من واسطة"، كلمات فتحي قورة، ألحان علي إسماعيل، غناء محمد العزبي

[٩٨]- القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، نجلاء فتحي شهاب، مرجع سابق، ص ١٠٠

[٩٩]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٣٩- ٢٤٠

نفس المقدمات التي سبقت الانهيار الكبير في نهاية الأسرتين ٦ بالدولة القديمة و١٣ بالدولة الوسطى والأسرة ١٩ بالدولة الحديثة، فهل ننتظر نتايج غير النتايج؟

وفي رأي صالح: "لم يكن من بأس فيما جرت عليه مصر من فتح قصورها ودواوينها ومعابدها لأبناء جيرانها ولأسراها وللمرتزقة المسالمين طالما ظلت قوية يقظة وطالما ظلت يدها هي اليد العليا، ولكن الخطر كل الخطر كان يتمثل في ألا يخلو إخلاص هؤلاء النزلاء لها من شوائب، وأن يتمصروا بمظهرهم وليس في مخبرهم، وأن يظل بعضهم على استعداد للتنكر لها متى سنحت لهم فرصة أو ألمت بها نكبة، وما كان أكثر احتمالات النكبات عليها في ذلك الزمان[١٠٠]".

وتسبب السماح للأجانب بالعمل في شئون الدين بالمعابد المصرية، وهي ركن ركين من أركان الهوية والدولة المصرية، في تحوير وتحريف دين مصر، فانتشرت الخرافات، والإفراط في تقديس الحيوانات، وذلك إما عن جهل من هؤلاء الأغراب بجوهر الدين المصري، أو عن عمد لتخريبه كوسيلة من وسائل إسقاط الدولة المصرية في أيديهم[١٠١]، أو لتحويل النذور بالطيور المحنطة إلى وسيلة لجني أرباح خيالية.

▼▼▼ اغتيال رمسيس الثالث

وصلت تدابير المستوطنين الأجانب إلى المشاركة في مؤامرة لاغتيال رمسيس الثالث، رغم أنه ساعد في تأمينهم من التشرد ورفعهم إلى مراتب عليا.

المؤامرة تورط فيها مع الأجانب زوجة لرمسيس دب النفور بينها وبينه إلى حد أن تجاهل الفنانون تسجيل اسمها مع بعض صورها في معبده، وأحست هي برغبته في إقصاء ولدها بنتاورة عن ولاية العهد، فتآمرت مع بعض سقاة البلاط ونسائه وحرسه وخدمه من المصريين ومن النزلاء المتمصرين[١٠٢].

ولكن المؤامرة انكشف أمرها، وتولى التحقيق فيها بأمر رمسيس الثالث وهو على فراش الموت ١٤ قاضيًا، كان من بينهم، وللعجب، ٤ تدل أسماؤهم على أنهم لم يكونوا مصريي الأصل.

وقبل أن ينتهي التحقيق استطاع بعض أقارب المتهمين أن يرشوا ٣ من القضاة وضابطين، ولكن انكشف أمرهم وتحول القضاة الثلاثة والضابطان إلى متهمين، وحكمت المحكمة على الأمير بنتاورة و٣ من شركائه بالإعدام، وتركت لهم أن يقتلوا أنفسهم بأنفسهم، وحكمت على متهمين آخرين بالجلد والسجن، وآخرين بجدع الأنف وصلم الأذنين.

أما ما أصاب رمسيس الثالث من هذه المؤامرة، واسم الحاكم الذي تمت المحاكمة في عهده، إن كان هو نفسه

---

[١٠٠]- مرجع سابق، ص ٢٤٠

[١٠١]- تكرر هذا في فترات أخرى، أي تحكم الأجانب في الفكر الديني المصري في عصور لاحقة، ومنها نشر خرافات الطرق الصوفية في كل قرية، وقدوم شخصيات من الشام وغيرها، كمحب الدين الخطيب ورشيد رضا، إلى مصر، وسيطرتها على مساجد وجمعيات لتصنع فكر تنظيم الإخوان المسلمين والتنظيمات السلفية، أو كما حدث في نشاط الإرساليات الأوروبية التي استهدفت خلخلة الكنيسة المصرية.

[١٠٢]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ٢٤٠

أم ولده رمسيس الرابع، فموضع جدل[١٠٣]، إلا أنه في عام ٢٠١٢ نشر فريق بحثي مصري أن جثة رمسيس الثالث بها جرح قطعي في الرقبة ناجم عن ذبح بالسكين؛ ما يعني احتمال وفاته مذبوحا[١٠٤].

▼▼▼ دويلات جوة الدولة

في الأسرة ٦ بالدولة القديمة، كان من عوامل لف الحبل حول رقبة الدولة المصرية- إلى جانب توطين الأجانب- ترك الحبل على الغارب لكيانات وشخصيات مثل كبار الأغنياء وعائلات هيمنت على مناصب مثل منصب المحافظ حتى تضخمت ماديا، وصاهرت السلطة، فتحولت إلى "مراكز قوى" لها صلاحيات واسعة تناطح بها العاصمة ومؤسسات الدولة.

وفي الأسرة ٢٠ تكرر- إلى جانب توطين الأجانب أيضا- ظهور كيانات تركتها الدولة تتضخم ماديا حتى صارت ذات نفوذ اقتصادي وسياسي، ودويلات بداخل الدولة، وهذه المرة كانت المعابد.

فلسبب غير واضح حرص رمسيس الثالث على مد المعابد بهبات وثروات ضخمة رغم أنها بالفعل تمتلك ثروات هائلة، واستمر في مدها بالثروات مع تكبد الدولة أعباء شديدة لكثرة الحروب مع شعوب البحر، وبلغ دخل المعابد حينذاك ١٠٠ ألف مكيال من الغلال، واستأثرت بخيرات ١٦٩ مدينة وقرية في مصر وخارجها، وامتلكت أكثر من ٨٨ سفينة، ونحو ٥٠ ترسانة لصناعة السفن وإصلاحها، وتراوحت مساحة مزارعها بين ١٢ و١٥% أو ما هو أكثر من أراضي مصر الزراعية[١٠٥]، ولنتخيل أن هذا جاء في الوقت الذي يزحف مستوطنون أجانب إلى المعابد والسيطرة عليها بكنوزها ونفوذها وأسرارها.

وكان على المعابد أن تساهم بنصيب في مشروعات الدولة، ولكنه لم يصلها كاملا من المعابد الكبيرة نتيجة لمغالطات رجالها وامتداد نفوذ كبارهم كالأخطبوط إلى أغلب إدارات الحكومة ومرافقها، وانتشر الفساد، وتأخر صرف مرتبات العمال، فحصل ما أسماه علماء أثار بأول إضراب عمالي في التاريخ، وكان في مدينة الحرفيين "دير المدينة" بواسط (طيبة).

ودير المدينة بلدة أنشأتها الحكومة في الأسرة ١٨ في البر الغربي لتضم الحرفيين القائمين على تشييد المعابد والمقابر في وادي الملوك ووادي الملكات، وتحتضن خيرة الرسامين والنجارين والبناءين والنقاشين والمهندسين والمصميين، بصحبة أسرهم، وظلت عامرة وزاخرة بأبدع المواهب طوال ازدهار العمران من الأسرات ١٨- ٢٠، حتى أصابها ما أصاب مصر كلها بعد أن غفلت عن الأصول "ماعت"، وأرخت الحبل لفسدة الداخل وللأجانب.

ولم تكن الإضرابات التي ألمت بدير المدينة بعيدة كذلك عن يد الأجانب، خاصة وأنه تسرب للعمل بها

---

(١٠٣)- مرجع سابق، ص ٢٤٠- ٢٤١

(١٠٤)- تقرير بعنوان "بعد دراسة استغرقت عامين.. العلماء يثبتون أن الملك رمسيس الثالث قتله متآمرون وذبحوه بسكين حاد"، أ ش أ، بوابة الأهرام، ١٧- ١٢- ٢٠١٢

(١٠٥)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ٢٤١

أجناس مثل السوريين والليبيين، وإن ظل المصريون لهم الغلبة[١٠٦].

وقال علماء آثار إن بعض الأجانب في أوقات الفوضى كانوا يترصدون في الطريق للعمال المصريين وهم في طريقهم إلى العمل، ويرهبونهم ويهددونهم ليتركوا العمل، ويأخذ الأجانب مكانهم، مستغلين الانفلات الأمني، ووجود أجانب يستقوون بوجودهم داخل أجهزة الأمن والجيش، وتشكلت عصابات من الليبيين والمشاوش تهدد العاملين في المقابر الملكية، فنقل جون ويلسون في كتابه "الليبيون ونهاية الإمبراطورية المصرية" عن تقارير عمال دير المدنية أن العمال اضطروا إلى إيقاف العمل بسب الأجانب من الريبو (الليبو)[١٠٧]، ويمكن بسهولة معرفة تأثير وجود هؤلاء الأجانب وسط العمال العارفين بأسرار بناء المقابر وطرق حمايتها وغلقها على مصيرها.

▼▼▼ نهاية أزمنة الحكم العظيم

وهنا تتجمد الدماء في عروق الدنيا...

وينفلت من بين إيدينا الزمان

كأنه سحبة قوس في أوتار كمان

وتنفرط الأيام بعود كهرمان

يفرفط النور.. والحنان.. والأمان

وينفلت من بين إيدينا الزمان [١٠٨]

جاءت وفاة رمسيس الثالث ليست كأي وفاة لحاكم مصري قبله، ليس لمجرد أنه تعرض للاغتيال وفي مؤامرة اشترك فيها أجانب، ولكن لأن وفاته نذير شوم لبداية عصور سواد وطمس، لم تشهد مصر قبلها، اختفى فيه جيشها العظيم في جوف الأرض بعد تصفيته، وتولى أمر مؤسساتها قبايل أجنبية شلَّت يديها وقدميها، وأردتها أسيرة حرب تحت أقدام أوباش الأرض، الذين آوتهم وأكرمتهم بتأمينهم في أراضيها، وظلت تصطلي بنيران الأسر لمئات السنين القادمة، وتخرَّب دينها، وانحلت عرى لغتها، واختفت ملامحها التاريخية تحت أقنعة فرضها عليها الغزاة فرضا حتى اليوم.

فهذه المرة الأجانب لم يستوطنوا في منطقة واحدة في جهة واحدة من البلد، مثلما استوطن مثلا

---

(١٠٦)- تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٣٧٧

(١٠٧)- انظر: الوعي السياسي عند قدماء المصريين، فايز أنور عبد المطلب، مرجع سابق، ص ١٧٦، وللمزيد عن اضطرابات دير المدينة ووصولها لدرجة عصيان أوامر الحكومة: تاريخ مصر القديمة، جريمال، ص ٣٦٦- ٣٧٩، والشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ٢٤٢- ٢٤٣

(١٠٨)- أغنية تتر المسلسل التلفزيوني "أرابيسك"، كلمات سيد حجاب، ألحان عمار الشريعي، غناء حسن فؤاد

الهكسوس في أماكن منفصلة عن المصريين، بل استوطنوا في كل الأنحاء، فتكتلوا في الوجه البحري وفي منف والأقصر وبني سويف وغيرهم، في شرق البلد وغربها، قبليها وبحريها، لفوا البلد كشبكة خيوط العنكبوت، فأصبح بعد حين من السهل شل عروقها كلها في آن واحد، ولا يجد المصريون مساحة واسعة تخلو من الأجانب فيتمترسوا فيها ليعيدوا تنظيم صفوفهم ويهبوا لقتال المحتلين كما فعلوا وتكتلوا في الوجه القبلي وجهزوا أنفسهم ثم هبوا لطرد الهكسوس من الوجه البحري.

كما أتاح لهم تعاقب الحكام الضعاف لمدة طويلة التوغل أكثر وأكثر في مؤسسات الدولة- التي دخلوها بموافقات وقرارات حكومية بعد تمصرهم الكاذب- والاستيلاء على مناصب ووظايف المصريين، حتى تحين اللحظة لاستغلال إمكانيات هذه المؤسسات بالتحالف مع بقية المستوطنين المنتشرين في أنحاء البلد لضرب الضربة القاتلة باحتلال مصر احتلالا كاملا.

فقد تعاقب على العرش بعد رمسيس الثالث ٨ حكام، تسموا جميعا باسمه، ابتداءً من رمسيس الرابع حتى رمسيس ١١، ولذا اشتهر زمنهم باسم عصر الرعامسة، وحكموا ما بين ٧٥- ٨٠ سنة[١٠٩]؛ ولضعفهم من ناحية، وانتشار سوس الأجانب في عظام ونخاع الدولة من ناحية، وتضخم مراكز القوى كالمعابد وغيرها من ناحية أخرى، ساء توزيع ثروة البلاد، وخفت هيبة القانون، وانتشرت الفتن، واشتدت الضائقة بالناس أكثر فأكثر، وحدثت مجاعة طويلة في أواخر الأسرة أطلق الناس على أحد أعوامها اسم "عام الضباع".

فارتفعت أسعار الغلال وبقية الأقوات إلى ٣ أمثالها، وتكررت إضرابات العمال في غرب واسط (طيبة)، وبلغ من ضيق العمال وجرأتهم أن طلب وزير ذات مرة رجالا منهم ليحملوا متاعا لرمسيس التاسع، فرفضوا، ورد أحدهم على رسول الوزير بقوله: "دع الوزير نفسه يحمل المتاع[١١٠]"، كما وصل الفساد الأخلاقي إلى درجة التعدي على حرمات الأموات والمقابر- كما حدث في "الزفتة" الأولى بعد الأسرة ٦- وانتشار سرقات آثارهم.

لم يكن من سبيل لتغيير هذه الأوضاع إلا عن طريق ثورة- وفق عبد العزيز صالح- ولم تكن إمكانيات الجماهير حينذاك تسمح بثورة عامة، [خاصة والجيش عروقه في أيادي أجنبية ومشتت] فحدث انقلاب محدود [مدني] من أحد مراكز القوى المتضخمة، قامت به جماعة من كبار رجال معبد آمون بزعامة كبير لهم اسمه أمنحوتب توارثت أسرته رياسة المناصب الكبيرة في المعبد منذ عهد رمسيس الرابع، وكان توارث هذه المناصب الكبيرة لعدة أجيال في المعبد غير معتاد في فترات القوة، ودلَّ على أن الأمور صارت بأيديهم وليس بيد حكومة البلد المركزية.

وآل المنصب إليه في عهد رمسيس التاسع، ووصل نفوذه لدرجة أن فناني عصره رسموه في معبد الكرنك بحجم مساوٍ لحجم الحاكم وفي مواجهته، على عكس ما قضت به التقاليد من رسم الحاكم دائما بحجم أكبر دليلا على مكانته الفريدة، وازدادت سلطة أمنحوتب في عهد رمسيس ١١، فتضخم عدد أتباعه، كما

---

(١٠٩)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٤٢

(١١٠)- نفس المرجع، ص ٢٤٢- ٢٤٣

تضخم التذمر في الوقت نفسه ضد طموحه وضد الثروات التي تكدست بين يدي أسرته[١١١].

وهنا يلمع دور المستوطنين الأجانب من جديد، فظهروا كأداة استقواء وتأجيج في الصراع الذي نشب بين أمنحوتب في طيبة وبين بانحسي نائب الملك في كوش، حيث استعان كل منهم بأجانب مستوطنين في المعارك ضد الآخر، وجاء هذا على حساب زعزعة أمن أهل البلد، وزاد النار نارا.

فجنَّد الأول أرقاء المعابد [الأجانب والمتمصرين] لمصلحته، واستعان الثاني بجنود نوبيين [كوشيين؟] وليبيين مرتزقة، وتعددت الخسائر بين هذا وذاك على حساب الأهالي، وانتهت باختفاء الطرفين وفشلهما، ولم تخلص الجماهير لهذا أو ذاك لأن أيًا منهما لم يقم بحركته لمصلحتها[١١٢].

وليس من الواضح أين كان الجيش في خضم هذه الصراعات والفوضى، إلا أنه فيما يبدو أصابه العطن والتفكك بكثرة المجندين والضباط الأجانب الذين توهم الحكام أنهم تمصروا، كما تأثر بتشتت الولاءات، وبالدخول في معارك داخلية ليست لصالح البلاد، بل ويقودها أجانب، وأخيرا تأثر بضعف الدولة والسماح بتجنيد شبان بعيدا عن سلطة الجيش في حراسات خاصة للمعابد ولمنشآت الشخصيات التي تضخمت ثرواتها ومزارعها على حساب الدولة.

ففي النصوص المعروفة باسم خطابات الرعامسة المتأخرة **late Ramesside Letters** يرد الحديث عن صرف مخصصات الغلال لأناس من قبايل المشاوش أيام رمسيس ١١، و طلب أحد قادة القبايل المستوطنة، واسمه باي عنخ، مساعدة المشاوش له في حملة عسكرية ضد بانحسي، بل لم يستطع رمسيس ١١ فيما يبدو الاستغناء عن تعاون تلك القبائل معه[١١٣]، أي أن القبايل المستوطنة صارت تستقوي ببعضها في المعارك ضد الدولة وتناطحها، أي لم يعد لمن بقي من المصريين داخل الجيش النفوذ، وهذا من مؤشرات تصفية الجيش المصري بعد مئات السنين من حمله لقب أقوى جيوش الأرض.

وتولى رئاسة الكهنة بعد ذلك حريحور، فجرى على سبيل سلفه في التمهيد لبسط نفوذه، ولم يكن من أسرة كبيرة مثله، ولكن كان له ماضيه في الجيش والوظايف إلى جانب معارفه الدينية، ثم جمع إلى كل ذلك منصب نائب الملك في النوبة، واتخذ لقب وزير طيبة لبعض الوقت على أقل تقدير، ولم يكن معتادا في عصور الحكم المصري الرشيد أن يتولى رجال الدين كل هذه المناصب؛ فمصر لم تكن من قبل دولة دينية بالمفهوم الحالي الذي يحكم فيه تنظيم ديني أو مؤسسة دينية الدولة (كإيران) بل رجال الدين مختصين بوظايف المعابد، فكانت دولة متدينة تحركها قيم الدين لا دولة دينية بالمعنى السياسي الحالي.

وتمادى حريحور في نفوذه باسم الدين أكثر فأكثر، حتى انتحل ألقابا وشارات تشبه ألقاب الحاكم وشاراته، ورضي رمسيس ١١ المغلوب على أمره بالأمر الواقع، واعتبر الكهنة ذلك نصرًا لهم وبشيرًا بعصر جديد تبجحوا وسموه عصر النهضة- بتعبير عبد العزيز صالح- وأرخوا به وثائقهم، واعتبر

---

(١١١)- مرجع سابق، ص ٢٤٣

(١١٢)- انظر: المرجع السابق، ص ٢٤٣- ٢٤٤

(١١٣)- الأجانب في مصر في الألفية الأولى قبل الميلاد، جونتر فيتمان، مرجع سابق، ص ٣٢

حريحور نفسه كما لو كان ملك طيبة، وإن ظل رمسيس ١١ على العرش حتى العام ٢٧ أو ٢٩ من حكمه[١١٤]، وكلمة "النهضة" أو "تجديد الولادة" (وحم مسوت باللغة المصري) صفة يطلقها المصريون على عودة الروح لمصر بعد تعرضها لأزمات خانقة أو فقد حريتها، مثلما حدث بعد القضاء على الزفتة (الفوضى) الأولى وهكسوس الشرق.

ويعتقد علماء آثار مثل جونتر فيتمان أن حريحور ينحدر من المؤكد أيضا من سلالة أجنبية، تتبع المستوطنين القادمين من وراء الحدود الغربية[١١٥].

وفي نفس الوقت ظهر في الوجه البحري نفوذ لشخص آخر هو نيسوبانب جدة، واشتهر في كتب التاريخ باسم سمندس، مجهول الأصل، وعقد مع كبير الكهنة في طيبة- المطعون في أصله وشرعيته مثله- مهادنات تسمح بتقاسم السلطة بينهم، خاصة بعد ما استغل سمندس ثغرة في نظام الحكم المصري، وهي أن يُسمح بتولي العرش لزوج بنت الملك، فتزوج سمندس من تانت آمون بنت رمسيس ١١ ليكتسب "شرعية" الحكم.

هذه الأوضاع الكئيبة وضياع هيبة حاكم مصر تطايرت أخبارها سريعا للبلاد المحيطة، وتشفَّت في مصر، وأظهرت بجرأة وسرعة شماتتها فيها مثلما يظهر في قصة القائد "ون آمون" حين سافر بأمر حريحور إلى الشام لاستيراد خشب الأرز في عهد رمسيس ١١، وذكرت البردية اهتمامه بذكر حريحور وسمندس، فيما أشار إلى رمسيس ١١ إشارة عابرة ما يدل على تضاؤل نفوذه أمامهما، ولذا لم يكن غريبا أن يصبح رمسيس ١١ هو آخر حاكم مصري لا دخيل ولا هجين ولا مطعون في أصله، ويفسح المجال بضعفه لطابور الاحتلال الثقيل.

وجاء في البردية التي روت قصة ون آمون بكل صراحة أن أمثال ون آمون من الرسل كانوا في عصور الحكم المصري السابقة يجدون الترحاب حيثما حلوا، أما هو فقد وجد الصدود حيثما نزل، فأمراء الشام يعلمون بأن شوكة الحكم انكسرت في مصر، فعزَّ عليه أن يجد بين الطوائف الجديدة في الشام الأمن القديم الذي كفله المصريون والسوريون في أيام استقرارهم ومجدهم، فسُرق منه متاعه من ذهب وفضة، وعجز حاكم "الثكر" عن أن يعيده إليه، وتكبر عليه أمير جبيل، واشترط عليه (...) أن يدفع أثمان أخشابه على الرغم مما عرفه عن نهب متاعه، وعلى الرغم من الصلات الودية بين مصر القديمة وبين جبيل وبقاء بعض شرايين التجارة بينهما مفتوحة، وعلى الرغم من اعتراف أمير جبيل أمامه بفضل مصر القديم في إفاضة الحضارة على بلده، وكان في كل هذا ما يختلف تماما عن الفكرة التي خرج بها ون آمون من مصر وورثها عن أسلافه من اعتبار البحر بحر ربه آمون والجبل جبله والبلد بلده، وبعد عدة مخاطرات خرج الرجل بأخشابه من جبيل، وعندما عاد إلى مصر كان أمينا في تسجيل ما مر به، وتحدث بما رآه وسمعه

---

(١١٤)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٤٤
(١١٥)- الأجانب في مصر في الألفية الأولى قبل الميلاد، مرجع ساق، ص ٤٦

بكل ما فيه من مرارة وأسى على سمعة وطنه[١١٦].

وكيف لا تفيض المرارة، وكيف لا نتجرعها مع ون آمون حتى اليوم؟.. فقد نسى أبناء مصر للمرة الثالثة، وبسرعة مستفزة، عهد من أسسوها بعد أن دلوها على سكة السلامة، وبصروها بسكة الندامة:

"إن البوابات [الحدود] التي فوقك كبوابات حامية.... إنها سوف لا تفتح للغربيين، إنها سوف لا تفتح للشرقيين، إنها سوف لا تفتح للجنوبيين، إنها سوف لا تفتح للشماليين، إنها سوف لا تفتح لهؤلاء الذين في وسط الأرض، إنها سوف تفتح لحورس[١١٧]".

فاستحقت الأجيال التي فرَّطت فيها عقاب الإله الذي حذر منه بتاح حتب:

"إن الذي يفعل الماعت فذلك الذي يكون بعيدا عن الضلال"، "يحل العقاب دائما بالذي يتخطى قواعدها".

---

[١١٦]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ٢٤٥

[١١٧] - الوصية الواردة في نصوص الأهرام، القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، ص ١٢٥- ١٢٦

الفصل الثاني: الهكسوس يشعلون نيران ٣ آلاف سنة احتلال

١٠٦٩ ق.م- ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ب.م

مصر أسيرة حرب

الشر شرق وغرب داخل لحوشنا

حوشو لريح شاردة تقشقش عشوشنا

حوشو شرارة تطيش تشقق عروشنا

وتغشنا المرايات تشوش وشوشنا

وتهيل تراب على الهالة والهيلمان

وينفلت من بين إيدينا الزمان[١١٨]

وينفلت من بين إيدينا الزمان.. والأمان.

---

[١١٨]- أغنية مقدمة مسلسل أرابيسك، كلمات سيد حجاب، ألحان عمار الشريعي، غناء حسن فؤاد

المشهد ٨: الزفتة الثالثة

(وسقط الصولجان والهيلمان)

على أساس ما سبق يمكن أن يقال إن آخر حاكم مصري خالص بشكل مؤكد في تاريخنا القديم كان رمسيس ١١، وما تلاه من حكام إما مجهولو النسب مثل سمندس مؤسس الأسرة ٢١، أو من أسرى الحرب والمستوطنين ومدعي التمصير مثل شاشنق مؤسس الأسرة ٢٢.

وعلى هذه الحال الحرجة التي لم تخطر على بال انتهت أيام الأسرة ٢٠ بعد أن وليت أمور مصر ١١٩ سنة، مختتمة عصور الرعامسة وذكراهم الخالدة، بحلوها ومرها.

وتجمدت ما يمكن أن توصف بأزمنة الحكم المصري الخالص المديد، أزمنة مصر الحرة التي بدأت بحكم أوزير وحور ثم أتباع حور في زمن لا يُعرف بدايته في جوف التاريخ، تلاهم حكام تركت الآثار نقوشا تدل على وجودهم، ولم تترك كتابة لأسمائهم لانعدام أو ندرة الكتابة أيامهم، حتى نصل إلى عصر مينا الذي عرفنا اسمه لظهوره بعد الكتابة، وتبعه المئات من زعماءنا حتى نصل إلى رمسيس ١١، منهم من كانوا أمناء على وصايا وصولجان حور، حفظوا مصر لأهلها حرة مطمئنة، وهم الأكثر، ومنهم من لم يكونوا على قدر المسئولية، وهم الأقل، لكن غفلتهم وغفلة بقية المصريين المعاصرين لهم كانت القاضية؛ ليسقط الصولجان أخيرا من يد حور نهاية الأسرة ٢٠، سقوطا له رنَّة مدوية، كصرخة ذبيح، لو سمعها الكون لشققت جباله وشلَّت كائناته من فزعها وألمها،؛ ولتبدأ عصور مهجنة واحتلالات في ذيل بعضها، حتى تعود مصر وصولجانها إلى أهلها في ثورة ١٩٥٢، أي بعد ٣٠٠٠ سنة..من كان يتصور أن تقبع مصر العظيمة، الدولة الأكمل، نبية البلاد، أسيرة بسجون الشيطان ٣٠٠٠ سنة !

ليس عن جبن في أهلها، ولا ضعف ولا فقر في أرضها، ولكن لغفلة حراسها عن قيمة بلدهم، ووصية الأجداد.. عن كفرهم بأعظم النعم، نعمة الطريق القويم الواضح (ماعت) المحدد لهم سلفا، وبعد أن اختبرهم الله فذاقوا عدة مرات حلاوة السير فيه، ومرارة التخلي عنه.

لم يكن للمصريين أي عذر في كفر النعمة، فالله أعطاهم من الإيمان والعقيدة والقوة والذكاء والثروة والسكان ما يكفيهم لبناء بلدهم وحمايتها، ومعظم أزمنة الحكم المصري شالها على أكتافهم أبناء الأرض الطيبة، ولما جاءها الغريب يتسلل أو يتوسل كان هو الذي في حاجة لها، وحتى لو احتاجته في أي أمر لم يكن هناك أي مبرر أن يكون ثمن تعاونه أن يستوطن، ويأخذ الأرض، وينحشر في مؤسسات البلد، ويملك اقتصادها، ويتغلغل في بيوتها، ويشوشر على دينها، ويبدل عاداتها، ويبلبل لغتها، ويغير نظام حكمها؛ ولذا لما سلمنا بعض مناصب البلد وأسرارها للأجانب في الأسرتين ١٩ و٢٠ بعد ما بذله رجالها الأبطال من أعمارهم ودمائهم لتحريرها من الأجانب فيما سبق لم يكن لنا أبدا عذر.. فكان الخراب والاحتلال الطويل، الطويل جدا.

الخلاصة، أنه من الآن تمثل الوضع مع نهاية الأسرة ٢٠ بحسب ما يصفه جونتر فيتمان كما يلي: تغلغل المستوطنون الأجانب في الدلتا والمنطقة الممتدة حتى أهناسيا ببني سويف بصورة كثيفة دون رقابة، بل وصلوا إلى الوجه القبلي الذي لم يسكنه إلا مصريون، فاخترقوا شتى التحصينات حتى وصلوا إلى قلبه، إلى واسطة (طيبة)، يشيعون فيها الاضطراب والفتن، وتسببوا في انهيار الدولة الحديثة، وتولوا مقاليد السلطة ليبدأ "عصر مظلم"، وتعد الـ ١٥٠ سنة الأولى من ذلك الزمن من أكثر الفترات غموضا[١١٩].

▼▼▼ الاحتلال الخاسوتيّمي (هكسوس البحر)

اختلف علماء الآثار في تسمية فترة الاحتلال التي أطبقت بظلامها وثقلها على صدر مصر بعد الدولة الحديثة، فبعضهم مثل جونتر فيتمان يصفها بالغزو الليبي، نسبة إلى أن المحتلين تدفقوا من وراء السواحل والحدود الغربية من ناحية ليبيا.

وآخرون مثل عبد العزيز صالح يصفونها بالاحتلال الهجين، لأن المحتلين لا ينتمون لشعب واحد وأرض واحدة، بل تحالف من شتات قبايل تجمعت من آسيا وجزر البحر المتوسط وحطت على ساحل ليبيا، وضموا لتحالفهم قبايل هناك، فجمعهم الطمع في غزو مصر، وغلبت عليهم سمات المشاوش القادمين من جزر البحر أكثر من سمة الريبو أو الليبو، حتى أن شاشنق الذي حكم بداية من الأسرة ٢٢ احتفظ بلقبه في النصوص المصرية، رئيس "ما الكبير" أي رئيس المشاوش وليس رئيس الريبو، وكذلك كان أبوه وجده، وحمل تاف نخت رأس الأسرة ٢٤ نفس اللقب[١٢٠].

وإذا كانت المؤلفات الحديثة اعتادت تسمية هذه الأسر وأعوانها باسم الأسر الليبية فإنما جرت في ذلك على التقليد الإغريقي القديم الذي أطلق اسم ليبيا على كل أراضي شمال إفريقيا الواقعة غرب دلتا النيل، دون أن يقصره على حدود دولة ليبيا بمعناها المعروف في العصر الحديث، وذلك مثلما أطلقوا لفظ أراضي آرابيا أي الأراضي العربية على كل المناطق الصحراوية الواقعة شرق النيل والممتدة بين شرق إفريقيا

[١١٩]- انظر: الأجانب في مصر في الألفية الأولى قبل الميلاد، جونتر فيتمان، مرجع سابق، ص ٣٢
[١٢٠]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، طبعة سنة ١٩٨٠، ص ٢٧٦

وغرب آسيا، دون قصره على شبه الجزيرة العربية بمدلوها المألوف(١٢١)، بحسب شرح صالح.

ويمكن فك هذا الاختلاف باشتقاق اسم لهذا الاحتلال الخبيث من لغة الأجداد والاسم الذي أطلقوه على هذه القبيئل، وكما سبق القول، سماها الأجداد حين حاربوها أيام رمسيس الثالث باسم شعوب البحر "نا خاسوت إن با يَّم، و"نا" أداة تعريف للجمع، و"خاسوت" أي الشعوب الأجنبية، وهو نفس الاسم الذي وصفوا به هكسوس الدولة الوسطى، و"إن" يعني تبع، و"با" أداة تعريف للمفرد المذكر، و"يَّم" أي البحر، وهي نفس كلمة اليَّم التي انتقلت للعربية بمعنى البحر والبحيرة.

وعلى هذا فمثلما تسمت قبايل "حقا خاسوت" متعددة الأعراق بالاحتلال الهكسوسي، يمكن تسمية الاحتلال الجديد متعدد الأعراق أيضا بضم كلمة شعوب أجنبية "خاسوت" والبحر"يَّم" سويا فتكون الاحتلال الخاسوتيَمي، أو اختصارا الاحتلال الخاسوتي.

الاحتجاج بالكاريكاتير

وإن كان بعض المصريين خلال الأسرتين ١٩ و٢٠ خدعوا أنفسهم بتمصر الأسرى والمتسللين وطاعتهم الظاهرة، إلا أن الأغلبية يبدو أنها لم تطمئن لهم، ولا لتغلغل نفوذهم في البلد، وظلت تعتبرهم دخلاء أغرابا، وتصفهم بالأجانب، وصور الفنانون ذلك بصورة طريفة، ولكن حزينة.

ففي رسم كاريكاتيري صوَّر الفنان كتيبة من الفئران تهاجم حصن القطط، فيما يبدو أنه يعبر بالفئران عن الدخلاء، وبالقطط عن المصريين، وكيف انقلب الوضع فصار الدخلاء في موضع القوة والهجوم بعد أن اطمئنوا لغفلة المصريين.

وفي رسم آخر صور الفنان فأرا غنيا، يجلس على كرسي يرتشف مشروبا بمصاصة طويلة، وتسرح شعره قطة مصرية؛ ما يؤشر لحياة الرغد التي بدأ يحيا فيها الأجانب بعد أن كانوا أسرى وخدما، حتى صاروا هم الأغنياء والمصريون خدمهم. وربما من مثل هذه الانقلابات جاء المثل المصري الشهير "إن غاب القط إلعب يا فار".

وكرر ذلك في رسم فأرة تجلس على كرسي، فيما تقدم قطة كأس شراب إليها، وقطة تسرح شعرها، وقطة تحمل ابن الفأرة، وقطة تقدم لها الهدايا، في إشارة أيضا لانقلاب الأوضاع بين المصريين (القطط) والأجانب (الفئران)، وفي سخرية لاذعة من الدخلاء رسم فأرة تجلس على مقعد فخم، لكن بطريقة غير لائقة، وقط يقدم لها غصنا لتأكله كما يقدمه لبقرة أو أي حيوان، في إشارة إلى أنه يعاملها على أنها مجرد حيوانة مهما علا شأنها في بلاده(١٢٢).

---

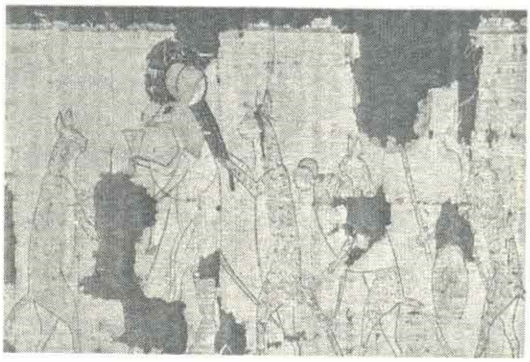
(١٢١)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٧٧

(١٢٢)- للمزيد من هذه الرسوم وشروحها انظر: الفكاهة والكاريكاتير في الفن المصري القديم، عبد العزيز صالح، مجلة "المجلة"، العدد رقم ٨٨، بتاريخ ١- ٤- ١٩٦٤، القاهرة، ص ٣٤- ٤٢

وفي ذات الوقت وجه الفنان نقده الشديد لأبناء بلده الذين ساعدوا في تمكن الأجانب من البلد، وغرقوا في الفساد، حتى أنه صورهم على شكل قطط تأكل الأوز المكلفة برعايتها وحمايتها(١٢٣).

هذه الرسومات- من أقدم الرسوم الكاريكاتيرية في العالم- أبدعها العاملون في دير المدينة على قطع من الفخار "أوستراكا"، والبردي، وقليل منها على جدران المقابر، وموزعة حاليا بين المتحف المصري ومتاحف أخرى، ربما كانوا المتضايقين من اختراق الأجانب للحرف المصرية في دير المدينة وغيرها.





غفل الحراس عن الوصية والتاريخ والأرض، فتحول القط لفأر والفأر لقط، والعبد لسيد والسيد لعبد، والحق باطل والباطل حق، وانقلب الزمان (نماذج لرسوم الكاريكاتير الواردة في دراسة "الفكاهة والكاريكاتير في الفن المصري القديم" د. عبد العزيز صالح)

▼▼▼الجيش المصري في الاحتلال الخاسوتيمي (التصفية-جلب المرتزقة)

أما عن مصير الجيش المصري وسط هذا العك، وكيفية تفريغه من الداخل، فيمكن تشبيه ما حدث للمصريين بداخله بمثل ما يحدث عند تصفية الدقيق من خروم صغيرة في "شوال الدقيق"، فيتسرب منها بشكل بطيء غير محسوس، ولكن مع الوقت يصبح الشوال فارغا منها تماما.

فكما تبين أنه بداية من عصر الأسرة ١٩ تم قبول إدخال الأجانب إلى صفوف الجيش المصري من أسرى الحرب وأبناء البلاد المفتوحة وغيرهم، ووصلوا إلى رتب قيادية، ولا يُستبعد أن هؤلاء القادة الدخلاء كانوا يسنون القوانين ويصدرون القرارات التي تدير عملية إحلال وتبديل مستمرة للضباط والجنود المصريين، لإحلال مقاتلين وافدين محلهم، حتى أصبح للوافدين بالجيش نصيبا موفورا.

واعتبر هنري بريستيد أن استعانة المصريين بأجانب في الجيش من أكبر أسباب سقوط الدولة المصرية بعد تمكنهم من مفاصلها واستقوائهم عليها بأقاربهم في مواطنهم الأصلية، ودفعت مصر بتهاونها هذا معهم

---

(١٢٣)- انظر: مرجع سابق، ص ٨

أفدح ثمن، فأصبحت بتعبيره "مغنما للغزاة الأجانب يستغلون أهلها، وينقلون القمح ليطعموا به شعوب البحر الأبيض المتوسط"(١٢٤)، وظلت تتقلب كالأسيرة الجريحة بين أقدام كافة مرتزقة الأرض، كلما قامت وثارت لتحرر نفسها وتطرد أعدائها ما تكاد تقف وتلمس قدماها الأرض حتى تسقط من جديد.. فعمودها الفقري (الجيش) مكسور، بل منزوع.

وحدث في أواخر العصر- بحسب عبد العزيز صالح- أن تكونت في المجتمع طبقة من المحاربين أغلب أفرادها من المستوطنين الأجانب، ذكرتهم المصادر الإغريقية باسم "ماخيموي"، وأصبحت العسكرية معهم هدفا يرنو إليه أفراد الأسر، ويتوارثونها ولدًا عن والد، ويحصلون عن طريقها على إقطاعيات زراعية صغيرة مناسبة، فظهرت بذلك طبقة متماسكة منطوية على نفسها من العسكريين الأجانب، احتكروا المناصب الحربية والأراضي.

وربما اتخذ مثل هذا التقليد سبيله إلى صفوف رجال الدين وأسرهم أيضًا، ومن هنا تناقل المؤرخون الإغريق فكرتهم الخاطئة منذ القرن التاسع ق. م عن قيام الحياة الاجتماعية في مصر على أساس الطبقات المهنية(١٢٥)، فيما كان الأمر دخيلا على المصريين على يد هذه القبايل الأجنبية، لأنه في أزمنة الحكم المصري الخالص فإن رغم توارث البعض حرفة آبائهم لكن هذه الحرف مفتوحة أمام الجميع لدخولها أيضا والترقي فيها.

ومن أسباب ظهور الطبقات المهنية المنفصلة والإقطاعات اختلاف هذه القبايل عن بعضها، فكأنها قسمت المهن والمناصب والأراضي بين بعضها البعض لترضي أو تتقي شر بعضها البعض، إضافة لأنهم كأي احتلال لمصر سعوا لاحتكار كل شيء وترك القليل للمصريين ليكونوا أصحاب التميز والهيمنة.

وبذلك صار الجيش في مصر مصريا بالاسم، ولكنه في الحقيقة جيشا أجنبيا مكونه الأساسي من الغرباء، وسيحوله أحفاد هؤلاء الغرباء في الأسرة ٢٦ إلى جيش مرتزقة من الإغريق والكاريين واليهود وغيرهم، وذلك بعد فقد الثقة بين القبايل وبعضها لكثرة صراعاتهم ضد بعضهم، فلجأت تلك الأسرة لزيادة المرتزقة لتفادي خطر انقلاب منافسيها عليها.

♦♦♦ السكان ومن هو المصري في الاحتلال الخاسوتيّمي

في تقدير عالم اللغة المصرية فيتمان فإن أول حلقة في ليل الاحتلالات الطويلة المعبأة برائحة الموت، وهي حلقة الاحتلال الخاسوتيمي، بدأت فعليا في نهاية الأسرة ٢٠ وأول الأسرة ٢١، وليس بتولي شاشنق الحكم في الأسرة ٢٢ كما يعتقد علماء آخرون، وأن الأسرة ٢٠ يصعب أن يقال إنها مصرية.

أي يرى أن تولي الأجانب حكم مصر بدأ بالأسرة ٢١ التي تزعمها سمندس مجهول الأصل، وشاركه

---

(١٢٤)- انظر: قصة الحضارة، هنري بريستيد، ترجمة أحمد فخري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص ١٤٦- ١٤٧
(١٢٥)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ٢٦٢

في الحكم في الوجه القبلي كبير معبد آمون حريحور الذي قال فيتمان إنه من أصول ليبية، ويضيف: "علينا أن نستنتج من ذلك أن الليبيين كانوا قد غزوا البلاد فعلا في ذلك الوقت وليس بعده، أي [ليس] في عهد شاشنق الأول مثلا، كما أُعتقد دائما حتى قبل وقت قصير، وذلك لوجود انفصام تام في نواح عديدة فيما بين الفترة المتأخرة لعصر الدولة الحديثة والأسرة ٢١، وليس فيما بين الأسرة ٢١ و٢٢ فقط(١٢٦)".

وعن نواحي الاختلاف بين هوية وطبيعة الحكم المصري والحكام المصريين الحقيقيين حتى الأسرة ٢٠ وما ظهر فجأة من شكل للحكم بداية من الأسرة ٢١، يقول فيتمان نقلا عن أبحاث خاصة به ودراسات لعلماء آخرين مثل أ.ليهي، ويويوت، وكارل يانسن- فينكلن، إنها تتعلق بالعقيدة الدينية، وطرق الدفن، والجمع بين أكثر من وظيفة هامة في يد واحدة (مثل وظايف الجيش والمعابد والحكم السياسي)، ظهور تغييرات على اللغة المصرية جعلتها أقل جمالا وفصاحة، والرضا فجأة بتقسيم البلاد لعدة مقاطعات يحكمها عدة ملوك [بتقسيم متعمد] كأنه نظام اختياري للحكم في مخالفة صريحة للأيديولوجية الملكية المصرية التي لم تشهد هذا التعدد للحكام إلا مرغمة في وقت فوضى واحتلال، واستشهد أيضا فيتمان بتفرد كهنة آمون بحكم الصعيد مع مطلع الأسرة ٢١ فجأة في حين كانت سلطة الملك اسمية، وهذه أول مرة يقوم بها رجال الدين بحكم البلاد وتنصيب أنفسهم محل حاكم مصر بهذه الفجاجة.

وخلص إلى ما وصفها بالنتيجة الثورية وهي أنه "لم يبدأ عصر الليبيين بشوشنق الأول، الملك الأول للأسرة ٢٢"، وأن الأرجح "لقد حلَّ الليبيون محل حكم الرعامسة!(١٢٧)".

كما "رأى أن قبايل شعوب البحر لم يتمصروا حقا، حتى وإن أظهروا التمصر في الشكل واللغة، واستدل على ذلك بالتغيير الذي أدخلوه على العقائد الدينية، واحتفاظهم بأسماء أجنبية وافدة مثل شاشنق والنمرود وأوسركون، واحتفاظهم بتصوير أنفسهم والريشة على رأسهم، وهو الزي المميز للقبايل التي تهاجم مصر من الغرب منذ أزمنة قديمة، واستحباب كبارهم، مثل شاشنق، بأن يتسموا بلقب "زعيم الما" يعني "زعيم المشاوش"، وهو توجه قبلي عشائري دخيل على مصر، فلم يكن لحاكم مصر لقبا يخص قبيلة أو طائفة ولا عرق دخيل، بل هو مصري وفقط.

بل وتجرأ أوسركون الثاني، من الملوك الخاسوتيميين في الأسرة ٢٢، وهو يناجي آمون بقوله: "[أنت سوف] تُشكل نسلي، النطفة التي تخرج من أعضائي [حكاما] كبارا لمصر، وأمراء، وكهانا أَوَل لآمون رع ملك الآلهة، وزعماءً كباراً للما، و[زعماءُ كبارا] للأجانب، وكهانا (للإله) حارسافيس"، أي حرص على أن يدعو لزعماء الـ"ما"، أي قبايل الماشوش ليخرج منهم مزيد من الزعماء؛ ما يدل على تمسكه بقبليته وأصله الأجنبي، واضعا إياهم فوق المصريين.

وعلى هذا يحسن فيتمان الوصف حين يقول: "فقد تبنى الليبيون ظاهريا الأيديولوجية الملكية الفرعوينة، لكن إذا ما خدشنا السطح، إن جاز هذا التعبير، فإن تركيبات السلطة غير المصرية تظهر تحته بوضوح،

(١٢٦)- الأجانب في مصر في الألفية الأولى قبل الميلاد، مرجع سابق، ص ٣٣
(١٢٧)- نفس المرجع، ص ٣٩- ٤٠

ودلائل ذلك أن الطبقة الحاكمة نفسها لم تكن قد تمصَّرت كثيرا"[١٢٨].

وعلى هذا لم يبدو من "تمصرهم" الظاهري إلا الملابس المصرية (مع احتفاظهم بوضع ريشة زعماء قبايلهم فوق رءوسهم) وبعض ألقاب الحكم، والسماح باستمرار الدين المصري في المعابد، فيما لم يستبعد أنهم كانوا يمارسون دينهم الخاص "في الخفاء"، ويتحدثون مع بعضهم بلغتهم "شفويا"، ويستخدمون اللغة المصرية فقط في الكتابة[١٢٩]، مع الميل لتبسيطها بما أخلَّ بها.

وتحصن غزاة الداخل في الوجه البحري؛ ربما لقربه من الحدود الغربية ومن بقي منهم خلفها لسهولة التواصل؛ واتخذوا تانيس (صان الحجر بمحافظة الشرقية) عاصمة، فيما قلَّ عددهم بالوجه القبلي[١٣٠].

أما أخطر الأمور، فهو خطة الدخلاء لتفريغ الجيش من ضباطه وجنوده المصريين، والتوسع في السيطرة على المعابد، إضافة للاستيلاء على الأراضي الزراعية التي قسموها بين قبايلهم على شكل إقطاعيات، فيما تأججت الصراعات القبلية بين المستوطنين، واكتوى بنيرانها المصريون، خاصة وأن معاركهم تجري في القرى والمدن كما سنرى.

وبزواج سمندس من ابنة رمسيس ١١ أخذ صك "الشرعية" الشكلية الذي منحه لقب ملك مصر في ظرف غامض، وبدأ عصر ما عرفت باسم الأسرة ٢١.

وبذلك، كانت الست المصرية-بدون قصد- حين قبلت الزواج بهذا الشخص بوابة من بوابات احتلال بلادها، بعد أن ظلت في العصور السابقة حصنا حصينا لحمايتها، بداية من إيسة وتتي شيري وإياح حتب وغيرهن، فأحسن الأغراب استغلال ثغرة في قوانين الحكم المصرية بجواز اعتلاء العرش لزوج ابنة الحاكم، وبالتأكيد حين وضع الأجداد هذه المادة لم يدر بخلدهم أن ابنة الحاكم يمكن أن يتزوجها أجنبي، ولو كان مستوطنا مستمصرا، ورأينا كيف رفض أمنحوتب الثالث تزويج ابنته لملك بابل حتى لا يخالف في هذا أصول الماعت.

وظل سمندس في الوجه البحري على مهادنته لغريمه حريحور المسيطر على مقاليد الأمور في واسط (طيبة)، ووثق هذه المهادنة بالمصاهرة، وصارت مصر وكأنها دولة ذات عاصمتين، واستمرت هذه الأسرة من ١٣٠-١٤٠ سنة، تتنقل ما بين حكام مجهولي الأصل، سعوا للتغلب على الناس بتخديرهم باسم الدين، خاصة وأن حريحور جمع بين منصب الحاكم وكبير رجال الدين في معبد آمون.

وفي نفس الوقت استمرت الفتن، فعصر الأسرة ٢١ "لم يخلُ من خصومات بين حكامها، وانقسامات طائفية، ومؤامرات المستوطنين في أماكن قرب الحدود الغربية، وهذه سوف تصبح فيما بعد شر البلية[١٣١].

واللافت أنه رغم الضعف الشديد الذي أصيبت به مصر وقتها إلا أن المصريين ظلوا في قدرتهم على

---

[١٢٨]- انظر: المرجع السابق، ص ٣٦- ٣٧

[١٢٩]- انظر: نفس المرجع، ص ٣٨- ٤٢

[١٣٠]- انظر نفس المرجع، ص ٤٠

[١٣١]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو، ط٢، ١٩٧٣، ص ٢٤٧

الإنتاج والإبهار- وإن كانت نفوسهم مكسورة- واستدل عبد العزيز صالح على هذا بأن النبي سليمان طلب معونة مصر في معاركه مع منافسيه في كنعان، وفق ما ذكرته التوراة، ولكن لا يوجد مصدر غيرها حول هذا الأمر، وهذا يعني أن مصر حتى في عهود ضعفها كانت أقوى مرات من ملك سليمان الذي تحدثت به الأمثال(١٣٢)، وأن القوة التي وضعها الله في سواعد وقلب وعقل أبناء مصر أقوى وأبقى مما شيده عفاريت الجن الذين استعان بهم سليمان في بناء ملكه، والدليل زوال كل آثار ملك سليمان فيما بقيت آثار المصريين شامخة رغم كل ما تعرضت له من فوضى وخراب واحتلالات همجية.

فكلمة أن "المصري معجزة في حد ذاته"، أو بالتعبير الشايع أن "المصري أقوى من العفريت".. ليس فيها أي مبالغة.. ولكن إن وعى لقيمة نفسه والطاقة التي بداخله وبنعمة بلده.

وكلٌ تساءل فى لهفة — أين ومن وكيــف إذن ؟!

أمعجزة ما لها أنبياء — أدورة أرض بغير فضاء؟!

تلمح بين الجموع وجوهًا — يرف عليها حنان الإلــه

ففيها المفكر والعبقرى — وفيها التقاة ؛ وفيها الهداه

أنا الشعب لا أعرف المستحيلا — ولا أرتضى بالخلود بديلا(١٣٣)

وإن كانت الأسرة ٢١ اختلف علماء حول أصلها، وما إن كانت مصرية أم من الاستيطان الاحتلالي، إلا أن الأسرة ٢٢ متفق بينهم على أن مؤسسها هو شاشنق، أحد أفراد القبايل الأجنبية، ويؤرخون به لبداية ما يسمونه بـ"العصر المتأخر"، وكما تزوج سمندس من ابنة رمسيس ١١ ليأخذ شرعية للاحتلال "بالقانون"، صاهر شاشنق ابنة آخر حكام الأسرة ٢١ ليأخذ ذات "الشرعية".

ولوصول شاشنق ابن المشاوش إلى هذه المكانة الرفيعة وقدرته على احتلال مصر من الداخل قصة ترويها الآثار، وتقدمها كنموذج للفرق بين قصر نظر المصريين الذين ينظرون تحت أقدامهم، وبين طول نظر الأجانب الذين يضعون خطط للتمكين يصبرون على تحقيقها ولو بعد ٢٠٠ سنة.

فالبنسبة لقبيلة المشاوش استوطن كبيرها "بيواوا" في أهناسيا ببني سويف، وتسرب أولاده وأحفاده للعمل في معبد "حريشف"، وفي نهاية الأسرة ٢١، أي بعد عشرات السنين، صار شاشنق كبير القبيلة، وظهر النفوذ الذي بلغوه في أن والده نمرود صار له قبر في أبيدوس (مقر أوزير)، وهي أقدس الأماكن عند المصريين، ومكان الحج، وحصل اعتداء على القبر، فشكا شاشنق إلى حاكم تانيس الذي أرضاه بأن أذن له بوضع تمثال لوالده في معبد أوزير نفسه، وبلغ من ثرائه أن أوقف على مقصورة تمثال والده ١٠٠

(١٣٢)- نفس المرجع، ص ٢٤٨

(١٣٣)- قصيدة "على باب مصر"، كلمات كامل الشناوي، ألحان محمد عبد الوهاب، غناء أم كلثوم.

أرورة زراعية وحديقة كبيرة، وعيَّن لها ٢٥ من الأرقاء لحراستها[١٣٤]، هذا الذي دخلت عائلته لمصر كسيرة لا تملك سوى ما على جسدها.

ومن النفوذ الديني والاقتصادي طمع في قنص النفوذ السياسي، فصاهر أسرة بسوسينس، آخر حكام الأسرة ٢١، وكفل لنفسه ولولده "أوسركون" وراثة عرش لم يكن يحلم به- بتعبير صالح- عرش مصر، وجعل عاصمته في بوباسطة شرق الدلتا[١٣٥]، وظل محتفظا بلقبه في النصوص المصرية، رئيس "ما الكبير" أي رئيس المشاوش، ومع ذلك ادعت نصوص بعض خلفائه قرابتهم للرعامسة، وتلقب أغلبهم بألقاب الرعامسة، مثل وسر ماعت رع، وستبن رع، وستبن آمون، ربما للحد من كراهية المصريين لهم.

وأصبحت أهناسيا التي استوطنها أجداده إقطاعا لفرع من أسرته احتكرت أمورها واتسعت بحدودها، وتردد الوجه القبلي في التسليم بسلطان الحاكم الجديد مدة طويلة، ثم سلم بالأمر الواقع[١٣٦]، ودأبت حوليات معابد طيبة على الإشارة إلى شاشنق باسم "كبير زعماء المشاوش" إبرازا لرفضها الاعتراف بسلطانه[١٣٧].

وشبههم صالح بمماليك العصور الوسطى، ليس فقط فيما يخص أصولهم الأجنبية، ولكن في تفرق كلمتهم وتشتتهم وصراعهم الدامي الدائم على السلطة خلال الأسرات ٢٢ و ٢٣ و٢٤[١٣٨].

ويتفق كل من جريمال وجاردنر وإد.ماير في أن الأسرة ٢٦ (٦٧٢- ٥٢٥ ق. م) التي أسسها بسماتيك بعد انتهاء الاحتلال الأشوري هي أيضا أسرة أجنبية، وامتداد للحكام الأجانب من الأسرتين الـ ٢٣ و٢٤ الأجنبيتين[١٣٩]، ولم تسعَ لإعادة المصريين إلى حكم البلاد والجيش؛ ولذا وجب إعادة النظر في وصف البعض لها بأنها "مصرية".

▼▼▼ نتائج الاستيطان والاحتلال الخاسوتيمي

❶ السقوط في الاحتلالات الألفية

بقفز الخاسوتيميين على عرش حور دخلت مصر في كهف الاحتلالات الألفية، أي هذه الاحتلالات التي دامت ٣ آلاف سنة حتى التحرير في سنة ١٩٥٢، بل ومنها ما وصل وحده إلى نحو ١٠٠٠ سنة هو الاحتلال الأوروبي (اليوناني- الروماني)، وهي مُدد لم تشهدها مصر في تاريخها المديد من قبل، فأطول احتلال سجله التاريخ من قبل هو الاحتلال الهكسوسي، واستمر وفق ما يُفهم من بردية تورين ١٠٨ سنة، وفرض نفسه على مناطق من مصر وليس كلها، أما الاحتلال الخاسوتيمي فهو أول احتلال لمصر بأكملها.

---

[١٣٤]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ٢٦١

[١٣٥]- نفس المرجع

[١٣٦]- نفس المرجع

[١٣٧]- تاريخ مصر القديمة، جريمال، ص ٤١٧

[١٣٨]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، طبعة عام ١٩٧٣، ص ٢٦١- ٢٦٢

[١٣٩]- انظر: مصر الفراعنة، آلان جاردنر، مرجع سابق، ص ٣٨٨، و مقدمة أحمد بدوي لكتاب "هيردوت يتحدث عن مصر"، ترجمة محمد صقر خفاجة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٤٣- ٤٥، وأورد بدوي آراء ٧ علماء يقولون إنها أسرة ليبية، و٤ يقولون إنها أثيوبية (كوشية؟)، و٤ يقولون إنها مصرية.

❷- احتكار الأجانب للمناصب والثروة

وابتدع المحتلون الخاسوتيون نظام حكم جديد على المصريين، يضمن حصر الوظايف الكبرى في السياسة والدين والجيش والاقتصاد بيدهم، وإبعاد المصريين.

فرسموا سياسة بعيدة المدى إزاء واسط (طيبة) صاحبة المجد الفريد، لا سيما بعد أن اصطدموا بها في بداية عصرهم، فعمل أغلبهم على أن يعين أحد أولاده كبيرًا لكهنة معبد آمون ليكفل لأسرته السلطة السياسية والسلطة الروحية معًا، وليكون له نصيب الأسد من ثروات معابد آمون الطائلة؛ وذلك إلى جانب أخذ نصيب من السلطة الحربية أيضا بأن يأخذ لقب قائد الجيش(١٤٠).

وتسلحوا بسلاح المصاهرة، فتزوجوا من أمراء وكبار القبايل، وربما قليل من المصريين الأغنياء الراضين بهم، فكونوا طبقة منعزلة، تحتكر الثروة والسلطة بما فيها الجيش والمعبد(١٤١)، وتراكمت حقوق الانتفاع حتى بين أيدي نساء القبيلة، إضافة إلى ما يمتلكه ذووهم، حتى قارب إجمالي ما يمتلكونه ثلث أراضي مصر العليا(١٤٢).

❸- بداية مشروع "تدويل مصر"

هذه الكلمة "تدويل مصر"- لا قدر الله- ستصحبنا بداية من هذه الصفحة في الكلام عن دور كل احتلال تقريبا لتحقيقها، بل وستتواصل بعد التحرير حتى سنة وضع هذا الكتاب ٢٠١٩ التي تشهد أعلى وأسخن مرحلة من مراحل مساعي الهكسوس للتدويل حتى اليوم.

فالمرتزقة متعددي الأجناس، الاستثمارات الأجنبية، الربا، الوكالات التجارية الدولية، الاستيطان الإغريقي واليهودي والكاري ومن كل جنس، تعدد الثقافات واللغات الدخيلة، نزح ثروة مصر للخارج، عناوين مميزة للأسرة الـ ٢٦ وما بعدها، وبها دخلت مصر بما يمكن تسميته بلغة اليوم عصر "العولمة"، و"التدويل"، فقادتها في الحكم، والقادة والضباط في الجيش، وكبار كهنة معابدها المتحكمين في دينها، ومن يملكون اقتصادها هم "من كل الأجناس"، وأقل جنس له نصيب في كل هذا هو المصريون أنفسهم، وأحيانا لا يُترك لهم نصيب إطلاقا.

وعن انتشار تجارة المرتزقة متعددي الجنسيات وتأثيرها على الأحداث في مصر يقول جريمال إنه أضيف إلى "الليبيين والنوبيين [الكوشيين؟] في الجيش الإغريق والكاريين الذين أخذوا يعرضون مهاراتهم العسكرية في سوق الشرق الأدنى الذي تمزقه الحروب الداخلية، ويزخر بالفرص التي لا تُعوض، وبكل من قذفت بهم الفتوحات الآشورية إلى عرض الطريق من فينقيين وسوريين، بل واليهود الذين أسسوا في إلفنتين [أسوان] مستعمرة ذات شأن، ولكن ضباط "الما" [المشاوش] المحيطين بالملك ظلوا يحتلون المناصب

---

(١٤٠)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٦١- ٢٦٢

(١٤١)- انظر: نفس المرجع

(١٤٢)- تاريخ مصر القديمة، جريمال، ص ٤٠٩

القيادية".

وأنه "بالاعتماد على هذه القوات الجديدة أمكن إزاحة القوات القديمة ذات الأصول الليبية [الخاسوتيَّمية] التي لا همَّ لها سوى اقتسام السلطة، كما استطاع بسماتيك أن يحط من شأن دوائر الشمال الليبية بفتحه الباب أمام إنشاء مستعمرات للإغريق والكاريين الذين كانوا خير معين له في بسط نفوذه على مصر (...) ووصل التجار الإغريق للاستيطان في مصر في ذيل المرتزقة من أبناء جلدتهم[١٤٣]" وفق تعبيره الدقيق.

واستعان بسماتيك أيضا بمرتزقة كاريين من ليديا الواقعة في تركيا حاليا (بلاد الحيثيين سابقا)، بعد أن عقد تحالفا مع ملكها جيجس، وللكاريين وقتها أهمية كبيرة مثل الإغريق في مهنتي التجارة والمرتزقة، حتى أن الشعراء اليونانيين استخدموا كلمة "كاري" كمرادف لكلمة جندي مرتزق، بحسب جونتر فيتمان.

وبقي الكاريون- مثلهم مثل اليونانيين واليهود والفينيقيين- حتى الاحتلال الروماني، أي مئات السنين، ورغم ذلك لم يتمصروا إلا في عادات دينية شكلية، وظلوا محتفظين بلغاتهم وعاداتهم وملابسهم، وتكتل كل جنس في مستوطنات ظهرت كبقع حمراء دموية وتقيحات فوق الجسد المصري الصافي؛ وهو ما يدل على الانفصال التام بين هؤلاء المستوطنين وبين المصريين طوال مئات السنين، وأن العلاقة بينهم كانت كـ "المية والزيت"، إلا في حالات اختلاط قليلة في التجارة أو لتجاور المساكن أحيانا[١٤٤].

وهكذا صارت مصر- لأول مرة- "ملقف" للمرتزقة والعصابات الإجرامية والتجار الطامعين من كل جنس في استغلال هذه الأوضاع لاكتساب الثروة السهلة والتمتع بإحساس التسيد على أهل البلد، ونزح ما تبقى من ثرواتها التي باتت تخرج إلى خارج حدودها باسم الاستثمار الأجنبي- على يد هؤلاء التجار- ولأول مرة أيضا، واستمر هذا حتى قيام ثورة ١٩٥٢.. ومؤقتا.

ومن يطل على هذا من شرفة التاريخ الآن يقفز إلى عقله فورا بيت الشعر البديع[١٤٥]:

أحرام على بلابله الدوح ... حلال للطير من كل جنس

كل دار أحق بالأهل إلا في ... خبيث من المذاهب رجس

♦♦♦ أصل كلمة عسكر

يعتقد الدكتور عبد الجواد مجاهد، أستاذ التاريخ واللغة الديموطيقية بجامعة بني سويف، خلال ترجمته لكتاب فيتمان "الأجانب في مصر في الألفية الأولى قبل الميلاد"، وتعليقا على ربط الإغريق كلمة "كاري" بكلمة المرتزق، أن كلمة "عسكر" أيضا مرتبطة بكلمة "كاري"، ويستند في تحليله اللغوي إلى أن "عسكر"

(١٤٣)- تاريخ مصر القديمة، جريمال، مرجع سابق، ص ٤٥٨- ٤٥٩

(١٤٤)- مزيد عن صنوف المستوطنات الأجنبية في مصر في ذلك العصر انظر: الأجانب في مصر في الألفية الأولى قبل الميلاد، جونتر فيتمان، مرجع سابق

(١٤٥)- قصيدة غربة وحنين "السينية"، للشاعر أحمد شوقي

كلمة دخيلة على اللغة العربية واللغات السامية عموما، و ترجع إلى كلمة "أرسكر" أو "أرسكور"، أحد الأسماء الكارية، خاصة مع شيوع كلمة كاري كمرادف للجندي المرتزق في الزمن القديم، وهي الكلمة التي رجح كذلك أنه جاء منها اسم فارسكور في دمياط، خاصة وأن هذه المنطقة أشار هيرودوت إلى أن بسماتيك أقام مستوطنة للكاريين فيها(١٤٦).

وربما ورثت القبايل التركية منهم كلمة "عسكر"، خاصة أن حرفة المرتزقة هي مهنتها أيضا منذ كانت في بطون جبال وسط آسيا وحتى غزوها الأناضول "تركيا حاليا"- نفس موطن الكاريين- وظلت كلمة عسكر ملتصقة بالمرتزقة الترك ثم جيشهم العثمانلي الذي يطلق على نفسه كلمة "عسكر" حرفيا حتى اليوم، فيما استخدمت اللغة العربية كلمة "الجند"، و"الأجناد"، أما الكلمة المصرية القديمة للجيش فهي "مشع"(١٤٧)، وعلى هذا يصح حذف كلمة "عسكر وعسكرية" من قاموس الجيش المصري لأنها لا تليق به، وأن يعتمد كلمة تليق.

٤- ظهور الوكالات الأجنبية "الشركات متعددة الجنسيات"

وإن كان الاستيطان الإغريقي أصبح ظاهرة في الأسرة ٢٦ بالمرتزقة، إلا أنه كان له بذرة مُرَّة هي التي فتحت باب مصر للمرتزقة، وهي أن الإغريق، وخاصة من أهل "ملاطية" انتشروا في الدلتا من أيام القرن الثامن ق. م، أي قبل الأسرة ٢٦ بقليل، حين أخذوا يمدون أنوفهم إلى مصر للغرف من خيراتها الوفيرة خلال الهجرات الإغريقية التي وزعت نفسها على بلاد حوض البحر المتوسط، ونزلوا على المدن الواقعة على ساحل البحر قرب أبو قير، وتمددوا بالتجارة إلى سايس في محافظة الغربية حتى اتخذوا فيها سوقا(١٤٨) أغروا فيه بعض أهل الغنى ببضايعهم الغريبة وأساليبهم في جني الربح السريع، ومن السلع التي روجوا لها فيما يبدو المرتزقة من قومهم؛ كما كان الجلَّابون يجلبون المماليك في عصور لاحقة، مع ما لهذا من أهمية في إشعار هؤلاء المهاجرين بالقوة حين يصبح قومهم أصحاب السلاح في مصر.

ويبدو أن التجار الإغريق وقتها لم يلفتوا النظر لخطرهم بقلة عددهم ولرضاهم بالقليل، فأخذوا فرصة الانتشار حتى اغتنوا بالكثير وتبادلوا المنافع مع الحكام، وتسلموا مقاليد الحرب والاقتصاد، بتعبير عبد العزيز صالح(١٤٩)، وشجع التجار من كل الأجناس في مصر شراهة الاستهلاك لسلع غير ضرورية يستوردها محتلوها في مقابل تصدير السلع الحيوية للشعب، وأسسوا وكالات أجنبية لإدارة التجارة عبر المدن والمواني الساحلية، وهي الشكل الأول لما يُعرف حاليا باسم الشركات المتعددة الجنسيات، والمناطق التجارية والصناعية الأجنبية.

وبحسب جريمال، قامت العلاقات الدبلوماسية بين مصر واليونان- عبر المرتزقة والتجار الإغريق- على أسس اقتصادية راسخة، فصدرت مصر الغلال وورق البردي وأدخلت إليها اليونان أولى الوكالات

---

(١٤٦)- انظر تعليق عبد الجواد مجاهد في هوامش "الأجانب في مصر في الألفية الأولى قبل الميلاد"، ص ٢١٠

(١٤٧)- Alan Gardiner, Egyptian grammar, 3 edition, Griffith institute Ashmolean museum, Oxford, 207

(١٤٨)- انظر مقدمة أحمد بدوي لكتاب "هيردوت يتحدث عن مصر"، مرجع سابق، هامش ص ٤٢

(١٤٩)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ٢٨١

التجارية الدولية مع قدوم المليتيين الذين استقروا عند مصب الفرع البولبيتي للنيل(١٥٠).

وحين تنغرس أقدام هذا النوع من الشركات والتجارة في بلد فإن المال هو سيدها ومحركها، لا يهمها ما تحتاجه حقا البلد من سلع، ولا يوجد عندها قيمة اسمها "الصالح العام"، أو "صالح الشعب"، التي لا تهتم بها إلا الحكومات الوطنية؛ ولذا ففي ذلك الزمن كانت المرة الأولى التي يتم فيها تصدير البردي بكثافة رغم أنه سلعة استراتيجية في مصر، وهي الوحيدة التي تنتجه في العالم؛ ما أدى إلى ارتفاع أسعاره، وصعوبة وصوله إلى أيدي المصريين، وهذا بعد أن تم تصدير القمح بكثافة إلى اليونان لاستيراد كميات ضخمة من الفضة وتحويلها لعملة.

فالاستعانة بالمرتزقة بهذه الأعداد تحميل شديد على الميزانية وعلى الشعب المصري، لأن أجورهم باهظة، ونظام العملة انتشر في العالم، والمرتزقة يأخذون مرتباتهم بالعملة، فصدَّرت الحكومة القمح إلى اليونان لتأخذ محله الفضة وتقدمها عملة للمرتزقة(١٥١)، وهكذا انتفعت اليونان بأن تخلصت من المشاغبين والمتصارعين فيها باستيطانهم في مصر، وبإرسال آخرين كمرتزقة، وبالحصول على القمح المصري مقابل تصدير الفضة لتتحول إلى عملة يقبضها المرتزقة اليونان في مصر... دايرة مغلقة المنافع لليونان.

رغم ذلك فضَّل بسماتيك والأسرة الصاوية عموما (نسبة إلى اتخاذها مدينة صا الحجر "سايس" عاصمة لها) الاستعانة بهؤلاء المرتزقة عن أن يستعينوا بالمصريين؛ خوفا من أن يطردوهم في يوم من الأيام نظرا لأصولهم الأجنبية التي ظلوا يرعونها، وظل المصريون يذكرونها لهم.

وكما أقام الجنود المرتزقة في دمياط وفي منف، خصص حكام مصر مدينة نقراطيس (نقراش حاليا بالبحيرة) شمال غرب الدلتا مركزا لإقامة التجار الإغريق، أي صار في مصر مستوطنات تجارية مغلقة على المستوطنين الأجانب، بعدما صار فيها مستوطنات للمقاتلين المرتزقة.

❺ انتشار الربا في مصر لأول مرة

وإلى جانب هذا النوع الجديد من التجارة، أدخل المستوطنون الأجانب إلى مصر، لأول مرة، نظام الربا، بما يعكسه من معاني انعدام الرحمة والتكافل بين الناس، وبما فيه من دوامة استنزاف تعصر الناس عصرا.

وبدا أن الربا وصل لمصر مع ما وصلها من استيطان إغريقي ويهودي وغزو فارسي بشكل خاص، وذلك أن بنوك الربا والرهونات ظهرت في بلاد النهرين (العراق)، قبل ظهورها في مصر، واتخذ اليهود في بابل حين لجأوا بعد الأسر البابلي من نظام إقراض المزارعين والملاك أسرع وسيلة للتربح، بل وللسيطرة على الاقتصاد البابلي، وقيل إن إفقار الملاك والمزارعين وجمع الفضة والأموال في يد المستوطنين اليهود متفق عليه مع

---

(١٥٠)- انظر: تاريخ مصر القديمة، جريمال، مرجع سابق، ص ٤٥٩

*** هذه الوكالات ستستمر في التحكم في الصادر والوارد في السوق المصري وملك للمحتلين حتى تتمصر لأول مرة في التاريخ سنة ١٩٥٧ بقرار من ثورة ٢٣ يوليو بعد ثبوت إضرارها بالاقتصاد المصري واحترافها تهريب الأموال كما سنرى في الجزء الثاني.

(١٥١)- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، مصطفى عبادي، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٩- ١٣

الفرس الإخمينيين للانتقام اليهودي من بابل من ناحية، ولإضعافها لصالح سقوطها في الغزو الفارسي من ناحية، وبدأت الفوائد البنكية في عهد الملك نبوخذ نصر الثاني بنسبة ١٠- ٢٠%، وبعد التمكين وصلت إلى ٧٠%، وظهرت الرهونات التي يستحوذ بها اليهود على الأراضي والعقارات في حال عجز صاحب الرهن عن السداد، وعقب احتلال الفرس لبابل اشتركوا مع اليهود في نظام البنوك الربوية لاستنزاف الشعوب التي يحتلونها، واشتهر منها بنك بيت عائلة أجيبي وبنك عائلة موراشو(١٥٢).

وانتقلت هذه المعاملات مع اليهود والإغريق إلى مصر، وانتعشت بعد الغزو الفارسي حتى الروماني، ويمكن التأريخ بها- إضافة للجزية والضرايب الضخمة واحتكار المحتلين والمستوطنين تملك الأرض- للإفقار الجذري للمصريين الذي سيصل إلى أقصى مداه في القرن ١٩، حتى أنك حين تنظر إلى المصريين الحقيقيين وقتها تظنهم جميعهم أقل من العبيد في ملبسهم ومسكنهم ومأكلهم واستغلال المستوطنين لهم في السُخرة التي تفترسهم افتراسا.

6 تصفية الديانة المصرية

وعن استمرار التأثير المخرب للأغراب على دين مصر فقد بالغوا في الاهتمام بقشوره وتقديس الحيوانات، فاغتالوا روحه، وتركوه في شكل الخرافات التي تتندر بها الرحالة والمؤرخون لاحقا.

وفي ذلك يقول صالح: "كعادة الحكام ذوي الأصل الخليط، أظهر ملوك العصر اهتمامًا مفرطًا بالدين ومعابده، بل وبسخافات لم يكن لها من قبل غير ظلال خفيفة، ومنها شدة اهتمامهم بعجول المعبود حاب "أبيس" ودفنها فيما عرف باسم سيرابيوم سقارة، وسمحوا بتشييد مبان جديدة في المعابد لإله الدولة آمون شأنهم شأن سابقيهم، ولو أنها لم تبلغ في روائها وفخامتها ما بلغته معابد الدولة الحديثة(١٥٣)".

وبحسب أستاذ المصريات آلان جاردنر فإن تفشي عبادة الحيوانات وقتها خلق ظاهرة أخرى هي أنه "كانت الأقاليم المتجاورة تحارب بعضها بعضا دفاعا عن حيوانها المفضل المرموق"(١٥٤)، وهو ما يمكن وصفه بتفشي الفتن الطائفية والدينية بتشجيع من الكهنة الأجانب بشكل لم تعتده مصر.

كما لفت إلى أن حكام وكهنة الأسرة ٢٢ توارثوا- حتى من قبل أن يسقط عرش مصر في أيديهم- بعض المعابد ومهنة الكهانة بأعلى مراتبها في أهناسيا غرب بني سويف وفي مدينة بالوجه القبلي، ومنهم عيلة شاشنق، مستشهدا بنصوص تحمل أسماء أشخاص أجانب مثل حاربسون ونمرات (نمرود) وبكن بتاح يحملون فيها الألقاب الكهنوتية، وبعضهم يحمل بجانبها ألقاب "رئيس الجيش كله"، و"الرئيس الأكبر للأجانب" توارثوها من عدة أجيال سابقة، هذا بخلاف تولي أسرة شاشنق وغيرها بعد أخذهم عرش مصر منصب رئيس كهنة آمون في معابد الكرنك نفسها- أعلى سلطة دينية في البلاد- متوقعا أن هؤلاء هم ذرية

(١٥٢)- مختصر تاريخ العراق، علي شحيلات وعبد العزيز إلياس الحمداني، ج٥، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٢، ص ٧٩- ٨٣
(١٥٣)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٦٣
(١٥٤)- مصر الفراعنة، آلان جاردنر، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣، ص ٣٨٨

أسرى الحرب والقبايل التي استوطنت البلاد في زمني مرنتباح ورمسيس الثالث[١٥٥].

ولا يخفى ما يمكن أن تكون هذه الأيادي البربرية الجاهلة بالدين المصري قد خرَّبته فيه عن قصد أو غير قصد، وما أفرغته فيه من عقائدها القبلية وروحها القاسية، وتوظيفها إياه لخدمة مصالحها، ومحاربة أي مقاومة مصرية.

كذلك خلط الملوك الأجانب بين منصبهم السياسي وبين المنصب الديني بأن أصبح أحيانا الملك هو أيضا رئيس كهنة آمون، وهذه مخالفة صريحة لنظام الحكم في مصر، وفي نفس الوقت كثرت- بحسب جاردنر- ظاهرة اللجوء إلى المعبد لاستشارة "الوحي" في الأمور الدنيوية للناس والحكومة، وتعيين كبار الموظفين، والفصل بين المتخاصمين [كأنه لا يوجد دولة من أساسه] وذلك بأن يسأل الكاهن الأكبر تمثال الإله ثم يأخذ "الوحي" منه ويجيب بها السائلين[١٥٦]، وهي وسيلة سهلة لاتخاذ قرارات سياسية حساسة تعجز أمامها المعارضة الشعبية.

وعلى حس هذا التفشي لفكرة "الوحي" و"التنبوءات"، ربما قام معبد آمّون الشهيرة في واحة سيوة، التي يرى فيتمان وآخرون أنه كان تحت سيطرة قبايل أجنبية جاءت من خلف الحدود الغربية، وأصبح له سمعة عالمية، حتى زاره فيما بعد الإسكندر الأكبر ليدله "الوحي" على من هو أبيه[١٥٧].. وما أوسعه من مصدر رزق للقائمين عليه، فكان يُدار بعقلية العرَّافين لا أصحاب دين راسخ.

وسعت الأسرة ٢٢ إلى القيام بأعمال تدعم حكمها وملكها وما تأمله من "شرعية" عند أهالي البلاد، فجردت حملات عسكرية إلى فلسطين، وتوددت إلى آمون بمشروعات إنشائية في معابد الكرنك، وأحيت الروابط التجارية مع جبيل باعتبارها المنفذ التقليدي لتجارة مصر[١٥٨].

ورغم ذلك، حصلت انتفاضات في واسط (طيبة) ضد حكم شاشنق في الأسرة ٢٢ كما قامت ضد الأسرة ٢١، ولكن جاء رد فعل حكام الأسرة ٢٢ على ثورات طيبة أعنف، فخلال الثورات التي اشتعلت في عهدي "وسركون" الكاهن الأكبر وشاشنق الثالث اشتدوا في إخمادها حتى ألقوا بعض زعمائها في النار[١٥٩].

▼▼▼الاحتلال الكوشي (٧٤٧- ٦٥٦ ق. م)

(تاريخ مصر مع كوش)

هذا الاحتلال تصفه كتب علماء المصريات أحيانا بالاحتلال الكوشي وأحيانا بالاحتلال الأثيوبي وأحيانا

(١٥٥)- نفس المرجع، ص ٣٥٥- ٣٥٩

(١٥٦)- انظر: نفس المرجع، ص ٣٥٣

(١٥٧)- مصر والأجانب في الألفية الأولى قبل الميلاد، فيتمان، مرجع سابق، ٤٥- ٤٦

(١٥٨)- انظر: تاريخ مصر القديمة، جريمال، مرجع سابق، ص ٤١٨- ٤١٩

(١٥٩)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، د. عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ٢٦٣، وبلاد النوبة: تاريخها وآثارها، د. عبد المنعم أبو بكر، المجلة، س٣، ع٢٨، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٢٤

بالنوبي، وهو خلط واضح لا يراعي الفروق بين هذه المسميات والمناطق التي تحملها قديما وحاليا.

وكلمة كوش تشير في النصوص المصرية إلى ما بعد الشلال الثاني (بعد وادي حلفا) باتجاه الجنوب، إلى ما وراء ذلك من بلاد الزنج، ولا تضم النوبة التي نعرفها في مصر التي أسماها الأجداد "واوات" و"تاستي"، بحسب عبد العزيز صالح، وعبد المنعم أبو بكر، ولم يظهر اسم "النوبة" إلا بعد الاحتلال البطلمي، وبمفهوم مختلف يخلط بين ما يخص مصر وما يخص كوش[١٦٠].

وفي أزمنة الحكم المصري الخالصة مرت العلاقات بين كوش وبين مصر بفترات من نار وأخرى من سلام، وأبعد إشارات إليها هي محاولات الغزو الدائمة من القبايل الكوشية للحدود المصرية الجنوبية، وهو ما جعل حكام الأسرة ١٢ مثلا يجردون إليها الحملات لتأديبها وردعها، حتى أقاموا حصون سمنة عند الشلال الثاني، وحرَّموا على الكوشيين دخول مصر إلا للتجارة في سوق أسوان ثم العودة لبلادهم.

كذلك تاجرت مصر مع بلاد أفريقيا الشرقية، خصوصا "بونت" بداية من الدولة القديمة كما هو معروف عن الرحلات التجارية أيام الملك ساحو رع وصورها على جدران معبده في أبو صير في الأسرة ٥، ثم صورتها حتشبسوت على معبدها "الدير البحري" بالأقصر في الأسرة ١٨، وإن كانت معظم الرحلات إلى هناك تتم عبر البحر الأحمر[١٦١]، وليس التوغل برا داخل أفريقيا لتجنب هجمات قبايلها.

وحين وصلت عداوة كوش منتهاها بتحالفها مع الهكسوس ضد مصر في محنة الاحتلال غزتها مصر وحكمتها حوالي ٥٠٠ سنة بداية من عصر الأسرة ١٨، فتشربت كوش من ثقافة مصر حتى في العبادة والعمارة والملابس، وأقامت مصر هناك معابد لآمون، منها معبد الصلب أيام أمنحتب الثالث.

وحين اشتد الصراع على النفوذ بين أمراء الحكام الخاسوتيين في الأسرة ٢٤ وتوزعت مصر بينهم إلى مناطق نفوذ وإمارات (٤ إمارات) على رأس كل منها حاكم مستقل، لا جيش واحد ولا حكومة واحدة ولا قلب واحد، فتعطلت وسائل الري، وانعدم الأمن في الطرق حتى أصبح الناس لا يأمنون على حياتهم حين ينتقلون من مدينة إلى مدينة[١٦٢]، فتجرأت كوش على احتلال مصر واجتاحها حكام نباتا- عاصمة كوش- معتبرين أنهم "أحق" بمصر من الغزاة الخليط القادمين من ثقافات وبيئات بعيدة، لأنهم- أي الكوشيين- كانوا تحت الحكم المصري والأقرب لثقافته، ولأنهم يقدسون آمون، وقاد "بي عنخي" الكوشي الغزو في القرن ٨ ق. م.

وانتصر "بي عنخي" على خصومه، وأعلن نفسه ملكا لمصر، وأسس الأسرة ٢٥، ولأسباب غامضة أبقى على أمراء الحكم الخاسوتيِّمي السابق في أماكنهم، فاستمرت الأسرة ٢٤ بالتزامن مع الأسرة ٢٥، وبذلك صارت مصر محتلة احتلالا مركبا لأول مرة.

ورغم استمرار الاحتلال الكوشي ٩٠ سنة، إلا أنه لم يترك أثرا أو نتايج تُذكر، وظل الحاكم الكوشي في

---

[١٦٠]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ١٧٦

[١٦١]- انظر: نفس المرجع، ص ١٢٧ و٢٠٧

[١٦٢]- انظر: هيردوت يتحدث عن مصر، مرجع سابق، مقدمة أحمد بدوي، هامش ص ٣٩

عاصمته نباتا، وترك الأمور للمحتلين السابقين له يحكمون باسمه، وانعكس التأثير الأكبر لثقافة مصر على الكوشيين، خصوصا في الرسوم والنقوش، ورسم حكامهم متزيين بالزي والتاج المصري، وبناءهم أهرام حضارة مروي في شمال السودان على نمط مقابر كبار رجال الدولة المصرية الهرمية الصغيرة المبنية في الأسرة ١٨ في واسط (طيبة)[١٦٣].

وفي ذات الوقت كان نجم آشور يصعد في بلاد النهرين، ووصلت بفتوحاتها إلى فلسطين، واستنجدت فلسطين بحكام الأسرة ٢٤ والأسرة ٢٥ الذين قدموا لها المدد، وفتحوا أبواب مصر للاجئين الفلسطينيين الفارين من الغزو الآشوري، وساعدوا حاكم غزة اللاجئ في مصر ضد آشور، وذلك دون أن يقدر هؤلاء الحكام العواقب، أو يلتفتوا إلى عنفوان آشور[١٦٤] بتعبير صالح.

▼▼▼ الاحتلال الآشوري

ورأى حكام آشور أن مصر بذلك صارت خطرا عليهم بدعم حكامها لأمراء الشام ضدهم، فقادوا حملات لغزو مصر في زمن الحكام الآشوريين سرجون وسنحريب وأسرحدون، فشلت كلها عدا غزوة أسرحدون ٦٧١ ق.م، خاصة بعد أن أنقذته من عطش الصحاري جماعة من البدو حملوا له الماء فوق الجمال وعملوا أدلاء لجيشه داخل سيناء، وعبر فيها على طريق حور (حورس) الحربي العظيم إلى داخل الوادي، هذا الطريق الذي ظلَّ طوال عصور الحرية طريقا باتجاه واحد، من مصر إلى الشرق، تسير عليه حملات مصر لردع خصومها في الشام، وحين سقط الصولجان من يد مصر وانزوت ماعت غاضبة من إهمالها تحول الطريق إلى مسار عكسي، من الشرق إلى مصر، فانتهكته جيوش آشور لاحتلال مصر ثم جيوش الفرس فاليونان فالعرب والأيوبيين والعثمانلية.

وهزم جيش آشور قوات طهرقا الكوشي، ونهب منف، وأسر ولي العهد وعددا من أفراد البيت الكوشي، وهنا انضمت قبايل خاسوتيمية إلى آشور ضد طهرقا للتخلص من الكوشيين، ولكن اندارت آشور ضد هؤلاء الحكام بعد أن تحسست أنهم عادوا للتحالف مع طهرقا، ويتفاوضون معه ضدها، فقتلتهم جميعا، عدا أمير واحد اسمه نكاو حاكم سايس (في محافظة الغربية)، والذي سيؤسس الأسرة ٢٦[١٦٥].

(تاريخ آشور مع مصر)

تقع آشور في شمال العراق الحالية، وذكرتها النصوص المصرية لأول مرة في عهد تحوتمس الثالث باسم "إسور"، بأن أميرها أهدى إليه كمية من اللازورد الحر وأحجارا كريمة[١٦٦] ضمن المتقربين من مصر باعتبارها الدولة الأقوى في العالم القديم وقتها، ثم ظهرت حين أرادت أن تحظى بصفة مملكة عظيمة بين الدول في الزمن المعاصر لإخناتون، وتطلع ملكها آشور- أوباليط حوله ليتواصل دبلوماسيا مع الدول

---

(١٦٣)- للمزيد أنظر: الأهرامات المصرية، أحمد فخري، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٣٤٦- ٣٥٠

(١٦٤)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٦٧- ٢٦٨

(١٦٥)- انظر: تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٤٥١- ٤٥٢، والشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ٢٧١

(١٦٦)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٤٩٦

الكبرى المحيطة ليعترفوا بأن بلده أصبحت كيان دولي معترف به، فكتب إلى إخناتون يقول: "بالرغم من أنه لم يسبق لأحد من أسلافي الكتابة إلى ملك مصر، ها أنذا أكتب إليك اليوم، وأرسل إليك رسولي لزيارتك وزيارة بلدك، وأبعث إليك أيضا كهدية عربة رائعة وجوادين وشجرة نخيل من اللازورد النقي".

ولم يطلب أن ترد له مصر الهدايا بهدايا أخرى كما هي عادة الحكام العظام مع بعضهم في ذلك الوقت؛ ما يعني إحساسه بأنه أقل من أن يطلب من حاكم مصر أن يرد له الهدية، وأن رسالته هي جس نبض لموقف مصر منه، بحسب تحليل تريفور برايس في عرضه للرسائل المتبادلة بينهما.

تبادل إخناتون معه المراسلات، ولما اعترف به ملكا هاما، تجرأ ملك آشور وصار يتحدث مع أحد خلفاء إخناتون، ومرجح أنه توت عنخ آمون، الند بالند، مستغلا ربما التراجع الذي ضرب مصر بعد أزمة دعوة إخناتون؛ فيقول: "يمكن لأي أمرئ في بلدكم أن يلتقط الذهب كما يلتقط التراب، وتحصلون عليه بكل سهولة، لماذا تشح في وهبه؟، أنا أشيد الآن قصرا جديدا، أرسل إلي بقدر ما تستطيع من ذهب حتى يصبح القصر لائقا".[١٦٧]

وبالتزامن مع اختفاء الجيش المصري ومجيء الاحتلال الخاسوتيمي والكوشي، فردت آشور قلوعها لاحتلال ما حولها، وتحقق لها احتلال الشام ثم مصر بعد جولات مع مصر وقتها من الهزيمة والنصر.

وآشور من الاحتلالات القليلة التي لم ترسل جالية كبيرة لتعينها في احتلال مصر، لكنها اعتمدت أكثر على المستوطنين الأجانب السابقين لها، ولهذا ربما لم تتمكن قبضتها طويلا من مصر، وكانت من أقصر الاحتلالات، ولم تترك تقيحات ثقافية وبشرية تدل على وجودها طويلا.

▼▼▼ نتائج الاحتلال الآشوري

❶ حكم مصر من خارجها لأول مرة

بالاحتلال الآشوري حُكِمت مصر لأول مرة من خارج حدودها، فالهكسوس وقبايل شعوب البحر حكموها من الداخل؛ ولهذا تبعاته، منها أن حجم النهب المنظم والضرائب سيكون أفظع عشرات المرات لنقل أكبر حجم من ثروة البلد للخارج، وهذه أيضا أول مرة يجري نقل ثروة مصر للخارج، إلا إذا كان المحتل الهكسوسي يرسل منها نصيبا للقبايل التابعة له في الشام والمحتل الخاسوتيمي يرسل منها إلى القبايل التابعة له عند الحدود الغربية.

❷ إحراق واسط (طيبة).. وانتهاك قدسية معابدها لأول مرة

وأفظع ما فعلته آشور في مصر، هو ما لم يجرؤ احتلال فيما سبق على فعله، أن ملكها آشور بانيبال أرسل

---

(١٦٧)- رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم، تريفور برايس، ترجمة رفعت السيد علي، دار العلوم للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٣٧- ١٣٨

جيوشا جديدة سنة ٦٦٤ ق.م لإخماد الثورة المشتعلة ضد الاحتلال الآشوري، واجتاحوا واسط (طيبة)، العاصمة المطهرة والمقدسة التي ظلت مصانة من أي هجمات أجنبية على معابدها، فسلبها الغزاة، ونهبوها وأشعلوا النيران فيها، وعاثوا فسادا، وسطوا على الكنوز التي تراكمت وحفظها الناس في المعابد على امتداد قرون طويلة بدافع من الورع والتقوى[١٦٨]، وهذا هو أسلوب آشور المشهور مع الجميع.

ويعد نهب طيبة "نذير بانتهاء عالم بأسره، فقد انهارت أسطورة حرمة معابد مصر تحت ضربات معاول عالم شرقي همجي شرع يبث الرعب والخوف في قلوب سائر الشعوب الساكنة في المنطقة الممتدة من آسيا الصغرى حتى ضفاف نهر النيل"[١٦٩]، بتعبير جريمال.

وصار لسقوط (واسط) طيبة على هذا النحو دويه في العالم كله.

وعبَّر النبي اليهودي ناحوم عن هول صدمة العالم بسقوط طيبة حين قال وهو ينذر نينوى عاصمة آشور بأنها لن تكون أعز من "نو آمون"، أي طيبة، المستقرة بين الأنهار، تحميها المياه، البحر حصنها، ويسورها البحر، ويدافع عنها المصريون الذين لا حصر لهم والكوشيون والقوط والليبيون، ومع ذلك دمرت وسبيت، وسحق أطفالها عند منعطفات الشوارع، وألقوا القرعة على أشرافها وقيد عظماؤها بالأغلال[١٧٠].

❸ نهب ونقل آثار مصر للخارج لأول مرة

روت المتون الآشورية على لسان ملكها آشوربانيبال في حملته على مصر: "غنمت من طيبة غنائم تجل عن الحصر، ونزعت مسلتين ضخمتين من قواعدهما، وكانا مغشيتين بالبرونز المذهب، وتبلغ زنة كل منهما ٢٥٠٠ تالنت، وأمرت بنقلهما إلى آشور"، وتحدث متن آخر عن أنه سجل انتصاراته وانتصارات أبيه على ٥٥ تمثالًا من تماثيل الملوك المصريين، وربما أمر بنقل بعضها أيضًا إلى آشور[١٧١]، وهذا أول حديث عن نهب ونقل مسلات مصر وتماثيل حكامها إلى الخارج.

❹ تغيير أسامي المدن المصرية لأول مرة

واستهزاءً بالدين المصري وهوية غيرهم من الحضارات غيَّر الآشوريون أسماء مدن مصرية إلى أسماء معبودات آشورية مثل: آشور، وسين، ومردوك، وعشتار، وصوروا طهرقا الملك الكوشي على مصر حينها جاثيًا أمام ملك آشور مخزومًا من أنفه بحبل يرجو عفوه على نصب أقاموها في أنحاء دولتهم، مع أن طهرقا لم يقع في قبضة ملك آشور إطلاقًا ولم يهادنه[١٧٢].

❺ تهجير المصريين من بلادهم غصبًا لأول مرة

---

(١٦٨)- تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، ٤٥٧

(١٦٩)- انظر: نفس المرجع، ص ٤٥٥- ٤٥٦

(١٧٠)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، طبعة ١٩٧٣، ص ٢٧٣- ٢٧٤، و طبعة ١٩٨٠، ص ٢٩٤

(١٧١)- المرجع السابق، ص ٢٧٤

(١٧٢)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٧١- ٢٧٢

ولم يكتف ملك آشور بما غنمه من كنوز مصر "مما لا مثيل له في آشور ومما أبدعت صناعته" على حد قوله هو نفسه، وإنما طمع في أن يجعل مهارة المصريين طوع يمينه في آشور نفسها، فأمر بترحيل جماعات من الأطباء والبيطريين والصاغة والكتبة والموسيقيين، بل ومن صانعي النعال وصانعي الجعة (البوظا المصرية) والخبازين ومن لف لفهم إلى عاصمته، وكأنما وجد في مهارتهم كنزًا لا تقل قيمته عن كنوز القصر الملكي، أو رأى في إبعادهم عن مصر حرمانًا لها من أدوات حضارتها التي تميزت بها على عالمها القديم(١٧٣).

وهذه أول مرة يتم فيها نهب المعين الحضاري لمصر ممثلا في فنانيها وصناعها إلى خارج البلاد وتخريب صناعات مصر، وهو ما سيتكرر فيما بعد في الاحتلالات الفارسية والعربية والعثمانلية.

❻ تدوير المذابح ونشر بحر الدماء في أنحاء مصر

أمام هذا كله تفجرت ثورات مصرية ضد الاحتلال الآشوري، وقع عبء مواجهتها على الملك الآشوري الجديد آشوربانيبال، فعبر عن غيظه بقوله: "وصل رسول سريع إلى نينوى وأبلغني النبأ فغضبت جدًّا لهذه الأحداث واشتعلت نفسي ورفعت كفي إلى آشور وإشتار (عشتار)".

فخرج بجيشه، وأجبر عددًا من أمراء الفرات والشام وفلسطين على مصاحبته بقواتهم، وكانوا كما قال ٢٢ ملكًا، استعان بخبرتهم الملاحية وهاجم مصر من البر والبحر، وتلاقى بقواته مع جيوش طهرقا في معركة وصفتها نصوص آشور بأنها معركة مكشوفة رهيبة، أحرز ملكهم النصر فيها(١٧٤).

لكن بعد فترة عادت الثورة من جديد، فأعمل الجيش الآشوري السيف في المدن المصرية، ولم يستثنوا واحدًا من حكام تانيس والمدن التي تعاهدت على الثورة، فشنقوهم على السرايا، وسلخوا جلودهم وغطوا بها أسوار المدن، وأرسلوا زعماء الثورة إلى نينوى حيث أهلكوا جميعًا(١٧٥) وهو ما يدل على بشاعة لا يحدها وصف من أساليب التعامل والحرب الوحشية التي اشتهرت بها آشور كأحد أسلحتها لإرهاب الخصوم.

وعند وفاة "نكاو"، اعترف الآشوريون بابنه بسماتيك الأول، وعهدوا إليه بإدارة البلد التي يجهلون لغتها وعاداتها وتقاليدها، وتفصل بينها وبين آشور مساحات شاسعة، شريطة أن يحول دون حدوث ثورة ضدهم، واستغل بسماتيك هذه الفرصة في التغلب على خصومه من أبناء القبايل الخاسوتيمية المنافسة له في أتريب وأون (عين شمس) وفي غرب الدلتا وأهناسيا وغيرهم، حتى سيطر على طيبة ذاتها، وهكذا جمع شتات الحكم السياسي والعسكري في يد حاكم واحد لأول مرة منذ فترة طويل بعد طول انقسامات(١٧٦).

---

(١٧٣)- انظر: نفس المرجع

(١٧٤)- انظر الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٧٣

(١٧٥)- انظر نفس المرجع، ص ٢٧٢- ٢٧٣

(١٧٦)- تاريخ مصر القديمة، جريمال، مرجع سابق، ص ٤٥٨

كما ساعده انشغال آشور في صراعها مع عيلام (في إيران)[١٧٧] في أن يستعين بالمرتزقة من الإغريق، وكانت تجارة المرتزقة في ذلك العصر رائجة لكثرة الحروب، والإغريق يتربعون على عرشها، فأغرق الجيش بهم، واستبعد الكثير من خصومه، فصار الجيش في معظمه من المرتزقة لأول مرة، إلى جانب بعض أبناء القبايل التي احتكرته طويلا بعد أن أبعدت معظم المصريين.

❼ تغير مفهوم النهضة المصرية "وحم مسوت"

طال عهد بسماتيك أكثر من ٤٠ سنة، وبعد التحرر من الآشوريين، استعاد وحدة البلاد- في الإدارة- لأول مرة منذ عهد الأسرة ٢١، وللحفاظ على هذه الوحدة، ومع انتماء القبايل الخاسوتية التي هو منها لأعراق مختلفة، وكذلك المرتزقة الذين استعان بهم، لم يجد غير الحضارة المصرية ليجعل منها مظلة تدعم تلك الوحدة، وتقدمه في ثوب هيبة حكام مصر الأصليين.

وكان المعتاد في عصور الحرية المصرية أنه حين تقوم مصر من محنة، مثل "إزفت" الأولى نهاية الدولة القديمة أو "إزفت" الثانية بالاحتلال الهكسوسي نهاية الدولة الوسطى أن تتمخض عن هذه المحنة تجديد للولادة "وحم مسوت" لدورة حضارية مصرية جديدة تعلن للعالم أن مصر ما زالت تعطي وتقود، وتشمل هذه الولادة إحياء جذور الدورات الحضارية السابقة وأصول حضارة مصر من ناحية، ومن ناحية ثانية تتدفق عروق المصريين بالثقة بعد هزيمتهم للشر بإنجازات جديدة وأفكار إبداعية تظهر في إضافة ألوان جديدة مصرية للعمارة والفنون والأدب واللغة والفكر الديني والزراعة والصناعة وحتى في موضة الملابس والزينة والأثاث، إلخ.

أما في عهد الأسرة ٢٦ بعد عبور محنة الاحتلال الآشوري فكانت "النهضة" مجرد ردة للقديم، كأنها صدى صوت له، مرآة ينعكس فيها شبح الماضي العريق، فانتشر إحياء الفنون القديمة بأسلوب التقليد الجامد، خاصة في النحت والنقش، والإشادة بالقومية المصرية والاهتمام باللغة[١٧٨] على طريقة تقليد المصريين في الدولة القديمة الوسطى باعتبارها تعكس "صفاء الأصول الأولى" ونقاءها قبل تغلغل التأثيرات الآسيوية التي حملتها لمصر رياح الإمبراطورية في الدولة الحديثة[١٧٩].

ولكنها محاولة بلا عصب وبلا روح، فالحرية لم تعد لمصر كاملة، والثقة منقوصة، والمصري ما زال محبطا يتجرع مرارة استبعاده من مؤسسات بلده وإدارتها ورؤيته أراضيها تتوزع على المرتزقة، بل ما انزاح الآشوريون والكوشيون حتى غرقت البلاد في يد المستوطنين الإغريق؛ فانعكس الضيق من سيطرة الأجانب القدامى والجدد على الأعمال الفنية، فبدت- رغم جودة التقليد- كأنها "مجرد أداء واجب"، خالية من الإبداع والتجديد والحيوية الذين كانوا يصاحبون الفن المصري مع كل فترة نهوض، فيما يفسر باحثون عملية "نسخ الفن القديم حرفيا" بأنها إحساس غريزي من الفنانين بالتشبث بكل كيانهم بملامح القومية

---

(١٧٧)- منذ ذلك الزمان لم ينقطع الصراع بين المنطقتين اللتين عُرفتا فيما بعد باسم إيران والعراق حتى الآن، ودائما كان له انعكاساته على مصر بالسلب أو الإيجاب، على حسب وعي حكامها بخلفيات الصراع الدولي.
(١٧٨)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، ص ٢٧٧
(١٧٩)- انظر: تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، جريمال، ص ٤٥٩- ٤٦٠

المصرية والهوية التي بدأت تنفلت من أيديهم ويهددها التشويه الأجنبي لكثرة الإغريق واليهود والكاريين والسوريين- إضافة للحاكمين الأجانب- بملابسهم وأساميهم وملامحهم وعاداتهم وفظاظتهم ولغاتهم الغريبة على مصر.

وأمثلة على هذا نقل مناظر حملة القرابين من المقابر المصرية القديمة إلى المقابر الجديدة، وفقرات من نصوص الأهرام، ونحت التماثيل على نظام تماثيل الكتبة المصرية القديمة، ونقشوا ملابس الأشخاص على الجدران بنفس موضتها القديمة حرفيا.(١٨٠)

أما لغة الحياة اليومية فأصابها التغيير؛ فظهر ما وصف بالخط الشعبي "الديموطيقي" وهو اختصار للخط الهيراطيقي، ليتناسب مع سرعة إيقاع الحياة وكثرة المعاملات(١٨١) التي تسبب فيها كثرة الحركة التجارية الأجنبية في البلد، وأفسد هذا الخط جمال الخط المصري ورونقه، وإن كان فيه ميزة وهي أن الكتابة تتم كما تُنطق الكلمات تماما، بعد أن اعتادت الكتابة المصرية على إسقاط الضم والفتح والكسر.

8 تربية العقارب السود (اليهود والإغريق)

بعد ما توفى بسماتيك خلفه ابنه نيكاو الثاني الذي واصل حملات أبيه في الشام ٦٠٨ ق.م، خاصة مع تصاعد خطر بابل التي سطع نجمها بعد أن أجهزت على آشور بالتعاون مع عدوهم المشترك الميذانيين (في إيران حاليا)، وولت بابل وجهها شطر الشام.

وواجه نيكاو الثاني الملك البابلي نبوخذ نصر في فلسطين، وانتصر عليه نيكاو حتى سيطر على أورشليم (القدس) وبات خطرا يهدد بابل، وفي جولة أخرى انهزم نيكاو، وسيطر نبوخذ نصر على أورشليم واقتاد كثير من اليهود إلى بلاده فيما عُرف بالسبي البابلي، وفرَّ بعض اليهود وأهل الشام إلى مصر من وجه البابليين كلاجئين(١٨٢)، وهو ما سيظهر خطره حين يغدرون بمصر ويعاونون الفرس على احتلالها.

تجمدت الحروب الخارجية للأسرة ٢٦ عند هذه النقطة، وصرفت جهدها للشأن الداخلي، وأبرز مشروعاتها أيام نيكاو الثاني محاولة ربط النيل بالبحر الأحمر بقناة مائية لتشجيع التجارة البحرية بعد زيادة التجار الأجانب، وروى هيرودوت أن المشروع توقف بعد أن استهلك آلافًا من الرجال خوفا من أن يسهل الغزو الأجنبي- كما سيستهلك آلافا أخرى في المستقبل لإعادة حفرها في ظل الاحتلال الفارسي، ثم العربي (خليج أمير المؤمنين)، ثم حفر قناة أخرى أيام الاحتلال العلوي (قناة السويس)- وأوفد بعثة بحرية للدوران حول إفريقيا واستكشافها، بدأت رحلتها من البحر الأحمر، وروى هيرودوت أنها تمت في ٣ سنوات، ولما عادت روى رجالها أنهم في دورانهم حول الأرض (أي إفريقيا) ظلت الشمس على يمينهم، على عكس ما

(١٨٠)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٨٣- ٢٨٤
(١٨١)- اللغة المصرية القديمة، عبد الحليم نور الدين، دار الأقصى للطباعة والنشر، ط ٩، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٣٩
(١٨٢)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٧٩- ٢٨١

خرجوا به، وهي ملاحظة شك هيرودوت في حدوثها، مع أنها دليل صدقهم(١٨٣).

وعند هذه النقطة من التاريخ بدأ يظهر اليهود في تاريخ مصر بأدلة أثرية لاجئين ومرتزقة كغيرهم من جاليات أجنبية في وقت متأخر من الزمان هو القرن السابع قبل الميلاد، بعد انقضاء أزمنة الحكم المصري الخالص، أي لم يظهر دليل أثري في مصر حتى الآن عما يخص قصة وجودهم مع موسى، ولا زمن حدوثها، ولا ما يُروى عن قصص تعذيب فرعون مَوسى لهم وهروبهم إلى فلسطين، ولا من هو فرعون موسى من الأساس.

كانت الأسرة ٢٦ تدخلت عسكريا لعدم سقوط أورشليم (القدس) في يد بابل، وهنا انقسم سكانها إلى فريقين، فريق حمد لمصر صنيعها وتزعمهم صدقيا، وفريق تزعمه نبي اليهود إرميا لم تلق منه مصر جزاء ولا شكورًا، وكان إرميا يكن الحقد لمصر، ورغم ذلك لجأ إليها بعد أن دمرت بابل أورشليم، ولم يحمد لمصر قبولها له لاجئا، بل صاح متنبئا بسقوط مصر في احتلال جديد، قائلا: "هكذا قال الرب، لسوف أوقع الفرعون هوفرا بين يدي أعدائه الذين يطلبون حياته"(١٨٤)، وسنتابع بعد قليل غدر اليهود بمصر.

وفي عهد واح إب رع "إبريس" تسبب الإغريق في انقسامات داخل الجيش وحرب داخلية، وذلك أن قبايل في ليبيا استعانت به ضد جماعات الدوريين الإغريق الذين استوطنوا برقة، وزاحموا أهلها فيها، ونصبوا أنفسهم سادة عليها بعد التمكين، وربما لوجود علاقات قبلية ما بين هذه القبايل وبين حكام الأسرة ٢٦ ذوي الأصول الأجنبية أعانهم إبريس بقوات تذكر المصادر أنهم مصريين، ولكن الأرجح أنهم من المتمصرين من أبناء قبايل الخاسوتيَّمية، أو خليط منهم ومن مصريين- ولم يرسل قوات من المرتزقة الإغريق حتى لا يميلوا إلى بني جلدتهم المستوطنين هناك.

ولكن قوات واح إب رع وقعت في كمين، وقُتل معظم أفرادها، فعاد البقية غاضبين يتهمونه بأنه دبر هذه الحملة للتخلص منهم في الجيش حتى يزداد انفرادا بمصر، وأنه أسرف في احتضان الإغريق على حسابهم، وكان لكل من الاتهامين نصيب من الصحة فيما يبدو(١٨٥).

وندب واح إب رع قائد جيشه أحمس للتفاوض مع الثوار، ولكنهم اجتذبوه إلى صفوفهم وعهدوا إليه بزعامتهم، فهاجم بهم واح إب رع وأسره، ويبدو أنه أجبره على إشراكه في الحكم معه، ثم تجدد القتال بينهما ومات واح إب رع مقتولا.

وأحمس هذا المذكور في كتب التاريخ باسم أحمس الثاني، وسماه الإغريق "أمازيس"، وغير معلوم على وجه اليقين ما إن كان من بواقي الاحتلال القَبلي أم مصري، وإن كان ميله كما سنرى للاستزادة من الإغريق بدلا من تمصير الجيش قد ينبئ بأصله.

(١٨٣)- انظر تفاصيل الرحلة في نفس المرجع، ص ٢٧٩
(١٨٤)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٨٠
(١٨٥)- انظر: نفس الرجع، ص ٢٨١

وفي نفس الوقت ازداد ضيق وتبرم المصريين أهالي البلاد من زيادة عدد الإغريق وبقية الجنسيات المرتزقة؛ ما يقلل من فرص إمكانية تحريرها من السطوة الأجنبية قريبا، وشاركهم في هذا التبرم القبايل الخاسوتيّمية نفسها التي رأت أن حبل القيادة والسلطة والثروة ينفلت من أيديها لصالح الوافدين الجدد.

ويصف هيردوت الحال بأن حزازات الإغريق مع المصريين أصبحت مشكلة عويصة، وردها إلى اختلاف العقائد بين الطرفين، وروى أنه بلغ من أمرها أن المصريين كانوا يأنفون أحيانًا من تقبيل إغريقي أو استعمال أدواته الخاصة(١٨٦).

وتأثرت الروح الوطنية في كبريائها، وحدثت اضطرابات هامة من جانب المصريين أو المستمصرين ضد التجارا لإغريق المتفرقين في الدلتا، وأول عمل قام به أحمس الثاني لتجنب تدهور الموقف وإرضاء الشعور الوطني أن طلب من الإغريق أن يستقروا في أراضي محدودة لكي لا يدخلوا في صراع مفتوح مع المصريين، واختار لهذا المكان نقراطيس (نقراش أو كوم جعيف بالبحيرة)، وسمح للتجار الإغريق ببناء مدينة خاصة لهم فيها، أصبحت مركزا لعلاقاتهم التجارية مع مصر، فكانت البضائع تأتي من البحر المتوسط إليها عن طريق البحر(١٨٧)، وقامت هذه المدينة بالدور الذي قامت به الإسكندرية بعد ذلك بـ ٢٠٠ عام، وأنشأ فيها الإغريق معابد يونانية لتأكيد هويتهم، مثل معابد هيرا وأبوللو وأفروديتى.

وإن كانت خطوة أحمس الثاني في تخصيص مستوطنات للإغريق في منف ونقراش ساهمت في استمرار الفصل بينهم وبين أهالي البلاد، إلا أنها جاءت على غير صالح البلاد في المستقبل؛ حيث كرَّس هذا قوتهم، واتخذوها معاقل لهم ساعدتهم في السيطرة على اقتصاد البلاد، والتعاون مع الإسكندر الأكبر لاحتلالها بعد ٢٠٠ عام، في تكرار لتجربة استيطان الهكسوس وشعوب البحر.

وحافظ أحمس الثاني على علاقات الود والصداقة مع الإغريق، وفي نفس الوقت حرص على المحافظة على مصالح الشعب- أو هكذا توهم- وكان محبا للإغريق لدرجة أن هيرودوت لقبه- بالمحب للإغريق- وأرسل الهدايا إلى بلاد الإغريق، منها تمثال للمعبودة نيت مغطى بالذهب مع صورة مرسومة(١٨٨)؛ فكال له المؤرخون الإغريق المديح، لأنه لم يستجب لمطالب المصريين بإبعاد الإغريق تماما، وإنما فصل بين الجانبين بسلام، واعتبروه أكثر الملوك الصاويين حنكة وحصافة، وخلعوا عليه ألقابا إغريقية(١٨٩)، كعادة الجاليات الأجنبية في وصف الحاكم حين يطلق لها العنان بالمنفتح والمتسامح، ومن يضيق عليهم لحفظ مصالح وحقوق شعبه بأنه متسلط وعنصري.

ويُرجع هيردوت إلى هذا الحاكم بعض المآثر، منها وضع القانون الذي بات يعرف باسم "من أين لك هذا"، حيث كان يفرض على كل شخص أن يبين سنويا مورد عيشه، ومن لم يفعل ذلك، ولم يثبت أنه يعيش عيشة مشروعة كان عقابه المحاكمة، ونقل سولون الإثيني هذا القانون من مصر ووضعه للإيثيين، كما قال

(١٨٦)- المرجع السابق، ص ٢٨١
(١٨٧)- انظر رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، رمضان عبده علي، الجزء الرابع، ص ٣٣٣
(١٨٨)- نفس المرجع، ص ٣٣١- ٣٣٢
(١٨٩)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ٢٨٢

إنه أول من وضع ضريبة الدخل[190].

ولكن سيخيب ظن أحمس الثاني في الإغريق الذين أسرفوا في مدحه وتخديره بنشاطهم الاقتصادي في البلد، فهؤلاء سيكونون مع اليهود آداة عون للغزو الفارسي لمصر فور وفاته، ثم أداة للغزو اليوناني.

▼▼▼ الاحتلال الفارسي الأول

(تاريخ مصر مع بلاد فارس)

لم يكن لبلاد فارس فيما مضى، ومنذ كانت تسمى بـ"عيلام" علاقات مع مصر، واقتصرت معظم حروب العيلاميين مع جيرانهم من بلاد النهرين.

وتغيرت دفة الأحداث في مصر والعالم بميلاد الدولة الفارسية (الإخمينية) في ذلك العصر، وهي دولة أراد زعماؤها أن يثبتوا بعقليتهم القبلية الجبلية أنهم يتفوقون على أسلافهم ذوي الميراث الحضاري الطويل من عيلاميين وماذيين، وصمموا على بسط نفوذهم في الاتجاهات الأربعة، مستغلين فتوتهم وشيخوخة جيرانهم[191].

فخرجوا بحملات مسعورة، ولكنها قوية منظمة، تحت قيادة ملكهم قورش، يدقون الأرض دقًّا عنيفًا حتى بلغوا آسيا الصغرى، واكتسحوا دولة ليديا التي كانت شيئًا عظيمًا، وطووا بابل ذات التراث المجيد، وأدركوا من ثَمَّ سهولة إخضاع العالم المحيط بهم الذي مزقته المنافسات والحروب المتصلة لحكومة عالمية واحدة، هي حكومتهم بطبيعة الحال[192]، وهو الحلم الذي تعيش عليه فارس (إيران) حتى الآن.

سعى أحمس الثاني لصد خطرها بالتحالف مع قبرص، ولكن توفي سنة ٥٢٥ ق.م بعد أن حكم ٤٤ سنة، ولم يكد يمر ٦ شهور على وفاته حتى اجتاح الفرس مصر، ووضعت فينيقيا أسطولها الكبير تحت طاعتهم، وتخلت قبرص عن التعاون مع مصر، وبقيت مصر وحيدة أمام هذا الاجتياح الجديد[193]، ملغمة بالداخل بمستوطنين أجانب في مدنها ومرتزقة في الجيش.

وهنا بدأ مشوار الخيانة الإغريقية واليهودية لمصر، فقد كان قائد الجيش من الإغريق يدعى فانيس، خانها وهرب إلى قمبيز، ملك الفرس وابن قورش، وقاد له جيشه إلى مصر- مستغلا معرفة الإغريق بدروب الصحراء والمداخل لعملهم في الجيش بمصر.

أما اليهود الذين دخلوها لاجئين في عهد الأسرة ٢٦ فارين من الاجتياح البابلي، وسمح لهم حكامها بالعمل كتجار وبالتجنيد في الجيش، فكان ولائهم مطلق للفرس، فاليهود يعتبرون قورش مسيحهم المنتظر بعد

---

(١٩٠)-انظر: رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٣٣٢- ٣٣٧

(١٩١)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، ص ٢٨٥

(١٩٢)- نفس المرجع

***هذا الحلم لم يفارق بلاد فارس حتى الآن، مهما تغير اسمها أو دينها أو مذهبها، وسيرد إشارة تفصيلية لوسائل استهدافها لمصر في الوقت الحالي لتحقيق هذا الهدف.

(١٩٣)- المرجع السابق، ص ٢٨٥

أن فك أسر اليهود المنفيين في بابل وما حولها، وأعادهم إلى أورشليم، وسمح لهم بتعميرها من جديد، ولهذا كانوا على استعداد لأن يذللوا الصعاب في سبيله(١٩٤).

فلسبب غامض يخص العلاقة بين اليهود والفرس، صان اليهود الجميل لقورش ولم يصونوه لمصر التي آوتهم من نير الاستعباد في بابل وليس مجرد فك أسرهم، بل وظلت نبوءات أنبياء اليهود أو أحبارهم تتوعد مصر بالمستقبل المظلم وبكل شر مستطير(١٩٥)!

أما البدو "السائرون على الرمال"، كما سماهم المصريون، أي القبايل التي تستغل فترات الضعف أو الاحتلال في مصر للاستيطان عند الحدود الشرقية، فقد أرشدوا الفرس في سيناء(١٩٦)، ومع تحالف كل هؤلاء ضدها قاومت مصر جهد الاستطاعة، وخاضت بقيادة حاكمها التعس بسماتيك الثالث، بوصف عبد العزيز صالح، آخر ملوك الأسرة ٢٦، معركة عنيفة ضد الفرس في "بلوزيوم" (الفرما/ بورسعيد) عام ٥٢٥ ق. م، ورأى هيرودوت آثار المعركة بعد ٧٥ سنة؛ فشهد بضراوة ما حدث فيها.

ولم يثبت جيش بسماتيك الثالث طويلا أمام الطوفان الفارسي، خاصة بعد خيانة قائده الإغريقي، وانضمام العديد من الإغريق إلى صفوف الجيش "المنتصر" كعادة المرتزقة، فتراجع إلى منف، ولكنها سقطت، وأخذ الفرس بسماتيك الثالث أسيرا، ثم أطلقوا سراحه، فسعى للمقاومة من جديد، ولما كشف الفرس أمره قيل انتحر، ورغم المقاومة فإنها لم تعف هذه الأسرة من مسئولية إغراق البلد بالمرتزقة.

وبتعبير صالح: "خضعت مصر للفرس كما خضع غيرها من أمم الشرق، وإن لم يعفها هذا من وزر كبير بعد أن فتحت أبوابها للمرتزقة من هنا وهناك، وجعلتهم دعامة جيشها"(١٩٧).

واستعمل الفرس وجنودهم متعديي الأجناس الشدة مع مصر والتخريب، حتى مع المعابد المقدسة المحصنة، مثلما فعلت آشور، وبلغ من تقدير قمبيز لضخامة البلد أن أقام في مصر أكثر من ٣ سنوات، صحبه في بدايتها ما يتأتى عادة من الغزاة من تخريب ونهب ومصادرات وغرامات، وأنقص مخصصات المعابد إلى النصف، وعسكر فيها جنود الاحتلال من كل ملة انتهاكا لمقدساتها(١٩٨).

ورغم ذلك لم تكن إقامة قمبيز هنيئة كلها، فقد فشلت حملته لهدم معبد الوحي "معبد آمّون" في سيوة، وقيل إن عاصفة رملية دفنت الجيش الذي أرسله إلى هذه المهمة في الصحراء، وخلال احتفالات مولد العجل حاب (أسماه اليونان أبيس)، بما فيها من مظاهر فرح، ظن قمبيز أنها فرحة الشماته فيه، فقتل الكثير من كبار السكان، وطعن حاب بخنجره، وأمر بإخراج جثة أحمس الثاني "أمازيس"، وأهانها، وأحرقها.

وخلال هذه الأحداث، جاءته أخبار مؤامرة في بلاده للاستيلاء على العرش، وكان من عادة الفرس عمل

---

(١٩٤)- نفس المرجع
(١٩٥)- انظر: المرجع السابق، ولكن في طبعة عام ١٩٨٠، ص ٣١٤
(١٩٦)- تاريخ مصر القديمة، جريمال، مرجع سابق، ص ٤٧٤
(١٩٧)- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، طبعة عام ١٩٧٣، ص ٢٨٥
(١٩٨)- الأجانب في مصر في الألفية الأولى قبل الميلاد، مرجع سابق، ص ٢٨٦

انقلابات عائلية والصراع الدموي على الحكم، كعادة بابل وآشور أيضا ثم البطالمة فيما بعد، فقرر العودة لفارس، وفي الطريق وخز نفسه بسلاحه في فخذه في موضع مماثل للموضع الذي طعن فيه العجل، فتسمم الجرح وتوفي، واعتبر المصريون هذا "انتقاما إلهيا"[١٩٩].

وخلفه في الحكم دارا الأول، كان أقل منه ظلما، سعى لتهدئة الأوضاع في مصر لمنع الثورات، وأزال القوانين الفارسية التي أقرها قمبيز، وأعاد القوانين المصرية التي سادت في عهد أحمس الثاني، وأبدى الاحترام لحابي "أبيس"، وأمر بإقامة معبد لآمون في الواحات على أطلال معبد قديم.

▼▼▼نتائج الاحتلال الفارسي

❶ نزح ثروات مصر إلى الخارج

اعتبر الفرس مصر "ولاية" أو "ستترابا" باللفظ الفارسي، فهي ثاني مرة تُحكم مصر من الخارج بعد الاحتلال الآشوري، ورأوها أغنى "الولايات"؛ فطلب دارا الأول إعادة حفر القناة السابق حفرها أيام نيكاو لربط النيل بالبحر الأحمر وتيسير نقل السفن للجزية المأخوذة من مصر لتصب خيراتها عند فارس، وبلغت ٢٤ سفينة سنويا، تحمل ما يبلغ ألف تالنت من الفضة، وقدر هيرودوت التالنت المصري بـ ٥٦ رطلًا بين جزية ونفقات احتلال، واستغلوا من معادن مصر ما يعادل هذا المقدار[٢٠٠].

كما استنزف الفرس ثروات مصر لتمويل حروبهم مع اليونان، فمثلا فرض أكسركسيس الأول على مصر إعداد ٢٠٠ سفينة استغلها في قتاله ضد الإغريق[٢٠١].

❷ استمرار تعليه شأن المستوطنين الأجانب على المصريين

وكغيرهم من المحتلين قرَّب الفرس الجاليات الأجنبية والمستوطنين ليكونوا عونا طيعا لهم ضد أهالي البلاد، فكان يعاون الستترابا (الوالي) الفارسي عدد من كبار الموظفين والجباة الفرس والبابليين والسوريين واليهود، يعملون لصالحه، إلى جانب قلة من كبار المصريين أو المستمصرين من بقايا القبايل الخاسوتية صاحبة النفوذ السابق[٢٠٢].

وتزايد تواجد اليهود في معسكرات أسوان على الحدود الجنوبية خلال الاحتلال الفارسي، فكانوا أكثر المخلصين له، وعيونًا له على المصريين، ووفق ما ورد في خطاب بالآرمية، لغة اليهود حينها، عثر عليه في أرشيف جالية "يدانيا" اليهودية في بأسوان، يظهر مدى الاحتقان بين المصريين واليهود بسبب خيانتهم، وأيضا بسبب الاختلاف في الدين الذي كان اليهود يتكبرون به على غيرهم.

---

[١٩٩]- انظر مرجع سابق ص ٢٨٦، وتاريخ مصر القديمة، جريمال، ص ٤٧٤- ٤٧٨
[٢٠٠]- انظر الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ٢٨٦- ٢٨٧، ومصر الفراعنة، جاردنر، ص ٣٩٨
[٢٠١]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٨٨
[٢٠٢]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ٢٨٧

وتضمن الخطاب التماسا أرسلته الجالية اليهودية إلى حاكم أورشليم الفارسي "باجواس" تطلب منه مساعدتهم باعتبارهم "أصدقائه" في إعادة بناء معبد ياهو اليهودي الذي دمره كهنة خنوم(٢٠٣) المصريين، خاصة وأن هذا المعبد لم يمسه قمبيز بسوء، فيما أساء إلى المعابد المصرية(٢٠٤).

وفي تقدير العالم الأثري الدكتور أحمد بدوي فإنه "ظاهر أن احتلال الفرس أرض مصر قد أرضى الإغريق الذين كانوا يقيمون فيها، وليس أدل على ذلك من انضمام بعضهم إلى صفوف الغزاة، وقد زاد من نشاطهم في البلاد يومئذ، وتتابعت هجرة قومهم إليها، كما ازدهرت تجارتهم في نوكراتيس"، وذلك رغم ما هو معروف من عداوة بين الفرس واليونان.

وعلق بدوي على هذا التناقض بأنه: "وليس بخاف كذلك أن الإغريق الذين كانوا يقيمون في مصر- سواء منهم من كان يرتزق من العمل في الجيش ومن كان يعمل في التجارة- إنما كانوا يؤثرون الفرس على المصريين طمعا في الكسب الوفير، والعيش الرخيص، وذلك شأن الغريب المرتزق في كل زمان ومكان؛ فهو واجد- على الدوام- في ظل الاستعمار فسادا يستطيع أن يُفيد منه في سهولة ويسر"(٢٠٥).

ويؤيد رأي بدوي ما تكرر خلال التاريخ من تعاون المستوطنين الأجانب مع الغازي الجديد حتى وإن كان عدوا لبلادهم القادمين منها، مدام سيعطيهم مزايا ومداموا سيساعدونه على التمكين في البلد المقيمين فيها، فسنرى أن اليهود تبادلوا المنافع مع الغزاة العرب في مصر رغم أن العرب طردوا اليهود من الجزيرة العربية، وشوام تعاونوا مع الغزاة العثمانلية في مصر رغم أنهم تركوا الشام إلى مصر هربا من الظلم العثمانلي لهم في بلادهم، وهكذا حياة الاحتلال العسكري في الجاليات الأجنبية، وحياة الجاليات الأجنبية في الاحتلال العسكري.

وفي نفس الوقت وجدنا أن الإغريق في بعض الفترات التي اشتدت فيه الثورات داخل مصر ضد الفرس يتعاونون مع هذه الثورات أحيانا، لسبب وحيد، هو حين يكون في إضعاف الفرس مصلحة لمدينة يونانية يتبعها بعض اليونانيين كأثينا(٢٠٦)، ونقل صبحي وحيدة عن مؤرخين تفسيرات أن اليونان طول تاريخهم فرق ومدن متصارعة، ليسوا على قلب رجل واحد، فمنهم من يحارب الفرس، ومنهم من يستقوي بالفرس على بقية المدن اليونانية؛ ولذا يختلفون في مواقفهم(٢٠٧).

❸ تهجير المواهب المصرية للخارج غصبا

وكرر أكسركسيس الأول ما فعله الآشوريون بنهب المعين الحضاري لمصر بنقل المتخصصين الماهرين منها إلى بلاده ليساهموا في بناء نهضتها، فاشتط في الانتقام والاستغلال- كعادة الفرس- وهجَّر

(٢٠٣)- خنوم/غنم هو رمز "إلهي" مقدس يتصوره المصريون في شكل كبش مهمته تشكيل البشر المواليد على عجلة الفخراني، وله دور في دفع مياه النيل من الجنوب إلى مصر عند أسوان، انظر معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة، مانفريد لوكر، مرجع سابق، ص ١٢٩

(٢٠٤)- انظر: الأجانب في مصر في الألفية الأولى قبل الميلاد، مرجع سابق، ١٢٨- ١٢٩

(٢٠٥)- انظر هيردوت يتحدث عن مصر، مرجع سابق، مقدمة أحمد بدوي، ص ٢٩

(٢٠٦)- نفس المرجع، ص ٢٨

(٢٠٧)- في أصول المسألة المصرية، صبحي وحيدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥، ص ١٥- ١٨

عددًا كبيرًا من أهل الحرف إلى فارس، وشدد الحاميات هنا وهناك، واستعان فيها باليهود، ثم عين أخاه واليًا على مصر[٢٠٨].

▲▲▲ الثورات ضد المحتل الفارسي

ولم يمنع تودد "دارا" لأهالي البلاد في بعض الأمور من أن يكرهوا الاحتلال ويسعوا لزواله، وردد المصريون في لعناتهم على الاحتلال الفارسي كلمات: "ليكن حور ضدهم"، "لتثر عين حور (مصر) عليهم"، مما يدل على حدة الشعور الوطني ضد الغزاة، وعبرت مسرحية "عودة ست" بعد الغزو الفارسي عن شكل من أشكل الغليان في العروق، ففي تلك المسرحية جسد "ست" دور الشر وغازي أجنبي لم يكتف بنصيبه من الأراضي الذي أقرته له الأرباب في بلاده، فغزا مصر واحتل عين حور (مصر) عنوة، ولم يكن "ست" إلا ملك الفرس، وعبرت المسرحية عن رغبتهم في طرده لأن وجوده غير شرعي[٢٠٩].

وبالفعل، قامت ثورة تحدث عنها المؤرخ ديودور الصقلي أن الأهالي اشتعل غضبهم وهم يراقبون السفن الفارسية تنقل خيرات البلاد إلى الخارج، حتى أن نصوص محاجر وادي الحمامات بالصحراء الشرقية ذكرت أن الأحجار التي تُقطع هناك تستخدم لصالح الفرس، وزاد الأمر فداحة الضرايب، فشبت الثورة، وأشارت أخبار إلى استيلاء الثائرين على شحنة سفينة فارسية محملة بالغلال.

وتوفي "دارا" قبل إخماد الثورة، وخلفه ابنه أكسركسيس الأول الذي أخمدها بعنف، وزاد على ذلك أن أكثر من الضرايب، وزاد من نهب الثروات لاستغلالها في حروبه ضد خصمته اللدودة، اليونان[٢١٠].

ورغم هذا العنف في الانتقام، تجددت نار الثورة في مصر، مستغلة القلاقل التي نشبت في فارس خلال انتقال العرش إلى "أرتكسركسيس" ثم "دارا" الثاني سنة ٤٢٤ ق.م، وتزعم الثورة "أميرتايوس"، سليل ملوك الأسرة الصاوية، وبعد سنوات من الصراع، توج نفسه حاكما لمصر في نفس عام وفاة "دارا الثاني" ليؤسس الأسرة ٢٨، انتهت بوفاته، وأعقبته الأسرتان ٢٩ و٣٠، وشهدت مصر خلال الأسر الثلاثة استقلالا عن الفرس، قبل أن يعودوا إليها في ٣٤٣ ق.م[٢١١].

والإغريق هذه المرة تحالفوا مع "أميرتايوس" ضد الفرس؛ ليس إخلاصا لمصر، ولكن بسبب الصراع الدائر بين فارس وأثينا للسيطرة على جزر البحر المتوسط، ونظرا لحاجة أثينا إلى قمح مصر.

ومن الملاحظ أنه ظهرت أسماء أجنبية بشكل واضح في أسماء ملوك الأسرتين ٢٩ و٣٠؛ فاسم مؤسس الأولى نايف عاورود، واشتهر باسم "نفريتس الأول"، وثالث أو رابع ملوكها يدعى هجر أو هكر، واشتهر باسم "آخوريس"، ثم آخر ملوكها نايف عاورود الثاني "نفريتس الثاني"، وهؤلاء وملوك الأسرة ٣٠ من

---

[٢٠٨]- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٨٨
[٢٠٩]- القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، مرجع سابق، ص ٤٠- ٤١، ص ٤١
[٢١٠]- رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، رمضان عبده علي، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ٣٦٧- ٣٦٨
[٢١١]- انظر: تاريخ مصر القديمة، جريمال، مرجع سابق، ص ٤٧٩

شرق الدلتا وغربها، حيث المستوطنات القبلية الأجنبية قديمها وجديدها[٢١٢].

▼▼▼ خذلان دولي لم ولن ينتهي

اعتادت مصر على الخذلان والغدر من جيرانها في الجنوب والغرب والشرق، خاصة في أوقات غفلتها، وبعد أن اتسعت علاقاتها بشكل غير محسوب بدأت تذوق خذلان الشمال، أي المدن اليونانية كأثينا وإسبرطة، وكقبرص.

فقد تحالفت الأسرة ٢٩ في مصر مع أسبرطة ضد محاولات الفرس للعودة إلى حوض البحر المتوسط، وأمدتها مصر بتجهيز ١٠٠ سفينة مقاتلة وبالغلال، ولكن بعد سنوات تصالحت إسبرطة مع الفرس، وفكت تحالفها مع مصر، وتنكرت لها[٢١٣].. وبقيت مصر وحدها.

ورغم هذا التنكر المستمر من الأحلاف لمصر، تحالفت ذات الأسرة في عهد هكر مع أثينا ومع ملك قبرص، وأعانت الأخير بـ ٥٠ سفينة وبالغلال لمكافحة الفرس، وواجه جيش هكر الفرس في معركة جديدة غير واضحة المعالم، ثم تركت قبرص مصر واستسلمت للفرس، وبقيت مصر وحدها.

وخلال الأسرة ٣٠ انقلبت أثينا تماما ضد مصر، حتى أنها استدعت قائدها خابرياس الذي كان يقود الجيش في مصر، فغادرها في وقت خرج على رأس ٢٠ ألف من المرتزقة الإغريق ليعاونوا الفرس ضدها، وذلك بعد اتفاق بين أثينا وفارس، وهكذا توالى تخاذل الأحلاف[٢١٤].

حشدت فارس جيوشا من المرتزقة والأعوان، واخترقوا الشام وصولا لمصر، ولكن لحسن الحظ وصلوها في وقت قرب الفيضان، فداهمتهم مياهه وكأن موجاته جنودا مجندة لحماية مصر، فتراجعوا.

وفي عهد "جد حر" ابن "نختانبو" في الأسرة ٣٠ قاد جيشا لإبعاد الفرس عن الشام، فيبعد خطرهم عن مصر، ولسبب غير مفهوم استعان بالقائد الإثيني خابرياس الذي سبق وأن خان مصر وانضم للفرس!

وأيضا فاوض أجيسيلاوس ملك إسبرطه العجوز- التي سبقت وتخلت عن مصر- ليستعين بخبرته؛ فانضم إليه بألف من رجاله، وجند "جد حر" ٨٠ ألفًا من المصريين أو المستمصرين والخاسوتيِّمين والمرتزقة، وأعد ما بين ٢٠٠-٣٠٠ سفينة وصله بعضها من آسيا الصغرى، وتأهب للخروج لضرب جيوش الفرس خارج مصر.

لكن الأمور لم تكن هينة، فقد تنافس القائد الأثيني والملك الإسبرطي على القيادة العليا، وحل "جد حر" المشكلة بأن تولى هو القيادة العليا، وعهد بقيادة المرتزقة إلى أجيسيلاوس الإسبرطي العجوز الذي بلغ الثمانين، وظن أنه سوف يأتي برجاله الألف العجب العجاب، كما عهد بقيادة الأسطول إلى خابرياس الأثيني المغرور،

---

(٢١٢)- انظر: رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، رمضان عبده علي، مرجع سابق، ص ٣٧٥- ٣٧٩

(٢١٣)- انظر: الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٩١

(٢١٤)- انظر: المرجع السابق، ص ٢٩١- ٢٩٢

ولكنه لم يستطع أن يستل الحقد من قلب أحدهما تجاه الآخر أو تجاهه هو(٢١٥).

ولتموين جيشه الضخم، ولإرضاء المرتزقة الذين أبوا أن يتسلموا أجورًا عينية، بل طلبوها نقدا، رأي أنه لا بأس من فرض تضحيات اقتصادية على المصريين طيلة فترة الحرب، وذلك بمشورة خابرياس الأثيني، فأمر بمصادرة المعادن الثمينة في مصر، وحض رجال المعابد على التبرع بجانب من أملاكهم الخاصة، والاكتفاء بإنفاق عشر المخصصات المرصودة للمعابد وتحويل بقيتها لخزائن الدولة حتى تنتهي الحرب، وحض كل مواطن على التبرع بجانب من مدخراته، وفرض نسبة ضريبية معينة على عملية البيع والشراء، مع تعميم ضريبة العشر على الأرباح ومصادر الدخل.

وعندما خرج "جد حر" بالجيش إلى الشام لضرب الفرس أتاه الأذى من مأمنه، ففي مصر انقلب عليه أخوه ونائبه على عرشه، واستعان بتذمر رجال الدين والمتضررين من الضرايب الجديدة التي رأوها تنصرف إلى المرتزقة الأجانب أكثر مما تصل إلى مواطنيهم(٢١٦).

ولما كان هذا الأخ شيخًا استدعى ولده من جيش عمه ليقود الانقلاب بدلًا عنه، وفي الشام أحدثت أخبار الانقلاب انشقاقًا في صفوف الجيش، واختار المرتزقة مصلحتهم الخاصة، فانسحب خابرياس الأثيني بجنوده، وانضم أجيسيلاوس الإسبرطي بجماعته إلى ابن الأخ المطالب بالعرش، وعاد معه إلى مصر ليتلقى جزاء تأييده له، وهنا لجأ "جد حر" كسيرا إلى صيدا، وروي منافسوه أنه طلب حق اللجوء السياسي بعد ذلك من الفرس(٢١٧).

وتولى العرش "نخت حر حب" الذي اشتهر باسم نختانبو الثاني، وقامت ضده ثورة قادها أشخاص من سلالة الأسرة ٢٩، وأخمدها بالاستعانة بالإغريق، وحكم ١٨ عاما، تودد فيها إلى المعابد بأن أمر بإقامة منشآت لتطويرها، مثل معبد بتاح-سوكر-أوزير في أبو صير الملق، ومسلات صغيرة في الأشمونين، ومقاصير، متمتعا بمناخ استقرار ساهم فيه انشغال الفرس بالصراع العنيف على السلطة في بلادهم.

غير أنه في عهد الملك الفارسي أرتاكسركسيس الثالث وجَّه وجهه شطر مصر لغزوها من جديد سنة ٣٤١ ق.م، ولكن هزمه جيش نختانبو الثاني، ثم عاود الكرة عن طريق البر والبحر، وبمعدات وأسلحة هائلة بمقياس ذلك العصر، ومنها ٣٠٠ سفينة مكونة من عدة طوابق لتحمل أكبر عدد من المقاتلين في البحر، وضم جيشه ٣٠٠ ألف مقاتل، في حين كان جيش نختانبو الثاني لا يضم أكثر من ١٠٠ ألف، والتقى الجيشان عند "بلوزيوم" (الفرما)، وكان الفوز للجيش الفارسي، وعندما رأى المرتزقة في جيش نتختانبو ذلك، غيروا مواقعهم، وانضموا لصفوف الجيش الفارسي، فيما تراجع نختانبو إلى الوجه القبلي، وآزره الأهالي هناك سنتين، ثم اختفى أثره والمعلومات حول مصيره.(٢١٨)

▼▼▼ الاحتلال الفارسي الثاني

(٢١٥)- انظر: المرجع السابق، ص ٢٩١- ٢٩٢

(٢١٦)- نفس المرجع، ص ٩٣

(٢١٧)- انظر: المرجع السابق، ص ٢٩٢- ٢٩٣

(٢١٨)- انظر: رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، مرجع سابق، ص ٣٩٠- ٣٩٢

وعادت مصر تحت الاحتلال الفارسي ٣٤٣ ق.م- بعد ٦٠ سنة من الاحتلال الأول- وصار نختانبو الثاني يوصف عند المؤرخين بأنه "آخر الحكام الوطنيين"، وإن كان في صفة "الوطنيين" شك لاحتمال كونه من القبايل "الخاسوتيمية" أو غيرها وسط تضارب حول أصول حكام الأسرات الأخيرة، ولكنه على كل حال كان آخر من حكم وحارب تحت راية مصرية ولو اسمًا، ثم توالت على البلاد بعد ذلك الحكم والاحتلالات تحت راية فارسية ويونانية ورومانية وعربية وعثمانلية إلخ.

▼▼▼ نتائج الاحتلال الفارسي الثاني

جاء الغزو الفارسي الثاني أصعب بكثير من الأول، كاشفا غلا يفوق الوصف، فتعرضت البلاد للسلب والنهب، وهدمت دور العبادة، وانتهكت حرمتها، ونهبت تماثيل معبوداتها، ونقلت إلى فارس، وطعن أرتاكسركسيس الثالث العجل أبيس المقدس، وللسخرية من المصريين وضع مكانه حمارا، وذبح كبش مندس المقدس، ونفى بعض الأمراء المصريين [أو المستمصرين] إلى فارس[٢١٩].

وهنا وصفت بردية "الأيام" الديموطية كيف فقدت بيوت المصريين رجالها، وسكنها الماذيون، أي "الفرس".

كما لم يُتوج الملوك الفارسيون داخل مصر على الطريقة المصرية مثلما فعل أسلافهم، وتفجرت الثورات في أنحاء مصر ضدهم، وتزعمها أمير من سلالة الحكام السابقين في سنة ٣٣٦ ق.م، اشتهر باسم خبباش، أعلن نفسه ملكا، لم ينجح في أن يحكم البلاد حكما حقيقيا، ولكن ظل قائدا للمقاومة عدة سنوات[٢٢٠]، وفي تلك الأثناء كانت تدور دائرة المعارك بين الإسكندر المقدوني وبين الفرس، في نهايتها أسقط الإسكندر إمبراطورية الفرس بجيوشه الكاسحة، فاستسلم له السترابا الفارسي وانسلت أقدامهم من مصر، وزحفت جيوش الإسكندر إليها، وكان المستوطنون من الإغريق وبقية الجاليات الأجنبية أكبر عون له، هيأوا له الأجواء لاستقباله استقبالا حارا، ولم يعد الإغريق بحاجة للعمل كمرتزقة في صفوف الجيش بمصر، فالمعتدي الجديد- خاصة أيام البطالمة- جعل الجيش جيشهم.

▼▼▼ ترحيب المستوطنين بغزوة الإسكندر لمصر

ويصف عبد العزيز صالح أثر العيشة الطويلة للإغريق والجاليات الأجنبية في مصر في تمكين الإسكندر من احتلالها، خاصة بعد استسلام الوالي الفارسي قائلا: "وعندما دخلها الإسكندر في خريف ٣٣٢ ق. م في ثوب منقذها من الفرس، لم يكن أعوانه أغرابًا عنها، فطالما عمل بعضهم مرتزقة في جيشها، وطالما شاركها بعضهم في معاداة الفرس، وعلى نحو ما عمل إغريق نقراطيس وسطاء في التجارة بينها وبين بلاد اليونان عملوا كذلك وسطاء بينها وبين الإسكندر، ولكن فات مصر أن إغريق اليوم غير إغريق الأمس، وأنهم أتوها يومئذ (أي بغزو

---

[٢١٩]- انظر: المرجع السابق، ص ٣٩٢
[٢٢٠]- مرجع سابق، ص ٣٩٣- ٣٩٤، و ٣٩٦

الإسكندر) يعملون لحسابهم الخاص، مستعمرين وليسوا مأجورين، سادة وليسوا مرتزقة[٢٢١].

وهذا ينفي تماما ما أشاعته بعض كتب التاريخ عن أن المصريين "رحبوا" بالإسكندر الأكبر، لـ"ينقذهم" من الفرس، فمن رحب بالإسكندر هم المستوطنون الإغريق والأجانب والمرتزقة، ومن مهد له الطريق هؤلاء الذين وصفوا بكلمة مصريين زورا لوجودهم في مصر، أما المصريون الحقيقيون فكيف يرحبون باحتلال جديد، وبأن يحتلهم من عمل في بلادهم مرتزقة، وتفننوا في نهبهم؟

وإلى جانب اعتماده على المرتزقة والأجانب المستوطنين، لجأ الإسكندر لتوطيد قدمه إلى سياسة محنكة، وهي مهادنة المصريين باحترام تقاليدهم ودينهم، وعدم اللجوء إلى العنف معهم، ليقبلوا الأمر الواقع، حتى أنه اختار أن يتم تتويجه حاكما لمصر في معابد منف على الطريقة المصرية، ثم زار معبد الوحي الخاص بآمّون في سيوة، وتم إعلانه هناك ابنا لآمّون، كنوع من إعطائه "الشرعية" الدينية لحكم مصر، بل ونسج البعض قصصا لربط الإسكندر بالدماء المصرية، بأنه من نسل نختانبو الذي اختفى أثره بعد أن ترك البلاد.

▼▼▼ نزول الستارة على أنبل حضارة

وعند هذه اللحظة، بدأ نزول الستارة على أعظم الحضارات، وأنبلها، وأكثرها سلما وإنتاجا وخصوبة، وأكثرها عذوبة وحرية وحبا للدين، وأشدها احتراما للإنسان والأوطان.

فقد انزوى الاهتمام باللغة المصرية- معين حضارتنا- شيئا فشيئا لصالح اليونانية التي أصبحت اللغة الرسمية للبلاد، وتداخلت أرباب أخرى قادمة من اليونان مع أرباب مصرية فتشوه تاريخها وأشكالها وهويتها وتخرج لنا مسخا يسمى بسيرابيس، ونسب مؤرخون الكثير من علوم مصر إلى اليونان بعد أن انكبوا على ترجمتها لليونانية لما استولوا على مكتبات المعابد والوثائق السرية، وبالتدريج نسى الناس أصولها المصرية.

فتراجعت ذاكرة المصريين ووعيهم بحضارتهم وعظمائهم وحروبهم، حتى وصلنا إلى درجة أن يسير المصري جنب معابده وتماثيل وبرديات أجداده فلا يفقه المكتوب عليها، ولا يدرى لمن هذه التماثيل، بل لا يعرف أجداده أنفسهم، وامتلأ دينه بخرافات أدخلها الغرباء، وغاصت الذاكرة والذكريات شيئا فشيئا.. تحت الأرض، مع الجيش ونظام الحكم المقدس والحرية والمجد وماعت، تحت الأرض.... وآه يا مصر.

وإذن.. عودة للأسباب والنتائج التي رمت مصر مقيدة الأغلال في نار الفوضى الثالثة "إزفت" نهاية الأسرة ٢٠ كما نقلتها البرديات والآثار.. كم منها ورد في البنود الـ ١٧ لدستور الشيطان لتخريب مصر؟

"إن الأبواب الموجودة عليكِ تستوي ثابتة مثل "إنموتف" إنها لا تنفتح لسكان الغرب، إنها لا تنفتح لسكان الشرق، إنها لا تنفتح لسكان الشمال، إنها لا تنفتح لسكان الجنوب، إنها لا تنفتح للقاطنين

[٢٢١]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص ٢٩٧

وسط الأرض، إنها تنفتح لحورس، إنه هو الذي صنعها، إنه هو الذي أقامها، إنه هو الذي نجاها من كل سوء أوقعه "ست" عليها، إنه هو الذي أقام دعائمك[٢٢٢]".

فاستحقت الأجيال التي فرَّطت فيها عقاب الإله الذي حذر منه بتاح حتب:

"إن الذي يفعل الماعت فذلك الذي يكون بعيدا عن الضلال"، "يحل العقاب دائما بالذي يتخطى قواعدها"[٢٢٣]

هزمناهم ليس حين غزوناهم

ولكن حين أنسيناهم تاريخهم وحضارتهم[٢٢٤]

(٢٢٢)- تطور الفكر والدين في مصر القديمة، جيمس هنري بريستيد، ترجمة زكي سوس، مرجع سابق، ص ٤٠- ٤٥

(٢٢٣)- انظر تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

(٢٢٤)- عبارة منسوبة للشاعر اليوناني سيمونيدس عند سقوط إسبرطة، لم تستطع الكاتبة التحقق من صحة نسبها إليه، ولكن بغض النظر عن قائلها فإنها حقيقة، وأكثر ما تنطبق عليه هو ما فعلته الاحتلالات في مصر.. إسقاط تاريخها من ذاكرة المصريين.

المشهد ٩: الاحتلال الإغريقي (النكبة الثانية)

٣٣٢ ق.م- ٣٠ بعد الميلاد

مصر تلبس القناع

(تاريخ العلاقة بين مصر واليونان)

يمكن الرجوع إلى جذور هذه العلاقة في الصفحات السابقة، وظهر من التتبع التاريخي أن الاستيطان بدأ في القرن ٨ ق.م بتجار إغريق اختاروا مصر ضمن موجات هجرة من مدن اليونان لكثرة صراعاتهم الداخلية، وهربا من الخراب الذي تركته في مناطقهم هجمات قبايل شعوب البحر[٢٢٥]، فلم يلفتوا النظر بقلة عددهم ومهارتهم في البيع والشراء لخطرهم، ومدو حبال الود مع البيوت الغنية والحكام، واستقبلت الأسرة ٢٦ مجموعات أخرى كمحاربين مرتزقة، وتضخم عددهم خلال ٣٠٠ سنة حتى صاروا أصحاب مستوطنات عسكرية وتجارية، وانتهى الأمر بمعاونتهم للفرس مرة على احتلال مصر، ثم مجيء الإسكندر.

▼▼▼ الجيش في الاحتلال اليوناني (إغريق- مرتزقة)

في نظام الحكم الذي وضعه الإسكندر ثم بطلميوس الأول لمصر كان جيش البطالمة يتكون من المقدونيين والإغريق والمرتزقة، وبعد تدخل روما بحجة حماية العرش البطلمي في آخر عصور البطالمة، انضم الرومان والعبيد وغيرهم لهذا الجيش الدخيل.

---

(٢٢٥)- يقول فرانسيس فيفر إن هجمات قبايل شعوب البحر غزت جزر البحر المتوسط، ومنها جزر اليونان، مطلقة فيها النيران والسيوف: انظر: "الفرعون الأخير رمسيس الثالث أو زوال حضارة عريقة"، مرجع سابق، ص ٤٨- ٥٠. ولجأ اليونانيون للاحتماء بمصر، لكن لم يحفظوا صنيعها، بل احتلوها تكرارا لما فعلته قبايل شعوب البحر في اغتصاب البلدان، وإن كان وسيلتهم التجارة والاستيطان والمرتزقة.

وبنظرة على وصف يوليوس قيصر لمكونات الجيش نهاية الاحتلال البطلمي يتكشف الخطأ المخجل الذي يقع فيه مؤرخون حين يصفون ذلك الجيش بأنه "جيش مصري"، فلم يكن فيه من المصرية سوى الأموال التي تتدفق من عرق المصريين بالغصب للإنفاق على جيش معظم أفراده من الأجانب والمرتزقة والعبيد، وقائده الأعلى أجنبي، ويخوض معارك ليس للمصريين فيها أي مصلحة.

يقول: "إن جيش إخيلاس [قائد جيش اليونانيين] لم يكن بالدرجة التي يستهان بها من ناحية الحجم ونوع رجاله وخبرتهم في الحرب، فقد كان لديه ٢٠ ألفا تحت السلاح يتألفون من جنود جابينيوس الذي استمرأوا حياة الانطلاق في الإسكندرية، قد نسوا النظام الروماني ومعنى انتسابهم لشعب روما، واتخذوا لأنفسهم زوجات وأنجب كثير منهم أطفالا. أضف إلى هؤلاء أعدادا من اللصوص وقطاع الطرق في سوريا وكيليكيا والمناطق المجاورة، وقد انضم إليهم كثيرون من المجرمين والمنفيين؛ فكل من يفر من عبيدنا كان له ملجأ مأمون وحياة مطمئنة في الإسكندرية ما داموا يسجلون أنفسهم في عداد الجنود".

ويتابع: "هؤلاء الجنود كانوا يطالبون بقتل أصدقاء الملوك، وينهبون أملاك الأثرياء، ويحاصرون قصر الملك من أجل المطالبة بزيادة رواتبهم، ويطردون بعض الملوك من العرش ويعينون آخرين، جريا في الواقع على عادة قديمة لجيش الإسكندرية، وكان هناك إلى جانب هؤلاء ألفان من الفرسان، هؤلاء الجنود كانوا قد شاخوا في حروب الإسكندرية المتعددة عندما أعادوا بطلميوس الوالد إلى عرشه، وعندما قتلوا ابني بيبولوس، وأثناء حروبهم ضد المصريين، هكذا كانت خبرتهم الحربية[٢٢٦]".

ويتضح من قول يوليوس قيصر عن حروب الجيش البطلمي أن مهمته الأساسية بعد الحروب الخارجية كانت شنه حروبا على المصريين وعمل مؤامرات ضد الحكام والفتن للحصول على أكبر مكاسب، فما كان جيشا مصريا، بل ولا أي جيش بالمعنى الكريم للكلمة.

ولم ينضم مصريون حقيقيون إلى الجيش إلا في حالات نادرة، أشهرها احتياج الإغريق لهم في موقعة رفح كما سنراها عند الحديث عن الثورات المصرية ضد البطالمة.

♦♦♦السكان وتعريف المصري في الاحتلال اليوناني

(مصر بين هويتين)

في زمن الاحتلال الخاسوتيمي ظلت مصر- ولو ظاهريا- مجتمعا له هوية واحدة، لأن قبائل الاحتلال الخاسويتمي لحد كبير تزيوا بالزي المصري وتحدثوا بالمصرية وعبدوا المعبودات المصرية، خاصة وأنه لم يكن لهم امتداد حضاري خارج مصر، أما بعد احتلال الإغريق لمصر، فصارت كأن بها هويتان، أو مجتمعان منفصلان تمام الانفصال في الثقافة لغة ودينا، وفي المهن، وفي أماكن الإقامة، وفي الزي والأخلاق والعادات.

---

[٢٢٦]- مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١٠٢، والمقصود بقوله "جريا على عادة قديمة لجيش الإسكندرية" هي أن الجيش البطلمي كان دائم الانقلابات وعمل اضطرابات لتولية حاكم أو تنزيل آخر أو إجباره على تنفيذ مطالبه

الأولى هوية الشعب الأصلي ابن البلد، الأغلبية الكاسحة، ومعظمهم يقطن الريف؛ أي معظم مساحة مصر، وعددا من المدن البعيدة عن العاصمة، يحترفون الزراعة والأشغال اليدوية والفنون والصناعات والعمارة وبعض التجارة والعمل في المعابد، ويملكون نسبة قليلة من ثروة البلد، ويعرفون بملامحهم ولغتهم وملابسهم وأخلاقهم وعاداتهم وأعيادهم، وبأنهم "ريفيون"، وبفضل هؤلاء- فقط- بقي لمصر بعضا من هويتها حتى اليوم.

والثانية هوية المجتمع البرَّاني-الدخيل، ومكون من خلطة أعراق وطوايف وديانات، لا يجمعهم إلا الولاء للمال وللاحتلال وثقافة الإغريق، خليط من اليونانيين والكاريين والآرميين واليهود والفينقيين، بأزيائهم ولغاتهم وأديانهم وأشكالهم المختلفة تماما عن المصريين، وكانوا قلة في العدد بالنسبة للسكان الأصليين، ويقطنون المدن وقليل من فقراءهم في الأرياف، ويحترفون مهن الجيش، والسياسة، والتعليم، والوظائف الإدارية الحكومية، والتجارة، والصناعة، وبعضهم عمل في المعابد، ويتملكون معظم ثروة البلد.

وبين هذا وذاك، كان قليل من المصريين يستطيعون الولوج إلى المجتمع الأجنبي لأغراض الدراسة والتعليم أو العمل، وحينها يتطبعون بالطابع الإغريقي في الملابس والثقافة، وأحيانا الأسامي، مثلما يظهر عليه بيتوزيرس، كاهن تحوت، في مقبرته بتونة الجبل بالمنيا، والذي تسمى باسم يوناني بجانب اسمه المصري "بادي أوزير"، ومثل المؤرخ مانيتون الذي كتب التاريخ المصري باليونانية.

ولا يوجد إحصاء رسمي لتعداد المصريين وتعداد كل جالية، ولكن أرقام إجمالية في كتابات المؤرخين والرحالة، منهم جزيفوس الذي عاش بداية العصر الروماني، أي قريب من الاحتلال اليوناني، وقال إن سكان مصر ٧ مليون ونصف المليون عدا سكان الإسكندرية الذين كان لهم سجل خاص، لأن اليونانيين اعتبروا الإسكندرية مدينة منفصلة عن مصر، وجعلوا سكانها من الأجانب، ولها امتيازات خاصة.

ووضع الدكتور مصطفى عبادي أستاذ التاريخ اليوناني- الروماني ثقته في هذه الأرقام؛ نظرا لأن الإدارة اليونانية والرومانية كانت تحتفظ بإحصاءات دقيقة لعدد السكان، كما كانت تسجل المواليد والوفيات بانتظام لارتباط هذا بالضرايب.

وعن سكان الإسكندرية قال ديودور الصقلي إن عددهم من الأحرار في الفترة الأخيرة من الحكم البطلمي هو ٣٠٠ ألف شخص، وعلى هذا الأساس اقتراح عبادي أن متوسط سكان عدد مصر حوالي ٨ مليون في العصر اليوناني وبداية الروماني، أغلبيتهم من المصريين[٢٢٧].

ودلت إدارة اليونان للأجناس المختلفة في مصر صراحة على التمييز الواضح لصالح الأجانب، سواء من الإغريق أو المتأغرقين (الجاليات الأجنبية الدائرة في فلكهم) على حساب المصريين[٢٢٨].

يعكس هذا الوضع الممتاز للإسكندريين لغة الوثائق الرسمية الخاصة بالضرايب وقوائم أصحاب

---

(٢٢٧) - انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مصطفى عبادي، مرجع سابق، ص ١١٠

(٢٢٨)- انظر: نفس المرجع، ص ١٠٩- ١١٠

الأملاك، فنجد هذه الوثائق في بداية العصر الروماني تقسم الملاك إلى فئتين هما "الإسكندريين" و"المحليين"، وهذه المقابلة بين الإسكندريين وسائر السكان في وثائق الضرايب تبين قوة الإسكندريين كطبقة اقتصادية؛ فبسبب تحكمهم في وسائل الثراء عن طريق التجارة العالمية أصبحوا أثرى طبقة في مصر، وأكبر متملكين للأراضي(٢٢٩).

ويوصف الإغريق والجاليات الأجنبية بَحسب المدن التي يسكنونها أو الأعراق التابعين لها، فيُقال هيلينيين أو متروبوليين أو سكندريين، أما بقية السكان من مصريين وغيرهم فيوصفون حسب حرفهم، وربما على هذا الأساس تم تصنيف المصريين بأنهم المزارعين أو الفلاحين؛ نظرا لتركزهم في الأرياف وارتباطهم بالزرع، حتى وإن كانوا يعملون بمهن غير فلاحة الأرض، كما يطلق عليهم وصف "المحليين".

وهم يملأون الريف على امتداده الواسع، ولا يختلطون بالمستوطنين إلا في أمور محددة، فقد اهتمت الحكومة اليونانية بحفظ العنصر الإغريقي نقيا دون أن يختلط ببقية السكان فيفنى فيهم بمرور الزمن، وجعلوه العنصر "الممتاز" في المجتمع، وسنوا له قوانين تجعلهم هم فقط من يحصلون على حق المواطنة في الإسكندرية، ومنعت الزواج بالمصريين(٢٣٠).

ولبقية الأعراق الأجنبية تجمعات خاصة، فهناك مثلا "بوليتيوما" للمقدونيين، وأخرى لليهود، وثالثة للكريتيين وهكذا، والبوليتيوما نظام يتشابه مع الجيتوهات اليهودية في أوروبا، وإن كان في مصر غرضه تعلية شأن سكانها الأجانب وليس تحقير شأنهم كما كانت تفعل أوروبا مع يهود العصور الوسطى.

أما اليهود في مصر وقتها فكان لهم كغيرهم من الأجانب وضع مميز، وتأغرقوا في كل شيء- ما عدا دينهم وعاداتهم ومعابدهم(٢٣١)، لأن هذه الرابطة هي الوحيدة التي تجمع بينهم وتلم شتاتهم في أي مكان هم فيه بديلا عن الرابطة الوطنية التي يفتقدونها، وصار لهم حيًا خاصا داخل الإسكندرية هو حي "دلتا"، وهم رقم ٢ بعد الإغريق في العدد والنفوذ بالمدينة(٢٣٢).

أما المصريون الحقيقون، أصحاب البلد، فرغم أنهم بطبيعة الحال الأغلبية الساحقة وعماد المجتمع، إلا أنه في كل المجالات كان اليوناني هو الرئيس والمصري هو المرءوس، باستثناء مجال المعابد(٢٣٣).

وفرَّقت القوانين أيضا بين السكان، فالقانون المصري القديم للمصريين، وصدر قانون خاص باليونانيين والأجانب، وقانون ثالث خاص بالمدن الثلاثة المخصصة لليونانيين (الإسكندرية، بطلمية، نقراش "نقراطيس") ولكل نوع من القوانين محاكم خاصة وقضاة(٢٣٤).

أما أصحاب الحظوة الكبرى فهم سكان الإسكندرية (الإغريق والمتأغرقين)، فإضافة إلى أن لهم مواطنة

---

(٢٢٩)- انظر: نفس المرجع، ص ٢٠٩
(٢٣٠)- انظر: نفس المرجع، ص ١١١
(٢٣١)- نفس المرجع، ص ١١٣
(٢٣٢)- انظر: المرجع السابق، ص ١١١- ١١٤
(٢٣٣)- المرجع السابق، ص ١١٤- ١١٥
(٢٣٤)- نفس المرجع، ص ١٢١، ويشبه هذا نظام المحاكم القنصلية والامتيازات الأجنبية في عصر أسرة محمد علي.

خاصة بهم، وبالرغم من أنهم الأكثر غنى تمتعوا بإعفاءات ضريبية واسعة[٢٣٥]، وجاء تخصيص مواطنة لسكان الإسكندرية جناية مريعة للاحتلال اليوناني، فصل بها المدينة فصلا تاما عن مصر ليحفظوا للإغريق وضعا فوق بقية سكان البلد، وما زال يونانيون- حتى اليوم- يعتبرون الإسكندرية مدينة خاصة بهم ويحلمون بعودة احتلالها كما سنرى لاحقا.

وتمنح مواطنة الإسكندرية أصحابها معاملة مميزة في الحقوق السياسية والضرايب، وفي الاحتلال الروماني، أصبح الحصول على المواطنة الإسكندرية جواز المرور للحصول على المواطنة الرومانية، وهذا بطبيعة الحال قاصر- في معظم الأحيان- على الإغريق و المتأغرقين، لأن الإقامة الدايمة في الإسكندرية لم تكن بالسهولة لكل السكان، بل وليس كل من أقام فيها يكون سكندريا، فكثير من اليهود لم يحصلوا على المواطنة السكندرية رغم عيشهم فيها، كما كانت مواطنة الإسكندرية في الاحتلال الروماني تعفي أصحابها من دفع ضريبة الرأس (الجزية).

▼▼▼ نتائج الاستيطان والاحتلال الإغريقي

❶ مصر تلبس القناع.. لأول مرة

إن كان الاحتلال الاستيطاني الذي أوصل تحالف القبايل نهاية الأسرة ٢٠ إلى عرش مصر هو النكبة الأولى التي أضاعت حرية مصر وجيشها ورمتها في بئر الاحتلالات الطويلة، فإن الاحتلال الإغريقي والروماني هو النكبة الثانية التي بدأت مشوار مسح هوية مصر أو تغريبها عن أهلها.... كيف؟

لأنه رغم ما عاناه المصريون في عهد الاحتلال القَبلي الخاسوتيمي من استبعاد أبنائهم عن المناصب القيادية، واحتكار الدخلاء للثروة، وضياع أرواح المصريين في أتون الحروب الداخلية خلال الصراع القَبلي على السلطة، وتحويل بلدهم إلى مهبط للمرتزقة والعصابات، إلا أنه بقي الحكام الأجانب ملتزمين بالمعالم الرئيسية للحضارة المصرية، وإن شابها التشويه من ثقافتهم الدخيلة.

فالمستوطنون الأجانب وقتها لم يكونوا شعبا موحدا، بل "أقوام مختلطة متعددة اللغات" على حد وصف فرانسيس فيفر[٢٣٦] أتت من مناطق وثقافات مختلفة، وعندما تمكنوا من احتلال مصر لم يكونوا يملكون حضارة أو دينا أو لغة واحدة ينافسون بهم ما وجدوه في مصر، فاضطروا للتستر بالحضارة المصرية كضرورة من ضرورات البقاء والسيطرة.. فظل وجه مصر مصريا.

أما المحتلون الجدد، الإغريق، فإنهم من مدن متجاورة، ولغة واحدة، وورائهم ثقل ثقافي في اليونان وخبرة عسكرية قتالية عريضة وجيوش مرتزقة حاشدة، وورائهم قوة اقتصادية عالمية، كونوها من سيطرتهم على التجارة الدولية، كما غلبتهم نشوة أنهم صاروا قوة عالمية بفضل انتصارات الإسكندر الذي

---

(٢٣٥)- انظر المرجع السابق، ص ١٢٥- ١٣٥
"الفرعون الأخير رمسيس الثالث أو زوال حضارة عريقة"، مرجع سابق، ص ٥٠

تبنى الثقافة الهيلينة؛ ففرضوا ثقافتهم البرّاني على العاصمة الجديدة وهي الإسكندرية- حتى في اسمها- وفرضوا ذات الثقافة على المدن التي يكثر فيها الجاليات الأجنبية مثل منف والفيوم.

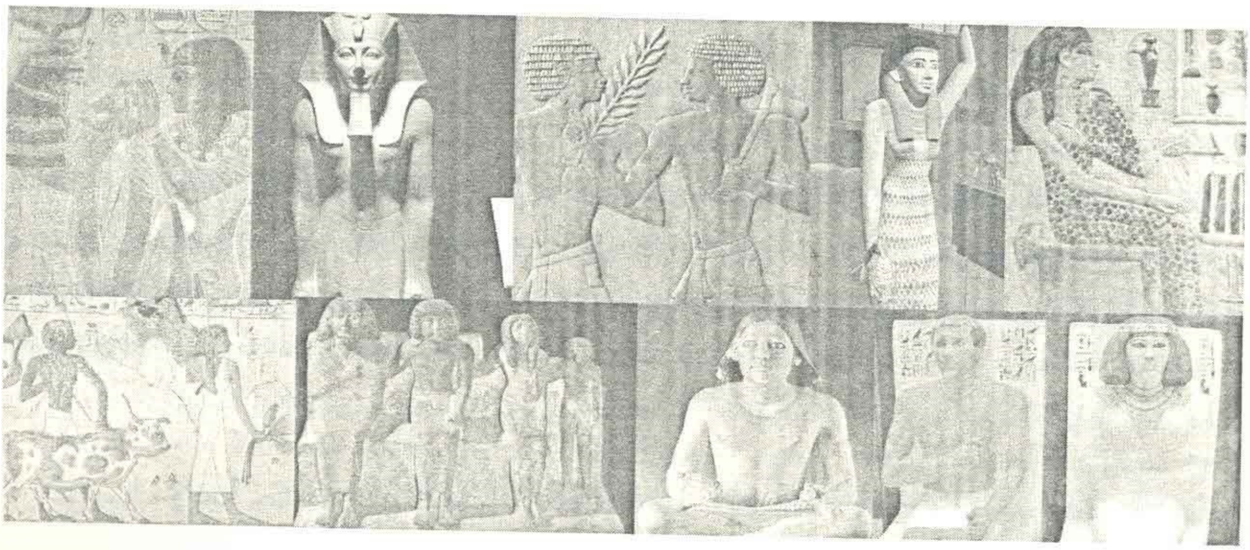
وحتى المعابد المصرية التي تركوا المصريين يعيدون بنائها أو يرمموها انحصر أكثرها في الوجه القبلي، مثل إدفو وكوم إمبو ودندرة في أسوان والأقصر، ولم يُلحظ اهتمام مماثل للمعابد المصرية في منف وأون والفيوم؛ فصارت المدن طابعها أجنبي (إغريقي) وليس مصريا- لأول مرة في تاريخها- تتركز فيها التجارة والثروة ومعاهد العلم، حتى أن القادم من الخارج ويتجول في العاصمة والمدن المتأغرقة لا يسمع الحديث في الغالب إلا باللغة اليونانية، ولا يرى إلا ملابس يونانية، لمعبودات يونانية- إضافة لـ إيسة التي صارت معبودة عالمية- والملامح يونانية وخليط من جاليات أخرى، كأنها بلد آخر، وإذا لم يخطف رجله ويتجول في الريف الواسع ويرى ملايين المصريين لظن نفسه في بلد لم يحمل يوما اسم كيمة (مصر).

ويرصد نفتالي لويس أن الإغريق تبنوا عبادة مقدسات مصرية أثرت فيهم بقوة، واحتفلوا بأعياد مصرية كرأس السنة المصرية إلا أنهم أعطوها أسماء معبوداتهم الإغريقية أغلب الوقت، فمثلا إيسة سموها ديميتر وهيرا، وأوزير سموه أبولو وبلوتو، وإيسة وحتحور بأفروديت، وأن اليونان ظلت- بتعبيره- "الأم الروحية" للإغريق، ولم يبنوا معابدهم إلا على الطراز اليوناني مع بعض التأثر المصري لاستخدامهم مواد بناء وأساليب محلية، وأقاموا أعيادهم بما يتواكب مع ما يجري في بلاد اليونان، وتبرع أحد مستوطني البهنسا بمبلغ كبير لتقام احتفالات للشبيبة على نمط التي تجري في أنتينوبوليس (مدينة مخصصة للإغريق بالمنيا)، وفي سنة ٢٦٨ م (أيام الاحتلال الروماني) وجدت قائمة بأسماء إغريق وإغريق رومان من مستوطني نقراطيس (نقراش) في احتفالات تضمنت أشعار ومباريات ورقصات أغريقية تحت رعاية الإلهين هيراكيليس وديونيسيوس، وفي رسالة من أوريليوس أجاثوس مدير معهد التربية يوجه دعوة لشخصيات لحضور ما سماه بـ"الاحتفال بعيد أجدادنا" بمناسبة ذكرى الإله كرونوس" في الفيوم؛[٢٣٧] أي رغم استيطانهم في مصر لأكثر من ٦٠٠ سنة ظلوا إغريق الروح والأسامي واللغة والانتماء، وفي نفس الوقت يدعون أن مصر ملك لهم.

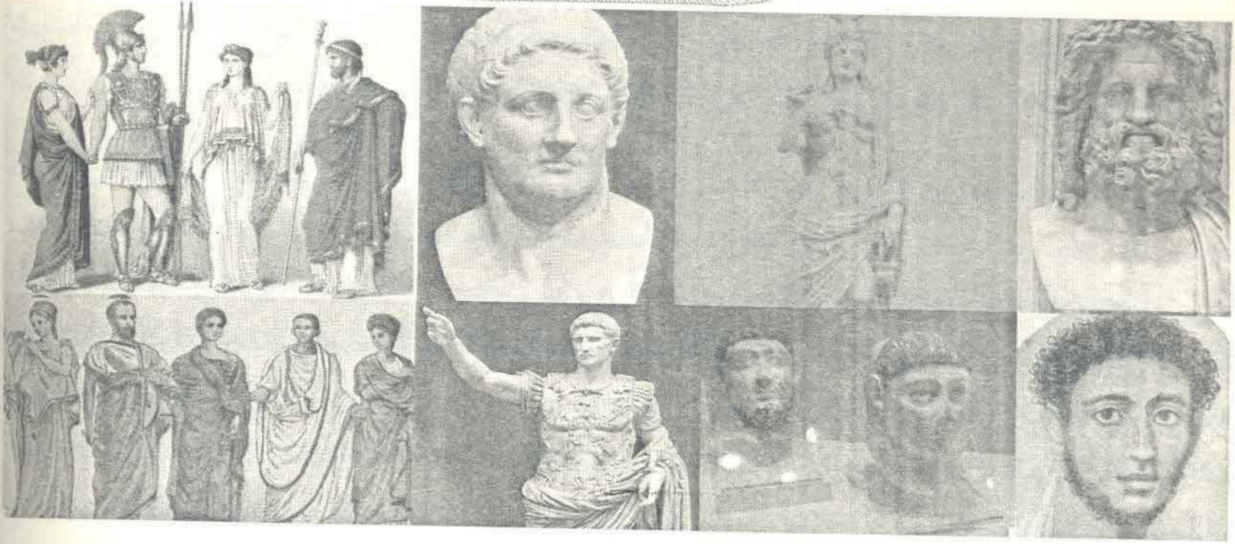
وبذلك صارت مصر كإنسانة وضِع على وجهها غصبا قناعا أجنبيا حجب ملامحها الحقيقية، واستُبعد بقية جسدها خلف التراب والرمال في الأرياف كي لا يُرى منها إلا ذلك الوجه الاصطناعي، ومنذ ذلك الوقت- وحتى أول القرن ٢٠- ومصر في الريف الواسع كأنها بلد، وفي المدن بجالياتها الأجنبية وبرابرتها كأنها بلد آخر.. وتاريخ ذلك العصر لا يسجل من النجوم إلا ما فعله الحاكم اليوناني، والشاعر اليوناني، والفيلسوق اليوناني أو تُقال أحيانا السكندري- ولم يسمح ببروز مصريين إلا نادرا مثل مانيتون لتخصصه في تاريخ مصر- حتى شاع ذلك الظن الساذج بأن المصريين (أو كما يُقال الفراعنة) اختفوا فجأة بحلول الاحتلال اليوناني، كما شاع ذلك التقسيم الساذج أيضا للتاريخ المصري بأنها مصر الفرعونية، ثم مصر اليونانية، ثم مصر الرومانية، ثم مصر العربية، وهكذا... كأن لا شعب أصيل فيها بالملايين من نبع

[٢٣٧]- انظر: الحياة في مصر في عهد الرومان، نفتالي لويس، ص ٩٤- ١١٥

أرضها، من عرقه يعيش ويزدهر اليوناني والروماني والعربي إلخ.. كأن لا شعب.



الوجه الأصلي لمصر.. مصريون حكاما ومحكومين (المصدر: تجميعة قوش وتماثيل من المعابد والمقابر المصرية)



القناع الأول الذي ألصق على وجه مصر غصبا، الوجه اليوناني الروماني (المصدر: تجميعة تماثيل ونقوش لرومان ويونانيين من المعابد والمقابر وصور مرسومة للأزياء الخاصة بهما من الإنترنت- الصف الأعلى يمثل اليونانين والأسفل يمثل الرومان)

2 تغيير اسم ومدلول مصر والمصريين

قلد اليونانيون الآشوريين في تغيير أسماء المدن المصرية العريقة، وإن توسعوا، فمثلا أون (عين شمس) صارت "هيليوبوليس"، ومنف صارت "ممفيس"، وآبو أو سونو (أسوان) صارت "إلفنتين"، وفيوم صارت "كروكوديلوبوليس"، وواسط (الأقصر) صارت "ديوس بوليس"، أو "طيبة" إلخ[٢٣٨].

أما الجديد فهو تغيير اسم كيمة (مصر) لتكون "إيجيبتيوس"، وترتب على هذا تغيير وصف المصريين من "كيمتيو"، إلى "جيبتيون"، أو "جيبتيوس" باللفظ اليوناني[٢٣٩]، وهي التي جاءت منها كلمة "قبط"، وشملت ليس فقط المصريين الحقيقيين، بل والمستوطنين الأجانب من غير سكان الإسكندرية والمدن المخصصة للإغريق، فحدث التباس في فهم مدلول كلمة "قبطي"، ودور المصريين في بعض الأحداث والأفكار التي تُنسب إلى "القبط"، دون تحديد المقصود بها المصريين الحقيقيين أم المستوطنين الأجانب، أم الاثنين كما سنرى.

وغيروا أسماء المقدسات فمثلا إيسة صارت "إيزيس"، وحور صار "حورس"، وأوزير صار "أوزوريس"، ونبت حت صارت "نفتيس"، وتحوت صار "هرمس"، وتبدلت أسامي الحكام فأمنحوتب صار "أمونوفيس"، وأحمس صار "أمازيس"، وهكذا، وهذه المسميات هي التي شاعت في كتب التاريخ فيما بعد، بل وعلى ألسنة المتعلمين من المصريين حين كتب أحدهم تاريخ مصر وهو مانيتون، ثم بدأ مشوار اختفاء أسامي هذه المقدسات المتجذرة في عروق المصريين بعد إغلاق المعابد المصرية أيام الرومان، وانتسبت العلوم المصرية لغير أصحابها، فصارت عيون الحكمة المصرية تشتهر بأسماء

---

(٢٣٨)- حكام الأقاليم في مصر الفرعونية، حسن محمد محيي الدين السعدي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩١، ص ٣٥٥- ٣٦٢

(٢٣٩)- لتتبع ظهور لفظ قبط انظر: تراث الأدب القبطي، شنودة ماهر ويوحنا نسيم يوسف، مؤسسة القديس مرقس لدراسات التاريخ القبطي، ص ٥٤-٥٥

أفلاطون وفيثاغورث وأرسطو مثلا لا باسم المصريين[٢٤٠].

ويجدر الملاحظة هنا، أنه رغم اعتماد المسميات الإغريقية هذه رسميا، إلا أنها ظلت محصورة على ألسنة الأجانب والورق الرسمي، فيما المصريون- وخاصة الأميين وفي الأرياف- ظلوا محافظين على الأسامي المصرية النقية في كل شيء، وينطقون اسم بلدهم (كيمة وأحيانا خيمي).

3 تحقير مكانة المصريين.. الحرب النفسية الطويلة

والأفدح، هو محاولة تغيير سمعة المصري ذات الرنين التاريخي الساحر؛ فلأول مرة يعتبر أن يوصف شخص بأنه مصري تقليلا من شأنه، وتُرمى هذه الكلمة بأحط الصفات مثل "بربري" و"منحط"؛ فكتب إغريقي يعيش في البهنسا لأسرته: "ربما تظنون أو تتوقعون أنني قد أصحبت بربريا أو مصريا غير متحضر"، نافيا عن نفسه أن يكون قلَّد المصريين في عيشتهم القروية[٢٤١]، بعد أن كان بعض الإغريق- مثل هيردوت- يقولون إنهم نقلوا الكثير من علومهم وآلهتهم عن معبودات مصر، ويروي هيرودوت أيضا حين زار مصر خلال الاحتلال الفارسي أن المصريين كانوا يأنفون من تقبيل المستوطنين اليونانيين في شفاههم، ولا يستعملون آواني الأكل اليونانية، بل لا يذوقون لحم ثور طاهر إذا قُطع بسكين يونانية[٢٤٢]، وأبدى عجبه من إسراف المتدينين المصريين في نظافتهم[٢٤٣].

فصاروا بعد تمكنهم من رقبة المصريين يلبسون كلمة إغريقي بأعظم الصفات، وباتت كلمة "متعلم" مقترنة بمن يرتدي الزي اليوناني، ويتكلم بلسان اليونان، ويعيش عيشة اليونان، ويكون اسمه من أسامي اليونان، وأصدروا قوانين تميز اليوناني عن المصري في كافة المعاملات.

ورغم اضطرار اليونانيين للاستعانة بالكثير من علوم وديانة الحضارة المصرية في حياتهم ومعابدهم ومنازلهم لشدة ما تبهرهم، لكن اعتمدوا "تحقير المصريين" سياسة ثابتة، ليس لأن المصريين يستحقون الاحتقار، ولكن ليشعروهم بالاحتقار؛ فيشعروهم بأنهم مختلفين عن الأجداد القدامى صانعي هذه الحضارة وتصبح مشاعا، وليشعروهم بأنهم ليسوا أهلا لإدارة بلدهم... فيرضوا باحتلالهم، أو ينكسروا.. وليشعروهم بأنهم ليسوا أهلا لاستكمال بناء الحضارة، فيتركوا الساحة لهم... ولا تقوم للمصريين قائمة أخرى.

يقول عباس العقاد في استعراضه لوسايل كافة المحتلين للحط من مكانة المصريين: "فاليونان في العالم القديم كانوا ينقمون على المصريين الترفع والشمم واعتبارهم الإغريق جميعا في الحضيض الأدنى من مراتب الشعوب، وكانوا يشعرون بنفور المصريين منهم لأنهم أعانوا الفراعنة الغاصبين [الخاسوتيميين] عليهم، ودخلوا زرافات زرافات في الجيوش المرتزقة التي كان أولئك الفراعنة يستعينون بها على حراسة

---

(٢٤٠)- انظر: متون هرمس الحكمة الفرعونية المفقودة، تيموثي فريك وبيتر غاندي، ترجمة عمر الفاروق عمر، المجلس الأعلى للثقافة، ص ٢٦

(٢٤١)- انظر: الحياة في مصر في العصر الروماني، نفتالي بوليس، ترجمة آمال الروبي، مراجعة محمد حمدي إبراهيم، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٤٥

(٢٤٢)- هيردوت يتحدث عن مصر، مرجع سابق، ص ١٣٢و ١٣٤، و١٤٩- ١٥٢

(٢٤٣)- تاريخ الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مرجع سابق، ص ٢٨١

عروشهم وإخضاع رعاياهم، وكان اليونان يزعمون بطبيعة الحال أن الفراعنة يتخذون الجيوش المرتزقة من الأجانب ومن اليونان خاصة لأن أبناء البلاد لا يصلحون للحرب ولا يصبرون على مضانك الجندية"، وردَّ العقاد بأن هؤلاء الحكام استكثروا من المرتزقة اليونان وأبعدوا المصريين عن الجيش؛ خوفا من الثورات المصرية ضدهم[٢٤٤].

وتجاهل اليونانيون أن المصريين هم الجيش الوحيد الذي صدَّ قبايل شعوب البحر في حين أن اليونانيين رغم تمرسهم في عمل المرتزقة فشلوا في صدهم، بعد فشلهم في إقامة دولة موحدة لهم، وهرب بعضهم ليتنعم بمصر وعرق فلاحيها.

ومن أجلى مظاهر الشموخ المصري في ذلك الوقت أن المعابد المصرية لم يُقام فيها تماثيل للحكام اليونانيين ولا الرومان، وفيما يخص النقش فلم يُمثل فيها على الجدران حاكم أجنبي إلا بملابس وملامح مصرية (رغم أن أكثرهم لم يرتدوا الملابس المصرية أصلا)، ولم يُنصب فيها ظل للمعبودات اليونانية كالمسخ سرابيس، ولم يُنقش على جدرانها حرف واحد من لغة أجنبية.

4 عصر رجال الأعمال الدوليين

بعد أن استتب الأمر للإسكندر بتتويجه حاكما لمصر، بدأ خطوات إحكام قبضة الإغريق على مفاصل الدولة، فألغى التنظيم الإداري الذي كان في مصر قبله، وقسم مصر إداريا إلى ٤ مناطق أو ٤ أقاليم، وهي الوجهان القبلي والبحري ومنطقة الصحراء الشرقية ومنطقة الصحراء الغربية، وأوكل بإدارة الوجهين القبلي والبحري لمصريين، ومن غير الواضح إن كانا فعلا مصريين أم من المستوطنين المستمصرين، وهما بتيزيس ودولاسبيس، فكل ما هو ليس إغريقي كانوا يسمونه "مصريا"، وأوكل بإدارة الصحراوين لإغريق، وهما أبولونيوس كليومنيس النقراطيسي، كما أوكل مهام قيادة الجيش للإغريق.

ووفق الدكتور مصطفى عبادي صار لكليومنيس النقراطيسي- أحد كبار المستوطنين الإغريق القدامى- الحظوة الأكبر في المناصب، فتولى أيضا الإشراف على الخزانة (وزارة المالية) ووالإشراف على بناء الإسكندرية في موضع لا يفصله عن اليونان سوى البحر[٢٤٥]، وما يهمنا أكثر في كليومنيوس أنه به ترسخ في مصر عصر يمكن أن يوصف بعضر "رجال الأعمال الدوليين" والتجار المحتكرين والوسطاء والسماسرة، وهي المهن الغريبة على الثقافة المصرية والتي سبق أن رأينا كيف غرسها في البلاد المستوطنون الإغريق واليهود في الأسرة ٢٦، وهي الأسس التي خلقت ما يُعرف حاليا بالشركات المتعددة الجنسيات والبنوك العالمية وصولا لمنظمة التجارة العالمية.

والمتتبع لأعمال كليومنيس يلاحظ أنه انتهج سياسة مقصودة لاحتكار تجارة القمح عن طريق السيطرة على السوق المصرية بأن يصبح هو المصدر الوحيد للقمح، وعن هذا السبيل استطاع التحكم في تجارة

---

(٢٤٤)- سعد زغلول، سيرة وتحية، عباس محمود العقاد، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١٧، ص ٧-٨

(٢٤٥)- مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مصطفى العبادي، مرجع سابق، ص ٢٢

القمح العالمية، وتحديد أسعاره في الخارج على نحو يحقق له الربح الوفير[٢٤٦].

وليصل إلى مرحلة الاحتكار والانفراد هذه قضى على سائر المنافسين المحليين له، مثل رجال المعابد وكبار المزارعين والمصدرين، مثلما تفعل حتى اليوم الشركات العالمية في مصر.

وبدأ برجال المعابد، فاستعمل الحيلة لإرهابهم واستنزافهم بالتدريجي حتى لا يفاجئهم فيثوروا؛ إذ جمعهم وأعلنهم أن المعابد تتكلف المال الكثير، ولذلك يجب القضاء على بعضها، فخافوا على معابدهم واتفقوا على جمع مبلغ كبير من أملاكهم الخاصة أو من أموال المعابد وقدموها لكليومنس[٢٤٧]، وهذه الجولة الأولى، بعدها اتجه إلى المزارعين، فتحسر ... محصولهم من القمح بالسعر الذي كانوا يصدرون به- أي يصبح وسيطا بينهم وبين الخارج رغم أنهم لم يكونوا بحاجة لذلك من قبل- وبذلك ... القمح، أصبح المصدر ...

أما عن تحكمه في ... البحر الأبيض المتوسط، يخبرونه أولا بأول عن أسعار القمح، وحينما يشح في سوق ويرتفع سعره ينتهز الفرصة ويرسل إلى ذلك السوق شحنات القمح يبيعها بالسعر الذي يفرضه هو، حتى يقال أنه باع الكيل من القمح في بعض الأزمات بمبلغ ٣٢ دراخمة، بينما السعر العادي بين ٥-١٠ دراخمات فقط[٢٤٨].

وبذلك تكون محاولة كليومنيس إنشاء تجارة احتكارية دولية هي الأولى في التاريخ[٢٤٩]، وأصبح للقمح المصري أهمية استراتيجية كما صار للقطن فيما بعد، وذلك على حساب غذاء المصريين، فلنا أن نتخيل كم نقص نصيب كل مصري من غذاء القمح ليستغله المحتكرون في بيعه بأرباح باهظة في الخارج.

وكثيرا ما تكونت في الإسكندرية شركات دولية من تجار ذوي جنسيات مختلفة للقيام بتجارة عالمية، يوضح هذه الظاهرة عقد تجاري بحري لاستيراد التوابل من شرق أفريقيا عن طريق البحر الأحمر، فأطراف العقد ينتمون إلى أكثر من ٧ جنسيات مختلفة[٢٥٠].

5 إهلاك مال المصريين في حروب غيرهم

توفي الإسكندر الأكبر خلال فتوحاته في الخارج؛ فارتبكت الإمبراطورية لأنه لم يضع نظاما لوراثة العرش، وانتهى الخلاف بين قادته إلى أن قتل زوجته روكسانا ورضيعها، وتقاسم البلاد المفتوحة، فتولى برديكاس أمر آسيا، واليونان تولاها أنتيباتروس، أما مصر فتولاها بطلميوس بن لاجوس؛ باعتبارها ولاية "سترابا" تابعة للإمبراطورية، لكنه لم يكتف بأن يكون مجرد "والي" فاستغل صراع القادة في آسيا واليونان على الحكم واغتيال برديكاس على أيدي ضباطه، واستقل بمصر، وبدأ العصر المعروف بالاحتلال

---

(٢٤٦)- انظر مرجع سابق، ص ٢٣- ٢٤

(٢٤٧)- انظر: نفس المرجع، وهذا نفس الأسلوب الذي سيتبعه محمد علي أيضا في تنفيذه لسياسة الاحتكار في القرن ١٩

(٢٤٨)- انظر: نفس المرجع، ص ٢٤- ٢٥

(٢٤٩)- نفس المرجع

(٢٥٠)- انظر: نفس المرجع، ص ١٤٢

البطلمي، نسبة لأن حكامه تسموا ببطلميوس، بداية من هذا وحتى بطلميوس الخامس عشر[٢٥١].

وأهلك ثروات مصرية ضخمة في صراعاته مع خصومه حكام سوريا واليونان الذين استكثروا عليه حكم مصر، كما أهلك البطالمة أموال المصريين على أفراح غيرهم، وعلى سبيل المثال فإن بطلميوس الثاني المشهور بالبذخ والمجون وسط المحظيات جمع حوله كل أسباب الفخامة والنعيم، ومنها أنه بعدما أوقف الحرب مع أنتيوخس ملك سوريا، زوَّجه من ابنته برنيقة، وحسب تقاليد العصر كانت المرأة أو والدها من يقدمون المهر، ويبدو أن مهر برنيقة كان من الضخامة بحيث لقبت بحاملة المهر[٢٥٢].

❻ تضخم الاحتلال الجالياتي (الاستيطاني)

وفيما يخص سياسته الداخلية اعتمد بطلميوس نظام الحكم المركزي القوي، النظام المصري الأصيل في الحكم، ودار في ذهنه سؤال: "هل سيحكم مصر بواسطة المصريين أم المقدونيين والإغريق؟".

والإجابة كانت سريعة فقرر "الاعتماد على المقدونيين والإغريق- رغم تنافرهم وتنافسهم- في جيشه وحكومته، وفتح باب مصر لهجرات إغريقية جديدة؛ ومنح ضباط جيشه وموظفي الدولة قطعا من الأرض يستثمرونها وقت السلم[٢٥٣]، وهذا الأمر من بوادر ظهور نظام "الوسية" الذي ترسخ في العصر الروماني، وربما كان له جذور في السابق، وفيه يستقطع الحاكم قطعا من الأرض للوافدين كمكافئات على خدماتهم للحكومة، وبمرور الوقت صاروا يتوارثونها، حتى وصلت إلى وراثة قرى بأكملها.

❼ تحريم مدن على المصريين

قبل الاحتلال اليوناني عاش اليونانيون وغيرهم من مرتزقة وتجار في مستوطنات خاصة بهم، مثل نقراش ومستوطنات أخرى في دمياط، وأخرى في منف.

وهذا النظام وافق طبيعة معيشتهم في بلادهم الأصلية باليونان، القائمة على نظام المدينة الدولة، فاليونان لم تكن دولة واحدة مثل مصر، بل كل مدينة يونانية دويلة بذاتها، وأهلها يديرون شئونهم بشكل منفصل لعدم تجانسهم ولكثرة صراعاتهم واستعبادهم وإذلالهم لبعضهم.

وبعد الاحتلال اتخذوا بدلا من المستوطنات الصغيرة مدنًا كبيرة، وهي الإسكندرية التي اختاروا لها موقع قرية راكوتة، ومدينة المنشاة في سوهاج (بطلمية)، وحولوا نقراش (نقراطيس) إلى مدينة، وأداروهم بنظام المدن اليونانية، وقسموا كل مدينة لأحياء وقبايل كعادتهم، وصارت حكرا عليهم وعلى المتأغرقين، ومحرمة على المصريين أصحاب البلد، عدا وجود مصريين في قرية راكوتة التي صارت ضمن

---

(٢٥١)- انظر: مرجع سابق، ص-٢٩

(٢٥٢)- انظر مصر من الإسكندر الأكبر وحتى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ٥٩- ٦٢

(٢٥٣)- انظر: مرجع سابق، ص ٤٦- ٤٨، و"المقدونيين واليونان عرقان متصارعان، ويحتقر المقدونيون كل يوناني، حتى أن اليونان لم يفرحوا بانتصارات الإسكندر المقدوني، وساعدت إسبرطة الفرس ضده، ولم يعتز اليونان بالإسكندر إلا في عصر لاحق بعد شهرته العريقة وربطها بالثقافة الهلينية. انظر: في أصول المسألة المصرية، صبحي وحيدة، مرجع سابق، ص ١٧

الإسكندرية، ولكن محرومون من الحقوق السياسية والمدنية كأنهم أجانب عن المدينة[٢٥٤].

وانطبق عليهم وعلى المصريين في كل المحافظات قول محمود حسن إسماعيل يصف حال المصريين أيام الاحتلال الإنجليزي[٢٥٥]:

كيف من جناتها يجني المُنى ونُرى في ظلها كالغرباء

وبذلك يكون اليونانيون توغلوا لأول مرة في الوجه القبلي بإنشاء المنشاة، تماشيا مع انتشار حامياتهم العسكرية، وتبعا لانتشار ما تملكوه من أراضي في أنحاء مصر، وللحد من نفوذ مدينة واسط "طيبة".

وإضافة للمدن الثلاثة، أنشأوا نظاما اسمه "نومات" والمفردة "نوموس"، وهي عاصمة المدينة، بحيث اختاروا مدنا مصرية، وحولوا قلبها إلى مدينة مغلقة على الإغريق، ليكونوا قريبين من الأراضي التي سيطروا عليها[٢٥٦]، وشكَّلت هذه المدن بقعا واضحة الاختلاف فوق الجسد المصري المتنافر معها، كأنها جزر تسبح في فوق صفحة مياه المحيط المصري الأخضر بحسب أحد التعابير.

❽ إزاحة اللغة المصرية عن عرشها.. لأول مرة (الخنجر الأول)

عندما احتل البطالمة مصر، اتخذوا إجراءات أزاحت اللغة المصرية عن عرشها كلغة رسمية للبلاد لأول مرة في تاريخها، فأعلنوا اليونانية لغة رسمية للمعاملات، وهي لغة العلم في المعاهد.

وساهم الفرق بين اللغتين، وقلة المصريين العالمين باليونانية في الفصل الطويل بين معظم المصريين والأجانب طوال الاحتلالين اليوناني والروماني، أما المصريين الذين تعلموا اليونانية فهم من يُلحقون بأعمال حكومية، أو يعملون في خدمات بالمزارع والتجارة، أو المجموعة النادرة التي شقت لها طريقا في في الإسكندرية لما بدأ الاحتلال اليوناني يشيخ.

ولكن ظلت على كل حال اللغة المصرية هي لغة المصريين في حياتهم، وفي نفس الوقت، فرغم اعتبار اليونانية هي اللغة الرسمية، إلا أن الحكومة تصدر المراسيم الهامة باللغتين المصرية واليونانية مثلما رأينا على حجر رشيد الذي يعود لذلك الزمن.

وبلا شك أن الأمية (فيما يخص الجهل بكتابة وقراءة اللغة المصرية) زادت في الاحتلال اليوناني، ففيما سبق كان المصريون أو حتى المستمصرين الناطقين باللغة المصرية هم من يتولون الوظائف الحكومية التي تتطلب القراءة والكتابة باللغة المصرية، أما في الاحتلال اليوناني حل الإغريق محل المصريين في معظم الوظائف، وحتى المصري الذي يحصل على وظيفة يضطر للكتابة باليونانية.

---

(٢٥٤)- انظر: تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان،أبو اليسر فرج،العين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط٢،ص ٩٧- ١١٠
(٢٥٥)- قصيدة دعاء الشرق، كلمات: محمود حسن إسماعيل، غناء وألحان محمد عبد الوهاب
(٢٥٦)- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، ص ٤٩، الحياة في مصر في العصر الروماني، نافتالي لويس، ص ٣٠- ٣١

وفيما يخص الثقافة عموما، تحولت دولة الاحتلال البطلمي لمركز إشعاع بفضل مكتبة الإسكندرية التي جمعت لها أكبر وأندر عدد من الكتب في العالم، وأصبحت الإسكندرية محط أنظار كل طالب علم على مستوى رفيع، بعد أن كانت تحظى بهذه المكانة منف وطيبة وأون في أزمنة الحكم المصري.

ولكن على ما في مكتبة الإسكندرية من شهرة في تطوير العلوم، إلا أنها كانت نكبة ثقافية من ناحية أخرى بالنسبة لحضارة مصر، لأنه يُعتقد أن الإغريق جمعوا وثائق وكتب مصرية هامة مما تحتفظ بها المعابد والمنشآت الرسمية من أنحاء مصر، وضموها إلى مكتبة الإسكندرية لاستكشاف أسرار مصر، ولترجمتها ونقلها إلى اليونانية، فأبعدوها عن يد المصريين في المدن البعيدة عن الإسكندرية، وقلّ انتفاع المصريين بها، وقلّت قدرتهم على تطويرها، فيما كانت مشاعا لأجناس الأرض بالأسكندرية.

وهذه الثروة الكبيرة احترقت في حريق مكتبة الإسكندرية في عصر كليوباترا، وهو ما ضيعَ الأصول المصرية في الكثير من العلوم والفنون التي تم نسبتها لحضارات أخرى بعد ذلك، وبهذا يصح القول إن مكتبة الإسكندرية لم تكن مكسبا حقيقيا إلا للإغريق والأجانب.

9 اختراع دين جديد.. المسخ سرابيس

إن كان الاحتلال القَبلي الدخيل نشر الخرافات في الدين المصري مثل المبالغة في تقديس الحيوانات والشكليات وخرافة اللجوء للوحي في كل الأمور داخل المعابد، والاحتلالين الآشوري والفارسي دمروا ونهبوا المعابد، فإن الاحتلال اليوناني تسبب في تكديس ما يوصف بتعدد الأديان والمذاهب المتعارضة التي جلبها المستوطنون معهم، وخلط الدين البسيط العذب بفلسفات معقدة متشاحنة.

فالمشهد الديني في مصر أصبح على هذا الشكل: المصريون لهم دينهم الراسخ في جذور الأرض، ثم المقدونيون والإغريق والسوريون والفينيقيون والفرس واليهود وقبايل وفدت من الشرق والغرب وغيرهم، ولكل جماعة من هؤلاء أديانه وأربابه ولغاته[٢٥٧]، وإن التقوا سويا بالحديث باليونانية.

وكثرة الأعراق والمذاهب هذة أوقدت معارك ومشاحنات من حين لآخر، فاحتاج المحتل الجديد لنوع من الوحدة الدينية تشمل بالذات المصريين باعتبارهم الأكثر عددا والإغريق باعتبارهم الأكثر نفوذا، حتى تساند هذه الوحدة الدينية الوحدة السياسية للدولة، فاخترع بطلميوس الأول ربا جديدا أسماه "سرابيس" مكون من الدمج بين المعبود المصري أوزير أبيس، وبين صفات معبودات يونانية مثل اسكلبيوس، وديونيسيوس وهليوس وزيوس[٢٥٨]، وهكذا انتقل الأمر من مجرد تشويه للعقيدة إلى إعادة تدوير واختراع لتخرج عقيدة ليست لها علاقة بروح مصر.

---

[٢٥٧]- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ٥٠

[٢٥٨]- انظر: نفس المرجع، ص ٥٠ -٥٢



سرابيس بذقن كثيفة وشعر طويل وملامح قاسية وجثة ضخمة وملابس إغريقية، ليس فيه من المصريين شيء، فتركزت عبادته في معابد الإغريق، وظل المصريون على دينهم القديم (المتحف القومي في الإسكندرية)

وأدخل اليونانيون أيضا في مصر بدعة جديدة هي "عبادة الملوك" في حياتهم وبعد مماتهم، فإن كان المصري مشهورا بتبجيل حكامه وتقديس ذكراهم بعد مماتهم، خصوصا من قدموا أعمالا جليلة مثل زوسر ومينا وتحوتمس، إلا أنه لم يخصص عبادة لهم إلا زيارة أضرحتهم بعد وفاتهم وتقديم القرابين بنفس روح تبجيل الأولياء والقديسين في المسيحية والإسلام فيما بعد، وبروح شعبية خالصة، ولكن البطالمة وضعوا عبادة الملوك، أحياء وأموات وبمرسوم من الدولة[٢٥٩].

ورغم ذلك تدل الآثار في المعابد وأنحاء مصر على أن البدع اليونانية الجديدة انتشرت بشكل محدود، فظل معظم المصريين مرتبطين برموزهم وأربابهم المعروفين من القدم، ولم تنتشر المعابد اليونانية وأربابها "المكلكعين" خارج المدن التي يحتكرها اليونانيون، بل وتفوق ما تسمى وقتها بعبادة إيزيس المصرية على المعبودات الإغريقية حتى وصلت إلى أن يكون لها معابد رسمية في روما غربا، فأصبحت صاحبة أول ديانة منتشرة عالميا خارج حدود بلدها[٢٦٠].

وفي نفس الوقت، حرص البطالمة على عدم تأجيج الغضب المصري لأقصاه بإعاده بناء أو ترميم ما تهدم من بعض المعابد المصرية في زمن الحروب والإهمال؛ وهذه المعابد هي من أبقت لنا على الشكل الكامل للمعابد المصرية في العصور السابقة لها، وصارت درة المعابد، ومنها معابد دندرة وفيلة وإدفو.

10 توزيع أرض مصر على الأجانب

تابعنا كيف جرى توزيع جانب من أرض مصر إلى ما يشبه الإقطاعيات على كبار عائلات الاحتلال الخاسوتيمي القبلي، ثم كمستوطنات للمرتزقة والمستوطنين الأجانب.

وحين هبط الاحتلال اليوناني وضع نظاما للملكية قسم الأرض المصرية إلى ٦ أنواع، الأول يسمى

(٢٥٩)- انظر: مرجع سابق، ص ٥٢
(٢٦٠)- مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ٥٢

أرض الملك وهي معظم أراضي مصر ويزرعها أعداد ضخمة من المزارعين يطلق عليهم اسم "فلاحو أو مزارعو الملك"، وأحيانا تؤجر للمزارعين نظير إيجار عيني يؤخذ من محصول الأرض(٢٦١).

ولأن شروط عقد الإيجار مجحفة بالمزارعين فكثيرا ما عجزوا عن سداد الإيجار، ولجأوا إلى الفرار من الأرض، ومنهم من لجأ للمعابد ووهب نفسه لخدمتها، وفي هذه الحالة لا تستطيع سلطة الدولة أن تناله بسوء، احتراما لحق المعابد في الحماية(٢٦٢)، وربما كان اللجوء للمعابد ووهب النفس لخدمة الإله هو ما أفرز نظام الرهبنة أيام الاضطهاد الروماني.

النوع الثاني هي الأوقاف، فمنذ القدم وللمعابد المصرية أوقاف من الأراضي، مثلما أصبح للكنائس والمساجد فيما بعد، وسعى اليونانيون لسلبها مثلما فعل كليومينيس، ووضعوها تحت سلطة الدولة مباشرة، ثم عاد بعضها إليها نتيجة للثورات المصرية.

النوع الثالث أراضي خُصصت كإقطاعات خاصة لموظفي الحكومة الإغريق أو المتأغرقين، وهي أراضي بور، تمنح لهم كمكافئة إن استزرعوها، ويبقى عائدها هو راتبهم طوال فترة وظيفتهم، ثم تعود ملكيتها للحكومة(٢٦٣)، والنوع الرابع أراضي مخصصة كإقطاعات عسكرية تمنحها الدولة البطلمية للإغريق والأجانب الذين خدموا في الجيش البطلمي طوال فترة حياتهم، ثم تعود للدولة بعد وفاتهم، ولكن في نهاية القرن الثاني ق.م صارت ملكية خاصة ومسموح بتوريثها.

وسمَّى البطالمة المنتفعين بهذه الإقطاعات من الإغريق والأجانب ب"المستوطنين"، وبعد معركة رفح والثورة المصرية (سيأتي ذكرهما بعد قليل) وإدخال مصريين في الجيش البطلمي بدأوا يحصلون على إقطاعات من تلك الأراضي، ولكنها أصغر من مساحة الأراضي التي يأخذها الإغريق وبقية الأجانب، بحسب مصطفى العبادي(٢٦٤).

النوع الخامس من الملكيات هو الملكية الشخصية، وكانت محدودة جدا بالنسبة لمساحة أراضي الدولة، وتتكون إما من الإقطاعات العسكرية بعد أن صارت تُورث، أو من أراضي زراعية مستصلحة تملكها أصحابها بعد استصلاحها، أما النوع السادس والأخير من ملكية الأراضي فهي أراضي المدن الثلاثة المخصصة لليونانيين(٢٦٥).

ومن هذا يتضح أن معظم الأراضي المصرية في عهد الاحتلال اليوناني كانت موزعة على الحكومة البطلمية والإغريق والوافدين الأجانب.

⑪ عيش المصريين في دولة تحكمها الدماء والانقلابات

(٢٦١)- انظر: نفس المرجع، ص ٥٢
(٢٦٢)- نفس المرجع، ص ١٣٠
(٢٦٣)- انظر نفس المرجع، ص ١٣٠- ١٣٣
(٢٦٤)- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١٣٣
(٢٦٥)- انظر: نفس المرجع، ص ١٣٥- ١٣٦

على قدر ما كانت دولة البطالمة مركزا للإشعاع العلمي، على قدر ما كانت مركزا لنزف الدم والبغضاء والحروب لكثرة المعارك والاغتيالات والانقلابات بين البطالمة في الصراع على العرش، أو لكثرة ثورات المصريين ضدهم.

فبعد وفاة بطلميوس الأول تولى ابنه الشاب بطلميوس الثاني، وامتلأ قصر الحكم بالمؤامرات العائلية، فكانت إرسينوي الثانية، زوجة بطلميوس الثاني، تكيد ضد أختها كي لا تنافسها في إدارة شئون البلاد، وكان أخيه ماجاس الذي يحكم بَرقة يتآمر ليستقل بها بعيدا عن سلطانه، ولكنه تصالح معه قبل وفاته، ولما مات بطلميوس الرابع ترك وليا للعهد عمره ٥ سنوات تحت وصاية أمه أرسينوي الثالثة، فقتل القائد العسكري سوسيبيوس الملكة ليكون هو الوصي على ولي العهد، وزيَّف وصية للملك قرأها على الناس، قال فيها إن الملك عهد إليه بالوصاية.

وكعادتهم، اشترى ولاء القوات بالمال، وعيَّن أصدقاء في المناصب الرئيسية، وردا على ذلك أعلن أتليبولميس قائد حامية بلوزيوم (الفرما) ثورة ضده في الإسكندرية، قتل خلالها سوسيبيوس وأخته وأمه، وصار أتليبولميس وصيا على الملك الطفل، واستغل أنتيوخس ملك سوريا وفيليب الخامس ملك مقدونيا هذه الصراعات للتوسع على حساب الإمبراطورية البطلمية، فدخل أنتيوخس حربا مع الجيش البطلمي انتهت باستيلائه على سوريا الجنوبية (فلسطين ولبنان).

وبعد موت مفاجئ لبلطميوس الخامس- مسموما فيما يبدو- كان ولي العهد بطلميوس السادس طفلا، فكثر أوصياء العرش والنزاعات، وانقسم ولاء القوات بين الأوصياء، ووقعت حروب أهلية (بين البطالمة وبعضهم)، وصارت الدولة صيدا ثمينا سهلا للتمربصين في الخارج، وخاصة روما[٢٦٦].

دخل البطالمة معارك مع أنتيوخس السلوقي ملك سوريا (السلوقيون من بقايا جيش الإسكندر مثل البطالمة) لاستعادة السيطرة على جنوب الشام انتهت بغزوه مصر، ووقع بطلميوس السادس أسيرا خلال محاولته الهرب، وولى الإغريق الثائرون في الإسكندرية بطلميوس السابع العرش، وتوسط وفد من المدن اليونانية بين البطالمة والسلوقيين حتى أقنعوا أنتيوخس بالانسحاب من مصر، وحصل اتفاق بين بطلميوس السادس وبطلميوس التامن على أن يكون الحكم شركة بينهم.

لكن أنتيوخس عاد الكرة وهاجم مصر حتى حاصر الإسكندرية، وهنا.. لم تقف روما مكتوفة الأيدي، فهي على علم بحقيقة الموقف، وتحرص على ألا تتغلب دولة على دولة؛ فسارعت بإرسال مندوب عنها إلى معسكر أنتيوخس قرب الإسكندرية يطالبه بالانسحاب من مصر "في الحال"[٢٦٧]، وبلغ من سلطان روما أن ردت على تردد أنتيوخس في الانسحاب بأن مندوبها "لايناس" رسم حوله دائرة بعصاة، وطلب منه أن يرد على طلب روما بالانسحاب قبل أن يغادر الدائرة، وبُهت الملك من عنف هذا التصرف، لكنه بعد تردد

---

(٢٦٦)- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مصطفى العبادي، مرجع سابق ، ص ٨٥

(٢٦٧)- انظر: نفس المرجع، ص ٨٧

قصير أجاب بأنه سيفعل كل ما يطلبه منه الرومان[٢٦٨].

وقُتل بطلميوس السادس خلال حرب جديدة مع السلوقيين في الشام، تاركا ولي عهد صغير هو بطلميوس السابع الذي قتله عمه بطلميوس الثامن ليخلو له الحكم منفردا، وتزوج أمه كليوباترا الثانية، واغتصب ابنتها كليوباترا الثالثة ثم تزوجها[٢٦٩]، وصار هذا الملك المارق معتمدا بشكل كبير على روما، حتى أنه عُثر على نقش في برقة يتعهد فيه لروما بأن تؤول مملكته إليها إذا توفي بغير وريث للحكم[٢٧٠].

▲▲▲ ثورات مصر ضد الاحتلال اليوناني

وسط كل هذا "العك" في الحكم، تأجج أكثر إحساس المصريين بالنفور من الإغريق والحرقة من تكبرهم على أهل البلد، وظهر في الأدب الشعبي نبوءات تبشر بيوم الخلاص وطرد الأغراب من مصر، فاشتعلت ثورات متتابعة، كشفت كتب مؤرخي اليونان والرومان عن ٥ منها على الأقل، أشدها ثورة ٢١٧ ق.م[٢٧١].

ووقعت الثورة بعد حادث لم يخطر للمصريين على بال، ففي وسط مستنقع المؤامرات الذي يسبح فيه القصر البلطمي انتهز أنتيوخس الثالث ملك سوريا الوضع ليستعيد سوريا الجنوبية من مصر، واستعان سوسيبيوس قائد الجيش البطلمي باليونان والمرتزقة، ولكنهم لم يؤدوا الغرض، فقام بخطوة غير مسبوقة منذ سنوات طويلة، وهي تجنيد المصريين في صفوف الجيش النظامي.

فقد اضطر لتجنيد ٢٠ ألف من المصريين الفلاحين ودربهم ضباط مقدونيون وإغريق على أساليب الحرب المقدونية[٢٧٢]، وقبل هذا كان البطالمة يخشون المصريين بوجه عام، ولا يجازفون بتجنيدهم في الجيش العامل بوجه خاص[٢٧٣]، بتعبير الدكتور سليم حسن، ويغطون هذا باتهامهم بالجبن.

وربما سبب اضطرار بطلميوس الرابع لتجنيد مصريين في تلك الحرب هو ضمانه أنهم حتى في حالة الهزيمة لن ينتقلوا إلى صفوف عدوه في سوريا، ذلك أنه في إحدى المواجهات السابقة انتصر أنتيوخس، واستولى على شمال فلسطين وقضى على حاميتين تتبعان البطالمة، ما أدى لانشقاقات في صفوف الجنود المرتزقة في الجيش البطلمي، وانضم رجال بطلميوس، ومنهم سيراس وهيبولوكس إلى معسكر أنتيوخس المعادي، وقادوه ضد الجيش البطلمي[٢٧٤]- كعادة المرتزقة "أبجني تجدني"- وهو ما سيتكرر مع محمد علي فيما بعد الذي اضطر لتجنيد المصريين في القرن ١٩ بعدما خذله المرتزقة في عدة معارك.

---

[٢٦٨]- انظر: الحياة في مصر في العصر الروماني، نافتالي لويس، مرجع سابق، ١٩٩٧، ص ١٤

[٢٦٩]- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مصطفى العبادي، مرجع سابق، ص ٨٨- ٨٩

[٢٧٠]- انظر: الحياة في مصر في العصر الروماني، مرجع سابق، ص ١٤- ١٥

[٢٧١]- انظر: تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان، أبو اليسر فرج، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط٢، ص ١٠٠

[٢٧٢]- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مصطفى العبادي، ص ٧٣

[٢٧٣]- موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، الجزء ١٤، مرجع سابق، ص ٤٢٣

[٢٧٤]- انظر نفس المرجع، ص ٤٢٥- ٤٢٦

وفي موقعة رفح[٢٧٥] واجه الجيش البطلمي- بما فيه الفرقة المصرية- الجيش السلوقي سنة ٢١٧ ق.م، والميزان في البداية لصالح ملك سوريا، وبعد قتال عنيف التحم فيه المشاة من الجانبين، وأمام عجب الجميع، أثبت الفلاحون الذين لم يمضِ على تجنيدهم عام ونصف جدارتهم في المعركة الخطيرة رغم بُعد عهدهم بالقتال، ولم تنته المعركة إلا وكان لهؤلاء الجنود الفضل الأكبر في كسبها، وهكذا احتفظت مصر بسيادتها على سوريا الجنوبية، بما فيها فينيقيا وفلسطين[٢٧٦]، مثلما مكَّن الفلاحون أيضا محمد علي من فتح عكا والسيطرة على الشام.

♣♣♣ ثورة ٢١٧ ق.م الكبرى

المعركة لم تكن فاصلة فقط لليونانيين، بل الأهم، فاصلة للمصريين، فمن هذه اللحظة تعبأوا بعزتهم القومية وعادت ثقتهم في أنفسهم كجنود مقاتلين منتصرين بعد أن ظلوا مغلوبين على أمرهم مهملين تحت حكم البطالمة الذين وصفوا المصريين بأنهم "شعب منحط" ولا يصلح لقتال، فهذا النصر أظهر لهم أنهم أصلب عودا وأشدا بأسا مما كان يظنه فيهم المحتلون، ورأوا بأنفسهم الإغريق يولون الأدبار، في حين أنهم كانوا يقفون هم في وجه كل هجوم جبار يصوبه لهم العدو[٢٧٧].

وأذَّن الجو بلحظة المواجهة...أخذت الثورة الكبرى يُسمع دبيبها في طول البلاد وعرضها، وانتهز رجال الدين الفرصة، وأعلنوا تحديهم للبطالمة، ولم ينتبه بطلميوس الرابع للحركة الوطنية التي تتفشى، فيما أخذ المصريون يتحدثون عن ضعف هذا التسلط الأجنبي الذي لم يعرف قيمتهم إلا في الأزمات حين يعجز عن حلها، وأنه لم يعد في طاقتهم احتمال تلقي الأوامر من البطالمة، وبدأوا يبحثون عن حاكم من بني جلدتهم، ففطن الملك رغم انغماسه في الشهوات إلى أن تجنيد المصريين كان عملا عظيما أنقذ البلاد من الخطر، إلا أنه خطر على البطالمة[٢٧٨].

واندلعت نار ثورة عامة بين الأهالي أولا في الدلتا ثم في الصعيد[٢٧٩]، وللأسف، ورد القليل جدا من أخبارها، لا تروي الظمأ، والواضح أنها استمرت سنوات طويلة بعد وفاة بطلميوس الرابع، ويدل على هذا ما ورد على حجر رشيد الذي تم نقشه بعد ٢٢ سنة من اندلاع الثورة، وفيه إشارة لقيام بطلميوس الخامس بمعاقبة زعماء الثورة المصرية.

كما وردت إشارات في كتب المؤرخين عن اشتداد القوات البطلمية في قتل المصريين، وأورد "بوليبيوس" عبارة مختصرة أن الجانبين، المصري والبطلمي، استخدما "القسوة والطغيان[٢٨٠]".

---

(٢٧٥)- رفح كلمة مصرية، أصلها ربح، تتكون من مقطعين، الأول "را" بمعنى فم أو بداية، و"بح" بمعنى النهاية أو الوصول، والمعنى فم النهاية، أي نهاية الحدود المصرية، ومع الوقت انقلبت الباء إلى فاء كعادة المصريين، مثلما حولوا كلمة "بتاح" إلى "فتاح، و"بيوم" إلى "فيوم", انظر مقالة سـيناء تراب وتراث مصر منذ الأزل- ١، علي رضوان، صحيفة الأهرام، العدد ٤٤٣٠٥، ٢٦- ٣ -٢٠٠٨.

(٢٧٦)- مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مصطفى العبادي، مرجع سابق، ص ٧٤

(٢٧٧)- انظر: موسوعة مصر القديمة، الجزء ١٤، مرجع سابق، ص ٤٣٣

(٢٧٨)- انظر: المرجع السابق، ص ٤٣٣- ٤٣٤

(٢٧٩)- مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ٧٥

(٢٨٠)- انظر: موسوعة مصر القديمة، الجزء ١٤، مرجع سابق، ص ٤٣٥

وإشارة لقوة تلك الثورة ورد أن فيليب ملك مقدونيا، وأنتيوخس ملك سوريا، قدما مساعدة لبطلميوس الرابع لقمع الثورة بحجة "حماية السلطة الشرعية في البلاد المصرية من عبث الثوار"- رغم العداء المستحكم بين مقدونيا وسوريا ومصر- وأيضا بحجة "المحافظة على التجارة الدولية" التي كانت مصر مركزا هاما لها، وكانت حجج لتدخل الدولتين في الشئون المصرية من هذا الباب[٢٨١] وهي نفس حجج الاحتلال البريطاني بعد ٢٠٠٠ سنة لقمع ثورة ١٨٨١ التي قادها أحمد عرابي.

وقال المؤرخ بوليبيوس إن الثورة "كانت طويلة الأمد، وخاصة في طيبة، بل واستطاع الأهالي إعلان استقلالهم عن الإسكندرية حتى عام ١٨٥ ق.م في حكم الملك بطلميوس الخامس[٢٨٢].

أي يمكن تقدير أن الثورة ظلت مشتعلة ٣٢ سنة، وهي فترة ضخمة إذا ما تذكرنا أن المصريين كانوا غير مدربين على القتال- عدا من شاركوا في معركة رفح، وهؤلاء كبروا في السن مع طول أمد الثورة- وأنهم لا يملكون ثروات كبيرة وأسلحة حديثة تعينهم ضد البطالمة المحتكرين لثروة مصر وسلاحها.

واضطر المصريون إلى التسليم في ١٩٧ ق.م بسبب الفيضان المرتفع الذي أضعف مركزهم وأعان العدو على إحكام الحصار عليهم، ومع ذلك عاملهم الجيش البطلمي معاملة وحشية ونفذ فيهم الإعدام، فجدد هذا الغضب في النفوس وتجددت الثورة حتى قضى عليها جيش البطالمة سنة ١٨٥ ق.م[٢٨٣].

ومما يدل على عمق جذور هذه الثورة في نفوس الأهالي ما ورد في بردية ديموطيقية ترجع إلى ذلك العصر، تحتوي على نبوءة يدعي كاتبها أنها ترجع إلى عصر ملك سماه تاخوش (٣٦٦- ٣٦٠ ق.م) من ملوك الأسرة ٣٠، وتتحدث عما تعرضت له مصر من احتلالات بعده من الفرس ثم الإغريق، وفي نهايتها تقدم بشرى للمصريين بأن يوم الخلاص قريب، وأنه سيظهر واحد من أبناء إهناسيا يحرر مصر ويطرد الأجانب والإيونيين، أي الإغريق.

وفي رأي مصطفى عبادي فإن النبوءة قد تكون دعاية نشرها زعماء الثورة لتحفيز المصريين وتعبئتهم بالأمل[٢٨٤]، ولكن في كل الأحوال فالثورة والوثيقة دليل على أن المصريين عاشوا ينظرون لحكم البطالمة على أنه اغتصاب لحكم بلادهم، حتى وإن كانوا يحكمون من داخل البلاد، وأن البطالمة لم يتمصروا.

ورغم قمع الثورة في النهاية، إلا أنها حققت مكاسب، منها اضطرار البطالمة اتخاذ إجراءات للتودد للمصريين، مثل اصطناع التمصير بأن أعلنوا أن تتويج الملك سيعود ليكون في منف حسب التقاليد المصرية وليس في الإسكندرية، وألغى بطلميوس الخامس بعض الضرايب وخفض أخرى، وتنازلت حكومة الاحتلال عن بعض الديون المتأخرة على المصريين، وصدر عفو شامل عن الجنود المصريين المنضمين للثورة، كما نلحظ ظهور مصريين في مناصب عليا في الدولة والجيش، وتساهل القصر مع

---

[٢٨١]- انظر: المرجع السابق، ص ٤٣٦، ، ويدل هذا على ثبات السياسة العالمية منذ ذلك الوقت، وخاصة أنه لو نجحت ثورة الشعب المصري ضد المحتلين لاستقوت بها شعوب أخرى لتثور على محتليها ومحتكري التجارة الدولية والمحاصيل.

[٢٨٢]- مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مصطفى العبادي، مرجع سابق، ص ٧٥

[٢٨٣]- المرجع السابق، ص ٨٣

[٢٨٤]- انظر نفس المرجع، ص ٧٥- ٧٦

رجال المعابد، فترك لهم امتيازات كثيرة[٢٨٥].

♣♣♣ ثورة ١٦٤ ق.م

ورغم ما سبق تكررت الثورات حتى نهاية الاحتلال البطلمي، منها ثورة ١٦٤ ق.م حين قادها شخص يحمل اسمًا في شقه الثاني يبدو مصريًا، هو ديونيسيوس بيتو سرابيس، له منصب كبير في القصر، ومن غير المعروف هل هو مستمصر أم مصري فعلا من الذين حصلوا على مناصب في الدولة بعد ثورة ٢١٧ ق. م استغل الخلاف بين الأخوين بطلميوس السادس والثامن ليوقع بينهما، وحرض سكان الإسكندرية على الثورة ضد بطلميوس السادس ومناصرة بطلميوس الثامن، لكن انكشفت حيلته، واتفق الملكان ضد حركته، ورغم هذا انتقلت الثورة للوجه القبلي، فمضى إليها بطلميوس السادس بنفسه؛ ما يدل على شدتها، وقضى عليها[٢٨٦]، ثم ثار الإغريق عليه في الإسكندرية لأسباب تخصهم، واستغلها المصريون في الوجه القبلي ليجددوا الثورة، وانتهى الأمر بأن بطلميوس الثامن بعد تغلب على أخيه أصدر قرارات للتودد للمصريين والإغريق معا، سمتها كتب المؤرخين بـ"وثائق العفو العام" عن الجرائم التي وقعت حتى صدور الوثيقة في مارس ١١٨ ق. م باستثناء جرائم القتل وسرقة المعابد، وتنازل الحكومة عن معظم الضرايب على المزارعين، ومنح المزارعين الذين يستصلحون أراضي بور امتيازات طويلة الأجل، وتثبيت ملكية بعض المصريين على الأرض التي أخذوها من إقطاعات الدولة العسكرية، وتثبيت مالية المعابد، ووقف عمليات التعذيب التي تتم ضد العمال والمزارعين خلال نزع الضرايب منهم.

ورغم الإصلاحات السابقة، والاهتمام بالمعابد، إلا أن البغض لم ينمح؛ فتجددت الثورات الوطنية، وأهم مراكزها واسط (طيبة)، حيث استمرت الثورة ما يربو على ثلاث سنوات[٢٨٧]، وبذلك تكون الثورات المصرية ضد الاحتلال اليوناني امتدت من أيام بطلميوس الثالث وحتى قرب سقوط البطالمة.

▲▲▲ سقوط دولة الدم والانقلابات

توفي بطلميوس التاسع دون أن يترك ذكورا، فتدخلت روما لاختيار الملك الجديد، وهكذا بات ظل روما يتسع على أرض مصر، خاصة بعد استيلاءها على قبرص التي كانت تحت سيطرة البطالمة.

وفي ٥٨ ق.م لجأ بطلميوس الثاني عشر الملقب بالزمار إلى روما- بعد أن ثار الإغريق ضده لأنه لم يفعل شيئا حيال ضياع قبرص- ليحصل على تأييد القائد الروماني بومبي في صراعه مع خصومه على العرش، وبالفعل تم إعادته لعرشه بالقوة العسكرية بالاستعانة بالقائد الروماني جابنيوس، وعين الملك رابيريوس الروماني وزيرا للمالية بعد أن عجز الملك البطلمي عن تسديد ديون اقترضها من الرومان،

---

(٢٨٥)- انظر المرجع السابق، ص ٨١- ٨٢

(٢٨٦)- انظر: الحياة في مصر في العصر الروماني، مرجع سابق، ص ١٤- ١٥

(٢٨٧)- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، ص ٩٠- ٩٥

وبذلك يكون قدم مملكته ضمانا لسداد ديونه، بحسب نافتالي لويس[٢٨٨].

وكحلاوة روح قبل موت الجسد، قدَّم بطلميوس الثاني عشر مبلغ ٦٠٠٠ تالنت (يعادل نصف دخل مصر) رشوة إلى قائد روما يوليوس قيصر ليتراجع عن ضم مصر لروما، فقبلذلك- مؤقتا- وعقد معه معاهدة على أنه "حليف وصديق الشعب الروماني"[٢٨٩]، وجاء ماركوس أنطونيوس على رأس قوات رومانية إلى الإسكندرية بحجة حماية عرش الملك (كما ستفعل لاحقا في صورة بريطانيا وترسل جيش احتلال للإسكندرية سنة ١٨٨٢ بحجة حماية "شرعية" الخديوي توفيق ضد الثورة المصرية).

وهنا تستعد الستارة للنزول، فبوفاة بطلميوس الثاني عشر ٥١ ق.م تولت مكانه نذير الشوم على مصر وعلى قومها الإغريق، ابنته كليوباترا السابعة، بالاشتراك مع أخيها بطلميوس الثالث عشر، ورغم صغر سنها ناطح طموحها السحاب، وتطلعت لحكم روما، واستغلت ذكائها وأنوثتها أبشع استغلال.

استعانت بيوليوس قيصر ضد قومها الذين اتهموها بالتخطيط لإبعاد أخيها والاستفراد بالحكم، واستجاب لها قيصر، بل وجاء للأسكندرية ونصب نفسه حكما بين الأخوين، فاستقبلته وطلب لقاءهما سويا، ولكن عجزت عن الوصول إليه بسبب جيش أخيها هناك، فلجأت لحيلة بارعة تلفت بها نظر القيصر إلى مفاتنها العقلية والأنثوية، فتخفت واستقلت قاربا، وأبحرت للإسكندرية، وطلبت من مرافقيها أن يدخلوها إلى القيصر ملفوفة داخل سجادة، فلما بسطوا السجادة أمامه خرجت منها كليوباترا بكل دلال، وانتهى الأمر بأن أقرها قيصر ملكة على عرشها على أن يشاركها أخوها، لكن خصوم كليوباترا أعلنوا الحرب باسم الدولة ضد الدخيل الأجنبي[٢٩٠].

وقعت بين الجيشين البطلمي والروماني معارك عرفت باسم "حرب الإسكندرية" كانت فيها كليوباترا وأخوها تحت حماية الروماني يوليوس قيصر، وحصل وقتها أن بعض سفن قيصر احترقت، وامتدت النار لمكتبة الإسكندرية القريبة من البحر في واحدة من أفجع كوارث التاريخ لما تحويه من وثائق وأصول الكتب المصرية القديمة النادرة، وانتصر قيصر في الحرب، وكافأ نفسه برحلة نيلية طويلة مع كليوباترا إلى الوجه القبلي، قضى معها هناك الشتاء، وأنجبا ولدا سماه سكان الإسكندرية الإغريق قيصرون من باب السخرية لعدم رضاهم عن هذه العلاقة غير الشرعية بين ملكتهم وخصمهم الروماني، خاصة وأنها كانت متزوجة من أخيها الأصغر بطلميوس الرابع عشر بعد غرق أخيها بطلميوس الثالث عشر في النيل.

وفي ٤٦ ق.م سافرت مع ابنها وأخيها إلى روما- التي طالما حلمت بحكمها- ولكن مجلس السناتو دبر مؤامرة وقتل قيصر ٤٤ ق.م، ودخلت روما في حرب أهلية، فهربت متخفية إلى مصر، وتوفي أخيها قتيلا،

---

(٢٨٨)- انظر: الحياة في مصر في العصر اليوناني، نافتالي لويس، مرجع سابق، ص ١٦

* نفس الوسيلة التي استخدمتها البنوك الحاكمة لأوروبا لإغراق وإنهاك مصر بالديون أيام سعيد وإسماعيل ثم احتلالها في القرن ١٩

(٢٨٩)- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ٩٧

(٢٩٠)- انظر: المرجع السابق، ص ١٠١

وتم إعلان ابنها قيصرون شريكا لها في الحكم باسم بطلميوس الخامس عشر[٢٩١].

وسرعان ما بحثت عن مغامرة جديدة، بطلها ماركوس أنطونيوس من قادة الرومان، وخلال لقاءهما لتحديد شكل العلاقة بين مصر وروما، وقع في غرامها، وأنجب منها ولدين وبنت، ووزع الولايات الشرقية على أولادها، وأعلن كليوباترا ملكة عليها، فتحقق لها حلمها القديم، فأطلق القائد الروماني أوكتافيوس حملة على أنطونيوس بأنه أعطى حقوق الرومان لامرأة أجنبية، وأعلن ضده حربا باسم "إنقاذ الإمبراطورية"، دارت معركتها الفاصلة في أكتيوم غرب اليونان ٣١ ق.م، وانتهت بهزيمة أنطونيوس، واستيلاء روما على مصر ٣٠ ق. م، وتلقى أنطونيوس وكليوباترا النبأ بالانتحار[٢٩٢].

▼▼▼ كليوباترا الإغريقية.. ليست منا ولسنا منها

وكشخصية شاذة، أخذت كليوباترا شهرة عريضة في العالم بالرغم من أنها لم تقم بأي إنجاز سياسي أو عسكري أو حتى أخلاقي، وسخَّرت إمكانيات مصر لمغامراتها الشخصية، وسقطت من جلال الملكة بالدخول في علاقات مخزية مع رجال أجانب طامعين في البلد، ولم تملك شيئا لافتا سوى الحيلة والدلال والحديث الساحر.

وأكثر من شعر بهذا الفلاح المصري.. فكل هذه المغامرات والرحلات والحروب والمؤامرات دفع ثمنها هؤلاء الأشراف الكادحين في الريف الواسع، ومنهم من كانوا على طول ضفتي النيل تنحني ظهورهم في زرع الأرض وهم يراقبون بمرارة الملكة تتمايل في دلال بين يدي الطامع الجديد في البلد (يوليوس قيصر ثم أنطونيو) في المراكب المارة بجوار الغيطان خلال رحلاتهم النيلية، ينفقون على لهوهم من عرق هؤلاء المزارعين، لأهداف ومطامع لا تخص المصريين في شيء.

وألمه سيكون أشد إذا ما علم أن مصريين من أحفاده- حاليا- يمجدون كليوباترا الإغريقية، ويعتبرونها "ملكة مصرية" يساوونها بـ إيسة وإياح حتب وتتي شري اللواتي سخَّرن حياتهن لحماية مصر من الأعداء، وحفظ حريتها، وضربن أعذب الأمثلة في الأخلاق الطيبة، لا في تقديم أجسادهن هدايا وإغراءات للأعداء، بل والاستقواء بهؤلاء الأعداء ضد أهلهن، مثل كليوباترا.

وربما يعود ذلك إلى الأفلام والدعاية التي جمَّلت بها هوليوود وجه كليوباترا، وحرصها على أن تقدمها وسط جو مصري ساحر، فمسَّ هذا ورم عقدة الخواجة المتضخم في صدور بعض المتعلمين المصريين، حتى جعلوا من أنفسهم بوق دعاية وتبرير لكيلوباترا ومساخرها وجرايمها في حق مصر.

ويشهد التاريخ بأن كليوباترا إغريقية حتى النخاع، دما وروحا ولغة واسما وشكلا ونسبا، ولم يختلط الدم المصري بنقطة في عروقها، ولم تسعَ للتمصير أو الاختلاط بالمصريين، ولا يشير شيء إلى علاقتها بمصر سوى ما يُثار عن معرفتها باللغة المصرية، ويحسبون ذلك إنجازا رغم أنها مولودة بمصر، إضافة

[٢٩١]- انظر: المرجع السابق، ص ١٠٤
[٢٩٢]- انظر: المرجع السابق، ص ١٠٥- ١٠٦

إلى نقوش تصورها في ثياب ملكة مصرية، وهي نقوش قليلة تخص تقاليد المعابد، فيما معظم نقوشها وتماثيلها في ثياب يونانية.



رأس لكليوباترا الحقيقية بهيئتها الإغريقية الشائعة في الفن البطلمي وبجانبها نقش بثياب مصرية في معبد دندرة؛ حيث تحظر المعابد المصرية نقش المظاهر الأجنبية على جدرانها (الأولى في متحف ألتيس بألمانيا والثانية في معبد دندرة)

وحول تمجيد بعض المتعلمين المصريين للغزاة، استشهد الدكتور كمال فريد إسحق أستاذ اللغة القبطية بأبيات أحمد شوقي في مسرحية "مصرع كليوباترة"[٢٩٣]:

حابي:

اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليه

ملأ الجو هتافا بحياتيْ قاتليه

أثّر البهتان فيه وانطلى الزور عليه

ياله من ببغاء عقله في أذنيه

ديون:

حابي، سمعتُ كما سمعتَ وراعني   أن الرّميّة تحتفي بالرامي

هتفوا بمن شرب الطلا في تاجهم   وأصار عرشهم فراش غرام

ومشى على تاريخهم مستهزئا   ولو استطاع مشى على الأهرام

---

[٢٩٣]- مصرع كليوباترة، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١٠- وتاريخ اللغة القبطية، كمال فريد إسحق، مؤسسة بيتر للطباعة والتوريدات، القاهرة، ص ١٨

مصر صورة للسماوات ويسكن الكون كله هنا في قدس معبدها

لكن الإله سوف يهجرها، ويعود إلى السماء، ويرتحل من هذا البلد الذي كان مقرا للروحانية، ستصبح مصر مهجورة موحشة، محرومة من وجود الإله، يحتلها الدخلاء الذين سيتنكرون لتقاليدنا المقدسة.

إن هذا البلد الزاخر بالمعابد والأضرحة سيضحى مليئا بالجثث والمآتم

والنيل المقدس سوف تخضبه الدماء، وستفيض مياهه محملة بالقيح

آه يا مصر![١]

---

(١)- متون هرمس الحكمة الفرعونية المفقودة، تيموثي فريك وبيتر غاندي، ترجمة عمر الفاروق عمر، ص ٣٥- ٣٦
* نص منسوب إلى تحوت الذي أسماه اليونان هرمس، يرجع للقرنين الثاني والثالث الميلادي، وعثر عليه في القرن ١٥، يضم نبوءات وتوصيات بالتمسك بماعت، وفيه أيضا روحانيات العلاقة بين الإنسان والإله، ويحذر من عواقب من يضل عن هذا على مستقبل مصر.

المشهد ١٠: الاحتلال الروماني

٣٠ ق.م- ٦٤٠م

(سقوط القلاع)

إن كان اقتحام الاحتلال الروماني لمصر جرى بشكل تقليدي عبر سلاح الديون ثم الغزو العسكري واللعب على ضعف وتفكك البطالمة، إلا أن طول أمده الغير تقليدي كاتما أنفاس مصر لمدة ٧٠٠ سنة- وهو أطول احتلال عسكري لمصر- ارتكز على الجاليات الأجنبية المتكتلة في المدن الكبرى والمستوطنات والجيش، والتي غيَّرت من موقع ولائها بسرعة البرق من الجانب اليوناني إلى الجانب الروماني، مرحبة مهللة، ومعاونة له في تبصيره بأسرار البلاد وإدارتها.

ولم يشذ عن هذا سوا الجالية اليونانية التي رأت فيه منافسا حوَّلها لمغلوبة بعد أن كانت هي الغالبة، فطوت أحقادها في صدرها، تتحين الفرصة من حين لآخر لنفخ النار في وجه منافسها، أما اليهود فظلوا مهللين حتى وصلوا لمرحلة يطالبون بنفس امتيازات اليونانيين؛ فحصل الصدام.

أما بالنسبة لتأثير الاحتلال الجديد على مصر نفسها فجاء كنزول الصاعقة على رأس المصريين، وكأننا نراهم وسط حقولهم وأمام بيوتهم متجمعين يضربون كفا بكف في ذهول الأيتام: "ما خصلناش من اليونان، قوم ينزل علينا احتلال تاني ياخد فوق اللي كان بياخده اليونان جزية وضرايب لروما!".

فحكم مصر من عاصمة خارجية من جديد حمَّلها جزية وأعباء إضافية منها جزية الاحتلال التقليدية (ضريبة الرأس)، وفرض ضريبة نوعية من القمح والغلال تشحن إليها كل سنة؛ أي أن جزءا كبيرا من دخل المصريين وإنتاجهم الزراعي كان يذهب إلى روما دون مقابل.

ولهذا احتفل أغسطس [أوكتافيوس] بفتح مصر، وأصدر عملة تذكارية حاملة لصورة التمساح، رمز مصر، وعليها كلمة "فتح مصر" ليزف النبأ للرومان ويبشرهم أنه سخَّر لبطونهم قمح مصر(٢).

▼▼▼ الجيش في الاحتلال الروماني (رومان- إغريق- مرتزقة)

لأهمية مصر لروما، واشتهارها بجنوح سكانها إلى الثورة، نشر أغسطس حاميات عسكرية ضخمة في أنحاء البلد من الإسكندرية لأسوان، لتصبح أكبر حامية رومانية موجودة في أرجاء الإمبراطورية.

---

(٢)- مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، مصطفى العبادي، مرجع سابق، ص ١٥٣
*** أوكتافيوس حمل لقب أغسطس، ومعناه المبجل والمقدس

وعنها قال المؤرخ إسترابون إن "هذه الحامية تكونت من ٣ فرق، و٩ سرايا، و٣ وحدات من الفرسان، وقوة الحامية ٢٢,٨٠٠ جندي في عصر أغسطس[٣]، والعدد يقل جدا في أوقات السلم.

والجيش أبرز ملامح الوجود الروماني في مصر، بزيهم الروماني المميز، وتكون من فرقتين مغلقتين تماما على حاملي المواطنة الرومانية، مدة الجندية فيها ٢٥ سنة، وقوة ثالثة اسمها القوات المساعدة يُسمح بالعمل فيها لمواطني المدن المخصصة للإغريق والمتأغرقين، كما عمل فيه عرب الأنباط، ومدة العمل فيها ٢٧ عاما، ومن ينهي خدمته في الأخيرة نهاية "مشرفة" يحصل على الجنسية الرومانية.

وظلت أبواب الجيش موصدة أمام غير هؤلاء حتى القرن الثاني الميلادي، حتى انضم إليها جنود من سكان عواصم المدن، ترجع جذورهم إلى الإغريق الذين استوطنوا مصر أثناء العصر البطلمي[٤]، وبحسب آمال الروبي انضم مصريون للجيش وحصلوا على الجنسية الرومانية بعد انتهاء الخدمة[٥]، إلا أن السؤال مطروح ما إن كانوا مصريين حقيقيين، أم ممن صنفهم الرومان مصريون من الإغريق والمستوطنين الأجانب القاطنين خارج الإسكندرية والمدن المخصصة لفئات معينة من الإغريق.

♣♣♣ السكان وتعريف المصري في الاحتلال الروماني

(تمييع معنى المصريين.. وتعميق الطبقية)

تعرض الدكتورة آمال الروبي ونفتالي لويس نقلا عن أوراق البردي والأوستراكا "الشقافات" ملامح للحياة أيام الرومان، فيقولا إن الرومان صنفوا سكان مصر لـ"طبقات وضعوها فوق بعضها البعض"، وفصلوا بينها بقوانين صارمة تمنع الانتقال من طبقة لأخرى إلا باستثناء من الإمبراطور، فمع أنهم صنفوا السكان اسميا إلى رومان ومصريين، إلا أن كلمة مصريين لم تعني عندهم طبقة واحدة وجنسا واحدا، بل أدخلوا فيها السكندريين (الإغريق) وجعلوهم الطبقة الثانية بعد الرومان، واليهود والإغريق سكان المدن التي يحتكرونها بخلاف الإسكندرية للطبقة الثالثة، ثم القاعدة العريضة ذات الأغلبية الكاسحة وتضم المصريين الحقيقيين (الفلاحين) إضافة لعدد متناثر من فقراء الأجانب، وهذه هي الطبقة الرابعة.

ويضيفا أنه حتى داخل هذه الطبقة الرابعة الفقيرة فللأجانب الفقراء وضع أعلى من المصريين الحقيقيين، فللجميع امتيازات في الوظائف والثروة وإعفاءات الضرايب عدا هؤلاء القرويين "فلا يتمتعون بأي ميزة"، وهم ملزمون بتقديم ضريبة الرأس (الجزية)- بداية من سن ١٤ سنة- وغيرها من ضرايب كاملة، وأعمال السخرة وشق الترع والقنوات، وإعاشة الجنود الرومان حين ينزلون للقرى، وفرض قانون التنظيمات الذي وضعه أغسطس عقوبات على من يتزوج بمصريين وإن كان عبدا معتوقا[٦].

وبتعبير آمال الروبي عن حال المصريين الوطنيين (الخلّص): "كانت هذه الطبقة الوطنية أكثر الطبقات حجما، وأوسعها انتشارا، وأقلها حقوقا، وأكثرها فقرا"، ولاحظ لويس أنه "حقيقة أن المطحونين والفقراء في

---

[٣]- انظر: نفس المرجع، ص ١٥٣، و١٦٢

[٤]- انظر: الحياة في مصر في العصر الروماني، نوفتالي لويس، مرجع سابق، ص ٢٢- ٢٣

[٥]- مظاهر الحياة في مصر في العصر الروماني اجتماعيا واقتصاديا وإداريا، آمال الروبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٦

[٦]- انظر: نوفتالي لويس، ص ٢١- ٤٠، وآمال الروبي، ص ٩- ٣٠، مرجعان سابقان

جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية لم يكونوا في وضع يحسدون عليه، ولكن من الواضح أن الشعب المصري يعتبر الاستثناء الوحيد من بينها الذي عومل بمثل هذه المعاملة القاسية"، وبعد تفكر عميق في السبب، توقع أن يكون "لكبح جماحهم لمنعهم من الثورة"، وتحميلهم للمصريين وزر مطامع كليوباترا في حكم روما[٧].

وبتصنيفه السكان إلى مصريين ورمان يكون الاحتلال الروماني زاد من تمييع المحتلين لكلمة "المصريين" بتحويلها لعباءة يُدخل فيها الجاليات الأجنبية الخليطة لمجرد أنهم يسكنون مصر، وهو ما سيكون له تأثيره الخطير والسيء في تسجيل التاريخ مستقبلا، بالخلط بين أفعال وثقافات الأجانب وبين المصريين، فيما ظل المصريون الحقيقيون في الأرياف يعلنون عن هويتهم واختلافهم الحاد عن الأجانب لغةً وملابس وأخلاق وملامح وتقاليد ومهن وسكن، وانتشرت بقوة حينها كلمة "قبط" للتعبير عن تعريف المصري بالمعنى الروماني.

وإن حلَّ الرومان محل اليونان في قمة الطبقات، إلا أنه وفقا لآمال الروبي فإنهم "لم يشكلوا جالية رومانية"، لقلة عددهم، وتركزوا في عمل الجنود وكبار الموظفين ورجال الأعمال.

وعن تعداد السكان، فكما سبق الحديث، فإن جوزيفوس في بداية الاحتلال الروماني قدَّر أن عدد سكان مصر- باستثناء الاسكندرية- كان ٧,٥ مليون نسمة، وبتقدير أنه كان بالإسكندرية نصف مليون من السكان، يصبح المجموع ٨ ملايين نسمة قريبا.

وهذا يعني أن معظم الرقم من المصريين، خاصة وأن معظم الإغريق وبقية الأجانب اليهود والسوريين والفينيقيين والليبيين وغيرهم هم كانوا يتركزون في الإسكندرية، وتتوزع بقيتهم على المدن المحتكرة إغريقيا والبوليتوميات والنومات، ونسبة أقل تنتشر في مدن أخرى كمنف والمنيا وأسوان والفيوم[٨]، ويتوقع زيادة العدد عدة ملايين أخرى نهاية الاحتلال الروماني كما يتضح في مقدار الجزية التي حصَّلها العرب عند فتحهم لمصر.

وصنف السكان أنفسهم تصنيفات أخرى بخلاف التصنيف الروماني، فتكشف مثلا بردية من البهنسا تتحدث أن اجتماع لسكان المدينة اشترك فيه موظفو المدينة وشعبها والمواطنون الرومان والإسكندريون المستقرون بها، فهي هنا صنفت السكان إلى مواطنين رومان وسكندريين وشعب المدينة[٩].

وظهر التمييز بين السكان أيضا في الوثائق الرسمية الخاصة بتقسيم أصحاب الأراضي إلى فئتين هما "فئة الرومان والإسكندريين" و"فئة المحليين[١٠]".

والمواطنون الرومان هم من حمل الجنسية الرومانية وإن كان من أعراق أخرى، فالرومان منحوا جنسيتهم للأجانب ليديروا بعض الأمور باسمهم لقلة عدد الرومان في مصر، وليكونوا عونا لهم بعد

---

(٧)- آمال الروبي، ص ٢٥، نوفتالي لويس، ص ٣٩- ٤٠
(٨)- معلومات أكثر عن السكان انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ٢٠١- ٢٠٢
(٩)- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، ص ٢٠٨
(١٠)- المرجع السابق، ص ٢١٠

حصولهم على امتيازات جديدة، فيما يشبه نظام الامتيازات الأجنبية في عهد الاحتلال الإنجليزي لاحقا، فهذه البلاد أساليبها في الاستحواذ على غيرها لا تتغير كثيرا، ولكن من لا يتتبعها في التاريخ هو من يفاجئ بها ويقع دائما في فخها.

أما عن نسبة تمصير الجاليات الأجنبية في ذلك العصر، فيعتقد باحثون أنه حصل تمصير لنسبة قليلة من الإغريق الذين تزوجوا بمصريين، مع الإشارة إلى أن اليهود وجاليات أخرى من غير حاملي المواطنة الرومانية أو السكندرية كانوا "مصريين" (جيبتيوس/ قبط) من وجهة نظر الأوراق الرسمية، فيصعب معرفة أي مصريين تزاوجوا أكثر مع الإغريق الذين حرصوا كل الحرص على التعالي على المصريين الأصليين[١١].

وفي سنة ٢١٢ م أصدر الإمبراطور كاراكالا منشوره الشهير بمنح الجنسية الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية "فيما عدا المستسلمين"، ولم يتفق الباحثون حول معنى هذه العبارة، وهل المقصود بها الشعوب الأصلية للبلاد المفتوحة باعتبارهم "مغلوبين" بحكم الفتح ويدفعون الجزية كاملة أم ماذا، ولكن في كل الأحوال بحسب ما استشفه نوفتالي لويس من أوراق البردي فإن "الأمر بالنسبة للمصريين لم يحدث تغييرا جوهريا، والوضع في المدن والقرى كان على النحو التالي: بقدر ما يكون هناك تغيير، بقدر ما يظل الوضع على ما هو عليه (بالنسبة لهم)"[١٢].

♣♣♣ ماذا لو دخلت المسيحية مصر وهي حرّة؟

ليس معروفا على وجه الدقة متى دخلت المسيحية مصر، إلا من رواية تتحدث عن أن مار مرقص دخل الإسكندرية سنة ٦٥ م مبشرا سرا، وقابله إسكافي يهودي آمن به، ووجدت المسيحية "سكتها" بسبب احتدام الصراعات الدينية والفلسفية متعددة الثقافات المعقدة في الإسكندرية، والتي خلّفت أرواحا حائرة ممزقة تسأل "أين الحقيقة؟"[١٣]، مع التشويه الذي طرأ على الدين المصري منذ عصر الاحتلال الخاسوتيمي وانتشار الخرافات، فجاءت المسيحية من خارج دائرة الصراع هذه بروح بسيطة هادئة تدعو للسكينة والارتباط بالسماء فقط، مع ميلها للفقراء ومحاربتها للطبقية، فتعلق بها البعض كأنها طوق النجاة، أما من تمسك بالدين المصري القديم فأُجبر على تركه أو نسيانه بإغلاق المعابد.

ويبدو أن الإغريق استقبلوا المسيحية قبل المصريين، لأن التبشير بدأ باللغة اليونانية، وتركز أولا في المدن المحتشدة بالإغريق والمتأغرقين، ولقت رواجا أسرع بينهم لأن عقائد اليونان ليست قديمة كالعقيدة المصرية، وصفات آلهتهم المتصارعين مع بعضهم والمتآمرين ضد بعضهم وانتشار الانحرافات والإباحية الجنسية بينهم لا تشجع على التمسك بهم كثيرا أمام ديانة كالمسيحية، إضافة لأن الإغريق وجدوا فيها "تميزا" يجعلهم فوق أعدائهم الرومان دينيا، خاصة وأن المسيحية تحارب تأليه الإمبراطور، وهي العبادة التي ارتكزت عليها الإمبراطورية الرومانية في فرض نفوذها جنبا لجنب مع سيف جيشها؛ ولذا نجد أن كثيرا من القديسين وآباء الكنيسة الأوائل هم من الإغريق والسكندريين.

---

(١١)- انظر المزيد: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، ص ٢٢٣

(١٢)- الحياة في مصر في العصر الروماني، نفتالي لويس، مرجع سابق، ص ٤١

(١٣)-انظر حضارة مصر في العصر القبطي، مرجع سابق، ص ٧٧

وتعرض المسيحيون في مصر لسلسلة اضطهادات شنيعة، راح ضحيتها عدد كبير ما بين حرق وفقأ عينين وقطع الرؤوس إلخ، ولكنها ليست اضطهادات متصلة، فيسودها فترات سلام وتهاون بحسب سياسة كل إمبراطور.

وعصر الإمبراطور دقلديانوس (٢٤٩- ٢٥١ م) هو الأشهر في الاضطهاد رغم صغر مدته، ومن ذلك أنه أمر باختبار لكل الأهالي أمام الموظفين، وكل فرد يعلن تمسكه بدينه القديم ويقدم التضحية للإله يأخذ شهادة منهم بأنه نجح في الاختبار، أما من يرفض التمسك بالدين القديم فيتم قتله"[١٤].

وبعد فترة حدثت انقسامات بين المسيحيين أنفسهم بين كنيسة الإسكندرية وبين كنائس روما والقسطنطينية وأنطاكية حول السيد المسيح هل هو إله أم بشر، وهل هو طبيعة إلهية واحدة أم طبيعتين بشرية وإلهية، وهي خلافات لم تكن في جعبة المبشرين الأوائل، ولكنها تخلَّقت من الطبيعة المتصارعة والمعقدة والطائفية بين الإغريق والرومان، وبين الإغريق واليهود وبقية الجاليات الأجنبية، وصراعاتهم السياسية الدفينة القديمة حول النفوذ في مصر، فعكسوا هذا على تفسيراتهم للمسيحية، ففرغوا الدعوة المسيحية من صفائها، وانشطر المسيحيون إلى مذاهب وأحزاب، وظهر نوع آخر من الاضطهاد، هو الاضطهاد المسيحي- المسيحي على حسب المذهب، دفع ثمنه عدد آخر قتلا وتشريدا في معارك بين أتباع الكنائس الأربعة، وانتهى الأمر بأن دان معظم المسيحيين في مصر من مصريين وإغريق بمذهب الأرثوذكس، فيما دان الرومان بالمذهب الملكاني (الكاثوليكي)[١٥].

وعلى ضوء انتشار المظالم الدينية- إلى جانب الاقتصادية- انتشرت الرهبنة في صحارى مصر، ورغم قسوتها، لكنها لعبت دورا في علو نجم زعماء مصريين في سماء البلد بعد طول غياب، فظهرت زعامات روحية مثل القديسين آمون، ومينا، وأنطونيو (أنطونيوس)، وشنودة[١٦].

وفي عصر الإمبراطور قسطنطين اعترف بالمسيحية دينا من أديان الإمبراطورية[١٧]، أما المصريون الذين بقوا على دينهم القديم، فقوبلوا باضطهاد واسع، سواء من جانب الدولة الرومانية بعد اعترافها بالمسيحية أو من بعض المسيحيين، فوصفوهم بالوثنيين والخائنين[١٨]، وخاصة بعد إصدار الإمبراطور تيوديوس أمرا سنة ٣٩٥ بأن المسيحية هي الدين الوحيد للدولة، وبإغلاق المعابد ومحو الديانة المصرية[١٩]، ولنا أن نتخيل الأساليب العنيفة التي اتبعوها في إرغام رجال الدين على غلق المعابد وإرغام الناس على عدم الذهاب إليها، وبحسب كتاب "تاريخ الكنيسة القبطية" للقس منسي يوحنا فإنه رغم غلق المعابد لكن بقي كثير من الناس في الصعيد على الدين المصري ولم ينمحِ إلا بمرور السنين[٢٠] بعدم وجود قائم عليه يرعاه من معابد وأوقاف ورجال دين.

---

(١٤)- للمزيد عن انتشار المسيحية انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مصطفى العبادي، مرجع سابق، ص ١٩٧

١٥- للمزيد حول دور الصراعات العرقية والطائفية القديمة والتنافس للسيطرة على مصر في شطر المسيحية إلى مذاهب انظر: "الفكر المصري في العصر المسيحي"، رأفت عبد الحميد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠

(١٦)- للمزيد، من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مصطفى العبادي، ص ٣٢٣- ٣٥٣

(١٧)-تاريخ الكنيسة القبطية، منسي يوحنا، مكتبة المحبة، القاهرة، ص ١٨١

(١٨)- انظر: تاريخ مصر في عهد البطالمة والرومان، محمد إبراهيم السعدني، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ص ١٧٨

(١٩)- تاريخ الكنيسة القبطية، مرجع سابق، ص ١٤٥ و١٨٥

(٢٠)- المرجع السابق، ص ١٨٥

وهنا وقفة.. ماذا لو دخلت المسيحية إلى مصر وهي تحت حكم مصري حر خالص، وهي عبارة عن مصريين (كيمتيو) فقط، لا أعراق وافدة ولا طوائف وثقافات متنافرة ومتنافسة ومتقاتلة؟

يحتاج هذا بحث مستقل، أكبر من إمكانيات وتخيل الباحثة، ولكن يستحق التطرق له، قد يرى البعض أنه لو حصل هذا ما كانت المسيحية لتجد لها موطأ قدم في مصر؛ لأنها لم تأتِ باختلاف جوهري عن الدين المصري القديم- خاصة قبل تشويهه- فهما متشابهان في بساطة الفكرة وفي المثل العليا والأخلاق والمعاملات والإيمان بالبعث والآخرة والجنة والنار، ورفض العدوان وكراهية الصراعات والدماء، وفي عقيدة أن الحياة هي معركة خير وشر بين الإنسان والشيطان، وقصة مريم والمسيح وقدسية الاستشهاد لا تختلف في جوهرها عن قصة إيسة وأوزير وحور، فيما الاختلاف بين الدين المصري والمسيحية في أمور عقائدية قليلة، منها عدم إيمان المسيحية بتجسيد الإله والقديسين في تماثيل مثلا.

والبعض سيرى العكس، وهي أنه لأن المسيحية لا تختلف في جوهرها كثيرا عن الدين المصري فإنها ستجد قبولا وترحيبا وتسامحا، ويُترك في هدوء من يتبع الدين القديم أو المسيحية يتعبد كما يحلو له، خاصة إذا احترم أتباعها أيضا الدين المصري ولم يسعوا لاضطهاده أو إغلاق معابده أو تفضيل الأجانب المسيحيين على المصريين الباقين على الدين القديم.

وأيا ما كان، فإن الأكيد هو أنه لو دخلت المسيحية ومصر حرة للقيت مصيرا أهدأ مما لقيه أتباعها ومصر تحت الاحتلال متعدد الأعراق والثقافات، ولظهرت في ثوب أقل تعقيدا، وغير متشبع بهذا القدر من الدماء.. وقياسا على هذا هو أن المرة المعروفة للصراع الديني داخل مصر، وهي فترة حكم إخناتون، فإن الفتن والصدام فيها لا يُذكر مقارنة بما حصل بين أتباع المسيحية وخصومها، أو بين أتباع المذاهب المسيحية المختلفة، فلم تتحول مصر إلى حرب أهلية، ولم تُنصب فيها المذابح والمحارق الجماعية كتلك التي حصلت وقت دخول المسيحية أيام الرومان.

أمر آخر، وهو أن دخول المسيحية والبلد فيها أعراق أجنبية متصدرة المشهد وكارهة لبعضها، وفي نفس الوقت كارهة للمصريين الحقيقيين وتفوقهم الحضاري، ووجود عدد كبير من الإغريق والمتأغرقين المندرجين تحت اسم سكندريين أو قبط بين المصريين المسيحيين، مع ما هو معلوم من الطابع القبلي المغلق للإغريق (هم مجموعات، كل مجموعة منسوبة لمدينة إغريقية ومتنافسة مع بقية المجموعات والمدن) هذا الطابع المغلق والحذر عكسوه على ممارستهم للمسيحية، فحولوا أتباعها إلى مجموعة تجنح إلى الانغلاق على نفسها، تشعر أن لها صفات ومزايا تجعلها شيئا مختلفا عما حولها، وهو تفكير معاكس للتفكير المصري الوحداني، الذي ينظر للمصريين على أنهم شيء واحد، ولم يتعود حياة المجموعات المنغلقة أو لها عالم آخر بخلاف بقية المصريين.

وانجرف مصريون تحولوا للمسيحية إلى الطبع الإغريقي المنغلق، وشجعهم على هذا ما لقوه من اضطهاد أو محاولة استبعاد من الرومان لهم بسبب دينهم، وأن آباء وقديسي كنيسة الإسكندرية الأوائل من اليهود السابقين والإغريق الخُلَّص القادمين حديثا للإسكندرية أو الإغريق المستوطنين المندرجين تحت مسمى سكندريين أو قبط، ولهم حق الطاعة الأول حينها، فانعكس هذا ليس فقط على أن يصبح انتماء

هؤلاء- خاصة أيام الاحتلالات- للكنسية تحت اسم "شعب الكنيسة" أكثر من أن يكون انتماء لـ"شعب مصر"، وأن يتعلم بعضهم أن الإغريقي أو أي شخص من دينه أقرب إليه من أخيه المصري مدام المصري على دين آخر، ولكن أيضا انعكس على اللغة المصرية التي تحول اسمها للقبطية بعد محو حروفها وكتابتها بالحروف اليونانية لتسهيل التبشير بها، وفي وقت لاحق قصر صفة قبطي على المسيحيين- مصريين أو إغريق مستوطنين- واهتمام المصريين المسيحيين في كتبهم التاريخية القليلة على حفظ أخبار الكنيسة وأتباعها أكثر من تتبع وحفظ أخبار المصريين ككل، وزاد هذا الجنوح للانغلاق مع دخول العرب والترك واستغلالهم للإسلام أداة للتعالي على غيرهم أيضا.

ومثال على الفرق بين أن تدخل المسيحية أو الإسلام إلى بلد يحكمه أهله وبلد يحكمه محتلون يظهر مثلا في البلاد المستقلة في ظل الإمبراطورية الرومانية، كروما نفسها وبقية أوروبا وبلاد اليونان والحبشة وبعض أجزاء الجزيرة العربية، فإن المسيحية حين دخلتهم وهم يحكمون أنفسهم لم يبدلوا لغتهم، ولا حروفها، ولا أسماءهم، ولا ملابسهم، ولم يحتقروا أجدادهم وحكامهم السابقين، بل ظلوا يعتزون برومانيتهم أو بلاتينيتهم أو بإغريقيتهم أو بحبشيتهم أو بعروبتهم واعتزازهم بأنفسهم.

كذلك متوقع أن الشدة التي في الغالب عومل بها المصريون الباقون على الدين المصري القديم، وغلق معابدهم بالقوة، ما كانت لتحدث لو أن المسيحيين كانوا مصريين فقط، بل بالتأكيد أن المسيحيين المستوطنين الإغريق والمتأغرقين لهم اليد العليا في هذه الشدة والعنف لما يحملونه من كراهية أو تعالي على المصريين، وكأنهم "ما صدقوا ومسكوا عليهم فرصة"، خاصة مع ما حملته التوارة (العهد القديم عند المسيحيين) من صفات تذم مصر والمصريين، فليس من السهل تصور أن مصريين يصفون إخواتهم المصريين بأنهم "الوثنيين الخائنين" كما وصفتهم المراجع المسيحية القديمة، بل هي كلمة تخرج من أشخاص لم يشتركوا يوما مع المصريين في دينهم المعروف بأنه أبعد ما يكون عن الخيانة.

ورغم كل ما سبق، فإن المصريين وضعوا بصمتهم المصرية القوية على المسيحية أيضا، فرغم معاداة المسيحيين الإغريق للدين المصري القديم واستهداف معابده، إلا أنهم أخذوا في عاداتهم وأعيادهم وعمارة الكنائس الكثير من حضارة الدين المصري، حتى أنه ظل يُطلق على المسيح كلمة أوزير لفترة طويلة، واستخدام علامة عنخ (الشهيرة خطأ بمفتاح الحياة) كأول شكل من أشكال الصليب لزمن طويل، واحتفلوا بقيامة المسيح كما كانوا يحتفلون ببعث وقيامة وزير، وحولوا سيت عدو حور إلى التنين الذي قتله ماري جرجس كما يظهر في أيقونته، وانتشرت كذلك صورة العذراء وهي تحمل رضيعها المسيح كتماثيل إيسة وهي تحمل رضيعها حور[٢١]، وبناء برج الكنيسة على نظام المسلة، واستخدمت مذبح القرابين والبخور كما كانت في المعبد المصري، وأسبغ المصريون تبجيلهم لـ إيسة على مريم أم المسيح، وعكسوا احتفالاتهم المصرية على احتفالاتهم بأعياد مسيحية حلت محلها وربطتها بالنيل كعيد الشهيد وعيد الغطاس، واحتفظ المسيحيون الأميون في الريف ببساطة الطبع المصري وعذوبته.

---

[٢١]- راجع في هذا: فراعنة من؟ علم الآثار والمتاحف والهوية القومية المصرية من حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى، دونالد مالكوم ريد، ترجمة عبد الرءوف عباس حامد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٤٩

كما أن كنيسة مصر هي الكنيسة الوحيدة في العالم التي ليس لها مشاريع إمبراطورية عدوانية مقارنة بكنائس روما والقسطنطينية ثم روسيا وإنجلترا وأمريكا فيما بعد.

▼▼▼ نتائج الاحتلال الروماني

❶ نشأة عقدة الخواجة

مع كثرة الجنسيات الوافدة كان ضبط السلم الاجتماعي والطبقي عبر الأسماء والألقاب أمرا بالغ الأهمية من الناحية المالية، لأنه يتعلق بدفع الضرايب، وما يتم تكليفه به أو إعفائه من خدمات عامة، كما أنه يحدد إلى أي طبقة ينتمي، في نظام كررته الاحتلالات التالية، خاصة مع اختراع ألقاب خاصة لأبناء الطبقة الحاكمة، مثل التأكيد على اسم القبيلة أيام العرب، وألقاب "باشا" و"بك" أيام العثمانلية.

فوضع الرومان قواعد دقيقة لمراعاة كتابة الاسم واللقب والوضع الاجتماعي حتى لا يحصل خلط وفوضى، وخصصت الإدارة الرومانية لذلك مكتبا خاصا[٢٢]، وفيما يتعلق بأسماء الأفراد ظهر ميل بين مصريين "مثقفين" لاتخاذ أسماء إغريقية كسبيل لـ"الترقي" الاجتماعي، خاصة من اختلط منهم باليونان أو الرومان في عمل أو تجارة.

ولا يسمح لهم بهذا إلا إذا قدم طلبا خاصا لتغيير اسمه، ولعل الأسماء المختلطة التي ترد في الوثائق "مصرية ويونانية" تبين أن أصحابها اكتسبوا أسماء يونانية مؤخرا، فاستخدموا أسماءهم المصرية القديمة إلى جانب أسمائهم اليونانية الجديدة للدلالة على شخصياتهم[٢٣]، وهذا التنازل من بعض المثقفين باكتساب أسماء أجنبية منذ الاحتلال اليوناني هو أول الخيط الذي كرَّت معه حلقات ضياع جانب من الهوية المصرية وتهاون أهلها نحوها.

❷ محو حروف اللغة المصرية.. الخنجران الثاني والثالث

ظلت اللغة المصرية هي لغة الحياة للمصريين، واللغة اليونانية هي لغة المخاطبات والأعمال في دواوين الحكم والتعليم والمعاملات الرسمية، ولغة الخطاب بين خليط الأجانب.

وهبَّ القرن الثالث الميلادي بفاجعة جديدة للغة المصرية- بعد فاجعة إعلان أن اليونانية هي اللغة الرسمية لمصر أيام البطالمة- وهي إلغاء استخدام العلامات أو الحروف المصرية (الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية) في كتابة اللغة المصرية، لتحل محلها الحروف اليونانية مع ٧ حروف فقط مصرية لا يوجد مثلها في اليونانية؛ ما أفرز ما تسمى بالخط القبطي، وهو كتابة اللغة المصرية بحروف

---

(٢٢)- انظر: مظاهر الحياة في مصر في العصر الروماني اجتماعيا واقتصاديا وإداريا، مرجع سابق ، ص ٢٨- ٢٩

*** ويشبه هذا في وقت لاحق إضافة لقب "الشريف" على من ينسبون أنفسهم للسلالة النبوية، أو تخصيص ألقاب الباشا والبيك وصاحب السعادة إلخ خلال حكم أسرة محمد علي، وهو تقسيم طبقي دخيل وصارخ.

(٢٣)- انظر: نفس المرجع

يونانية[٢٤]، مثل كتابة الفرانكو آراب حاليا التي تكتب اللغة العربية بحروف إنجليزية.

ووفق القس شنودة ماهر، فإن أقدم محاولة لكتابة اللغة بهذه الطريقة ظهرت في بردية هايدلبرج ٤١٤ ترجع إلى القرن ٣ ق.م، أي في بداية الاحتلال الإغريقي، كتبها رجل يوناني، وتشمل مفردات مصرية بحروف يونانية، وتفشى الأمر في الاحتلال الروماني بعد تبنيه المسيحية دينا للبلاد، فقررت الكنيسة على يد بابا الكنيسة ديمتريوس السكندري في القرن الثاث الميلادي كجزء من برنامجها التبشيري مع بداء ترجمة الإنجيل من اليونانية إلى المصرية، فنُقل بالحروف اليونانية مع الاحتفاظ باللفظ المصري[٢٥]، ويظهر فيه الاستسهال لأن المترجمين في الغالب سكندريين وقبط من غير المصريين الحقيقيين، فأرادوا التبشير بالمسيحية في الأرياف وسط المصريين الذين لا يعرفون اليونانية، وفي نفس الوقت كتابة الإنجيل بالحروف اليونانية لصعوبة الحروف المصرية على المترجمين.

وبحسب جرجس فيلوناؤس عوض في مجلة "الكرمة"- صوت الكنيسة المصرية- فإن من أخذ على عاتقه هذا التحويل هم بانتيونس الصقلي وأكليمندس الإسكندري وأوريجانس [غير مصريين فمثلا بانتيونس اختلف حوله ما بين صقلي وسكندري، وأكليمندس متفق أنه قدم حينها من أثينا] وبرر هذا بأن الحروف اليونانية في الأصل مأخوذة من الأبجدية الفينيقية المأخوذة بدورها من العلامات المصرية، فكأنها "بضاعتكم ردت إليكم"[٢٦]، وهو مبرر يحمل ضعفه بداخله، فإن كان اليونانيون أنفسهم أخذوا الأبجدية من الفينيقيين فإنهم غيروا فيها لتكون يونانية، والفينيقيون غيروا في العلامات المصرية لتكون فينيقية، وكل منهم أخذ أبجدية غيره لأنه لم يكن عنده أبجدية عتيقة وكاملة، أما مصر فلديها أبجديتها، ولا يليق بها أن تهبط لمستوى المتقلي لأبجديات صارت علامة مميزة لبلاد غيرها.

وتسربت كلمات يونانية للغة المصرية كما يظهر في الترجمات المنقولة من اليونانية للقبطية، ويظهر فيها استسهال المترجم بدلا من أن يجد لها مقابل في اللغة المصرية.

وهذه أكبر لطمة لثقافة مصر بعد لطمة- بل طعنة- فتح مؤسسات الدولة للأجانب وتشغيلهم فيها في نهاية الدولة الحديثة؛ فإن محو الحروف المصرية ولزق حروف يونانية محلها هو ستارة ثقيلة نزلت بين المصريين ولغتهم وحضارتهم، وعمّت عيونهم عن حقيقتهم وقيمتهم، فكانت نكبة أشد من نكبة إعلان المحتل أن اليونانية هي لغة الدولة، لأن اليونانية في النهاية كانت محبوسة بين الأجانب والموظفين.

وليس مقبولا أن يُبرر لهذا بصعوبة الكتابة بالهيراطيقي والديموطيقي؛ فالخط الديموطيقي كان منتشرا وصالحا للكتابة بالفعل، وحتى إن كان به صعوبة فسهل تبسيطه من وحي الحروف المصرية نفسها، كما فعل الأجداد بتبسيط الخط الهيروغليفي إلى الهيراطيقي، أما محو الخطوط المصرية جميعها واللهث وراء خط أجنبي، وفوق هذا هو خط الاحتلال، فإنما هو تفريط لا يقل عن التفريط في الأرض؛ وبعض العزاء يكون في أن بداية التفريط لم تكن مصرية خالصة، بل خرج من مستوطنين أجانب رأوا الحروف اليونانية

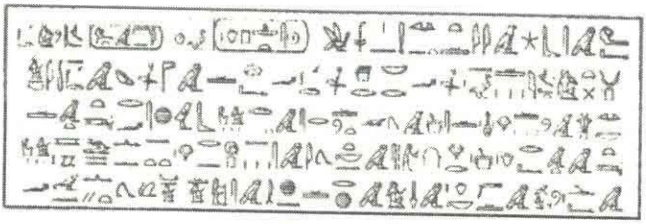
---

[٢٤]- انظر: اللغة المصرية القديمة، عبد الحليم نور الدين، دار الأقصى للطباعة والنشر، ط ٩، مرجع سابق، ص ٣٨- ٤٤، ومصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، ص ١١٦

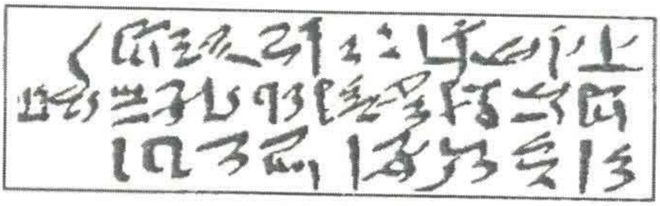
[٢٥]- انظر تتبع ظهور الخط القبطي في: تراث الأدب القبطي، مرجع سابق، ص ١١- ١٦

[٢٦]- اللغة المصرية لغة البلاد الأصلية، جرجس فيلوناؤس عوض، مقال بمجلة الكرمة، العدد ٧، س ٩، بتاريخ ١- ٧- ١٩٢٣، ص ٣٦٣

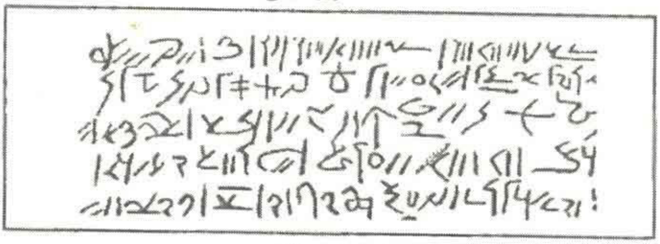
أسهل لهم من تعلم الحروف المصرية، وبعضهم صدره معبأ بالكراهة للحضارة المصرية التي وصفوها بالوثينة بعد تشبع بعض القلوب بما في التوارة من تحقير للمصريين وحضارتهم، فلم يأبه المترجمون للتوراة والإنجيل بحفظ خطوط اللغة التي تحفظ وصل المصريين بها.



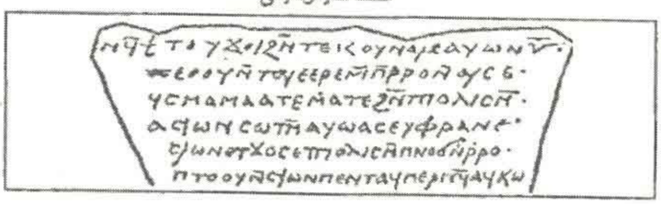
الخط الهيروغليفى



الخط الهيراطيقى



الخط الديموطيقى



الخط القبطى

تطورات الخط المصري وصولا إلى محوه ليحل محله خط أجنبي تسمى بالقبطي (كتاب اللغة المصرية القديمة عبد الحليم نور الدين)

ومن هنا جاء انفراط عقد اللغة المصرية من يد المصريين، بل والحضارة المصرية ككل، لأنه باختفاء العلامات (الحروف) المصرية من بين أصابعهم انتشر الجهل بهذه العلامات، وبالتالي الجهل بما تركه الأجداد من برديات ونقوش على المعابد والمقابر، بل صارت بالنسبة لنا "طلاسم"! حتى أسامي زعماءنا ومدننا وحوادث تاريخنا لا نعرف قراءتها، فانضوت الحضارة المصرية على نفسها كسيرة حزينة، وحلت الغربة والوحشة في نفوس المصريين.

ومتوقع أن هذا طال نطق اللغة أيضا، فالمستوطنين الذين يكتبونها بالحروف اليونانية يكتبونها بنطقهم هم لها، وليس بالنطق المصري السليم، ووجود اللغة بخط أجنبي، ساهم في اختلاق الفصل في تاريخ مصر ما بين مصري (الشهير خطأ باسم فرعوني) وقبطي، وظهور ما تسمى بالحضارة القبطية لها ملامح بعضها يتفق مع الحضارة المصرية وبعضها مختلف تماما نظرا لتداخل مستوطنين أجانب مع مصريين في بوتقة المسيحية، وتسمي كل هؤلاء بـ"القبطي"، ويتجسد هذا الخليط على سبيل المثال في الفنون التي تسمت

بالقبطية، وفيها يظهر الأشخاص "القبط" بلحية آسيوية، وملابس يونانية أو رومانية، وملامح أقرب لليونانية والرومانية من الملامح المصرية، وتغير مدرسة الفن وخطوطها، وذلك إما تأثرا بملامح القديسين أو تماشيا مع ملامح وثقافة القائمين على هذه الأعمال والحكام.

ومدَّ في روح العلامات المصرية بعض الشيء أنه كان واجبا على رجال الدين تعلمها، لأنه محرم الكتابة في المعابد والنقش على جدرانها إلا باللغة المقدسة "مدت نتر"، وبعلاماتها المصرية الخالصة، فظلت داخل المعابد حتى غلق المعابد غصبا بقرار الإمبراطور تيوديوس سنة ٣٩٥ وطرد رجال الدين المتحصنين خلال الاضطرابات التي نشبت بعد اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية، وقتلوا أو كتموا معهم أعرق العلوم والمعارف والمهارات.

وآخر نقش وصلنا بالخط الهيروغليفي تم نقشه على جدران معبد فيلة بأسوان سنة ٣٩٤ م، بينما آخر نص بالديموطيقي في البرديات وصلنا يرجع لسنة ٤٧٠م[٢٧] أي قبل الاحتلال العربي بـ ١٥٠ عاما فقط، وهذا الغلق التعسفي للمعابد يعد الخنجر الثالث للغة المصرية لاختفاء من يهتم بالإبقاء على علاماتها الأصيلة مفهومة لأبنائها، وغاضت أسرارها حتى تلَّقف شامبليون بعضا منها بعد ١٤٠٠ سنة.

هذا ما حصل للغة المصرية المكتوبة، أما اللغة المنطوقة فظل المصريون يتحدثون بها لمئات السنين.

ولم تعدم اللغة المصرية أبنائها الغيورين عليها، فمع اشتداد اضطهاد الرومان للمصريين غلت العروق بالرغبة في الاستقلال والتمسك بالقومية المصرية، فظهرت محاولات لإنقاذ اللغة المصرية للتميز عن المحتلين قادها الأنبا شنودة في القرن ٤ الميلادي تضمنت تنقية اللغة من الألفاظ اليونانية وتنقية الأدب المصري من ثقافة اليونان، وكان أديبا فصيحا رفض الكتابة أو الكلام إلا باللغة المصرية رغم إجادته لليونانية، وحين أسس نظامه في الرهبنة أصر أن تقبل الأديرة المصريين فقط، بينما كانت أديرة الأنبا باخوميوس تقبل رهبانا من جنسيات أخرى، ولم تكن فقط للرهبنة بل سخرها شنودة لمهاجمة كبار الملاك والحكام الأجانب الظالمين لأنه تبنى قضايا مصرية صميمة[٢٨]، وإن لم يتم إعادة الخط المصري إلى اللغة المصرية، وهي جريمة يُلام عليها المثقفون المصريون حينها أكثر مما يُلام عليها المستوطنون الأجانب الذين أبعدوا هذا الخط عن عرشه.

③ اضطهاد الدين المصري.. غلق المعابد

انحسر انتشار المعابد المصرية زمن الاحتلال اليوناني لقلة اهتمام حكومة الاحتلال ببناء معابد جديدة، مكتفية بالسماح بإعادة بناء أو ترميم معابد شاخت أو تهدمت، خاصة مع انحسار ميزانية الأوقاف المخصصة للإنفاق على المعابد بالاستيلاء عليها من حين لآخر كما تابعنا، وظل المصريون يمارسون دينهم حسبما تيسر لهم.

ومع دخول المسيحية وتعرضها للاضطهاد، فإنه بالتزامن- وهو ما يغفل ذكره الكثيرون- تعرض

---

[٢٧]- تراث الأدب القبطي، مرجع سابق، ص ١٠- ١١

[٢٨]- انظر: حضارة مصر في العصر القبطي، مراد كامل، دار العالم العربي، القاهرة، ص ٢٩ و٢٠١ و٢١٣- ٢١٤

المصريون الذين بقوا على دينهم القديم لاضطهاد واسع أيضا، سواء من جانب الدولة الرومانية بعد اعترافها بالمسيحية أو من بعض المسيحيين الذين وصفوا أصحاب الدين القديم بالوثنيين؛ وبعد قرار الإمبراطور تيوديوس بمحو الديانة المصرية وغلق معابدها سنة ٣٩٥م جرى معاقبة من يستمر في ممارسة العبادات "الوثنية" بتهمة الخيانة، ومن ثمَّ عمَّ الدين المسيحي(٢٩).

4 مصر تفقد ذاكرتها

ولم يكن إغلاق المعابد وتحريم العبادة فيها وقتل أو طرد من بقي من رجال الدين المصري مجرد تحريم دين قديم لإزاحة مكان لدين جديد، بل إزاحة حضارة بكاملها؛ فكون المعابد المصرية هي قواعد حفظ العلوم والفنون ومعقل حماية الهوية المصرية، فبغلقها سقطت أزاميل وقواعد النحت والرسم من أيدي الفنانين المصريين ليصمت الفن المصري الأصيل مئات السنين، وتتوقف حركة العمارة المصرية بملامحها المميزة في المنشآت الكبرى، ويختفي العلماء حُفَّاظ الهوية المصرية الخالصة حكمة ولغة وزيًا وعمارة وفنون وعلوما، فيختفي ورائهم شيئا فشيئا وجه مصر البهي النقي الواضح الملامح، ويحل محله شيئا فشيئا وجه- أو قناع- معتم مشوه... حتى حين.

شاهت وشوشنا.. توهنا بين شين وزين

ولسه ياما وياما ح نشوف كمان

وينفلت من بين إيدينا الزمان(٣٠)

وربما لو دخلت المسيحية في ظل حكم مصري، واستقبلها مصريون في بدايتها، مبرأين من الكراهية التي حملها المبشرون والمستوطنون الأجانب للحضارة المصرية لأنها رمز التفوق المصري أو بتأثير من قصص اليهود في التوراة، لاعتنقوها بدون حاجة لإلغاء العمارة والزي والفنون وحروف اللغة وغيرها من معالم الهوية المصرية- كما حافظت بلاد أخرى على هويتها رغم اعتناقها المسيحية- ولاستغنوا فقط عن الرموز الدينية المختلفة بين الدينين، ولظهر الامتزاج بين روح ماعت والدين الجديد كأعذب ما يكون.

وبعد زمن من غلق المعابد فكأن من يمر أمام المعابد الخاوية الصامتة بعد أن كانت تملأ مصر بهجة في أعيادها، تدوي بأصوات ابتهالات وأناشيد رجالها، وحركة الفنانين والنحاتين لا تكف فيها عن البناء والترميم وتلوين الجدران، والداخل والخارج من طلبة العلم في العمارة والهندسة والطب والحكمة واللغة والأدب، تحوطهم روايح البخور العطرة، والأشجار وزهور اللوتس والبردي تزين كل حتة داخل وحول "بيت الحياة".. كأن من يمر أمامها وهي تكتم آلامها يخفق قلبه:

بعد حين يبدل الحب دارا   والعصافير تهجر الأوكارا

وديارٌ كانت قديما ديارا   سترانا كما نراها قفارا(٣١)

(٢٩)- انظر تفاصيل في: تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان، محمد إبراهيم السعدني، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ص ١٧٨، وتاريخ الكنيسة القبطية، مرجع سابق، ص ١٤٥ و١٨٥

(٣٠)- أغنية مقدمة مسلسل أرابيسك، كلمات سيد حجاب، ألحان عمار الشريعي، غناء حسن فؤاد

فكانت أصدق تعبير لما جاء فيما اشتهر بـ"متون هرمس":

آه يا مصر!

لن يبقى من دينك شيء سوى لغو فارغ

ولن يلقى تصديقا حتى من أبنائك أنتِ نفسك

لن يبقى شيء يرْوى عن حكمتك

إلا على شواهد القبور القديمة

ستضحى مصر أرملة

فكل صوت مقدس سيجبر على الصمت

وتفضل الظلمة على النور

ولن ترتفع عين إلى السماء(٣٢)

5 توزيع أرض مصر على الأجانب

(تفشي الخصخصة والوسية والإقطاع)

رجحت كفة ملكية الأراضي في الاحتلال اليوناني لصالح الملكية العامة الحكومية عن ملكية الأفراد، وملكية الإغريق عن بقية السكان، أما الاحتلال الروماني فشجع الملكية الخاصة الواسعة "الرأسمالية" والاستثمار في الأراضي، وباع جزءً كبيرا من أراضي الدولة للمستثمرين الأجانب المقيمين أو الوافدين الجدد، وهو النظام الذي عُرف فيما بعد في العالم باسم نظام الخصخصة.

في هذا التوقيت انتشر أكثر نظام "الوسية"، وهي كلمة رومانية، الأوسية **Ousia** تبيعها الحكومة أو تمنحها للأغنياء من الرومان والإغريق ليستثمروا أموالهم في الزراعة، باعتبارها المصدر الأول للثروة والغذاء في الإمبراطورية، ومن هنا بدأت تتشكل الرأسمالية الخاصة الزراعية، حتى وصل أن الملكيات الخاصة وصلت لأكثر من نصف أملاك الدولة(٣٣).

ومن قوايم أسماء أصحاب الوسيات يتضح أن كلهم من أصحاب السلطان، إما الأباطرة أنفسهم، أو عيلة الإمبراطور، أو أصفيائه، أو وزرائه، أو زعماء المجتمع السكندري من الإغريق والجاليات الأجنبية، أو المحررين من عبيد الإمبراطور، ولكبر مساحتها تعتبر الوسيات وحدات اقتصادية في الريف، وغالبا يديرها وكلاء عن أصحابها الذين يقيمون عادة في الإسكندرية أو روما.

---

(٣١)- قصيدة "هذه ليلتي"، كلمات جورج جرداق، ألحان محمد عبد الوهاب، غناء أم كلثوم

(٣٢)- متون هرمس الحكمة الفرعونية المفقودة، مرجع سابق، ص ٣٥- ٣٦

(٣٣)- مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ٢٣٤- ٢٥٥

وللنظام الرأسمالي وشيوعه عيوب طالت الأسعار ووفرة الانتاج، لأن المستثمر وصاحب الوسية فضَّل توجيه الزراعة بما يخدم مصالحه وليس الصالح العام، ومن ذلك ما تحدث عنه المؤرخ سترابون بقوله: "هناك فئة ممن يريدون زيادة دخولهم... ولذا لا يسمحون بنمو البردي في مواضع كثيرة؛ مما يؤدي إلى ندرته التي ينتج عنها ارتفاع أسعاره، وبذلك تزداد دخولهم، بينما هم يسيئون إلى الصالح العام(٣٤)".

وأمام تضخم الملكيات الخاصة للإقطاعيين وتدخلهم في شئون الحكم ضعفت السلطة المركزية، بحيث أصبح لملاك الوسيات قوة طاغية في المدن التي تحوي أملاكهم، ومعظم أراضي مصر ملكية خاصة لمجموعة من الأفراد الأجانب، وهو ما أدى لقيام الإمبراطور أحيانا، بمصادرة وسيات.

وبمرور السنين، وبعد بدء تحلل الدولة، ظهرت إقطاعيات مثل إقطاعيات أوروبا في العصور الوسطى، بحيث أن فرد واحد يمكنه أن يملك قرى ومدن بحالها، وهذا المالك هو صاحب الأمر والنهي فيها وليس الحكومة، وهو القائم على حفظ النظام والأمن وإدارة الاقتصاد وجباية الضرايب، بل وصل الأمر إلى تكوين جماعات مسلحة "مليشيات" خاصة به، وسجون تابعة له، ونشبت الخلافات والمنافسات بين كبار الملاك، مستقويين بالقوة المسلحة التي في يد كل منهم، وأصبح عدد القرى الحرة، أي التي بقيت على نظام صغار الملاك وتدفع الضرايب للحكومة مباشرة قليلة العدد، إضافة إلى قرى تابعة لأملاك كنيسة الإسكندرية التي تضخمت بالمنح والأوقاف من الحكام والأفراد(٣٥) بعد اعتماد المسيحية دينا رسميا.

وزاد من قوة الإقطاعيين أن الإمبراطور جستنيان في عام ٥٣٨م- بعد بدء انفلات الأمور من يد الحكومة المركزية- قسم مصر إلى ٥ أقسام، وأعطى حاكم كل قسم السلطة المدنية والعسكرية فيه ليمكنه من السيطرة وفرض النظام به، وتسمى كل حاكم باسم "دوق"، وهذه الأقسام هي الإسكندرية، شرق الدلتا، غرب الدلتا، مصر الوسطى، مصر العليا، وتعامل كل دوق مع كل قسم كأنه دويلة خاصة به، خاصة وأن الإمبراطور في السنوات الأخيرة للاحتلال لم يهتم إلا بأن يجبي له "الدوق" الجزية والضرايب من المزارعين، سواء بطريقة عادلة أم لا(٣٦)، ما سيكون له أكبر الأثر في سقوط الإمبراطورية.

وبحسب الدكتورة زبيدة عطا في كتابها القيم "الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي" فإنه في بداية القرن الرابع سمحت الإمبراطورية بتملك الأراضي للفلاحين، فاستطاع بعض المصريين أن يكونوا من ملاك الأرض، وظهر فيهم أغنياء، مثل عائلة القديس أنطونيو الذي وهب أملاكه البالغة ٣٠٠ فدان للكنيسة قبل انخراطه في الرهبنة وعائلة أبيون(٣٧).

أما من أصبحوا من صغار الملاك فأثقل ظهرهم كثرة الضرايب التي تُفرض عليهم أكثر مما تُفرض على الأغنياء، والوسائل القاسية في جمعها، ووجدوا ألا فائدة تجنى من امتلاك أراضيهم، فلجأوا لحيلة مؤلمة تنجيهم من مسئولية دفع الضرايب، وهي طلب حماية أحد كبار الملاك من أصحاب النفوذ، على أساس أن يتنازل له المالك الصغير عن أرضه، ويتولى المالك الكبير دفع الضرايب للدولة، وهكذا تحول

(٣٤)- انظر: المرجع السابق، ص ٢٤٣- ٢٥٥

(٣٥)- انظر المرجع السابق، ص ٣٢٢- ٣٢٤

(٣٦)- انظر: نفس المرجع، ص ٣١٦- ٣١٧

(٣٧)- الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي، زبيدة عطا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١، ص ٥٠- ٥٥

من مالك حر إلى تابع يستأجر من سيده الأرض التي كان يمتلكها، وعرف هذا النظام باسم "نظام الحماية"[٣٨]، وسعت حكومة الاحتلال لإلغائه بلا جدوى.

وظهرت الرأسمالية الخاصة بشدة في التجارة أيضا مع كثرة نقل البضايع من الهند وجزيرة العرب وأفريقيا من البحر الأحمر إلى البحر الأبيض، أو "البحر المصري" كما كان يُسمى وقتها، وبعض أنواع التجارة عبارة عن مواد خام كالتوابل تُصنع في مصر، ويُعاد تصديرها عن طريق الإسكندرية، فأصبحت مصر بشكل أكبر مهبطا أساسيا للتجار والسماسرة من كل ملة لعقد الصفقات، وحدث انتعاش تجاري واسع، ازداد على حسه الأجانب في مصر ثراء بشكل فاحش.

وهذا الثراء الفاحش واحتكار أنواع من التجارة شجع الرأسماليين وأصحاب الوسيات أن يحلموا بنفوذ سياسي في الحكم يحمي أموالهم، ويسير قرارات الدولة لصالح تجارتهم، حتى أن بعضهم تمكن من شق طريقه إلى أرقى المناصب في القصر الإمبراطوري، وفي المقابل استغل آخرون نفوذه في محاربة الإمبراطور نفسه، مثل "فيرموس" الذي سلَّح جيشا بأسره من تجارة البردي والصمغ العربي لمساعدة زنوبيا ملكة تدمر السورية في حربها ضد الإمبراطور[٣٩].

ورغم مظالم الإقطاع الروماني إلا أن الدكتورة زبيدة عطا بعد تفنيدها العديد من البرديات المحلية والقرارات الصادرة عن الأباطرة الرومان تلفت النظر إلى أن الفلاح المصري حاله أفضل من المزارعين في أوروبا نفسها القريبة من الإمبراطور، وذلك أن الفلاح المصري لم يكن عبدا ولا قنا كما كان المزارعون في الإقطاعيات الأوروبية التي يُباع ويُشترى المزارع مع الأرض، وأن العلاقة بين الفلاح ومتملك الأرض المحتل في مصر هي علاقة إما مستأجر منه الأرض أو أجير، وفي كلتا الحالتين فله أن يشكو المتملك إلى الحكومة إذا تجاوز في حقه، وليس لمتملك الأرض ولاية على ميراثه أو أهل بيته كما كان للإقطاعي الأوروبي على العاملين في أرضه، وبعض الأباطرة مثل ثيودسيوس وجستيان أصدروا قرارات لإنصاف الفلاح لاتقاء ثورته، ولتشجيعه على استمرار فلاحة الأرض وعدم تركها[٤٠]، وهذا يُحسب للفلاح المصري أن ثوراته وغضبه حمته من أن يتحول إلى مصير الفلاح الأوروبي كعبد.

إلا أن الموظفين، لم ينفذوا قرارات هؤلاء الأباطرة التي ظلت حبرا على ورق، واستعملوا أساليب السرقة والاختلاس والشدة في التعامل مع الفلاحين، خاصة وأن كبار الموظفين في الحكومة أساسا هم متملكو الأرض، فهم القاضي والحكم، وعبر عن هذا جستنيان بنبرة يأس أو سخط على دور الموظفين في استنزاف أموال الزراعة في مرسومه رقم ١٣: "إن أموال مصر تستنزف عند الجباية" وفي رده على شكوى أحد سكان كوم أشقوة من عسف الموظفين جباة الضرائب قال إن الجباة أقوى من أوامره[٤١].

⑥ نزح أموال المصريين جزية وضرائب

(٣٨)- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ص ٣٢١- ٣٢٢، وهذا سيتكرر في احتلالات أخرى.

(٣٩)- انظر: نفس المرجع، ٢٥٩- ٢٦٦

٤٠- انظر: الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي، زبيدة عطا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١، ص ١٠- ٧٦

٤١- نفس المرجع

كما تابعنا فرض أغسطس الجزية على السكان- عدا الرومان والإسكندريين، ولكن لا تُفرض بنفس القيمة، فكان الفلاحين (المصريين) في القرى يدفعون ٤٠ دراخمة، في حين أن سكان عواصم النومات (الإغريق والمتأغرقين) يدفعون ١٢ دراخمة، ورغم هذا الفرق في القيمة إلا أن الإغريق في النومات غضبوا من أن يُفرض عليهم ضريبة تساويهم بالمصريين[٤٢]، كون أن الجزية تُفرض على "المغلوب".

وبخلاف ذلك فُرض على المصريين ضريبة القمح، وهي شحنات قمح تُرسل إلى روما ومعها أيضا الفول والزيت والبصل والكتان، وضريبة البرسيم، وهي قدر من البرسيم لإطعام خيول الجيش، تحولت لاحقا لضريبة نقدية، وضريبة مسح الأراضي، وضريبة التموين العسكري قمح وشعير لإطعام الجيش الروماني، وضريبة الكروم وحيوانات المنزل، وغيرها من ضرايب ولا يأخذ الفلاح مقابلها أي خدمات صحية أو تعليمية أو سكنية، بل يُجبر على السخرة لتقديم خدمات مجانية في مشاريع الحكومة[٤٣].

وبعد وفاة أغسطس خلفه تبيريوس، فاستمر في سياسته لزيادة المساحة الزراعية في مصر لإطعام روما، وفي عهده بالغ الوالي في جمع الجزية حتى زادت على المبلغ المقدر سنويا، فلامه على ذلك، وقال له كلمته المشهورة "إنما أرسلتك لتجز وبر الأغنام لا لتسلخها"[٤٤].

فسلخها سيؤدي إلى قتلها، ويتوقف إنتاجها، وتنحرم روما من سلة غذائها الشهية الثمينة.

وكثرت الشكاوى والمقاومة من المصريين إزاء هذا الظلم، ولقت التجبر في مواجهتها حينا، ولقت استجابة حينا، مثلما أصدر الإمبراطور سيودثيوس في قانونه سنة ٣٢٠ م أنه بالنسبة لدافعي الضرايب: "فلن يقاسي أي شخص من أيد غير أمينة أو أحكام ظالمة، ولن يساق بسوط أو يجلد أو يتعرض لتعذيب أو اضطهاد"، لكن الموظفين لم يطبقوا القوانين فتحولت- بتعبير زبيدة عطا- لنظريات مثالية[٤٥].

❼ نزح أموال المصريين للبنوك والقروض الخارجية

وباء وافد آخر ضرب مصر زمن الاحتلال الروماني، وهو نظام البنوك والاقتراض من الخارج، وهو تطور لنظام الربا الذي رأينا كيف نشره اليهود والإغريق في مصر وغيرها قبل ٤٠٠ سنة، وهذه البنوك كانت في يد أفراد (قطاع خاص)؛ ما يعني ضعف قبضة الحكومة على الاقتصاد.

وعُثر على وثائق من القرن ٦ تعود لأشخاص تعاقدوا على اقتراض مال من ممولين وبنوك في القسطنطينية (بيزنطة)، ويتفقون على أن يكون رد الدين في الإسكندرية؛ ما معناه أن البنوك كانت بالانتشار والقوة أن لها فروعا ومكاتب في أرجاء الإمبراطورية، والقرض بفايدة ٨%.

وما يهمنا هنا، أن هذا النشاط تسبب في أن هذا الربح السهل والسريع ساهم في ترسيخ قدم هؤلاء الممولين المشبوهين في مصر لأنهم استخدموا أرباح الفوائد في شراء أملاك مصرية، ويمكن الاستدلال

---

(٤٢)- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ص ١٦٤- ١٦٥

(٤٣)- انظر: مظاهر الحياة في مصر في العصر الروماني اجتماعيا واقتصاديا وإداريا، آمال الروبي، مرجع سابق، ص ٩٧- ١٠٥ والفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي، مرجع سابق، ص ٧٠- ٧١

(٤٤)- مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١٦٨

(٤٥)- الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي، مرجع سابق، ص ٧٣ و ٧٦

على هوية ومستوى أخلاق هؤلاء الممولين الكبار عبر وصف الكاتب سوفردنيوس للمرابي أجابيوس الهليني بأنه "كان يخدم المخلوق ضد الخالق"[٤٦].

8 إهلاك ثروة المصريين في حروب لا تخصهم

واصل الرومان ما بدأه اليونان من حلب الضرع المصري للإنفاق على حروبهم التوسعية، خاصة التي تتعلق بمطامعهم في السيطرة التامة على طريق التجارة بين الهند ومصر، وهو صراع سيتجدد بأطراف أخرى هي إنجلترا وفرنسا في القرنين ١٨ و١٩، وعلى حساب مصر وحريتها ومالها أيضا.

ففي أيام أغسطس لم يكتفِ بنجاح اليونان في عمل مستوطنات في الجزر والسواحل الممدودة بين مصر والهند، وتوثيقهم العلاقات التجارية مع المدن اليمنية المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندي وخليج عدن، بل طمع في نزع التجارة من يد اليمنيين تماما، وأسال ريقه لهذا الرحالة سترابون حين كتب هو ورحالة إغريق ورومان آخرون عن "ثراء بلاد العرب نتيجة تحكم السبأيين والجرهائيين في تجارة المواد العطرية، حتى صار الذهب والفضة والأحجار الكريمة يدخل عندهم في صناعة الأسرَّة والموائد الصغيرَة والأواني والكئوس وأبواب وسقوف وجدران القصور الزاهية الألوان.

كما أوغر سترابون صدره بأن صوَّر له أن هذه القبايل تحصل على الأرباح الباهظة ولا يتركون للرومان مجالا للثراء، وهو بذلك قام بنفس الدور الذي قام به رحالة ومستشرقون أوروبيون بعده بقرون حين تخفوا في زي سواح ورحالة ليستكشفوا مصر وبلاد الشرق ويغروا الأوروبيين بإعادة احتلالهم.

وهكذا صدر أمر أغسطس إلى نائبه الروماني على مصر آيليوس جاللوس بمهمة إرهاب القبايل اليمنية واحتلال أرضهم بالقوة، فجهز جاللوس جيشا من اليهود والعرب الأنباط حلفاء الرومان خرج سنة ٢٤ ق.م بأسطول كبير قيل من ١٣٠ سفينة من خليج السويس نحو اليمن، وهبط على أرضها وحارب لفترة، غير أن مهمته فشلت لطبيعة جغرافية اليمن وانتشار الأوبئة وقلة المياه[٤٧].

9 السخرة واتساع دايرة التشرد للمصريين

أما السخرة لصالح الاحتلال فمن أشد الأمور وطأة على صدور المصريين، كان على الأهالي أن يقوموا بأعمال إجبارية مجانية لصالح المحتل كنوع من أنواع الضرايب، تتدرج من تولي وظايف مختلفة في الإدارة المحلية إجباريا وبلا مقابل، وتسخير ما يمتلكه الأفراد من دواب لنقل الغلال من القرى إلى الإسكندرية لتشحن في السفن إلى روما، حتى تصل إلى القيام بأعمال يدوية شاقة مثل بناء السدود والجسور وتقوية ضفاف النيل وقت الفيضان، وكرها دون أجر، رغم ثراء البلاد وتحويل أموالها إلى الخارج، وتتوزع على الأفراد حسب منزلتهم المادية، فالعمل الأسهل للأكثر مالا، والعمل الأشقى للأكثر فقرا.

وحين أهملت الترع والمصارف وتعاقبت الفتن والثورات ساءت الزراعة، ولم يقبل الأهالي على العناية

---

[٤٦]- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مصطفى العبادي، مرجع سابق، ٣٢٩- ٣٣٢

[٤٧]- تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ١٠٣- ١٠٤

بأرضهم لعلمهم بعدم جدوى جهودهم، وأن ثمرة أعمالهم ستذهب إلى روما، فهجر بعضهم القرى، ولجأوا إلى المعابد أو تسللوا إلى المدن الكبرى بحثا عن عمل، فإذا عجزوا عن العمل فيها لجأوا إلى حياة اللصوص وقطع الطرق، ومن أبى ذلك لجأ إلى أحراش الدلتا ومستنقعاتها ليحيا حياة تشرد فطري[٤٨].

وفي محاولة لردع الفلاحين عن الهرب من دفع الضرايب، أذاق جامعو الضرايب أهل المزارعين الفارين أسوأ أنواع العذاب ليعرفوا منهم مكان مخبأهم أو ليأخذوا منهم الضريبة، وينقل العبادي من بردية عبارة عن خطاب كتبه صبي في القرن الثاني علم باعتزام والده الفرار سرا، فكتب إلى أحد أقاربه يطلب منه أن يحصل له من والده على مال يمكنه هو أيضا من الفرار إلى الإسكندرية خشية أن ينتقم موظفو الإدارة منه بعد اختفاء والده[٤٩].

وفي نفس الوقت قاوم البعض هذا الظلم بالمواجهة الجماعية بدل الهروب، ففي رسالة موجهة إلى موظف عسكري لقبه سكان قرية أهمويا نيكوس بالحامي في القرن الرابع رفضوا الاستسلام إليه بدلا من زملائهم الذين هربوا من أراضيه: "نحن نرغب أن يعلم سيدنا نيكوس أنه في عهد والدك أو أجدادك لم نسلم أنفسنا، وأننا نقدم ما يطلب منا سنويا، ولا نسلم أنفسنا لأحد[٥٠]".

ويبدو أن من يستطيع من المصريين السكن بالإسكندرية كانوا غالبا يستخدمون في الأعمال الشاقة التي يتعالى عليها الأجانب، ففي ٢١٥ م أصدر الإمبراطور كاراكالا بيانا بطرد المصريين من الإسكندرية، واستثنى من ذلك حرف كتجار الخنزير ورجال القوارب النيلية وجالبي الحطب لوقود الحمامات، ويبدو من بيان كاراكالا أن المصريين القادمين من القرى كانوا محتفظين بما يميزهم في الملبس والعادات التي تدل على هويتهم وعدم اندماجهم بالمحتلين، فقال إنه "من اليسير التمييز بين عمال النسيج المصريين [غير واضح يقصد مصريين أصليين احتاجهم سكان الإسكندرية في صناعة النسيج أم يقصد الجاليات من غير السكندريين الذين يسميهم الرومان مصريين] وبين الفلاحين المصريين [أهل الريف] عن طريق لغتهم ومظهرهم وعاداتهم"[٥١].

وهكذا تشرد الكثير من المصريون في بلادهم، يعيشون عيشة المطاريد والمنفيين، فلا القرى تكفيهم، ولا المدن تأويهم، إلا قليلا.

⑩ قبول وتمجيد الاحتلال باسم الدين

(قسطنطين المحتل قديسا؟)

من أسباب كراهية المصريين للهكسوس القدامى هو الاختلاف في العقيدة، ورأينا أيضا أنه في زمن الاحتلال الهكسوسي الاستيطاني الثاني، الخاسوتيمي، أن المحتلين تخبوا تماما- ولو في الظاهر- في رداء المتدينين المصريين، وقدسوا المعبودات المصرية لكسر حد نفور المصريين منهم، وربما ساهم هذا في

---

[٤٨]- مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١٨٥- ١٨٦ ومظاهر الحياة في مصر في العصر الروماني اجتماعيا واقتصاديا وإداريا، آمال الروبي، مرجع سابق، ص ١١٠- ١١١

[٤٩]- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مصطفى العبادي، ص ٢١٣

[٥٠]- الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي، مرجع سابق، ص ٣٤

[٥١]- مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ٢١٤- ٢١٥

إطالة أمد وجودهم، وذكر لنا هيردوت أنه من أسباب نفور المصريين من التعامل مع اليونانيين، أو حتى استعمال أدواتهم وآوانيهم، هو اختلاف العادات والتقاليد، وحين هبط الاحتلال اليوناني العسكري حافظ على بعض المعابد المصرية مثل إدفو والكرنك، بل واخترع معبودا يمزج بين الدين المصري والدين اليوناني ليخلق "دينا مشتركا"، هو سرابيس.

وهذه كلها نلاحَظ أنها محاولات جاءت من المحتل نفسه للتقرب من المصريين، أو للتمويه عليهم وتضليلهم وكسر حدة نفورهم منه حين يرونه يشاركهم في دينهم.

ولكن أيام الرومان تكَّون قيح في الشخصية المصرية، وهو "تعظيم"، و"تقديس" المحتل، وذلك أنه لما جاءت المسيحية كدين من الخارج، واتبع الأباطرة الرومان سياسة اضطهاد المسيحيين، خالفهم الإمبراطور قسطنطين لما اعترف بالمسيحية دينا ضمن أديان الإمبراطورية، فهلل له مسيحيون، وأعلنوه "منقذا"، بل و"قديسا" مع أمه هيلانة.

وعلى هذا سهل تصور خلافات بين مصري مسيحي وأخيه المصري الذي يتبع الدين المصري إذا ما عظَّم الأول قسطنطين وشتمه الثاني، فأحدهما يراه قديسا مخلِصا، والثاني يراه محتلا مغتصبا.

وقسطنطين وإن اعترف بالمسيحية، إلا أنه في الحقيقة لم يوقف تعذيب المصريين على يد محتليهم الرومان والجاليات التابعة لهم الناهشة في لحمهم، ولم يحقق رسالة المسيحية في تحرير البشر والكف عن الحروب، فمثلا:

هل قسطنطين لغى الجزية عن المصريين التي تضعهم في مرتبة حقيرة أمام الرومان؟ هل قسطنطين لغى الضرايب الفجة التي كسرت ظهر المصريين وألغى السخرة لصالح مشاريع الاحتلال؟

هل قسطنطين ترك مصر للمصريين وسحب جيش الاحتلال الروماني من أرضها؟ هل قسطنطين كان سيصمت أمام أي ثورة يقوم بها المصريون- مسيحيون أو غير مسيحيين- ضد الرومان رافعين مبدأ "مصر للمصريين" يطالبون بخروج المحتل من أرضهم أم سيقمعها بأوحش الأساليب؟[٥٢]

إذن فربما هذه أول مرة يتحول "المخلص" و "المنقذ" و"القديس" في العقيدة والشخصية المصرية من البطل المصري الذي يحرر المصريين من المذلة للأجنبي، ويبعد عنهم شيطان الانقسامات والصراعات مثل منتوحتب الثاني وأحمس إلى أن يكون هو "البطل الأجنبي" الذي يواصل احتلالهم ومذلتهم، أو يناصر بعض المصريين على البعض الآخر، ويحدث بينهم انشقاقات وصراعات.

وهو تحول في عقيدة الشخصية المصرية لو يعلم المصريون عظيم، بل هو البذرة التي انتفخت وفرَّخت في مصر ما نكابده اليوم من تنظيمات إرهابية تتاجر بالدين، وتشعل الحروب الأهلية باسمه، ومن تنظيمات سياسية (كالشيوعية والليبرالية والعروبية والعولمية) التي يناصر فيها المصري الأجنبي على أخيه مدام هذا

---

(٥٢)- تعلو أصوات مصرية في السنين الأخيرة تدعو لمراجعة تقديس قسطنطين، وتتشكك في الروايات التي ترفعه لدرجة سامية، غير أن هذه الدعوة سببها أمور مسيحية أيضا، مثل إساءته لبابا الإسكندرية إثناسيوس، ولم تطعن في تقديس قسطنطين لأنه أجنبي احتل مصر واستباح شعبها.
انظر: الباحث رياض فارس لـ"روزاليوسف": قسطنطين.. ملك لا يستحق لقب القداسة، روزاليوسف، ٢-١٢-٢٠١٧

الأجنبي شيوعي أو ليبرالي أو عروبي أو عولمي مثله.

▲▲▲ ثورات مصر ضد الاحتلال الروماني

رغم حزمه الإداري والعسكري، إلا أن الاحتلال الروماني واجه صعوبات كبيرة في احتلال مصر، تسبب فيها المصريون بثوراتهم على مظالم الاحتلال، وكذلك الإغريق الذين رغم احتفاظهم بالكثير من الامتيازات إلا أنها شعروا بتراجع مكانتهم أمام الغاصبين الجدد (الرومان)، وطول الوقت يتغلب عليهم شعور أن الرومان اغتصبوا مصر منهم، وكذلك شارك فيها اليهود الذين طمعوا في أخذ امتيازات أكبر.

♦♦♦ ثورة ٢٩ ق.م

وأولها ثورة ٢٩ ق. م؛ فما كاد أغسطس يخلع رجله من مصر ويبدأ الموظفون يجمعون بشغف الضرايب الجديدة، حتى اشتعلت نيران أولى الثورات شرق الوجه البحري والإسكندرية والوجه القبلي، شارك فيها مصريون وإغريق، ولكل أسبابه، وفي الحال قام "كورنيليوس جالوس"، أول والي روماني على مصر، بإخماد الثورة بعنف.

وفي عهد الوالي بتورنيوس اكتمل مشروع البطالمة السابق في إضعاف نفوذ المعابد المصرية، فصادر كل أملاك المعابد، وأصبحت تحت سيطرة حكومة روما، ومن أهداف ذلك شل المعابد عن دعم الثورات لأنها كانت القوة المنظمة المصرية الوحيدة الباقية التي يستنجد بها الأهالي(٥٣).

وفي ١٥٢ م ورغم البطش الروماني في إخماد الثورة الأولى، هبَّت ثورة جديدة للفلاحين، لينفضوا غبار الاحتلال والضياع عن أنفسهم، وتم إخمادها خلال سنة بتدخل من الإمبراطور نفسه.

♦♦♦ ثورة ١٧٢ م الكبرى

أما الثورة الكبرى في ذلك العصر فهي ثورة ١٧٢ م، في عهد الإمبراطور أوريليوس، وفيها استغل المصريون إرسال الجيوش الرومانية للحرب في الدانوب وأشعلوا ثورة عنيفة تحت زعامة أحد رجال الدين في المعابد اسمه أزيدور، مركزها شمال الوجه البحري.

ويبدو أن الثورة كانت من القوة بحيث أن القوات الرومانية الموجودة في البلاد عجزت عن مواجهتها حتى كادت الإسكندرية ذاتها تسقط في أيدي الثوار، ولإنقاذ الموقف اضطرت روما إلى إرسال قوات من سوريا يقودها الحاكم هناك المسمى أفيديوس كاسيوس الذي علم أنه لن يغلب الثائرين بقوة السلاح في وقت قصير، فلجأ للمكيدة بسياسة "فرق تسد" فاستمال بعضهم، ثم تعقب من تبقى في شكل جماعات صغيرة حتى قضى على الثورة(٥٤).

♦♦♦ ثورة ٢٨٥م

(٥٣)- انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١٦٥- ١٦٧

(٥٤)- انظر: الحياة في مصر في العصر الروماني، نفتالي لويس، ص ٢٢٩- ٢٣١، ومصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي ص ١٨٧

وعادوا للثورة أيام موريس الذي تولى سنة ٥٨٢ قادها ٣ إخوة (مينا ويعقوب وأباسخريوس) في الوجه البحري، اقتربت الثورة من الإسكندرية، وسيطرت على سفن قمح ذاهبة إليها، وانتهت بقطع رءوس الإخوة[٥٥]، وأشار إليها يوحنا النقيوسي في كتابه عن تاريخ مصر.

وفي نهاية الاحتلال الروماني وقع نوع آخر من الاضطهاد على يد الوالي قيرس "المقوقس" في عصر الإمبراطور هرقل؛ فسعى المضطهدون للتخلص منه، واجتمع عدد منهم في كنيسة "دفاشير" قرب مريوط واتفقوا على قتل المقوقس، لكن سمع بخطتهم ضابط روماني اسمه أودوقيانوس أرسل جنوده وقتلوهم قبل تنفيذ الخطة حسبما ذكر يوحنا النقيوسي[٥٦]، فكانت ثورة لم يُكتب لها البداية.

▼▼▼ صراعات الطوائف والأعراق الأجنبية

إلى جانب ثورات المصريين، اندلعت ثورات ومعارك منفصلة لليهود والإغريق، ولكن لأسباب مختلفة تتعلق بتنافسهم مع الرومان أو مع بعضهم على النفوذ والامتيازات كما يحدث دائما مع زرع أعراق وطوائف متناقضة في مكان واحد، ورغم أنها قامت لمصالحهم وليس لمصالح المصريين إلا أن المصريين اكتووا بنيرانها لاستنزافها اقتصاد البلد وتعطيل الأشغال والزراعة، وتأثيرها على أحوال الأمن.

وتضخمت الجالية اليهودية حتى أنها شغلت حيين أو أكثر من الأحياء الخمسة للإسكندرية، بعد ما كانت تسكن حيا واحدا هو "دلتا"[٥٧]، وكان هدف الرومان استغلال اليهود في عمل توازن يحد من نفوذ الإغريق، وعلى هذا، ففي سنة ٢٨ م وقعت بين اليهود والإغريق والجاليات الأجنبية فتنة اشتهرت باسم "فتنة سنة ٢٨"، سببها أن اليهود شعروا بتعاظم قوتهم، وأقحموا أنفسهم في مجالس كانت حكرا على الإغريق، وادعوا أنهم مواطنين سكندريين مثل الإغريق بسبب الامتيازات التي أغدقها الإمبراطور الروماني على اليهود، وانتهى الصراع المسلح بين كل هؤلاء بمهاجمة معابد اليهود، وقتل الوالي الروماني، فطالب الإمبراطور اليهود بالكف عن جلب يهود جدد من الشام أو من مدن مصرية أخرى إلى الإسكندرية، وأن يكتفوا بما كسبوه من امتيازات.

وتكررت النزاعات سنة ٥٣ م وانتهت بمحاكمة زعماء الإسكندرية الإغريق وإعدامهم، وتسميتهم في الأشعار الإغريقية بـ "شهداء" كافحوا لحماية الإسكندرية من الخضوع لليهود، وفي سنة ٦٦ م تجددت الصراعات في عهد الإمبراطور "نيرون" المعروف بجنونه وشراسته، فأمر بإخمادها بالقوة بقوات من الجيش الروماني، ويقال إنه قُتل فيها ٥٠ ألف شخص.

وفي ١١٤ م انتهز اليهود فرصة انشغال الإمبراطور في الحرب ضد البارثيين وأشعلوا نار ثورة جامحة في مصر وبرقة، حتى سيطروا على البلاد بعض الوقت، وعجزت الجيوش الرومانية عن مواجهة

---

[٥٥]- تاريخ الكنيسة القبطية، مرجع سابق، ص ٢٧٨-٢٨٠، وتاريخ مصر، يوحنا النقيوسي "رؤية قبطية للفتح الإسلامي"، ترجمة عمر صابر عبد الجليل، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ص ١٦٢- ١٦٦

[٥٦]- انظر: تاريخ مصر، يوحنا النقيوسي، ص ٢٠٣ وفتح العرب لمصر، ألفريد بتلر، ترجمة محمد فريد بك أبو حديد، مكتبة مدبولي، سلسلة صفحات من تاريخ مصر، ط٢، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٢٢٣

[٥٧]- انظر: مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، مرجع سابق، ص ١٦٤ و٢١٥

الموقف، واضطر الوالي إلى تجنيد الأهالي في فرقة محلية في كل نوموس لإخمادها[٥٨].

وهكذا أدت الصراعات بين الأعراق والطوائف الأجنبية إلى نشر الفوضى في البلاد، واستنزاف مزيد من خيراتها، ومقتل مزيد من أبنائها، في معارك لا تخصهم في شيء.

▼▼▼ الاحتلال الفارسي الثالث

وسط دوامة الصراعات والاغتيالات التي غرق فيها الرومان (البيزنطيين) تعرضت الإمبراطورية لاجتياح فارسي سيطر على الشام ثم مصر سنة ٦١٨ م، وذلك بعد ٩٥٠ سنة من الاحتلال الفارسي الثاني لمصر، وحكموا مصر ١٠ سنوات قاسية.

ويقول ألفريد بتلر عن دور "خلطة الأجناس" بالإسكندرية في تسليم مصر للفرس رغم الحصون الشهيرة للإسكندرية التي ظنت أنها "مانعتها"، أي ستحميها: "ولكن أنَّى لها ذلك وقد بَعُد عهدها باجتماع الشمل وتوحيد الكلمة، وصار أهلها أخلاطا مضطربة من قبط وروم وسوريين ويهود وجماعة من طلاب العلم، وآخرين من اللاجئين أتوا إليها من كل أنحاء الدولة، فكان القبط والسوريون يكرهون الروم، وكان اليهود يمقتون أتباع المسيح مقتا لا يسله من قلوبهم الخطر الداهم عليهم جميعا، وكانوا جميعا لا يدركون أن الواجب عليهم أن يجتمعوا من كل جنس أو طبقة أو مذهب يربطهم رباط الاشتراك في الوطن، وهو الوسيلة لا وسيلة غيرها إلى ضم شملهم، ما كانوا ليدركوا معنى لهذا بل كانوا يسخرون منه، فلم يكن عجيبا مع هذا أن نرى الخيانة تعمل على وقوع المدينة في يد أعدائها"[٥٩].

وكيف يعرفون معنى الوطن وهم قادمون من بلاد ما عرفت يوما معنى الوطن، وكيف يعرفون معنى الوطن وما جاءوا لمصر إلا للنهب والنفوذ والعمل كمرتزقة، وكيف يعرفون معنى الوطن وكل جالية محتفظة بأصولها الأجنبية فيما مصر بالنسبة لهم ليست إلا "بقرة حاحا"، يحلبونها حتى يجف ضرعها.

وانتهى الاحتلال الفارسي بعد ١٠ سنين بحرب قادها الإمبراطور الروماني هرقل، وطردهم من مصر ٦٢٧ م، ولكن تكالب على هرقل عدو أشد من الفرس، وهو واليه على مصر قيرس "المقوقس"، فقد كان فظا غليظ القلب، لم يستجب لوصايا هرقل في تهدئة ما بين المذهبين الأرثوذكسي والملكاني في مصر، وأشعل النار بينهما، واضطهد الأرثوذكس، فأهاج الناس على هرقل، وأضعف مركزه، بل وورط هرقل في قبول هذا الاضطهاد، وبهذا السبب مجتمعا مع العوامل السابقة كالإقطاع، وصعود مراكز القوى التي غرست الضعف في أوصال الإمبراطورية، والثورات المتتابعة، وعودة الصراعات والدسائس على العرش، وكثرة الخيانة، تجهزت الإمبراطورية العجوز للسقوط بمعاول أول قوة فتية تظهر على الساحة الدولية[٦٠].

ولم تساعد ثورات المصريين ضد الرومان في أن يفوزوا ببلدهم حين انهارت الإمبراطورية الرومانية،

---

(٥٨)- للمزيد انظر: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مصطفى العبادي، مرجع سابق، ص ١٦٩- ١٨٢
(٥٩)- فتح العرب لمصر، ألفريد بتلر،مرجع سابق، ص ١١٣
(٦٠)- للمزيد انظر: فتح العرب لمصر، ألفريد بتلر، مرجع سابق، ص ١٠٩- ١٦١

فالقوة المنظمة الخاصة بهم (الجيش) ما زالت غائبة في جوف الزمن، والمعابد الكبرى أُغلقت وصودرت أوقافها واختفى زعماؤها، والكنيسة لم تتبنَّ مبدأ الثورة القومية، كما أن أتباعها من اليونان الدخلاء بجانب المصريين؛ فضاعت ثوراتهم ودماءهم في الفراغ لتسقط مصر في يد قوة مسلحة أجنبية جديدة (العرب)، وإن بقي لهم شرف أنهم سجلوا بهذه الدماء أنهم رغم كونهم عُزَّل صرخوا في وجه الاحتلال الروماني صرخات مزلزلة، وهزَّت أعماق التاريخ تذكرهم بالخطيئة الكبرى التي جلبت عليهم كل هذا البلاء والعقاب الطويل، عقاب كفرهم بأكبر نعم الله عليهم، نعمة مصر، ونعمة هويتهم الخاصة، ونعمة تعاليم "ماعت"، ونعمة جيشهم الذي حشوه بالأجانب، ونعمة وصايا وعهد الأجداد في حفظ بلدهم من الدخلاء:

"إن البوابات [الحدود] التي فوقك كبوابات حامية.... إنها سوف لا تفتح للغربيين، إنها سوف لا تفتح للشرقيين، إنها سوف لا تفتح للجنوبيين، إنها سوف لا تفتح للشماليين، إنها سوف لا تفتح لهؤلاء الذين في وسط الأرض، إنها سوف تفتح لحورس[٦١]".

(نصوص الأهرام)

"إن الذي يفعل الماعت فذلك الذي يكون بعيدا عن الضلال"، "يحل العقاب دائما بالذي يتخطى قواعدها"[٦٢].

(الحكيم بتاح حتب الأسرة ٥)

---

[٦١]- نصوص الأهرام، القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، مرجع سابق، ص ١٢٥- ١٢٦

[٦٢]- انظر تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

ولسة بحلم بيوم

شمسه ما تعرف غيوم

أطير كطير البراري

وأعدي بحر الهموم

أتاريني مشدود في دايرة

دايرة دوار السواقي

أروي قلوب العطاشى

وأبات ضلوعي شراقي[١]

---

(١)ـ أغنية ولسة بحلم بيوم، تأليف عبد السلام أمين، ألحان محمد الموجي، غناء محمد قنديل

المشهد ١١: الاحتلال العربي

٦٤٠ م- ٩٦٩ م

(الدوامة / القناع الثاني)

(تاريخ العرب مع مصر قبل الغزو)

ضمت جزيرة العرب عشرات من القبايل بعضها ظل في ترحال، وبعضها استقر في ممالك مثل سبأ وحمير في جنوبها خلال النصف الأول من الألف ق.م، وممالك في شمالها كالغساسنة والحيرة والأنباط في النصف الأول من الألف ب.م، وممالك أو قرى في وسطها مثل كندة وقريش.

ودوليا، ارتبطت مملكة الحيرة التي قامت جنوب شرق العراق بالولاء للفرس الواقعة قرب حدودهم، فيما ارتبطت الغساسنة الواقعة في بادية الشام بالولاء للرومان لقربها من أماكن سيطرتهم على الشام، وكذلك مملكة الأنباط القريبة من الحدود المصرية.

وبحسب بحث عبد العزيز صالح حول تاريخ جزيرة العرب، فإن العرب لم يظهروا على الساحة المصرية طوال أزمنة الحكم المصرية الخالصة- أي حتى الأسرة ٢٠- إلا بشكل عابر، ولما توسعت التجارة أيام تحوتمس الثالث شملت العرب، فعثر الأثريون على نص مصري قديم يسجل وصول وفد من بحار "الجنبتيون" (عشاير في جنوب شبه الجزيرة العربية) بمتاجرهم من اللادن والكندر والمر والبخور إلى مصر في العام ٣٢ من حكم تحوتمس (حوالي ١٤٥٨ ق. م.).

وبعد هذا العهد ظلت المناظر المصرية تصور ضمن تجار الكندر واللادن والبخور والمر الواردين إليها عن طريق البحر الأحمر، اعتبرتهم من وجهة نظرها أتباعًا يؤدون الجزية إلى مصر، رجالًا ذوي ملامح سامية، يصلون إلى العاصمة المصرية تارة، ويقفون عند سيناء تارة، وعند بعض موانئ البحر الأحمر تارة، ويتبادلون المتاجر هنا وهناك مع المندوبين المصريين[٢].

وأيام الاحتلال اليوناني والروماني أخذوا فرصتهم في الاستقرار على الحواف، ثم التسلل إلى الداخل والاستيطان كبقية الجاليات الأجنبية التي جاءت في ذيل المحتلين في ثوب تِجار أو مرتزقة أو عمالة، ومن

---

[٢]- للمزيد عن تاريخ الجزيرة العربية وقبائلها وممالكها وعلاقتها بالفرس والرومان وعلاقتها بمصر قبل غزو العرب لمصر انظر: شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ٣٧- ٣٨

هؤلاء رجل عربي من تجار "معين" اسمه زيد إيل بن زيد، دُفن في مصر، ووجد له تابوت في منف مكتوب عليه بحروف المسند ما يُفهم منه أنه عمل في خدمة معبد مصري لعله سيرابيوم منف، وأخذ فيه لقب الكاهن المطهر خلال فوضى فتح مؤسسات الدولة للجاليات الأجنبية، وتولى توريد المنتجات العربية إليه مثل المر والذريرة (قصب الطيب) على سفينة بحرية في مقابل ما يصدره إلى بلده من المنسوجات المصرية، وهذا النص يعود إلى الاحتلال البطلمي[٣].

ومع أهمية القبايل العربية أيام الاحتلال الروماني كوسيط تجاري بين مناطق البخور والتوابل والعطور في اليمن ومناطق تصريف هذه التجارة إلى الإمبراطورية الرومانية في مصر والشام، تحركت قوافلهم قرب الحدود المصرية للتجارة، ساعدهم في هذا حسن علاقتهم بالرومان عبر مملكتي الغساسنة والأنباط المواليتين لهم، وتغلغلت بعض القبايل إلى سيناء ومحافظة الشرقية ومدن الوجه القبلي القريبة من البحر الأحمر- مثل قنا- حيث موانئ نقل التجارة من الهند واليمن إلى مصر.

وبجانب التجارة عمل العرب على الحدود كأدلاء في سيناء للمارين بها، وصاروا عنصرا هاما في مساعدة الجيوش العابرة لها، مثلما ساعدوا الفرس والرومان في السير إلى وادي النيل، وشارك بعضهم كمحاربين في جيش الرومان في غزواته بمصر كما فعل عرب مملكة الأنباط المجاورة وقتها لمصر.

والعرب أقل جالية أثرا في مصر قبل الاحتلال العربي، وأقلهم اختلاطا بالمصريين أيضا، خاصة لتركز معظم المستوطنين منهم على الحواف، ولم يكن لهم وجودا يُذكر في الإسكندرية كباقي الجاليات، فلسيناء وموانئ البحر الأحمر الأولوية عندهم لقربهم من مناطق نفوذهم التجاري وطرق القوافل، كما ارتبطت صورتهم بالغارات التي لم يكفوا عن شنها على مصر من الحدود الشرقية كلما لمسوا ثغرة أو ضعفا.

♣♣♣ ماذا لو دخل الإسلام مصر وهي حرّة؟

تابعنا أنه بعد تفكك أوصال الإمبراطورية البيزنطية تحولت مصر لـ"ثمرة دان قطافها"، سهلة السقوط أمام الذراع الأشد في حمل السيف؛ فبدأ دبيب حوافر خيول الغازي الجديد تعلو، وفي ١٨ هـ وبعد نجاح العرب في فتح الشام التي سلَّم بعض ولاتها مفاتيح مدنها للعرب؛ لأنهم أساسا من قبايل عربية استوطنت الشام، انفتحت شهية جيش العرب لمصر.

يقول الطبري[٤] (توفي ٣١٠ ه) في كتابه "تاريخ الرسل والملوك" إن من اقترح فتح مصر أولا هو عمر بن الخطاب وأمر عمرو بن العاص بذلك، فيما يقول ابن عبد الحكم (توفي ٢٥٧ ه) في كتابه "فتح مصر وأخبارها"- وهو أول كتاب يضعه عربي عن أحداث فتح مصر- إن من بادر إلى ذلك هو عمرو بن العاص، وفي كلا الحالين تحمس عمرو بن العاص أشد التحمس لهذه المغامرة، وحشد لها كل طاقاته كأنها مكسب عمره، فلماذا؟

---

(٣)- انظر: نفس المرجع، ص ٨٣- ٨٤

(٤)- تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الرابع، ط ٢، دار المعارف، ص ١٠٤

سبق أن زار عمرو مصر كتاجر قبل البعثة النبوية، وعرف طرقها، ورأى كثرة أموالها، وخاصة في الإسكندرية ذات العمد المرمرية والمباني الشاهقة، والتجارة الوافرة ما أذهله، ونقل عنه ابن عبد الحكم قوله: "ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال"، وأنه "نظر إلى الإسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال فازداد عجبا"(٥).

وشوقا إلى هذا النعيم، وثقة في النفس بعد هزيمة الروم في الشام ألح عمرو على الخليفة عمر بأمر الغزو الذي كان مترددا فيه، وقال له عمرو وفق ما نقل ابن عبد الحكم: "إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم، وهي أكثر الأرض أموالا، وأعجزها عن القتال والحرب"، فتخوَّف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده حتى أقنعه"(٦).

وأعجزها عن القتال والحرب لضعف حال الروم وقتها وتصارعهم، وافتقاد المصريين للجيش الخاص بهم، ولكراهتهم للروم، ولصراعات الأعراق المتحكمة في شئونها في الإسكندرية، وكلمة المسلمين وقتها مرادف لـ"عرب الجزيرة" لأنه لم يكن استجاب للبعثة النبوية بكثافة غيرهم.

ومن الأحاديث المتبادلة بين عمر وعمرو عن الهدف من فتح مصر لم يرد أن الهدف نشر الإسلام كما يقول البعض الآن، كما لم يرد أن القبط أرسلوا لعمرو أن يأتي لكي ينقذهم من الروم، فهدف الفتح العربي اقتصادي توسعي بحت مثلهم مثل معظم الإمبراطوريات السابقة واللاحقة، ومن يقول بخلاف ذلك عليه أن يتحمل هو نتيجة القول بأن المسلمين غزوا الشعوب الأخرى بالسيف لإجبارها على الإسلام.

وليس في كلام عمرو بن العاص ولا رسائله المتبادلة مع عمر بن الخطاب أي إشارة إلى أن العرب دخلوا مصر لـ"تخليص وتحرير" أهلها من الرومان، فلا يوجد أي رابطة بين المصريين حينها وبين العرب ليضحوا بأنفسهم لتحرير المصريين، بل إن عمر بعد مشاورات مع عثمان بن عفان أصابه القلق من فكرة الفتح خوفا على سلامة الجنود العرب من لقاء الروم، فأرسل لعمرو وهو في الطريق كتابا يأمره بأنه إن وصله الكتاب قبل دخول مصر فليرجع، وفق نص الرسالة في تأريخ ابن عبد الحكم(٧)، فسلامة بني جلدته أهم عنده من المصريين، وهذا شعور طبيعي.

وكيف يأتي العرب لـ"يحرروا" المصريين في حين أنه حين ثار المصريون على ظلم بعض الولاة العرب فيما يخص الضرائب الباهظة وسوء المعاملة نكلوا بهم بأساليب وحشية كما فعل اليونان والرومان؟

وكيف يضحي العرب وعمرو بن العاص بأنفسهم في مواجهات مع الرومان من أجل "تحرير" الشعوب، وهم- أي العرب- من لم يتعلموا قبل الإسلام أن يضحوا بأنفسهم لأجل بعضهم، وعاشوا قبائل متناحرة أو متحفزة ضد بعضها، وبعد وفاة الرسول (ص) رفعوا السيوف في وجه بعضهم البعض، وأراقوا دم بعضهم، من أجل كرسي الحكم في معارك الجمل وصفين وفتنة عثمان وغيرها، وحارب عمرو بن العاص

---

(٥)- فتوح مصر وأخبارها، أبو القاسم بن عبد الحكم، مرجع سابق، ص ٥٣- ٥٥

(٦)- نفس المرجع، ص ٥٦

(٧)- نص الكتاب من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ودوافعه، انظر في المرجع السابق، ص ٥٦- ٥٨

ضد علي بن أبي طالب الأقرب إليه دما ودينا من بقية الشعوب؟

أما هالات التقديس والروايات حول أن هدف فتوحات العرب نشر الإسلام وتحرير الشعوب من محتليها، واختلاق حساسية في المعنى بين كلمات غزو وفتح واحتلال فهي من صنع أجيال جاءت بعد هذه الفتوحات بمئات السنين لشرعنة تجديد هذه الفتوحات في مشروعات إمبراطورية جديدة كما فعل العثمانيون والقوميون العرب وتنظيمات دينية عالمية، أو لإضفاء هالة تقديس تمنع انتقادها أو مراجعتها، تماما كالهالة الموضوعة للإمبراطور قسطنطين المحتل الروماني أو للمشروع الإمبراطوري لكنيسة روما "الفاتيكان" الذي تغطيه برداء "السلام".

وفي صفحات لاحقة سنتابع أن الإسلام انتشر في مصر "بحكم الأمر الواقع" وليس بدعوة منظمة من المسلمين القادمين، أي بحكم التوقف عن التبشير المسيحي- كما صار مصريون مسيحيين بحكم الأمر الواقع بعد غلق المعابد المصرية- مع نسيان المصريين أصحاب الدين القديم ما بقي منه، وإن حافظوا على طقوسه وروحه بلا وعي وعكسوها في الدين الجديد في انتقال سلس غير محسوس بين الدينين، وكأنه لم تتغير فيه إلا الأسامي، حتى صار للمسيحية والإسلام طقوسا وأعيادا خاصة بمصر تختلف عن بقية العالم، بجانب انتشار المساجد مع القبائل التي استوطنت أطراف الريف ليؤدوا فيها الصلاة، ولكون الإسلام كان أحيانا شرطا لمن يتولى وظائف هامة، أو تهربا من دفع الجزية.

وهنا وقفة أخرى.. ماذا لو دخلت دعوة الإسلام إلى مصر وهي تحت حكم مصري حر خالص، عبارة عن مصريين (كيمتيو) فقط، لا أعراق وافدة ولا طوائف وثقافات متنافرة ومتنافسة ومتقاتلة؟

كما انعكست روح البغضاء والتنافر بين الأعراق الأجنبية المستوطنة مصر على تشريخ الدعوة للمسيحية إلى مذاهب متصارعة، فإن العصبيات القبلية والعرقية والطائفية التي جاء بها العرب ثم الفرس والترك والشوام والمغاربة إلى مصر انعكست في تحويل دعوة الإسلام إلى مذاهب وطوائف- كما سنتابع- تتحكم فيها الحمية القبلية والمذهبية وشهوة الحكم، فيما كان الحال سيكون أكثر هدوءا وتوحدا وأقل دموية لو دخل الإسلام تحت ظل حكم مصري خالص، وهو ما يؤكده الروح الدينية العذبة البسيطة التي مارس بها الفلاحون في الأرياف- البعيدون لحد ما عن صراعات ومذاهب العاصمة- الإسلام، الخالية من الغلظة والجفوة والتعقيد والشكلية التي جاء بها المسلمون الوافدون.

كذلك فإنه حين دخل الإسلام إلى دول تحكم نفسها بنفسها احتفظت بشخصيتها، ومن فتحه العرب سارع في استرداد حريته، فمثلا رغم أن العرب فتحوا فارس أيام حكم كسرى فإنها بعد فترة من عدم التوازن والمفاجئة والصمت، قامت لتحيي مجدها القديم، فها هو شاعرها الفردوسي ينسج ملحمة "الشاهنامة" الشعرية وباللغة الفارسية في القرن الرابع الهجري، يتيه فيها تمجيدا وتعظيما بتاريخ فارس القديم وملوكها وبالساسانيين[٨]، واحتفظت فارس بلغتها بإصرار أهلها على إنتاج الآداب والأشعار وتسجيل التاريخ القومي

٨- انظر المزيد: فراعنة من؟ علم الآثار والمتاحف والهوية القومية المصرية من حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى، مرجع سابق، ص ٥٣

بالفارسية، ومثل ذلك حصل في معظم بلاد العالم التي دخلها الإسلام وأهلها يحكمونها في أفريقيا وأوروبا وآسيا؛ فاكتسبوا الدين الجديد لكنهم حافظوا على وجودهم المميز في الحياة، ولغتهم وثقافتهم واعتزازهم بأنفسهم، وصار لقبيلة صغيرة في بطن آسيا أو بطن أفريقيا مثلا من الحرية والشخصية الظاهرة ما ليس لمصر رغم عظمتها وطول تاريخها وكونها أول دولة تصنع شخصية مميزة متكاملة في التاريخ.

▼▼▼ الجيش في الاحتلال العربي (عرب/ مرتزقة الفرس والترك)

أورد عمرو بن العاص في خطبة بمسجده في الفسطاط حديثا نبويا نقله عن عمر بن الخطاب: "إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض"، فقال له أبو بكر: "ولم يا رسول الله؟" قال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة"[٩].

هذا الحديث لم يطبقه العرب، وساروا على عادة المحتلين في استبعاد المصريين، سواء من أسلم منهم أو بقي على دينه، من الجيش خوفا من أن يستعيدوا بلادهم عن طريقه، إضافة إلى أن انضمامهم للجيش سيساويهم في المزايا بالفاتحين، ويطيح بالجزية، وهو ما حرص العرب مثل غيرهم على عدم تحقيقه، فما هي الميزة التي يتمايل بها المحتلون عجبا في تلك العصور على من يحتلونهم أكثر من انفرادهم بالسيف اللامع وفرضهم الجزية وأعباء العمل الشاق عليهم؟

ومن ذلك ما نقله المقريزي أن صاحب "إخنا" سأل عمرو بن العاص: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصير له، فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة: "لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك، إنما أنتم خزانة لنا: إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم"[١٠].

وفي هذا تقول الدكتورة سيدة كاشف: "بعد أن تم للعرب فتح مصر بقى بها جيش احتلال عربي، ولم يشرك العرب المصريين في هذا الجيش، ولم يرد في صلح بابليون أية إشارة تدل على السماح للمصريين بالاشتغال بالجندية، وربما دعا العرب إلى انتهاج تلك السياسة خوفهم من أن يحيي المصريون روح القومية المصرية على حسابهم، وأن يقوموا بطردهم من بلادهم متى حانت لهم الفرصة، فرأوا أن يبعدوهم عن الأعمال الحربية وألا يتركوا لهم إلا الأعمال المدنية، وربما كان العرب يشكون في كفاءة المصريين الحربية؛ إذ كان المصريون زمن الفتح قد غمرتهم روح التواكل والاستسلام، بينما كان العرب حينذاك شعبا يتقد حماسة وشجاعة[١١]"، وهناك سبب آخر يوضع في الاعتبار وهو حاجتهم للمصريين كزراع وصناع وحرفيين وبناءين وموظفين.

غير أنه وجدت فرق غير نظامية تسمى "المطوعة" ربما اشترك فيها مصريون[١٢]، ولكن أفرادها ليسوا مقاتلين نظاميين ولا أصحاب سلطة أو نفوذ يُخشى منه، وليسوا ممن يخصص لهم مقادير منتظمة من

---

[٩]- فتح مصر وأخبارها، أبو القاسم بن عبد الحكم، مرجع سابق ص ١٤٠- ١٤١
[١٠]- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، تقي الدين القريزي، ج١، مرجع سابق، ص ٢٢٥
[١١]- مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، ص ٤٩
[١٢]- انظر: نفس المرجع، ص ١٩٦

العطايا في الديوان تساويهم بالعرب.

وكانت أسامي الجند العرب وأسرهم وأعدادهم وأحوالهم ومرتباتهم تدون في ديوان اسمه ديوان الجند، ويتم تقسيمهم في الجيش حسب قبايلهم، مثلما يتم تسكينهم في أحياء منفصلة في الفسطاط وغيرها، على نمط عيشتهم في الجزيرة العربية(١٣).

والجيش كان عربيا حتى نهاية العصر الأموي، وتبدل في العصر العباسي لجيش مرتزقة وعبيد ١٠٠% بفرس ثم أتراك في عصر المعتصم ابن هارون الرشيد من جاريته التركية "ماردة"، والذي أمر واليه على مصر كيدر نصر بن عبد الله بإسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم في سنة ٢١٨ هـ، ويصف المقريزي هذه الحادثة بأنه "انقرضت دولة العرب من مصر، وصار جندها العجم والموالي من عهد المعتصم، إلى أن وليَ الأمير أبو العباس أحمد بن طولون مصر فاستكثر من العبيد".(١٤)، وقال السيوطي إن المعتصم اشترى آلاف الأتراك من سمرقند وفرغانة (آسيا الوسطى)، وألبسهم الديباج والذهب، فكانوا يطردون خيلهم في بغداد ويؤذون الناس حتى ضاقت بهم البلد(١٥)، وبذلك فالمعتصم أول من أدخل فكرة المماليك الأتراك في الخلافة الإسلامية، وفتح الباب ليحكم مصر والشام العبيد والجواري.

وهجا شاعر يُدعى دعيل المعتصم بسبب تفضيله الأتراك على العرب بقصيدة قبل أن يهرب منه في المغرب قال فيها(١٦):

وهمَّك تركي عليه مهانة فأنت له أم وأنت له أب

ورغم استبعاد المصريين مسلمين ومسيحيين عن أعمال القتال إلا أن العرب اضطروا للاستعانة بهم في بناء الجيش ذاته، وخاصة البحرية التي يجهلها العرب فيما كانت مصر مشهورة بصناعة السفن التجارية والحربية من آلاف السنين.

ومع صناعة السفن اعتمد العرب على المصريين في تشغيل الأسطول والعمل كملاحين وعمال(١٧)، وصار للمصريين- ومعظمهم خليط من المسيحيين والباقين على الدين القديم- الفضل الكبير في بناء وتجهيز السفن لمعارك ذات علامات في التاريخ مثل معركة ذات الصواري بين العرب والروم، ولكن هذا لا يُذكر إلا في الكتب الأكاديمية، ويتوه هذا الفضل في الإعلام والمسلسلات والأفلام التي تقدم إنجازات الحضارة في ذلك الوقت على أنها عربية إسلامية خالصة، ولا يُذكر المصريون إلا قليلا.

وفي عهد الخليفة العباسي المتوكل هاجم الروم سواحل مصر، ونهبوا دمياط، فاضطر الوالي إلى عمل سفن كثيرة للأسطول لحراسة السواحل، وأمر بتجنيد المصريين للعمل بها، حتى من ليس له خبرة بفنون

---

(١٣)- انظر: الخطط المقريزية، مرجع سابق، ص ٢٦٤- ٢٧٠

(١٤)- نفس المرجع، ص ٢٧١

(١٥)- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، دار ابن حزم، ط ١، بيروت، ص ٢٦٦

(١٦)- نفس المرجع، ص ٢٦٦

(١٧)- انظر المجتمع المصري في مصر الإسلامية من الفتح العربي وحتى العصر العبيدي، هويدا عبد العظيم رمضان، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٣٠٧

البحر، ورغم عدم معرفتهم بفنون القتال، ولم يقدم لهم السلاح، إذ كان يرغمهم على شرائه، كما كان يرغم المرضى والضعفاء على الخدمة في الأسطول، و يقترون عليهم في الطعام[١٨].

كما وقع على عاتق المصريين بناء القلاع على مدن الشواطئ وحفر القنوات الكبيرة وتعميق القناة التي تحمل المياه إلى الإسكندرية، فوصلت إليها المياه والسفن، وزادت الزراعة وراجت التجارة، وفي ذلك يقول ساويرس ابن المقفع في "تاريخ البطاركة": "فلما كثر الصراخ إلى الرب، نظر إليهم، فعزل الخليفة أبو جعفر المتوكل الوالي الشرير، وعين بدلا منه يزيد بن عبد الله، فخفتَ حدة التجارب ضد الأقباط[١٩]".

وبتعبير سيدة كاشف، فإنه إذا كان الفضل لعظمة البحرية الإسلامية يرجع إلى الشعوب التي فتحوها وتعلموا منها هذا الفن واستخدموها في حاجاتهم البحرية فلنا أن نقول غير مبالغين إن الفضل الأكبر والأول يرجع إلى مصر والمصريين[٢٠].

♣♣♣ السكان وتعريف المصري في الاحتلال العربي (تبدل القناع)

سقط القناع اليوناني الروماني من على وجه مصر بأسرع من هبّةِ الريح؛ ما أثبت أن ألف سنة من الاحتلال الثقافي والعسكري والعرقي لم ينعكس لونه إلا على المدن القليلة التي استوطنها المحتلون، ومن سار في ركبهم من مصريين متعلمين، وما أن جاء احتلال ليطرد المحتل القديم حتى اختفت ملامحه كما اختفت الأسامي اليونانية للمدن المصرية من السجلات وعادت لها أساميها المصرية التي ظل الفلاحون المخلصون لثقافتهم يزينون بها ألسنتهم.

ولولا البقية الصغيرة من اليونانيين والرومان التي وافق العرب على بقائها للعمل في الدواوين- ودخلوا ضمن أهل البلد منتحلين تسمية الأقباط- لانمحى أي وجود يوناني، بل حتى ربما أعاد المصريون الحروف المصرية إلى اللغة المصرية وطردوا الحروف اليونانية التي حولتها إلى مسخ.

وإن كان طرد المحتل القديم تم على يد مصريين لعاد وتجلَّى تمام التجلي وجه مصر الصبوح للعالم من جديد، إلا أنه سرعان ما ألصق عليه قناع جديد هو القناع العربي في المدن التي تركز فيها.

وكما أخذ الرومان القمة محل اليونان، أخذ العرب القمة محل الرومان، وجلبوا عناصر جديدة تعاونهم في فرض السيطرة وعدم ترك أمور الدواوين بيد المصريين وبقايا الرومان واليونان وحدهم، فجلبوا قبايل جديدة لتستوطن داخل البلاد بعد أن كانت القبايل تفضل سكن الأطراف، وجلبوا لاحقا الفرس والترك لخبراتهم الإدارية والقتالية.

---

(١٨)- تاريخ البطاركة، ساويرس بن المقفع، تلخيص وتعليق ميخائيل مكسي إسكندر، ج ٢، مكتبة المحبة، ص ١٠٣

(١٩)- المرجع السابق، ص ١٠٣

(٢٠)- مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، مرجع سابق، ص ٥٧





القناع العربي تصدر بعد الإغريق والرومان لأنه عبأ العاصمة وركزت كتب التاريخ حينها على رصد أفعاله وأحواله لا أفعال وأحوال المصريين في الأرياف (المصدر: مشاهد من المسلسلات التلفزيونية التاريخية ورسوم شائعة على الإنترنت لعدم توفر رسوم لأشخاص معاصرة لنفس الفترة)

أما عن سكان مصر عموما عند بداية الاحتلال العربي فسنرى لاحقا عند الحديث عن دفع الجزية أنه قد يزيد على ١٢- ١٨ مليونا إن صح ما ورد في تأريخ ابن عبد الحكم أن من أحصاهم عمرو بن العاص من القبط المفروض عليهم الجزية ما بين ٦-٨ مليون شخص، ومعفي منها الشيوخ والنساء والأطفال، وهؤلاء جملتهم تكون الضعف على الأقل، وإن اعتبر آخرون أن الرقم فيه مبالغة.

وبقايا الروم واليونان واليهود وجنسيات أخرى بالإسكندرية فالمتوسط نصف مليون؛ حيث قال العرب إنهم وجدوا في الإسكندرية ما بين٢٠٠ـ ٦٠٠ ألف شخص، ونقل المقريزي عن ابن لهيعة أن عمرو بن العاص جبى الجزية من الإسكندرية ٦٠٠ ألف دينار؛ لأنه وجد فيها ٣٠٠ ألف من أهل الذمة فرض عليهم دينارين دينارين[٢١].

أما العرب فبدأ عددهم بـ ١٢ ألفا هم الجنود الذين أتم بهم عمرو بن العاص فتح مصر، وبقي بعضهم فيها، واتجه آخرون لفتح شمال أفريقيا، ثم توالى قدوم القبايل، ويقول ابن عبد الحكم إنه في عهد معاوية بن أبي سفيان وصل الديوان إلى ٤٠ ألفا [٢٢]، ويقصد ما يُحصى من عدد أفراد وعائلات الجند والقبايل المتكفل الديوان (الحكومة) بمعيشتهم، وهم كل الجالية العربية بمصر وقتها.

وسار العرب في القرن الأول سيرة من سبقهم من وافدين بالابتعاد عن المصريين؛ خوفا من نتائج الاحتكاك بهم كونهم غرباء، ولاختلاف الثقافة واللغة والدين والعادات، إضافة لسعيهم إلى التميز باعتبارهم القوة الحاكمة، والفسطاط ثم الجيزة والإسكندرية هي أول أماكن تقيم فيه القبايل، ثم تفرقت بعد استقدام الترك أيام العباسيين إلى الوجه البحري، وآخرون إلى الوجه القبلي، واختاروا العيش في أماكن خاصة غيروا أساميها لتحمل أسماء قبائلهم.

وعن تأثير هذا الأمر قال المقريزي في كتابه "الخطط المقريزية": "ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة، عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقي، فلما

---

(٢١)- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، تقي الدين القريزي، تحقيق محمد زينهم- مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ج ١، ص ٢٣٠

(٢٢)- فتوح مصر وأخبارها، ابن عبد الحكم، مرجع سابق، ص ١٠٢

كان بالمائة الثانية من سني الهجرة كثر انتشار المسلمين [العرب الوافدين] بقرى مصر ونواحيها[٢٣]".

ولكل قبيلة مخصصات مالية من خراج مصر، يغنيها عن العمل في الزراعة والصناعة، ويصلها سواء عملت في الحرب أم لم تعمل، وهكذا ظل العرب لنحو ٢٠٠ عام تأثيرهم ضعيف على المصريين فيما يخص انتشار الإسلام واللغة العربية، وهذا مما يدل أيضا على أن الفتح العربي لم يكن هدفه نشر الإسلام، فقد مرت سنوات طويلة دون أن تختلط القبايل بالمصريين اختلاطا كثيفا أو مثمرا، ولم يرد أنها أرسلت للأرياف قوافل لتعليمهم الإسلام، أو عن شخصيات معينة أخذت على عاتقها السياحة في أرض مصر للتبشير بالدين الجديد.

واستمر امتياز منح العرب مخصصات مالية من الديوان حتى إحلال الترك محل العرب في الديوان والجيش زمن العباسيين، وقرار المعتصم سنة ٢١٨ هـ بإسقاط العرب من الديوان؛ فانقطع عنهم المدد، واتجهوا للتجارة والزراعة وتملك الأراضي[٢٤]، وبعضها حصلوا عليها كإقطاعات من الولاة، وبدأ حينها تعامل أوسع مع االمصريين نتيجة حاجتهم لهم في الزراعة والصناعة والمعاملات التجارية، إلا أن الزواج بينهم كان قليلا.

ومن اختار الاختلاط بالمصريين بعد ٢٠٠ سنة فترى الدكتورة سيدة كاشف أنه تخلي شيئا فشيئا عن روح العصبية القبلية، مستشهدة بأن بعضهم في الأسماء بات ينسب نفسه للمدينة وليس للقبيلة، فنرى في معظم شواهد القبور التي اكتشفت حديثا في مقابر أسوان والفسطاط أن اسم الميت يتبع باسم قبيلته في خلال القرنين الأولين للهجرة، ولكن في خلال القرن الثالث الهجري نجد أن اسم القبيلة قد حل محله اسم الجهة أو الإقليم الذي ينتسب إليه المتوفي فيكتب فلان الأدفوي أو المصري...إلخ[٢٥]، ولكن لم تنمحِ العصبية القبلية لدى الكثيرين؛ استنادا لامتلاكهم قوة السلاح واعتبار أنفسهم "الفاتحين".

ونقطة هامة أشارت إليها الراحلة سيدة كاشف تظهر خطأ تاريخي في تحديد معنى كلمة المصريين في أمهات الكتب التي تتحدث عن فترة الحكم العربي، وتصف العرب القادمين حينها لمصر بصفة المصريين، فتنسب للمصريين الحقيقيين أعمالا ومواقف ليس لهم بها أي علاقة، وإنما قام بها العرب الذين وصفتهم الكتب بالمصريين لتحديد مكان إقامتهم وليس جنسهم وهويتهم، فحين تفرقت القبائل العربية مع الفتوحات في البلدان، جرى تسمية المهاجرين باسم البلد الذي ذهبوا إليه لتمييزهم عن الباقين.

ومثلا، فإنه بتعبير سيدة كاشف، يجدر بنا أن نشير إلى أن الذين اشتركوا في الفتن والصراعات الخاصة بكرسي الخلافة لم يكونوا من المصريين، وإنما من الجند العرب الذين استقروا بمصر أو من الأجناد الأخرى الذين أتوا إليها في عهد الدولة العباسية، أما المصريون أنفسهم فلم يشتركوا في تلك المنازعات، اللهم إلا إذا استثنينا معاونتهم إلى حد ما للعباسيين حين أسقطوا الدولة الأموية[٢٦] عندما ثاروا ضد الولاة

---

[٢٣]- الخطط المقريزية، ج٣، مرجع سابق، ص ١٨٢
[٢٤]- مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، سيدة كاشف، دار المعارف، القاهرة ص ١٣٨
[٢٥]- انظر: المرجع السابق، ص ١٣٧- ١٣٩
[٢٦]- انظر: مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، سيدة كاشف، مرجع سابق، ص ٦٤

الأمويين الظالمين.

وقبل الغزو العربي لم تُستخدم كلمة مصر ومصريين في البلد، فهما كلمتان شاعتا على ألسنة أهل العراق والشام، واستخدم حكام آشور كلمة "مصري" و"مسري"، في المراسلات بينهم وبين حكام مصر في عصور سابقة، حين كان الاسم الأشهر لمصر هو "كيمة"، كما وردت في التوراة باسم "مصرايم"[٢٧]، وغالبا قصدوا بها غالبا ما بين منف والإسكندرية بالذات، ولذا سارع العرب بإطلاق كلمة مصريين على من سكن فيهم مدن مصر، وكان بدء استيطانهم في هذه المساحة، واشتهرت بهذا الاسم (مصر) الفسطاط وما حولها بعد أن تحولت العاصمة إلى القاهرة، ثم عمَّ الاسم الفسطاط والقاهرة معا.

أما أهل البلد فوصفهم العرب بـ "القبط" عموما، ولم يصف العرب أهل البلد بكلمة فلاح في عصر الولاة، فلم تكن منتشرة، ولكنهم استخدموا كلمة "نبطي"، وتعني عندهم مزارع، وأطلقوها على من يفلح الأرض ويستقر فيها، وورد مثلا في كتاب من قرة بن شريك إلى باسيل صاحب (مسئول) كوم أشقوة قوله: "من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة (...) أما بعد، فإن مرقس بن جريج أخبرني أنه كان يسئل نبطيا من أهل كورتك ثلثة وعشرين دينرا وثلث دنبر، فيزعم أن النبطي مات، وأنه أخذ ماله نبطي من أهل قريته وغلبه على حقه...)[٢٨]، وربما لها علاقة بكلمة "الأنباط" التي تسمت بها دولة الأنباط العربية (في الأردن) وكان بعض أهلها مستقرون يعملون في الزراعة، واستخدموها في وصف كلمة "الشعر النبطي" أي الشعبي أو بلهجات عامية، وفي قرون لاحقة حين انتشر استخدام كلمة فلاح استخدمها العرب المستوطنين كأنها "سُباب" رغم أنها تعني صاحب البلد الأصلي والذي يعيش بعرقه وساعده في أرضه وليس من الاستيلاء على أراضي غيره.

أما الفلاح المصري نفسه في الأرياف فماذا كان يسمي نفسه؟ غير واضح، فلم تهتم كتب المؤرخين المتيسرة برصد هذا، فهل مثلا ظل يسمي نفسه بكلمة "خيمتيو" كما كان أجداده يسمون أنفسهم كيميتو؟ - لأنه ظل يسمي مصر "خيمي" من "كيمي" رغم نطق المستوطنين الإغريق لها بـ"إيجيبتيوس"- أم سمى نفسه قبط كمن يعيشون في المدن؟ وإن كانت الأخيرة مستبعدة لأن أهل الريف حتى اليوم لم يشيع بينهم استخدام كلمة أقباط- سواء مسلمين أو مسيحيين- خاصة في الوجه القبلي- وحتى وقت قريب لم تُعرف كلمة أقباط إلا في المدن.

▼▼▼ نتائج الاستيطان والفتح العربي

❶ فتح الطريق للعرب في غزو مصر

مثلما عاون المستوطنون اليونان الإسكندر حين غزا مصر وفتحوا له أبوابها، ساهم العرب الذين أقاموا في

٢٧- للمزيد عن استخدامات الحيثيين والأشوريين واليهود لاسم مصر انظر: رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، رمضان عبده علي، وزارة الآثار، ج١، ص ٣٩٠- ٣٩٣

٢٨- انظر: أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية، أدولف جروهمان، ترجمة حسن إبراهيم حسن، ج٣، دار الكتب المصرية، ص ٣٠- ٣١

سيناء وعلى الأطراف الشرقية لمصر أيام اليونان والرومان في فتح الطريق أمام جيش عمرو بن العاص لعلمهم بدروب صحاريها ومداخل مصر.

فحين قاد عمرو الجيش العربي، وبدأ الطلعة الأولى بـ ٤ آلاف مقاتل، أكثرهم من اليمن، وخاصة قبيلة عك[٢٩]، استقبلته في سيناء قبايل مثل لخم، وأيضا قبايل غسان وجذام وعاملة[٣٠]، وليس متسبعدا أن القبايل التي استوطنت شرق قنا على البحر الأحمر ساعدت في تمكينه من الوجه القبلي.

❷ دفع الجزية والخراج للأجنبي

بعد حصار وقتال عدة أشهر، وافق المقوقس على عقد صلح مع عمرو يخص الأقباط، ينص على فرض جزية مقدارها ٢ دينار على كل قبطي، عدا الشيخ الفاني والنساء والأطفال، وأن يكون على المصريين حق ضيافة العرب إن نزلوا على قراهم ٣ أيام، وذلك في مقابل أن لهم أرضهم وأموالهم لا يُعرض لهم في شيء منها[٣١]، وبعضها شروط شبيهة بالنظام الروماني الذي فرض الجزية على من بلغ الحلم وأعفى النساء والشيوخ والأطفال، وفرض ضريبة النزل، أي ضيافة الجنود الرومان حيثما حلوا.

وحصوا عدد القبط الصالحين للجزية حينها فكانوا أكثر من ٦ آلاف ألف (٦ مليون)، عليهم جزية ١٢ ألف ألف (١٢ مليون) بحسب رواية ابن عبد الحكم الذي نقل رواية أخرى أن عددهم كان ٨ مليون شخص[٣٢]، ما يعني أن الـ ٦- ٨ مليون كانوا الشباب، وهذا بخلاف الشيوخ والأطفال والنساء؛ ما يعني أن عدد سكان مصر كان فوق ١٨ مليونا، معظمهم مصريون أقحاح.

أما عن الروم فانتهى أمرهم بعد سقوط الإسكندرية في يد العرب إلى رحيل جنود الروم ومن أراد من السكان الروم والجاليات الأجنبية من مصر، والإبقاء على اليهود في الإسكندرية، والحفاظ على الكنائس، وفرض جزية على من يختار البقاء من الروم واليهود[٣٣]، ويلاحظ شرط الروم الإبقاء على اليهود بالذات في مصر، وكأنهم اعتبروا اليهود مشكلة، ولا يريدون أن ينقلوا فتنهم ودسائسهم إلى روما وبيزنطة، وآثروا ابتلاء مصر بهم، خاصة بعد ما تبين من خيانة اليهود للروم ودعمهم لفارس خلال الاحتلال الفارسي الثالث لمصر.

واختلف الخلفاء والولاة في أساليب جمع الجزية ما بين الشدة واللين، وما بين الالتزام بالمفروض على المصريين وما بين المبالغة والشطط إلى حد الاستنزاف والتجويع، وفرض جزية على من توفى أو أسلم،

---

[٢٩]- فتوح مصر وأخبارها،ابن عبد الحكم، مرجع سابق، ص ٥٦

* قبيلة عك صاحبة التلبية الشهيرة في الحج قبل البعثة النبوية، حيث كان يتقدم موكب حجها عبدان أسودان بلون الغراب يصيحان: نحن غرابا عك.. فتقول عك بعدهما: عك إليك عانية، عبادك اليمانية، كيما نحج الثانية، "كتاب الأصنام"، أبو المنذر هشام بن حمد بن السائب الكلبي، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، ط٣، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٧، فهل كانت هذه القبيلة البسيطة تظن أن تساهم يوما في فتح دول كمصر؟.. نعم إن كانت مصر بشعب بلا جيش، بعدما غفل قبل ذلك وسلم جيشه للمستوطنين الأجانب.

[٣٠]- انظر: فتوح مصر وأخبارها، ص ٥٨، وتاريخ اللغة العربية في مصر، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ص ٢١

[٣١]- فتوح مصر وأخبارها، مرجع سابق، ص ٧٠

[٣٢]- مرجع سابق، ص ٧٠

[٣٣]- تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي "رؤية قبطية للفتح الإسلامي"، مرجع سابق، ص ٢١٣

وذلك بحسب تقدير كل خليفة ووالي ما إن كانت مصر فُتحت عنوة أو صلحا.

وكتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى الوالي حيان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم، وهذا في رأي المقريزي يدل على أن عمر كان يرى أن أرض مصر فتحت عنوة، وأن الجزية إنما هي على القرى وليست على رؤوس الرجال، فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم، وأن موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئا(٣٤).

ونقل ابن عبد الحكم أن بن العاص قال: "لقد قعدت مقعدي هذا وما لأحد من قبط مصر عليَّ عهد ولا عقد إلا أهل أنطابلس فإن لهم عهدا يوفى لهم به، إن شئت قتلت وإن شئت خمست وإن شئت بعت(٣٥)".

وفي نفس الوقت كتب معاوية إلى وردان متولي الخراج يأمره بزيادة الجزية عل القبط فأجابه أنه لا يستطيع لأن فيه نقضا للعهد الذي لهم؛ ما يعني أنها فتحت صلحا(٣٦).

كما أورد البلاذري رواية عن أحد ولد الزبير أنه قال: "لقد أقمت في مصر سبع سنوات وتزوجت فيها وكان الناس فيها يفرض عليهم من الأموال ما لا طاقة لهم به، فآذاهم ذلك، مع أن عمرو بن العاص كان قد عقد لهم عهدا جعل لهم، فهي شروطا معلومة"(٣٧)، وقال ابن شهاب إن مصر أخذ بعضها عنوة وبعضها صلحا، ولكن عمر جعل أهلها جميعا ذمة(٣٨).

وفي كل الأحوال لم يميز العرب في جمع الجزية بين القبط والروم واليهود، فلم ينفذوا وصية الرسول في ذلك، فهم ينظرون للجميع على أنهم "المغلوبين" أو من دين مختلف و"أهل ذمة" وسكان البلد المفتوحة بالقوة، ويجب أن يعاملوا معاملة المهزومين، حتى من أسلم من القبط لم يصلوا به لمكانة العربي المسلم إلا قليلا، وكانوا يسمون القبط المسلمين بالموالي، وعادة المحتل في كل زمان ومكان أن يجعل أهل البلاد في مرتبة أقل منه ليظل له ميزة التفوق والسيطرة.

وإلى جانب الجزية، واصل المصريون دفع الخراج للمحتل الجديد، والجزية هي ضريبة الرأس، وتُفرض على غير المسلمين، والخراج هو ضريبة الأرض والعقارات وتفرض على الجميع عدا العرب الحاكمين، وقيمة الخراج مالية وعينية، تشمل المال وضريبة الطعام، وهي عبارة عن القمح والعسل والزيت إلخ من منتجات الأرض والصناعات القائمة عليها، وكان يُنفق منها على الجند العرب في مصر، والباقي يُرسل إلى مقر الخلافة في الخارج.

وانتقلت ميزة الإعفاء من الضرايب والجزية من الرومان والسكندريين إلى العرب المقيمين، فكانوا لا يدفعون شيئا، وفي المقابل يُخصص لهم في الديوان (أي في الحكومة) مرتبات ومخصصات يعيشون منها،

---

(٣٤)- الخطط المقريزية، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢٢٦
(٣٥)- فتوح مصر وأخبارها، مرجع سابق، ص ٨٩.
(٣٦)- نفس المرجع، ص ٨٦
(٣٧)- فتح العرب لمصر، بتلر، ص ٣٤٧
(٣٨)- فتوح مصر وأخبارها، ص ٩٠

وذلك حتى قرار تطبيق الخراج على العرب والمسلمين في زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بعد أن تزايد تملك العرب للأراضي الزراعية، ومع دخول مصريين في الإسلام، وهما العاملان اللذان أديا لنقص الجزية والخراج في البداية؛ فتم فرض الخراج على الجميع[٣٩]، وبقيت الجزية على غير المسلمين.

ويقول ابن عبد الحكم إن عمرو بن العاص سار في جمع الخراج على منوال ما كان يفعل الرومان[٤٠].

وعهد العرب للأقباط والجباة السابقين بأمور الجباية لمعرفتهم بأحوال البلد، وذكر الواقدي أن عمرا عهد إلى أهل القرى باختيار جباتهم، ولم يختلف هؤلاء في أساليبهم وطرقهم عما اعتادوه في العصر البيزنطي من عسف وجور تجاه الأهالي، مستغلين أن الولاة المسلمين يهتمون بالحصول على أكبر قدر من الخراج لإرضاء الخليفة وحتى لا يتهمهم بالتقصير فيفقدوا مناصبهم، فسبق أن معاوية أراد أن يزيد على المصريين قيراطا في خراج أراضيهم فلما رفض وردان عامل خراجه قائلا: "إن عهدكم ينص على ألا يزاد عليهم" عزله معاوية[٤١].

واختلفت الروايات حول مقدار الخراج الذي جناه العرب من مصر، ولكنه وصل في أقصاه إلى ١٤ مليون دينار، وتظهر كتابات متبادلة بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص أن الخليفة عمر كان غير راض عن مقدار الخراج المرسل إليه، وينتقد ابن العاص لأن أرض مصر كانت في السابق تقدم خراجا أكثر من ذلك، وفي المراسلات التي نقلها المقريزي حدة واتهامات، حتى أن عمر يقول له: "ولم أقدمك إلى مصر لأجعلها لك طعمة ولا لقومك، ولكن وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك، فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو فئ المسلمين، وعندي من قد تعلم قوم محصورون، والسلام".

فرد عمرو:" معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم، فامض عملك فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية، والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضا، ولم تكرم فيه أخا"، وطلب من الخليفة أن يصبر عليه حتى تنضج الثمار، ويحصد المصريون الغلال ثم يزيد الخراج؛ حتى لا يضطرهم إلى بيع ممتلكاتهم[٤٢].

وفي تاريخ الطبري أن عمر بن الخطاب إذا لامه أصحابه في تشدده في جباية الخراج يقول لهم: "إنما أنا تاجر للمسلمين[٤٣]".

ولكن أكثر من كان يستفيد من هذا الخراج هم المسلمون العرب داخل مصر أو في الجزيرة العربية ودمشق وبغداد، لأن الخراج كان يجبى من السكان الأصليين ليُوزع على العرب الوافدين ثم يُحمل الباقي إلى الحجاز وعواصم الخلافة، ولم يكن لمنفعة المصريين مسلمين وغير مسلمين، بل كان يُشدد ويُزاد عليهم

---

[٣٩]- انظر: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٠٢، وملكية الإراضي الزراعية في القرن التاسع عشر (رسالة دكتوراة)، د. حمدي الوكيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٨٢- ٨٣

[٤٠]- فتوح مصر وأخبارها، ص ١٥١

[٤١]- انظر: لفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي، زبيدة عطا، ص ٩٤- ٩٥

[٤٢]- انظر: الخطط المقريزية، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٢٢٧- ٢٢٩

[٤٣]- تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ج ٣، مرجع سابق، ٤٣٧

في الضرايب والمشقات لصالح غيرهم باعتبارهم "المغلوبين".

وفي سنة ٢٥هـ عيَّن الخليفة عثمان بن عفان مسئولا خاصا لتحصيل الخراج، هو عبد الله بن سعد بن أبي السرح؛ ما أثار غضب عمرو بن العاص الذي كان مسئولا عن الإدارة والخراج معا، وقال له: "أنا إذًا كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها"[٤٤]، ورفض عمرو وترك الولاية.

وتولى محله ابن أبي السرح الذي زاد الخراج إلى ١٤ ميون دينار فافتخر عثمان به وقال لعمرو: "يا أبا عبد الله درَّت اللقحة بأكثر من درها الأول"، فرد عليه عمرو رد العالم ببواطن الأمور: "أضررتم بولدها"، أي أرهقت المصريين[٤٥].

وروى ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص أنذر القبط من أخفى منهم كنزا اقتص منه بالقتل، فعلم أن مصريا اسمه بطرس يكتنز مالا أخفاه عند أحد الرهبان، فاستخرج الكنز وقتل صاحبه[٤٦].

ويظهر أن من كان يدخل الإسلام لا تُرفع عنه الجزية في زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان على أساس مشورة من الحجاج بن يوسف الثقفي واليه في الشام، وطبقها عبد العزيز بن مروان خلال ولايته في مصر، ورفض هذا الأمر عمر بن عبد العزيز، وأرسل إلى ابن شريح يعنفه على أخذ الجزية ممن أسلم بحجة سد النقص في بيت المال، قائلا: "إنما محمد أرسل هاديا وليس جابيا"، ولكن في نفس الوقت وافق على أنه إذا توفي مسيحي أو يهودي يتحمل أهله دفع الجزية التي كانت عليه[٤٧].

أما أكثر من تفنن في فرض الضرايب فكان أحمد بن مدبر، والي خراج مصر، ووصفه المقريزي بأنه "من دهاة الناس وشياطين الكتاب"، وأنه "ابتدع في مصر بدعا صارت مستمرة من بعده لا تنقض"، ومنها ما فرضه على ملح النطرون وحجر عليه بعد أن كان مباحا لجميع الناس، وقرر على الكلأ (المرعى) الذي ترعاه البهائم مالًا سماه المراعي، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالًا وسماه المصايد، إلى غير ذلك[٤٨]"، وبتعبير سيدة كاشف، فقد كانت سياسة الخلفاء بوجه عام ترمي الى استغلال مصر، وان اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستغلال، إذ بينما نرى بعض الخلفاء أو ولاتهم يشتط في جمع الضرايب نرى البعض الاخر يرى أن من مصلحة الراعي أن يقص صوف غنمه وليس من مصلحته أن يسلخها، وذلك كيلا يجف معين البلاد وتتأثر بذلك مالية الدولة[٤٩].

ولعل الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٩٦- ٩٩هـ) يمثل النظرية الأولى أبلغ تمثيل حين ينقل عنه أبو المحاسن في كتابه "النجوم الزاهرة" أنه كتب إلى متولي خراج مصر أسامة بن زيد التنوخي قائلا:

---

(٤٤)- فتوح مصر وأخبارها، مرجع سابق، ص ١٧٨

*** تولى عمرو بن العاص الولاية مرتين، الأولى عقب الفتح ثم تركها غاضبا لما نزع منه الخليفة عثمان مسئولية الخراج، والثانية لما أعان معاوية بن أبي سفيان في الحرب ضد علي بن أبي طالب فكافئه بالولاية على مصر وبأن تكون "طُعمة" له، أي يسير في إدارتها وأموالها كيفما شاء.

(٤٥)- نفس المرجع، ص ١٦١

(٤٦)- نفس المرجع، ص ٨٧

(٤٧)- فتوح مصر وأخبارها، مرجع سابق، ص ١٥٤

(٤٨)- الخطط المقريزية، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٥٥

(٤٩)- مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، مرجع سابق، ص ٣٠

"احلب الدر حتى ينقطع، واحلب الدم حتى ينصرم".

أما الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦ هـ) فيمثل النظرية الثانية بتفضيل عدم المبالغة في جمع الضرايب، فنقل الماوردي في كتابه "الأحكام السلطانية" أنه كتب إلى الحجاج بن يوسف عامله على العراق: "لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وابق لهم لحوما يعقدون بها شحوما"[٥٠]، وهذه السياسة تذكرنا حرفيا بما قاله الإمبراطور الروماني تبيريوس حين بالغ واليه على مصر في نزع الأموال من المصريين، فلامه وقال له: "إنما أرسلتك لتجز وبر الأغنام لا لتسلخها".

وشدد قرة بن شريك في كتاب إلى صاحب كورة أشقوة على ألا يوجد أي مجال للشكوى أو الاستياء منه خلال جمع الجزية، ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيرا حسنا ومعاقبة من "يتنكب طريق العدل[٥١]"، أي أن من يحيد عنه.

وتحكي بردية من القرن الثالث الهجري محفوظة بدار الكتب ونشرها أودلف جروهمان في كتابه "البرديات العربية" الشدة في جباية الأموال في فترتها أنه: "إذا لم يؤد كل فرد ما عليه من الأموال يُضرب ١٠ سياط، ويغرم في صلب ماله دينارا"[٥٢].

وكما حوَّل الفرس ثم الرومان مصر إلى مزرعة وسلة غذاء لبلادهم، فعل كذلك العرب، فبعد الفتح بقليل أصاب الحجاز قحط عظيم ومجاعة "عام الرمادة"، فأرسل عمر بن الخطاب إلى عمرو يقول: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص: سلام عليك، أما بعد، فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي، فيا غوثاه، ثم يا غوثاه!"، فرد عليه عمرو بإرسال المدد: "لقد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي"، وعادت تلك البعير محملة بالخيرات[٥٣].

ولكن عمر أراد أن يكون هذا الغوث دائما وليس مؤقتا، ، وينقل ابن عبد الحكم عن عمر قوله: "يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهي كثيرة الخير والطعام، وقد ألقي في روعي- لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم- أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل في البر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ معه ما نريد"، وسعت القبايل في مصر لإفشال الفكرة خشية أن يؤثر هذا المدد الدائم على ما تتنعم به في مصر، ولكن بإلحاح عمر رضخوا له، وأمرهم أن ينتهي الخليج قبل أن يأتي الحول، فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفَعلة ما بلغ منه ما أراد، واستمر حمل هذه الخيرات من مصر عبره حتى بعد عصر عمر بن عبد العزيز[٥٤].

وتدل كلمة ابن عبد الحكم :"وجمع لذلك من الفَعلة ما بلغ منه ما أراد"، أن من حفره هم المصريون، فالعرب وقتها لا يعملون في الزراعة والصناعة ولا يعملون إلا في القتال والديوان، كما تؤشر لظروف

---

(٥٠)- المرجع السابق، ص ٣٠
(٥١)- نفس المرجع، ص ٣٢
(٥٢)- أحمد بن طولون، سيدة كاشف، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، ١٩٦٥، ص ١٩٨- ١٩٩
(٥٣) - فتوح مصر وأخبارها، ابن عبد الحكم، ص ١٠٢- ١٠٣
(٥٤)- المرجع السابق، ص ١٠٣- ١٠٤

العمل الشديدة التي عمل فيها الفَعلة لحفر القناة كل هذه المسافة (من النيل إلى البحر) في وقت قصير.

وسميت القناة الجديدة باسم خليج أمير المؤمنين، وتمت في سرعة قياسية، إذ كان يعمل فيها عدد عظيم من أهل البلاد يساقون إلى ذلك كأنهم أرقاء[٥٥] بتعبير ألفريد بتلر، وأشار يوحنا النقيوسي المعاصر للفتح إلى أن هذا تم بطريق يشبه الاستعباد حتى لقد وصف العرب بكلام ينطق مرارة: "وكان نيرهم على أهل مصر أشد وطأة من نير فرعون على بني إسرائيل، ولقد انتقم الله منه انتقاما عادلا بأن أغرقه في البحر الأحمر، وأرسل صنوف بلائه على الناس والحيوان، ونسأل الله إذا ما حل حسابه لهؤلاء المسلمين أن يأخذهم بما أخذ به فرعون من قبل[٥٦]".

ولكن- في رأي بتلر- الظاهر أن هذه الشدة إنما جاءت عفوا في وقت الفتح ولم تكن صفة ثابتة لحكومة عمرو في مصر[٥٧]، إلا أنه سيتكرر أمثالها في عصور ولاة آخرين بعده، فقد كان عمرو بما أتاه من قسوة أو لين أكثر الولاة دهاء وكياسة في الإدارة.

وإجمالا، لم يكن نظام الجزية والخراج يختلف كثيرا عما كان عليه زمن الاحتلال الروماني، وإن ألغى العرب بعض الضرايب التافهة التي فرضها الرومان في بداية الفتح، بحسب سيدة كاشف[٥٨]، إلا أنه عاد بعض الولاة في التفنن في فرض الضرايب وأساليب نزع الجزية.

وهكذا كما يقول المثل المصري الفصيح كان الحال "لا على حامي ولا على بارد".

❸ طاعون اختلاف المصريين في الموقف من عدوهم

على مدى آلاف السنين ثبتت عقيدة المصريين على أنه حين يقتحم أبواب مصر غازي أجنبي- أيا كان جنسه ودينه وغرضه- فإنهم يتحدون ضده بقلب واحد، ويهوون على رأسه بيد واحدة.

وتابعنا بذرة هذا طاعون اختلاف المواقف من المحتل في تقديس مصريين للإمبراطور المحتل لبلادهم قسطنطين لمجرد أنه ناصر دينهم المسيحي، أي تقديس المحتل باسم الدين، وهناك سبب آخر لاختلاف المصريين حول الغازي الجديد، يمكن تسميته بـ"حكم العادة"، فطول أمد تعاقب المحتلين هزَّ هذه العقيدة المقدسة (الموقف الواحد ضد المحتل)، وأحدث في الجسد المصري أوراما خبيثة لم تخطر ببالهم، وكأن بعضهم من كثرة ما رأى مواكب المحتلين بيض وسود وصفر "رايحة جاية" على مصر بلا انقطاع، سلَّم بأنه كُتب على مصر أن يظل حكامها في المستقبل أجانب، وأن جيش مصر لن يعود، وصولجانها سيظل في الأسر، وصاروا بعد عدة احتلالات ما بين موقف سلبي من المحتل الجديد أو يختلفون حوله، فالقابع على عرش حور "حورس" مغتصب أجنبي، والقادم ليخطف منه العرش أيضا أجنبي، فعلى أي أساس

---

(٥٥)- فتح العرب لمصر، مرجع سابق، ص ٣٦٨

(٥٦)- نفس المرجع، وتاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، مرجع سابق، ص ٢١٣

(٥٧)- فتح العرب لمصر، مرجع سابق، ص ٣٦٨

(٥٨)- مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، مرجع سابق، ص ٤٣

يحددون موقفهم من هذا وذاك؟

وفي نفس الوقت، يلزم أن نكون حذرين ونحن نتحدث عن مواقف المصريين من العرب أو أي احتلال آخر، فمن هم المصريون وقتها؟ فتابعنا أن كلمة قبط منذ الاحتلال الروماني تطلق على المصريين الحقيقيين وعلى غيرهم من جاليات تسكن خارج الإسكندرية والمدن المخصصة للإغريق، وهؤلاء الأخارى في موقفهم من الفاتح الجديد لا تتحكم فيهم إلا مصالحهم الخاصة، وفي نفس الوقت هم أكثر المتصدرين للمشهد لأنهم أصحاب المركز الأبرز في الدواوين والمدن؛ أي الأسرع اتصالا بالقادم الجديد.

ومن سير الأحداث يمكن توقع أن السكان عموما كانوا إزاء الغزو العربي على ٤ أحوال: منهم من اتخذ موقف الحياد والترقب، فالمتحاربان الاثنان أجنبيان، وكلاهما يحارب لقنص مصر لنفسه وليس لأهلها، وهم من دين مختلف، ومنهم من انضم لجيش الروم ضد العرب، ومنهم من حارب العرب ورفض التسليم لهم كما حدث في دمياط ونقيوس وبلهيب وسخا وسلطيس ومصيل بالوجه البحري[٥٩]، وكذلك تانيس وشطا، وهما مدينتان شهيرتان بالمنسوجات والأشعال اليدوية، وسكانها من القبط[٦٠]، وقال يوحنا النقيوسي إن الوجه البحري لم يسقط في يد عمرو إلا بعد عام[٦١].

ومن السكان من انضم للعرب ضد الروم، ومنهم من أشهر إسلامه، ويقول ابن عبد الحكم إن الأنبا بنيامين، بابا الأقباط، بعد أن وصله نبأ قدوم عمرو بن العاص كتب إلى القبط أن يساعدوه فصار بعضهم أعوانا لعمرو[٦٢] في بناء الجسور والأسواق والطرق ليتغلب على الروم مثلما كانوا أعوانا للقادة الرومان الذين كانوا ينقلبون على الإمبراطور الروماني إذا ما كان هذا الإمبراطور يضطهد القبط.

وباسم الدين، أو الاشتراك مع المحتل في دين واحد، سيؤيد البعض أيضا المحتل ويحاربون إخوتهم، فيقول يوحنا النقيوسي عمن أعلنوا إسلامهم وأسند لهم عمرو مناصب إنهم اشتدوا في جمع الأموال من المسيحيين للعرب، وصار المسيحيون يسمونهم بـ"أعداء الله"، ومنهم من حمل السلاح ضد إخوانهم المصريين لصالح العرب[٦٣].

ولاختلاف المواقف هذا فليس كل القبط دخلوا في الصلح الذي كتبه عمرو عند فتح بابليون، فإن هذا الصلح دخل فيه في البداية الموجودون في الحصن وما حوله[٦٤]، وانضم البقية مرغمين أو مختارين إلى الصلح بعد إتمام الفتح واستقرار الوضع للعرب بعد سيطرتهم على الإسكندرية والوجهين البحري والقبلي.

في المقابل اختلفت أيضا معاملة الجيش العربي للمصريين ما بين الشدة واللين، الشدة مع من قاومهم واللين مع من سكت عنهم أو عاونهم، وكذلك بحسب حاجة العرب للمال.

---

(٥٩)- فتوح مصر وأخبارها، مرجع سابق، ص ٨٥
(٦٠)- انظر: فتح العرب لمصر، ألفرد بتلر، ص ٣٧٧
(٦١)- تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، مرجع سابق، ص ١٩٨
(٦٢)- فتوح مصر وأخبارها، ابن عبد الحكم، مرجع سابق، ص ٥٨
(٦٣)- تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، مرجع سابق، ص ٢٢١- ٢٢٢
(٦٤)- فتح العرب لمصر، ألفريد بتلر، مرجع سابق، ص ٣٠٦- ٣٠٧

ومن ذلك أورد يوحنا النقيوسي أنه لما طارد العرب الجنود الروم في نقيوس في الوجه البحري دخلوها فقتلوا كل من وجدوه في الطريق من أهلها، ولم يدعوا رجلا ولا امرأة ولا طفلا"، ثم انتشروا فيما حول نقيوس من البلاد فنهبوا فيها وقتلوا كل من وجدوه بها، وأسروا الأطفال والنساء واقتسموهم غنائم، ونهبوا الأسلاب، ورفضت دمياط التسليم لهم، فيما أحرقوا مدينة "ذات النهرين" كما سماها يوحنا النقيوسي بالوجه البحري(٦٥).

ولما استقر الحال لعمرو ٦٤٤ م سعى بحنكته لوضع حد للتوتر بين المصريين والعرب، فخطب في مسجده خطبة أوصى فيها العرب بالقبط قائلا: "واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا"، مستشهدا بحديث نبوي نقله عن عمر بن الخطاب أنه سمع الرسول يقول: "إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لكم منهم صهرا وذمة، كما أوصاهم باستمرار اليقظة والاستعداد للحرب لكثرة الطامعين في مصر "معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية(٦٦)".

4 التباهي بتحول المصريات إلى جواري وهدايا

ربما لم يحصل هذا في عصر الاحتلال العربي نفسه، وإنما في عصور تالية، ولكنه كان المفتاح لهذا الانحراف أو القيح الكبير الذي نشأ في شخصية بعض المصريين، وعللوه بالدين، وهو قبول المحتل الأجنبي مدام من ذات الدين.

فتحكي كتب المؤرخين العرب- ولم يرد في القرآن- أنه حين زار إبراهيم مصر أهداه ملكها جارية مصرية اسمها هاجر؛ إكراما له، ولما عاد إبراهيم بهاجر إلى فلسطين تزوجها وأنجب منها إسماعيل، وأنه حين أرسل محمد ﷺ إلى المقوقس يدعوه للإسلام أرسل له المقوقس جاريتين قبطيتين هما مارية وسيرين.

وإن كان الأمر يحتاج إلى تدقيق أو حذر في تحديد ما إن كانت هاجر ومارية وسيرين مصريات فعلا أم من الجواري المجلوبين والمستوطنين الأجانب، خاصة وأنه لم يرد في الآثار أو تاريخ المصريين أن حكامهم اعتادوا على إهداء بنات بلدهم إلى الأجانب، أو قبولهم أن يتحولنَّ إلى جواري وهدايا للضيوف الأجانب، إلَّا أن يكون حادثة إهداء هاجر ومارية وسيرين كجواري جرت في عصور الاحتلال، وبالفعل مارية وسيرين تم إهدائهما كجاريتين على يد الاحتلال الروماني، وتدور تخمينات أن زيارة إبراهيم لمصر جرت أيام الاحتلال الهكسوسي، أي أن الملك كان هكسوسيا؛ فتكون هاجر ممن أسرهم المحتل الهكسوسي خلال الاجتياح، ولكن لم يرد أنه في زمن الاحتلال الروماني- خاصة أواخره- أن الرومان يأسرون ويستعبدون المصريين كأرقاء وجواري، إلا أن يكون هذا تم خلال ثورة من الثورات المصرية التي أخمدها الرومان بكل العنف ووسائل الإذلال.

وفي كل الأحوال، فإنه إن كان مصريات وقعنَّ في الذل والأسر وتحولنَّ رغما عنهن إلى جواري على

---

(٦٥)- تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، مرجع سابق، ص ١٩٨- ١٩٩، و٢٠٥- ٢٠٦

(٦٦)- فتح مصر وأخبارها، أبو القاسم بن عبد الحكم، مرجع سابق ص ١٤٠- ١٤١

يد الاحتلال؛ فما مبرر أحفادهنَّ من المصريين في عصورنا أن يهللوا ويفرحوا ويتفاخروا بأن بعض جداتهنَّ تحولنَّ إلى جاريات يهديهم المحتل لضيوفه، ويتنقلنَّ كالسلع من يد ليد؟

ويبرر بعض الأحفاد هذا لأنفسهم، ويميتون نخوتهم، بأن هاجر ومارية وسيرين وقعن كجواري في يد أنبياء، وأن هذا "شرف لهنَّ".

والسؤال: هل الأنبياء أنفسهم يقبلون أن تتحول أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهم إلى جواري وهدايا؟

بالتأكيد لا.. فلماذا نقبل على المصريات أقل ما يليق بأمهات وزوجات وبنات الأنبياء، مع العلم أن المصريات هم أبناء الأرض التي حملت رسالة العدل والرحمة والعفة والحق وعدم العدوان قبل انتشار الأنبياء، فلا يليق بهن إلا عيشة المكرمات المُصانات عن كل فعل يجرح كبريائهن.

والسؤال لمن يبررون القبول بأن تتحول المصريات إلى جواري وهدايا مادمنَّ سيقعن في يد أنبياء وأصحاب الأنبياء: هل الدين جاء ليحرر العبيد أم ليستعبد الناس؟

جاء الدين ليحرر العبيد، ويحث الناس على حفظ كرامة بعضهم وحرية بعضهم، وربما ما قَبِل أنبياء كإبراهيم ومحمد (ص) تلقي جواري وعبيد إلا لأنه كان "أمر واقع" في عصرهم، ولدوا فوجدوه، ولكن المصريين الذين تكبد أجدادهم طوفان العرق والدم ليحموا مصر والمصريين أحرارا في أرضهم، مصانين في عرضهم قبل نزول الرسالات السماوية المعروفة وبعدها، بأي قلب يبررون لنخوتهم الفخر بأن بعض جداتهن تحولنَّ لجواري وهدايا؟

وربما يعود نشر "الفخر" بهذه الحوادث إلى عصور لاحقة حين تبنى بعض العرب أو المستعربين في الشام ما سيُسمى بالقومية العربية في أوائل القرن ٢٠، وليقربوها للمصريين، وليقنعوهم زورا بأنهم عرب وليسوا مصريين، ضخَّموا من قصة هاجر، وأنها "أم العرب"، وأنه لأن هاجر "مصرية" إذن فالمصريين عرب- رغم أن المصريين كانوا موجودين بالملايين قبل ميلاد هاجر، وقبل معرفتهم بالعرب بآلاف السنين- وأنه عليهم أن يفتخروا لذلك بـ"العروبة"، وأن مارية المصرية تحولت هي أيضا لأم عربي هو إبراهيم ابن الرسول (ص)، وساهم في دعاية مماثلة تنظيمات دينية، أي هي ضمن دعاية سياسية لأيديولوجيات مستحدثة هي "القومية العربية" وغيرها، كما سنرى لاحقا بالتفصيل.

5 الفسطاط.. مدينة جديدة محرمة على المصريين

كما سار الإغريق في تقسيم الإسكندرية والمدن التي خصصوها لأنفسهم على نمط معيشتهم في بلادهم، بتقسيمها إلى أحياء على الأساس القبلي والعرقي، واستبعاد المصريين منها إلا للضرورة، فعل العرب ذلك في الفسطاط- التي كانت مزارع وفضاء قبل بنائها- وقسموها على نمط معيشتهم في جزيرة العرب، خطط (أحياء)، كل حي مخصص لقبيلة من القبايل التي صاحبتهم في الفتح.

كما بنى القبط مسجد عمرو بن العاص، والمنارة التي هي عنصر هندسي مأخوذ من شكل برج الكنيسة، والمأخوذ في الأغلب بدوره من المسلة التي كانت توضع أمام المعابد المصرية، ويبدو أن المنارة كانت في وقت لاحق على بناء المسجد، وفي ذلك قال ابن عبد الحكم إن مسلمة بن مخلد الأنصاري استعان بأهل مصر لبناء المنار للمساجد سنة ٥٣ هـ[٦٧].

وكل حي داخل الفسطاط له باب مغلق على أصحابه، لا يدخله الآخرون إلا بإذنهم، ويدير الحي شيخ القبيلة، ولها مسلحوها الذين يحمونها، خاصة وأن القبايل دخلت مصر بخصوماتها القبلية التي كانت في الجزيرة العربية، وكان صعب عليهم الخضوع لقانون واحد وقائد واحد، أو لحكم الدولة المركزية.

❻ زيادة فرص المصريين داخل الدواوين

حافظ العرب على الدواوين الحكومية كما وجدوها في مصر، وأبقوا على من ظل في مصر من جاليات الاحتلال الروماني في أشغالهم بها، واشتهروا كبقية السكان باسم الأقباط، وأسندوا للمصريين المناصب والوظائف التي خلت برحيل أصحابها وذلك لعدم سابق معرفة العرب بالعمل الحكومي وأحوال مصر، واحتفظوا هم بالمناصب العليا.

وبالتأكيد أن رحيل أعداد كبيرة من الرومان واليونان بعد الغزو العربي تسبب في خلو أماكن استفاد منها مصريون كانوا لا يجدون هذه الفرص بنفس الشكل في ظل ازدحام الجاليات الأجنبية داخل الدواوين، واستفاد العرب من خبرة المصريين والباقيين من الأجانب في بناء البيوت والقصور ومسجد عمرو بن العاص، وفي الزراعة وإدارة الدواوين وغيرها من أمور الفنون والعمران.

وفي بعض الفترات، استطاع مصريون التدرج في مناصب سياسية ومالية كبيرة، ومنها ما جاء في كتاب ساويرس بن المقفع "تاريخ البطاركة"- الذي وضعه بعد بنحو ٤ قرون من الفتح- عن أنه في عهد العباسيين كان ضمن المرشحين لبطريركة الإسكندرية رجل غني مدير ديوان الوالي اسمه إسحق السيد ابن أندونة[٦٨]، كذلك في عصر الولاة أمثلة كثيرة لحكام المدن والكور من الأقباط، وفي ولاية عبد العزيز بن مروان كان له كاتبان قبطيان لإدارة الوجهين القبلي والبحري، وفي نهاية عهده كان والي الصعيد قبطيا، بحسب سيدة كاشف[٦٩].

ثم انقلب الحال في عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١ هـ) لما سعى لإحلال المسلمين محل المسيحيين حتى في الوظايف الصغيرة، واستبعد رؤساء الكور (المحافظات) المسيحيين وأحل محلهم المسلمين، ولكن يبدو أن تنفيذ هذا القرار لم يستمر كثيرا بعد وفاته؛ لأن المسيحيين ظلوا يشغلون كثيرا من مناصب الدولة لخبرتهم في العمل الإداري وشئون مصر[٧٠]، وطوال العصر الأموي تولى مناصب رؤساء المالية الأقباط،

---

[٦٧]- فتوح مصر وأخبارها، ابن عبد الحكم، ص ١٣١
[٦٨]- تاريخ البطاركة، ساويرس بن المقفع، مرجع سابق، ص ٩٢
[٦٩]- مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، سيدة كاشف، دار المعارف، القاهرة، ص ١١٣
[٧٠]- نفس المرجع، ص ١١٨- ١١٩

وفي بداية العصر العباسي حل محلهم رؤساء للمالية من المسلمين.

❼ معاناة مصر من صراعات ودماء الخلافة

خلال فترة حكم الولاة، تأثرت مصر بعنف بالحروب والمعارك اللي دارت حول الحكم في الجزيرة العربية والشام والعراق، مثلما حدث في فتنة عثمان، ثم فتنة خلق القرآن، والصراع بين آل البيت والأمويين، ثم بين الأمويين والعباسيين، وبين آل البيت والعباسيين.

فهذه المعارك انتقل صداها إلى العرب القاطنين في مصر، فكانوا يرسلون أفرادهم للمشاركة فيها، أو يأتي إليهم خصومهم من الخارج لمحاربتهم ومطاردة الفارين إلى مصر، ويسقط بين سنابك خيلهم مصريون لا ذنب لهم فيها، بل ولا يدرون حتى من هم المتحاربون، وعلى ماذا يتحارب هؤلاء.

وفي نفس التوقيت بدأ يظهر مذهب الشيعة على يد عبد الله بن سبأ، وهو بحسب ما يصفه مؤرخون "فارسي الثقافة يمني النشأة من أهل صنعاء" (وربما فارسي من الفرس الذين استنجد به اليمني سيف بن ذي يزن لينصروه ضد الغزاة لأحباش فانتهزوا الفرصة واستوطنوا اليمن ليسيطروا عليه، وأثار حنقهم سيطرة العرب على اليمن وفارس)، كان يلف البلاد يدعو للثورة على عثمان بن عفان بحجة أنه "اغتصب" الخلافة من علي بن أبي طالب، وادعى أن جزءا إلهيا حلّ في علي، ولذا وجب طاعته والأئمة من صلبه من بعده، وهنا بداية انقسام المسلمين إلى بدعة سنة وشيعة التي حملت طوفان دم لم ينقطع حتى اليوم، وانكوت به مصر رغم أنه ليس لها شأن في أطماع وصراعات واختراعات هذا وذاك، بل إن المسلمين من أهلها حتى ذلك الوقت ندرة لا تُذكر.

ونجح ابن سبأ في تأليب بعض القبايل والجند العرب ضد عثمان لأسباب كانت مهيأة، أو تم تهيأتها واستغلالها للثورة الدموية(٧١)، ومنها غيرة القبايل من بني أمية لأنهم فازوا بمعظم المناصب والثروات، واستغلال أخطاء بعض الولاة وأقارب عثمان، مثل أخطاء أخيه من أمه الوليد بن عقبة الذي قيل إنه كان يصلي وهو سكران، واتسعت دايرة الدم والقتال بين القبايل بمقتل الحسين بن علي حفيد الرسول (ص)، وطمع عبد الله بن الزبير في أخذ الخلافة لنفسه، مستغلا غضب بعض المسلمين من زيد، فألّب ضده الشام والعراق والحجاز واليمن والقبايل الوافدة في مصر، وبايعته بعضها خليفة، متحدين الولاة الأمويين في مصر وخاصة مروان بن الحكم(٧٢).

وقاد الخليفة مروان بن الحكم قبل وفاته مع ابنه عبد العزيز بن مروان جيشا جرارا إلى مصر لخلع الوالي الذي عينه عبد الله بن الزبير بدعم من بعض القبايل، وبعد معارك طاحنة مع أنصار بن الزبير

---

(٧١)- انظر: المرجع السابق، ص ٦٥- ٦٧

(٧٢)- انظر: الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، حسين نصار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط٢، ص ٤٠- ٤١

*** والخوارج فئة من الناس تخرج في كل عصر عن الحاكم، تدعي أنه ظالم وأنها موكلة بتغييره لإقامة العدل، وبعد تغيير الحاكم تسعى لتبديله بحاكم جديد بثورة جديدة، وهكذا، لا يستقرون على أحد، فمثلا، شاركوا في فتنة عثمان بن عفان ثم في الثورة ضد علي بن أبي طالب بزعم الثأر لدم عثمان، وبعد قتل علي انضموا لابنه الحسين لتحريضه على أخذ الخلافة لنفسه، وبعد قتله اتجهوا لتحريض بن الزبير، وهكذا.. للمزيد: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق، محمد عبد الله عنان، دار البنين للنشر والتوزيع، ص ١٥

الرافضين مبايعة مروان، تم قتلهم، وعيَّن ابنه عبد العزيز بن مروان واليا على مصر(٧٣).

وفي نهاية الخلافة الأموية ظهر نوع جديد وشديد من الصراع، هو الخلاف بين الأمويين وبني العباس بن عبد المطلب، أولاد عم علي بن أبي طالب، كان فيه الطرف الأخير يرى أنه الأحق بالخلافة من الأمويين، لقرب صلته بالرسول وبآل البيت، وكلها حجج دينية لأطماع سياسية.

ودار العباسيون في البلاد ينشرون التحريض والثورة ضد الحكم الأموي، مستعينين في ذلك بالضغط على النعرة القبلية تارة، وبالشيعة والموالي من الفرس تارة، ففي مصر حرضوا القبايل العربية اليمنية المناوئة لبني أمية ضد القبايل العربية المضرية (نسبة لبني مضر) المؤيدة لهم، وبدأ الجند المنتمين للقبايل المناوئة لبني أمية في التمرد على الخليفة، وخاصة في عهد الخليفة مروان بن محمد ١٢٧هـ.

وظهرت من جديد حركة الخوارج في مصر لتهييج القبايل على بعضها البعض وعلى بني أمية، ويطرطشون بسمومهم على المصريين الذين لا مصلحة لهم عند هذا ولا ذاك.

ففي سنة ١١٧ ه خرج وهيب اليحصبي من الخوارج الوافدين من اليمن على الوالي الوليد بن رفاعة لسماحه للمسيحيين في مصر ببناء كنيسة، وأتى إليه ليفتك به، فعاجله بن رفاعة وقتله، فصارت زوجة وهيب تطوف على المنازل ليلا تحرض الناس على طلب دم زوجها، فخرجوا على الوالي، واقتتل الفريقان في جزيرة الروضة بالمنيل(٧٤)، أما الخليفة مروان بن محمد، الشهير بمروان الحمار، فبعد هزيمته على يد العباسيين بمعونة الفرس الخرسانيين في معركة "الزاب" بالعراق فرَّ لمصر يحتمي بها، لكن العباسيون تتبعوه وقتلوه في أبو صير(٧٥).

ولنا أن نتخيل أن كل هذه المعارك ورمح الخيول وصليل السيوف وهي تتعارك داخل القرى والمدن المصرية التي يهرب إليها المتحاربون، مع ما يترتب على هذا من تخريب في الزرع وفي البيوت وسقوط مصريين قتلى بلا ذنب.

وبهذا أسدل الستار على خلافة بني أمية داخل مصر، وبدأ فصل جديد من فصول الخلافة وصراعاتها وتعذيب مصر بسببها، هي الخلافة العباسية.

اندار العباسيون لمصر، وقتلوا كثيرا من أنصار بني أمية، وأسروا آخرين، وصارت مصر بداية من سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠ م تابعة للخلافة العباسية في العراق، واختار الوالي العباسي على مصر، صالح بن علي، إنشاء عاصمة جديدة سماها العسكر، شمال شرق الفسطاط، لأنهم جعلوها مقر عسكر الدولة العباسية،

---

(٧٣)- انظر: مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، مرجع سابق، ص ٧٦- ٨١
(٧٤)- انظر: الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤٠
(٧٥) - تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، دار ابن حزم، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٢٠٣

ومعظمهم من الفرس ثم الأتراك(٧٦).

وتوصف فترة الحكم العباسي لمصر بأنها "محنة عظمى"، لأن الولاة العباسيين اشتطوا في جمع أكبر كم من المال وإرساله للخليفة، ونشط الخوارج في زرع القلاقل بالتحريض ضد المصريين لأنهم مسيحيون، وغرقت مصر في مستنقع الفتن والمعارك بين المتصارعين على الحكم.

ومن هذه المعارك ما دار بين العباسيين وقبايل عربية ظلت على انتمائها للحكم الأموي، وأشهرها معركة قادها دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان حين أعلن الخروج على الخليفة العباسي الثالث محمد المهدي، وكان مقيما في الوجه القبلي، وحشد القبايل التي أقامت هناك حتى امتلكوا زمام أمره، وكادوا أن يستقلوا به، وبعد جولات من القتال نجح والي مصر الفضل بن صالح، في عهد الخليفة موسى الهادي، أن يأسر دحية، وقطع رأسه، وصلبه، وأرسل الرأس إلى الخليفة(٧٧).

وفي عهد المتوكل الذي تولى الحكم سنة٢٣٢هـ أمر بإخراج العلويين (شيعة) من مصر، فخرج كثير منهم للعراق والمدينة المنورة، وعاش جزء آخر في مصر متخفيا، ولكنهم استمروا في مؤمراتهم سرا، وفي القرن الثالث الهجري خرج علوي شيعي اسمه ابن الأرقط على الحكم العباسي، فطرده الوالي من مصر، وبعده ظهر علوي في الوجه القبلي اسمه "بغا الأكبر" (تركي)، لكنه هُزم وفر، وبعده ظهر "بغا الأصغر" في منطقة بين الإسكندرية وبرقة لكن أحمد بن طولون قتله، وفي إسنا بقنا ظهر علوي اسمه ابن الصوفي، أرسل إليه بن طولون بجيش حاربه، ففر إلى المدينة المنورة(٧٨).

ومن أشد الفتن أيضا التي أصاب مصر شررها كانت فتنة الأخوين الأمين والمأمون، وهي باختصار أن الخليفة هارون الرشيد أوصى بالخلافة للأمين وبولاية العهد للمأمون، لكن الأمين لم ينفذ وصية أبيه، وخلع أخيه من ولاية العهد، ومنحها لابنه موسى، فانقسم الولاء في الأمصار بين الأمين والمأمون.

وفيما يخص مصر، أرسل الأمين للقبايل العربية المقيمة بها يطلب مناصرتها، وفي نفس الوقت أرسل لها المأمون يطلب مناصرتها، وانقسمت القبايل كعادتها بين تأييد هذا وذاك، وانتقلت الحرب بين الأخين إلى مصر، وواجهت القبايل بعضها بالسلاح، وكانت تخلع الولاة العباسيين على أساس انتماءاتهم للأخين، وظل الموقف ملتهبا حتى قتل المأمون أخيه الخليفة الأمين سنة ١٩٨ هـ، لكن لم تنته الحرب بين أنصار الاثنين، فأنصار الأمين المقتول سعوا للاستقلال بحكم مصر كي لا يخضعوا للمأمون، وبعضهم سيطر لفترة على الوجه البحري بقيادة عبد العزيز بن الوزير الجوري، والسيطرة على الفسطاط والوجه القبلي بقيادة السري بن الحكم(٧٩).

وطالت نار معارك الطمع الأسكندرية وعنها قال المقريزي: "فانتهبت النصارى بالإسكندرية وأُحرقت

---

(٧٦)- راجع تفسير د.عبد الجواد مجاهد لأصل كلمة عسكر وعلاقتها بالمرتزقة الكاريين القادمين لمصر من آسيا الصغرى (تركيا حاليا) في الجزء الخاص بنتائج الاحتلال الخاسوتيمي بعد الأسرة ٢٠

(٧٧)- انظر: مصر في عصر الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، مرجع سابق، ص ٨٥- ٨٧

(٧٨)- انظر: المرجع السابق، ص ٩٠- ٩١

(٧٩)- انظر مصر في عصر الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، مرجع سابق، ص ٩٠- ٩٥

لهم مواضع عديدة، وأُحرقت ديارات وادي هبيب ونهبت، فلم يبق بها من هربانها إلا نفر قليل[٨٠]".

وهكذا تحولت مصر في العصر العباسي أيضا إلى جمرة حمراء وميدان قتال وفوضى بين أحزاب أجنبية في كافة أرجائها بلا انقطاع، وكلها لأسباب قبلية وسياسية بحتة، تسترت بالدين ودنَّست رايته، في صورة مكررة للصراعات بين الجاليات والأعراق والطوايف الأجنبية أيام اليونان والرومان، ثم تمترست في معاركها ضد بعضها بالدين أيضا بعد قدوم المسيحية، وكل هذا في تنافر تام مع طبيعة الفلاحين المصريين الذين لم ترصد الآثار في تاريخهم الطويل القديم أمثال هذه الصراعات الدامية بين بعضهم إلا نادرا.

❽ تحقير المصريين.. عمدا

ظهر أيام الاحتلال اليوناني والروماني التميز بين المصريين ومحتليهم واضحا في تقديرات الجزية والضرايب وأعمال السخرة، وأيضا في الملامح واللغة والعادات والملابس، فظلت ملابس المصريين- في الأرياف- تدل عليهم، ولا يرتدي ملابس المحتلين إلا القليل ممن يجدون فرصة في العمل أو التعليم داخل الحشد الأجنبي بالمدن الكبرى.

وبدخول المسيحية ميَّز مصريون أنفسهم عن إخوتهم الذين لم يدخلوا المسيحية بأن اتخذ بعضهم شكل "القديسين" فيب الملابس وتربية اللحية الكثيفة التي لم تكن سمة للوجوه المصرية، بل سمة آسيوية دخيلة- أو هكذا ظهرت صورهم في الأيقونات والصورة التي رُسمت لهم في عصور لاحقة.

أما في الاحتلال العربي وحتى العثمانلي فشهد تفريق بين المصريين في الملبس بالقانون الإجباري، وذلك أن بعض الولاة ألزموا المسيحيين منهم بلبس عمامة زرقاء وربط زنار في الوسط ولون معين للحذاء، وأول من بدأ هذا الخليفة عمر بن عبد العزيز، فيقول ابن عبد الحكم إنه كتب لعماله: "لا يمشي نصراني إلا مفروق الناصية، ولا يلبس قباء، ولا يمشي إلا بزنار من جلود، ولا يلبس طيلسانا ولا سراويل ذات خدمة، ولا نعلا لها عذبة"[٨١].

وقال القلقشندي إن من أشكال التميز منع غير المسلمين من إرسال الضفائر كما تفعل الأشراف[٨٢]، فاعتبر أن المسلمين الوافدين من الجزيرة العربية والشام والعراق وفارس والترك هم الأشراف، وأولاد البلد غير أشراف، برغم أن الوافدين أخذوا البلد بقوة السلاح لا بقوة الشرف، وفي عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله (٢٣٢- ٢٤٧ هـ)، الذي وصفه ساويرس ابن المقفع بـ"الشرير" وقع اضطهاد منظم، فقد عيَّن واليا اسمه عبد المسيح بن اسحق مسئولية الخراج، وهو مسيحي دخل في الإسلام، وأمره بأن يهدم الكنايس، ويكسر الصلبان، ويمنع الصلاة على المسيحي الميت، وبعدم دق الأجراس، وألا يلبس المسيحيين واليهود ملابس بيضاء ليمكن تمييزهم عن المسلمين، وأن توضع رسوم ساخرة على أبواب المسيحيين، وألزم

---

(٨٠)- الخطط المقريزية، ج ٣، ص ٧٦٩

(٨١)- المجتمع المصري في مصر الإسلامية من الفتح العربي وحتى العصر الفاطمي، مرجع سابق، ص ٩٢- ٩٣

(٨٢)- المرجع السابق، ص ٩٥

كثيرين بدخول الدين الإسلامي، وألا يعمل بالحكومة إلا المسلمين[٨٣].

وبحسب المقريزي، فإنه أيضا أمر بأن يلبسوا طيلسانة عسلية (الطيلسان يشبه طرحة أو شال يلقى على الكتفين أو الرأس)، ويلبسون الزنانير وحزام خاص بـ "أهل الذمة"، ويلبسون دراعتين عسليتين (الدراعة قميص مفتوح من الأمام حتى مكان القلب ومزين بالزراير)، وأن يكون ركوبهم فقط الحمير والبغال، وأن يضعوا أمام بيوتهم أعمدة خشب ورسوم شيطانية للتفريق بينها وبين بيوت المسلمين، وبألا يتعلم أولاد المصريين المسيحيين في الكتاتيب مع أولاد المسلمين، وألا يعلمهم معلم مسلم، وألا يرفعوا الصليب في احتفالاتهم الدينية، وأمر بتسوية قبورهم كي لا تتشابه مع قبور المسلمين، ومنع الاحتفال بعيد الشعانين (رغم أنه كان عيدا يحتفل به المصريون جميعهم حتى من يدخل الإسلام)[٨٤].

وبوصف بن المقفع: "فترك الإيمان كثيرون من فقراء الإيمان من شدة الضيقات، ونسوا رحمة الله، بينما صرخ غيرهم إلى الرب لينقذهم من هذا الكرب" في إشارة إلى ترك الكثيرين للمسيحية على أثر ذلك.

وأرجع مؤرخون ما يتعلق بالتضييق فيما يخص الملابس إلى عهد عمر بن الخطاب، رغم أن هذا لم يرد في القرآن ولم يأمر به النبي (ص)، فينقل المقريزي أنه أمر بأن تختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم، وألا يتشبهون بالمسلمين في ملبوسهم[٨٥]، وواضح أن ولاة توسعوا بعسف في هذا الأمر، وولاة آخرون لم يلتزموا به في كل الأوقات.

واتسم العرب بالبساطة والتواضع في بداية حكمهم إلا أنه مع زيادة الفتوحات وتدفق الأموال وشعورهم بأنهم تفوقوا على البلدان ذات الحضارات القديمة وأن بلادهم مهبط الدين الخاتم، تضخمت ذواتهم كاليونان والرومان وحدث تغيير واضح في معاملتهم للأهالي- كما ورد في رصد سيدة كاشف لتطور العلاقة- حتى نقل المقريزي عن معاوية بن أبي سفيان قوله الكريه: "وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف، فثلث ناس، وثلث يشبه الناس، وثلث لا ناس، فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي [أي غير العرب ممن دخلوا الإسلام] ، والثلث الذين لا ناس فالمسالمة، يعني القبط"، وتفننوا في وصف المصريين بالجبن والمكر، فنقل المقريزي أيض عمن اسماه بـ"ابن العربية" عن أهل مصر: "عبيد لمن غلب، أكيس الناس صغارا، وأجهلهم كبارا"، وعن ابن عباس: "المكر عشرة أجزاء، تسعة منها في القبط، وواحد في سائر الناس"، وعن كعب الأحبار أن "خير نساء على وجه الأرض نساء أهل البصرة، إلا ما ذكر النبي (ص) عن نساء قريش، وشر نساء على وجه الأرض نساء أهل مصر"، وعن عبد الله بن عمرو: "ولما هبط إبليس وضع قدمه بالبصرة، وفرخ بمصر" [٨٦].

وحدث في عهد هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣ ه) أن تحامل القاضي محمد بن مسروق الكندي على أهل

---

(٨٣)- تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص ١٠١

(٨٤)- انظر: "القول الإبريزي للعلامة المقريزي"، المعروف باسم تاريخ الأقباط لصاحبه مينا إسكندر، والجامع لكل ما ذكره المقريزي عن الأقباط، دار الفضيلة، القاهرة، ص ١٠٢- ١٠٣

(٨٥)- الخطط المقريزية، ج١، مرجع سابق، ص ٢٢٣

(٨٦)- انظر: مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، ص ١١٤- ١١٥، والخطط المقريزية، ج١، ص ١٥٠- ١٥١

مصر؛ فأمعنوا الطعن فيه ودعوا عليه في المساجد، فوقف على باب المقصورة وصاح: "أين أصحاب الأكسية العسلية... ؟"، وربما قصد بقوله "أصحاب الأكسية العسلية" التحقير من شأن المصريين المسلمين الذين انحدروا من أهل الذمة [أي كانوا مسيحيين وأسلموا] والذين كانوا يتميزون عن المسلمين بلبس الملابس العسلية اللون(٨٧).

فلا كون المصريين أسلموا أم لم يسلموا يجعلهم متساوين في نظر الفاتحين مع العرب الوافدين.

8 تورم عقدة الخواجة

يقول المثل المصري الفصيح: "كتر النواح يعلم البكا"، ونقط المطر مهما كانت صغيرة دوام هطولها على الجبل ستترك فيه علامات وندوب وتشوهات وحفر تكبر مع الزمن.

وتابعنا كيف أن أساليب التحقير المتعمد التي اتبعها المحتلون السابقون ضد المصريين في دينهم أو حضارتهم أو لغتهم أو ملابسهم أثَّرت في بعضهم، خاصة من يتعلم منهم ويتطلع لأخذ نصيب من الوظايف أو المكانة التي يتمتع بها الأجانب في بلاده، فيغير من لسانه واسمه وملابسه ليتماشى معهم، حتى فقدنا خطوط اللغة المصرية وكثير من أصول ثقافتنا، فيما يجز بقية المصريين على هويتهم بالأسنان، خاصة غير المتعلمين الذين لم تلوثهم المطامع في وظايف ولم تدفعهم لسلخ أنفسهم من أنفسهم وتحويلها إلى "مسخة".

وحين جاء العرب لم يختلفوا في "الدق على راس المصريين"، وتقول سيدة كاشف: "والواقع أن العصبية الدينية تغلبت على العرب بعد الفتح، وتغلب عليهم الشعور بعزتهم وتفوقهم على غيرهم من الشعوب بعد أن أنشأوا إمبراطوريتهم الإسلامية بحد السيف، فرأوا أن يتميزوا عن غيرهم في اللباس والزي والركوب وغير ذلك مما يشعر في الوسط الاجتماعي بأنهم هم السادة وغيرهم دونهم، ولذا نراهم يعاملون أهل الذمة معاملة الطبقات الدنيا، مهما كانت ثروتهم أو مراكزهم في الدولة".

وأثر هذه المعاملة الدونية أنها "مما حمل الكثير على الدخول في الدين الإسلامي رغبة في التخلص من تلك المضايقات"(٨٨)، فدفعهم هذا الضغط إلى تقليد "الخواجة الجديد" في دينه وملبسه ولغته كي يتخلص من عقد الدونية المزيفة، وزاد الأمر حين اشترط بعض الخلفاء دخول العاملين في الدواوين للإسلام إن أرادوا الحفاظ على وظايفهم.

وواضح أنه إن كان مصريون متعلمون استسلموا بسهولة لتقليد العرب، فإنه ظل مصريون متعلمون أيضا يحتضنون قدر ما استطاعوا هويتهم، بوجل وفزع عليها، خصوصا اللغة، ويظهر هذا في غضب رئيس أحد الأديرة وهو يقول محذرا في إحدى عظاته: "ماذا أقول في تلك الأزمنة، وعِظَم الكسل الذي يلحق بالنصارى، فإنهم في ذلك الزمان يميلون كثيرا عن الاستقامة، ويتشبهون بالهجَرَة (المهاجرين) في

(٨٧)- مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، ص ١١٧
(٨٨)- المرجع السابق، ص ١١٨

أعمالهم، ويسموا أولادهم بأسمائهم، ويتركوا أسماء الملائكة والأنبياء والرسل والشهداء، تجد النصارى يتركون لغتهم الحلوة، ويفتخرون باللغة العربية وبأساميهم، أقول لكم يا أولادي: الحقيقة أن الذين يتركون أسماء القديسين، ويسمون أولادهم بالأسماء الغريبة، الذي يفعل هذا يكون بعيدا من بركة القديسين"[٨٩].

لكن خاب ظن الواعظ، فالكنيسة نفسها انهارت مقاومتها أيام الاحتلالين الفاطمي والمملوكي وتبنت اللغة العربية بدلا من اللغة المصرية، فكانت من أكبر أسباب انزواء لغة مصر.

وفي العموم، وجد مصريون أن مصلحتهم الدخول في الإسلام والتعريب، إما عن اقتناع، وإما هربا من المضايقات الاجتماعية، أو فرارا من الضرايب المتزايدة، أو رغبة في الإبقاء على مناصبهم بحسب سيدة كاشف[٩٠]، ويمكن أن يُضاف إلى ذلك أن المسيحية لم تكن قد تمكنت بما يكفي من نفوس كثير ممن اعتنقوها أيام الرومان، خاصة وأن بعضهم أيضا اعتنقها خوفا وهربا من الاضطهاد الذي يلقاه من مسيحيين أو من الاحتلال الروماني حين تعاملوا مع من يبقى على دينه القديم بأنه "وثني خائن"، والبعض الآخر صار مسيحيا بحكم الأمر الواقع بعد إغلاق المعابد المصرية وغياب المرشدين الدينيين الخاصين بها، فلم يجدوا حرجا أو مانعا في التحول من المسيحية إلى الإسلام، هذا بخلاف أيضا المتوقع أنهم ظلوا باقين على أطلال دينهم القديم فدخلوا منه إلى الإسلام مباشرة دون أن يمروا على المسيحية.

⑩ الاضطهاد الديني ساعة وساعة

اختلف شعور المصريين بالحرية الدينية في عهد الولاة العرب بحسب صلاح الخلفاء أو الولاة وفسادهم، واختلف في بداية الفتح عما بعده.

فبعد الفتح بدأ عمرو بن العاص عصره بتصرف إيجابي، أن سعى لتهدئة الحياة الدينية بأن كتب عهد أمان بأن يعود البابا بنيامين آمنا من منفاه، وذلك بعد ٣ سنوات ظل فيها مختبئا بعد الفتح، وقال له: "جميع بيعك (كنائس) ورجالك (الأساقفة والكهنة) اضبطهم ودبر أحوالهم"، وطلب منه الدعاء له، ويقال إن من نبَّه عمرو إلى بنيامين شخص يدعى سانوتيوس[٩١]، وكان لعودته رنة فرح وطرب في مصر، ولكن من غير المفهوم لماذا ظل بنيامين مختبئا ٣ سنوات بعد الفتح العربي، ويستدل ألفريد بتلر باستمرار الاختفاء بأن القبط لم يستدعوا العرب، وأن البابا انتظر مختبئا طويلا حتى يتأكد من نواياهم[٩٢].

وعن أحوال عمرو مع المصريين بعد ذلك قال يوحنا النقيوسي إنه: "تشدد في جباية الضرايب التي وقع الاتفاق عليها، ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنايس، ولم يرتكب شيئا من النهب أو الغصب، بل إنه حفظ الكنايس وحماها إلى آخر مدة حياته[٩٣]".

---

[٨٩]- راجع مقدمة عبد المجيد دياب في تحقيقه لكتاب "القول الإبريزي للعلامة المقريزي" المعروف بـ"تاريخ الأقباط، مرجع سابق، ص ٥٧
[٩٠]- انظر: مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، مرجع سابق، ص ١١٤
[٩١]- تاريخ البطاركة، ساويرس بن المقفع، مرجع سابق، ص ٤٧- ٤٨
[٩٢]- فتح العرب لمصر، ألفريد بتلر، مرجع سابق، ص ٤٥٧- ٤٥٨
[٩٣]- نفس المرجع، ص ٤٦٠

لكن الأمور عادت تضيق على المصريين بعد السنوات الأولى من الفتح، ووضعت شروطا حتى أنه مع الوقت ظنها الناس أصولا في الإسلام، وهي ليست كذلك، ومنها ما قاله الماوردي إنه "لا يحق لأهل الذمة أن يتخذوا لأنفسهم كنائس أو بيعا جديدة في دار الإسلام، فإذا بنوا لأنفسهم هدم، ولكن لهم أن يعيدوا بناء ما تهدم من كنائسهم أو بيعهم".

ومن أدلة أن ذلك لم يكن معمولا به في أول الفتح أنه في زمن البطريرك إسحق وولاية عبد العزيز بن مروان على مصر أمر عبد العزيز ببناء كنيسة في حلوان[٩٤]، وبنيت كنيسة في زمن مسلمة بن مخلد، فغضب الجند العرب من ذلك، ولكنه قال لهم إن الكنيسة ليست في الأرض المخصصة للجند فسكتوا[٩٥].

ولكن الحال لم يدم طويلا، فقد هدمت كنايس بأمر الخليفة أحيانا، مثلما حدث في عهد المأمون حين انتقامه من الثائرين المصريين في الثورة البشمورية، والتي باع فيها أيضا نسائهم وأطفالهم.

وفي ذلك يقول المقريزي إنه لما ولي مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان اشتد على النصارى، واقتدى به قرة بن شريك أيضا في ولايته على مصر، وأنزل شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها، وكان عبد الله بن الحبحاب- متولي الخراج- زاد على القبط قيراطا في كل دينار، فانتقضوا عليه في الحوف الشرقي، فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم عدَّة وافرة في سنة ١٠٧ ه، واشتد أيضا أسامة بن زيد التنوخي- متولي الخراج- على النصارى، وأوقع بهم وأخذ أموالهم، ووسم أيدي الرهبان بحلقة حديد، فيها اسم الراهب، واسم ديره وتاريخه، فكل من وجد بغير وسم قطع يده.

وأضاف المقريزي أن التنوخي كتب إلى الأعمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور أن يؤخذ منه ١٠ دنانير، ثم كبس الديارات، وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم فضرب أعناق بعضهم، وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب، ثم هدمت الكنايس، وكسرت الصلبان، ومحيت التماثيل، وجرى هذا في خلافة يزيد بن عبد الملك، فلما تولى هشام بن عبد الملك أوقف هذه الأمور، ثم استأنفها الوالي حنظلة بن صفوان والي مصر فتشدد على النصارى وزاد في الخراج وأحصى الناس والبهائم وجعل على كل نصراني وسما صورة أسد، وتتبعهم، فمن وجده بغير وشم قطع يده[٩٦].

وأمر الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١- ١٠٥ هـ) في سنة ١٠٤ هـ بكسر الصلبان في كل مكان، وبمحو الصور والتماثيل التي في الكنايس، ولم تنجُ في هذه الحركة بعض الآثار المصرية القديمة. ولذا نرى ساويرس بن المقفع يصفه بأنه سلك طريق الشيطان وحاد عن طريق الله".

وبعد فترة الاضطهاد في عهد يزيد بن عبد الملك، وبعد ثورة المصريين ضد العرب المسمّاة بثورة سخا وهدم عدة كنايس، عاد الولاة للسماح ببناء الكنايس في عهد الوالي موسى بن عيسى بناء على مشورة من الإمام الليث بن سعد، وقاضي مصر عبد الله بن لهيعة اللذين قالا إن بناء الكنايس من عمارة البلاد، وإن

---

(٩٤)- نفس المرجع
(٩٥)- فتوح مصر وأخبارها، مرجع سابق، ص ١٣٣
(٩٦)- انظر: تاريخ الأقباط، تقي الدين المقريزي، مرجع سابق، ص ٩٤- ٩٥

الكنايس التي في مصر تم بنائها في عهد الصحابة[٩٧].

وفي العصر العباسي أراد الخليفة إبراهيم (تولى بعد المأمون) أن يحمل أعمدة ورخام الكنايس إلى بغداد، ومنها كنيسة مارمينا العجايبي (بمريوط)، وتم قلع بلاط الكنيسة المذكورة بالفعل، ولكن أعادها البابا إلى سابق عهدها[٩٨].

⑪ تعريب الدين والدواوين.. الخنجر الرابع للغة المصرية

في البداية حصل ازدهار للغة المصرية نتيجة لتراجع الاهتمام باللغة اليونانية بعد رحيل معظم الرومان وذيولهم من معظم الجاليات.

كما بدأ يختفي من الوثائق الرسمية الأسامي اليونانية التي أطلقها اليونان والرومان على المدن المصرية، فسطعت أسمائها المصرية من جديد، والتي حافظ المصريون عليها في أحاديثهم، مثل أخميم محل بانوبوليس، والأشمونين محل هيرموبوليس[٩٩]، وهكذا.

ولكن بعد ٦٠ سنة دارت الدائرة على اللغة المصرية لتطحن عظامها من جديد وتعود لرحلة التراجع المؤلمة نتيجة لقرار الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٧هـ- ٧٠٦ م) بتعريب الدواوين لتسهيل فهم الأوراق والمعاملات، ولتسهيل تشغيل العرب في الدواوين والإشراف عليها، فقفزت اللغة العربية إلى مكانة اللغة الرسمية للبلد بدلا من المصرية واليونانية، وانتقلت خلال التعريب مصطلحات وكلمات مصرية ويونانية وفارسية للغة العربية، وفي نفس الوقت بدأت اللغة العربية تتغلغل بين المصريين، خصوصا من يعملون بالدواوين الحكومية أو المعاملات المباشرة مع المسئولين في الزراعة والخراج والتجارة، هذا بخلاف من تعلم العربية لقراءة القرآن بعد اعتناقه الإسلام.

والأهم، أمر الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان بترجمة الإنجيل للعربية لمعرفة هل به ما يمس الإسلام بسوء؛ ما دفع باللغة العربية إلى الكنايس، ولهذا تأثير في تضييع اللغة المصرية أشد من تأثير تعريب الدواوين، لأن قراءة الإنجيل وإلقاء العظات بالمصرية هو ما حفظ اللغة قوية أيام الرومان رغم تنصيب اللغة اليونانية لغة رسمية للبلد وللدواوين، أما تحويل الإنجيل إلى العربية فمعناه اضطرار المصريين المسيحيين إلى تعلم العربية لقراءة الإنجيل وليس المسلمين فقط الذين سيضطرون لها لقراءة القرآن.

وزاد من نشر اللغة العربية أن المصريين العاملين في الدواوين اضطروا لتعلمها ليحافظوا على وظائفهم، في حين أنه أيام الرومان كان عدد المصريين العاملين بالدواوين قليل مقارنة بالرومان واليونان الذين كانوا يحكمون البلاد، فاضطر عدد نادر منهم لتعلم اليونانية، كما ظلت الدواوين في زمن اليونان والرومان تصدر أوراقها أحيانا باللغة المصرية بجانب اليونانية كما رأينا على حجر رشيد.

---

[٩٧]- تاريخ الأقباط، مرجع سابق، ص ٩٨- ٩٩

[٩٨]- تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص ٩٥- ١٠٢

[٩٩]- انظر: مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، سيدة الكاشف، مرجع سابق، ص ١١٢

وانعكس تراجع اللغة المصرية لصالح العربية على الأسماء، فمع اعتناق بعض المصريين الإسلام، أو بعملهم في الدواوين تحت سلطة عربية، تسموا بأسامي عربية، أو ترجموا الأسامي المصرية إلى نفس معانيها لكن بالعربية، مثل "نفرتاري" إلى حلاوتهم، و"مري إتس" إلى حبيبة أبوها و"حتشبسوت" إلى ستهم، و"نب" إلى السيد إلخ، واتخذت بعض المدن والقرى أسماء عربية بدلا من اليونانية أو المصرية، وذلك بفعل إقامة بعض القبايل بها، فتسمت باسمها، لسهولة نطقها بينهم أكثر من الأسماء المصرية واليونانية، ومن باب الشعور بالتفوق، حتى لو كان عدد العرب بها قليل جدا بالنسبة لسكانها، أو حتى عائلة عربية واحدة، فكانت تفرض اسمها على القرية أو النجع، في المقابل ظلت الكثير من أسامي المدن والقرى المصرية على حالها لليوم[١٠٠].

ولكن مع ذلك ظلت اللغة المصرية في عهد الولاة العرب هي لغة حديث المصريين، فخطوات التعريب صارت ببطء السلحفاة، فيقول المقريزي إنه حين قدم المأمون لمصر لإخمادة ثورة ٢١٧ هـ، أي قرب نهاية عصر الولاة، "كان يمشي والتراجمة حوله من كل جنس"[١٠١]، وساويرس بن المقفع يقول في سيرة يوساب بابا الكنيسة إنه كان يكلم القاضي بالقبطية وبعض المسلمين جلوس عند القاضي يفهمون منه ويترجمونها للقاضي،[١٠٢]، وبعض العرب مثل القاضي خير بن نعيم تعلم القبطية فأورد الكندي أنه "كان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها"[١٠٣] ما يؤشر إلى أن العرب سعوا من جانبهم لتعلم المصرية.

وفي ذات الإطار، ظهر في مصر ما عرف بالتقويم الهجري ليحل محل التقويم اليولياني الذي ظهر أيام الاحتلال الروماني، وأصبح المعتمد رسميا وإلى جانبه التقويم القبطي لأجل الزراعة والأعياد والاحتفالات سواء القومية المرتبطة بالنيل والحصاد أو المرتبطة بالكنيسة.

⓬ العدوان على الهرم الأكبر ونهب الآثار

مسلسل نهب الآثار في مصر لم يتوقف طوال فترات الفوضى والاستيطان الأجنبي السابقة كما تابعنا، ولكن الجديد ربما هو محاول هدم الأهرام الكبرى.

فيسجل الرحالة المسعودي المتوفي في القرن ٤ الهجري في كتابه "مروج الذهب" عن اهتمام الناس بالتنقيب عن آثار مصر التي سموها بـ"المطالب"، بحثا عن الكنوز فيقول: "ولمصر أخبار عجيبة من الدقائق وما يوجد من الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الأرض"، وأن ولاة مصر شغفوا بالحفر، ومنهم عبد العزيز بن مروان، وفي زمن الإخشيدي عثروا قرب الأهرام على "مطلب عجيب"، عبارة عن أقباء وحجارة مجوفة وبداخله تماثيل خشبية ورمم بالية، يقصد توابيت وبداخلها المتوفين "إلمومياوات"،

---

(١٠٠)- ينادي اليوم "مثقفون" بتغيير الأسامي المصرية للمحافظات والقرى، مثل المنيا وسوهاج وأرمنت وبوصير، إلى أسامي عربية، أو حتى أوروبية، بدعوى أن أساميها القديمة "غير مفهومة"، وهم بدلا من أن يبذلوا جهدا لمعرفة معانيها المصرية، استسهلوا محوها وتلبيسها أسامي وافدة.

(١٠١)- الخطط المقريزية، ج١، مرجع سابق، ص ٢٣٧

(١٠٢)- تراث الأدب القبطي، شنودة ماهر ويوحنا نسيم يوسف، مؤسسة القديس مرقس لدراسات التاريخ القبطي، ص ٢٥

(١٠٣)- الولاة وكتاب القضاة، أبو عمر الكندي، طبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨، ص ٣٤٩

وكسروها بحثا عما بداخلها، ومعنى كلامه أنهم عثروا على مقبرة[١٠٤]، وحكى المؤرخ أحمد بن يوسف "ابن الداية" في كتابه "المكافئة" أن أحمد بن طولون خصص عمالا للحفر حول الأهرام[١٠٥].

وعن الهرم الأكبر نقل المسعودي في "أخبار الزمان" أن الخليفة المأمون- لما أتى لقمع الثورة المصرية- أحب أن يهدم أحد الأهرام ليعرف ما بها فلم يقدر، فاستعاض عن ذلك بالتكسير في جزء منه لعمل مدخل إليها[١٠٦]، وربمَا هو الثقب الذي يدخل إليه الناس لهرم خوفو الآن، وينقل المقريزي أن بعد نقب الهرم "لم يجدوا فيه غير رمَّة بالية قد أتت عليها العصور الخالية، فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب ما سواه، ويقال إن النفقة على نقبة كانت عظيمة والمؤونة شديدة"[١٠٧]. وستتكرر محاولة هدم الأهرام أيام الأيوبيين ومحمد علي.

⑬ توزيع أرض مصر وخراجها على الأجانب

(نظام المقابلة)

حين تسلم العرب حكم مصر من الرومان كانت معظم الأرض أملاك وإقطاعات ووسيات خاصة لحفنة من الرومان وأتباعهم من بقية الجاليات الأجنبية، وقليل من المصريين، ولما غادر معظم الرومان تركوا أراضي وعقارات واسعة، وتبين من سياسة عمر بن الخطاب أنه في البداية لم يتم تسليم هذه الأراضي إلى الأفراد العرب عند دخولهم، لأنه كان ضد تمليك الجند والقبايل للأراضي ليتفرغوا للحرب والإدارة، على أن يكون لهم نصيبا مفروضا من الخراج، واستثنى من ذلك ابن سندر بأن منحه إقطاعا بلغ ألف فدان دفعة واحدة في منية الأصبع قرب ضاحية الدمرداش الحالية، شرق القاهرة.

وآلت الأراضي التي كان يتملكها أباطرة الرومان والأجانب الراحلون مع الجيش البيزنطي والأراضي التي هجرها أصحابها أو ماتوا إلى الحكومة العربية، ومن يملك من المصريين والأجانب أراضي بقيت معه، وهو ما ترك متنفسا للمصريين في الحركة والرزق، لكن الأمر تغير في عهد عثمان بن عفان، وتملك العرب ومواليهم الوافدين الأرض.

وفي عهد بني أمية أقطعوا أراضي بمحافظة الشرقية لقبيلة عربية، وأقطعوا أراضي أخرى لخواص بني أمية، واستمرت سياسة الإقطاع في عصر العباسيين[١٠٨]، أما إقطاع حق الانتفاع، أو ما سمي بإقطاع الاستغلال، فارتبط بكبار الموظفين طوال حياتهم في المنصب، ولا يحق لهم التصرف فيه بالبيع، ولا يُورث، ولكن في بعض الفترات صار يحق للمنتفع شراءها من الدولة، وعثمان بن عفان أول خليفة يلجأ

---

[١٠٤]- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن المسعودي، المكتبة العصرية، ط١، بيروت، ج٢، ص ٤١٤، وج١ ص ٢٧٥- ٢٧٦
[١٠٥]- المكافأة وحسن العقبى، أحمد بن يوسف الكاتب (ابن الداية)، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة الاستقامة، ص٢٣١
[١٠٦]- أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، أبو الحسن المسعودي، ط ١، مطبعة عبد الحميد حنفي، القاهرة، ص ١٣٨
[١٠٧]- الخطط المقريزية، ج ١، مرجع سابق، ص ٣٣٦
[١٠٨]- انظر: ملكية الإراضي الزراعية في القرن التاسع عشر (رسالة دكتوراة)، د. حمدي الوكيل، مرجع سابق، ص ٩٧

إلى هذا النوع من الإقطاع(١٠٩).

وتم إقطاع خراج مصر بكاملها عدة مرات، وأول من أقطعه في عصر العرب معاوية لمَّا جعل مصر طعمة لعمرو بن العاص في ولايته الثانية على مصر سنة ٣٨ هـ، ومن سنة ٢١٨ هـ سارت الخلافة العباسية على إقطاع خراج مصر للقواد الترك، وأدت كفالة الخراج وإقطاعه لهؤلاء إلى انهيار مالية مصر بسبب اهتمام الكفيل والمقتطع بجمع أكبر قدر من المال، وإهماله عمارة الجسور والترع(١١٠).

وفي أثناء ذلك عاد صغار الملاك إلى نظام مماثل لنظام الحماية الذي شاع في الاحتلال الروماني لما زادت عليهم الضرايب، وهو أنهم ألحقوا أراضيهم بأراضي كبار الملاك لصد أذى الجباه، وأطلق على تلك الوسيلة اصطلاح "التلجئة" أو "الإلجاء"، وهو ما أسفر عن أيلولة تلك الأراضي إلى المالك الكبير(١١١).

وفي العصر العباسي ظهر بقوة نظام التقبيل، وهو أن شخصا يأخذ منطقة لمدة ٤ سنين، ويلتزم بأن يقدم للوالي مبلغا كضرايب عليها دون أن يؤثر على هذا المبلغ أن المحصول جاء كثيرا أو ضعيفا، ويأخذ هو ما يتبقى من عائد المنطقة بعد دفع ما التزم به.

ومجمله لم يكن سوى صورة مماثلة للنظام البيزنطي، وزادت وطأته في عهد أصحاب إقطاع مصر من الأتراك، وسماه العرب نظام "قبالات الأراضي" أو التقبيل، ويشببه بعد ذلك نظام الالتزام في الاحتلال العثماني، وهذا الالتزام يُعرض في مزاد في جامع عمرو بن العاص، ثم صار يقام في جامع ابن طولون.

وتصاعد الأمر- في العصر العباسي أيضا- أن صار نظام التقبيل يشمل إسناد الولاية كلها للوالي، بأن يكون ملزما بتقديم مبلغ معين سنويا يشمل ضرايبها بكل أنواعها بما فيها الجزية، ويأخذ هو ما يزيد عليه، ويتحمل ما ينقص(١١٢)، ولنا أن نتصور أن الملتزم في نظام "قبالات الأراضي" أو إقطاع الولاية كان يلجأ لأي أساليب للضغط على المزارعين وكافة الأهالي لكي يتحصل على مبلغ أكثر من المبلغ الحكومي المقرر عليه ليفوز بربح وفير.

14 نظام السخرة "الليتورجيا"

وتطلق عليه بعض الكتب نظام الالتزامات، وهو منقول من النظام البيزنطي الذي سماه "الليتورجيا"، ويقضي بأن كل محافظة (كورة) ملزمة بتقديم خدمات البناء في مشروعات الدولة، فيكلف أبناء المحافظة بذلك، ومن يرفض تأدية هذه الخدمة الإجبارية عليه أن يقدم بدلا منها أموالا للوالي، وهذا يعني أنها كانت تطحن الفقراء.

وأحيانا يلزم الوالي الموظفين بعدم قبول المال لإعفاء الأشخاص من العمل في حال ما احتاج المشروع

(١٠٩)- انظر: نفس المرجع، ص ٩٦- ٩٨
(١١٠)- مرجع سابق، ص ٨٨
(١١١)- نفس المرجع، ص ٩٤
(١١٢)- انظر: مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، ص ٤٣- ٤٦، والخطط المقريزية، ج ١، ص ٢٣٩- ٢٤٨

لأيدي عاملة كثيرة أو المواد اللازمة، ولو كان المشروع يعود بالمنفعة على المصريين لربما هان الأمر، ولكن معظم المشاريع أيام الرومان أو العرب أو غيرهم من أجانب كانت تصب في جيوب الغزاة.

وفي هذا النظام ثقيل الوطأة على النفس والبدن ألزم الفاتح المصريين بتقديم خدمات شاقة في البناء والإنشاءات وشق الطرق وحفر الترع والقنوات، وصلت أحيانا لدرجة نزع المصري من بلده وتسفيره إلى الخارج للعمل في بناء المساجد والقصور في الشام والحجاز[١١٣].

وينقل الدكتور زكي محمد حسن أستاذ الفنون الإسلامية عن أوراق البردي والمصادر التاريخية أن عمر بن عبد العزيز استعان بالفنانين القبط في إعادة بناء المسجد النبوي في المدينة المنورة، وشيدوا فيه أول محراب في المساجد، كما يقول ابن دقماق والمقريزي[١١٤]، واشتركوا في بناء الجامع الأموي وقصر الوليد بن عبد الملك في دمشق، والمسجد الأقصى في بيت المقدس[١١٥]، ومن غير المعلوم إن كان جميعهم سافروا مرغمين ومسخرين أم كانوا مختارين وبمقابل.

15 تشرد المصريين وعيشة المطاريد

في أول الفتح العربي أخذ المصريون هدنة من الضغوط التي طحنهم فيها الاحتلال الروماني، خاصة مع سياسة عمرو بن العاص المحنكة، غير أنه لاحقا ضجَّ المصريون من كثرة الضرايب التي أثقل الأمويون ثم العباسيون كاهلهم بها، إلى جانب الانحرافات في تطبيق الجزية والاضطهاد الديني في بعض الفترات، ووصل بعض الولاة في الاهتمام بجباية الأموال بكل قسوة حتى شعر المصريون أنهم عادوا لما كانوا عليه تحت حكم الروم من أعباء، وعاد صوت طحن عظامهم يرن ألمًا في القلوب من جديد.

وفي البداية، واجه الفلاحون هذا الوضع بطريقة تعودوا عليها سابقا أيام الروم، فلجأوا إلى رفض دفع الضرايب، أو لجأوا للأديرة وانخرطوا في سلك الرهبنة؛ فقابل الولاة ذلك بفرض ضريبة دينار عن كل راهب، بعد أن كان الرهبان معفيين من الضرايب، وبالحد من التحاق رهبان جدد بالأديرة.

فاختار آخرون العيش "عيشة المطاريد" متخفيا ينتقل من مدينة إلى أخرى في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦ هـ)، خاصة من رفضوا تغيير دينهم، فطاردهم والي مصر عبد الله بن عبد الملك، أخو الوليد، بوسم جباه وأيدي الذين يعثر عليهم في أماكن ليست أماكنهم[١١٦].

واستمرت حركة التخفي في عهد الوالي التالي له، قرة بن شريك، وأخذت شكلا جماعيا، بمعنى فرار العائلة كلها، رجالا ونساء وأطفالا، من محافظة إلى أخرى، وأكثر الفارين من المزارعين، وفي خطاب مرسل من موظف كبير إلى المسئول عن إقامة من وصفهم بالأجانب في الباجاركية يقول عن مواطنين

---

(١١٣)- انظر: مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، مرجع سابق، ص ٤١- ٤٣

(١١٤)- بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية، د.زكي محمد حسن، المجلة الجديدة، العدد رقم ٣، ١-٣-١٩٣٨، ص ٢٦- ٢٧

(١١٥)- الفن القبطي المصري في العصر اليوناني الروماني، لبيب يعقوب صليب، مطبعة قاصد خير، القاهرة، ١٩٦٤، هوامش ص ٩١

(١١٦)- انظر: مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، ص ١٢٥- ١٢٦

جاءوا من الفيوم وأشمون وقوص ليقيموا في كوم أشقوة (بسوهاج): "وقد قررت إبعاد الأجانب في الأجاركية وهؤلاء الأجانب... بلا تأخير، وأقسمت بالله وبمشيئته أنني سأستبعد أي أجنبي من الباجاركية، وسأرى إذا كان سيبقى هناك أم لا، وسأخرجه، فإذا تسلمت خطابي فابحث عن الأجانب المقيمين في الباجاركية الذين كتبت أسماؤهم لأن بعضهم هرب من خمس عشرة سنة، وعلى ذلك فأرسلهم لي بعناية مع رجلي هذا الذي سيعطيك الخطاب وسيسلم هؤلاء الأجانب وليرسلوا معه"، وظهر في القرنين الثاني والثالث الهجريين نظام ربط الفلاح بقريته، وألا يغادرها إلا بتصريح، وكان هذا من أسباب الثورات [١١٧].

وهكذا امتد العقاب التاريخي للمصريين أن يأتي الأجنبي ليصف المصريين في بلدهم بأنهم "أجانب"، ويحدد هو أين يقيموا وأن لا يقيموا، لأنهم قديما لم يعوا الدرس كاملا حين قال إيبو ور عن أسباب سقوط الأسرة ٦: "وأصبح المصريون أجانب وأصبح الأجانب مصريون في كل مكان".

وفي خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦- ٩٩هـ) تشدد مسئول الخراج، أسامة بن زيد التنوخي، في تحصيل أكبر كم من الخراج والجزية؛ وبحسب المقريزي فإنه وسم أيدي الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب وديره وتاريخه، فكل من وجده بغير وسم قطع يده، فزادت الأعباء وكثرة حركة الفرار، وللحد منها، أمر السواحل والمواني والفنادق بعدم إيواء الهاربين، ووضع سجلات للأهالي تشبه البطاقات الشخصية، بحيث أن كل شخص يذهب إلى مكان يكون ملزما بتقديم بطاقته لإثبات هويته ومن أين جاء، ومن لا يقدم بياناته يعاقب[١١٨].

▲▲▲ ثورات المصريين على الاحتلال العربي

وبعد فشل محاولات المصريين للتهرب من الأعباء المالية وسوء المعاملة بتقديم الشكاوى أو بالاختباء في الأديرة أو في محافظات بعيدة، لم يبقَ سوى الثورة على جلاديهم، فقاموا بـ ٨ ثورات على الأقل خلال ١٠٠ سنة قبل أن تخمدهم ضربة فوق طاقة البشر وجهها لهم الخليفة المأمون.

❶ ثورة الحوف الشرقي ١٠٧ هـ.. أول صرخة

نقل المقريزي في خططه أن عبد الله بن الحبحاب، متولي خراج مصر في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، كتب إلى الخليفة بأن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطا، فانتفضت كورة بنو ونمي وقريط وطرابية وعامة الحوف الشرقي بالوجه البحري سنة ١٠٧ هـ، فبعث إليهم الوالي الحر بن يوسف بأهل الديوان (أي قوات الاحتلال العربي) فحاربوهم وقتل منهم بشرا كثيرا، وذلك أول انتفاض القبط بمصر، على حد تعبيره، واستمرت الانتفاضة المصرية عدة شهور، حتى أن الوالي رابط في دمياط ٣ شهور، وانتقلت الانتفاضة إلى الصعيد[١١٩].

---

[١١٧]- الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي، زبيدة عطا، ص ١٢٨ و ١٢٢

[١١٨]- انظر مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، ص ١٢٦- ١٢٨ والخطط المقريزية، ج٣، ص ٧٦٧

[١١٩]- الخطط المقريزية، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٣١

وعقب هذه الثورة أرسل هشام عبد الملك عام ١٠٩ هـ ٣ آلاف من أفراد قبيلة قيس إلى الحوف الشرقي- مركز الثورة- في محافظة الشرقية وسلمهم أرضا ليزرعوها، ويبدو أنه فعل ذلك ليتقوى بهم العرب ضد المصريين، وأن يحل العرب محل من يموت من المصريين في هذه الثورات، أو من يهجر أرضه، وذلك حتى لا يصيب الزراعة ضرر، وأيضا لعمل توازن بين أنواع القبايل وانتماءاتها(١٢٠).

② ثورة الوجه القبلي ١٢١ هـ

ونقل الكندي (عاش في مصر أيام العباسيين) والمقريزي أنه في ١٢١ هـ ثار القبط في الوجه القبلي على موظفي الديوان وحاربوهم، فأرسل إليهم الوالي حنظلة بن صفوان جنود الديوان فقتلوا منهم ناسا كثيرا(١٢١).

③ ثورة سمنود بالوجه البحري ١٣٢ هـ

وبعد ١١ سنة، أي سنة ١٣٢ هـ، خرج قبطي اسمه يحنس في سمنود في الوجه البحري، جمع حوله جيشا وعزم على أن يقاتل والي مصر، فبعث عبد الملك بن مروان إليهم جيشا يقوده موسى بن نصير (فاتح الأندلس) استطاع أن يهزمه ويقتل يحنس في جمع كبير من أصحابه(١٢٢) وفق المقريزي والكندي.

④ ثورة رشيد ١٣٢ هـ

وفي السنة نفسها ١٣٢ هـ ، ثار القبط برشيد على الخليفة مروان بن محمد (آخر خليفة أموي)، وكان دخل مصر فارا من العباسيين، وعاث جنده في البلاد فسادا، فقتلوا جماعة من رجال الدين الأقباط، ونهبوا أموالهم، وسبوا نسائهم، كما أحرقوا ديارات عدة وهدموا كثيرا من الكنايس واعتدوا على الراهبات(١٢٣).

⑤ ثورة سمنود الثانية ١٣٥ هـ

بعد سنين فقط من بدء عصر العباسيين، أطلق المصريون أولى صرخاتهم في وجههم بثورة سمنود ١٣٥ هـ، واختتموها بكبرى ثوراتهم منذ عصر الرومان، وهي الثورة البشمورية، وكانت في ٢١٦ هـ أيام الخليفة المأمون الذي استخدم فيها أبشع وسائل التنكيل والإبادة.

ففي ١٣٥ هـ ثاروا بسمنود تحت زعامة أبو مينا، فبعث إليهم الوالي جيشا حاربهم وأخمد ثورتهم(١٢٤).

⑥ ثورة سخا ١٥٠ هـ

---

(١٢٠)- انظر مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، ص ١٣٦، والخطط المقريزية، ج ١، ص ٢٣٣

(١٢١)- الولاة وكتاب القضاة، أبو عمر الكندي، مرجع سابق، ص ٨١، والخطط المقريزية، ج١، ص ٢٣١

(١٢٢)- نفس المرجعين، الكندي، ص ٩٠، والخطط المقريزية، ج ١، ص ٢٣١

(١٢٣)- الخطط المقريزية، ج١، ص ٢٣١- ٢٣٢، ومصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، ص ١٢١

(١٢٤)- الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، مرجع سابق، ص ٦٥

وفي ١٥٠ هـ، ثار المصريون بسخا في الوجه البحري، وطردوا موظفي الوالي، وساروا إلى شبرا سنباط، وانضم إليهم أهل البشرود، والأوسية، والنجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم المهلبي والي مصر، فعبأ جيشا كثيفا من أهل الديوان وبعثه لمقاتلتهم، فأخذهم المصريون على غرة، وهزموا جيش المهلبي، وقتلوا بعض العرب.

فاضطر الباقون إلى إلقاء النار في معسكرات المصرين لشغلهم عنهم، فلما فعلوا انصرف الجيش العربي المهزوم إلى الفسطاط، وإذ وصلت الأنباء مسامع الخليفة وهاله الأمر وعزل الوالي، وولى مكانه موسى بن علي بن رباح[١٢٥]، وقضى الوالي الجديد على الثورة، وبتعبير المقريزي فإن النصارى اشتد البلاء عليهم واحتاجوا إلى أكل الجيف- ما يدل على فرض العرب حصارا شديدا عليهم، وهدم الوالي الكنايس المحدثة ككنيسة مريم وكنايس حارس قسطنطين[١٢٦].. فقام المصريون بثورة جديدة.

⑦ ثورة بلهيب ١٥٦ هـ

فبعدها بـ ٦ سنوات ثار المصريون عام ١٥٦هـ في مدينة بلهيب، فأرسل هذا الوالي الجند إليهم، فتمكنوا من إخماد الثورة، وقتلوا جماعة من القائمين بها، وعفا عن جماعة[١٢٧]، وكانت بلهيب من المدن التي رفضت التسليم للعرب وقت الفتح، ودخلت في قتال مع الجيش العربي، وأسروا بعض سكانها.

⑧ الثورة البشمورية- الإبادة ٢١٦ هـ

وهدأت أحوال المصريين نحو ٦٠ سنة، حتى ضجوا في عام ٢١٦ هـ بعد أن عاث موظفو الوالي عيسى بن منصور وأتباعه فسادا في أرجاء مصر، وكثر الغلاء، حتى باع بعض الناس أطفالهم- بحسب تعبير ساويرس ابن المقفع- فثار سكان الوجه البحري جميعا، واللافت أنه انضم إلى المصريين من جاورهم من العرب الذين بدأوا يعانون من عبء الخراج الذي اضطروا لدفعه حين تملكوا الأراضي، وذلك بعد أن كانوا يشاركون هم أنفسهم في قتل المصريين إذا ما ثاروا أو احتجوا ضد التحكم العربي.

وأعلن المصريون العصيان وطردوا أتباع الوالي، واحتشد الثائرون فكثر عددهم، وساروا لمقاتلة الوالي، فتجهز عيسى وجمع العساكر والجند، ولكنه هاب الثائرين وضعف عند لقائهم وتقهقر بمن معه، فشجع هذا الثائرين على التقدم إلى الفسطاط، وأخرجوا الوالي منها، وطردوه هو وصاحب الخراج على أقبح وجه[١٢٨].

ولما بلغت الأنباء الخليفة المأمون، ابن الجارية الفارسية مراجل[١٢٩]، أمر قائده التركي "الأفشين"، وكان في برقة، أن يهاجم المصريين من الغرب، ولكن فيضان النيل حال بينه وبينهم، وبعد أشهر خرج لشن الحرب من جديد، وانضم إليه عيسى بن منصور الوالي المطرود، فكثر عدد عسكر الوالي، وأعدوا للقتال عدته، وبدأوا

---

(١٢٥)- الكندي، ص ١١٦- ١١٧، والخطط المقريزية، ج ١، ص ٢٣٢، والثورات الشعبية في مصر الإسلامية، ص ٦٥- ٦٧

(١٢٦)- الخطط المقريزية، ج٣، ص ٧٦٨

(١٢٧)- الكندي، ص ١٩، والمقريزي، ص ٢٣٢، والثورات الشعبية في مصر الإسلامية، ص ٦٥- ٦٧

(١٢٨)- المقريزي، الخطط، ج١، ص ٢٣٢، والثورات الشعبية في مصر الإسلامية، ص ٦٧

(١٢٩)- الدولة العباسية مراحل تاريخها وحضارتها، سوزي حمود، ط ١، دار النهضة العربية، بيروت، ص ٦٨

بمقاتلة أهل تنو وتمي، وهزموهم وأسروا منهم كثيرا، وقتلهم الأفشين، ثم مضى إلى أهل الحوف فقاتلهم وبدد جمعهم، وأسر منهم جماعة كبيرة.

وأكمل طريقه إلى شرقيون من المحلة الكبرى، ولقى الثائرين بمحلة أبي الهيثم فاقتتلوا، وقتل الأفشين قائد الثوار، ثم مضى إلى دميرة فقاتل أهلها وانتصر عليهم، وفي هذه الأثناء خرج عيسى بن منصور إلى أهل تمي أيضا وهزمهم، ومضى الأفشين إلى الإسكندرية، فلقى جماعة من بني مدنج بخربتا، فحاربهم وهزمهم، ثم لقى جماعة أخرى بمحلة الخلفاء فهزمهم وأسر أكثرهم وضرب أعناقهم.

وبعدها ولَّى وجهه شطر الوجه البحري ليقاتل أهل البشرود أو البشموريين في شماله، فلم يستطع أن يتغلب عليهم بسبب كثرة مياه ومستنقعات ووحول المنطقة، والتي لا يعرف طرقها إلا أهلها، فبقيت الحرب سجالا، وحاول بابا الكنيسة، الأنبا يوساب، أن يتوسط بين الطرفين لوضع حد للدماء(١٣٠).

ويحكي ساويرس بن المقفع في "تاريخ البطاركة" أن البابا "يوساب" لما آلمه ما وقع لأولئك الضعفاء الذين لا يقدرون على مقاومة الجيش العباسي، وأنهم باستمرارهم في الثورة فإنهم يختارون الهلاك لأنفسهم كتب إليهم كتابا مملوءا بالخوف عليهم، ويدعوهم للرجوع، فلم يرجعوا، فظل يكتب لهم كل يوم ولا يستجيبون، ورفضوا وساطة الأساقفة الذين ذهبوا إليهم بأنفسهم، وقال: "وحزن البابا يوساب من حدوث الوباء والغلاء وسيف الأعداء، وثار البشموريون على الظلم، وحموا أنفسهم في المستنقعات الشمالية، ورفضوا نداء الباب بالهدوء، وكتب لهم بعدم قدرتهم على محاربة الجيش (العباسي) فلم يسمعوا له".

وامتد غضب الثائرين للأساقفة الذين طالبهم بالهدوء، فيقول ساويرس: ""كما ثار شعب تنيس (بالشرقية) على أسقفهم المدعو إسحق، لعدم حكمته، وكذلك ثار شعب مصر (حي مصر القديمة حاليا) على أسقفهم تادرس"(١٣١).

فلما تحقق الأفشين من إصرارهم على القتال، وفي نفس الوقت عجزه عن النصر السريع عليهم، طلب مددا من الخليفة المأمون، فأتى الخليفة بنفسه على رأس جيش عرمرم، وبعث الرسل إلى كل أرجاء مصر يدعو أتباعه فيها لتتبع الثائرين، وتوجه جيش المأمون إلى بطحا وسخا، وبتعبير الكندي فإن المأمون سخط على الوالي الذي حمَّل الناس فوق طاقتهم(١٣٢)، ولكنه في نفس الوقت دوَّر سيف القتل في الثائرين.

وفيما يخص البشموريين، فقد بدأ باللين، واصطحب معه البطريرك ليهدئهم، ولكنهم أبوا، فأمر بحشد كل من يعرف الطرق والمسالك الخاصة بالمنطقة من أهالي المدن والقرى المجاورة، وهاجمهم واستمات في حربهم حتى قضى على ثورتهم، وأراد المأمون أن يبث الرعب والإرهاب في نفوس المصريين، حتى لا يعودوا للثورة مرة أخرى، فأمر أن يُفعل فيهم أقبح ما يتخيلون، وهو السبي والنفي، فبجانب الحكم بقتل

---

(١٣٠)- الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، ص ٦٥- ٦٨، وتاريخ البطاركة، ساويرس بن المقفع، مرجع سابق، ص ٩٤
(١٣١)- تاريخ البطاركة، ص ٩٣- ٩٤
(١٣٢)- الكندي، مرجع سابق، ص ١٩٢

وأسر الرجال حكم ببيع نساءهم وأطفالهم وفق ما ذكره الكندي والمقريزي[١٣٣]، معتبرا أنهم غنيمة حرب.

وقال ساويرس بن المقفع إن المأمون أيضا أمر بتخريب الكنايس وهدمها، ولما رأى المأمون كثرة القتل أمر برفع السيف، وإرسال من بقي منهم أسرى من الرجال والنساء إلى بغداد[١٣٤]، وأضاف أن من تم اقتيادهم إلى بغداد ظلوا في السجون فترة طويلة، إلى أن أخرجهم إبراهيم أخو المأمون، وبقي منهم البعض في بغداد، وأنشأوا بساتين هناك إلى اليوم (ساعة كتابة ساويرس لكتابه في القرن العاشر الميلادي) وسموهم "البشروديين"، ورجع غيرهم إلى مصر فيما بعد[١٣٥].

واللافت أن المقريزي في ختام حكيه عن الثورة الأخيرة قال متشفيا: "ومن حينئذ أذل الله القبط في جميع أرض مصر، وخذل شوكتهم، فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان، وغلب المسلمون على القرى فعاد القبط من بعد ذلك إلى كيد الإسلام وأهله بأعمال الحيلة واستعمال المكر[١٣٦]".

فالمقريزي- أبوه شامي قدم لمصر من حارة المقارزة ببعلبك للعمل في مصر- يبدو أنه نظر للمصريين كما ينظر إليهم الأجانب المستوطنين في كل زمن، في أنه ليس من حقهم الثورة على المحتلين والمستوطنين المتنعمين في ظل الاحتلال، أو المطالبة بحقوقهم، بالرغم من أنه اعترف في ثنايا كتابه عدة مرات بأن الولاة حمّلوا المصريين ما لا يطاق من الضرايب والاعتداء على الأعراض والكنايس والإذلال في هيئة الزي وغيره.

▼▼▼ سقوط مصر تحت حكم المماليك العبيد لأول مرة

١- الاحتلال الطولوني ٢٥٤هـ - ٢٩٣هـ/ ٨٦٨ م- ٩٠٥م

لم تكن سنة ٢٥٤ هـ هي بداية سقوط مصر في حكم المماليك فقط، بل بداية سقوط الدولة العباسية نفسها، فهي اتبعت أول سطر في وصفة سقوط الدول، وهو أنه بعد التوسع المبالغ فيه يجري حشوها بالأجناس والأعراق والأديان المتصارعة، وتسليم زمامها إليهم.

فتابعنا كيف استعان المعتصم ابن الجارية التركية بأخواله محل العرب في أمور الدولة، وفي أواخر الدولة العباسية سيطر المرتزقة الترك الذين جلبهم خلفاؤه من بطون آسيا؛ انبهارا بقدراتهم العسكرية واستقواء بهم ضد العرب المنافسين، على مناصبها، فصار منهم ولاة الأمصار وقادة الجيوش، ووصل نفوذهم لدرجة إرغام خلفاء على التنازل عن العرش وقتل خلفاء كما فعلوا مع المتوكل والمهتدي[١٣٧].

ومن الولاة الأتراك على مصر "باكباك" فأرسل نائبه التركي أحمد بن طولون، ومعه جيش يساعده،

(١٣٣)-الكندي، ص ١٩٢، الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، ص ٦٩، الخطط المقريزية، ج ١، ص ٢٣٢

(١٣٤)- تاريخ البطاركة، ص ٩٤- ٩٥

(١٣٥)- حين يحذر أحد من خطر توطين هجرات في مصر يرد آخرون بأن مصر طول تاريخها "ملاذ آمن للجميع"، وأن هذا من مزاياها، وهم لا يعلمون- أو يتجاهلون- أنها يوم أن تصبح الملاذ للجميع فهي بالتاكيد لن تكون ملاذا آمنا لأولادها هي؛ لأن الهجرات ستتسلط عليهم يوما حتما.

(١٣٦)- الخطط المقريزية، ج ١، مرجع سابق، ص ٢٣٢

(١٣٧)- انظر: أحمد بن طولون، سيدة إسماعيل كاشف، مرجع سابق، ص ٥٣- ٥٤

وابن طولون أبوه مملوك تركي من منغوليا، رفعته موهبته العسكرية لحرس الخليفة[١٣٨]، واستفرد أحمد بن طولون بالأمر في مصر، مستندا على قوة جيشه، وعلى حسن علاقته برجال الدولة في بغداد لأنه يرسل إليهم الهدايا والعطايا العظيمة، وهي كل ما يهمهم من أمر البلد، وأدار مصر بشكل مستقل، محافظا على الرباط الظاهري بالخلافة، وهو إرسال الجزية والخراج وسك العملة باسم الخليفة.

كما ساعد بن طولون على التمكين لنفسه انشغال الخليفة العباسي بإخماد فتنة كبيرة، عُرفت في التاريخ بثورة الزنج (زنوج جلبهم العرب بكثرة من أفريقيا) في جنوب العراق، واستغلهم الشيعة في إشعال ثورة ضد العباسيين انتهت بدماء وأشلاء نحو نصف مليون قتيل خلال ١٥ سنة، وفي غمارها اتخذ ابن طولون لنفسه عاصمة جديدة أسماها القطائع بجوار الفسطاط، ويرجع الاسم إلى أنه اقتطع لكل فئة من جنوده حيًا فيها لأنهم من أعراق مختلفة، مماليك ترك وسودانيين وروم بلغوا ٥٠ ألفا، وأنشأ فيها مسجد ابن طولون الباقي حتى الآن، ولنا أن نتخيل حجم ما أنفقه من أموال المصريين لشراء هؤلاء المماليك والمرتزقة ليصنع لنفسه مجدا، وكم أنفق لبناء عاصمة جديدة ومسجده الفخم وقصوره التي لم يشهد الناس مثلها منذ قصور البيزنطيين، وكل ذلك في زمن قصير، ومن صور بذخه مع مماليكه ليضمن ولائهم ما نقله الكندي من أنه أرسل لأحد قادته "خلعا وطوق من الذهب"[١٣٩].

وقضى على فتن العلويين الشيعة المختبئين بمصر وغيرهم مثل بغا الأصغر وابن الصوفي، والأخير من نسل علي بن أبي طالب، والعمري، وهو من نسل عمر بن الخطاب، وزعم أنه يدافع عن المسلمين في أسوان ضد النوبيين المسيحيين [غالبا يقصد بالمسلمين في أسوان قبائل عربية وفدت مع الفتح]، فقتلوا خلقا كثيرا في أسوان وإسنا والمنيا في معارك دوافعها قبلية احتلالية نزفت فيها مصر المال والدم لأمور لا تخصها.

واتسمت فترة حكمه بالهدوء، واكتسب ولاء بعض القبايل، ويُذكر له أنه أزال عن كاهل المصريين جزءا من الضرايب الفجة التي فرضها أحمد بن المدبر قبله، واعتنى بالزراعة، وأشرف على مشروعات تنموية، منها إنشاء بيمارستان (مستشفى) لعلاج المرضى مجانا، غير أنه استمر في حصد المال وتكنيزه حتى أنه أنشأ في روضة المنيل حصنا لتأوي إليه أسرته ومعها االكنوز التي جمعها، وكان طائش السيف، يقتل ويحبس الناس بالظن[١٤٠].

ونقل ابن سعيد الأندلسي في كتاب "الدر المكنون في حلي دولي بنى طولون" أن من ضمن الثروة التي تركها ابن طولون ١٠ مليون دينار، و٢٤ ألف مملوكا، و٧ آلاف من الخيول[١٤١].

وبعد وفاته تولى ابنه خمارويه، وهادن الخليفة العباسي المعتضد بالله ليتركه مستقلا بمصر والشام، فزوَّجه

---

[١٣٨]- نفس المرجع، ص ١٧

[١٣٩]- انظر: أحمد بن طولون، مرجع سابق، ٥٤- ٥٩ وص ١٢٥- ١٣٠

[١٤٠]- انظر تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، عمر الإسكندري وأ.ج. سفدج، ط ٢، مكتبة مدبولي سلسلة "صفحات من تاريخ مصر"، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٢٠١- ٢٠٤، وأحمد بن طولون، سيدة كاشف، مرجع سابق، ص ٧١- ٨٤ و ٢٠٠

[١٤١]- أحمد بن طولون، مرجع سابق، ص ١٩٩

ابنته أسماء الشهيرة باسم قطر الندى، وليشتري سكوت الخليفة عنه أرسل معها جهازًا وهدايا بلغت تكاليفها عنان السماء، وكتب المسعودي الذي عاش في عصر الإخشيدي التالي للحكم الطولوني في كتابه "مروج الذهب": "ويُقال إنه حمل معها جوهرا لم يجتمع مثله عند خليفة قط"، ولكثرته اقتطع منه ابن الجصاص المشرف على موكب الجهاز بعضا منه كان سبب غناه، حتى أن السبح كان ينظمها من الجواهر"[١٤٢].

وأصبح الذهب والحرير الذي اصطحبته معها، وصُنعت منهمَا المجوهرات والملابس والأدوات والآثاث والسجاجيد حكايات كالأساطير، تتناقلها الأجيال اللاحقة بانبهار وافتخار، وغنوا لها "الحنة يا حنة يا قطر الندى" دون أن يسألوا أنفسهم من دفع ثمن كل هذا، وكيف كان حال المصريين وقتها وأموالهم تتحول إلى ذهب وحرير، يُرسل هدايا في حفل للزواج، ويبدر على الأرض تدوسه أقدام الولاة والخلفاء والعبيد، والأغرب لو أن بعض المصريين وقتها يتراصون على طريق موكب الجهاز تغلي دماءهم ويتحسرون، وأحفادهم اليوم يتراصون على حافة جنبات التاريخ يكتبون الأشعار ويغنون "الحنة يا حنة يا قطر الندى".

وبهذا كرر خمارويه ما فعله بطلميوس الثاني خلال احتلاله لمصر حين هادن غريمه أنتيوخس ملك سوريا فزوَّجه ابنته برنيقة، وكان والد العروسة هو من يدفع المهر للعريس، ويبدو أن مهر برنيقة كان من الضخامة بحيث لقبت بحاملة المهر.

وبعد هذا الإسراف ترك خمارويه خزانة مصر خاوية[١٤٣]، بحسب سيدة كاشف، وضيَّع ثمار مشاريع أبيه في الصناعة والزراعة، وترك البلاد ليضغط من يأتي بعده على المصريين لتمتلأ من جديد، وينفقها على جواريه وعبيده ورشاويه ومماليكه في جيش مرتزقة جديد.

ويمر بآذننا في هذا المشهد أيضا وبعض المصريين من أساتذة التاريخ والشعراء في الوقت المعاصر يهتفون في كتبهم لقطر الندى وهي تجر خيرات مصر للخارج، ويمجدون هارون الرشيد والمأمون وابن طولون وغيرهم من محتلين عرب وترك، ويحتفون بحكم المماليك للمصريين الأحرار، يمر بآذننا:

حابي:

اسمع الشعب ديون　　كيف يوحون إليه

ملأ الجو هتافـــا　　بحياتَيْ قاتليـــه

أثَّر البهتان فيه　　وانطلى الزور عليه

ياله من ببغـــاء　　عقله في أذنيـــه

ديون:

[١٤٢]- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي المسعودي، ج ٤، مرجع سابق، ص ١٨٧
[١٤٣]- أحمد بن طولون، مرجع سابق، ص ١٣١

حابي، سمعتُ كما سمعتَ وراعني أن الرّميّة تحتفي بالرامي

هتفوا بمن شرب الطلا في تاجهم وأصار عرشهم فراش غرام

ومشى على تاريخهم مستهزئا ولو استطاع مشى على الأهرام(١٤٤)

وبمقتل خمارويه على يد جواريه وخلع ابنه "أبو العسكر جيش"، استعاد الخليفة العباسي المكتفي حكم مصر، ولكنه أرسل إليها فأرسل جيشا بقيادة محمد بن سليمان هزم الجيش الطولوني، ودخل القطائع فدمرها تدميرا، بكل ما تكلفته من عرق وأموال المصريين، تاركا فقط الجامع.

ومع ظهور الدولة العبيدية (الفاطمية) في المغرب وسعيها من وقت لآخر للاستيلاء على مصر، بعثت عيونها وجواسيسها في عباءة الدعاة والتجار والعمال إلى مصر ليستقوا لها الأخبار وينشروا الفتن، حتى تحين لحظة القطاف.

2 الاحتلال الإخشيدي (٣٢٤- ٣٥٨ هـ - ٩٣٥- ٩٦٩ م)

أسس تركي آخر هو محمد بن طغج الإخشيدي ما عُرف باسم الدولة الإخشيدية، لتكون ثاني دولة مستقلة في مصر عن الخلافة بعد الدولة الطولونية، وتوفي الإخشيدي ٣٣٩ هـ، موصيا بالحكم لابنه صغير السن، فصار كافور الحبشي وصيا عليه؛ ما أعطاه فرصة ليكون الحاكم الحقيقي لمصر، وكافور عبد حبشي خصي، اشتراه الإخشيد بـ ١٨ دينار، وتقديرا لذكائه وإخلاصه حرره، وجعله محاربا في جيشه.

واستطاع كافور أن يضم الشام إلى ملك مصر، وعلا شأنه، وصار يُذكر فوق المنابر كالخليفة، وفي ٣٥٥ ه أصدر الخليفة تكليفا رسميا لكافور بالولاية على مصر، وتوفي بعد ذلك بسنتين(١٤٥).

وخلال حكم الإخشيدي وكافور تعرضت مصر لهجمات من جميع النواحي، فهاجمها السودانيون (كوش القديمة) من الجنوب يشنون الغارات على أسوان، وهاجمها العبيديون (الفاطميون) من الغرب بشن الغارات على الواحات، وحاربها الحمدانيون من الشرق، وهدد القرامطة الشيعة قوافل الحج والتجارة في جنوب الشام، وانتهت أغلب هذه الغزوات بالصلح، لكن بموت كافور انفرط العقد، فتصارع الجند مختلفو الأجناس على الحكم، وعمَّ البلد ضنك العيشة حين قلَّ فيضان النيل.. وطابت الثمرة لتسقط في حجر غازي جديد.. ينتصب بأظافره لاهثا سائل اللعاب على الحدود.

هكذا وصل عقاب التفريط في "ماعت"، وفي وحدانية الشعب المصري، أن يحكم مصر عبيد ومماليك ومرتزقة فيصيرون حكاما على أهلها الأحرار.... أما آن لهذا العقاب أن ينتهي؟

---

(١٤٤)- مصرع كليوباترة، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١٠

(١٤٥)- انظر: مصر في عصر الإخشيديين، سيدة إسماعيل كاشف، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٥٥- ٧٢، وتاريخ مصر إلى الفتح العثماني، عمر الإسكندري وأ.ج. سفدج، مرجع سابق، ص ٢٠٦- ٢٠٩

"إن البوابات [الحدود] التي فوقك كبوابات حامية.... إنها سوف لا تفتح للغربيين، إنها سوف لا تفتح للشرقيين، إنها سوف لا تفتح للجنوبيين، إنها سوف لا تفتح للشماليين، إنها سوف لا تفتح لهؤلاء الذين في وسط الأرض، إنها سوف تفتح لحورس [١٤٦]".

(نصوص الأهرام)

"إن الذي يفعل الماعت فذلك الذي يكون بعيدا عن الضلال"، "يحل العقاب دائما بالذي يتخطى قواعدها"[١٤٧].

(الحكيم بتاح حتب في الأسرة ٥)

---

(١٤٦) - القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، مرجع سابق، ص ١٢٥- ١٢٦

(١٤٧)- انظر تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

شاهت وشوشنا.. توهنا بين شين وزين

ولسه ياما وياما ح نشوف كمان

وينفلت من بين إيدينا الزمان(١)

(١)- أغنية مقدمة مسلسل أرابيسك، كلمات سيد حجاب، ألحان عمار الشريعي، غناء حسن فؤاد

المشهد ١٢: الاحتلال العبيدي "الفاطمي"

٩٦٩- ١١٧١ م / ٣٥٨- ٥٦٧ هـ

(الغزو الشيعي)

وسط انشغال الحكام من مماليك ومرتزقة بصراعاتهم نهشت المجاعات مصر، وتخلخلت حدودها، ولانشغال الدولة العباسية أيضا في محاربة البيزنطيين انتهز العبيديون (الفاطميون) المتربصون بمصر الفرصة بعد أن أرسل لهم جواسيسهم من دعاة وتجار استوطنوا البلد وتغلغلوا في الجيش وقصور الحكم ومراكز النفوذ بأنه حانت لحظة الانقضاض.

وبعثوا جيشا لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م، ومعه سفن حربية، ليكون غزوا بريا وبحريا، اقتحم مصر من ناحية الإسكندرية، واستولى عليها، ووصل إلى الجيزة، وهناك هُزم الجيش الإخشيدي، وسقط الحكم في حجر العبيديين.

وهذا أول احتلال يتملك البلد قادما من الحدود الغربية منذ غزوات قبايل شعوب البحر التي هاجمت بالسلاح مصر عدة مرات في الأسرتين ١٩ و٢٠، وفشلت، لكن انتهى أمرها باحتلال مصر أيضا بعد استيطانها كأسرى حرب أو خدم توسلوا لرمسيس الثالث ليبقي على حياتهم ويعيشوا تحت قدميه؛ فسمح لهم، فكان ما هو معروف.

والاحتلال العبيدي هو الغزو الشيعي الأول لمصر لأنه سيأتي فيما بعد غزوات شيعية أخرى، ولكن في أثواب أخرى غير الثوب العسكري، ستظهر لنا في القرنين الـ ٢٠ و ٢١، وستكون الأخبث والأخطر، لأنها خفية لمعظمنا.

▼▼▼ تاريخ العبيديين في التنظيمات السرية

(جهاز التجار والدعاة)

والاسم الحقيقي للفاطميين هو العبيديون نسبة إلى مؤسس دولتهم عبيد الله المهدي الذي ادَّعى أنه الإمام المهدي المنتظر، وأنه من نسل الحسين وفاطمة، ولذا تسموا بالفاطميين وهي نسبة استغلوها لإضفاء هالة على دولتهم التي أقامها في المغرب بعد هجرة أتباعه إليها في زي دعاة وتجار أظهروا الورع والتقوى والشطارة أمام البربر، وليَّنوا قلوبهم ناحيتهم بسرد قصص الاضطهاد وما اعتبروه ظلما تعرضوا له كـ"آل البيت" من العباسيين، حتى حشدوا حولهم الأتباع والأموال من القبايل البربرية كقبيلة كتامة، واستغلوها في إسقاط حكامهم بحروب أهلية تحت خرافة أنهم بهذا ينصرون المهدي المنتظر ويعجلون بنشر العدل في الدنيا، ونصَّبوا عبيد الله إماما، وحسب المقريزي فإنه تلقب بـ"المهدي لدين الله" و"أمير المؤمنين"، ومن رفض الدخول في مذهبه قتله[١].

وكبقية الحركات والدول الشيعية، يكتنف أصول مؤسسي الدولة العبيدية الغموض، فمع إدعائهم نسبتهم إلى آل البيت، فإنهم لم يتركوا دليلا قاطعا حول ذلك، ونقل المؤرخ بن واصل عن مؤرخين معاصرين لهم أن جدهم يهودي، وآخرون قالوا فارسي، خاصة وأنهم يتوقفون عند ذكر الجد الرابع، وما قبله يسمونهم "الائمة المستورين"[٢].

والثابت أنهم ينتمون إلى الحركة الإسماعيلية الشيعية التي اعتمدت في تغلغلها على نشاط مكثف لدعاة سريين انتشروا بأعداد قليلة، ولكن نشطة يقظة لأهدافها في أرجاء البلاد، طويلة النفس، فاستطاعت بأعداد قليلة إسقاط شعوب كبيرة، واشتهر هذا النشاط باسم "تنظيم الدعاة"، يلخص هذا ببراعة المثل المصري الفصيح: "تلاتة لو اتفقو على بلد خربوها"، و"اليد الغريبة تخرب البيوت العامرة"[٣].

وبحسب المقريزي فإن عبيد الله المهدي أرسل أبا عبد الله الشيعي (الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا) إلى المغرب لنشر الدعوة والتمهيد لوصوله، ووصفه المقريزي بأنه "أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول- أي هدمها- وإقامة الممالك العظام من غير مال ولا رجال"[٤]، أي بدون جيوش تابعة لهم في البداية، بل عبر "تنظيم الدعاة" والتجار يحشدون ويجندون جيشا من داخل البلد المستهدفة، من أبنائها، ومن أموالها، ويكلفهم هم بإسقاط حكوماتهم، كنهج الشيعة حتى اليوم.

وهكذا أقام العبيديون دولتهم في المغرب ٢٧٩ هـ/٩٠٨ م- بالتزامن مع حكم الطولونيين في مصر- بعد

---

(١)- انظر: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، المقريزي، تحقيق جمال الدين الشيال، ط٢، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص٥٥-٦٨

(٢)- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين بن واصل، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ص ٢٠٤- ٢٠٥

(٣)- العادات والتقاليد المصرية، جون لويس بوركهارت، ترجمة إبراهيم شعلان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، ص ٩٧ و١٠٨

(٤)- اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، مرجع سابق، ص ٦٨

طول صبر وأناة، وتسليم داعية الراية لدعاة آخرين من بعده، جيل ورا جيل، طوال ١٥٠ سنة.

وباتت الخلافة الإسلامية منقسمة إلى ٣ خلافات ما بين العباسيين في العراق والعبيديين في المغرب والأمويين في الأندلس، موزعة ما بين سنة وشيعة، والسنة منقسمون فيما بينهم (العباسيين والأمويين) والشيعة منقسمون على أنفسهم فيما بعد (قرامطة وفاطميين وزيديين)[٥].

وعلى طريقة اختلاف اللصوص وقتل بعضهم حتى لا تنكشف أسرارهم، تخلص المهدي من أبي عبد الله الشيعي بعد أن طلب أن يشاركه في الحكم ورفض المهدي، وبعد أن بدأت قبايل تشك في أنه المهدي المنتظر، خاصة أنه لم يظهر أي كرامات مما شاعها عبد الله الشيعي حين قال لهم إن المهدي سيحيي الموتى ويجعل الشمس تشرق من الغرب[٦]، بحسب المقريزي، فخشى أن يستغل عبد الله الشيعي ذلك ويكشف سره، فقتله، وقتل بعده كل من شكك فيه.

ولمَّا أن تم لهم المغرب، ولَّى خلفاء المهدي المزعوم وجههم شطر مصر لكثرة خلافاتهم مع قبايل البربر، وطمعا في الغرف من خيرات مصر، ولموقعها الذي يمكنهم إذا ما أصبحت بها عاصمة دولتهم أن يكونوا في قلب البلاد المفتوحة في آسيا وأفريقيا، خاصة وأن عينهم على بغداد، مكررين نفس حلم الدولة الفارسية التي أسقطت بابل في العراق واحتلت مصر لتحقيق حلم إقامة الحكومة العالمية.

واستمر الدعاة يبخون فتنهم في مصر عشرات السنين، حتى قال المؤرخ أبو المحاسن بن تغري بردي إن الديار المصرية "اضطربت في أواخر عهد الإخشيديين بسبب المغاربة أعوان الخلفاء الفاطميين الواردين إليها من المغرب"، واستمال الدعاة نفرا من القواد ووجوه الرعية،، وأرسل إليهم المعز لدين الله- حفيد المهدي المزعوم الذي مات دون أن تمتلأ الأرض عدلا أو تظهر علامات القيامة الكبرى- أرسل من المغرب تعاليم وزعوها وسط من استجاب لهم، وأمرهم أن ينشروها عندما تقترب عساكره من مصر[٧].

ويصف المقريزي أجواء الفتنة وسط ذلك بأن عسكر كافور انقسموا على أنفسهم، وانضم بعضهم إلى فريق الفاطميين، فأرسلوا مكتوبا إلى المعز لدين الله، وصار الناس في مصر في توتر ما بين أنباء تصلهم عن استعداد القرامطة لغزوهم من الشرق، واستعداد الفاطميين لغزوهم من الشرق، وإرسال عسكر كافور الإخشيدي رسائل للفاطميين ليأتوا لمصر من أدلة أن من راسلوا المعز ليأتي ويحتل مصر، ورحبوا به عند مجيئه، كانوا من المرتزقة والمستوطنين الأجانب وليسوا المصريين ولاد البلد.

وتزامن ذلك مع انتشار الانحلال في الطبقة المسيطرة على الحكم والثروة، وضرب المقريزي مثالا بقوله إن ابنة الإخشيد اشترت صبية مغربية بـ ٦٠٠ دينار لتتمتع بها، فلما بلغ ذلك المعز اعتبره علامة انتهاء ملك الإخشيديين، وقال لأصحابه: "إن الغيرة قد ذهبت من نفوس الرجال بمصر حتى إن إمرأة من

---

[٥]- انظر: الدولة الفاطمية تفسير جديد، مرجع سابق، ص ١٢١
[٦]- انظر: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ٦٧- ٦٨
[٧]- انظر: الدولة الفاطمية تفسير جديد، مرجع سابق، ص ١٣٠- ١٣١

بنات ملوكهم تخرج لتشتري لنفسها جارية تتمتع بها، فانهضوا بنا إليهم، فقالوا: السمع والطاعة[٨]".

وظهر في مصر يهودي مستوطن قادم من العراق اسمه يعقوب بن كلس، اعتنق الإسلام- أو تظاهر به- ورقَّاه الحكام في المناصب، ولما اختلف مع الوزير ابن الفرات بعد وفاة كافور سافر سرا إلى المغرب، وقابل المعز، ودعاه إلى غزو مصر، وغالبا كان بن كلس ممن جندهم الدعاة العبيديين قبل الغزو، وكافئه المعز بعد احتلاله لمصر بأن ولَّاه أمر تنظيم الحكومة والدعوة الإسماعيلية، أي أنه تحول أيضا للمذهب الشيعي[٩].

وزيارة بن كلس للخليفة العبيدي في المغرب دليل آخر على أن من استدعى الاحتلال العبيدي، واستقبلوه بالرايات والزينة، كانوا مستوطنين أجانب وليسوا مصريين، فالمصريون أولاد البلد لم يكونوا يعرفون من هم العبيدين، ولا اتصال ولا مصلحة بينهم، وليس هناك أي داعي لكي يفرحوا بقدومهم لمصر، وجاء الخلط بسبب أنه في كتب المؤرخين القدامى كانوا يقولون كلمة "مصريين" على أهل الحكم والسيطرة وسكان العاصمة (مصر القديمة قبل بناء القاهرة) التي تموج بالأجانب من كل جنس، أما أولاد البلد فيقال عنهم حينها القبط والفلاحين.

▼▼▼ الجيش في الاحتلال العبيدي (مرتزقة وعبيد)

وفد العبيديون بجيش من مغاربة قبيلتي كتامة وزويلة مع الصقالبة الروم، ولكن العزيز بالله أراد الحد من نفوذ المغاربة كي لا يبتزونه، خاصة أنه في الأصل ليس منهم، فاستورد مرتزقة أتراك ليزاحموهم الجيش والمناصب، واستجلب المستنصر مرتزقة من السودان لأن أمه جارية سودانية، وجلب خلفاء آخرون بدوا من الحجاز، وكالعادة خلق هذا صراعات دامية بين الأجناس أهلكت الحرث والنسل، وصارت الأصول الأجنبية لأمهات وزوجات الخلفاء تتحكم في اختيار تشكيلة الجيش.

ووصل تدني روح المرتزقة الكريهة إلى درجة أن الترك بقيادة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبي في عهد المستنصر طالبوا الخليفة بزيادة مرتباتهم سنة ٤٦٠ هـ -رغم المجاعة اللي كانت تضرب البلد وقتها- فزودهم من ٢٨ ألف دينار في الشهر لـ ٤٠٠ ألف[١٠]، ورغم الزيادة المهولة، إلا أنهم لم يكفوا عن طلب الزيادة- كعادة المرتزقة عندما يشعرون بأن لهم الكلمة العليا- ونهبوا القاهرة، فلم يجد الخليفة في ميزانية الدولة ما يمنحهم إياه، فأجبروه على بيع ثروته، ووسط ذلك، استغل ناصر الدولة، قائد الترك في جيش العبيديين الظروف لهدم الدولة العبيدية لصالح العباسيين، فانكشف أمره، وخاف الأتراك أن يؤثر ذلك على مصيرهم في مصر فقتلوه في منزله هو وأسرته.

ولقهر نفوذ الترك، رمى المستنصر طوبتهم وطوبة المغاربة والسودانيين، واتجه لعرق جديد، فأرسل سنة

---

[٨]- انظر: اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، مرجع سابق، ص ١٠٠

[٩]- انظر: الدولة الفاطمية تفسير جديد، أيمن فؤاد سيد، ص ١٣٥

[١٠]- للمزيد: انظر الدولة الفاطمية تفسير جديد، ص ٢٠٠- ٢٠١ و٦٦٣- ٦٧٣

٤٦٦ هـ لبدر الجمالي- مملوك أرمني تولي قيادة الجيوش في الشام-، ليتولى ضبط الأمور لما اشتهر به من قوة الإدارة، وطلب أن يصحب معه عساكره الأرمن من الشام ليتقوى بهم، فوافق الخليفة المكسور، وسيأخذ العبيديون في الأرمن مقلبا جديدا كما أخذوه من الترك، فلما دخل الجمالي مع عساكره، عمل حيلة للتخلص من الترك، وقتلهم وطرد العبيد السودانيين من الجيش وطاردهم في المحافظات، وحارب عرب جهينة والتعالبة والجعافرة لمساعيهم السيطرة على الوجه القبلي؛ فخلت له ولجنسه الساحة، وصار المتحكم الأول في رقبة البلد بعد توليه منصب الوزير أمام خلفاء ضعاف(١١).

وحمل الجمالي ألقابا أسبغها عليه الاحتلال العبيدي منها "أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، مجدد القاهرة الفاطمية" توارثتها أجيال حتى سماه البعض "منقذ مصر"، فصار المحتل يوصف بـ"المنقذ"، وما هو إلا منقذ دولة الاحتلال العبيدي من الانهيار ومن فقدانها لمصر بعد المجاعات التي ضربتها والفوضى الناجمة عن صراع الجاليات وإهمال شئون الري.

وماذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكـــا
بها نبطي من أهل السواد ... يُدرّس أنساب أهل الفلا
وأسود مِشفره نصفه ... يقال له أنت بدر الدجى
فما كان ذلك مدحا له ... ولكنه كان هجــو الورى
ومن جهلت نفسُه قدرَه ... رأى غيرُه منه ما لا يَرى(١٢)

♣♣♣ السكان وتعريف المصري في الاحتلال العبيدي

تبدلت كالعادة الطبقة الحاكمة مع الاحتلال الجديد، فسقط العبيد السود التابعين لكافور ليحل هجين عربي مغربي ممثلا في العبيديين وأتباعهم الكتاميين، ثم انضم لهم الأرمن والترك، فيما ظل السكان بنفس الحال التي هم عليها من قبل، المصريون الحقيقيون في الأرياف الواسعة، وندرة منهم في الفسطاط، أما القاهرة- العاصمة الجديدة- فكانت في مساحة حي صغير، ومحرمة عليهم على غيرهم ممن لا ينتمون للطبقة الحاكمة زمنا طويلا.

وكالعادة أيضا فإن الكتب التي تؤرخ لهذه الفترة تركز الضوء على ما يجري في القاهرة والفسطاط والإسكندرية ذوي الأغلبية الأجنبية من السكان، وتصف جيش الاحتلال العبيدي المرتزق بأنه "المصريين"، والعبيديين أنفسهم والجاليات الملونة في القاهرة يوصفون أيضا بالمصريين لمجرد أنهم

---

(١١)- انظر: نفس المرجع، ص ٢٠٦- ٢٠٨
(١٢)- أبيات للمتنبي خلال زيارته لمصر، انظر: مع المتنبي"، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ٢٨٥- ٢٨٦

ساكنين في مصر، ونفس الأمر على سكان الفسطاط التي تحول اسمها إلى "مصر العتيقة"، ثم "مصر القديمة"، فلا نسمع في كتب التاريخ حديثا سوا عن العسكر (مرتزقة الجيش العبيدي)، والعرب، العبيد الترك، والكتاميين، الصقالبة (عبيد من بلاد روسيا)، العجم، المشارقة (أهل الشام)، والأرمن، ومظاهر الفخامة والتبذير في معايشهم، وصليل السيوف بينهم في صراعهم على الغنائم والمناصب، ويرد ذكر المصريين الحقيقيين قليلا في الكلام عن "القبط"، "أهل الزراعة"، "النصارى"، "العامة"، وأكثرهم يوصفون بالفقر، عدا بعض المصريين يعملون في الدواوين والتجارة دخلوا في زمرة الأغنياء.

ويذكر ابن حوقل في القرن الرابع الهجري- وهو القرن الذي شهد وفود الاحتلال العبيدي- أن معظم رساتيق (أي سواد وغالبية) مصر وقراها في الحوف والريف نصارى قبط ولهم البيع الكثيرة والعزيزة الواسعة، وأنهم أهل يسار وذخائر وأموال.

وذكر أبو الصلت أن "سكان أرض مصر أخلاط من الناس مختلفو الأصناف والأجناس، من قبط وروم وعرب وأكراد وديلم وحبشان، وغير ذلك من الأصناف، إلا أن جمهورهم [أكثرهم] قبط.

أما المقدسي الذي زار مصر حينها أيضا فيقول: "إن عامة ذمته نصارى يقال لهم القبط، وإن النصارى يشكلون غالبية سكان القرى في الصعيد، فضلا عن كثير من قرى الفيوم التي غلبوا على سكانها".

وفي المراكز الصناعية، نجد أن القبط غالبية أيضا. فمدينة تنيس التي يقدر الرحالة ناصر خسرو سكانها بـ ٥٠ ألف نسمة شكل القبط أكثر سكانها، كما كانت دمياط يسكنها الكثير من القبط الذين كانت تقع أكثر دورهم على شاطئ البحر، أما شطا، القرية الصناعية الكبرى بين تنيس ودمياط، فأكثر سكانها أقباط، كما أن مدن الصغيد الكبرى كأسيوط وأخميم على سبيل المثال غالبية سكانها من القبط نظرا لما كانت تتمتع به هذه المدن من أهمية صناعية وتجارية في مصر في عهد الاحتلال العبيدي[١٣].

ومعظم هذه المدن تقوم على الصناعات والحرف اليدوية الدقيقة؛ ما يعني أن معظم الصناعات ظلت بيد المصريين، فيما كثر الصناع الأجانب في القاهرة والفسطاط.

وتعني هذه الشهادات المتنوعة أنه حتى بداية الاحتلال العبيدي كان أكثر المصريين كانوا على دينهم السابق لدخول العرب، وإن اختلفت الدكتورة سيدة كاشف مع ذلك وقالت في كتابها "أحمد بن طولون" إن أكثر المصريين صاروا أيام ابن طولون مسلمين لأسباب تخص رغبتهم في التخلص من الأعباء الضريبية أو للاحتفاظ بالوظائف[١٤].

وبعد أن انفتحت القاهرة لسكن بقية الجاليات من غير العبيديين عرفت نظام الحارات مقسمة حسب الأعراق-مثلما فعل العرب بالفسطاط وابن طولون بالقطائع- لعدم قدرتهم على الاندماج، فهناك حارات للروم وبرجوان والديلم والأتراك وكتامة وحلب والشرابية إلخ، واليهود سكنوا حارة الجودريَّة، أما

[١٣]- لمزيد عن تصنيف السكان انظر الفاطميون تاريخهم وآثارهم في مصر، أميرة الشيخ رضا فرحات، كتاب-ناشرون، ص ٣١٦- ٣١٧
[١٤]- أحمد بن طولون، سيدة إسماعيل كاشف، مرجع سابق، ص ٢١٤- ٢١٥

الإسكندرية فسكنها الأجانب المشتغلون بالتجارة من جاليات مختلفة، ولكل جالية فندق خاص بها[١٥].

وفي جملة هذه الحارات وتفصيلاتها المذكورة في خطط المقريزي وغيره لا نجد حارة مخصصة لأولاد البلد الذي بنيت بأموالهم المدينة وتلك الحارات.

وعن حال معظم المصريين ساكني الأرياف يقول المقريزي: "ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا، فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية، إلا أنه لا يرجو قط أن يُباع ولا أن يُعتق، بل هو قن ما بقي ومن ولد له كذلك"[١٦]، وهو وصف قاسي لأن المصريين لم يكونوا عبيدا، لكن يظهر أن الثراء والفخفخة التي ميزت الاحتلال العبيدي المستفيد الأكبر منها الأجانب، وقلة من المصريين العاملين في الدواوين، فيما تدهورت أحوال المصريين في الأرياف عما كانت عليه في الاحتلالات السابقة كأنه ملفوف بمنحنى لا يكف عن الهبوط لأسفل.

وفي عبارة المقريزي أيضا وكتاباته عموما يظهر أن توصيف أهل الريف ومن يذهب منهم للقاهرة بكلمة فلاح انتشرت بقوة أيام الاحتلال المملوكي، واختفى التعبير العربي بكلمة "نبطي".

▼▼▼ نتائج الاحتلال العبيدي

❶ المذهب الشيعي والحركات السرية في نظام الحكم

حين أسقط الملك الفارسي كورش بابل واستعد لاجتياح بقية العالم ليؤسس "الحكومة العالمية" لم يقدم نفسه على أنه محتل غاصب يأخذ ما لا حق له، بل كمحرر للشعوب المستضعفة من حكامها الظالمين- كنهج الفرس الشيعة اليوم- فيقول في "أسطوانة كورش" ببابل: "كانت قواتي تجوب بسلام بابل، ولم يكن لسومر وأكد ما تخشاه، حرصت على توفير الأمان في المدينة وحماية مقدساتها، أما سكان بابل، الذين عاشوا قهرًا لم يكن يجب أن يعيشوه، فقد هدأت من روعهم وحررتهم وحطمت قيودهم"[١٧].

ولما اقترب الجيش العبيدي الشيعي من الإسكندرية وأحس الوزير في مصر جعفر بن الفرات بضعف قوته، خاصة بعد تمرد الجند المرتزقة لقلة أو تأخر مرتباتهم وسط الغلاء، تشاور مع من حوله في تسليم مصر للعبيديين، وانتهت المفاوضات بين ابن الفرات والعبيديين بكتابة العبيديين عهد أمان.

تضمن عهد الأمان أن العبيديين جاءوا "لإنقاذ" مصر من الفوضى، وأنهم سيعيدون لها الأمن ويحاربون الغش وينشرون العدل، ويصلحون الحالة الاقتصادية ويدفعون مرتبات من انقطعت مرتباتهم ويعمرون المساجد، وأنهم لن يفرضوا مذهبهم الشيعي على الناس.

---

(١٥)ـ للمزيد انظر الفاطميون تاريخهم وآثارهم في مصر، مرجع سابق، ص ٣١٧- ٣١٨ ، والخطط المقريزية، ج٢، ص ٣٧٠- ٤١٥
(١٦)ـ الخطط المقريزية، ج ١، مرجع سابق، ص ٢٤٨
(١٧)ـ انظر: كورش الأكبر والتسامح الديني (مقالة)، موقع "تفانا" (فارسي)، مشروع التسامح https://tolerance.tavaana.org/ar

لكن بعض سكان الفسطاط رفضوا عهد الأمان، وأعلنوا أنه: "ما بيننا وبين جوهر إلا السيف"، ووقع القتال وانتهى بهزيمة جنود الفسطاط، فلما وصل الخبر إلى المعز في المغرب أنشده شاعر العبيديين ابن هانئ مكايدة للعباسيين:

يقول بنو العباس: هل فتحت مصر؟ فقل لبني العباس: قد قُضي الأمر

ووجه كلامه للمعز بقول لا يتوافق مع كل ما ادعوه عن صلتهم بنصرة الإسلام:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهـار[١٨]

وكي لا يشعر السكان بوطأة دخول المذهب الشيعي ترك جامع عمرو بن العاص يدرس المذاهب الأربعة كما كان، وأمر ببناء جامع جديد ليكون رمزا للسيادة العبيدية ومذهبها، فكان جامع القاهرة الذي سمى بعد حين بالأزهر.

وتحقق أمل العبيديين في ضعضعة نفوذ الخلافة العباسية، ونتيجة لذلك أمر جوهر الصقلي بالامتناع عن ذكر اسم الخليفة العباسي في المساجد، وأن يُذكر محله العبيدي المعز لدين الله، وصك العملة باسمه، وعلى أحد وجهي العملة (الدينار) يُكتب "لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، عليّ أفضل الوصيين وزير خير المرسلين".. وهي صياغة شيعية، ونقض جوهر الصقلي عهد الأمان الذي أعطاه للناس بعد سنة واحدة، بأن سعى لفرض المذهب الشيعي بتغيير قوانين الميراث وإرغام المساجد على أن تلهج بالدعاء الشيعي ورفع الآذان الشيعي وبتعيين الشيعة في المناصب الكبيرة، وخصوصا القضاة، ليضعوا الأحكام والفتاوى على المذهب الشيعي، وبتعيين المغاربة والشيعة عموما مكان بعض الموظفين القدامى في الوظايف بعد ما عرفوا خباياها.

وأمر أن يضم في الخطبة عبارة: "اللهم صلي على محمد النبي المصطفى، وعلى عليّ المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول اللذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا، اللهم صلي على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهاديين المهديين"، وأن يؤذن في جميع المساجد بـ"حي على خير العمل".. وهي صيغة الآذان عند الشيعة.

كذلك صارت المساجد الكبيرة كعمرو بن العاص وابن طولون منارات للدعوة للشيعة كالجامع الأزهر، وأفرط الشيعة في الاحتفالات المستفزة بشعائرهم، مثل يوم عاشورا والضرب بآلات حادة على الأجساد لإسالة الدماء (التطبير) الذي يخالف الفطرة المصرية، واحتفلوا بيوم الغدير في ١٨ ذي الحجة والذي يدعي الشيعة أن الرسول اختار فيه علي بن أبي طالب خليفة له[١٩].

وخلال هذا وقعت اعتداءات بين الشيعة والسكان بعد أن شعر الشيعة، وخاصة المغاربة، بعز السلطان

---

[١٨]- راجع التفاصيل السابقة في: اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الخلفا، المقريزي، مرجع سابق، ص ٩٧

[١٩]- انظر: الدولة الفاطمية تفسير جديد، مرجع سابق، ١٤١- ١٤٤

والنفوذ، فسعوا لإجبار السكان على المشاركة في احتفالاتهم وطقوسهم، ويضربون في الشوارع من يرفض، وأكبر مواجهة حصلت أيام المعز[٢٠] لما نهب المغاربة أملاك السكان، واغتصبوا ديارهم، وأخرجوهم منها عنوة، فتدخل بعد كثرة شكاوى الناس، ونقل المغاربة خارج القاهرة إلى عين شمس.

وفي عهد العزيز بالله الذي تولى سنة ٣٦٥ هـ اهتم بالمذهب الشيعي، وبأن تكون المناصب الهامة قاصرة على الشيعة، وإلزام الموظفين من غير الشيعة في الوظايف الأقل مكانة بالسير على أحكام المذهب الشيعي، وترتب على ذلك دخول البعض في المذهب الشيعي ليصل إلى المراتب العليا.

واشتدت المحنة بتولى الحاكم بأمر الله ٣٩٠ هـ، وهو أكثر تعصبا للشيعة ممن سبقوه، فأمر بنقش سب الصحابة على جدران المساجد والأسواق والشوارع، وألغى صلاة الضحى والتراويح، وألزم المساجد بقول حي على العمل في الآذان، ولكنه تراجع عن ذلك بعد سنتين لما كثرت شكاوى الناس، فسمح بإنشاء مدرسة للمذهب "السني"، وأصدر مرسوما للتوفيق بين "السنة" والشيعة في أحكام صوم رمضان ورؤية الهلال، وبعد ٣ سنين من الهدوء، عاد أدراجه، فتعصب مجددا للمذهب الشيعي، وأبطل صلاة الضحى والتراويح وفرض عبارة حي على العمل في الآذان، وفي عهد الخليفة الظاهر والخليفة المستنصر اشتدت روح العداء لغير الشيعة، ورجع فرض نقش سب الصحابة في الشوارع.

واستخدم الاحتلال العبيدي الأعياد كسلاح لنشر المذهب الشيعي ولتحبيب الناس في حكمه، مستغلا الخيرات الوفيرة في مصر للإنفاق عليها، حتى سماه البعض "عصر التفاريح"، ومنها أعياد قومية (مصرية بحتة) كعيد النيروز (رأس السنة المصرية)، وأعياد دينية وجدوها كعيدي الفطر والأضحى والقيامة والغطاس، وأعياد أخرى ابتدعوها كالمولد النبوي وموالد فاطمة والحسين وعلي ابن أبي طالب وغيرهم من آل البيت، وأكثروا من بناء المساجد، سواء مساجد كأضرحة لآل البيت- لأول مرة- ليتحلق حولها الناس ويقتربوا من الفكر الشيعي، أو مساجد لتخليد أسامي الخلفا؛ فاتخذت مصر "وجها إسلاميا" لم تكن قد اكتسبته بهذا الشكل من قبل.

واشتهر في تلك الأعياد أنهم يمدون السماط، وهو موائد الطعام، بكل الأطعمة الفاخرة من الذبايح والمشويات والحلوى، ينعم بها كبار رجال الحكم العبيدي، ويقول المسبحي إنه في أزمة سنة ٤١٥ ه/ ١٠٢٥م كبس العامة على القصر يوم عيد النحر صائحين: الجوع الجوع، نحن أحق بسماط مولانا، ونزل عليهم الصقالبة بالضرب، فلم يبالوا، وتهافتوا على الطعام ينهبونه نهبا ويضربون بعضهم بعضا[٢١].

وهكذا ساهم الاحتلال العبيدي في شق المسلمين لشيعي ومسلم كما تسبب الاحتلال الروماني اليوناني في شق المسيحيين إلى أرثوذكسي وكاثوليكي مع ما يجلبه هذا من مذابح وخلافات تعذب الأرواح وتفرق الناس، ومن فضل الله أن هذا الشقاق لم يتوغل في الجسد المصري وظل أثره أشد ما يكون على السطح في

---

(٢٠)- من مظاهر الغفلة التاريخية للمصريين ترك أكبر شارع في حي الأزهر باسم المعز، فغريب مثلا أن يسعى بعض الناس لإزالة أسماء حكام مصريين من المدن مثلما حدث مع الرئيس حسني مبارك لانتشار الفساد في عصرهم، في حين نلتزم بالإبقاء على أسماء المحتلين.

(٢١)- للمزيد انظر: خطط المقريزي، ج١، ص ٣٤٨- ٣٨٨ و٧٣٤- ٧٣٨، والدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، ص ٥٥٨- ٥٧١

وسط الطبقة الحاكمة والمستوطنين الخليط من الأجناس بالفسطاط والقاهرة.

ولكن ظلت له ندبات وتقيحات بشكل آخر، منها الطرق التي ادعت الصوفية ويشرف عليها أشخاص من فارس والمغرب، تنشر الخرافات والتواكل والطاعة العمياء للإمام، ممثلا في شيخ الطريقة، وتنزع الإيمان الحقيقي لتغرس محله القشور والمظاهر، وتكره الناس في مقاومة المحتلين، كما سنرى.

❷ القاهرة.. عاصمة جديدة محرمة على المصريين

اختار جوهر الصقلي تأسيس عاصمة جديدة ليكون بعيدا عن أجناس العرب والترك وغيرهم من سكان الفسطاط والعسكر والقطائع (وسمت هذه المدن على بعضها باسم مصر العتيقة أو القديمة)، فاختار منطقة الأزهر الحالية لتكون سكنا له وللقادمين معه، وتعبأت بالقصور المنيفة التي نافست قصور الخليفة العباسي والإمبراطور البيزنطي والمساجد الفخيمة، فكان بناؤها عبئا جديدا على المصريين، استنزف أموالهم وجهدهم في مدينة لم يستفيدوا منها حينها شيئا، بل كان إقامتهم فيها شبه مستحيلة[٢٢]، فالقاهرة طوال القرن الأول من الاحتلال العبيدي كان محرم دخولها على أفراد الشعب إلا بإذن خاص لأغراض خدمية[٢٣]، وحتى بداية القرن الـ ١٩ ظلَّ من يهرب من المجاعات أو السخرة في الأرياف ويتسلل إلى القاهرة معرض للطرد بقرار رسمي في أي وقت.

❸ إبادة ثلث سكان مصر

شهد الاحتلال العبيدي سلسلة مجاعات لم تذق مرارتها مصر منذ مئات السنين، وأشهرها ما سطره التاريخ باسم "الشدة المستنصرية"، وهي المجاعة العظمى التي حصلت في عهد المستنصر، وظلت ٧ سنوات بداية من ٤٥٧ هـ نتيجة كثرة الصراعات بين الأجناس المختلفة داخل الجيش والصراع على الحكم داخل القصر، والغفلة عن مشاريع الري وتخزين المحاصيل ووضع نظام لتوزيعها وقت الأزمات بالعدل.

وقال ابن وصيف شاه في "جواهر البحور"، والمقريزي في "إغاثة الأمة بكشف الغمة" انتشر الجوع حتى بيع رغيف الخبز بـ ١٥ دينارا، وأُكلت الكلاب والقطط، فبيع الكلب ليؤكل بـ ٥ دنانير، وزادت الحال حتى أكل الناس بعضها بعضا، فكان يجلس الناس على سطوح بيوتهم ومعهم خطاف ليصطادوا المارة ويشرحوا لحمهم ويأكلونهم، وتعذر السير إلا بحراسة، وباع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وأُثاث وسلاح، وجلس على حصير، وذهب وقاره، ونساء القصور يخرجن ناشرات شعورهن تصحن: "الجوع! الجوع!".

ووقفت سيدة في السوق تسخر من المستنصر وتقول فيما معناه إنه بفضل حكمه أصبح قرص الخبز

---

[٢٢]- من علامات الغفلة التاريخية أن المسئولين اختاروا أن يكون العيد القومي لمحافظة القاهرة هو يوم تأسيسها، رغم أنه يعد يوم "تثبيت" الاحتلال العبيدي لمصر، ولا يليق الاحتفال بأي مناسبة فيها انتصار للاحتلال، وكان الأولى اختيار أي مناسبة وطنية شهدتها القاهرة مثل يوم ثورة ١٨٨١ (المشهورة بثورة عرابي) أو ثورة ١٩١٩ اللتين انطلقتا من القاهرة لتحرير البلاد من ليل الاحتلالات الطويل.

[٢٣]- الدولة الفاطمية تفسير جديد، مرجع سابق، ص ٤٩١

بألف دينار، فقرر استخدام الشدة مع التجار الذين يحتكرون القمح، وهددهم بقطع الرؤوس إن استمروا في ذلك، وقطع بالفعل رأس أشخاص أمامهم، فخافوا وأخرجوا ما في مخازنهم وعمرت الأسواق.

وشرح المقريزي أسباب المجاعة، فهي ليس لمجرد نقص فيضان النيل كما هو شائع، بل هي أسباب السقوط والمجاعات في كل زمن، وهي كما قال: "ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان، وقصور النيل، وعدم من يزر ما شمله الري"[٢٤]، إضافة لاحتكار كبار التجار للغلال والدقيق وتخزينه لحصد الربح الحرام، أي أن الأسباب الرئيسية هي ضعف قبضة الدولة المركزية، وظهور مراكز القوى الذين يناطحون الحاكم، والفتن التي ينشرها الدخلاء، وغفلة الدولة عن مشروعات الري ومنع الاحتكار، وأخيرا يكون قصور النيل، فإذا ما قصر النيل ووجد هذه الأسباب حصل الخراب والمجاعات.

ولم يذكر المقريزي بالتفصيل ما حدث للمصريين في الأرياف مثلما وصف ما حدث في القاهرة والفسطاط، والمتوقع أنه كان أشد ألف مرة، فإن كان الحاكم العبيدي بكل غناه باع سلاحه وأثاثه وشكت نساء قصوره الجوع فما المتصور أن يكون حصل للفلاحين الذين لا يملكون هذا ولا ذاك؟

غير أنه أشار إشارة عابرة حين قال: "وتعطلت الأراضي الزراعية"، وما نقله البعض من أن مصر فقدت في هذه الشدة ثلث سكانها[٢٥]، وبما أن معظم السكان في الأرياف فمعظم الضحايا مصريون.

4 العودة للعيشة تحت راية الدماء والاغتيالات

بتبدل الجاليات والمحتلين، فإن القادم الجديد يصدق عليه المثل المصري "الغربال الجديد له شدة"، فيسعى بكل قوته للتمكين لنفسه بكل وسيلة، خاصة في ظل الصراع المحتدم على كعكة البلاد بين الأعراق والأجناس.

وبجلب الأرمن القادمين للسيطرة بدأ ما يسميه مؤرخون "عصر الوزراء"، جعلوا فيه نفوذ الوزاء فوق الخلفاء ويرون أنفسهم أصحاب الفضل في مد عمر الدولة العبيدية بعد الفتن والمجاعات التي لطخت عهد المستنصر، فباتت الاغتيالات والفساد والرشاوى عنوان العصر لحمى التنافس الشديد على منصب الوزير صاحب النفوذ، بل وسادت الاغتيالات في البيت الحاكم نفسه للتسابق على منصب الخليفة، حتى أن بعض الخلفاء قتلوا أولياء العهد الأطفال.

ووصل الأمر إلى أن بعضهم استعان بقوى من الخارج ضد الطرف الآخر، مثل استعانة الخليفة العاضد بنور الدين زنكي في الشام، واستعانة الوزير شاور بالفرنجة المحتلين بيت المقدس.

وتحكم الأرمن في العبيديين كما تحكم الأتراك في العباسيين، فتضخم نفوذ الوزير حتى أن الأفضل بعد أن ورث المنصب من أبيه بَدر الجمالي استبعد نزار من الخلافة بعد وفاة العاضد رغم مخالفة هذا للمذهب

---

[٢٤]- انظر إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٩٨- ١٠٠

[٢٥]- الدولة الفاطمية تفسير جديد، ص ٢٠٥

الإسماعيلي الذي يعطي العرش للابن الأكبر، فتشيع لنزار البعض، وترأس شيعته الحسن بن الصباح الذي جاء من فارس إلى مصر لأهداف مريبة أيام المستنصر، ودخل في صراع مع الجمالي فطرده، وأنشأ في فارس تنظيما سريا دمويا عُرف باسم "الحشاشين"، يعد من أقدم تنظيمات المسيخ الدجال المتخفية بالدين، وعلى فكره وأسلوبه تعيش تنظيمات حاليا كـ"الإخوان المسلمين".

وأسس الحسن الصباح أيضا فرقة شيعية عُرفت باسم النزارية احتضنت الهادي بن نزار بعد فراره إليها في فارس، ولا تعترف بشرعية حاكم مسلم إلا إذا كان من ذرية الهادي هذا، ولها أئمة تقول إنهم من ذريته، وهم أئمة ظاهرين للناس؛ حيث لا تؤمن بمبدأ الإمام الغائب، ومن ذريته أغاخان صاحب المشاريع "الثقافية"، و"الخيرية" في مصر حاليا والهادفة لإعادة نفوذ الشيعة الإسماعيلية وحكم مصر[٢٦].

وبعد وفاة المستعلي بايع الأفضل ابن المستعلي أبو علي في منصب الخلافة ولقب بالآمر بأحكام الله، وكان الأفضل لا يميل للمذهب الشيعي، فألغى الاحتفالات بالمولد النبوي وموالد فاطمة وعلي إلخ، لكن الخليفة الآمر دبَّر مؤامرة وقتل الأفضل، وعين مكانه عبد الله محمد بن البطائحي.

وبعد ١٠ سنين توفى الآمر وابنه ما زال جنينا في بطن أمه، فاختار الجند المرتزقة أبو الميمون ابن عم الخليفة وبايعه كبار القوم كولي للعهد باسم الحافظ لدين الله حتى يتضح إن كان المولود ذكرا أم أنثى، وبعد أن وضعت الزوجة المولود الذكر اختفت بابنها، وقيل إنها فرَّت به خوفا من قتله خلال الصراع على الحكم، وفي فترة لاحقة وجد الطفل مقتولا.

وتولى الوزارة أحمد بن الأفضل الذي منع الحافظ من الحكم وعاش كالسجين، واغتال يانسي الأرمني بن الأفضل، وأخرجوا الحافظ من محبسه، وصار هذا اليوم عيدا للدولة العبيدية حتى زوالها، وعين الحافظ يانسي وزيرا، وقرَّب بني جلدته الأرمن في مناصب الدولة، واستأثروا بجانب كبير من الثروة، فثار عليه منافسوه من بقية الأعراق الوافدة، فهرب إلى أخيه المقيم في الوجه القبلي.

وبعد وفاة الخليفة الحافظ تولى ابنه الظافر وعين نجم الدين بن مصال منصب الوزارة، وحصل بين رجال الدولة العبيدية صراع على منصب الوزير لدرجة أن علي بن السلار والي الإسكندرية والبحيرة توجه بقواته إلى القاهرة ليستولي على المنصب، وهرب ابن مصال ثم قتل، وأخذ بن السلار مكانه؛ فتآمر عليه رجال الخليفة وقتلوه، وعين مكانه أبو الفضل عباس الذي تآمر بدوره على الخليفة وقتله سنة ٥٤٩ هـ، فهاج أنصار الخليفة على أبو الفضل العباس فهرب وقُتل[٢٧].

وهكذا صار عنوان ذلك العصر متعدد الأعراق والملل.. قتل في قتل، وغدر في غدر.

---

[٢٦]- النزارية الإسماعيلية تنتشر في الهند وشرق أفريقيا وأوروبا، وتنشط في التجارة، وترصد أموالا ليكون لها موطأ قدم في بلدان بعينها، وخاصة مصر، مشهور إمامهم بلقب آغاخان الذي تحمل اسمه مؤسسة عالمية تدير مشروعات ثقافية وخيرية في العالم كقوة ناعمة لهم، ويعدونه "إمام المسلمين"، ونظرا لاهتمام الإسماعيلية بأن يكون لهم قدم راسخة في القاهرة، خاصة المناطق المشيدة خلال الاحتلال العبيدي، مولت مؤسسة "آغا خان للعمارة" إنشاء حديقة الأزهر، كما يحتل آغاخان الثالث موقعا مميزا في أسوان على النيل، شيد فيه قبره خلال خضوعه للعلاج في أسوان، ويحصلون على هذه الامتيازات في مصر مقابل مشاريع خيرية وثقافية يشجعها المسئولون دون التفكير في العواقب أو الأهداف البعيدة لهذه المؤسسة التي ترى أن إمامها هو حاكم مصر والعالم.

[٢٧] - المزيد انظر: الدولة الفاطمية تفسير جديد، أيمن فؤاد سيد، ص ٢٢٦- ٢٦٨

تولى الخلافة عيسى الملقب بالفائز بنصر الله وهو طفل عمره ٥ سنين، أصيب بالصرع من هول ما شاهد من مناظر الدماء والقتل في القصر، ومات، وبعد موته تولى العاضد، وهو آخر الخلفاء العبيديين وشهد انهيار دولة زعم مؤسسوها أن جدهم هو الإمام المهدي المنتظر الذي جاء ليملأ الدنيا عدلا ونورا، فكانت الاغتيالات والدماء والفساد والطائفية والتنظيمات السرية والمجاعات والفتن أبرز إنجازاتها.

ولنا أن نتخيل أيضا أحوال المصريين في الأرياف وهذه المطاردات والمعارك تدك قراهم دكًّا، وتسلب أموالهم سلبا؛ لتمويل السلاح وتوزيع المتحاربين الدخلاء الرشاوى لشراء ولاء المرتزقة في المليشيا المتنافسة، وأبو الهول في مكانه العالي بالجيزة يطل على هذا المشهد السخيف من عمر مصر... كأنه يحترق ألما، تنتفض الحجارة بداخله: يا رب.. أما لهذا العقاب من نهاية؟

5 المصريون يكتبون بالعربية محل اللغة المصرية... الخنجر الخامس

في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، يقول شمس الدين المقدسي بعد رحلته إلى مصر أيام الاحتلال العبيدي عما سمَّاه "إقليم مصر": "وعامة ذمته نصارى يُقال لهم القبط"، وعن سكان مصر عموما من مصريين وغير مصريين قال: "لغتهم عربية غير أنها ركيكة رخوة، وذمتهم يتحدثون بالقبطية"[٢٨].

وعلى هذا فإن معظم المصريين كانوا وقت الاحتلال العبيدي يتحدثون اللغة المصرية "القبطية"، ومن يتحدث العربية، مصري أو غير مصري، فبصورة ركيكة.

وفي أواخر القرن الرابع الهجري (١٠ م) تبعاد بعض المصريين المتعلمين عن لغتهم في كتاباتهم، ولو كانت عن تاريخهم؛ فنرى ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين يؤرخ للبطاركة بلغة عربية ركيكة، ويجمع الوثائق القبطية واليونانية ليترجمها إلى العربية، ما يدلنا على أن العربية أصبحت لغة الكلام للمتعلمين من المصريين، خاصة من يريدون أن يكون لهم باع في الثقافة، فكانت ثاني أكبر خطاياهم في حقها بعد خطيئة ترك علامات (حروف) اللغة المصرية واستخدام اليونانية.

فإن كانوا يتحججون باختيار اللغة العربية وقتها لغة للكتابة بأن التحكم في مراكز الثقافة صار بيد الحكام العرب والمستعربين، إلا أنه كان يلزم أن يأخذوا كل وسيلة لحماية اللغة المصرية في نفس الوقت، مثل كتابة القصص والأغنيات الخاصة بكل المناسبات المصرية والأشعار في كل مجال وأحداث التاريخ التي تمر بهم، ليستمر إقبال المصريين عليها، ولا يحبسونها فقط في الشأن الديني حتى انزوت في نصوص دينية أو جافة في الكنيسة.

فكم من جاليات أجنبية احتفظت بلغتها رغم مرور السنين عليها، ورغم عدم تبني الدولة المقيمين فيها للغتهم، فما بالنا بأهل البلد يهملون لغتهم لحجج واهية، وخاصة المتعلمين منهم المفروض أنهم حراس الهوية ومنها اللغة.. إنها كما يقول المثل المصري الفصيح "حجة البليد".

---

[٢٨]- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي المعروف بالبشاري، مكتبة مدبولي، ط٣، القاهرة، ١٩٩١، ص ٢٠٢-٢٠٣

يحكي المسعودي في "مروج الذهب" أن قبطيا عمره ١٣٠ عاما استضافه أحمد بن طولون لما شاع عنه من معرفة بالتاريخ، ومن ضمن ما سؤل عنه: ما بال هذه الكتابة التي على الأهرام والبرابي (المعابد) لا تُقرأ؟

فقال: "دثُر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم، وتداول أرض مصر الأمم، فغلب على أهلها القلم الرومي [اليوناني] وأشكال الأحرف للروم، والقبط تقرؤه على حسب تعارفها إياه، وخلطها لأحرف الروم بأحرفها، على حسب ما ولَّدوا من الكتابة بين الرومي والقبطي الأول، فذهبت عنهم كتابة آبائهم"(٢٩).

فذهبت عنهم كتابة آبائهم.. والآن يعضون أصابعهم بالندم، ويكتفون باتهام المحتل اليوناني والعربي بالمسئولية عن كسر لغتهم، وينسون أنفسهم وتقصيرهم وإهمالهم واستسهالهم في تقليد الأجنبي.

ورغم ذلك لم تعدم اللغة أبنائها، فحصلت صحوة غيورة على اللغة المصرية القرن ١٠ م أيضا؛ فكثرت الكتابة بها خاصة في الدير الأبيض (دير الأنبا شنودة صاحب الصحوة الغيورة على اللغة المصرية أيضا وقت الاحتلال الروماني)، وعثر في نفس القرن على مخطوطة منسوبة خطأ للأنبا صوئيل القلموني تحث بشكل مؤثر على الاهتمام باللغة القبطية(٣٠)، ولكن لم يكن هذا كافيا، لأن معظم الإنتاج باللغة المصرية ظل محصورا في الشأن الديني وقواعد اللغة، ولم يحظ بنفس الاهتمام في تسجيل لغة الحياة اليومية والأحداث والأغاني والمراثي والتاريخ.

وفي ذلك العصر أيضا بدأت في القاهرة بذور ما نسميها الآن اللغة المصرية الحديثة أو الدارجة أو اللهجة المصرية، أو المصرية العامية أو لهجة القاهرة، وستأخذ شكلها الواضح في الاحتلال المملوكي.

وفي ذلك ورد في كتاب "اللهجة المصرية الفاطمية": " فأبناء هذا العصر مزاج مشترك من أبناء الطوائف العربية والقبائل الوافدة ومن أبناء البيئة المصرية الأقباط"(٣١)، وفيها أخذت العربية من المصرية وأخذت المصرية من العربية فخرج الشكل الجديد.

❻ توزيع أرض مصر على الأجانب

طوال عهد الخلفاء الراشدين لم يتملك خليفة أراضٍ في مصر، وبدأ تملك الخلفاء للأراضي منذ عهد معاوية بن أبي سفيان فوجدت له ضياع، واستمر هذا الأمر في العصور التالية ومنها عصر الاحتلال العبيدي الذي توسع خلفاؤه في التملك بشدة.

ومع وجود نظام الملكية الخاصة، فإن الجزء الأكبر من الأرض تملكته الدولة العبيدية بمرتزقتها، وزاد بشكل كبير لكثرة الأوبئة والمجاعات التي حصدت أرواح عدد مهول من المصريين وغير المصريين وآلت أراضيهم للدولة، وبخاصة في عهد المستنصر الذي شهد مجاعتين كبيرتين وحروبا طاحنة بين عسكره.

---

(٢٩)- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي المسعودي، ج ١، مرجع سابق، ص ٢٦٣
(٣٠)- تراث الأدب القبطي، شنودة ماهر ويوحنا نسيم يوسف، مؤسسة القديس مرقس لدراسات التاريخ القبطي، ٢٠٠٣، ص ٢٦
(٣١)- اللهجة المصرية الفاطمية دراسة تاريخية وصفية، عطية سليمان أحمد، ١٩٩٣، نسخة إلكترونية، ص ٢٠٠- ٢٠١

كذلك وجد في ذلك العصر نظام إعطاء الدولة للناس أراضي ليزرعوها بحق الانتفاع لا التمليك، ونظام تأجير أراضي الدولة لمن يزرعها، ونظام أخذ الأرض بوضع اليد[٣٢]، وتوسع نظام الأوقاف، ونظام إقطاع الأرض بنظام التمليك بدون مقابل لأفراد أدوا خدمات للدولة أو كإقطاعات لكبار رجال الدولة العبيدية [٣٣].

وفي نفس الوقت يملك الخليفة الكثير من العقارات والدكاكين، فيقول ناصر خسرو في رحلته إن في القاهرة ٢٠ ألف دكان كلها ملك للسلطان، بخلاف الحمامات[٣٤]... في القاهرة فقط بخلاف ما خارجها.

❼ نزف المصريين الجزية والخراج للأجنبي

لما جاء العبيديون أرادوا استغلال خيرات مصر لأقصى حد، خاصة مع كثرة حروبهم، وميلهم للإسراف والبذخ والمظهرة وبناء القصور والمساجد في أفخم صورة، ففرضوا ضرايب فادحة اشتهرت باسم "المكوس"، بلغت ٨٠ مكسا بحسب المقريزي، وأبدى الرحالة المقدسي خلال زيارته لمصر استغرابه من كثرة وثقلة المكوس بها، وتلغي الدولة العبيدية المكوس أحيانا خلال الأزمات الاقتصادية الطاحنة كالغلاء والمجاعات للتخفيف عن الناس، ثم تعود لفرضها[٣٥].

وظهر في عصرهم نظام "الضمان"، وهو نظام مالي غير شرعي أيضا، يشبه نظام المقابلة أو الالتزام في الزراعة، ويعني أن يلتزم شخص بتقديم مبلغ متفق عليه للدولة عن قيمة الضرايب والمكوس المفروضة على جهة ما، ويأخذ الباقي لنفسه، ويتحمل الفرق إن نقص المبلغ، وهو ما يضع الناس تحت رحمة محصل الضمان[٣٦]، وعلى حس هذه الضرايب والقبالات واستئثارهم بالجزية (اشتهرت باسم الجوالي) والخراج الذي كان يُرسل سابقا للعباسيين، عاش العبيديون عيشة فاقت ما شاع عن هارون الرشيد والأكاسرة والقياصرة، ونثروا ثروة مصر في نشر مذهبهم ونفوذهم وملكهم في الشام واليمن وعمان والحجاز وبغداد والموصل.

ونقل المقريزي عن كتاب "الذخائر والتحف" للقاضي ابن الزبير أن المعز اتخذ لنفسه عرشا فيه من الذهب ما يزن ١١٠ ألف مثقال، و١,٥٦٠ قطعة من الجواهر مختلفة الألوان، وحين حلَّ المعز لمصر استقبله جوهر الصقلي بهدايا وصفها ابن زولاق، منها ١٥٠ فرسا سروجها ولجامها بعضها مذهب وبعضها مرصع، وأواني الذهب والفضة و١٠٠ سيف محلاة بالذهب والفضة[٣٧].

ومما حازه المستنصر، وذكره ابن ميسر والمقريزي، أن ثروته كانت قبل أن يبددها الأتراك ٣٠ مليون دينار من الذهب، وتحف منها سبحة من الأحجار الكريمة، وصناديق من الجواهر و١٢٠٠ خاتم مرصع بالأحجار الكريمة، ومقادير كبيرة من أواني الذهب والصواني المحلاة بالذهب والملابس والأنسجة

---

[٣٢]- انظر: الدولة الفاطمية تفسير جديد، ص ٤٦٧- ٤٧١
[٣٣]-انظر: ملكية الأراضي الزراعية في مصر خلال القرن التاسع عشر، حمدي الوكيل، مرجع سابق، ص ٩٦- ٩٩
[٣٤]- الدولة الفاطمية تفسير جديد، مرجع سابق، ص ٥٢٩
[٣٥]- نفس المرجع، ص ٥١٢
[٣٦]- للمزيد عن نظام الضرايب انظر: نفس المرجع، ص ٥١٧- ٥٢٧
[٣٧]- الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، حسن إبراهيم حسن، المطبعة الأميرية، القاهرة، ص ٢٣٣- ٢٣٤

المطرزة بالذهب، والشطرنج المصنوع من الذهب والفضة، وطاووس من الذهب مرصع بالجواهر النفيسة، وديك من الذهب مرصع باللؤلؤ، بخلاف الأراضي الواسعة والقصور الفخمة والعبيد والأسلحة وخزائن الأثاث والفرش والستائر والسجاجيد، وكلها مشحونة بالحرير والذهب والجواهر[٣٨].

يصف القاضي الفاضل ممتلكات القصر عند سقوط العبيديين: "كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يفي به ملك الأكاسرة، ولا تتصوره الخواطر الحاضرة، ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة، ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة"[٣٩].

أما عن ثروة الوزراء فيضرب لنا ابن منجب مثلا بالوزير يعقوب بن كلس الذي استدعى الاحتلال العبيدي، فيقول إنه أنفق على زواج ابنته ٢٠٠ ألف دينار، ولما مات ترك ثروة بلغت ٤ مليون دينار و٤آلاف من الغلمان و٦٠٠ محظية، وجواهر ثمينة قدرت بـ ٤٠٠ ألف دينار ومن المصوغات ما بلغ قيمته نصف مليون دينار، وأرضا أخذها بنظام الالتزام مقدرة ب ٣٠٠ ألف دينار[٤٠].

وبحسب ابن ميسر، فإن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ظل الكتّاب يحصون في ثروته بعد موته لمدة شهرين، ووجدوا فيها ٦ مليون دينار عينا، وفي بيت الخاصة ٣ مليون دينار، وفي البيت البراني ٣ مليون وربع المليون، و٥٠ أردبا دراهم ورق، و٣٠ راحلة من الذهب العراقي، و١٠ بيوت في كل بيت منها ١٠ مسامير ذهب (خاصة بتعليق العمائم)، و٩٠٠ ثوب ديباج ملون، ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال والضياع الكثير وحتى دواته مرصعة بالجواهر، و٧٠٠ طبق فضة وذهب، و٩٠ ألف ثوب عتابي من الديباج، و٣ خزائن كبيرة ممتلئة بثياب تنيس ودمياط، وغير هذا ما يضيق به المقام، ومجلس الشرب الخاص به فيه ٨ تماثيل لجاريات متقابلات مصنوعة من الكافور والعنبر، ورغم أنها تماثيل لكنها ترتدي أفخر الثياب المحلاة بالحلي وتمسك بأيديها الأحجار الكريمة، والشراب يأتي في صواني الذهب وأواني مملوءة بالجوهر، ورغم ذلك يصفه معاصروه بـ"العدل وحسن السيرة"[٤١].

وحرص العبيديون على إظهار ثرائهم في كسوة الكعبة، فكانت من الديباج الأحمر، وفي حافتها ١٢ هلالا ذهبيا، وداخل كل واحد منها ٥٠ درة في حجم بيضة الحمام وياقو أحمر وأصفر وأزرق، ونقش حافات الآيات بحروف الزمرد الأخضر، وزين الكتابة بالجواهر الثمينة[٤٢]، متخيلين أن الله سيقبل هذا البذخ الذي جُمع بأساليب يدل عليها الحال الموجع لمعظم الفلاحين في الأرياف.

❽ مزاحمة الروح الأجنبية للمصرية في الصناعة والفنون

---

[٣٨]- انظر المرجع السابق، ص ٢٥٣- ٢٥٧
[٣٩]- نفس المرجع، ص ٢٥٩
[٤٠]- نفس المرجع، ص ٢٣٨
[٤١]- الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، مرجع سابق، ص ٢٤٠- ٢٤٢
[٤٢]- نفس المرجع، ص ٢٣٥

مرَّ علينا أن الطابع المصري المميز في فنون العمارة والزخرفة والرسم اختفى كثير منه بغلق المعابد الراعية للفنون، ليطل الطابع اليوناني والروماني برأسه بشكل بارز، غير أن البصمة المصرية في العمارة والفنون لم تُباد، بل ظلت تتردد في عمارة اليونان والرومان، وحين جاء العرب أخذت مساحة أوسع للظهور لقلة خبرتهم بالعمارة والفنون، غير أنه بتولي العبيديين الحكم، فإن إسرافهم في المشاريع العمرانية وخاصة القصور والمساجد والأسوار جعلهم يجلبون مزيدا من الحرفيين والصناع المهرة من مختلف البلدان ليضموا إلى القصور والمساجد أبدع ما جاد به الزمان في كل مكان، فشاع في منشآت وآثار ذلك العصر اللون الفارسي والسامرائي والأفريقي إلى جانب القبطي والبيزنطي.

غير أن العمارة المصرية ظل لها تأثيرها البارز، فدخلت القباب على المساجد، وأول مسجد زين بالقباب مسجد الحاكم بأمر الله، وفيه ٣ قباب، والقباب فن مأخوذة من الفن المصري الذي شاع في بناء الكنايس والمقابر أيام الاحتلال الروماني، ومن هنا نرى أن القباب التي تزدان بها أفخم وأعظم كنائس الدنيا مثل كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية ومسجد الحاكم بأمر الله اقتبسها الفنانون من الفن القبطي[٤٣]، وله جذور في العمارة المصرية الأقدم خاصة تصميمات ما داخل المقابر، مثل القبب النصفية في مقابر بني حسن بالمنيا التي تعود للدولة الوسطى.

⑨ إغراق السوق بالبضايع الكمالية والوكالات الأجنبية

وأغرى الثراء الفادح الخلفاء العبيديين وأعوانهم لإغراق الأسواق بالبضايع الأجنبية الكمالية من كل لون؛ مع ما هو معروف من تأثيره على مراكز الصناعة المصرية، فظهر نوع جديد من الأقمشة منها العتابي القادم من بغداد والسفلاطون القادم من بلاد الروم ينافس صناعة النسيج المصرية.

وفي المقابل، اشتط العبيديون في تحصيل الضرايب من أصحاب مصانع النسيج بمصر حتى أنه في يوم حصلت من تنيس والأشمونين ودمياط ٢٠٠ ألف دينار، فقال المقريزي: "وهذا شيء لم يُسمع قط بمثله في بلد"، وكثر توافد التجار الأجانب من الشام والعراق والمغرب وإيطاليا، وسكنوا الفسطاط والقاهرة والإسكندرية، وتضخم نظام الوكالات التجارية الأجنبية الذي نقله إلى مصر المستوطنون الإغريق في الأسرة ٢٦ كما تابعنا، وملأ هؤلاء مصر بصنوف من البضايع الغريبة استغلالا لجشع رجال الحكم في اقتناء كل ما هو طريف، فيقول ناصر خسرو إن سوق القناديل بالفسطاط "لا يُعرف سوقا مثله في أي بلد، وفيه كل ما في العالم من طرائف".

ولم يكتف التجار الوافدون بحصد الثروات، فتطلعت أعينهم لحصد المناصب لتحصين ثرواتهم، فبعض الشوام عملوا بالقضاء والتجارة معا وورثوا المناصب لأبنائهم، وتيسر لهم هذا بامتيازات قدمها الحكام العبيديون، فيقول ابن المأمون إن الوزير البطائحي أمر ببناء دار وكالة بالقاهرة لمن يصل من الشام والعراق من التجار، وهو ما يوفر لهم تسهيلات في عملهم لا يجد مثلها التجار المصريون، وأتاح لهم هذا

(٤٣)- الفن القبطي المصري في العصر اليوناني الروماني لبيب يعقوب صليب، مطبعة قاصد خير، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٩٤- ٩٥

القدرة على الوصول لمناصب خطرة سريعا، مثل قاضي قضاة مصر[٤٤].

ما سبق عرضه هو كأنه سطر من أطنان كتب تكشف كيف جرى نهب مصر على يد محتليها ومستوطنيها الأجانب في ذلك العصر، وأساليب الدعاية الماهرة التي نشرها الشيعة لتبرير احتلالهم لمصر، مدعين أنهم نشروا في مصر الفخامة والعمارة والفنون والأعياد والاحتفالات، ولا يأتون على ذكر أن هذا كان يخصّ قصور الحكم وأعوانها، فيما المصريون في الأرياف يجري تجاهلهم واستنزافهم سوا على أرض الواقع أو في تجاهل تسجيل أحوالهم وآرائهم فيما يجري في كتب التاريخ.

ومع هذا، تتقافز على الإنترنت هذه الأيام مواقع وصفحات تدعو إلى عودة "الفاطميين" (وبرعاية دولية من إيران وجهات في شمال أفريقيا) لاحتلال مصر، وبعض أساتذة التاريخ والإعلاميين المتولين مهمة تمجيد الاحتلال العبيدي يملأون الشاشات، بل نقلوا هذا التلميع إلى مسلسلات تحبب المصريين فيه، مثل مسلسل "الأزهر الشريف منارة الإسلام[٤٥]" المصروف عليه من أموال المصريين لتمجيد من احتلهم.

حابي:

اسمع الشعب ديون   كيف يوحون إليه

ملأ الجو هتافـــا   بحياتَيْ قاتليـــه

أثّر البهتان فيه   وانطلى الزور عليه

ياله من ببغـــاء   عقله في أذنيـــه

ديون:

حابي، سمعتُ كما سمعتَ وراعني   أن الرّميّة تحتفي بالرامي

هتفوا بمن شرب الطلا في تاجهم   وأصار عرشهم فراش غرام

ومشى على تاريخهم مستهزئا   ولو استطاع مشى على الأهرام(٤٦)

(٤٤)- للمزيد عن الصناعة والتجارة انظر: الدولة الفاطمية تفسير جديد، مرجع سابق، ص ٤٧٢- ٥٠٠

(٤٥)- "الأزهر منارة الإسلام"، تأليف أمينة الصاوي، إخراج أحمد طنطاوي، تمثيل نخبة من الفنانين، إنتاج التلفزيون المصري

(٤٦)- مصرع كليوباترة، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١٠

هداك الله من شعب برئ   يصرفه المضلّل كيف شاء[1]

[1]- مصرع كليوباترا، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١١

المشهد ١٣: الاحتلال الأيوبي

٥٦٩ هـ/١١٧٣م

(المحتل بطلا؟)

سقطت الدولة العبيدية من عليائها لتتحطم قطعا متناثرة تحت ضربات المذابح والاغتيالات والفساد ومؤامرات المرتزقة متعددي الأجناس، وخاتمة فصولها الصراع بين شاور والي الصعيد وضرغام أحد قادة الجند على منصب الوزارة؛ وعجَّل بنهايتهما لجوئهما إلى الاستعانة بأعداءهم الخارجيين؛ فاستعان شاور بنور الدين محمود حاكم دمشق التابع للخليفة العباسي، طالبا منه أن يرسل له قوات تساعده على استرجاع نفوذه في مقابل أن يعطيه ثلث خراج مصر، وقال له: "أكون نائبك بها، وأقنع بما تعيّن لى من الضّياع والباقى لك".

ووافق نور الدين محمود الذي وجدها فرصة سانحة ليضم مصر إلى الشام، وأرسل حملة يقودها الكردي أسد الدين شيركوه، فحاربت ضرغام وقتلته، وأعادت شاور لمنصبه.

لكن شاور خالف وعده لنور الدين، وطلب من شيركوه أن يرجع للشام، واستقوى بالروم بأن بعث لـ "أماريك" ملك بيت المقدس يطلب منه التحالف ضد نور الدين زنكي، ويخوفه من أنه لو نور الدين سيطر على مصر فإن نفوذه سيكبر ويطرد الفرنجة من بيت المقدس، واستجاب له أماريك، وبعث قوات أرغمت شيركوه على العودة للشام، فرد نور الدين بحملة ثانية لمصر سنة ٥٦٢ هـ بقيادة شيركوه اصطحب فيها ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب.

واستنجد شاور بالفرنجة مرة أخرى، فأرسلوا له قوات، ودارت معارك طاحنة على أرض مصر انتهت بانتصار شيركوه، وعيَّن صلاح الدين واليا على الإسكندرية.

ودخول الفرنجة لمصر هيَّج في صدورهم ذكريات سيطرتهم عليها أيام الاحتلال الروماني ومشاهد خيراتها الوفيرة، وطيب العيش في مدنها الساحرة، فقرروا العودة، متشجعين بالصراع بين من يحتلونها، فعاد أماريك على رأس حملة لمصر، ولكن هذه المرة لصالحه وليس لصالح شاور، ونهب بلبيس وسبى

أهلها، فلما قربت من الفسطاط أخلاها شاور من السكان وأحرقها حتى لا تكون مأوى للفرنجة[٢]، وحاصر الفرنجة القاهرة أيضا، وضيقوا على سكانها، فأرسل شاور والخليفة العاضد يستنجدون بنور الدين عارضين عليه أن يأخذ ثلث أرض مصر مقابل ذلك، بخلاف إقطاعات لعسكر شيركوه[٣]، بحسب ما أورده ابن واصل مؤرخ بني أيوب.

ففي البداية كان المزاد منصوبا لمصر فيما يخص خراجها، وعرض شاور على نور الدين محمود زنكي ثلث الخراج، وفي المرة الثانية عرضوا عليه أرض مصر نفسها!

وافق نور الدين خاصة مع خوفه إن وقعت مصر في يد الفرنجة فلن تبقى إماراته في الشام بعيدةعنهم؛ فأرسل حملة جديدة وحاربوا الفرنجة وانتصروا عليهم، وانسحب الفرنجة[٤]، وبزوال الخطر انفض التحالف بين شاور وشيركوه، وعادا لمحاربة بعضهما، وانتهى الأمر بقتل شاور وتولي شيركوه الوزارة، لكنه توفي بعد ٣ شهور، فولَّى الخليفة العاضد محله صلاح الدين، واستمال صلاح الدين من حوله بالعطايا، ووزع المناصب على أتباعه الكرد والترك القادمين معه حتى استفرد بالأمر.

▼▼▼ الجيش في الاحتلال الأيوبي (مماليك- كرد- ترك- عربان)

اعتمد صلاح الدين على بني جنسه في الجيش والحكم، فصارت نيابة السلطنة وإمارات الولايات وقيادة الجيوش في يد الكرد والأتراك، ومال كثير منهم إلى العيش المترف، وغالوا في استعمال الذهب والجواهر والفضة، كما اعتمد على العربان، بحسب المقريزي في كتابه الخطط، وقامت في المقابل جماعة أخرى من العربان بالتعاون مع الإفرنج ضد الأيوبيين، وهاجات بالسلب والنهب في البلاد، فصادر صلاح الدين إقطاعاتهم[٥]، ولكن كان الجيش أقل في تشكيلة الأعراق من زمن العبيديين؛ فقلت الصراعات بين أفراده، على الأقل في عهد صلاح الدين.

وبعد ١١ سنة خرج صلاح الدين من مصر ليقاتل الفرنجة ويطردهم من الشام سنة ٥٧٨ هـ، وهزمهم في معركة حطين، وفي الشام توفى ودفن، وتوزعت الدولة الأيوبية على أهله، العزيز حكم مصر، والأفضل حكم دمشق ووسط سوريا، والظاهر حكم حلب، أما العادل أخو صلاح الدين فحكم العراق في حالة شبيهة بتوزيع الإمبراطورية التي تركها الإسكندر بين قادته.

وكعادة تلك العصور، دبَّ الصراع بين الإخوة وبين الأبناء على السلطة، وسعى بعضهم للاستقواء بالعناصر الأجنبية لعدم ثقته بعائلته، حتى أن الكامل استقوى بالفرنجة على أخيه، وتنازل لهم في المقابل عن بيت المقدس، فكانت بداية نهاية الأيوبيين وفاتحة عصر المماليك عندما فتح نجم الدين أيوب حاكم

---

(٢)- للمزيد: الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، حسن إبراهيم حسن، المطبعة الأميرية، ص ٢٩٣- ٣٠٧ والدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، مرجع سابق، ٢٨٠- ٣٠٠

(٣)- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين بن واصل، تحقيق جمال الدين الشيال، ج ١، دار الكتب والوثائق القومية، ص ١٥٨- ١٥٩

(٤)- تتفنن أفلام ومسلسلات ومناهج الدراسة في تقديم نور الدين محمود وشيركوه ممن كانوا يتعاملون بهذا الشكل مع مصر على أنهم أبطال يجب على المصريين تمجيدهم وليس على حقيقتهم كمجرد طامعين في أرضها كأي احتلال سبقهم ولحقهم.

(٥)- انظر: الحياة الاجتماعية في مصر خلال العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨ هـ/ ١١٧١- ١٢٥٠م)، مرجع سابق، ص ٥٠ و٧٧ و٧٩

مصر باب شراء صغار السن من وسط آسيا، وبأعداد كبيرة، ليربيها على عينه وعلى الولاء التام له.

ولم يكتفِ بأن جعلهم جيشه، بل وزع عليهم مناصب الدولة، فصار العبيد أثرى الناس في مصر، حتى تفاخروا بأنهم عبيدا!، وعزلوا أنفسهم عن السكان، يتكبرون عليهم ولا يختلطون بهم، ولا يتزاوجون منهم، وحرَّموا على المصريين ركوب الخيل بزعم أن ركوبها قاصر على الفرسان والمحاربين[٦].

وبعد وفاة نجم الدين انتفخ طموح زوجته الجارية الأرمنية شجرة الدر لحكم مصر فتآمرت مع المماليك على قتل ابنه توران شاه، وتزوجت من الأمير المملوكي عز الدين أيبك لما رفض الخليفة العباسي تولية امرأة، وارتفع أيبك لعرش السلطان، ولكنها قتلته لما علمت أنه سيتزوج ابنة أمير الموصل[٧].

وانتقاما منها قتلها بعض جواري زوجته أم ابنه وخليفته علي المنصور، وهكذا انتهت الدولة الأيوبية بنفس الطريقة التي انتهت بها الدولة العبيدية وهي حياة البذخ الشديد والصراع الدموي على الحكم، والاستعانة بالمرتزقة، وبخطيئة الاستعانة بالدول الأجنبية.

♣♣♣ السكان وتعريف المصري في الاحتلال الأيوبي

لم يطرأ تغيير كبير على السكان عما كان عليه في الاحتلال العبيدي، إلا بطرد الأرمن والسود، واستيلاء عرق جديد على قمة السلطة والجيش هو الأكراد وأعوانهم الغز، فظل الفلاحون السواد الأعظم من السكان، خاصة في الريف الواسع، الفقر يغلب على معظمهم، فيما برز قليل منهم في دواير السلطة، خاصة من اشتهروا بـ"قبط الدواوين" في المحاسبة وشئون الزراعة التي لم يستطع الاستغناء عن مهارتهم فيها أي احتلال سابق أو لاحق، فطبقة المحتلين تتغير فيما هم مستمرون فتراكمت لديهم الخبرة.

وممن برز منهم ابن ممَّاتي رئيس ديواني الجيش والمال أيام صلاح الدين، وبرز أيضا في الأدب، فهو صاحب كتاب "الفاشوش في حكم قراقوش" ساخرا فيها من قراقوش وزير صلاح الدين بعد خلاف بينهما، ونسج فيها نوادر مرحة منحت قراقوش السمعة المعروف بها الآن[٨]، لكنه اصطدم بمنافسيه وفقد مناصبه.

كما تولى شئون الدواوين نهاية عصر الأيوبيين هبة الله صاعد الفائزى، وكان طبيبا مسيحيا اسمه تادرس، وغيَّر اسمه لما أسلم[٩]، وبحسب الزركلي والمقريزي تدرج حتى أصبح أول وزير قبطي، وكان له ذلك زمن السلطان المملوكي عز الدين أيبك، وساير المماليك في ظلم واعتصار الأهالي بالمكوس، وبعد قتل أيبك قبض عليه سيف الدين قطز لخلاف بينه وبين مماليك المعز، ومات مخنوقا[١٠].

ولفت الرحالة عبد اللطيف البغدادي الشهير بأبو اللباد وزار مصر في بداية الحكم الأيوبي في مؤلفه

---

[٦]- انظر: الخطط المقريزية، ج ٣، مرجع سابق، ص ١٢٢- ١٢٣

[٧]- انظر: تاريخ دولة المماليك في مصر، وليم موير، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، ط ١، مكتبة مدبولي، سلسلة صفحات من تاريخ مصر، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٤٣، والخطط المقريزية، ج ٣، ص ١٢٤- ١٢٥

[٨]- الفاشوش في حكم قراقوش لابن مماتي، عبد اللطيف حمزة، كتاب اليوم، ص ٥٧- ٦٣

[٩]- تاريخ الكنيسة القبطية، منسي يوحنا، مكتبة المحبة، القاهرة، ص ٤٣٧- ٤٣٨

[١٠]- الأعلام قاموس تراجم، خير الدين الزركلي، ج ٨، دار العلم للملايين، ص ٧٢، والخطط المقريزية، ج ٣، ص ١٢٤- ١٢٥

"الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" مقارنة سرعية تظهر الفرق بين حال المحتلين والمستوطنين وحال معظم المصريين ولاد البلد في صورة الأكل، فيصف أكل الأثرياء بقوله إن مما يشمله أنواع الدجاج، وهريسة الفستق، ورغيف الصينية وهو خبز محشي وهو ني بلحم الخرفان والدجاج والبيض ولحم مدقوق وفستق مهروس والأعشاب العطرية والسنبوسك، ثم يوضع في التنور حتى ينضج الخبز والحشوة.

وعن بقية الناس يقول: "وأما عوامهم فقلما يعرفون شيئا من ذلك، وأكثر أغذيتهم الصير والصحناه والدلينس والجبن والذيدة ونحو ذلك، وشرابهم البوظة وهو نبيذ يتخذ من القمح"، والصحناة والدلينس هما الملوحة وأم الخلول، كما أشار لانتشار أكل السمك والرز في وجه بحري[١١].

والفلاحون بجانب الزرع عملوا حينها في الصناعات وبناء المشاريع العملاقة، أحيانا بالسخرة، فكانوا مسخرين في بناء القلعة (قلعة صلاح الدين) وأسوار القاهرة[١٢].

أما الأجانب فكانوا اليهود والترك والعربان والفرس والشوام والكرد والروم والمغاربة في معظمهم، ومنهم الوزراء وعلماء الدين والمحتسبين، والقضاة، وأشهرهم القاضي الفاضل والقاضي بن شداد، كما عمل الأجانب في الصناعات كالنسيج والأغذية، وتركزوا في القاهرة والفسطاط والإسكندرية[١٣].

واستمر أيضا الخطأ في توصيف كلمة مصري، فيذكر ابن شداد رفيق صلاح الدين في "النوادر السلطانية" جيش صلاح الدين بأنه "العسكر المصري"[١٤]، وما كان مصريا بل خليطا من مماليك الترك مع الكرد والعربان، وإن كانت نفقته ومئونته من العروق المصرية.

▼▼▼ نتائج الاحتلال الأيوبي

❶ إسقاط المذهب الشيعي

بالتأكيد لم يسحب شيركوه وصلاح الدين مماليكهم وعائلاتهم إلى مصر لإنقاذ أهلها من المذهب الشيعي أو الاحتلال العبيدي، وإنما للاستحواذ عليها وإسقاط المذهب المنافس للخلافة العباسية المدينين لها بالولاء، ولكن هذه الخطوة جاءت بالفايدة في مصر لأن إلغاء صلاح الدين العمل بالمذهب الشيعي سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م، جمَّد مشروع العبيديين إدخال مصر في سرداب مذهبهم المصطنع، وإن لم يجفف صلاح الدين منابع هذه المشروع تماما، فبقي في عصره فرق شيعية وافدة مثل الإمامية والزيدية والإسماعيلية والنصيرية، بخلاف تشجيعه الطرق الصوفية.

---

(١١)- انظر: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، ط ٢، عبد اللطيف البغدادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١١٨- ١٢٣، والمجتمع المصري في مصر الإسلامية من الفتح العربي وحتى العصر الفاطمي، ج ٢، مرجع سابق، ص ٨٠

(١٢)- الحياة الاجتماعية في مصر خلال العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨ هـ/ ١١٧١- ١٢٥٠م)، مرجع سابق، ص ٦٩

(١٣)-انظر: نفس المرجع، ص ٤٣- ٤٩، و٥٥

(١٤)- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، بهاء الدين (ابن شداد)، تحقيق محمد محمود صبح، مطابع دار الكتاب العربي، ص ٣٤٩

ونصبت الأعلام السود على منابر المساجد ولبس الخطباء اللون الأسود، رمز بني العباس، وأسس صلاح الدين مدرسة لتدريس المذهبين الشافعي والمالكي، وعزل قضاة الشيعة، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة محل الخليفة العبيدي، فكانت هذه إشارة النهاية للدولة العبيدية.

كان الخليفة العاضد يراقب ذلك وهو يشعر بقلة الحيلة، يشاهد المُلك الذي شيده أجداده ينهار ويصير ركاما، وحلم العبيديين بالقضاء على العباسيين ينقلب إلى العكس، فتوفي محسورا، وانهار الاحتلال العبيدي وخرافة إمامهم المهدي بعد حكم ٢١٠ أعوام(١٥)، أما الاحتلال الأيوبي فدام ٩٠ سنة، وهو بذلك من أقصر الاحتلالات لمصر، يقترب في مدته الاحتلال الإنجليزي.

واتبع صلاح الدين إجراءات شديدة لقلع بذرة العبيديين من مصر مُلكا ونسلا، فبعد خطواته المشار إليها في محو المذهب الشيعي من أركان الدولة، استولى على قصور العبيديين وفرقها بين عائلته التي استدعاها من الشام، وبين رجاله، وأخرج منها عائلة الخليفة، وفرَّق بين رجالها ونسائها كي لا يتناسلوا(١٦)، وواجه صلاح الدين تمرد الجنود السودانية والتركمان (الأتراك) وغيرهم من أتباع العبيديين، وأسرة شاور وأسرة رزيك، وحاول عبيدي اسمه عمارة اليمني- قادم من اليمن التي بث فيها العبيديون سموم دعوتهم- إحياء الحكم العبيدي، وقيل إنه استقوى بالفرنجة، وانتهت المعارك بشنق عمارة وعدد كبير من أتباعه، وكي آخرين بالنار في صدورهم ووجوههم.

وقامت ثورات أخرى ضد الأيوبي منها ثورة رجل يدعي الكنز في الصعيد، ووصف ابن شداد في كتابه "النوادر السلطانية"، حماسة جيش العادل أخي صلاح الدين في إخماد هذه الثورة رغم قوتها بأن هذا الجيش "ممن ذاقوا حلاوة البلاد المصرية، وخافوا على فوت ذلك منهم"؛ أي خافوا على ضياع حكمها وخيراتها من أيديهم، وهو الحكم الذي لم يكونوا يحلمون به من سنوات قليلة، فأخذ الثائرين وصلب ٣ آلاف منهم بعمائمهم وطيالسهم على الأشجار بحسب وصف المقريزي.

وهكذا توالت الثورات التي كدرت الحال على صلاح الدين، ولم تهدأ إلا بعد أن أخرج الفرنجة من بيت المقدس، فقدمته هذه المعركة كبطل نصر الإسلام(١٧).

ولم يتضح في رصدها موقف المصريين منها، وهل أيدوا الثائرين ضد بني أيوب وساعدوهم، أم خالفوهم، أم تركوا الأغراب من الجانبين يطحنون بعضهم بعضا، خاصة بعد شدة الإرهاق الذي أصاب الريف من توالي المجاعات والصراعات.

❷ استمرار تحقير المصريين.. عمدا

(١٥)- انظر: الخطط المقريزية، ج ٣، ص ١١٢- ١١٤، والسلوك لمعرفة دولة الملوك، المقريزي، تحقيق سيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، ج ١، ص ١٥٢، ووالدولة الفاطمية تفسير جديد، ص ٢٨٧- ٣٠٧

(١٦)- انظر: الخطط المقريزية، ج ١، مرجع سابق

(١٧)- انظر: قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، وفاء محمد علي، ط ١، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ٦٧- ٧٤

أما ما يخص علاقة الاحتلال الأيوبي بالمصريين والأجانب الغير مسلمين فشاعت إجراءات توصف بالمرونة، خاصة في عهد الكامل، وأخرى بالتشدد موروثة عن عصور سابقة.

فمما أبقوا عليها من عصور سابقة إلزام المسيحيين بشكل محدد من الملابس، منها أن يشد المسيحي الزنار على وسطه، ويلبس عمامة زرقاء، ويعلق الصليب على صدره، والنساء تتبع ألوان محددة أيضا، وفي قدميها تلبس حذاءً في قدم باللون الأبيض والثاني باللون الأسود لتمييزها عن المسلمات، كذلك يُحرم على المسيحي واليهود ركوب الخيل وامتضاء السيف، وتوضع علامات خشبية على بيوتهم لتمييزها عن بيوت المسلمين، ولكن هذا كان لا يتم دائما، وإنما حسب مواقف وأمزجة الحكام[١٨].

واستبعد صلاح الدين الموظفين الغير مسلمين من الدواوين، ثم عاد وأبقى على بعضهم[١٩]، بحسب المقريزي، ومنهم ابن مماتي، ربما خشية أن يتوقف ديوان العمل، فيما أبقى على الكتاب "الغُز" التابعين له- بتعبير المقريزي- أي الترك في الدواوين- وهو ما يعني تضاؤل عدد المصريين في الدواوين سوا مسلمين أو مسيحيين وليس فقط المسيحيين- وكلمة الغُز شاعت بين الناس، لوصف الترك حتى وقت قريب، ومنها المثل المصري "آخرة خدمة الغز علقة"، دلالة على الغدر المتأصل فيهم.

وهكذا ظل المصريون- الندرة منهم التي تستطيع الوصول لمنصب- على جمرة نار وقلقة من أنها يمكن أن تُطرد في أي وقت، ويحل محلها الدخيل الأجنبي بمجرد أن يعقد الحاكم الأجنبي ما بين حاجبيه غضبا من المصري لأتفه سبب.

3 تدمير الأهرام الصغرى والعدوان على هرم سنفرو ونزح الآثار

واصل الأيوبيون مسلسل نهب الآثار المصرية ومحاولات هدم الأهرام الكبيرة، وكأن استنزاف آثار وحضارة مصر وأدلة تميزها يورثها محتل إلى محتل آخر كما يورثه عرش مصر وأموالها.

وإن حصلت اعتداءات وسرقات للآثار والمقابر في أزمنة الحكم المصري القديم، إلا أن الفرق أنه حينها اعتبرت من الجرائم الكبرى، يخضع أصحابها لحساب عسير، فتكون قليلة، أما في عصور الاحتلالات فاعتبر المحتلون والمستوطنون الآثار ضمن "غنائم الحرب والاستيطان"، و"مشروعة" رسميا، بل عمل يرصد له الأباطرة والخلفاء الجهد والوقت لإنجازه؛ فشاعت بشكل لا يستوعبه عقل.

فيحكي عبد اللطيف البغدادي في كتابه "الإفادة والاعتبار" أن صلاح الدين وقراقوش هدما كثيرا من الأهرام الصغيرة [وهي غير الأهرام الثلاثة الشهيرة وأهرام زوسر وسنفرو] لاستخدام كسوتها الحجرية في بناء قلعة الجبل [قلعة صلاح الدين] وسور القاهرة وقناطر الجيزة، وبقي من الأهرام المهدومة قلبها

[١٨]- انظر: الحياة الاجتماعية في مصر خلال العصر الأيوبي، رشا خليل علي (ماجستير) كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ص ٨٦- ٨٩

[١٩]- انظر: السلوك لمعرفة دولة الملوك، المقريزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ج١، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٥٣

وحشوتها، وهي ردم وحجارة صغار لا تصلح للقناطر فتركوها، وكثير منها حاليا في الجيزة[٢٠].

وسعى الملك العزيز (ابن صلاح الدين) في أن يهدم الأهرام الكبيرة بعد أن سوَّل له هذا "جهلة أصحابه" بتعبير البغدادي الذي كان في مصر حينها، وأضاف أن العزيز بدأ بالهرم الصغير الأحمر، فجمع النقابين والحجارين وجمع عظماء دولته وأمر الصناع بخرابه، وأقاموا نحو ٨ أشهر بخيلهم ورجلهم يهدمون كل يوم بعد بذل الجَهد حجرا أو حجرين، فإذا سقط الحجر "سُمع له جلبة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترجف له الجبال، وتزلزل الأرض، ويغوص في الرمل"، فلما طال بهم الوقت وكثرت النفقات "كفوا محسورين مذمومين لم ينالوا بغية ولا بلغوا غاية" إلا أنهم "شوهوا الهرم" وذلك في سنة ٥٩٣ هـ.

ولكنه لم يوضح لماذا أقدم العزيز على هذا، وسأل مقدم الحجارين: "لو بذل لكم ألف دينار على أن تردوا حجرا واحدا إلى مكانه هل كان يمكنكم ذلك؟ فأقسم بالله عالى أنهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم أضعافه"[٢١].

وغير واضح ماذا يقصد بـ"الهرم الصغير الأحمر"، هل هرم منكاورع أم هرم سنفرو المعروف حاليا بـ"الهرم الأحمر"، وهو فعلا بجانبه الآن عدة أحجار كأنها سقطت بفعل زلزال أو بفعل محاولات غير مسبوقة لنزعها منه، وهذه ثاني مرة يرد فيها اعتداء بهذه الصورة على الأهرام الكبيرة بعد محاولة المأمون حين جاء لقمع ثورة ٢١٧ ه، وحاول هدم هرم خوفو، ونجَّاه الله من بين يديه.

وأورد البغدادي حكايات كثيرة في كتابه عن جماعات متخصصة في تخريب الآثار واستخراج جثث الموتى "الموميا" وبيعها في الأسواق للاستفادة مما بداخلها.

ومما تميز به البغدادي في وصفه للآثار أنه لم يردد الخرافات التي ذكرها المؤرخون والرحالة العرب القدامى عن الأهرام، بل نظر لها نظرة علمية ونسبها لبشر عظماء، فقال: "فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلا هي غاية إمكانها حتى أنها تكاد تحدث عن قومها، وتخبر بحالهم، وتنطق عن علومهم وأذهانهم وتترجم عن سيرهم"؛ ولذا "صبرت على مر الزمان، بل على مرها صبر الزمان"[٢٢].

❹ توزيع أرض المصريين على الأجانب

(الإقطاع المملوكي)

ألغى صلاح الدين نظام القبالة (الالتزام) أو (الضمان) وأحل محله الإقطاع الخراجي الذي اعتاد عليه أفراد جيشه الأكراد والأتراك خلال عمله مع السلاجقة في الشام، وعُرف باسم إقطاع الجند، فوزع مدن

(٢٠)- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، مرجع سابق، ص ٨٩- ٩٠
(٢١)- نفس المرجع، ص ٩٤- ٩٥
(٢٢)- المرجع السابق، ص ٩٠- ٩١

مصر وقراها على عائلته والأمراء والجند وكبار موظفيه كأنها ساندويتشات أو حلوى توزع في احتفال توزيع الغنائم، ويعني الإقطاع أن يستلم المقتطع جزء من الأرض ويكون مسئولا عن تحصيل خراجها، والإنفاق منها على بعض الجند وعلى مشاريع الري الخاصة به، ثم يأخذ حصته، فكان الأيوبيون هم فاتحة هذا النظام الكئيب والذي سيستمر عليه الحال في الاحتلال المملوكي على يد المماليك "تربية إيديهم"، واستمر نظام الملكية الفردية إلى جانب الإقطاعات[٢٣].

وبدأ صلاح الدين بتوزيع الإقطاعات في مصر منذ كان نائبا عن نور الدين، ففي ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م استقدم والده نجم الدين أيوب من دمشق فأقطعه الإسكندرية ودمياط والبحيرة، وكان دخل البحيرة وحدها ٤٠٠ ألف دينار، وأقطع أخاه شمس الدولة تورانشاه قوص وأسوان وعيذاب والجيزة وسمنود، وأقطع ابن أخيه تقي الدين عمر بعساكره الخمسمائة البحيرة والفيوم والواحات لسد نفقاتهم وأقطع جزيرة الذهب لضياء الدين الشهرزوري[٢٤].

5 نزف المصريين الجزية والخراج للأجانب

أسقط صلاح الدين المكوس الثقيلة الموروثة من العبيدين، لكن أعاد خلفاؤه فرض مكوس جديدة، ومنها رسوم شد الأحباس وشد المعين ورسم الجراريف لإصلاح الترع والجسور ورسوم الحصاد والكيالة والخفارة التي تولاها البدو العربان وجعلت لهم شوكة وسطوة على الفلاحين بلا وجه حق[٢٥].

وعاد ثقل آخر على المصريين لما عادت تسمى ولاية تابعة للخلافة الخارجية، حيث قام صلاح الدين باستكمال نقل خيراتها إلى الخليفة العباسي ونور الدين محمود في الخارج، وعن هذا قال المقريزي في كتابه "السلوك لمعرفة دولة الملوك": "وعمت بلوى الضائقة بمصر لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا، وعدما فلم يوجدا، ولهج الناس بما عمهم من ذلك، وصاروا إذا قيل دينار أحمر فكأنما ذكرت حرمة الغيور له، وإن حصل في يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له[٢٦].

6 أكل لحوم البشر.. عادة أجنبية؟

يحكي عبد اللطيف البغدادي في "الإفادة والاعتبار" عن مجاعة وقعت لمصر خلال زيارته، حكي عنها المقريزي أيضا في "السلوك لمعرفة دولة الملوك" وهي أبشع صور عن مجاعة شهدتها مصر، لدرجة تهتز لها الأعصاب ويرتجف القلب، فسبحان من أبقى من ذرية المصريين أحياء رغم كل ما حصلهم من إبادات بيد البشر أو الطبيعة.

فبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٥٧ هـ دبَّ الصراع بين ولديه الملك العزيز والملك الأفضل وعمهم الملك

---

(٢٣)ـ انظر: الدولة الفاطمية تفسير جديد، ص ٥٢٠- ٥٢١، وملكية الأرض الزراعية في مصر خلال القرن التاسع عشر، ص ٨١ و٨٩

(٢٤)ـ السلوك في لمعرفة دولة الملوك، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥٣، والحياة الاقتصادية في مصر في العصر الأيوبي، فوزي خالد علي الطواهية، (دكتوراة)، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٨، ص ٨٩- ٩٠

(٢٥)ـ انظر: ملكية الإراضي الزراعية في القرن التاسع عشر، ص ٨٦

(٢٦)ـ السلوك لمعرفة دولة الملوك، مرجع سابق، ص ١٥٢

العادل استغرق سنين وسط كر وفر بين مصر التي يحكمها العزيز والشام التي يحكمها الأفضل والعادل، وانتهى الأمر بفوز العادل بحكم مصر.

ووسط غبار المعارك وانشغال الأيوبيين بها عن تدبير الاقتصاد هبط النيل إلى أقل من ١٢ ذراعا، فعمَّ القحط والجدب والغلاء ٣ سنين ورا بعض، ويقول البغدادي والمقريزي إن أهل الريف هجروا قراهم إلى القاهرة ومصر، وملأوا الشوارع يتساقطون في أرجائها وأزقتها موتى، واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتة والجيف والكلاب والبعر والروث، وتعدى الأمر ذلك إلى أن أكل سكان القاهرة والفسطاط الأطفال؛ فكثيرا ما يُعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل.

ويضيف البغدادي: "ورأيت صغيراً مشويا في قفة، وقد أُحضر إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة يزعُم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما... ورأيتُ صبيا نحو الرهاق مشوياً وقد أخذ به شابان أقرَّا بقتله وشيِّه وأكلِ بعضه"، وحكت له سيدة أنها "بينما تمشي على الخليج أنقضَّ عليها رجل جاف ينازعها ولدها، فترامت على الولد نحو الأرض حتى أدركها فارس وطرده عنها".

"وتجد أطفال الفقراء وصبيانهم ممَّن لم يبقَ له كفيل ولا حارس منبثِّين في جميع أقطار البلاد وأزقَّة الدروب كالجراد المنتشر، ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيَّدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم"، ودخل في أكل لحم البشر جماعة من المياسير (الأغنياء) كشهوة له، وتفشت حيل صيد الناس، حتى يقال للداية أو الطبيب أن المرضى بحاجة لهم فيذهبون فيأكلونهم[٢٧]".

ويتشكك الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المشرف على إصدار طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب من كتاب "الإفادة والاعتبار"، في جنسية من أشاعوا فكرة أكل لحوم البشر في مصر، خاصة وأنها شاعت أولا في القاهرة والفسطاط المكتظتين بالأجانب، ومنهم القادمون من داخل أفريقيا المعروفة بوجود قبايل تأكل البشر، واستدل على ذلك بعبارة وردت على لسان البغدادي أن امرأة "تجرية" ضمن من أكلوا لحوم الناس في المجاعة، وقبايل التجريين قبايل سوداء من أطراف الحبشة، ولكن البغدادي لم يهتم بتقصي أعراق كافة من شاهدهم لاعتياد الرحالة على كثرة الأجانب في القاهرة والفسطاط، بل كانتا مدينتات للأجانب والمصريون فيهما يسمون بالغرباء والرعاع[٢٨]!

وقد يؤيد ما ذهب إليه الدكتور عبد الرحمن أن ما حكاه المقريزي أيضا عن خطف الناس وأكلهم بعد قتلهم في الشدة المستنصرية كان يجري في القاهرة المكتظة بالأجانب والعبيد المجلوبين من مجاهل أفريقيا وآسيا، فيما لم يورد شيئا من هذا في الأرياف على يد مصريين (قبط/فلاحين).

كذلك حين تحدث "إيبو ور" عن الصور الموجعة لآثار المجاعة التي ضربت مصر بعد تفكك الحكم المركزي نهاية الأسرة ٦، فإنه على قدر بشاعتها لم يورد فيها أن المصريين لجأوا لأكل لحوم البشر.

---

[٢٧]- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، عبد اللطيف البغدادي، مرجع سابق، ص ١٣٢- ١٣٦

[٢٨]- انظر: المرجع السابق، ص ١٩

ويواصل البغدادي مشاهداته أنه "وجد بأطفيح عند عطار عدة خوابي مملوءة بلحم الآدمي وعليه الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه، فقال: خفت إذا دام الجدب أن يهزل الناس... وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطَّفون الناس"، كما شاع نبش القبور وأكل الموتى، وشاع القتل خصوصا في طريق الفيوم والإسكندرية (...) ومن كثرة الموتى لا يجدون من يورايهم الثرى، فبقوا حيثما ماتوا".

وحين ينتقل لرصد الأرياف فلا يورد شيئا عن أكل لحوم البشر: "فإنه هلك أهلها قاطبةً إلّا ما شاء الله، وبعضهم انجلى عنها اللهم إلا الأمهات والقرى الكبار كقوص والأشمونين والمحلة ونحو ذلك.. والقرية التي كانت تشتمل على زهاء ١٠ آلاف نسمة تمرُّ عليها فتراها دمنة وربما وجد فيها وربما لم يوجد، والفلاح يموت فوق محراثه...وإن المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخُ ضرمة ويجد البيوت مفتَّحة وأهلها موتى متقابلين (...) فتجد ساكني كل دار موتى فيها الرجل وزوجته وأولاده، قال: ثم انتقلنا إلى بلدٍ آخر ذكر لنا أنه كان فيه أربعمائة دكّان للحياكة فوجدناها كالتي قبلها في الخراب، وأن الحائك ميت وأهله موتى حوله"، كما يقول إنه انعدم الدجاج والبقر والحمير، واستغل تجار الفرصة فاشتروا الدجاج من الشام بأسعار زهيدة وباعوه في مصر بأضعاف، ولما عاد النيل للزيادة بعد ٣ سنين لم يوجد الفلاحين والأبقار والثيران الكافية للزرع، وإن بعض الناس الذين فروا إلى الشام قتلهم من ساعدوهم على الخروج في الطريق[٢٩].

فصدق في المصريين قول عيسى بن دأب، أحد أدباء عصر الخليفة الهادي العباسي، حين سأله أن يحكي له مزايا مصر وعيوبها، فقال له إن من عيوب مصر أنها "تمير ولا تمتار، فإذا أجدبوا هلكوا"[٣٠]، أي تنقذ البلاد من المجاعات ولا ينقذها أحد.

❼ تمجيد جديد للمحتلين

وهو تمجيد لا نرمي به الفلاحين المصريين وقتها، ولم يظهر في ذلك العصر بقدر ما ظهر في العصور الحديثة، بل إن أكثر صناعه ليسوا بمصريين بل شخصيات عربية وكردية، ولكن استسلم بعض المتعلمين لفكرة أنه مدام من يحتل بلادي يشترك معي في اللغة أو الدين "فأهلا مرحب"، وإن استباح أرضي وجعلني في الدرك الأسفل أو مذلولا وكأقل من العبيد و"كل الأجناس".

حظي صلاح الدين الأيوبي بتقدير بين المسلمين لأنه حقق أكبر نصر على الفرنجة في عصره، وساهم في هذا بكتبهم معاصرو الأيوبيين مثل وزيره القاضي الفاضل ومؤرخه ابن شداد، ولكن لم يقفز لدائرة الأسطورة مثلما قفز مع بروز التنظيمات العالمية الساعية لإعادة نظام الخلافة الإسلامية في القرن ٢٠، وتحبيب المسلمين فيها، وتقديمها مخلصا لهم من الاحتلال الأوروبي، مثل تنظيم الإخوان المسلمين والجماعات السلفية، ولمحاربة الروح القومية الوطنية التحريرية التي شاعت في مصر وغيرها ضد الخلافة العثمانلية وتركيا وأي احتلال آخر، كذلك بالغ في تمجيده بعض صناع القومية العربية- حتى أنهم قدموه عربيا أكثر منه كرديا- كرمز لقضية فلسطين- ثم انزلق مصريون في تمجيده كـ"بطل محرر" في

(٢٩)- المرجع السابق، ص ١٣٨- ١٤١

(٣٠)- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي المسعودي، ج ٢، ط١، ص ٢٧٤

فيلم السيما الشهير "الناصر صلاح الدين"، ولم يكن معظم المصريين يعرفونه قبل هذا الفيلم.

والفكرة فيما يخص مصر، أنه إن كان إزاحة يد الفرنجة عن مصر أو القدس أمرا طيبا للمصريين لوجود مقدسات دينية فيها، فبالتأكيد إزاحة المحتل الأجنبي (أيا كان دينه) عن مصر نفسها أمر أطيب وأكثر أولوية، فما معنى أن يأتي شخص يسترد القدس من الفرنجة في حين يضع يديه وقدميه فوق بلدي؟ ويحكمني بما يوافق مصالح عشيرته ومرتزقته وخليفته وليس مصلحة الشعب المصري المكدود؟

إن صلاح الدين- مثله مثل قسطنطين الروماني حين اعترف بالمسيحية، وتيوديوس الروماني حين أوقف اضطهاد المسيحيين في مصر، أو عمرو بن العاص حين أزاح الرومان عن مصر، وغيرهم من حكام أجانب وفاتحين، لم يقدموا للمصريين حرية بلدهم في المقابل، لم يتركوها لهم يديرونها، لم يتركوا لهم ثروتها، لم يعيدوهم فيها أسيادا على كل أجنبي، بل جعلوا كل أجنبي سيدا عليهم، بما فيهم العبيد والجواري، فما أزاحوا احتلالا إلا ليحلوا محله بأساليب معظمها لا يختلف عن الآخر.

وهل يصح أن يقبل المصريون مثلا أن تحرر إيران أو تركيا أو العراق مثلا القدس وتحتل مصر؟ ويستبيحوا بميليشياتهم وأجناسهم وتكبرهم أرض مصر وأهل مصر، وتأتي أجيال تسخر أموالنا وسياسيينا وفنانينا لصنع أفلام سيما تخلد "الخميني"، و"أردوغان" كـ"أبطال محررين" لمصر.... المنكوبة!

حابي:

اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليـه

ملأ الجو هتافـــا بحياتَيْ قاتليـــه

أثّر البهتان فيه وانطلى الزور عليـه

ياله من ببغـاء عقله في أذنيـــــه

ديون:

حابي، سمعتُ كما سمعتَ وراعني — أن الرّميّة تحتفي بالــــرامي

هتفوا بمن شرب الطلا في تاجهم — وأصار عرشهم فراش غــــرام

ومشى على تاريخهم مستهزئا — ولو استطاع مشى على الأهرام [٣١]

---

(٣١)- مصرع كليوباترة، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١٠

حكموكى ما حكموكى

برضه المصرى مصرى   والمملوك مملوكى

إوعى تباتى حزينـــة   يا حـــرة يا زينـــة

لو ربطوا إيدينـــــا   بكره نحرروكـــى

من السلطان والوالى   والعهد المملوكى(١)

"لعنك الله، ولعن اليسرجي الذي جاء بك، ومن باعك، ومن اشتراك، ومن جعلك أميرا"(٢)

(١)- مقدمة مسلسل "علي الزيبق"، كلمات: عبدالرحمن الأبنودى، ألحان: ابراهيم رجب، غناء: المجموعة

(٢)- الشيخ الأزهري علي الصعيدي للأمير المملوكي يوسف بيك نائب محمد أبو الدهب في نهاية القرن ١٨، عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، الجزء٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٨٨٥

المشهد ١٤: الاحتلال المملوكي

١٢٥٠- ١٥١٧ م

(حكم العبيد والجواري الثاني/ القناع الثالث)

بدأ الاحتلال المملوكي الثاني لمصر- لو اعتبرنا أن الحكم الطولوني والإخشيدي والكافوري هو أول حكم المماليك- بتولية عز الدين أيبك حكم مصر بعد زواجه بشجرة الدر التي تآمرت على قتله فتسلم الحكم تلميذه قطز ليقتله زميله بيبرس البندقداري، ويواصلوا دوامة الدماء والاغتيالات التي يعتبرونها عنوان بطولتهم و"فروسيتهم".

فدستورهم هو أن العرش لصاحب السيف المقطر بدماء زملائه، وغايتهم في الحياة القفز قبل الآخر للعرش، وليس مثلهم من طبَّق مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" دون أن يرمش لهم جفن، وهو ما سيكون له أقبح الأثر في حياة المصريين حتى الوقت الحاضر.

فبعد مقتل قطز على يد زميله بيبرس في طريق عودتهم من حرب التتار، وصل المماليك إلى الصالحية شرق القاهرة، ويروي المقريزي في "السلوك لمعرفة دول الملوك"، أن الأمير أقطاي المستعرب الأتابك قال للأمراء عند حضورهم: "من قتله منكم؟" فقال بيبرس: "أنا قتلته"، فقال أقطاي: "يا خوند! اجلس في مرتبة السلطنة مكانه"، فجلس بيبرس وبايعه أقطاي وحلف له وتبعه بقية المماليك[٣]... هكذا، حتى دون سؤاله لماذا قتلته وهو المنتصر على التتار ومُنقذ المماليك أنفسهم من الفناء!

ويزول العجب إذا ما عُرف أن قطز وبيبرس كانا في سباق على من يقتل الآخر، خاصة وأن الاثنين ينتميان لفرقتين من المماليك أعداء لبعضهما، فينتمي قطز لفرقة المعز أيبك، وبيبرس لفرقة فارس الدين أقطاي، وشارك قطز في قتل أقطاي بقلعة الجبل رغم أن أقطاي أنقذ المماليك من هجوم تحالف القبايل العربية عليهم لمجرد أن شأنه علا فوق شأن أميره أيبك، فينقل المقريزي أنه لما استدعى أيبك الأمير أقطاي بخدعة إلى القلعة: "أغلق باب القلعة، ومُنع مماليكه من العبور معه، فخرج عليه جماعة بالدهليز قد أعِدوا لقتله: وهم قطز وبهادر وسنجر الغنمي، فهبروه بالسيوف حتى مات"[٤]، فليس بعجيب أن يقتل بيبرس قطز غدرا كما قتل قطز أميره أقطاي غدرا، خاصة لما رأى بيبرس أن شأن قطر علا فوقه، وكما سيقتل المماليك بن قلاوون أيضا رغم انتصاره على الفرنجة.

---

[٣]- - السلوك لمعرفة دولة الملوك، تقي الدين المقريزي، ج ١، تحقيق سيد عبد الفتاح عاشور، مرجع سابق، ١٩٧٢، ص ٥٢٠

[٤]- السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين المقريزي، ج ١، ص ٤٨٣

وصنف مؤرخون بيبرس على أن من أفضل الحكام المماليك، فكان أنه خفف الضرايب التي فرضها من قبله، واهتم بمشاريع الري وكري الترع، إضافة للاهتمام المملوكي المعروف ببناء المساجد والمدارس الدينية، وخاض معارك مع الفرنجة "الصليبيين" والمغول كان النصر حليفه في معظمها، وأعاد تشغيل الجامع الأزهر بعد أن تعطل ١٠٠ سنة منذ سقوط العبيديين[٥].

لكنه لا يتوانى عن الغدر والاستهانة بالأرواح والأنفس- كطبيعة جنسه- مثلما فعل مع قطز، ومع الخليفة العباسي المستنصر لما تركه للمغول خشية أن يطمع في مصر، وما فعله بمغيث الأيوبي، حاكم الكرك بالشام، بأن تركه يموت جوعا في القاهرة بعد أن أعطاه المواثيق والأيمان المغلظة على أن يعطيه الأمان إذا جاءه[٦]، ووصفه شمس الدين الذهبي بقوله: "كان الملك الظاهر نعم الملك، لولا ما كان فيه من الظلم وأخذ أموال الرعية بغير الحق"[٧].

فإن كان هذا هو أفضلهم.. فكيف يكون حال أسوأهم؟

ويجيب على هذا المقريزي حين أفتى علماء بحرمة التدريس والصلاة في المدرسة المنصورية لأن السلطان المملوكي قلاوون أخذ أرضها غصبا من أسرة أيوبية وسخَّر الصناع بالقهر في بنائها وهدم قلعة الروضة التي بناها الأيوبيون ليبني بأعمدتها المدرسة، فقال المقريزي إن ما فعله قلاوون من ظلم وغصب هو نفس ما فعله الأيوبيون، فإنه "ما القوم إلا سارق من سارق، وغاصب من غاصب"، وأما عن "عسف العمال وتسخير الرجال... بالله عرفني، فمن منهم لم يسلك في أعماله هذا السبيل؟؟ غير أن بعضهم أظلم من بعض[٨]".

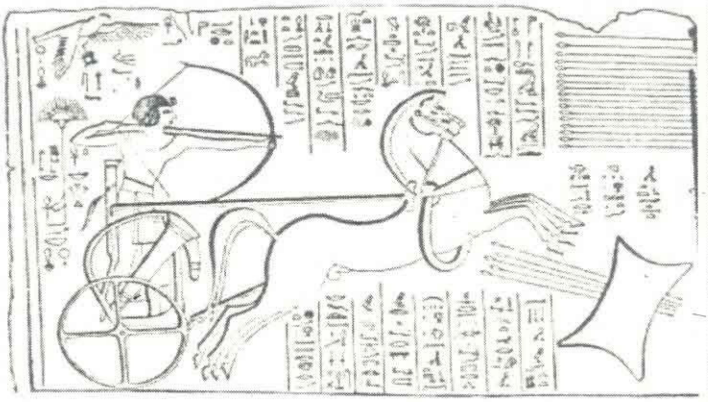
▼▼▼ الجيش في الاحتلال المملوكي (مماليك)

تكون الجيش أيام الاحتلال المملوكي من المماليك فقط غالب الوقت، فهم فقط من يُسمح له بصفة "الفرسان"، وحين تشتد الحروب بين المماليك يلجأ بعضهم للأعراب- كونهم الجالية الأكثر تسليحا بعد المماليك وتملك الخيول والجمال- ليحاربوا مع عصابة مملوكية ضد العصابة المملوكية الأخرى، أو يستعينون بهم أحيانا حين يهجم على البلد غزو جديد، وهو ما انعكس عليهم بالابتزاز من الأعراب، فكانت تتحول الحرب إلى ما بين المماليك وبينهم.

وفي حال تعرض البلاد لغزو خارجي تعدى بالفعل حدود البلد يلجأون أيضا لبقية السكان، سواء المصريين الفلاحين أو الجاليات، كمقاومة شعبية لصد الغزو كما حدث في صد حملة الفرنجة "الصليبية" على دمياط والمنصورة، بخلاف استخدامهم للصنايعية في إنشاء وتدبير أمور القلاع والحصون وغيرها.

---

(٥)- بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن إياس الحنفي، تحقيق محمد مصطفى، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٣١٢
(٦)- انظر: تاريخ دولة المماليك في مصر، وليم موير، مرجع سابق، ص ٤٩- ٥٠
(٧)- بدائع الزهور في وقائع الدهور، مرجع سابق، ص ٣٣٦- ٣٣٧
(٨)- الخطط المقريزية، ج ٣، مرجع سابق، ص ٥٥٠- ٥٥٢





نقش لأمنحتب الثاني يتدرب على الرماية (موسوعة سليم حسن ج٤) ورسم لمملوك يتدرب على الرماية (مجهول المصدر)، فحين تساهلت أجيال سابقة في تسليم السلاح لجنود أجانب من المستوطنين تلقف السهم كل هكسوسي ليحكم مصر ويرميها به

♣♣♣ السكان وتعريف المصري في الاحتلال المملوكي

(تغيير القناع)

أتاح طول الفترة التي احتل فيها المماليك مصر (حوالي ٣٠٠ سنة منفردين عسكريا ثم ٣٠٠ بالاشتراك مع العثمانلية) في رسم ملامح تركية (ثم عثمانلية) أزاحت القناع العربي إلى حد كبير عن وجه العاصمة، فرغم استمرار العربية اللغة الرسمية- قبل أن تكون التركية هي لغة الدواوين أيام الاحتلال العثمانلي- إلا أن المماليك كانوا يتكلمون مع بعضهم بالتركية، ويعيشون بطابع العنف والصراع التركي، وانتشرت ألفاظ وألقاب تركية وآسيوية في المعاملات الرسمية والتجارية وأسامي الأدوات والأكلات والأشخاص وغيرها لتمتزج بوضوح باللغة العربية، والملابس المزركشة الملونة المناسبة لبطون آسيا تدل على أصولهم.

إلا أنه لا يوجد مماليك ظلوا يعيشون في مصر طويلا، فمعظمهم يفنون في الحروب الطاحنة بينهم، أو ينفيهم السلطان المملوكي الجديد، أو يهربون منه إلى الشام أو السودان وغير ذلك، ويُجلب غيرهم صغارا، ولا يتزوجون إلا من الجواري الترك والشركس، وقليل منهم يحبذ الإنجاب.

وحلَّ المماليك محل الأيوبيين ليكونوا الطبقة الأولى، والطبقة التالية هي الجاليات الأجنبية المشكلة وقتها من عرب وشوام ومغاربة ويهود وأروام وفرس والسود (من السودان والحبشة)، وظلت كل جالية معروفة أصلها في الوجوه والملابس والأسماء واللهجات والمهن، واحتكرت مناصب القضاة ومشايخ الأزهر وشيوخ الطوائف المهنية والتجارية واستمروا لفترة يحتكرون منصب شيخ القرية، بالإضافة لاحتكار السيطرة على الأرض، والطبقة الثالثة هي الجواري والعبيد الذين تتملكهم الطبقتان الأولتان.

أما المصريون الحقيقيون (الفلاحون) فيشكلون الغلبة في العدد، ولكن تصنفهم الطبقات السابقة كأقل ناس في البلد مكانة، ويعلو عليهم في الثروة والنفوذ الجواري والرقيق، ولا يتزاوج المصريون بهذه الجاليات والطبقات إلا نادرا، فظل لهذا السبب الدم المصري نقيا في عروق معظمهم.

وعلى هذا الوصف ظلت مصر مثل بقية عصور الاحتلال، مقسمة لاثنين، الول شعب أصلي بلون واحد، والثاني مجتمع برّاني متعدد الألوان والرايات، الأول صاحب البلد، نسيج واحد متآلف "السواد الأعظم"[٩]، معظمهم محجوبون في الأرياف، وقليل في حارات المدن، والثاني مجتمع أجنبي مقسم لطبقات تعيش في المدن وحواف بعض القرى، منفصلة عن بعضها، لكل منها منطقة أو حارة تسمى باسمها، ولا يحدث الاختلاط بين الأعراق الأجنبية إلا في الشوارع والمساجد والمعاملات التجارية، وهذا المجتمع الخليط هو الذي يتقافز في كل صفحات كتب التاريخ المعاصرة لذلك الوقت، وأكثر من يرصد حالهم الرحالة والمؤرخون ويقدمونهم على أنهم "المصريون"، وقليل ما يُرصد حال المصريين الحقيقيين الذين سموهم فقط بالفلاحين وأهل الريف والقبط.

ورسميا، ظلت القاهرة ومصر القديمة شبه محرمة على المصريين، إلا لو احتاجهم سكان القاهرة والحكام الأجانب في مصالح كالبناء والحفر وبيع سلع الأرياف ووظائف الديوان، وبخلاف ذلك غير مُرحب بهم، ورغم ذلك لما كان الضيق يبلغ آخره بالفلاحين في القرى خلال المجاعات أو ضغط الجباية وعنف المماليك والعربان يطفش بعضهم إلى القاهرة ويتحايل للبقاء، ويسميهم الحكام والمستوطنون بـ"الغرباء"، و"العامة"، و"الزعر" و"الحرافيش"، وكل فترة يسعون لإخراجهم.

وعنهم قال المقريزي في كتابه "السلوك لمعرفة دول الملوك"، إنه في سنة ٨٢٧ ه "نودي بخروج أهل الريف من القاهرة ومصر (أي الفسطاط) إلى بلادهم، فلم يُعمل بذلك"[١٠]، وهذا في وقت كانت المدينتان مفتوحتان للأجانب من كل جنس.

أحرام على بلابله الدوح   حلال للطير من كل جنس

كل دار أحق بالأهل إلا في   خبيث من المذاهب رجس

ومع اهتمام المؤرخين المعاصرين لذلك الزمن برصد ملابس الأفراد في المدن الكبرى، وظهر أنها تنوعت بشكل مبالغ فيه، حتى أصبح من السهل على أي زائر للقاهرة أن يحكم على الشخص وحرفته وديانته وطبقته الاجتماعية وبلده الأصلي من ملابسه، وينقل د. سعيد عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى عن كتب ذلك العصر أن موفد من تيمولنك للسلطان برقوق أخذ ينظر إلى الناس في شوارع القاهرة فلقي أقواما وخلقا كثيرا مختلفي الهيئات والملبوس فسأل عنهم فسموا له كل طائفة فتعجب من ذلك وقال: "نحن في بلادنا ملبوس السلطان والأمير والخدم والفلاحين هيئة واحدة"، أما عن ملابس القرى فلا يستبعد عاشور أن تكون هي ما عليه في عصور لاحقة، وهي اللبدة فوق رأسه والجلابية الزرقاء[١١].

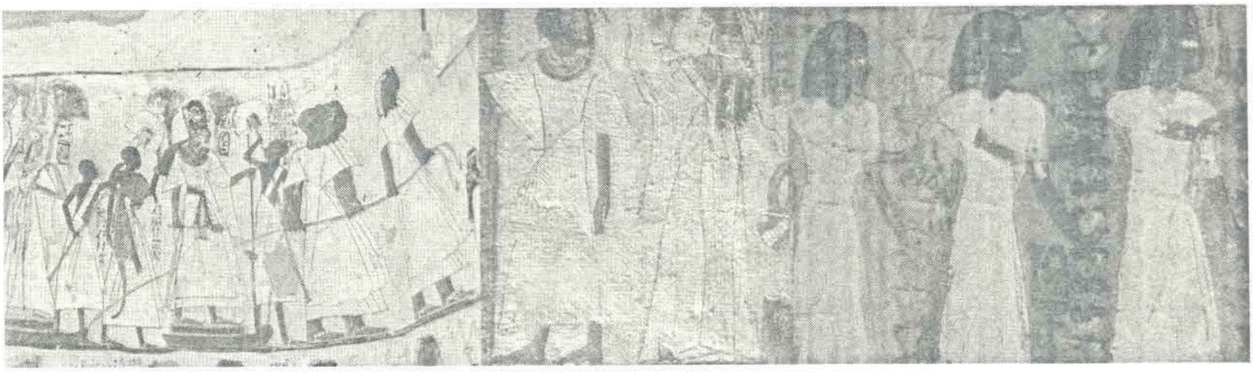
---

(٩)- انظر: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، ١٩٩٢، ص ٥٦

(١٠)- السلوك لمعرفة دولة الملوك، تقي الدين المقريزي، ج٤ ق٢، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب، القاهرة، ص ٦٧٢

١١- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ٢٣١- ٢٣٩

ويرجع باحثون ارتداء الفلاح للجلابية إلى تأثره بملابس العرب الفضفاضة أوإلى القميص الروماني واليوناني، إلا أن النقوش المصرية القديمة تظهر أن الجلابية الفلاحي التي نعرفها اليوم، الفضفاضة في أسفلها، سواء ذات الأكمام الواسعة أو الأكمام الضيقة ارتداها الأجداد أيضا، ولم تكن جديدة على الفلاح.



ملابس المصريين بداية من الأسرة ١٩ وفيها عناصر الجلابية الفلاحي الحالية (المناظر الثلاثة من يمين الناظر إلى اليسار: نقش لرجل يسمى سوبك حتب من الأسرة ١٨ موجود بالمتحف البريطاني، مقبرة كنرو الأسرة ١٩، مقبرة أمون إم ونيت الأسرة ١٩)

▼▼▼ نتائج الاحتلال المملوكي الثاني لمصر

❶ العبيد يحكمون الأحرار.. شهقة التاريخ

في كتابه القيم "تراث العبيد في حكم مصر المعاصرة" حول تأثير حكم المماليك وصفاتهم على سلوكيات المصريين حاليا يقول صاحبه الذي وقعه بإمضاء (دكتور ع.ع) إنه لم يحدث أن حكم العبيد شعبا حرا إلا في مصر وبعض الدول الإسلامية الأخرى كالشام والعراق، فتفردوا بهذا النظام الغريب "الرقيق حاكم لأحرار"، أو "الرقيق مسترق الأحرار" في حين أن العبيد في أمريكا وأوروبا مثلا يكلفون بالأعمال الشاقة، ومقامهم في مرتبة وضيعة، بل إن العبد المملوك في مصر والشام يأبى أن يكون حاكمه حرا ![١٢]

وإن كان استمرار الصراعات الطائفية والعرقية بين الشوام مثلا وعدم تمتعهم في تاريخهم القديم بدولة وطنية حقيقية هو السبب في انحدارهم إلى هذا المصير، فما هو سبب انحدار مصر صاحبة الشعب الواحد المتحاب المتعاون، العاشق لبلده وحريته؟

يبدو أن التهاون في مراجعة التاريخ مع ترك الحدود مفتوحة أمام الجميع والاستيطان للجميع لا يقل في خطره على الدولة مهما كان شعبها واحدا ومتماسكا عن خطر الصراع والتقاتل في شعوب أخرى، فكلاهما منفذ للمحتل ليسلك طريقه ويعتلي رءوس أهل البلد.. حتى وإن كان المحتل عبدا مملوكا.. فقد نامت عن مصر نواطرها (حراسها).

---

[١٢]- "تراث العبيد في حكم مصر المعاصرة، دراسة في علم الاجتماع التاريخي"، دكتور ع.ع، المكتب العربي للمعارف، ص ١٢

أكلما اغتال عبد السوء سيده ... أو خانه فله في مصر تمهيد

صار الخصي إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبد والعبد معبـود

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنى العناقيـد[١٣]

2 مصر تحت سلطان المليشيات والعصابات

إن كانت الاحتلالات السابقة اعتمدت على المرتزقة في حكم مصر، فملأوا الأرض فسادا ودماءً، فإن حكم المماليك هو أن المرتزقة أنفسهم وزعماء المليشيات هم من يصبحون سلاطين.

فلكل أمير مملوكي مليشيا خاصة يكونها هو بأن يشتري المماليك صغار السن (عرفوا باسم الترابية)، ويربيهم على الولاء الخاص له لا للدولة ولا السلطان، ويكونوا عدته في التخلص من أي ميليشيا أخرى تسعى للتقليل من نفوذه، وعدته في القفز إلى كرسي السلطان حين تحين الفرصة.

وعلى هذا وجد في الاحتلال المملوكي ما سُمي بـ"المماليك المعزية"، أي الموالين للأمير معز الدين أيبك، والمماليك القاسمية نسبة لزعيمهم قاسم، والفقارية نسبة لزعيمهم ذو الفقار إلخ.

ولا تتحد مليشيات المماليك إلا في استثناء واحد إذا ما واجهت غزوا قادما من الخارج فيخشون أن يطيح بهم أجمعين، فيتحدون ضده في لحظة حتى يهزمونه، وقبل أن تجف دماء المعركة يغرقون البلاد بدماءهم هم في حرب الاستحواذ على الحكم بعد النصر، فيقتلون السلطان المنتصر ويبددون شمل مماليكه إن استطاعوا حتى لا يعلو شأنهم فوق بقية المماليك، كما فعلوا مع قطز وقلاوون وعلي بك الكبير، ولذا فإن صاحب كتاب "تراث العبيد في حكم مصر المعاصرة" في تحليله للقبائح التي تركها حكم المماليك الطويل على الشخصية المصرية، يرى أن التآمر على الناجحين الذي يلوث بعض النفوس والجماعات حاليا هو نتيجة من نتايج حكم المماليك الطويل.

ويضرب أمثلة على ذلك بأن انقلاب تنظيم الإخوان المسلمين على الرئيس جمال عبد الناصر رغم أنه حقق مطالب الشعب، والتي كان يتحدث عنها الإخوان أنفسهم قبل ثورة ١٩٥٢، ومحاولة اغتياله وهو منتصر عقب توقيعه اتفاقية الجلاء مع الإنجليز، واغتيال الرئيس السادات على يد تنظيم "الجهاد" في يوم الاحتفال بالنصر على إسرائيل، هو حالة مملوكية، مثلها مثل قتل بيبرس لقطز فور فوزه على التتار، وقتل المماليك لسلطانهم خليل قلاوون بعد عودته منتصرا على الصليبيين في عكا ٦٩٠ ه، حتى أنهم وضعوا السيف في دبره ضمن توحشهم المشهور في التعذيب والإهانة حتى في سكرات الموت وبعد الموت، وقال إن حتى عمل المليشيات في صورة الجماعات الإرهابية المسلحة هو أيضا تراث مملوكي.

---

(١٣)- نواطرها أي حراس أرضها ومكانتها، والثعالب هم اللصوص، وبشمن أي عبأوا من كنوزها حتى الثمالة، وما تفنى العناقيد أي خير مصير لا يفنى فتظل الثعالب حائمة حوله، انظر : "مع المتنبي"، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ٢٨٤- ٢٨٥

ورأى أن انتشار الشلل و"الرُبطيات" داخل الحكومة يستقوي بها مسئول ضد مسئول أحيانا هي أيضا "تراث مملوكي"، وصورة من صور العصابات التي يجمعها كل مملوك حوله يستقوي بها على منافسيه.

وإن كانت هذه الأساليب ليست جديدة مع المماليك، بل ذقنا مرَّها مع احتلالات سابقة، إلا أن طول أمد الاحتلال المملوكي، ثم تسرب هذه الأساليب (الشلل والرُباطيات والأحزاب والكيد والزُنب ضد الناجحين) إلى الجهاز الحكومي حين أدخل محمد علي بواقي المماليك والأتراك في الجهاز الحكومي والإداري بصفة "مديرين"، و"موظفين"، نقل هذه الأساليب الخبيثة إلى أساليب التعامل الحكومي، وانتقلت من موظفين إلى موظفين جيل بعد جيل، وأثَّرت في بعض المصريين[١٤].

❸ تفشي الحزبية في الحكم.. وتعدد الرايات

من أفضل ما قيل في وصف الشخصية المصرية الحقيقية هي أن المصريين لا يحبون أن يروا أكثر من راية ترفرف فوق رءوسهم، يقلقون منها ويتشاءمون، فلم يتعودوا إلا على راية واحدة تعلو بلدهم وتحمل اسما واحدا هو مصر (كيمة).

وحين تسلل المستوطنون الأجانب وجلبوا الأعراق والاحتلالات أدخلوا لمصر طاعون تعدد الرايات والألوان، ولا تتعدد الرايات وألوانها إلا وتعددت الانتماءات، وما تعددت الانتماءات إلا وظهرت الأحزاب والجماعات المتصارعة، وما ظهرت تلك إلا وظهرت المليشيات، وما ظهر كل هذا إلا وتحولت مصر لبركة دماء في حرب قذرة لا تعرف معنى الشرف، لا تخص مصر ولا المصريين.

وشاهدنا هذه الحزبية وتعدد الانتماءات والرايات والحروب الداخلية زمن الاحتلال الخاسوتيمي القبلي، وبشكل أوضح بتعدد الجاليات زمن الاحتلالات اليونانية والرومانية والعربية والعبيدية والأيوبية، ولكنها ستصل إلى أقصاها على يد الاحتلال المملوكي المليشياوي.

فانقسم المماليك منذ أيام الأيوبيين وطوال تاريخهم بعد ذلك إلى فرق، كل فرقة تبع سلطان أو أمير مملوكي تناصره على الآخر، وتسمت على اسمه، فيوجد المماليك الصالحية والمماليك الكاملية والمماليك لمعزية والمماليك القاسمية وهكذا، ولا يحكمهم انتماء لوطن أو دين، وإنما حكم الغلبة والسيف.

❹ انتشار اللواط (الفجور) في دايرة الحكم

مع تميز عصر المماليك بكثرة المساجد والتكايا، كما لم يحدث في أي عصر سابق، إلا أن وراء هذه المساجد ذات الجدران الشاهقة والفخامة الساحرة يتخفى انحلال خلقي وأمراض خبيثة تثير القرف ناتجة عن التكوين الخبيث لهذه الفئة منزوعة الضمير والأصول.

فمن سماتها انتشار اللواط والفجور، أو ما يسميه الإعلام حاليا مداراة لحقيقته "الشذوذ الجنسي"،

---

[١٤]- تراث العبيد في حكم مصر المعاصرة، مرجع سابق، ص ٤٢ و١٣١- ١٣٦

و"المثلية"، التي لم تتفشَ كما تفشت بين المماليك والعثمانلية.

وأمهات الكتب المعاصرة لهم مشحونة بحكايات فجور المماليك والأتراك عموما، بما فيهم الحكام رغم كثرة ما بين أيديهم من الجواري الحسان، منها ما أورده المؤرخ ابن إياس عن الخليل قلاوون الذي رغم أنه صاحب الانتصار الكبير في إسقاط آخر حصون الفرنجة في الشام وهو عكا، منهيا ما عرف بالحملات الصليبية إلا أنه اتصف بكل صفات القبح المملوكي، ومنها اللواط.

فيقول ابن إياس إن الخليل قلاوون بعد توليه كان شديدا مع أصدقاء والده؛ فأبعدهم وزج بهم في السجون، وقتل كثيرين، وتغطرس على بقية المماليك، واشتهر بأنه فاسد الأخلاق، واتهمه مماليكه بأنه يغرق في الشهوات مع الغلمان باللواط في قصره، فقتله نائبه بيدرا وهو في رحلة صيد في النيل.

وحين همَّ أتباع السلطان بقتل المتآمرين صاح أحدهم وهو يقول: "يبرر عملنا دعارة السطان وانغماسه في الشهوات واللذات مع من حوله من الفتيان، وعكوفه على معاقرة الخمر حتى في شهر الصيام، هذا إلى وحشيته في معاملة أصدقاء والده وزجه فريقا منهم في أعماق السجون، ثم القضاء عليهم".

والصحيح أنهم قتلوه لشدته معهم وليس لفساده، فمعظمهم فاسدون، وبقيت جثته ملقاة على الشاطئ يومين فوارها الثرى أحد أبناء القرى قبل أن ينقلها أتباعه للدفن في القاهرة، وقال ابن إياس إن أتباعه قتلوا بيدرا وقطعوا لحمه بالسيف وأخرجوا كبده وأكلوها[١٥]، وهذا من فحش المماليك في الانتقام.

ولم يتورعوا عن ارتكاب الفواحش أمام الناس، فيحكي المقريزي في كتاب السلوك إن السلطان برقوق- الذي وصفه المؤرخون بحب الخير والعلم واحترام الفقهاء- لم يتحرج من ارتكاب الفواحش وتقريب "المماليك الحسان لعمل الفاحشة فيهم"، وفي رأي د.سعيد عاشور في كتابه "المجتمع المصري في عصر المماليك"، فإنه كان لوقاحتهم في الجهر بالفحشاء أثره في تقليد بعض الناس لهم.

وأضاف أن المماليك أحضروا معهم اللواط (الفجور) وأشاعوه، حتى أنه عندما عاب أحد مشايخ مصر على شيخ أندلسي في القرن السابع الهجري أن أهل الأندلس يشربون الخمر ويحبون الشباب، رد عليه الشيخ الأندلسي قائلا: "أما الشباب فما أشك أن أهل مصر أفسق منا!"[١٦] ومن يعرف تركيبة المجتمع وقتها يعرف أن المقصود بأهل مصر في كلامه سكان القاهرة ومصر القديمة وأكثرهم المماليك والجاليات.

وانتشر هذا الطاعون بين قضاة وبين الصوفية الذين سموا أنفسهم زورا "الفقراء" بحسب ابن حجر في "الدرر الكامنة"، وكل هؤلاء في ذلك التوقيت مستوطنين من الشرق والغرب، وعن جذر هذا الطاعون يقول أبو المحاسن إنه انتشر في الشرق منذ دخول الخراسانية إلى العراق سنة ١٣٢ ه، ويفسر الجاحظ ذلك بأن العباسيين منعوا خروج النساء مع الجنود في الغزوات وسمحوا بخروج الصبيان الصغار، فاستعاض هؤلاء بالصبيان.

---

(١٥)- بدائع الزهور في وقائع الدهور، مرجع سابق، ص ٣٧٥- ٣٧٧

(١٦)- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، ١٩٩٢، ص ٢٤٧- ٢٤٨

وفي عصر الاحتلال الأيوبي، يقول القاضي الفاضل إنه رأى بمصر "من البغي ومن المعاصي ومن الجهر بالفسق والزنا واللواط وشهادة الزور وشرب الخمر ما لم يُسمع أو يُعهد مثله" وكان ذلك في أواخر عهد صلاح الدين(١٧)، ومعلوم أن جيش صلاح الدين أكثره من الأكراد والمماليك الأتراك.

وهذه الآفات ليست جديدة بالتأكيد على العالم، ولكن المفجع أن أصبح الأمر علنا ومحل مباهاة وله أماكنه العلنية، وأحيانا المرخصة من السلطات، في العواصم التي نزل بها وباء المماليك والأتراك.

ومن مواطن هذا الطاعون أيضا المرتزقة الأتراك الذين أسسوا السلطنة العثمانية، وأرسلته إلى مصر وغيرها من البلدان المفتوحة مع عسكرها، فيذكر ابن حجر في حديثه عن بلاد "ابن عثمان" أن الزنا واللواط وشرب الخمر والحشيش كان فاشيا فيها، وأيام المماليك اعترف الحكام لأول مرة بالبغايا، وفرضت عليهن ضرايب كما قال المقريزي، حتى وقفت البغايا في الأسواق جهرا تطلب المارة، وخُصص لهن حارات في عدة مدن، وإن خالف ذلك بعض المماليك مثل بيبرس الذي سعى لمنع البغاء وتزويج العاملات فيه(١٨).

وتعليقا يقول صاحب كتاب "تراث العبيد" إنه في مجتمع العبيد البيض (المماليك) شاعت الإشارات الجنسية في المداعبة والمزاح "إنه مجتمع (العزاب) المجاليب الأغراب"، غير أنه لفت إلى أن الأمر لم يتوقف عند اللهو، بل استغلوا هذا الطاعون كعقاب وإذلال للخصوم، فمن أساليب المماليك إذا ما انتصروا أن يذلوا المجموعة المملوكية المهزومة بممارسة اللواط مع أفرادها بالإجبار، أي اغتصابا، والإذلال هنا عندهم ليس في فعل الفاحشة نفسها، ولكن لأنها تتم بالجبر والقهر وليس بالاختيار(١٩).

وعلى هذا فإنه على من يلجأ إلى هذه الوسيلة، اغتصاب النساء أو الرجال، لإذلالهم في السجون أو في الخصومات، أن يفتش بداخله عن أصل مملوكي له، أو أن يعتبر نفسه منزوع الأصل والوطن والآدمية مثلهم، وأنه اختار بكامل إرادته أن يكون "عبدا مملوكا".

5 جلب المخدرات وانتشار الحانات

أول عهد مصر بالمخدرات والحشيش كان أيام المماليك، ويقول المقريزي إن أهل الخلاعة تعاطوه "من غير احتشام"، وفرض المماليك عليه ضريبة في البداية، ووصل الحال ببعض العلماء والصوفية أن أشاعوا بين الناس أن الحشيش حلال، ونسج أدباء قصائد في فوائده، وربط أحد الكتاب بين الحشيش والتصوف قائلا إن الظاهرتين سارتا في مصر جنبا إلى جنب، بل وزُرع الحشيش في أرض الطبالة بالقاهرة وباب اللوق، ودخل مصر كذلك الأفيون(٢٠)، وكأنه "ليهيموا سكارى في الملكوت"، ويتوهمون أنه "هيام رباني"، ودخل مصر في توقيت حساس، فأقبل عليه كثيرون هروبا من مشاعر الضنك.

---

(١٧)- انظر: نفس المرجع، ص ٢٤٨- ٢٥٢

(١٨)- المرجع السابق، ص ٢٤٨- ٢٤٩

(١٩)- تراث العبيد في حكم مصر المعاصرة، مرجع سابق، ص ٢١- ٢٢

(٢٠)- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ٢٥٢- ٢٥٣

وبحسب الجبرتي فإن أول من أدخل الحشيش إلى مصر هم تجار ينتمون للصوفية[٢١]- بواقي العبيديين- وفي دفاع أحد الشيوخ وهو علم الدين بن الصاحب عن الحشيش قال[٢٢]:

يانفس مــيلي إلى التصابى	فـاللــهو منه الفــتى يعــيش
ولاتمــلـى مـن سـكـر يـوم	إن أعـوز الخمـر فالحشــيش

وتفشت فيهم الخمور علنا كما لم يحدث من قبل؛ فشاعت حتى صارت من متممات الأفراح، وقيل إن السلطان فرج بن برقوق شق شوارع القاهرة لا يكاد يثبت على فرسه من شدة السكر، والمنصور بن قلاوون يعكف على الشرب مع ندمائه حتى لا يكادون يفيقون ساعة، ورغم هذا يبدو أن الحال كان أقل من بلاد أخرى، حتى أن ابن دانيال الموصلي يقول إنه عند حضوره إلى مصر أواخر القرن السابع الهجري وجد "مواطن الأنس غير آنسة" من خمر وحشيش وغيرها، فساءه ذلك مما يدل على أنها "تأخرت" عن البلاد المجاورة في مضمار الفساد[٢٣].

6 ظهور بدعة شراء المناصب العليا

قبل حكم المماليك كانت المناصب أحيانا تؤخذ بالرشوة كما تؤخذ بالسيف، وإن كانت الرشوة مغلفة باسم "هدية" و"عطايا"، أما في حكم المماليك منزوع الحياء في كل شيء فإن شراء المناصب أصبح جهرا وعلانية، وبات وكأنه عُرفا مقبولا.

يقول المقريزي في "إغاثة الأمة" عن شراء المناصب بالرشوة التي سموها "البراطيل" إن أصل الفساد في عصره هو تحكم الرشوة في شراء المناصب حتى القضاء والوزارة وولاية الأقاليم والحسبة ومشيخة التصوف وسائر الأعمال "بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل"، وخضعت لشكل المزاد، يشتري مثلا المحتسب (القائم على مراقبة الأسواق والأسعار ومنع الغش) منصبه بالمال، فإذا عرض شخص آخر مبلغا أكبر بعد شهور يحصل على المنصب لنفسه، وفي نفس الوقت يقبل المحتسب رشوة من التجار فلا يبلغ عن بضائعهم المغشوشة[٢٤].

7 تورم جديد للمذهبية (صراع مذاهب السُنّة الأربعة)

تابعنا أن المذهبية الدينية الدموية ظهرت في مصر في أبشع صورها أيام انتشار المسيحية، وغذّاها حينها اليهود والرومان واليونان وبقية الجاليات التي رأت في المسيحية فرصة للتخلص من الدين المصري القديم، أو تلك التي رفضت المسيحية ذاتها، أو حوّرت فيها فشرختها إلى أرثوذكسية وكاثوليكية.

كما ظهرت المذهبية الدينية أيام الاحتلال العربي على يد من سعوا لشرخ الإسلام إلى سُنة وشيعة

---

(٢١)- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، ج ٢، مرجع سابق، ص ٣٩٥- ٢٩٨

(٢٢)- انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي، تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين، ج ٧، ط١، ص ٣٢١

(٢٣)- انظر: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٢٤٨- ٢٥٥

(٢٤)- نفس المرجع، ٢٥٦- ٢٥٨

لأسباب سياسية كالخوارج وخلال ما سُمي بفتنة خلق القرآن، وأصاب مصر منها نصيب حين هبط على أرضها الطيبة فِرق سود من الخوارج والشيعة.

أما أيام المماليك فظهر نوع جديد من المذهبية، وهو الخاص بالتعصب للمذاهب الأربعة (الشافعية، الحنفية، المالكية، الحنبلية)، انتقل لمصر من أرض العراق والحجاز على جناح الأيوبيين حين أسس صلاح الدين مدرسة لتدريس المذهبين الشافعي والمالكي بدلا من اختيار مذهب واحد للبلد، أو اختيار أقرب ما في كل مذهب لما يناسب طبيعة مصر، فصار خريج كل مدرسة يتعصب لمذهبه.

واتخذ بيبرس قرارا عمَّق التحزب المذهبي بحسب ما ابن إياس، وذلك أنه رسميا كان يُفتي في مصر بالمذهب الشافعي، ويتولاه قاضي مخصص له، فإذا به يعين قاضيا للإفتاء بالمذهب الحنفي وآخر للمذهب الحنبلي وثالث للمذهب المالكي ورابع للشافعي، فتبع هذا تفرق كلمة العلماء وتشاحنهم وتنافسهم في جذب الحكام والناس عامة لمذاهبهم، حتى شاع أن بيبرس رأى في منامه الشافعي غاضبا يقول له: "بهدلت مذهبي وفرقت كلمة المسلمين"[٢٥].

8 أبجني تجدني.. دستور الحكم

"أبجني تجدني"، هو مثل مصري يُطلق على الخونة والمرتزقة الذين لا مبادئ لهم، ولا يتحكم في قرارهم شريعة سماوية أو قوانين مشروعة، شريعتهم المال والمناصب، وهو أشد ما ينطبق على المماليك.

وشاع هذا في العالم قبل الأتراك، فهو دستور قديم قدم الشيطان، ورأيناه عند المرتزقة اليونان حين استعانت بهم الأسرة ٢٦ الخاسوتيمية في الجيش محل المصريين، ورأيناهم خلال الحروب حين ينهزم الجيش ينتقلون بكل بساطة إلى صفوف الجيش المعادي المنتصر مثلما حصل في الغزو الفارسي وانتقلوا لصفوف الفرس ليحاربوا معهم ضد مصر، ورأينا ذلك يحدث من اللاجئين اليهود في مصر لما أعانوا الفرس ضدها، ورأيناه من المرتزقة الترك في جيش العبيديين (الفاطميين) حين ضعفت شوكة العبيديين فسعوا لتسليم مصر إلى خصومهم العباسيين.

غير أنه في أيام الاحتلال المملوكي صار هذا الوباء "أبجني تجدني" دستور الحكم نفسه، وليس فقط المرتزقة الذين يستعين بهم الحاكم، وهو أمر متوقع لنظام حكم يعيش في حالة "اللادين واللاوطن".

فمثلا حين قتل المعز أيبك خصمه فارس الدين أقطاي، فرَّ مماليك أقطاي إلى الشام عند خصمهم السابق الناصر يوسف صاحب دمشق- الطامع في مصر- ليكونوا له أعوانا رغم أنه لم يكن مر شهور على دخولهم في حرب ضده لمَّا حاول غزو مصر، واتجه جزء منهم إلى سلطان الروم رغم أنه لم يكن مرت شهور أيضا على دخولهم في حرب ضد الروم في معركة المنصورة.

وفي هذا يقول المقريزي إن أيبك أرسل إلى سلطان الروم يخوفه من هؤلاء المماليك كي لا يستخدمهم

[٢٥]- انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن إياس، مرجع سابق، ج ١، ق ١، ص ٣٢١- ٣٢٢

ضده قائلا: "البحرية (أي المماليك البحرية) قوم مناحيس أطراف، لا يقفون عند الأيمان، ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم، وإن استأمنتهم خانوا، وإن استحلفتهم كذبوا، وإن وثقت بهم غدروا، فتحرر منهم على نفسك، فإنهم غدَّارون مكارون خوانون، ولا آمن أن يمكروا عليك"، فخاف سلطان الروم منهم وكانوا ١٣٠ فارسا، فاستدعاهم وقال: "يا أمراء ما لكم ولأستاذكم؟"، فتقدم سنجر الباشقردي وقال: "يا مولانا من هو أستاذنا؟"، قال: "الملك المعز صاحب مصر"، فقال الباشقردي: "يحفظ الله مولانا السلطان! إن كان الملك المعز قال في كتابه أنه أستاذنا فقد أخطأ، إنما هو خوشداشنا ونحن وليناه علينا[٢٦]"، كذلك الأمر حين باع محمد أبو الدهب حاكمه علي الكبير للسلطان العثمانلي بعد أن وعده الأخير بأن يوليه على مصر.

وهل وجود أحزاب ومنظمات تسير اليوم في مصر بحسب التمويلات والوعود التي تأتيها من الخارج، لا حسب مصالح البلد، ببعيد عن تأثيرات هذا التراث المملوكي والجالياتي المتقيح؟

⑨ بشاعة أساليب التعذيب والانتقام.. للخصوم وللرعية

لم يقنع المماليك بأساليب العقاب التقليدية الشائعة في وقتهم كالحبس والإعدام والرجم، وإنما تمتعوا بأن يتفننوا في أساليب تعذيب وتشويه وإذلال خصومهم في السجون أو خارجها، لم يُسمع عنها من قبل.

وكما مر علينا فإن من هذه الأساليب الإذلال الجنسي، أي الاغتصاب، ونسمع الآن من المؤرخين المعاصرين لهم أساليب أخرى لا تقل عنها شناعة في مجتمع "اللادين واللاوطن"، أي حياة المماليك.

فيقول ابن إياس والمقريزي إنه بعد أن قتل المماليك سلطانهم "لاجين" وهو يلعب الشطرنج في الليل ليعيدوا العرش إلى الناصر قلاوون، فإن قلاوون لما عاد انتقم من خصومه الذين أزاحوه عنه أبشع انتقام، بالضرب بالسياط والخنق وتركهم يتضورون جوعا، حتى قيل إن الأمير المملوكي "السلار" في محبسه أكل يديه من شدة الجوع، وأرسل إليه الناصر أطباقا ظنها طعاما، ولما رفع الغطاء وجد جواهر، في رسالة تشفي من الناصر بأن الكنوز التي جمعها حين كان يزدري السلطان وهو صغير السن لم تنفعه، ومات في السجن جوعا[٢٧].

وانقضى نسل قلاوون من الحكم بخنق المماليك لابنه السلطان شعبان الذي شهده عصره مجاعة مصحوبة بوباء التهم الكثير من السكان[٢٨]، فانقضى حكم المماليك الأتراك البحرية، وبدأ حكم المماليك الشراكسة البرجية بحكم السلطان برقوق، وبعده برسباي وفي عهده كان المماليك يختطفون النساء والأطفال من الشوارع، وهاجم البلاد طاعون قتل ٣٠٠ ألف من سكانها، وأصيب برسباي بمرض فلما عجز طبيباه عن علاجه قطع رأسيهما[٢٩]، ووصفه المقريزي بأنه كان قاسي جشع غشوم.

---

[٢٦]-انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، المقريزي، ج١، ص ٤٨٥

[٢٧]- بدائع الزهور في وقائع الدهور،ص ٣٩٧- ٤٠٠ والخطط المقريزية،ج ١، ص ٢٥٤- ٢٥٥، تاريخ دولة المماليك في مصر،ص ٨٧- ٨٨

[٢٨]- المزيد عن هذه المجاعة انظر إغاثة الأمة بكشف الغمة، المقريزي، ص ١١٣- ١١٤

[٢٩]- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، ص ٢٦٥- ٢٦٨، وتاريخ دولة المماليك في مصر، ص ١٥٢

وفي عهد عائلة برسباي أخذت أحزاب المماليك ألقاب السلاطين الموالين لهم، مثل الظاهرية والأشرفية والمؤيدية، وتناحروا وملئوا الشوارع بأصوات السيوف، لا يحرك قلوبهم صياح وتوسلات الناس التي تُنهب أرزاقهم أمام أعينهم؛ فذاقت منهم الرعية ما ذاقه منهم منافسوهم على السلطة.

ومن شواهد غلظة هؤلاء الناس واختلاف طبائعهم عن المصريين أن "شيخو" أكبر الأمراء المماليك في عصر الأسرة القلاوونية أمر بعمل نقرات في رأس أحد خصومه، ثم وضع على كل نقرة حشرة سامة تتوغل فيها وهو حي(٣٠)، هذا بخلاف أساليبهم في قتل الخصوم ذبحا وحرقا وسحلا في الشوارع وتهشيم الرءوس بالحجارة والتقطيع إربا أو خنقا أو بالإغراق في النيل، والأسلوبان الأخيران سمة مميزة للمماليك، استمرت تستعملهما الأسرة العلوية حتى أيام الخديوي إسماعيل، وهو الأسلوب الذي يرجح مؤرخون أنه تخلص به من وزيره إسماعيل المفتش مثلا.

وتولى بعد قايتباي مماليك اشتهر بعضهم بالمجون والخلاعة والسطو بالليل على بيوت الناس وأخذ أموال الاغنياء بعد تعذيبهم بالكي والحرق وإغراق الخصوم في النيل، ومنهم السلطان محمد الثاني ابن قايتباي الذي قتله رئيس المالية بتمزيقه إربا وتركه في الشارع(٣١).

ثم تولى طومان باي الأول وبدأ عهده كعادة المماليك بقتل وإغراق خصومه ومطاردتهم، ولقسوته تآمروا عليه فهرب، وتولى بعده قانصوه الغوري الذي بدأ عهده بفرض ضرايب جديدة ليملأ الخزانة التي أفرغها المماليك قبله، ففرض ضرايب على الأملاك والغلال وحتى البطيخ، وعلى الموتى، حتى صارت كلمة "موت وخراب ديار" يذوق مرارها كل من توفي له إنسان، وثار الناس على المماليك، ورموا محصلي الضرايب في الشوارع بالحجارة، فخفف بعض هذه الضرايب في نهاية عهده.

فأشار عليه أحد رجاله بفرض ضرايب على المماليك، لأول مرة، فثاروا عليه، ولم يتحمل ثورة المماليك، فأمر بقطع لسان من أشار عليه بذلك، وتجريده من ملابسه والتشهير به فوق جمل، ثم جلده ورجمه تمشيا مع غلظة كبد المماليك ووحشيتهم(٣٢).

وقال عنه المؤرخ ابن إياس المعاصر لنهاية عصر المماليك:

في دولة الغوري رأينا العجب ... وقد حملنا فوق ما لا نطيق

وقد كفى في عامنا ما جرى ... من قلة الأمن وقطع الطريق(٣٣)

وفي الحادثة المشهورة، مقتل شجرة الدر، فإنها بعد أن تآمرت مع المماليك على قتل زوجها أيبك خنقا في الحمام، أرسلها مماليكه إلى ضرتها، فضربها الجواري بالقباقيب حتى الموت، وألقوها من سور القلعة

---

(٣٠)- تاريخ دولة المماليك في مصر، هامش ص ١١٣- ١١٤

(٣١)- تاريخ دولة المماليك في مصر، ص ١٧٧- ١٧٨

(٣٢)- نفس المرجع، ص ١٨١- ١٨٢

(٣٣)- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس، مرجع سابق، ص ١٤

وليس عليها سراويل وقميص، وتركوها في العراء أياما حتى نتنت، فحُملت في قفة إلى تربتها[٣٤].

وأهمية معرفة هذه الأمور، هو أن يدرك حاليا كل من يلجأ إلى وسائل التعذيب البعيدة عن الروح المصرية، أو ينشر تعليم مثل هذه الأساليب الانتقامية كأنها سلوكيات عادية في الأفلام والمسلسلات- كما يحدث بإلحاح ومنهجية في السنين الأخيرة- ليتعود عليها المصريون وتنتشر بينهم، والمسئول الذي يسكت على هذا، عليه أن يفتش عن روح العبد المملوك الكامن بداخله وما زال يحكمه، ويسأل نفسه: كيف رضي أن يحل بداخله روح العبد المملوك الفاجر محل المصري الحر النبيل؟

10 السلب والنهب.. الحرفة الأولى لـ"الإشراف"

شهد الاحتلال العبيدي والأيوبي الغارات وأعمال السلب والنهب على يد مرتزقة الجيش العبيدي ومماليك الأيوبيين، وعلى يد العربان، غير أنها في أيام المماليك صار السلب والنهب على مستوى الحكام أنفسهم وليس فقط مرتزقتهم وجالياتهم، وذلك رغم أن المماليك والعربان يعتبرون أنفسهم "الفرسان" و"الأشراف" في المكانة مقارنة بالفلاحين.

يقول المقريزي إنه بعد انتهاء معركة المنصورة ضد الفرنجة "الصليبيين" أتى المماليك برئاسة فارس الدين أقطاري وبيبرس البندقداري وبليان الرشيدي "من النهب والخطف ما لا يجرؤ الفرنجة أنفسهم على فعله: "كثر ضرر المماليك البحرية بمصر، ومالوا على الناس، وقتلوا ونهبوا الأموال، وسبوا الحريم، وبالغوا في الفساد، حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فِعلهم"[٣٥].

وشريكهم في السلب والنهب العربان، وهم قبايل عرب (قادمة من الشرق) وبربر (قادمة من المغاربة) تغير كالرياح السموم الملتهبة على القرى من وراء الحدود فوق ظهور الخيول والجمال، مثلمين أحيانا، يسلون سيوفهم- وفي وقت لاحق بنادقهم- على رءوس وصدور الفلاحين، يفرضون عليهم الإتاوات وينهبون الأراضي والمحاصيل والمواشي، وأحيانا البنات، ويقتلون الفلاح إذا رفض تزويج ابنته لهم، يستقوون بسلاحهم على من لا سلاح له[٣٦]، ومن أشهر قبايل العربان وقتها العبابدة والهنادي والمعازة والطرابين والقطاوية وأولاد علي والهوارة، وقوّى شوكتهم صلاح الدين وخلفاؤه لما استعانوا بهم كمرتزقة في الحروب، ولم ينخرط بعضهم في التحضر إلا مؤخرا.

وانكسرت شوكة العربان بداية الاحتلال المملوكي، وذلك أنهم في حكم عز الدين أيبك رفضوا الخضوع للمماليك سنة ١٢٥٣ م، وقالوا "نحن أصحاب البلاد[٣٧]"، و"إنا أحق بالملك من المماليك، وكفى أنا خدمنا بني أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد"، وامتنعوا عن دفع الخراج، وجمع كبيرهم حصن الدين ثعلب ١٢ ألف مقاتل، قطعوا الطرق برا ونهرا، ومكايدة في المماليك بعثوا لخصمهم الأيوبي الملك الناصر حاكم دمشق ليتحالفوا

---

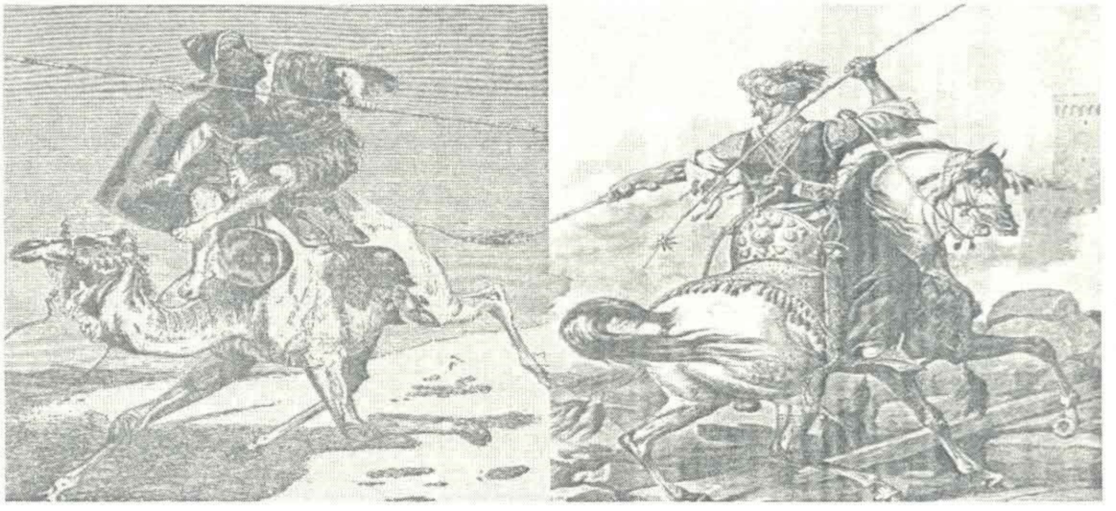
[٣٤]- السلوك في معرفة دول الملوك، المقريزي، ج١، ص ٤٩٤

[٣٥]- نفس المرجع، ص ٤٧٢، والخطط المقريزية،ج ٣، مرجع سابق، ص ١٢٤

[٣٦]- للمزيد انظر: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، سعيد عبد الفتاح عاشور، مرجع سابق، ص ٥٩- ٦٤

[٣٧]- كل من احتل مصر فترة من الزمان يظن أنها صارت أسيرته للأبد، وكل من احتل مصر ما زال يحلم بالرجوع لحكمها.

معه ضدهم، لكن المماليك بقيادة أقطاي هزموهم، وقال المقريزي "فأوقعوا بهم، وسبوا حريمهم، وقتلوا الرجال، وتبدد شمل عرب مصر، وخمدت جمرتهم من حينئذ"(٣٨).



المماليك والعربان لم يكفوا عن تعبئة الريف بالخراب والصراخ والدماء في صراعهم على الغنيمة المصرية (المصدر: رسم المملوك لوحة لـ كارل فيرنيه رسمها في أول القرن ١٩ ورسم العرباني مجهول المصدر)

وأيام الناصر قلاوون ١٣٠١ م فرض العربان إتاوات على الناس في أسيوط ومنفلوط، ومنعوا الخراج، وأخرجوا أهل السجون؛ فدبر المماليك حصارا لهم كحلقة الصيد من كل الجهات في الوجه القبلي، وأطلقوا فيهم السيف، وسبوا نسائهم، وإذا ادعى أحد أنه حضري قيل له قل: "دقيق" فإن قالها بقاف العرب قتلوه، ومن تخبى في مغارات الجبال أوقدوا عليه النار، واستولوا على آلاف رؤوس الأبقار والخيول والغنم والجمال والسيوف والحبوب والأموال(٣٩)، وهذا كله مما نهبه العربان من الفلاحين.

ولكنهم استمروا في الغارات على القرى وأطراف المدن ونهب الغلة والمواشي وقطع طريق الحجاج، وبتعبير ابن حجر في "أنباء الغمر" كانوا يذبحون الفلاحين ذبح المواشي لنهب محاصيلهم(٤٠)، وقال أبو المحاسن في "حوادث الدهور": وفعلوا بالفلاحين "ما لا تفعله الخوارج ولا الكفرة"(٤١)، فلم يكن يحكمهم دين ولا مبدأ إلا بلطجة السيف، واستغل العربان سطوتهم في تحويل مياه الري وقطع الجسور في الوقت الملائم لهم، غير عابئين بمصالح جيرانهم، وأكثر ما يؤلم أن هذا شحن صراعات بين الفلاحين أنفسهم على حصة المياه القليلة، ووقعت خناقات انتهت بنزيف الدم المصري جريا وراء حصة من الري(٤٢).

١١ تفشي الحركات والجماعات السرية (الآلهة الجدد)

تنتعش الحركات السرية في أي بلد في مناخ الاحتلال والفساد وتفكك الحكومة وضعف الروح الدينية

(٣٨)- السلوك لمعرفة دول الملوك، مرجع سابق، ج ١ ص ٤٧٩- ٤٨٠
(٣٩)- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس، مرجع سابق، ص ٩٢١- ٩٢٣
(٤٠)- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ٦١
(٤١)- نفس المرجع، ص ٥٩
(٤٢)- للمزيد انظر الريف المصري في القرن الثامن عشر، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ١٢٧- ١٦٨، و ١٩٦

والوطنية، وتجاور أعراق وطوايف لا يجمعهم ضمير واحد ولا تلاحم وشفقة ولا دستور إلا "اخطف واجري"، أو "استغل الفراغ وسيطر".

وذلك أن الاحتلال وكذلك الأعراق والطوائف المتعالية على أهل البلد، تسعى بأي طريقة إلى التميز واقتناص الفرص، والعمل السري واحد من الوسائل لهذا، خاصة إذا ما تخفى في رداء الدين.

وأقدم الإشارات إلى هذه الحركات في مصر أيام استيطان الإغريق وبقية المرتزقة والجاليات من الكاريين والفرس واليهود والآراميين وغيرهم، ومن أمثلتها حركة الغنوصيين والحركة المانوية، ثم ظهرت في ثوب الخوارج والشيعة بعد الاحتلال العربي، وحكمت الحركات السرية مصر رأسًا لأول مرة في توب الاحتلال العبيدي (الفاطمي)، فهو ذاته ليس إلا إفراز حركة سرية ضخمة- الحركة الإسماعيلية- ما زالت تنتج حركات شيعية بأسامي عدة في أرجاء العالم.

وحين خلع الأيوبيون قدم الاحتلال العبيدي من مصر لم يكن خلعا كاملا، فقد ترك ندباته وتقيحاته على الجسد المصري في صورة حركات سمت نفسها بالصوفية أو محبي آل البيت، واتخذت من أضرحة آل البيت التي بناها العبيديون لنشر مذهبهم نواة أو مغناطيس يجذبون إليه فرائسهم، شاحنين العواطف بحكاياتهم الدرامية عن كرامات آل البيت أو اضطهادهم، والجنة الزاهية المتشوقة إلى من يحب آل البيت ويضحي من أجلهم، فتلين العقول وتخضع لطلب شيوخ الحركات الصوفية من هؤلاء المحبين بأن يقدموا لهم "الطاعة العمياء"، ويقسموا يمينا خاصا بالولاء، حتى يصير مال المحب وأهل بيته وأسراره ملك يمين شيخ الطريقة، ثم يوجهه بعد سلب إرادته كيفما شاء، أو يستغله لتزويد جمهوره وشعبيته ليصنع لنفسه نفوذا يحوله لقوة ضغط على الحكام؛ فيهابونه، ويخشون تأثيره على الناس، ويقدموا له المال والتقديس طائعين في صورة "تبرعات" و"أوقاف" طلبا لبركة آل البيت والأولياء.

وقاد هذا الأمر أغراب جدد وفدوا على مصر من فارس والحجاز والمغاربة، فإذ فجأة وكأن مجهولا صاح في بوق ينادي فتداعى إليه شخصيات مجهولة ليست ذات شأن في بلادها، ما أن يهبطوا مصر حتى تُنسج حولهم القصص والحكاوي عن "كراماتهم" التي تفوق كرامات الأنبياء، بل تتساوى أحيانا مع الإله، كأنهم آلهة جدد، وكلها لا تتصل بإصلاح أحوال الناس أو حثهم على مقاومة الجهل والفقر والمحتلين، بل تشجعهم على محبة الجهل والاستزادة من الفقر، وترك الأرض والمال للمحتلين بدعوى أن هذا هو الزهد.

ولم يكتفوا بأضرحة آل البيت التي تركها العبيديون، بل بنوا أضرحة جديدة لأشخاص مجهولين، نشروها في كل مدينة وقرية وركن؛ لإحكام السيطرة على كل رقعة في مصر، وادعوا أنهم أولياء الله الصالحين مدعومين بشبكة دعاية في كل مكان، ومنهم أحمد البدوي، وأبو الحسن الشاذلي، والمرسي أبو العباس، والرفاعي، وإبراهيم الدسوقي والتركروي (الدكروري)، وأقاموا لهم مساجد كبرى في المحافظات، بحيث صار مسجد "الولي" هو المسجد الرئيسي بها، ويصله معظم النذور والتبرعات والزكاة وعطايا المماليك

أنفسهم الذين يريدون الحصول على "البركة"، أو يريدون أن يشعروا الأهالي بأنهم أهل تقوى وورع[٤٣]، أو يستغلوا فتاوى الصوفيين في إقناع الناس بعدم مقاومة الظلم والظالمين، باعتبار أن الظلم "قدر الله"، ومن الكفر معاندة قدر الله، والمسامحة والعفو عن الظالمين تقرب العبد إلى الجنة لا مقاومتهم.

ومثال على خرافاتهم ما شاع عن أحمد البدوي الذي توفي في عهد بيبرس، قدم من الحجاز وأقام في طنطا معتزلا الناس، صامت معظم الوقت، أشاع ناس أنه لا ينام، وأنه يحضر أسرى المسلمين من عند الفرنج بقوته الخفية، ويصوم ٤٠ يوما لا يأكل ولا يشرب[٤٤]، لأن بعض الأولياء يشتركون مع الله في صفة أنه "لا تأخذه سنة ولا نوم"، بل إن عيسى بن نجم في نواحي البرلس مكث ١٧ سنة لم يغمض له فيها جفن، وأنه كما أن الله يعلم ما ظهر وما بطن ويعلم الخواطر، فإن المريد يكشف عالم الغيب المحجوب- وربما منها جاءت الكلمة التي نرددها أن فلان "مكشوف عنه الحجاب"- ويدرك أسرار الحيوانات والحشرات، ويمشي على الماء ويطير في الهواء ويقتحم النيران ويفعل كل مالا يقوى عليه البشر، وسموا هذا بـ"علم الأسرار"، و"العلم اللادني" كما يقول الشعراني في كتابه" الجواهر والدرر" [٤٥]، وسماه آخرون بالباطنية والحركات أو الشبكات الخفية السرية.

ولمست هذه الحكايات الوتر في صدور بعض المصريين، فهي جاءت في أحلك وقت ومرحلة حساسة في عمرهم، هم أشد ما يكونوا شوقا لأبطال أطهار خارقي القوة يخرجوهم من واقعهم التعيس، خاصة وأنهم فاقدون للهدف من حياتهم، فإذن ليس لهم هدف إلا التفكير في أقصر طريق للجنة ورضا الله حسب الطريقة المتاحة لهم، وذهبت لهم حتى بيوتهم، وهي الطرق الصوفية، واستغلت الأخيرة هذا جيدا؛ كون معظم فقهاء الريف في المساجد لم يكونوا على درجة من العلم الحقيقي، وعملية تحول عدد كبير من أهل الريف إلى الإسلام لم تتم على يد من يفقه جوهر الدين، وانشغلوا بتعليم الطقوس عن تربية النفوس.

وأشهرها القادرية نسبة لعبد القادر الجيلاني، والرفاعية نسبة لأحمد الرفاعي، والشاذلية نسبة لـ الشاذلي، والأحمدية نسبة لأحمد بدوي، والبرهامية نسبة لإبراهيم الدسوقي، والنقشبندية نسبة لمحمد النقشبندي، والمولوية نسبة للشاعر الفارسي جلال الدين الرومي، ومنهم من ادعوا نسبتهم لسلالة أتقياء المسلمين مثل كبار الصحابة والخلفاء الراشدين، وتسمى بـ"القطب"[٤٦].

ونلاحظ أن ما يسمونهم بالأقطاب الأربعة أضرحتهم موزعة في طول مصر، من كفر الشيخ إلى قنا، لتجمع حولها أكبر عدد من الناس في كل بر مصر، وأكثرهم أجانب طازة أو بأنساب أجنبية يفتخرون بها، حتى لتكاد السخرية نفسها تسخر وتسأل: "ألا يوجد فلاح مصري يصلح أن يكون قطبا ووليا كبيرا من أولياء الله الصالحين" في مصر.. أم فقط دور الفلاحين أخذ البركة والطاعة.. والدفع؟

---

[٤٣]- راجع نشأة الصوفية من أيام الأيوبيين وتوغلهم أيام المماليك في: القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨- ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧ م)، مجدي عبد الرشيد بحر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٨٨- ٢٩٢

[٤٤]- انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن إياس، ج ١، ق ١، ص ٣٣٥- ٣٣٦

[٤٥]- انظر: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، د. توفيق الطويل، مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، ص ٦٩ و، ١٩٦- ١٩٧

[٤٦]- المرجع السابق، ص ٧١- ٧٢

ويجيب عبد الوهاب الشعراني، إمام التصوف في عصره، وهو يهاجم طائفة من المتصوفة في زمانه ادعت الولاية الكبرى بأن الفلاحين أقرب إلى الله من هؤلاء المضللين، لأنهم- أي الفلاحين- يقضون العمر في نفع العباد، وأما هؤلاء فيقضونه في ضرر الناس"(٤٧).

وشجع معظم المماليك هذه الخرافات، فنجد الناصر قلاوون يرعى بناء خانكاه فيها ١٠٠ خلوة لـ ١٠٠ صوفي لا يعملون شيئا، وقال المقريزي في خططه إن الناصر أمر بصرف لحم ضأن مطبوخ شهي لكل صوفي، ورطلين زيت زيتون، ورطلين صابون، وصرف الفواكه والسكر والأدوية، وثمن كسوة سنوية، وتوسعة في رمضان والأعياد، وطباخ وحلاق لتدليك أبدانهم "مساج" وحلق رءوسهم ليتفرغوا للعبادة(٤٨).

أي عبادة هذه التي تصنع من العواطلية أولياء، ولماذا يتفرغون للعبادة والله خلق الإنسان ليعبده بتعمير الأرض ومحاربة الشر وليس فقط للركوع والسجود، وماذا يستفيد الشعب الذي يؤخذ من دمه ليأكل هؤلاء العواطلية أفخر الطعام، ويدلكون بدنهم بالمساج، ثم يعتبرون أنفسهم أتقى من هذا الشعب؟

وعلى طريقة المماليك والأحزاب في تمييز أنفسهم بألوان ورايات يتعالوا بها على السكان، ارتدت الأحمدية الأحمر والبرهامية الأخضر والرفاعية الأسمر، واختاروا ألوانا لعمائمهم أيضا تميزهم.

ويأخذون البيعة للمرشد (شيخ الطريقة) كأنها بيعة لله نفسه، فأورد كتاب "الأصول المرعية في قواعد الطريقة الرفاعية"، أن الشيخ يأمر الطالب أن يتوضأ ويصلي ركعتين بنية التوبة، ثم يجلس المرشد مستقبلا القبلة جاثيا على ركبتيه بالأدب والخشوع، ويجلس الطالب أمامه لاصقا ركبتيه، ويقرأ الفاتحة ثلاثا، ويأخذ المريد بعده ويقرأ قوله تعالي "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه"، أي يرهبونه من عاقبة مخالفة المرشد وكأنه يخالف الله نفسه، ثم يأمره أن يقول: "استغفر الله- استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، تبت إلى الله ورجعت إلى الله ونهيت نفسي عما نهى الله، ورضيتك شيخا لي ومرشدا لطريقة الرفاعي"(٤٩)، كأنما يتوب من حياته السابقة للدخول في الطريقة، وكأنها قبلها كانت حياة جاهلية.

وفوق هذا، كسرت هذه الطرق ما بقي من رمق لمقاومة المحتلين، فعلَّمت أتباعها أنه حسب الإنسان من حياته العبادة، والعبادة من مستلزماتها التواضع حتى لتهون على الإنسان كرامته، وتسقط عزة نفسه، ويسهل عليه التمرغ تحت أقدام الناس والرضا بظلم الظالمين، وبغي المعتدين، والاغتباط بالذل والهوان، فإن احتمال الظلم رضاء بقضاء الله وعقابه للمظلوم على سوء ما قدمت يداه، ولماذا يثور المظلوم في وجه ظالم؟ ثم إن الظالم لا يقدم على ظلم أحد من الناس إلا وهو في غفلة من ربه، ومثل هذا أحوج إلى عطف المظلوم ومرثاته منه إلى سخطه وغضبه.. هكذا يقولون.

وبتعبير توفيق الطويل في كتابه المرجع "التصوف في مصر إبان العصر العثماني" فإنه بهذه العين الكليلة

---

(٤٧)- نفس المرجع، ص ١٨٩ نقلا عن رسالة ردع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى للشعراني

(٤٨)- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ق ١، ص ٢٦١، وهوامش ص ٢٦٢

(٤٩)- التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مرجع سابق، ص ٧٩ و ٨٧

أحالوا الدنيا إلى مقبرة واسعة النطاق تضم ملايين المخلوقات، وحولوا الحياة إلى موت تتخلله الحركة ويشوبه الكلام، ووضعوا هذه التعاليم التي لا تلائم إلا الضعفاء والجبناء والكسالى وفقراء النفوس ومرضى العقول وساقطي الهمة، وفي الإجمال تسببوا في حالة "شلل عقلي"، وقبول الذل، بل و"السعي إلى الذل"، حتى أنهم أباحوا الشحاتة والتسول بحجة أنهم يحملون الحسنات للناس، وشجعوهم على اصطناع الهوان وإن لم يكن الإنسان حقا في مهانة وفقر[٥٠].

⓬ تضخيم الولاء للأجنبي باسم الدين.. (تقديس شيخ الطريقة)

يربي شيخ الطريقة أتباعه على "الطاعة العمياء"، ويرونه هو أول المستحقين للولاء، ورايته- راية الطريقة الصوفية التي يرأسها- هي الأحق بالسير ورائها- ويشترط على أتباعه أحيانا عدم التصرف في أموالهم أو شئون بيوتهم إلا بإذنه، وذلك رغم أن هؤلاء الشيوخ أكثرهم أجانب ودخلاء دما وفكرا.

بل إنه بتعبير الطويل: "والغريب أن روح العصر كانت لا تسمح بأن يكون الحاكم واحدا من أهل البلد!"[٥١]، وانطبع هذا على شيخ الطريقة، فهو إما فارسي أو مغربي أو حجازي مثل أحمد البدوي (حجازي) ويوسف العجمي (فارسي) وإما مولود في مصر أو عائلته لها كذا جيل فيها ولكنه يتفاخر بأنه من خارجها وبأن عائلته أصلا أجنبية عنها مثل الشعراني (من المغرب) والسادات والبكري (من الحجاز).

ورصد أن التصوف في بدايته بمصر قام به الغرباء حتى أن الخوانق والربط والزوايا نشأت في بداية أمرها خصيصا للوافدين من البلاد الأجنبية، حتى أصبحت مصر محط المتصوفة (العواطلية) من أهل المغرب وتركيا وفارس والشام، ضاربا مثلا عن استهداف مصر بأعداد كبيرة منهم بأن القاسم المغربي دخل مصر وفي صحبته ٥٠٠ فقير (كلمة فقير أطلقها الصوفية على أعضاء حركتهم)، حتى أن استخلاص العناصر المصرية بين المتصوفة أمر عسير كما اكتشف في دراسته، وما أطال أمد هذه الطرق أن مؤسسيها يرثون مشيختها جيلا بعد جيل، ويحرصون على توسعة نفوذهم بشبكة عالمية، حتى يقول الطويل كان شيخ الطريقة يموت في مصر فتُقام له صلاة الغائب في الأقطار الإسلامية النائية، ولهذا دلالته ومغزاه[٥٢]، من دلالته أنهم لا يتمصرون مهما مرَّت السنين، يعيشون بروح حركة عالمية لها سدنتها وكهنتها وأسرارها وعلاقاتها الداخلية والخارجية الخاصة.

وساهم انتشار الطرق الصوفية على أيدي شخصيات لا تعرف الطبيعة المصرية، أو تعرفها وتريد مسحها، في انتشار عادات وسلوكيات همجية، وأحيانا دموية في الموالد، وظهور ما سمى بـ"الدراويش"[٥٣] نشروا الخرافات، وقدموا المجاذيب والنصابين والدجالين على أنهم قديسين وأولياء، وحرصوا على أن

---

[٥٠]- نفس المرجع، ص ٢١١- ٢١٢

[٥١]- نفس المرجع، ص ١٣٣

[٥٢]- نفس المرجع، ١٣- ١٤

[٥٣]- ضمن خرافاتهم ما اشتهر ب"الدوسة"، وفيها ينبطح أتباع الطريقة على الأرض ممدين ومتجاورين، ويجري فوق أجسادهم بسرعة دابة يركبها شيخ الطريقة، متعمما بعمامة خضراء، فمن تنغرس في جسده حوافرها الحادة وتسيل دمائه فهذه إشارة إلى نقص إيمانه، وكأنها اختبار ولاء وإيمان، وهم لا يدرون أن من نجا من الإصابة ليس لأنه قوي الإيمان، ولكن لأن سرعة جري الدابة لا تسمح بإصابة الجميع، انظر: مصر وكيف غدر بها، ألبرت فارمان، ترجمة عبد الفتاح عنايت، الزهراء للإعلام العربي، ط١، ص ٧١- ٧٧.

يكونوا من المجاهيل كي يسهل نسج الأساطير حول صفاتهم وطهارتهم وأصولهم ونسبتهم إلى آل البيت.

وينبه عبد الرشيد بحر في دراسته لحال التصوف في الريف في ذلك العصر إلى أنه "يجدر بنا أن نشير إلى أن موقف الفلاحين في القرى من حركة التصوف هذه لم تتجاوز الاعتقاد في الأولياء والدراويش والتماس بركاتهم ومعجزاتهم ودعواتهم في حياتهم وزيارة أضرحتهم بعد وفاتهم للاستعانة بهم في قضاء حوائجهم ثم المشاركة في موالدهم، في حين لم ينخرطوا في الطرق، بمعنى أن السواد الأعظم منهم لم يكونوا أتباع طرق"، خاصة أن أتباع الطرق حينها يتطلب اعتزال العمل للانقطاع للعبادة[٥٤] وهو ما لا يتوفر للفلاحين المعتمدين في سد رمقهم على سواعدهم، وانتشرت أضرحة الأولياء المجاهيل في القرية أو المركز، يشخص إليها الناس كأنهم يجدون فيها سلوى عن فقدان حكومتهم وقواتهم والقانون العادل.

⑬ حملة على الآثار المصرية وأبو الهول

كالعادة، فإن صناعة الولاء للأجنبي لا تتحقق إلا بنزع الولاء للأرض، أي للوطن، بتاريخه ورموزه وروحه، وشهد عصر المماليك تكريها للناس في التاريخ المصري القديم وآثاره لم يحدث مثلها من قبل، واستغل البعض الحروب مع الفرنجة فيما سمي بالحملات الصليبية وغيرها في القرنين الثالث والرابع عشر لشحن الناس ضد كل ما هو غير مسلم، ومنه ما وصفها بالأوثان، وكان للطرق الصوفية الوافدة دورها الرائد في هذا، فحطم البعض تمثال إيسة "إيزيس" في الفسطاط، وانتزعوا حجارة من معبد في منف لبناء تكية للمتصوفة، وهدموا معبد أخميم[٥٥]، ورغم أن العرب منذ الفتح لم يلجأوا لهدم الآثار باعتبارها "منكرا" وإنما باعتبارها موردا للحجار لبناء المباني الضخمة أو طمعا في الكنوز بداخلها، بل وأشادوا ببراعة وعلوم من بنوا الأهرام وأبو الهول، فإنه أيام المماليك اتهم المقريزي رجلا يدعى صائم الدهر، قال إنه من صوفية الخانقاه الصالحية، بأنه في ٧٨٠ هـ وبحجة "تغيير أشياء من المنكرات" فإنه "سار إلى الأهرام وشوّه وجه أبي الهول وشعثه"، وأن هذا أثار غضب أهالي الجيزة، ويبدو أنه الأمر أثار أسى المقريزي أيضا الذي ردد شعر ظافر الحداد مادحا الأهرام وأبو الهول[٥٦]:

تأمل هيئة الهرمين واعجب ... وبينهما أبو الهول العجيب

كعمار يبتن على رحيل ... بمحبوبين بينهما رقيـــب

وماء النيل تحتهما دموع ... وصوت الريح عندهما نحيب

⑭ توزيع أرض مصر على المحتلين والمستوطنين

ورث الاحتلال المملوكي نظام توزيع الإقطاعيات من الأيوبيين، فالسلطان يستأثر بأجود الأراضي، ثم

٥٤- القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨- ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧ م)، مجدي عبد الرشيد بحر، ص ٢٩٢

٥٥- فراعنة من؟ علم الآثار والمتاحف والهوية القومية المصرية من حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى، ص ٥٣

٥٦- الخطط المقريزية، ج١، مرجع سابق، ص ٣٤٨- ٣٤٩

تليها في الجودة أراضي الأمراء، ثم الجند والقضاة و"الأشراف" (من ينتسبون لآل البيت والصحابة) وكبار شيوخ الأزهر ودخل شيوخ الطرق الصوفية ليأخذوا نصيبا من الكعكة "اللي كأنها مالهاش صحاب".

يتراوح الإقطاع بين نصف قرية ويصل إلى ١٠ قرى، ويُرد الإقطاع إلى السلطان في حالات عزل الأمير أو تقاعده أو الوفاة، وشاع الفساد في هذا الأمر، فكان المملوك مثلا يسجل نفسه على أنه أمير ومملوك سلطاني وجندي في نفس الوقت، فيأخذ ٣ إقطاعات دفعة واحدة[٥٧]، ومارس المماليك منتهى القسوة في تحصيل الخراج، وانفرد كل منهم بدائرة إقطاعه الخراجي وبفلاحيها، وساموهم سوء العذاب، واعتبر نفسه المالك الفعلي للأرض وما عليها من بشر، وأهدر آدميتهم، وجمع ما شاء من مال بجانب الخراج والجزية، فيما الفلاحين في أفخر مأكولاتهم لا يأكلون إلا الشعير والجبن القريش والبصل، وأوصلوا الفلاحين لحالة جعلت ابن خلدون يصف مهنة الفلاحة وأهلها بأنها "معاش المستضعفين"[٥٨].

ولم يعد الفلاحون ممن تحت أيديهم قطع صغيرة من الأرض يحصلون إلا على القليل؛ فلما تكالبت عليهم هموم الأرض وزراعتها ودفع المال وجبروت المملوك تركها بعضهم؛ فانطمست حقوقه فيها[٥٩].

وهكذا تكررت مأساة الفرار والتشرد في أنحاء البلد من الاحتلال الروماني للعربي للمملوكي.

وعلى هذا، انتفى في ذلك العصر نهائيا فكرة الحكومة والدولة، فهي إقطاعيات موزعة بين أمراء حرب أو مرتزقة، أسوأ حالا من إقطاعيين أوروبا في العصور الوسطى، الضرايب ليس لها نظام، بل حسب ما يفرضه صاحب الإقطاع، والجيش ليس له نظام، بل مجموعة مليشيات تتقاتل على النهب والسلب، وقتل الناس يتم في الشوارع بلا محاكم وقضاء، والبلد بلا رأس، ولا كأنها هي البلد التي اخترعت للعالم الدولة والحكومة والنظام، وجسدت أرقى نظم الإدارة التي على أساسها تعلم العالم الحكومة والنظام... ولا كأن !

⑮ كيف اختفى ملايين المصريين؟

حسبما تابعنا يقدر سكان مصر عند بداية الاحتلال العربي بـ ١٢- ١٨ مليون، وحتى من رأى في الرقم مبالغة ففي النهاية بالتأكيد أن المصريين كانوا ملايين كثيرة، والمصريون معروفون بكثرة الإنجاب، ورغم ذلك فالعدد منذ ذلك التاريخ لم يزد، بل نجد أنه عند تولي محمد علي في أول القرن ١٩ هبط سكان مصر ليكون عددهم ما بين ٢- ٣ مليون.

وهنا يقفز السؤال: أين ذهب ملايين المصريين في الفترة من الاحتلال العربي وحتى العثمانلي؟

رأينا أنه في فترة الاحتلال العبيدي فقدت مصر، بحسب المقريزي، خلال مجاعة الشدة المستنصرية ثلث سكانها، ثم فقدت آخرين في مجاعات أخرى في نفس العصر وفي الاحتلال الأيوبي، وتسابقت المجاعات

[٥٧]- للمزيد انظر ملكية الأراضي الزراعية في القرن التاسع عشر، حمدي الوكيل، مرجع سابق، ص ٩٠- ٩٣

[٥٨]- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ٥٨

[٥٩]-انظر المرجع السابق، ص ٩٥

أيضا على حصد المصريين أيام الاحتلال المملوكي ثم العثماني؛ لتصبح أكثر فترات التاريخ التي يتقلب فيها المصريون بين المجاعات والأوبئة "ورا بعض ورا بعض"، ما كان له تأثيره في إبادة ملايين المصريين ونزول عدد السكان إلى هذا الرقم الصادم الهزيل في أول عصر محمد علي.

هذا بخلاف تدوير السيوف فيهم حين كانوا يقومون بأي احتجاج لرفض دفع الخراج الباهظ والاعتداء على أعراضهم، أو تُزهق أرواحهم خلال المعارك التي تدور في الريف بين المتصارعين على الحكم من العرب أو الأتراك أو العبيديين والأيوبيين ثم المماليك، أو خلال غارات العربان، ومن أشهر المجاعات والأوبئة في وقت المماليك ما وقع سنة ١٢٩٦ م حينما انخفض فيضان النيل عن مستواه فيموت كل يوم آلاف من الناس، ووباء سنة ١٣٤٩م، وفي عهد قايتباي وحده انتشر الطاعون ٣ مرات، أشهرها سنة ١٤٩٢ م، وفي عهد السلطان كتبغا حصل غلاء شديد بعد هبوط الفيضان وهبوب رياح ترابية من الغرب أجهزت على الزرع، وخربت قرى بأكملها من كثرة الموتى[٦٠].

وفي كتابه "إغاثة الأمة بكشف الغمة" الخاص بإحصاء المجاعات في مصر طول تاريخها حتى الاحتلال المملوكي سعى المقريزي للوصول لإجابة عن سبب كثرة الطواعين والمجاعات والغلا أيام المماليك، ولخصها في فساد المماليك حتى جعلوا الوصول للمناصب بالرشوة، فلا يهتم أصحابها بصالح الناس، ولا يقضون مصالح الناس إلا بالرشوة والإتاوات، فطفش كثير من الفلاحين من قراهم وتشردوا وقل الزرع، فيما غرق المماليك في عيشة الترف وجمع المال، وصك العملة من غير الذهب والفضة والغش فيها[٦١].

وعن دور السخرة في إهلاك عدد غير قليل من المصريين قال المقريزي عن حودث ٧١٦ ه: "انقطع الجسر المجاور للقناطر الأربعين بالجيزة، فنقص [الماء] عدة أصابع، وجمع لسده خلق كثير، غرق منهم نحو ثلاثين رجلا في ساعة واحدة انطبق عليهم الجسر. ثم جمع من مصر رجال كثيرة، وكتفوا وأنزلوا في مركب وعدتهم سبعون رجلا، فانقلبت بهم المركب فغرقوا بأجمعهم"[٦٢].

ويقول ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة" عن حوادث ٧٣٨ ه إن الناصر محمد بن قلاوون أمر والي القاهرة بتسخير العامة في مشروع خاص به، ولما جاء المسخرون: "فجدّوا في العمل ليلا ونهار، واستحثهم أقبغا المذكور بالضرب، وكان ظالما غشوما، فعسف بالرجال وكلفهم السرعة في أعمالهم من غير رخصة، ولا مكنهم [من] الاستراحة، وكان الوقت صيفا حارا فهلك جماعة كثيرة منهم في العمل لعجز قدرتهم عما كُلفوه، ومع ذلك كله والولاة تُسخر من تظفر به من العامة، وتسوقه إلى العمل، فكان أحدهم إذا عجز [و] ألقى بنفسه إلى الأرض، رمى أصحابه عليه التراب فيموت لوقته، هذا والسلطان يحضر كل يوم حتى ينظر العمل"، ولم يُخفف عنهم إلا حين استغاثوا بالأمير ألطبغا الذي توسط لهم عند السلطان حتى خفف الأمر، ثم تكرر الأمر عند حفر خليج وإنشاء جسر: "وزادوا في ذلك حتى صارت الناس تُؤخذ من المساجد والجوامع والأسواق، فتستر الناس ببيوتهم خوفا من السخرة، ووقع الاجتهاد في العمل، واشتد الاستحثاث، حتى إن الرجل كان يخر إلى الأرض وهو يعمل

---

(٦٠)- انظر: إغاثة الأمة بكشف الغمة، المقريزي، مرجع سابق، ص ١٠٨- ١١٠

(٦١)- انظر: المرجع السابق، ص ١١٥- ١٤٦

(٦٢)- السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين المقريزي، ج ٢ ق ١، محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص ١٦٥

لعجزه عن الحركة فتردم رفقه عليه الرمل فيموت من ساعته، واتفق هذا لخلائق كثيرة[٦٣]".

ولجأ الكثيرون للمقاومة أو للاختباء للنجاة من السخرة، أما من غلبه المماليك بأسلحتهم ومرتزقتهم فمن طريف ما فعلوا أن يلجأوا لحيلتهم المصرية المعروفة ليخففوا عن أنفسهم، وهي الغناء، فيروي ابن إياس وابن تغري بردي أنهم يصطحبون معهم الدفوف والمزامير، وينشدون أغاني العمل، وروي أن بعض العمال لم يستطيعوا جر عمودين ضخمين أثناء تشييد مبنى تحت القلعة، فرددوا أغانيهم الحاثة على العمل حتى جرُّوا العمودين، فأطلقت النساء الزغاريد ابتهاجا بذلك، واشتهرت تلك الأغنية حتى تداولتها الألسنة لفترة طويلة[٦٤].

▼▼▼ سقوط دولة العبيد والجواري

بعد تمكن قبائل الغز التركية من القسطنطينية وما حولها، تطلعت بأطماعها إلى أغنى البلاد، وهي مصر، وإلى البلاد التي بها الحرمين الشريفين، وهي الحجاز، كي تلبس لباس الخلافة الإسلامية بعد سيطرتها عليهما، واستغلت في ذلك التناحر التقليدي بين المماليك، فيما كان العثمانيون في عز فتوتهم وتماسكهم، واستمالوا إمارات وقبايل في شمال الشام ومنها إمارة أبناء ذي الغادر[٦٥].

وجهز السلطان المملوكي قنصوه الغوري جيشا لمحاربة العثمانيين، ولكنه جيش ليس كما يجب، فقد تخلى عنه كثير من المماليك بحجة قلة المرتبات بعد قطع العثمانلية طرق التجارة وهبوط الموارد المالية، وهذا ما كان يهدف إليه العثمانيون لما ضربوا قوافل التجارة والرقيق، كما قيل إن هؤلاء كانوا ساخطين من قنصوه الغوري لأنه يعطي المماليك أتباعه، من مليشياه الخاصة الذين رباهم بنفسه، مخصصات أكثر من بقية المماليك... وهكذا هو حال عديمي الوطن في كل زمان.

واتفق أيضا العثمانيون مع بعض نواب قنصوه الغوري في الشام على أن يعملوا لصالحهم مقابل أن يعطوهم مزايا في حكم مصر إن احتلها العثمانيون، وممن استجاب لهم خاير بك نائب الغوري على حلب، وجان بردي الغزالي نائبه على حماة، وهو ما يذكرنا بالميتانيين والحيثيين الذين عاشوا في نفس المنطقة قبل ٣٠٠٠ سنة وحرضوا الإمارات الشامية على مصر زمن تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني.

وانتهت المعارك بهزيمة المماليك وتسليم حلب للعثمانلية، وانضم للجيش العثماني خاير بك وغيره من المماليك الخونة، وبسرعة البرق غيَّروا في شكل لحاهم لتتماشى مع العثمانيين، ولبسو لبس العثمانيين، واستسلمت له كل مدن الشام حتى وصل إلى مصر التي احتلوها بعد هزيمة المماليك وقائدهم طومان باي في معركة الريدانية (العباسية حاليا) شرق القاهرة[٦٦].

ومن الحوادث الغريبة التي أوردها ابن إياس الذي حضر الغزو أن طومان باي طلب من التجار

---

(٦٣)- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي، ج ٩، ط١، مرجع سابق، ص ٩٤- ٩٧
(٦٤)- أحوال العامة في مصر في عصر المماليك البرجية، أحمد ماجد الجبوري، (ماجستير) جامعة آل البيت، بغداد، ٢٠١٥، ص ١٦٢
(٦٥)- تأسست على أنقاض دولة تترية، وامتدت في أرمينيا وكردستان وديار بكر، وتنصيب حاكمها يتم بأمر من المماليك في مصر
(٦٦)- انظر: تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، عمر الإسكندري وسليم حسن، ١٩١٦، ص ٢- ٨

المغاربة المسموح لهم بحمل السلاح في مصر أن يجهزوا له ألف شخص ليحاربوا مع المماليك فرفضوا، وقالوا: "نحن ما نقاتل إلا الفرنج، ما نقاتل مسلمين"، وأظهروا التعصب لابن عثمان، فهددهم إن لم يفعلوا ليقتل كل مغربي في مصر"،[٦٧] فكان موقفهم غريبا، فلماذا يرفضون القتال ضد العثمانيين بزعم أنهم "مسلمين" في حين يقبلوا أن يظلوا متفرجين على العثمانيين وهم يقتلون المسلمين أيضا في مصر ويغزون البلد التي آوتهم وأكرمتهم وجعلتهم يغتنون بها؟

كذلك نقل ابن إياس أنه أشيع أن ابن عثمان عقد صفقة مع شيخ العرب في الشرقية أحمد بن بقر، ويبدو أن العربان انقسموا في الموقف من العثمانلية، فساندهم البعض، فيما حاربهم آخرون، ولما فرَّ طومان باي إلى البحيرة، وطلب من شيخ أعرابي سبق أن أحسن إليه التخفي عنده، واسمه حسن بن مرعي، فأعطاه الأمان، ولكن خانه، وبلَّغ عنه العثمانلية، فقبضوا على طومان باي في مشهد تفوح منها أنتن روائح الغدر، وانتهت أيامه مشنوقا على باب زويلة وجسده يترنح أمام الناس ٣ أيام[٦٨].

ومن هذه السنة السوداء، ١٥١٧ م/٩٢٣هـ، فتح التاريخ لمصر صفحة هي أسود صفحات كتابها، أسود من عصر حكم المماليك الانفرادي نفسه، وكأن وحش مخيف حدفها في كهف بارد مظلم، مكفن بالدم والسُخرة والفقر والمذلة والجهل والدجل لمدة ٣٠٠ سنة، غلب فيها الغُز العثمانلي الاحتلالات السابقة في التفنن في إذلال المصريين، ونهب حضارتهم، ومص دمائهم، وإبادتهم، ومحو ذاكرتهم.

ويجري هذا فيما أولاد البلد ينكبون مرغمين على زراعة أراضيهم لغيرهم، وبناء القصور والتكايا للغزاة الأوباش والعبيد والجواري، والمستوطنين الأجانب، وتماثيل الأجداد تراقبهم وهي تبكي في صمت.

تبكي بلدا ومُلكا حُرا كريما عزيزا، بناه بأغلى القيم والعرق الرجال، ودافع عنه بأعز الدماء الرجال، وحافظ عليه بأخلص القلوب الرجال، وضيعه بأعجب غفلة وسقطة.. أيضا الرجال.

"إن البوابات [الحدود] التي فوقك كبوابات حامية.... إنها سوف لا تفتح للغربيين، إنها سوف لا تفتح للشرقيين، إنها سوف لا تفتح للجنوبيين، إنها سوف لا تفتح للشماليين، إنها سوف لا تفتح لهؤلاء الذين في وسط الأرض، إنها سوف تفتح لحورس(٦٩)". (نصوص الأهرام)

"إن الذي يفعل الماعت فذلك الذي يكون بعيدا عن الضلال"، "يحل العقاب دائما بالذي يتخطى قواعدها"[٧٠] (بتاح حتب)

(٦٧)- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس، الجزء ٥، ص ١٣٧

(٦٨)- انظر المرجع السابق، ج ٥، ص ١٥٥ و١٧٤- ١٧٧

(٦٩) - القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، نجلاء فتحي شهاب، مرجع سابق، ٢٠١٢، ص ١٢٥- ١٢٦

(٧٠)- انظر: تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

وسمع أحدهم قارئا يقرأ: "غلب الترك في أدنى الأرض"، فقال له إنما هي "غلبت الروم في أدنى الأرض"، فقال القارئ: "كلهم أعداؤنا قاتلهم الله[٧١]"

[٧١]- النوادر الشعبية المصرية، إبراهيم شعلان، ج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢، ص ١٥٥

المشهد ١٥: الاحتلال العثمانلي

١٥١٧- ١٩١٤ م

(الهمج)

(تاريخ الترك مع مصر)

العثمانلية قبائل تركية اسمها "الأوغوز"- جاء منها اسم الغُز- موطنها الأصلي المناطق الجبلية الوعرة بوسط آسيا، عرق ينتسب لعرق أكبر هو المغولي الذي ينتسب له أيضا الصينيون وكثير من سكان شرق ووسط آسيا[٧٢].

وتاريخ الترك مع مصر هو تاريخهم مع جيرانها؛ فهم قبايل رحل، كثرة تنقلهم وقسوة جبالهم جعلت رسالتهم في العالم هي السيف، يحترفون القتال والغزو والسطو على خيرات غيرهم، ومهرة في الحرب وصنع السلاح، وموردا للمرتزقة الذين استعانت بهم الدول التوسعية كالعباسية والعبيدية والأيوبية والسلاجقة، وقذفوهم إلى مصر؛ فذاقت منهم سوء العذاب، ودائما ما كانوا "وش النحس" على الدول التي استعانت بهم، وسبب انهيارها بغدرهم بحكامها واستيلائهم على الحكم بعد استيطانهم فيها كما تابعناهم في الدول العباسية والعبيدية والأيوبية، ولما انهارت دولة السلاجقة التي استعانت بهم وأعطتهم أراضي أقاموا عليها أول كيان مستقر لهم، وكانت مجاورة لبيزنطة، سال ريقهم للسيطرة على بيزنطة، وفتحوها واستولوا على عاصمتها القسطنطينية سنة ١٤٥٣.

وفي نهاية "الاحتلال المملوكي" تابعنا الظروف التي ساعدت العثمانيين على غزو مصر وإسقاط حكم المماليك، وبعد شنق طومان باي على باب زويلة، بقي سليم الأول في مصر ٨ شهور يرتب لتمكين الحكم العثمانلي بها، فعين المملوك الخائن خير بك واليا عليها، والمملوك الخائن الآخر جان بردي الغزالي واليا على الشام، في ذلك قال مؤرخ هذا العصر ابن إياس: "ومن العجائب أن مصر صارت نيابة [أي تابعة لدولة أخرى] بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة، لأنه خادم الحرمين الشريفين، وحاوي ملك مصر"، وعن سليم قال: "ولكن ابن عثمان انتهك حرمة مصر وما خرج منها حتى غنم أموالها وقتل أبطالها وبدد أحوالها"، وأنه فعل فيها ما لم يفعله الخوارج.

ويصف أخلاق وطبايع العثمانيين وصفا يكشف ما شاع عنهم في ذلك الزمان، فقال إن سليم شاه لم

---

[٧٢]- انظر: تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، عمر الإسكندري وسليم حسن، مرجع سابق، ص ١٢- ٢٢

ينصف مظلوما من ظالما، ولم يكن له كلمة ولا عهد، ولا يُرى إلا عند سفك دماء المماليك الشراكسة، وغرق في اللهو، ومن عادته يعطي الأمان للأمراء والمماليك ثم يغدر في أمانه في الحال.

ووصف عساكره بأنهم "جياعين العين، نفسهم قذرة، يأكلون الأكل وهم راكبون خيولهم في الأسواق، وعندهم عفاشة في أنفسهم زائدة، وقلة دين، يجاهرون بشرب الخمور في الأسواق"، وأنهم "لم يكن عندهم أدب ولا حشمة وليس لهم نظام يعرف، وهم همج كالبهائم"، وما فعلوه في مصر لا يساويه إلا ما فعله بختنصر البابلي في تخريب القدس والتتار في تخريب بغداد[٧٣].

▼▼▼ الجيش في الاحتلال العثمالي (أوجاقات عثمانلية- مماليك)

عيَّن السلاطين العثمانلية حامية عسكرية في مصر، ما بين ٦- ٧ أوجاقات، أي فرق، من العثمانلية، وصل عدد مقاتليها في عهد سلطانهم سليمان القانوني إلى ٢٠ ألفا.

وهذه الفرق هي: متفرقة، جاويشان، مستحفظان، عزبان، جمليان، تفكيان، الجراكسة، والثلاثة الأخيرة تسمى السباهية العثمانلية[٧٤]، وهي أشنع الفرق بالنسبة للفلاحين لأنها تتواجد في الريف لحفظ الأمن، فإذا بها تكون خير تعبير عن المثل المصري "حاميها حراميها"، وربما بسببهم خلق هذا المثل، فوصف البكري الصديقي صاحب مخطوطة "كشف الكربة في رفع الطلبة"، عن حوادث عام ١٠١٧ هـ/ ١٦٠٨ م عسكر العثمانلية بأنهم "الجند الأشقيا الليام"، الذين تسببوا في "الأهوال العظام والضرر العام[٧٥]".

وكشاهد عيان، وصف البكري الحال: "وقد كانت مصر قبل الآن قد اختل أمرها، وضاقت معيشة أهلها، وكثر شرها، وخربت قراها، وضعفت فلاحيها، وانفصمت عراها، وانقلبت أحوالها، وخست أموالها، ونقصت غلالها، لما أراد الله تعالى لها في القدم، من نقلها من الوجود إلى العدم، وخراب البلاد، وهلاك العباد، وجلاء الفلاحين، وازدراء الشرع المبين".

ويكمل: "وقد اتسع الخرق، وازداد الحرق، وأصل ذلك كله قيام طائفة من الجند المكتوبين في بلاد الأرياف [السباهية العثمانلية المكلفين بإقرار الأمن في الأرياف] مع كشاف الأقاليم، فأظهروا العناد، وسعوا في الأرض الفساد، وأحدثوا شيئا سموه الطلبة على الفلاحين والمزارعين في ساير الأقاليم، وعلى العماليين والبطالين، وصاروا يضاعفونها في كل سنة من السنين إلى أن زادت على أموال المقاطعات، بل عمت وطمت، ولم يقدر أحد على المرافعات، وذلك غير ما صدر منهم من الأمور الشنيعة والأفعال المنكرة الفظيعة من الزنا واللواط جهارا، وافتضاض الأبكار نهارا، لا يتناهون عن منكر فعلوه، ولا يأتمروا بأمر ولاتهم ولا يمتثلوه".

كما "صار لهم أسمطة وأطعمة غالية المقدار، تحمل إلى خيامهم أناء الليل وأطراف النار، وتهديد

---

[٧٣]- بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن إياس، ج ٥، مرجع سابق، القاهرة، ص ١٥٧، ١٦٠، ٢٠٦-٢٠٨

[٧٤]- انظر: الريف المصري في القرن الثامن عشر، مرجع سابق، ص ٧١- ٨١

[٧٥]- مخطوطة كشف الغمة في رفع الطلبة، محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، مرجع سابق، ص ٣٠٩

الكشاف بما فيه القتل إن قصروا عن ذلك، بل ويسلكون بهم أسوأ المسالك، وصار المسلمون معهم في أمر مريج، ليس لهم منه خلاص، بل أضحوا في غاية التعويج، صار أرذل الجند وأقلهم مقلدا بالسيوف المسقطة، والسروج بالذهب المنقطة والخيول المسومة، والعدد المقومة، والمراد الجميلة المزينة بأنواع الزينة المكملة، راكبين خلفهم أجود الخيول في لهو وفرح لا يزول، وإن وجدوا أيضا ولدا مقبول الصورة أخذوه من والده بالسيف، وقد حصل منهم غاية الحيف، مع الفسق بنساء الفلاحين، وافتضاض أبكار بنات المسلمين، بل قتل بعضهم وسلب ما معه، وغير ذلك من القبايح المنكرة، والحوادث الشنيعة المتكررة[٧٦]".

وفي ذلك تجري عليهم النادرة الشعبية التي شاعت في ذلك الزمان، وتقول: سمع أحدهم قارئا يقرأ: "غلبت الترك في أدنى الأرض"، فقال له: إنما هي "غلبت الروم في أدنى الأرض"، فقال القارئ: "كلهم أعداؤنا قاتلهم الله"[٧٧].

وإضافة لهؤلاء حمل السلاح في مصر أيضا المماليك الذين أبقاهم العثمانلية، ولكنهم صارو أشد قسوة في استعماله عما كانوا، وأطلقوا لسيوفهم وخيولهم العنان أكثر في النهب والقتل والغصب كما سنرى.

♣♣♣ السكان وتعريف المصري في الاحتلال العثمانلي

يوصف الاحتلال العثماني بأنه احتلال مركب، عثماني ومملوكي، ويمكن أن نقول عليه إنه احتلال ثلاثي، عثماني ومملوكي وجالياتي (الجاليات المستوطنة)، وهو ما زاد من مساحة النهب من مصر بإضافة عنصر احتلال جديد دون إزاحة الاحتلال القديم، فزاد بالتالي من الدوس على صدور المصريين.

فمن قبل الخضوع من المماليك للسلطان العثماني استعان بهم كبكوات للسناجق، أي مديرين للمحافظات، ومصر وقتها مقسمة إلى ٢٤ مديرية، ونشر الترك في مصر ألقابا جديدة تخص الحكم وتزيد في تمييز الغُز والمملاليك عن المصريين، مثل الباشا (الوالي العثماني)، وأول من حمله في مصر مصطفى باشا، ولقب الأغا (الشيخ والسيد، والرجل المخصي العامل في الحرملك[٧٨]، وقائد في الجيش)، ولقب بك (محافظ المديرية وتطور لصاحب الأطيان) واللقب قاصر على المماليك، و"الكاشف"، فيقال كاشف الغربية يعني محافظها، وكان من الأجانب عموما، ومن المماليك خصوصا.

وانتشرت كلمة المصرلية لتشير للمماليك لتمييزهم عن جنود العثمانلية "العسكر"، وأيضا سكان القاهرة لشهرتها باسم مصر؛ لذا يلزم الحرص عند تفسير كلمة المصرلية والمصراوية والمصريين في ذلك الزمان، وكان المصريون الحقيقيون يُطلق عليهم العثمانيون والمؤرخون وقتها كلمة الفلاحين أو يدخلونهم ضمن كلمة الرعية[٧٩]، واقتصرت كلمة قبطي على المسيحيين منذ الاحتلال المملوكي، فيما تطلق كلمة فلاحين على المصريين المسلمين، ويدخل في جعبتهم أيضا المسيحيين عند التعميم.

---

[٧٦]- مخطوطة كشف الغمة في رفع الطلبة، مرجع سابق، ص ٣١٠- ٣١١، والريف المصري في القرن الثامن عشر، مرجع سابق، هوامش ص ٧٤

[٧٧]- النوادر الشعبية المصرية، إبراهيم شعلان، ج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢، ص ١٥٥

[٧٨]- قاموس الشتائم المصرية (أصول وحكايات الشتائم)، عمرو المنشاوي، إبداع للترجمة والنشر، القاهرة، ص ٩٧- ٩٩

[٧٩]- راجع أيضا: عجايب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٣، هوامش الملاحق، ص ٧٦٢

وحينها تسلط على رقبة المصريين شاهرا سكينه وظايف جديدة مرتبطة بنظام الخراج العثمانلي، مثل الملتزم، والصراف، والشاهد، ومعظمهم مماليك أو أغراب من الجاليات المستوطنة.

❶ الوالي (الباشا)

وتكسب الوالي لنفسه أموالا طائلة من وراء الفلاحين والمتاجرة في الأرض والامتيازات، ومنها امتياز الالتزام الذي حل محل الإقطاع المملوكي، فهو يشرف على عمليات بيع الالتزامات أو إسقاطها، ويتقاضى حلوانا (عمولة أو سمسرة) عليها.

ويهم المماليك بعزل الوالي لو طلع فرمان على غير هواهم، ويبلغونه رغبتهم في عزله بالقول: "إنزل يا باشا" فيفقد بذلك حق التصرف في منصبه، وعبَّر السلطان العثمانلي أحمد الثالث (١٧٠٣- ١٧٣٠) عن ضيقه من هذا بقوله للوفد الذي أرسله محمد بك جركس يطلب تغيير الوالي محمد باشا: "التمسوا لكم باشا من خشب لتصنعوه على حسب أهوائكم"[٨٠].

❷ شيخ بلد القرية (العمدة في وقت لاحق)

كان في الغالب من مشايخ العرب ليعززوا به سلطانهم في القرى، وقال الشاعر الشعبي "أبو شادوف" على لسان أم مرعوبة على ابنها من قسوة شيخ البلد عموما:

يا ولدي داري حمار خدك   شيخ البلد حط السداد عندك

يا ولدي داري بياض إيدك   شيخ البلد حط السداد عليك

وكتبو في التمائم: "ارحل أيها النمل كما رحلت الرحمة من قلوب شيوخ القرى[٨١]".

❸ الصراف

وهو المكلف بجمع أموال الضرايب المستحقة على الفلاحين، وعبر الشيخ يوسف الشربيني، المعاصر لتلك الأيام في كتابه "هز القحوف في قصيدة أبي شادوف"، عن الخوف من الصراف بشعره الذي اتسم بالقسوة والفظاظة في الكلام عن المصريين وهي سمة معاصريه:

وهم عبيد قابض الأموال   فعندهم كالعم أو كالخـال

ويجلسون عنده في أدب   أو يقف الواحد منهم كالصبي

وأصبحت عبارة "نزلة الصراف"، أي هبوطه على البلد لجمع الضرايب، مصدر فزع للفلاحين، وهو ما

---

(٨٠)- انظر: الريف المصري في القرن الثامن عشر، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ٦٩- ٧١

(٨١)- المرجع السابق، ص ٤١

يكشف سوء العلاقة بين الفلاحين وأجهزة الإدارة التي يتعاملون معها[٨٢].

4 الكاشف (البك)

بمثابة المحافظ حاليا، ونزلة الكاشف المملوكي مرعبة أيضا للفلاحين؛ لأن نزوله للقرية هو وأتباعه نذير شوم بفرض التزامات جديدة، بخلاف الضرايب، وهي الالتزامات الخاصة بتقديم الأكل وأمور المعيشة للجماعة النازلة معه وتسمى "ضريبة الوجبة"، ومثلها مثل ما كان مفروضا عليهم عن نزول جنود رومان أو العرب لقراهم في عصور سابقة، وعبَّر الشاعر الشعبي عن ضيق الفلاح من نزلة الكشاف بقوله:

ومن نزلة الكشاف شابت عوارضي   وصار لقلبي لوعة ورجيف[٨٣]

5 الخولي

مكلف بالإشراف على زراعة ومسح أراضي الوسية الخاصة بالملتزم- والوسية حينها غير أراضي الالتزام فهي أرض يعود عائدها كله لجيب الملتزم- وتوزيع الأرض على الفلاحين لزراعتها بالسخرة أو بأجر[٨٤].

6 المشد

لقب يطلق على المرشد، وهو الذي يبلغ أوامر الملتزم للفلاحين، ويشدهم إلى دار شيخ البلد ليدفعوا الفلوس هناك، ولو بالقوة والإهانة، وذكر الجبرتي أن المشد "يسحب الفلاح الذي يتأخر عن العونة [السخرة] من شنبه ويشبعه سبا وشتما وضربا"، وذكر صاحب كتاب "هز القحوف" أن كل "من تراخى أو تكاسل عن السروح أخذه المشد، وعاقبه، وغرمه دراهم معلومة"، وفيما يخص السخرة إذا احتاج الأمر لشيل الطين من الآبار ولحفر القنوات أو ضم الزرع أمر المشدَ رجلا يقال له الغفير فينادي: "العونة يا فلاحين العونة يا بطالين" يعني الخاليين من العمل، فيخرجون عند صبيحة النهار جميعهم ويسرحون للحفر، أو لكل ما يأمرهم به كل يوم من غير أجرة إلى أن يفرغ الحفر.

واستخرج د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم في رسالته للدكتوراة التي ضمنها في كتابه "الريف المصري في القرن الثامن عشر" من وثائق المحكمة الشرعية أن العربان قاموا بدور الغفير، وأسمتهم الوثائق الرسمية بالعرب المدركين "أي أصحاب الدرك"، وتخصص لهم نظير قيامهم بعملية الخفارة قدر من المال على كل فدان أو حصة ينص عليه في عقد الإيجار المكتوب بين الملتزم والفلاحين، وفي إحدى الحجج التي من هذا النوع نص على أن إيجار الفدان ٣٦٩ نصف فضة: ٣٦٠ للملتزم و٤ أنصاف للشاهد و٥ أنصاف للعرب المدركين نظير غفرهم لطين الحصة.

ولم يتوقف الحال عند ذلك، بل صار العربي هو أيضا يفرض إتاوات وضرايب على الأهالي، وسجل

---

[٨٢]- نفس المرجع، ص ٤٤ و ٤٦

[٨٣]- المرجع السابق، ص ٦٧

[٨٤]- نفس المرجع، ص ٤٦- ٤٩

الجبرتي أن عرب الجباية الذين بيدهم خفارة الشطين الشرقي والغربي من بولاق إلى دمياط استغلوا نفوذهم وفرضوا الضرايب والعوايد الشهرية والسنوية على سكان هذه المناطق(٨٥).

واستعانة الوالي العثمانلي والمماليك بالعربان في مهنة الغفر والحراسة ليتقوا شر إغارتهم على القرى أشبه بمن يدفع الأموال للبلطجي ليكف آذاه عن الحارة بدلا من معاقبته وإجباره على كف آذاه عن الناس.

ويعيد هذا الأمر لذاكرتنا غفلة رمسيس الثالث وغيره حين استعان بالقبايل التي تغير على الحدود الغربية، وترك لهم مهمة حراستها وصد القبايل المغيرة الجديدة، فاكتسبت "شرعية" وجود في مصر، واستغلت هذا في تحقيق مكاسب خاصة بها، وحين دب الضعف في الدولة صاروا غزاة ومحتلين.

وبذلك أصبح الفلاح ملزما بدفع أمواله وعافيته وما في داره من طيور أو محاصيل للسلطان، وللوالي، وللمملوك، وللعربان، وقال صاحب "هز القحوف" موالا عن هذا على لسان الفلاح(٨٦):

يا دنية الشوم طول عمري وأنا أشتد   في هم دي البطن اللي ما تريح حد

أضال أبني وآجي بعد العشا أتمد   أقوم في الصبح ألقى ما بنيتو

وعلى هذا ظل السكان كسابق الاحتلالات نوعان: أصيل وبرَّاني، الأصيل هو المصريين (الفلاحين) السواد الكاسح، وظلوا هم أبناء إيسة وأوزير وحور ومينا ومنتوحتب وأحمس وتحوتمس، فلم يعمل المملوكي والتركي والشركسي والشامي والمغربي والروماني واليهودي والفارسي والأعرابي إلخ فلاحين يزرعون الأرض بأيديهم أو يبنون السدود، أو يحفرون الترع، أو يقاسون السخرة، فظل المصريون معروفون بملامحهم المصرية ومهنهم وأريافهم وحتى من يتسلل منهم للمدن يظل معروفا.

والبرَّاني هو الأجنبي من تشكيلة المماليك والمغاربة واليهود والشوام والأرمن والأعراب وسودان وروم، ومعظمهم في المدن والقليل في الأرياف.

ومن الكتب التي كتبت أيام العثمانلية عن الفلاحين كتاب "هز القحوف في شرح قصيد أبي شادوف" لـ يوسف الشربني، وهو أول كتاب معلوم مخصص لرصد حياة الفلاح، وينقل شكاويه على لسانه، وكأنه يحكي معنا، وإن تعمد الكتاب تحقير الفلاح وطريقته في الكلام والأكل والزواج وحتى الأسامي بمبالغة كاريكاتيرية، وسجل بعض ما يجري في الريف أيضا كتاب "كشف الغمة في رفع الطلبة" لـ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي في القرن ١٧، أما أهم مصدر فهو أرشيف المحاكم الشرعية والمعاملات الحكومية فيما يخص الضريب وعقود الإيجار والالتزام التي يجتهد باحثون حاليا لاستخراجها من ركام

(٨٥)- انظر "الريف المصري في القرن الثامن عشر" مرجع سابق، ص ١٥٠-١٥٢

(٨٦)- حواشي المرجع السابق، ص ١٥٦

السنين؛ فتكشف أحوال السكان، ومن هذه المصادر تظهر الصورة التالية للفلاحين[٨٧].

عاش الفلاحون في القرى عيشة غاية في البساطة والفقر (معظمهم)، في بيوت مبنية من الطوب الني، وغالبا من دور واحد، أما أكلهم فأكثره عيش البتاو من الدرة والشعير، والبصل، والكشك، الفول المدمس، والعدس، البيسارة، الويكة، الملوخية، الفسيخ، الجبن القريش، والمش والبصل، أما الجبن الطرية فيشتريها ليقدمها لموظفي حكومة العثمانلي ضمن ضريبة الوجبة، واللحوم والطيور فأكلها عند الفلاح يعد عيدا، وينقل صاحب كتاب "هز القحوف" أنه في الريف أكلات مثل طاجن مشكشك والفطير والمفروكة واللبن مفتوت فيه العيش السخن والفسيخ والحمام وطاجن السمك في الفرن والرز باللبن، لكنها تظهر في المواسم والأفراح.

وكانت ملابسه كذلك بسيطة من صنع يده، أو من صنع المناسج المحلية المنتشرة في القرى، وتنسجها من القطن أو الصوف بعد غزلهما، والفلاح يعد نفسه سعيدا إذا حاز شيئا من صنع المدينة.

واستمر الفلاح- رغم هذا- هم المنتج رقم (١) في البلد، من بين يديه تتفجر معظم ثروات مصر، وإن كان المحتلون والجاليات الأجنبية تتخطفها من الفلاحين كما يتخطف الطير الحبوب، ويتركون معظمهم ببطون خاوية أو شبه خاوية، ومن يستطع أن يكتنز بعض المال، أو يغتني لبعض الوقت، يسارع العربان لخطفه منه في الغارات، ويتفنن عسكر العثمانلية والمماليك لإفقاره، وصوَّر صاحب كتاب "هز القحوف" حياة الفلاح، فيقول: "فهم دائما في انقباض، وطرد، وجري، وكر وفر وحبس وضرب، ولعن وسب وهوان وشجار وشيل تراب وحفر آبار، وخروج للعونة على جهة السخرة، وتعب شديد بلا أجرة، وإذا كان ذو فضل ضاع فضله، أو ذو عقل ذهب عقله، أو ذو مال أغروا عليه الحكام، أو ذو تجارة نهبوه في الظلام"[٨٨].

ونقل عن الشاعر أبو شادوف ممثلا للفلاح:

هم الفلاحة حيرني   وكل ساعة في نقصـان

ما انفك من هم الوجبة   لما يجي مال السلطـان

ومن ملامح البيئة المصرية وقتها أن كان الفلاح يزرع القمح والأرز والكتان والعصفر والنيلة، ولكن القمح معظم الفلاحين لا تستفيد منه، فهي تأكل الذرة (يسمى عيش البتاو في بعض القرى)، أما القمح فيُدفع كجزء من الضرايب، أو يباع غذاء للأجانب المستوطنين ويشتري بثمنه حاجات أكثر أولوية، أو يُقدم ضمن ما يجبر الفلاح على تقديمه لموظفي العثمانلية في ضريبة "الوجبة"، أو يتم تصديره للخارج مثل المعونات التي تُرسل للحجاز، وصدق على المصريين في ذلك القول "ماله ولا يهناله".

واهتم الفلاح بتربية الدجاج والحمام والحيوانات بكثرة لسد رمقه لبيعها في السوق، وأحيانا كان عائد هذه

---

(٨٧)- استخرج بعضها ونشره د. عبد الرحمن عبد الرحيم عبد الرحمن في: "الريف المصري في القرن الثامن عشر" ، وهو ما ننقل منها الفقرات التالية، انظر، ص ١٩ وص١٤٩

(٨٨)- انظر: الريف المصري في القرن الثامن عشر، المرجع السابق، ص ١٥٢- ١٥٤

الدواجن على الفلاح تافها، وأحيانا يربيها ليقدمها هدايا لرجال الإدارة ويغذيهم بها وقت حلول الوجبة وطلوع الديوان ونزلة الكشاف على القرى(٨٩)، ولو حل بهذه الطيور مرض أو موت يبكي ويصرخ كأنهم من عياله؛ لأنه كما قال الجبرتي "هذه الحيوانات في نظره عليها مدار عمار العالم".

وجنب شغل الزراعة وتربية الحيوانات والطيور كانت الستات والأطفال يعملون في مهن أخرى لمساعدة الأب، منها الغزل في المنازل، وبيع المغزول لتجار المدن، وعملوا في صنع الحصر والبسط والفخار والطوب والبناء وتفريخ الفراخ والنجارة والحدادة وتربية النحل وتبييض النحاس إلخ.

وسعى تجار المدينة- وأغلبهم من الشوام والمغاربة واليهود، لاستغلال الفلاحين بدورهم، وتشير المصادر إلى أنهم أصبحوا يوظفون أموالهم في الريف، مستغلين جهل أصحابه ورضاهم بالقليل، وذلك بتقديم المواد الخام لتصنيعها بأيدي الفلاحين والفلاحات تبعا لمواصفات معينة يضعونها لهم، ولم يكن الأجر الذي يدفعونه لهم يتناسب والجهد المبذول في تصنيع هذه المواد، ويشتري التجار كذلك حاصلات الفلاحين منهم قبل أوان نضجها بسعر أرخص استغلالا لسوء حالتهم الاقتصادية(٩٠).

ومن النوادر أن نرى مصريا صار من الملتزمين (أصحاب أراضي الالتزام)، أو من أصحاب العزوة، وكانت تتم بالصدف، ومن ذلك قصة طريفة رواها الجبرتي عن صالح الفلاح، وقال إنه كان في قرية الراهب في المنوفية ملتزم اسمه علي كتخدا الجلفي أخذ طفل اسمه صالح رهينة من أبيه حتى يجبره على سداد الضرايب، فلما رأى الطفل مستوى العيشة في قصر الملتزم بهره الحال، ورفض أن يعود مع أبيه بعد أن سدد ما عليه، واختار أن يخدم في بيت الملتزم، ومع الوقت استغل خفة روحه وحركته في التنقل من مستوى لمستوى حتى أصبح من أصحاب الأموال، بل واشترى مماليك وجواري، واشترى لهم بيوتا وأدخلهم في الأوجاقات والبلوكات عبر دفع الرشاوى لأرباب الحل والعقد، ووصل به النفوذ إلى أن مماليكه صاروا أصحاب نفوذ وأتباع، ووصفه الجبرتي بأنه "كان من نوادر الزمن".

ويستعرض الرحالة الفرنسي قسطنطين فولني في كتابه "الرحلة إلى مصر وسوريا" سنة ١٧٨٣ مشاهداته عن مصر قبل سنين قليلة من الغزو الفرنسي، فيصف أحوال الفلاحين بعبارات تُظهر أنها لم تختلف عما هي عليه من مئات السنين، فيقول تحت عنوان "حال الشعب في مصر" أنه في حين أن "معظم أراضيها [مصر] في يد البكوات والمماليك ورجال الشريعة"، فإن "الفلاحون آلات مأجورة لا يُترك لهم للمعاش إلا ما يقيهم الموت"، و"ما يحصدونه من أرز وحنطة يذهب إلى موائد أسيادهم، فيما يحتفون الذرة ويصنعون منها خبزا بلا خمير، لا طعم له إذا كان باردا، يختبزون في ملة وقدها من ورث الجواميس والبقر [الجلة]، فهذا الخبز مضافا إلى الماء والبصل النيء قوتهم طوال العام، ويحسبون سعداء إذا تخلل طعامهم هذا شيء من العسل والجبن واللبن الرائب والتمر، أما اللحم والشحم فمادتان يرغبون فيهما كثيرا، ولكن لا أثر لهما في مأكلهم في غير الأعياد الكبرى".

---

(٨٩)- انظر المرجع السابق، ص ١٥٧، ٢٠٧، ٢١٠

(٩٠)- المرجع السابق، ص ١٦٣، ٢١٣، ٢١٨- ٢١٩

ويرتدون زيا يميزهم عن أي أجناس مقيمة في مصر، وهي: "ملبسهم كله عبارة عن قميص من الخام الأزرق وجبة سوداء من نسيج خشن، وتعلو رؤوسهم قلنسوة [الطاقية] من الكتان يطوقونها بمنديل من الصوف الأحمر"، و"مساكنهم أكواخ ترابية يضيق الصدر من قيظها ودخانها، وتحاصرهم فيها الأمراض الناشئة عن الأوساخ والرطوبة والغذاء الردئ، أضف إلى هذه الأدواء الجسدية ما ينتابهم من خوف الغزو والنهب [من البدو العرب] وزيارات المماليك، والانتقامات العائلية، ومشاغل الحرب الأهلية المستديمة. هذه هي صورة تنطبق على كل القرى"[٩١].

وعن ضآلة المماليك قال إن عددهم سواء أمراؤهم أو عبيدهم وكشافة أو معتقين يدور حول ١٠ آلاف، مئات منهم في القرى والآلاف في القاهرة، فيما العسكر العثمانلي نحو ٢٠ ألفا، ولا يُرى المملوك إلا راكبا فرسه؛ لأنه يظن أن السير على القدمين حط من شأنه؛ لذا حرموا على سكان القاهرة ركوب الخيل، ولا تراهم ينتقلون من مكان لمكان وإن كانا متجاوران إلا على الخيل، واصفا إياهم بأنهم "ينطوون على نفوس عبيد في أثواب ملوك"، وأنهم "غرباء عن بعضهم لا تربطهم العواطف الطبيعية التي تجمع بين سائر الناس، ولما كانوا لا أهل لهم ولا أولاد، فلا الماضي فعل شيئا في سبيلهم، ولا هم يفعلون شيئا في سبيل المستقبل، وتراهم جهلة تعودوا الخرافات بحكم التربية، والشراسة عن طريق القتل، والعصيان عن طريق الاضطرابات، والخيانة عن طريق الدسائس"، وهم "بصورة خاصة مستسلمون لهذا النوع المخزي الذي طالما كان رذيلة اليونان والتتر [اللواط]، وهي الأمثولة التي يتلقونها من أسيادهم في السلاح"، متعجبا من أنه "هذا هو نوع الناس الذين يتحكمون اليوم في مقدرات مصر ويرأس الحكومة رجال من هذا الطراز"[٩٢].

ولم يقتصر انغماس المماليك في الترف على البكوات، بل إن مماليكهم الذين لم يرتقوا إلى الرياسة لهم ركائبهم مزينة بأفخر الحرائر ومرقشة من كل جانب بالذهب والفضة، وعومل أهل البلد كأنهم العبيد الحقيقيين والمماليك هم السادة؛ إذ استولى المماليك على جميع الأملاك، إلا ما كان منها موقوفا على الأعمال الخيرية في وصاية العلماء، وتشعث حالة الفلاح حتى صار رثا في ملبسه ومسكنه ومأكله، لا يكاد يفيق من دفع ضريبة شرعية أو غير شرعية حتى يُطالب بدفع أخرى، وإذا امتنع عن الدفع ضرب وعذب حتى يدفع، وربما قُتل من أجل ذلك[٩٣].

وكثرت أيام العثمانلي الهجرات البدوية- بعد أن انكسرت أيام المماليك- التي تسللت للسكن على حواف القرى، مستغلة أن مصر صارت محكومة من الخارج، وأفراد الحكومية الداخلية (الوالي والمماليك) مشغولون في معاركهم.

▼▼▼ نتائج الاحتلال العثمانلي لمصر

---

[٩١]- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، ج٢، مرجع سابق، ص ٩١٨- ٩١٩ (نص رحلة قسطنطين فولني أورده المحقق عبد العزيز جمال الدين ضمن ملاحق الكتاب)

[٩٢]- نفس المرجع، ص ٩١٣- ٩١٨

[٩٣]- انظر الريف المصري في القرن الثامن عشر، مرجع سابق، ص ٢٣٠- ٢٣١

❶ الافتتاحية... مذبحة الـ ١٠ آلاف

ارتكب العثمانلية مذبحة من أكبر المذابح في تاريخ مصر أول ما دنسوا ترابها بأقدامهم، قتلوا فيها ١٠ آلاف ما بين رجال ونساء وأطفال وشيوخ، وبوصف ابن إياس الذي حضر أحداث الغزو فإن "العثمانية طفش في العوام والغلمان من الزعر وغير ذلك، ولعبوا فيهم بالسيف، وراح الصالح بالطالح، وربما عوقب من لا جنى، فصارت جثثهم مرمية على الطرقات من باب زويلة إلى الرملة، ومن الرملة إلى الصليبة إلى قناطر السباع إلى الناصرية إلى مصر العتيقة، فكان مقدار من قُتل في هذه الواقعة من بولاق إلى الجزيرة الوسطى إلى الناصرية إلى الصليبة فوق العشرة آلاف إنسان في مدة هذه الأربعة أيام، ولولا لطف الله تعالى للعب السيف في أهل مصر قاطبة[٩٤]"، وهذا بخلاف من قطعوا رأسه من المماليك.

ومن يصفهم بـ"العوام والغلمان من الزعر"، أغلبهم من الفلاحين الذين لا مأوى ولا نصير لهم، هَجُوا من ظلم وضرايب المماليك وغارات العربان في الريف، فتلقتهم سيوف العثمانلية في شوارع القاهرة.

ويواصل ابن إياس: "وصارت أهل مصر تحت أسرهم"، و"انفتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك من كل شيء فاخر، واحتووا على أموال وقماش ما فرحوا بها قط في بلادهم، ولا أستاذهم الكبير"، وبكى القاضي أبو الفتح السراجي أحد المعاصرين لهذه المآسي منشدا[٩٥]:

نوحوا على مصر لأمر قد جرى ... من حادث عمت مصيبته الورى

الله أكبر إنها لمصيبـــــــــة ... وقعت بمصر ما لها مثل يـرى

ولقد وقفت على تواريخ مضت ... لم يذكروا فيها بأعجب ما جرى

وأتى من التكدير ما لا مخبـــر ... سمـــع به أذن ولا عين تـــرى

ونفى سليم كل أبناء السلاطين المماليك والأمراء وأكثر علماء الأزهر والقضاة وكل من له مكانة وعلم من مصر للقسطنطينية كي يضمن عدم وجود زعماء وقادة يحرضون الناس ضد الاحتلال العثماني من جهة، ولينتفع بخبراتهم في بناء وتنظيم شئون الدولة العثمانية من جهة، واصطحب معه الخليفة العباسي محمد المتوكل من القاهرة أسيرا، وأرغمه على التنازل له عن الخلافة.

❷ سرقة وتجريف الصناعات والحرف المصرية

وارتكب زعيم الهمج "مذبحة الصناعات" أو "مذبحة الحرف"، وهي أنه أمر بلم كل رؤساء الصناعات والحرف المشهورين بأنهم ماهرون و"إيديهم تتلف في حرير" في كل المهن، بل حتى فنان الأراجوز، فنقل

---

(٩٤)- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٥، مرجع سابق، ص ١٥٦

(٩٥)- المرجع السابق، ص ١٥١ و١٩٨- ٢٠٠

ألف صانع وخبير للقسطنطينية لينشروا فيها تلك الصناعات والفنون التي لا يعرفها العثمانيون، ويساهموا في بناء المساجد والمدارس القصور والقلاع، وهو ما تسبب في تعطل ٥٠ حرفة في مصر، بحسب إحصاء ابن إياس[٩٦]، فكانت من أكبر جرايم التجريف في تاريخ مصر، وتأخرت العلوم والفنون فيها بعد حرمانها من يدها الماهرة، ووصف ابن إياس ما حدث بأنه كان عملية "أسر".

وخرج من مصر ومعه ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة، بخلاف ما غنمه مَن التحف والسلاح والصيني والنحاس المكفت والخيول والبغال والجمال، حتى نقل منها الرخام الفاخر، وأخذ من كل شيء أحسنه "ما لا فرح به أباؤه ولا أجداده من قبله أبدا" بتعبير ابن إياس، وكذلك ما غنمه عسكره الذين أطلق يدهم ينهبون الناس كيفما شاءوا، فأخذوا حتى الحمير، وانتهكوا حرمات المساجد، وسرقوا منها حتى القناديل والشموع مثلما فعلوا في مسجد السيدة نفيسة، وقتلوا من وجدوه من المماليك في رحابها[٩٧].

❸ استمرار نهب آثار مصر

لم يكتفِ سليم الأول بما ورثه من حضارة وآثار بيزنطة، بل نقل بعض آثار مصر إلى القسطنطينية، ومنها معظم الآثار والكنوز التي في القلعة وقصور السلاطين والأمراء والمساجد والزوايا، وحتى الكتب وأعمدة الرخام.

وفي ذلك.. فإنه من نفس المكان (بيزنطة)، نفذ نفس الجريمة التي سبق وأن نفذها البيزنطيون، أي نهب آثار مصر، حينما قام إمبراطورهم الروماني تيوديسيوس الأول بسرقة مسلة تحوتمس الثالث ونقلها إلى بيزنطة، ليرثها من بعده- بغير حق للاثنين- سليم الأول، ويستكمل مسلسل نهب مصر، فلا رحم مصر من كان بيزنطيا مسيحيا، ولا عربيا أو تركيا مسلما.

نبكي على مصر وسكانها   قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة   من بعد ما كانت هي القاهرة[٩٨]

❹ سيطرة "رجال الأعمال الدوليين" على تجارة مصر

برز في ذلك العصر الشوام والمغاربة في التجارة والفقه بشكل غير مسبوق، خاصة أنهم اعتمدوا على نظام التوريث، أي توريث المهن والمناصب التي يقتنصونها في مصر، ونظام الاحتكار، أي احتكار عيلة شامية أو مغربية لتجارة أو سلعة معينة، ونظام التكتلات، أي التعاون فيما بين أبناء الجالية بنظام المشاركة في العمل، أو خلط رأس المال، أو عمل الجمعيات، أو القروض، والتربيط بين التجار المستوطنين بمصر

(٩٦)- كثير من الحرف والفنون التي نقلها المصريون إلى الأستانة، وتعطلت لفترة من الزمن ونسيها الناس، عادت لمصر في عصور لاحقة، ولكن باسم أنها صنعة أو فن "تركي" أو "عثمانلي"، وهو في الأصل مصري، مثل فن الشفتشي، وهو شغل من النحاس والذهب بشكل مفرغ تشبه شكل الدانتيل، ويصنع به القناديل ومصابيح الإضاءة والأباجورات والحلي.
(٩٧)- مرجع سابق، ص ١٥٤، ١٧٩، ٢٠٧
(٩٨)- شعر بدر الدين الزيتوني المعاصر للأحداث نقله ابن إياس في مؤلفه "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، ج ٥، ص ١٤٧

وبني جلدتهم في بلادهم الأصلية أو بلاد أخرى في الاستيراد والتصدير لتستحوذ على أكبر نصيب من التجارة أو المناصب كما ظهر في وثائق المحكمة الشرعية بشأن العقود التجارية الوارد أمثلة لها في كتاب "الشوام في مصر منذ الفتح العثماني حتى أوائل القرن التاسع عشر"[٩٩].

فمثلا سيطر إلياس ميخائيل الحلبي على تجارة الجوخ واحتكروا تجارة البن والقماش والحرير والتوابل والسكر والفواكه القادمة من الشام والخرز وسم الفيران والزجاج والحبوب والمشمش وقمر الدين والياميش واللحوم والجلود والسجاد والذهب واللؤلؤ وتجارة الرقيق والصابون، وانشروا بشكل خاص في القاهرة، وخاصة حي الأزهر وخان الخليلي، ودمياط والإسكندرية، وحملت عائلاتهم اسم التجارة التي احتكروها أو سيطروا عليها مثل الحريري، أو اسم المدينة القادمين منها مثل النابلسي والبعلبكي والطرابلسي والحلبي والشامي والغزي، وحملوا لقب الخواجة الذي يطلق حينها ليس على الإفرنجي فقط بل على التجار الكبار، ومنهم الخواجة إسماعيل أبو طاقية الذي وصل نفوذه ليكون شهبندر التجار في مصر في القرن ١٧.

ولعبوا الأدوار التي خلقها الإغريق واليهود في مصر في نشر الوكالات التجارية الدولية التي تمكنهم من احتكار السلع القادمة من الخارج، وكذلك السمسرة والوسيط التجاري والصرافة، وبرز منهم ابن السقا الحموي شيخ طائفة الدلالين والسماسرة، ووصل نفوذهم لإقراض رجال الحكومة والأوجاقات العسكرية، مثلما أقرض الشهبندر أبو طاقية حكام أقاليم المنوفية والغربية والدقهلية أو عمل شراكة معهم[١٠٠] مع ما لهذا من تأثير على قرارات الحكام في منحهم الامتيازات.

وعملوا في كل المهن، من أبسطها إلى أكبرها، كالقباني أي الوزّان والأثاث والحلاقة والصرماتي والخياطة والخبازين والمكارية (سائقي الحمير) والسقا والتحقوا بالوظائف الحكومية؛ فوصلوا بذلك أن صاروا شيوخ معظم طوائف الحرف الكبيرة والصغيرة، واستغلوا ثرواتهم في شراء العقارات والالتزامات والحوانيت والأراضي الزراعية في عدة محافظات[١٠١] فصاروا مجتمعا خاصا بأنفسهم يجدون فيه كل احتياجاتهم، ما زاد من الطبقية والأعراق المتميزة عن بعضها البعض في المدن.

وعلى حس المسيحيين منهم انتشر عدد ونفوذ كنائس الكاثوليك عامة المنافسة للكنيسة المصرية الأرثوذكسية، وأسس أنطون فرعون أول كنيسة للروم الكاثوليك في مصر[١٠٢] ما تسبب في زيادة الطوائف والمذاهب وصراعاتها.

أما المغاربة فجلبهم إلى مصر الاحتلال العبيدي (الفاطمي) حين جاء بقبيلتي كتامة وزويلة، وزالت سطوتهم بعد أن فضّل الأتراك عليهم، فاتجهوا للحرف والتجارة في القاهرة والفسطاط والإسكندرية، وبحسب ما أورده كتاب "المغاربة في مصر في العصر العثماني" برزوا في تجارة السكر والزيوت

---

[٩٩]- انظر: الشوام في مصر منذ الفتح العثماني حتى أوائل القرن التاسع عشر، السيد سمير عبد المقصود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٠٦- ١١٠، و١١٤

[١٠٠]- نفس المرجع، ص ٩٧- ١٠٤- ١٠٥، و ١٢٦، و ١١٤- ١١٦

[١٠١]- نفس المرجع، ص ١٢٥- ١٢٦ و٥٠ و١٣٦- ١٣٨

[١٠٢]- نفس المرجع، ص ١٤٦- ١٤٧

والأقمشة والسلاح وامتلاك العقارات وشراء حصص التزام الأراضي الزراعية وعمل بيوت الصرافة، واشتهر منهم أسرة الخواجة الدادي الشرايبي والسقاط، وفعلوا كالشوام أنهم أقرضوا رجال الحكم ليتحكموا في قراراتهم أو لتهديدهم، وتصاهروا معهم، وبعضهم عمل مليشيات مثل الشرايبي الذي وسع دايرة الربا في مصر أيضا.

واعتمدوا على العصبية في الشغل، بحيث يفضلون تشغيل المغاربة أمثالهم، ويحرصون على عدم تسرب أسرار المهنة لبقية السكان بما فيهم المصريين حتى لا ينافسهم أحد، وعملوا طوايف للمهن خاصة بهم لأجل هذا[١٠٣]، وحرصوا على إضافة صفة "المغربي" لأساميهم، واشتغلوا كالشوام في كل الحرف والمهن حتى لا يحتاجون لغيرهم، -فهم من ينتجون السلعة ومن يبيعونها ومن يدللون عليها، فكأنهم دويلات داخل الدولة-أو فوقها- ولذا كان من تضرب بلده الأزمات أو المجاعات ويفر إلى مصر يجد الطرق ممهدة له سوا بنفوذ أبناء جلدته المستوطنين بها أو بتساهل السلطات الحاكمة معهم.

واتخذ المغاربة مصدر قوة جديد لهم من العصبية القبلية بقدوم قبايل مغربية جديدة أيام المماليك والعثمانلية مثل قبايل هوارة وأولاد علي وزناتة وسليم وبني هلال، عاشت على السلب والنهب لزمن طويل على أطراف القرى والمدن قبل أن تستقر في الداخل بعد أن قنصت حصص من صكوك الالتزام والأراضي حتى صاروا أصحاب النفوذ في الصعيد كهوراة وعرب طه، وهو نفوذ لم تصل له جالية أجنبية أخرى هناك، وكذلك نفوذ في البحيرة وغرب الإسكندرية والمنيا لأولاد علي وعربان محارب، ومن اختار عيشة السلب والنهب منهم نظروا للفلاحين على أنهم "ولدوا خصيصا لإنتاج طعام العربان"، وأنه "لا توجد مهنة أكثر نبلا من أن تعيش من خيرات الغير دون مشقة" بالتعبير الذي أورده أحد علماء الحملة الفرنسية، وعايروا الفلاحين، وقابل الفلاحون هذا بثورات ومعارك ضد العربان واجهها العربان بشن غارات فجائية "كالقضا المستعجل" لتدمير القرى وقتل أهلها[١٠٤]، فطفش بعض الفلاحين منها وجرى عليهم بيت الشعر:

نفيت واستوطن الأغراب في بلدي	ودمروا كل أشيائي الحبيبـاتِ
خانتك عيناكِ في زيفٍ وفي كذبِ	أم غرك البهرج الخداع مولاتي
أصيح والسيف مزروع بخاصرتي	والغدر حطم أمالي العريضات

حقا، خانتها عيناها في زيف وفي كذب حين صدقت مصر منذ مئات السنين توسلات ووعود الأغراب لما ألقوا السلاح وطلبوا الاستيطان والعمل فيها وأوهموها أنهم حائط صد على الحدود... فغدروها.

٥- تحقير الفلاح لكسر عينه وروحه

---

(١٠٣)- انظر: المغاربة في مصر في العصر العثماني، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، منشورات المجلة التاريخية المغربية، ص ٥٠- ٦٩ و٧٩- ٨٠، و٨٣

(١٠٤)- انظر: المرجع السابق، ص ٣٢- ٣٩ و١٢٣

ورغم أن الفلاح هو الأصل الحضاري في البلد، والمنتج الأول، والأكثر تحضر ورقي في سلوكياته رغم فقره وجهله، إلا أن المحتلين والمستوطنين والمتعلمين الذين داروا في فلكهم استمروا في التفنن في وصفه بأشنع الصفات، لإحساسهم من داخلهم بأنه صاحب الأرض، الأصيل الوحيد فيها، وحتى لا يتجرأ على المطالبة بطردهم أو الثورة عليهم، وخاطب العثمانلي الفلاح بقوله: "فلاح خرسيس".

وفي ذلك يقول الدكتور سعيد عاشور في كتابه "المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك" إن جميع مؤلفات ذلك العصر تصف الفلاح بالجهل والتأخر وخشونة الطبع وقذارة المنظر وبالرذيلة، وكتبوا القصص الطويلة لإثبات أن هذه الصفات متأصلة في الفلاح كما فعل يوسف الشربيني في كتابه "هز القحوف في قصيدة أبي شادوف"، وأبو شادوف إشارة للفلاح[١٠٥].

وإذا صادف أن التقى مملوك رجلا أصله من الريف وصل إلى وظيفة كبيرة غضب المماليك وصاحوا: "ما كان في مماليك السلطان من يعتمد عليه إلا هذا الفلاح!"، وإذا تجرأ من يسمونهم بالعوام على المماليك صاحوا فيه: "اخرس يا فلاح يا كلب"، وإذا ولى أمير مملوكي من المتشددين بعض الأقاليم لا يسمح للفلاحين بلبس مئزر أو ركوب الخيل أو تقلد السيف أو حتى يحمل عصا مجلبة بالحديد[١٠٦].

ويزيدوا من تحقير الفلاح إذا أبدى مقاومة لمن يستغلوه وثار عليهم، فورد في "هز القحوف":

لا تصحب الفلاح لو أنه   نافجة أرياحها صاعدة

ثيرانهم قد أخبرت عنهم   بأنهم من طينة واحدة

وقال:

أهل الفلاحة لا تكرمهم أبدا   فإن إكرامهم في عقبه النــدم

يبدو الصياح بلا ضرب ولا ألم   سود الوجوه إذا لم يظلموا ظلموا

فاستكثر عليهم الضجيج بالشكوى، واستكثر عليهم مقاومة الغاصب، وكان إذا تفنن الفلاح في إخفاء ماله حتى لا تنزعه منه أيادي العثمانلية والمماليك والعربان الدموية وصفوه باللؤم وبأسوأ الصفات، وربما منها جاءت كلمة "لؤم الفلاحين"، وهي ميزة لهم وليست عيبا، فهي وسيلة من وسايله في المقاومة وحماية أرزاق أولاده قدر ما يستطيع من غلظة قلوب وأكباد المحتلين.

ولم يقف الأمر بالشاعر عند هذا الحد، وإنما حذر من يريد العلا من المعيشة في الريف قائلا:

لا تسكن الأرياف إن رمت العلا   إن المذلة في القرى ميراث

---

(١٠٥)- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، سعيد عبد الفتاح عاشور، مرجع سابق، ص ٥٧
(١٠٦)- المرجع السابق، ص ٥٧

تسبيحهم هات العلف حط الكلف علق لثورك جاءك المحراث

والشاعر لا تعجبه عيشة الريف لأن أهله يشتغلون بمهنة الزراعة الشريفة، ولكنه لا يحرج من أن يمد يديه لينزع منهم ما لذ وطاب من نتيجة عرقهم، ولا تعجبه سيرة العلف والمحراث التي اختارها الفلاح من آلاف السنين وسيلة حضارته بدلا من أن يأخذ سيفه ويدور يعتدى على بلاد غيره كالمرتزقة والعربان.

وقسى الشيخ حسن حجازي على الفلاحين حين اعتبر أجهزة الإدارة من المصايب التي حلت بهم نتيجة لما حووه من قبيح الفعال، وزاد على ذلك قوله:

وفقرهم ما بين عينيهم مع اسوداد الوجه هذا النكال(١٠٧)

فلا يعجبه سمرة الوجوه التي صبغتها بهم الشمس وهم يكدحون تحتها، فيخرج من بين أيديهم وأرجلهم المغروسة في الطين ما يأخذه الشيخ وغيره بكل قسوة حتى قبل أن يتذوقوه هم.

ويبدو أن طول زمان هذه المعاملة أثرت في نفوس بعض أهل الريف حتى أصيبوا بشعور زائف بالنقص- وهم الأعلون- ومن ذلك أن أحد علماء الأزهر تزوج قاهرية (أي غالبا من المستوطنين الأجانب في ذلك الوقت) فلما قدمت أمه من الريف لزيارته تنكر لها لئلا تعرف زوجته أن أمه فلاحة، وهددها بالضرب إن علم أحد أنها أمه، كما ذكر زكي مبارك في كتابه "التصوف"(١٠٨).

وقبل ٣ آلاف سنة كتب ملك بابل "كادا شمال إنليل الأول" إلى الملك أمنحوتب الثالث يرجوه بأن يزوجه من ابنته، فاعتذر أمنحوتب بحجة أنه "لم يسبق أن أرسلت أميرة مصرية إلى أي إنسان"(١٠٩).

فماذا حصل لبنات المصريين بعد أن غفل بعض أجدادهم عن مؤامرات أعاديهم، وتركوا مصر لتكون "وطنا" لكل أجنبي مدام لا يرفع السلاح؟

صرنَّ "نهيبة" لمن رفع السلاح ومن لم يرفعه، فقد أعطى العربان لأنفسهم حق الزواج من بنات الفلاحين، حفيدات أمنحوتب الثالث، وإذا منع فلاح ابنته عمن يطلبها من العربان فمصيره القتل على حد تعبير الرحالة إدوارد وليم لين، وعلى العكس لم يسمح أعرابي لفلاح بالزواج من ابنته(١١٠)، وأطلقوا المثل: "أرميها للتمساح ولا أعطيها لفلاح"، وأحيانا يُزوجون ابنة الفلاح رغما عن أبيها مقابل ديون تراكمت عليه، كما سنرى في شهادة الشعراني.

ويكلّ عقل الإنسان في تصور كيف تحمل المصريون كل هذه الأعباء والتهديدات من العثمانلي والمماليك والملتزمين والعربان في وقت واحد، وظل الكثير منهم- رغم تأثر البعض- محافظا على أخلاقه

(١٠٧)- انظر: الريف المصري في القرن الثامن عشر، المرجع السابق، ص ١٦٤
(١٠٨)- انظر: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص ٥٧
(١٠٩)- الشرق الأدنى القديم (مصر والعراق)، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ٢١٦
(١١٠)- انظر: الريف المصري في القرن الثامن عشر، المرجع السابق، ص ١٨١- ١٨٩

المصرية الرفيعة ووداعته وسلامة فطرته والحضارة الكامنة بداخله التي عادت لتضئ الدنيا فيما بعد.

6 تضخم جريمة بيع المناصب

يشتري الولاة مناصبهم بالمزاد في دار السلطنة العثمانية، ويترتب على هذا استحلالهم ارتكاب كل الجرائم ضد الناس لانتزاع مال يعوضهم عما اشتروا به المنصب، يغتصبون ويختلسون، ولا يخجل السلطان أن يطالب الوالي بالسداد إن تأخر في دفع ثمن المنصب؛ فمثلا أمر السلطان مراد واليه على الشام أحمد كوجك بأن يدفع للسلحدار ٢٠ ألف ليرة المتبقية عليه في الحساب ليبقى في منصبه[١١١].

وينقل عبد الرحمن الرافعي عن "دي ماييه" قنصل فرنسا في مصر ١٧٩٢ أن "الوالي يشتري ولايته بثمن يتراوح بين ٤٠٠- ٥٠٠ ألف ريال، ولا يوفق إلى تجديد ولايته سنة أخرى إلا إذا أرسل للأستانة هدايا تزيد على ١٠٠ ألف ريال، وعليه أن يرسل الخراج السنوي وقدره ٦٠٠ ألف ريال، وأن يبعث بهدايا من السكر والبن والأرز والشراب والحلوى والغلال لا تقل قيمتها عن ٦٠٠ ألف ريال، وذلك عدا نفقات الحج والجنود في مصر"، وفي المقابل يحصل الوالي على ١٢ مليون فرنك سنويا، وإليه تؤول تركات المتوفين بلا عقب، ويكثر دخله من هذه الناحية إذا وقع وباء في البلاد"، أي كلما حلت مجاعة أو وباء حصد آلافا من الناس، وما أكثر المجاعات والأوبئة في عصرهم، فيذهب إليه وإلى أمثاله أملاك الناس[١١٢].

7 العثمانلية.. صيت عالمي في الفجور واللواط

تابعنا في الحديث عن تفشي وباء اللواط والفجور أن من أول وأكثر من حولوا هذا إلى ظاهرة، وعلنا بلا خشى أو حياء، هم الأتراك، وظهر هذا من وقت الاستعانة بهم مرتزقة، وتفشى حين أصبحوا مماليك حكام وقت الاحتلال المملوكي، وأن دولة آل عثمان (تركيا حاليا) كان لها صيتًا عالميا فيه.

ويسجل ابن إياس حوادث عسكر سليم الأول في هذا الوباء حين اجتاحوا مصر فيقول: "ولما أقام سليم شاه بالقلعة نصب وطاق عسكره بالرملة من باب القرافة إلى سوق الخيل، ثم إن العثمانية نصبوا خيمة في وسط الرملة وجعلوا فيها أدنان بوزة، وخيمة أخرى فيها جفن حشيش، وخيمة أخرى فيها صبيان مردة يحارفون كعادتهم في بلادهم"[١١٣].

ووصف البكري الصديقي صاحب مخطوطة "كشف الكربة في رفع الطلبة"، عن حوادث سنة ١٠١٧ هـ/ ١٦٠٨ م التي عاصرها، فُحش عسكر العثمانلية ومماليكهم في هذا بأن قال بعد أن عدَّد جرائمهم في الريف: "وذلك غير ما صدر منهم من الأمور الشنيعة والأفعال المنكرة الفظيعة من الزنا واللواط جهارا، وافتضاض الأبكار نهارا، لا يتناهون عن منكر فعلوه، ولا يأتمروا بأمر ولاتهم ولا يمتثلوه".

---

(١١١)- النكبات، أمين الريحاني، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، ١٩٢٨، ص ٨٤

(١١٢)- تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، عبد الرحمن الرافعي، ج١،مطبعة النهضة، ط١، ١٩٢٩، ص ٢٣- ٢٤

(١١٣)- "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، ابن إياس، ج ٥، ص ١٦٢- ١٦٣

كما "وإن وجدوا أيضا ولدا مقبول الصورة أخذوه من والده بالسيف، وقد حصل منهم غاية الحيف، مع الفسق بنساء الفلاحين، وافتضاض أبكار بنات المسلمين، بل قتل بعضهم وسلب ما معه[١١٤]".

8 من أين جاءت عادة "أخد التار" بين العائلات؟

تأثر الريف بالصراعات القبلية كما تأثر بالصراعات الحزبية المملوكية، فبسببها انتشر السلاح والعنف في الريف المصري المستقر الوديع، وارتج القرن ١٨ بالصراعات القبلية التي أثرت على الريف في الوجه البحري في ظل غياب حكومة مركزية قوية، ومن أشهرها الصراع بين قبيلة سعد وقبيلة حرام.

وقال يوسف الشربيني في "هز القحوف" عن المناخ القبلي الدموي الذي أشاعتاه القبيلتان:

ويقتلون النفس عند كلمة   إن قال شخص بالضد الذمه

شخص يميل منهم لسعد   للشر يدعوهم وكـل كيـــد

ولحرام آخر يميـــــــل   يصيـح في إغرائــهم يقـول

خذوه من قبل ترون بأسه   ثم اقتلوه واخمـــدو أنفاســه

فيخربون الأرض بالغارات   ويرصدون القتل في الطرقات

أما في الوجه القبلي فنشب الصراع بين صوامعة ووناتنة في طهطا بسوهاج.

وحجم الدور الذي لعبته القبايل العربية في حياة الريف المصري كبير على الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى انقسم السكان من الفلاحين إلى عصبيات تبعا لعصبيات هذه القبايل"[١١٥]، ولهذا تأثيره الخطر على هوية مصر الواحدة فيما بعد، وهو ما أوجد في مصر ما يسمى اليوم بـ"عادة أخد التار" بين بعض العائلات، خاصة في قرى كانت تحت سيطرة هذه القبايل وورثتها منها، فيما لم يكن قبل الاحتلالات للمصريين طريقا لأخذ حقوقهم سوى الطريق الشرعي الذي خطته لهم "ماعت" ليظلوا أمة متحضرة، وهو طريق قوانين الدولة ومحاكمها.

وتقبيل وتحزيب وتقسيم أهل مصر ظهرت بوادره كما تابعنا- ونكرر التذكير لأهمية الربط- مع استيطان تحالف القبايل الخاسوتيمية واحتلالها لمصر بعد الأسرة ٢٠، لأنها قبايل متنافرة وغريبة عن بعضها، وانتقلت بصراعاتها إلى مصر، وفي الاحتلال اليوناني والروماني أخذ إلى جانب ذلك صورة عصبية الجاليات.

[١١٤]- مخطوطة كشف الغمة في رفع الطلبة، محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٢٣، سنة ١٩٧٦ ص ٣١٠- ٣١١، والريف المصري في القرن الثامن عشر، مرجع سابق، هوامش ص ٧٤

[١١٥]- انظر: الريف المصري في القرن الثامن عشر، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ١٦٩، ١٥٨

وفي الاحتلال العربي جاءت القبايل العربية كذلك بصراعاتها وتحزباتها؛ فنشرت- على قلة عددها- الفتن والدماء على خلفية عرقية أو سياسية أو دينية، واستفحل الأمر بقبايل العربان التي وطنَّها في مصر المماليك والعثمانلية- ثم محمد علي فيما بعد- ولا تعرف غير السيف لغة للحياة أو معنى للشرف، ومع غياب نظام قضائي شامل للدولة وملزم للجميع، انعكس هذا على بعض المصريين الذين انضم بعضهم- برغبة منهم أو بالغصب- لمعسكر هذه القبيلة أو تلك، وإن لم يشمل هذا الجميع.

وقام على نشر هذه التحزبات والعصبيات مشايخ القرى، وأكثرهم مشايخ عرب، فيجبرون الفلاحين المتحكمين في أرزاقهم على اتباعهم ومساعدتهم حين يواجهون قبيلة منافسة في قرية أخرى، وزاد في الاحتلال العثمانلي القبايل في بحري وقبلي، وأصبحوا أهل زرع وماشية وفلاحة وضرع ومشايخ القرى وخفرائها، وصار لهم مزارع واسعة، ومنهم قضاة وفقهاء، بحسب المقريزي، عبر صفقات عقدوها مع السلطان جسدها "قانون سليمان نامة" أحيانا ومع خصومهم المماليك أحيانا أخرى ليناصروا فريق مملوكي على آخر، فأخذوا أراضي التزام[١١٦].

وساهم هذا في أن شيخ منهم وهو همام زعيم قبيلة هوارة سيطر لفترة على الصعيد، وهوارة من القبايل التي قدمت إلى مصر في الاحتلال المملوكي، واستقرت سنة ١٣٨٠ م، وأخذت أراضي كثيرة منتفعين من نظام الالتزام الظالم، وبعد الغزو العثمانلي أقرهم السلطان على إمارة الصعيد مقابل أن يجمعوا له المال والغلال من الفلاحين ويسيطروا على بقية القبايل لتتوقف عن النهب والسلب، وظل هذا ساريا حتى سنة ١٥٧٦ لما صدر أمر سلطاني بإقصائهم عن إمارة الصعيد وتسليمها للمماليك، لكن استغلت هوارة ضعف الحكم المركزي في القرن ١٨ وسيطرت على الصعيد من جديد، بل وكونوا جيشا خاصا، وجعلوا للصعيد دواوين في أيديهم، وحكم خاص به يملكونه بتعبير الجبرتي[١١٧]، ونصبوا أنفسهم أسيادا، في تكرار لما حدث نهاية الأسرة ٦ حين سيطر المحافظون على حكم المحافظات لما ضعفت السلطة المركزية، واستعانوا بالأجانب المستوطنين، فتمكن الأجانب من البلاد، وصار بتعبير الحكيم "إيبو ور": "الأجانب مصريين والمصريين أجانب"، أي نصب الأجانب أنفسهم أصحابا للبلاد؛ ما كان سببا في إحدى أكبر سقطات التاريخ.

وبالمثل فإن الفلاحين في وجه بحري عانوا من هجمات العربان؛ ما اضطر السلطة- بدلا من ردع العربان- أن تسند للعربان مهمة الخفارة (الحراسة) فشاركوا في فرض الإتاوات على الفلاحين، مثلهم مثل الملتزمين والمماليك، ومنها ضرايب البراني، وفوق ذلك باتوا يعايرون الفلاحين بأنهم من "يحمونهم" من بقية العربان، فصاروا كبلطجي الحارة يفرض على أهلها إتاوات ليكفيهم شر نفسه وشر أمثاله، ومع ذلك استمرت جرائمهم؛ فنهب عربان العبابدة في ١٧٨٨م قافلة تجار وحجاج، ووصف الجبرتي أفاعيل العربان في بأنها "عربدة": "وعربدت العربان وقطعوا الطرق وعملوا خياناتهم".

وانتهكوا حرمة رمضان، فحكى الجبرتي عن أنه في رمضان ١٢١٤هـ- يناير ١٨٠٠م حصل "وقوف

---

(١١٦)- انظر: المرجع السابق، ص ١٦٩- ١٧٥

(١١٧)- للمزيد انظر عجايب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٢، الملاحق، مرجع سابق، ص ٥٩٣- ٦٢٤

العرب وقطاع الطريق بجميع الجهات القبلية والبحرية والشرقية والغربية والمنوفية والقليوبية والدقهلية وسائر النواحي، فمنعوا السبيل، وَلَوْ بالخفارة، وقطعوا طريق السفّار، ونهبوا المارين من أبناء السبيل والتجار، وتسلطوا على القرى والفلاحين وأهالي البلاد والحرف بالعرى والخطف للمتاع والمواشي من البقر والغنم والجمال والحمير، وإفساد المزارع ورعيها، حتى كان أهل البلاد لا يمكنهم الخروج ببهائمهم إلى خارج القرية للرعي أو للسقي لترصد العرب لذلك، ووثب أهل القرى على بعضهم بالعرب فأخلوهم وتطاولوا عليهم، وضربوا عليهم الضرايب".

وضاق العثمانلي في النهاية بهم فتوالت أوامر السلاطين إلى ولاتهم بالقضاء على العربان، وبخاصة المتجولين، وإجلائهم عن مصر، ومنهم عربان عبد الله بن وافي المغربي الذين طاردوهم في الصحراء الغربية، وقال عنهم يوسف الملواني في كتابه "تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب": "وأوقعهم الله تعالى في النكال والخسران بما فعلوه في سالف الأزمان".

وكسرة العربان الكبيرة جاءت على يد علي بك الكبير بعد أن تحالفوا مع خصومه وسعى لإبادتهم لولا تغلب نائبه محمد بك أبو الدهب عليه.

9 زيادة نشر العصبية المذهبية بين المسلمين

خلال الاحتلال العثمانلي استكمل المتعصبون للمذاهب الأربعة (الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي) تمكينها في أروقة الأزهر، واشتدت المعارك بين المتعصبين لكل منها، وبات كل منهم يلزق بجانب اسمه صفة "الشافعي" أو "الحنفي" إلخ، فيقال مثلا فلان ابن فلان الشافعي، أو فلان ابن فلان المالكي، وكأنها راية وعلم يميز نفسه به، ولم تفرض السلطنة العثمانلية مذهبها الرسمي (الحنفي) إلا في الوظايف الهامة، فيما كانت تشجع المعارك بين أهل المذاهب من باب "فرق تسد"، ورفضت عدة محاولات قام بها علماء لتنقية المذاهب وتوحيدها على مذهب واحد[١١٨].

وصارت العصبية تكون مركبة في شخصية الفقيه أو التاجر أو القاضي الواحد، فيقال مثلا فلان النابلسي الشافعي، أو المغربي المالكي، أي يحتفظ بتعصبه لبلد أجنبي ويضيف له تعصبه للمذهب.

10 فتح البلاد للإرساليات التبشيرية المعادية للكنيسة المصرية

مع نشر التعصب والفرقة المذهبية بين المسلمين، حملت الرياح السموم إلى مصر بداية من أيام العثمانلية عودة التعصب والفرقة المذهبية بين المسيحيين، وكانت خفَّت برحيل معظم الكاثوليك الرومان أيام الاحتلال العربي.

فالقرن ١٧ شهد وفود البعثات التبشيرية إلى مصر استغلالا لعقد اتفاقيات بين السلطنة العثمانلية

(١١٨)- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٢، الملاحق، ص ٣٩٩- ٤٠٨

وأوروبا، على رأسها بعثة "الكابوسين" سنة ١٦٠٩، وهدفها الأول ليس كما يعتقد معظم الناس تحويل المسلمين إلى المسيحية (التنصير)، بل هدفها الأول تحويل المصريين الأرثوذكس إلى المذهب الروماني الكاثوليكي، ليكسبوا أرضا ودعما بداخل مصر لم يجدوه خلال حملات الفرنجة "الصليبية" لاختلاف المذهب، ويكونوا طائفة لهم تصبح مبررا للقناصل الأجانب للتدخل في شئون مصر[١١٩].

⑪ تضخم الطرق الصوفية والدجل لكسر إرادة مقاومة الأجنبي

رغم أن المماليك في الاحتلال العثمانلي ظلوا أصحاب النفوذ الحقيقيين إلا أنهم ظلوا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم غرباء عن البلاد وأهلها، ومن أصول منبوذة.

وهي نفس نظرة السكان لهم، ومنهم علماء الأزهر الذين بدأوا يأخذون تقديرا واسعا في القرن ١٨، فنجد الشيخ علي الصعيدي يقول علانية للأمير يوسف بك نائب محمد أبو الدهب حين طلب منه فتوى تخالف الشرع: "لعنك الله، ولعن اليسرجي الذي جاء بك، ومن باعك، ومن اشتراك، ومن جعلك أميرا"[١٢٠].

وهذه النظرة جعلتهم يحاولون تعويض النقص بإظهار أنفسهم أهل بر وإحسان وتقوى، فزادوا من بناء المؤسسات الدينية والمساجد والأسبلة والكتاتيب والتكايا وأعمال البر والعناية بالقرآن، ونافسهم في ذلك الباشوات الأتراك فأوقف بيرام باشا والي مصر في القرن ١٧ خمس جزر اشتراها من طرح النيل من الروزنامة على مسجد وكتاب وتكية الكلشنية وتكية المولوية، وأحد الباشوات أوقف ٧ بلاد اشتراها من "المحاليل" في إقليم البحيرة على تكية.

ويعلق الجبرتي ساخرا بأن الأمير رضوان كتخدا "كان مولعا بحياة النعيم والترف والخلاعة وإنشاء القصور الفاخرة، ويجاهر بالمعاصي والراح والوجوه الملاح، ومع ذلك فإنه كان يبذل الكثير على وجوه الخير وإقامة المؤسسات الدينية".

فكأنهم يسكتون ضمائرهم عن سماع صرخات الناس بتلك الأعمال، وصدق عليهم القول إنهم كمن يأخذ مال شخص ثم يتصدق عليه بلقمة منه، وينتظر منه الشكر، فإن لم يشكره اتهمه بالجحود ونكران الجميل كما رأينا صاحب كتاب "هز القحوف" يقول[١٢١]:

أهل الفلاحة لا تكرمهم أبدا   فإن إكرامهم في عقبه النـدم

فكأن المتحدث يريد أن يضلل الناس عن أن هؤلاء الفلاحين ينفرون من المماليك والعربان والعثمانلية لأنهم يعلمون تمام العلم أن هؤلاء "المتصدقين" هم لصوص أرضهم وغاصبيها.

ويعلق عبد الوهاب الشعراني في كتابه "الدرر واللُمع" في القرن ١٦ على كيف كان الحكام ومشايخ

---

[١١٩]- انظر: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، إلهام محمد ذهني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٤١

[١٢٠]- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، ج٢، مرجع سابق، ص ٨٨٥

[١٢١]- انظر الريف المصري في القرن الثامن عشر، مرجع سابق، ص ٢٣٠- ٢٣١

العرب ينزعون المال ظلما من الفلاحين ثم ينفقونه على التكايا ليأخذوا الثواب: "وسمعت سيدي عليًا الخواص يقول: إياكم وقبول هدايا الكُشاف ومشايخ العرب من ضحايا وسمن وعسل وغير ذلك، فقد صاروا يأخذونها قهرا من رعاياهم ويجمعونها ثم يفرقونها على من يعتقدون فيه العلم والصلاح، فيقبلها ذلك الشيخ، ويقول: الأصل الحِل مع أنه شاع وذاع وملأ الأسماع أخذهم مثل ذلك من رعيتهم ظلما وعدوانا"، وأنه "من شك في قولي فليسافر إلى بلاد الغربية أو المنوفية أو البحيرة ويسأل الفلاحين في البلاد فإنهم يخبرونه بما قلناه"(١٢٢).

وعلى حس التكايا والشعوذة والطرق الصوفية اشتهر فقهاء الأحجبة والتمائم بل والمفاسد؛ استغلالا لنشفان ريق الناس لمن يرشدهم للطريق الصح، وسبيل النجاة، خاصة وأن مناصب الفقها والفتاوى احتكرها أتراك وشوام ومغاربة وعرب، ولم يهتم معظمهم بما يرشد الفلاحين لكيفية إزاحة الظلم عن كاهلهم، أو مقاومة محتليهم إلا قليل منهم في نهاية القرن ١٨ لما اشتد عسف المماليك على الجميع.

ومما أضعف مقاومة المصريين للمظالم حينها أن الطرق الصوفية تحت شعار السلام والحب والصفاء ارتدت مسوح الراهب الوديع، وحملت غصن الزيتون، تطوف داعية إلى الوئام بين الطوايف، وتطالب مريديها باحتمال الأذى والصبر على الاضطهاد أملا في نيل الثواب ورغبة في اكتساب الصفاء النفسي الذي يؤدي إلى حضرة الله، وطالبت المظلوم بالرضا عن ظلمه، وشكر الله على ما أصابه، بل وعذر من أقدم على إهانته؛ لأنه لم يفعل ذلك إلا لأنه غافل لا يذكر أن المعتدي عليه واحد من عباد الله(١٢٣)، وهذا انعكس على الموقف من المحتلين الحاكمين الظالمين، وكأن مقاومتهم تحدي لإرادة الله.

وهذه الطرق الصوفية شرخت شرخا جديدا في الجسد المصري، فكما سعت المذاهب الدينية إلى تفريق المصريين أحزابا تكفر بعضها البعض، وتسببت القبايل في نشر القبلية بضم بعض المصريين إليها ضد القبايل المنافسة، تسببت الطرق الصوفية في تقسيم بعض المصريين إلى أتباع للشيخ فلان والشيخ علان، ويقدمون له الطاعة العمياء، وقد يشتبكون مع بعضهم نصرة لهذه الطريقة أو تلك.

وفي حين لا يجد المصريون علما لبلدهم يمشون ورائه، تعددت الرايات فوق رءوس المصريين وألوانها، لكل طريقة راية يتبعونها، وقال المقريزي عن هؤلاء المشايخ في كتابه "الخطط"، نافرا من بدعهم السيئة وطريقة معيشتهم وتخاريفهم: "لا يُنسبون إلى علم ديانة، وإلى الله المشتكى".

ووصل عدد الطرق لأكثر من ٨٠ طريقة، توغلت في عروق مصر ومفاصلها، فلكل طريقة معسكر أو مقر في القرى باسم خانقاه وزاوية، بخلاف ضريح الولي المزعوم، ينشر الدجل والشعوذة والتواكل والضعف، ويشفط أموال الفلاحين باسم حجاب وتميمة وندر وهدايا ووجبات وموالد وأوقاف.

وشاعت على ألسنة هؤلاء المدعين في ذلك العصر إجابات توحي للناس بأنه ليس من حقهم مناقشة

---

(١٢٢)- الدرر واللُمع في بيان الصدق في الزهد والورع، عبد الوهاب الشعراني، تحقيق أحمد فريد المزيدي ومحمد عبد القادر نصار، ط١، دار الكرز للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٥٦

(١٢٣)- التصوف في مصر إبان العصر العثماني، توفيق الطويل، مرجع سابق، ص ١٨٢- ١٨٤

أمورهم، وأصبحوا يجيبون على كل سؤال يوجه إليهم بقولهم "دع الخلق للخالق، ولا تعترض على شيء".

وضاق بعض المعاصرين بهم ذرعا بما يفعلونه من افتراءات على الدين ونهب للأموال، وسعوا لمقاومتهم، فمنهم من أطلق عليهم سلاح الشعر لفضح حقيقتهم، مثل قصيدة حسن الحجازي(١٢٤)

احذر أولي التسبيح والسبحة   والتصوف والعكاز والشملة

والدلق والأبريق لا سيمـا   شيوخ إبليس أولي الشعرة

حوت أباليس بتعـداد مـا   حوت شعـوار بل بلا عـدة

فصار أبليس لهم تابعـا   يقول ياللعـون والنجـدة

ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد، ففرضوا لأنفسهم على الفلاحين المنتمين إلى طرقهم عادات وإتاوات يأخذونها منهم متى حلوا عليهم، وزادوا بأن خولوا لأنفسهم أخذ أموال الناس بالباطل في مناطق نفوذهم، كما كان يفعل أتباع الطريقة الأحمدية في الغربية، قائلين إن الغربية بلاد السيد البدوي، ونحن من فقرائه، فكل ما نأخذه حلال لنا، فظهر هدفهم الحقيقي من تقديس هؤلاء، وفوق ذلك، اشتهر أتباع هذه الطرق بارتكاب الفحشاء مع النساء اللاتي يأخذن العهد (البيعة) عليهن، بل ويرتكبون الفاحشة مع الغلمان، وبعض الطرق كانت في حقيقتها إلحاد وكفر بالجنة وبالنار(١٢٥).

وهاجمهم عبد الوهاب الشعراني رغم أنه من الصوفية، ولكنه يرى أن ليس كل المتصوفة سواء، وقال إن طائفة من الفقراء (صفة ادعتها طرق صوفية لأتباعها) "سموا أنفسهم بالصوفية، وادعو الولاية الكبرى، وهم أضل من الأنعام، فصار كل من أذن له شيخه بأن يستفتح الذكر بجماعة... يجمع له جماعة من العوام من أهل الصنائع وغيرهم... ويكلف العباد في هذه الأيام الكدرة النكدة على الخاص والعام، وهو مع هذا يدعي أنه قائم في الخلق مقام نبيهم ﷺ، كفى بذلك كفرا وجهلا وسوء أدب".

والكدرة والنكدة يقصد بها تكليف الناس بمد موائد الطعام والعسل والجبن والأغنام والسمن إلخ في الحضرات والولائم لمشايخ الطرق.

وانتشرت خرافات العلاج الروحاني والسحر وتدبير مكايد للغير، وخلق هذا العداوات بين الأسر في الريف ومشاكل اجتماعية كان لها تأثيرها في جرح ألفة الأخوة بين المصريين(١٢٦).

وبحسب د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم فإنه من أشنع ما تركته هذه الطرق من شروخ في الشخصية المصرية أنها طبعت حياة بعض الفلاحين بطابع الاتكالية والاستسلام للمظالم، لأنهم وجدوا لدى

---

(١٢٤)- للمزيد انظر: الريف المصري في القرن الثامن عشر، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مرجع سابق، ص ٢٣٠- ٢٣٩

(١٢٥)- انظر: المرجع ص ٢٤٠

(١٢٦)- انظر: المرجع السابق، ص ٢٤١- ٢٤٨

شيوخهم الصوفية أقوالا تسوغ لهم الصبر عليها، وتقنعهم بأن هذه المظالم ليست إلا اختبارا من الله لقدرتهم على الإيمان، مثل "واللي انكتب على الجبين لا بد نصبر له"[١٢٧].

12 توزيع أرض مصر على المحتلين والمستوطنين

ساد في ذلك الزمن ما ساد في احتلالات سابقة من إسناد مساحة أرض أو قرى لشخص يلتزم بسداد خراجها ويحتفظ بالباقي، وسُمي في أيام العثمانلي بـ"نظام الالتزام".

وهو يختلف عن نظام الإقطاع المملوكي الذي ألغاه العثمانلية في أن الإقطاع المملوكي يوزعه المماليك على أنفسهم وأتباعهم من المقاتلين كأنه ملكيات خاصة (كالإقطاعات الأوروبية والوسيات الرومانية)، أما نظام الالتزام فإن الأرض توزع على المماليك والسلطان وحاشيتهم وكبار المشايخ والتجار، ولكن لا يتملكونها، بل تظل "ملكا للسلطان"، والملتزم يستفيد بأنه يجمع الخراج وكافة الضرايب المشروعة وغير المشروعة من أرض الالتزام- بأي طريقة كانت- ويلتزم بدفع مبلغ معين من الخراج للسلطان ويحتفظ بالباقي في جيبه، أي كأن مهمته جامع للضرائب مع احتفاظه بحصة منها، والملتزم من المماليك ورجال الأوجاقات ومشايخ العرب وكبار التجار والمسئولين والعلماء وأعضاء نقابة الأشراف، ونساء تبع هؤلاء ونساء من الجواري، ويُسمح له بأن يجبر الفلاحين على زرع أراضي له ببلاش "السخرة" فيما اشتهر بالوسية، ويورث منصبه لأولاده.

واشتهر من الملتزمين التجار الخواجة أحمد حدق المغربي تاجر البن، ومن علماء الأزهر محمد الأمير (من المغرب)، نزل أهله الأول في الصعيد وملكوا نفوذا بسرعة، وتعلموا في الأزهر وأخذوا مناصب، وورثوا الالتزام، ومن أوائل العلماء الذين أخذوا الالتزام الشيخ يوسف الحنبلي (من فلسطين) حضر من نابلس إلى القاهرة ودرس على شيوخها ثم تصدى للتدريس بالأزهر[١٢٨].

فالغريب يأتي ليجد من حكومة الاحتلال ما يؤهله ليغتني في سنين قليلة، ويشتري أو يُمنح المناصب الهامة، وقد يورثها لأولاده، ويسيطر على مساحات واسعة من الأرض، ويتحكم في رقاب الناس وأرزاقهم، كما يصبح من كبار علماء الأزهر فيتحكم في فتاواهم ودينهم بخلفياته الطائفية والعرقية والمذهبية القادم بها من بلده، يساعده في هذا شبكة من المهاجرين السابقين لمصر من بني جنسه أو طائفته ومذهبه، لأنه حرفيا كانت مصر تُعامل على أنها "مالهاش صحاب".

وبجانب نظام الالتزام وجد نظام تأجير الأراضي، ونظام الانتفاع، والأوقاف، واختفت الملكية الخاصة لأن السلطان العثمانلي سار على فكرة أن الأرض كلها ملك للسلطان[١٢٩].

(١٢٧)- انظر: نفس المرجع، ص ٢٤٩- ٢٥٥

(١٢٨)- الريف المصري في القرن الثامن عشر، مرجع سابق، هوامش ص ١٠٧، و١٠٨- ١١٢

(١٢٩)- لمزيد عن توزيعة الأراضي على المحتلين والمستوطنين انظر: المرجع السابق، ص من ٨٦ -٩١، ٩٥- ٩٩

جدول رقم (٢)

بيان بعدد الملتزمين وفئاتهم من واقع دفتري الالتزام

رقم (٧٩٢)، (٧٩٣) ١٢١٢هـ - ١٧٩٧م

الولاية	عدد الملتزمين	مماليك وعسكريون	عرب	نساء	علماء	تجار
جرجا	٢٠٠	٩١	٨٤	—	٢٢	٣
فيوم	١٤٣	٦٥	٤٧	٩	٧	١٥
بهنساوية	٥٤٥	٣٥٩	١١٣	٢٧	٣٧	٩
أشمونين	٢١٩	١٠٨	٦٩	١٧	١٨	٧
أقلام متفرقة	٤٤٣	٢٦٣	٨٩	١٩	٦٧	٥
شرقية	٩٨٧	٥٧٦	١٢٧	٢١٢	٦٥	٧
منصورة	٧٥٧	٤٥١	١١٢	١٣٣	٥٧	٤
فارسكور	١٧	١٣	٢	—	١	١
قليوب	٢٩٥	١٥٧	٦٥	٥٤	١٧	٢
بحيرة	٥٨٣	٣٤٤	١٢٧	٩٧	١٢	٣
أطفيح	٢٣١	١٨٩	٢٥	١٢	٤	١
الجملة	٤٤٢٠	٢٦١٦	٨٦٠	٥٨٠	٣٠٧	٥٧

(١)، (٢) دار المحفوظات العمومية، مخزن (١) تركي، عيون من رقم ١ - ١٣ دفاتر الالتزامات الخاصة بالوجهين البحري والقبلي، حيث قمت بإحصاء هذه الفئات ورتبتها في هذين الجدولين.

عينة لتوزيعة أراضي مصر بنظام الالتزام على المحتلين من عسكريين ومستوطنين (نقلا عن كتاب "الريف المصري في القرن الثامن عشر" د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم[١٣٠])

⓭ نزف المصريين الجزية والخراج والسخرة للأجنبي

اعتبر الرومان مصر "سلة غذاء" الإمبراطورية، واعتبرها العرب "الميرة والمغيث"، واعتبرها الترك "مال السلطان"، واعتبرها الإنجليز "مزرعة القطن" لمصانع لانكشاير، بخلاف أن كل هؤلاء اعتبروها "ممول" رئيسي لحروبهم.

وأيام العثمانلية تلونت أنواع الجبايات على الفلاحين أكثر مما سبق، فضرايب خاصة بالسلطان اسمها الميري (الجزية والخراج ونفقات حروبه مع أوروبا وفتوحاته)، وضرايب وإتاوات ابتدعها المماليك لتمويل معاركهم الخاصة، وإتاوات ونفقات يفرضها العربان ومشايخ طرق صوفية وشيوخ المنصر.

▼ الضرايب الرسمية

(الميري)

فرض العثمانلي على مصر خراجا سنويا يُرسل للأستانة، ويشمل ضرايب الأملاك والأراضي، تسمى بالمال الميري، وشملت: ضريبة الأرض، المضاف، البراني، الفايض، الكشوفية

وفي الريف موكل للمتلزم جمعها من الفلاحين، وعرفها الفلاحون باسم "مال السلطان"، وموعد سدادها

(١٣٠)- نفس المرجع، ص ١٠٦- ١٠٨

مهولا عندهم للقسوة التي تتبع في جمعها.

وذكر الشربيني في كتاب "هز القحوف" في شرحه لحال الفلاح يوم تحصيل هذه الضريبة: "وهو أن النصراني[١٣١] إذا حضر إلى القرية أو الكَفر وفرد المال على الفلاحين حكم الحوالي والقوانين التي جرت بها العادة وشرع في أخذها فيكثر الخوف والحبس والضرب لمن لا يقدر على غلاق المال، فمن الفلاحين من يقترض الدراهم بزيادة [أي بالربا]، أو يأخذ على زرعه إلى أوان طلوعه بناقصٍ عن بيعه في ذلك الزمن، أو يبيع بهيمته التي تحلب على عياله، أو يأخذ مصاغ زوجته يرهنه، أو يتصرف فيه بالبيع ولو قهرا عليها، ويدفع الثمن للنصراني، أو لمن هو متولي قبض المال".

"وإن لم يجد شيئا ولا يرى من يعطيه وخشي الملتزم أو المشد من خرابه (هروبه) من البلد أخذ ولده رهينة عنه حتى يغلق [يدفع] المال، أو يأخذه أخاه إن لم يكن له ولد، أو أحدا من أقاربه، أو يوضع في الحبس للضرب والعقوبة، حتى تنفذ فيه أحكام الله تعالى، ومنهم من ينجو بنفسه فيهرب تحت ليله فلا يعود إلى بلده قط، ويترك أهله ووطنه من هم المال وضيق المعيشة؛ فلابد على كل حال من تغليق المال، ولو حصل من ذلك الهم والنكال كما في المثل الذي اشتهر وعمّ "مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم" وما دام الفلاح شيء من المال فهو في هم شديد ويوم السداد عند الفلاح عيد[١٣٢]"، وسجل الشاعر الشعبي أبو شادوف على لسان الفلاح:

هم الفلاحة حيرني وكل ساعة في نقصـــان ما انفك من الوجبة لما يجي مال السلطـــان

(المضاف)

وفق دفاتر الالتزام فهي ضريبة تضاف للميري في حالة حدوث عجز في مبلغ الخراج المرسل للسلطان بسبب فساد الإدارة، أو في حالة دخول السلطنة في حرب أو قيامها بفتح بلد جديد، أو لو قصر المماليك في دفع ضرايب الالتزام المفروضة عليهم لاستخدامها في حروبهم الداخلية فيكلفون الفلاحين بتسديد النقص.

(الفايض)

وهي الفرق بين إيجار الأرض والضريبة الميري الأساسية المفروضة عليها، وفي أغلب الأحيان يأخذه الملتزم لنفسه، ووصل الحال في القرن ١٨ أنها صارت أكبر من الضريبة الميري نفسها.

(البراني)

---

(١٣١)- كان الصراف يُختار من المسيحيين، ربما تقليدا لما كان قبل وبعد الغزو العربي ولمهارتهم في الحساب، وفي غالب الظن أن كثيرا منهم من ذراري الإغريق والرومان الذين فضلوا البقاء في مصر بعد زوال الاحتلال الروماني وأبقاهم العرب في الإدارة المحلية و في الدواوين التي كانوا مسيطرين عليها قبل مجئ العرب، خاصة مع اتقانهم اللغة اليونانية، لغة الدواوين وقتها، وبانخراطهم وسط المصريين بعد الاحتلال العربي، وحسبهم العرب على الأقباط، لكن بعضهم تكتل على نفسه وميَّزها عن بقية المصريين (مسلمين ومسيحيين) كعادتهم أيام الرومان، واحتفظوا لأنفسهم بأسرار مهن الدواوين وتوارثوها، ويدل على هذا قسوتهم الشديدة في تحصيل الضرايب مع المصريين في الأرياف مسلمين ومسيحيين، وانعزالهم عن قضايا الفلاحين، بل مساهمتهم في معاناتهم، واهتمامهم بالعمل الحكومي والتجاري دون الفلاحة، وتوارث هذه المهن والثروة حتى عصر عيلة محمد علي، ووجود السحنة الرومانية واليونانية على وجوه ذراريهم حتى اليوم، ولو كانوا مصريين خالصين لانخرط في هذه المهنة بقية المصريين من مسلمين ومسيحيين، ولما انحصرت المهن ومظاهر الغنى المتوارث فيهم أيام الاحتلالات في فئة وعائلات معدودة منهم مقارنة ببقية المصريين الفلاحين.

(١٣٢)- انظر: الريف المصري في القرن الثامن عشر، ص ١٢٠- ١٢٦

هو الأكل الذي ألزمت الإدارة الفلاحين أن يقدموه لموظفيها العاملين في القرى، كالسمن والعسل والجبنة والحبوب والدجاج والغنم وغيرها من خيرات الريف، وكان الفلاح يسميها "الوجبة"، وقال عنها يوسف الشربيني في شرحه لبيت أبي شادوف:

ولا ضرني إلا ابن عمي محيلبة   يوم تجي الوجبة عليّ يحيف

ولو كان فقيرا ألزموه بذلك قهرا وإلا حبسه المشد، وضربه ضربا موجعا، وربما هرب، فيرسل المشد إلى أولاده وزوجته يهددهم ويطلب منهم الضريبة، فربما رهنت المرأة شيئا من مصاغها أو ملبوسها على دراهم وأخذت بها الدجاج واللحم وأطعمتهم، وحرمت أولادها من الأكل منه خوفا من ألا يكفي الضريبة.

وأضاف الشربيني أن الفلاح قد يربي الدجاج فلا يأكل منه شيئا ويحرم نفسه وعياله من خوفه من الضرب والحبس، ومثل الدجاج السمن والدقيق فيبقيه لأجل هذه البلية، ويطبخ بالشيرج "زيت السمسم"، ويأكل الخبز الشعير، ويصنع لهم القمح الزريع، ويأكل الجبن القريش المالح ويتكلف شراء الجبن الطري الحلو ويرسله في الوجبة؛ فهي من أنواع الظلم والكل منها حرام.

وألف المؤرخ ابن إياس موالا يطابق هذا الحال قال فيه:

كان بن عثمان مزجا مصر كالضيف   رحل وولى علينا كل صاحب حيـــف

مباشرين يجورو في الشتا والصيف   أطراف أقلامهم تفعل فعال السيف(١٣٣)

(الكشوفية)

ضريبة مخصصة لسد نفقات الإدارة المحلية في الأقاليم، مثل مرتب الكاشف التركي (المحافظ) وترميم الجسور وشق الترع ومرتبات العسكر الترك المحليين.

وبسبب كثرة ثورات أو هروب الفلاحين من القرى رفضا لهذه الحمول وطرق الإهانة في جمعها، اضطر بعض الملتزمين نهاية القرن ١٨، إلى تخفيف بعض الضرايب، وصارت الضرايب الملزمة للفلاحين هي الميري والفايض، وكما وضح من وثائق المحكمة الشرعية أصبح الملتزم يشترط على نفسه في عقد الإيجار بأنه رفع عن كاهل مشايخ وفلاحين الأربع حصص (الخاصة به) كامل السمن والدجاج معتاد الشادية وسمن الشادية وعوايد الصراف والنحرة والعونة وتقادم الملتزم وكامل ما يتعلق بالمتلزم من مصروف وغنم وضيافة وغير ذلك الرفع الكلي، وأن يكون جرف الجسور بأثوار الوسية.

وكان هذا تخفيفا غير مسبوق على الفلاحين منذ زمن طويل، اضطر المتلزمون له اضطرارا بعد رفض

(١٣٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٥، محمد بن إياس الحنفي، مرجع سابق، ص ٢٢٣

الكثير من الفلاحين العمل في الغيطان؛ احتجاجا على سوء المعاملة وكثرة الضرايب[١٣٤].

▼ الضرايب غير الرسمية

ما فات هو الضرايب الرسمية المسجلة، ورغم أنها كفيلة بكسر ظهر الفلاح، لكن الملتزمين أضافوا عليها ضرايب أخرى لا تصل إلى الخزانة أو الأستانة، وهي: الفِرد (جمع فِردة)، والكلف (جمع كلفة)، والمغارم، ورفع المظالم، والطُلبة (حق الطريق)، والعونة، والسخرة.

وتكفي الإشارة إلى ما حدث بين إبراهيم بك ومراد بك من جهة، وإسماعيل بيك الكبير وحسن باشا الجزايري قائد الحملة التي أرسلها السلطان عبد الحميد الأول ١٧٨٩ لتضع حدا للفوضى التي تمر بها البلاد من جهة أخرى كمثال على طرقهم في فرض ضرايب وإتاوات غير رسمية على الفلاحين، فدار صراع مرير بين الجبهتين، وقع العبء الأكبر فيها على الريف، وكثرت الفرد والكلف على القرى، فكلما وطئ أحد الفريقين منطقة قرر فردة جديدة، حتى أن بعض القرى ما تكاد تخلص من تسديد فردة لأحد الفريقين حتى تفاجئ برجال الفريق الآخر يطلبون منها فردة تخصه.

واستغل الكشاف حالة الفوضى هذه وفرضوا مظالم أخرى على أهل الريف، حتى أن الجبرتي ذكر أن "ما فعله كشاف الأقاليم في القرى القبلية والبحرية من المظالم والمغارم وأنواع الفرد والتساويف فشيء لا تدركه الأفهام ولا تحيط به الأقلام، وخصوصا سليمان كاشف البواب بالمنوفية"، ويعلق على ذلك بقوله "فنسأل الله العفو والعافية وحسن العاقبة في الدين والدنيا والآخرة".

(الطُلبة)

ضريبة فرضها العسكر العثمانلية "السباهية" على الناس بأنه كلما احتاجوا المال اصطنعوا أي تهمة للشخص وطالبوه بدفعها تكفيرا عنها، وبدأت في البداية باسم حق الطريق.

وكتب محمد أبي السرور البكري في كتابه "النزهة الزكية في ولاة مصر والقاهرة المعزية" تجربته الشخصية وعن حوادث تصرخ لها السموات السبع كان عليها شاهد عيان مع ضريبة، "الطلبة" في سنة ١٦٠٨، فقال:

"والطلبة معناها أي الغز [الأتراك] يأتون لكاشف الإقليم فيقولون له اكتب لنا على الناحية الفلانية كذا، مما يريدون مثلا، فيقول بأي طريقة اكتب لكم ذلك، فيقولون اكتب أن فلانا اشتكى فلانا من أهالي الناحية الفلانية، فيأمر الكاشف بكتابة ما يقولون ويكتب لهم حق الطريق بقولهم، سواء كان له صحة أو لا، والغالب أن جميع ما يقع من مثل ذلك يكون لا أصل له، بل الجميع لا أصل له، فهذا معنى الطلبة".

وحكى تجربة له: "كان لي بلدة بالمنوفية ومالها ماية ألف نصف فضة؛ فغرمت أنا وأهاليها في الطلبة

---

[١٣٤]- للمزيد عن هذه الضرايب ومعاناة المصريين في الأرياف انظر: الريف المصري في القرن الثامن عشر، ص ١٢٦- ١٣٣

مائتي ألف نصف فضة، وقد جاء لبلدتنا المذكورة شخص من العسكر بطلبة مذكور فيها أن كرم الناحية اشتكى من المادين تحت وحق الطريق ألف نصف فضة، فحين جاء إلى الناحية فرَّ أهلها جميعا، فرأى إمرأة لها ولدين فأخذهم منها، ووضعهما في الخرج، فحين رأت المرأة ذلك ذهب عقلها، فجاءت له بمصاغها وقالت له هذا يساوي زيادة عن ألف نصف، أخذ المصاغ منها، وأخرج الولاد من الخرج، فإذا هم ميتين، فانظروا إلى هذا التجري الذي ما يفعله كافر بخلاف المسلم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[١٣٥]".

وواضح أن هذه الفترة شاع الرعب في عموم البلد، وسميت بحوادث الفتنة، حتى إنه أرَّخ لها إضافة للبكري الصديقي كل من محمد البرلسي السعدي، القاضي الشرعي بالأسكندرية ودمياط ورشيد في مؤلفه "بلوغ الأرب برفع الطب"، ومنهم من أرَّخ لها بالشعر مثل عبد الواحد البرجي، والشيخ عبد المنعم الماطي الذي قال سنة ١٥٨٩:

نظام مصر العزيزة قد غدا مخروم وصار في أرضها القاطن بها محروم

وذلّ فيها العزيز الفاضل المكروم لمّا بتاريخها جارت عليها الـــــروم[١٣٦]

وكان قليل من الولاة من عنده الشجاعة ليقف قصاد توحش المماليك وفرقة السباهية العثمانلية في فرض نفوذهم على الريف وفرض ضرايب خاصة بهم كالطلبة، ومن وقف ضدهم من الولاة ثار عليهم المماليك وأوجاقات السباهية العثمانلية وتآمروا عليهم، لدرجة القتل، كما قتلوا الوالي إبراهيم باشا وأمير معه سنة ١٦٠٤ م، وطافوا برأسيهما في شوارع القاهرة وعلقوها على باب زويلة، حتى جاء محمد باشا ليتسلم منصب الوالي في ١٦١١ م، فتلقى شكاوى من الأهالي من ظلم السباهية، وكان مدركا لما حدث لمن قبله، فاصطحب عند قدومه لمصر قوات قتلت كثيرا من المماليك، ونفى المئات لليمن، فكان يوم فرح، وتسمى بـ "مبطل الطلبة" و"معمر مصر"[١٣٧].

(العونة)

ضريبة تدفع ليس مالا أو من منتجات الريف ولكن من جسد الإنسان بالعمل في أرض الملتزم وحفر القنوات وشيل الطين من الآبار بدون أجر، وبالغصب.

ويقول الجبرتي عنها: "إن العونة إنما تكون في بلاد الملتزمين التي فيها الأوسية [الوسية] وبعض البلاد تكون العونة فيها على رجال معروفين بالبيوت مثلا، فيقولون يخرج من بيت فلان شخص واحد ومن بيت فلان شخصان بحسب ما تقرر عليهم قديما وحديثا، فلا ينفك من عليه العونة منها، وإن مات جعلوها على

---

[١٣٥]- النزهة الزكية في ولاة مصر والقاهرة المعزية، محمد بن أبي السرور البكري، ص ١٨٥ عن حوادث سنة ١٦٠٨ م، تحقيق عبد الرازق عبد الرازق عيسى، العربي للنشر والتوزيع، ط ١، القاهرة، ١٩٩٨

[١٣٦]- انظر مخطوطة كشف الكربة في رفع الطلبة، مرجع سابق، ص ٣١٠-٣١٢، ٣١٨، هوامش ٣٠٩، والريف المصري في القرن الثامن عشر، مرجع سابق، ص ٤٧- ٧٥، ١٣٦- ١٣٧، والروم مقصود بها سلطنة العثمانلية كونها قامت على أرض الروم أي بيزنطة

[١٣٧]- الريف المصري في القرن الثامن عشر، مرجع سابق، ص ٧٥- ٧٦

ولده، وهكذا؛ فهي داهية كبرى على الفلاحين ومصيبة عظمى على البطالين[١٣٨]".

(السخرة)

وإن كانت العونة هي العمل ببلاش في أرض الملتزم، فالسخرة هي العمل ببلاش في أرض ومشروعات الحكومة مثل جرف الجسور السلطانية وغيرها.

وشاع نظام السخرة في زمن العثمانلي بأقبح شكل، فيُجبر الفلاح على زراعة الأراضي الموقوفة على المساجد والمدارس وغيرهما من المشاريع الخيرية ببلاش، في تناقض تام مع الهدف منها، فالبرغم من أنها مشاريع هدفها تخفيف العبء عن الناس بزيادة المساجد والمدارس، إلا أنها تهلك مقابل هذا أرزاق وحقوق وأجساد وأرواح الآلاف عنوة وغصبا، ويذهب خيرها للأغنياء ولدراويش الصوفية العواطلية.

ورفض الكثير من الفلاحين القيام بالعونة والسخرة، ولذا عيَّن المماليك لهم أشخاصا غلاظ القلب مخصصين لنزع الفلاحين من ديارهم بالسلاح حين يرفضون الذهاب.

ويصف الجبرتي مشهد اقتحام عسكر العثمانلية لمنازل الفلاحين: "ووجه (إسماعيل بك الكبير) على الناس قباح الرسل والمعينين من السراجين والدلاة وعسكر القليونجية، فيدهمون الإنسان، ويدخلون عليه في بيته مثل التجردية الخمسة والعشرة بأيديهم البنادق والأسلحة، بوجوه عابسة، فيشاغلهم ويلاطفهم ويلين خواطرهم بالإكرام، فلا يزدادون إلا قسوة وفظاظة، فيعدهم على وقت آخر، فيدخلون الدار وليس فيها إلا النساء، ويحصل منهم مالا خير فيه، من الهجوم عليهم، وربما نططن من الحيطان أو هربن إلى بيوت الجيران، وسافر رضوان بك قرابة على بك الكبير إلى المنوفية، وأنزل بها كل بلية وعسف بالقرى عسفا عنيفا قبيحا بأخذ البلص (الرشاوى) والتساويف، وطلب الكلف الخارجة عن المعقول إلى أن وصل إلى رشيد، ثم رجع إلى مولد السيد البدوي بطندتا (طنطا) ثم عاد وفي كل مرة من مروره يستأنف العسف والجور، وكذلك قاسم بك بالشرقية وعلي بك الحسني بالغربية".

وبحسب الجبرتي أيضا الذي عاصر هذه الأحداث، فإن الأعباء التي أصبح الفلاح ملزما بها "يكل القلم عن تسطيرها، ويستحي الإنسان من ذكرها، ولا يمكن الوقوف على بعض جزئياتها، حتى خربت القرى، وافتقر أهلها، وجلوا عنها[١٣٩]".

كان القضاة والكُشاف يحطون عليه، ويطالبونه بدفع الضرايب والإتاوات، فإن عجز عن الدفع انتزعوا منه أرضه، وأذاقوه العذاب ألوانا وأشكالا: بالمقارع والكسارات وعصر الرأس وإمرار الطونس على ظهره وإدخال البوص بين الظفر واللحم، والتعليق، ووضع الخوذة المحماة بالنار على الرأس[١٤٠].

(ضريبة السوق)

(١٣٨)- المرجع السابق، ص ٢٥٩
(١٣٩)- انظر المرجع السابق، ص ١٣٨- ١٣٩
(١٤٠)- التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مرجع سابق، ص ١٥٣- ١٥٤

كعادة المصريين طول التاريخ، لكل قرية يوم في الأسبوع يسمى "يوم السوق" يبيعون فيه محاصيلهم وطيورهم وحيواناتهم والمشغولات اليدوية، وله نصيب من ضرايب العثمانلية، ويتولى جمعها ملتزم يختص بكل سوق، يشبه ملتزم الأراضي الزراعية.

وشارك تجار في عملية الاستنزاف، فكانوا يستخدمون نوعين من المكاييل، مكاييل كبيرة لما يشتري من الفلاح، ومكاييل صغيرة لما يبيع ما اشتراه منه، ونفس الموضوع في الموازين، فيوفر لنفسه ربحا كبيرا، ونفس الموضوع يعمله بعض الصيارفة لما يكيلوا المحاصيل من الفلاح بمكاييل أكبر من الشون الأميرية، ويحتفظ هو بالفرق.

والأسواق لم تسلم من عمليات الكر والفر والمعارك بين المماليك، فالجبرتي يقول ضمن أحداث صفر ١٢٠٥ هـ – أكتوبر ١٧٩٠ م إن أحمد بك كاشف (محافظ) الدقهلية وأتباعه أصبحوا "يخطفون دواب الناس من الأسواق وخيول الطواحين، ولما سرحوا في البلاد حصل منهم ما لا خير فيه من ظلم الفلاحين مما هو معلوم من أفعالهم".

ورصد الجبرتي في حوادث ١٢١٨هـ- الموافق ١٨٠٣ م: "ويترصدون لمن يذهب إلى الأسواق مثل سوق أنبابه [إمبابة] في يوم السبت لشراء الجبن والزبد والأغنام والأبقار، فيأخذون ما معهم من الدراهم ثم يذهبون إلى السوق وينهبون ما يجلبه الفلاحون من ذلك للبيع، فامتنع الفلاحون عن ذلك إلا في النادر خفية، وقل وجوده، وغلا السمن، حتى وصل إلى ثلثمائة وخمسين نصف فضة العشرة أرطال قباني، وأما التبن فصار أعز من التبر، وبيع قنطاره بألف نصف فضة إن وجد (...) ووقفت الأرنؤوود [العسكر الأرناؤوط] لخطف ذلك من الفلاحين، فكانوا يأتون بذلك في أواخر الليل وقت الغفلة ويبيعونه بأغلى الأثمان، وعلم الأرنؤود ذلك، فرصدوهم وخطفوهم ووقع منهم القتل في كثير من الناس، حتى في بعضهم البعض، وغالبهم [الأرناؤوط] لم يصم رمضان، ولم يعرف لهم دين يتدينون به، ولا مذهب ولا طريقة يمشون عليها، أباحية أسهل ما عليه قتل النفس، وأخذ مال الغير، وعدم الطاعة لكبيرهم وأميرهم، وهم أخبث منهم، فقطع الله دابر الجميع[١٤١]".

وسجَّل عبد الوهاب الشعراني مشهدا نستنتج منه أنه حتى الأوقاف المفروض أنها مرصودة للفقراء وأعمال الخير فإن الفلاح كان يُجبر أحيانا أن يقدم "ضيافة" لناظر الوقف، وأنه كان في زمن سابق على الاحتلال العثمانلي يجد أحيانا نظار وقف في قلوبهم رحمة يردوا له محل "الضيافة" بأحسن منها، ولكن تغير الحال في أوائل عهد العثمانلية.

فيقول في كتابه "الدرر واللُّمع" إن نظار الوقف كانوا يعطون الفلاح الأرز المفلفل والحلو وكساوى له ولعياله إذا جاءهم بالضيافة فكان ذلك من باب المكارمة: "وهذا أمر قد عزَّ في نظار الأوقاف في هذا الزمان، فقلَّ ناظر يفعل مع الفلاح شيئا مما ذكرناه، بل رأيت شخصا من أهل العلم جاءته ضيافة من بلاد

[١٤١]- الريف المصري في القرن الثامن عشر، مرجع سابق، ص ٢٢٣- ٢٢٥

بعيدة فيها أوزة عرجاء، فردها على فلاحه، وقال له: خذها معك إلى بلدك وأرسل لنا غيرها، فحملها الفلاح ثانية إلى بلده ورد له غيرها، هكذا حكى لي الفلاح، وقال: "إنها أوزة ابن أخي اليتيم".

ولم يرد الضيافة التي هي أوزة اليتيم وتكبد الفلاح كذا مشوار ليحضرها لناظر الوقف إلا بطعام الفول: "وذكر لي أنه غدَّى الفلاح فولا حارا بخبز يابس من خبز الخانقاه"[١٤٢].

وهذا مع أن الخانقاه "التكية" تنفق أحلى الطعام والكساء للعواطلية القابعين بها تحت اسم العبَّاد الزهاد الدراويش الذين يتفننون في صنع الخرافات لرسم قداسة حول أنفسهم، وهذه النفقات ينزعها المماليك والولاة والمشرفون على الأراضي نزعا من دم الفلاح لينفقوها على الخانقاه بدعوى التقرب إلى الله.

14 حصد أرواح المصريين بالمجاعات والأوبئة

ضربت مصر في الاحتلال العثمانلي مجاعات وأوبئة فتكت بالكثير من الناس، منها طاعون سنة ١٦٠٣ م، وطاعون سنة ١٦١٩م، ووباء سنة ١٦٢١م الذي ظل يفتك بالبلد ٣ شهور، ومعه غلاء فاحش، ووباء ١٦٢٥ وفيه استولى الوالي قرة مصطفى باشا على أموال الضحايا المتوفين كأنها ملكه الخاص، وأشدهم كان سنة ١٦٤٢م الذي حصد أرواح أكثر مما سبقوه، حتى أنه من كثرة الموت دفن الناس ذويهم من غير صلاة عليها، وخربت ٢٣٠ قرية، وجاء بعده قحط وغلاء، ووباء سنة ١٧٩٠م الذي لم ينجُ منه حتى الأغنياء، فحصد في طريقه أسرة إسماعيل بك شيخ البلد (حاكم القاهرة)، وهو ما خفض سكان مصر كثيرا[١٤٣].

وكشاهد عيان ينقل الرحالة فولني صور للمجاعة التي عمَّت البلد بعد نقص النيل ١٧٨٤ بأنه متوقع أن البلد فقدت سدس سكانها في أحوال "تقشعر من وصفها الأبدان، وتطبع في النفس تأثيرات من الهول والكآبة لا تمحى، فقد كانت الشوارع والساحات العامة- على نحو ما حصل إبان مجاعة البنغال لسنوات خلت- مزدرعة بهياكل منهوكة القوى تستجدي بأصواتها الواهنة شفقة عابري السبل، ولكن على غير طائل، لأن خوف الخطر المشترك حجَّر القلوب، فكان هؤلاء التعساء يلفظون آخر أنفاسهم، فيما هم مستلقون بظهورهم على منازل البكوات التي يعرفون أنها تزخر بالحنطة والأرز، وكثيرا ما كان صراخهم يزعج المماليك فيطاردونهم بأعقاب العصى[١٤٤]".

صحيح أن الأوبئة والمجاعات كانت وقتها تضرب العالم وليس مصر فقط، غير أنه لو وجدت حكومة مصرية مركزية، لا تعمل إلا لصالح أهلها، ولا تتفرغ في صراعات قبلية وعرقية ومذهبية، ولا تسلم الجيش والإدارة لأجانب، لاتخذت الاحتياطات اللازمة من مشاريع للصحة وللري وتخزين وتدبير الحبوب والعدالة في توزيعه تخفف كثيرا جدا من وطأة هذه النكبات.

---

(١٤٢)- الدرر واللُمع في بيان الصدق في الزهد والورع، عبد الوهاب الشعراني، مرجع سابق، ص ٨٥- ٨٦

(١٤٣)- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، سليم حسين وعمر الإسكندري، مكتبة مدبولي، ط ٢، ص ٧٨، ٨٤

(١٤٤)- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، ج٢، مرجع سابق، ملاحق الكتاب، ص ٩١٩- ٩٢٠

⑮ تشرد المصريين في عيشة المطاريد

هذا العنوان قابلناه خلال الاحتلالين الروماني والعربي، ويتردد صداه في أنحاء البلد أيضا خلال الاحتلالين المملوكي والعثمانلي، لاشتراك الجميع في الأساليب.

ويبدو أنه حين حطَّ الاحتلال العثمانلي على مصر كانت مشكلة هجر الفلاحين قراهم على أشدها، حتى أن قانون "نامة سلطان" الذي أصدره السلطان العثمانلي سنة ١٥٢٥، فيه فقرة تلزم مشايخ القرى بأن يحلوا المشاكل التي أجبرت الفلاح أن يهجر القرية، ويحصوا القرى التي أصبحت خاوية على عروشها ويبحثوا عن أصحابها ويعيدوهم إليها، وأن مشايخ القرى ملزمين بإلزام الفلاح بزراعة الأرض. ولهذا ضرورة ملحة حتى تتلقف خزانة السلطان العثمانلي خراجا ثريا من عمل الفلاحين.

وصوَّر يوسف الملوي صاحب"تحفة الأحباب" مشهد هجر القرى بعد إحدى أزمات انخفاض النيل، فقال: "وجاءوا (الفلاحين) من بلادهم، وأتوا مصر (القاهرة)، وامتلأت حارات مصر (القاهرة) وأزقتها، وهلك أهل القرى حتى صار المسافر يمر بالقرية فلا يجد فيها من أهلها إلا القليل".

ومن أسباب الطفشان صراعات المماليك داخل الريف، ويضرب الجبرتي أمثلة، فيقول وقعت "حرب بين العسكر [الفرق التركية] والمصرلية [المماليك] والعربان... عند الخصوص وبهتيم، وجلا أهل تلك القرى، وخرجوا منها، وحضروا إلى مصر بأولادهم وقصاعهم، فلم يجدوا لهم مأوى، ونزل الكثير منهم بالرميلة".

وصوَّر الجبرتي هذه الأزمة أيضا: "وجلت الفلاحون من بلادهم من الشراقي والظلم، وانتشروا في المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع، ويأكلون ما يتساقط في الطريق من قشور البطيخ وغيره، ولا يجد الزبال شيئا يكنسه، واشتد بهم الحال حتى أكلوا الميت من الخيل والحمير، فإذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه وأخذوه، ومنهم من يأكله نيئا من شدة الجوع، ومات كثير من الفقراء بالجوع. هذا والغلاء مستمر والأسعار في الشدة، وعز الدرهم والدينار من أيدي الناس. وقلَّ التعامل إلا فيما يؤكل، وصار سمر الناس وحديثهم في المجالس ذكر المأكل والقمح والسمن ونحو ذلك لا غير".

وغالبا هؤلاء هم الذين كوَّنوا الحارات التي اشتهرت باسم "الحارات والأحياء الشعبية"، لأنها مكونة من المصريين ولاد البلد في القاهرة ومصر القديمة منذ القرن الـ ١٨، وباتت معروفة بأصالة تقاليدها المصرية وبأنها حارات ولاد البلد بعد أن كانت المدينتان مقسمتان لحارات خاصة بالأجانب.

وأحيانا يتجمع أهالي عدة قرى في قرية واحدة ليبتعدوا عن الجند المكلفين بجمع الفِرد، وما يكاد هؤلاء الجند يؤمون هذه القرى التي تجمع فيها الفلاحون حتى يلحقها الخراب ويتركها الفلاحون إلى غيرها، ومن نتائج هذا الأسلوب أن إقليما مثل إقليم المنوفية مثلا لم يبق به في سنة ١٨٠٤ إلا ٢٥ قرية فيها بعض

سكان، وباقي قراه أصبحت خرابا ليس فيها ديَّار ولا نافخ نار على حد تعبير الجبرتي[١٤٥].

وفي بداية تطبيق نظام الالتزام لما ألزمت الإدارة العثمانلية مشايخ القرى بإعادة الفلاحين إلى أراضيهم لزراعتها، سمحت لهم باستخدام أعنف الوسائل، ووصف هذا الجبرتي: "وكان إذا تأخر الفلاح في دفع الضريبة جروه من شنبه، وبطحوه، وضربوه بالنبابيت رجال الملتزم، هذا عدا ما كان يراه من عسف الصراف النصراني من مماطلة في استخراج ورقة الخلاص، وكذلك الشاهد والشاويش الذين كانوا يسيمونه أنواع العذاب".

ولم يرضخ كل الفلاحين للأساليب الخبيثة للطرق الصوفية الداعية إلى الاستسلام والاستكانة أمام هذه المظالم، بل نقرأ في المصادر- حسبما ينقل د.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم عن وثائق العصر- أن بعضهم قتل المعينين لجمع المغارم والكلف والفرد، ولم يرضخوا لهذه المظالم، ويعلق بأنه إن كانت هذه الحالات لم تكن ظاهرة عامة، وإنما لها مغزاها الذي يدل على أن الفلاح مهما هجر قريته فهو مطارد بهذه المظالم من أصحاب النفوذ، ولذا فإنه فضل في بعض الأحيان اللجوء للقتل ليفرج عن مكنون ذات صدره، وتعبيرا عن عدم رضاه عن الأساليب غير الإنسانية التي يتبعها المحتل في معاملته[١٤٦].

ويسجل الشعراني حينها مشهدا من مشاهد تشرد الفلاحين داخل بلادهم: "فصار اليوم كل فلاح خرج من بلده يذوب كما يذوب الملح في الماء (...) لا يجد أحدا يأويه، ثم إذا رجع بعد طول الغربة يرجع كلحانا كالقط الأجرب لا يجد أحدا يسعى في رده إلى وطنه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[١٤٧].

نفيت واستوطن الأغراب في بلدي ... ودمروا كل أشيائي الحبيبـاتِ

خانتك عيناكِ في زيفٍ وفي كذبِ ... أم غرك البهرج الخداع مولاتي

أصيح والسيف مزروع بخاصرتي ... والغدر حطم آمالي العريضاتِ[١٤٨]

♦♦♦ لماذا لم ننتحر؟

لمَّا يضع الواحد نفسه محل أجداده هؤلاء يسأل نفسه كيف كانوا ينظرون لحياتهم، لسبب وجودهم، ولماذا يعيشون؟ فهم إن ثاروا مُزقوا تمزيقا، وإن سكتوا مُزقوا تمزيقا، ولا أمل لبل ريقهم وتطبيب جراحهم تحمله أي رياح.

محرومون من أغلب المتع، محرومون من متعة الأكل، يأكلون نوعا واحد أو نوعين ثلاثة من الطعام

---

(١٤٥)- الريف المصري في القرن الثامن عشر، مرجع سابق، ص ١٣٩ و١٦٦-١٦٨
وأنا أنقل هذه الكلمات من كتاب الجبرتي سمعت في قناة تلفزيونية مذيعة تطمئن الناس إلى أن مصر مهما تعرضت لغزوات أو هجرات وتأثيرات أجنبية إلا أنها لا تتأثر، وقالت نصا: "إلا مصر، عمرها ما تتأثر، دايما هي اللي تبلع غيرها مش غيرها اللي يبلعها، دي أم الدنيا".. فربما حان الوقت لمراجعة هذا الاطمئنان.

(١٤٦)- انظر: المرجع السابق، هوامش ص ١٥٦، و١٦٨

(١٤٧)- البحر المورود في المواثيق والعهود، عبد الوهاب الشعراني، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ١٤٢

(١٤٨)- قصيدة أنا وليلى، كلمات حسن مرواني، ألحان وغناء كاظم الساهر

طول السنة (الخبز والبصل والجبن)، لا يبدلونه إلا في الفرح والعيد، هل إذن لمتعة اللبس والمظهر الحسن؟ إنهم محرومون أساسا من اللبس ومعظمهم لا يملك أكثر من جلابيتين، هل لمتعة الطموح والترقي في المناصب أو التملك والغنى؟ هم أساسا محرومون من المناصب ومن الغنى، هل طيب لمتعة العلم والاستكشاف؟ هم أساسا محرمون من كل أنواع العلم التي فيها استكشاف، يمكن لمتعة ممارسة المواهب والإبداع؟ هم أساسا محصورون في أنواع معينة من المهن ولا يتوفر لهم جو الإبداع وتنمية المواهب إلا قليلا، ويجترون المهارات التي ورثوها من حضارتهم وعصورهم الماضية، إذن لماذا يعيشون ويتحملون وهم الأشراف أولاد الأشراف هذا الذل من الهمج والحلاليف والفجرة والساقطين؟! ما منعهم من عمل حفلات انتحار جماعي؟

لم يتبقَ إذن من متع الحياة لهم إلا ثلاث نعم لم ينزعها منهم الهكسوس، متعة الإيمان بالله، ومتعة الارتباط بالبلد رغم التشرد، ومتعة الزواج والإنجاب ودفءالأسرة، الأولى حفظته من الانتحار، والثانية والثالثة حفظتاه من الاندثار، وبجانبهم روح التكافل المصرية القديمة التي تجعلهم يعينون بعضهم بعضا بأقل القليل، والنخلة والجميزة والنبقة وحشيش الأرض كالخبيزة، ٤ نباتات ساعدت ثمارهم المجانية- أحيانا- في سد رمق المعدمين وصلب عودهم بدل الموت جوعا، نبات نعمة في ريف مصر طعام رباني، بهذه النعم فقط نجا المصري من الإبادة، بهذه النعم فقط تحمل رذايل الهمج والحلاليف، وكأن بداخله نداء يقول له:

"ابقَ.. فسترجع يوما تطفو على السطح، ويسقط القناع، وتعلو بجناحي حور فوق رءوس الكل، فوق كل هؤلاء الهكسوس الطواعين الذين ينهشونك الآن.. ابقَ.. فظهرك ملئ بمن سيخرجون منه ويرفعون اسمك ورسمك من جديد فوق الأمم، ويلتقطون الصولجان.. ابقَ.. "إحنا راجعين"... وهذا وعد".



الفلاح المقاتل رمسيس الثاني.. سنعود

جنة ترعاها الخنازير (الحلاليف)[١٤٩]

تعودت الحلاليف الرعي في الزبالة، عليها تتغذى ومنها تخرج لحومها التي اعتبرها الأجداد زبالة أيضا، وأغلب من اعتدوا على مصر وأذلوها حلاليف تعودوا على عيشة الزبالة، أي أكل الحرام وحقوق الغير، وغفلة المصريين القديمة وهبتهم فرصة أن يرعوا في الجنة لأول مرة.. في مصر.

ووصفت عشرات الكتب في عصور الاحتلال مصر وتغنت بثرائها ومناخها ونيلها وزرعها وما تتفرد به وسط العالمين من صنع الله أو صنع أهلها، ومن يقرأها يحس أن كل من على أرضها يتقلب في النعيم، لا فقر فيها ولا ضنى، فكيف كانت حال مصر وسط ما كان أغلب أولادها يقاسون ما قاسوا في الاحتلالات؟

يقول ابن زولاق والسيوطي والبغدادي وغيرهم من مقيمين في مصر أو رحالة زائرين[١٥٠] إن خيرات مصر تنوعت، فمن غلالها ونباتاتها: القمح والشعير والذرة والأرز والقطن والكتان والبرسيم والريحان، ومن فواكهها وحلوها: التين والدوم والموز والليمون والبلح والخوخ والتفاح والكمثرى والبرقوق والموز والرمان والعنب وقصب السكر والبطيخ والشمام وقرع العسل والجميز والنبق والخروب، ومن خضرواتها وبقولها: الباذنجان والعدس والفول والبصل والثوم والبسلة واللفت والجزر والفجل والقنبيط واللوبيا والحمص والقرطم والعصفر وأعشاب الدواء، ومن أخشابها: الأبنوس وخشب اللنج والسنط، ومن زهورها: البنفسج والياسمين والنيلوفر والبشنين والنرجس والورد.

ومن أسماكها: أم الخلول والبلطي والبوري والبساريا وسمك موسى والأبرميس، ومن طيورها: الدجاج والحمام والوز والبط والسمان، ومن طيور زينتها: الكروان والقمري والعصافير، ومن حيواناتها: البقر والجاموس والخراف والماعز والجمال والخيل وليس مثلها في الدنيا، ويروي بن زولاق أنه لفخامتها كان الخلفاء يفضلون ركوبها.

كذلك من حيواناتها: النعام والأرانب والغزلان والزرافة والحمير، وأعجب البغدادي بالحمير في مصر لسرعتها ورشاقتها حتى قال في كتابه "الإفادة والاعتبار" إنها لو جرت مع الخيل النفيسة لعلها تسبقها، وأعجب بنوع بقر اسمه الخيسية عظيمة القرون غزيرة اللبن، وتصدر للخارج.

ومن أكلاتها: الكباب ومكفن بالصلصة، والدجاج بالسكر والمسك، والفسيخ والأجبان والألبان والرز المفلفل والمتوكلية والنيدة (فطاير) والكنافة والزلابية والقطايف والفالوذج (حلوى من عسل ونشا) والعدس والمدمس والصحناة والدلينس (الملوحة وأم الخلول) والعصيدة وعيش الكعكا والقنود (كيزان العسل) والحمص المسلوق والهريسة بالفستق ورغيف الصينية المحشي بلحم الخراف والسنبوسك والويكة

---

(١٤٩)- مثل مصري انتشر أيام المماليك والعثمانلية عن الست الحلوة لما تتجوز راجل وحش، انظر: العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي، جون بوركهارت، ترجمة إبراهيم شعلان، ط ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٢١٣

(١٥٠)- لمراجعة الأوصاف السابقة عن مصر والاستزادة انظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٢، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، ص ٣٩١- ٤٤٨، وفضائل مصر وأخبارها وخواصها لابن زولاق، تحقيق علي محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٩٧- ١٠٣، والإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، عبد اللطيف البغدادي، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٦١- ١٠٢ وص ١١٨- ١٢٣

والملوخية والقلقاس، ومن شرابها: شربات العسل، وبحسب ابن زولاق كان الخلفاء يطلبونه من ولاة مصر، وشربات الزبيب والليمون والبوظة وشراب البنفسج، وقيل يوجد في مصر كل وقت من الزمان من المأكول والمأدوم والمشموم وساير القول والخضر جميع ذلك في الصيف والشتاء، لا ينقطع من شيء لبرد ولا لحر.

ومن صناعاتها: النسيج في دمياط وتنيس والإسكندرية وأخميم والبهنسا كالستور، والكوفية، والتطَريز، وتصدر هذا برة حتى قيل "ليس في الدنيا ملك جاهلي ولا إسلامي يلبس خواصه وحرمه غير ثيابها" والمفروشات، والسجاد، والتلي في أخميم، وصناعة القراطيس (البردي) ولا توجد إلا في مصر، والسكر، والسلاح من سيوف ورماح، الزجاج وفنون الخشب، والسفن، وغيرها، وبجبالها الذهب والفضة والياقوت والزمرد وليس في الدنيا زمرد مثله إلا في مصر.

وبها من أنواع المدارس والخوانق والزوايا والعماير الجليلة معدومة المثال، المسقوفة بالأخشاب، والمدهونة الملمعة بالذهب واللازورد، المفروش غالبها بالرخام، حتى حماماتها في الأسواق بالرخام من كثرته، حتى حرص الفاتحون على اقتلاعه لحمله لبلادهم كما فعل سليم العثمانلي.

وعن فرحة العين طوال فصول السنة لما تراه من جمالها، قالوا إن نيلها يطبقها (يغطيها في الفيضان) فتصير كأنها فضة بيضاء، ثم ينضب عنها (بعد الفيضان) فتصير مسكة سوداء، ثم تزرع فتصير زبرجدة خضراء، ثم تستحصد فتصير ذهبة صفراء.

وحكى ابن زولاق في كتابه "فضائل مصر وأخبارها وخواصها" عن أعجوبة أن مناخ مصر وأرضها جعلوا وكأن كل الأشياء في الدنيا من زرع وصحاري ومراعي وجبال وسهول تتجمع فيها في مساحة صغيرة في أي مكان في واديها، فيقول إن أمير مصر (الوالي) موسى بن عيسى وقف بالميدان عند بركة الحبش بالفسطاط، فالتفت يمينا وشمالا، وقال لمن معه من جنده: أترون ما أرى؟

قالوا: وما يرى الأمير؟

قال: أرى عجبًا، ما في شيء من الدنيا مثله، أرى ميدان أزهار، وحيطان نخل، وبستان شجر، ومنازل سكنى، وجبانة أموات، ونهرًا عجاجًا، وأرض زرع، ومراعي ماشية، ومرابط خيل، وساحل بحر، وقانص وحش، وصائد سمك، وملاح سفينة، وحادي إبل، ورملا وسهلا وجبلا، فهذه سبعة عشر؛ مسيرها في أقل من ميل في ميل.

أما آثارها التي تركها الأقدمون فتعلو على الوصف، وقال الحكماء إنها معدن الحكمة التي انتشرت في أيدي الناس، ولخص أبو بكر بن سلار هذا في أشعاره:

لعمرك ما مصر بمصرٍ وإنمـــا ... هي الجنــة العلـيا لمن يتفكر

فأولادها الولدان من نسـل آدم ... وروضتها الفردوس والنيل كوثر

والأسمى من نعم الجنات والبطون والمساكن، نعمة السكينة والطمأنينة التي كانت تعمر صدور أهلها، وقيم ماعت وحكمتها المسطورة في الدولة القوية الحامية، قبل الانزلاق في جهنم الاحتلالات.

في هذه الجنة التي خلقتها بعد الله أيدي أبنائها، من حكمة وزرع وحيوان وجواهر وصناعات وآثار ومن كل خير مختلف الألوان.. يرعى فيها الأغراب، المحتلون السفاحون، فأكلوا وجاع أهلها، ولبسوا وتعرى أهلها، وسكنوا وتشرد أهلها، وسرقوا حكمتها ونسيها أهلها، ودخلوها آمنين وفزع أهلها...

حين نسوا وصية الأجداد الأزلية الأبدية:

"إن البوابات [الحدود] التي فوقك كبوابات حامية.... إنها سوف لا تفتح للغربيين، إنها سوف لا تفتح للشرقيين، إنها سوف لا تفتح للجنوبيين، إنها سوف لا تفتح للشماليين، إنها سوف لا تفتح لهؤلاء الذين في وسط الأرض، إنها سوف تفتح لحورس[١٥١]".

فاستحقت أبناؤها حين فرَّطوا فيها عقاب الإله وتحذير بتاح حتب:

"إن الذي يفعل الماعت فذلك الذي يكون بعيدا عن الضلال"، "يحل العقاب دائما بالذي يتخطى قواعدها"[١٥٢].

فإلى متى العقاب يارب؟

▲▲▲ أين الثورات الكبرى؟

ثار المصريون ثورات ضخمة وصلت لحروب كما تابعنا ضد الفرس وآشور واليونان والرومان والعرب، وآخر الثورات الكبرى الثورة البشمورية سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) في عصر الخليفة المأمون، أظهر فيها المصريون قدرة على الصمود والمواجهة لشهور أذهلت الجميع، حتى عجز أمامهم جنود الوالي فاستغاثوا بالمأمون الذي فزع بنفسه من بغداد واجتاح أرض النيل بجيش جديد لقمع الفلاحين.

ولمدة ألف سنة لم تحدث ثورة بحجمها رغم المظالم والمذابح التي تعرض المصريون لها، وإن كان الفلاحون لم يقفوا جامدين أمام هذه الإهانات، فكانت ثوراتهم تأخذ شكل المعارك الفردية أو على مستوى انتفاضة قرية أو معارك مع موظفي وقوات الإدارة المحتلة والعربان المعتدين، أو التحايل في تخبئة أموالهم إن وجدت، أو المقاومة السلبية بالهروب من القرى إلى قرى أخرى أو إلى المدن، أو حرق محاصيل من ظلمهم، أو الامتناع عن العمل، أو الشكوى إلى الوالي وشيوخ الأزهر.

ومن ذلك اقتحامهم سجن الكشوفية بمدينة المنصورة لإطلاق سراح المقبوض عليهم ظلما سنة ١٦٨٠، وفي السنبلاوين بالدقهلية قبض العسكر خلال جولاتهم لتغريم القرى على فلاحين فتصدت البلدة لهم ودارت

(١٥١) - نصوص الأهرام، القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، مرجع سابق، ص ١٢٥- ١٢٦
(١٥٢)- انظر تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

معارك عنيفة بالعصى والنبوت والسلاح الأبيض، قتل فيها وجرح عدد كبير من الطرفين، وانتهت باقتحام المرتزقة القرية وفرار أهلها وهدم أسوارها عقابا لها، وتكرر الأمر، وصار الملتزمون معرضون للسب والشتم وحتى القتل أحيانا(١٥٣).

وفي ١٧٧٨ امتنع الفلاحون في طهطها بالوجه القبلي عن دفع الضرايب، فتوحد الكُشاف (المماليك حاكمي المحافظات) ضدهم لإخماد تمردهم، لكن الفلاحين انتصروا عليهم ودمروا قوتهم العسكرية التي جاءت للقضاء عليهم، وارتفعت الروح المعنوية، وتكرر مثل هذا في قرى أخرى(١٥٤).

ولكن أين ذهبت الثورات الكبرى التي تشمل مصر بأكملها؟!

للإجابة احتمالات.. مجرد احتمالات تحتاج لمراجعات ودراسات:

١- من بعد الاحتلال العبيدي أصبح معظم المصريين مسلمين، وتمكنت منهم- فكرة "شرعية" الخلافة الإسلامية وأن الخروج عليها يقوي أعداء الإسلام؛ فمعظم ثورات المصريين ضد الفرس والرومان والعرب إلخ كان المحتل يخالفهم في الدين أو المذهب وليس له سلطة دينية، كما أن الآتين بالمسيحية والإسلام إلى مصر لأنهم أجانب فلم يحملوا معهم تعزيزا لفكرة الوطن والاستقلال، بل كان يهمهم أن يكون ولاء المصريين للحاكم أو البابا المسيحي المتوافق في المذهب أيام الرومان والحاكم أو الشيخ المسلم أيام العرب ولو كان أجنبيا، فتراجع أن يكون الدين حافزا من حوافز التحرر مثلما كان عليه قبل هذا.

واستغل الأيوبيون والمماليك والعثمانلية حملات الفرنجة لغزو مصر والشام لدعم الفكرة، وأنهم "خُدَّام الإسلام لحماية ديار الإسلام من الصليبيين الكفرة"، وذلك بالرغم من أنهم أنفسهم كانوا يتحالفون مع الفرنجة لحماية عروشهم، مثلما تحالف الملك الأيوبي الكامل مع فردريك ملك الفرنجة وسلمه القدس، وتحالف المماليك مع الإنجليز والفرنسيين، وتحالف العثمانلية مع الإنجليز والفرنسيس والروس والألمان، وهي تحالفات كانت ضد المسلمين.

٢- ضياع الهدف من المصريين، ظل يلوح للمصريين- ربما حتى الاحتلال العربي- ضي ماضيهم العريق، أنهم أصحاب هذا البلد وحكامه الحقيقيون، ويطوون صدورهم على حلم طفوهم على السطح واسترداد صولجانهم، وبهذه الروح قاوموا المحتلين السابقين، ولكن ربما مع إسدال ستارة قرن ورا قرن من الزمان على ما بينهم وبين ماضيهم أبعد عنهم صورتهم كحكام لبلدهم.

٣- الإنهاك والإرهاق والإفقار الذي أهلك المصريين لما تكالبت عليهم تشكيلة أعداء بكرابيجهم وسيوفهم وخناجرهم وضرايبهم وإتاواتهم في وقت واحد: المحتل الرئيسي (العبيدي، الأيوبي، المملوكي، العثماني) والمحتلون التابعون كالعربان والمماليك وبقية الجاليات الأجنبية، فكان المصريون ينتقلون مع كل عصر لحال أفقر من السابق، واتنحل الوبر، ويضاف لهذا الطواعين والمجاعات التي ضربت المصريين بلا

---

(١٥٣)- سقط الكرباج التركي ورفع الفلاح رأسه في السنبلاوين، موقع عثمانلي دوت كوم، ٢٧- ١١- ٢٠١٨

(١٥٤)- الأرض والفلاح في صعيد مصر في العصر العثماني، جمال كمال محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٢١٦

رحمة "ورا بعض ورا بعض"، وخسفت بعدد وصحة السكان وما يملكونه الأرض.

٤- النشاط اللحوح من الطرق الصوفية في كل قرية لشل إرادة المصريين وتعجيزهم عن المقاومة بحجة أن مظالم الاحتلال بلاء وقضا، بل نعمة، وأن من الإيمان الرضا بالقضا ولو كان أشنع الظلم، وأن المسلم الرباني "يتطهر" بكثرة البلاء.

٥- تقطيع أوصال المصريين بالإقطاعات ثم الالتزام، ففيه تحولت مصر إلى مناطق نفوذ موزعة على المحتلين، فهذه القرى أو المدن من البلد تبع المملوك فلان، وهذه القرى تبع شيخ العرب تلان، وهذه القرى تبع التاجر الشامي أو المغربي سلان وهكذا، وانتقال المصري من مكان لآخر كان بإذن أو بشكل عسير، فاتشلت حركة المصريين داخل بلدهم، وقلت فرص الاتصال والتنسيق بينهم للقيام بثورة أو أي عمل جماعي ينجيهم من المحتل أو يشكل لهم قيادة واحدة.

٦- مع هذا الإرهاق والإفقال والإبادة المتواصلة للمصريين كان الاحتلال يجدد نفسه وينشط، فيكون قمعه لمقاومة المصريين دائم الشدة، بمعنى أن المصريين ثابتون في الأرض، في حين المحتل إذا ضعف جاء محتل آخر أزاحه وحل محله بكل نشاط وفتوة يفرغ شرورها وعطشها الشديد لخيرات مصر على الفلاحين.

٧- غياب الزعامة والقيادة التي تجمع شتات غضب المصريين في قبضة واحدة وتوجهه لهدف واحد، فالمصريون يصنعون أعظم إنجازاتهم بالعمل الجماعي المنظم، ولأنهم الشعب الذي اخترع الدولة والقيادة الجامعة، وأيام الثورات ضد الفرس وآشور واليونان والرومان كان المعبد هو الزعيم وهو القيادة، وتوارى دور الكنيسة أيام الاحتلال العربي ولكن لما ظهرت قيادات مثل يحنس تفجرت ثورة ٢١٦ ه الكبرى؛ فقتله المأمون، وعلى هذا تبدو كل الأسباب السابقة "مُهبطة" ولكنها في الحقيقة ليست "مانعة" لقيام الثورات الكبرى، بدليل أن الغضب والمقاومة كانت تحدث فعلا ولكن على مستوى القرى، وفقط تنتظر القيادة الجامعة التي لا تتحدث إلا باسم وقلب المصريين، ووقتها ستسقط كل الأسباب المهبطة ويخرج أعتى أنواع المقاومة من الصدور المصرية، وهو ما سيثبت حين ظهور قيادة وطنية مثل عمر مكرم وعرابي وسعد زغلول وغيرهم في مستقبل الأيام.

وسؤال غياب الثورات الكبرى شغل بال رحالة تجولوا في مصر زمني المماليك والعثمانلية، ومنهم الفرنسي فولني الذي زار مصر ١٧٨٥، ونفى ما تناقله رحالة آخرون عن أن الفلاحين المصريين طبعهم "الاستسلام للعبودية"، وأرجع "استكانة المصريين للإرهاق" بحسب تعبيره، وإلى أسباب أخرى منها تعاقب الاحتلالات على الفلاح بحيث لم يأخذ فرصة لملمة صفوفه، ودائما تسبب الاحتلال في وجود جماعات متنافرة المصالح [الجاليات]، وأن المحتل استعان بطبقة جماعات مصالح وموظفين نشرها- على قلة عددها- في كل قرية، لإرهاب أهلها، تنشر الخصومة والمنافسة والبغضاء بين أهل القرية، وتجذب إليها عددا منهم تربط مصالحهم بمصالحها ليكونوا عونا لها ضد البقية، كما أن المصريين حُرموا التدرب على السلاح وحمله، والثورة على المماليك الذين حرفتهم القتال تحتاج من الثائرين التمرس في القتال، والأهم أن

"ما يكبت شجاعة المصريين"، ما يظهر من "انعدام المروءة والثقة بالنفس".

كما أورد سببا جغرافيا وهو أن الطبيعة المسطحة لمصر تجعل مناورات وحركة الثائرين صعبة، لأنها مكشوفة، وسهل إخماد أي ثورة، عكس البلاد الجبلية.

ورغم ما سبق إلا أنه لاحظ أن الفلاحين في القرى رغم ضيق الحال لكنهم لم يستسلموا لـ"التخنيث" مثل أهل المدن، فيتميزون بحيوية في النشاط والحركة وقوة تحمل المشاق والعناد؛ ما يظهر في "ثاراتهم وشراستهم في اقتتالهم قرية وأخرى، وتمسكهم بشرف المحافظة على السر برغم ضربات العصى، ووحشيتهم في معاقبة نسائهم وبناتهم لأقل إخلال بالعفاف، في كل ذلك دليل على أنه إذا كانت العادة قد أيقظت فيهم النخوة في بعض النواحي، فإن هذه النخوة لا يعوزها إلا التوجيه حتى تصبح شجاعة رهيبة، إن الفتن التي يثيرونها آونة بعد أخرى، وقد عيل صبرهم- في مديرية الشرقية خاصة- تدل على نار تحت الرماد تنتظر للانفجار يد تعرف كيف تحركها"[١٥٥]. في إشارة منه إلى أن تأثرهم بروح العنف والتحزبات القبلية والثارات التي نشرها وسطهم القبايل والمماليك يمكن بسهولة أن تنصرف عن إيذاء بعضهم إلى تفريغها ضد المحتلين حال وجدوا من يوحدهم في الثورة.

وفي سنة ١٧٩٥ حدث تطور لافت في طرق احتجاج المصريين، وهو اللجوء إلى شيوخ الأزهر الذين رأوا فيهم زعامة يفتقدونها بعد أن قويت شوكة الشيوخ أمام المماليك المتفككين حينها، وذلك أن أهالي قرية في بلبيس حضروا إلى الشيخ محمد الشرقاوي يشكون ظلم مماليك محمد الألفي لهم وكثرة الجبايات، فنقل الشرقاوي الشكوى لمراد بك وإبراهيم بك، ولم ينصفا الناس، فجمع الشرقاوي كبار شيوخ الأزهر وأغلقوا أبوابه، وطلبوا من الناس الإضراب بإغلاق دكاكينهم، ولما بلغ مراد أمر الإضراب أرسل لهم من يسألهم عن مطالبهم، فقالوا نريد العدل ووقف المكوس التي ابتدعتموها، فرفض مراد مطالبهم.

وتحرك المشايخ، ومن بينهم عمر مكرم، والناس إلى الأزهر وباتوا فيه، فخاف مراد وإبراهيم قيام ثورة يتزعمها المشايخ ووافقوا على إبطال بعض المكوس ووقف السلب والنهب، أحضر المشايخ حجة (وثيقة) وطلبا من مراد وإبراهيم الختم عليها كي تكون حجة عليهما أمام الناس، فختما، واستبشر الناس، وانفك الإضراب، والتزم المماليك بوعدهم لمدة شهر واحد، وعاد الأمر لما كان عليه وزيادة بتعبير الجبرتي[١٥٦]، وهذه نقضة المطر التي ستتفجر ورائها السحب لتنهمر هبَّات وثورات مصرية مفاجئة.. بداية من الهبَّات ضد الفرنسيس.. "الدواعش البيض".

[١٥٥]- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، ج٢، نص الرحلة في ملاحق الكتاب، مرجع سابق، ص ٩٢٠- ٩٢٢
[١٥٦]- انظر: نفس المرجع، ج ٣، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص ٥٩٥- ٥٩٧

"لا تنتظر أن يمنحك الفرنجة الحرية"

لورد بايرون[1]

(1)- التاريخ السري لاحتلال الإنجليزي لمصر- رواية شخصية للأحداث، ولفريد سكاون بلنت، ترجمة صبري محمد حسن، مقدمة المراجع د.أحمد زكريا الشلق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٧

المشهد ١٦: الاحتلال الفرنساوي

١٧٩٨- ١٨٠١

(الدواعش البيض)

عاش الفرنسيس في مصر فوق بركان ثائر، لم يهدأ يوما ولم يخبُ لحظة، وهذا هو الذي عجل بطردهم وعودتهم من حيث أتوا يجرون أذيال العار والهزيمة على الرغم من أنهم كانوا في ذلك الوقت في أوج مجدهم الحربي، ويقودهم قائدهم الكبير نابليون بونابرت[٢].

هذه كلمات محمد عطا، في مقدمة كتاب "النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية" للمقدم محمد فرج، لخصت حال الفرنسيس في آخر أيامهم في مصر، أيامهم التعيسة، وهي أيام وإن كانت كذلك تعيسة على المصريين، بل علقم وحنظل، لكنها كالنار التي خرج من وسطها المعدن المصري البراق بعد طول خفاء، دون أن يقصد المحتل خروجه، فسلسلة عمليات المقاومة ضد الفرنسيس أحيت فيهم قدرتهم على العمل الجماعي من جديد، والثورة الجماعية ضد المحتل من جديد.

وفي كلامه عن سبب تأليف كتابه قال محمد فرج: "وأدركت من الحقائق التاريخية أن الشعب المصري كان أكثر شعوب العالم تعرضا لمطامع الاستعمار والمستعمرين، وأكثر هذه الشعوب مقاومة لها[٣]".

(تاريخ فرنسا مع مصر قبل الغزو)

الحملة الفرنسية على مصر مرحلة من مراحل الطمع الرومي (الأوروبي) الدائم في مصر، فتابعنا أنه بعد طرد العرب للرومان من مصر، كانت السفن الرومانية تأتي من بيزنطة لتهاجم الإسكندرية بين الحين والحين، ثم هبَّت مرحلة حروب الفرنجة "الصليبية" مستعينة بالتجار الفرنجة المقيمين في مصر، خاصة دمياط والإسكندرية، وفي ٧ أبريل ١٢٥٠ لقيت فرنسا نهاية "عفشة" في مصر حين تعرض ملك فرنسا لويس التاسع لهزيمة مدوية في معركة المنصورة، وقع في الأسر وحُبس في دار ابن لقمان، وشاهد مقتل وإصابة جنوده وغرق بعضهم في البحر[٤].

---

(٢)- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، محمد فرج، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٤

(٣)- نفس المرجع، ص ٥

(٤)- حولت ثورة ١٩٥٢ دار ابن لقمان إلى متحف افتتحه الرئيس جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٠ لحفظ الذاكرة

وعادت في زمن الاحتلال العثماني بشكل ناعم وراء ستارة الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية (خاصة اليسوعية) التي ترعاها فرنسا- أكبر رعاة حروب الفرنجة حتى ذلك الوقت- وزرعت جواسيسها في مصر باسم تجار ومبشرين، حتى تحينت اللحظة المناسبة، وبالفعل، أصبح التجار الفرنسيس الـ ٦٥ الساكنين في القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط- إضافة للقناصل الفرنسيس في القاهرة والإسكندرية ورشيد- أكبر عون للحملة الفرنسية بتقاريرهم عن أحوال مصر، عززوها بإرسال شكاوى عن تعرضهم لسوء المعاملة، لتكون أحد مبررات فرنسا للتدخل أمام حليفها التركي[٥].

ولعب نابليون بحرفية بورقة حماية الأجانب، ففي منشوره الذي أرسله للمصريين حول أهداف الحملة جاء فيه: "من زمان مديد والسناجق يتسلطون في البلاد المصرية، ويتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملّة الفرنسية، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي، وحانت الآن ساعة عقوبتهم"[٦].

أيضا اشتدت الرغبة في إعادة احتلال مصر بعد سيطرة المحافل الماسونية على فرنسا إثر الثورة الفرنسية الدموية ١٧٨٩، وغذّى شهوة الغزو التنافس مع بريطانيا على البحار وطرق التجارة، وحفّز نابليون جنوده: "إذا أردنا أن نهاجم إنجلترا فعلينا أن نهاجمها في مصر"، وخاطب جنوده ليملأهم بالإيمان بفكرة احتلال مصر في ١٠ مارس ١٧٩٧ "إن أعلام فرنسا تخفق لأول مرة على ضفاف الأدرياتيك على مقربة من مقدونيا القديمة التي نبت فيها الإسكندر واتجه إلى مصر، وإن مهمة كبيرة تنتظركم[٧]".

وهذه المرة.. تعزز الغزو بأحلام السيطرة على الحضارة المصرية نفسها وليس فقط الأرض المصرية، وهي الأحلام التي زرعها المستشرقون والتجار الذين أتوا لمصر سابقا، وبعضهم ربما كانوا جواسيس لدراسة أحوال مصر وآثارها، ونشروها في كتب الرحالة التي أثارت لعاب الساسة والأثرياء في فرنسا، وهو ما ظهر في الإعداد "العلمي" الجيد للحملة، وما كان معها من علماء في كل المجالات.

ومعلوم أن المحافل الماسونية تنسب نفسها زورا للحضارة المصرية، وتحلم بالسيطرة على مصر وامتلاك آثارها ورموزها العريقة، ومغرمة بتسمية محافلها بأسامي مصرية مثل "أوزيريس"، و"إيزيس".

▼▼▼ نتائج الاحتلال الفرنساوي

❶ هبوط المحافل الماسونية إلى مصر

الماسونية هي الاسم القديم لـ"العولمة" حاليا، وهي تيار أجنبي ينتمي لصفة "العالمية"، ويعني أنه ليس بين البلاد حدود، زرعها شيطان الاحتلال بالعنوة في أرض مصر، وتقوم على الولاء لشي واحد، هو المحفل الماسوني، وأن "الإخوة" تكون فقط بين أعضائه، واسمهم "الإخوان الماسون"، ولا ولاء لوطن أو دين أو أي شيء آخر بجانب المحفل ومبادئه وإخوانه، بل وكل من هم ليسوا أعضاء المحفل اسمهم

---

[٥]- انظر: بونابرت في مصر، كرستوفر هيرولد، مرجع سابق، ص ٢١- ٢٢
[٦]- انظر: عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٦- ٦٩
[٧]- انظر: النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ص ١١- ١٥

"أجانب"، و"خوارج"، وعضو المحفل الماسوني في فرنسا أو ألمانيا أو سوريا مثلا هو أقرب لعضو المحفل الماسوني في مصر من المصريين[٨].

ومثل التنظيمات والدول التي تريد احتكار مصر لها بنسف أصول المصريين ونسب حضارتهم لها، فإن الماسونية تدَّعي أن أصولها نشأت في مصر؛ وأنهم تسموا بالماسون (أي البناءين) نسبة إلى المهنة التي برع فيها المصريون وكانوا رقم (١) فيها في الدنيا كلها وهي البناء والعمارة؛ ولذا يحرص الماسون على إقحام رموز حضارة مصر، مثل أوزير وإيسة وعين حور "وجات" والهرم في طقوسها.

حلَّت المحافل الماسونية في مصر مع الغزو الفرنسي سنة ١٧٩٨، ودورها ضم أصحاب الجاه والتأثير من سياسيين وتجار وأطباء ومعلمين ليكونوا عونا بنفوذهم للفرنسيس في مصر، وعن هذا يقول جورجي زيدان- وهو ماسوني لبناني هاجر إلى مصر في القرن ١٩- في كتابه "تاريخ الماسونية العام": "وتفصيل ذلك أن نابليون بونابرت لما جاء الديار المصرية وافتتحها كان في معيته نخبة من رجال فرنسا، وفيهم الجنرال كلابر [كليبر] المشهور، فلما وصلوا القاهرة اتفق بونابرت والجنرال كلابر وعدة من الضباط- وكانوا من الإخوة الماسونيين- على تأسيس محفل يجتمعون إليه، فأسسوه في أغسطس من تلك السنة في مدينة القاهرة، ودعوه "محفل إيزيس"، وهو يشتغل على طريقة دعاها نابليون طريقة ممفيس [نسبة لـ"منف"] ولعلهم قصدوا بذلك مقصدا سياسيا؛ لأنهم أدخلوا فيه كثيرا من عمد البلاد ورجالها، والظاهر أن نابليون بونابرت كان يفعل مثل ذلك حيثما نزل مفتتحا تمكينا لقدمه[٩]"، أي ليساعده كبار القوم هؤلاء في قمع المقاومة باعتبار أن هذا الأجنبي مدام ماسونيا مثلهم فلا يجوز مقاومته، بل وفريضة عليهم كسر أي مقاومة له، خاصة والأجنبي يرفع شعار "الحرية والإخاء والمساواة".

وما أكثر ما يمكن أن تجدهم المحافل ليقوموا بهذا الدور، أولا لأن معظم "عمد البلاد"، أي أغنياؤها وأصحاب المراكز من المستوطنين الأجانب، وثانيا أن ضمهم ليكونوا جزءً من "تنظيم عالمي"، يعطيهم "أهمية عالمية"، هو إحساس مغري لهم، خاصة مع الضجة التي أحدثتها الثورة الفرنسية وقتها[١٠].

ولكن نشأة المحافل الماسونية عندنا سبقها زيارات شخصيات ماسونية إلى مصر، وكأنها من باب الاستطلاع وتجهيز الأرض، منها شباتاي تسيفي، اليهودي المولود في تركيا من أبوين مهاجرين من إسبانيا (الأندلس)، وكان يمارس السحر وطقوس الكابالا[١١]، وادعى أنه المسيح المنتظر، جاء إلى مصر بعد سنة ١٦٦٦ وقابله روفائل يوسف جلبي رئيس الطائفة اليهودية ومدير الخزانة المصرية، وعبأ له من خزائن مصر أموالا طائلة توجه بها إلى فلسطين، وهناك أعلن تقسيم العالم إلى ٣٨ منطقة، وعيَّن لكل منطقة حاكم

---

[٨]- انظر: تاريخ الماسونية العام، جرجي زيدان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ٤٤

[٩]- نفس المرجع، ص ١١٧- ١١٨

(١٠)- انظر: الماسونية والماسون في مصر ١٧٩٨- ١٩٦٤، وائل إبراهيم الدسوقي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ص ١٣٩

[١١]- الكابالا تسمى بالتصوف اليهودي وهي علم باطني لأسرار التفسير اليهودي للتوراة بطريقة الرموز والحروف الغامضة، يتناقلونه شفهيا، وتهتم بالمسيح اليهودي المنتظر الذي تقول إنه سيظهر آخر الزمان ليحكم العالم ويجعل اليهود ملوك البشر، انظر: موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية، رشاد الشامي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ص ١٢٩- ١٣١

(ملك)، وهو نفس التقسيم القائمة عليه الماسونية حتى الآن[١٢]، وأندية الروتاري والليونز التي حلت محل المحافل الماسونية في مصر مؤخرا.

غير أن محفل "إيزيس" "تفركش" لما اضطرت الحملة الفرنسية للجلاء عن مصر بعد ٣ سنين، وستعود المحافل الماسونية بأسنان حادة بعد قليل كما سنتابع عند الحديث عن الاحتلالين العلوي والإنجليزي.

❷ مبرر جديد للاحتلال.. "نشر الحرية والإخاء والمساواة"

دراسة نابليون لمصر وعاداتها وأحوال أهلها جعلته يرى أن مفتاح الدخول للمصريين هو النفاق والمديح لهم ولبلدهم، والحديث عن أحقيتهم بحكم بلدهم، خاصة وأنه اكتشف المرار الذي بداخلهم من سوء معاملة العثمانيين والمماليك وتكبرهم عليهم، وجاء لمصر مسرشدا بكتاب الرحالة فولني الذي وصف معاناة المصريين وأنهم بانتظار "أيدي تحرك" الثورة في نفوسهم ضد المماليك، فقرر تقديم نفسه لهم بصفته "المخلص والمنقذ"، وعمل التالي:

وزع منشورات على جنوده وصاهم فيها باحترام مشاعر المصريين وشعائرهم الدينية، وعدم التعرض لنسائهم وأموالهم وبيوتهم، وهدد من يخالف هذا بالعقاب الشديد.

ومنها منشور أذاعه على الجنود في ٢٨ يونيو ١٧٩٨ قال فيه: "أيها الجنود إنكم ستخوضون غمار حملة لها آثار لا تحصى في حضارة العالم وتجارته، وستنالون إنجلترا بضربة هي أشد ما يصيبها في الصميم... إن الشعب الذي سنتصل به يدين بدين الإسلام، وأول أركانه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله؛ فلا تعارضوهم في دينهم، وعاملوهم كما عاملتم اليهود، وكما عاملتم الإيطاليين، واحترموا مشايخهم وأئمتهم.. وستجدون هناك عادات تختلف عن عادات أوروبا فعليكم أن تألفوها. وإن الشعب الذي سنقيم بينه يعامل النساء على غير عاداتنا، والاعتداء على أعراض النساء جريمة لا يقدم عليها إلا الوحوش... واعلموا أن النهب لا يعود بالنفع إلا على طائفة قليلة من الناس، ولكنه يدنس شرفنا، ويقضي على مواردنا، ويجلب علينا كراهية الشعوب التي تقضي مصلحتنا بأن نكسب ودها".

وزاد الفرنسيس في التودد للمصريين بأنه في الإسكندرية أصدر كليبر- أحد قواد الحملة- تهديدات بتنفيذ عقوبة الإعدام على الجنود الذين يعتدون على حرمات البيوت أو المساجد، أو يتسلق البيوت، أو لو صاد الحمام بالآلات النارية وتسبب في تعريض حياة الأهالي للخطر، وهذا خوفا من غضب الأهالي وانتفاضهم ضد الفرنسيس، وعارض كليبر نابليون لما فكر في فرض ضرايب على تجار الإسكندرية[١٣].

وهذا هو الأسلوب الجديد للاحتلالات التي ستطبق على رقبة مصر منذ ذلك التاريخ وما بعده، بل والعالم كله، فهو ليس أسلوب فرض القوة والسلاح المباشر وحده- في البداية- بل المحتل يزحف مقدما نفسه في ثوب "المنقذ"، و"ناصر دين أهل البلد"، ومن يحمل لها "الإخاء" و"الحرية".

---

[١٢]- انظر: الماسونية والماسون في مصر ١٧٩٨- ١٩٦٤، مرجع سابق، ص ٢١- ٢٢
[١٣]- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، مرجع سابق، ص ٢٠- ٢١

لعب نابليون على وتر ضيق المصريين من استبعادهم من المناصب والثروات، فقال في منشوره للمصريين: "هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من جورجيا والقوقاز يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها.. أيها المصريون قولوا للمفترين أنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين.. ماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرجة، فإذا كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليقدموا لنا الحجة التي كتبها الله لهم، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييئس أحد من أهالي مصر من الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية؛ فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمة كلها".

أيضا لم ينسَ الأسلوب القديم وهو اللعب بورقة الدين؛ فتودد للمصريين باسم الإسلام، حتى إنه فتح أول منشور يخاطب المصريين بعبارات "بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، لا إله إلا الله لا ولد له، ولا شريك له في ملكه"، وقال "إنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم[١٤]".

واعترف نابليون وهو في منفاه في سانت هيلانة فيما بعد بأنه فعل ذلك تأثرا بما فعله الإسكندر، في إشارة إلى تودد الإسكندر للمصريين من بوابة الدين وولائه لآمّون، فقال: "كان يفعل هذا وهو على وعي تام بعقلية هؤلاء الناس... وقد حقق بعمله هذا من حيث تثبيت دعائم فتحه للبلاد أكثر مما كان يحققه لو بنى ٢٠ حصنا وعزز جيشه بـ ١٠٠ ألف من المقاتلين المقدونيين"[١٥].

واعترف أيضا في منفاه بأن هذا المنشور كان "قطعة من الدجل، ولكنه دجل من أعلى طراز"، وقال: "علَّ الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلى النجاح[١٦]"، هكذا فكر أبناء الثورة الفرنسية التي قالوا إنها قامت لتنشر في العالم احترام العقل وحريات الشعوب.

كان هذا المنشور ونابليون قادم في البحر، أما حين اقترب أزير سفنه من السواحل ووجدت مقاومة من الإسكندرية ترجم الفرنسيس معاني "الإخاء" و"الحرية"، و"المساواة" للسكان بالتحية التالية.

يحكي الكولونيل سلكوسكي في مذكراته، وهو ضابط في الحملة، إنه لما احتل الفرنسيس مالطة وصل الخبر للمصريين "وعندما لاح الأسطول الفرنسي، وأصبح في حدود النظر، أرسل السيد كريم (محمد كريم) ١٣ ساعيا إلى القاهرة لينبئ المسئولين بوصول الفرنسيين، وبذله معه أهل الإسكندرية كل ما في استطاعتهم لمقاومة الغزو وللدفاع عن المدينة، وحصنوا الأسوار، وأمدوا القلاع بالذخيرة، وأعدوا السلاح، وحمله القادرون منهم، ووضعوا المدافع في أماكنها على أسوار المدينة، وجهزوا جماعة من الفرسان لتقوم بمناوشة الفرنسيين عند نزولهم، ووقف الأهالي محتشدين حاملين السلاح مشاة وركبانا، رجالا ونساء، صغارا وكبارا يطلقون النيران، ويقاومون الغزو،

---

[١٤]- نص الرسالة كامل في عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٦- ٦٩

[١٥]- بونابرت في مصر، كرستوفر هيرولد، مرجع سابق، ص ١٩٧ و ٢٠٠

*وهذا نفس أسلوب الرئيس الأمريكي باراك أوباما عندما ألقى خطابا في جامعة القاهرة ٢٠٠٩ أشاد فيه بالإسلام وبدأ كلمه بـ"السلام عليكم"، وما بين التاريخين الفيصل هو ذاكرة الشعوب.

[١٦]- المرجع السابق، ٨١

إلا أن الفرنسيس استطاعوا أن يتغلبوا عليهم لكثرة عددهم ولتميز سلاحهم[١٧]".

ويحكي الجندي "مييه" الذي اشترك في القتال في الإسكندرية في مذكراته: "ظننا أن المدينة استسلمت، وأشد ما أدهشنا أن ينهال علينا رصاص البنادق ونحن نمر أمام المساجد، فأمرنا قائد اتفق وجوده هناك أن نقتحم باب المسجد، ولا نبقي على أحد فيه، وهكذا هلك الرجال والنساء والأطفال.. بحد السناكي [ذبحا]، ولكن لما كانت العواطف الإنسانية أقوى من الانتقام، فقد توقفت المذبحة حين تعالت أصواتهم طلبا للرحمة، فاستحيينا ثلثهم"، أي قتلوا الثلثين ومنهم نساء وأطفال وأبقوا الثلث لإظهار الرحمة.

وهذه أول تحية فرنساوية لمصر، الدم والدعشنة والغدر، وأول تحية بمصر للفرنسيس الرفض.

وسط هذا وقعت حادثة تظهر الأسلوب الفرنسي الفريد في اللعب على كل الأوتار في وقت واحد، فلكي يرسل رسالة تؤكد "عدله ورحمته"، أمر بإطلاق الرصاص على جندي فرنسي انتزع خنجر من "عربي مسالم"، وعندما ألقى كليبر القبض على محمد كريم، حاكم الإسكندرية الذي رفض تسليمها، أجبرت شجاعته نابليون أن يقول له في مجلس من أعيان المدينة: "لقد أخذتك والسلاح في يدك، وكان لي أن أعاملك معاملة الأسير، ولكنك استبسلت في الدفاع، والشجاعة متلازمة مع الشرف، لذلك أعيد إليك سلاحك" [١٨]".

لكن الفرنسيس اتهموه بتهمة غريبة تدل على انقلاب المعايير عندهم وهي "خيانة الفرنسيس"؛ فاعتبروا مقاومة الغزاة "خيانة"، فحكموا عليه بالإعدام علنا في ميدان القلعة بالرصاص في ٦ ديسمبر ١٧٩٨، ومصادرة أملاكه، وقطعوا رأسه، وطافوا بها في الشوارع وعليها ورقة مكتوب عليها أن هذا جزاء من يخالف الفرنسيس ويعمل "جاسوسا" ضدهم.

وصور "تيبودو" في كتابه "تاريخ نابليون" أثر إعدام كريم بقوله "إن إعدام هذا الشريف هو أول عمل من التصرفات المتعددة التي وجهت فيها التهم إلى نابليون في أثناء حملة مصر، فإن النفوس الحساسة قد تأثرت للخاتمة المحزنة التي انتهت بها حياة ذلك الشريف النزيه الذي أعدم بأمر القائد العام[١٩]".

③ توسع المشروع العالمي لـ "تدويل مصر"

تابعنا لمحات من مساعي المحتلين لتحويل مصر إلى دولة "لكل الأجناس"- عدا أهلها- أو أن يكون أهلها "خدم لكل الأجناس"، سوا بالاحتلال المباشر وتوطين الجاليات الأجنبية المتعددة التي تخدمه مثلما حصل في الأسرة ٢٦ الخاسوتيمية ثم الاحتلال اليوناني، وحتى تفشي الطرق الصوفية القائمة على فكرة التنظيم العالمي، ووصلنا الآن إلى محطة مهمة في هذا المشوار، وهي قدوم تنظيم عالمي أكثر تنظيما وإحكاما، بل ويمتلك وسائل العلم الحديث، ليكون أكثر إغراء للأجيال التي ستنشأ وسط عالم جديد مختلف عن عالم

---

(١٧)- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، مرجع سابق، ص ٣٠

(١٨)- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، مرجع سابق، ص ٧٨- ٧٩ و٢٢

(١٩)- المرجع السابق، ص ٣٥

*** بعد ثورة ١٩٥٢، وضمن سياسة الدولة لتكريم الزعماء والشهداء، وضعت صورة محمد كريم مع صور محافظي الإسكندرية في مبنى المحافظة، وأطلقت اسمه على شارع ومدرسة ومسجد بالإسكندرية، وصنعت تمثال للشهيد نصبته في حديقة الخالدين بالمحافظة.

الاحتلالات السابقة، وهو تنظيم الماسونية وما سيتفرع عنه من تيارات أخرى في مصر.

يقول نابليون وهو يروي قصة حملته في سانت هيلانه: "ما الذي يمكن عمله في هذا البلد الجميل (مصر) خلال ٥٠ عاما من الرخاء والحكم الصالح؟ إن الخيال ليرتع في هذا المنظر الساحر، فإن ألف بوابة من بوابات الري ستضبط فيضان النيل وتوزع مياهه على كل بقعة في البلاد، وستشق القنوات لتحمل البلايين الثمانية أو العشرة من ياردات الماء المكعبة إلى الواحات، بل وأبعد منها غربا، وسيتضاعف السكان ٤ مرات بفضل المهاجرين الكثيرين من أعماق أفريقيا وبلاد العرب وسوريا واليونان وفرنسا وإيطاليا وبولنده وألمانيا، وتعود التجارة مع الهند إلى طريقها القديم.. فتتحقق سيادة فرنسا على الهند بسيادتها على مصر"، بل "ويحكم العالم من الإسكندرية"[٢٠].

وهكذا من جاء يبشر المصريين بأنه جاء لـ"يحررهم" من حكم المماليك فيعود لأهل البلد عرشها وخيراتها، كان يخطط إذا ما تمكن من رقبة مصر أن يعبأها بأعداد رهيبة من الأجانب من ٣ قارات، ٣ أضعاف عدد المصريين، يعني أن يكون المصريين مجرد ربع عدد السكان، وبالتأكيد كان سيستمر المصريون "خدما لكل الأجناس" مقابل أن تتحول بلدهم إلى بلد "ملئ بمشاريع الزراعة والعمران" على النمط الفرنسي الحديث.. إذن في حجر من ستسقط ثمار هذه المشروعات المغرية وقتها؟

وبخلاف التدويل البشري الاستيطاني تبنى الأوروبيون والجاليات الأجنبية المتحالفة معهم تدويل مصر في تمييع ومحو الجنسية المصرية من الأساس، وهو ما سنتابعه عند الحديث عن أول قوانين تم وضعها للجنسية المصرية، والتنظيمات والتيارات العالمية التي هبطت على مصر فيما بعد.

4 تطوير صناعات قديمة ونشر مشروعات جديدة

يمكن لمحتلين أن يقام في عهدهم مشروعات صناعية وزراعية وثقافية واسعة، وتوصف بالنهضة، ولكنها نهضة جوفاء، لأن هدفها توفير مصادر دخل جديدة للاحتلال، وتسهيل حياته في البلد المحتل، أو تحويلها لجوهرة تاج إمبراطورية مشعة يتربع على عرشها المحتل والجاليات، ويلم أهل البلد من حولهم الفتات، إلا إذا اقتنص أهل البلد الفرصة وحولوا الشراب المر لشراب حلو بالمقاومة التي تطرد المحتل، وتستفيد من أي محاولات تطوير تمت في عهده، من باب "رب ضارة نافعة" و"اللي ييجي منه أحسن منه".

وبدأ الفرنسيس في إجراءات عملية لتطوير الإدارة والصناعة وتنظيم المدن لتزيد ثروة مصر؛ فتزداد الفرصة التي يحقق به نابليون حلمه في تكرار إمبراطورية الإسكندر، ويعبر عن هذا الرحالة الفرنسي أوليفيه وهو يحث حكومته على غزو مصر بعد الثورة الفرنسية فيقول: "ستصبح مصر أغنى دولة في العالم، وفي نفس الوقت سيضيف الغزو مجدا عسكريا لفرنسا، وسوف ينظر إلينا الشعب المصري على أننا محرروه.. لا بد من إحلال أمة جديدة حرة تفتح أبوابها أمام التجارة وتعمل على تطوير الصناعة، يجب ألا

[٢٠]- بونابرت في مصر، كرستوفر هيرولد، ص ٢٦- ٢٧

نترك مصر غارقة في يد البرابرة[٢١]".

وبدأ نابليون تنظيم الإدارة التي أفسدها المماليك والعثمانلية في صراعاتهم، فأنشأ ديوان القاهرة (الإدارة الحكومية) وعين فيه ١٠ علماء، هم: خليل البكري، مصطفى الدمنهوري، سليمان الفيومي، مصطفى الصاوي، محمد المهدي، أحمد العريشي، يوسف الشبراخيتي، محمد الدواخلي، موسى الشرسي، عبد الله الشرقاوي، وفي يده ظلت السلطة العسكرية الكاملة.

وهدفه، إلى جانب تسهيل إدارته للبلاد، أن يوهم المصريين أنه جاء إلى مصر لنشر الحضارة والتقدم، ويغفلون عن مشروعه الاحتلالي الكبير، وحاول أن يرغم علماء الأزهر على لبس الطيلسان الفرنسي، وعموم الناس على وضع شارة الفرنسيس (العلم)، ولكنهم رفضوا، ومع الوقت حشر فرنسيين في الديوان العام، وفي رسالة وجهها لهم قال لقواده: "يجب أن تُفهما الأعضاء أننا لا نقصد إلا توفير السعادة والرفاهية للبلاد التي تشكو من سوء نظام الضرايب الحالي، كما تشكو من طريقة تحصيلها[٢٢]".

وأنشأوا مصنعا للجوخ عمل فيه الفرنسيس فقط خوفا من تسرب أسرار الصناعة الفرنسية للمصريين، بل واعتزموا حال فشل الحملة تدميره وإرجاع آلاته لفرنسا، واهتموا بالمشاريع الصحية والصناعية التي تخدم الأغراض الحربية للجيش الفرنسي في المقام الأول فيما يخص أسلحته وملابسه وصحته وطعامه ونظافته وتسهيل طرق مواصلاته وتنقلاته، فأسسوا محاجر صحية ومستشفيات، ووضعوا لوائح النظافة العامة للحد من أسباب انتشار الطواعين والأمراض، وسعوا لإنشاء طواحين الهواء ومصنع للبارود، ومصنع لدبلغ الجلود، ومصنع للنجارة ومصنع للصابون من الزيوت المصرية[٢٣]، وأقاموا الجسور، ورتبوا الشوارع، وغرسوا على جوانبها الأشجار، وأطلقوا مشروعا لإحصاء المواليد والوفيات ودفاتر الجواز ومسح الأطيان لأجل الضرايب، وأقاموا المسارح لتمثيل الروايات.

ولكن اعترف فرنسيون، مثل المسيو مارتان من مهندسي الحملة، بعجزهم عن إغراء الناس بهذه المشروعات حين قال: "بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر، فإنهم لم يستقر لهم قرار في البلاد، وكان مركزهم فيها مزعزعا ومحفوفا بالمتاعب، ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا أتبعوها، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضمن هذه المقاومة".

وردا على رسائل نابليون للمصريين بأن الفرنسيس جاءوا من آخر الدنيا لكي "يحرروا" المصريين، و"يسعدوهم"، و"ينشروا التقدم" قال المسيو ريبو: "من الصعب أن توجد أمة تبلغ بها السذاجة مبلغا أن تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار، ويستهدف للأخطار، ويحتل بلادها، ويخوض فيها غمار الحرب لمجرد الدفاع عن مصالحها، ولا يمكن أن تؤثر المنشورات والكلمات الفخمة في تغيير حالة الشعب النفسية[٢٤]".

---

[٢١]- مقدمة المحقق عبد العزيز جمال الدين للجزء الرابع من كتاب "عجايب الآثار في التراجم والأخبار" للجبرتي، ص ٣٩
[٢٢]- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، مرجع سابق، ص ٣٥ و ٢٦.
[٢٣]- الحرف والصناعات في عهد محمد علي، د. صلاح أحمد هريدي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١١٢- ١١٥
[٢٤]- انظر: االنضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، مرجع سابق، ص ٢٥- ٢٨

ورغم هذا استمروا في إرسال الكلام الحلو للمصريين لأن هذه سياسة فرنسية راسخة.. "السكينة جنب الوردة"، أو "العصا والجزرة".

5 استكشاف ما خفى من عظمة الحضارة المصرية

وسط فوضى الدماء والفزع التي أشاعها الفرنسيس في طول مصر وعرضها- كما سنرى- مستقويين بوهم أنهم صاروا بثورتهم الفرنسية أعظم الحضارات، صدمهم معبد دندرة في الأقصر، فشلَّ حركة أسلحتهم بعض الوقت يلتقط فيه الأهالي الأنفاس.

فخلال مطاردتهم للمملوك مراد بك وصلوا في قنا عند معبد دندرة (معبد حتحور) على شاطئ النيل الشرقي، ويتذكر العالم "دينون" المصاحب للحملة: "ودون أن تصدر إليهم أو يتلقوا أي أوامر، ترك كل ضابط وجندي الطريق واندفع إلى تنتيرة (دندرة)، وتلبث الجيش كله هناك بقية اليوم من تلقاء نفسه، وياله من يوم!".

وعن مشاعره الشخصية كفنان نسخ الرسوم والنقوش من المعبد حينها، فقد اضطر لنبذ ما عرفه عن القواعد الكلاسيكية للأساليب الدورية والأيونية والكورنثية، وقال عن مدرسة الفن المصري الماثلة بشموخ وبساطة أمامه: "لن تجد أبسط ولا أحسن حسابا من الخطوط القليلة التي تألف منها هذا المعمار، فالمصريون الذين لم يستعيروا شيئا من غيرهم من الأمم لم يضيفوا زخرفا دخيلا واحدا، ولا حشوا واحدا لا لزوم له إلى الخطوط التي أملتها الضرورة، والنظام والبساطة مبدأهما اللذان سموا بهما إلى الذروة (...) وحذار من خطأ شائع هو الاعتقاد أن المعمار المصري يمثل هذا الفن [العمارة] في مهده، والأصح أن نقول إنه الصورة القياسية لهذا الفن[٢٥]".

وفي المساء ذهب إليه أحد الضباط وقال له: "منذ اليوم الذي حضرت فيه إلى مصر كنت أحس أنني خدعت خداعا تاما، وكنت على الدوام مبتئسا مريضا، ولكن دندرة أبرأتني، فما رأيته اليوم عوضني عن كل تعاستي"، وبعد أن ارتووا من سكينة وعذوبة دندرة، واصلوا طريقهم، فلاحت لهم على جانبي النهر مشاهد واسط (طيبة القديمة) كاملة، بما احتوته من معابد الأقصر والكرنك، ووقفت الفرقة كلها من تلقاء نفسها، وصفق أفرادها استحسانا.

ويصف ديفرنوا: "ودون أن يصدر أمر للرجال وقفوا في طوابيرهم وأدوا التحية العسكرية على قرع الطبول وعزف الموسيقى" [٢٦]، كانت تحية عظمى لعبقرية الإنسان.. الفلاح.

وإضافة إلى استكشاف المعابد ونقش ما عليها وتسجيله، وضعت الحملة الفرنسية موسوعتها الشهيرة "وصف مصر"، جمعت فيها كل ما يخص الحياة في مصر، تاريخية وحاضرة، البشر والنبات والطير

---

[٢٥]- بونابرت في مصر، هيرولد، ص ٣٦٤
[٢٦]- انظر نفس المرجع، ص ٣٦٥

والحيوان، جغرافيا، ثروات، خصائص السكان، الفنون والعلوم، بهدف معرفة مصر تمام المعرفة ليسهل إدارتها وتحويلها إلى مستعمرة فرنسية تحقق حلم نابليون في أن تكون قاعدة إمبراطوريته في الشرق.

كذلك عثر الفرنسيون صدفة على حجر رشيد "مرسوم كانوب" الذي كتبه رجال المعابد عن إجراءات بطلميوس الخامس تجاه ثورة ٢١٧ ق.م، والطريف أنه عن طريق الخط الهيروغليفي الذي أصر رجال الدين على استخدامه في تدوين الإجراءات إلى جانب الخط الديموطيقي واللغة اليونانية تمكن شامبليون من فك رموز اللغة المصرية؛ وكأنها هدية من الثوار المصريين لأحفادهم، وكأن حجر رشيد تجلي من تجليات الثورة وموجات تيارها التي وصلتنا لتكون مفتاح العودة إلى الحضارة المصرية من جديد.

وفي الوقت الذي اهتم به الفرنسيس بالحضارة المصرية من ناحية (لأهداف علمية أو ماسونية)، كانوا يهدمون آثارا مصرية أيضا حين تقف عقبة في طريقهم، فأسرف الفرنسيس في هدم القاهرة لبناء قلاع جديد وسور لتحصينها؛ ما أضاع منها كنوزا أثرية في العمارة وفنون الأرابيسك والزجاج المعشق وأشغال النحاس والنسيج، فهدمت الأيادي السوداء بيوتا كثيرة وجوامع ليأخذوا خشبها ومواد البناء، كجامع الجنبلاطية والسبع سلاطين والشركسي والرويعي والبنهاوي، وهدموا أحياء كاملة كالحسينية والخروبي وبركة الفيل، ومصاطب المحلات لاستعمال حجارتها بحجة توسيع الشوارع والأزقة، في حين كان الهدف استعمالها كمتاريس إذا ما قامت ثورة ضدهم، ومنها مصطبة درب الجماميز ودرب سعادة وباب خلق[٢٧].

6 نزف المصريين الضرايب والإتاوات للأجنبي

رغم كلام نابليون عن عدم إرهاق المصريين بالضرايب، لكن في التطبيق العملي فرض ضرايب شديدة لم يتحملها الأهالي المذبوحين أساسا من الضرايب الموروثة من المماليك والعثمانلية والأعراب المناكيد.

ومن وسائل الفرنسيس لجمع ضرايب جديدة أنهم أسسوا في كل مديرية مكتبا لتسجيل العقود، وقالوا إن حكومة الفرنسيس لن تعترف بملكية أحد لأرضه إلا إذا سجل الملكية بعقود، وفرضوا الرسوم على التسجيل، ولم تكن هذه الرسوم موجودة، كما قالوا إن الأرض التي لا يسجل صاحبها ملكيتها خلال ٣٠ يوما تُنتزع منه وتُصادر لصالح جمهورية فرنسا، وكانت هذه وسيلة لاحتلال أرض مصر "بالقانون"، وتحويلها إلى فرنسية.

كما فرضوا رسوما على عقود البيع والبدل والتنازل والهبة، وتُسجل خلال ١٠ أيام، وإلا تُعتبر عقودا باطلة، وذلك لإجبار الأهالي على سرعة سداد الرسوم، وفرضوا ضرايب سنوية جديدة على جميع أصحاب الحرف والصناعات، ووصفها الجبرتي بأنها "تحايل على أخذ الأموال".

وأول ما أحرق الإنجليز أسطول بونابرته في أبو قير فرض ضريبة فادحة في شكل سلفة إجبارية بخمسائة ألف ريال على التجار، فحكى ديلاجو نكيير إن نابليون ففرض ٣٠٠ ألف فرنك على تجار الإسكندرية

---

(٢٧)- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ص ١٠٦- ١٠٧

و١٠٠ ألف على تجار رشيد و١٥٩ ألف على تجار دمياط، و٢٠٠ ألف على تجار البن والبهار بالقاهرة، و١٠٠ ألف على تجار خان الخليلي، وهكذا.

ولأنهم بلد الفن كما يُقال، تفنن الفرنسيس في ابتزاز الأموال حتى أن نابليون فرض على نساء البكوات المماليك أن تصالح كل منهن عن نفسها وأتباعها بمقدار من المال، كما سمح لهن بسكن بيوتهن نظير مبالغ من المال، فمثلا أصدر في أغسطس ١٧٩٨ أمرا بأن تدفع نفيسة زوجة مراد بك ٦٠٠ ألف فرنك عن نفسها وعن نساء أتباع زوجها، وقيل إنها باعت وجواهرها لتدفع حصتها في الغرامة[٢٨]، وكلها أموال نزعها المماليك من الفلاحين نزعا.

ومن أسوأ أشكال التعسف مصادرة المنازل وهدم المباني والآثار والمساجد، فأخرج الفرنسيون كثيرا من الأهالي من بيوتهم بدعوى الحاجة إليها، ومن أجل ترميم القلعة هدموا جميع البيوت المحيطة بها بعد أن أفرغوها من السكان، وامتد هدمهم إلى المساجد القريبة؛ ما شحن مشاعر المصريين[٢٩].

⑦ الدم المصري مسفوك.. والمقاومة الجماعية تعود

حين ثار المصريون على هذه الإهانات في ثورة القاهرة الأولى والمحافظات أظهر نابليون وجهه الحقيقي، وصدرت الأوامر مشددة إلى نوابه في المديريات باستعمال منتهى القسوة من قتل وتخريب وحرق وسلب ونهب؛ لضمان إذعان الأهالي، وكتب إلى أحد قواده يقول: "إني هنا أقتل كل يوم ثلاثة، وآمر بأن يطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة، وهذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع الناس[٣٠]".

وفي هذا قال الجنرال بليار في يومياته: "إن روح التذمر سائدة في الجيش، والضباط لعدم اكتراثهم بالواجب تركوا الجنود يجوبون القرى ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم".

وجاء في يوميات الجنرال لوجييه: "وصلنا يوم ١٤ من يوليو إلى قرية النخيلة في حين كان جنود الجنرالين بون وفيان ينهبونها، وكان صياح الأهالي وبكاء النساء ونحيبهم يصم الآذان"، وفي يوميات الكابتن سافاي: "صادرنا بعض المواشي التي وجدناها في طريقنا، وبينما كانوا يقيدونها كان الجنود ينهبون هذه القرية (الطرانة) ويخربونها... وإن فرقتنا لم تكن تعمل سوى إتمام خراب القرى التي يمر بها الجيش[٣١]".

ولذا بدأت المعارك ضد الفرنسيس في الوجه البحري، وانتقلت منه كانسياب مياه الفيضان من محافظة لمحافظة حتى عمَّت الوجه القبلي لحد أسوان، وربما هي المرة الأولى منذ الثورة البشمورية تتوحد فيها البلاد في مقاومة الغازي من الإسكندرية إلى أسوان، وسنحاول استكشاف السبب في صفحات قادمة، كما

---

[٢٨]- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ص ٣٤ و٦٣

[٢٩]- نفس ما يفعله الإسرائيليون في إجبار فلسطينيين على إخلاء منازلهم، ونظن أنه لم يعاني أحد مثلهم، وننسى أن معظم تاريخ المصريين مع المحتلين اكتووا فيه بهذه الممارسات أكثر من غيرهم.

[٣٠]- المرجع السابق، ص ٦٣- ٦٥، ويستحق نابليون بما فعله من جرائم إرهابية لقب كبير ومعلم دواعش العصر الحديث

[٣١]- المرجع السابق، ص ٣٤

أن دور الفلاحين فيها فاق دور المماليك رغم عدم تدربهم على القتال.

والمعارك بين المصريين والفرنسيس أكثر مما يمكن حصرها في هذا الكتاب، فلم تخلُ منها مدينة أو قرية في بر مصر، ومضطرين للاكتفاء بأمثلة لتساعدنا في معرفة سبب تفجر ثورة المصريين الكبرى هذه المرة، وسنتفاجئ أنه ما ترك الفرنسيس جريمة الدواعش الآن إلا وعملوها في مصر، وشاركهم في هذا مماليك وعسكر عثمانلية وعربان، ومثل من سبقهم من محتلين، رغم دعاوى الحرية والإخاء والمساواة التي حملوها... فكلهم يا عزيزي إذا تمكنوا من مصر... دواعش.

♣ (معركة شبراخيت)

وفيها بدأ ظهور المماليك لأول مرة بقيادة مراد بك في مواجهة الفرنسيس بعد أن تخلوا عن الإسكندرية، ورغم أن الفلاحين الأقل تسليحا، لكنهم الأكثر عددا في المعارك، والأكثر شهداء ومعاناة.

وخلال زحفهم من شبراخيت، قال الجاويش فرانسوا إن قرية رفضت إمداد الفرنسيين بالبضائع "فضُرب أهلها بحد السيف وأحرق بالنار، وذبح وأحرق ٩٠٠ رجل وامرأة وطفل ليكونوا عبرة لشعب همجي نصف متوحش[٣٢]".

وقال الجبرتي عن سريان روح المقاومة إن "جميع الناس بذلوا وسعهم، وفعلوا ما في مقدورهم وطاقتهم، وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم، فلم يشح أحد في ذلك الوقت بشيء يمتلكه[٣٣]".

♣ (معركة إمبابة)

في كتابه "مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر" قال الضابط موريه، ومثله قال الجنرال برتييه في كتابه عن حروب بونابرت: "استولى الفرنسيون على قرية إمبابة بعد أن دافع عنها نحو ١٥٠٠ مملوك ومثلهم من الفلاحين دفاع الأبطال، ورفضوا التسليم فماتوا قتلى وغرقى"، وسجل تييرس في كتابه تاريخ الثورة الفرنسية أرقاما أخرى، أن قوة من الفلاحين تبلغ ٢٤ ألفا دافعت عن إمبابة[٣٤].

وبعد معركة إمبابة هرب مراد بك للوجه القبلي والمملوك إبراهيم بك لسوريا، وسابوا المصريين للفرنسيس، ودخل الفرنسيس بعد المعركة إلى القاهرة التي باتت خاوية تقريبا بعد أن هجرها المماليك وزوجاتهم وجواريهم وأغنياؤها، واللافت أن أول من خرج مهللا للفرنسيس هم المستوطنون الأوروبيون الشاكرين للفرنسيين إنقاذهم إياهم، وتلقى صيدلي إيطالي الجاويش فرانسوا قائد الفرنسيين ليطلعه على أحوالها[٣٥]، وفتح لهم الأروام [اليونان] المطاعم ليقدموا لهم الطعام حسب عادات بلادهم[٣٦].

---

[٣٢]- بونابرت في مصر، هيرولد، مرجع سابق، ص ١٠٥
[٣٣]- االنضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، مرجع سابق، ص ٣١
[٣٤]- المرجع السابق، ص ٣٢، ومذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، جوزيف ماري مواريه، ترجمة كاميليا صبحي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٩
[٣٥]- بونابرت في مصر، مرجع سابق، ص ١٦٨- ١٦٩
[٣٦]- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، مرجع سابق، ص ٨٧

♣ (معركة الجمالية)

كشاهد عيان قال جازلاس من ضباط كتيبة داماس إنه في معركة الجمالية على الشاطئ الغربي من بحر أشمون بالمنوفية: "فوجئت السفن التي تقل الجنود بعاصفة من الأحجار والرصاص انهالت من أسوار البلدة وبيوتها، وفي الوقت نفسه رأينا جموعا كثيرة من العرب والمماليك والفلاحين مسلحين بالبنادق والسيوف والعصي تهرع من الجهات المجاورة إلى مهاجمتنا، وكان بعضهم ممتطيا الخيل وأكثرهم مشاة، فدهشنا لهذه الهجمة العنيفة".

والممتطون الخيل هما المماليك والعرب، أما المشاة فهم الفلاحون.

وفي هذا قال زاجلاس: "ونزلت الجنود حاملة سلاحها إلى البر الشرقي المقابل للقرية، وتأهبوا للقتال منتظرين قدوم الأهالي، فرأينا أكثرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم، ويهجمون إلى أن يصبحوا في وسط جنودنا، وقد رأيت نفسي جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصي يهاجموننا بحماسة[٣٧]".

♣(معركة شباس عمير)

حاول الجنرال مينو في ١٢ سبتمبر أن يقوم بجولة في شمال الدلتا، وعند قرية شباس عمير خرج الأهالي يقاومون كتيبته، وأطلقوا عليها الرصاص، وقتل الفنان جولي، وتراجعت الكتيبة، ثم عادت لتدور معركة شديدة بين الجانبين، وأدرك مينو خطورة الموقف وخاصة أن رصاصة أصابت جواده، فأمر جنده بإضرام النار في القرية، وجاء أهالي القرية المجاورة ينجدون إخوانهم، حتى بلغت الجموع ٣ آلاف من الفلاحين، وتحت الضغط العنيف عاد مينو بكتيبته بعد أن فقد عددا من رجاله[٣٨].

♣ (معركة غمرين وتتا)

اصطدم الفرنسيس بأهالي غمرين وتتا في الغربية، واستمر القتال حتى تغلبت القوة الفرنسية، فعاود الأهالي القتال في "تتا" وتغلبت قوة الفرنسيين، ورغم ذلك أشعلوا النار في القريتين، ووصف الكابتن "فيروس" القتال الذي دار في القريتين "أن عددا من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة وإقدام[٣٩]".

♣(معركة المنصورة)

المنصورة على موعد جديد لهزيمة الفرنسيس بعد معركتها مع لويس التاسع، ويصفها "مورشون" الناجي الوحيد من الحامية الفرنسية في المعركة فيقول إن الأهالي قتلوا ٣ جنود فتحصن البقية في بيت، فهاجمهم الفلاحون وقتلوا منهم ٨، وقُتل أحد الفلاحين، وبقي على الحياة ٢٥ جنديا، وفرغ رصاصهم، فآثر ١٠ جرحى منهم على الانتحار غرقا من الوقوع في الأسر، فبقي ١٥، وألقى حشد من الفلاحين الهائجين

---

(٣٧)- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، مرجع سابق، ص ٤٢- ٤٣
(٣٨)- نفس المرجع، ص ٣٨
(٣٩)- المرجع السابق، ص ٤٠

بأنفسهم علينا، وجردونا من ثيابنا، وقتلونا بالشوم، وبقيت أنا لما ألقيت نفسي في النيل[٤٠].

♣ (معركة سوهاج)

وفي الوجه القبلي قابل الجنرال "دافو" في يناير ١٧٩٩ آلاف من الفلاحين و٧٠٠ من فرسان المماليك وبدو من جزيرة العرب اتفق معهم مراد بك، وأطلق عليهم نيرانه فاستشهد من المقاومين ٨٠٠، فيما تحدث الضابط مواريه عن معركة بسوهاج وطهطا قتل الفرنسيس خلالها أكثر من ٢٠٠٠ شخص[٤١].

♣ (معركة فيلة)

قصد الجنرال "بليار" جزيرة فيله في أسوان في ٦ فبراير لمطاردة المماليك الذين فروا للحدود الجنوبية، ولما حب يعبر النيل إليها على مراكب الأهالي رفض الأهالي أن يسلموا مراكبهم للفرنسيس فرجع لأسوان.

وبعد أيام حاول مرة ثانية، ورفض الأهالي مرة ثانية، فضرب عليهم النار، وقال "بليار" في يومياته: "حمل الأهالي أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال، ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب، ويحثون التراب في وجوهنا، أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر"، و"كنت أحضرت معي مدفعا لإخضاعهم، فدعوتهم إلى الصلح والسلام فكان جوابهم أنهم لا يقبلون منا كلاما، وإنهم لا يفرون من أمامنا كما يفر المماليك[٤٢]".

واقتحم بليار الجزيرة ودهم النساء، أما ردة فعل الناس فيصفها دينون: "ألقى الجميع- الرجال والنساء والأطفال- بأنفسهم في النهر، وكنت ترى النساء الثابتات على فطرتهن الوحشية يغرقن الأطفال الذين لا يستطعن حملهم معهن ويشوهن بناتهم حماية لهن من اغتصاب المنتصرين، ووجدت فتاة في السابعة أو الثامنة خيطت بطريقة منعتها من قضاء الضرورة العاجلة وسببت لها تشنجات رهيبة[٤٣]".

ولكن استطاع بليار في النهاية أن يحتل المدينة، معتمدا على قوة نيرانه.. ولما علم بليار بتوجه المملوك مراد لأسيوط ترك أسوان، وفي الطريق سمح لجنود بممارسة هوايتهم السوداء في اغتصاب النساء وحرق المحاصيل، معتبرا أن هذا "لرفع معنوياتهم[٤٤]"!

♣ (معركة الروسية)

وفي ١١ فبراير اصطدم الجنرال "دافو بمجموعة مقاومين في الروسية بإدفو في معركة دارت رحاها ٣ ساعات، استخدم فيها المقاومون السلاح الأبيض، واشتبكوا مع الفرنسيس، وجها لوجه وخسر الفرنسيس ٣٧ من قواتهم بينهم ضابط اسمه "فونتت"[٤٥]، وهي من المعارك التي يقف أمامها التاريخ مذهولا، أنه

---

[٤٠]- بونابرت في مصر، هيرولد، مرجع سابق، ص ١٥٢
[٤١]- انظر: النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ص ٥٣، ومذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، ص ١٠٧- ١٠٨
[٤٢]- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ص ٥٥
[٤٣]- بونابرت في مصر، هيرولد، ص ٢٦٩
[٤٤]- انظر: نفس المرجع
[٤٥]- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، مرجع سابق، ص ٥٦

كيف لفلاحين يحاربون بأخف سلاح أن يتغلبوا على الفرنسيس الذين يحاربون بأحدث وأبشع سلاح.

♣ **(معركة بارو).. كسر قلب نابليون**

هي من أصعب المعارك على نفس نابليون.. والسبب محبوبته "إيتاليا"، ففي ٣ مارس ١٧٩٩، وعلى مقربة من قرية "بارو" بقنا هاجم الأهالي السفن، وأطلقوا عليها الرصاص، فأجابتهم بإطلاق مدافعها، واستطاع الأهالي بعد أن ألقوا بأنفسهم في المياه وسبحوا في النيل أن يستولوا عليها، ثم امتطوها وقصدوا بها إلى السفينة الحربية "إيتاليا"؛ ففكر قائد السفينة في الانسحاب حينما وجد أن جنوده أثخنتهم الجراح، وأن جموعا من الأهالي تحفزت على الجانب الآخر للنيل للهجوم عليه، وتدخل عامل الطبيعة فعاكست الريح السفينة فجنحت وأسرع إليها الأهالي وصعدوا على ظهرها، ولكن "موراندي" برغم ما أحاط به من الخطر أبى الاستسلام، ولجأ إلى خديعة إذ أشعل النيران في مستودع البارود، وألقى بنفسه ورجاله في النيل، وانفجر مستودع البارود ونسفت السفينة، فقتل عددا كبيرا من الأهالي.

وبذلك.. فإن الحملة الفرنسية أول من أذاق المصريين الاستشهاد وتمزيق الجسد بالمتفجرات.

واندفع من بقي من الأهالي إلى النيل ينتقمون، وتمكنوا من قتل الفرنسيين جميعا، بما في فيهم "موراندي"، وكارثة فرنسا في السفينة "إيتاليا" في قرية بارو شديدة جدا؛ لأنها السفينة اللي تقود الأسطول الفرنسي إلى الوجه القبلي وتحمل الذخيرة والمؤن، ولها غلاوة خاصة عند نابليون، لدرجة أنه اعتبر فقد "إيتاليا" بداية لأفول نجم فرنسا، وقال لمن حوله: إن فرنسا قد فقدت "إيتاليا"، إن شعوري لا يكذبني"، وكان يقصد البلاد الإيطالية التي تحتلها بلاده لتشابه الأسماء[٤٦]، وبالفعل خسرت فرنسا بعد ذلك الأراضي الإيطالية.

♣ **(معركة بني سويف)**

منذ هزيمتهم أمام العثمانلية تحول المماليك في مواجهة العدو الخارجي إلى "سيف مصدي"، أما في مواجهة المصريين فيصدق عليهم المثل "أسدُ عليًا وفي الحروب نعامة"، فأظهر المماليك أمام الفرنسيس جبنًا وخساسة ساهما في زيادة جراح الأهالي، فمراد بك هرب للصعيد بعد موقعة إمبابة في إمبابة، واقتصر دوره هناك على جباية المال بقوة السلاح من الأهالي من ناحية، وتحميسهم للقتال ضد "الكفار"، وتصديرهم كدروع بشرية في مقدمة المعارك مع الفرنسيس من ناحية، فإذا لاحت الهزيمة فر ومن معه كالبرق إلى قرى أخرى أوالصحاري، وتركوا الأهالي لجحيم الفرنسيس.

فمثلا لما وصل الفرنساوية إلى الفشن في بني سويف، تراجع مراد قبل أن يدركه الجيش، وتعقبه الفرنساوية ٣ أيام وهو ينسحب من قرية إلى قرية دون أن يواجههم في معركة فاصلة، وقال عنهم ديزييه: "إن المماليك على جانب عظيم من الحذر والحرص، فهم لا يستهدفون للقتل، بل يعرضون غيرهم للخطر[٤٧]"، وفي النهاية ذهب مراد للفرنسيس واتفق على الصلح مع كليبر عام ١٨٠٠ مقابل أن يكون

---

[٤٦]- المرجع السابق، ص ٥٦

[٤٧]- نفس المرجع، ٤٨- ص ٥٢

رجلهم في مصر، يجبي لهم الأموال ويقمع ثورة الناس؛ فنصبوه حاكما على الوجه القبلي.

وكان حين هرب بعد معركة إمبابة إلى الصعيد يجبى الضرايب من الفلاحين بالقوة، فثاروا عليه واشتبكوا معه في بلدة صنبو، وقتلت مليشياته ٨٠ فلاحا وقتل الفلاحون ٨ مماليك منهم خازن مراد، وقال بليار في يومياته إن القرية أرسلت للجنرال ديزيه ليتصدى للمماليك، ولكن بدلا من ذلك طلب ديزيه أيضا منهم الضرايب، ولم يستجب أحد لتوسلاتهم أن يعفوهم منها لأنهم دفعوها فعلا لمراد، وبذلك دفعت القرى الضرايب مرتين في سنة واحدة، وبعضها بات يصارع الفرنسيس والمماليك معا.

وأضاف أن القائد دينون بدأ يرثى لحال الأهالي "الذين أتينا إلى مصر لنحقق لهم الرفاهية"، فإذا هم يُجبرون إذا تركوا قراهم وقت الاجتياح فإنه عند عودتهم لا يجدون سوا حيطان الطين "فأدواتهم ومحاريثهم وأبوابهم وسقوف بيوتهم نستعملها وقودا لطهي حساءنا، وقمحهم يؤكل ودجاجهم وحمامهم يشوى، وفي طريق عودتهم وهم يمسكون عصيانهم تشتبه القوات في نواياها فتطلق عليهم النار ليسقط بعضهم قتلى، فيدفنون موتاهم ونظل أصدقاء حتى يجدوا الفرصة للثأر دون أن يتعرضوا للخطر".

واختتم: "صحيح لو ظلوا في قريتهم ودفعوا الميري لما خسروا كل ذلك، ولاغتصبنا عددا أقل من زوجاتهم وبناتهم، ولكن هذا كان يعد جريمة تعاون معنا[٤٨]".

♣ (معركة دمنهور)

وتبلورت ثورة جديدة في رشيد بسبب السلفة الإجبارية اللي فرضها عليها الفرنسيس، فضرب الفرنسيس قرى ومدن حولها مثل شباس عمير والسعدة وبرنبال وهدموها، ويصف "ريبو" دخول الجنرال "لانوس" دمنهور بأنه كان لينتقم منها أشد انتقام؛ لأنها من المدن التي ثارت بشدة ضد الفرنسيس، وهزموهم في كذا معركة "فأحرقوا مساكنها بالنار، وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والأطفال بحد السيف، وفي اليوم التالي كانت دمنهور ركاما من الأحجار السوداء، اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى"، ويصف الجنرال "لانوس" بنفسه ما ارتكبه من فظائع في دمنهور في خطاب إلى ديجا: "إن دمنهور زالت من الوجود، وقد أحرق أو ضرب بالنار ١٢٠٠- ١٥٠٠ من أهلها[٤٩]".

♣ الطفل الأسطورة

من أعجب حوادث الوجه القبلي ما حصل في قرية النعناعي في بني سويف، وحكاه القائدان دينون وبليار.

أنه في هذه القرية عسكر الفرنسيس في انتظار قدوم المدفعية، وتغلغل في داخل المعسكر طفل ما بين ٨-١٠ سنوت، استولى على بندقية، وخرج يجري بسرعة، فلمحه جندي وتعقبه، ولم يتوقف الصبي إلا بعد أن أصابه الجندي بالسيف في ذرعه، وساقه جريحا إلى الجنرال ديزييه.

---

(٤٨)- بونابرت في مصر، هيرولد، مرجع سابق، ص ٣٥٦

(٤٩)- بونابرت في مصر، ص هيرولد ص ٣٣٠

واستجوب الجنرال الصبي، فأذهلته حماسته ورباطة جأشه؛ فكان يجيب عن أسئلته بثبات وقدرة، وتعجب الفرنسيس حين سألوه عمن حرضه؛ فأجابهم ناظرا إلى السماء إن الله أمره أن يفعل ذلك.

وقال لديزييه افعل بي ما تشاء، ثم خلع طاقيته وأعطاها للجنرال، وطلب منه أن يفصل في مصيره، وظل طول الوقت هادئا هدوءا عجيبا وأبدى قوة خلق نادرة، أما الجنرال فراعى صغر سنه وخضوعه لحكمه، غير أنه لم يتخلَّ عن قسوته تماما، فحكم عليه بالجلد ٣٠ جلدة، وانحنى الصبي طواعية وتلقى الجلدات على ظهره دون صوت أو دمعة، حتى أن "بليار" وهو يقص حكايته قال: "إن هذا الغلام إذا عني بتربيته كان ذا شخصية نادرة المثال(٥٠)".

وتواصلت المعارك حتى وصفها الجنرال "ريبو" بقوله: "كانت الثورة كحية ذات ١٠٠ رأس، كلما أخمدها السيف والنار في ناحية ظهرت من ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت، فكأنما كانت تعظم ويتسع مداها، كلما ارتحلت من بلد إلى آخر"، وقال في موضع آخر: "فوجئت مصر بالحملة الفرنسية؛ فأخذت تنتفض وتتجاذب لتتخلص من قبضة الفاتح الحديدية، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه، فقد قامت سلطتنا على القوة لا على الإقناع، وكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الإذعان بالحزم مرة وبالقوة مرة أخرى(٥١)".

وفي وصفه لمشاعر المصريين قال المسيو بوسليج: "إن الشعب المصري يكرهنا وهيهات أن يحبنا، مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن أن تعامل بلاد محتلة، إنهم يمقتون حكم المماليك، ويرهبون نير الأستانة، ولا يحبون حكمها، ولكنهم لا يطيقون حكمنا ولا يصبرون عليه إلا بأمل التخلص منه(٥٢)".

♣ **ثورة القاهرة الأولى**

خلال اشتعال الثورة في الأرياف كانت تتحضر الثورة في القاهرة أيضا، رغم مهادنة بعض سكانها وعلمائها للفرنسيس، فصارت مصر من أقصاها لأقصاها شعلة من النيران.

ففي ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ عقد ٣٠ من المشايخ والأعيان اجتماعا اتفقوا فيه على إغلاق الحوانيت والسير في مظاهرة كبيرة إلى القيادة الفرنسية لإبلاغها رغبات الناس وعرض وجهات النظر فيما يتعلق بالضرايب وبأعمال الهدم التي تقوم بها القوات الفرنساوية، ورغم معاناتهم في قراهم، جاء الفلاحون أيضا ومعهم عرب من الضواحي والبلاد القريبة، ويصف "ريبو" الحالة فيقول: "سادت الجلبة، واختلطت الأصوات، وعلت الصيحات، فكان هذا المنظر يبعث الرهبة في نفوس أشجع الناس، ولم يعد هناك شك في أن الثورة قد بدأت(٥٣)"، وخرج الجنرال "ديبوي" يستطلع الأمر، وفجأة.. أطلق تاجر من الأروام (يوناني) اسمه برتملي ينِّي- كان يتخفى في مهنة صاحب محل قوارير قبل الغزو- الرصاص على الناس، فرد الناس

(٥٠)- بونابرت في مصر، هيرولد، ص ٢٥٥، والنضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ص ٥١
(٥١)- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ص ٤٢
(٥٢)- انظر: النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ص ٨٩- ٩٢
(٥٣)- المرجع السابق، ص ٦٥

بهجوم بالعصيان والحجارة والسيوف والرماح والسهام، وقتلوا الجنرال "ديبوي" نفسه[٥٤].

وكان لقتل "ديبوي" دفعة في عروق الناس؛ فتحمسوا، وسيطروا على مواقع استراتيجية كباب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب زويلة، وتجمع ١٥ ألف من الناس في الأزهر وحوله، مسلحين بالبنادق والعصيان، في حين الفرنسيس يرابطون متحفزين أمام مدافع نصبوها فوق أماكن عالية كالقلعة كما قال الجنرال "ديتروا" في يومياته، وأمر نابليون الجنرال "دومارتان" بنصب مدافعه فوق المقطم لتتعاون مع المدافع المنصوبة في القلعة في ضرب الناس المتجمعين في الأزهر.

وفي ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨ بدأ الصدام، وقتل الثائرون الجنرال "سلكوسكي"، ياور نابليون، المكلف بصد الفلاحين من أن يأتوا إلى القاهرة، وهتف الناس "نصر الله دين الإسلام"، في المقابل، أصدر الشيخ أحمد العريشي والسادات، وكانا ما زالا في مهادنة مع الفرنسيس، منشورا لتهدئة الناس، وصف ما يجري بأنه "فتنة وفوضى" صنعها "الأشرار"، ومدح في نابليون لأنه منع جنوده من إحراق القاهرة بأكملها، واتهم المماليك بأنهم وراء إثارة "الفتنة"، لأنهم لا يريدون أن يأخذ الفرنساوية مصر منهم، ويريدون استعادة حكمهم الغابر، فيدفعوا الناس لـ"الهلاك" [٥٥].

▼▼▼ الانتقام.. بالفرنساوي

في اليوم الثاني لثورة القاهرة تلقى "بون" أوامر القائد العام نابليون: "عليكم أن تهاجموا لفوركم معسكر الثائرين، وأن تضربوا الأزهر بالمدافع، ولتكن المدافع في أصلح موقع ليكون الضرب أشد أثرا، بلغوا الجنرال "دومارتان" أن يفعل مثل ذلك، وعليكم أن تقتلوا الأهالي، وأن كل المنازل التي تلقى منها الحجارة تحرق حالا بالنار، وعليكم أن تقتلوا كل من في المسجد".

وفي الساعة ٤ عصرا بدأت المدافع ترمي القنابل وسط الناس في الأزهر، وأصوات القنابل جديدة على آذان الناس؛ فصمت آذانهم وزلزلت قلوبهم، وانهالت كتائب الفرنسيس تحتل الشوارع الموصلة للأزهر، فبقى الناس بين نار المدافع من المرتفعات ونار الكتائب التي تصطادهم في الشوارع، ووصف "ريبو" اثار ضرب الأزهر: "أوشك الجامع الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب، فيدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه، وأصبح الحي المجاور للأزهر صورة من الخراب، فلم يكن يرى فيه إلا بيوتا مدمرة ودورا محترقة، ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين، وكان يسمع لهم أنين مزعج وصيحات مرعبة[٥٦]".

ولما استمر الضرب والهدد والقتل حسَّ الناس أن المدينة ستتدمر نهائيا، وتروح آلاف الأرواح الأخرى

---

(٥٤)- قتلت الاحتجاجات في أنحاء مصر عدة جنرالات فرنسيس، مثل ديبوي (مسئول القاهرة) وسلكوسكي ياور بابليون (بونابرت في مصر ص ٢٠٨)، وليس فقط كليبر الذي أخذ قتله حظا من الشهرة أكثر من غيره، ربما لأنه خليفة نابليون في قيادة الفرنسيس، أو لأن القاتل اسمه صار معروفا وهو سليمان الحلبي، في حين أن الذين قتلوا جنرالات وقيادات فرنسية أخرى غفل التاريخ أسماءهم.

(٥٥)- انظر: المرجع السابق، ص ٦٦- ٦٨، وعجايب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٤، ص ١٢٢- ١٢٧، و١٤٦- ١٤٧

(٥٦)- انظر: النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، مرجع سابق، ص ٦٨- ٦٩

هذه المشاهد المفجعة وغيرها طوال التاريخ وقعت للمصريين بلا مغيث من منظمات دولية أو هلال وصليب أحمر، وبلا إعلام ينقل للعالم ما جرى لهم بصدق، وبلا تعويضات ولا تبرعات، وبلا أي بواكي عليهم.

تحت البيوت المحترقة، ووافقوا على التفاوض، فطالبهم الفرنسيس بتسليم السلاح، ولكن الفرنسيس لم يحفظوا عهد التفاوض، فنفذوا سلسلة مذابح انتقاما من الأهالي كي لا يفكروا مرة أخرى في الثورة.

وعن هذا كتب الجنرال "ديتروا" في يومياته أنه راح ضحيتها من٧٠٠-٨٠٠ قتيل، وقال نابليون في تقرير لحكومة فرنسا إنهم من ٢٠٠٠-٢٥٠٠، وكذلك قالت "كورييه دي ليجيبت"، أما الجنرال "بليار" فأحصاهم ٤ آلاف قتيل، وذلك في ساعات معدودة[٥٧]، وكأن زلزال ضرب مصر بأقصى درجاته أو بركانا انفجر.

وشهد المسيو "بوريين" سكرتير نابليون الخاص في مذكراته متباهيا بنفسه: "سيق المسجونون إلى القلعة، وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام ١٢ سجينا كل ليلة، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتغرق في النيل، واستمر ذلك ليالي عدة"، و"كتب الجنرال "برتييه" إلى الجنرال "دوجا" قومندان المنصورة يقول له: "لقد نكلنا بالثائرين في مذبحة رهيبة، فسادت السكينة، وقد قتلنا منهم ألفين أو ثلاثة آلاف"، وكتب نابليون إلى "رينيه": "عادت السكينة إلى القاهرة، وفقد الثائرون نحو ألفي قتيل، وفي كل ليلة نقطع رؤوس نحو ٣٠ من الرجال وكثير من زعماء الأهالي، وأظن أن هذا سيكون درسا قاسيا لهم[٥٨]".

وقبض على الزعماء أعضاء لجنة الثورة، وحُكم عليهم بالإعدام، ومنهم الشيوخ إسماعيل البراوي ويوسف المصيلحي وعبد الوهاب الشبراوي وسليمان الجوسقي (شيخ العميان)، وبحسب مذكرات نابليون كانوا ٨٠ شخصا، وفي يوم ٣ نوفمبر ١٧٩٨ تلى عليهم حكم الإعدام بالرصاص دون محاكمات، ومن نفذ حكم الإعدام كان "برتلمي ينِّي" الرومي (اليوناني)، وبعد أن قتلوهم ألقوا بهم من فوق السور خلف القلعة، وأصدر الجنرال "برتييه" أوامر بقطع رؤوس كل المساجين الذين ضبطوا بسلاح، ورمي جثثهم في النيل، حتى لا يتم تسليمها لأهاليهم، فيكون عقابا لهم ولأهاليهم، وحين تزايدت حالات الإعدام في القلعة بالرصاص قال نابليون ببرود الحلاليف: إني أريد أن أعين جلادا (لقطع الرؤوس) ليحل محل فرقة إطلاق النار، وفي هذا توفير للذخيرة وتخفيف للضجة[٥٩]".

فكانت المذابح الفرنسية في قرى ومدن مصر من أكبر مذابح العصر الحديث، وبعد هذا بـ ٦ أيام أمر نابليون باجتماع للمجمع العلمي للبحث في الأمور العلمية، فما أغربها من طبيعة فرنسية، يقطع رؤوس الأبرياء والعلماء بيد، ويمجد العلم بيد أخرى.

وفوق هذا كايدوا الناس أكثر بانتهاك حرمة الأزهر فاجتاحوه كأنهم "جنود إبليس"، بحسب وصف الجبرتي، ووطأوه بالخيول، وتغوطوا فيه، وشربوا الخمر، وكسروا القناديل والسهارات في الشوارع، وهشموا خزائن الطلبة في الأزهر والمجاورين والمكتبة، حتى أنهم نهبوا ما لقوه من متاع وأواني في الدواليب، وكان الناس خزنوا في الأزهر الحاجات التي يخافون عليها، ظانين أن الفرنسيس لن يتجرأوا

---

[٥٧]- انظر: هوامش المحقق في كتاب "عجايب الآثار في التراجم والأخبار"، مرجع سابق، ص ١٢٣- ١٢٥

[٥٨]- انظر: النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ص ٦٩- ٧١، و"عجايب الآثار"، ج ٤، ص ١٢٧- ١٣١، وقطع الرؤوس بهذا الشكل الداعشي أمر اعتاد عليه الفرنسيس في قطع رءوس خصومهم خلال الثورة الفرنسية رغم شعاراتها "الإنسانية".

[٥٩]- بونابرت في مصر، ص ٣٣١

ويدخلوه، ورمى الفرنسيس الكتب والمصاحف على الأرض، وداسوها بنعالهم، وقتلوا من علماء الأزهر ١٣ عالما.

ولأن حملة نابليون درست جيدا كتب المستشرقين والرحالة عن الحال في مصر قبل غزوها، فيبدو أنها كانت تعلم ما للطرق الصوفية من تأثير على المصريين؛ فاتبع أسلوبها كوسيلة أخرى- بجانب العنف- لكسر حدة مقاومتهم؛ ولذا لبس قناع الدراويش لإرهاب الناس عن مقاومته بأن ادَّعى أنه يعلم ما تخفي النفوس، وأن احتلال الفرنسيس لمصر "أمر إلهي"، ويكاد يقول إنه تلقي الوحي كالأنبياء، بل إنه إله، فأصدر بيانا في ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ هدد فيه الناس بأن "الذي يعاديني ويخاصمني لا يجد ملجأ مخلصا ينجيه مني في هذا العالم.. واعلموا أني أقدر على إظهار ما في نفس كل واحد منكم، لأني أعرف أحوال الشخص، وما انطوى عليه، بمجرد ما أراه، وإن كنت لا أتكلم، ولا أنطق بالذي عنده".

وأرجع احتلال مصر لأسباب وردت في القرآن ورغبة سماوية فقال: "قدر في الأزل أني أجي من الغرب إلى أرض مصر، وإجراء الأمر الذي أمرت به، ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه، واعلموا أيضا أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل، وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يتخلف"[٦٠].

▼▼▼ دور المستوطنين الأجانب

أما اليوناني برتلمي يِنِّي، الذي كان يتخفى في شكل تاجر القوارير، فعيَّنه الفرنسيس فور دخولهم القاهرة نائبا لمحافظها، ما يؤشر إلى أنه كان جاسوسا لهم ليمدهم بالمعلومات اللازمة للغزو، ونراه يطلق أعوانه للقبض على الناس في الشوارع، ويزج بهم في السجون ويطيح فيهم دواعشه ضربا وإهانة.

وأشار الجبرتي إلى دور للشوام والأروام فقال: "وتحزبت نصارى الشوام، وجماعة أيضا من الأروام الذين انتهبت دورهم بالحارة الجوانية ليشكو لكبير الفرنسيس ما لحقهم من الرزية، واغتنموا الفرصة في المسلمين، وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين، وضربوا فيهم المضارب، وكأنهم شاركوا الإفرنج في النوايب، وما قصدهم المسلمون ونهبوا ما لديهم إلا لكونهم منسوبين إليهم، مع أن المسلمين الذين جاوروهم نهبهم الزعر أيضا وسلبوهم".

وأمر الفرنسيس بتأليف كتيبة من الأروام المقيمين في القاهرة ورشيد ودمياط،، وانضم لهم جزائريون ومغاربة، وترأس الكتيبة برتلمي يِنِّي، ومهمتها حراسة السفن في النيل بسبب كثرة مهاجمة الأهالي للسفن التي يستخدمها الفرنسيس، وقال الجبرتي عن فرقة المغاربة، إن شخصا يدعى عمر القلقجي جمع مغاربة الفحامين وعرضهم على صاري عسكر (نابليون)، فدربهم على القتال بالطريقة الفرنساوية، وأرسلهم إلى الوجه البحري الذي لقي فيه الجنود الفرنساوية القتل على يد الأهالي، فأراد تصدير المغاربة، فذهبوا،

---

(٦٠)- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، محمد فرج، ص ٧٦- ٧٩

ونهبوا منازل الأهالي وبهايمهم، وقتلوا ابن شعير، أحد كبير الجهات هناك، وقتلوا إخوته وأولاده[٦١].

كذلك انضم الكثير من اليونانيين الذين يعملون على سفن المماليك خلال معركة بالمنيا في ديسمبر ١٧٩٨ إلى الفرنسيس[٦٢]، ومثلهم فعل التركي مصطفى أغا الذي جعله نابليون محافظا للقاهرة، وأشرف على ذبح الكثير من المصريين وإلقاء جثثهم في بحر النيل، حتى وصفه الجبرتي بأنه "اللعين الأغا"، وقال: "مات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله".

وفي نفس الوقت انضم مغاربة وأتراك للمقاومة ضد الفرنسيس تحزبا للسلطنة العثمانلية أو لأسباب دينية.

▼▼▼ شرخ جديد في الجسد المصري.. فرقة يعقوب

احتلال البلاد لا يكون عسكريا فقط، ولا اقتصاديا فقط، بتملك الأجانب الأرض والمال، ولا جسديا فقط، بتوطن الأجانب في البلاد وتنصيبهم طبقة عليا فوق رأس أهلها، لكن الأشنع هو الاحتلال الفكري، احتلال العقل الوطني وتحويره وخداعه واستعباده ليعمل لصالح المحتل ظنًا منه أنه بهذا يخدم بلده.

وفيما يخص الاحتلال الفرنسي ظهرت أمثلة لتبرير التعاون مع المحتل مثل بعض علماء الأزهر الرافضين لظلم المماليك والعثمانلية ورأوا أن الفرنسيس أخف منهم وطأة، كذلك من مسيحيين ممثلين في "فرقة الجنرال يعقوب"، وهو مصري اسمه يعقوب حنا، من التجار الأغنياء، كوَّن فرقة مسلحة من المصريين المسيحيين لدعم الفرنسيس الذين خلعوا عليه لقب جنرال.

يقول عنه الجبرتي في حوادث سنة ١٢١٢ ه (١٨٠٠ م) إن الفرنسيس "طلبوا عسكرا من القبط فجمعوا منهم طايفة وزيوهم بزيهم، وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك، وأرسلوا إلى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الألفين وأحضروهم إلى مصر، وأضافوهم إلى العسكر".

وأن "يعقوب القبطي لما تظاهر مع الفرنساوية وجعلوه ساري عسكر القبطة جمع شبان القبط وحلق لحاهم، وزياهم بزي مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقبع يلبسونه على روسهم مشابه لشكل البرنيطة"، وحين سلَّط نصوح باشا العثمانلي بعض المسلمين على قتل النصارى من قبط وشوام وأروام خلال الثورة استغل يعقوب فرقته في حماية القبط الموجودين بالقاهرة ووضعهم في قلعة بالأزبكية.

ووفق الجبرتي أيضا، فإنه عند جلاء الفرنسيس خرج معهم يعقوب وجماعة من المسيحيين قبط وشوام مثل يوسف الحموي ووإفرنج وأروام- منهم السفاح برتملي ينّي- ومسلمين أيضا مثل عبد العال الأغا الذين

---

[٦١]- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٤، ص ١٣٢- ١٣٣، وبونابرت في مصر، ص ١٥٧، والنضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ص ٧٤- ٧٥

[٦٢]- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، مرجع سابق، ج٢، الملاحق التي أوردها المحقق عبد العزيز جمال الدين، ص ٤٠٠

أيدوا الفرنسيس، فيما رفض كثير ممن كانوا في الفرقة مغادرة مصر[٦٣].

ولم يترك يعقوب، الذي مات في السفينة الإنجليزية قبل وصوله لفرنسا- أوراقا يشرح فيها بنفسه مبرراته لتشكيل فرقة مسلحة لمعاونة الغازي.

ولكن نقل عنه صديق له اسمه لاسكارياس، يقال إنه من فرسان مالطة الذين انضموا لنابليون بعد غزوه مالطة وأتى معه لمصر، كان ذو طموح كبير ويسمي نفسه "رجل المشروعات"، ويتضح من حياته أن من مشروعاته هذه تخليص بلاد مثل مصر وجبل لبنان من الاحتلال العثمانلي والمملوكي لتستقل ولكن تحت رعاية أو حماية أوروبية.

وكشفت وثائق عثر عليها د. شفيق محمد غربال في بداية القرن ٢٠ في أرشيف وزارتي الخارجية الإنجليزية والفرنسية النور قليلا، منها رسالة من القبطان جوزيف إدموندس ربان السفينة "بالاس" التي كان عليها يعقوب ولاسكارياس إلى لورد البحرية الإنجليزية ينقل له فيها خلاصة حديثه مع يعقوب قبل موته عن رغبته في الحصول على دعم بريطاني لاستقلال مصر، وذلك بعد أن فقد يعقوب الثقة في فرنسا، و"أنه انضم للفرنسيين تلبية لباعث وطني علَّه يخفف عن مواطنيه ما قاسوه، وأن الفرنسيين خدعوهم، وأن المصريين في الوقت الحاضر يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك"، ولكنه "لم يفقد بعد أمله في خدمة بلاده، وأن ارتحاله لفرنسا قد يمكنه من هذا".

أما مكاتبات لاسكارياس- الذي صاحب يعقوب على متن نفس السفينة- إلى القبطان فتحمل تبريرا بأن وجود يعقوب والوفد المصري في فرنسا سيمكنهم من التواصل مع الحكومات الأوروبية لتحقيق فكرة استقلال مصر، ويتمنى من بريطانيا أن يكون هذا الاستقلال محور مفاوضاتها مع فرنسا حول مستقبل مصر بعد إتمام الجلاء الفرنسي، وفي المقابل تكون مصر المستقلة صديقة لبريطانيا[٦٤].

فيما نقل يعقوب روفيلة في كتابه "تاريخ الأمة القبطية" الذي وضعه نهاية القرن ١٩ عن معمرين قريبين من عصر يعقوب أن الكنيسة لم تكن راضية عن تصرفاته، وأنه خالف أبناء ملته "في الزي والحركات" بل و"اتخذ له إمرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية"، في إشارة لزواجه من مسيحية شامية، والأغلب أنها كاثوليكية "وسمعت من بعض شيوخ الأقباط المسنين أن البطريرك نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة، وأن يعيش كسائر إخوانه فلم يقبل، وعاوده بالنصيحة مرة أخرى فجاوبه جوابا عنيفا فسخط عليه، وسمعت من آخر أيضا والعهدة عليه أن ما كان بينه وبين البطريرك من المنازعة والمشاحنة دفعه إلى التجارئ على الدخول في الكنيسة مرة راكبا جواده ورافعا سلاحه[٦٥]، وربما في هذا إشارة إلى تحوله للمذهب الكاثوليكي الذي تتبناه فرنسا وسعت لنشره في مصر منذ القرن ١٦.

واختلفت الآراء حول نوايا يعقوب وتقييمها، ما بين من رآه صاحب أول مشروع مصري استقلالي مثل

---

(٦٣)- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، مرجع سابق، ج٥، ص ٥ و ٢٥ و١٩٤- ١٩٥

(٦٤)- الجنرال يعقوب والفارس لاسكارياس ومشروع استقلال مصر في ١٨٠١، د. شفيق غربال، دار الشروق، ط١، ص ٥٩- ٦٠

(٦٥)- تاريخ الأمة القبطية، يعقوب نخلة روفيلة، ط٢، مؤسسة مار مرقص لدراسات التاريخ القبطي، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٨٩- ٢٩٠

شفيق غربال، ومن رآه متعاونا مع الاحتلال، مثلما اختلفوا حول بعض شيوخ الأزهر الذين رفضوا ثورة المصريين على الفرنسيس ما بين أنهم سعوا لحماية المصريين العزل من التهلكة في ثورات يقودها المماليك لصالحهم، وما بين من رأوهم يعملون لصالح الاحتلال.

وما بين هذا الرأي وذاك يبقى اليقين أن شرخا اتسع في جسد مصر حول الموقف من الغزاة منذ الاحتلال الروماني، وتسبب كثرة تعرض البلد لاحتلال ورا احتلال بلا هوادة، وظهور أنواع من الاحتلال والتنظيمات تبرره للمصري المسلم والمسيحي باسم الدين، وأخيرا باسم الحرية، هذا الشرخ زاد اتساعا وأشبع العقل المصري.. توهانا.

♣ ثورة القاهرة الثانية

شبت في مارس ١٨٠٠ في بولاق، ظهرت لها زعامات من الصف الأول من المشايخ، وشجعها هذه المرة العثمانلية باتفاق مع إنجلترا، وقدَّر كليبر الموقف، خاصة بعد سيطرة الثائرين على ملاحة النيل، فحاصر القاهرة لتجويعها، فانشرت المجاعات وغلت الأسعار، وأمر المدفعية أن تصلي المدينة نارا حامية بالقذائف الملتهبة، فقصفوا المنازل التي رصدوا بها المقاومين، بمن فيها من نساء وأطفال، فانتشر الصراخ والهلع، على حد وصف الجبرتي.

في المقابل قضى الناس على كتيبة من فرقة الجنرال "رينيه" وقتلوا ضباطها، ودخلت الكتيبة الثانية، فخلعت المتاريس التي يتحصن الناس ورائها، ففروا للتحصن في أماكن جديدة، فطاردتهم كتائب الفرنسيس، وولعت النار في البيوت، واستمر الكر والفر من ٥- ١٠ أبريل.

والعجيب أنه وسط هذه المآسي أطلق الكاتخدا العثمانلي عسكره ينهبون ما بقي من منازل ومحلات عامرة، ويبتزون الناس لبيع ما لديهم وإعطائهم المال، وذلك بالرغم مما هم فيه من البلاء وشقاء الحال، واستغل العربان الرحل الفوضى في فرض فرد وإتاوات جديدة ونهب الغيطان حتى وصفهم الجبرتي بأنهم "الملاعين الأعراب، الذين هم أقبح الأجناس، وأعظم بلا محيط بالناس".

وبدأ كليبر يأخذ خطوات عنيفة للقضاء على الثورة، خصوصا أن العثمانلية أيضا رفضوا الصلح (بدافع تحالفهم مع إنجلترا)، وفي ١٤ أبريل هاجمت قواته حي بولاق بالمدفعية، وحرقوا البيوت، وتنقلت النار بين البيوت والمحلات، وتدمر الحي كله، ومات الكثير من العائلات تحت الأنقاض، أو أكلتهم النار، و"صارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة"، بتعبير الجبرتي، ونفس الرواية قالها المسيو جالان الذي عاش الأحداث في بولاق، فقال: "أنذرت بولاق بالتسليم فرفض أهلها كل إنذار، وأجابوا بإباء وكبرياء أنهم يتبعون مصير القاهرة، وأنهم إذا هوجموا فهم مدافعون عن أنفسهم حتى الموت، وأخذ الجنرال "فريان" يحاصر المدينة، ويصب عليها من المدافع ضربا شديدا، أملا منه في إجبار الأهالي على التسليم، فهرب بعضهم وصمد آخرون وأجابوا بضرب النار، وأسلم الفرنساوية المدينة للنهب، وصار أهلها عرضة لبطش الجنود وتنكيلهم، فجرت الدماء أنهارا في الشوارع، واشتملت النار أحياء بولاق من أقصاها إلى أقصاها..

فليس في الإمكان أن نخطو خطوة إلا على كثبان من الخرائب والأتربة، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الهدم".

وهو وصف من أقسى مشاهد الحروب في العالم.

ولما اضطر أهل بولاق بعد تمام الخراب للاستسلام لم يرحمهم الفرنسيس، ففرضوا عليهم غرامات شديدة، ٢٠٠ ألف ريال، مع ٣٠٠ ألف ريال سكر وبن وزيت، والأبشع أنهم لما قبضوا على مصطفى البشتيلي، أحمد زعماء الثوار، طلبوا من أتباعه أن يقتلوه بأنفسهم، فضربوه بالعصى حتى مات، مما يدل على أن غلظة كبد الفرنساوية لم تفرق شيئا عن غلظة كبد المماليك، وقال الجبرتي عن الخراب: "وصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن مغنى صبابات ولا مواطن أنس ونزاهات (...) صارت كلها خرائب متهدمة محترقة تسكب عند مشاهدتها العبرات"(٦٦).

وأرسل السادات كتابا إلى عثمان كتخدا محملا العثمانلية جزءا من مسئولية الخراب والدم، بدأه بـ:"حسبنا الله ونعم الوكيل"، وقال إنه سلط عسكره كي ينبهوا أموال الناس: "عسكركم الذي أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات، بلغ في النهب والفساد غاية الغايات وأخفتم البلد بعد أمنها وأشعلتهم نار الفتنة بعد طفيها، ثم فررتم فرار الفيران من السنور، وتركتم الضعفا متوقعين أشنع الأمور"(٦٧).

وفي ١٤ يونيو ١٨٠٠ قتل شاب من حلب اسمه سليمان الحلبي كليبر بطعنات في قلبه، وحكم عليه بحرق يده اليمين وإعدامه على الخازوق وترك جثته يأكلها الطير، قال خلال محاكمته بحسب ما أورد الجبرتي وهيرولد عن دوافعه للقتل إن من أغراه بهذا الضابط التركي أحمد أغا بعد أن وعده بتخفيف الضرايب الباهظة التي فرضها والي حلب على أبيه تاجر السمن، ولم يوافق الشاب إلا بعد مقابلتين أخريين، وأمده بالمال، ونفذ مهمته(٦٨).

وبتولي مينو انتهى الأمر بتجرعه الهزيمة في الإسكندرية بعد معركة جديدة مع الأسطول الإنجليزي، ورحل الفرنسيس في ١٨ أكتوبر ١٨٠١ بعد أن اكتوى بنارهم البشر والحيوان والنبات والحجر(٦٩).

وبسماع الخبر السعيد.. خرج الناس للشوارع يطيرون من الفرحة، كالطيور الحرة الجريحة، تحمل على ريشها بقايا دمائها، يدق قلبها بالثقة في نفسها والأمل في الغد، كما يدق بالقلق والترقب.. فمصر لا زالت تحت الاحتلال.

▲▲▲ لماذا ثرنا أيام الفرنسيس؟

حاولنا معرفة إجابة لماذا لم نثر ثورة كبيرة على مستوى البلد كلها خلال الاحتلال المملوكي والعثماني

---

(٦٦)- انظر: النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ص ٩٧- ١٠١، وعجايب الآثار في التراجم والأخبار، ص ٣٢٥- ٣٥٣
(٦٧)- انظر: النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، محمد فرج، ص ١٠٢، وعجايب الآثار، ج ٤، ص ٣٥٣- ٣٧٣
(٦٨)- انظر: عجايب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، ص ٥- ٥٧، وبونابرت في مصر، هيرولد، ص ٣٧٦- ٣٨٠
(٦٩)- انظر النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ص ١٠٧- ١٠٩

في نهاية فصل الاحتلال العثمانلي، ويبدو أن عوامل استجدت مع الفرنسيس ساعدت في انتشار الثورات أيامهم، ومنها أن:

١- الفرنسيس من دين مختلف، واستفاد العثمانيون والمماليك من ذلك في نشر فتاوى بوجوب محاربة "الكفار القادمين لهدم الدين"، وساهم الفرنسيس في ذلك بقصف الأزهر وقتل علمائه، فكان العامل الديني له سحره، بالرغم من أن العثمانيين أنفسهم متحالفين مع الإنجليز "الكفار" بتعبير ذلك الزمان.

٢- توفرت القيادة للثورة، سواء من علماء الأزهر ومشايخ القرى أو من بعض المماليك وفي مرحلة لاحقة السلطان العثماني، وإن كان لكل أسبابه، واللافت أنه أحيانا كانت الثورة أيضا ثورة ضد المماليك كما رأينا في بعض القرى التي انتفضت ضد المماليك حين تركوا قتال الفرنسيس وتفرغوا للم الإتاوات.

وأيا ما كان السبب الصحيح... فتجربة الثورة المصرية ضد الفرنسيس أحيت روح الجندية في صدور المصريين، ووفرت تجربة ظهرت ثمارها الحلوة في إثبات المصريين لقدرتهم الحربية حين استعان بهم محمد علي في إعادة بناء الجيش بعد هذه الأحداث المُرَّة بـ ٢٥ سنة، أما الثورة المصرية "على حق" فستعود وتفاجئ العالم في ١٨٨١ أيام عرابي وما بعده، وقتها سيظهر المصريون وكأنهم في حربهم مع الهكسوس تحت قيادة أحمس وتحوتمس ورمسيس، بوعي وطني صافي- وليس فقط معتمدا على الاختلاف مع العدو في الدين- غلى في عروقهم وكأنه لم يفصل بينهم وبين الزمن العظيم ٣ آلاف سنة.

"إنها [ماعت] لا تتغير ولا تتبدل منذ زمن الذي أوجدها"

(الحكيم بتاح حتب عن الماعت التي تختفي أحيانا لكن لا تموت)

"إن صلاح الأرض (مصر) ينحصر في تطبيق الماعت"

(الفلاح الفصيح) [٧٠]

---

[٧٠]- انظر: تقديم الدكتور علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

أيام ورا أيام ورا أيام

لا الجرح يهدى ولا الرجا بينام

ماشي فى طريق الشوك ماشي

لكن قلبي مطرح ما يمشي يبدر الأحلام

العتمه سور والنور بيتواري

وإيش للفقاري في زمان النوح

ميته تخطى السور يا نوارة

ويهل عطرك علي الخلا ويفوح

ويشدنا لقدام[١]

---

[١]- أغنية مقدمة مسلسل "الأيام"، كلمات سيد حجاب، ألحان عمار الشريعي، غناء علي الحجار

المشهد ١٧: الاحتلال العلوي

(الجزء الأول ١٨٠٥- ١٨٨٣)

(قبضة روتشيلد)

♦♦♦ المناخ الذي خدم محمد علي

تشكلت السلطنة العثمانلية من شعوب مختلفة، بأديان متباينة ونحل متصارعة وجيش مرتزقة؛ فدخل إليها الضعف والاختلال الذي بلغ أقصاه في عصر محمد علي.

وقبل ظهور محمد علي تفككت عرى جميع أجزاء السلطنة بالثورات عليها أو بين الفرق التي تتقاسم الحكم كالمماليك، فمصر والأناضول والشام كانت في فتن وقلاقل، وبلاد العرب مع العثمانلية في حرب عوان، والجيش العثمانلي مؤلف من رعاع الناس وسفلتهم [معظمهم مرتزقة]، والسلطان أشبه بسجين أو ألعوبة في يد وزرائه وعساكره الانكشارية، والوزراء يتهددهم الخطر في كل الحظة، كل منهم يتحين الفرص لاغتيال خصومه والسعي في عزل السلطان وتولية غيره ليكون هو الصدر الأعظم الجديد[٢].

وبعد جلاء الفرنسيس عن مصر اشرأبت أعناق المماليك مرة أخرى للقبض على زمام الأمور، في حين العثمانلي يطمح لطرد المماليك من مصر، لكن المقادير جاءت بعكس ما أمل الفريقان، إذ أراد الله أن يكون الحكم لشخص كان وقتها للجميع مجهولا هو محمد علي الذي جاء على رأس فرقة مرتزقة أرناؤوط (ألبان) تابعة للجيش العثمانلي لمحاربة الفرنسيس.

واشتعلت حرب المماليك مع بعضهم وحرب المماليك مع الإنكشارية[٣] والأتراك مع محمد علي، وكل هؤلاء أشعلوا سويا حربا على الفلاحين باستخدم أقسى الوسائل في انتزاع أكبر كم من عرق أجسادهم لتمويل معاركهم وطموحاتهم بثمنه.

وبعد أن ساهم محمد علي في التخلص من ولاة العثمانلي وبعض كبار المماليك انقلب على حليفه البرديسي مستغلا عجزه عن سداد مرتبات مماليكه وفرضه ضرايب على الناس الذين لم يرتاحوا من ضرايب

---

(٢)- انظر: مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، عمر الإسكندري وسليم حسن، مرجع سابق، ص ١١١

(٣)- الإنكشارية فرقة عسكرية كونها العثمانلية من صبيان المسيحيين الذين قُتل أباؤهم في الحروب، ويعلمونهم الإسلام والحرب ويرقونهم لأعلى المناصب، حتى انتهزوا الفرصة وطغوا في الدولة قبل أن يبيدهم السلطان محمود الثاني ١٨٢٦ (تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، عمر الإسكندري وسليم حسن، ص ١٤)

الفرنسيس، وقتل أحيانا من رفض أو عجز عن السداد، حتى تظاهر ضده الناس في الشوارع هاتفين: "إيش تاخد من تفليسي يا برديسي".

فلما تأكد محمد علي أن البرديسي وغيره من المماليك صاروا في نظر السلطان العثمانلي عصاة والأهالي يتمنون الخلاص منهم انتهز الفرصة وانسلخ من البرديسي، وتظاهر باستياءه لجمع هذه الضرايب الفادحة، ووعد الأهالي بمناصرتهم، فمال إليه الناس، ولما وثق من أنهم يؤيدونه، حاصر سنة ١٨٠٤ قصر البرديسي المحصن بالمدافع، ورشا محمد علي المماليك من رجال مدفعية البرديسي فحولوا مدافعهم على سيدهم- كعادة المماليك "أبجني تجدني"- إلا أن البرديسي وإبراهيم بك الكبير فرا إلى سوريا، فصفا الجو عندئذ لمحمد علي.

▲▲▲ ثورة ١٨٠٤.. فضل المصريين المنسي على محمد علي

أظهر المصريون الغضب والكراهية للعثمانلية فيما سبق، لكنه كان غضبا مبعثرا غير منظم وغير مؤثر؛ لأسباب منها غياب القيادة وغياب البديل، وحين ظهرت القيادة ممثلة في الأزهر انتظم الغضب في ثورة واضحة.

بعث السلطان العثماني واليا جديدا هو خورشيد باشا، ويحكي الجبرتي أن خورشيد هذا جلب من الشام عسكر مرتزقة من الدلاة (خليط من البوسنة والصرب والألبان مشهورون بالوحشية) ليساعدوه، وفرض على البلاد فِردة جديدة لدفع مرتباتهم، فجعل على كل بلد فول وخرفان وسمن وبن وعيش ورز وبرغل بخلاف الأموال، ونزل "الدلاة" البساتين ومصر القديمة وما حولهما؛ فأكلوا زرع الناس وخطفوا ما في أيديهم، وخطفوا النساء والأولاد، ولاطوا بالرجال كبار السن، وطردوا الناس من منازلها، وذهبوا قليوب فاستولوا على بيوتها وفرضوا فردة على أهلها، وأخذوا النساء والبنات والأولاد وباعوهم فيما بينهم [كما يفعل الدواعش]، وتصدى لهم أهالي قرية أبو الغيط ورفضوا إعطائهم أي فِرَد، وتركوا القرية، فقتل "الدلاة" ١٠٠ فلاح، فضج الناس وفزعوا إلى مشايخ الأزهر الذين طالبوا خورشيد بوقف المظالم فلم يرد عليهم، فأضربوا عن الدروس بالأزهر وأغلقوه، وطاف الأولاد الصغار في الشوارع يصرخون "يارب يا متجلي أهلك العثمانلي، و"يا لطيف"، ويطلبون من الناس غلق الدكاكين[٤].

وأمام هذا محمد علي يتفرج عليهم، ولا يقوم بما يردعهم، ليزيد سخط الناس على خورشيد، واستمر الإضراب في القاهرة، ومظاهرات الأطفال تجري في الشوارع، واجتمع المشايخ وذهبوا إلى محمد علي وقالوا: له "إنا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولا بد من عزله"، فرد بخبث: "ومن تريدون أن يكون واليا؟" فجاءته الإجابة المنتظرة: "لا نرضى إلا بك، وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير"، فتمنَّع أولا ثم رضى، وأحضروا له كركا وعليه قفطان ألبسه له عمر مكرم والشيخ الشرقاوي، ولكن بعد أن أخذوا عليه العهد أن يقيم العدل بين الناس، وألا يفرض عليهم ضرايب ظالمة، ونادوا في

---

[٤]- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي، ج ٦، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص ٣٧٧- ٣٧٨ و٣٩٩- ٤٠٤

الناس بالخبر، وأرسلوا لخورشيد ليترك مكانه فقال خورشيد: "إني مولّى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين"[٥].

فتجمع المشايخ مع من وصفهم الجبرتي بالعامة وبأيديهم الأسلحة والعصي والنبابيت، ولازموا السهر بالليل في الشوارع والحارات يسرحون في نوبات حراسة لحمايتها من عسكر خورشيد وغيره، ومجموعة تطوف الشوارع بالمشاعل، بل وقرروا محاصرة القلعة التي يتحصن بها خورشيد ليجبروه على الرحيل، وعملوا المتاريس، واشتركت عساكر محمد علي في الحصار، أما عساكر خورشيد فركبوا فوق الأسوار يرمون الناس برصاص البنادق، وعمر مكرم يطوف ويجمع ناس جديدة لتشديد الحصار.

وتحدث حسن باشا- أحد رجال السلطان- لعمر مكرم حديثا يظهر تخصص العثمانلية في تفسير الدين حسب مصالحهم: "كيف تعزلون من ولّاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم؟"، فرد عليه: "أولو الأمر السلطان العادل والعلماء وهذا الرجل ظالم، وجرت العادة أن الناس تعزل الوالي الظالم حتى لو كان الخليفة والسلطان"، ففوجئ حسن باشا، فساق الاستعطاف كعادة الأتراك حين يجدون خصمهم أقوى منهم: "وكيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا؟ نحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك؟"، فرد عمر مكرم بإصرار: "نعم قد أفتى العلما واالقاضي بجواز قتالكم لأنكم عصاة"، فقال له حسن باشا: "إن هذا القاضي كافر"، فرد عمر مكرم بحكمة وسخرية: "إن كان قاضيكم كافر فكيف بكم؟!"[٦].

ويقول الجبرتي إن من وصفهم بالعامة اشتد إصرارهم على عزل خورشيد حتى أن الفقير منهم كان يبيع ملابسه أو يستدين لكي يشتري سلاحا يشارك به في حصار القلعة ومطاردة جند العثمانلية، وشارك معهم العربجية والفعلة لينقلوا للناس المرابطين حول القلعة الماء والطعام، وفي المقابل، فإنه مع مرور الوقت لم يتحمل عسكر محمد علي الأرناؤوط الرباط؛ فطلبوا منه مالا، فأجابهم بأن اصبروا حتى ينزل خورشيد، فلم يقبلوا وتركوا المتاريس، وانفضوا عن الحصار، فحلَّ الأهالي محلهم وتترسوا في مواقعهم[٧].

وفوق هذا انقلب الأرناؤوط على الثوار فطاحوا في الأهالي في الشوارع، وخطفوا أسلحتهم، وصرخوا: "اقتلوا الفلاحين"، فجمع حجاج الخضري من كبار رملة بولاق وإسماعيل جودة الأهالي و"نزلوا ضرب" في الأرناؤوط وقتلوا عددا منهم.

ولم يتصدَّ محمد علي لجرائم قومه الأرناؤوط، ولكنه أعطاهم عطايا وكساوى وأرسلهم إلى محاربة محمد الألفي، وفي طريقهم إليه أفحشوا في نهب البلاد "ما لم يسمع بمثله"، بحسب تعبير الجبرتي المعاصر لهم، يقتلون وينهبون ويفسقون بالنساء والأولاد، ولم يذهبوا لمقاتلة الألفي[٨].

---

[٥]- انظر: نفس المرجع، الجبرتي، ص ٤٠٥- ٤٠٨، ومصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، ص ١١٥- ١١٩

[٦]- المرجع السابق، الجبرتي، ص ٤١٠- ٤١٣

[٧]- المرجع السابق، ص ٤١٣- ٤١٤

[٨]- نفس المرجع، ص ٤١٤- ٤١٧

في المقابل، استمر المصريون الثائرون ورجال الأزهر في تعريض أرواحهم للخطر ليزيحوا خورشيد ويولوا محمد علي، واستمروا في حصار القلعة وعساكر خورشيد ترمي الناس بالقنابل من المدافع، وأرسل العلماء للسلطان يلتمسون منه تعيين محمد علي، فلما وصله أخبار صمود الناس في الحصار اضطر أن يرسل رسولا "قابجي" إلى مصر بعزل خورشيد وتولية محمد علي، ففرح الناس وأقاموا الاحتفالات، فيما استمر عسكر المرتزقة ينهبون الشوارع، فقاد الحجاج الخضري الأهالي لمطاردتهم وقتلهم(٩).

وبهذا حقق ثوار القاهرة، سواء من الفلاحين الذين وصفهم الجبرتي بالعامة والعربجية والفعلة، أو من مشايخ وتجار بعضهم مصري وبعضهم من المستوطنين أول نصر صادح على السلطنة العثمانلية بإرغامها على الخضوع لإرادتهم رغم قلة أسلحتهم، متوجين سلسلة من انتصارات ضيقة حققها فلاحون خلال ثوراتهم في القرى على عسكر العثمانلية والمماليك رفضا لأساليبهم الهمجية في تحصيل الضرايب.

▼▼▼ لماذا اختاروا حاكما أجنبيا وليس مصريا؟

هذا السؤال يسأله الكثير منا ويحيرنا، وهو: بعد كل ما مر به المصريون من ظلم المماليك والعثمانلية، وكل ما شعروا به من ثقة في أنفسهم وقدرتهم على المقاومة خلال بسالتهم في تصديهم لأعتى أسلحة فرنسا ولعسكر خورشيد بشا، لماذا اختاروا رجلا أجنبيا من المرتزقة أيضا ليحكمهم، وهو محمد علي؟

١- يصعب القول إن الاختيار كان مصريا جماعيا، وإنما من كان منهم في القاهرة وما حولها، وثوار القاهرة وافقوا على محمد علي بعد أن اختاره زعيمهم عمر مكرم، فهم في الحقيقة ساروا وراء عمر مكرم الذي شجع محمد علي على التقدم محل الوالي العثماني، شرط تطبيق العدل، ولكن لماذا لم يختاروا عمر مكرم نفسه حاكما؟

٢- أعيان القاهرة حينها- بما فيهم عمر مكرم- كانوا ما بين علماء الأزهر وتجار، والاثنان ليسا من رجال الحرب والقتال والجيش، والعرف في ذلك الزمان أن الحاكم- في كل الدنيا- يجب أن يكون مقاتلا ومن رجال الجيش والإدارة، فنابليون مثلا ضابط، وهو ما كان مطلوبا أيضا في مصر ليستطيع التصدي للمماليك المسلحين المقاتلين وللعسكر العثمانلي.

٣- المصريون وأعيان القاهرة لا يملكون قوة مسلحة منظمة يعتمدون عليها في مواجهة العسكر العثمانلي والمماليك، أما محمد علي فقائد لفرقة مسلحة وقادر على ضم فرق أخرى له بنظام شرا المرتزقة.

٤- الناس في ذلك الوقت كانوا ما زالوا متأثرين بالفكرة الخاطئة بأنه مدام الحاكم "مسلما" فيمكن أن يكون شرعيا مهما كان من أي دولة أجنبية، خاصة بعد ما تفنن محمد علي في تقديم نفسه في صورة "العطوف"، وساعد على هذا أن معظم من بيده الأمر في مصر هم أساسا من مستوطنين أجانب، بما فيهم كثير من علماء الأزهر الذين يصدرون الفتاوى بهذا الشأن.

---

(٩)- نفس المرجع، ص ٤١٧- ٤٢٧

٥- إضافة لما سبق، كان لما أظهره محمد علي من دهاء في تقديم نفسه على أنه المنقذ لسكان مصر من عسف المماليك والعثمانلية، وتصديه فعلا للمماليك، أثره في قدرته على تولي الحكم، فهو إن كان أجنبيا مثل المماليك والعثمانلية، ولكنهم ظنوا أنه ينطبق عليه المثل المصري "قضا أخف من قضا".

٦- فرضا لو تقدم فلاح مصري لتولي الحكم- دون أن يسنده قوة مسلحة حينها- من كان سيُمكّنه من ذلك؟ هل كان أعيان البلد الأجانب سيسمحون لابن البلد أن يستردها ويتحكم فيهم ويعيد مناصب ومال الدولة إلى أصحابها؟ الإجابة بالطبع معلومة... إن كلمة "الفلاحين" في الحقيقة ترعب المستوطنين الأجانب- رغم تعاليهم على الفلاحين- أكثر مما كان يرعبهم الغازي الجديد القادم من الخارج.

الغازي الجديد يمكن التوائم معه بصفقات توزيع وتوازن النفوذ.. أما الفلاح ابن البلد فهل قام ليثور ليقتسم البلد مع أجانب مستوطنين؟ سؤال مرعب بالنسبة لهم.

♣♣♣ السكان وتعريف المصري في الاحتلال العلوي

دبَّر محمد علي مكيدة مذبحة المماليك بعد دعوتهم لحفلة "العشاء الأخير" في القلعة مارس ١٨١١ لأنهم القوة المسلحة الوحيدة المنافسة له، ويتصفون بعدم الطاعة، ومبدأهم الغدر، وجرب ذلك حين حاولوا اغتياله في احتفال فتح الخليج، وحين تحالفوا مع البدو ضده في الوجه البحري، فجزَّ بنو جنسه الأرناؤوط رءوس ٥٠٠ من أمراء المماليك، بما فيهم كبيرهم شاهين بك، وتعامل محمد علي مع جثثهم معاملة عادة أمثاله في هذا الوسط الداعشي، حيث سلخ رءوس بعضها وملأها بالتبن.

وبعد نجاح تدبيره أصدر أوامره لحكام المديريات بقتل من يعثرون عليه من المماليك، فكان مجموع من قتل منهم بالقاهرة والمديريات يزيد على الألف، وهكذا سقطت هذه الطائفة التي عاثت في الأرض فسادا أكثر من ٦ قرون أذاقت خلالها المصريين كل صنوف الذل والعذاب.

وبذلك تبدلت الطبقة الحاكمة المعاصرة للمصريين، فصارت مكونة من محمد علي وجنسه الأرناؤوطي، مستقويين بما بقي من صغار المماليك ممن أظهروا له الطاعة والولاء، ومن اشتراهم من مماليك جدد يربيهم بطريقته، ثم طرأ تغييران على السكان، خاصة في القاهرة والإسكنرية، عما كانت عليه قبل محمد علي مع زيادة عدد الفرنجة وأصدقائهم؛ أي الأرمن والشوام الذين دربتهم مدارس الإرساليات التبشيرية في الشام وأرسلوهم إلى مصر مسلحين بالعلوم الأوروبية واللغات وخطط للتمكين، فلبست القاهرة والإسكندرية شيئا فشيئا قناعا أوروبيا.

ونشر الرحالة إدوارد وليم لين الذي عاش في مصر أيام محمد علي في كتابه "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم- مصر ما بين ١٨٣٣- ١٨٣٥" إحصاءً فيه تقدير مبدئي تم حينها في مصر لعدد السكان وأجناسهم، قدرهم بنحو ٢ مليون، وورد نصا كما يلي بهذا التصنيف:

المسلمون المصريون (الفلاحون وسكان المدن) ١,٧٥٠,٠٠٠

المسيحيون المصريون (الأقباط)	١٥٠,٠٠٠
العثمانيون أو الأتراك	١٠,٠٠٠
السوريون (يقصد الشوام عموما)	٥,٠٠٠
اليونانيون (الأروام)	٥,٠٠٠
الأرمن	٢,٠٠٠
اليهود	٥,٠٠٠

وأما ما تبقى من السكان (العرب وعرب شمالي أفريقيا (المغاربة) والنوبيين والعبيد الزنوج والمماليك [أو العبيد البيض] والجاريات البيض والفرنجة- بحسب تصنيفه- فقدر نسبتهم بـ ٧٠ ألفا، وقال إن عرب الصحارى المجاورة لا يدخلون في تعداد سكان مصر [١٠].

أي أن المصريين (مسلمين ومسيحيين) مليون و٩٠٠ ألف، يعني السواد الأعظم بنسبة أكثر من ٩٥%، يكاد لا يذكرهم أحد في كتب التاريخ إلا ضمن الحديث عن جمع الضرايب وتكاليف السخرة، والبقية من الأجناس الذين يملأون كتب التاريخ بأخبارهم وضجيجهم وحكمهم للبلد وصراعاتهم وقصورهم وألوانهم المزركشة وجواهرهم وجواريهم وقراراتهم، ويتصدرون الشاشة في المسلسلات والأفلام التي تتحدث عن هذه الفترة أقل من ١٠٠ ألف من الأتراك والمماليك واليونانيين والأرمن والشوام واليهود والعرب والمغاربة والأفارقة، إلخ.. وهكذا كان يُكتب التاريخ.

وصدق فيه قول نجيب محفوظ في روايته "خان الخليلي":

"ألا تعلم أن رعاع الغزاة انتهبوا في الماضي أراضينا بحكم الغزو؟ وها هم أولاء يكونون طبقة عالية ممتعة بالجاه والسؤدد والامتيازات لا حصر لها"[١١].

ويتضح أنه لم يظهر فيه من الأوروبيين غير اليونانيين (الأروام)، في إشارة إلى ضآلة عدد الفرنسيس والبريطانيين حتى نصف فترة حكم محمد علي، قبل تفجر سلسلة المشروعات الكبيرة، ويستضاعف هذا العدد بشكل مهول في عهد أولاده ليصل إلى عشرات الآلاف، وبعد أن كانت الطبقة المتصدرة في الحكم ودور العلم في القرن ١٨ يغلب عليها اللون العثمانلي حتى في الهيئة واللبس واللغة، صارت في القرن ١٩ يزاحمها اللون الإفرنجي، سواء من الإفرنج نفسهم أو من يقلدونهم.

وتواصل التشويه في توصيف "المصري" بأن انضم لهذا التوصيف الفضفاض أرمن وأوروبيون لمجرد

---

[١٠]- انظر: عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم (مصر ما بين ١٨٣٣- ١٨٣٥)، إدوارد وليم لين،، ترجمة سهير دسوم، ط ٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٣٤- ٣٧

[١١]- خان الخليلي، نجيب محفوظ، مكتبة مصر، ط ٦، ص ٦٢، ومصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، ج ٣، ص ٢١٤

إقامتهم في مصر ولو لمدة قصيرة، فمثلا حين أسست الجالية الأوروبية "الجمعية المصرية" ١٨٣٦ للرحالة والمهتمين بمجال الآثار قصرت عضويتها على الأوروبيين، وحينما فتحت العضوية فيما بعد للمصريين ضمت سليمان الفرنساوي باعتباره قائد الجيش المصري (من الفرنسيس)، وحككيان وأنستاسي (أرمن) [١٢]، وهؤلاء من وصفتهم بالمصريين الذين لهم حق الانتماء لجمعية تهتم بآثار مصر في وقت كانت الدول الأوروبية تتشدد جدا في منح جنسيتها للأجانب مهما طالت إقامتهم فيها.

في المقابل ظل التوصيف الأساسي للمصريين الحقيقيين ما بين كلمتي فلاح وقبطي.

واشتهرت مصر حينها بأنها "جنة الأغراب"، و"جنة يرعى فيها الخنازير"، وإن كان هذا ليس جديدا، فقد شاع في احتلالات سابقة مثل يقول "ديار مصر خيرها لغريبها"[(١٣)]، ولكن في القرن ١٩ صارت جنة للأوروبيين وأتباعهم بشكل أكبر، ومصبا لكل جنسياتهم، الجيد منهم والردئ، الصالح والمجرم، وحتى العصابات الدولية، مستقويين بالامتيازات الأجنبية التي حمتهم من عقاب ورقابة الحكام.

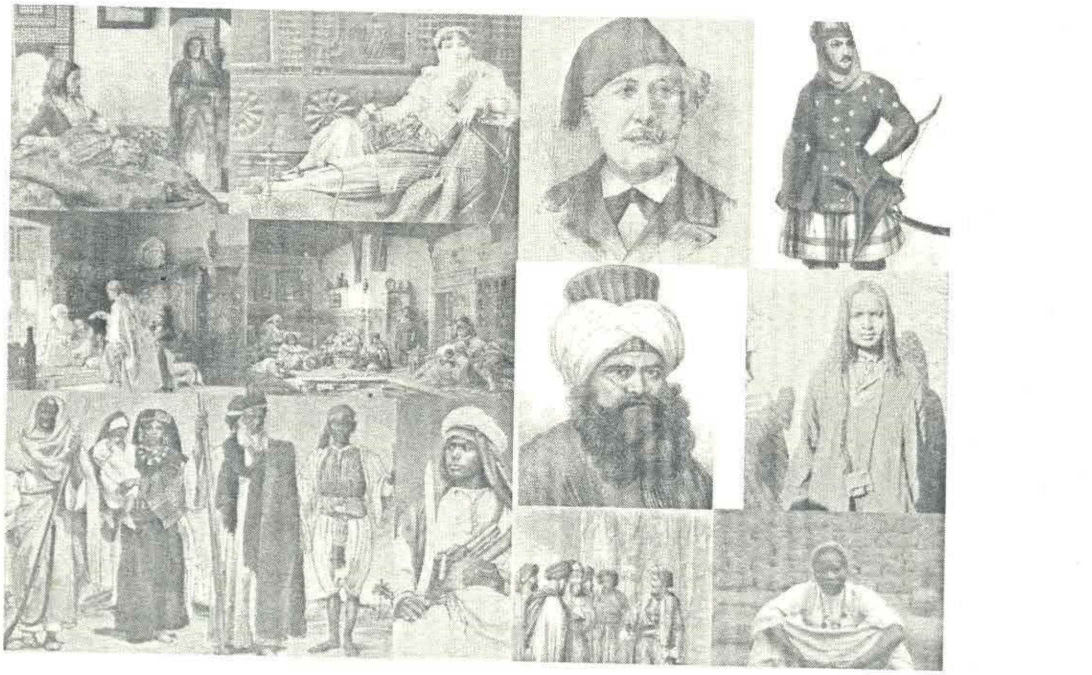
وفي النصف الثاني من عهد محمد علي، تدفق الفرنسيس بوجه آخر، بوجه خبراء وموظفين- كعادة أن "من لا يقدر على مصر بالسلاح يقدر عليها بالسلام"- وتلاهم الأرمن والبريطان واليونان والإيطاليين والشوام خريجي الإرساليات الأجنبية للمشاركة في ذات المشروعات، وجاء المشروع الأضخم، قناة السويس، ليكون أداة جذب آلاف أخرى من الأجانب، خاصة بعد غلق عباس حلمي الأول معظم المدارس والمصانع التي تخرج الكفاءات والصنايعية المصريين في الصناعات البحرية والملاحية؛ فتوسع مجال العمل للأجانب، وصار وجه مصر المتصدر للعالم- ما في العاصمة والإسكندرية- خليطا غير متجانس ومشوه من عدة أعراق، بواقي العثمانلي والعربان والأوروبيين والعبيد الأفارقة والغجر واليهود والشوام والجواري البيض من الأرمن والشركس، وكل ما تقذفه البحار والصحاري وكأن مصر بلد بلا حدود.

١٢- انظر: فراعنة من؟ علم الآثار والمتاحف والهوية القومية المصرية من حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى، دونالد مالكوم ريد، ص ٧٧

(١٣)- العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي، مرجع سابق، ص ١٢٩



الفلاحون المصريون في محافظات قبلي وبحري وحارات القاهرة من القرنين ١٩ وأول الـ ٢٠ تظهر التجانس بينهم في الملامح والملابس والمعاناة ولا تختلف كثيرا عن وصف الرحالة والمؤرخين لملامح وملابس الفلاح في قرون سابقة (موقع **getty image** + بوابة الأهرام)



أجناس فرضت نفسها كقناع مزيف على وجه مصر (القاهرة والإسكندرية) من عثمانلية وعربان وغجر وجواري بيض وعبيد أفارقة وبواقي المماليك وأوروبيين وغيرهم في صور ملتقطة أو مرسومة في القرن ١٩ قبل طغيان القناع الأوروبي بعد الاحتلال الإنجليزي، وهؤلاء من سماهم البعض بالمصريين وتصدرهم الدراما والسينما اليوم على أنهم يعبرون عن المصريين فيما لا يتناولون حياة وآراء المصريين حقا وقتها إلا نادرا (**getty image** + لوحات المستشرق فريدريك بريدجمان)

ومع تسلل القناع الأوروبي على المدن الكبرى بتضخم عدد الأوروبيين والمتأوربين كان يجري تحزيم الحدود والريف بقناع عرباني بعد تضخم عدد العربان بشكل غير مسبوق في تاريخ مصر بسبب توطين محمد علي وأولاده لقبايلهم في أطراف الريف ليكفوا عن السلب والنهب، وخاصة حدود محافظات الشرقية والفيوم والمنيا والبحيرة، ولكنهم لم يقنعوا بالمساحات الشاسعة التي أخذوها من مصر بلا حق أو تعب، ولم

يتمصروا؛ فواصلوا هوايتهم في التسلط على الفلاحين، وجلب عشائرهم من بلادهم الأصلية كل فترة، وخير ما يمثل سطوتهم وشراستهم في الريف فيلم "شيء من الخوف"[١٤]، فعتريس وعشيرته رغم ما كنزوه من أموال ظلوا يتلذذون بالغارات، يقتحمون كالعاصفة بيوت الفلاحين، يسرقون مواشيهم، ويضعون أيديهم على ما يحلو لهم من أشيائهم، ومن امتنع إما يُقتل أو يمنعوا مية الري عن أرضه حتى تتشقق شراقي من العطش، وإن أعجبهم بناتهم يخطفونهم أو يتزوجونهم قهرا واغتصابا.

وحقا، "جواز عتريس من فؤادة باطل"، أيا كانت جنسية ودين عتريس.

♦♦♦ الجيش في الاحتلال العلوي (مصريون- مماليك جدد ومرتزقة)

لما رجع محمد علي من جزيرة العرب لمصر قرر تأسيس جيش كالفرنسيس، لتأثره بما رآه من تنظيم وطاعة وتسلسل للقيادة يحترمه الجميع في جيشهم، وما رآه من كثرة تمرد وعصيان ومطالب المرتزقة الأرناؤوط "الألبان" والدلاة والمماليك.

لكن الأرناؤوط رفضوا أن ينتظموا في سلك الجيش المنظم، وعاشوا في القاهرة بأعمال السلب والنهب حين كانت لا ترضيهم المرتبات، أو يريدون الضغط عليه في أي شيء، فأبعد جزء منهم عن مصر، والجزء الآخر كان يصدره في الصفوف الأمامية في حروبه بالجزيرة العربية والسودان لإبادتهم[١٥].

وساعده الحظ أن في هذه الفترة كانت تدور طاحونة الحرب الأهلية والإرهاب في فرنسا عقب الثورة الفرنسية، وكثير من الكفاءات الفرنسية تبحث عن فرص في الخارج، ولم يجدوا فرصا مغرية كتلك التي في خيرات مصر، وأغرى كثير منهم محمد علي بمشروعات وأفكار يشرف الفرنسيس على تنفيذها.

وعلى هذا تأسست مدرسة للحربية في أسوان أدارها سيف (سليمان الفرنساوي)، ضباطها من المماليك الصغار والأتراك سنة ١٨٢٠، أما الجنود فعرف أنه لا يمكن الاعتماد على الأتراك ولا الأرناؤوط والدلاة، فاستقدم ٣٠ ألفا من كردفان وسنار بالسودان، هلك الآلاف منهم بسبب الأمراض وعدم تأقلمهم مع المناخ، فخاطر بتجنيد المصريين، على حد وصف كلوت بك[١٦].

وبذلك يكون محمد علي ظل حتى ذلك الوقت يفعل كل شيء كي لا يجند المصريين؛ خوفا من أن يستعيدوا حكم بلدهم إذا امتلكوا الجيش، ولحاجته لهم في مشاريع الزرع والبناء، ولكن لم يبق أمامه سواهم، فاضطر لتجنيدهم، ووجد صعوبة في ذلك لأسباب، منها غياب الدافع الوطني، فمعلوم للمصريين أن معظم الحروب المملوكية والتركية لغير صالح المصريين، وتخص صراعاتهم ومطامعهم في الداخل والخارج، كما أن محمد علي جعل مدة التجنيد مفتوحة، تستغرق عمر المجند فيترك وراءه أسرة تتضور جوعا ولا تعرف مصيره، وأرضا تضيع أو تبور، وبالرغم من ذلك استطاع تجنيد أعداد كبير بداية من ١٨٢٣، وقال كلوت بك في

---

[١٤]- "شيء من الخوف" (إنتاج ١٩٦٩)، تأليف ثروت أباظة، إخراج حسين كمال، تمثيل شادية ومحمود مرسي ويحيي شاهين

[١٥]- أقباط ومسلمون من الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢، جاك تاجر، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ص ١٦١

[١٦]- لمحة عامة إلى مصر، كلوت بك، ترجمة محمد مسعود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١ ص ٤٩٩- ٥٠٠

كتابه "لمحة إلى مصر" إن عدد الجيش وصل في مرحلة ٢٧٦ ألف ما بين جنود نظاميين وباشبزق "مرتزقة" ومهندسين وبحرية[١٧]".

▲ (الجندي الفلاح المقاتل)

والتجنيد هو الفائدة الوحيدة للمصريين من الجيش حينها؛ فأحسوا من جديد بأنهم رجال حرب كما أنهم رجال بناء وزراعة وصناعة، ولكن دفعوا الثمن فادحا، فكافة الحروب التي خاضها محمد علي وأسرف في إنفاق الأرواح والأموال عليها لم يكن للمصريين فيها أي مغنم، مجرد استنزاف جديد لهم، تمثل في ضرايب وضغوط ودماء جديدة.

ومثال على مقدار ما استنزفته حروب محمد علي التوسعية، أو تلك التي جامل بها السلطان العثمانلي في إرسال قوات لتشارك في حروب خاصة بالسلطان، فإن دخل مصر عام ١٨٣٣ كان ٢,٥ مليون جنيه، معظمها وارد الزراعة والضرايب، صرف منها مليون و٦٠٠ ألف على تجهيزات الجيش[١٨]، وهذه الميزانية لا يصل منها للجندي المصري إلا فتات، فيما يُكال جزء كبير منها للأتراك والمماليك والألبان، فيقول كلوت بك في كتابه "لمحة عامة إلى مصر" إن مرتب الجندي ١٥ قرشا، فيما الملازم الأول ٣٥٠ قرشا، واليوزباشي ٥٠٠ والقائمقام ٣ آلاف، والأميرالاي ٨ آلاف، وهكذا، مبررا الفرق الخيالي بين ما يأخذه المصري وما يأخذه الأجانب بأن "سمو الوالي كان يريد استمالة الأتراك إلى النظام الحديث في الجيش على أثر ما أبدوه من النفور الشديد منه"[١٩].

ومعظم الـ ٤٠٠ ألف الباقية من الميزانية العامة بالتأكيد صرف منها على شئون رفاهيته وقصوره وعشيرته التي استقدمها والمحظوظين.. فكم بقي للفلاح المصري؟

والأهم من النزح المالي هو استنزاف البشر، فيقول كلوت بك في فصل "الأسلوب المتبع في التجنيد" إن الباشا اتبع أسلوبا عشوائيا وحشيا في التجنيد "مخالفا لطبيعة البشر"، وإن العسكر الأتراك ينقضون على القرى فجأة، يختطفون الذكور جميعا، ويسوقونهم مصفدين في الأغلال إلى عاصمة المديرية، وعند ذلك تشهد منظرا تنخلع له القلوب، فأمهاتهم وأزواجهم يندبونهم صائحات مولولات يهرولن ورائهم، وفي المركز ينتخب الطبيب من يراه منهم صالحا للجندية، هذه هي طريقة التجنيد حينها في مصر، وهي طريقة عاقبتها إبادة الأمة، وفي البداية لم يكن هناك حساب للسن، ولا للأسر التي تجد نفسها في مهاوي الخراب والبؤس[٢٠]، فيأخذون الطفل والشاب والشيخ، ويستغرق التجنيد سنوات العمر كله أحيانا.

وبرر مقربون منه ومؤرخون هذا بأنه اضطر لأن المصري كان نسي الجندية منذ زمن طويل ولن يرضى بالانتظام بها بالاختيار، كما أنه كان يحتاج لبناء مشروعات في زمن قصير، وهي مبررات يُرد

---

(١٧)- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ١٦٣

(١٨)- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ١٦٣ وص ١٦٥

(١٩)- لمحة إلى مصر، كلوت بك، مرجع سابق، ص ٥٠٦

(٢٠) -انظر: المرجع السابق، ص ٥٣٨، وصفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي الجيش المصري البري والبحري، ص ١١٩- ١٢٠

عليها بأنه ولمَ لم يجرؤ على استخدام هذه الضغوط مع المرتزقة من الأجناس المستوردة؟، وبأن حسن المعاملة وتقصير فترة التجنيد وتعميم خيرات المشروعات على الفلاحين كان سيكون له مفعول أفضل من هذه الوحشية، وأن حماية حياة الفلاحين التي يُخاطر بها في الوسائل الوحشية تستحق أن يجعل مشروعاته على مراحل، فالمبرر الأرجح هو لهاثه وراء استغلال الفرصة للاستقلال بمصر عن العثمانلية في أقصر وقت، وبأي ثمن.

والفلاح المجند بذلك يترك ورائه فراغا في أرضه، وأحيانا حين تجد الإدارة أن لا أحد قادر على زراعتها في أسرته تسلمها لغيره، فيجتمع على الأسرة ألم فقد الأحبة ومرارة قطع الأرزاق[٢١]، ولم يتم حفظ حق المجند في التصرف في أرضه خلال فترة تجنيده إلا في ١٨٦٥.

وأجبر هذا الأمهات على تشويه خلقة أبنائهن ليصبحوا غير صالحين للتجنيد، مثل فقأ العين أو قطع أصبع السبابة، وقابل الباشا هذا بسن عقوبة مملوكية على الأمهات بقتلهن عبر إغراقهن في الترعة[٢٢]، وحين تخفي الأم أو الزوجة مكان رجل الدار- لأنها لن تراه ثانية إذا ذهب للتجنيد- يعلقهن عسكر إبراهيم باشا من شعورهن، ويُضربن بالسياط حتى يضطررن للاعتراف[٢٣] قبل أن تنسلخ جلود رءوسهن من التعليق، وجلود ظهورهن من الكرباج.

ورغم هذا استمرت الأمهات بعناد في عملية التشويه، فأمر الباشا بتجنيد حتى المشوهين، فكان الفلاحون يحفرون خنادق بجوار المقابر والمستنقعات، أو يفرون إلى الصحاري يختبئون عدة أشهر تاركين زرعهم ييبس فوق غصونه، للهرب من موظفي الباشا حين يبحثون عنهم، ومنهم من كان يرشي شيخ البلد حتى لا يسلمه للإدارة، وبذلك كان من يذهب للتجنيد هم أفقر الناس والمغضوب عليهم[٢٤].

تحسنت أحوال الفلاحين في الجيش لحد ما زمن سعيد، فيذكر له أحمد عرابي أنه اهتم بتصعيد الفلاحين من أبناء شيوخ البلد والعمد إلى مراتب ضباط بعد أن كان استخدامهم قاصرا على التجنيد.

وخطوة هامة أخرى، أن سعيد ألغى الجزية المفروضة على المسيحيين سنة ١٨٥٥[٢٥]، وقرر تجنيدهم، ولكن ظلت مصر تدفع جزية إلى الأستانة سنويا، ومن العجب أنه رغم أن ضمن المبررات الخاطئة لفرض الجزية على المصريين هو "إعفاءهم" من الجندية، فإن الجزية العثمانلية استمرت مفروضة رغم تجنيد المصريين مسلمين ومسيحيين، في حين أعفت المسيحيين واليهود الأجانب من الجزية بموجب الامتيازات الأجنبية[٢٦]، ويبرر العثمانلية أخذ الجزية من المصريين في كل الأحوال بأنها بموجب "حق الفتح".

وبعد أن كان التجنيد قاصرا على أبناء القرى، قرر سعيد في ١٨٥٤ أن يكون التجنيد لكافة أبناء الشعب في

---

(٢١)- انظر: ملكية الأراضي في مصر في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ٢١٠- ٢١١

(٢٢)- المرجع السابق، ٢١٢- ٢١٥

(٢٣)- مصر الحديثة، اللورد كرومر،المركز القومي للترجمة، ترجمة صبري محمد حسن، ج٢، ط١، القاهرة، ٢٠١٤، ص ٥٦٣

(٢٤)- ملكية الأراضي في مصر في القرن التاسع عشر، ص ٢٠١، والجيش المصري البري والبحري، ص ١٢١

(٢٥)- أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢، جاك تاجر، مرجع سابق، ص ٢٠٠

(٢٦)- انظر: يهود مصر (١٩٢٢- ١٩٥٦)، رشاد رمضان عبد السلام، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، هامش رقم ٢ ص ١٩٩

القرى والمدن، غير أنها كانت مساواة صورية[٢٧]، لأنه سُمح للأغنياء وأبناء العمد بتقديم "بدل شخصي" عنهم للتجنيد، أي شخص بديلا لهم، فيرسلوا في ذلك غالبا العبيد، ثم وضع الاحتلال الإنجليزي البدل النقدي، وكان نظاما مريرا في الحلق لأنه يفرق في خدمة الوطن بين الأغنياء والفقراء فيلزم بها الفقراء فقط، ويفرغ الجيش من مضمونه وهدفه القومي الوطني السامي[٢٨].

وقامت الثورات في جهات متعددة ضد التجنيد القائم على المساوئ المذكورة، إلا أنها قمعت، وانتهى الأمر بالفلاح أن يرضى بحالته الجديدة ويتعودها بعد أن رأى ما يُعامل به من الرعاية وحسن العناية، ويتغذون ويلبسون أحسن مما كانوا في بيوتهم، وانتهى الأمر بهم إلى اعتياد حياتهم الجديدة والاغتباط بها[٢٩]، بحسب تعبير كلوت بك.

ورغم هذا الظلم إلا أن المصريين أبدوا تفوقا مذهلا مقارنة بالأتراك في أول اختبار لهم في الحرب، تدل على ترسخ نبل الجندية في دمائهم، فيورد كلوت بك أمثلة في حرب الشام، منها أن جندي اسمه منصور انتزعت ذراعة من جسمه بقنبلة أثناء معركة حمص فلم يرض أن ينسحب من ميدان القتال، "بل تقدم رجال كتيبته حاملا على العدو بأشد ما يكون من البأس والبسالة، وظل يحارب إلى أن مات"، وخلال الحرب ضد العثمانلية في قونية سنة ١٨٣٢ ترك جميع الجرحى الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح أسرتهم في المستشفى قاصدين إلى ميدان القتال "لمشاركة إخوانهم مجد الانتصار أو شرف الموت".

وفي معركة أخرى دارت الدائرة على فرقة المشاة الـ ١٥ وأصيب من بينهم فتي عمره ١٠ سنين يعمل على دق الطبول، فلما رأى رفاقه يفرون استمر يقرع الطبل وهو معرض لوابل من الرصاص يمطره ويمطر الجنود، فدبت الحماسة في رفاقه، وخجلوا إذ رأوا صبيا يقدم لهم مثالا من البطولة، وعادوا أدراجهم إلى القتال لينتقموا لشرفهم الذي انتهكه العدو، ورفض سليمان الفرنساوي الاستعانة بجندي عمره ١٦ سنة لأن جسده نحيل جدا وعلى وجهه علامات المرض، اسمه الحاج علي، فتضايق الشاب من سبب الرفض، وقال له إنه- أي سليمان- سيعرف خطأ سوء ظنه فيه حين تحين الفرصة، وخلال حصار الجيش لعكا تعرضت الأورطة الثامنة لهزيمة من حامية عكا؛ فتقدمت الأورطة الثالثة التي بها الحاج علي، وانتصرت على حامية عكا، ولم يكتف الحاج علي بالمشاركة في هذا النصر، بل أنقذ يوزباشي كان على وشك الوقوع في أسر العدو، كما أسر ضابطا تركيا، وجاء بالاثنين إلى سليمان باشا يقول له: "ألا تزال تعتقد أنني جندي لا أصلح لشيء؟"[٣٠].

وبتعبير كلوت بك ، فقد "أزاحت هذه المعارك عن أعين الأتراك ما كانوا يحتقرونه من المصريين، فقد ظلوا زمنا طويلا يعتقدون أنهم لا يعادلونهم كفاية، فعلمتهم هذه الحرب أن هذا الشعب الذي ضعضعته المظالم، وحطت من قدره، وزرعت في قلبه المخاوف، في استطاعته أن يسترد مجده التالد، وأن يقارعهم

---

[٢٧]-انظر: ملكية الأراضي الزراعية في مصر في القرن التاسع عشر، ص ٢١١- ٢١٢

[٢٨]- انظر: الجيش المصري في القرن التاسع عشر، محمد محمود السروحي، دار المعارف، القاهرة، ص ٧٦- ٨٠، ومقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عبد الرحمن الرافعي، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ص ١٦٢

[٢٩]- لمحة عامة إلى مصر ،كلوت بك، ص ٥٠٠، مرجع سابق، ص ٥٠٠

[٣٠]- المرجع السابق، ص ٤٢- ٤٣، ولمحة عامة إلى مصر، ص ٥٠٦- ٥٠٨

في مواقف القتال، بل ويسمون عليهم في القوة إذا أحسنت قيادتهم وعبئوا للحرب بالطريقة الفنية[٣١].

وفي هذه الكلمات إشارة إلى أن من يعيش في مصر لفترة مثل كلوت بك يدرك جيدا الفرق بين المصريين الحقيقيين وبين المستوطنين الأجانب، وأنه يرى في الفلاحين امتدادا دما ولحما لتاريخ مصر القديم، وأنه كامنة بداخلهم كافة جذور استعادة مجده، رغم كل ما هم فيه وقتها من فقر وجهل وإذلال.

وبهؤلاء الجنود استطاع إبراهيم باشا فتح عكا الحصينة، وهزيمة العثمانيين في ساحة الحرب على يد مصريين لأول مرة، وهذا هو الفلاح الذي طالما أشاع التركي والمملوكي والأعرابي أنه لا يصلح للفروسية.

دولا عساكر مصريين   دولا ولاد الفلاحين

دولا خلاصة مصر يا ولدي   دولا عيون المصريين[٣٢]

هذا عن التجنيد، أما وظائف الضباط فينقل عمر طوسون عن المارشال الفرنسي مارمون، وهو قائد سابق في الحملة الفرنسية واستعان محمد علي بآرائه في إعادة بناء الجيش، أنها "ظلت مقصورة على الأتراك والمماليك لأن الباشا لم يرد أن يجعل نفسه في متناول الشعب المصري، ولكن لما توطدت سلطته أدخل المصريين في وظائف الضباط الصغيرة (صف ضباط) فأظهر هؤلاء الصف الضباط ذكاءً فائق الحد، ونشاطا عظيما حتى أن الضباط الذين انتخبوا من بينهم صاروا بعد وقت يسير أحسن وأفضل من الأتراك، وليس أمامهم أي عائق لشغل الوظائف العليا".

ويرى كلوت بك أن محمد علي كان يخشى من أنه إذا وصل المصريون إلى مناصب قيادية أن يتمردوا عليه، ولذا أبعدهم عن القيادة في الجيش، وعلل الأمر بسبب آخر وهو أن المصريين يجيدون القتال وهم جنود أما إذا ترقوا لمناصب عالية فلا يكونون في نفس الكفاءة[٣٣]، وثبت أن هذا ليس صحيحا حين صار المصريون ضباطا وقيادات في حروب لاحقة، وأثبتوا كفاءتهم.

غير أن ابنه سعيد خطا خطوة ترقية الفلاحين- من أبناء العمد- إلى رتب الضباط عام ١٨٥٤ لكراهته سيطرة الأتراك على الجيش، فأمر بانتظام أولاد العمد ومشايخ البلد في سلك الجيش وترقية رتبهم من جندي تحت السلاح إلى ضباط، ولكنها ترقية تتنفس في جو ثقيل من النفوذ التركي والشركسي الذي تضاعف في عهد إسماعيل[٣٤]، وترقية من تحت السلاح، أي يدخل الفلاح الجيش من بوابة التجنيد فقط، أما المدرسة الحربية فظلت قصرا على الأتراك والشراكسة[٣٥] حتى يظل فرق في الرتب بين المصري وبينهم،

---

[٣١]- نفس المرجعين، الأول ص ٤٣، والثاني ص ٥٠٨

[٣٢]- أغنية دولا مين، كلمات أحمد فؤاد نجم، ألحان كمال الطويل، غناء سعاد حسني

*** كتبها الشاعر بعد نصر أكتوبر ١٩٧٣ الذي حققه الجنود الفلاحون-بعد أن ملأت إسرائيل العالم ضجيجا عن أن المصريين لا يصلحون للحرب ولن يجرأوا على استعادة سينا مرة أخرى... فالحرب النفسية من الأعادي واحدة في كل زمان.

[٣٣]- صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي الجيش المصري البري والبحري، ص ٩ و ٤٥

[٣٤]- انظر: الجيش المصري في السياسة (١٨٨٢-١٩٣٦) عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٨

[٣٥]- نفس المرجع، ص ١٩

رغم فرق الأصول بين المصري الحر ابن البلد وبين الترك والشراكسة أبناء المماليك والمرتزقة..ولكن هكذا الحال مع من يتعاملون بـ"حق الفتح".

وللجنود المصريين دورهم المشهود- ولكنه غير مشهور- في حفر مشاريع الري والقنوات وتشييد المباني الفخيمة في وسط القاهرة.

فبعد أن ألغى إسماعيل استخدام الفلاحين في السخرة لحفر قناة السويس لجأ لاستخدام المجندين؛ فساهم الجيش في بناء القصور الملكية وحفر الترع وتجميل القاهرة وغيرها، وإن كانوا حصلوا على نظام غذائي أفضل من فلاحين السخرة قبلهم، تضمن رز وعدس ولحم، وبذلك حمل الجيش، خاصة من أبناء الفقراء، عبء حماية البلاد، وعبء رفع السخرة عن أهلها في بعض المشروعات[٣٦] وإن بقت السخرة في مشروعات أخرى.

ووصل عدد الجيش أيام إسماعيل إلى ٤٠ ألفا وقت السلم و٦٥ ألفا- ٨٣ ألفا وقت الحرب، هذا بخلاف قوات الإمدادية (الاحتياطي) والبوليس، ثم هبطت بشكل صادم بوصية لجنة التحقيق الأوروبية في الأزمة المالية ١٨٧٩ بتخفيض الجيش إلى ٣٦ ألفا، ثم بالتدريج خفضوه إلى ١٨ ألفا، وبعد تولي توفيق في نفس السنة أوصت بتنزيله إلى ١٢ ألفا، وهو ما كان مؤشرا لاستعداد بريطانيا للتدخل العسكري في مصر بعد ضمان تآكل الجيش.

ولم تكتفِ الوزارة الأوروبية بقيادة نوبار بتخفيض العدد، ولكن تعمدت تأخير المرتبات لشهور طويلة، وخفضت الأكل المخصص للجنود بحجة الأزمة المالية، حتى اضطر الضباط للاقتراض من الأهالي، ثم وصل بعضهم للعجز عن الاقتراض من كثرة ما استدان، فمد أهاليهم أيديهم للسؤال حتى صار يضرب بعوزهم المثل، وظهروا أمام الأهالي في أسمال بالية؛ فاستحقوا الرثاء، فيما مرتبات الضباط والموظفين الأجانب يتم صرفها، والجزية ترسل للسلطان العثماني، وكوبونات الدين لبنوك روتشيلد وإخوانه تُدفع في مواعيدها قهرا[٣٧].

ويقول عرابي في مذكراته إنه عند توجيه الاتهام له أمام المجلس العسكري بأن جنود الآلاي التابع له اشتركوا في مظاهرة قام بها ضباط ضد نوبار باشا والقنصل الإنجليزي، أجاب عرابي: "إنه لو فرض وجود أحد منهم... فهو غير ملوم لأن نساء الضباط وأولادهم في العباسية بلا مأوي ولا دراهم في أيديهم ينفقون منها على عائلاتهم، ولا خبز ولا تعيين يصرف لهم".

وظهرت نوايا التدخل العسكري البريطاني بوضوح حينها على لسان ورفرز ولسون بأن عدد الجيش المصري "أكثر مما يجب"، لأن مصر حسب قوله "تحت الحماية الأوروبية"، القادرة عل الدفاع عنها إذا

---

[٣٦]- الجيش المصري في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ٨٨- ٨٩ و٩٤- ٩٥

*** وبذلك حين ينظر المصري إلى المباني الحكومية والعمارات والقصور الفخيمة في القاهرة والإسكندرية الموروثة من تلك الفترة ينطبع في ذهنه فورا صور أجداده وهم يكابدون في بنائها، ومن عرقهم في الأرض ترتفع شاهقة، في حين كانت تخصص للأجانب وحاشية الخديوي

[٣٧]- انظر نفس المرجع، ص ٣٧٣- ٣٨٦ و ٥٤٢

ما تعرضت لعدوان، ولذا "استقر الرأي على إلغاء البحرية تماما، وتخفيض عدد الجيش إلى ٧ آلاف"(٣٨).

▲ (الجندي الفلاح الصانع)

هذا عن عودة الفلاح للعمل كمقاتل، أما دوره كصانع في الصناعات الحربية فإنه منذ البداية كان قوام العمال والصناع في دار صناعة السفن الحربية التي تأسست بالإسكندرية ١٨٣٤ "الترسانة البحرية" مصريون قادمون من الريف، كما أشار لذلك المارشال مارمون، ووصفهم بالنشاط والنباهة واتقان الصنعة الدقيقة في زمن قصير، حتى البوصلة والمناظير.

وقال في كتابه "رحلة المارشال مارمون": "وشاهدت الصناع الذين يصنعونها بدقة عجيبة وهم لم يقضوا في تعلمهم غير عامين، فكان عجبي من ذلك عظيما، لأن العامل الأوروبي من أي جنسية كانت لا يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة المدهشة، خصوصا إذا أُخذ من بين الفلاحين كما هو الحال مع هؤلاء العمال المصريين(٣٩)".

ومعظم البحارة على السفن مصريون من نوتية مراكب النيل، وتعلموا أيضا بسرعة فائقة، وعلى أيديهم عوَّض محمد علي السفن التي خسرها في موقعة نوارين، واستغنى عن استيراد السفن من الخارج(٤٠).

وسجل كلوت بك أن البحرية قبل بناء ترسانة الإسكندرية اعتمدت على استيراد سفنها وأدواتها من الخارج، وكان يدير صيانة هذه السفن وتسليحها اثنان، الأول مصري اسمه الحاج عمر، لم يدخل المدارس، ولكن مهر في صنعته بالتمرين والمواهب الذاتية، والثاني مهندس تركي كان عنوان للغباوة والجهل؛ ففصله مسيو دي سريزي المشرف على تأسيس الترسانة من الخدمة"(٤١).

وعن مستوى الترسانة بعد تأسيسها قال إنها استطاعت مباراة جميع الترسانات في العالم وهو البرهان الساطع على القوى الكامنة لدى المصريين التي يمكن استخدامها والانتفاع بها، وإن أبناء الشعوب الأوروبية ليعجزون أن يأتوا بنتائج باهرة في مثل الزمن الذي أتى المصريون فيه بهذه النتائج(٤٢).

وهذه شهادة أخرى تضاف للفلاح، فهو في أرضه المزارع الأول، وحين عاد للجندية ثبت أنه المقاتل من الطراز الأول، ولما عاد للصناعات الدقيقة ثبت أنه الصانع الأول في أول تجربة يختبرونه فيها، وأثبت نفس الأمر حين عاد إلى الطب والهندسة والموسيقى والغناء والنحت إلخ، وهكذا هو كالذهب الذي أزيح من عليه التراب في كل حرفة؛ ولذا فبالمصريين نجحت مساعي محمد علي ومن جاءوا بعده لتحديث مؤسسات الدولة، ولو كان في بلاد أخرى لما نجح مشروعه في هذا الوقت القياسي ولو جمع له كل علماء وخبراء الدنيا.

---

(٣٨)- نفس المرجع، ص ٥٥٢ و ٥٤٧

(٣٩)- نفس المرجع، ص ٧٨- ٧٩

(٤٠)- نفس المرجع، ص ٨٦ و١٣٢

(٤١)- لمحة إلى مصر، كلوت بك، مرجع سابق، ٢٠١١، ص ٥١٦

(٤٢)- نفس المرجع، ص ٥٢٩، والجيش البري والبحري، عمر طوسون، ص ١٠٧- ١٠٨

▼▼▼ نتايج الاحتلال (العلوي- العثمانلي- الجالياتي) لمصر

❶ العثمانلية والمماليك والمغاربة يعلنون "الجهاد" ضد المصريين

نبَّهت الحملة الفرنسية عقل إنجلترا لخطورة موقع مصر على مصالحها، فحضَّرت نفسها لتحل محل فرنسا في احتلالها، وما كادت دماء المصريين تجف على الأرض من جراح مدافع الجيش الفرنسي حتى تلاطمت أمواج سواحل رشيد معلنة عن قدوم الغازي الإنجليزي ممثلا في "حملة فريزر" سنة ١٨٠٧.

وهنا اهتزت أعصاب محمد علي والمماليك لما خبروه من صلابة جيش الإنجليز في حربه مع الفرنسيس "وتخبطت الركب"، ويصف حالهم الجبرتي بأنهم تسابقوا في بيع ممتلكاتهم وآثاثهم وتحويله إلى ذهب وأموال ليسهل حمله استعدادا للهرب من مصر، واستعد محمد علي للهرب إلى الشام إذا ما احتل الإنجليز القاهرة، ولكن لما وصلتهم البشاير من رشيد تحمل رؤوس القتلى الإنجليز والأسرى اطمئنت نفوسهم.

فعلى عكس جبن هؤلاء، تلقت رشيد الإنجليز بالحيلة الشهيرة، وأربكت صفوفهم، وشارك عمر مكرم في حشد المقاومة ضد الإنجليز، كما فعل سابقا في حشدها ضد المماليك والوالي العثمانلي والفرنسيس، حتى أن الجبرتي يقول: "نبَّه السيد عمر النقيب على الناس، وأمرهم بحمل السلاح والتأهب لجهاد الإنجليز، حتى مجاوري الأزهر أمرهم بترك حضور الدروس، وكذلك أمر المشايخ بترك إلقاء الدروس".

ومن مشاهد ندالة المرتزقة أن رشيد أرسلت تستغيث بالقاهرة بعد تأخر المدد، فأظهر الأتراك وفرق المغاربة والدلاة والمماليك استعدادهم للذهاب ومحاربة الإنجليز، وجمعوا أموالا كثيرة في شكل تبرعات من الناس، وخرجوا من القاهرة، ولكن لم يتجهوا إلى رشيد، بل توزعوا بين المنوفية والغربية وبولاق وشبرا لـ "يجمعوا من الناس المال والمغارم والكلف، فخطفوا البهايم قهرا من أصحابها، وخطفوا النساء والبنات والصبيان، وفجروا بالنساء وافتضوا الأبكار ولاطوا بالصبيان، وأخذوهم وباعوهم فيما بينهم حتى باعوا البعض بسوق مسكة" كما قال الجبرتي، وهكذا فعل من يدعون حماية المسلمين بالمسلمين وقت الحرب.

وعلق الجبرتي على هذه الجرائم ساخرا: "وهكذا تفعل المجاهدين"، مشيرا إلى أن كثيرا من الناس من كثرة قهرهم مما حدث "تمنوا مجئ الإفرنج من أي جنس كان وزوال هؤلاء الطوايف الخاسرة الذين ليس لهم ملة ولا شريعة"، بل كان كلما صرخ الأهالي وهم يمنعونهم مما يفعلون، "يزاداد حقدهم وعداوتهم [أي حقد مليشيات الأتراك والمغاربة والمماليك على المصريين]، ويقولون: أهل هذه البلاد ليسوا مسلمين لأنهم يكرهونا ويحبون النصارى، ويتوعدونهم إذا خلُصت لهم البلاد".

ويعلق الجبرتي بسخرية مرة أخرى: "ولا ينظرون لقبح أفعالهم"؛ أي أن هؤلاء المرتزقة يأتون بكل أشكال الفجور والرزايا ولا يشعرون أن هذا شيء يستحق الملامة.

وهكذا فعل المملوك ياسين بك وعساكره في الوجه القبلي بالفيوم وأطفيح وغيرهما، غير عابئين بما فيه

الناس من ضيق أو فيه البلد من خطر الإنجليز، وإذا قاومهم أهل قرية أوقدوا فيهم النيران، وحرقوا جرونهم ونهبوهم أكثر كما فعلوا في أطفيح.

ولما انتصرت رشيد وحماد، وجلا الإنجليز، نزل الأتراك على حمَّاد وما جاورها "واستباحوا أهلها ونساءها وأموالها ومواشيها، زاعمين أنها صارت دار حرب بنزول الإنجليز عليها وتملكها"، كما قال الجبرتي، وبعدها "نزلوا على رشيد وضربوا على أهلها الضرايب، وطلبوا منها الأموال والكلف الشاقة" فثار عليهم كبيرها حسن كريت وقال: "أما كفانا ما وقع لنا من الحروب وهدم الدور وكلف العسكر ومساعدتهم ومحاربتنا معهم ومعكم، وما قاسيناه من التعب والسهر وإنفاق المال، ونجازى منكم بعدها بهذه الأفاعيل؟!"، واضطر كثير من أهالي رشيد وحماد للطفشان منهما إلى القاهرة هربا من هذا الشيطان العثماني المملوكي الرجيم[٤٣].

قطف محمد علي ثمار النصر- رغم وقوفه متفرجا على المناضلين ضد الإنجليز واستعداده للهرب- بأنه بعد انسحاب الإنجليز للإسكندرية مخذولين وقَّع معهم معاهدة دمنهور وبموجبها تم الجلاء الإنجليزي في ١٩ سبتمبر ١٨٠٧، فصارت له نفوذ استقوى به أمام السلطان العثمانلي والمماليك.

❷ تفريغ ثورة ١٨٠٤ لاستفراد محمد علي بمصر

إن انتفاضة ١٨٠٤ تكسب أهميتها في التاريخ المصري من أن الناس ثاروا ضد والي السلطان العثمانلي، أي تحدوا السلطان وش لـ وش رغم مكانته الدينية المصطنعة، بأمل إزالة مظالم الـ ٦٠٠ سنة من حكم المماليك والـ ٣٠٠ سنة من حكم الغُز العثمانلية، وتوهم ثوارها أن الرحمة والحرية ستأتي ممن ضحوا لأجله، من محمد علي، لكنهم فوجئوا بالحقيقة.

أخلف محمد علي وعده مع عمر مكرم والمشايخ، ففرض ضرايب شديدة على الناس لتمويل معركته مع المماليك، وفوجئ الناس بقسوته التي خبئها حتى يتمكن من الحكم، وفي ١٨٠٩ هاج الناس وذهبوا إلى عمر مكرم والمشايخ يشكون ما فرضه محمد علي من ضرايب جديدة في أراضي الوسية والأوقاف، وعلم محمد علي باجتماعهم فأرسل لهم ديوان أفندي ليدعوهم للقاءه، فأجابوا: "لا نذهب إليه أبدا ما دام يفعل هذه الفعال، فإن رجع عنها وامتنع عن إحداث البدع المظالم عن خلق الله رجعنا إليه وترددنا عليه كما كنا في السابق؛ فإننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور"؛ فأخذ الباشا محمد علي يدبر في تفريق كلمة العلماء وقلوبهم، وبتعبير الجبرتي: "أخذ الباشا يدبر في تفريق جمعهم وخذلان السيد عمر لما في نفسه منه من عدم إنفاذ أغراضه ومعارضته له في غالب الأمور، ويخشى صولته ويعلم أن الرعية والعامة تحت أمره إن شاء جمعهم وإن شاء فرقهم، وهو الذي قام بنصره وساعده وأعانه وجمع الخاصة والعامة حتى ملّكه الإقليم".

وتحقق له هذا، خاصة لما يحمله بعض المشايخ من ضغينة على عمر مكرم، فذهب بعضهم إلى الباشا

---

(٤٣)- لمراجعة ما سبق ومزيد من تفاصيل هذه الأيام انظر: عجايب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٤، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق القومية، ١٩٩٨، ص ٧٣- ٩٢

في القلعة، في حين امتنع عمر مكرم وآخرون، وقال لهم محمد علي شاكيا عمر مكرم: "في كل وقت يعاندني ويبطل أحكامي ويخوفني بقيام الجمهور، فقال الشيخ المهدي هو ليس إلا بنا وإذا خلا عنا فلا يسوى بشيء"، فواصل محمد علي مستقويا بهذا الصدع: "وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر فهذا لا يناسب منكم، وكأنكم تخوفوني بهذا الاجتماع وتهييج الشرور وقيام الرعية كما كنتم تفعلون في زمان المماليك، فأنا لا أفزع من ذلك، وإن حصل من الرعية أمر ما فليس لهم عندي إلا السيف والانتقام".

" وإن حصل من الرعية أمر ما فليس لهم عندي إلا السيف والانتقام" !

ولما عاد العلماء إلى عمر مكرم وهو ممتلئ غيظا من خطوتهم الانفرادية بالذهاب لمحمد علي تحججوا بما علموه من محمد علي، وأنه "لا نحب ثوران الفتن"، ثم قاموا منصرفين "واستمر القال والقيل، وكل حريص على حظ نفسه وزيادة شهرته وسمعته ومظهر خلاف ما في ضميره"، بتعبير الجبرتي، وفي مواجهة أخرى بينهم مع استمرار محمد علي في ابتداع ألوان الفِرَد صاح فيهم عمر مكرم: "فقد عاد وزاد وأنتم توافقونه وتسايرونه ولا تصدونه ولا تصدعونه بكلمة، وأنا الذي صرت وحدي مخالفا وشاذا، ووجَّه عليهم اللوم في نقضهم العهد والأيمان".

وفرض محمد علي أموالا جديدة بحجة إقامة سد ترعة الفرعونية وحفر الخلجان والترع وعمارة القلعة وتكملة ما نقص من المال الميري بسبب شراقي الأرض، وبعث إلى عمر مكرم ليوافقه على هذا ويهدأ هياج الناس، فامتنع وقال: "أما ما صرفه على سد الترعة فإن الذي جمعه وجباه من البلاد يزيد على ما صرفه أضعافا كثيرة، وأما غير ذلك فكله كذب لا أصل له، وإن وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصري من الفرض والمظالم لما وسعته الدفاتر"، فما كان من محمد علي إلا أن عزل عمر مكرم من منصب نقيب الأشراف ومنحه للسيخ السادات، وأمر بنفي مكرم إلى دمياط، وقرَّب إليه من وجد في نفسه طمع من المشايخ(٤٤)، وهكذا شتت شمل القوة التي ساعدت في رفعه، والقوة الوحيدة التي يلجأ إليها الناس لإنصافهم منه، فتفشكلت صلابة الجمع، وانفرد بالناس.

4 تحديث المؤسسات في مصر.. بتفليس المصريين

■ (الحكم المركزي)

اختلف محمد على عمن قبله من المماليك في أنه رغم احتفاظه بوسائل المماليك والمرتزقة في نزع المال بكل أساليب شيطانية من عروق المصريين، وأساليب التعذيب والعقاب الداعشية مع الفلاحين وخصومه، وأن مجده الشخصي فوق الجميع، إلا أن هذا المال لم ينفقه كله على مشاريع مظهرية مثل بناء المساجد الفخيمة أو القلاع الخاصة والقصور فقط، وإنما بجانب هذا أنفق على إعادة بناء مؤسسات الدولة على الطراز العلمي؛ متأثرا في هذا بالفرنسيس ونابليون كقدوة له، بل معظم مشاريعه التحديثية هي مشاريع الحملة الفرنسية في الأساس، وإن كانت ستقوم بها لصالح جيش الفرنسيس وتوسعه الإمبراطوري.

---

(٤٤)- راجع تفاصيل الأزمة بين محمد علي وعمر مكرم والناس في: عجايب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٦، ص ٧٩٢- ٨٠٠

واستلم محمد علي مصر "وهي جايبة آخرها" بعد سنين طويلة من تسيير البلد بلا حكومة حقيقية، تحكمها عصابات مملوكية تتصارع مع بعضها ومع الوالي العثمانلي والعربان وبقية الجاليات على النفوذ والمال دون اهتمام كافي بالزرع والتعليم والصحة، فقرر أن تكون زمام الأمور كلها في يد واحدة، والعودة لنظام الحكومة المركزية، باعتبارها أول خطوة تساعده للانطلاق باطمئنان للمشاريع الكبيرة.

وبعد مذبحة القلعة، لملم ملكية الأراضي في يده وحده ليقصقص ريش من تبقى من المماليك وكبار الأغنياء بإلغاء نظام الالتزام ١٨١٤ ليقطع عنهم مصدر قوتهم وتمويلهم وهو الأراضي، وهو يعلم أن مشاريعه لن تظهر ثمارها سريعا، ورغم هذ استمر فيها، واتضح أنه كان ينتوي تحويل الحكم إلى وراثي لصالح ذريته ويبني هذا لهم، فنُقل عنه: "إن ثمرة غرسي سيجنيها أحفادي من بعدي، لأن بلادا عمَّ فيها الارتباك وساد، ودرست (اندااست) فيها معالم الحكومة وآثارها، وأصبح أهلها في الدور الأول من النشء، وبلغوا من الجهل درجة لا يتسنى لهم معها أن تقوم بعمل نافع: لا يدخلها التمدين إلا ببطء[٤٥]".

وإن كان خاب ظن محمد علي في أن التمدين سيدخل مصر ببطء، فمن تعلم من المصريين دخله استوعب التطور بأسرع مما ظن، فبمجرد اتصالهم بالعلوم الحديثة خلال البعثات خرج منهم الأفذاذ من أول مرة، مثل رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك، ولم يستغرق الموضوع أجيالا مثلما حدث مع دول أخرى، فكانوا كقطع الذهب المخفي تحت أكوام التراب، بمجرد أن زال التراب، ظهر الذهب سليما ولامعا.

ولم يستطع أن يبدأ كل إصلاحاته في وقت واحد، فاستغرق أول ٦ سنين من حكمه في التخلص من مراكز القوى حتى مذبحة ١٨١١، أما الإصلاح الإداري فبدأ ١٨٢٦ ليرمم الإدارة المفككة، واقتدى بنظام الديوان الذي أقامه نابليون، فعمل ديوانا جديدا، ومجلس شورى أسماه "مجلس المشاورة الملكي"، أعضاؤه من اختياره، وأنشأ دواوين متخصصة بمثابة الوزارت، كديوان التجارة، وديوان الترسخانة "الصناعة"، ومجلس المشاورة العسكرية، يدير كل هذا بنفسه، ويتصرف في مالية البلد منفردا[٤٦].

علم الباشا الجديد أن مشاريعه الاقتصادية وتأسيس جيش نظامي، إضافة إلى الهدايا الضخمة للسلطان، يحتاجون أموالا ضخمة، ولن يتسنى له جمعها إلا بأن تكون ثروة البلاد كلها تحت يده.

فبعد نزع السيطرة على معظم الأراضي وإلغاء نظام الالتزام أصبح هو المالك الأوحد لها تقريبا، بما فيها الأوقاف اللي أصبحت تحت رعايته وتصرفه بدلا من العلماء، واستخدم في ذلك الشدة أحيانا والإقناع أحيانا، وجمع كل حجج المِلكية من الملاك بطريق الحيلة وأعدمها، ولم يستطع الوقوف أمامه القضاة، ولا لقيت شكاوى الناس مجيبا، وسمح لعدد قليل بالاستحواذ على أراضي، خاصة الأمراء من عائلته وأصحاب الحظوة عنده، والموظفين الأجانب الذين استجلبهم من أوروبا والشام.

وعن التصرف في المحصول نصَّب محمد علي نفسه التاجر الأكبر والمحتكر الأوحد للمحاصيل، فجزء

---

[٤٥]- انظر: مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ١٤١

[٤٦]- انظر: نفس المرجع، ص ١٤٣- ١٤٤

من المحصول الذي ينتجه المزارع يؤخذ منه كضرايب، والباقي يشتريه هو، ومنعهم من بيعه للتجار، ثم يبيعه لتجار الأجانب بثمن أغلى وتصرفه على المشروعات وتجهيز الجيش.

وكان ممكن أن تعود هذه الإصلاحات بتعديل حياة الفلاحين والتخفيف عنهم، لكن العكس هو ما حصل؛ لأن الفلاحين تحملوا في هذا مغارم كبيرة؛ إذ كانت تشترى محاصيلهم بأثمان بخسة وموازين مغشوشة، فضلا عن أنهم لا يأخذون ثمنها نقدا، بل معظم الأحيان يجبرون على أن يبادلوا بها مصنوعات معامل الحكومة ترويجا لها، بحسب وصف صاحبي كتاب "مصر من الفتح العثماني حتى قبيل الوقت الحاضر" الصادر ١٩١٦، وأضافا أنه ساعده في إجبار الفلاحين على هذا أنه يترك لعمدة كل قرية توزيع الأراضي على الفلاحين حسب اختياره، و"ما أشبه الفلاح في هذه الحالة بالحيوان تحت رحمة العمدة، أما العمدة فكان مثله كمثل السوط في يد المدير الذي كان صاحب البأس والسطوة لا يسيطر عليه إلا الوالي مالك مصر الوحيد"(٤٧).

ومع هذا، بالغ في فرض الفرد والإتاوات على الناس، مرة بحجة تقديم مرتبات العسكر، ومرة بحجة تمويل الحملات على الوهابيين، حتى قلت المواشي والألبان واللحوم، وترك عسكره الأرناؤوط يتخطفون من أيدي الفلاحين الجبن والسمن والبيض القليل الذي معهم وهم يبيعونه في سوق إنبابه، ويسخر الجبرتي من الأرناؤوط بعد أن لبسوا الملابس الفخيمة وركبوا الخيول المسومة بالسروج المذهبة وحولهم العبيد والخدم بقوله: "ووصل كل صعلوك منهم لما لا يخطر على باله أو يتوهمه أو يتخيله ولا في عالم الرؤيا"، واصفا إياهم بالجهل والانحراف وعدم الدين(٤٨).

ونشط محمد علي في تطوير الزراعة، فنشر زراعة صنف ممتاز من القطن، وزوَّد زراعة النيلة والشجر الذي يؤخذ منه أخشاب كثيرة بدلا من استيراده، وأكبر مشاريعه حفر ترعة المحمودية وبناءالقناطر الخيرية، ولكن أقدم على جريمة شنيعة، أنه طالب بهدم الأهرام لتنبني القناطر بحجارتها بدلا من أن يأخذ وقتا في قطع أحجار جديدة- مثلما هدم الأيوبيون أهراما صغيرة وشرعوا في هدم أحد الأهرام الكبيرة- وكادت تحدث فاجعة الزمان، لولا أن صدَّر الله تعالى المهندس الفرنسي المسئول عن القناطر "لينان" باشا وأقنعه بأن قطع الأحجار من المحاجر أسهل وأقل تكلفة من تفكيك الأهرام بأحجارها الضخمة(٤٩).

اهتم إسماعيل بعده بالزراعة؛ فاستصلح الفلاحون مساحات واسعة حتى زادات مساحة الأراضي الزراعية ٣٠%، وحفروا ٢٠٠ ترعة، ومدوا آلاف الأميال من الطرق الزراعية، وأنشأوا٥٠٠ كوبري أشهرها كوبري قصر النيل، وخط حديدي من القاهرة لأسيوط لتسهيل حركة نقل المحاصيل، وزادت زراعة القصب والقطن خصوصا وقت الحرب الأهلية الأمريكية اللي منعت قطن أمريكا عن العالم، فزادت أسعار القطن زيادة غر متوقعة(٥٠).

---

(٤٧)- انظر: المرجع السابق، ص ١٤٥- ١٤٨

(٤٨)- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٦، ص ٤٥٤- ٤٥٥

(٤٩)-انظر: مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ١٥٠- ١٥٣

(٥٠)- انظر: تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، المرجع السابق ، ص ٢٣٦- ٢٣٨

ومن أسوأ ما فعله إسماعيل في الزراعة هو جشعه في تملك الأراضي، واغتصابها من أصحابها بطرق ملتوية، فتملك خُمس أراضي مصر الزراعية، وتجرع القهر من ورائه الفلاحون الذين كدحوا طويلا حتى يصبحوا أصحاب أملاك صغيرة أو مستأجرين، ويوضح ذلك عبد الله النديم في مقالة بصحيفة "الطائف" بتاريخ ٦- ٥- ١٨٨٢، تحت عنوان "الفصل الثالث في سلب الأملاك": "كان يتلذذ بأنين المظلومين وحنينهم وتضرعهم وتأوهم وتضجرهم، ويبتهج بتمثيل ذلك وتصور وقوعه في المستقبل".

ويتابع: "فبث أعوانه أهل السوء في الجهات يتخيرون له الأرضي الجيدة للتربة الخصبة الطينة القريبة من المياه الوافرة الحاصيل؛ فانتشروا في الأنحاء تحت اسم العمال المأمورين، وهم اللصوص السارقون من كل صخري الفؤاد، ردئ المنبت، فانتقوا له خير البقاع في أفضل المواقع، وكلما أنبأه أحدهم بشيء من ذلك طلب إليه أهل البلد التابعة له الأرض وألزمهم بالبيع له قهرا على شرط أن يقولوا طوعا، فإن لم يفوهوا بها اختيارا، أكرهوا عليها، ثم يجيئ بالمشايخ أهل البلد وجيرته، ويحضروا لدى القاضي لأداء الشهادة بالمبايعة وإسقاط المنفعة على مبلغ معلوم من النقود لا يساوي معشار القيمة الحقيقية، ويسجل ذلك في المحكمة الشرعية على أنهم قبضوا الثمن، فكان الفدان الذي يساوي ٧٠ جنيها أو ٨٠ يأخذه من أربابه بـ ١٠ أو ٨ جنيهات بالرغم عنهم، ثم لا يسلم إليهم النقود، بل ينظر في شأنهم فإن كان عليهم متأخرات من الأموال والمقابلة أو أي نوع من أنواع الضرايب أقيم ما لهم من الثمن فيما عليهم من المتأخر، وذهبت الأرضي من أيديهم بدون عوض، فإن لم يكونوا كذلك أعطيت لهم الأراضي (أي التي أخذت منهم)، بالإيجار في السنة التي انتقل فيها الملك"، وبمثل هذه الممارسات "يخرجون من ملكهم كأن لم يكونوا مالكيه !".

وضرب أمثلة: "هكذا كان يفعل في جميع الجهات التي حدد فيها ملكا في الأراضي الزراعية لآل بيته، ولقد فعل في أرض الشباسات وقوتة والبكدوش وسخا وقلين وما والاها من البلاد فعلا وحشيا، وهو أنه بعد ما نهبها من أصحابها قلب من أراضي القمح وهو متهيئ لإخراج السنابل ما أراد أن يزرعه قطنا، وأجَّر الباقي لأربابه كل فدان ٦ جنيه، وخصم بقية الثمن فيما كان عليهم من أموال تلك السنة، وقس على ذلك أراضي الساقية وكفر البطيخ وكفر الحمام وهيا وأبي كبير والقرشية وغيرها من أراضي في الوجه القبلي التي اغتصبها من ملاكها ثم أعدمهم في زراعتها بلا أجرة".

و"مثل ذلك كان يعمل إسماعيل في العقارات التي يريد أن يمتلكها لينشيء فيها عمارات وسرايات كما فعل في جزيرة العبيد المجاورة لقصر النيل (أرض الجزيرة حاليا) وغيرها من الأماكن، حتى صار له بطريق الملك في الديار المصرية مالم يكن لسلطان قبله فضلا عن أمير كما يُعلم من الاطلاع على سجلات الأملاك التي امتلكها، وآل إليه مليون فدان وكسور من أجود الأراضي وأخصبها".

وطريقة أخرى هي التطفيش، بمعنى أن من عودهم وعوده على الفساد "كانوا يكلفون الأهالي بأداء ما لم يكن عليهم من الضرايب والرسوم في غير وقتها، أو باختراع أعمال تضطرهم على القيام بها لتكون وسيلة لاستعمال وسائل الإذلال والتضييق حتى يحتاج الأهالي إلى مفارقة أوطانهم والتخلي عن أملاكهم وتقديمها إلى حضرته بزهيد الثمن ودنئ القيمة".

ويتابع: "ولا تنسى ما أصيب به كثير من الملاك في أطراف القاهرة عند انتزاع أملاكهم؛ إذ خرجوا من أماكنهم مكرهين قبل أن يجدوا لهم مسكنا يأوون إليه، فأقاموا أيام بل أسابيع في جوانب الطرق والجسور مع نسائهم وأبنائهم وأثاث بيوتهم على حال ينفطر لها الجماد!"[٥١].

نفيت واستوطن الأغراب في بلدي ودمروا كل أشيائي الحبيبـاتِ

خانتك عيناكِ في زيفٍ وفي كذبِ أم غرك البهرج الخداع مولاتي

أصيح والسيف مزروع بخاصرتي والغدر حطم أمالي العريضاتِ[٥٢]

وفي الصناعة، قامت في عصر محمد علي معامل (مصانع) للغزل ونسج القطن والحرير والكتان والصوف والجوخ والطرابيش وللسكر والزيت، إضافة للمصانع الحربية كالمسابك ولوازم الأسطول، بضغط شديد لاعتصار الفلاحين حتى آخر قطرة، لينجز أكبر عدد منها في أقل وقت، وخدمة توسعات الجيش، وبعض هذه الصناعات كانت موجودة قبل محمد علي، لكن القائمين عليها كبَّروها ونشروا مصانعها، أو حسَّنوا إنتاجها، وساعدته وفرة الانتاج في الصرف على فتوحاته، وإرضاء إسطنبول بالمال الوفير.

وكثير من المصانع توقفت وأغلقت أبوابها في أواخر حياته بسبب الحصار الذي فُرض عليه من السلطان العثمانلي بالتحالف مع الإنجليز رغم كل الأموال التي أرسلها له كجزية وهدايا ورشاوى، حتى قال مهندس إنجليزي زار دار الصناعة ببولاق عقب وفاته إنه وجد فيها من الآلات المهملة ما لا تقل قيمته عن مليون و ٢٠٠ ألف جنيه[٥٣]... شقا الفلاحين.

ولما تولى حفيده عباس الأول الحكم عام ١٨٤٨ أغلق معظم ما تبقى من مصانع ومدارس، وخفَّض الجيش من ١٨ ألفا إلى ٩ آلاف، وأظهر ميله للنظم التركية أكثر من الغربية، وطرد معظم الموظفين الغربيين، ولم يكن ميالا للمغامرات[٥٤]، لكن عهده لم يخلُ من بعض المشروعات، ففيه مدَّ أول خطٍ حديدي سنة ١٨٥٢ بين القاهرة والإسكندرية بتشجيع من الإنجليز ليسهل حركة نقل تجارتهم وبريدهم القادم من الهند إلى الإسكندرية، إضافة إلى تنفيع مصانع إنجلترا التي اشترى منها عباس عربات القطارات، واستقدام خبراء إنجليز بمرتبات ضخمة للعمل بها وإدارتها، أما مصر فلم يكن لها فائدة كبيرة منه حينها، وانتهت حياة عباس بالقتل في قصره ١٨٥٤.

ولم يخلُ عهد خلفه سعيد من مشاريع كبيرة، فتواصل مشروع السكة الحديد وحفر الترع وغرس

---

(٥١)- عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية، نجيب توفيق، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ص ١٨٠- ١٨٢

*** مسلسل بوابة الحلواني (تأليف محفوظ عبد الرحمن وإخراج إبراهيم الصحن) قدم إسماعيل في صورة الحاكم الوطني وخفيف الدم بشكل حبب مشاهدين كثيرين فيه، ولم يتعرض كما كان يجب لجرايمه في نهب الأراضي وتسخير واستنزاف الفلاحين رجال ونساء وأطفال وطردهم من أراضيهم ليوزعها على خاصته أو يبني فوقها قصورا وعمارات يسكنها المستوطنون الأجانب، ولا في تفضيله الشركس على المصريين في الجيش، ولا إنفاقه ديون مصر على مشاريع معظمها انتفع به الأجانب أكثر من المصريين حتى أعلن الإنجليز إفلاسها، ولا تعرض لثروته الطائلة التي جعلته قارون العصر واستحوذ عليها بالحرام، وذلك رغم أن جرايمه موثقة على يد المعاصرين له من مصريين وأجانب، بما فيهم مقربين منه.

(٥٢)- قصيدة أنا وليلى، كلمات حسن مرواني، ألحان وغناء كاظم الساهر

(٥٣)- مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ١٤٩-١٥٠

(٥٤)- انظر: نفس المرجع، ص ٢٠٣

الأشجار، ورغم قيادة الأجانب لهذه المشاريع، إلا أنها قامت على أكتاف المصريين أيضا، ففي مشروع السكة الحديد مثلا بين القاهرة والأسكندرية شارك ٢٠ ألف عامل مصري يقومون بالأعمال الشاقة، إضافة إلى ٥٠٠ عامل بريطاني و٥٠٠ عامل أوروبي، و١٨ مهندسا بريطانيا، وقيل إنه استعان أيضا بالمصريين المهندسين خريجي البعثات إلى أوروبا في زمن أبيه.

وسعت بريطانيا بكافة الطرق لشراء السكة الحديد مقابل بعض الديون على مصر ولكنها فشلت، وإن استولوا على المناصب الهامة فيها رغم أن الكثير منهم غير كفء لها، حتى أنه في يوليو ١٨٦٧ تم رفت ٢٨ مهندس بريطاني لكثرة الشكوى منهم[٥٥].

■ **(تحديث التعليم)**

وصف جمال حمدان حال المصريين بعد ٣٠٠ عام من حكم العثمانلية بأنهم خرجوا منه كما خرج فتية أهل الكهف من كهفهم المظلم ليفاجئوا بعالم جديد وغريب.

ولولا التراث الحضاري الكامن في المصريين وترجموه في الحرف التي ظلوا يبدعونها في كل عصور الاحتلالات (ما زالت الرموز المصرية كزهرة سشن "اللوتس" والجعران خبر والخراطيش وكرانيش المعابد وعلامة عنخ (مفتاح الحياة) ولفة شعر حتحور ورع المجنح والصقر حور تظهر في أعمال النجارة والحدادة والحلي الريفي والنسيج اليدوي حتى اليوم على سبيل المثال)، ولولا القيم الأصيلة (ماعت) التي حافظت على كثير منها عزلتهم داخل الأرياف، لما بقي من هوية مصر شيء.

فلما أراد محمد علي التحديث أرسل بعثات إلى أوروبا، أولها لإيطاليا ١٨١٣ ثم لفرنسا ١٨١٨، وتلقاها جومار، وهو كما يقول عمر طوسون، حفيد محمد علي، كان عضوا في حملة نابليون على مصر، وشارك في كتاب "وصف مصر"، وأقنع طلاب البعثة وخاصة عثمان نور الدين المقرب من محمد علي بأن يرسل بعثات أكبر لفرنسا[٥٦]، ويُفهم من ذلك أن مشروع السيطرة الذي فشل نابليون في فرضه على مصر بالسلاح سعى الفرنسيس لفرضه بجذب وجدان حكام مصر الجدد والمتعلمين إلى فرنسا بأن يتعلموا فيها، فيرتبطون بثقافتها، وينشروها في مصر، فيكون لها السيطرة من وراء الستار بتوجيه "النخبة" لما تريده هي.. حتى تحين لها الفرصة ذات يوم لتعود بدعم "أصحاب الثقافة الفرنسية" كتجربتها في احتلال لبنان.

وبعثة سنة ١٨٢٦ لفرنسا هي الأكبر في عدد التلاميذ، وربما الأكبر في عدد المصريين، لأن أكثر الطلاب في بقية البعثات السابقة من الأرمن والترك والجورجيين وعيلة محمد علي وغيرهم من مستوطنين.

وفي هذه البعثات بزغ من المصريين رفاعة رافع الطهطاوي الذي صار رائدا في علوم اللغة والسياسة والتعليم، وعلي باشا مبارك رائد التعليم والجغرافيا، و محمد علي البقلي الذي صارا مديرا لمدرسة الطب (عميدا)، وأصدر أول مجلة طبية باللغة العربية هي "اليعسوب".

---

[٥٥]- انظر: الجالية البريطانية في مصر (١٨٠٥- ١٨٨٢)، ناهد السيد علي زيان، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ص ٢١٧- ٢١٩

[٥٦]- انظر: البعثات التعليمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد، عمر طوسون، ،مطبعة صلاح الدين، الإسكندرية، ص ٦- ١١

ونبوغ هؤلاء في علوم متقدمة بشكل حديث، وبلغة لم يسمعوها من قبل، وهي الفرنسية، وفي بلاد لم يطأوها من قبل معجزة في حد ذاتها، تحدث عنه الفرنسيون أنفسهم الذين درسوا للبعثة، ومنهم المسيو جومار، وتعجبوا من سرعة استيعابهم السريع للعلوم الجديدة.

وداخليا، سعى محمد علي لتعليم المستوطنين الأجانب وعدد من المصريين، فهو وإن كان يرى أن الأوروبيين أكثر علما في زمانه، إلا أنه يعلم أيضا أن لا مأمن لهم، ويعرف الطمع الفرنسي والإنجليزي في مصر، فلا يريد أن يترك لهم الأمور لوحدهم، فشجع أولياء الأمور على التعليم بالتكفل بالصرف على التلاميذ وأكلهم وإعطائهم رواتب شهرية، وإذا رفض الأهالي إرسال أبنائهم للمدارس يأخذهم غصبا، ويقيدهم بالسلاسل، وتأسست ٥٠ مدرسة ابتدائي تعلم فيها ١١ ألف تلميذ، وخصص مدرسة لتعليم أولاده وأولاد الأغنياء والأجانب تعلم فيها ٥٠٠ تلميذ.

وتأسست مدارس للطب سنة ١٨٢٧ لتخريج أطبا الجيش كان لها دور في لفت نظر المصريين لخطورة التمائم والأحجبة التي أغرقتهم في الاحتلال المملوكي والعثمانلي، وتأسست مدارس للطب البيطري والهندسة والموسيقى والتعليم الفني والألسن، ومدرسة الألسن شار عليه بها رفاعة الطهطاوي لتستغني بها مصر عن الأجانب عندما يصبح المصريون قادرون على الترجمة ونقل العلوم، وظهرت نجابة التلاميذ في الاختبارات رغم حداثة رجوع المصريين للتعليم.

لكن عباس توقف عن إرسال البعثات، وكذلك سعيد الذي أهمل التعليم؛ لأنه اعتقد أن فتح المدارس ينبه عقول عامة الناس فيجعل قيادتهم أمرا عسيرا[٥٧].

فلما استلم إسماعيل حكم مصر كانت معظم المدارس مقفولة مثل المصانع، ففكر في العودة لتعليم أهل البلاد، وساعده في ذلك "خصب مدارك المصري وقوة حافظته التي لا تضارع في أكثر الشعوب، ولما له من المجد الأثيل والباع الطويل والميل القديم للعلوم والمعارف"، بحسب تعبير مؤلفي كتاب " مصر من الفتح العثماني إلى ما قبيل الوقت الحاضر"، ووصل عدد التلاميذ إلى ١٤٠,٩٧٧ ألفا، وعدد المدارس ٤٨١٧، بخلاف الأزهر الشريف والمدارس الحربية والمدارس الأجنبية، وزادت ميزانية التعليم إلى ٤٠ ألفا، و أنشأ علي مبارك دار الكتب جمع فيها كتب التراث، واشترى كثيرا من نفائس الكتب[٥٨]، وشجع إسماعيل المدارس التابعة للكنيسة المصرية، وأمر بتخصيص بعض المال الحكومي لأجلها[٥٩] لتنافس مدارس الإرسالية الإنجيلية التابعة لإنجلترا بعد تدهور علاقته بها.

5 استنزاف المصريين في حروب غيرهم بالخارج

بعث محمد علي جيشا من ٨ آلاف مرتزق ألباني معززا بأسطول بحري، تكلف الكثير من دم وعرق المصريين في حرب ليست حربهم، محاربة الوهابيين سنة ١٨١١ لصالح السلطان العثمانلي ليكسب محمد

---

(٥٧)- مصر من الفتح العثماني إلى ما قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ١٥٥- ١٥٨، و٢٠٧

(٥٨)- مصر من الفتح العثماني إلى ما قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ٢٢٥

(٥٩)- أقباط ومسلمون من الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢، جاك تاجر، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ص ٢٠١

علي رضاه عن ولايته مصر، لكن انهزموا، وقتل العرب منهم ٤ آلاف، وهرب الباقي، فكانت نكبة قرر بعدها محمد علي نفي صالح قوج رئيس الألبان (الأرناؤوط) من مصر بعد ما أظهره جنوده من جبن.

وأرسل جيشا آخر للجزيرة بقيادة ابنه طوسون وفشل أيضا، فراح للجزيرة بنفسه، وانتصر على عبد الله بن سعود في معركة بيصل سنة ١٨١٥، خاصة وأن سعود بطل الوهابيين مات وهو هناك[٦٠].

أما بعد أن نجح في تكوين جيش نظامي، إضافة لنجاحاته في مشاريع الصناعة وتوسيع الزراعة، ومع مع زيادة الصراعات داخل السلطنة العثمانية وقلقه من غدر السلطان، فكل هذا أغراه بعمل فتوحات لنفسه، فغزا الشام ثم تركيا نفسها، وأوشك جيش محمد علي بقيادة ابنه إبراهيم أن يصل للأستانة لولا أن هرول العثمانلي للإنجليز والروس وبروسيا (ألمانيا فيما بعد) والنمسا لينجدوه، فعرضوا على محمد علي أن يكتفي بمصر والشام، لكنه رفض وأصر على استمرار قتال السلطنة، خصوصا بعد أن سلَّم أحمد باشا قائد البحرية العثمانلية الأسطول لمحمد علي لخلافات بينه وبين خسرو باشا الصدر الأعظم[٦١].

وبعد رفض محمد علي- اعتمادا على وعود فرنسية بمساعدته ضد تركيا وإنجلترا- تدخلت إنجلترا في تأليب القبايل الشامية عليه، واستغلوا أن إبراهيم فرض نزع سلاح القبايل وتجنيد أولادهم في الجيش وكثرة الضرايب فانضموا لإنجلترا ضده، واستغلو حصار أساطيل الحلف الإنجليزي الروسي النمساوي لسواحل الشام في ضرب الجيش داخل الشام[٦٢]، فكان تأثير ثورة الشوام أكبر من تأثير جيوش الحلفاء، وتسببت في خسارة جيش محمد لحوالي ثلثي عدد الجنود، وبذلك خذله الجميع، بما فيهم فرنسا التي انتظر دعمها.

وهذا هو أول تحالف دولي ضد مصر في العصر الحديث، وسيستمر للوقت الحاضر، بل ليوم القيامة، مشترك فيه العربي والعجمي، الجار والبعيد، المسلم والمسيحي واليهودي والملحد، من يقول إنه حامي الإسلام ومن يهتف بعبادة الشيطان...من يقول إنه صديق أو حليف أو يجهر بعداوته.

وانسحب الجيش موزعا ٣ فيالق بقيادة إبراهيم وسليمان الفرنساوي وأحمد المنكلي، ووقع الانسحاب في ١٨٤٠ بأشنع طريقة، عدد الجيش ٧٠ ألفا، يتبعهم آلاف الأفراد من الأسر المصاحبة لموظفين وغيرهم، قطعوا مسافات شاسعة قاسوا فيها ويلات الجوع والعطش والتعب، تتلاقاهم في كل منطقة يصلون إليها هجمات القبايل، فتساقط كثير منهم موتى في الطريق، وخسر فيلق المنكلي نصف رجاله جوعا وعطشا وتحت ضربات العربان، وفقد فيلق الفرنساوي ١٥٠٠، ومات عدد كبير من فيلق إبراهيم من الجنود والنساء والأطفال، وعاد إلى مصر ٤٠ ألفا فقط، أي فقد ٣٠ ألف جندي في الانسحاب، بخلاف المدنيين الذين لم يشملهم حصر دقيق، وأورد مورييه إحصاء مختلفا مروعا قال فيه إن عدد أفراد الجيش والعائلات

---

[٦٠]- انظر: مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ١٢٦- ١٣١

*** تقع كتب في خطأ إطلاق صفة "الجيش المصري" على الجيش الذي أرسله محمد علي لمحاربة الوهابيين، والأصح أن يُقال قوات محمد علي، أو الأرناؤوط، لأنه لم يكن بها مصري واحد، فتجنيد المصريين في العصر الحديث لم يبدأ قبل ١٨٢٤، وقبل ذلك كان كل الجيش مماليك وألبان ومن السودان وأجانب آخرين، انظر: لمحة عامة إلى مصر، كلوت بك، مرجع سابق، ص ٤٩٩- ٥٠٠

[٦١]- انظر: تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ١٧١- ١٨٧

[٦٢]- تفرق كلمة الشام سلاح يجيد استخدامه دائما أعداء مصر ضدها، سواء وهي حرة أو محتلة، كما تابعنا في أمثلة تاريخية أيام تحوتمس ورمسيس، وما حدث مع محمد علي حلقة من حلقات مستمرة حتى الآن.

المصاحبة لهم ٢٠٠ ألف شخص، لم يرجع منهم سوى ٦٠ ألفا، أي استشهد ١٤٠ ألفا، وعلّق على هذا الانسحاب وضحاياه بأنه من أفظع ما روي عن فجائع تقهقر الجيوش في التاريخ[٦٣].

اضطر محمد علي لقبول عرض جديد عرف بمعاهدة لندن سنة ١٨٤١ سحبت امتيازات من العرض الأول، وتضمن أن أولاد محمد علي يتوارثون حكم مصر، وفرض عليه شروطا تؤكد تبعيته وذريته للأستانة، منها أن يذهب كل والي جديد إلى القصر السلطاني لاستلام فرمان التعيين، وأن تقدم مصر خراجا سنويا، وتلتزم بالاتفاقيات الخاصة بتركيا مع الدول الأجنبية، وأن ينخفض الجيش إلى ١٨ ألفا.

وفي أيام عباس الأول، وكان مواليا للسلطان العثماني، أرسل حملة من الجيش إلى ثلوج القرم لنجدة السلطان سنة ١٨٥٣ بناء على طلب العثماني في حرب القرم بين تركيا وروسيا، والغريب أن السلطان العثماني كان استعان بروسيا نفسها ضد جيش محمد علي في ١٨٣١ خلال حروب الشام.

والمصريون أول من عبروا نهر الدانوب سباحة إلى ميدان القتال للاشتباك مع الروس، وكانوا ٤٠ مصريا، وقتلوا ١٠ جنود روس، وتبعهم الجنود الألبان، وفي الآخر عبر الجنود الأتراك[٦٤].

وقال الأميرال الإنجليزي سليد الذي شارك في هذه الحرب في كتابه "تركيا وحرب القرم" عن الجنود المصرية: "هؤلاء هم الجنود الذين ألقي القبض عليهم بغلظة وانتزعوا من عقر دورهم وصياح أولادهم من حولهم يطن في آذانهم، وانتقلوا من ضفاف فروع النيل المضيئة بنور الشمس إلى غدران نهر الدانوب القاتمة، ومع هذا ظلوا إلى نهاية الحرب محتفظين ببسالتهم وقوة روحهم العسكرية، وامتازوا دوما سواء أكان ذلك في بلغاريا أم غيرها في الحروب، وأظهروا في كل وقت وآن جلدا وصبرا عند التعب والحرمان، غير أنه وياللحسرة والندم، نصفهم ألقى آخر نظرة إلى مصر لدى سفره منها[٦٥]".

وهذا يعني استشهاد الآلاف من المصريين ودفنهم في الثلوج أو ترك جثثهم عراة في تلك الحرب القذرة التي ليس للمصريين فيها أي مصلحة، فعدد من أرسلهم عباس ومن بعده سعيد لثلوج القرم ٥١ ألف ضابط وجندي، بخلاف السفن والمعدات والذخيرة والأموال التي أرسلت باسم تبرعات، وإضافة لشهداء مصر في ميدان القتال غرقت سفينتان عليها ١٩٢٠ من رجال الجيش، ولم ينجُ منهم إلا ١٣٠[٦٦].

ولما استكمل إسماعيل خطيئة سعيد في استمرار الاقتراض بنهم لأجل المشاريع الاستثمارية، أغرته هذه المشروعات ومديح القناصل له أن يكون من "الفاتحين" مثل قادة أوروبا، ومثل محمد علي، فتوغل في السودان توغلا شديدا حتى وصل للصومال، وضم أريتريا بعد ما اشترى بعض مدنها من السلطان

---

[٦٣]- عصر محمد علي، عبد الرحمن الرافعي، مرجع سابق، ص ٣٠٣- ٣٠٤

*** معظم الإعلام يتناول ما يصفها بإنجازات محمد علي في الفتوحات الخارجية بالمدح والافتخار، ولا يظهرون للناس الفواجع التي حصدت أرواح المصريين وأموالهم فيها، وخاصة أنها لم تكن أولوية للمصريين أساسا ومجرد مطمع شخصي لمحمد علي، فما رأت الدنيا نخبة مسلطة على شعبها في تلميع الأجانب والمحتلين على حساب روحه وأرضه مثل هؤلاء الغارقين في بتمجيد جرائم الأجنبي مهما كانت.

[٦٤]- الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بالقرم (١٨٥٣- ١٨٥٥)، عمر طوسون، ص ٩٣- ٩٤، ١٠٦، ١٣٠- ١٣١

[٦٥]- نفس المرجع، ص ٢٢٥- ٢٢٦

[٦٦]- نفس المرجع، ص ٢٤٦، ١٩١

العثمانلي، وأهدر مزيدا من المال والقروض، والأهم أهدر الرجال.

وسعى لضم الحبشة، لكن صعوبة تضاريسها ساعدت النجاشي في عمل كمائن تسببت في استشهاد كثير من جنود الجيش وكفاءاته، ومن بين من استشهدوا طبيب الجيش محمد علي البقلي باشا سنة ١٨٧٦ الذي تعلم في إحدى بعثات محمد علي وصار أنبغ جراحي عصره، حتى أنه حصلت منافسة بينه وبين الأطباء الأوروبيين فتسببوا في نقله من القصر العيني قبل أن يعود مرة أخرى ويترأسه[٦٧].

فلم يتراجع إسماعيل عن حلمه بالسيطرة على الحبشة، وأرسل حملات أخرى تعرضت لنفس المصير، وقُتل آلاف المصريين، خاصة وأن الجيش لم يكن مدربا على الحرب في هذه البلاد، ولم يكن واضحا الهدف الوطني من ورائها، وضمن ضباط هذه الحرب العبثية أحمد عرابي، وتركت فيه أثرها.

وحرب الحبشة من أسباب ضياع حصة مصر في قناة السويس لما مدَّ إسماعيل عينه الطامعة للخارج فضيع الداخل، وذلك أنه عند تجهيز الحملة الثانية كان مركز مصر المالي في منتهى الخطورة، ورغم هذا تفاوض مع بنك روتشيلد- المعروفة عائلته حتى اليوم بأنها "قرون الشيطان"، على قرض جديد بل وعلى بيع أسهم قناة السويس، وخلال ٣ أيام سقطت الأسهم في يد إنجلترا (بنك روتشيلد)[٦٨]، فالمستشارين الأجانب يزينون للخديوي المشاريع والمغامرات التي تتطلب القروض الباهظة، والدول والبنوك الخارجية تظهر في ساعة الصفر للم الحصاد.

وبذلك يكون المصريون خاضوا أيام محمد علي وحتى إسماعيل حروبا في الشام والقرم (روسيا) والسودان والحبشة، بخلاف دفع تكاليف حروب المرتزقة والسودان في الجزيرة العربية واليونان والمكسيك.

فالفلاح المقاتل مونتو[٦٩]، عاد له سلاحه، وعاد لساحة القتال، فلتفرحي يا سخمت[٧٠]، وصبي غضبك على أعدائه... ولكن "استني".. فـ مونتو أرسلوه إلى ساحة غير ساحته، بل ساحة محتليه، لمصالحهم هم وليس لمصلحة مصر، يستنزفون دماءه في الميدان كما استنزفوا عرقه في الغيطان.. ولكن علَّ وعسى تكون "رب ضرة نافعة".. فمدام عاد له سلاحه، فستعود له ساحته يوما.. ويرقص قلب ماعت من جديد.

6 نزف المصريين في السخرة للأجنبي

يقولون الآن: بنى محمد علي القناطر وشق الترع، وحفر سعيد القناة ومد السكة الحديد، وأقام إسماعيل المباني الفخيمة واستصلح الأراضي... ولا يقولون أن من بنى وشق وحفر وأقام واستصلح ذاك الفلاح المنفي في بلده على يد الاحتلال.. ومنفي من ذاكرة أحفاده على يد الغفلة والنكران.

---

[٦٧]- عصر محمد علي، عبد الرحمن الرافعي، ط ٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٤٧١- ٤٧٢

[٦٨]- مصر وكيف غدر بها، ألبرت فارمان، ترجمة عبد الفتاح عنايت، الزهراء للإعلام العربي، ط١، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٢٢١- ٢٢٢

[٦٩]- مونتو هو رب الحرب ورمز المقاتل الشجاع في الحضارة المصرية، وعلى اسمه تسمى منتوحتب الثاني (أي مونتو راضي) الزعيم المصري العظيم الذي أعاد للبلاد الأمن والسكينة بعد أن حررها من أعدائها وأعاد لهما حكمها المركزي في الأسرة ١١ في الدولة الوسطى.

[٧٠]- سخمت (سخمة) من رموز الحرب أيضا، ودورها أن تنزل بلعناتها من الأوبئة والغضب والهزيمة على أعداء مصر، وهي الصورة أو النسخة المحاربة لحتحور وإيسة (إيزيس)، وربما من اسمها أخذنا الدعوة: "جاك سُخام".

يسجل صاحبا كتاب "مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر" أن مشروع حفر وبناء القناطر الخيرية الذي بدأ ١٨٣٣ قام على أكتاف الفلاحين بنظام السخرة، وخلال العمل الشاق انتشر بالبلد وباء ١٨٣٥ ففتك بعدد كبير من العمال المصريين، وتكلف حفر القناطر ٤ مليون جنيه وفق تقدير السير "ولكُكس"[٧١]، ومن أسباب هذا الأجور الضخمة التي أخذها المهندسون الفرنساويون، في حين يعمل معظم المصريين بالسخرة.

وتوأم هذا المشروع هو حفر ترعة المحمودية، ووصف الجبرتي عملية جمع الناس بأن محمد علي "أمر حكام الجهات بجمع الفلاحين، فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال، وينزلون بهم المراكب، وتعطلوا عن زرع الدراوي [الدرة] الذي هو قوتهم، وقاسوا شدة بعد رجعوهم، ومات الكثير منهم من البرد والتعب، وكل من سقط أهالوا عليه تراب الحفر ولو فيه الروح" (كما روى ابن تغري بردي عن دفنهم أحياء تحت التراب خلال العمل بالسخرة في بناء المباني الفخمة أيام الاحتلال المملوكي) فليس عند الباشا وقت لعلاجهم أو إرجاعهم لبلادهم يقضون اللحظات الأخيرة وسط أهلهم ويدفنون بجانبهم.

أما من عاد لبلاده فتلقاه الخراب لطول غيابه عن زرعه، ولم يرحمهم جامع الضرايب فـ"طولبوا بالمال وزيد عليه عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة قمح وكيلة فول وأخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون"[٧٢].

وكشاهد عيان قال القنصل الفرنسي وقتها مانجان إنه مات من الفلاحين في حفر ترعة المحمودية ١٢ ألف في مدة ١٠ شهور فقط من قلة الزاد والمئونة أو من شدة التعب وسوء المعاملة التي عاملهم بها عسكر الوالي لإجبارهم على العمل من الفجر حتى يرخي الظلام ستاره، ولم يبذل الباشا جهدا في إعادتهم لأهلهم ليدفنوهم، فدفنوا تحت أكداس التراب الذي كانوا يرفعونه من قاعها، واشتغل فيها ٣١٣ ألف فلاح[٧٣]، وهو عدد ضخم مقارنة بعدد السكان وقتها، وبمجرى أرواحهم المعذبة إلى السماء جرت مياهها إلى الإسكندرية، وأورقت من دماهم وعرقهم أشجار العمار الكبير الذي شهدت الإسكندرية والبحيرة، بعد أن تسهَّل وصول الماء والملاحة إليها، وانتعش تجارها، لكن الفضل- كالعادة- منسوب إلى الأجانب الذين تمتعوا هم بمعظم هذا العمار لا الفلاحين، فيقال الآن إن الأجانب "عمروا" الإسكندرية.

ولكن قال الرافعي إن: "الفضل في ذلك العمران يرجع لمن حفروا بأيديهم ترعة المحمودية، وبذلوا دمهم وأرواحهم حتى جرى ماء النيل في تلك النواحي حاملا إلى الخلائق والناس والأراضي عناصر الخصب والحياة، فإذا تأملت في كل ذلك فاذكر تضحيات الآباء والأجداد، ومبلغ ما بذلوه في سبيل رفاهية الأجيال

---

(٧١)- مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ١٥٥- ١٥٤

***إحقاقا للتاريخ نذكر أن محمد علي هو صاحب مشروع القناطر الخيرية وترعة المحمودية وأنهما مشروعان جيدان، وإحقاقا للتاريخ نقول إن مصر لم تكن تحتاج لاحتلال حتى تقوم بمشاريع ري مميزة، فهي أجادت الكثير منها وهي حرة، وإحقاقا للتاريخ أيضا وإنصافا للأجداد نذكر فضل الأجداد في المشروعات التي قامت أيام الاحتلال، فتحت حجارة ومياه هذه المشاريع راح عدد كبير منهم شهدا ومصابين في العمل الشاق، وحتى عوايد المشاريع استفاد منها الأجانب، ولم يستفد منها المصريون إلا نادرا أو في وقت متأخر بعد قيامهم بالثورات، ومن أكبر وصمات العار في جبين المصريين أن تظل هذه المشاريع بأسامي من احتلوهم.

(٧٢)- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٧، ص ٥٢٢ و٥٢٤- ٥٢٥، و٦١٤-٦١٥، و٦١٨- ٦١٩، و ٦٢٧

(٧٣)- عصر محمد علي، عبد الرحمن الرافعي، ط ٥، دار المعارف، القاهرة، ٤٨٨- ٤٩١

الأعقاب، وتمهل في سيرك قليلا، واستمطر الرحمة على من استشهد في سبيل ذلك العمران[٧٤]".

وتلى قول المعري:

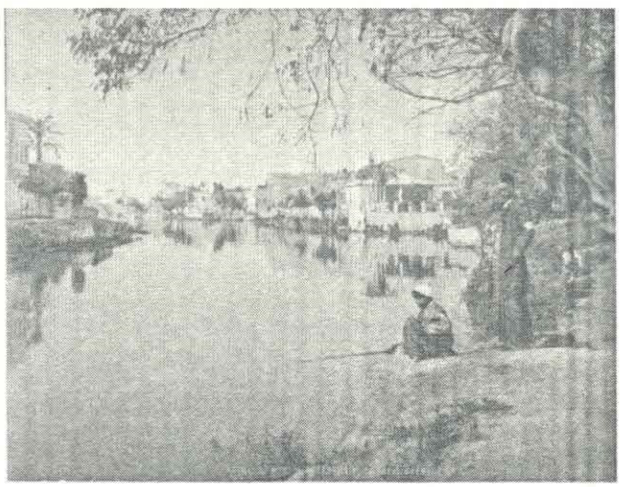
خف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد

وبعد سنين طويلة قال الشاعر محمود عبد الظاهر[٧٥]:

خف على الأرض دوسك على جدودك تدوس

الأرض وجنة عروسة وطي على الأرض بوس



المحمودية "ترعة الشهداء" في ١٨٩٠ على جانبيها البيوت والأشجار طارحة من أجساد الفلاحين (الصورة: مكتبة الكونجرس[٧٦])

وواصل بعض خلفائه "المشروعات الكبرى" دون حساب تأثيرها على أهل البلد ومستقبلهم، وأشهرها حفر قناة السويس، وبدأ حفرها ١٨٥٩ بأيدي مئات آلاف الفلاحين من قبل حفر الترعة اللازمة لإمدادتهم بمياه عذبة لسقايتهم، مثلما حدث وأخذوا لحفر ترعة المحمودية دون توفير ماء الشرب اللازم لهم.

وللتسريع في إنجاز الحفر، حث ديليسبس الوالي سعيد على الإكثار من العمال المسخرين بدون مراعاة لعدد معين؛ فصار يساق إلى القناة ٢٥ ألف فلاح وبعد ٣ أشهر يحل محلهم ٢٥ ألفا آخرين وهكذا، بدون أجر، يشتغلون طول اليوم تحت مراقبة حراس مسلحين بالسياط، عاشوا على الشظف، وتساقطوا شهداء يقاسون الجوع والظمأ والعري وحر الصيف وقر الشتاء وإجهاد الجسم والبؤس، وكلما هلك منهم أحد أتوا بغيره،

---

(٧٤)- نفس المرجع

(٧٥)- تتر مقدمة مسلسل "الناس ي كفر عسكر"، كلمات محمود عبد الظاهر، ألحان محمد علي سليمان، غناء علي الحجار.

(٧٦)- Alexandrie, le canal Mahmoudieh https://www.loc.gov/item/2017657129/

ولو تم مشروع حفر الترعة على حسب الاتفاق الأصلي لسبب نقصا عظيما في تعداد سكان البلاد، بتعبير عمر الإسكندري وسليم حسن(٧٧).

وتابعا أنه شاع هذا الأمر وأصبح من الفضايح حتى في مصر، وتناولته ألسنة المعارضين لحفر القناة وخاصة إنجلترا، وكان اللورد بالمرستون رئيس الوزارة الإنجليزية في ذاك الحين يعارض أمر تسخير الفلاحين لأنه نوع من الاسترقاق، والحقيقة يعارضه لأنه لا يريد أن يرى النفوذ الفرنسي يسود في مصر، لذلك أوعز إلى السفير الإنجليزي في القسطنطينية أن يحتج على تسخير الأهالي في الأراضي العثمانية لفائدة شركة أجنبية(٧٨).

وتكلف تطهير الترع تسخير ٣٠٠ ألف فلاح أيام سعيد الذي استخدم السخرة أيضا في مد الخط الحديدي من كفر الزيات إلى القاهرة، ثم عبر الصحراء إلى السويس، وبنيت القلعة السعيدية بالسخرة(٧٩)، وتوفي سعيد سنة ١٨٦٣ تاركا على مصر ديونا بلغت ١٠ مليون من الجنيهات(٨٠)، وآلاف الأرواح تُزهق كلما زاد عمق حفر القناة، من بينهم أطفال مسخرين لنقل التراب من شاطئ القناة إلى الأماكن العالية.

ويرى مؤرخون أن إسماعيل قام بعمل إنساني حين أمر بتوقف السخرة في قناة السويس، لكن يلزم جنب كلمة "عمل إنساني"، أن يضاف إليها ما أورده القنصل الأمريكي في عصره ألبرت فارمان من أن هذا تم بعد أن كانت مرحلة الحفر على الناشف انتهت وبدأت مرحلة التكريك(٨١)، وما قاله الدكتور أنور لوقا في تقديمه لكتاب جون نينيه- عمل مزارعا وتاجرا للقطن في مصر من أيام محمد علي إلى توفيق- "رسائل من مصر" أن إسماعيل "بذريعة إنسانية سحب من دليسبس الأيدي العاملة الوفيرة التي كان يحتاجها لزيادة محاصيله بصفته المالك الأكبر للأراضي الزراعية، بعد أن سال لعابه بسبب "الانفجار القطني"(٨٢)، فنقل الفلاحين من قناة السويس إلى مزارعه حتى يستفيد من فرقعة أسعار القطن في العالم.

واللافت أن ديليسبس ممثلا لشركة القناة طالب مصر بتقديم تعويض للشركة عن توقفها عن إرسال العمال للحفر بالسخرة قدره ٣٨ مليون فرنك، ودفعه إسماعيل من دماء ذات الفلاحين، وفي سنة ١٨٦٧ وحدها استلزمت المشروعات العامة أيام إسماعيل تسخير ٥٨ ألف فلاح(٨٣).

وضمن مشاريع السخرة التي استخدم فيها الفلاحين أيام إسماعيل حفر الترعة الإبراهيمية لخدمة أراضيه

---

(٧٧)- انظر: مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ٢١٠- ٢١٣

(٧٨)- انظر: المرجع السابق، ص ٢١٣، ومصر وكيف غُدر بها، ألبرت فارمان، مرجع سابق، ص ٢٢٢- ٢٢٨

*** عرض التلفزيون المصري (لا أتذكر التاريخ باليوم ولكنه بعد ٢٠١٤) فيلما وثائقيا عن تاريخ العلاقات بين مصر وفرنسا بمناسبة زيارة متبادلة بين رئيسي البلدين، قدم فيها الحملة الفرنسية وحفر قناة السويس على أنهما "فضل" من فرنسا على مصر، ولم يتعرض بأي شكل لجرائم الفرنسيس في الحملة ولا إهلاك المصريين في حفر قناة السويس والظلم الشديد في عقد الشركة، ولم يتعرض لدور فرنسا في عدوان ١٩٥٦، كما نشرت "الأهرام" مقالا بعنوان "حكايات من أوراق قديمة سعيد باشا وطبق المكرونة الشهير"، بتاريخ ٢٩- ٩-٢٠١٧، العدد ٤٧٧٧٩، دافع عن سعيد وديليسبس ولمع صورتيهما وختم المقال بعبارة "الله الله على مصر زمان"، ولم يتعرض بأي شكل للقهر الذي تجرعه المصريون في ذاك الزمان، ولا لفضل المصريين على الجميع، وخطورة هذا الأكبر أنها تصدر عن مؤسسات حكومية.

(٧٩)- تطور ملكية الأرض الزراعية ١٨١٣- ١٩١٤ وأثره على الحياة السياسية، د. علي بركات، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ص ٢٣٤

(٨٠)- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ٢٠٨

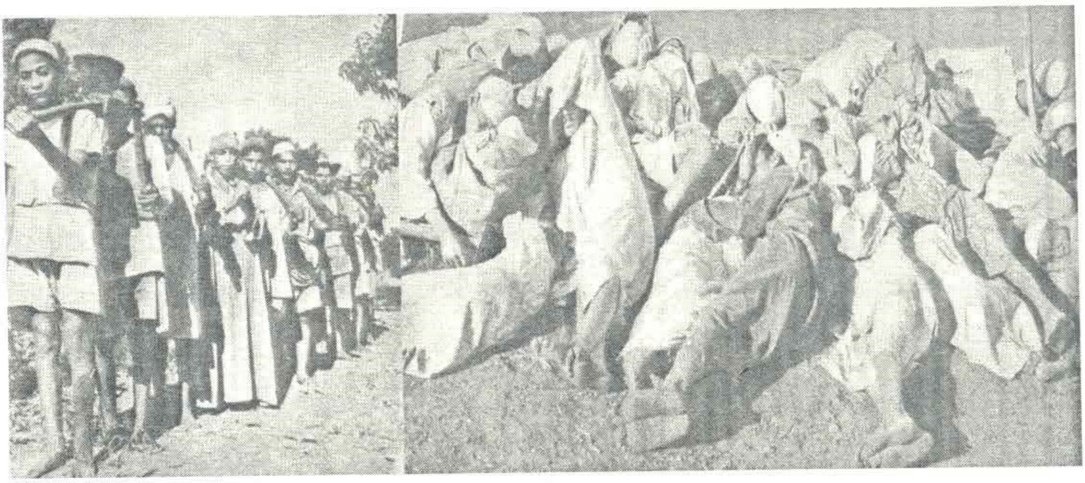
(٨١)- مصر وكيف غدر بها، مرجع سابق،ص ٢٣٠- ٢٣٣

(٨٢)- رسائل من مصر (١٨٧٩- ١٨٨٢)، جون نينيه، ترجمة فتحي العشري، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٥٣

(٨٣)- تطور ملكية الأرض الزراعية ١٨١٣- ١٩١٤ وأثره على الحياة السياسية، مرجع سابق، ص ٣٣٤

الخاصة التي احتكر فيها زراعة قصب السكر، وكانت تمتد من القاهرة لأسيوط (نحو ٤٠٠ كم)، وهي مسافة توضح كم كان أمر حفرها مهولا في شدته على الفلاحين، وفوق هذا كان معظم العمال الذين يشتغلون في معامل السكر يجبرون على العمل ويتقاضون أجورهم إما من السكر أو العسل[٨٤].

وينقل تقرير دوفرين (الذي جاء لتنظيم أمور الاحتلال الإنجليزي بعد ذبح ثورة ١٨٨١) عن شخص يدعى فاليري ستيوارت ما شاهده من أحوال الفلاحين في السخرة، فيقول إنهم يعملون من الشروق حتى الغروب بلا انقطاع، ما عدا فترة قليلة عند الظهر يأكلون فيها خبزهم المغمس بماء النيل، وهو نفس طعامهم قبل بداية العمل، بعضهم يملك فؤسا يحفر بها، وآخرون لا يملكون إلا أيديهم، فيما يوجد في الردم حجارة حادة من الصوان، والرمد منتشر جدا بينهم، ورغم شدة القيظ يقبض النظار على العصي يضربون بها الأنفار دون سبب ظاهر[٨٥].



صورة لظروف عمل الفلاحين ونومهم في الحر والبرد في أرض العمل معبرة عن حالهم نتيجة عصور الاحتلالات (بوابة الأهرام[٨٦])

وفيما كان يعمل هؤلاء بالسخرة أو بمقابل هزيل، كان إسماعيل يعمل بكل العزم في بناء أفخم القصور له ولأولاده وللجواري وللأجانب، ولا تهتز شعرة في رأس أحدهم إذا ما أمر بهدم قصر تكلف أطنان من المال لمجرد أن يقيم قصرا آخر محله ليكون على طراز معماري جديد رآه في أحد سياحاته الأوروبية.

يقول أحمد شفيق باشا، أحد شهود العصر ورئيس الديوان الخديوي في عهد عباس الثاني، في مذكراته الصادرة ١٩٣٤، إن لإسماعيل ولع خاص ببناء المنشآت الباريسية والقصور التي ملأها بأسراب الجواري الحسان، فشيد قصر الجزيرة على مثال قصر الحمراء في الأندلس، وأودع في حديقته البديعة الحيوانات الكاسرة، وأقيم في أيامه قصر الجيزة- مكانه الآن جنينة الحيوانات- وقصورا أخرى لأولاده في الجيزة، وسراي القبة لولي عهده، وقصرا في الإسماعيلية خصيصا لإقامة الحفلات الفاخرة في افتتاح قناة السويس،

---

[٨٤]- انظر: تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، المرجع السابق ، ص ٢٣٦- ٢٣٨

*أمر شبيه بما فعله محمد علي حين كان يحرم الفلاحين أحيانا من أخذ ثمن محاصيلهم نقودا ليوفر المال لبقية مشاريعه، ويجبرهم على أخذ الثمن في شكل منتجات المصانع التي تأسست في عصره، دون مراعاة لما يحتاجونه أو لا يحتاجونه.

[٨٥]- تطور ملكية الأرض الزراعية ١٨١٣- ١٩١٤ وأثره على الحياة السياسية، مرجع سابق، ص ٣٣٥- ٣٣٦

[٨٦]- إذا كنت ممن يعتقدون أن مصر كانت جنة قبل ثورة يوليو.. تعرف على تلك الحقائق قبل أن تحكم، بوابة الأهرام، ٢٣- ٧- ٢٠١٥

ووسع قصر عابدين، ويُشاع أن فلكي نصحه باستمرار البناء طوال حكمه حتى لا يُنتزع العرش منه، وعرض شفيق باشا مشاهد من الحياة داخل القصور مدعمة بالصور، وبخلاف بذخ عيش الحكام وزوجاتهن فيها والأكل والشرب في أواني الذهب والفضة، عرض لطريقة حياة الجواري الفخيمة، حتى قال إن الزوار حين يرونهم يتساءلون: هل حقا هؤلاء مملوكات؟[٨٧].

ونقل أن إسماعيل في زيارته للأستانة ١٨٧٣ دعا السلطان عبد العزيز لمأدبة أعدها له في قصر ميركون على ضفة البوسفور، استعمل فيها أواني من الذهب أرسلها للسلطان هدية بعد المأدبة، وروى بارو باشا الفرنسي رئيس الديوان الأفرنجي في عصره أن إسماعيل في إحدى زياراته لباريس سمع بجمال قصر لأحد أغنياءها، أراد زيارته هياما بالفن الجميل، فلما علم صاحبه دعاه لمأدبة، وكانت له فتاة جميلة أعجب بها الخديوي، وبعد الفراغ من الطعام سأل إسماعيل صاحب القصر عما إذا كان يرغب في بيعه، ولم يكن الرجل يود التفريط فيه، ففكر في الخلاص من المأزرق بأن طلب لقصره ثمنا باهظا قدره ٥ ملايين فرنك، وبُهت بأن الخديوي قبل الثمن، وأمر بكتابة العقد، وبُهت الرجل أكثر حين رأى الخديوي وهو يُملي اسم المشتري بأنه يشير بأصبعه لابنة صاحب القصر الحسناء قائلا: "مدموازيل..."، وبذا عاد لابنة صاحبه، وغرم إسماعيل ثمنه الباهظ[٨٨].

وبمعنى أصح غرمه ذلك اليتيم المنحني ظهره على بعد آلاف الأميال في الريف المصري يفلح الأرض المغصوبة.. للغاصبين... حتى يأتي حفيده بعد ١٠٠ سنة يكتب أن مصر "بلد الكرم"، التي "لا ترد من يدق بابها"، و"يعيش أهلها مع كل الأجناس في وئام، وانصهار تام"، و"ما أحلى تلك الأيام"، و"ما أجهله أبي، كيف ثار وطرد الأجانب وحرمنا من أن يُقال إن مصر للأجانب أرض الأمان؟".

وتوفي موظف فرنسي تاركا زوجته بلا معاش، وعلم إسماعيل أن حالتها تسوء، فأمر بارو باشا بأن يكتب للمالية ليرسل لها ألف جنيه، ولكنه عاد واستدعى بارو إلى خزانته الخاصة قائلا: "الصراف احضر لي الآن نقودا ذهبية، ولا ضرروة للكتابة إلى المالية اختصارا للوقت، ثم أخذ يقبض بيده بضع قبضات متعاقبة من الذهب ويضعها في منديل بارو باشا، ليرسلها إلى الزوجة الفرنسية[٨٩]"... حتى لا تعيش في ضيم في مصر.. ما أشد عطفه!

ويختتم شفيق باشا بالتعليق بأنه في الوقت الذي كان ينفق بهذا الشكل، فإنه كان يقترض بالربا الفاحش، وأثقل كاهل الأهالي بمختلف الضرايب والجبايات، وعصفت بهم الفاقة، وبلغ البؤس بالفلاحين أن كانوا ينزلون عن أطيانهم فرارا من الضرايب المتوالية[٩٠].

❼ استمرار نزف المصريين الجزية والخراج للأجانب

(٨٧)- مذكراتي في نصف قرن، أحمد شفيق باشا، ط١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٤، ص ٢١- ٢٤، و ٨٢- ٨٣

(٨٨)- نفس المرجع، ص ٢٤- ٢٥

(٨٩)- نفس المرجع، ص ٢٥

(٩٠)- نفس المرجع، ص ٢٩

يقول عمر السكندري ود. سليم حسن إنه رغم كل مشاريع محمد علي التحديثية، ظلت حالة الفلاح المصري غاية في الشقاء والبؤس، إذ أثقل عاتقه بالضرايب وبتسخيره في حفر الترع وجره في حروب خارجية، فأثرت هذه العوامل فيه تأثيرا سيئا، فكان يهلك من المصريين الآلاف في حفر الترع وتحت تعذيب محصلي الضرايب، ومع خسارة محمد علي لمكتسباته في الشام كانت مصر وصلت لحالة بؤس شديد، لما حل بأهلها من المصائب من جراء كل هذه الحروب التي قاموا بأعبائها، وأنفقوا عليها من دمائهم وأموالهم "حتى أصحبت البلاد في حالة يرثى لها"[٩١].

وزاد على هذا أن انتشر طاعون الماشية، وتبعه هبوط النيل، واجتاح الجراد زراعة البلاد "فتركها قاعا صفصفا"، وأصبحت "على حافة الخراب"، واستولى الرعب والوجل على قلوب الناس؛ فاجتمع مجلس في القاهرة وكتب تقريرا عن سير الأحوال وما آلت إليه، كما استولى الخوف على محمد علي أن ابنه إبراهيم سيستغل الفرصة ويخلعه ويتولى مكانه، لكن الأحوال تحسنت بالتدريج، وسافر هو لتركيا ومكث فترة، استقبله السلطان بشكل جيد، لكن في النهاية تعامل رجال القصر بقسوة معه، فرجع كشبح إنسان[٩٢].

أما الخراب الأشد الذي يسلخ ما بقي من لحم ظهر الفلاح فحين تسقط خزينة مصر في يد روتشيلد.

❽ سقوط مصر في بير الديون لأول مرة (دفع الجزية لروتشيلد)

لا يُعرف عن مصر أنها لجأت للاستدانة من الخارج طوال تاريخها قبل الاحتلال العلوي سوى مرة في التاريخ القديم حين استدان الملكَ اليوناني بطلميوس الثاني عشر لما اقترض من الرومان للإنفاق على صراعاته مع عائلته على الحكم، وأجبره الرومان على تعيين رابيريوس الروماني وزيرا للمالية في مصر، وكانت التجربة "فال نحس"، استغلها الرومان لابتزاز البطالمة حتى سقطت دولتهم واحتل الرومان مصر.

ولأن التاريخ دواير مملة لمن لا يتعلم، فإن الأمر تكرر في الاحتلال العلوي.. وانتهى لنفس السقوط.

يقول عمر الإسكندري وسليم حسن، إنه حين تولى سعيد سنة ١٨٥٤ كان اقتصاد البلد في حالة حسنة خالية من الديون الأجنبية، دخلها السنوي البالغ ٣ مليون جنيه كافي لسد حاجاتها، والتجارة متقدمة، والأراضي الزراعية آخذة في الازدياد، واحتاج هذا إلى الحاكم الذي يحافظ على هذا الاستقرار، ولم يكن سعيد هذا الحاكم؛ فارتمى في أحضان الأجانب من إنجليز وفرنسيس، وألغى المجلس الخصوصي (مجلس النظار)، ولم يدرب أحدا من أبناء الأمة على شؤون الإدارة حتى يكون له عونا، وانغمس في اللذات فاعتل نظام الحكومة[٩٣].

ومن أبشع قرارات سعيد، بل من أبشع النكبات في تاريخ مصر كلها، أنه أدخل مصر في دائرة القروض والديون في السنة الحزينة ١٨٦٢ لما مضى عقد أول قرض دولي في لندن مع بيت مال "فرهلنج جوشن"

---

[٩١]- انظر: نفس المرجع مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ١٦٥، ١٧٣، ١٨٧- ١٩٧

[٩٢]- نفس المرجع، ص ١٩٧- ١٩٨

[٩٣]- انظر: تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ٢٠٧

بمبلغ ٣,٢٩٢,٨٠٠ جنيه لحفر قناة السويس، برغم عدم حاجة مصر وقتها للقناة في أي شيء، ووافق أن يكون المستفيد من خيرها لمدى ٩٩ عاما هم الأجانب وليس المصريين.

فلماذا وقع عقدا ظالما ومذلا مثل هذا؟

دعا للمشروع وتولاه ديلسبس [المشهور بأنه سمسار ديون] بما كان له من المكانة عند سعيد، وبما كان يعده به من الفوائد التي ستعود على مصر من المشروع، مع قلة النفقات التي ستتحملها- حسب كلامه وقتها- وأن تكاليف الحفر ستكون من فرنسا[٩٤]، وسيتضح أن وعود الداهية ديلسبس كانت تخديرا وأوهاما، ومعظم نفقات القناة نزعوها من دماء وأرواح الفلاح المصري، وما كان دور ديلسبس إلا سمسارا لتنفيذ مشروع فرنسا الذي كان يعتزمه نابليون بحفر القناة والسيطرة على حركة التجارة العالمية، وسمسارا أيضا لبيوت المال العالمية التي تسعى لتكبيل الدول بالقروض والديون في مشروعات تحتاجها أو لا تحتاجها لتحكمها من وراء ستار.

كان غريبا جدا قبول سعيد للشروط التي وضعها ديليسبس في عقد حفر القناة، ومعظمها شروط لا يوافق عليها إلا شخص مهزوم في حرب شديدة، وليس رجل يحكم بلد مكتفية ذاتيا من كل شيء، والشروط في العقد الموقع يناير ١٨٥٦ هي:

- تتمتع الشركة بفوائد القناة مدة ٩٩ سنة من فتحها.

- يحفر ديلسبس ترعة تستمد ماءها من النيل إلى الإسماعيلية، ويُمنح في مقابل ذلك كل الأراضي اللازمة للأبنية والأعمال بدون مقابل خالية من كل الضرايب.

- يكون له الحق في أخذ أجر من الملاك الذين ينتفعون بالماء العذب الذي يؤخذ من هذه الترعة (رغم أن حفر الترعة لا يكلفه شيئا لأنه بالسخرة).

- يكون للشركة الحق في تعدين كل مناجم الحكومة ومحاجرها بدون ثمن أو ضرايب.

- تعفى الشركة من كل المكوس على الواردات التي تجلب لها.

- ينتهي المشروع خلال ٦ سنين إلا إذا حصلت عوائق لا يمكن تلافيها.

- يكون أربعة أخماس الفعلة العاملين في حفر الترعة من الفلاحين.

- رسوم المرور في القناة ١٠ فرنكات على كل مسافر ومثلها على كل طن من حمولة السفن.

-تكون الشركة مصرية بحيث يسري عليها قانون البلاد.

---

[٩٤]- نفس المرجع، ص ٢٠٧- ٢٠٨

- تقسم الأرباح (بعد أن يخصم منها فائدة لأموال المساهمين بنسبة ٥١% ومثلها للمال الاحتياطي) على الترتيب الآتي: ١٥% للحكومة المصرية، ١٠% لمؤسسي الشركة، ٧٥% للمساهمين والمديرين والموظفين (وكان معظمهم في البداية من فرنسا وتركيا).

- بعد انتهاء المدة المقررة (٩٩ عاما) تصير القناة وكل مشتملاتها ملكا للحكومة المصرية.[٩٥]

تولى إسماعيل سنة ١٨٦٣، وكان ممتعضا من شروط عقد قناة السويس، ويراها مجحفة بحق مصر وبسيادته كحاكم لها، وسعى لإلغاء بعضها، مستعينا بالسلطان العثمانلي عبر الرشاوى، وبالتزامن شجعت بريطانيا السلطان على تقليل الامتيازات الممنوحة لشركة القناة مكايدة في فرنسا، وهو ما ساعد إسماعيل، فهدد الشركة بأنها إن لم ترد الأراضي التي أخذتها من سعيد فإنه سيوقف الحفر، كما سعى لتقليل عدد العمال المسخرين.

ولكن ديليسبس بخبث طلب من إسماعيل الاحتكام للإمبراطور نابليون الثالث، ابن أخ بونابرته، فكأنما يحتكم للثعلب أو بلطجي الحارة، فكوَّن نابليون لجنة ألزمت إسماعيل بدفع غرامة للشركة ٣ مليون ونصف مليون جنيه بحجة إخلاله بشروط الاتفاق الأصلي بشأن أعمال السخرة، رغم أن من أخلَّ بالشروط هي الشركة لمّا أخذت عددا من العمال أكبر من المتفق عليه، وتركتهم للجوع والعطش.

وفوق ذلك أخذت الشركة- بحسب حكم لجنة نابليون الثالث- تعويضا عن الأراضي اللي استردها إسماعيل، وثمن حفر ترعة الإسماعيلية رغم أن حفرها كان واجبا على الشركة، وفعلا دفع إسماعيل المبلغ سنة ١٨٦٩، ووصف ألبرت فارمان قنصل أمريكا في مصر حينها في كتابه "مصر وكيف غُدر بها" أن هذا المبلغ أخذه نابليون الثالث "ظلما وعدوانا" على مصر، وبـ "خدعة مشينة"[٩٦].

وبعد ما كان إسماعيل ضد مشروع حفر القناة والتوغل الأجنبي باسم استثمارات بدأ يتفاخر بهذا المشروع قصاد العالم، ويسعد بالقول إنه الرجل القائم على أكبر مشروع في القرن ١٩، وأسكرته عبارات المديح التي أغدقتها عليه الصحف الأجنبية والدبلوماسيون الأجانب بأنه صاحب النهضة والمشروعات العظمى، ليغروه بالموافقة على مشروعات جديدة، وقروض جديدة.

نتيجة لهذا، وافق أن يدفع أموالا ضخمة لشركة القناة بحجة تعويضها عن بعض المباني والأراضي التي أخذتها الحكومة من الشركة، وعند الافتتاح في نوفمبر ١٨٦٩ كان حفل الافتتاح على شاطئ القناة هو الأفخم في زمانه، تتراقص موجاتها مع رقصات المحتفلين على هياكل وجماجم ودماء ضحايا أكبر مشروع استثماري في العالم.

وتكلف حفر القناة حسب المدون في دفاتر الشركة ٤٣٢,٨٠٧,٨٨٢ مليون فرنك (حوالي ١٧,٥٠٠,٠٠٠ مليون جنيه)، رغم أن رأس المال كان فقط ٢٠٠ مليون فرنك، صرفت مصر منهم

---

[٩٥]- انظر: مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ٢١٠- ٢١٣

[٩٦]- مصر وكيف غدر بها، ص ٢٢٥، ومصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، ص ٢١٣

١٦,٠٠٠,٠٠٠ مليون جنيه، يعني مصر صرفت نفقات أكثر من ٩٠% من عملية الحفر رغم أن حصتها في الأسهم ١٥% فقط.

ولم يقف عذاب الفلاحين عند الاستشهاد والمرض خلال حفر القناة، ولكنه امتد إلى إنشاء المباني والمشاريع الخاصة باحتفال الافتتاح.. الاحتفال الذي لم يُكرم فيه، بل لم يُدعَ لحضوره.

فلكي يبهر إسماعيل الأوروبيين بالمدن المصرية، لتكتمل صورته كـ"حاكم عصري على النمط الأوروبي" أمر بأن ينتهي الفلاحون من إنشاء وتعبيد طريق الأهرام في أقل من ٦ أسابيع، وشارك في ذلك نحو ١٠ آلاف عامل، لكي تسير عليه الإمبراطورة الفرنسية أوجيني- خطيبة ديليسبس السابقة وزوجة نابليون الثالث الذي خدعه- عند زيارتها للأهرام، كما أمر بسرعة إنهاء بناء دار الأوبرا ليكتمل أمام الضيوف اللصوص "الوجه الأوروبي" لمصر.

وتكاليف قدوم الضيوف من أوروبا وعودتهم إليها على نفقة مصر، وبلغ مجموع ما أنفق على هذا الاحتفال نحو ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيه[٩٧]، وبتعبير صاحبي كتاب "تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر" فإنه "مما يؤسف له أن مصر لم تستفد من نجاح ترعة قناة السويس مطلقا، فإنه فوق خسارتها القناطير المقنطرة من الأموال وإرهاقها الفلاحين المصريين إرهاقا عظيما، وفضلا عن تحول التجارة المارة بين أوروبا والهند من داخل مصر إلى طريق القناة مما أحدث نقصا كبيرا في دخل سكك حديد الحكومة، تنازلت للشركة الفرنسية في سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠م) عما كان يخصها من أرباح الشركة وقدره ١٥% في مقابل مبلغ حقير قدره ٧٠٠,٠٠٠ جنيه كانت الحكومة قد اقترضته من تلك الشركة ولم تقدر على سداده، فحرمت بذلك مصر من مصدر دخل عظيم، ولم يتم لولاة مصر من إنشاء الترعة شيء مما كان يمنيهم به ديليسبس من توطيد دعامة حكمهم واتساع جاههم وسلطانهم، فترى مما تقدم كله أنه لم يخسر من وراء إنشاء هذه الترعة إلا الأسرة المحمدية العلوية ومصر والفلاحون[٩٨]".

وفي المقابل كان المكسب لفرنسا وبريطانيا وبيوت المال العالمية الشيطانية مثل روتشيلد وجوشن.

فلمّا كثرت الديون الأوروبية على مصر وأوشكت موارد الضمان التي يمكن تقديمها أن تنفذ، أصبح من الصعب اقتراض ديون جديدة، وما أمكن اقتراضه منها كان بأرباح باهظة جدا لم يسبق لها مثيل، ومن ذلك أن إسماعيل اقترض في جمادي الثانية سنة ١٢٩٠ هـ (يونيو سنة ١٨٧٣) دينا قدره ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيها ليسدد به جميع الديون السائرة، فلم يتمكن من عقد القرض إلا في مايو ١٨٧٤، فكان مجموع ما قبضته الحكومة بالفعل من هذا الدين بعد طرح جميع أنواع النفقات والخصم (السمسرة) يبلغ ٢٠,٠٦٢,٠٠٠ جنيها فقط، أي بنقص ٣٧% عن مقدار ما حسب دينًا على الحكومة، فضلا عن أن المبلغ الذي قبضته الحكومة لم يدفع كله نقدا، بل كان منه ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من سندات الخزانة المصرية، ومعنى ذلك أن الحكومة نظير

---

[٩٧]- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، عمر الإسكندري وسليم حسن، ص ٢٤٦- ٢٤٧

[٩٨]- المرجع السابق، ص ٢١٥- ٢١٦

حصولها على ١١,٠٠٠.٠٠٠ جنيها نقدا فقط زادت دينها بقدر ٢٣,٠٠٠.٠٠٠ جنيها[٩٩].

وإضافة للديون الضخمة البرانية (الخارجية) تورط في الديون الداخلية، فبدأ يقترض من الأثرياء، ومعظمهم أجانب، فصارت الحكومة مدينة للأجانب في الداخل والخارج[١٠٠]، ولأن المرابين دايرة واحدة توصل لبعضها، فإن الحكومة مثلا حين تعجز عن سداد قرض لبنك خارجي، تلجأ لبنك داخلي أجنبي لسداد الديون للبنك الخارجي، وكل هذه البنوك في دائرة تنظيم واحد، فمثلا يروي عرابي أنه في أيام إسماعيل عُهد إليه بمأمورية تسليم ٧٠٠ ألف أردب قمح وفول وشعير إلى بنك منشا وقطاوي، وبنك إيجيون وإبراهيم بيجة بالأسكندرية، سدادا لدين اقترضته الحكومة منهما لسداد بعض أقساط دين بنك روتشيلد[١٠١]

وأصبح أجانب الداخل أداة ابتزاز جديدة للحكومة مقابل ديونهم عليها في تكرار لما فعله التجار الشوام والمغاربة وربما اليهود في تقديم القروض للماليك والعثمانلية بمصر ليرسخوا وجودهم بكل وسيلة وتأثيرهم على صناعة القرار، وكذلك ما يُتوقع أن فعله المستوطنون الأجانب من قبايل شعوب البحر وأسرى الحرب لما تمكنوا من اقتصاد مصر والمعابد وأوقافها في إقراض الحكومة المصرية وهي تترنح من الضعف نهاية القرن ٢٠ حتى سقط العرش في أيدي "أصحاب القروض" المنزوعة أساسا من أرض مصر.

وفي ١٨٧٥ شدت الأزمة، وصدرت سندات على خزائن الحكومة بقيمة تقل كثيرا عن قيمتها الاسمية، فعرضت الحكومة ما لها من أسهم القناة للبيع، (وعددها ١٧٦٦٠٢) فاشترتها الحكومة الإنجليزية بثمن بخس يقل عن ٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه، ولم يفرج ذلك شيئا من الأزمة، وصار يخشى كل يوم من تدخل أوروبا في شؤون مصر محافظة على الأموال التي أقرضها رعاياها للحكومة المصرية.

وبحلول ١٨٧٥ كان الديون على مصر سايرة وثابتة ٩٠ مليون جنيه، يعني ٩ أضعاف الدين الذي تركه سعيد، وحصة مصر من القناة بيعت لإنجلترا، وصارت الدولة تسير مثقلة كالأسيرة بأغلال تسديد أقساط القروض، وفوائدها المتزايدة، والأجور الباهظة للأجانب مديري ومشغلي المشاريع، وتتفنن حكومة إسماعيل في فرض ضرايب جديدة على الفلاحين لتضمن سداد فوايد الدين في موعدها[١٠٢].

واستمر هذا التوغل الأوروبي بالرغم من أنه على حد معلومات القنصل الأمريكي في عهد إسماعيل ألبرت فارمان: "كانت مصر في سنة ١٨٨٢ سددت كل الأموال التي تسلمتها فعلا من بيع السندات، بما في ذلك فائدة سنوية قدرها ٦%، وهذه القروض تشمل الديون المختلفة من أيام سعيد باشا وقدرها ٥٠ مليونا من الدولارات، كما تشتمل على تلك الملايين العديدة التي أخذتها شركة قناة السويس نتيجة للتعويض الذي حكم به نابليون الثالث، أما الـ ٥٤ مليونا من الدولارات المدينة بها مصر الآن [وقت صدور كتاب فارمان الذي توفي ١٩١١] والفائدة التي تُدفع عليها منذ سنة ١٨٨٢ والتي يبلغ مقدارها نفس مقدار الدين الأصلي

---

(٩٩)- نفس المرجع، ص ٢٤٨

(١٠٠)- انظر المرجع السابق، ص ٢٤٨- ٢٤٩

(١٠١)- مذكرات الزعيم أحمد عرابي، دراسة وتحقيق عبد المنعم الجميعي، مجلد ١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٣٢

(١٠٢)- المرجع السابق، ص ٢٤٨- ٢٥٠

*** فكر ومهمة صندوق الدين هو ما تم على أساسه تأسيس صندوق النقد الدولي وبرامجه الخاصة بـ"الإصلاح الاقتصادي" التي يتحكم بها في اقتصاد الدول عقب إنشاء الأمم المتحدة ١٩٤٥

فكلها من قبيل الربا دون أي وجه حق".

وإضافة إلى أن مصر من بعد سنة ١٨٨٢ كانت تدفع "الربا الفاحش" رغم سداد جميع ديونها، فقد اعتبر فارمان هذه الأموال التي تخرج من مصر لبريطانيا وبنوك روتشيلد وغيره من الممولين اليهود العالميين "جزية مكشوفة تُدفع لأوروبا لأجل غير محدود، قد يمتد إلى أجيال".

كما قال: "وتنحصر الجريمة الحقيقية التي ارتكبها إسماعيل في أنه وضع نفسه تحت نفوذ يهود لندن وباريس، هؤلاء الذين كان معظمهم من الممولين اليهود، وكانت لديهم القوة الكافية لتوجيه حكومتي إنجلترا وفرنسا وحثهما على ابتداع سابقة جديدة خاصة بتدخل الدول رسميا في جميع الديون المبرمة طبقا لعقود، وحتى الديون التي لا ترتكز على أي التزام أدبي".

وإنه "من أجل جمع هذه الديون التي تميزت بهذا الطابع، والتي مكنت بنوك روتشيلد، وأبنهايم، وجوشن، وغيرها من البيوت المالية أن تجني ثمار مغامراتها المالية، قامت الدولتان الكبريتان ببذل معونتهما الرسمية أولا، ثم قامت إنجلترا بعد ذلك بتقديم معونتها العسكرية[١٠٣]".

والمعونة كلمة ساخرة من القنصل الأمريكي الراحل يقصد بها التدخل الاقتصادي بالديون ثم الاحتلال العسكري، وطالب دولته (الولايات المتحدة) بألا تنجر في يوم من الأيام للسياسات الأوروبية القائمة على تكبيل الدول بالديون وإغرائها بمشروعات استثمارية تكون وسيلتها للاحتلال تلك الدول، واستشهد بكلمة وزير الخارجية الأمريكية وقتها، إليهو روت، في خطابه في الأرجنتين: "إن الولايات المتحدة لم تستخدم ولن تستخدم قط جيشها أو بحريتها في جمع ديون تعاقدت عليها حكومات أو أفراد....مثل هذه الإجراءات تؤدي إلى المضاربة وهي قائمة على أغراض دنيئة[١٠٤]"، ولكن أمل فارمان في تجنب بلاده الوقوع في هذه المخططات الخبيثة لم يتحقق كما نعلم.

وبنفس تعبير فارمان عن الجزية لبنوك أوروبا قال البريطاني إلينور بيرتز إنه "في أثناء القرن (١٩) أتى مصر سيد جليل أعلى في شكل الممول الأجنبي، سيد يطلب جزية هو الآخر (إضافة للجزية التركية التي بلغت عام ١٨٧٣ مبلغ٦٧٥٠٠٠جنيه)، ولكنها جزية متزايدة على مر الأيام، وقد حدث أول تغلغل عظيم لرأس المال البريطاني في الخمسينات [من القرن ١٩] ببدء العمل في قناة السويس"[١٠٥].

⑨ الأجانب يبلعون الأراضي والعقارات بالربا والرهونات

فجأة.. امتدت شبكة من عناكب الربا على كامل النسيج المصري، كامل القرى، جحافل من عناكب اليهود واليونانيين والسوريين وغيرهم هبطت عليها كنزلة الجراد تمتص بكل خفة وهدوء المال والأبقار

---

[١٠٣] -مصر وكيف غُدر بها، ألبرت فارمان، مرجع سابق، ص ٣١٤- ٣١٥

[١٠٤] - نفس المرجع، ص ٣١٦

[١٠٥] - دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، أحمد رشدي صالح مترجما لكتاب "الاستعمار البريطاني في مصر" للبريطاني إلينور بيرتز، مرجع سابق، ص ٥-٧

والجواميس والبيوت والأراضي من عروق الفلاحين[١٠٦].. من أين وكيف أتى هؤلاء؟

التعامل المباشر مع بنوك روتشيلد وجوشن جرى على مستوى الدولة، ورغم أن حكومة الاحتلال العلوي لم تتأخر في نبش أظافرها في عروق المصريين لسداد الديون وفوايدها لهذه البنوك، إلا أن البنوك لم تشبع، فسلَّطت رسلها ونوابها ليجوبوا الأرياف ويبرموا عقودا فردية بين كل مرابي وفلاح لينزعوا منه أي قرش أو قيراط تبقى له.

كان منظرا مألوفا أن يُرى مأموري التحصيل مصحوبين بحملة الفلقة والكرابيج وفي ذيلهم المرابين، يهوي المأمور على جسد الفلاح بالكرابيج أو يربطه بالفلقة، وإذا فشل الكرباج مع الفلاح يقول له المأمور: "كل هذا الضرب ولا تقر بما عندك من نقود؟!" فيجيبه بالنفي، فيقول له: "اقترض، فيرد: من يقرضني؟ وهنا يظهر المرابي في المكان وقد درس حالة الفلاح وما عنده، فيقرضه دون سؤال، ويقبل الفلاح بأي فوائد، ويتضح في النهاية أن المرابي والمأمور متفقين على هذا، ويأخذ المأمور حصته، حتى وصلت ديون الفلاحين بحلول ١٨٨٢ حوالي ١٥ مليون جنيه[١٠٧].

ويصف محمد عبده ما رآه متألما: "المرابين من أعظم أعوان الظلم وأشد أنصاره؛ فإذ رأوا حاجة الأهالي إليهم تدللوا وتمنعوا لعلمهم أن الكرباج وراءهم فلا قدرة لهم على الصبر، ولا سبيل إلى التخلص من ألم العذاب ولو مؤقتا إلا بالرضا بكل ما يرسمون عليهم من الفائدة"، وأن "التجار وأرباب البنوك [المرابين] الغرماء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئاب بين الأغنام؛ فأثقلت كواهل الفلاحين بالديون الهائلة، واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ورهن عقاراتهم وأراضيهم أو الانسلاخ منها بالكلية، فأحاط بهم الفقر وأصبحوا في أسوأ حال"[١٠٨].

ومع صدور اللائحة السعيدية سنة ١٨٥٩ أقبل اليهود، مثل بقية الأجانب، على تملك الأرض والعقارات، فيقدموا القروض للمزارعين، وفي حالة عجزهم عن السداد يدخل المرابي يكوش على الأرض أو البيت، وفي ١٨٦٠ سمح للأجانب أن يقيموا محالج للقطن في المزارع التي يغتصبونها، وفي سنة ١٨٦٧ أصدرت الدولة العثمانية قانونا خاصا بتمليك الأجانب للعقارات في مصر أصبح بمثابة تأكيد على خطوات التمليك التي اتخذها سعيد، وفي ١٨٧١ أنشئت بورصة العقود بالإسكندرية، و١٨٧٢ أنشئت بورصة ميناء البصل بالإسكندرية أيضا[١٠٩].

وهكذا بدأ بالتدريج السيطرة الأوروبية واليهودية على أعمدة الاقتصاد، بل وأراضي وعقارات المصريين بشكل مباشر أو بالحيل والنهب أو بنقل الاختراعات المالية الاستنزافية التي نشرها اليهود في أوروبا ونقلوها لمصر كالبورصات والبنوك والرهونات والتأمين إلخ.

---

(١٠٦)- انظر: رسائل من مصر، جون نينيه، مرجع سابق، ص ٢٤٢

(١٠٧)- تطور الرأسمالية المصرية، مجموعة باحثين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١، ص ٤٨

(١٠٨)- المرجع السابق، ص ٤٨- ٤٩

(١٠٩)- انظر: هنري كورييل- الأسطورة والوجه الآخر، حسين كفافي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٢٤

ولخدمة تجارتهم أنشأ اليهود مطبعتين بالإسكندرية، واحتكروا على حس ذلك تجارة الورق، والمصريون في غفلة لا يدرون ما يجري خلف ظهورهم من مكايد ومؤامرات لحسن نيتهم، ومن ناحية أخرى لضحالة ثقافتهم؛ فهم حديثي عهد بمثل هذه الأمور، وأيضا لعزوفهم عن العمل في هذه المجالات، بتعبير الدكتور حسين كفافي في كتابه عن اليهودي هنري كورييل أشهر من نشر الشيوعية في مصر[١١٠].

وعلى رأي المثل المصري الفصيح "الغفلة تجيب الكفية".

وقسم المرابون الأجانب مصر قطعا بينهم (مناطق نفوذ)، كل مرابي له منطقة لا يتعدى زميله عليها؛ فانتشروا في مصر من أقصاها إلى أدناها...كما تنتشر خيوط العنكبوت[١١١]، وسيطروا على تجارة القطن لأرباحه السريعة والثرية، وكونه سلعة استراتيجية للجميع، فقد ظل هو البترول الأبيض لفترة من الزمان.

تابع جون نينيه باعتباره تاجرا للقطن ومتملكا لأراضي في عصر إسماعيل المرابين الصغار يتجولون بأكياس النقود كثعالب باحثة عن فرائسها في القرى: "إن وضع الفلاح المصري غير محتمل، فعما قريب لن يستطيع هذا الفلاح أن يقترب من محاصيله"، لأنه: "من ناحية هناك المديرون ومحصلو الأموال الذين يطالبونه مسبقا بالرسوم والضرايب، ومن ناحية أخرى هناك المرابون اليونانيون والسوريون، مسيحون ويهود، الذين يقرضونه المال الذي يحتاجه بشدة"، وذلك بفائدة تتراوح بين ٢,٥%- ١٠% شهريا، وقد يفاجئ الفلاح بضرايب جديدة يفرضها عليه الخديوي "إذن تنهال ضربات الكرباج، وتُفتح سجون المديرين، وتبكي النساء والأطفال"، فيعجز عن سداد القرض، وهنا "يجد المزارع المسكين نفسه وعائلته وقد ألقي بهم على الطريق"، ونائب الملك (الخديو) "لا يشغله الأمر فلديه مشاغله الخاصة وهي القبض والمطالبة والقبض دائما!"[١١٢]، والمرابون الأجانب، تقع في أيديهم الرهونات من أراضي وبيوت ومواشي، يزدادون غنى ويتمتعون بالحماية عندما يأخذون الرعوية من سفارة أجنبية.

⑩ السقوط في فخ الاستثمار الأجنبي وفلك الرأسمالية العالمية

تميزت العلاقات الاقتصادية بين مصر والخارج في تاريخها الحُر (أزمنة الحكم المصري القديم) بالاقتصار على التبادل التجاري، بضاعة قصاد بضاعة، والدولة هي المشرف الأول على العملية، لكن حين تسلل إليها الاستيطان الإغريقي واليهود ظهر فيها مشاريع أجنبية هي "الوكالات الأجنبية"، كالشركات متعددة الجنسيات الآن، لكن نشاطها ظل أيضا تبادل تجاري، وظلت العلاقات تبادل سلع بين الدول في عصور لاحقة.

---

(١١٠)- المرجع السابق، ص ٢٥
*** تنبه طلعت حرب في القرن ٢٠ لخطورة سيطرة الأجانب على صناعة الورق والثقافة، وكان من دوافعه لبناء اقتصاد خالص للمصريين هو الحد من احتكار الأجانب لهذه الصناعة، فأنشأ شركة الورق لتوفيره للمصريين لنشر كتبهم ومنشوراتهم الوطنية دون تحكم من الشركات الأجنبية فيها، إلى جانب إنشائه استوديو مصر وشركة السينما لنشر الثقافة المصرية بطرق أخرى.
(١١١)- انظر: المرجع السابق، ص ٢٣
***ومعظم من تسللوا لمصر في ثوب لاجئ وعامل وتاجر بعد ٢٠١١ يعملون بنفس الطريقة الاحتكارية، بداية بالعمل في أكثر وأسرع المجالات ربحا، وهي الصرافة وتجارة العملة والمطاعم وبيع أدوات الزينة والعطور، وصولا لعماد وأعصاب الاقتصاد كصناعة الغزل والنسيج والأدوية والصرافة والإعلام والفنون وتجارة التهريب إلخ.
(١١٢)- رسائل من مصر (١٨٧٩- ١٨٨٢)، جون نينيه، مرجع سابق، ص ١١١- ١١٢.

أما في الاحتلال العلوي فظهر في مصر ما يُسمى بـ"مشاريع التنمية" باستثمارات أجنبية أو بإشراف أجنبي، مثل قناة السويس وشركات الاستصلاح الزراعي والسكك الحديد نتيجة لظهور الرأسمالية العالمية في أوروبا التي اتخذت الاستثمار وسيلة للهيمنة والانتشار الاحتلالي في الخارج بديلا عن الاحتلال بالسلاح أو سابقة له.

في البداية كان الأمر خطره بسيط، لأن محمد علي كان "حويط" عن أولاده، جلب الخبراء الأجانب لعمل مشاريعه التنموية في الصناعة والزارعة والجيش والصحة وغيرها، لكن حرص أن يكون بأموال مصرية والملكية تخص الحكومة، ولا يتملك أجنبي أي مشروع، عدا خطيئته في تقديم تسهيلات لخاصته الأجانب في تملك أرض، أما أولاده بداية من سعيد فـ"اندلقوا" على الأجانب، وقبلوا أن يفتحوا لهم حدود البلاد بدون ضابط، وأن يتسلموا مشاريع كبرى باسم "استثمار أجنبي"، يتملكون فيها معظم الأسهم ويديرونها وحدهم، ويختارون المشاريع التي تخدم مصالح وتجارة الدول الأجنبية وجالياتها، سواء كانت مصر تحتاج هذه المشاريع فعلا أو لا تحتاجها، وبدأت بقناة السويس.

واتسع الفخ لما قرر إسماعيل إحياء مشاريع جده محمد علي، وكان لبعضها تأثيره الطيب في المستقبل، إلا أن اعتماده على عملها عن طريق القروض الضخمة، واستجلاب طوفان الأجانب ليتولوا أمرها تماما وليس فقط كخبراء مؤقتين، وإصراره على تنفيذ أكبر كم من المشروعات في وقت قصير مها تكلفت من ديون، وكسره لظهر الفلاحين بكل وحشية، كل هذا تسبب في أن نفس المشاريع من شركات ومرافق وعمارات وقصور، إضافة لقناة السويس، سقطوا كالثمرة الناضجة في حجر احتلال أجنبي جديد، هو الإنجليز وجالياتهم الذين تراصوا فوق ظهر مصر إلى جوار الاحتلالين العثمانلي والعلوي.

فأيام إسماعيل تم بناء وتوسيع ١٥ ميناء على البحرين الأحمر والمتوسط، بإيعاز أوروبي لأهمية هذه المواني في تسيير وتسريع نقل تجارة ومصالح أوروبا، إضافة إلى أنها توفر فرصا لزيادة القروض المصرية، ولزيادة فرص العمل للأجانب، وفرص شراء منتجات المصانع الأجنبية اللازمة للمواني.

وفعلا، أسند العمل في ميناء السويس لإشراف فرنسي، وميناء الإسكندرية لإشراف إنجليزي بمبلغ ٢ مليون ونصف مليون جنيه، واعترف السير رفرز ولسون، أحد المسئولين الإنجليز في الحكومة المصرية في عهد إسماعيل، بأن هذا الاتفاق مجحف بمصر، وأن الميناء لم ينفق عليه أكثر من مليون ونصف؛ فخُدع إسماعيل في هذا العقد كما خُدع قبله سعيد باشا في عقد قناة السويس، وهذا في الحقيقة مَثل من كثير من أنواع الاتفاقات التي كان يُخدع فيها إسماعيل ويضيع من جرائها الأموال الطائلة[١١٣].

هذا بخلاف أن الأعمال الشاقة من البناء والنقل في هذه المواني كان يقع على عاتق الفلاحين، ومعروف أنه كان لا يصلهم من الأموال المنفقة عليها إلا الفتات، بالرغم من أنها تُقام بقروض تُسدد من عرقهم ودمائهم، ويأخذ الموظفون الأجانب مرتبات خيالية.

---

[١١٣]- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ٢٣٩

وعن هذا قال جنكس في كتابه "ارتحال رأس المال البريطاني: "الآن امتلأت البلاد بالمهندسين البريطانيين يفيضون بمشروعات لمد رحاب الرقي والمدنية، وفي الإسكندرية كانت إحدى شركات المقاولين الإنجليز تقوم بأعمال البناء في الميناء لقاء مبلغ (٢ مليون ونصف المليون جنيه) في حين أن هذه الأعمال تكلفها حوالي ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيها (مليون و٤٠٠ ألف جنيه)[١١٤]".

وفوق الدفع المباشر للمشاريع الاستثمارية الأجنبية كانت مصر تأخذ نصف ما تطلبه من الديون، في حين أنها عند السداد تسددها كاملة إضافة للفوايد، وهو ظلم ما بعده ظلم، وفي ذلك قال البريطاني إلينور بيرتز في كتابه "الاستعمار البريطاني في مصر"، صدر ضمن أبحاث حزب العمال البريطاني عن مصر ١٩٢٧- ١٩٢٨: "كانت مصر في الواقع مدينة مرة أخرى بنصف ما اقترضته بالفعل، فإذا أدخلنا في اعتبارنا أن معظم المال المستدان كان يدفع للمقاولين البريطانيين، وهم الذين حصلوا على أرباح طائلة، فإنه يكون من المشكوك فيه كل الشك أن يمثل ما أنفق على الصناعة المصرية والنقل ثلث الدين".

وأضاف أنه "ليس عجيبا إذن أن تنزلق مالية مصر في فترة وجيزة إلى إفلاس لا أمل معه، وأن يصبح من الممكن أن تدفع فوائد الدين وأن تؤدي أقساطه بطريق واحد هو عقد قروض جديدة، ولم يكن مثار للدهشة بعد أن فحص تفاصيل الديون أن تنتوي الحكومة البريطانية أمرا أخطر من التدخل[١١٥]".

وبقلب وبلسان فلاح فصيح عبَّر عبد الله النديم عن رأي الفلاحين في هذا الحال ساخرا[١١٦]:

أهل البنوكا والأطيان   صاروا على الأعيان أعيان

وابن البلد ماشي عريان   ما معاه ولا حق الدخان

شرم برم حالي غلبان

فلم يكن غريبا أمام هذا المشهد أن تنتظر مصر احتلالا جديدا... فوق الاحتلالات الثلاثة.

وإضافة إلى جزية القروض والفوايد، نبَّه بيرتز لتأثير آخر مدمر لطوفان الاستثمار الأجنبي قائلا إن السيد الجليل "ما لبث أن تدفق بعد الاحتلال في شكل استثمار خاص، وليس من شك في أن تصدير رأس المال والمنتجات الجاهزة من البلاد الصناعية إلى مصر هو الظاهرة الجوهرية للاستعمار الأجنبي، ولا شك أيضا أن تصدير السلع الفائضة من هذه البلاد إلى مصر لم يربطها إلى البلاد المنتجة كما ربطها تصدير رأس المال الفائض إليها".

فيوضح أن الرأسماليين البريطانيين يقترحون المشروعات على الخديوي، ويعقدون معه الصفقات لينفذوها، ثم يقرضونه المال الذي يدفعه للمقاولين، أي لهم هم أنفسهم، ولنا أن نتصور أن المثل الذي أورده

---

(١١٤)- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، أحمد رشدي صالح، الفصل الخاص بترجمة كتاب الاستعمار البريطاني في مصر للبريطاني إلينور بيرتز، الصادر عام ١٩٢٧ ببريطانيا، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة، ص ٧

(١١٥)- المرجع السابق، ص ٧-٨

(١١٦)- عبد الله النديم، صحية التنكيت والتبكيت، العدد ٩، بتاريخ ٧- ٦- ١٨٨١

جنكس لم يكن استثنائيا، فلابد أن هذه الصفقات كانت تصفي أرباحا طائلة، ولابد أن الممولين كانوا يطالبون بعمولة باهظة[١١٧].

ويذكرنا هذا بما حذَّر منه عباس العقاد في كتابه "سعد زغلول سيرة وتحية" عن عادة الأجانب في عصر واستنزاف الإنسان المصري، فيقول: "وجاءه المرتزقة من أبناء الأمم المتشغلة بالتجارة وترويج السلع الغريبة؛ فأحوجوه مرة أخرى إلى الحيطة واليقظة واجتناب الغفلة، لأنهم كانوا جميعا قناص كسب، لا يتورعون عن خطفه واختلاسه بكل وسيلة ميسورة، ولا يزالون محميين مرعيين [بالامتيازات الأجنبية والحماية من الحكام الأجانب]، وهو بينهم فريسة مباحة الذمار، لا تأوى إلى حماية ولا تعدل على رعاية".

وضرب مثلا بأنه زار مصر إنجليزي هو روبرب كرزون صاحب كتاب "الأديرة والمعابد" (في القرن ١٩)، فوصف أخلاق بعض الباعة المخادعين الذين ابتليت بهم مصر، ذاكرا منهم الأتراك والأرمن والفرنجة واليهود والإغريق (اليونانيين)، فقال إنهم "على الجملة أنذال يتفاخرون بالختل والاختيال، وإن هناك بيانا صحيحا لنصيب كل طائفة من القدرة على الغش والسرقة يدل عليه هذا التقدير"، وذكرنا العقاد بأن "هؤلاء كلهم كانوا في العصور الوسطى وما بعدها مسلطين على المصري الأعزل، يزيفون له البضائع الغريبة، ويخدعونه عن قيمتها وعن درجتها وعن ثمنها وعن حاجته إليها"[١١٨].

والمخدوع يدفع الثمن.. والثمن في مصر- كالعادة- غاليا، بل وهذه المرة سريعا، خاصة أن المخدوع هذه المرة هم حكام قساة ألقوا بمصر كلِها في فم الغول، فكان العقاب التاريخي، وهو احتلال جديد.

ويقال إن من أسباب استيطان الهكسوس القدماء في مصر أن التجار يأتون من الشام محملين ببضايع وسلع غريبة على المصريين، منها أدوات للزينة وغيرها، وكان المصريون وقتها أيام الدولة الوسطى في حالة مادية مزدهرة، فأغراهم حب تجربة الغريب والعجيب من البضايع رغم عدم حاجتهم إليها، ورغم أن لديهم الأفضل منها.

وفي حديث لتاجر سوري مع برنامج "صاحبة السعادة" على فضائية "سي بي سي" ٣٠- ٤-٢٠١٨، قال إن من أسباب انتشار مطاعم الأكل السوري في مصر هو حب المصريين لتجربة كل جديد، وتقييمه صحيح، فنظرة إلى شوارع مصر- بما فيها القرى الآن- لمتابعة كمية المطاعم المخصصة للأكلات الأجنبية، والملابس الأجنبية (بما فيها الهندية والإيرانية)، وغيرها من بضايع لسنا بحاجة لها، وتنتشر رغم كثرة الديون على مصر، والشكوى الدائمة من الأسعار، والمخاطر التي تواجه البلاد حال كثرة غسيل الأموال الممكن أن تتستر تحت الاستثمار الأجنبي والبضايع المغرية باسم مطاعم ومحلات وشركات، تعطي مؤشرا لما يمكن أن ينتج عن هذا في المستقبل.

⓫ توزيع أرض مصر على المحتلين والمستوطنين

[١١٧]- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، أحمد رشدي صالح مترجما لكتاب "الاستعمار البريطاني في مصر" للبريطاني إلينور بيرتز، ص ٥-٧
[١١٨]- سعد زغلول، سيرة وتحية، عباس محمود العقاد، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١٧، ص ٣١- ٣٢

اعتبر الاحتلال العثمانلي أن الأرض كلها ملك للسلطان "بحق الفتح"، يوزعها كيفما شاء كالتزامات أو أوقاف، ومنع تملكها لأشخاص، وحين ألغى محمد علي الالتزام وقتل أو طرد معظم المسيطرين الكبار على الأرض، ونزع الحيازات من الباقين (المماليك والمشايخ وكبار التجار)، وزعها على عيلته وخاصته وموظفيه، ولكن لم يسمح بالملكية الخاصة في معظم عصره إلا له ولعائلته وبعض المنعم عليهم.

وسُميت الأراضي التي تملكتها الأسرة الحاكمة بـ"الجفالك" و"الشفالك"، وفيوقت لاحق بـ"الدائرة السنية" و"الدائرة الخاصة"، وأعفاها من الضرايب، وهي مساحات شاسعة لأخصب الأراضي اختارها بنفسه، وصل مجموعها سنة ١٨٤٨ إلى ٣٣٤ ألف فدان، وضم إليها قرى بأكملها، وزاد عباس من مساحتها باستصلاح أراضي جديدة على يد الفلاحين بنظام السخرة، فيما مارس إسماعيل نشاطا محموما في ضم الأراضي لنفسه وأسرته حتى وصلت سنة ١٨٧٨ لأكثر من ٩١٠ ألف فدان، أي حوالي مليون فدان، بما يساوي خمس الأرض المصرية المزروعة، وأخصبها[١١٩]، بخلاف ما هو معطى لبقية عيلة محمد علي، فكان بحق "قارون العصر".

وأبقى محمد علي على الأبعديات في يد المنعم عليهم وورثها لذويهم ثم وهب لهم تمليكها، وبقية الأراضي يزرعها الناس بنظام حق الانتفاع، أما الوسيات التي كانت في يد الملتزمين- ومعظمهم أجانب من شوام وترك وعربان وأرناؤوط إلخ- فأبقاها بأيديهم بنظام الانتفاع أيضا، ثم سمح إسماعيل بتمليكها لهم ولذريتهم مقابل دفع ضرايب ٦ سنوات مقدما فيما يُعرف بنظام المقابلة[١٢٠]، وأضافوا عليها أراض أخرى، ومن صلب كل هذا الأصناف خرج ما عرفناهم في القرن ٢٠ باسم "الإقطاعيين"، وأخضعت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ما بيدهم من أرض لقانون "الإصلاح الزراعي" باعتبارها أراضي أُخذت من الشعب بطرق ظالمة، وفي وقت احتلال، ورغم هذا أعطتهم الثورة مقابلا ماديا لما أخذته منهم من أراضي، وتركت لهم مساحات واسعة !

وكان سعيد تخلى قبله عن احتكار ملكية الأرض، وفتح باب الملكية الفردية للناس، وهو ما سيكون له عواقب طيبة وسيئة في نفس الوقت؛ لأنه أباحها للمصريين ولغير المصريين، ففي ١٨٥٨ أصدر قانون الأراضي الشهير باسم "اللائحة السعيدية" سمح فيه للشخص بتملك الأرض التي يزرعها، فانتعشت أحوال البعض، وخلقت منهم أغنياء خاصة العمد[١٢١].

ولكنه في نفس الوقت سمح بتمليك الأجانب، ولذا فمن غير المستبعد أن يكون القانون صدر بإيعاز من الأجانب المحيطين به، فبهذا القانون أصبح الأوروبيون وغيرهم لأول مرة أصحاب وسيات وإقطاعيات، وهذا من أبشع قراراته بعد قراري فتح باب الديون وحفر قناة السويس لصالح الأجانب.

ومعرفة كيف جرى توزيع أراضي مصر في ذلك العصر تعطي صورة عن جذور الثراء الفاحش الذي

---

[١١٩]- ملكية الأراضي الزراعية في مصر خلال القرن التاسع عشر، حمدي الوكيل، مرجع سابق، ص ١٩٦- ٢٠٠
[١٢٠]- انظر المرجع السابق، ص ١٨١- ١٨٢
[١٢١]- انظر: مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ٢٠٧

تميزت به بعض العائلات فيما، فمن اغتنى في ذلك العهد هم أغنياء العهد التالي.

وبموجب هذا التوزيع وأساليبه تركزت ثروة الأطيان والثروة العقارية في يد: أسرة محمد علي، كبار الموظفين من عدة جنسيات، الأوروبيون، شيوخ البدو، ندرة من المصريين، وفق ما سجلته سجلات الروزنامة ووثائق الملكية الزراعية وتراجم الأعيان في ذلك الوقت، ونقلتها المراجع المذكورة في الهوامش.

♦♦♦ **(عائلة محمد علي)**

تابعنا كيف وزع محمد علي أخصب أراضي مصر على نفسه وأسرته- كقطع الجاتوه- وتابع أبناؤه نفس النظام، فحين تولى عباس أغدق الهبات من الأراضي على الأسرة الحاكمة، فمنح لكل زوجة من زوجات محمد علي وإبراهيم ٥ آلاف فدان فوق ما لهن من أملاك، ومنح أبناء وبنات أحمد باشا يكن (جد عدلي يكن رئيس الوزراء فيما بعد) وإبراهيم يكن- وهم من أقارب الأسرة الحاكمة- ١١,٥٠٠ فدان بواقع ألف فدان لكل ولد و ٥٠٠ فدان لكل بنت[١٢٢].

واستولى سعيد على مساحات من الأراضي البور لاستصلاحها، وضم لأبعادياته من البحيرة ٦ آلاف فدان من الأطيان الخراجية التي تركها الفلاحون تخلصا مما عليهم من أعباء مالية، وصاروا هم بلا أرض، كما استولى على أراضي بعض الأفراد بحجة تداخلها في أراضيه وأعطى لهم بدلا منها أراضي أخرى من البور الخارجة عن الزمام، وبلغت أطيان دائرته عند وفاته ٣١,١١٧ فدان، وابنه وزوجاته يمتلكون ١٩,١٧٠ فدان من أجواد الأراضي الزراعية بالدلتا[١٢٣].

وكثيرا ما كان الفلاحون يجبرون أيام سعيد على التنازل عن أراضيهم لأفراد الأسرة الحاكمة الراغبين في ضمها لمزارعهم، سوا عوضوا أصحابها بأراضي أقل خصوبة أو لم يعوضوهم، والجلد جزاء من يرفض التنازل عن أرضه، فتحكي وثائق "معية تركي محفظة ٦٧ وثيقة ٢٢٢" أنه في سنة ١٨٦١ طلب سعيد من فلاحين يملكون ٣٠٠ فدان مجاورة لأبعادية عبد الحليم ابن محمد علي بالمطاعنة في قنا أن يشتريها ليلحقها بأبعاديته، فرفضوا، فأمر بجلدهم، ووافق أصحاب ٨٩ فدان من الفلاحين بيع أطيانهم ورفض البقية- رغم الجلد- البيع للباشا، مما دفع مدير قنا لرفع أمرهم إلى سعيد ليأمر بما يُتبع بشأنهم[١٢٤].

أما إسماعيل فلم يكتفِ بإجبار الفلاحين على بيع الأراضي "اللي بتطلع عليها عينه"، ولكن أجبر أيضا أفراد عيلته، فأرغم عمه عبد الحليم باشا وأخاه مصطفى فاضل باشا على أن يبيعاه دائرتيهما اللتين بلغت مساحتهما ٧٥ ألف فدان، واستولى على مساحات واسعة من الأراضي المتروكة- أي تركها الفلاحون لعجزهم عن تكاليفها- والأراضي المستبعدة، بعضها يُزرع لحسابه وبعضها أجرَّها لفلاحين، وأنعم على

---

(١٢٢)- كبار الملاك والفلاحين في مصر من ١٨٣٧- ١٩٥٢، رؤوف عباس وعاصم الدسوقي، نسخة إلكترونية على موقع المؤرخ د.رؤوف عباس، ص ٧٠- ٧١

(١٢٣)- نفس المرجع

(١٢٤)- المرجع السابق، ص ٧١

أولاده وبناته زوجاته وجواريه بمساحات واسعة من الأطيان، واشترى أراضي سدد أثمانها من خزانة الدولة، وسخر الفلاحين لحفر ترعة الإبراهيمية لري مزارع القصب التي تملكها في أسيوط والمنيا، حتى بلغت الأراضي المملوكة له ولأسرته نحو مليون فدان، بخلاف ما يملكه بقية أسرة محمد علي[١٢٥].

ولم يحد هذه الملكيات الخارجة عن العقل إلا إجباره على يد صندوق الدين التنازل عنها لصالح سداد الديون، وجرى بيعها بالتقسيط لنفس العائلات الثرية فزادت ثراء، واشترى أيضا أجانب جدد فزادوا في البلد تملكا، ثم عاد استحواذ الأسرة العلوية على الأراضي ليظهر "قارون" جديد هو فؤاد الأول.

♦♦♦ (كبار الموظفين)

هم الرقم الثاني في كبار المتملكين بعد أن أنعمت عليهم أسرة محمد علي بهبات واسعة من الأراضي ليخلصوا لها، ومعظمهم ينتمي للمجموعة التركية التي عرَّفها ملنر في كتابه "إنجلترا في مصر" بأنها تضم أخلاطا من أتراك آسيا الصغرى والمغرب وتونس والشراكسة والأكراد والشوام والأرمن، وتلتزم بأساليب الحياة التركية واللغة التركية، وانضم لهؤلاء الموظفين عدد محدود من المصريين الذين هيأت لهم إجادتهم للتركية فرصة ولوج الوظائف الكبرى، وزوجهم الحكام بتركيات وشركسيات من جواريهم المعتقات ليألفوا الحياة التركية[١٢٦].

وبداية وهب محمد علي ما بين ١٠٠- ٣٠٠٠ آلاف فدان للموظف مثلما أنعم على مصطفى باشا محافظ كريت ب ٣ آلاف فدان، وبعض ضباط الجيش الأتراك بما بين ٢٠٠- ٥٠٠ فدان، وهو ما واصله عباس الموالي للأتراك؛ فوزع مثلا ٨٥٠ فدانا لإبراهيم أدهم و٣٥٠ لخورشيد باشا، وهكذا، وأسرف إسماعيل في منح الأراضي لكبار الموظفين ما بين ١٠٠- ١٠٠٠ فدان.

وتضخمت ثروات كبار الموظفين الذين عاصروا عدة حكام بشكل خرافي، فمثلا شريف باشا الذي تولى وظائف منذ أيام محمد علي تجمع في يديه من الإنعامات المتتالية حتى عهد إسماعيل ٢٠,١٦٤ فدان سنة ١٨٧٠، وملك حسن المانسترلي ٢٦٠٤ فدان، وهكذا[١٢٧]، ويسمونها هبات وهي أموال حرام منزوعة من الفلاحين، وانطبق على أسرة محمد علي القول الذي اشتهر عن آرثر بلفور صاحب وعد بلفور الشهير للمستوطنين اليهود بتملك فلسطين "أعطى ما لا يملك لمن لا يستحق".

وتوقف منح الهبات مع اشتداد الأزمة المالية ثم قدوم الاحتلال الإنجليزي، وحل محلها كوسيلة لتضخم الثروات شراء الأراضي الميري بأبخس الأثمان استغلالا لنفوذهم داخل الحكومة، حتى اشترى إسماعيل باشا راغب مثلا لوحده، وهو مفتش الحسابات بالأقاليم، ٣٤٢٥ فدانا من أطيان الميري بالغربية[١٢٨].

وبنظام "البيع والشراء" ترسخت ملكية الأراضي في أيدي المستوطنين الأجانب؛ بمعنى أنهم صاروا

---

[١٢٥]- نفس المرجع ص ٧١- ٧٣

[١٢٦]- كبار الملاك والفلاحين في مصر من ١٨٣٧- ١٩٥٢، مرجع سابق، ص ٧٦

[١٢٧]- نفس المرجع، ص ٩٠

[١٢٨]- نفس المرجع، ص ٧٩

يتوارثونها ويتصرفون فيها كيفما شاءوا، ولا يحق للحاكم نزعها منهم مثل الهبات، فتكون في مصر طبقات حديدية من كبار متملكي الأراضي والأغنياء الذين لا يتغيرون ولا يتزحزحون، حتى بالثوارات وبتغير الحكام، واستغلوا هذا في أنهم قفزوا على المناصب البرلمانية والحكومية وصاروا أيضا يتوارثونها كعائلات وأصهار حتى ثورة ١٩٥٢- خاصة بعد حصولهم على الجنسية المصرية بقانون سيء السمعة- بل وبعضهم ما زال يتوارث الأملاك والمناصب حتى اليوم.

♦♦♦ (شيوخ البدو)

النوع الرابع لمن صاروا من كبار متملكي الأراضي هم شيوخ البدو، كانوا حتى ذلك الوقت ينظرون للمصريين بتكبر وقسوة لأن عادتهم في ضم الأراضي وتحصيل المال كانت بالسلاح لإرهاب الفلاحين وفرض إتاوت عليهم، أو بالصراع مع المماليك حتى الحصول على التزام مساحات شاسعة من الأراضي، وفي عهد محمد علي اعتمد سياسة توطين البدو في الوجه البحري والقبلي ليكفوا عن السلب والنهب حتى تقلد بعضهم أرفع المناصب في المديريات المستوطنين بها.

ومن مشايخ البدو المستفيدين من التمليك وقتها آل مناع من قبيلة أولاد يحيي في قنا التي وصل ابنها عمر لمنصب مدير جرجا ثم أسيوط في عصر إسماعيل، وسموا بلدة باسمهم، وأبو كريشة الذين استوطنوا نجوع في جرجا وسموا قرية باسمهم واستولوا على مساحة ١٦ ألف فدان، وعيلة أبو دومة في جرجا الذي عينه محمد علي في وظيفة ناظر قسم وأصبح ابنه عبد الرحمن من أعضاء مجلس شورى النواب، واشتهرت العائلة بالثراء الواسع والسطوة على الفلاحين، وعائلة آل أباظة بالشرقية، ويقول عنهم علي مبارك إنهم من عشائر قبيلة العائد التي نزلت مصر في القرن ١٤ م واستوطنت الشرقية واستولت على أراضي بعض القرى وسخروا الفلاحين في زراعتها، وبقوا على بداوتهم فترة طويلة حتى تولى محمد علي وخيرهم بين أن يُعاملوا معاملة الفلاحين فيكون لهم ما لهؤلاء من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات وبين أن يعاملوا معاملة البدو فينزع ما تحت أيدهم من أطيان استولوا عليها بدون وجه حق، فقبلوا أن يعاملوا معاملة الفلاحين حتى اعتادوا الاستقرار والخضوع للسلطة، وجمعوا في يدهم آلاف الأفدنة، ثم تولوا مناصب في الحكومة.

وعائلة آل الشواربي من قبيلة في الحجاز نزحت لمصر في القرن ١٣ م وأنعم عليهم الظاهر بيبرس بأطيان في قرية البرادعة، وترقت في الوظائف زمن محمد علي وخلفائه في قليوب ومع نهاية القرن ١٩ كانت تمتلك ٥٨% من زمام قليوب وجميع حوانيت البلدة ووكالاتها وبساتين الفاكهة ومضخات الري[١٢٩].

وزرع الاحتلال العلوي نوعا آخر من القبايل التي تتخذ من الغارات على القرى وسيلة للتكسب، فأعطاهم أبعاديات معفاة من الضرايب دون تقاسيط تثبت حيازتهم لها، على أن يعفيهم من السخرة والخدمة العسكرية- هذا فيما يستمر فرض الضرايب والسخرة على الفلاحين وكأنه يكافئ المجرم ويعاقب صاحب الأرض- ورغم هذه العطايا ظلوا يستبدون بالفلاحين ويسطون على أراضيهم ومحاصيلهم ببلطجة السلاح

(١٢٩)- كبار الملاك والفلاحين في مصر من ١٨٣٧- ١٩٥٢، مرجع سابق، ص ٨٥- ٨٧

والإرهاب، خاصة أنهم أخذوا مناصب شيوخ القرى والعمد، وعاندوا أحيانا الحكومة، فجرد سعيد باشا الحملات العسكرية عليهم وصادر ما تحت أيديهم وطاردهم في الصحرا الغربية، ولم يبقي إلا على من قبل الدخول في طاعة الحكومة وفلاحة الأرض بنفسه، ومنهم آل الطحاوي من قبيلة الهنادي، وصار بعض الشيوخ أصحاب آلاف الأفدنة[١٣٠].

♦♦♦ (الأوروبيون وأتباعهم)

في البداية كان لليونانيين نصيب الأسد في تملك الأراضي، واحتموا بالقضاء القنصلي الذي يحميهم من نزع الدولة للأرض التي يتملكونها، وكونوا شركات لاستصلاح الأراضي، وتملكوا أبعاديات، وزادت الأراضي التي يتملكونها بشدة بسبب نظام الرهونات الأجنبي الذي تسبب في خسارة الكثير من الفلاحين لأراضيهم وأيلولتها إلى الأجنبي صاحب الرهن[١٣١].

ومع تزايد تدفق الأوروبيين على مصر وتبعياتهم من شوام ويهود ومغاربة أصبح الأوروبيون رقما ظاهرا في خريطة الأثرياء بمصر؛ وبدأوا رحلة الثراء السريع بالأبعاديات التي منحها محمد علي لكبار الموظفين الأجانب العاملين في مشاريعه، وتملكوا هذه الأراضي في فبراير ١٨٤٢ بشكل غير رسمي، وحصلوا على عدد من القرى بحق الانتفاع، والدفعة الكبيرة لهم في ابتلاع أراضي وعقارات مصر كانت على يد سعيد لما سمح لهم بأخذ مساحات واسعة من أطيان "المتروك" الخاصة بالفلاحين، ولجأوا لوسيلة لئيمة لوضع اليد على مزيد من الأرض وهي إقراض الفلاحين المال ثم الاستيلاء على أراضي من يعجزون عن السداد من ديون وفوائد، وما كان أكثر هؤلاء[١٣٢].

وساعدهم في اكتناز الأراضي والعقارات أنهم أسسوا مكتبا لتسجيل العقود الناقلة لملكية الأطيان والعقارات وعقود الرهونات يتبع القنصليات الأجنبية لا القوانين المصرية؛ فبات أي خلاف لهم مع الأهالي ينتهي في الغالب لصالح الأجانب حتى تأسست المحاكم المختلطة، وتحت حماية الامتيازات الأجنبية تهرب كثير منهم من دفع الضرايب[١٣٣].

بل يتحايل بعض الأجانب على فلاحين ميسورين لأخذ أموال منهم تحت أي اسم، ويتحايلون كي لا يردوه، ففي سنة ١٨٨٠ رفع ٣ فلاحين دعوة في المحاكم المختلطة على مسر كوتريللي مهندس الري بأنه لهم دين عليه، فحكمت المحكمة لصالحه وعلى الفلاحين بدفع تعويض، وبعدها قابلوه وهددوه إن لم يرد إليهم الدين سيقتلونه، فنصحه القنصل بترك مصر[١٣٤].

وعلى هذا، بلغت مساحة ما يملكه الأجانب (الأوروبيون) من الأطيان الزراعية في مصر ٢٢٥,١٨١ أي نحو ربع مليون فدان حتى عام ١٨٨٧، أي في فترة قصيرة جدا، وزادت للضعف خلال ١٠ سنوات حتى

---

[١٣٠]- انظر: نفس المرجع، ص ٨٧- ٨٨
[١٣١]- ملكية الأراضي الزراعية خلال القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ٣٢١- ٣٢٩
[١٣٢]- كبار الملاك والفلاحين في مصر من ١٨٣٧- ١٩٥٢، مرجع سابق، ص ٩٣- ٩٤
[١٣٣]- نفس المرجع ص ٩٥
[١٣٤]- الجالية البريطانية في مصر (١٨٠٥- ١٨٨٢)، ناهد السيد علي زيان، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ص ٣٣٢

بلغت ٥٧٣,٨١٩ سنة ١٨٩٦ ثم ٦٢٢,٥٢٢ في ١٩٠٦، أي نحو ١١% من أراضي مصر الزراعية وخاصة في وجه بحري وما حول القناة بسبب تراكم أراضي المصريين في أيدي الدائنين الأجانب، ومن أمثلة أصحاب الملكيات الكبيرة جانكليس وبيراركوس اليونانيين اللذين تملكا ٧ آلاف فدان في البحيرة، وأرمانت السندريني الإيطالي تملك أكثر من ٢٤٠٠ فدان، والحكيمباشي يوركر بك الذي أنعم عليه إسماعيل بـ ٥٠٠ فدان من أطيان الأبعادية وباولينو بك كبير الصيادلة الذي حصل على ١٤٨٥ فدان بالبحيرة، ودرانت باشا مدير الأوبرا الخديوية الذي بلغ ما تحت يده من أراضي ١٢ ألف فدان مطلع القرن ٢٠ بعضها إنعامات من إسماعيل[١٣٥].

والجانب الأكبر من ملكية الأجانب نتجت عن فتح الباب أمامهم للاستثمار في استصلاح الأراضي؛ فأسسوا شركات أراضي مثل شركة الكوم الأخضر الزراعية الفرنسية وشركة ري البحيرة الإنجليزية التي اشترت مساحات شاسعة من الأراضي البور بثمن بخس، أو حصلت عليها كمنحة من الخديوي، وبعد استصلاحها تبيعها للغير بثمن غالي وتزرع بعضها الآخر[١٣٦].

وشارك بعض الشوام واليهود والأتراك الأوروبيين في هذه الغنيمة عبر حصولهم على جنسيات أوروبية ليستفيدوا من الامتيازات الأجنبية التي تحمي ثرواتهم من المصادرة وتساعدهم على التهرب من الضرايب، وتزود صفقاتهم؛ فظهرت مساحات ملكياتهم ضمن ملكيات الأجانب، ومنهم سليم بك شديد الذي تملك ٣٣ ألف فدان بعد حصوله على الجنسية البرتغالية، ورزق الله بك شديد الذي تملك ١٦ ألف فدان بعد أن انتمى لألمانيا، وسكاكين باشا وحبيب لطف الله الذين تملكا آلاف الأفدنة بجنسيتهما الفرنسية، والتركي علي باشا شريف الذي تملك ١٣ ألفا من أجود الأراضي الزراعية محتميا بالجنسية الإيطالية، بل وصار رئيسا لمجلس شورى القوانين[١٣٧].

وإذا كانت ملكيات المصريين تقسم إلى صغيرة وكبيرة فإن ملكيات الأجانب كانت كبيرة دائما[١٣٨]، بسبب الإنعامات أو ما في أيديهم من رؤوس أموال وامتيازات أجنبية ودعم قنصلي يتيح لهم ضم أراضي كثيرة، بخلاف التخصص في الربا وإقراض الفلاحين، ثم نزع أراضيهم.

♦♦♦ (المصريون)

وهم الأقل عددا بين الملاك، وقبل محمد علي كان من يصل إلى درجة الغنى الواسع من المصريين غالبا من المصريين المسيحيين المتوارثين أعمال الدواوين، واستمروا في الاحتلال العلوي هم الأكثر قدرة من بين المصريين على الوصول للثراء أيضا؛ فأخذ حصة مما تسمى بـ"الإنعامات" سلالة من عائلات "قبط الدواوين" مثل باسيليوس بن المعلم غالي رئيس الروزنامجة (أي الدواوين) الذي وصل ليده من "إنعامات" محمد علي ٢٠٠٠ فدان، ودوس طوبيا والمعلم رزق الذي ظلت أطيان كفور رزق بالدقهلية ملكا لأولاده

---

(١٣٥)- كبار الملاك والفلاحين في مصر من ١٨٣٧- ١٩٥٢، مرجع سابق، ص ٩٦
(١٣٦)- المرجع السابق
(١٣٧)- نفس المرجع، ص ٩٨
(١٣٨)- المرجع السابق، ص ٩٩

وأحفاده حتى القرن ٢٠[١٣٩].

الامتيازات الأجنبية وسيلة أخرى من وسائل ثراء بعض المصريين الذين اختاروا أن يدخلوا في عباءة سفارات أجنبية ليُعاملوا معاملة مختلفة عن بقية المصريين بمباركة من الدول الأجنبية مقابل أن يرعوا مصالحها داخل مصر، فأسندت لهم القنصليات وسيلة هامة من وسائل الثراء السريع وهي توكيلات البيوت التجارية الأجنبية أو تولي منصب القنصل، فمثلا واصف جريس من عائلة جريس الثرية بالوجه البحري تولى منصب قنصل البرتغال بالمنصورة، وأندراوس بشارة عمل قنصلا لإيطاليا وبلجيكا بالأقصر وتولى تجارة بضايع الشرق الأقصى، واشترى جراء ذلك ألف فدان دفعة واحدة، وزادت أملاكه إلى ٦ آلاف فدان في ١٠ سنوات فقط، وعائلة ويصا بقطر بأسيوط التي اشتغلت بالتجارة وعمل قنصلا لأمريكا وهولندا بأسيوط حتى وصلت الأراضي في يده إلى ٢٨ ألف فدان بخلاف مصنع للسكر وأملاك أخرى، وعائلة ميخائيل بأسيوط التي عملت بالتجارة ومنصب قنصل روسيا بأسيوط حتى أصبح من كبار الملاك، وأنشأ مصرفا بأسيوط لإقراض الفلاحين وهو بنك البكوات بشرى وسينوت حنا، واحتمى هؤلاء وفق تبعياتهم الأجنبية بالمحاكم المختلطة لتبعد ثرواتهم عن مصادرة الحكام لها[١٤٠].

وأتاح اضطرار محمد علي وبعض أبنائه للاستعانة بمصريين في البعثات الدراسية فرصة للوصول إلى مناصب أخذوا على حسها "إنعامات"، ومنهم علي باشا مبارك الذي أعطاه عباس الأول ٣٠٠ فدان من أراضي الدقهلية، ورفاعة الطهطاوي الذي أعطاه محمد علي أبعادية مساحتها ١٥٠ فدانا من أراضي أسيوط وسعيد أعطاه ٦٢٥ من أطيان جرجا وَأسيوط، وأضاف عليهم ٧٧١ اشتراها من أراضي الميري في عهد إسماعيل[١٤١]، وهذه النوعية التي تصل لمكانة رفيعة بجهدها وعلمها كانت الأراضي المعطاه لهم أقل في مقدارها من الأتراك والشركس والعربان وغيرهم من رعايا العثمانلية، وفرصتهم في الثراء ظلت أقل.

وحصل على الأطيان أيضا العمد بطرق يبيحها قانون الاحتلال وقتها وأخرى لا يبيحها، منها السيطرة على أراضي المتوفين بدون أن يتركوا وريثا، والاستيلاء على أراضي الفلاحين التي يهجرونها لعدم قدرتهم على سداد الضرايب والمستحقات أو من شدة قسوة العمد في معاملتهم وفرض السخرة عليهم وغيرها من أشكال الظلم، وتسمت بـ"أراضي المتروك"، أو ما أخذوه كـ"إنعامات" من الحكام، أو بشراء أراضي الميري والأطيان العشورية بتسهيلات يعجز عن الحصول عليها معظم الفلاحين، وتوريد بضائع كالزيوت والقطن للحكومة، ومن أشهر العائلات التي أثرت من عمل العمودية عائلة على البدراوي وعائلة سيد زغلول في الغربية، والشندويلي في جرجا، وحسن أبو سليمان في المنيا[١٤٢].

أما بقية المصريين فما بين قلة ملكت مساحة قليلة وذاقت لأول مرة طعم الكفاية- خاصة بعد رواج تجارة القطن عالميا- وما بين أغلبية لا يملك الواحد فيهم أحيانا العمامة- خاصة في السنوات الاستنزافية في

---

[١٣٩]- انظر: كبار الملاك والفلاحين في مصر من ١٨٣٧- ١٩٥٢، مرجع سابق، ص ٩١
[١٤٠]- انظر: نفس المرجع، ص ٩١- ٩٣
[١٤١]- انظر: نفس المرجع، ص ٧٨- ٧٩
[١٤٢]- انظر: نفس المرجع، ص ٨١- ٨٤

عصر إسماعيل- ولا يملك سوى جلباب، ولو ملك عمامة وأكثر من جلباب يخفي ذلك حتى لا يطارده الصرافون ويطالبونه بالضرايب باعتبار أن امتلاكه أكثر من جلباب دليل رفاهيته، وكانت النساء تبيع حليهن ذهبية أو فضية وحتى ملابسهن، ويُساق الناس أطفال ونساء وشباب ومسنين بالكرباج إلى مشاريع إسماعيل العامة أو الخاصة[١٤٣].

ويثبت هذا الحال "سكاون بلنت" بالمشاهد التي صادفها أثناء جولته في الريف سنة ١٨٧٦: "كانت المجاعة تدق أبواب الفلاحين، وقلّ في تلك الأيام أن يُرى رجل في حقله وهو يضع عمامة على رأسه، أو أكثر من قميص واحد يستر به جسمه"، وفي الأسواق "تعج بالنساء اللاتي كن يبعن ملابسهن ومصاغاتهن الفضية للمرابين اليونانيين نظرا لأن جباة الضرايب كانوا في القرية وسياطهم في أيديهم"، و"انضمننا (بلنت وزوجته) إليهن في لعنهن وقذفهن في حق الحكومة التي كانت تعريهن[١٤٤]".

هذه هي الطرق التي سقطت بها أراضي مصر بنظام التمليك لأول مرة في أيدي حفنة قليلة، معظمها أجانب طازة أو مستوطنين يعيشون بروح وتوب الغزاة، ولم يشعروا بأي تأنيب للضمير في اتباع هذه الطرق للثراء، فكأن "الحرام" صار هو قانون الثراء الوحيد؛ وكلهم ما بين من يبرر لهذا بأنه "حق الفتح"، ومنهم من يبرره بأنه يعيش في عباءة أصحاب "حق الفتح"، أو بـ"حق التفوق" العثمانلي والعرباني والأوروبي ومن كل ملة أو بحق "الإنعامات".

"الله يلعنك يا زمان، ياللي خليت للندِل كلام، وجبت اللي ورا قدام، وخليت السيد خدام"[١٤٥].

مثل شعبي فصيح.. لكن هل الزمان من يستحق اللعنة.. أم ذاكرة شعب تصفر فيها الريح !

منذ أن خالف المصريون وصية حور وماعت وكل شعوب الأرض تنظر إلى مصر على أنها "نهيبة الدنيا"، الشاطر من يمد يده لـ"يكبش" منها بكل قوته، وبكل وسيلة، مهما كانت حراما، يرون أن شعبها- الذي لم يكف عن الكد والكدح- هو الوحيد الذي ليس له الحق فيها لأنه "فلاح"، ولأن أرضه سُلبت منه بالسيف (الفتح)، ثم ابتدعوا وسيلة سلب الأرض المصرية بالقانون والرهن والربا والاستثمار والتجنيس أو الزواج من عائلات من يغتني من المصريين وأخذ أرضهم بالتوريث.

⓬ توحيد نطق اللغة المصري مع اليوناني.. الخنجر السادس

في عهد الوالي سعيد تلقت اللغة المصرية طعنة جديدة حين وافق بابا الكنيسة المصرية كيرلس الرابع (تولى ما بين ١٨٥٤- ١٨٦١) على مشروع لتوحيد نطق اللغة بين الكنيسة القبطية والكنيسة اليونانية، لتستمر لعنة البصمة اليونانية على لغة مصر منذ الاحتلال اليوناني القديم.

---

[١٤٣]- الأرض والفلاح.. المسألة الزراعية في مصر، إبراهيم عامر، الدار المصرية للطباعة والنشر والبحوث والحسابات العلمية، ص ٧٤
[١٤٤]- التاريخ السري لاحتلال الإنجليزي لمصر- رواية شخصية للأحداث، ولفريد سكاون بلنت، مرجع سابق، ص ٥٥
[١٤٥]- موسوعة الأمثال الشعبية المصرية، د. إبراهيم شعلان، ج١، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١١٨

وأصل الموضوع يرجع إلى أن اللغة المصرية لها لهجات- مثلما ننطق لهجات حتى اليوم- هي البحيري والصعيدي والفيومي والبشموري والإخميمي، وفي القرن ١١ م أيام الاحتلال العبيدي قرر البابا خريستوذولس توحيد كل هذه اللهجات أو إقرار اللهجة البحيرية لكل الكناس، وإن ظل الكثير من المصريين يتحدثون بلهجاتهم الموروثة خارج الكنايس، وحين جاء البابا كيرلس الرابع أيام سعيد رأت الكنيسة إزاحة النطق البحيري نفسه والاستعانة بالنطق اليوناني، وتعممَّ هذا على كل الكنايس والكتب الصادرة عنها.

ويرى علماء للغة القبطية مثل القس شنودة ماهر أن هذا خلق خطأ كبيرا في نطق اللغة المصرية، وشوه نطقها ليلائم النطق اليوناني الدخيل، وتم هذا على يد المعلم عريان أفندي جرجس مفتاح بالتعاون مع مدرس يوناني، وبرعاية كيرلس، حتى انتهي اللفظ القديم، ومن هذا إدخال أصوات لم تكن على ألسنة القبط مثل الثاء والذال وصوت مماثل لـ **V** الإنجليزي[١٤٦]، وهو ما جعلها لغة ثقيلة وليست سلسلة النطق كاللغة المصرية الحقيقية.

ويبرر آخرون ما فعله البابا بأنه "إصلاح"، فيقول الأب بيجول باسيلي إن البابا أراد تنقية اللغة المصرية مما دخل عليها من نطق عربي، وكذلك ما دخل على النطق البحيري من اللهجات الباقية كالصعيدي والفيومي منعا لحدوث "بلبلة" في اللغة[١٤٧]، إلا أنه غير معلوم غير يُراد تنقية اللغة المصرية من النطق العربي في حين تلجأ للنطق اليوناني، أليس هذا دخيل وهذا دخيل؟

ولوحظ وقتها أن الإرساليات التبشيرية في خطابها للمصريين شجعت استخدام اللغة العربية في الكنايس أكثر من اللغة القبطية، كما فعلت في الشام حين أماتت اللغة السريانية لصالح العربية في كنايس الشام، وهذا ليس حبا في العربية، ولكن تمويتا لهويات وحضارات هذه البلاد، وهو ما سيتضح عند الحديث عن صناعة "القومية العربية".

وتعبيرا عن ازدواج الشخصية الذي أصاب المصريين، في أنهم يفعلون الشيء وعكسه، فإنه في نفس الوقت شهد القرن ١٩ صحوة جديدة لإحياء اللغة القبطية، فأطلق البابا كيرلس الرابع نفسه نداء لجمع تبرعات لبناء معهد علمي لإحياء اللغة القبطية، قائلا إنه لا يجوز أن الغرب يعرفها أكثر من المصريين، في إشارة لاهتمام أوروبا وقتها بالبرديات واللغة القبطية، وامتنع عن دفع رواتب القساوسة إلا من يقدم القداس بالقبطية.

واتضح أن تمسك عائلات بلغة الأجداد ظل يعافر حتى ذلك الوقت، فسجل كوبيل سنة ١٩٠١ أن المرسل الأمريكي ديفيد سترانج في بني سويف أخبره أنه عندما وصل لمصر قبل ٣٠ عاما سمع من رجل اسمه إتفانوس أنه وهو صبي كان يسمع والديه وقليلين من كبار السن في قوص ونقادة يتحدثون معا بالقبطية، و يسجل ورل (أستاذ اللغة القبطية في جامعة ميتشجان الأمريكية جاء لمصر لبحث اللغة القبطية

(١٤٦)- تراث الأدب القبطي، شنودة ماهر ويوحنا نسيم يوسف، مرجع سابق، ص ٤٢ و٤٨- ٥٠.

(١٤٧)- ما بين القديم والحديث، بيجول باسيلي، موقع "دراسات مصرية". http://www.copts-united.com/C_U/Branches_CPTS/Egyptian_Studies/Egy_Coptic_Lang/Abouna_Pigol_PartI.htm

سنة ١٩٣٦) أن القساوسة في فرشوط بأسيوط قالوا إنه حتى ٥٠ عاما مضت، أي في القرن ١٩، لم يكونوا يتكلمون داخل هيكل الكنيسة سوى بالقبطية، والأطفال كانوا يتأثرون بسماع هذه اللغة التي يعتقدون أنها سرية ويشتهون تعلمها، وظل حتى وقت قريب عائلات بعض القساوسة يتحدثون بالقبطية، وكأنهم يمسكون بتلابيبها[١٤٨].

في نفس الوقت، تم اعتماد اللغة العربية كلغة رسمية للبلاد من جديد أيام إسماعيل بعد عقود من اعتماد اللغة التركية، وتكثف الاهتمام ببعث العربية الفصحى، وتسربت كلمات جديدة منها إلى ألسنة أهل الريف مع تزايد دخول أبنائهم للمدارس وتعلمهم للأدب العربي وكثرة الكتاتيب وانتشار الصحف، وتلاشت أمامها نظيرتها المصرية، وفي خط معاكس، زاد تطعيم لغة القاهرة والإسكندرية بالكلمات المصرية لكثرة هجرات أهل الريف إليها إما طفشانا من كثرة الضرايب والإتاوات والفِرد، أو الذين أخذهم محمد علي للعمل في مشاريعه، فظلت إذن العلاقة بين اللغتين المصرية والعربية علاقة تأثير متبادل، لكن مع سلخ المتعلمين من هويتهم وابتعادهم عن صفة "الفلاح"، وتعمدهم الحديث بالفصحي كي لا يقال عليهم "فلاحين"، فالغلبة تسير في جلباب العربية الفصحى.

⑬ توريث الحكم للولاة بقرار رسمي لأول مرة

التوريث.. كلمة لها دلالات ثقيلة في عهد الاحتلال العلوي، فهي تعني- لأول مرة- توريث الأرض لعائلات وللأجانب عبر التمليك، وتوريث المناصب والوزارات ونيابة البرلمان أيضا لهذه العائلات بقوة المال والنسب العائلي أو الحزبي، لتتكون ما تسمى بـ"طبقة الإقطاعيين" الذين يملكون ويحكمون بأجيال تسلم أجيال.

وأيضا قبل عصر محمد علي كان الولاة لا يورثون الحكم، بل يتولى الباشا لمدة محددة ثم يترك الحكم بانتهاء المدة أو بالإقالة أو الموت، ولم يتولَّ أبناءهم الحكم إلا استثناء، أما محمد علي فاستطاع رغم هزائمه الأخيرة أن ينتزع من السلطان العثمانلي وحلفائه الإنجليز مرسوما رسميا بتوريث الحكم لأبنائه.

وعلى هذا صار حكام الأسرة العلوية يظنون أنهم "أصحاب مصر" وليس مجرد ولاة لهم مدة حكم ويغادرون، تماما كالأجانب الذين ظنوا أنفسهم "أصحاب الأرض" لما تملكوها بقانون التمليك بعد أن كانت تُعطى لهم كالتزامات وإقطاعيات مؤقتة، والحق أن كلاهما أخذ هذا وذاك بقانون "من لا يملك أخذ ما لا يستحق".

وورث إسماعيل عن جده حب الاستحواذ، فقرر أن يحصر العرش في نسله؛ فسعى عند السلطان العثمانلي ليوافق على تغيير نظام تسليم العرش، بحيث يكون في أكبر أبناء إسماعيل فقط وليس أبناء الأسرة العلوية كما كانت تنص معاهدة لندن ١٨٤١، إضافة لتحويل لقبه من والي إلى خديوي، وهي كلمة فارسية تعني أمير، وبعد إلحاح وافق السلطان.. ولكن مقابل ماذا؟

---

(١٤٨)- انظر: تراث الأدب القبطي، مرجع سابق، ص ٣٥- ٣٧ و٤٧- ٤٩

مقابل زيادة حلب دم الفلاحين بزيادة الجزية المفروضة على مصر من ٣٢٠ ألف جنيه إلى ٦٠٠ ألف بداية من سنة ١٨٦٦، بخلاف الهدايا التي لم تنقطع للسلطان، وفي ١٨٧٣ بعث المال والهدايا للسلطان لأخذ امتياز آخر وهو الاستقلال في إدارة شئون مصر الداخلية، وزيادة عدد الجيش بشرط ألا يكون فيه مدرعات، والمقابل زيادة الجزية إلى ٦٦٥ ألف(١٤٩).

⑭ نزف دم المصريين في المجاعات والأوبئة والمذابح

بعد مذبحة المماليك وإعادة تأسيس الجيش النظامي قلَّ سماع المصريين في الأرياف لأصوات صهيل الخيول الهايجة، وصليل السيوف الغادرة، وخطوات سنابك الخيل المرعبة التي كانت تصم آذانهم، وتسفك دمائهم، وتنهب محاصيلهم خلال معارك المماليك مع بعضهم أو مع العربان.

ولكن لم تتوقف صرخات المصريين ترُّج الجبلين الواقفين متجمدين على جانبي الوادي لأن النزيف استمر بخنجر التجويع والسخرة والأوبئة، ولا يمكن أن يقال عن استشهاد الآلاف في مشاريع مثل ترعة المحمودية وقناة السويس والقناطر الخيرية وأراضي التي تسيطر عليها العيلة العلوية وغيرها خلال العمل بالسخرة والقهر إلا أنها "مذابح" مع سبق الإصرار والترصد، خاصة مع اشتداد إسماعيل في جمع الأموال والمحاصيل من الفلاحين لسداد الديون.

كتب مراسل "التايمز" في ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٧ يقول: "إن هذا المحصول كله عبارة عن ضرايب عشرية أداها الفلاحون، فإذا اعتبر الإنسان حال الفلاحين الذين أدمتهم الفاقة وأرهقهم الطلب أولئك الذين لا يتوفر لهم الكفاف من العيش في حظائرهم البائسة، والذين يعملون مبكرين وممسين ليملئوا جيوب الدائنين، إذا تدبر الإنسان هذا كله بدا له أن أداء الكوبونات [كوبونات سداد الديون] في مواعيدها لم يمكن مما يغتبط به كل الاغتباط(١٥٠).

وتحالف طاعون الماشية سنة ١٨٧٨ مع نقص المحصول والفيضان وأحدثا مجاعة سنة ١٨٧٩ أزهقت أرواح ١٠ آلاف فلاح في الوجه القبلي، وآلاف آخرين مثلهم سقطوا موتى من المرض والتعب، ولم تسمح الحكومة البريطانية ولو بمجرد تأجيل دفع فوائد الدين(١٥١).

ووصفت "التايمز" في ٣١ مارس ١٨٧٩ الحال بأن الضرايب تجمع في وقت "يموت فيه الناس على قارعة الطريق، ومساحات واسعة من الريف لا تزرع بسبب ثقل الالتزامات المالية، والفلاحون باعوا ماشيتهم والنساء حليهن، والمرابون يملئون مكاتب الرهون بصكوكهم والمحاكم بقضايا المصادرة"(١٥٢).

والمفاجئة.. أن الباشوات والأعيان لم يكونوا يدفعون أي ضرايب ليتحملوا جزءً من أعباء الديون التي

---

(١٤٩)- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، المرجع السابق، ٢١٩- ٢٢٠

(١٥٠)- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٩

(١٥١)- نفس المرجع، وانظر الجيش المصري في القرن التاسع عشر، محمد السروحي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٥٤٥

(١٥٢)- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، مترجم عن كتاب الاستعمار البريطاني في مصر لإلينور بيرتز، ص ٩

استفادوا هم منها، فيقول جون نينيه متعجبا، إن الوزير الإنجليزي في الحكومة ويلسون اكتشف أنهم كانوا يتفقون مع المحاسبين على تحميل ضرايب أراضيهم الخاصة على الأراضي العامة التي يزرعها الفلاحون، فيدفع الفلاحون الضرايب كاملة، وفوق هذا "في المديريات كان المزارعون المساكين الذين يسلبهم السيد كل شيء يُضربون كل يوم على ظهورهم وبطون أقدامهم من أجل النقود".

وليخلص المباني المرهونة لدى عائلة روتشيلد مقابل الديون، فرضَ إسماعيل ضريبة وقتية جديدة على كل فدان، لم يكن يأبه بأي صراخ من الضحايا الفلاحين، ونقل عنه جون نينيه قوله عن الفلاحين: "إن أكياس الدقيق هذه مليئة كانت أم فارغة لا بد أن يخرج منها شيء ما عند ضربها"[١٥٣].

ويقف ضباط الجيش وجنوده الفلاحون يراقبون هذه المذابح، وأهلهم يتساقطون أمام أعينهم، والجيش نفسه يتعرض لمذبحة تسريح المصريين منه، والأجانب يزدادون تطاولا، وهم كاظمون الغيظ.. حتى حين.

15 تطبيق الامتيازات الأجنبية (دولة خاصة بالأجانب)

وصفها الكاتب البريطاني جون مارلو في كتابه "تاريخ النهب الاستعماري لمصر" بأنها منحت الأجانب "الحكم الذاتي" في مصر؛ بدأت في عصر السلطان العثمانلي سليمان القانوني وتعززت في عصر محمد علي، وحصل بها الأجانب على ما لم يحصلوا عليه في بلادهم ذاتها[١٥٤].

ولكن الصح أنها أعطتهم فوق "الحكم الذاتي".. أعطتهم مصر بحذافيرها، وخلقوا نظام فصل عنصري "أبارتهايد"، ليس فقط بين الأجانب وبين المصريين فهذا معتاد في الاحتلالات السابقة، بل وبينهم وبين السلطة الحاكمة نفسها بعد أن صاروا فوقها حتى قبل هبوط الجيوش الإنجليزية.

ومدخل الأجانب لانتزاع الامتيازات هو التحجج بأنهم يريدون بيئة آمنة لإقامتهم واستثماراتهم، وقوانين خاصة للفصل في نزاعاتهم؛ كون أن دياناتهم وأعرافهم تختلف عما يسود البلاد التي يحكمها العثمانلي.

وهذه هي مجالات تطبيق الامتيازات الأجنبية، فليتأمل كل قارئ فيها، ويضع لها الوصف المناسب:

- إعفاء الأجنبي من القبض عليه أو تفتيش بيته أو محل عمله إلا بحضور القنصل.

- إعفاء الأجنبي- حال القبض عليه- من المحاكمة أمام محاكم مصرية أو بالقانون المصري، بل يُحاكم أمام المحاكم القنصلية بقوانين بلده هو رغم أنه على أرض مصر.

- إعفاء الأجنبي من الضرايب بكل أنواعها ومن الجزية والسخرة بكل أنواعها، مهما طال بقاؤه.

- حرية الحركة المطلقة في التنقل داخل البلد والخروج من والدخول إلى البلد ولو بلا وثائق، وتحريم

---

[١٥٣]- رسائل من مصر (١٨٧٩- ١٨٨٢)، جون نينيه، مرجع سابق، ص ١٠٣ و١٠٧

[١٥٤]- انظر: تاريخ النهب الاستعماري لمصر ١٧٩٨- ١٨٨٢، جون مارلو، ترجمة عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٩٧- ٩٩

إبعاده من مصر ولو كان مجرما إلا بموافقة القنصل (١٥٥).

ولذا صارت من أبرز وسائل جذب الأجانب لمصر، حتى وصفت بأنها "أرض الأحلام" للأجانب (جنة يرعى فيها الخنازير)؛ لأنها بشهادة الأجانب أكثر بلد يمنح حكامه امتيازات للأجانب وحصانة في الجرايم والمحاكمات، فالأجنبي ينهب ويسرق ويقتل وينشر الرذائل والفجور دون محاكمة، يغتني ويكتنز دون دفع ضرايب أو جزية أو محاسبة، ليس عليه أي واجبات، هو فقط يأخذ ولا يعطي، يأتي عاريا حافيا منبوذا من بلاده ليعتلي في لمح البصر أكبر المناصب والوظائف ويتملك أخصب الأراضي، ويجد "شعبا يتيما" يأمر ويتأمر عليه في "نهيبة الدنيا".

ولخص عبد الله النديم وهو يتجول في مصر حينها هذا شعرا ساخرا(١٥٦):

فما رأيت من قصر لطيف فذلك للمسيو

ومانظرت من جفالك وأباعد فهذا للمستر

ومابلغك من بنك ومتجر فهذا للخواجا

وما سمعت من رفعة وإنعام فهذا للسنيور

قد صار الإسكاف عندنا مهندسا، والمزين طبيبا

وخادم الخيل رئيسا، وذليل بلاده عزيزا، وطريدها محبوبا

يقول الدكتور عبد الرازق السنهوري في مقدمته لكتاب "الامتيازات الأجنبية" الذي أصدره محمد عبد الباري سنة ١٩٣٠: "فبعد أن كان الأصل أن صاحب البلد يمتاز على الأجنبي، انقلبت الآية في مصر، وأصبح الأجنبي هو الممتاز، والمصري هو الذي ينادي بوجوب المساواة بينه وبين الأجنبي".

وبتعبير مؤلف ذات الكتاب: "كان المصريون إزاءهم [إزاء الأجانب] أكثرية تسعى وراء وقاية نفسها من أقلية أجنبية متحكمة"(١٥٧).

وفي رسالتها للماجستير عن الجالية البريطانية في مصر في القرن ١٩ قالت الباحثة ناهد زيان إن هذه الامتيازات سلبت حق الحكومة في مصر إبعاد الأجنبي إذا ثبت أنه خطر على الأمن العام أو أن إقامته مخالفة، ولا يكون الطرد إلا بموافقة القنصل الخاص به، وهو من يصدره بعد تقديم الحكومة طلبا بذلك، وبعد تحكيم من ٩ قناصل، قبل أن يعود الأمر للحكومة مع المحاكم المختلطة ١٨٧٦ (١٥٨).

---

(١٥٥)- للمزيد عن شرور الامتيازات الأجنبية انظر: الامتيازات الأجنبية، محمد عبد الباري، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٣٠، ص ٣-٥٠
(١٥٦)- قصيدة نشرها عبد الله النديم في مجلة "التبكيت والتنكيت"، ٩- ١٠-١٨٨١
(١٥٧)- الامتيازات الأجنبية، مرجع سابق، ص ٤ و ١٣٨
(١٥٨)- الجالية البريطانية في مصر (١٨٠٥- ١٨٨٢)، ناهد السيد علي زيان، مرجع سابق، حواشي رقم ١٦٤، ص ٧١

وبجانب الامتيازات الأجنبية التي يستفيد منها جنسيات ١٧ دولة غربية وجنسيات أخرى تابعة لرعوية قناصلها، توجد الامتيازات المماثلة التي يتمتع بها الأسرة العلوية الحاكمة المحصنة، والباشوات وأبناء العائلات المستوطنة وأتباعهم، ونوع آخر من طرق الحصول على الامتيازات هو بلطجة السلاح، كأن تأتي قبيلة عربان فتنهب القرى وتحارب النظام الحاكم القائم ويحاربها، ثم ينتهى الأمر إلى صفقة بينهما وتستولي على أراضي ومناصب وإعفاءات، والوحيد الذي ليس له امتيازات في البلد هو الفلاح المصري.

ولم يشبع الأجانب من الامتيازات والطلبات، فطالب القناصل من الوالي سعيد بعمل قوة أمن خاصة لحماية الأجانب ومناطق معيشتهم، فأسس ضبطية (شرطة) أجنبية في الإسكندرية والقاهرة من جنسيات أجنبية(١٥٩)، فاكتملت بذلك أركان الدولة الأجنبية الاستيطانية المستقلة بداخل مصر؛ فللأجنبي قوانين ومحاكم خاصة به (القنصلية ثم المختلطة)، واقتصاد خاص به (الشركات والبنوك الأجنبية والأراضي التي تملكوها)، ومدن خاصة به (الإسكندرية ومدن القناة ومدن أخرى كانت في الطريق) وإعلام خاص به (الصحف الأجنبية الصادرة داخل مصر)، وسلطة دينية خاصة به (الكنايس والجمعيات الخاضعة للإرساليات الأجنبية)، ومدارس خاصة به (مدارس الجاليات والإرساليات)، وجيش خاص به (جيش الاحتلال)، وشرطة خاصة به (قوة الأمن الأوروبية داخل المدن المصرية).

سؤل هولندي وقت احتلال هولندا لأندونيسيا: أصحيح أن أبناء وطنك في جاوة (بأندونيسيا) يجبرون الجاويين في الطرق على أن يمدوا ظهورهم فيركبوها كما تُركب البهائم؟

قال: صحيح.. وإذا نحن امتنعنا من هذا لا يستقيم أمرنا هناك لأننا قلة تضيع في الكثرة"(١٦٠).

وهكذا هو الاستيطان الاحتلالي في كل زمان ومكان- خاصة بعد التمكين والسيطرة على الاقتصاد والمشروعات- يمدون ظهور أصحاب البلاد الأصليين مهما كان عددهم كبيرا ليشعرونهم بالدونية؛ فلا يرفعون رأسهم أمام الأجنبي مهما قلَّ عدده، وركوب الظهر هذا أخذ في بعض البلاد اسم "الامتيازات الأجنبية"، وحاليا يسمى بـ"قوانين تشجيع الاستثمار الأجنبي وحماية الأجانب".

16 غرس محاكم أوروبية لأول مرة (دولة فوق الدولة)

بفتح الاحتلال العلوي الباب لتطبيق الامتيازات الأجنبية في مصر لمجاملة القناصل الأجانب والموظفين الأجانب، جرى الاعتراف بقضاء أوروبي بدأ بما اشتهر باسم "المحاكم القنصلية"، وهي التي تحاكم رعاياها من أوروبيين وغيرهم كأنهم في أوروبا وبقوانين أوروبا وليس بقوانين مصر، فلا سلطان لقانون أو حاكم في مصر عليهم.

ومن الإصلاحات التي نفذها إسماعيل لترسيخ سيادته واستقلاله في حكم البلاد هو محاولة كسر نفوذ هذه المحاكم بمساواة المصريين بالأجانب في التقاضي، لكن أفسد الأمر سوء التطبيق، فبدلا من المحاكم

(١٥٩)- نفس المرجع، ص ٥٨
(١٦٠)- المذكرات، محمد كرد علي، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٨، ص ١١٧٢، وهو سؤال وجهه المؤلف بنفسه للهولندي

القنصلية تأسست محاكم مختلطة عام ١٨٦٧ يُحاكم فيها المصريين والأجانب، اتضح أنها لم تحفظ حق سيادة الدولة، فرغم خضوع الأجنبي لمحاكم مصرية إلا أنه كان يُحاكم أيضا بقانون مختلف عن قانون مصر، والقضاة الـ ١٢ أكثريتهم أجانب، وقليل منهم مصريون، وهم من يضعون القوانين، ورأي حكومة إسماعيل استشاري فقط، ووصل الأمر إلى أن هذه المحاكم تفصل في قضايا الحكومة بحسب مصالح الدول الأجنبية، فظلت أيضا دولة فوق الدولة.

والإيجابي في الأمر للمصريين هو أنه أصبح لهم حق التقاضي في المحاكم بعد أن كان نصيبهم محاكم الأقسام، ويقوم بدور القاضي فيها ناظر القسم، ويستخدم السوط أحيانا في التعامل مع الأهالي، وأحيانا لا يعرف الفصل في القضايا لأنه غير مؤهل(١٦١).

وجاء على لسان ألبرت فارمان، الذي عمل كأحد قضاة المحاكم المختلطة أيام توفيق بعد انتهاء عمله قنصلا أمريكيا أيام إسماعيل، في شهادته عن هذه الفترة أنه "لم تتواضع الأمم المسيحية (الأوروبية) في طلباتها الخاصة بالامتيازات الأجنبية، وحينما سنحت الفرصة حصلوا على امتيازات إضافية في المدن الرئيسية بمصر، وخاصة في الإسكندرية، حتى أصبح الناس يتساءلون ما إذا كانت الحكومات الأجنبية أم السلطة المحلية هي الحاكمة. هذه الامتيازات الأجنبية التي طالبت بها الدول الأجنبية وتمتعت بمزاياها نجم عنها وجود سلطات عديدة في مصر"، أي صارت دولا مستقلة داخل مصر.

ولتحويل النظام من المحاكم القنصلية إلى المحاكم الدولية "المختلطة"، نقل أنه يقال أن هذا لم يحدث إلا عن طريق مفاوضات شاقة طويلة، كما يقال أن الخديوي استخدم أموالا كثيرة في القسطنطينية [إسطنبول] وفي صحافة لندن وباريس [رشاوى للإعلاميين] في إنشاء هذه المحاكم(١٦٢).

ووقتها، كان يقيم في مصر عام ١٨٧٨ ثلاثون ألفا من اليونانيين، وعشرة آلاف من الإيطاليين، وكثير غيرهم من جنسيات أخرى، وأصحاب البنوك وجزء كبير من التجار الكبار وغيرهم من رجال الأعمال في البلاد من الأجانب، وأغلب المشاريع التجارية في أيديهم، والقاضي الأجنبي يتقاضى مرتبا ضخما لا يوازي العمل الذي يقوم به رغم أنه يحصل على أجازة سنوية تبلغ مدتها ثلاثة أشهر ونصف شهر، وهي شهور الحرارة من يونيو إلى أكتوبر(١٦٣)، وهذه شهادة من فارمان الذي عمل قاضيا في هذه المحاكم.

وينقل "سكاون بلنت" أن نوبار الأرمني- رئيس النظارة (الوزارة)- صديق طبقة التجار الأجانب في الإسكندرية اشتهر لدى الفلاحين باعتباره صاحب فكرة المحاكم المختلطة، وأنها لصالح الأجانب في حين كرهها الفلاحون لأنها وضعتهم في قيود وأغلال المرابين اليونانيين بعد أن جعلت الفلاح مجبرا على رفع القضايا في خلافه مع الأجنبي أمام محاكم يديرها أيضا عدد من القضاة الأجانب وإجراءات أجنبية، وأصبح كل فلاح ممن يوقعون على أوراق القروض للمرابيين يُسلب منه أرضه دون أن يُعطى أدنى فرصة للدفاع

---

(١٦١)- انظر: تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ٢٢٣- ٢٢٤

(١٦٢)- مصر وكيف غُدر بها، ألبرت فارمان، مرجع سابق، ص ٣١٩- ٣٢٠

(١٦٣)- نفس المرجع، ص ٣٢٠

عن نفسه إذا ما كان رجلا فقيرا أو كانت الورقة مزورة أو جرى تغيير أرقامها[١٦٤]، لأن المرابي اليوناني والقاضي الأجنبي يستغلان جهله بإجراءات الدعوى وبالقراءة والكتابة.

استغل المستوطنون الأجانب جهلهم بالقراءة والكتابة ليمضوهم على مبالغ يفقدون بسببها أراضيهم لتسقط في حجر الخواجة، كما استغل من سبقوهم جهل أجدادهم بدروس التاريخ، لتسقط في حجرهم مصر كلها جيل ورا جيل.

وتعليقا على ما تابعه مدة ٤٠ سنة من تعمد الأجانب سوا العيلة الخديوية أو الباشوات أو مناديب روتشيلد في مصر أو الموظفين الأجانب في عمل انحرافات دون أن يحاسبهم أحد قال جون نينيه في ١٨٧٩: "ما أكثر الحماقات التي ارتكبت أو التي سُمح بارتكابها في مصر، إنه أمر يكاد لا يُصدق"[١٦٥].

❼❶ التخفيف من الحزازيات بين المصريين (مسلمين ومسيحيين)

شهد عصر محمد علي حتى الخديوي توفيق نقضة مضيئة- مقارنة بالاحتلالات السابقة- فيما يخص أنه أخف وطأة فيما يخص معاملة المصريين المسيحيين، فأزال أشكالا من المعاملة تسببت سابقا في حزازيات بينهم وبين إخوتهم المصريين المسلمين، رغم أن المصريين المسلمين أيضا عانوا الاضطهاد المنظم من كل الاحتلالات.

ففي النصف الثاني من حكم محمد علي اختفى ما كان مفروضا على المسيحيين من زي، وهو الأزرق والأسود، وباتوا قادرين على ركوب الخيل، بحسب الجبرتي، وجرى إلغاء الجزية[١٦٦] في عهد سعيد والتساوي بين المصري المسلم والمصري المسيحي في التجنيد.

ولم يفرق قانون ١٨٦٦ لإنشاء مجلس الشورى بين المسلمين والمسيحيين، فسمح بانضمام مصريين مسيحيين، ومن أشهر باشوات العصر بطرس غالي- وحصل على الرتبة بقرار من الوزارة التي شكلتها ثورة ١٨٨١ حرصا من الثورة على عدم التفريق بين المصريين كما قال أحمد عرابي في مذكراته[١٦٧]- وقال إسماعيل للكاتب الفرنسي جبرائيل شارم عن نفسه متفاخرا: "يعيش المسيحيون في تركيا في جوا من التسامح مشوب بالاحتقار، فيما يعيشون في مصر في جو من التسامح المقرون بالاحترام".

وبات الرأي العام متقبلا لهذا بعد فترة من الاستغراب أو الضيق في عصر محمد علي، فتقول الكاتبة الإنجليزية لوسي دوف جوردون إن "أهالي ببا، ومعظمهم من المسلمين، انتخبوا جرجس القبطي عمدة لها، وأنهم كانوا يقبلون يده طائعين بينما كنا نمر في طرقات القرية"، وأضافت أنه: "مما أثار إعجابي روح

---

[١٦٤]- التاريخ السري لاحتلال الإنجليزي لمصر- رواية شخصية للأحداث، ولفريد سكاون بلنت، ص ٨٩
[١٦٥]- رسائل من مصر (١٨٧٩- ١٨٨٢)، جون نينيه، ص ١٠٩
[١٦٦]- ألغيت الجزية عن المصريين المسيحيين ولكن ظل العثمانلي يأخذ جزية على مصر كلها بمبلغ سنوي محدد، ويتزايد حسب الأحوال، باعتبار أن مصر فتحت بالسيف حسب تبريره الاحتلالي.
[١٦٧]- مذكرات الزعيم أحمد عرابي، ج ١، ص ٤٨١

التسامح التي أجدها ي كل مكان، ويظهر أن المسلمين والأقباط على وئام تام"[١٦٨].

وجرى هذا في حين كانت الحزازيات والحروب الدينية بين المسلمين والمسيحيين على أشدها في الشام، أشهرها الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠، والغريب أن بعض الشوام ممن هربوا من وجه هذه الجو الساخن ليحتموا بأمان مصر، جاءوا يحملون لها النيران ممثلة في مشروعات لصنع حزازات دينية جديدة بين المصريين، وأولئك من جاءوا في ركب المحافل الماسونية والإرساليات التبشيرية مسيحية وإسلامية، وسينتج عنها خلق ما سيُعرف فيما بعد بتنظيم الإخوان المسلمين، وحركات القومية العربية، وتقوية نفوذ مذاهب مسيحية منافسة للكنيسة المصرية، كما سنرى.

18 السقوط في حجر الإنجليز... الاحتلال الرابع

لم يحمِ إسماعيل من مصير أسود يتبربص به مشاريعه العظمى، ولا طوفان المدايح الذي أغراه به الأجانب في أول حكمه، ولا مئات آلاف الأفدنة من أرض مصر التي اغتصبها، ولا الجاليات الأجنبية الكثيفة التي استقدمها لتعطي القاهرة "مظهرا أوروبيا لا مصريا"، ولا المماليك الشركس الذين اشتراهم ورفع قدرهم فوق قدر المصريين في الجيش.. ولا صحوته المتأخرة، فسقطت البلد ومشاريعه في حجر جيش الإنجليز ليكون الاحتلال الرابع المتراص بجانب العثمانلي والعلوي والجاليات فوق ظهر مصر.

وحين بدأ زئير سفن الاحتلال يصل لمسامعه بدأ إسماعيل يفوق، بأسلوب الصدمة، فها هو الذي أقام كل هذه المشاريع ليصبح "كملك أوروبيَ معاصر بدولة مستقلة"، يجد نفسه يرزح تحت أقدام الأوروبيين، والدولة ينفضونها من خيراتها كأنهم يفرغون شوال قطن في مصانع لانكشاير، وأصوات أقدامهم المزعجة تقترب من مصر لتحكمها مباشرة، ويعاملون إسماعيل كأنه مجرد ختم حكومي، وظيفته يختم بالموافقة على أوامرهم.

في البداية رفض إسماعيل التجاوب مع التوصيات البريطانية، وفي أبريل ١٨٧٦ توقف عن صرف قيمة سندات الخزانة المصرية، فغضبت الدول الأوروبية، وأظهرت أنها قلقة على أموال رعاياها (الديون) فتشكل في ٢ مايو ١٨٧٦ لجنة باسم "صندوق الدين" مكونة من مندوبي الدول صاحبة القروض (من بينهم اللورد كرومر)، ويُعهد إليها إدارة شؤون الدين وتدبير ما يجب لانتظام تسديده، وفي ٧ مايو أمر بتوحيد جميع الديون المصرية من سائرة وغير سائرة، وأصبحت دينا واحدا بلغ ٩١ مليون جنيه، بفائدة ٧% وينتهي تسديده في ٦٥ سنة (أي ١٩٤١).[١٦٩]

وفي وقت لاحق، صارت السيطرة على صندوق الدين في يد مندوبين فقط، هما مندوب إنجلترا المستر جوشن (المرابي السابق ومن عائلة جوشن صاحبة بيت المال الذي قدم أول قرض لمصر في عهد سعيد)، ومندوب فرنسا المسيو جوبر، فيما عرف باسم "المراقبة الثنائية"، وأدخلوا على الاتفاق بنودا تجعل

---

[١٦٨]- أقباط ومسلمون من الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢، مرجع سابق، ص ١٩٥- ١٩٧ و ٢٠٢-٢٠٤

[١٦٩]- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ٢٤٩- ٢٥٠

المشاريع الضخمة التي فرح بها إسماعيل وأغرته أوروبا بها رهينة لفرنسا وإنجلترا، وتوشك على السقوط في أيديهما، وذلك بالنص على تقديم عوايد السكة الحديد وميناء الإسكندرية والدائرة السنية كضمانات وتسديد للديون.

كما نص على وضع السكة الحديد وميناء الإسكندرية تحت رقابة أجنبية بحجة مراقبة الواردات وحمايتها من السرقة والفساد الحكومي، وزود عدد الموظفين الأجانب بحجة أنهم خبراء متخصصون للإشراف على الإصلاحات وتنظيم الميزانية، فأطاح هذا بأحد أهداف التعليم في عهدي محمد علي وإسماعيل، وهو توفير كوادر محلية تتسلم تلك المشاريع بدلا من الموظفين الأوروبيين[١٧٠].

لكن الإصلاحات التي وضعها جوشن وجوبر لم تؤدِ لأي إصلاح أو تخفيف للديون- فلم يكن هذا هدفها في الأصل- واضطرت الحكومة إلى أن تلجأ لجمع الضرايب من الناس قبل موعدها، وقبل حتى أن يبيعوا المحاصيل الذي تساعدهم على دفعها، وذلك لتسدد الفوائد للوحوش الأوروبية في موعدها.

فطلب صندوق الدين من إسماعيل عمل لجنة جديدة للتحقيق في أسباب تعثر الحكومة، وبعد فترة من التبرم وافق على تشكيلها في ٤ أبريل ١٨٧٨ باسم لجنة ديوان التحقيق، وصار لها الحق المطلق في إجراء كل ما تريد من التحريات والتحقيقات، وعُهدت رياسة اللجنة إلى "ديليسبس"- رأس المصيبة من البداية- وجُعل رياض باشا والسير رفرز ولسن وكيلين لها، وجعل مندوبي الدين أعضاء فيها[١٧١].

وبهذا فإن ديليسبس كالقط الذي أخَذ مفتاح الكرار، و"خربها وقعد على تلها"، وفوق هذا صار مسئولا عن انتزاع أموال الفوايد والقروض من الضحايا الذين يأنون تحت أطلال الخراب.

وبدأت اللجنة في فحص كل ما يخص اقتصاد مصر، سواء في النظام الإداري أو الضرايب إلخ، وأعطت نفسها حق مساءلة موظفي الحكومة بحجة توجيه الحكومة كيف تتصرف لتسدد الديون في مواعيدها، وكلما أرادت اللجنة الاستفسار عن أمر حكومي تطلب من شريف باشا الحضور للإجابة على أسئلتها، وهو وزير الحقانية وأعظم الوزراء مكانة وقتها، فيرفض الذهاب حفاظا على كرامته، وعرض أن يرد على أسئلتهم كتابة بما يليق بمكانة الحكومة، فرفضت اللجنة إلا أن يقدمها بنفسه، فاستعفى[١٧٢].

ورغم ظهور فشل لجنة المراقبة الثنائية في تحقق الهدف المعلن من إنشائها وهو مساعدة الحكومة على تدبير دفع فوايد القروض والإصلاح الاقتصادي، إلا أنها استمرت في تحميل الحكومة المسئولية عن الفشل

---

[١٧٠]- انظر المرجع السابق، ص ٢٥١

*** هي شروط شبيهة بشروط الإصلاح الاقتصادي الذي شهدته مصر في فترات لاحقة، ومنها فترة الخصخصة نهاية القرن ٢٠، والتي أقنع فيها خبراء أجانب وصندوق النقد الدولي المسئولين المصريين بأن تحقيق الإصلاح وإنهاء الفساد لن يكون إلا بتحويل ملكية وإدارة شركات وأصول الدولة إلى القطاع الخاص، وبالذات الأجنبي، مع ما تطلبه هذا من استيراد خبراء وموظفين أجانب، وشركات أجنبية، بحجة أنهم الأقدر على إدارتها، فتسبب هذا في زيادة الأسعار بمعدلات غير مسبوقة، وارتفاع التضخم، واحتياج مصر لقروض جديدة، والإسراف في استيراد البضائع الأجنبية، فخربت بعض الصناعة المصرية والزراعة، وجرَّت هذه الانقلابات الاقتصادية أزمات اجتماعية وأخلاقية وسياسية وأمنية تفجرت في فوضى ٢٠١١، وأجبرت الرئيس حسني مبارك على الرحيل، تماما كما تم إجبار إسماعيل، ورغم أن التاريخ أكبر معلم، ولكنه يحتاج لمن يريد أن يتعلم.

[١٧١]- انظر: نفس المرجع، ص ٢٥٢

[١٧٢]- نفس المرجع

من باب "اللي فيه يجيبه فيك"، وزادت بأن أوغلت في استنزاف أموال مصر فطلبت من الخديوي التنازل عن كل ممتلكاته للحكومة لتسدد منها الفوايد، ويعيش هو من مرتب سنوي يخصص له.

ووافق إسماعيل على ذلك، كما وافق على مطلب سبق الإشارة إليه وهو أن يتنازل عن بعض صلاحياته للحكومة، وأن يصبح للوزراء سلطة اتخاذ قرارات دون الرجوع إليه بحجة أن هذا هو التمدن والتحضر، فشكل وزارة مستقلة برياسة الأرمني نوبار باشا في ٢٣ أغسطس ١٨٧٨، ودخل فيها الوزراء الأجانب بالصلاحيات المستقلة الجديدة، وهما السير رفرز ولسن والمسيو دي بلنيير، فأصبح للأوربيين وزيران، أي مشاركة رسمية في حكم مصر، فكان هذا هو الاحتلال السياسي بعد إتمام خطة الاحتلال الاقتصادي، ولم يبقّ الأمر صعبا أن تمد بريطانيا قدمها بالخطوة الأخيرة وهي.. الاحتلال العسكري.

وفي أكتوبر من نفس السنة تنازل الخديوي عن أطيان الأسرة الخديوية للحكومة كضمان لدين جديد اقترضته الحكومة "المستقلة" بـ ٨ مليون ونصف مليون جنيه بحجة أن الحكومة تحتاجه لتسديد الديون الثابتة (الخاصة بالسندات)، وهو الدين الذي عُرف بـ"دين روتشيلد" نسبة للبنك الذي سلفه للحكومة[١٧٣].

وهنا بدأ يطلع من ورا الستارة المسيخ الدجال.. روتشيلد !

فبهذه الخطوات الأوروبية التي فاقت الخيال في تجبرها، وفي قبول إسماعيل لها، بدأت معالم الفوضى والسخط الشعبي سواء في مؤسسات الحكومة أو في الشارع، والأهالي يراقبون الأجانب يتمرغون في نعيم المشاريع التي بقروض وضرايب تُنزَع من عروق الفلاحين نزعا، وتتحول إلى أحياء سكنية جديدة فخيمة ووقصور وعمارات وسط البلد (التي سُميت في وقت لاحق بالقاهرة الخديوية) والمرتبات الضخمة في السكك الحديد والموانئ والمصانع، فيما كان معظم الأهالي محرم عليهم الاقتراب من هذه الأماكن إلا كموظفين صغار أو عمالة بالسخرة أو بمرتبات باهتة.

وفي حين كانت مالية مصر تنهار لحد الإفلاس، وينفتح الباب واسعا للتدخل الأجنبي بحجة "إنقاذ مصر"، حصلت خطوات أخرى لتسهيل الاحتلال، منها "خفض عدد الجيش، وإنقاص عدد موظفي الحكومة، وباتت المهايا [المرتبات] متأخرة جميعا، وأخذ الضجر ينتشر بين الطبقات المالكة، ويسري بين الضباط والموظفين والمزارعين[١٧٤]؛ فتحرك بعض الضباط وتجمهروا أمام وزارة المالية للاحتجاج، وقبضوا على الأرمنلي نوبار باشا ورفيقه الإنجليزي رفرز ولسن وأهانوهما، فاستدعى المسئولان الخديوي إسماعيل الذي أمر الضباط بالانصراف، فانصرفوا؛ فظن المسئولون الأجانب أن حركة الضباط هذه كان هو من سلطهم عليها.

تقوّى إسماعيل بهذا، وانتهز الفرصة ليضغط على الأجانب، بأن بلغهم أنه لا يجوز تحميله مسئولية الأزمات والاضطرابات في البلد وهو مسحوبة منه معظم صلاحياته التي باتت في يد حكومة يسيرها

---

(١٧٣)- انظر: المرجع السابق، ص ٢٥٤، وملكية الأراضي الزراعية في مصر خلال القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ٢٠٧

(١٧٤)- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، أحمد رشدي صالح، الفصل الخاص بترجمة كتاب الاستعمار البريطاني في مصر للبريطاني إلينور بيرتز، الصادر عام ١٩٢٧، مرجع سابق، ص ٩

الأجانب، وعلى هذا الأساس أقال نوبار باشا والوزيرين الأجنبيين وعيَّن شريف باشا التركي رئيسا للنظار.

غادر نوبار الأرمني مصر إلى أوروبا وحول نفسه أداة لزيادة السخط الأوروبي على إسماعيل، والتأكيد على عدم صلاحيته للحكم مع كل من يلقاه من السياسيين هناك، بحسب شهادة أحمد شفيق باشا المعاصر له في مذكراته(١٧٥)، وكأنه المتحدث باسم المصريين وهو يسعى لجلب احتلال جديد لهم.

وظهر تعمد صندوق الدين في إيصال مصر للإفلاس في أنه في أبريل ١٨٧٩ لم تستطع الحكومة تدبير المبلغ المستحق عليها، فاعتبر إسماعيل أن هذا عار، وأن التدخل الأجنبي لم يأتِ بالإصلاح المنتظر، خاصة عندما نما لعلمه أن لجنة تشكلت للتحقيق وضعت تقريرا تعلن فيه إفلاس مصر رسميا، فخشى أن يكون هذا مبررا لتدخل أجنبي أوسع، وسعى لاسترداد نفوذه.

ولما غيَّر إسماعيل الوزارة غضبت الدول الأوروبية خشية انهيار مخططها، وقررت ألا يستمر إسماعيل في الحكم، خاصة بعد أن انضم إليه الأعيان، وملاحظة تزايد السخط الشعبي(١٧٦)، فطلبت إنجلترا من إسماعيل أن يستقيل لكنه رفض، وبعث بالأمر للسلطان عبد الحميد، ظنا منه أنه سيثور لكرامة السلطنة العثمانلية ويرفض أن يتحكم الأوروبيون في تعيين أو عزل الولاة التابعين له، ولكن خاب ظنه، فقد نسى أن العثمانلية هذه ذاتها هي من تعاونت مع إنجلترا لكسر جده محمد علي، وبالفعل أصدر عبد الحميد الثاني أمرا بعزل إسماعيل بناء على طلب إنجلترا، وتعيين ابنه توفيق محله في ٢٦ يونيو ١٨٧٩.

وبحسب شهادة أحمد شفيق باشا، فإن إسماعيل فكر في إعلان استقلاله التام عن السلطنة العثمانلية، والاستعداد لمواجهة الضغوط الأوروبية بالقوة، إلا أن شريف باشا نصحه بألا يفعل؛ تحسبا لأن يفشل، ويغير السلطان فرمان التولية ليعود لما كان عليه لأكبر أولاد العيلة العلوية سنا، فينحرم منه توفيق ويقع في يد حليم ابن محمد علي، فأذعن إسماعيل(١٧٧)، فالأمر بالنسبة له كرامة شخصية له ولأسرته وليس كرامة لمصر؛ وأجرى حساباته حسب ما يضمن بقاء العرش في يدها.

لكنه لم يخرج خالي الوفاض، فمع ضمان عرش مصر لابنه خرج محملا بما بقي من كنوزها رغم إعلان إفلاسها، فيقول عرابي إن الخديوي توفيق قال بحضوره وحضور خيري باشا رئيس الديوان الخديوي في إفطار رمضاني أن أبيه أخذ معه أوراق مالية (بون) بمبلغ ١٣ مليون جنيه، وأنه: "يا ليته ترك للحكومة ولو ٦ ملايين لإصلاح شأنها"(١٧٨)، وقال أحمد شفيق باشا إن إسماعيل أخذ معه الآواني الذهب التي كانت في بعض المخازن.

خرج إسماعيل من مصر في ٣٠ يونيو على يخت المحروسة، مذموما مدحورا، هائما على وجهه في عرض البحر أياما لا يعرف إلى أن يتجه بعد أن رفض عبد الحميد الثاني استقباله، حتى وافقت إيطاليا على

(١٧٥)- مذكراتي في نصف قرن، أحمد شفيق باشا، ط١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٤، ص ٣٨
(١٧٦)- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مرجع سابق، ص ٢٥٥- ٢٥٦
(١٧٧)- مذكراتي في نصف قرن، أحمد شفيق باشا، ج١، مرجع سابق، ص ٣٩- ٤٠
(١٧٨)- مذكرات الزعيم أحمد عرابي، مرجع سابق، ص ١٣٩

استقباله نظير علاقات مادية كانت تجمعهما.

ورحل إسماعيل محملا بكنوز مصرية يفترشها في قصور إيطاليا، يسطر له التاريخ إنجازات كبيرة، وخطايا أكبر، وحروبا حمقاء، ألقت بالمصريين لأفخاخ غابات الحبش، تاركا ورائه خزينة فارغة، وجبال ديون على أكتاف المصريين، وقناة السويس ساقطة بالكامل في يد الأجانب، وجاليات أجنبية تتحكم في اقتصاد وقرار البلاد، وجيشا يتحكم فيه العبيد الشركس، وملايين الناس تئن من وطأة السُخرة والمرابين، ولعناتهم للخديوي تشق عنان السماء، وكيف لا يلعنونه وهو من لفَّ الحبال حول رقابهم وسلمهم كالأسارى لأوروبا وبنوكها الشيطانية، واستنزف دماءهم وعرقهم وأراضيهم ليبنى بلدا يليق بإقامة الأجانب أكثر مما يتسع لأهله؟ وصدق عليه المثل "يبني قصر ويهدم مصر"، وهو مثل شاع في عهد محمد علي للسخط على اهتمامه ببناء القصور والفيلات له وللأجانب في الوقت الذي يعاني فيه الفلاحون الأمرين[١٧٩].

وفيما تبتعد مركب "المحروسة" نحو إيطاليا كانت أساطيل بريطانيا تدوي بصفيرها المزعج، تستعد للانطلاق نحو مصر واستكمال الحلقة الأخيرة من الاحتلال.

▲▲▲ رفرفة جناح الصقر الجريح

هذه حالة مصر قبل الثورة التي تفجرت في ١٨٨١، حالة تحرك الحجر قبل البشر، فكانت الثورة الشعبية بقيادة ضباط الجيش كإشراقة لـ "ماعت" تعلن بها وجودها، ورفرفة لـ حور الجريح.. رفرفة لم تكتمل في علوها، ولم تتمكن من فرد جناحاتها في كبد السماء.. لكنها طمئنتنا.. ما زلنا هنا.

وليس ذلك لأن الثورة على الظلم فقط، ولكن لأنه لأول منذ زمن طويل قاد الثورة ضد الأجانب من يصدح بأن "مصر للمصريين"، وتكون الثورة ليس لمجرد طرد أجنبي لصالح أجنبي آخر مثلما حدث في الثورة ضد الفرنسيس لتقع مصر مجددا في يد السلطان العثمانلي أو وضد خورشيد باشا لتقع في يد الوالي العثمانلي محمد علي، ولا لأسباب دينية فقط، بل لتمكين المصريين من حكم بلادهم بعد أن أحس المصريون منذ عصور مديدة بأن لهم زعيما يفخر بأنه منهم، ويتكلم من وجدانهم.

"سادتي.. أنا أخوكم في الوطنية واسمي أحمد عرابي"[١٨٠].. عرابي بادئا خطبته أمام الأهالي المستقبلين له في محافظة الشرقية يهنئونه بعد وقفة عابدين المشهودة.. هو أول مسئول في الجيش- المخطوف من الأجانب منذ مئات السنين- يقول للمصريين "سادتي"، و"إخواني"، لا ينظر إليهم على أنه "الفاتح" وهم "المغلوبين"، ولا أنه المستوطن الأجنبي المتمكن وهم المستباحين، أول مسئول كبير في الجيش يقول للمصريين "أخوكم في الوطنية"، لم يقل أخوكم في الإسلام أو المسيحية فقط، ولا في القبيلة ولا في العشيرة الحاكمة.. أول مسئول كبير في الجيش يعيد أخوة الوطن وهو يخاطب المصريين.

---

(١٧٩)- العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي، جون لويس بوركهارت، مرجع سابق، ص ٢٦١

(١٨٠)- مصر للمصريين، سليم النقاش، ج ٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٩٧

أحس المصريون أنه عاد لهم السيف والفارس وكيان منظم مسلح يقود غضبهم وينظم ثورتهم المخنوقة.

وسبقت الإشارة إلى أن صوت أولاد البلد اختفى طوال عصور الاحتلالات، أو صار يُكتب عنهم، أي أن كتب المؤرخين والرحالة كانت إما تتجاهلهم تماما وتكتفي بنقل أحوال وآراء المستوطنين الأجانب في العاصمة والمدن الكبرى وتقدمهم للتاريخ على أنهم هم "المصريون"، أو أحيانا تنقل أحوال الفلاحين- كما فعل المقريزي أو الجبرتي- لكن من وجهة نظر هذا المؤرخ لا على لسان المصريين الحقيقيين أنفسهم، وهم مؤرخون من المستوطنين الأجانب أيضا وليسوا من المصريين، ونظروا للفلاح نظرة من أعلى، لا انتماء فيها له ولا أخوة ولا مودة.

وشذَّ عن هذا مؤلفون نادرون نقلوا قصائد قالوا إنها على لسان الفلاح تظهر آرائه في الحياة والحكم مثل الشربيني لما نقل قصيدة أبو شادوف في كتابه "هز القحوف" في وقت مبكر من الاحتلال العثمانلي، ولكنه نقلها أيضا بروح متعالية على الفلاح، لا مودة فيها ولا عطف أخوة.

أما كتابات المؤرخين المصريين مثل ساويرس ابن المقفع فكتاباتهم ركزت على أحوال الناحية الدينية المسيحية وما يتعلق بتاريخ الكنيسة أكثر ما ركزت على أحوال البلد والفلاحين عامة.

وعلى هذا، يصعب أن نعرف في تلك العصور صورة مصر ومعنى الوطن في صدور المصريين الحقيقيين المكدسين في الأرياف، أهي ذات الصورة المقدسة التي ضمتها ضلوعهم وحناياهم طوال آلاف السنين في أزمنة الحكم المصري القَديم، أم تجرحت وتبددت بطول الزمان، وبغياب الزعامة الوطنية والمؤسسات التي ترعى هذه الروح، وبتعدد الرايات الوافدة، وبكثرة المرارات التي تجرعوها في احتلال ورا احتلال على هذه الأرض المكدودة؟

إلا أنه بداية من رفاعة الطهطاوي بدأنا نسمع صوت الفلاح المصري، ذاك الريفي الذي قادته الصدفة إلى باريس في بعثات محمد علي؛ فعاد منها ليس أكثر انبهارا بالأجنبي، بل أكثر انبهارا بالوطن، وزاده العلم حبا لمصر، وبحثا في تاريخها القديم المهمل استفادة من اكتشافات الفرنسيس في المصريات وقتها، وعاد ليكتب عن تلك الكلمة المقدسة التي غابت في مجاهل الاحتلالات والإمبراطوريات المتعاقبة، يكتب عن "الوطنية"، و"حب الوطن".

وربما كان لكتابات رفاعة دور في تحريك مشاعر المصريين المتعلمين والضباط وقتها أيضا، فهو من أوائل من تحدثوا عن القومية المصرية، وتميز الشخصية المصرية في كتابيه "مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية"، و"المرشد الأمين للبنات والبنين" بعد أن كان المديح في الكتب والأشعار في أزمان سابقة يُكال للأتراك والمماليك أو العرب من مستوطنيها، وحين الكلام عن مصر يكون للتغزل في خيراتها، فيما يُكال الذم والشتايم والتحقير لعصبها وروحها، وهو الفلاح المصري نفسه.

فجاءت كلمات الطهطاوي كهالة نور عادت من سفر بعيد لتتركز من جديد على وجوه المصريين والشخصية المصرية، وتبرز أحلى ما فيها، وتعيد لها الثقة.

ففي كتاب " المرشد الأمين للبنات والبنين" كان دائم التكرار لكلمة "مصرنا"(١٨١)، وقال إن مصر "أول وطن من أوطان الدنيا يستحق أن تميل إليه قلوب بنيه"(١٨٢) وفي كتاب "مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية" أسهب تحت عنوان "حضارة مصر القديمة" في الإشادة بالحكم المصري العادل قديما، ومدح أخلاق الأجداد وتمدنهم وقوانينهم المهذبة وعذوبة نفوسهم(١٨٣)- بعد أن كان يُقال عنهم في أوقات سابقة الفراعين الكفرة والمساخيط- فشحن نفوس المصريين بأن لكم مجدا عريضا يقوي ضهركم.

مصر لها أياد عُليا على البلاد

وفخرها يُنادي ما المجد إلا ديدني

الكون من مصر اقتبس نورا وما عنه احتبس

وما فخارها التبس إلا على وغدٍ دَني

فخرٌ قديمٌ يؤثر عن سادة ويُنشر

زهور مجد تنثر منها العقول تجتبي(١٨٤)

وتغنى في "منهاج الألباب" بـ "حب الوطن" و"والإخوة الوطنية"(١٨٥)، فتحت عنوان "حب الوطن" قال إن "إرادة التمدن للوطن لا تنشأ إلا عن حبه من أهل الفطن"، وأعاد اللحمة بين الدين والوطن بقوله "حب الوطن من الإيمان"(١٨٦)، فأنشد كأنه يغني(١٨٧):

مذهب

يا صاح حب الوطن حلية كل فطن

دور

محبة الأوطان من شُعب الإيمان   في أفخر الأديان آيـة كل مؤمن

ومصر أبقى مولد لنا وأزهى محتد   ومربعٍ ومعهدٍ للروح أو للبدن

شدت بها العزائم نيطت بها التمائم   لطبعنا تلائم في السر أو في العلن

---

(١٨١)- المرشد الأمين للبنات والبنين، رفاعة رافع الطهطاوي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٨، ص ١٥٣
(١٨٢)- نفس المرجع، ص ١٥٣- ١٥٤
(١٨٣)- مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، رفاعة الطهطاوي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ص ٢٠٣- ٢٠٦
(١٨٤)- عصر محمد علي، عبد الرحمن الرافعي، مرجع سابق، ص ٤٥٣
(١٨٥)- مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، مرجع سابق، ص ١١٨- ١١٩
(١٨٦)- نفس المرجع، ص ٣١- ٣٣
(١٨٧)- عصر محمد علي، عبد الرحمن الرافعي، مرجع سابق، ص ٤٥٢- ٤٥٥

وردد قول الشاعر:

ولي موطن آليت ألا أبيعه   وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا

هل كان الطهطاوي متأثرا بأحاديث الوطنية التي رآها في فرنسا- كما يقول البعض- أم أنه مجرد مصري وجد فرصته أخيرا أن يعبر عما يجيش في صدور الملايين المخفي صوتها من مئات السنين؟ الفلاح علا صوته وسيجيب بنفسه في السطور والأحداث القادمة.

من وسط غبار دخان الفرن التي يعمل فيها أبوه خبَّازا خرج عبد الله النديم يقود شعبه ويهز فيه الوطنية هزًّا، لم يغادر النديم مصر يوما لفرنسا لتعلمه الوطنية ولم يعرف لغتها، ساقته فطرته- قبل الثورة- ليتبنى قضية واحدة، إنصاف الفلاح المصري، وهو يلف القرى يتابع إذلاله وهو الكريم بن الأكارم على يد إسماعيل والمرابي اليوناني واليهودي والسوري ومن كل ملة، ويفتش عن وسيلة انتشاله، وجدها في الروح الوطنية، فكتب في صحيفته "التنكيت والتبكيت" التي أصدرها لهذا خصيصا يدعو للتركيز عليها في المدارس: "أن يعرف التلميذ أصل نشأة جنسه، ومقدار ما وصل إليه من العزة والقوة والثروة، والأسباب التي تحل عروة الجنسية وتضعف قوتها، ويحذره من الاختلاف والتحاسد والتقاعد عن دعوة الاتحاد والألفة"، وأن تقدم المدارس للتلاميذ "معنى الوطنية في صورة غذاء يُنتفع به جميع الجسم بحيث لا يترك عرقا من عروقه إلا وقد أجرى فيه ماء الوطنية التي هي حفظ البلاد ولغتها وعاداتها الجميلة"(١٨٨)، وانتشرت صحيفته انتشارا واسعا بين الضباط والمصريين المتعلمين الآخرين، بل انتشر النديم نفسه وسطهم يخطب ويحفز.

سبب آخر لصعود إحساس "مصر للمصريين" هو ظهور عدد كبير من الرموز المصرية الناجحة، فإلى جانب عرابي ومحمد عبيد وعلي فهمي وعبد العال حلمي وغيرهم في الجيش، سبقهم ظهور قيادات نبغت في علوم الدين والدنيا مثل رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وبطرس غالي وعبده الحامولي وعبد الله النديم ومحمد علي البقلي، ما أعطاهم الثقة في قدرتهم للتميز في كافة المجالات.

وإلى جانب هذا ذاق الجنود المصريون طعم تميزهم أيضا في الحروب التي خاضوها في الشام وروسيا حين تفوقوا على محتليهم من الضباط الأتراك والمماليك وغيرهم من جنسيات أجنبية، وثبت أنهم أكثر كفاءة منهم، خاصة إذا ما توفرت لهم القيادة الماهرة الواعية.. فلماذا إذن يتحملون عنجهيتهم الفارغة التي يعتبر بالنسبة لها أبو جهل وأبو لهب ملاكين بجناحين؟

إنه يبدو نفس الشعور الذي سرى في عروق الأجداد في ٢١٦ ق.م بعد خوضهم معركة رفح مع الإغريق، وأظهروا تفوقا عليهم.. فقرروا أنهم الأولى ببلدهم... وقرروا الثورة.

وبدا أن من أسباب علو الروح الوطنية في ١٨٨١- وعدم الاكتفاء بشعارات دينية تقليدية- هو الحب

---

(١٨٨)- درس تهذيب تحاور به تلميذ مع نديم، عبد الله النديم، التنكيت والتبكيت، العدد ٤، السنة الأولى، ٣- ٧- ١٨٨١، ص ٥٤- ٥٥، ومن تراث عبد الله النديم، التنكيت والتبكيت، دراسة تحليلية د. عبد المنعم الجميعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤

الغريزي لمصر في عروقهم، رغم ما قاسوه فيها من جوع وقهر ومذابح على يد المحتلين، فيقول كلوت بك سنة ١٨٤٠ تحت عنوان: "حب المصريين أوطانهم": "لا يوجد بين مخلوقات الله من يذهب المذهب البعيد في حب مسقط رأسه كالمصريين[١٨٩]"، فما أن وجدوا من يهتف باسم مصر والمصريين حتى هرعوا إليه.... كأنهم على معياد.

يعلق جون نينيه في مراسلاته للصحف الفرنسية والسويسرية في ٢ فبراير ١٨٨١ على تعجب المفكرين الكبار في أوروبا من موقف الضباط المصريين المتحد في حادثة قصر النيل، ولماذا لم يحصل بينهم قتال، قال: "قتال ماذا؟ ومع ماذا؟ إن الجيش المصري هو دماء الشعب النيلي الذي لم تفسده الرذيلة ونبات الأبسنت والخطابات والسياسة الخداعة، الشعب طاهر من هذا الدنس، ولا يتقاتل مع نفسه ضد الشعب، بين المحراث المحبوب والبندقية التي أُجبر على حملها يوجد اتحاد أخوي، وكل الوزارات وكل الدبلوماسيين في العالم سوف لا ينجحون في قطع هذه الصلة العجيبة[١٩٠]"".

في نفس الوقت، أيد عرابي الصالحون والطالحون، المصريون ومستوطنون أجانب، الوطنيون والخائنون، فهرع إليه الفلاحون المنكوبون بالإتاوات والسخرة وعبء تسديد ديون إسماعيل لروتشيلد وديونهم الشخصية للمرابين، والمتعطشين لمن يُعليهم ويُعلي مصر فوق الجميع، وهرع إليه كبار الملاك، أو "الملوك الصغار" على حد تعبير إلكسندر شولش[١٩١]، الذين أغراهم الغنى الطاغي والنفوذ الاقتصادي ليكونوا أصحاب نفوذ سياسي يشارك الخديوي الحكم ويمنع قدوم منافس أجنبي جديد لهم، وهرع إليه علماء الأزهر والكنسية، وهرع إليه كبار التجّار مصريون أو مستوطنون ضيقا من تحكم التجار الأوروبيين في الصادر والوارد، بل وهرع إليه فريق من العائلة الحاكمة منهم إخوة لمحمد علي مثل زينب هانم وابناء لمحمد علي مثل حليم باشا رفضا لولاية توفيق؛ لأنهم يرون أن أبيه إسماعيل اغتصب له العرش اغتصابا برشوة السلطان العثمانلي ليجعل الحكم في أكبر أبنائه وحده وحرم حليم من العرش، وأيده السلطان - في البداية- أملا في إلغاء الامتيازات التي أخذها منه إسماعيل بالرشوة.

وبتعبير إلينور بيرتز: "أصبح عرابي محور الاضطراب من أجل الاستقلال، وهو ما أيدته تأييدا واسعا فئات مختلفة، أيده كبار ملاك الأرض الذين قاوموا الاستغلال الأجنبي لمرافق مصر المستجدة، وأيده العساكر الذين جندوا من طبقة الفلاحين المرهقين إرهاقا متزايدا لتسديد الدين الأجنبي"[١٩٢].

فمن من هؤلاء سيبقى مع عرابي وصحبه وجنود مصر للنهاية؟

▲▲▲ شرارة.. مصر للمصريين

الشرارة الأولى للثورة أطلقها ظلم إسماعيل للضباط المصريين بترك ناظر الجهادية (وزير الحربية)

---

(١٨٩)- لمحة عامة إلى مصر، كلوت بك، مرجع سابق، ص ٢٨٩
(١٩٠)- رسائل من مصر، جون نينيه، مرجع سابق، ص ٢٣٥- ٢٣٦
(١٩١)- مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨- ١٨٨٢، ألكسندر شولش، ترجمة رءوف عباس حامد، ص ١٨٦
(١٩٢)- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١١

الشركسي عثمان رفقي وبني جنسه العبيد يتكبرون على المصريين "في الرايحة والجاية"، لا محترمين أنهم أبناء البلد ولا أنهم زملاءهم، حتى أنهم كانوا يسخرون من الضباط المصريين بقولهم: "يا مقطف"، إشارة إلى أعمال الزراعة التي يقوم بها الفلاحون حاملين المقطف والفاس.

وبجانب هذا تأثر الجيش بالتدخل المباشر للوزارة الأوروبية في أمور الجيش والبلد ككل، فيقول سليم النقاش في كتابه الصادر ١٨٨٤ "مصر والمصريين"، وهو ما أيده عرابي ونقله في مذكراته: "وكان من أهم أسباب الاختلال إذ ذاك عسر المالية وتداخل الأجانب في أمور البلاد، واستئثارهم بها على عهد الوزارة الويلسونية في مدة إسماعيل، واشتداد وطأتهم على العسكرية، وطموح أبصارهم إلى ما أوجب يومئذ استحكام الضغائن في صدور الجهادية عموما، واستيائهم من الأجانب بسبب قطع مرتباتهم"، ورغم أن توفيق سعى لإصلاح الحال المالية فور توليه، إلا أنه "بقي في نفوس الجهادية أثر سيء بعثهم على اغتنام فرصة للتخلص من ربقة الأجنبي، ومن أهمها أيضا ما كان من بعض الأجانب أو أكثرهم من استخفافهم بالأهالي والأعراض عن مصالحهم وتداخلهم في الإدارات وأمور البلاد إجحافا بحقوق الأمة، فأعيا ذلك رجال العسكرية، وخافوا زيادة الاستئثار؛ فنفوروا إلى إنقاذ البلاد من تداخل الأجانب".[١٩٣]

كما يشير أحمد شفيق باشا- كشاهد عيان حيث كان وقتها موظفا بالمجلس الخصوصي بالداخلية- إلى أن من أسباب السخط التوقف عن دفع مرتبات الضباط والموظفين عموما ١٨ شهرا حتى ساءت حالهم، وأنه مما صعد بغضب الضباط أنه في الوقت الذي يجري تسريح الضباط المصريين وتعطيل مرتبات الباقين علموا باستدعاء الضباط الإنجليز من الهند[١٩٤]، وبحسب نينيه فإن "ريفرز ويلسون طرد الضباط بدون أن يدفع رواتبهم متخيلا أنه يتعامل مع عبيد زنوج"[١٩٥].

ويقول عرابي إن عثمان رفقي آل على نفسه أن يعمم سلطة الشراكسة على حساب المصريين؛ فأصدر قانونا يمنع الجنود المصريين تحت السلاح من الترقي لرتبة الضباط، وأزاح قيادات مصرية مثل عبد العال حلمي وأحمد عبد الغفار وعين محلهم شراكسة، فاجتمع الضباط وهم في هياج في بيت عرابي يطلبون منه التصرف، ونصبوه زعيما لهم، خاصة وأنهم علموا أن الشراكسة يجتمعون في بيت خسرو باشا، كبير الشراكسة، "يتذاكرون في دولة المماليك في كل ليلة بحضور عثمان باشا رفقي، ويلعنون خيري بك لتسليمه وإذعانه بالطاعة إلى السلطان سليم، ويقولون إنه قد حان الوقت لرد بضاعتنا، وأنهم لا يغلبون من قلة، وظنوا أنهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك المماليك من قبلهم"[١٩٦].

وهكذا.. فكل من شرب من احتلال مصر راجع يشرب تاني، كل من احتل مصر يوما يحلم بالعودة لاحتلالها، لا يردعه في هذا قلة عدده، ولا قبح أفعاله، ولا طول زمان سقوطه من على عرشها المغصوب، أيا كانت لغته، دينه، جنسه.

---

[١٩٣]- مذكرات الزعيم أحمد عرابي، ج١، ص ١٣٥- ١٣٦، ومصر للمصريين، سليم النقاش، ج٤، ص ٥-٦

[١٩٤]- مذكراتي في نصف قرن، أحمد شفيق باشا، ط١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٤، ص ٢٩- ٣١

[١٩٥]- رسائل من مصر، جون نينيه، مرجع سابق، ص ٢٥٢

[١٩٦]- مذكرات الزعيم أحمد عرابي، مرجع سابق، ص ٢٢٦- ٢٢٧

فقرر الضباط، ومنهم أحمد عرابي وعبد العال حلمي وطلبة عصمت وعلي فهمي ومحمد عبيد اتباع الطريق القانوني برفع عريضة إلى رئيس النظار (رئيس الوزراء) رياض باشا (ومختلف حول أصله ما بين يهودي أو تركي[١٩٧]) في ٣٠ يناير ١٨٨١ تشكو من عثمان رفقي من أنه "يعامل ضباط العسكرية بالذل والاحتقار"، وتشكو من إحالة الضباط الوطنيين، أي المصريين، إلى الاستيداع دون غيرهم من الضباط من بني جنسه[١٩٨]، وتطلب عزل رفقي، وتعيين وزير حربية مصري، ورفع عدد الجيش إلى ١٨ ألفا (وكان نزل إلى ١٠ آلاف).

ورغم أن العريضة ليس فيها أي إساءة للخديوي ولا مبالغة في المطالب ولكن توفيق اعتراه القلق أن يتضرر العرش "لو استتب أمر هذه العصابة واستفحل عملها"، فقرر هو ورياض التخلص من القيادات المصرية بحركة غدر، وهم علي بك فهمي المشهور بالديب، رئيس جند الحرس الخديوي، وأحمد عرابي بك أمير جند العباسية، وعبد العال بك حلمي المعروف بأبي حشيش أمير الجند السوداني المعسكر بطرة، الموقعة أسمائهم على العريضة، فأرسل عثمان رفقي إليهم أن يحضروا اجتماعا في ديوان الجهادية (وزارة الحربية) في قصر النيل للترتيب للفرقة الحربية التي ستصحب جميلة هانم- أخت توفيق- خلال زفافها، لكن الضباط شموا ريحة الغدر العلوي الشهير، واتفقوا مع زملائهم على أنه لو تأخروا يأتوا لإنقاذهم، وصدق ظنهم، فوجدوا أن أوامر تنتظرهم بالقبض عليهم وتقديمهم لمحاكمة عسكرية عاجلة، والجلسة منعقدة، فلما تأخروا اقتحم الضباط المصريون الآخرون مع حشد من الجنود بقيادة البكباشي محمد عبيد الديوان وهاجوا على الشراكسة، وكسروا الأبواب والشبابيك، وخلصوا زملائهم من أيديهم وهاجموا عثمان رفقي الذي فرَّ كالفأر من أمام القطط الغاضبة، وقفز من الشباك حيث خبأه رئيس ورشة الترزية في الديوان داخل كيس ملابس، وهرب كل الشراكسة الذين كانوا محتميين في طبنجاتهم قبل ساعات قليلة، واشتهرت هذه الوقائع باسم "حادثة قصر النيل"[١٩٩]، فكان أول نصر معلوم للضباط المصريين في وجه محتليهم والمماليك منذ إعادة تأسيس الجيش.

يقول عرابي إنه حين القبض عليه هو وزميليه وإدخالهم في قصر النيل وجدوا الديوان محتشدا بالشراكسة من رتبة ملازم إلى فريق، وبأيديهم الطبنجات، مصطفين على الجنبين ونحن نسير أمامهم "وهم في غاية الفرح والمرح"، سعداء بالقبض على المصريين، وخسرو باشا يهزأ بالضباط المصريين بقوله لهم: "إيه زنبللي هارف لا"، أي "فلاحين شغالين بالمقاطف[٢٠٠]".

يهزأ بهم لأنهم شغالين بالمقاطف بعرقهم وفي بلدهم يبدرون الخير، ولا يهزأ بنفسه لأنه شغال مرتزق

---

[١٩٧]- موقع ذاكرة مصر المعاصرة التابع لمكتبة الإسكندرية.
http://modernegypt.bibalex.org/Types/Persons/Details.aspx?type=minister&ID=e4EED6HD8Byir7vnNn6Z7w%3D%3D
ويقول جون نينيه في مراسلاته للصحف الفرنسية والسويسرية بتاريخ ٢ فبراير ١٨٨١ إن "رياض باشا نفسه خارج من أسرة يهودية حيث يكون الجيل الثالث"، وأمه شركسية، وأرجع إلى هذا التكوين العائلي ما وصفها بـ"القوة الهمجية فيه" وتفضيل الشراكسة على المصريين في الجيش: رسائل من مصر، جون نينيه، مرجع سابق، ص ٢٣٣- ٢٣٤

[١٩٨]- مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨- ١٨٨٢، ألكسندر شولش، مرجع سابق، ص ١٩٧

[١٩٩]- انظر: المرجع السباق، ص ١٩٧- ١٩٨، ومذكرات الزعيم أحمد عرابي، تحقيق عبد المنعم الجميعي، ص ٢٣٢- ٢٣٣

[٢٠٠]- مذكرات الزعيم أحمد عرابي، ص ٢٣٠

بالسيف في بل بلد شارك في اغتصابها ويبدر الدم والشر.. وهكذا ورث الغزاة استهزاء الشيطان بالصالحين في الاستهزاء بأولاد البلد الأصليين.

زادت حركة الغدر الضباط إصرارا على أخذ حقوقهم فكانت وقفة عابدين الأولى (مشهورة باسم حادثة السلاملك)، وهي أنهم توجهوا بقيادة عرابي وخضر خضر إلى ساحة قصر عابدين في ١ فبراير ١٨٨١ وعرضوا على الخديو وسط حشد كبير من الجنود والمتفرجين من الأهالي والأجانب مطالبهم، وأمام غضبهم لم يجد توفيق إلا الموافقة[٢٠١] فيما يخص إقالة رفقي وتعيين محمود سامي البارودي محله، فكان ثاني نصر للضباط المصريين.

يعلق نينيه كشاهد عيان على الأحداث: "كان نائب الملك (الخديوي) خائفا، وكان وزيره (رياض) يرتعد بشدة بالرغم من حذلقته"؛ ولذا لم يستطع أن يمارس ما كان يمارسه من قبل مع الفلاحين، وهو السجن والضرب بالعصا والنفي[٢٠٢]، لقد انسخط المحتلون إلى أصلهم، إلى أخلاق الغزاة، يستأسدون على من يخشاهم وتسقط ثقته في نفسه، وينسحقون فئرانا إذا ما لاحت لمعة التحدي والثبات والثقة في عيون أصحاب الحق.

واستجاب البارودي لطلب رفع مرتبات الجيش التي قال عرابي إنها لم تُرفع منذ أيام محمد علي، وأقام لهم حفل تكريم في نفس مكان اعتقال العقداء الثلاثة بالديوان في قصر النيل، والبارودي من أصل شركسي، لكنه فلتة من فلتات جنسه، من ندرة أخلصت للبلد الذي آواها، ورأت أن أهله المصريين أولى به، تضامن مع الضباط الفلاحين، بل وتطوع أن يكون رجلهم داخل الحكومة ينقل لهم ما يدبره الخديوي والشراكسة ضدهم، وتأييدا لأن "مصر للمصريين"، حث عرابي على أن يتولى حكم مصر، ولكن عرابي رفض[٢٠٣].

وعاد الضباط لثكناتهم فرحين بتخفيف الضيق عن زملائهم، ولكن وهم متوجسون من الخديوي رغم أنهم لم يكونوا ينتوون عمل أي تحرك جديد طالما استمرت الإصلاحات، هرع الخديو لاستدعاء القناصل، سألوه إن كان لديه قوات يواجه بها قوات الفلاحين، أجاب: لا، فنصحوه بأن يستسلم، صاح رياض: سادتي.. غدا سوف يجبرنا الجيش على حرق كتاب الدَين العام، كيف يصبح رعاياكم ودائني مصر؟[٢٠٤]

وأظهر توفيق لعرابي أنه معهم، وعقدا اجتماعات سرية، ويقول المراسل السويسري جون نينيه في برقية بعثها للصحف الأوروبية ١١ مارس ١٨٨١ إن الفيالق كانت تصيح بين حين وآخر أمام عابدين: "يحيا توفيق، تحيا مصر، وتسقط الوزارة، يسقط رياض[٢٠٥]".

هل حقا سطع هتاف "تحيا مصر" في تلك الأيام كما نقلها نينيه؟ لو صحَّ هذ فإنها أول "تحيا مصر" تنطق في التاريخ الحديث، وأول إشارة لعودة النشيد الوطني إلى مصر.

---

[٢٠١]-انظر: مصر للمصريين، سليم النقاش، ج ٤، ص ٨٥- ٨٦

[٢٠٢]- رسائل من مصر، جون نينيه، مرجع سابق، ص ٢٣٦- ٢٣٧

[٢٠٣]- انظر شهادة عرابي حول هذا في مذكرات الزعيم أحمد عرابي، ج١، مرجع سابق، ص ٣٣٣

[٢٠٤]- انظر: رسائل من مصر، جون نينيه، ٢٣٨

[٢٠٥]- نفس المرجع، ص ٢٤٩

تحية لكِ يا عين حور

يا من زينك كاملا بيديه

إنه هو الذي زينك

إنه هو الذي شيدك

إنه هو الذي أسسك[٢٠٦]

وفجأة صدر قرار من توفيق- كأنه يدفع الضباط للثورة دفعا- بإقالة البارودي وبإخراج الآلاي الذي يقوده عرابي والآلاي الذي يقوده عبد العال حلمي من القاهرة إلى الشرقية ودمياط، فأحسوا أنها عملية تصفية جديدة، وعفو الخديوي عن الضباط الثائرين في قصر النيل لم تكن إلا "مطاطية للريح"، وشاع أن الخديوي هدفه إغراقهم كما حصل في حادثة الأمير حليم والأمير كمال حين سقط بهما القطار على كوبري كفر الزيات في النيل وظن كثيرون أن سعيد من أوعز بإغراقه، فرفضوا تنفيذ الأمر، وحتى لا يعد عصيانا، سلك عرابي وصحبه طريقا شرعيا وهو الذهاب إلى عابدين لمقابلة توفيق، وهي الوقفة العظمى المشهورة باسم "وقفة عابدين" في ٩ سبتمبر ١٨٨١.

وقبلها، نشرت صحيفة الأهرام في ٩ يونيو ١٨٨١ أن قناصل الدول التقوا بالخديوي وحدثوه عن شائعات "بخصوص حركات جديدة من الضباط بمصر مما يخل بالراحة العامة، وأنهم مستعدون لأن يعلنوا ذلك لدولهم حتى ترى في الطرق المناسبة للإسكان والراحة"، ورد الخديوي بأنه سيبذل كل جهده "في إزالة كل إشكال من هذا القبيل".

وفي هذه الأثناء ظهر عبد الله النديم وسط الضباط حاملا صوت بقية الشعب لما تأكد الإحساس بخيانة الخديوي والتنسيق مع الأجانب، وحمل النديم على كتفيه عبء أن يكون حلقة الوصل بين الضباط وبين بقية الشعب[٢٠٧]، ويالها من مهمة وضع رقبته ثمنا لها، خاصة في زمن كان القتل لأهون سبب.

فوزع منشورا يطلب فيه من الشعب إنابة عرابي في المطالبة بحقوقه والتحدث باسمه، وجمع التوقيعات عليه لتكون هذه هي أول "حركة توكيلات شعبية" في تاريخ مصر لتُنصب زعيما مصريا بإرادة مصرية حرة، ويعقبها بعد ذلك "حركة توكيلات" قادها الصحفي أحمد حلمي سنة ١٩٠٨، ثم "حركة توكيلات" لصالح سعد زغلول ١٩١٩.

في هذه الأثناء كانت فرنسا احتلت تونس، وهو ما فتح عيون المصريين على نوايا الأوروبيين، وأرسل عرابي رسالة للسلطان عبد الحميد يحذره من أن بريطانيا قد تحتل مصر لتحقق توازن قوى في المنطقة مع فرنسا، فيما اقترح راغب باشا على عرابي أن يغتال توفيق بأورطة من الجنود ليتولى الزعامة، فرفض

---

[٢٠٦]- القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم ، مرجع سابق، ص ١٢٥
[٢٠٧]- انظر: مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨- ١٨٨٢، ألكسندر شولش، ص ١٦٧- ١٨١ و ٢٠١

عرابي تماما[٢٠٨]، لم يكن عرابي يريد دما، كما لم تكن مشكلته في البداية مع توفيق، بل ظل يناديه بمولاي وكل ألفاظ التبجيل حتى قرب النهاية، كانت مطالب عرابي في البداية شديدة التواضع، بل حتى لا ترقى لمرتبة الثورية، وهي أن "يتساوى" المصريون بالأجانب في الوظائف والمرتبات والحقوق والواجبات، وكف الأوروبيين عن التدخل في توجيه أمور البلاد، وعمل دستور وبرلمان.. هكذا كان أمل المصريين أن "يتساووا" في بلدهم بالأجنبي، مع أن الطبيعي أن يكونوا فوقه.

أرسل عرابي خطابا في صباح ٩ سبتمبر لوزير الجهادية داود يكن بأن الضباط قرروا مقابلة الخديوي في نفس اليوم لوضع النقاط فوق الحروف، وأرسل رسالة للقنصل البريطاني يعلمه بالمظاهرة وأنها لحماية الضباط الذين تعرضوا لتهديدات منذ فبراير حتى لا يتخذها ذريعة لنشر إشاعات أن الجيش يقوم بعصيان ويهدد سلامة الرعايا الأجانب، وسعى توفيق لمنع وصول الآلايات إلى القصر بكل وسيلة، وبتعبير ميخائيل شاروبيم في كتابه "الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث" الصادر سنة ١٨٩٨ فإنه راح العباسية ليمنع الجنود من التحرك لعابدين فلم يجد فيها الجنود، فضرب كفا على كف وملابسه امتلأت عرقا وترابا، فكرَّ على عابدين، فيما كانت الآلايات وراء عرابي تقترب من القصر وهم ينفخون في البوق ويجرون ٢٢ مدفعا من الطراز الكبير، والنساء ورائه يغنين الأغاني الريفية، ويهتفن: "الله ينصرك يا عرابي يا سند الولايا الله ينصرك"[٢٠٩].

انضم حرس الخديوي في القصر بقيادة علي فهمي إلى عرابي، والجماهير محتشدة في الميدان حول الجيش، والناس تراقب من الأسطح والشبابيك، والأجانب الفضوليون يتفرجون بدورهم، لحظة صمتت أمامها الدنيا، صار الخديوي بلا حول ولا قوة، يصطف في جانب وبجواره الأمريكي إستون رئيس أركان الجيش، وكوكسن القنصل البريطاني بالأسكندرية، وكولفن المراقب البريطاني في الوزارة، والأتراك والشراكسة، فيما يصطف في الجانب الثاني أمامهم جيش متحد قوي العزيمة يرابض عند أبواب القصر وخلفه الأهالي، إنه فصل جديد من فصول معركة الخير والشر، الحق والباطل على أرض مصر.

---

[٢٠٨]- المرجع السابق، ص ١٨١

[٢٠٩]- انظر: الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث، ميخائيل شاروبيم، مكتبة مدبولي، ط ٢، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٣٠٥- ٣١٢



يمين الناظر عرابي والمصريون في ظهره وعلى الشمال الخديوي والأوروبيون والترك في ظهره (مصدر الصورة: الأهرام[٢١٠])

الحق فيها هذه المرة نشط يقظ ليس مقهورا، وماعت تترقب، توجه عرابي إلى الخديوي وخلفه ٣٠ ضابطا سيوفهم مسلولة بأيديهم وعرابي أمامهم راكبا حصانه وسيفه في يده، ولما طالبه الخديوي بأن يترجل ويغمد سيفه نفذ الأمر حتى لا يتكهرب الجو، وإعمالا لمبدأ طاعة الجندي لقائده الأعلى، قبل أن يستمع توفيق للمطالب أمر الضباط بالعودة لمعسكراتهم فرفضوا تنفيذ الأمر هذه المرة لأنه هدم لما جاءوا لأجله، وانتظروا إشارة عرابي، ودار الحوار الشهير بين عرابي والخديوي:

تساءل الخديوي عن أسباب حضوره بالجيش إلى عابدين.

عرابي: جئنا يا مولاي لنعرض عليك طَلبات الأمة والجيش وكلها طلبات عادلة

الخديوي: وما هي هذه الطلبات؟

عرابي: إسقاط الوزارة المستبدة، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبي، وزيادة عدد الجيش إلى القدر المعين في الفرمانات السلطانية، والتصديق على القوانين العسكرية السابق أمركم بوضعها.

الخديوي: كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا.

عرابي: نحن خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم.

حينها.. طلب كولفن من توفيق ان يأمر بقتل عرابي، فرفض خوفا الجيش المحيط بالقصر قائلا: "ألم تنظر إلى من حولنا من العساكر؟"، فطلب كولفن منه الدخول على أن يتولى هو المفاوضة مع عرابي حتى لا يبدو الخديوي مستسلما لما يمليه عليه الثوار أمام الملأ، وتابع الأهالي انسحاب الخديو من نوافذ وأسطح

[٢١٠]- الزعيم أحمد عرابى رحلة كفاح من أجل الوطن.. من الثورة إلى المنفى، الأهرام، ٩- ٩- ٢٠١٦، السنة ١٤١ العدد ٤٧٣٩٤

المنازل المحيطة بالميدان[٢١١].

وهدد المسئول البريطاني عرابي باللجوء للسلطان العثمانلي والدول الأجنبية، وأصر عرابي على أن الجيش لا يريد إلا ضمان الحقوق والحريات للمصريين، فاضطر المفاوض الإنجليزي للقبول باستقالة الوزارة في الحال بشروط عرابي، وهي ألا يشارك أحد من الأسر الحاكمة في الوزارة ولا يعين شركسي ناظرا للجهادية، وأن تكتب وثيقة تكليف الوزارة الجديدة قبل أن يغادر، فكتبها الخديوي المختبئ بالداخل وقرأها حاملها بصوت عالي أمام الناس فصدحت الموسيقى وصيحات الابتهاج في أرجاء الميدان، وبعدها أطل الخديوي من شرفة القصر، ورغبة في عدم التصعيد أكد عرابي لتوفيق الولاء بعد أن أطل عليهم من شرفة القصر، وانسحب الجنود بنظام تام[٢١٢].

لماذا لم يقتل عرابي توفيق؟ لماذا لم ينتهز فرصة احتشاد الجيش والجماهير ورائه، وانحسار الخديوي كالفأر المبلول مع كبار عائلته في قصره ليتخلص منه، أو على الأقل يعتقله ويخلعه؟ إنه أجنبي استقوى بأجانب ضد مصر ويحتمي بالدبلوماسيين الأجانب في مواجهة جيش البلد الذي يحكمه "عيني عينك"! إن عائلته قتلت عشرات آلاف المصريين في السخرة وفي حروب أرادوا بها أن يكونوا أباطرة وفي قمع ثوراتهم الصغيرة في القرى، وقتلوهم ألما وكمدا من سحب أراضيهم أو جلد ظهورهم لانتزاع الضرايب الظالمة، وتوفيق عنده استعداد أن يقتل عشرات الآلاف آخرين- وسيفعل- لماذا إذن تركه عرابي ولم ينتهز الفرصة ويخلع هذا الحكم الدموي ويعلن حكما مصريا؟

سؤال حيَّر مؤرخين أوروبيين وليس فيَ مصر وحدها، لو أي ثورة وقع بين يديها الحكم الكارهة له ما تركوه، الثورة الفرنسية والروسية والإنجليزية علَّقت العائلات الحاكمة فوق المشانق بكل انشكاح، لماذا لم يفعلها عرابي إذن؟ هل لأن المصريين طابعهم ليس دمويا؟ هل ما يسمى بالتسامح المصري الزائد عن الحد مع الغزاة الذي ينسى الإساءة بسرعة البرق؟ أم أن طموحه لم يكن وصل إلى أن يدفعه ليزيح هذه العائلة ويتسلم الحكم مصريون، أم أنه خاف من أنه لو فعلها لهاج عليه السلطان العثمانلي والأوروبيون فيتخذوها فرصة لاجتياح مصر بجيوشهم؟

وبعد وقفة عابدين عاشت مصر ٣ شهور وصفها ولفريد سكون بلنت- السياسي والرحالة البريطاني الذي كان في مصر وقتها- في كتابه "التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر" بأنها "أسعد الأوقات السياسية التي شهدتها مصر، وأنا سعيد لأني شهدت هذه الفترة بعينيّ، الأمر الذي يجعلني أقول: إني لم أسمع عن هذه الفترة، أو أشك في حقيقتها، كانت الجماعات الوطنية كلها، بل وكل سكان القاهرة كانوا جميعا متحدين في مسألة تحقيق الفكرة الوطنية العظيمة (...) وفي سائر أنحاء مصر انتشر الفرح والسرور على نحو لم يسبق أن رآه أحد من أبناء النيل منذ مئات السنين، ومن الصحيح أيضا أن الناس في شوارع القاهرة كانوا يستوقفون بعضهم بعضا، على الرغم من عدم تعارفهم، لكي يتعانقوا ويفرحوا ويبتهجوا لذلك الحكم الحر

---

[٢١١]- مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨- ١٨٨٢، ألكسندر شولش، ص ١٨٤، ومذكرات الزعيم أحمد عرابي، ص ٣٤- ٣٦، وص ٢٩٨- ٣٠٠

[٢١٢]- انظر: مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨- ١٨٨٢، مرجع سابق، ص ١٨٤

الجديد المدهش الذي بدا بصورة مفاجئة مثل فجر بعد ليل طويل مخيف[٢١٣]".

ورفرفت الروح المصرية في العلالي، في سماء "نوت"[٢١٤].

وفي شهادة فارمان قال إن عرابي أصبح هو القوة الحاكمة، ولم يتدخل عرابي في الإيرادات المخصصة لدفع فوايد الدين العمومي، ولم يصدر منه أي خطر حقيقي في سياسته سوى أنه قلل من هيبة القوات الأجنبية ما ربما يؤدي- إذا استمرت الحال على هذا الموال- إلى استقلال مصر مرة أخرى.

ووصف فارمان، شاهد العيان على الأحداث أيضا، عرابي بأنه "كان معبود الشعب، وقلما كان يوجد وطني محبوب لدى الجمهور المصري كعرابي باشا، وظهوره بالإسكندرية أصبح مناسبة لاحتفاء شعبي لم يسبق له مثيل بين أفراد هذا الشعب، وجعله هذا موضع سخط هؤلاء الذين كانوا يملون على الحكومة سياستها، وكثيرا ما تساعد المطامع الشخصية إلى درجة ما على إثارة الحركة الوطنية، ولكن الحقائق أثبتت فيما بعد أن ما من وطني كان بعيدا عن الدوافع الشخصية مثل عرابي. والواقع أنه بعد التحقيق الدقيق لم يمكن العثور على أي دافع لديه (سوى الرغبة الجامحة في التحرر من سيطرة أجنبية غاشمة)[٢١٥]".

♦♦♦ عرابي وروتشيلد

وارتعب الشيطان القابع في بنوك روتشيلد وجوشن وأوبنهايم في لندن وغيرها من أن مخططه لابتلاع مصر سيفشل، فبدأ يخطو خطواته السوداء لكسر الفرحة المصرية، بسلاحي الرشوة والإرهاب.

يقول سليم النقاش في كتابه "مصر للمصريين" إن روتشيلد حين تولى توفيق منصبه ١٨٧٩ سارع لإرسال تهنئة له تقول إن "هذا التغيير قد أزال الكثير من المصاعب التي حالت دون نفوذ شروط الميثاق المبرم بينهم وبين الحكومة المصرية متعلقا بقرض الأملاك الموهوبة"[٢١٦]، لكن روتشيلد فوجئ بالجيش المصري يقفز للمشهد.

ونشر ولفريد سكاون بلنت أن "بتون" (لم يتضح منصبه) أبلغه أن روتشيلد عرض على عرابي ٤ آلاف جنيه إنجليزي في العام مدى لحياة إذا ما غادر مصر، وكان هذا في يونيو ١٨٨٢، أي قبل الغزو بشهر.

وحين سأل بلنت عرابي عن الأمر بعد سنوات، قال له إنه عقب إنذار مايو الذي وجهته أوروبا لمصر قبل ضرب الإسكندرية، زاره القنصل، عارضا عليه ٥٠٠ جنيه مصري شهريا من الحكومة الفرنسية مقابل أن يغادر مصر إلى باريس، ويُعامل هناك مثلما حدث مع عبد القادر الجزائري، ولكن عرابي رفض

---

[٢١٣]- التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر (رواية شخصية للأحداث)، ولفريد سكاون بلنت، مرجع سابق، ص ١٩٩- ٢٠٠ -

[٢١٤]- نوت في الحضارة المصرية هي قبة السماء الظاهرة، وفي فكرة الخلق المصرية فإن نوت كانت منطبقة على جب (الأرض) فأمر الإله الخالق بانفصالهما عن بعضهما، فرفع الرب شو (الهوا) نوت إلى أعلى، وبذلك توفر مناخ لظهور الحياة على الأرض.

[٢١٥]- مصر وكيف غُدر بها، ألبرت فارمان، مرجع سابق، ص ٣٢٧- ٣٢٨

[٢١٦]- مصر للمصريين، سليم النقاش، ج٤، مرجع سابق، ص ٩

رفضا باتا، غير أنه- والحديث لعرابي- لم يسمع قط عن معاش معروض عليه من آل روتشيلد[٢١٧].

وبالربط بين روايتي عرابي و"بتون" فالاحتمال أن العرض الفرنسي هو بإيحاء من بيوت مال روتشيلد.

فأرسل قنصل بريطانيا في مصر إدوارد ماليت بلاغا إلى جرانفيلد وزير خارجية بريطانيا في حكومة جلادستون يقول فيه: "لن نستطيع استرداد سيادتنا حتى يُقضي على السيطرة العسكرية التي تثقل كاهل البلاد الآن، وإني لأعتقد أنه لا بد وأن تطرأ مشكلة حادة قبل أن نستطيع الوصول إلى حل مرضٍ للمسألة المصرية، وإنه من الخير أن نتعجلها (أي المشكلة الحادة) بدل أن نحاول تأخيرها[٢١٨]".

وجاء هذا في كتاب "دمار مصر" الذي أصدره تيودور روذستين، مراسل صحيفة إيجيبشيان استاندارد، سنة ١٩١٠، واعتبر ألكسندر شولش أن الترويج للديكتاتورية العسكرية أو العداء للأجانب كان "أسطورة دعائية لتبرير التدخل"، بل كان الأجانب يعيشون في مصر في ظروف لا يتمتعون بها في بلادهم[٢١٩].

وهكذا، أصبح مقضيا أن تقع المشكلة الحادة، وهيأت صحف أجنبية الأجواء لتبرير وجودها، نشرت وكالتا رويترز وهافاس انتقادات لأداء الحكومة التي بها عرابي، وأظهرت الوكالتان "القلق على الشعب"، وطرحت ورقة المقيمين الأجانب على طاولة المضاربين الخضراء لأجل مصلحة السماسرة الماليين، بتعبير جون نينيه الذي سخر من الأكاذيب التي تبثها الوكالتان وهو يعلم كذبها بحكم عمله كمراسل على الأرض.

ويضيف: "إذا قرأتم البرقيات المغرضة التي برق بها يوميا مراسلو "الديلي نيوز" وصحف كبيرة أخرى إنجليزية سوف تثير ازدراءكم لها، وكل ذلك من أجل البورصة، يجب خفضها من أجل رفعها، على حساب حرية أمة، ودماء آلاف الأفراد، ولم لا! المصالح فوق العدالة، هكذا يريد تقدم التقدم "القوة فوق الحق"، وحرصت صحف على وصف عرابي بـ"الديكتاتور المصري".

في المقابل يصف هو المشهد حينها في برقيات بتاريخ ٢٠- ٣ و١٢- ٥- ١٨٨٢ إلى صحيفته: "أظهر الجيش التبعية والصبر، فلم يفهموه ولا سمعوه، أرادوا فصل الشعب عن الريف الذي خرج منه، الجيش الذي هو مشكل منه، هنا يكون الخطأ وسينبغي الآن الإصغاء إليه"، "يا له من شعب يثير الإعجاب، هؤلاء المصريون! يتخذون ما هو فوق طاقتهم، وأن يتحملوا في أنفسهم، ولا يبالون بشيء[٢٢٠]".

وشاع أن الضباط الشراكسة بتحريض من إسماعيل تآمروا على قتل عرابي وصحبه، ووشى بهم إلى عرابي زميل لهم؛ فألقى القبض على الضباط المسئولين، وحكم عليهم بعقوبات مختلفة، خففها الخديو بضغط من القنصل البريطاني، وبالتوازي أشهرت بريطانيا وفرنسا سلاح التدخل صراحة بأن أرسلتا في مايو ١٨٨٢ ثلاث سفن حربية إلى الإسكندرية (بحجة المحافظة على أرواح رعاياهما)، وأوصى ممثلو

---

[٢١٧]- التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر، مرجع سابق، ص ٣٨٤
[٢١٨]- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١٢
[٢١٩]- مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨- ١٨٨٢، ألكسندر شولش، مرجع سابق، ص ٢٤٣- ٢٤٤
[٢٢٠]- رسائل من مصر (١٨٧٩- ١٨٨٢)، جون نينيه، مرجع سابق، ص ٢٥٢ و٣٧٥- ٣٧٦ و٤٠١

فرنسا وإنجلترا في مصر الخديوي أن يقيل الوزارة الوطنية، وأن ينفى عرابي من مصر، وأن يبعد قائدين وطنيين آخرين إلى الداخل، وبالفعل أقيلت الوزارة، ولكن ما لبث احتجاج حامية الإسكندرية أن أجبرت الخديوي على إعادة الوزارة إلى الحكم.

وأثارت تحركات الأسطول البريطاني وخنوع السلطان العثمانلي عبد الحميد الثاني لإنجلترا قلق بقية الدول الكبرى الرافضة لأن تستفرد بريطانيا بمصر، فدعوا لمؤتمر سداسي تتمثل فيه الدول الستة صاحبة المصالح في مصر، أي صاحبة الديون، وهي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا وروسيا، والتئم المؤتمر في إسطنبول يونيو ١٨٨٢.

وفيه اتفقوا على تقسيم النفوذ في مصر عبر ميثاق مضت عليه الدول الست بعدم التدخل، بما فيها بريطانيا، ونص على "ألا تسعى هذه الدول للحصول على مغانم إقليمية أو على امتيازات أيا كان نوعها أو على أية ميزة تجارية لرعاياها أكثر مما يستطيع رعايا الدول الأخرى الحصول عليه بالتساوي".

كما اتفقوا على أن أي دولة من الدول العظمى لا تقوم بعمل انفرادي في مصر، إلا كما قال الإنجليز في حالة "الضرورة الاستثنائية"(٢٢١).

ولأن بريطانيا متربصة من سنين لاحتلال مصر (منذ حملة فريزر ١٨٠٧ على الأقل)، تفننت في عمل الخدع التي تتغلب بها على المنافسة الدولية على مصر، ومنها حشر كلمة "إلا في حالة الضرورة الاستثنائية" في ميثاق الدول الستة، وَبدأت تخلق هذه الضرورة، فكانت أحداث الشغب بين المصريين والأجانب في الإسكندرية.

في ذلك الوقت كانت الحكومة التي بها عرابي تملك زمام الحكم، والإجراءات الحكومية مقنعة ومرضية للجميع، فيما عدا الأجانب الذين لم يكن لهم رغبة سوى حكم البلاد لمصلحتهم، وهؤلاء الذين لم يكونوا يجرأون على عصيان أوامرهم(٢٢٢)، وفي نفس الوقت بدأ القناصل، خاصة الإنجليزي واليوناني، يبذرون بذور الأحداث الدموية بين المصريين والأجانب، ولصقها بالجيش المصري في محاولة لتبرير الاحتلال المخطط له... واختاروا مكان الفوضى والشغب.. الإسكندرية.

ويواصل فارمان- الذي كان موجودا في الإسكندرية وقتها- قائلا إنه بالرغم من أن "السلام كان يسود بين مختلف طبقات الشعب إلا أن القنصلين الإنجليزي واليوناني في الإسكندرية كانا يمدان المالطيين واليونانيين بالسلاح سرا، وهكذا مدت أخطر طبقة وأكثرها فوضى بالوسائل التي أضفت على المشاغبات طابعها الدموي".

لكن بعض قناصل الدول الأخرى أحسوا بالخطر من تسليح الرعايا اليونانيين والمالطيين، إما خشية على مصالحهم أو كي لا تأخذه بريطانيا مبررا لفرض احتلالها لمصر، وعلى هذا عقدوا اجتماعا صباح الأحد

(٢٢١)- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١٢- ١٣
(٢٢٢)- مصر وكيف غُدر بها، مرجع سابق، ص ٣٣٦

١١ يونيو ١٨٨٢ (الذي سيشهد وقوع الشغب)، وتحدثوا عن أن التسليح هو "أخطر طريق يمكن اتباعه، ومن المحتمل أن يؤدي إلى تصادم في أية لحظة"، وأبلغ هذا القرار إلى القنصل الإنجليزي، وعقب تسلمه بساعتين كان الشغب والهياج على أشدهما[٢٢٣].

وتدفقت السفن الحربية لفرنسا وإيطاليا واليونان إلى ميناء الإسكندرية لمراقبة الوضع، احتشد الأسطول الإنجليزي ليمنع انفكاك أسر مصر من قيودها، واحتشدت ورائه أساطيل بقية الدول لتتأكد أنه لن يأخذ مصر أسيرة له وحده، جاءوا على أمل أن يتقاسموها.

ويحكي فارمان أنه كان هناك قليل من الود بين الطبقات الدنيا من اليونانيين في الإسكندرية وبين الأهالي، ولكن وجود البواخر اليونانية جرح كبرياء المصريين وأثار حفيظتهم، كما أثار كراهية اليونانيين بالمثل، وقد زاد توتر الشعور العام، وأصبحت جميع الطبقات في حالة من الاضطراب لم تكن لتوجد لولا وجود السفن الحربية العديدة في الميناء، ولكان الهدوء التام قد ساد لو أن هذه السفن لم تصل[٢٢٤].

شعر المصريون أن اليونانيين ليسوا مجرد جالية أو تجار وباعة، ولكنهم في ساعة الصفر تآمروا مع بلدهم ومع إنجلترا ضد مصر.

ورصد جون نينيه في رسالة إلى صحيفته في ٢٣- ٥- ١٨٨٢ أن إرسال اليونان سفينتين حربيتين أثار دهشة عامة، فيما رحب بها اليونانيون والسوريون، ويفسر نينيه سبب الترحيب: "الشعب يتسامر حول وجود الباخرتين اليونانيتين الصغيرتين، المعروف أن المرابين السوريين واليونانيين يبغضون عرابي على وجه الخصوص، الذي يراقبهم في القرى [أي يحارب انتشارهم كمرابين في القرى يستنزفون أموال وأراضي الفلاحين]. اليونانيون لمقتهم للمسلمين الذين أخرجتهم أوروبا من رق العثمانيين، والتي أنفقت من أجل ذلك الملايين التي لم ترد إليها، اليونانيون الذين كان لهم شرف إنجاب بعض أكابر الوطنيين الذين إليهم يدينون بالكثير ينكرون على الشعب الفلاح تفوقه في بعض الأمور، الحق أنه فكر في رجل يعمل خصيصا من أجل مصر، مع زملائه[٢٢٥]".

إذن اجتمع في اليونانيين كراهيتهم القديمة للفلاح المصري المتفوق عليهم حضاريا حتى وصفوه وقت الاحتلال البطلمي بـ"البربري المنحط"، ثم كرهوه لأن بلده مسلم وحمَّلوه وزر احتلال العثمانيين لهم (رغم أن اليونانيين أنفسهم يعشقون احتلال بلاد غيرهم)، ثم كرهوه لأنهم هم اضطروا للاستعانة بأوروبا لتخلصهم من الاحتلال العثمانلي في حين أن المصريين أخرجوا رجلا، بل جيشا منهم يطالب بحقوقهم وحريتهم- مثلما حقدوا على المصريين أنهم تصدوا لقبايل شعوب البحر أيام رمسيس الثالث فيما تخرَّبت وسقطت أمامهم بعض جزر اليونان- ثم كرهوه لأن هذا الجيش ينوي تخليص شعبه من الربا اليوناني واليهودي والسوري ويقول "مصر للمصريين"، إذن هي كراهية رباعية.

---

[٢٢٣]- المرجع السابق، ص ٣٣٦

[٢٢٤]- المرجع السابق، ص ٣٢٩

[٢٢٥]- رسائل من مصر، جون نينيه، مرجع سابق، ص ٣٨٠

كان يسكن شرق الإسكندرية عدد كبير من الأوروبيين والأغنياء من المصريين (أو المستمصرين) وفي غربها يسكن الفقراء سواء من المصريين أو الأجانب، وضمنهم يونانيون ومالطيون معروفون بميلهم للشغب وبسوء الخلق، وكانت بريطانيا تعتبرهم رعاياها رغم أنهم ليسوا إنجليزا ليكونوا عونا لها، وفجأة- يحكي فارمان- تشاجر مالطي من اليونانيين مع مصري على مبلغ من الفلوس، وسحب اليوناني، الذي يُقال كان مخمورا، السكين وضرب بها المصري في بطنه، وتسبب منظر المصري وهو ينزف الدم ومحمولا على يدي أصحابه غيرة وغضب الأهالي الذين تجمعوا ودخلوا في عراك مع اليونانيين والمالطيين.

لم يكن المصريون يملكون إلا النبابيت والعصي، وفجأة دوى صوت الرصاص، فقد فوجئ المصريون بأن الأجانب يملكون أسلحة نارية، ويطلقون الرصاص على المصريين العزل من أماكن عالية كالشبابيك والأسطح، فثار لذلك غضب المصريين أكثر، وقُتل في الشغب ٦٠ أوروبيا، وأضعافهم من المصريين، وافتخر أحد اليونانيين في اليوم التالي بأنه قتل خمسة أفراد[٢٢٦].

لم يكن مصرحا للأهالي بحمل السلاح، فلم يملكوا إلا الهروات، وفي المقابل يختزن اليونانيون أسلحة نارية بإذن من القنصل بحجة أنها ضرورية لحماية أنفسهم، ونتيجة لإطلاق النار جن جنون المصريين وتدفقوا إلى هذا الجانب من المدينة يقتلون بهراواتهم كل أوروبي يعثرون عليه في الطريق.

واضطر الجيش المصري للتدخل، فنزل جنود من القلاع الموجودة في جزيرة فاروس ودخلوا أحياء الإسكندرية، وبمجرد نزولهم خف الشغب بطريقة سحرية, وهذه هي الرواية الصحيحة، بقدر الإمكان، لما أطلق عليه المؤرخون مذبحة المسلمين للمسيحيين في الإسكندرية... في حين لم يطلق عليها أحد في الأيام الثلاثة أي اسم سوى أنها كانت هياجا مؤسفا خطيرا بدأه أحد الأجانب[٢٢٧].

يقصد فارمان أن من بعض الصحف الأجنبية غيرت الحقائق بعد وقت قصير، فألقت بالذنب على المصريين، وصورتها على أنها همجية من المصريين ضد الأجانب، رغم أن ما حدث هو العكس، ورغم أن الحكومة بقيادة عرابي سعت لوقف أي شحن بين المصريين والأجانب، لكن الصحافة أصرت على اختلاق حجج تبرير الاحتلال.

ويضرب مثلا بأن ظهرت هذه الفقرة في جريدة الديلي نيوز": "أطلق الأوربيون النار من النوافذ، وقتلوا عددا كبيرا من العرب الذين أحدثوا بدورهم أضرارا جسيمة بين الأوروبيين في الشوارع"[٢٢٨]، ولكن بعد أيام قليلة بدأ تزوير التاريخ والأحداث لتبرير التدخل الإنجليزي، فعندما عاد المراسلون الأوروبيون- الذين كانوا حضروا إلى مصر مع الأساطيل الأجنبية- سرعان ما أصبح يطلق على الشغب اسم "مذبحة" يرجع السبب فيها إلى تعصب المسلمين (أي المصريين)، ولقد اشتطوا في قولهم إلى حد اتهام عرابي، دون أي داع، بأنه هو الذي أوعز بهذا الشغب إلى الغوغاء، كما عمل على تنظيمه.

---

[٢٢٦]- مصر وكيف غُدر بها، مرجع سابق، ص ٣٢٩- ٣٣١، وأورد جون نينيه في برقياته لصحف أوروبية وقتها رواية مشابهة: انظر: رسايل من مصر، جون نينيه، مرجع سابق، ص ٣٨٣- ٣٨٤

[٢٢٧]- مصر وكيف غُدر بها، مرجع سابق، ص ٣٣١

[٢٢٨]- نفس المرجع، ص ٣٣٢

وبحسب فارمان "اعتقد الأوربيون [المقيمون في مصر] الأكثر ذكاء، والذين كانوا يعرفون الحقائق، أن مصالحهم سوف يخدمها الاحتلال الأجنبي، ولذا شجعوا نشر هذه الأنباء دون أن ينشروا على الملأ أي اعتراض من جانبهم. وهكذا يُصنع التاريخ"(٢٢٩).

ومن أدلة تعمد الإعلام الأوروبي تضليل الرأي العام رواية يتذكرها القنصل الأمريكي أنه بعد حدوث الشغب بأسبوع قرأ "رواية غير صحيحة بالمرة عن الحادث في إحدى الصحف المشهورة في لندن. ولما كنت على معرفة بسيطة بمراسل تلك الصحيفة فقد سمحت لنفسي أن انتقد روايته هذه. وسألته: لِمَ أخفى جزءا من الحقائق ووصف الشغب بأنه مذبحة دبرها المسلمون [المصريين] سلفا للمسيحيين [الأوروبيين] على حين أنه يعلم أن أحد الرعايا الإنجليز قد بدأها، وأن عدد القتلى من الأهالي يفوق عدد الأجانب"؟.

ولم تبدر أقل بادرة من اضطراب على المراسل. وأجاب في برود إنه "في مصر لغرض ما، وهو بهذا يؤدي الغرض من مهمته. ثم ابتسم ورفع يديه في وضع شخص يمسك بصحيفة ويقرؤها، وأضاف قائلا وهو يمزح: "إنني أرسل برقية كل يوم إلى لندن، وفي الصباح التالي يقرؤها المشتركون في الصحيفة في جميع أنحاء إنجلترا وهم يحتسون قهوتهم بكل جد وثقة كما لو كانوا يقرأون الإنجيل(٢٣٠)".

قال الصحفي الأوروبي إنه في مصر "لغرض ما"، وهكذا دائما معظمهم في مصر "لغرض ما"، ويواصل فارمان، أنه جرت محاولة جدية في ذلك الوقت للحصول على دليل يبرهن على أن عرابي باشا كان مسؤولا عن حدوث هذا الشغبِ، وأنه نتيجة لخطط رسمها هو وشركاؤه، وكان لدى الحكومة الإنجليزية من الأسباب السياسية ما يجعلها ترغب في إثبات بعض الأعمال الإجرامية ضد هؤلاء، ولذا عينت محاميا من الإسكندرية وحصلت على بعض المعلومات غير الموثوق فيها والمليئة بالمتناقضات، وخاصة من المالطيين واليونانيين، ودون أن تعثر على أي شيء يبرهن على هذا.

ووجه لورد جرانفيل في رسالة بعث بها نظر العملاء البريطانيين إلى الحصول على دليل يدين عرابي والذين يعملون تحت إمرته، ولكنهم عجزوا عن ذلك فتخلوا عن المهمة(٢٣١).

في المقابل، رغبت الحكومة في مصر في الحصول على تحقيق في الموضوع، فكونت لجنة تحقيق، وعينت إنجلترا محاميا إنجليزيا ليمثل حكومته فيها، وبمجرد أن عُرف هذا النبأ في لندن بعث اللورد جرانفيل بتعليمات بأن "يبتعد الممثلون الإنجليز عن هذه اللجنة، وانسحب الممثل الفرنسي كذلك، وبدون معونة هاتين الحكومتين لم يكن في الإمكان إنجاز أي شيء، بحسب فارمان(٢٣٢).

وبسبب الامتيازات الأجنبية التي يتمتع بها الأجانب لم يكن من المستطاع الاستشهاد بأجنبي أمام اللجنة،

---

(٢٢٩)- المرجع السابق، ص ٣٣٢- ٣٣٣

(٢٣٠)- المرجع السابق، ص ٣٣٣

* نفس الأمر في تزوير الحقائق فعلته الصحافة الأجنبية في الحديث عن ثورة ١٩١٩، وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ثم في تزوير الأحداث خلال فوضى يناير ٢٠١١ حين اتهمت الجيش والداخلية المصريين في أحداث العنف التي وقعت حينها، وفي يوم وقوعها وقبل أي تحقيقات، وكأن التقارير كانت معدة سلفا

(٢٣١)- مصر وكيف غُدر بها، ألبرت فارمان، مرجع سابق، ص ٢٣٣

(٢٣٢)- نفس المرجع، ص ٣٣٤

كما لم يكن من المستطاع تفتيش منازل الأجانب للبحث عن الأشياء المسروقة أثناء فترة الشغب دون موافقة القناصل، ورفض القناصل إعطاء هذا الإذن، وهكذا منع اللورد جرانفيل الوصول إلى مزيد من التحقيق في الموضوع.

وخلال مرور شهر على الشغب، كان الأجانب يهجرون المدينة، ويصعدون إلى أساطيل بلادهم المرابطة عى الساحل بناء على نصائح قناصلهم الذين توقعوا ضربها بقنابل الأسطول الإنجليزي، في حين تُرِك المصريين في المدينة "على عماهم" ولمصيرهم دون تحذير.

وضرب الأسطول البريطاني الراقد الإسكندرية بالفعل بالمدافع في ١١ يوليو١٨٨٢، وتحجج الإنجليز بأنهم اضطرو لهذا لعلمهم أن المصريين يصلحون الطوابي في القلاع، فظنوا أن المصريين سيبدأون بالهجوم ويضربون الأسطول، وأنهم خافوا على الجاليات الأجنبية في مصر من الجيش المصري(٢٣٣).

كانت القلاع والاستحكامات المصرية على الشواطئ قديمة، معظمها غير معد لصد آلات الحرب الحديثة، وبعضها مبني من الحجارة بحيث أنها في حد ذاتها خطر على الرجال الواقفين ورائها في حالة أن قذفت القنابل تلك الحجارة فتنهد عليهم، في المقابل يقف في البحر أقوى أسطول تجمع لارتكاب أعمال عدوانية حتى وقتنا هذا، كان هناك ٨ مدرعات و٥ سفن مبنية من الخشب، والسفن مسلحة بمدافع زنة كل منها ٨٠ طنا، وتستطيع أن تقذف قنابل تزن ١٧٠ رطلا مدى خمسة أميال(٢٣٤).

هرع إلى الحصون "عدد وفير منَ الشباب وأطفال البلد المتطوعين بدافع من حب الوطن وكراهية الأجنبي، مفعمون بالإرادة القوية والمهارة، يقومون بواجبهم كالجنود الفعليين"(٢٣٥).

وفي الساعة ٧ صباحا انطلقت إشارة بداية الضرب الإنجليزي، وردت عليها القلاع بإطلاق النار على الفور، ويضيف فارمان وهو يستعيد المشهد حين كان على متن إحدى السفن التي احتمى بها الأجانب على الساحل: "كان الخبراء العسكريون يتوقعون إسكات المدافع المصرية خلال ساعة واحدة، وكان من المعتقد أنه من المستحيل بالنسبة لأية قوات تقبع في مثل هذه الاستحكامات أن تتحمل، ولو لفترة وجيزة، مثل هذا السيل الجارف من القنابل التي تلقيها سفن الأسطول عليهم، وخلال حديث دار بيني وبين الجنرال ستون منذ أيام خلت، سألته عن الوقت اللازم للأسطول لإسكات مدافع القلاع، وبعد تفكير دام بضع لحظات أجاب قائلا: "حوالي ثلاثين دقيقة". ولكن الجميع منو بخيبة الأمل".

فقد أمطرت الـ ١٣ سفينة الرجال البواسل في قلاعهم بوابل من القنابل المتفجرة حتى وصل عددها إلى أكثر من ٣ آلاف قنبلة، وكان في مقدورنا أن نرى الانفجارات بوضوح، وكنا نراقبها في شَغف من سفننا، وكانت تنفجر أحيانا في الهواء قبل ميعادها، وأحيانا كان تنفجر فوق رءوس العرب في الاستحكامات فتبعثر أشلائهم في كل مكان, وكان البعض الآخر يدخل في الأرض على عمق كبير أو في البناء، ثم ينفجر هناك،

---

(٢٣٣)- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، أحمد رشدي صالح، الفصل الخاص بترجمة كتاب الاستعمار البريطاني في مصر،مرجع سابق، ص ١٤
(٢٣٤)- مصر وكيف غُدر بها، مرجع سابق، ص ٣٤١- ٣٤٢
(٢٣٥)- رسائل من مصر، جون نينيه، ص ٣٩٢

فيرسل بسحب من الغبار والأنقاض تاركا خلفه أخاديد كبيرة' لقد أذهلتنا شجاعة العرب [المصريين] وهو يصوبون مدافعهم؛ إذ بعد أن ينقشع الغبار والدخان المتصاعد من القنابل المتفجرة التي تترك كل ما حولها حطاما كانت تتصاعد سحابات صغيرة من الدخان من فوهة مدفع قريب يدل على أن الأحياء من الجنود ما زالوا متشبثين بمراكزهم[٢٣٦].

واستمر القتال من الساعة ٧ الصبح لحد الساعة ٥ في الليل، أي ١٠ ساعات، بعد ما كان القائد الإنجليزي يتوقع أن تسكت المدافع المصرية خلال نصف ساعة فقط.

تسببت القنابل الإنجليزية الحديثة في إبادة بعض القلاع بما فيها من الجنود، مثل قلعة عدا، وظلت المدافع الإنجليزية تضرب القلاع المصرية لمدة ساعة إضافية لتتأكد أنه لم يبقَ جندي حي، وجاءها الرد بالسكوت من بعد الساعة ٥ على مدافعها وهي ترمي القنابل على القلاع المدمرة.

وكان يوجد في القلاع حوالي ١٥٠٠ مقاتل، مات [استشهد] أغلبهم في مراكزهم[٢٣٧]، وفي المقابل قتل من الإنجليز ٦ أشخاص وأصيب ٢٧ بسبب قوة تحصيناتهم في السفن والمدرعات.

وعلق فارمان على فرحة الإنجليز بهذا "الإنجاز" الدموي بقوله:" ليس هناك من شك في شجاعة القوات الإنجليزية، ولكن متى وأنَّي وقفوا عند مدافعهم لكي يُذبحوا كما وقف هؤلاء الرجال؟[٢٣٨]"، في إشارة إلى ثبات الجنود المصريين لساعات طويلة.

ويبدي جون نينيه تعجبه: "شاهدت كل ما يجري (...) ولكن أعتقد ما لا يمكن وصفه هو القصف الوحشي، وبدون حاجة إليه، على قلاع دُمرت منذ وقت طويل ولم تعد صالحة لأي شيء"[٢٣٩].

لا داعي للدهشة يا نينيه: إنه الغل الأسود.. كيف يجرؤ الفلاح على رفع رأسه ثم رفع سلاحه ليخلص مصر (كلمة الحق المجسدة على الأرض) من قرون الشيطان.. فيعود الفلاح سيدا!

▼▼▼ تدمير الإسكندرية.. لـ"إعادة الإعمار"

بالإضافة لإبادة مئات الجنود في القلاع شقت القنابل طريقها لداخل أحياء الإسكندرية، وأحرقت الكثير من مبانيها ودمرتها، وبعدها اشتعل حريق آخر، وانتشر النهب، وكان ضرب الإسكندرية بالقنابل "إحدى النكبات الكبرى في القرن التاسع عشر"، وطبقا لما نشرته التقارير الرسمية قُتل حوالي ٢٠٠ من السكان العزل من السلاح بواسطة هذه القنابل، ولم يدرك الفقراء الخطر الذي يحيق بهم إلا حينما بدأت القنابل الطائشة تتساقط في وسطهم، وحينئذ شرعوا في الهروب، وسرعان ما عمت حركة الهجرة من المدينة، وقد

---

[٢٣٦]- مصر وكيف غدر بها، مرجع سابق،، ص ٢٤٢- ٣٤٣
[٢٣٧]- نفس المرجع، ص ٣٤٣
[٢٣٨]- نفس المرجع، ص ٣٤٦
[٢٣٩]- رسائل من مصر، جون نينيه، ٣٨٧

تشبث الكثيرون حتى في هذه الساعة الرهيبة بحمل ممتلكاتهم الضئيلة(٢٤٠).

فرَّ المصريون مشتتين كأنهم في يوم القيامة، يجرون بهلع وسط القنابل وأصواتها الشيطانية التي تزلزل المدينة ويسمعونها لأول مرة، كأنها القارعة، والنساء والأطفال يصرخون، والمرضى وكبار السن والحوامل يتساقطون، وتتعثر الأم التي تحمل رضيعها على كتفها، وذلك دون أن يوفر لهم أحد وسائل المواصلات المناسبة، أو يهيأ لهم ملاجئ، يهتفون "الموت للإنجليز"، واحتشد معظمهم في صحراء ضاحية الرمل لمدة ٦ أيام، يكتوون بحرارة رملها في عز شمس يونيو، وينقل جون نينيه- كشاهد عيان- مشاهد لبعضهم ممن تراصوا عند ترعة المحمودية: "بعد ظهر يوم ١٣ توجهت إلى الإسكندرية في لاننش بخاري بحصبة حراسة لأن هيجان الشعر المعسكر بدون مأوى، وبدون خبز على ضفاف قناة المحمودية لا يبعث على الطمأنينة، مذابح كثيرة ومشاجرات عديدة، لابد من أن تحدث"، أما عن المباني: "أجمل الشوارع وأجمل القصور التي شيدها أكبر الماليين لإسماعيل باشا أصبحت أطلالا ينعبث منها الدخان"(٢٤١).

تراصوا على ضفة ترعة المحمودية المدفون تحت ترابها آلاف من آبائهم خلال حفر الترعة أيام محمد علي، والقصور التي بناها محمد علي وأبناؤه من أموالهم انهارت ترابا، لكي يأخذ المحتل الجديد من عروقهم دماء وأموال جديدة، يسلمونها إلى شركات المقاولات الأجنبية من جديد، يبنون بها قصورا جديدة بالإسكندرية باسم "إعادة الإعمار".. هذه الكلمة التي ستتردد كثيرا في العالم فيما بعد كلما دمَّر الاحتلال والمغتصبون مدينة ما- عمدا- ثم يسلم عقود "إعادة الإعمار" لشركات تابعة له.. فلا تتوقف مصانع السلاح، ولا مصانع الأسمنت.

ويسجل عرابي في مذكراته أن حكومة الثورة رغم انشغالاتها بصد الغزاة إلا أنها بذلت وسعها للتخفيف عن المصريين المشردين، فصرفت لهم الجرايات والقمح ومرتبات يومية، وفتح لهم بعض الأعيان منازلهم لمن توجه منهم إلى الأرياف، وأنه تسابق الناس على إعانة إخوانهم المهاجرين(٢٤٢).

وعند رجوع الأهالي من الصحراء كانوا عبارة عن سيل متدفق من الإنسانية المعذبة، وكلهم يرتدون ملابس بسيطة تعلوها القذارة والغبار، حفاة الأقدام شبه عراة، والنسوة يحملن أطفالهن الرضع بين أذرعهن، بينما أطفالهن يسيرون متثاقلين وهم نصف عراة بجوارهن، والرجال والنساء الشيوخ والشباب يحملون ما بقي لهم من متاع(٢٤٣).

ويصور شولش الموقف: "غادر الكثير من الأوروبيين مصر، واستعد الشوام والشراكسة والأتراك وبعض الأعيان للفرار، ففر عبد السلام المويلحي "البطل القومي وميرابو مصر" إلى سوريا، أما المصريون فقد

(٢٤٠)- المرجع السابق،، ص ٣٨٥- ٣٨٧، مصر وكيف غدر بها، ألبرت فارمان، ص ٣٤٥ و٢٤٩، و٣٥١
(٢٤١)- رسايل من مصر، جون نينيه، ص ٣٨٧- ٣٨٨
(٢٤٢)- مذكرات الزعيم أحمد عرابي، ج٢، مرجع سابق، ص ٦٤٩
(٢٤٣)- مصر وكيف غدر بها، مرجع سابق، ص ٣٥٢

بقوا في بلادهم[٢٤٤].

أين كان الخديوي في هذه المحرقة؟

كان في سفينة أعدها لها قائد الأسطول الإنجليزي سيمور، قضى أصعب الأيام في حماه، ثم عاد إلى قصر رأس التين في حي الرمل، يقول نينيه إنه سمع هتافات من مهاجرين بؤساء حين كان يمر توفيق أمامهم فيصيحون: "يعيش عرابي ويسقط توفيق"[٢٤٥].

وأصدر أوامره لعرابي بالتصدي للإنجليز وبألا يسمح لهم بالنزول للإسكندرية- وهو ما وصفه عرابي فيما بعد بأن موقف توفيق المعادي للإنجليز كان خدعة- وبعد ما فعل عرابي ما في وسعه لمنع ذلك، اعتبره الخديوي السبب في الاحتلال لأنه لم يقاوم الأسطول الإنجليزي كما يجب، وأصدر السلطان عبد الحميد الثاني قراره باعتبار عرابي "خائنا"، في حين أن كل من الخديوي والسلطان لم يسعيا لمقاومة الاحتلال الإنجليزي بخطوات جدية كما فعل عرابي والجيش والمصريين عموما، بل إن كان قرار عبد الحميد بأن عرابي "خائن" للخليفة وشريعة الإسلام بتحريض الإنجليز أنفسهم، فمن يكون الخائن؟

وفي هذا يقول فارمان: "ثم بذل الإنجليز جهودا عنيفة في كل من القسطنطينية ومصر لكي يُعلن رسميا أن عرابي خائن، وكان هذا في رأيهم ضروريا للإبقاء على أسطورة صداقتهم للخديوي، وأنهم قد جاءوا لتأييده.

انشغل عرابي والجيش في مواجهة الجيش الإنجليزي في كفر الدوار لمنع تقدمه إلى القاهرة، حينها، يقول جون نينيه: "أسمع من حولي لعنات تنصب على توفيق الذي تسبب في هجرة ٦٠ ألفا من سكان الإسكندرية يعيشون على كرم الفلاحين! فليشنقوه! صاحت النساء بذلك، وهن نائمات في الطريق، وهن مجردات من كل شيء، سمع عرابي باقتراحهن، في يوم الجلاء عن الإسكندرية، بينما الخديو يلوذ محتميا في الرملة كان يسهل أسره! كلا اتركوه لمصيره، نحن مصريون فلاحون وجنود، ولسنا مغتالين أو سفاحين"[٢٤٦].

أضاع عرابي فرصة جديدة للتخلص من الدمية الحمقاء.. الأولى في وقفة عابدين حين كان توفيق يقف مذعورا وسط حاميته من القناصل، والثانية وهو في قصر رأس التين- خصوصا قبل أن ينزل الإنجليز للإسكندرية... لماذا دائما نترك المحتلين "لمصيرهم" حين يقعون فريسة في أيدينا؟ ها نحن نترك توفيق لمصيره، وكذلك سنترك ابن أخيه فاروق.. لم نعاقب محتلا عقابا حقيقيا منذ أن طردنا الهكسوس.. توقفنا من يومها عن أن نكون مقبرة للغزاة.. صرنا مغنما وفرصة للأجانب في الاحتلال والنهب والقتل والإذلال.. ثم النجاة.

---

[٢٤٤]- مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨- ١٨٨٢، ألكسندر شولش، مرجع سابق، ص ٢٧٢
[٢٤٥]- رسائل من مصر، جون نينيه، ص ٣٨٨
[٢٤٦]- رسائل من مصر، جون نينيه، ص ٣٩٥

في كل الأحوال، هذه اللحظات رفرفة أخرى لـ ماعت، صحيح لحظات ستكون قصيرة، لكنها غالية جدا، أول مرة منذ الأسرة ٢١ تحكم مصر نفسها، إن من يقودها حقا في هذه اللحظات هم من أبنائها الذين لا يضعون في اعتبارهم شيئا إلا إرادة الفلاح المصري، لا ينتظرون إذنا ولا أمرا من خديوي أو والي في الداخل ولا سلطان أو إمبراطور أو خليفة في الخارج، مصر في هذه اللحظات حرة... تتنفس هواءها.

يقول نينيه حينها: "مصر تنقاد بمفردها، بحكمة ونزاهة، بداية من حدودها هذه وحتى السودان[٢٤٧]".

▲▲▲ عودة الروح.. ماعت

من ٣٥٠٠ سنة وصف أحمس تلاحم المصريين مع جيشهم في حرب التحرير لطرد الهكسوس خلال المعارك النهرية وكيف كان الناس على الضفتين الشرقية والغربية للنيل يتطوعون بكل شيء لتحرير مصر: "لقد هبطت النيل بقوتي لطرد الآسيويين بأمر آمون ذي الرأي السديد، كان الشرق والغرب يحضرون الدهن والنبيذ، والجيش يزود بالإمدادات من كل مكان"[٢٤٨].

يقول عرابي إن الحرب لما قامت لم يكن في خزائن الحكومة درهم ولا دينار؛ لأن المراقب الإنجليزي كولفن أخذ الأموال الموجودة في الخزنية وأنزلها الدونمة الإنجليزية قبل إعلان الحرب بأيام، وكذلك الأموال الموجودة في صندوق الخزينة العمومي حملها أعضاء قومسيون الصندوق إلى المراكب الحربية.

ففرض المجلس الوطني الذي شكله قادة الثورة على كل فدان ١٠ قروش لتمويل الحرب، ومن شاء أن يتبرع بشيء إعانة لإخوانهم المجاهدين للدفاع عن الوطن يكون مشكورا، فإذا بالأمة تأتيه بالمال والغلال والنخيل والجمال والأبقار والجواميس والأغنام والفاكهة والخضروات حتى حطب الحريق، و"منهم من تبرّع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشي، ومنهم من خرج عن جميع ما يمتلكه، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن العزيز لعدم قدرته على القتال بنفسه، وفي الجملة فإن الأمة المصرية قدمت من التبرعات والكرم وأظهرت من الغيرة الوطنية ما لم يسبق له مثيل في القرون الخالية"[٢٤٩].

ويعلق د. عبد المنعم الجميعي، محقق مذكرات عرابي، بأنه "الأمة المصرية أمدت ثوارها بسخاء من مال وعتاد ورجال، وقلَّ أن نجد في تاريخ الحروب حربا كهذه الحرب التي لم يُنفق فيها قرش واحد من خزائن الدولة، وقامت على ما بذله الشعب طائعا من أقواته وأمواله ودماء رجاله[٢٥٠]".

ولم تكن الخزينة خالية من المال فقط، بل إن الجيش شبه خالي من الجنود المدربين مقارنة بجيش الإنجليز، فكان فيه قبل الحرب ١٠ آلاف، فاستنفر عرابي الناس بمنشور ليمدوا الجيش بالرجال باسم "الخدمة

---

[٢٤٧]- رسائل من مصر، جون نينيه، ص ٣٩٥
[٢٤٨]- نفس المرجع، ص ٣٦
[٢٤٩]- مذكرات الزعيم أحمد عرابي، ج٢، مرجع سابق، ص ٦٠٤
[٢٥٠]- نفس المرجع، هوامش ص ٦٠٤

الوطنية الشريفة"[٢٥١].

وصدحت الشوارع بأصوات الفلاحين:

يا عزيز يا عزيز .. كبه تاخد الإنجليز

كل العسكر فى الطوابى .. يارب انصر عرابى

كل الميه فى الأبريق .. يارب خد توفيق[٢٥٢]

يسجل نينيه إنه "مع قصف الإسكندرية استيقظت الأمة المصرية، ولم تكن هناك إلا صرخة واحدة على مدى ٤٠ يوما ضد الخديو الذي استسلم للأجانب، ملايين العمال المتطوعين أقاموا خطوط دفاع ونفذوا بحماس استثنائي أعمالا هائلة (...) لم يكن أحمد عرابي مرهقا، في المديريات تتوالى التطوعات بمحض الإرادة، والجنود القدماء انضموا إلى فرقهم، كانت الهبات كلها عينية تنهمر من كل نوع، خيول وبغال ودواب بالآلاف، وأكثر من ربع مليون قنطار من الغلال، وصلت ٣ ملايين فرنك من الذهب إلى وزارة الحربية بالقاهرة (...) في دمنهور يوجد ٣٠ ألف من الفرق النظامية من كل الأسلحة وعدد من البدو مشاة وفرسان (...) أرسل أحد الأعيان المسيحيين ١٠٠ حصان و ٢٥٠٠ أردب قمح، وأرسل الأكليروس القبطي إلى نجاشي الحبشة وفدا يطلب منه عدم قبول أي تحالف يعرضه عليه الإنجليز، تعاون بعض تجار دمنهور في إرسال قافلة من ٥٠٠ حصان إلى وزير الحربية، أجريت تحصينات هائلة حول دمنهور وكفر الدوار والزقازيق وبنها، في القاهرة العمل يجْري على قد وساق، قام ١٥ ألف من صغار الفلاحيين، منهم صبية وبنات، لمدة ٧ أيام في إقامة التحصينات في بولاق والجيزة وشبرا والمقطم والعباسية وعين شمس، وتم تسليحها بمدافع كروب ذات عيار كبير، يثق الشعب في عرابي ورجاله ثقة عمياء، بالرغم من الضرائب التي تشكل عبئا ثقيلا وتثقل كاهل الشعب والتي أعاقت تجارته وصناعته، فلم يشكُ أحد ولم يتنصل أحد ولم ينس أحد أن هناك تضحيات لابد من تحملها، وآلام قاسية من أجل تحقيق هذا الهدف، في كل مكان الموضوع الذي يتحدث فيه الناس هو حرب الإنجليز وطاعة محرري الوطن، في قلعة القاهرة يستمر العمل ليلا ونهارا، حوالي ألفي عامل يقومون بصناعة الخراطيش، سبك المدافع، ولسوء الحظ فإن القطع التي يتسنى لسلاح المدفعية صناعها ضعيفة العيار، ثكنات العباسية حافلة بالمتطوعين يتدربون يوميا في الميدان الفسيح للمناورات، وطلبة جامع الأزهر كلهم تقريبا متطوعون ويقيمون في ثكنات جزء في قصر النيل والآخر في القلعة (...) هؤلاء الذين رأوا منذ ٦ أشهر الشعب المصري الطيب جدا، الصبور جدا، لا يعرفونه اليوم"[٢٥٣].

ما هذا؟ وكيف هذا؟ أليس هذا الشعب هو من كان يفقأ عينه ويقطع إصبعه كي لا يذهب للتجنيد؟ أليس هو من يتحمل سلخ ظهره حتى لا يُخرج قرشا ينزعه جباة الضرائب ظلما منه؟ أليس هو الذي كان يختبئ في

---

[٢٥١]- نفس المرجع، ص ٦٠٢

[٢٥٢]- الأغنية الوطنية الشعبية، عصام ستاتي، موقع مجلة روزاليوسف، ٤-٧- ٢٠١٤

[٢٥٣]- رسائل من مصر، جون نينيه، ص ٣٩٦- ٣٩٨، و٤٠٢- ٤٠٤

المقابر والجبال حتى لا يذهب للعمل في السخرة بلا أجر؟ كيف إذن يقدم قروشه الكثيرة أو القليلة ويتطوع بإراداته للجيش الآن؟ كيف يهرول الفتيات والصبيان للقيام بأعمال شاقة تطوعية في بناء الحصون والقلاع ويرفضون أن يأخذوا أجرا إذا عُرض عليهم؟.. هنا الثورة المصرية إذن.. لقد وجد روحه، وجد قضيته وكيانه وكبرياءه.. وجد مصريته.

تعشم الفلاحون أنهم سيتخلصون من المرابي والسخرةَ والكرباج والاستعباد للأجنبي.

أميرات عائلة الخديوي وسيدات العائلات الكبيرة بعضهن انضممن للعمل في تضميد جراح المصابين، ووالدة إسماعيل قدمت الخيول، أمراء أعلنوا أنهم موالون للحزب الوطني، وأدوا يمين الولاء علنا لحكومة الدفاع الوطني أمام جمع غفير، وأرسل الأمير حليم باشا من القسطنطينية انضمامه إلى لجنة القاهرة المركزية(٢٥٤).. هؤلاء يأملون أن انتصار عرابي يؤدي لخلع توفيق... لا ليأتي الفلاحون حكاما، ولكن بعضهم على أمل أن يأتي حليم الذي نفاه إسماعيل، والبعض الآخر على أمل أن يتهيأ الجو لعودة إسماعيل نفسه.. كل يغني على ليلاه.

♦♦♦ معركة التل الكبير

في عز معركة كفر الدوَّار كشف توفيق انحيازه للإنجليز، أرسل لعرابي منشورا بأنه السبب في حرق ونهب الإسكندرية، وأن الإنجليز لم يخطئوا بضربها بل كان رد فعل على أفعال عرابي، ثم عزله، وبعث لمديري المديرات بالكف عن إرسال الجند والمؤن والضرايب لعرابي، ومن يفعل هذا يُعاقب، ومن يدفع لعرابي ضريبة لن يُعترف بها وستؤخذ منه ضرايب مساوية لها، أرسل عرابي المنشور إلى نائبه يعقوب سامي في القاهرة، وطلب منه جمع العلماء ورؤساء الأزهر والكنيسة والتجار والأعيان للتشاور، شكلوا مجلسا لإدارة البلاد بعد أن رفض الخديوي ومجلس النظار العودة للقاهرة، وطلب الشيخ محمد عبده عزل الخديوي، فانقسمت الآراء، معظم من في المجلس أتراك وشراكسة، نادر منهم من قبل عزل الخديوي، والبقية تحدثوا عن "الشرعية"- هكذا ورد باللفظ- أي شرعية الخديو وأنه لا يُعزل إلا بأمر السلطان، وتمسك محمد عبده والضباط المصريونَ بـ"الشرعية الثورية" وعزل الخديوي.

نما لعلم عرابي أن الاجتياح الحقيقي للقوات الإنجليزية سيكون من الشرق، معززين بمدد كبير من القوات الهندية القادمة لتعبر قناة السويس إلى القاهرة، بعث قوة تسعى لصد هذا الغزو، وأرسل عرابي عدة رسائل إلى ديليسبس [سمسار الديون] بشأن ردم قناة السويس لغلق الطريق أمام الاجتياح الإنجليزي، ولكن ديليسبس أخبره بأن القناة "محايدة"، ولا يمكن للإنجليز أن يعبروها(٢٥٥).

ولزيادة التأمين كلف عرابي أحد ضباطه، ويدعى علي يوسف الخنفس، يروح التل الكبير لإقامة

---

(٢٥٤)- المرجع السابق، ص ٣٩٩

(٢٥٥)- نصوص الرسائل المتبادلة بين عرابي وديليسبس موجودة في كتاب "التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر.. رواية شخصية للأحداث"، ولفريد سكاون بلنت، مرجع سابق، ص ٦٧٣- ٦٧٩

الاستحكامات في المكان الذي يعتبر أسهل نقطة لمرور الاحتلال إلى القاهرة من جهة القناة، لكن بعد أن وصلت أخبار استسلام الخديوي للإنجليز ظهرت خيانة من ذلك الضابط الذي أرسل للإنجليز في الإسكندرية بأنه مستعد أن يُخلي مركزه في التل الكبير، وقدم لهم معلومات عن حالة الاستحكامات، وهرب عن طريق قناة السويس.

لم يكن خنفس وحده الخائن، ففي عز التحام المصريين مع الإنجليز في موقعة القصاصين ٢٨ أغسطس السابقة على التل الكبير أرسل السلطان عبد الحميد الثاني بتحريض من دوفرين سفير إنجلترا في الأستانة منشورا بأن عرابي ومن معه "عصاة ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية"؛ لأنه "استبد برئاسة العساكر المصرية بدون حق"، و"تهدد أساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية"، أي الأسطول الإنجليزي، وأن "الوكيل الشرعي" للسلطان في مصر هو توفيق، وعلى "سكان الأقطار المصرية حال كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الأعظم أن يطيعوا أوامر الخديو المعظم الذي هو في مصر وكيل الخليفة"، وتلقفه توفيق ليصدر منشورا بأن الإنجليز لم يأتوا لحرب على مصر، فلا داعي لمحاربتهم، بل جاءوا لمساعدة الخديوي نائب السلطان ضد العصاة، وسيغادرون، فوهنت عزائم البعض، وأرسل توفيق وسلطان باشا وعلي لطفي وغيرهم أتباعهم بمئات آلاف المنشورات يوزعونها بين الضباط والجنود وفي الأرياف، وقال عرابي: "وانضم إليهم في هذه الخيانة السيد أفندي الفقي من مديرية المنوفية، وأحمد أفندي عبد الغفار عمدة تلا ومحمد الشواربي (نائبان في مجلس النواب) وغيرهم ممن "خفقت قلوبهم من منشور السلطان"، وأنه بتعميم هذه المنشورات في معركة التل الكبير وقرأها الضباط والجنود "ضعفت عزائمهم ووهنت قواهم فعم الاختلال وساد على عقولهم الارتباك".

وألحوا بهذه المنشورات على كبار رجال الجيش للضغط النفسي عليهم، فقد صار بذلك السلطان العثمانلي والخديوي وأكابر أعضاء مجلس النواب الذي استبشر به الناس وكانوا مع عرابي، كل هؤلاء صاروا ضده، وأثر هذا على أداء بعض الضباط في معركة التل الكبير، فمنهم من ارتبك ولم يتح له تسارع الأحداث وحالة الميدان أن يصل لرأي، ومنهم من استخسروا أرواحهم في أن تموت "عاصية"، وبعض ضعاف النفوس سال لعابهم للمكافآت المنتظرة لمن يستجيب للسلطان والخديو.

ويواصل عرابي أن ممن تأثروا علي يوسف (الخنفس) وأحمد عبد الغفار قومندان السواري وعبد الرحمن حسن وحسن رأفت، وأشاع الخنفس في يوم ١٣ سبتمبر أن جواسيسه أخبروه أن الإنجليز لن يخرجوا اليوم من مراكزهم، فلم يقوم بالاستحكامات التي أمره بها علي الروبي، في حين كانت عساكر الإنجليز تتقدم ومعهم ضباط أركان حرب انحازوا للخديوي وعربان الهنادي يرشدونهم للطريق، وتركهم الخنفس يمرون بلا مانع يمنعهم، وسلمهم خريطة أماكن تمركز عرابي والجنود، وانهالوا على الجنود والضباط الراقدين ليلا بالمدافع[٢٥٦].

واستيقظ عرابي والجنود فجأة على صوت المدافع، وقابلها الجنود قليلي العدد بطلقات الرصاص

---

(٢٥٦)- مذكرات الزعيم أحمد عرابي، ج٢، مرجع سابق، ص ٦٨٤- ٧٠٥ و٧١٣

الضعيفة، ورغم هذا قتلوا من الإنجليز ٥٨ شخصا، بينهم ضباط، وفي المقابل استشهد من المصريين ٢٢٠٠ جنديا ومتطوعا، ذُبحوا دون تمييز بواسطة القوات الهندية[٢٥٧]، بخلاف عدد كبير استشهد متأثرا بجروحه في وقت لاحق، ولم يكن من العجيب أن تلتزم التقارير الرسمية الإنجليزية التي نشرت الصمت إزاء الخسائر من الأهالي، ذلك أنها كانت مذبحة لا معركة[٢٥٨].

قاتل محمد عبيد وسط جنوده حتى استشهد، واستحق البطولة بدفاعه في التل الكبير، بعد أن كان سببا في أول نصر لجيش الفلاحين الحديث على أعدائه حين خلَّص عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي من قبضة الشراكسة في قصر النيل، وكما لم يتأثر بتهديدات الشراكسة، لم يتأثر بمنشورات العثمانلي ولا الخديوي، وقاتل الإنجليز قتالا مجيدا على رأس آلايين من الجنود حتى قُتل معظمهم وقتل هو معهم، فختم حياته بصفحة مشرفة في تاريخ الثورة، ويلي محمد عبيد في البسالة حسن رضوان قومندان الطوبجية الذي أصلى الإنجليز نارا حامية بمدافعه[٢٥٩].

شوف البطل

مصري وشفايفه تشبه الوليفين والأرض قايمة معاه على الجنبين

لأجل الولاد خلي البطل يضرب يكسر صفوف الإنجليز يضرب

يا بنايين نضرب معاه الطوب الفجر لمحمد عبيد مكتوب

في الجنة عرض السيف مع دراعه شوف البطل في هجومه ودفاعه

الفارس المصري الأصيل الحر يرجع على التل الكبير ويكر

رمق الشهادة في الطريق المر يفضل على طول الزمن منصور[٢٦٠]

وثبت البعض مثل عبيد ومن معه، لكن تشتت كثيرون، ويقول عرابي إنه ظل يناديهم ويذكرهم بشرف الدفاع عن الدين والوطن، فلم يسمعوا له، خشوا أن يكونوا من "العصاة"، ويموتوا على غير الإسلام!

▼▼▼ الولس كسر عرابي

---

(٢٥٧)- *** ربما من هنا جاء في أغنية "مصر تتحدث عن نفسها" التي ألفها حافظ إبراهيم وشدت بها أم كلثوم:

إنما الحق قوة من قوى الديان أمضى من كل أبيض هندي

أي الحق أقوى من كل إنجليزي وهندي، في إشارة للهجوم الإنجليزي الهندي على المصريين خلال الغزو الإنجليزي. (مجرد استنتاج)

(٢٥٨)- مصر وكيف غدر بها، ص ٣٥٨- ٣٥٩

(٢٥٩)- انظر: مذكرات الزعيم أحمد عرابي، هوامش المحقق ص ٧٠٢، والثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، ط٤، ١٩٨٣، ص ٤٥٩- ٤٦٠ وتعجب الرافعي غاية التعجب من أنه ليس لعبيد والشهداء المصريين في التل الكبير مقابر في المدينة رغم أنهم بالآلاف، في حين أن الجنود البريطانيين القتلى فيها مشيد لهم هناك مقابر! فيا من تسير في أرض المعارك، في القصاصين والتل الكبير:

خف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد

(٢٦٠)- مصر المصرية بتغني، فؤاد حداد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٧- ٣٠

اشتهرت هذه العبارة بعد "الكسرة التقيلة" في التل الكبير، وربما كلمة "ولس"، جاءت من الكلمة الشعبية "يوالس"، يعني يخون أو يتآمر في الشر، وفي ثورة ١٨٨١ ألف ولس وولس، وكيف لا وهي لم تكن ثورة عادية ضد حاكم ظالم، بل ثورة شعبية ضد تنظيم الشر العالمي (روتشيلد وأخوانه والدول الأوروبية التي يديرها)، وضد تحالف المحتلين (الاحتلال العثمانلي والاحتلال العلوي والاحتلال الجالياتي)، وإن نجحت لكان شرارة الحرية الحقيقة في العالم أجمع.

❶ الولس الروتشيلدي

ورد في الصفحات السابقة لمحات من تدخلات روتشيلد وإنجلترا وفرنسا وغيرهم والتي انتهت باحتلال مصر عسكريا بعد احتلالها سياسيا واقتصاديا قبل الثورة، وفي فصل قادم سنعرض للمحات أخرى.

❷ الولس العثمانلي

خذلان عبد الحميد الثاني لعرابي بعد أن أظهر له الرضا، ومنشور السلطان عن "عصيان" عرابي في عز ما كان يجاهد عرابي لصد الاحتلال الإنجليزي.

❸ الولس العلوي الأرناؤوطي

استقواء الخديوي بالقناصل ضد الجيش المصري، منشور الخديوي بالكف عن الحرب مع الإنجليز رغم نزولهم للإسكندرية، تحميل الجيش المصري كل أسباب الأزمة وحريق وضرب الإسكندرية، تهديد الشعب المصري كله بالعقاب إن استمر في دعم عرابي.

❹ الولس الجالياتي

دور الجاليات الأجنبية في مذبحة الإسكندرية، دور الجاليات الأجنبية في حريق الإسكندرية، تهليل الجاليات الأجنبية للأسطول الإنجليزي، دور العربان الذين لم يتمصروا من بدور الحدود الشرقية والغربية في إرشاد ودعم الإنجليز، دور من تغلغل من البدو في النسيج المصري، لكنه ظل نتوءا به ولم يتمصر حقا مثل بدو الطحاوية وسلطان باشا والشواربي (من بدو الحجاز الذين قدموا لمصر قبل محمد علي، وظلوا عربانا، وحصلوا على إنعامات من العيلة العلوية مكنتهم من آلاف الفدادين المصرية بلا وجه حق).

وتكونت الحكومة والبرلمان في أكثرهما من شركس وأتراك وأكرادا وشخصيات من أصول بدوية وعربانية لم تتخلَّ عنها، ومبدأها "مطرح ما تكون المصلحة الشخصية والنفوذ أكون"، وعلى هذا ساروا مع عرابي حتى حصدوا بقوة الجيش وثورة الفلاحين مجلس النواب والدستور الذي مكنهم من ألا تقر الحكومة ضرايب إلا بموافقة أعضاء البرلمان (وكلهم من الأغنياء ومعظمهم من المستوطنين الأجانب)، وأن يكون لهم مناقشة الميزانية قبل إقرارها، أي ما يتعلق بحفظ المصالح الاقتصادية لهؤلاء، حتى لا يتكرر لهم ما عانوه من إسماعيل من ضرايب واحتمالات مصادرة الأراضي المسيطرين عليها، أما حين بدأ الحديث عن إمكانية مطالبة الفلاحين بإعادة توزيع الأراضي (بذور الإصلاح الزراعي) واحتمال سير عرابي وراء

الفلاحين لأنه يرى نفسه مفوضا منهم، انقلبوا على الثورة تمام الانقلاب[٢٦١]، كما سينقلب أولادهم على ثورة ١٩١٩ وأحفادهم على ثورة ١٩٥٢، فكلهم من نفس العائلات، يسلموا راية قبليتهم وتعاليهم على الفلاحين وتمسكهم بأن يكونوا طبقة فوقهم ويأكلوا حقوقهم جيل وراء جيل.

❺ الولس المحلي

مثل علي خنفس الذي خان في معركة التل الكبير وعلي مبارك وبطرس غالي اللذين تراصا بجانب الخديوي والإنجليز والمستوطنين الأجانب في الأسكندرية بعد معركة كفر الدوار، وفي كل بلد وزمان هناك ولس محلي، يظهر انحيازه للعدو وقت الأزمة، إلا أن هذا الولس بالتأكيد سيكون خطره ضعيفا ويسهل محاصرته أو علاجه إن لم يكن محاطا في الداخل بولس قادم من الخارج، فالولس الداخلي يستقوي بالوافد، والعكس، ويتغذى عليه، ويكثر عدده في ظل وجوده مثلما يكثر عدد الذباب على سطح المستنقع كلما زادت مساحة المستنقع.

❻ الولس التاريخي... حرامي ذاكرة المصريين

وهذا الولس التاريخي هو أخطر من كل ولس مما سبق، فلولا هذا الولس التاريخي ما تمكن أي ولس من رقبة مصر بهذا الشكل، وحتى وإن تمكن لضخامة إمكانياته الدولية لنهضت مصر في أسرع وقت لتثأر لنفسها.

والمقصود بالولس التاريخي هو "حرامي الذاكرة"، هو غفلة المصريين عن تاريخهم الحقيقي، وعن الصورة الكاملة لهويتهم المصرية، وعن من هم أعدائهم، وهذه الغفلة هي ما تسببت في موجات من "اللخبطة" اجتاحت الضباط والعلماء المصريين، فأربكت صفوفهم في اللحظات الحرجة، فمثلا رغم دوي "مصر للمصريين" في أنفسهم إلا أن معنى "المصريين" تلطخ بأن ضموا لها مستوطنين أجانب سوريين وعربانا وأتراكا ومغاربة لمجرد أنهم يعيشون في مصر، ورغم كراهيتهم لكل ما هو تركي إلا أن بعضهم ظل متمسكا بأن السلطان العثمانلي له "حق" السيادة في مصر، وبرر هذا طلبة عصمت وعبد الله النديم وعبد العال حلمي بالحاجة للوحدة الإسلامية في ظل المخاطر الأوروبية التي تهدد بلاد المسلمين[٢٦٢]، وبعضهم رغم علمه بأن الأسرة العلوية ليست مصرية حقا إلا أنه ظل مقتنعا بأنه لها "شرعية" الحكم، ولم تظهر مطالب ثابتة بأن يتولى حكم مصر حاكم مصري حقيقي رغم إعلانهم في الأيام الأخيرة خلع الخديوي توفيق.. ففقد مبدأ "مصر للمصريين" جوهره دون قصد منهم.

فلنتخيل لو أن جميع المصريين وقتها على قناعة بأنه لا يوجد أي بلد أو جنس أجنبي في العالم له الحق في حكم مصر، سوا لأسباب دينية أو غيرها، فهل كانت الانقسامات التي صدعت الثورة في الأيام الأخيرة حصلت حين ورد مرسوم السلطان العثمانلي بأن عرابي مخالف للشريعة لأنه خالف السلطان المسلم "حامي الشريعة"؟

---

[٢٦١]- انظر: تطور الرأسمالية المصرية، دار الكتب والوثائق القومية، مرجع سابق، ص ٧١

[٢٦٢]- انظر كلمات الزعماء الثلاثة في: مذكرات الزعيم أحمد عرابي، مرجع سابق، ص ٣١٩- ٣٢٣، وهوامش المحقق ص ٤٠١

ولنتخيل لو أن المصريين جميعا وقتها على قناعة بأن الجاليات الناطقة بالعربية في مصر، وما زالت محتفظة بانتماءاتها البدوية والشامية والمغاربية والتركية إلخ، ليسوا مصريين حقا، وإلا ما احتفظوا واعتزوا بثقافة وانتماء أجنبي، وما رفضوا وصف نفسهم بالفلاحين وما أذلوا الفلاحين ونهبوا أراضيهم، فهل كانوا سلموا لهم أمورا حساسة في الثورة ثم اكتووا بخيانتهم؟

♦♦♦ الصفحة.. ليست الأخيرة

امتطى عرابي جيشه وولّى وجهه شطر القاهرة أملا في تحصينها قبل وصول الإنجليز، وعقد اجتماعا مع المجلس التنفيذي، تناقشوا هل نقاوم أم نستسلم، اتفقوا على المقاومة، ذهب إلى ثكنات العباسية يتفقد القوات الباقية، لم يجد إلا أقل من ألف رجل معظمهم أصلا خفراء، عاد وبلغ الزملاء، بعضهم كمحمود سامي البارودي اقترح إغراق القليوبية والدقهلية لمنع الإنجليز من التقدم، والانسحاب للوجه القبلي لإعادة تجهيز الجيش، ورفض عرابي خوفا على أهالي المديرتين من الخراب، كما لمس بنفسه عدم ثبات كثير من الضباط والجنود بعد منشورات السلطان والخديوي، وأرسل بمشورة من المجلس للخديو يؤكد له توقف القتال ويطلب منه عدم السماح بدخول الإنجليز للقاهرة، لكن الجيش الإنجليزي دخل بإرشاد من "الولس"، واستدعى قائده عرابي للقائه، وسأله المراسل السويسري جون نينه هل ستهرب؟ رفض عرابي الهروب، لكنه استجاب لنصيحة من نينيه بأنه حين يصل إلى القائد الإنجليزي يسلمه هو وزملائه أنفسهم كأسرى حرب.

هل كان محقا في الاستسلام؟ هل يليق به؟ هل الاستسلام نهاية تليق بقائد شعب من أصحاب الجلاليب الزرقاء الممزقة والأرجل التي شققها الفقر لكنه وقف صلبا في وجه روتشيلد والعثمانلي والإنجليزي واليوناني والفرنسي والأرمني واليهودي ومن كل ملة؟ لماذا لم يتركهم يأتون للقبض عليه أو حتى يقتلونه؟ أليس الاستشهاد أفضل من الاستسلام وهو الذي عرض نفسه للخطر عشرات المرات دون أن يخشى الموت؟ ورفض كل الرشاوى والإغراءات، هل كثرة وتسارع الصدمات والخيانات أثّرت على نفسية عرابي وقتها فلم يأخذ القرار الصحيح؟ هل كان في لحظة ارتباك فوق طاقة البشر؟

لقد كان في شهر أغسطس والجميع حوله روحه وروح الثوريين المصريين ينطبق عليها الأغنية المصرية "طار بيا الأمل بجناحه ولمست النجوم بإيديا"؛ وإذ فجأة في سبتمبر ينفض معظم الكبار الذين أظهروا له التأييد، بل ويطعنوه، وتصدر فتاوى تشتت الجيش، وينهار كل شيء في لمح البصر !

انتقلت قوة من الفرسان الهنود إلى الإسكندرية كحرس شرف لحراسة الخديوي إلى محطة السكة الحديد، ممتطين صهوة خيولهم ومرتدين ملابسهم الوطنية (الهندية) الزاهية؛ فبدوا في صورة بهيجة، هذا العرض كان الغرض منه التأثير في نفوس الأوربيين والأهالي لكي يثبتوا في أذهانهم فكرة وجود قوة احتياطية كبيرة للإمبراطورية الإنجليزية في قلب الهند، وحينما ركب الخديوي محاطا بهذه الثلة من الجنود إلى جوار السير إدوارد ماليت، الممثل السياسي والقنصل العام الإنجليزي، مخترقين الشارع الرئيسي الذي اصطف

على جانبيه، لم يصفق الناس ولم يبدوا أي مظهر من مظاهر الفرح[٢٦٣]، عدا من هم من الجاليات الأجنبية والأتباع.

وفي يوم ٢٥ سبتمبر ١٨٨٢ بدا كأنه الغزو الثاني لأسرة محمد علي لمصر، فكما دخلها محمد علي تحت اسم السلطان العثمانلي"الفاتح"، فإن توفيق دخل القاهرة واستقبله على المحطة رياض باشا وسلطان باشا هاتفين "فليعش الجناب العالي مؤيدا بالنصر والإجلال"، وصعد إلى مركبة على يساره فيها الدوق أف كنوت ابن الملكة فيكتوريا، وأمامه الجنرال ولسلي قائد جيش الإنجليز، وماليت قنصل الإنجليز، وسارت ورائه فرسان الإنجليز، وتبعه النظار وأمراء العيلة الخديوية، والمحطة مفروشة بالبسط والرياحين والرايات وعلى الصفين جنود الإنجليز[٢٦٤].. دخلها في موكب "الإنجليزي الفاتح"، ومن يومها وعيلة محمد علي تحكم بـ"حق الفتح الإنجليزي".

وكتبت صحف تابعة للاحتلال في مصر فيما بعد عن "الترحيب المصري" بالفتح الإنجليزي، وكتب كرومر "رحب بمقدم ذلك الإنجليزي وبشيء من الفرح الحكام الشرعيون وجماهير الشعب المصري"[٢٦٥] كما كتب مؤرخون في عصور سابقة عن "الترحيب المصري" بالفتح المقدوني (الإسكندر) وبالفتح العربي وبالفتح العبيدي (الفاطمي) إلخ، وصورة رياض اليهودي/الشركي، ونوبار الأرمني، وشريف التركي، ومصطفى فهمي التركي، وسلطان باشا البدوي، والخديوي الأرناؤوطي، وأديب إسحق السوري، وندرة من المصريين مثل علي مبارك، متراصين في استقبال "الفاتح الإنجليزي"، والجاليات الأجنبية على الصفين ترمي عليهم الزهور والورود يمكن أن تجيب لنا عن سؤال: "أي مصريين هؤلاء الذين اصطفوا على باب مصر ليرحبوا بالفتوحات الماضية".

▼▼▼ تصفية ثورة "مصر للمصريين"

وهنا لحظة فاصلة.. إن رحلة تصفية مبدأ "مصر للمصريين" ستبدأ فصولها ونتابع من الآن بعنف.. من إخفاء عرابي وصحبه بالقتل أو النفي في ١٨٨٢، وتستمر بمحو و"هلفتة الشخصية المصرية"[٢٦٦] حتى كتابة هذه السطور في ٢٠١٩، تصفية متعمدة وبكل الأسلحة والألوان؛ بمعنى أنه طوال مئات الاحتلالات السابقة كان التعامل مع مصر ملخصا في "الاستنزاف المادي والحضاري"، أي السيطرة على الأرض، وتسخير المصريين لزراعتها، وسرقة الآثار المصرية، ونقل الحضارة المصرية إلى المحتل الجديد أو حضارات أخرى ونسبها إليها.

أما بداية من الاحتلال الإنجليزي، فإن الثروة والآثار ليست هي الهدف وحدها، سيكون الفلاح المصري نفسه هو الهدف، أي شخصيته وهويته وأخلاقه، فهذا الفلاح اكتشف المحتلون الجدد أنه ليس مجرد "ثيران

[٢٦٣]- المرجع السابق، ص ٣٦٠- ٣٦١
[٢٦٤]- انظر وصف الموكب كاملا في مذكرات الزعيم أحمد عرابي، مرجع سابق، ج٢، ص ٧١٥ والهوامش
[٢٦٥]- مصر الحديثة، كرومر، ج٢، ص ١٦٠، ووصف- كعادة المعتدين- إنجلترا بـ "المنقذ لمصر"، و"تحمل الخير لمصر"، ص ١٦١
[٢٦٦]- "هلفتة الشخصية المصرية" تعبير قرأته على من موقع "تويتر"، وهو أدق وصف لما استهدف الشخصية المصرية منذ نهاية القرن ١٩

في الساقية" يفلح لهم الأرض، بل إنه ما زال ذلك المصري القديم الذي يثق بنفسه، ومرتبط بأرضه لحد الشهادة، يعرف جيدا موقعه في معركة الخير والشر، وأن عروقه لم تتفرغ من الشهامة والنخوة المصرية، وأنه رغم الغيوم التي تغطي ذاكرته وتخفي عنه حقيقة جدوره وماضيه، ورغم مظهره الممزق المكدود، إلا أنه يحمل في أعماقه يقينا بأنه فوق كل هؤلاء المحتلين، وأفضل منهم، فعاد ليثور وينتقم.

إذن، فإنهاك جسد هذا الفلاح أو قتله ليس كافيا، بل محو شخصيته تماما، بألا يكون فلاحا، لا يعتز أساسا بأنه مصري وفقط، بل يذوب في تقليد غيره من العرب أو العجم، والأهم ألا يكون شعبا واحدا، بل أجزاء وأحزاب وأديان وأعراق وطوايف وفرق وتنظيمات كالحطب تأكل بعضها بعضا.

فليتعلم المصريون، ولتنتشر المدارس، لكنها لن تكون إلا مفرخة أحزاب وتنظيمات وهويات عكس بعضها البعض، وليفتح كرومر لهم باب التوظيف الحكومي أكثر لكن لن يكونوا إلا موظفين كالخشب المسندة، أختام تؤشر على ما يريده محركوها من الأجانب، الحاكمين لها مباشرة، أو من وراء ستار.

❶ البرابرة يحاكمون الثورة المصرية بقانون "الهرم المقلوب"

من أدوات التصفية أنه بدلا من أن تحاكم الثورة أعداء الأمة حاكم الأعداء الثورة، هو قانون الهرم المقلوب الذي يحكم مصر منذ سقوطها في الاحتلالات والاستيطان الأجنبي، أن يعلو الأجنبي على المصري، أن يحكم المرتزق والعبد وعربان الجبال أهل الفلاحة والفلاح، أن تعلو قيم الغزاة والنهب والسلب والاغتصاب وتنخفض قيم ردَ الأرض والحقوق لأصحابها، أن يُحاكم ابن البلد الثائر بتهمة الخيانة ويُكافئ الخائن والغازي بحجة أنه "صاحب الحق والفضل".

انعقدت محاكمة عرابي و٣٠ ألفا من الثوار بـ"تهمة" إشعال الثورة في ديسمبر ١٨٨٢، وانتهت بأحكام الإعدام، ثم خُفضت إلى نفي عرابي وعبد العال حلمي وعلي فهمي ومحمود سامي البارودي ويعقوب سامي إلى جزيرة سيلان، وهو كان حلا أفضل للاحتلال حتى لا تزيد الشهادة إذا أعدموه هالة عرابي في نظر الشعب المتعطش لزعيمه.

وهذه التصفية للثورة تكرار للتصفية التي نفذها محمد علي ضد ثورة ١٨٠٤ التي قادها عمر مكرم لخلع خورشيد باشا، فسار توفيق على درب جده محمد علي الذي قال لشيوخ الأزهر كما تابعنا ردا على السخط الشعبي من عدم تنفيذه للوعود بالحد من الضرايب: "وكأنكم تخوفوني بهذا الاجتماع وتهييج الشرور وقيام الرعية كما كنتم تفعلون في زمان المماليك، فأنا لا أفزع من ذلك، وإن حصل من الرعية أمر ما فليس لهم عندي إلا السيف والانتقام"[٢٦٧].

فقد كان عرابي أول مصري يخاطب النفس المصرية، يخاطب ابن الشعب، متجاهلا ابن الحكومة التركي، كان أول رسمي [مسئول] مصري يعتز بلقبه المصري [أي الفلاح] ويصر على استعماله، لقد كان

[٢٦٧]- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٦، الجبرتي، ص ٧٩٢- ٨٠٠

قوميا مصريا صميما، ويقول البريطاني ستيوارت في كتابه "تاريخ الشرق الأوسط الحديث" إن "عرابي أول فلاح مصري يقف في وجه الحاكم منذ ألفي سنة وربما خمسة آلاف... ومن ورائه ومعه اندفع جمهور المصريين العاديين المعدمين المضطربين أول مرة منذ أيام الفراعنة نحو الحكم الذاتي"[٢٦٨].

ولذا؛ كان أهم ما يحرص عليه الإنجليز والخديوي في المحاكمة نزع صفة الشعبية عن الثورة، وأن يسجلها القضاء والتاريخ على أنها "تمرد" من أشخاص "خائنة"، و"طامعة في الحكم"، وعلى هذا تضمنت عريضة الاتهام بنودا منها: ممارسة أعمال العصيان العامة والتمرد على الخديوي والسلطان في حادث قصر النيل ومظاهرة عابدين، ترقية الضباط المصريين وإحالة الضباط الشراكسة للمعاش، الخروج عن الأدب في مخاطبة الخديو في مناقشة موضوع الشراكسة، ترميم الطوابي في الإسكندرية،إشعال الحرب في أرض السلطان، القيام بمذبحة الإسكندرية.

في المقابل تضمنت مذكرة الدفاع الذي قاده بلنت وبرودلي عن عرابي ورفاقه بنودا أبرزها: "نقاء وأمانة أفكار عرابي وأهدافه، شعبية الحركة الوطنية وعموميتها، طبيعة عرابي الإنسانية غير العادية، تعرض عرابي وزملائه للتعدي، وتعاونه مع السلطان وتوفيق حتى ١٢ يوليو[٢٦٩]"، لكن برودلي أقنع عرابي بالاعتراف بتهمة العصيان.

وفي ٢٨ سبتمبر صدر ما يسمى بـ"قومسيون التحقيق" لتتبع أي شخص ساند الثورة المصرية، أي شخص، واتهامه بجريمة العصيان وإهانة الذات الخديوية، وتشكلت من أشد كارهي الثورة المصرية، فرئيسها إسماعيل أيوب، (مملوك شركسي)، وأعضاؤها من الشركس والسوريين والأرناؤوط واليونانيين، وأورد عرابي منهم : علي باشا غالب (شركس)، يوسف باشا شهدي (شركس)، محمد زكي باشا (أرناؤوط)، وسعد الدين بك (رومي أي يوناني)، و(محمد حمدي بك العظم (سوري)، ومصطفى بك راغب (تركي)، و"سليمان بك يسري (كردي)، ومصطفى بك خلوصي (فارسي) ومحمد بك مختار (تركي)، ومن العجايب أن الأجانب يحاكمون أبناء البلد بتهم "العصيان".. ولكن هذا دائما هو قانون الشيطان.. الهرم المقلوب.

وصدر قرار تشكيل محكمة عسكرية لمن يوجه القومسيون لهم الاتهامات، أحكامها غير قابلة للاستئناف وتشكلت: الرئيس محمد باشا رءوف (كردي)، الأعضاء: إبراهيم باشا الفريق (رومي أي يوناني)، وإسماعيل كامل الفريق (شركس)، وحسن باشا عاصم (شركس)، وخورشيد باشا (شركس)، سليمان نيازي (أرناؤوط)، عثمان باشا لطيف (شركس) سليمان بك نجاتي (شركس)، أحمد حسانين باشا (مصري)، وتشكلت لجانا أخرى في المحافظات لنفس الغرض[٢٧٠] وأعضاؤها أيضا جنسيات أجنبية في معظمها.

وسهل تصور المرارة في حلق المصريين حين يستجوبهم، وبتكبر وشماتة، أجانب في أمر يخص بلدهم.

وورد في كتاب "التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر" لـ ولفريد سكاون بلنت شهادات عن

---

(٢٦٨)ـ الحركة القومية العربية في القرن العشرين، هاني الهندي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، بيروت ٢٠١٥، ص ١٥٥
(٢٦٩)ـ "التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر..رواية شخصية للأحداث، ص ٥١٨، مذكرات الزعيم أحمد عرابي، ج١، ص ٥٩- ٦٤
(٢٧٠)ـ مذكرات الزعيم أحمد عرابي، تحقيق عبد المنعم الجميعي، ج ٢، ص ٧١٩- ٧٢٣

"بيمان" مترجم "ماليت" وعن الشيخ محمد عبده- أحد المقبوض عليهم- أن توفيق كان يرسل زبانيته من الأجانب في الحكومة والقصر إلى عرابي وإخوانه في الزنانزين ليلا ليقوموا بالتف (البصق) على وجوههم، وشتمهم بأقبح الألفاظ، ولعنهم، وإهانتهم للتشفي فيهم، وإشعارهم بالإهانة جزاء على تجرأهم كفلاحين على الخديوي والعناصر الأجنبية الحاكمة، وذلك بالرغم من أن عرابي حرص على عدم استخدام العنف ضد الخديوي أو تلك الجاليات طوال الثورة.

ونقل أن رياض باشا (اليهودي/الشركسي) الذي وصفه مسئول أجنبي بأنه "يقوم بدور الشيطان في مصر"، كان يقول إن المصريين "مثل الثعابين، وطريقة منع الثعابين من الانتشار تتمثل في سحقها بالأقدام، وسوف أسحق المصريين بهذه الطريقة"(٢٧١).

وألقت سلطات الخديو ٣٠ ألف شخص ساندوا الثورة في سجون القاهرة والمحافظات، ما بين المزارعين والعمد وعلماء الأزهر وتجار وأعيان وغيرهم، حتى المراسل السويسري جون نينيه لأنه ساند الثورة.

❷ تزوير التاريخ بسلاح الصحافة الوافدة

ومن الانتقام أن سعى المحتلون لقطع أي لسان يكشف حقيقة ما جرى، فبعد الحبس والقتل والنفي لمن شارك في الثورة منعوا الصحف الوطنية من الظهور؛ فصدر أمر من رياض بإلغاء جريدتي "الزمان" و"السفير" بحجة أنها تهيج الخواطر ولأن أصحابهما من "العصابة الثائرة"، أما صحيفة "الطائف" لعبد الله النديم فتوقفت بدخول النديم في المنفيَ الداخلي(٢٧٢)، ولم يبق أمام الناس ولتسجيل التاريخ- أو ظنوا هذا- سوى الصحف صنيعة الأجانب مساندي الإنجليز وقتها، مثل "الأهرام"، و"المقطم"، و"المقتطف" و"الأعلام" التي أسسها ويديرها شوام ومغاربة، يقدمونها على أنها "صحف مصرية"، وأنهم هم "المصريون"، ويعبرون عن "الرأي المصري"، وركزت على اتهام عرابي بأنه السبب وراء الاحتلال الإنجليزي، وهي التهمة التي باتت تطارد عرابي حتى اليوم.

وخرجت "الأهرام" في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ بعنوان : "البشرى الكبرى"، "الجيش الإنجليزي قبض على العاصي عرابي"، وفي ٥ ديسمبر ١٨٨٢ على لسان صاحبها بشارة تكلا تسخر من عرابي وأصحابه عند قرب نفيهم إلى سيلان بقوله هؤلاء: "سيؤلفون هناك مستعمرة مصرية عاصية"، يشمت في المصريين بأنهم سيؤلفون "مستعمرة مصرية عاصية"(٢٧٣)، فرحا بأنه وأمثاله جاءوا لمصر "يؤلفون مستعمرة شامية لاهية"، ويتعاملون مع مصر كأنها بلدهم هم، لا بلد المطالبين بـ"مصر للمصريين".

❸ أول قرار لتوفيق الإنجليزي... حل الجيش المصري

تبدو هي المرة الثانية منذ انحلال الجيش المصري بعد الأسرة ٢٠ وإحلال أبناء القبايل الخاسوتيمية ثم

---

(٢٧١)- "التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر.. رواية شخصية للأحداث، ولفريد سكاون بلنت، مرجع سابق، ص ٥٠٤- ٥١٠
(٢٧٢)- انظر: مذكرات الزعيم أحمد عرابي، مرجع سابق، ج٢، ص ٧١٨، والهوامش
(٢٧٣)- الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، د. يونان لبيب رزق، ج ١، مركز تاريخ الأهرام، القاهرة، ص ٢٢٣ و٢٣٢

المرتزقة الإغريق والكاريين محل الفلاحين المصريين.. فبدون هذا ما بقوا في مصر كل هذه القرون.

ولذا؛ ففور اعتقال عرابي وصحبه كان أول قرار لتوفيق بتحريض إنجليزي في ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ من ٣ كلمات "حل الجيش المصري".. التوقيع محمد توفيق[٢٧٤]، وبسرعة محمومة جرى حبس الضباط المصريين ومحاكمة المدافعين منهم عن البلاد بصفتهم "عصاة"، وإلغاء الرتب العسكرية المعطاة لهم في أيام الثورة.

ومن صور الانتقام إعدام ضابط الجيش يوسف أبو دية، علنا وأمام عائلته- لأنه وبخ الشركي إبراهيم أدهم مدير الغربية حين ترك جرائم القتل تدور بين المصريين والأجانب وقت الثورة، وقرار بإعدام ضابط الشرطة نده خطاب لأنه ارتدى ملابس المدنيين ليحصل على أخبار الإنجليز في الإسكندرية ويوصلها إلى جيش المصريين، فاعتبروه جاسوسا لصالح المصريين[٢٧٥] ... لا عجب، فهذا قانون المملوك إذا غلب.

❹ مكافئة "الولس"

في المقابل، كافأ الخديوي سلطان باشا بعشرة آلاف جنيه على ما قام به من "الخدمات النافعة" وبالنيشان المجيدي من الدرجة الأولى، وقال توفيق: "حيث أنه بالنظر إلى ما أظهره سعادة محمد سلطان باشا من الصداقة لحكومتنا الخديوية ومعارضته للعصاة في جميع أمورهم وعزائمهم بالمخاطرة بحياته، وإلى ما حصل له بسبب ذلك من الضرر والتعدي منهم على شخصه وأقربائه وموجوداته ومقدار جسيم من مزروعاته قد استحق المكافأة من الحكومة".

ولم يكتفيا بأخذ هذه المبالغ الضخمة من عروق الفلاحين المكلومين، لكن أيضا أخذوا أموالا اشترى بها سلطان باشا وأحمد السيوفي وغيرهما أسلحة فاخرة محلاة بالجواهر الثمينة هدية لسيمور قائد الأسطول الإنجليزي الذي دمَّر الأسكندرية، وولسلي قائد الجيش الإنجليزي الذي قتل وأصاب آلاف المصريين في التل الكبير، وتسمت بأنها "هدية من أهل البلد" حسب ما وصفها سليم النقاش في "مصر للمصريين"[٢٧٦].

ويقول شفيق باشا إن توفيق كافئ الكثيرين ومنهم هو رغم أنه موظف صغير: "فلما عدنا من الإسكندرية إلى القاهرة بمعية الجناب الخديوي كنت بين الذين كوفئوا على ولائهم لسموه أيام الثورة، فزيد مرتبي إلى عشرين جنيها، ومنحت النيشان المجيدي من الدرجة الرابعة، والنجمة المصرية التي صيغت بأمر خديوي لتوزيعها على أنصاره والذين أخلصوا له إبان الثورة العرابية، وعلى ضباط وأفراد الجيش الإنجليزي[٢٧٧]".

وفي هذا الخضم الهائج، هذا الهرم والميزان المقلوب.. انتزع الاحتلال حلم مصر، "عرابي" ورفاقه المخلصين لها، من أرضها، زجوا بهم في السفن إلى البلاد المجهولة، مصحوبين بنحيب ودموع إيسة

---

[٢٧٤]- مصر الحديثة، اللورد كرومر، ج٢، مرجع سابق،، ص ٥٦٢

[٢٧٥]- انظر: مذكرات الزعيم أحمد عرابي، ج ٢، ص ٦٥١- ٦٥٢ ٧٢٣- ٧٢٤

[٢٧٦]- المرجع السابق، ص ٧١٦ و٧١٩ مع الهوامش

[٢٧٧]- مذكراتي في نصف قرن، ج١، شفيق باشا، مرجع سابق، ص ١٨

"إيزيس" ونبت حت "نفتيس"، وقلوب المصريين تلهج لله بأن تصب سخمت غضبها ولعناتها عليهم، حتى يظهر حور (حورس) مرة أخرى؛ ليكمل مسيرة عودة ماعت، ويخلص مصر.

▲▲▲ ثمرات أول ثورة لـ"مصر للمصريين" في العصر الحديث

1 تعلم مَصريون أن تكون ثورتهم ودماءهم لأجل أن تعود بلادهم إليهم، لا أن يحموها من محتل جديد لتعود للمحتل القديم بعد أن وصل عرابي في النهاية لمرحلة الأمل في خلع أسرة محمد علي كلها.

2 عادت الثقة لبعض المصريين بأنهم قادرون على الوقوف في وجه السلطان العثمانلي "الخليفة" حين رفض عرابي ومحمد عبيد وعبد العال حلمي وعلي فهمي في معركة التل الكبير الانصياع لمنشور العصيان الصادر من الأستانة، وتهديد محمد عبده بأن الفلاحين سيواجهون الجنود الأتراك لو بعث السلطان جيشا إلى مصر.

3 تجلت ثقة المصريين في أنفسهم كمصريين، يعتزون بلقب الفلاحين، خاصة مع مواكبة الثورة لانتشار اكتشافات أثرية في العالم تتحدث عن مجد مصر القديم، وعظمة المصريين، وكيف كانت مصر ست الدنيا وهي حرة مستقلة يحكمها أبناؤها فقط.

4 ثمرة في ظاهرها حلوة، وفي باطنها مرة، فقد تحققت مطالب الجيش فيما يخص أول مجلس نواب منتخب، ووضع دستور، لكن حصد إيَجابياتها نفس العائلات القليلة المسيطرة من الترك والعربان والعمد الحاصدين الثروات بالطرق الظالمة في معظمها، فيقول د.عبد المنعم الجميعي إن نظرة على أسماء أعضاء مجلس النواب تظهر أنها من نفس التركيب الطبقي الذي كان في مجلس شورى القوانين أيام إسماعيل، ومنهم عبد السلام المويلحي، أحمد السيوفي، محمد الشواربي، السيد الفقي، سليمان أباظة، أحمد الصباحي، عباس الزمر، خليفة الهواري، السيد الريدي، محمد سلطان، علي شعراوي، حسن الشريعي، محمود سليمان، عبد السلام خفاجي، السيد الغرياني [٢٧٨]، وستتكرر نفس العائلات لعصور قادمة.

5 علو الصوت عن حقوق الأمة بعد أن ظل لمئات السنين الكلام فقط عن "حقوق" للمحتلين والمستوطنين الأجانب، وأن الفلاح (الأمة الحقيقية)، ما خُلق إلا ليزرع ليأكل الغزاة.

6 صمدت مصر سنة أمام مخططات روتشيلد وشركاه والقناصل الأجانب والخديوي والترك والشراكسة وأمثالهم، بمواردها الذاتية- رغم أن معظمها منهوب- وكلما مر شهر تتحسن إدارتها وتقوى معنوياتها وتصدر قوانين لتحسين أحوالها، فأصدرت في سنة واحدة الحكومة التي بها عرابي وزيرا قوانين حسنت أحوال رجال الجيش والموظفين المصريين، واعتزمت تقليل عدد الأجانب في الحكومة، ومحاربة الامتيازات الأجنبية، وجهزت الثورة لتأسيس بنك مصري يحمي الفلاحين من المرابين شعاره "مساعدة الفلاح ورفع فاحش الربا عنه"، وتأسست "الجمعية الصناعية المصرية"، وأطلقت صحيفة "التنكيت

---

[٢٧٨]- مذكرات الزعيم أحمد عرابي، ج١، مرجع سابق، ص ٣٥١- ٣٦١

والتبكيت" حملة "لا تلبس إلا من صنع بلادك"، وسعى محمد عبده وعبد الله النديم لتعميم التعليم[٢٧٩]، فأثبتت ثورة مصر أن قرون الشيطان مهما كثرت واشتدت سمومها إلا أن القوة الذاتية للحق إذا ما توحدت وفهمت وصمدت قادرة على تحديها وصدها، ولولا "الولس" بأنواعه لصمدت أكثر، وربما نجت، لكن جاءت المعركة ومصر مكلبشة بـ"الولس" وخصوصا "الهكسوس" المستوطنين من كل ناحية.

7 كتب التاريخ أن مصر لم يجتاحها الاحتلال بسهولة مدام فيها جيش يحمل أبناؤها فيه السلاح، كتب التاريخ أن الاحتلال لم يتمكن من مصر إلا على جثث رجالها حاملين البندقية والعصاية والفاس، فالاحتلال الإنجليزي "كان جاي جاي" لمخططات إنجلترا القديمة ولانتشار "الولس" في مصر، وفرق أن يأتي وأهلها صامتون، وبين أن يفعل رجالة البلد مدام ملكوا السلاح كل ما بيدهم لمنعه حتى آخر نفس.

8 ترعرعت شجرة الوطنية في النفوس مجددا، مرتوية بالدماء، والمصري عاد ليكون ضمن كفاحه كلمات "الغيرة الوطنية"، و"الدفاع عن الوطن"، و"الوطنية الشريفة"، محتضنا بعينيه وقلبه ودمه مصر كلها، بعد أن اختزلت الاحتلالات حياته ووعيه في القرية فقط.

وفي ختام شهادته على الأحداث، خاصة بعد سرد نهايتها الحزينة، وفي رده على سؤال طرحه على نفسه حول "ما الذي يحمله المستقبل لمصر"، قال "بلنت" إن الإنجليز بما فعلوه "مكنوا سكان النيل الوطنيين من الوقوف في وجه الأجنبي باعتباره مالكا للأرض، وما بقي هذا الإحساس، وما بقيت هذه الوقفة، ستبقى الأمة حية، وسيأتي اليومِ الذي سيعود فيه الحكم الذاتي إلى الفلاحين، وعندها يتبدى لهم أن الصراع المسلح الذي دار في عام ١٨٨٢ كان في حقيقة الأمر بداية لحياة وطنية لهم، تلك الحياة التي ستمجدها حوليات هؤلاء الفلاحين. سوف أعلق آمالي كلها على مجئ ذلك اليوم الذي يتحقق فيه التحرر النهائي[٢٨٠]".

وبحزم قال عرابي بعد عودته من المنفى ١٩٠١: "مصر للمصريين، إن لم يكن اليوم فغدا"[٢٨١].

"إنها [ماعت] لا تتغير ولا تتبدل منذ زمن الذي أوجدها".

(الحكيم بتاح حتب)

"إن صلاح الأرض (مصر) ينحصر في تطبيق الماعت"[٢٨٢]... الميزان والهرم المعدول.

(الفلاح الفصيح في شكواه الثالثة)

---

(٢٧٩)- راجع القوانين وبرنامج الحزب الوطني ومطالب محمد عبده في مذكرات الزعيم أحمد عرابي، ج١، ص ٣٠٩- ٣١٦ و ٣٧٧، و٤٣٢ و٤٠٥- ٤٠٦، ودعوات التعليم والصناعة وإنشاء بنك مصري في: تطور الرأسمالية المصرية، مرجع سابق، ص ٦٨- ٧١

(٢٨٠)- التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر.. رواية شخصية للأحداث، مرجع سابق، ص ٥٣٥

(٢٨١)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩ ص ٥٦٢

(٢٨٢)- تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

"قل الحقيقة واخزِ الشيطان[1]"

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"

إنهم ينتظرون المسيخ الدجال في آخر الزمان... آلا يعلمون أنه مرافق للإنسان منذ نزلا سويا إلى الأرض من بداية الزمان.. !

(1)- الشيطان أمير العالم، وليم جاي كار، ترجمة عماد ابراهيم، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١٤، ص ٩

المشهد ١٨: الشيطان يحكم العالم ويأسر مصر

(المسيخ الدجال)

امتلأت الصفحات السابقة- بداية من الاحتلال العلوي بالكلام عن عائلات وبيوت مال باسم "روتشيلد"، و"جوشن" و"أوبنهايم"، و"التنظيم العالمي" الذي أغرق مصر بالديون والجاليات الأجنبية الجديدة حتى أوقعها في حبال أساطيله الحربية والاحتلال الإنجليزي، فمن هؤلاء؟ وما مصدر قوتهم؟ وما علاقتهم بمصر؟ وما دورهم في إغراق مصر بالهجرات الأجنبية لكتم وحدانيتها وتحويلها أعراقا وأحزابا وشيعا؟

الصفحات القليلة القادمة تستقي الإجابة من كتابات أوروبية قديمة وحديثة، ودراسات ووثائق مصرية، حول هؤلاء، وضرورة استعراضها هو أنها مفتاح لنفهم كل الأحداث القادمة في مصر، بل وحتى يوم القيامة، لأنها تكشف أسباب كثير من الحروب والاحتلالات والقرارات والثورات في مصر والعالم، بل يصعب أن نفهم ما يجري في مصر إن لم نفهم ما هي بيوت المال العالمية والأيديولوجيات التي تتحكم في العالم، وما علاقة هذا بتمييع الهوية المصرية، وتخريب معنى الجنسية المصرية، وتكديس مصر بالجاليات والأعراق الأجنبية، وحشوها بالتنظيمات العالمية كالشيوعية والليبرالية الرأسمالية وتنظيم الإخوان المسلمين والقومية العربية وخرافة المواطن العالمي وغيرها.

وكما نبَّهنا الدكتور جلال أمين في كتابه "قصة الاقتصاد المصري من عهد محمد علي إلى عهد مبارك"، فإنه لنفهم ما يجري في مصر يجب أن نوسع نظرتنا لما يجري في العالم، ولنفهم محنة مصر يلزم فهم دورة رأس المال في العالم، ومن يدفع مصر إلى "الانفتاح الاقتصادي" ويهيل على أرضها الجاليات الأجنبية لغرف خيراتها(٢).

والنبش وراء ظهور هذه التنظيمات السوداء في العالم- وهو ما اجتهدت فيه مشكورة أجيال قبلنا- وكيفية غزوها مصر، ربما يكشف لنا إجابات عزيزة عن أسئلة حيرتنا وعذبتنا أجيال ورا أجيال حول سبب انتشار الإرهاب، وظهور جماعات في مصر تتفاخر بخيانة بلدها ومعاداة المؤسسات الوطنية، وسبب الدعوة اللحوحة لإزالة الحدود الجغرافية، وتجنيس الأجانب، وسبب استمرار عقدة الخواجة وتحقير الذات المصرية الشريفة، وظهور المنظمات الحقوقية، وانجراف مصريين للغربة برة، ومسح ملامح الباقي من هوية مصر بلا هوادة، وسبب كعبلة مصر وجرها للوراء كلما انتصرت في ثورة أو حرب وعلت برأسها

---

(٢)- انظر: قصة الاقتصاد المصري من عهد محمد علي إلى عهد مبارك، د. جلال أمين، دار الشروق، ، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٢١- ٢٣

كزهرة اللوتس من قاع المحيط الأزلي إلى السما من جديد.

كذلك ربما نجد السبب وراء شكوانا من أن "النخبة"- وخاصة الآن- معظمها لا تعبر عنا، وتقودنا للمهالك، وتمسح عيوبها بكل وقاحة في المصريين، حتى ظهر بعد فوضى ٢٠١١ تعبير "نخبة النكبة".

وما سبق يلزمه عرض نبذة مختصرة عن مصنع هذه التنظيمات والتيارات العالمية، ومصنع الاحتلالات والحروب الأهلية والعالمية، منجم الشر، المتحكم الأول في الاقتصاد والرأي العام العالمي، العاشق الأول لسفك الدم، الكاره الأول للحضارات، وخاصة حضارة مصر (كلمة الحق)، صاحب سياسة "الهرم المقلوب" وهو ما سمته الكتب الأوروبية والأمريكية في الـ ٢٠٠ سنة الماضية بـ"تنظيم النورانيين"، وكشف بعض أسراره أعضاء سابقون فيه، ومحققو أجهزة مخابرات في جرائمه، وباحثون منقبون في التاريخ.

▼▼▼ البداية.. خطيئة إبليس في الجنة

"لأن أيديكم قد تنجست بالدم، وأصابعكم بالإثم. شفاهكم تكلمت بالكذب، ولسانكم يلهج بالشر. ليس من يدعو بالعدل، وليس من يحاكم بالحق. يتكلون على الباطل، ويتكلمون بالكذب. قد حبلوا بتعب، وولدوا إثما. فقسوا بيض أفعى، ونسجوا خيوط العنكبوت. الآكل من بيضهم يموت، والتي تكسر تخرج أفعى. خيوطهم لا تصير ثوبا ولا يكتسون بأعمالهم. أعمالهم أعمال إثم، وفعل الظلم في أيديهم. أرجلهم إلى الشر تجري، وتسرع إلى سفك الدم الزكي. أفكارهم أفكار إثم. في طرقهم اغتصاب وسحق. طريق السلام لم يعرفوه، وليس في مسالكهم عدل. جعلوا لأنفسهم سبلا معوجة. كل من يسير فيها لا يعرف سلاما". (سفر إشعيا- الإصحاح ٥٩).

أشد ما يصدق هذا الكلام على التنظيمات التي انتشرت في العالم خلال الـ ٢٠٠ سنة الماضية، وشعاراتها: (لا دين، لا وطن، لا دولة، لا أخلاق، لا عائلة، لا سلام، لا طاعة لأحد... إلا لإبليس).

يقول ضابط المخابرات الكندي وليام جاي كار الذي خدم في سلاح البحرية والمخابرات مع دول الحلفاء في الحربين العالميتين الأولى والثانية في كتابه المشهود "أحجار على رقعة الشطرنج" الصادر سنة ١٩٥٨ وأحدث دويا ما زالت أصداؤه ترن حتى الآن: "شرعت في العمل منذ عام ١٩١١ مستهدفا الوصول إلى كنه السر الخفي الذي يمنع الجنس البشري من أن يعيش بسلام وينعم راغدا بالخيرات الوثيرة التي منحها الله لنا، ولم استطع النفاذ إلى قلب هذا السر أخيرا حتى عام ١٩٥٠، فعرفت أن الحروب والثورات التي تعصف بحياتنا، والفوضى التي تسيطر على عالمنا ليست جميعا- دونما أي سبب آخر- سوى نتاج مؤامرة شيطانية مستمرة".

ويعيد جذور هذه المؤامرة إلى الصراع بين الخير والشر الذي نشأت على أساسه الدنيا لما أعجب إبليس بنفسه غاية الإعجاب بعد أن منحه الله سلطانا فوق المخلوقات، وجعله أجملهم وأذكاهم، فأحس أنه "مالوش

كبير"، حتى أنه لما أمره الله أن يسجد لآدم رفض، مندهشا كيف يكون آدم كبيرا عليه ولو بأمر إلهي، يعني رفض أن يكون الله نفسه كبيرا عليه؛ فتحداه، وأعلن بوقاحة أنه سيثبت لله أنه "أخطأ" في خلق آدم وفي ثقته فيه، وأن بني آدم لن يكونوا إلا عصاة له، وسيعبدون في النهاية آلهة أخرى غير الله، وسينتهي الزمان بألا يكون بينهم مؤمنين إلا قليلا، فقبل الله التحدي، وتحدد ميعاد إعلان النتيجة بيوم القيامة، ومن يومها والشيطان يكد بكل نشاط وتركيز في تضليل البشر عن الحق، وباعتباره "أول المتمردين على الحق"، فسلاحه في هذا تهييج التمرد في النفوس ضد كل حق وكبير، تهييج الأجيال على بعضها، والشعوب على أوطانها، والشعوب على حكامها المخلصين غير التابعين لدول وتنظيمات عالمية، وتهييج البشر على الله والأخلاق الحسنة، وتهييج البلاد ضد بعضها بزرع مطامع الغزو والاحتلال لنهب خيراتها؛ فتستمر الحروب والمذابح ويكفر ويفسد الناس من كثرة المعاناة.

وبدأ بآدم نفسه وحواء، فالله تعالى وهبهما الجنة بحالها، يجرون ويمرحون ويتمتعون فيها "براحتهم"، لا تعب ولا خوف ولا موت، فقط أمرهما أن يتركا شجرة واحدة لا يمساها، شجرة واحدة من كل أشجار الجنة الباسقة، فتسحب الشيطان كالأفعى وغذى فيهما الطمع والتمرد على أوامر الله، ووسوس لهما بأن الله منعها عنهما لأن فيها خير كبير، فتمردا على أوامر الإله الحق (كبيرهم)، ورضخا للشيطان وأكلا منها، فعاقبهما الله بتنزيلهما للدنيا الشقية، وكان هذا أول نصر للشيطان على آدم، بسلاح تهييج التمرد على الحق (الله)، وجهز نفسه للمهمة الأكبر وهي تضليل بقية نسله بأن يغذي فيهم أيضا فكرة أن الإنسان الحر هو "اللي مالوش كبير" في عائلة أو وطن أو دين، ويغذي شعور التمرد هذا بزغزغة عطش كل إنسان لأن لا يخضع لأي حساب في الدنيا والآخرة، فهم حين يحطمون كل كبير وكل الأصول فسينجون من كل حساب وعقاب، فعلام سيُحاسبون إن لم يكن هناك أصول معروفة بين الناس؟ ومن سيحاسبهم إن كان لا يوجد إله، أو أن الناس لا يتفقون على كبير في عائلة أو وطن أو دين؟

♦♦♦ التسابق على آخر الزمان

ولكن ماذا يفعل إبليس لتنفيذه وعده وتحديه لله الوارد في الإنجيل والقرآن بأنه سيضل أبناء آدم، هل سيكتفي بالوسوسة لهم في آذانهم من طرف خفي؟

أم سيسعى لتجنيد أشخاص منهم يعبدونه من دون الله، وينشأون المنظمات والمحافل التي تنشر أفكاره الخبيثة ضد الله والأوطان والأخلاق والفطرة الإلهية في كل شيء، وتأخذ أسامي براقة تجذب الملايين إليها، شاطرة في الدعاية، تقدم الحق على أنه الباطل والباطل على أنه الحق (وظيفة المسيخ الدجال)، فينفذون أجندة الشيطان، حتى دون علمهم بأنه قابع لهم ورا الستارة؟

ورد في القرآن: إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين (٧١) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٧٢) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٧٣) إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين (٧٤) قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فإنك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال

فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥).. (سورة الحجر)

يقول وليام جي كار إن الكتب المقدسة "أخبرتنا كيف انتقلت المؤامرة الشيطانية من جنات عدن إلى عالمنا الأرضي. وكانت الحقائق والبديهيات المتناثرة التي عثرت عليها في كل أرجاء العالم متقطعة الحلقات لا يمكن تنسيقها، واستمر ذلك حتى وصلت إلى الحقيقة، وأدركت أن معركتنا ليست مع مخلوقات عادية من لحم ودم، بل مع القوى الروحية والفكرية التي تعمل في الظلام، وتسيطر على معظم هؤلاء الذين يشغلون المراكز العليا في العالم بأسره.

إن وجود آدم في الأرض حقيقة، كذلك وجود الشيطان (المسيخ الدجال) حقيقة، أحدهما ظاهر، والآخر خفي، وكما لآدم معابده وكتبه المقدسة وذرية، كذلك للشيطان معابده وكتبه وأتباع "إنه يراكم وقبيله من حيث لا ترونهم" (سورة الأعراف، الآية ٢٧)

وينبه جي كار: "إن الكتاب المقدس يذكر لنا- وهذا ما ينساه معظمنا- أن الشيطان كان من أكبر سكان الفردوس ذكاء ودهاء ومقدرة، وأن روحه باقية لم تفن، وكيف خرج وأتباعه على قواعد الدستور الإلهي (...) وليست التوارة في الواقع سوى قصة الشيطان حين أصبح سيد العالم، وجعل أجدادنا الأولين يحيدون عن جانب الحق؛ فتأسس كنيس الشيطان على الأرض، ثم تخبرنا التوراة كيف شرع هذا الكنيس منذئذ في التآمر لمحاربة الدستور الإلهي"[٣].

وفي رأي جي كار فإن المسيح بُعث في الوقت الذي بلغت فيه المؤامرة مرحلة أصبح الشيطان فيها المسيطر على كل هؤلاء الذين يشغلون المراكز العليا في العالم... ففضح المسيح كنيس الشيطان وهاجم أتباع الكنيس مسميا إياهم (أبناء الشيطان)، وأن المسيح أخبرنا في الإنجيل بأنهم مَن "يقولون إنهم يهود... وليسوا يهودا...بل يكذبون" (سفر رؤيا ٢:٩ و٣:٩).

وقال المسيح لليهود: "أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتّالا للناس من البدء، ولم يَثبُت في الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له، لأنه كذاب وأبو الكذاب".(إنجيل يوحنا ٨: ٤٤)

أي أن الشيطان وأتباعه مهمتهم نشر القتل والحروب وتزوير الحقائق لإرهاب وتضليل الناس، لكنهم على قدر ما يبدون من قوة فهم ضعاف، يظهر ضعفهم عند ظهور الحق.. وصاحب الحق.

واعتبر جي كار أن المسيح قدم للناس الخلاص من حبائل الشيطان بأن يكشفوا مؤامرته لكل الناس؛ لأن معرفة الحقيقة ستحررنا من ربقة المؤامرة، ولكن لما أهمل الصالحون القيام بهذا الواجب استمرت

---

[٣]- انظر أحجار على رقعة الشطرنج، وليم جاي كار، ترجمة سعيد جزائرلي، دار النفائس، ط ١، ١٩٧٠، ص ٧-٨

المؤامرة، وأخذت الفرصة لتتطور بحسب تطورات العصور، وهي الآن تدخل مرحلتها قبل النهائية[٤].

أي أنه طالما الناس واعية لمؤامرة إبليس وأتباعه الداعين لوضع نظام عالمي يخالف الفطرة السليمة، فإنهم سيكونون بمأمن عنها، لأنهم لن يقعوا في حبائل دعاة الفتن والفجور، سيكتشفونهم بسرعة مهما تخفوا في أشكال حديثة، أما الغفلة عنها ستمكن أعدائهم من النفاذ إلى عقولهم والسيطرة عليها بسهولة.

▲▲▲ موقع مصر في السباق

وهذا الوصف المستخلص من الكتب المقدسة يعني أن الشر- كالخير- لا نهاية له، وهو نفس الفكر المصري القديم لأساس الحياة الدنيا، فالعقيدة المصرية تقوم على أننا في معركة خير وشر، تأخذ مصر فيها جانب الخير، وتمسك بالسلاح في وجه الشر، والفنان المصري يصور مناظر الصراع بين الخير (المصريين) وبين الشر (الثعبان المسمى عبَّ، أو سيد قشطة أو فكلاهما رمز الشر عنده)، وتنتهي بأن المصري يطعن بسلاحه رمز الشر، فيشل حركته ويكسر سمه ليعجز عن كسر الإنسان، لكن لم يصوره على أنه مات نهائيا، لأن المصري بفطرته يعرف أن الشر سيظل قائما مادامت الحياة، لأن الحياة على الأرض في الأساس قائمة على تحدي الخير والشر، ووظيفة الخير شل حركة الشر وتعجيزه لينجي نفسه منه حتى إعلان انتصار كلمة الله وعباده فوق كلمة الشيطان.

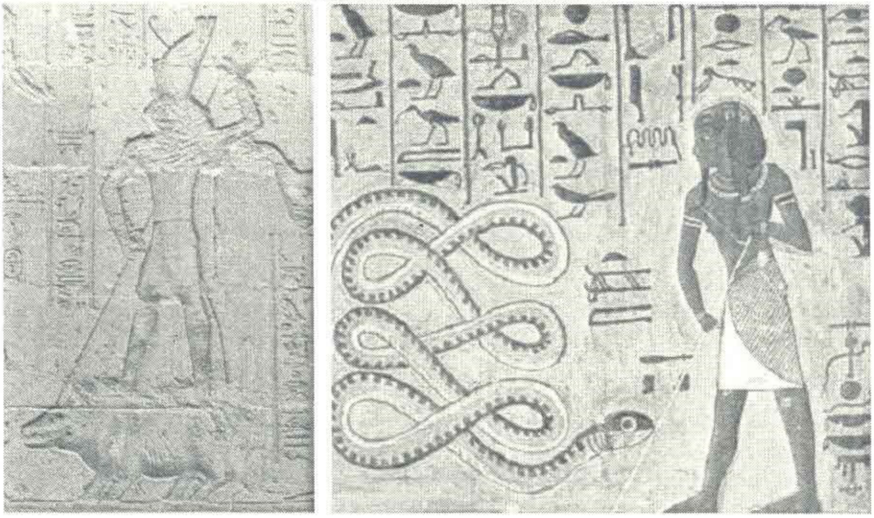
وهو أمر مستوحى من قصة حور وسِت، فـ حور انتصر على ست، وكسره، لكن ست لم يمت، فسيظهر مرة أخرى في شكل رجل فاسد أو احتلال وغزاة أو فتنة؛ فيفوز في معركة ضد الخير حور ؛ فيشحذ الخير أسلحته من جديد، وهي: الحق (ماعت) ووحدانية الشعب المصري واليقظة والقوة، وينتصر من جديد، وهكذا.. حتى اليوم الموعود[٥].

والمهم أن الخير ينتصر في النهاية في العقيدة المصرية، هكذا نر أن رع في صورة الشمس وهو يسبح بمركبته في السماء يقضي الليل يعافر ويتعارك مع عبّ (الثعبان رمز الفوضى وإزفت ومعروف في الكتب الأثرية بالنطق اليوناني أبو فيس)، لأن عبَّ يريد أن يقلب المركب "يعطل المراكب السايرة" ويمنع رع من أن يصل إلى الشرق وتشرق الشمس من جديد وتعيد النور للناس بعد الظلام (الحق بعد الباطل)، لكن في نهاية المعارك ينتصر رع ويعود النور ويختفي الظلام.

---

(٤)- المرجع السابق، ص ٨- ٩

(٥)- عن قصة حور وست أنظر: تطور المثل العليا في مصر القديمة، محمد علي سعد الله، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ص ٩٩- ١١٣



حور برأس الصقر مرتديا تاج مصر وهو يطعن بالحربة سيد قشطة "أحد رموز الشر" (معبد إدفو) وحارس مصري يمسك الحربة استعدادا لطعن الثعبان عبَّ "أبو فيس" رمز الشر وإزفت الذي يريد منع شروق الشمس كل يوم (مقبرة رمسيس الأول)

ولذا فليس بعجب أن مصر هي "كلمة الحق المجسدة في وطن" على الأرض.

ليس فقط في قيم الخير المألوفة التي تتبناها، وفي أنها أول شعب تخلص من الهمجية المسلحة والفرقة القبلية ويسلم سلاحه وإدارته إلى جهة واحدة (الحكومة) ونظام واحد (ماعت) ليؤسس الدولة المتحضرة، لكن في أنها ربما الحضارة الوحيدة التي نجت من الطمع الشيطاني في شجرة غيرها، ولا تريد أن تعطل مراكب غيرها مادامت لا تضرها، بمعنى أنها رفعت من بدء وجودها كدولة مبدأ "نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا"، فلم تخرج من حدودها إلا لترد من سبق واعتدى عليها، ولم تفتح بلدانا أو تحتلها إلا ردا على قدوم احتلال إلى مصر من جوف هذه البلاد، كما حصل باحتلال الشام والسودان ردا على تحالفهما في الاحتلال الهكسوسي ضد مصر.

ولا يخص مصر قيام من احتلوها مثل اليونانيين والرومان والعرب والمماليك ومحمد علي بالاعتداء على من لم يعتدِ عليهم، فلم تكن مصر هي التي تحكم من الأساس، بل هي نفسها كانت محتلة منهم.

وبهذا فإن مصر/ماعت من البداية (حين أقامت دولة وطنية لها حدود ثابتة وبحكم مركزي، وكوَّنت شعبا وحدانيا بهوية خاصة تحميه من التمزق، وشبعان بما في أرضه، أخذت جانب الخير ضد الشر، رفعت مبدأ نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا) فهي بذلك تهدد الأسس التي يعتمد عليها الشيطان وأتباعه لتضليل الشعوب وفرض سيطرته على العالم باسم "العالمية/العولمة".

ووفق ما يردد حزب الشيطان اليوم بعد أن كشفوا وجوههم، فإن مهتهم تحقيق أن "الشيطان هو الذي سيحرز النصر على الله في آخر الزمان" كما ورد في الوصايا العشر في كتاب "الإنجيل الأسود" لأنطوني ليفي الذي أعلن صراحة ما وصفها بعبادة الشيطان في الولايات المتحدة سنة ١٩٦٦، وأنشأ لها كنيسا[٦].

[٦]- انظر: عبادة الشيطان وسلطان القديسين، حلمي القمص يعقوب، كنيسة القديسين مارمرقس الرسول، الإسكندرية، ص ٨٨

وما حركة الثورة العالمية المتجددة ضد كل الأصول الربانية (العائلة والوطن والدين والأخلاق والحياء إلخ)، أو بالمصري "الماعت"، إلا تنفيذ لما سماها جاي كار بعد جولته في الوثائق الخاصة بالتنظيمات العالمية بـ""ثورة الشيطان" على الله، وهي بالمصري "الزفتة"، أي الفوضى.

▼▼▼ تنظيم الناريين (النجمة السداسية)

ويحكي "جي كار" بداية العثور على أدلة مكتوبة عن المؤامرة تثبت دورها في الثورات الأوروبية ما بين القرنين ١٧-٢٠، ثم الحروب العالمية، وصولا إلى تأسيس الأمم المتحدة، رأس الشيطان، نقلا عن كتب نشرها أعضاء سابقون في تنظيم يدعى "النورانيين" أو "المتنورين" **Illuminati** ففي ١٧٨٤ "ضربت يد الله ضربتها"، وعثرت الحكومة البافارية (مملكة أوروبية تحولت إلى مقاطعة حاليا في ألمانيا) على أوراق بحوزة شخص كان يعبر بجواده الحدود من ألمانيا إلى فرنسا مرسلة من آدم وايزهاوبت إلى أعضاء محفل الشرق الأكبر، وهو اسم المحفل الماسوني الأشهر في فرنسا وقتها، تتضمن خطة إشعال الثورة الفرنسية وتمكين النورانيين من حكم فرنسا تحت شعار "التنوير".

والنورانيون، وفي قول آخر التنويريون، اسم مأخوذ من "حامل النور" وهو من ألقاب الشيطان عندهم، ويشيعون أنهم هم حملة النور والتحضر للعالم، وأن رسالتهم التنوير ونشر الحداثة[٧]، وسيرا على نظام الكتاب في تسمية الأسماء بمسمياتها، وبما أن الشيطان تفاخر أمام الله بأنه مخلوق من نار قبل أن يخدع البشر بأنه هو "رب النور"، فإن الكتاب سيسمي هؤلاء باسم "الناريون"، وليس "النورانيون" المضللة والتي تحجب حقيقتهم كعادة وأسلوب المسيخ الدجال منذ القدم.

ووايزهاوبت عمل أستاذا للاهوت في جامعة أنجولد شتات بألمانيا، ولكنه ارتد عن المسيحية ليعتنق المذهب الشيطاني "الناري"، وفي عام ١٧٧٠ استأجره المرابون الذين أسسوا فيما بعد مؤسسة روتشيلد، إحدى أشهر بيوت المال العالمية، لمراجعة وتنظيم بنود الخطة التي يسير عليها أتباع الشيطان منذ العصور القديمة، ويدفعون بها الشعوب إلى الحروب والرذائل والفتن الكبرى، لكي يحدِّثها وفقا لتطور الظروف السياسية في العالم خلال القرن ١٨، وأتم عمله في ١ مايو عام ١٧٧٦ الذي اتخذه الشيوعيون- أحد فروع تنظيم الناريين- فيما بعد عيدا لهم تحت اسم عيد العمال[٨].

وكان الروم الكاثوليك يحتفلون في ١ مايو منذ قرون بعيد أم المسيح، ولهذا اختاره وايزهاوبت، وهو يسوعي مرتد، ليعلن فيه لرفاقه من عبدة الشيطان عن خطته المعدلة لتدمير المسيحية وإحداث ما أسماه نيتشه فيما بعد "موت الرب"[٩]، فيكون تحول من يوم لتمجيد المسيح إلى يوم الاحتفال بخطة "تدميره".

---

(٧)- أنظر: الشيطان أمير العالم، وليم جاي كار، ترجمة عماد إبراهيم، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١٤، ص ٣٠

(٨)- أحجار على رقعة الشطرنج، مرجع سابق، ص ١١

(٩)- نفس المرجع، ص ١٧١

*** اليسوعيون، رهبنة أو منظمة تابعة لكنيسة روما الكاثوليكية "الفاتيكان"، نشأت في القرن ١٦، واهتمت بالانتشار في العالم عبر إنشاء المدارس والجمعيات الخيرية والمستشفيات والجامعات، كجامعة جورج تاون بأمريكا وجامعة القديس يوسف ببيروت، ومزجوا بين التعليم الديني والدنيوي الحديث والفنون فبهروا الناس، ونقلوا المسيحية إلى الأمريكتين والصين.

ووفق نفس الدراسة فإن "النورانية تمارس داخل نظام اليسوعية تحت اسم الكمالية"، بمعنى محاولة الوصول للإنسان إلى الكمال، فتخطف هذه الأسماء وشعاراتها البراقة الأبصار، وتوقع الشخصيات المستهدفة في حبائلها، وهناك مثل مأثور يقول "إن الطريق إلى جهنم ممهد بالنوايا الحسنة[١٠]".

وقال وايزهاوبت في رسالة إلى أحد رفاقه اسمه الحركي ""كاتو" سنة ١٧٧٨ ": "بواسطة هذه الخطة سنقوم بإدارة كل الجنس البشري، وبهذه الطريقة وبأبسط الوسائل سنجعل الجميع في حركة وهياج (...) لقد أخذت بالاعتبار كل شيء إلى درجة أنه إذا انهار النظام اليوم سأعيد إنشاءه في سنة ليعود أروع من أي وقت مضى[١١]".

ولخص وايزهاوبت وسائل حركة الثورة العالمية للوصول إلى الدمار الشامل للبشر، بحيث لا يبقى إلا نخبة الشيطان والأتباع المستسلمين لها ليعلن بهم "انتصاره" على الله في ٦ نقاط:

١- إلغاء جميع الحكومات الوطنية (أي التي ليس لها جذور وولاءات خارجية)

٢- إلغاء الإرث

٣- إلغاء الملكية الخاصة بصورة مطلقة

٤- إلغاء الشعور القومي والوطني

٥- إلغاء المسكن العائلي والحياة العائلية اللي قامت عليها الحضارة

٦- إلغاء جميع الأديان تمهيدا لإحلال الأيديولوجية النورانية (النارية الشيطانية) محلها بالقوة[١٢]

واعتمد وايزهاوبت النجمة السداسية شعارا للناريين، ليس لأنها نجمة داود، ولكن لأن برنامجه هذا الذي يتألف من النقاط الستة.

▼▼▼ احتلال القلوب والوجدان.. والنخبة

وعن سيطرة "الناريين" على تشكيل وعي ووجدان الشعوب جاء في رسالة وايزهابت إلى رفيق آخر له

وتكاد تكون أول تنظيم دولي يتبع سياسة الانتشار من بوابة العمل الخيري والمدارس والجامعات والخلايا الثقافية والفنية، ويكون له أذرع وإمبراطورية اقتصادية في كل قارات العالم، وتخريج شخصيات يكون لها التأثير في الرأي العام في بلادها، ما أثار حولها الكثير من التساؤلات حول أهدافها الحقيقية.

ورسالة اليسوعية الأساسية إخضاع بقية المذاهب والكنائس في العالم- بما فيهم الكنيسة المصرية- إلى كنيسة روما، أو ما تسميه "الاتحاد"، كما لها اهتمام خاص بدعم الأجانب واللاجئين في أي بلد، وخصصت لهم "الهيئة اليسوعية لخدمة الاجئين"؛ ما يربط انتماءاتهم بأهدافها في تغيير هوية الشعوب والسيطرة عليها بربطها بالفاتيكان أو بتسليمها للأجانب المستوطنين.

ويتصف أعضاء التنظيم بالطاعة الشديدة لقادتهم، وأول مرة يصل أحد من أعضائها إلى بابوية روما هو البابا الحالي فرنسيس سنة ٢٠١٣، وعلى مثلها ستتكون تنظيمات كالفرنسيسكان والإخوان المسلمين وغيرها.

[١٠]- الشيطان أمير العالم، مرجع سابق، ص ١٤٠

[١١]- نفس المرجع، ص ١٧٥

[١٢]- أحجار على رقعة الشطرنج، وليام جي كار، مرجع سابق، ص ٢٥- ٢٦

اسمه "فيلو": "يجب أن نكتسب سيطرة على عامة الناس في كل مكان، وذلك عن طريق المدارس، وبطريقة مشابهة يجب أن نحاول أن نكسب الأكاديميات العسكرية ودور النشر وباعة الكتب والمتجر ورجال الكنيسة ونؤثر عليها، وباختصار في كل المواقع، وحتى في توجيه عقل الإنسان يعتبر الرسم والنحت جديران باهتمامنا[١٣]"، أي كل ما يقع في دايرة الإعلام والتعليم والفن وما يؤثر في الرأي العام.

ولم يتضح ماذا كانت البنود القديمة في الخطة قبل أن يحدثها وايزهاوبت التي جرى تسريبها وسميت لاحقا ببروتوكولات صهيون أو البروتوكولات اليهودية، ولكن جي كار يفضل وصفها ببروتوكولات أو خطة الشيطان، لأن الصهيونية واليهود لاحقين لها، وهم مجرد أدوات مستحدثة.

وتقوم الخطة المعدلة على أن مهمة الحركات المتفرعة من تنظيم "الناريين" هي تدمير جميع الحكومات والأديان، وتقسيم العالم إلى معسكرات متنابذة متصارعة حول مشاكل يتم اصطناعها بشكل متواصل، وتسليح هذه المعسكرات، ثم تدبير حوادث لخلق حرب وراء حرب، فتضعف الدول الوطنية، ويدمر البشر أنفسهم بأنفسهم في الحروب، ويدمرون في نفس الوقت شرائع الله والقوانين الاجتماعية الأخلاقية التي توارثوها، وبعد نشر الرذائل والمذابح والحروب المتلاحقة يتبقى منهم أعداد قليلة لا تجد لها سندا إلا أن تسلم نفسها لعبادة الشيطان، فيعلن أمام الله في يوم القيامة "انتصاره".

وفي ١٧٧٦ قدم وايزهاوبت تنظيم "الناريين" على أنه "المنقذ للبشرية"، وأن هدفه الوصول إلى (حكومة عالمية واحدة) تتكون من أصحاب القدرات الفكرية الخارقة، وأذكياء ونجوم العالم، لإدارة العالم بشكل أفضل، واستطاع بذلك أن يضم إلى التنظيم ما يقرب من ألفين من أبرز المتفوقين في الفنون والآداب والتعليم والعلم والاقتصاد والصناعة في أوروبا؛ باعتبارهم "النخبة"، وأسس عندئذ محفل الشرق الأكبر بفرنسا ليكون مركزا تنطلق منه أوامر رجال المخطط الجديد[١٤].

ولهذا، أصبح التنظيم هو القائد للمحافل الماسونية التي مهمتها جذب المتفوقين ونجوم المجتمع تحت شعارات الحداثة ونشر السلام، وكانت منتشرة قبل وضع مخطط وايزهاوبت، ولكن المخطط جعل منها "موردا" للشخصيات التي يثبت سهولة تطويعها لأهدافه، فليس كل أعضاء المحافل الماسونية أعضاء في التنظيم، فأعضاؤه عددهم محدود، ولا يعرفهم معظم الماسون، بل لا يعرفون بوجود هذا التنظيم أساسا، ولا يعرفون أنه من يدير اقتصاد العالم ويدبر حروبه، وأعضاء تلك المحافل ليسوا إلا أدوات بيده.

ووضع وايزهاوبت لأتباعه تعليمات لجذب أغنياء ونجوم المجتمع وقادة الحكومات والمتفوقين أصحاب التأثير بين شعوبهم، وهي:

١- الرشوة بالمال والجنس للسيطرة على الأشخاص الذين يشغلون المراكز الحساسة في الحكومات

---

(١٣)- الشيطان أمير العالم، وليام جي كار، مرجع سابق، ص ١٧٩

(١٤)- أحجار على رقعة الشطرنج، مرجع سابق، ص ١١

ومختلف المجالات، ثم ابتزازهم بفضحهم إذا ما أبدوا مقاومة لتنفيذ المهام المكلفين بها[١٥].

٢- على الناريين الذين يعملون أساتذة في الجامعات أن يولوا اهتمامهم للطلاب المتفوقين والمنتمين إلى أسر محترمة ليولدوا فيهم الاتجاه نحو الأممية العالمية [العولمة فيما بعد]، ويرسخ في أذهانهم أن تكوين حكومة واحدة في العالم هو الطريقة الوحيدة للخلاص من الحروب والكوارث المتوالية، وأن لهم الحق باعتبارهم الأكثر ذكاء في مجتمعاتهم أن يقودوها إلى الإصلاح والتغيير.

ويتم هذا بدعم الطلاب المختارين بمنح دراسية تسير بهم في هذا الاتجاه بمناهج تتحدث عن قبول الآخر والتعاون والسلام الدولي وفتح الحدود والعالم المفتوح والانفتاح وتجاوز عنصرية الأوطان إلخ.

٣- مهمة الشخصيات ذات النفوذ التي تسقط في شباك الناريين والطلاب الذين تلقوا التدريب الخاص هي استخدامهم كعملاء، وإحلالهم في المراكز الحساسة خلف الستار لدى جميع الحكومات بصفة خبراء أو مستشارين، بحيث يمكنهم تقديم النصح إلى كبار رجال الدولة وتوجيههم لاعتناق سياسات من شأنها، بعد أمد طويل، أن تخدم المخططات السرية لمنظمة العالم الواحد.

ويتمثل في اقتراحهم لمشروعات قوانين تحت اسم الإصلاح الاقتصادي أو الإصلاح السياسي أو اجتماعي، لكن تأثيرها بعد ٥٠ عاما أو حتى ١٠٠ عام ستؤدي للتدمير والتفكيك.

٤- على الناريين الوصول إلى السيطرة على كل أجهزة الإعلام، بحيث ينتهي الأمر بالشعوب الخاضعة لها إلى الاعتقاد بأن تكوين حكومة أممية واحدة هو الطريق الوحيد لحل مشاكل العالم[١٦].

وعندما استلم مازيني في إيطاليا راية إدارة برنامج وايزهاوبت للحروب والثورات سنة ١٨٣٤- بعد موت الأخير- كرر ما قاله وايزهاوبت في هذا الشأن، ونقتبس ما يلي: "إن مساندة أصحاب النفوذ هو ضرورة لا غنى عنها لإحداث إصلاحات في بلد إقطاعي".

وفي مصطلحات زعماء الحركة الثورة العالمية كلمة "إصلاحات" هذه تعني "إخضاع" ونحن نرى في هذه الأيام (أي وقت نشر كتاب أحجار على رقعة الشطرنج ١٩٥٨) أن أصحاب النفوذ مثل الأمير برنارد في هولندا والأمير فيليب في بريطانيا ناشطان في مجموعة بيلدربيرج وفي غيرها من المجموعات الدولية[١٧]".

---

[١٥]- من الأمثلة على هذا سلسلة فضائح شخصيات بريطانية، منها وزير حربية بريطانيا بروفوميو مع فتيات صغيرات، منهم فتاة لعوب اسمها كريستين كيلر، واكتشفوا أن الدكتور "وارد" وهو شخصية اجتماعية متخصصة في صنع العلاقات مع كبار رجال الدولة كان المدير لهذا التشبيك مع الفتيات، ونفس المنوال بعد حرب السويس (العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦) هزت باريس فضيحة تورط شخصيات فرنسية كبيرة، منها رئيس البرلمان "لوتروكيه"، في ليالي حمراء مع مراهقات عاريات. (مترجم كتاب أحجار على رقعة الشطرنج هامش ص ١٢)

[١٦]- انظر: أحجار على رقعة الشطرنج، ص ١١- ١٣

[١٧]- الشيطان أمير العالم، مرجع سابق، ص ١٤٥

*** والمقصود مجموعة بيلدربيرج الدولية (Bilderberg Group) وتُعرف باسم مؤتمر أو نادي بيلدربيرج، وهو اجتماع سنوي غير رسمي يحضره في سرية مجموعة من ١٠٠- ١٥٠ شخص من رجال السياسة والأعمال والبنوك الأكثر نفوذا في العالم لبحث تطورات العالم في كافة المجالات، ورسم السياسات الخاصة بالشركات متعددة الجنسيات والبنوك العالمية لتوجيه العالم وفق مصالح تنظيمهم، وتنشر وسائل الإعلام حاليا موعد انعقاده

ورأى نيستا ويبستر في كتابه "الجمعيات السرية والحركات التخريبية" **secret societies and subversive movements** الصادر ١٩٢٤أن وايزهاوبت هو مؤلف الكتابات الأصلية لأخوية وطائفة النارية في القرن ١٨، لكن جاي كار لا يتفق معه في هذه النقطة، ويقول: "لقد أقنعتني دراساتي وأبحاثي أن وايزهاوبت قام فقط بتعديل وتحديث بروتوكولات مذهب عبادة الشيطان من أجل تمكين كنيس الشيطان من الاستفادة بشكل كامل من التقدم الذي تم إحرازه في العلوم التطبيقية والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الدينية الآخذة في التغير بسرعة، ولم يقم هو بإنشاء النورانية، ولكن النورانية موجودة منذ أن انشق قابيل عن الرب، وتمت كتابة البروتوكولات مباشرة بعد أن أتقن الإنسان مهارة التعبير عن أفكاره وتسجيل خططه بالكتابة على مواد يمكن حفظها، وقبل أن يكون أحد قد سمع بكلمة صهيون"[١٨].

وكل فترة من الزمن يجري تنقيح وتعديل هذه البروتوكولات أو الخطة بحسب التطورات في العالم.

واليوم، يجري تعزيز نسخة وايزهاوبت المحدثة على يد مفكرين يشكلون القوة المسيطرة في مجموعة "بيلدبيرج" والحركة الاتحادية العالمية ومجلس العلاقات الخارجية المتواجد في مبنى هنري برات في نيويورك، وتُجبر هذه المجموعات الضاغطة الحكومات الوطنية وممثليها في منظمة الأمم المتحدة على تعزيز فكرة "حكومة عالمية واحدة" التي ينوي أتباع مذهب عبادة إبليس الاستحواذ على السلطة فيها[١٩].

هذا الكتاب تم نشره ١٩٥٨، وينقل هذا الكلام عن كتب ووثائق مكتوبة قبله بعشرات السنين، من القرون ١٨ و١٩ و٢٠، ويتردد صداها الآن في ظهور مؤسسات مخصوصة في الولايات المتحدة وأوروبا وروسيا وتركيا وإيران وماليزيا وغيرهم لتقديم منح دراسية لطلاب يتخرج الكثير منها وهم يدعون إلى النظام العالمي الواحد ممثلا في "العولمة"، أو"الشيوعية"، أو "الخلافة الإسلامية"، ومفتونين بالمنظمات العالمية ونظريات الإصلاح الاقتصادي والسياسي والاجتماعي التي يسعون لتطبيقها في بلادهم، بغض النظر عن إن كانت تتوافق مع طبيعة شعوبهم واحتياجاتهم أم لا.

كما ينتشر على ألسنة هؤلاء "المثقفين المختارين" عبارات تُحمل الفقراء والأميين مسئولية كافة أزمات البلد، من فقر وتأخر وإرهاب وتلوث ووجود نظام حكم لا يروق لهم؛ لإجبارهم على تلقي نصائح وبرامج هؤلاء "المثقفين" بدون نقاش، لأن الفقراء والأميين مستودع الأصول والأخلاق الخاص بكل بلد لقلة اتصالهم بالخارج.

وعن هذا يقول وليام جي كار، إن من عادة الناريين ومسؤولي الحركة الثورية العالمية وجمعياتها

كل سنة، ولكن لا تعلم ما يدور فيه، والاسم منسوب لفندق بيلدربيرج في هولندا الذي شهد أول اجتماع لسادة المال والنفوذ هؤلاء سنة ١٩٥٤ وكان الأمير الهولندي بيرنارد أول رئيس له.
انظر الخبر التالي: اجتماع "بيلديبيرغ" المثير للجدل يُعقد اليوم.. فما هي تفاصيله؟، موقع يورو نيوز، ٧- ٦- ٢٠١٨

(١٨)- الشيطان أمير العالم، مرجع سابق، ص ١٣٩

(١٩)- نفس المرجع، ص ١٤٥

*** تعزيز فكرة "حكومة عالمية واحدة" بتوريط الحكومات في اتفاقيات التجارة العالمية وقوانين دولية خاصة بالأسرة والثقافة والهجرة واللاجئين إلخ

السرية "إلقاء مسؤولية أفعالهم الشيطانية على كواهل غير كواهلهم[٢٠].

▼▼▼ ثورات إسقاط الحدود.. وتمكين الأجانب

أول الساقطين في فخ الثورات المسلحة في القرون الثلاثة الأخيرة هي إنجلترا التي غيَّر اليهود وحلفائهم نظامها الحاكم بحرب أهلية، وأوقعوها في يد أسرة مالكة أجنبية (هولندية) وأسقطت اقتصادها في يد تنظيم الناريين الأجنبي حين أنشأوا بنك إنجلترا- أحد المتورطين في تكتيف مصر بالديون زمن سعيد وإسماعيل وذبح ثورة ١٨٨١- فكانت إنجلترا ميدان الاختبار لإسقاط الدول في قبضتهم وتحويل العالم إلى "قرية صغيرة" لا تعترف بالحدود، وعلى نمط واحد وفكر واحد بشعارات ثورية.

وفي زمن وايزهاوبت- أي بعد ١٠٠ سنة- كانت فرنسا الهدف التالي، فأمر أتباعه في المحافل الماسونية أن يثيروا ثورة كبرى لإنهاك فرنسا وتحويلها إلى مركز لنشر أفكار الناريين باسم العلمانية والتنوير والحرية والمساواة وحقوق الإنسان، وعهد إلى الألماني "تسفاك" بأن يجمع كتابات وايزهاوبت في كتاب عنوانه: "المخطوطات الأصلية الوحيدة" ليوزعه على الموثوق بهم في فرنسا، إلا أن نسخة منه سقطت في يد حكومة بافاريا، فسارعت لإغلاق المحفل الماسوني القائم بها، وأعلنت جماعة الناريين جماعة خارجة عن القانون، وفي ١٧٨٧ نشرت تفاصيل المؤامرة بعنوان "الكتابات الأصلية لمذهب ومنظمة النورانيين"، أرسلت نسخا منها إلى الحكام والكنيسة بأوروبا، ولكن تغلغل الناريين كان من القوة بحيث تُجوهل هذا النذير كما تجوهلت قبله تحذيرات المسيح إلى العالم.

هذا الإهمال في تتبع هذه الجماعة أعطى الفرصة لوايزهاوبت للخروج بخطة بديلة للانتشار عبر التسلل إلى صفوف الجمعيات الماسونية السرية "الماسونية الزرقاء" في توب أهل البر والإحسان، ونشر فكر الأممية أو العالمية، وممن سعوا إليه الماسوني جون روبسون أستاذ الفلسفة في جامعة أديمبرج، ولكنه لم يصدق الأهداف التي يعلنها "العالميون" للناس، إلا أنه احتفظ بشكوكه، وعهد إليه الناريون بنسخة منقحة من مخطط وايزهاوبت لدراسته، وفي ١٧٨٩ تفجرت الثورة في فرنسا بسبب رضوخ رجال الدولة والكنيسة فيها لنصائح من رجال "ناريين"، فتأكد روبنسون من شكوكه، وخشى امتداد الخطر إلى بدان أخرى، فنشر سنة ١٧٩٨ كتاب "أدلة المؤامرة لتدمير كافة الحكومات والأديان" **Proofs of Conspiracy against all the religions and governments of Europe carried on in the secret meetings of free masons, Illuminati**، لتوعية الناس، ولكن تحذيره تُجوهل أيضا، فانتشر لهيب الحروب الأهلية والثورات في أوروبا بعد ذلك حتى القرن[٢١].

---

[٢٠]- **المرجع السابق، ص ٢٧٨**

[٢١]- انظر المرجع السابق، ص ١٣- ١٥

*** كتاب "المؤامرة لتدمير كافة الحكومات والأديان" ومعظم الكتب الوارد ذكرها حول "الناريين" موجودة على النت PDF وبعضها موجود في المكتبات، سوا في نسخ إنجليزية أو فرنسية أو مترجم، وأهمية الموضوع أنها كتب منشورة في أوقات مبكرة، تمثل شهادات لأصحابها الذين كانوا شهودا على العصر وقريبين من الأحداث، وعلى فترات متفرقة ومن عدة جنسيات، وبعد وفاتهم بسنوات طويلة تحقق ما حذروا منه حرفيا.

▼▼▼ الثورة الإنجليزية

وقبل الوصول إلى الثورة الفرنسية- نجمة ثورات أوروبا- نلقي نظرة مع مؤرخي أوروبا على الثورة الإنجليزية (١٦٨٨) التي سبقتها بـ ١٠٠ عام، وكانت حقل التجارب لسلسلة ثورات هدفها كسر الحدود الوطنية أمام التجارة العالمية لبيوت المال النارية، ولملمة العالم في بوتقة أفكار واحدة تسهل لملمته في يد حاكمة واحدة، ونعرف الفرق الهائل بين الثورات والحروب التي نظمها الناريون في أوروبا وبين الثورات والحروب المصرية النبيلة "ثورة الحق" التي قامت ضد هذا التنظيم الممثل لـ "ثورة الشيطان".

بدأ الأمر على يد اللاجئين اليهود، فنظرا لدورهم في تكنيز المال والذهب للتحكم في الاقتصاد (من أيام الإغريق والرومان)، ودورهم في نشر الفتن، وتقديم أنفسهم على أنهم المضطهدين من الحكومات دائما، طردت بريطانيا و فرنسا وأسبانيا ودول أوروبية أخرى اليهود عدة مرات في القرون الوسطى، وكانوا كلما استقروا في مكان تكتلوا في أماكن سميت بـ"الجيتو"، يبخون فيها سمومهم في صدور الأجيال الجديدة ضد الحكومات لابتزازها.

وليعودوا إلى المناطق التي طردوا منها في أوروبا، أنشأ بارونات الربا والمال العالمية شبكات للهجرة غير الشرعية تساعدهم على التسلل عبر الحدود، كما أنشأوا ما عرف باسم السوق السوداء لأنهم كانوا لا يستطيعون العمل في النور[٢٢]، وبدأت العصابات اليهودية في مسلسل تدمير الحكومات التي وقفت ضدها، ففي إنجلترا زرعت الخلافات بين الملك وحكومته بحجة مقاومة الاستبداد، وبين أصحاب العمل والعمال، وبين الدولة والكنيسة حول المذهب الكاثوليكي المتمسكة به الدولة والبروتستانتي الخاص بالكنسية عبر نشر آراء ونظريات متناقضة لحل المشكلات، ثم يتصارع حولها الجميع.

ولم تلبث إنجلترا أن وجدت نفسها مقسمة إلى معسكرات وأجزاب يتحفز كل منها للانقضاض على الآخر، فانقسم الشعب الإنجليزي إلى معسكرين بروتستانتي وكاثوليكي، ثم انقسم البرتستانتي إلى طائفتي "الملتزمون" و"المستقلون"، وانهمر الذهب في ذلك كله من جهات مجهولة على المحرضين.

انتهى الصراع في الآراء إلى صراع مسلح في عهد الملك شارل الأول بين قوات تناصر الملك وعصابات تناصر البرلمان وما تصفها بالحريات بتحريض وتمويل من مناسح بن إسرائيل (أحد كبار المرابين العالميين في هولندا)، والزعيم اليهودي المشهور فرنانديز كارفاجال، اللذين استمالا القائد الإنجليزي الشهير أوليفر كروموبل للإطاحة بعرش الملك، وكونوا مليشيات تسمت بالـ"الرؤوس المستديرة"، أمدوها بمئات المرتزقة في ثوب ثوريين مدربين قادمين من الخارج كمتطوعين لدعم "حرية" الشعب الإنجليزي، وانضم لها الخلايا اليهودية الفوضوية وشرع الجميع في نشر الإرهاب وترويع السكان،

---

(٢٢)- انظر أحجار على رقعة الشطرنج، مرجع سابق، ص ٦٨

*** ولأن التاريخ يعيد نفسه فإن نفس شبكات الهجرة غير الشرعية أعيد تشغيلها لتهريب اليهود لأمريكا ثم لفلسطين باسم لاجئين فارين من المذابح، وحاليا تعمل على تهريب السوريين والعراقيين والأفغان والأفارقة باسم لاجئين أيضا، وتوزيعهم على بلدان مستهدفة على رأسها مصر.

حتى مرحلة الصدام مع قوات الأمن والجيش.

وساهم السفراء اليهود المعتمدون لدى إنجلترا، مثل ميلخور دي سالم سفير فرنسا في دعم وإيواء زعماء الفوضى في الأوقات الحرجة، وتدريبهم، حتى قال الثري اليهودي إسحق دزرائيلي (والد رئيس وزراء بريطانيا بنيامين دزرائيلي صاحب صفقة شراء نصيب مصر في أسهم قناة السويس فيما بعد) في كتابه "الملك شارل الثاني" إنه حصل على معظم المعلومات من سجلات ميلخور دي سالم، وتكلم عن التشابه بين ظروف وأساليب الثورة الإنجليزية والثورة الفرنسية[٢٣].

وأثار تدفق المهاجرين الفوضوي إلى إنجلترا عن طريق التهريب بحجة دعم "الثوار الأحرار"، واستخدام المخربين المدربين لتكوين المنظمات الإرهابية، وتمويل العملية كلها بذهب المرابين العالميين، وتكرر هذا في حروب وثورات لاحقة؛ مما أثار فضول الباحثين الذين يتتبعون الخطوط المتشابه، وبتعبير جي كار فهذا الأسلوب اتبعته المؤامرة دائما في كل التاريخ[٢٤].

وحقا، في حروب وثورات العالم الدموية يكون المهاجرون سببا رئيسيا فيها منذ التاريخ القديم.. ألم يشر إليهم "إيبو ور" في برديته عن انتشار الفوضى "إزفت" في الأسرة ٦ وقال: "انظر! لا صانع يعمل، والعدو يحرم البلاد حرفها"، "وأصبح الأجانب مصريين في كل مكان"؛ أي تجرأوا على أن يضعوا أنفسهم موضع المصريين في هذا الانقلاب العام، و"(والبلاد) ملأى بالعصابات، ويذهب الرجل ليحرث ومعه درعه... حقا فإن الوجه قد شحب، وحامل القوس [تعبير مصري يقال على الأجنبي محترف القتال] أصبح مستعدا، والمجرمون في كل مكان، ولا يوجد رجل من رجال الأمس... حقا إن الناهبين في كل مكان[٢٥]".

وفي النهاية قتلت تلك العصابات الملك شارل الأول وكافة رجال الدولة المعادين للثورة في ١٦٤٩، وأنشأت بنك إنجلترا (كبنك خاص رغم أنه يقوم بدور البنك المركزي في البلاد) يدار من بارونات بيوت المال، وصار المتحكم الأول في اقتصاد إنجلترا وبالتالي سياستها، وهو أول من أدخلها في دائرة الاقتراض منه لتكون أسيرة له، وأدخل في العالم ما عرف فيما بعد بالقروض الدولية والحكومية الخارجية.

فلم يكن الانتقام من ملوك إنجلترا هو الهدف الحقيقي للمرابين العالميين اليهود في عملياتهم هذه، فهم يعلمون أنهم صناع الفتن التي دفعت الملوك إلى مطاردتهم، وأنهم ليسوا بمظلومين حقا، ولكن هدفهم السيطرة على اقتصاديات إنجلترا ومقاليد الأمور فيها، ثم إثارة الحروب بينها وبين أوروبا تُستنزف فيها الأموال والأخلاق والأرواح، وتخضع الحكومات لبارونات المال، ويُباد ملايين البشر[٢٦]، وفي نفس الوقت يُشعر الحكومات أنه صاحب الفضل في وجودها.

---

[٢٣]- انظر المرجع السابق، ص ٧٠- ٧٤

[٢٤]- نفس المرجع، ص ٧٢

[٢٥]- موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، الجزء ١٧، الهيئة العامة للكتاب، مشروع مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ص ٢٩٧، و٣٠٢- ٣٠٣

[٢٦]- انظر: أحجار على رقعة الشطرنج، مرجع سابق، ص ٧١- ٧٦

*** وامتدت نيران السياسة الإنجليزية التي يديرها بنك إنجلترا إلى مصر بإغراء سعيد وإسماعيل بالقروض كما رأينا ثم شد الحبل على رقبة مصر واحتلالها، ولولا احتاجوا المصريين كأيدي عاملة في الزراعة والبنية التحتية للمشاريع لأبادوا معظم المصريين.

فبعد الإطاحة بملك إنجلترا الجديد جيمس الثاني نصب الثوار الدوق الهولندي وليام أوف أورانج ملكا على البلاد بعد تزويجه بابنة الملك ليأخذ "شرعية" حكم، و إجبار الأخير على التنازل عن الحكم والرحيل لفرنسا، وتحولت إنجلترا من الكاثوليكية إلى البروتستانتية (الإنجيلية) وهو المذهب المناصر لحركات التمرد، واقترض الملك للخزانة الإنجليزية ١,٢٥٠,٠٠٠ جنيها إسترلينيا من اليهود المرابين الذين نصبوه في مكانه، وضمن لمديري بنك إنجلترا الحق في وضع سعر الذهب والتحكم في العملة، وهي القرارات التي شاعت في بعض كتب التاريخ بعد ذلك زورا باسم "إصلاحات" إيجابية للثورة التي اشتهرت بـ"المجيدة".

وتكرر هذا في عدة دول أوروبية، حتى قال آمشل مابلو باور "روتشيلد" (١٧٤٣- ١٨١٢): "دعنا نتولى إصدار النقد في أمة من الأمم والإشراف عليه، ولا يهمنا بعد ذلك من الذي يسن قوانين هذه الأمة[٢٧]".



كاريكاتير نشرته الصحافة في فرانكفورت ١٨٤٨ يصور روتشيلد وورائه أكياس الذهب المكدسة، وأمامه ملوك أوروبا راكعين يتوسلون ليعطيهم قروضا لتمويل حروبهم أوإعادة إعمار بلادهم المدمرة (المصدر: كتاب "مخلوق من جزيرة جيكل وتمويل المؤامرة" لإدوارد جريفين)

ونتيجة هذه "الإصلاحات" تورطت بريطانيا بالفعل في حروب مع إسبانيا وفرنسا وغيرهما، ترتب عليها اضطرارها لقروض جديدة حتى وصلت عام ١٩٤٥ إلى ٢٢,٥٠٣،٥٣٢،٣٧٢ جنيها إسترلينيا (٢٢ مليار جنيه إسترليني)[٢٨]، أما في ٢٠١٧ فأعلن مكتب الإحصاء الوطني البريطاني ارتفاع ديون القطاع العام ليصل إجمالي دين الدولة إلى أكثر من ١.٧٧٣ تريليون جنيه، وهي تعادل ٨٨ % من إجمالي الدخل السنوي العام للبلاد[٢٩]، ولم يحمها من هذه القروض كل نظريات جون لوك والرأسمالية والليبرالية ومظاهر التقدم المادية، ولولا احتلالاتها للدول واستنزاف أموالها وخيراتها لأكل شعبها بعضه بعضا.

---

[٢٧]- انظر المرجع السابق، ص ٨١- ٨٣ و ٥٦- ٥٧

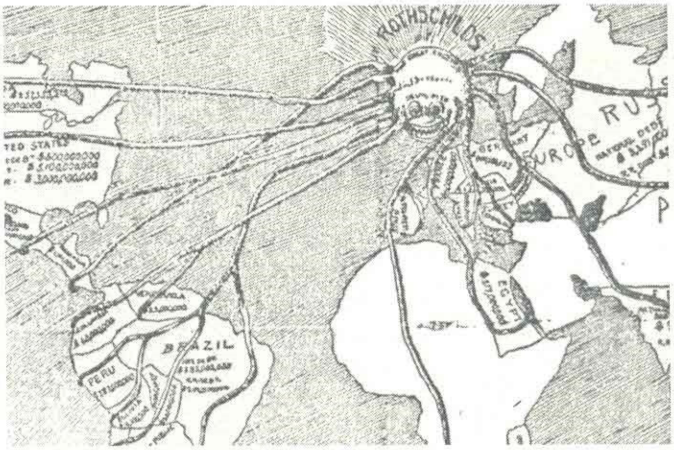
*** ولهذا سارعت إنجلترا لتأسيس البنك الأهلي المصري ١٨٩٨ بعد احتلالها لمصر وأصبح له حق إصدار العملة، وكان حينها بنكا خاصا بعيدا عن الحكومة، ليسهل تحكم بنك إنجلترا فيه، وأممت الحكومة المصرية البنك سنة ١٩٦١ ليصبح بنكا حكوميا تجاريا، وأسست البنك المركزي في ذات العام لتحقيق الاستقلال الاقتصادي.

[٢٨]- نفس المرجع، ص ٨٤- ٨٥

[٢٩]- ديون بريطانيا تتعدى التريليون جنيه إسترليني، موقع سكاي نيوز عربي، ٢٢- ٩ -٢٠١٧

▼▼▼ آل روتشيلد وإخوانهم (لا وطن لهم، ويملكون كل الجنسيات)

في عصور قديمة اشتهرت عائلات يهودية بأنها "بيوت للربا" وصلت في نفوذها إلى أن تقرض الحكومات وتمول حروبها، منها- كما تابعنا- في بابل بيت آل أجيبي وبيت آل موراشو حتى أفقرا أهل بابل وتسببا في تسليمها للاحتلال الفارسي في القرن ٦ ق.م، وآل فنحاس (يوسف بن فنحاس) وآل عمران (هارون بن عمران) في بغداد، حتى اقترض منهما الخليفة المقتدر لما انحنى ظهر الدولة العباسية أمام كثرة الحروب الداخلية والخارجية بفائدة ٢٠%[٣٠]، وفي أوروبا القرن ١٨ اشتهر آل روتشيلد وعائلات أخرى، واشتهروا عمن سبقهم من بيوت ربا في أنهم صاروا إخطبوطا يمد أذرعه ليسيطر على كل العالم وليس فقط الإمبراطورية الموجودة بها.



كاريكاتير في الصحافة الأوروبية ١٨٩٤ يظهر أحد أذرع أخطبوط عيلة روتشيلد يصل مصر باحتلالها[٣١]

يقول جون نينيه في رسالة بعثها من مصر لصحف أوروبية في ٢٧-١-١٨٨١ مستعرضا دور روتشيلد في تخريب مصر بالديون ودعم الخديوي ضد الثورة المصرية الرافضة لسيطرة الأجانب: "إن عائلة روتشيلد ليس لها أية جنسية في الحقيقة، ولكن يمكن أن يكونوا إنجليزا وفرنسيين وألمانا ونمساويين، سيكون لديهم بلا شك ذات مرة فرصة الاختيار من أجل أن يعملوا على ميل الميزان السياسي لصالح إحدى هذه القوى حسب السعر الذي سيكون مدفوعا لهم، وسبق أن نصف أسهم قناة السويس انتقل بواسطة تدخلهم وبتحريض اللورد بيكونسفيلد (دذرائيلي) إلى أيدي البيوت في القسطنطينية"[٣٢].

مؤسس الأسرة هو آمشل موس باور، مرابي يهودي، عمل في صاغة الذهب، معدنهم المفضل، وبعد تجوال طويل في أوروبا الشرقية (مقر مملكة يهود الخزر البائدة) استقر سنة ١٧٤٣ في فرانكفورت الألمانية، وأسس مركزا للمعاملات المالية ، وبعد وفاته خلفه ابنه آمشل ماير باور الذي حفظ أسرار أبيه في

---

[٣٠]- تاريخ التمدن الإسلامي، ج٢، جرجي زيدان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١٠٤

[٣١]- English octopus cartoon ١٨٩٤

/https://atlanticsentinel.com/2017/08/the-octopus-in-political-cartoons/1894-english-octopus-cartoon

[٣٢]- رسائل من مصر (١٨٧٩- ١٨٨٢)، جون نينيه، مرجع سابق، ص ٢٢٧

الربا والذهب والأحلام، وحمل لقب روتشيلد، وتوزع الأبناء والأحفاد على ٥ مناطق هي (إنجلترا، ألمانيا، فرنسا، النمسا، الفاتيكان)، وحملوا جنسيات هذه الدول لتكون ورقة مرورهم للمناصب والتحكم بداخلها، فكانوا كالقبيلة التي تتفرع بطونها على عدة دول تحمل جنسيتها وولائهم الحقيقي للقبيلة.

وفي ١٧٧٣ استضاف آمشل ماير باور (روتشيلد الأول) ١٢ من أرباب المال العالميين في فرانكفورت في مؤتمر لتأسيس احتكار عالمي يضخم سلطانهم المالي وإمكانيات كل منهم التي تضخمت بالاستيلاء على بريطانيا وإشعال حروب أوروبية، وكان بداية نظام الاقتصاد العالمي الجاري فرضه على الجميع، وتناول المؤتمر الدور اليهودي في تدبير الثورة الإنجليزية، وكيفية تلافي الأخطاء في الثورات المقبلة.

ومن هذه "الأخطاء" بطء التنفيذ وعدم السيطرة الكاملة؛ ما ترك شخصيات وطنية في إنجلترا تقف مع الملك والحكومة وتعرقل خططهم؛ فاستغرقت الثورة سنوات طويلة، واتفقوا على أنه في الثورات القادمة يلزم التخلص الكامل من كافة الشخصيات الوطنية ولو بإبادة جماعية، وفرض السيطرة على الجماهير ولو بالإرهاب، وهو ما تم تنفيذه في الثورة الفرنسية، أكثر ثورات أوروبا دموية ووحشية وإرهابا[٣٣].

اعتمد مخطط تثوير فرنسا على استغلال خطايا النظام القائم وخلق ظروف اقتصادية أخرى مشبعة بالقلق، وتوريط فرنسا في الديون والحروب؛ بحيث تتفشى البطالة بين الشعب الفرنسي وتلقي بهم إلى شفا المجاعة، واستعرض روتشيلد أمام المرابين العالميين تفاصيل الإعداد للثورة الفرنسية ثم السيطرة على العالم عند تقديمها كمنوذج يحتذى.

وعرض في ذلك وصايا للسيطرة على العالم عبر شلل من الفسدة والخونة أو من يتم إفسادهم عن عمد، واستخلص وليام جاي كار بنودها من وثائق قال إنها في حوزته تشمل ٢٤ نقطة، ومن هذه الوصايا: أن ما يفرض النظام والاستقرار لأي مجتمع هو أن تمتلك السلطة الحاكمة القوة، وعلى هذا يلزم تجريدها من هذه القوة تحت دعاوى الحرية السياسية، فتنتشر الفوضى، وتسقط السلطة، ثم ينصب بارونات الثورات العالمية الحكومة الخاضعة لهم.

والقوة الثانية التي تنظم صفوف المجتمع وتحفظ تماسكه هي الدين، وعلى هذا أوصى بنشر فكرة التحرر من الدين، باعتباره قيد، أو الإكثار من المذاهب الدينية المختلفة بدعوى حرية الاعتقاد، فتكثر المذاهب تبعا لهذا التحرر فتزيد الانقسامات داخل المجتمع الواحد.

وقال المرابي روتشيلد إن القوة الوحيدة التي يجب أن تحل محل السطة الوطنية والدين هي "قوة المال" الذي يتدفق من بارونات بيوت المال العالمية على من يثيرون الصراعات الأهلية، في إشارة إلى نشر الفساد والولاء للخارج.

ومن أشكال الإفساد الأخرى التي أوصى بنشرها المشروبات الكحولية، المخدرات، الانحلال الجنسي

---

[٣٣]- انظر أحجار على رقعة الشطرنج، مرجع سابق، ص ٨٨- ٩٠

خاصة بين صغار السن، الرشوة، والزج بالعملاء المدربين ليعملوا كأساتذة ومعلمين وحتى مربيين وعمالة داخل بيوت الشخصيات المستهدفة.

وتحدث عما أسماه بـ"الغزو التسللي" للمجتمعات المستهدفة.

ولم يتضح في هذا البند المقصود به تماما، ولكن من الممارسات التي تمت في حروب وثورات أشرف عليها بارونات المال يتضح أن المقصود زرع أقليات وأعراق وتيارات دخيلة تخلق صراعات في المستقبل، مثلما تم نقل اليهود بين دول أوروبا وروسيا بأسلوب الهجرة غير الشرعية، أو لأمريكا باسم لاجئين، أو بتأسيس منظمات تحرض المجتمع بعضه على بعض باسم منظمات حقوقية أو دعم الأقليات.

واختار روتشيلد في هذا المؤتمر شعار "الحرية والمساواة والإخاء" لرفعه في الثورة الفرنسية وغيرها من ثورات، رغم قوله إن هذه الشعارات لا مكان لها، ولكنها وسيلة لتهييج الشعوب حتى "ترددها كالببغاوات".

وعن نشر الحروب بين الدول، قال إنها ضرورية لإغراقها في الديون وتكبيلها، ثم تُعقد بها مؤتمرات للسلام لإعادة تشكيل وجه العالم بما يناسب المرحلة الجديدة من مراحل إحكام سيطرة قوة واحدة عليه، وهو ما تم تنفيذه على سبيل المثال في مؤتمر الصلح بباريس لتوزيع غنائم الحرب العالمية الأولى١٩١٩، ثم مؤتمر طهران بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ١٩٤٥ لتوزيع غنائم الحرب العالمية الثانية ووضع نظام عالمي جديد معدل.

ومن وسائل السيطرة الداخلية أيضا الهيمنة على الانتخابات وتعيينات المناصب العامة، وأشار في هذا لنقطة خطيرة، وهي أن يتم إعداد شخصيات للمناصب الهامة "منذ الطفولة[٣٤]".

كذلك أوصى بالسيطرة التامة على وسائل إعلام الجماهير، وقال حرفيا: "سوف نحوز بفضل امتلاكنا الصحافة على سلاح ذهبي، ولا أهمية لكوننا لن نصل إلى السيطرة على هذا السلاح إلا بعد أن نخوض بحارا من دماء ودموع الضحايا"؛ لأنه- بحسب روتشيلد- بزيادة وطول أمد الإرهاب سيصل الشعب للإعياء الشديد، بل والانهيار، خاصة بعد أن يكتشف خدعة شعارات الحريات والمساواة، حتى إذا ما تقدم إليهم رجالنا ليعدوهم بالاستقرار وإعادة النظام يهرعون إليهم بلا تفكير.

وانتقل الحديث إلى دور الدبلوماسية، فأجمع المؤتمرون على أنه لابد في أعقاب أية حرب من إعمال الدبلوماسية السرية، والسبب حسب تعبير روتشيلد الحرفي: "لكي تتمكن المنظمة من إحلال خبرائها في المراكز الحساسة الاقتصادية والسياسية والمالية متنكرين على شكل مستشارين مثلا، يظهرون على المسرحين الداخلي والدولي بحيث يقومون بتنفيذ المهمات التي تعهد لهم بها السلطة الخفية المسيطرة من وراء الستار دون أن تخشى التعرض لأنظار الملأ.

[٣٤]- عبر التنظيمات التي يتزاوج أعضائها من بعضهم وينجبون أطفالا يربونهم منذ نعومة أظافرهم على فكرهم، كحركات اليسوعية والإخوانية والشيوعية والشيعية إلخ، أو عبر مدارس تتبع تلك التيارات تتولى تربية الأجيال منذ الحضانة وكذلك المدارس الأجنبية.

وذكَّر روتشيلد المؤتمرين عندئذ بالهدف النهائي: وهو السيطرة على العالم بأسره، وفي الطريق إلى هذا الهدف: "سيكون من الضروري إنشاء احتكارات عالمية ضخمة تدعمها ثرواتنا المتحدة بمجموعها بحيث تصل هذه الاحتكارات إلى درجة من السلطان والهيمنة لا يمكن لأي ثروة وطنية يمتلكها "الجوييم"- أي الشعوب من غير الناريين- إلا أن تقع تحت وطأة هذه الاحتكارات، وعندما يحين الحين الذي نضرب فيه اقتصاد تلك الأمة الضربة القاضية تتهاوى هذه الأمة اقتصاديا وسياسيا، وتتهاوى معها جميع الثروات الوطنية فيها[٣٥].

وانتقل الحديث بعد ذلك إلى الأرض نفسها، أراضي "الجوييم"، وانتزاع ملكياتها الزراعية والعقارية والصناعية بافتعال ظروف يسود معها الظلم في المنافسة الاقتصادية الداخلية، وإضعاف المصانع الوطنية بتنظيم الإضرابات العمالية الدائمة، وكلما حصل العمال على أجور أعلى يفاجئون بزيادة في الأسعار فيعودون للإضرابات وهكذا، فيتم التحجج بسوء الإدارة واستمرار الخسارة لتُباع تلك المصانع والشركات وغيرها للجاهز بالمال.

وخصص مؤتمر روتشيلد هذا المنعقد سن ١٧٧٣ جانبا مهما للحديث عن الشباب، قائلا إنه يلزم إفساد الشباب بصورة منظمة بتعميم الرذيلة والأفكار الفاسدة ومحاربة الأديان السماوية.

وأضاف الملاحظة التالية: "لعلكم تظنون أن الجوييم لن يسكتوا بعد هذا، بل سيهبون للانقضاط علينا، ولكن هذا خطأ.. سيكون لنا في البلدانِ والأقطار التي تمكنَّا من تدمير نظامها الشرعي وتمسكها بالدين والأخلاق منظمة كفيلة بتدارك هذا الاحتمال، وستكون منظمة على درجة من القوة، رهيبة، بحيث تتخاذل القوى الأخرى مرعوبة أمامها، ولها أفرع في كل مدينة[٣٦].

بالتزامن- يقول دونالد سترومبرج- إنه في ذات القرن جرى تحويل بريطانيا إلى نظام "التجارة الحرة"، عبر إسقاط سيطرة الحكومة على الصادر والوارد، وخرج البرجوازيون (رجال الأعمال والنواب والمفكرون التابعون لفكر بيوت المال العالمية) يسخرون من حجة "حماية المنتج الوطني" و"الأمن القومي" و"الأمن الغذائي للشعب"، وطالبوا بفتح حدود أوروبا للتجارة بلا قيود أمام التجارة الدولية (التي يسيطرة عليه حفنة من رجال الأعمال والشركات) بحجة أنها السبيل لمنع الحروب، ولتحويل هذا إلى "علم اقتصاد" يدرس في الجامعات لتطبقه كل حكومات العالم أخرجوا نظريات تقننه كنظرية الرأسمالية لآدم سميث، افترض فيها أن الدولة هي منبع الشرور والمفاسد في الاقتصاد، وأن الأفراد- رجال الأعمال طلاَّب الثروات الباهظة- هم من يبحثون عن العدل والصالح العام، وقال: "فلتتوقف الحكومة عن تقديم المساعدات

---

(٣٥)- عبر إلزام الدول بفتح أسواقها للتجارة الحرة حتى للسلع الغير ضرورية، وعبر الشركات المتعددة الجنسيات القادرة على ابتلاع السوق المحلي، وتصفية الشركات الوطنية، وتملك المستثمر الأجنبي قطاعات الكهرباء والماء والمرافق وغيرها من عروق الدولة، فيسهل شلُّها في أي وقت.

(٣٦)- وصايا روتشيلد وخطته المؤلفة من ٢٥ نقطة واردة بالتفصيل في الصفحات ما بين ٩١-١٠٠ في كتاب "أحجار على رقعة الشطرنج"، والكاتب وليام جي كار يذكر أن روتشيلد ألقاها في مركز مؤسسة روتشيلد في شارع "بوندن شتراس بمدينة فرانكفورت سنة ١٧٧٣، وللمزيد عن هذه البروتوكولات وتطبيق ما ورد فيها على ما يحدث الآن في العالم في كل المجالات انظر: بروتوكولات حكماء صهيون، فكتور ماسدون، الحرية للنشر والتوزيع، القاهرة، والخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسي، ط ٤، دار الكتاب العربي، القاهرة

للمشروعات، وعن الضبط والتنظيم، وعندئذ ستختفي المظالم وينتفي الجور[٣٧]".

وجاءت الرأسمالية الاقتصادية ثمرة لما سبقها من نظريات الليبرالية السياسية والنفعية التي وضعها جون لوك وجون ستيوارت ميل وديفيد هيوم وتسير في اتجاه الفردية الأنانية، وأن يكون الحكم في يد أفراد، مثل نواب البرلمان، وليس الحكومات[٣٨]، مع ما هو معلوم أن أسرع من يصل للبرلمان هم رجال الأعمال أو من يموله رجال الأعمال من أعضاء التنظيمات العالمية الهادفة للسيطرة على الحكم.

وقوبلت هذه النظريات برفض من مفكرين أوروبيين كبنيامين نلسون الذي حذر من أن "المجتمع الذي يقوم على الأنانية البحتة سيتفتت حتما إلى ذرات، وسيعيش أفراده حالات شاذة من اللاانتماء"، وجوزيف دي مستر الذي قال إن عصر التنوير هو من سمم جسد فرنسا، واعتبر أن فولتير وأتباعه من "عتاة المجرمين"، وفولتير يتبع "طقوس عبادة الشيطان"، وفي أحسن الأحوال فهو وأمثاله من فلاسفة كـ جون لوك وديفيد هيوم "ضالون الضلال الرهيب المرعب"، وتخوف آخرون من أن هذه النظريات الطفيلية "تقتلع جذور الأمة"، و"تقضي على حكمة الأجيال السابقة[٣٩]".

ولمّا تشبعت أوروبا من البضايع مع كثرة المصانع توجهوا لكسر الحدود أمام تجارتهم في العالم، ورأينا نصيب مصر من هذا حين تآمرت بريطانيا مع السلطان العثمانلي ضد محمد علي لإنهاء الاحتكار وحماية المنتج المصري بمعاهدة بلطة ليمان ١٨٣٨، وجرى في مصر ما علمنا من إغراق في الديون.

▼▼▼ الثورة الفرنسية

وهنا جاء اختبار تطبيق ما سبق، ونتابع ما جاء حول هذه الثورة في كتاب "أحجار على رقعة الشطرنج".

قامت الثورة على يد أفسد أهل فرنسا والمتسللين الأجانب، استغلوا ظروفا اقتصادية وسياسية سيئة، وأضافوا عليها ظروفا أشد مصطنعة، وتفننوا في حرب الإشاعات للطعن حتى في شرف الملكة، وأشرف على تأجيجها "الأستاذ الأعظم"[٤٠] لمحافل الشرق العظمى الماسونية في فرنسا وهو الدوق دورليان، ابن عم الملك لويس السادس عشر، الذي صوّت على إعدامه بعد الثورة طمعا في تولي العرش مكانه.

ومساعد دورليان كان الكونت دي ميرابو الذي وجد فيه المرابون ميلا كبيرا للفساد والانحراف، وفي نفس الوقت خطيبا بليغا قادرا على توصيل الأفكار الثورية للناس، وجرى توريطه في الديون، ثم ظهر له الماسونيون كمنقذين له من الديون بعرض أموال عليه بلا حساب، حتى غرق فيها لحلقومه وصار طوع أيديهم، وقذفوه لامرأة يهودية هي مدام هيوز مشهورة في باريس بفتنتها الطاغية، فتلطخت سمعته.

---

(٣٧)- تاريخ الفكر الأوروبي الحديث (١٦٠١- ١٩٧٧)، دونالد سترومبرج، ترجمة أحمد الشيباني، ط٣، دار القارئ العربي، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٢٣٦ و ٣٤١ و٣٤٨ و٧٢٨

(٣٨)- أصول التاريخ الأوروبي الحديث، أشرف صالح، دار ناشري للنشر الإلكتروني، ط١، الكويت، ٢٠٠٩، ص ١٦٩- ١٧٠

(٣٩)- تاريخ الفكر الأوروبي الحديث (١٦٠١- ١٩٧٧)، دونالد سترومبرج، ص ٣٣٠- ٣٣٦

(٤٠)- الأستاذ الأعظم لقب الرئيس الأكبر لهذه المحافل، وسيظهر أيضا مع تنظيمات أخرى إخوانية وشيعية إلخ

ونفس الأمر جرى مع الدوق أورليان بجره إلى مستنقع الرذيلة والديون الباهظة، حتى حوَّل قصر "الباليه رويال" الملكي إلى محل لممارسة الرذيلة، وبعد أن نضج الاثنان في إناء الفساد عرض الناريون لهما جانبا صغيرا من أهدافهم، وأخذوا منهما يمين الولاء، ومن يخالف مصيره الموت.

لم يكن الفسدة من أهل البلد كافيا، فكان السلاح القديم وهو الاستعانة بالأجانب، ففي ذلك الوقت انتشرت في أوروبا القصص الإباحية ليهودي من إسبانيا، كودبرلوس دي لاكلو، مثل قصة "العلاقات الخطيرة"، وصار في فرنسا مشرفا على قصر "الباليه رويال" وأيضا يهودي آخر من إيطاليا يدعى كالبسترو، واسمه الأصلي "جوزيف بالسامو، كوَّن شبكة جواسيس في كل مكان لتتبع انحرافات الشخصيات العامة وتسريبها للعامة لنشر السخط.

وأدرك المؤرخ البريطاني الأشهر السير والتر سكوت الدور الذي لعبته القوى الخفية وراء واجهة الثورة الفرنسية، في مؤلفه الضخم "حياة نابليون"- الصادر عام ١٨٢٤- حين تساءل باستغراب لماذا كانت معظم وجوه الثورة الفرنسية وجوها أجنبية عن فرنسا؟!

ونشرت الليدي كونبسبورو زوجة اللورد كوبنسبورو ومؤلفة كتاب "حكم الكهنوت الخفي" خلاصة مطبوعة قديمة اسمها "العداء للسامية" كتبها سنة ١٨٤٩ اليهودي بنيامين جولد شميد تحكي أنه وأخاه إبراهام جولد شميد وشريكهما موسى ميكاتا وابن أخ هذا الأخير الذي حصل على لقب نبيل إنجليزي فيما بعد وأصبح اسمه موسى مونتيفيور[(٤١)] وكلهم من كبار الممولين في إنجلترا، ساعدوا في تمويل الثورة الفرنسية، وعلق والتر سكوت على ذلك بأن الممولين العالمين كانوا يقرضون الأموال لفرنسا بيد، ويجنون أرباح هذه القروض الفاحشة بيد أخرى، حتى تسببوا في إنهاك الخزينة.

وانتهى الأمر بقبول لويس الرابع عشر شرطا بتعيين رجلهم السويسري جاك نيكر وزيرا مطلق الصلاحة للشؤون المالية، مع حملة دعائية ضخمة أنه القادر على البرنامج الإصلاحي اللازم لإنقاذ فرنسا[(٤٢)]، ويصف المؤرخ الإنجليزي الكابتن "آ.رامزي" الوضع في كتابه "حرب دون اسم" كما يلي: "كانت الثورة الفرنسية ضربة انقضت على جسم مشلول"، لكثرة الفساد الأخلاقي وسيطرة المرابين على الإعلام.

وكان يجري إعداد الهجوم على سجن الباستيل الشهير لإطلاق سراح المجرمين المهيئين لخلق جو يؤدي

---

(٤١)- موسى مونتيفيور ثري يهودي مشهور من بريطانيا، عرض على محمد علي خلال حكمه الشام أن يسمح لليهود بالهجرة لفلسطين بحجة الاستثمار، وهو من أول المرابين الذين كونوا مستوطنات لليهود بفلسطين بداية من ١٨٤٠، وله حي باسمه في إسرائيل، وشجع عائلة محمد علي أيضا على منح امتيازات لليهود في مصر لم يحلموا بها في أي دولة أخرى، وجعلتهم يتخذوا من مصر قاعدة آمنة لتدريب العصابات الصهيونية وتكوين الجماعات الإسرائيلية وجمع الأموال الضخمة من الربا وغيره وإرسالها لليهود بفلسطين.
انظر هنا الشكر الذي يرسله رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو إلى عائلتي مونتيفيور وروتشيلد على دورهما في تكوين إسرائيل:
رئيس الوزراء يدشن الطاحونة التي أعيد ترميمها في حي "مشكنوت شأنانيم" في أورشليم القدس، موقع ديوان رئاسة الوزراء، ٢٨- ٨- ٢٠١٢
(٤٢)- كما حدث مع الملك البطلمي بطلميوس الثاني عشر في مصر حين كبلته روما بالديون ثم أرسلت له رابيريوس كوزير للمالية، وحدث مع الخديوي إسماعيل بإرسال نظام المراقبة الثنائية الأجنبية.

وذكَّر روتشيلد المؤتمرين عندئذ بالهدف النهائي: وهو السيطرة على العالم بأسره، وفي الطريق إلى هذا الهدف: "سيكون من الضروري إنشاء احتكارات عالمية ضخمة تدعمها ثرواتنا المتحدة بمجموعها بحيث تصل هذه الاحتكارات إلى درجة من السلطان والهيمنة لا يمكن لأي ثروة وطنية يمتلكها "الجوييم"- أي الشعوب من غير الناريين- إلا أن تقع تحت وطأة هذه الاحتكارات، وعندما يحين الحين الذي نضرب فيه اقتصاد تلك الأمة الضربة القاضية تتهاوى هذه الأمة اقتصاديا وسياسيا، وتتهاوى معها جميع الثروات الوطنية فيها[٣٥].

وانتقل الحديث بعد ذلك إلى الأرض نفسها، أراضي "الجوييم"، وانتزاع ملكياتها الزراعية والعقارية والصناعية بافتعال ظروف يسود معها الظلم في المنافسة الاقتصادية الداخلية، وإضعاف المصانع الوطنية بتنظيم الإضرابات العمالية الدائمة، وكلما حصل العمال على أجور أعلى يفاجئون بزيادة في الأسعار فيعودون للإضرابات وهكذا، فيتم التحجج بسوء الإدارة واستمرار الخسارة لتُباع تلك المصانع والشركات وغيرها للجاهز بالمال.

وخصص مؤتمر روتشيلد هذا المنعقد سن ١٧٧٣ جانبا مهما للحديث عن الشباب، قائلا إنه يلزم إفساد الشباب بصورة منظمة بتعميم الرذيلة والأفكار الفاسدة ومحاربة الأديان السماوية.

وأضاف الملاحظة التالية: "لعلكم تظنون أن الجوييم لن يسكتوا بعد هذا، بل سيهبون للانقضاط علينا، ولكن هذا خطأ.. سيكون لنا في البلدانِ والأقطار التي تمكنًّا من تدمير نظامها الشرعي وتمسكها بالدين والأخلاق منظمة كفيلة بتدارك هذا الاحتمال، وستكون منظمة على درجة من القوة، رهيبة، بحيث تتخاذل القوى الأخرى مرعوبة أمامها، ولها أفرع في كل مدينة[٣٦].

بالتزامن- يقول دونالد سترومبرج- إنه في ذات القرن جرى تحويل بريطانيا إلى نظام "التجارة الحرة"، عبر إسقاط سيطرة الحكومة على الصادر والوارد، وخرج البرجوازيون (رجال الأعمال والنواب والمفكرون التابعون لفكر بيوت المال العالمية) يسخرون من حجة "حماية المنتج الوطني" و"الأمن القومي" و"الأمن الغذائي للشعب"، وطالبوا بفتح حدود أوروبا للتجارة بلا قيود أمام التجارة الدولية (التي يسيطرة عليه حفنة من رجال الأعمال والشركات) بحجة أنها السبيل لمنع الحروب، ولتحويل هذا إلى "علم اقتصاد" يدرس في الجامعات لتطبقه كل حكومات العالم أخرجوا نظريات تقننه كنظرية الرأسمالية لآدم سميث، افترض فيها أن الدولة هي منبع الشرور والمفاسد في الاقتصاد، وأن الأفراد- رجال الأعمال طلاَّب الثروات الباهظة- هم من يبحثون عن العدل والصالح العام، وقال: "فلتتوقف الحكومة عن تقديم المساعدات

---

(٣٥)- عبر إلزام الدول بفتح أسواقها للتجارة الحرة حتى للسلع الغير ضرورية، وعبر الشركات المتعددة الجنسيات القادرة على ابتلاع السوق المحلي، وتصفية الشركات الوطنية، وتملك المستثمر الأجنبي قطاعات الكهرباء والماء والمرافق وغيرها من عروق الدولة، فيسهل شلُّها في أي وقت.

(٣٦)- وصايا روتشيلد وخطته المؤلفة من ٢٥ نقطة واردة بالتفصيل في الصفحات ما بين ٩١-١٠٠ في كتاب "أحجار على رقعة الشطرنج"، والكاتب وليام جي كار يذكر أن روتشيلد ألقاها في مركز مؤسسة روتشيلد في شارع "بوندن شتراس بمدينة فرانكفورت سنة ١٧٧٣، وللمزيد عن هذه البروتوكولات وتطبيق ما ورد فيها على ما يحدث الآن في العالم في كل المجالات انظر: بروتوكولات حكماء صهيون، فكتور ماسدون، الحرية للنشر والتوزيع، القاهرة، والخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسي، ط ٤، دار الكتاب العربي، القاهرة

للمشروعات، وعن الضبط والتنظيم، وعندئذ ستختفي المظالم وينتفي الجور[٣٧]".

وجاءت الرأسمالية الاقتصادية ثمرة لما سبقها من نظريات الليبرالية السياسية والنفعية التي وضعها جون لوك وجون ستيوارت ميل وديفيد هيوم وتسير في اتجاه الفردية الأنانية، وأن يكون الحكم في يد أفراد، مثل نواب البرلمان، وليس الحكومات[٣٨]، مع ما هو معلوم أن أسرع من يصل للبرلمان هم رجال الأعمال أو من يموله رجال الأعمال من أعضاء التنظيمات العالمية الهادفة للسيطرة على الحكم.

وقوبلت هذه النظريات برفض من مفكرين أوروبيين كبنيامين نلسون الذي حذر من أن "المجتمع الذي يقوم على الأنانية البحتة سيتفتت حتما إلى ذرات، وسيعيش أفراده حالات شاذة من اللاانتماء"، وجوزيف دي مستر الذي قال إن عصر التنوير هو من سمم جسد فرنسا، واعتبر أن فولتير وأتباعه من "عتاة المجرمين"، وفولتير يتبع "طقوس عبادة الشيطان"، وفي أحسن الأحوال فهو وأمثاله من فلاسفة كـ جون لوك وديفيد هيوم "ضالون الضلال الرهيب المرعب"، وتخوف آخرون من أن هذه النظريات الطفيلية "تقتلع جذور الأمة"، و"تقضي على حكمة الأجيال السابقة[٣٩].

ولمّا تشبعت أوروبا من البضايع مع كثرة المصانع توجهوا لكسر الحدود أمام تجارتهم في العالم، ورأينا نصيب مصر من هذا حين تآمرت بريطانيا مع السلطان العثمانلي ضد محمد علي لإنهاء الاحتكار وحماية المنتج المصري بمعاهدة بلطة ليمان ١٨٣٨، وجرى في مصر ما علمنا من إغراق في الديون.

▼▼▼ الثورة الفرنسية

وهنا جاء اختبار تطبيق ما سبق، ونتابع ما جاء حول هذه الثورة في كتاب "أحجار على رقعة الشطرنج".

قامت الثورة على يد أفسد أهل فرنسا والمتسللين الأجانب، استغلوا ظروفا اقتصادية وسياسية سيئة، وأضافوا عليها ظروفا أشد مصطنعة، وتفننوا في حرب الإشاعات للطعن حتى في شرف الملكة، وأشرف على تأجيجها "الأستاذ الأعظم"[٤٠] لمحافل الشرق العظمى الماسونية في فرنسا وهو الدوق دورليان، ابن عم الملك لويس السادس عشر، الذي صوّت على إعدامه بعد الثورة طمعا في تولي العرش مكانه.

ومساعد دورليان كان الكونت دي ميرابو الذي وجد فيه المرابون ميلا كبيرا للفساد والانحراف، وفي نفس الوقت خطيبا بليغا قادرا على توصيل الأفكار الثورية للناس، وجرى توريطه في الديون، ثم ظهر له الماسونيون كمنقذين له من الديون بعرض أموال عليه بلا حساب، حتى غرق فيها لحلقومه وصار طوع أيديهم، وقذفوه لامرأة يهودية هي مدام هيوز مشهورة في باريس بفتنتها الطاغية، فتلطخت سمعته.

---

[٣٧]- تاريخ الفكر الأوروبي الحديث (١٦٠١- ١٩٧٧)، دونالد سترومبرج، ترجمة أحمد الشيباني، ط٣، دار القارئ العربي، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٢٣٦ و ٣٤١ و٣٤٨ و٧٢٨

[٣٨]- أصول التاريخ الأوروبي الحديث، أشرف صالح، دار ناشري للنشر الإلكتروني، ط١، الكويت، ٢٠٠٩، ص ١٦٩- ١٧٠

[٣٩]- تاريخ الفكر الأوروبي الحديث (١٦٠١- ١٩٧٧)، دونالد سترومبرج، ص ٣٣٠- ٣٣٦

[٤٠]- الأستاذ الأعظم لقب الرئيس الأكبر لهذه المحافل، وسيظهر أيضا مع تنظيمات أخرى إخوانية وشيعية إلخ

ونفس الأمر جرى مع الدوق أورليان بجره إلى مستنقع الرذيلة والديون الباهظة، حتى حوَّل قصر "الباليه رويال" الملكي إلى محل لممارسة الرذيلة، وبعد أن نضج الاثنان في إناء الفساد عرض الناريون لهما جانبا صغيرا من أهدافهم، وأخذوا منهما يمين الولاء، ومن يخالف مصيره الموت.

لم يكن الفسدة من أهل البلد كافيا، فكان السلاح القديم وهو الاستعانة بالأجانب، ففي ذلك الوقت انتشرت في أوروبا القصص الإباحية ليهودي من إسبانيا، كودبرلوس دي لاكلو، مثل قصة "العلاقات الخطيرة"، وصار في فرنسا مشرفا على قصر "الباليه رويال" وأيضا يهودي آخر من إيطاليا يدعى كالبسترو، واسمه الأصلي "جوزيف بالسامو، كوَّن شبكة جواسيس في كل مكان لتتبع انحرافات الشخصيات العامة وتسريبها للعامة لنشر السخط.

وأدرك المؤرخ البريطاني الأشهر السير والتر سكوت الدور الذي لعبته القوى الخفية وراء واجهة الثورة الفرنسية، في مؤلفه الضخم "حياة نابليون"- الصادر عام ١٨٢٤- حين تساءل باستغراب لماذا كانت معظم وجوه الثورة الفرنسية وجوها أجنبية عن فرنسا؟!

ونشرت الليدي كونبسبورو زوجة اللورد كوبنسبورو ومؤلفة كتاب "حكم الكهنوت الخفي" خلاصة مطبوعة قديمة اسمها "العداء للسامية" كتبها سنة ١٨٤٩ اليهودي بنيامين جولد شميد تحكي أنه وأخاه إبراهام جولد شميد وشريكهما موسى ميكاتا وابن أخ هذا الأخير الذي حصل على لقب نبيل إنجليزي فيما بعد وأصبح اسمه موسى مونتيفيور(٤١) وكلهم من كبار الممولين في إنجلترا، ساعدوا في تمويل الثورة الفرنسية، وعلق والتر سكوت على ذلك بأن الممولين العالمين كانوا يقرضون الأموال لفرنسا بيد، ويجنون أرباح هذه القروض الفاحشة بيد أخرى، حتى تسببوا في إنهاك الخزينة.

وانتهى الأمر بقبول لويس الرابع عشر شرطا بتعيين رجلهم السويسري جاك نيكر وزيرا مطلق الصلاحة للشؤون المالية، مع حملة دعائية ضخمة أنه القادر على البرنامج الإصلاحي اللازم لإنقاذ فرنسا(٤٢)، ويصف المؤرخ الإنجليزي الكابتن "آ.رامزي" الوضع في كتابه "حرب دون اسم" كما يلي: "كانت الثورة الفرنسية ضربة انقضت على جسم مشلول"، لكثرة الفساد الأخلاقي وسيطرة المرابين على الإعلام.

وكان يجري إعداد الهجوم على سجن الباستيل الشهير لإطلاق سراح المجرمين المهيئين لخلق جو يؤدي

---

(٤١)- موسى مونتيفيور ثري يهودي مشهور من بريطانيا، عرض على محمد علي خلال حكمه الشام أن يسمح لليهود بالهجرة لفلسطين بحجة الاستثمار، وهو من أول المرابين الذين كونوا مستوطنات لليهود بفلسطين بداية من ١٨٤٠، وله حي باسمه في إسرائيل، وشجع عائلة محمد علي أيضا على منح امتيازات لليهود في مصر لم يحلموا بها في أي دولة أخرى، وجعلتهم يتخذوا من مصر قاعدة آمنة لتدريب العصابات الصهيونية وتكوين الجماعات الإسرائيلية وجمع الأموال الضخمة من الربا وغيره وإرسالها لليهود بفلسطين.
انظر هنا الشكر الذي يرسله رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو إلى عائلتي مونتيفيور وروتشيلد على دورهما في تكوين إسرائيل: رئيس الوزراء يدشن الطاحونة التي أعيد ترميمها في حي "مشكنوت شأنانيم" في أورشليم القدس، موقع ديوان رئاسة الوزراء، ٢٨- ٨- ٢٠١٢

(٤٢)- كما حدث مع الملك البطلمي بطلميوس الثاني عشر في مصر حين كبلته روما بالديون ثم أرسلت له رابيريوس كوزير للمالية، وحدث مع الخديوي إسماعيل بإرسال نظام المراقبة الثنائية الأجنبية.

لترويع الناس وخلق حكم إرهابي، ووضع قوائم سوداء لمن يُراد التخلص منهم[٤٣].

وبعد اندلاع الثورة جاءت الفترة المعروفة في تاريخ فرنسا باسم" حكم الإرهاب"؛ حيث كان الضحايا يساقون فيها إلى المقصلة يوميا بالمئات، سواء من العائلة الحاكمة أو كبار رجال الدولة أو المواطنين الرافضين لهذه الفوضى، ومن أشهر مذابح ذلك العصر تلك التي وقعت سنة ١٧٩٢ بقتل الآلاف داخل السجون.

وفي كتابه ألفه جي. رينيه بعنوان "حياة روبسبير" قال إن حكم الإرهاب بلغ ذروته القصوى في الفترة بين ٢٧ أبريل- ٢٧ يوليو ١٧٩٤، ففي هذا اليوم الأخير خُذِل روبسبير أمام الجمعية الوطنية؛ فألقى خطابا شن فيه هجوما عنيفا على من أسماهم ب"الإرهابيين المتطرفين" قال فيه: "إنني لا أجرؤ على تسميتهم في هذا المكان وفي هذا الوقت.. كما أنني لا استطيع كشف الحجاب الذي يغطي هذا اللغز في الثورات منذ أجيال سحيقة.. غير أنني أستطيع أن أؤكد، وأنا واثق كل الوثوق، أن بين مدبري هذه المؤامرة عملاء أثَّر فيهم ذلك المنهج القائم على الفساد والرشوة.. وهما أكثر وسيلتين فعالية بين جميع الوسائل التي اخترعها أجانب عندنا لتفسيخ هذه الدولة، وأعني بهؤلاء كهنة الإلحاد والرذيلة الدنسين".

وهذه شهادة من أحد قادة الثورة أنفسهم بدور الأجانب وأعوانهم في نشر الإرهاب والفوضى والرذيلة، بالرغم من أنه هو نفسه ممن شاركوا في هذا الإرهاب[٤٤].

وبعد الصعود القوي لنجم نابليون بونابرت، استغل المرابون العالميون عشقه للحروب ولذاته في مرمغة فرنسا في مزيد من الحروب لاستنزافه من ناحية ولنشر أفكار الثورة الفرنسية من ناحية، وظهرت الحروب باعتبارها "تجارة رابحة" احتكرت شركات بارونات البنوك العالمية بسبب صناعات السلاح والدواء والكيماويات والحديد والأسمنت، بخلاف الإعلام.

ومن رحم كل هذا، خرجت مشاعل فكرة المواطن العالمي، وخلط الشعوب عبر الهجرات تحت اسم قبول الآخر والإخاء، وتيارات العلمانية والليبرالية والشيوعية والإلحاد وتقديس الحرية الفردية والإباحية والحريات المطلقة التي تنسف كل الأصول الدينية والوطنية[٤٥]، وستطير بأجنحتها السوداء كالطيور الجارحة إلى مصر يوما لتنهش في ما بقي من ماعت فيها.

▼▼▼ خلق الشيوعية والنازية (صناعة الأضداد)

تطبيقا لبند تحويل العالم إلى معسكرات متنابذة متصارعة، وكل منها يدعي أنه المنقذ وأنه الأجدر بقيادة العالم، ورفضا لترك كل دولة تصنع لنفسها طريقها الخاص في الحكم والحياة، فإنه بعد تأسيس معسكر

---

(٤٣)- نفس مشهد إطلاق سراح المساجين في ٢٠١١، واعترفت الإعلامية جميلة إسماعيل، إحدى الوجوه المشاركة بقوة في احتجاجات ذلك الوقت، في برنامج "ساعة حساب" بقناة "بي بي سي" العربية في ٧ فبراير ٢٠١٣، بدور من وصفتهم بـ"الثوار" في حرق الأقسام واقتحام السجون.

(٤٤)- ومعروف أنه في تاريخ مصر دخول أشنع الجرائم والرذائل يتم على يد أجانب، كالدعارة والربا والمخدرات وتجارة البشر وتجارة الأعضاء، والجهر بالفجور (الشذوذ الجنسي وغيره) والفساد الممنهج، وهي الجرائم التي تخلف عددا كبيرا من الضحايا في وقت قصير، وتتعدى على كافة الحرمات والفطرة، أما المجتمع المصري الطبيعي فكانت الجرائم به تقليدية كالسرقة أو الرشوة أوالقتل الفردي وما شابه ذلك، ونسبتها قليلة، خاصة في فترات قوة الحكم المركزي والالتزام بـ "ماعت".

(٤٥)- ما سبق فيما يخص الثورة الفرنسية ملخص لما جاء في "أحجار على رقعة الشطرنج"، وليام جي كار، ص ١٢٧- ١٣١

العالم الرأسمالي الليبرالي بالإطاحة بنظم الحكم العتيقة في بريطانيا وفرنسا وبلع اقتصادها، بدأ التأسيس لمعسكر الشيوعية، ومعسكر النازية، ومعسكر الفاشية، وأخيرا معسكر الدول والحركات المتمسحة في الإسلام، كجماعات السلفية و"الإخوان المسلمين" ونظم الحكم الشيعية كالتنظيمات الإيرانية.

ففي الوقت الذي كان كارل ماركس- تحت إشراف جماعة الإخوان الناريين (الإخوان النورانيين)- يكتب البيان الشيوعي سنة ١٨٤٧، أي بعد ٥٨ سنة من الثورة الفرنسية، كان كارل ريتر الأستاذ في جامعة فرانكفورت الألمانية يكتب سنة ١٨٤٩ النظرية المعاكسة للشيوعية- تحت إشراف جماعة أخرى من الناريين أنفسهم- بحيث يكون، كما سيتبين في المستقبل، في مقدرة رؤوس المؤامرة العالمية استخدام النظريتين المتعاكستين في خلق حروب بين الشعوب المنتمية لتلك الأيديولوجيات.

وتقوم نظرية كارل ريتر على تفوق الجنس الجرماني (الألماني) على ما سواه، وذلك ردا على ما كشفه كتاب جون روبسون "المؤامرة على كافة الحكومات والأديان" عن فكر الناريين الذي يتحدث عن تفوق اليهود، فدعت نظرية ريتر إلى القضاء على كافة بيوت المال اليهودية لنزع سيطرتها على اقتصاد العالم، ولكن ليس ليتحرر العالم، وإنما ليخضع لسيطرة جديدة، هي سيطرة الجرمان.

فدعا إلى أن يسيطر الألمان على حكم العالم وحدهم، وتُرغم كافة الشعوب على نبذ حكوماتها الوطنية، وعلى الولاء لحاكم واحد في العالم هو الحاكم الألماني، وهو ما تولد عنها ما عُرف فيما بعد بالنازية (الدولة الألمانية العالمية)، واقتدت به إيطاليا فظهرت الفاشية، ورأى ريتر أن الشيوعية التي دعا لها كارل ماركس ابن العائلة اليهودية يقف وراءها جماعة الناريين وبيوت المال العالمية، لذا دعا لمحاربتها، رغم أنه في نفس الوقت كان ينفذ أيضا ما تمليه عليه ذات الجماعة، وهو سيطرة جنس أو مجموعة معينة على العالم واستعباده.

وأوصى بإنشاء طابور خامس نازي يواجه الطوابير الشيوعية وتنظيماتها السرية، ويشتغل على إقناع المستويات الوسطى والعليا في البلاد التي تنوي ألمانيا إخضاعها بأن النازية هي الوسيلة الوحيدة لردع الشيوعية، ويجهزوا الساحة لاستقبال جيوش ألمانيا باعتبارها جيوش صديقة وليست احتلال[٤٦].

وأكمل مشروع ريتر ألماني آخر هو نيتشة، مؤسس المذهب الفلسفي (النيتشييزم) أو فلسفة نيتشه الملحدة الذي يروج إلى أن كل خير في الدينا ضعف، وأن كل شر هو مصدر قوة الإنسان "السوبر".

وبعد مرحلة غرس الأيديولوجيات المتصارعة، بدأت المرحلة الثانية وهي تسليح كل من المعسكرين، ودفعه للانقضاض على الآخر، ولو بعد حين، وهذه المذاهب الثلاثة هي التي أتاحت للناريين عن طريق عملائهم إشعال نيران الحربين العالميتين الأولى والثانية[٤٧].

---

[٤٦]- المرجع السابق، ص ٤١- ٤٢
*** وتركيز مشروع كارل ريتر على تجنيد النخبة في كل بلد هو تنفيذ لبند ورد أيضا في توصيات تنظيم الناريين
[٤٧]- المرجع السابق، ص ١٧- ١٨

وبعد انتقال مقر قيادة الناريين إلى الولايات المتحدة، صارت بيوت المال فيها صاحبة دور كبير في تغذية جيوب الشيوعيين، على عكس العداء الظاهر بين المعسكرين.

فيتحدث المخرج والكاتب الأمريكي مايرون فاجان في كتابه "مخطط النورانيين"- الصادر ١٩٦٧- عن جذور علاقة أمريكا بنشأة الشيوعية، قائلا إنه في خمسينيات القرن ١٩ اجتمع النورانيون في نيويورك، وقرروا توحيد جماعتي العدميين "النهلستي" **Nihilist** و"الملحدين" **Atheist** مع كل الجماعات المدمرة في جماعة عالمية يُطلق عليها اسم الشيوعيين، تحمل الرعب والعمل المسلح للعالم.

وتولى كلينتون روزفلت، أحد أسلاف فرانكلين روزفلت، وهوارس جريلي، وتشارلز دانا، أشهر ناشري الجرائد في ذلك الوقت، مهمة جمع المال لتكوين التنظيم الجديد، وبالطبع فإن معظم التمويلات جاءت من عائلة روتشيلد، واستخدموا الأموال في دعم كارل ماركس وإنجلز أثناء كتابتهما لكتاب "الرأسمالية" وكتاب "البيان الشيوعي في سوهو بإنجلترا، وصار لينين وتروتسكي وستالين الشيوعيين خلفاء ليمي في قيادة الحركة الثورية العالمية، واعتبر فاجان أنه بهذا فالشيوعية ليست أيديولوجية كما يسمونها، بل هي سلاح سري وكلمة مرعبة تقال كي تخدم غايات الناريين[٤٨].

▼▼▼ "الناريون" يحتلون أمريكا باللاجئين

لما كثرت الكتابات التي تكشف نشاط الماسونيين الأحرار والناريين في أوروبا بعد الثورة الفرنسية، وخاصة بعد النشاط الثوري الذي أشاعه مازيني (خليفة وايزهاوبت في قيادة النورانيين) في إيطاليا، بدأ النورانيون ينقلون- بالتدريج- نشاطهم إلى البلد النائي البعيد عن الشبهات حينها، أي الولايات المتحدة.

وفي العالم الجديد، كان توماس جيفرسون- الرئيس الثالث لأمريكا (١٨٠١- ١٨٠٩)- تلميذا لوايزهاوبت، وأشد المدافعين عنه عندما أعلنته حكومة بلاده خارجا على القانون، وعن طريق جيفرسون، الشهير بأنه "نصير الحريات والمساواة"، تغلغل الناريين الجدد في المحافل الماسونية بأمريكا، ومن ثم سيطروا عليها[٤٩].

وهنا ظهر دور الهجرات الأجنبية المنظمة تحت اسم لاجئين أو مستثمرين مجددا كما ظهرت في الثورتين الإنجليزية والفرنسية، فبعد أن كانت أمريكا تفضل الهجرات القادمة فقط من غرب أوروبا (البيض البروتستانت)، توغل "الناريون" مدعومين بتوطين هجرات يهودية كثيفة استقدموها من روسيا وشرق أوروبا في شكل لاجئين، وتمكينهم من اقتصاد أمريكا ومؤسساتها باسم مستثمرين ثم نواب وحزبيين لتطويق رقبتها، وسيطروا فعلا من بوابة الاستثمار والخصخصة، فاشتروا شركات عملاقة تابعة للحكومة أو غيرها من الأمريكيين مثل "هاينز- موزز" الخاصة بالسفن ومصانع الحديد واحتكرتها شركات

---

[٤٨]- "مخطط المتنورين"، مايرون فاجان، ترجمة علاء الحلبي، سوريا، ص ١٥-٢٠، (صفحات الوثيقة المترجمة على الإنترنت غير مرقمة، وهذا أرقام نسخة PDF المنشورة بنفس العنوان)

[٤٩]- نفس المرجع، ص ١٥

"مورجان" و"دريكسيل" العاملتان تحت مظلة روتشيلد(٥٠).

ومن الأسماء التي يتوارى ورائها "الناريون" حديثا في أمريكا بعد اكتشاف أمر محافلهم القديمة مجلس العلاقات الخارجية **Council of Foreign Relation** واختصارا معروف ب **CFR** وتأسس ١٩٢١، وهو الفرع السياسي لجماعة الناريين في الولايات المتحدة، وأخوه في بريطانيا المعهد البريطاني للعلاقات الخارجية **British Institute of International Affairs** ويوجد مثله في فرنسا وألمانيا إلخ.

تأسس المجلس كرد فعل على فشل الناريين في إجبار الكونجرس على قبول انضمام أمريكا لعصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى، لأن الكونجرس كان ما زال فيه نواب ولائهم لأمريكا؛ فتأسس المجلس لتخريج من سيصبحون نوابا ووزراء ومستشارين للحكومة ورؤساء.

وبالتزامن، قام الناريون والهيئات التعليمية في الكليات والجامعات بدعم الطلاب الذين يتميزون بذكاء عال أو ينتمون لعائلات مرموقة عبر المنح التعليمية، ومن أشهر من حصلوا على منحة ويليام جي فولبرايت، والذي بعد سنوات خصص منحة باسمه "منحة فولبرايت" تقدم لدول العالم لتخريج "طلاب دوليين"، يؤمنون بفكرة الحكومة العالمية، ويعمل بعضهم فيما بعد مستشارين حكوميين وخبراء يوجهون المسئولين نحو الوجهة التي تؤدي بعد حين إلى دمار الحكومات والأديان(٥١).

ولمنحة فولبرايت فرع في مصر، إلى جانب منح منظمات أجنبية أخرى، ونقبل عليها كلنا- وكنت أنا ممن يسعون إليها قبل اكتشاف أمرها- دون أن نسأل أنفسنا عن أهداف هذه الدول من توفير "منح مجانية" لأبناء بلاد معلوم أنها تطمع في السيطرة عليها.

أما الإعلام فهو البوابة الأسرع للتحكم في الرأي العام، ولكننا في مصر دائما نسمع أن أمريكا هي مثال للإعلام الحر، وأننا في مصر يجب أن نقلدها ونلغي الإعلام الحكومي ونسلم الإعلام لرجال الأعمال مصريين أو أجانب، فهل الإعلام في أمريكا والغرب عموما حر؟

يجيب فاجان: "هل تعلمون من يملك ويتحكم بوسائل الإعلام الأمريكية؟ سوف أخبركم: كل استوديوهات تصوير الأفلام هوليوود تملكها عائلة ليمان، وشركة كون ولويب وشركائهم، وعائلة جولدمان ساتش وغيرهم من بيوت المال العالمية، وكذلك كل محطات الراديو والتلفاز المشهورة على نطاق الولايات المتحدة يملكها ويتحكم بها هؤلاء أيضا، والحالة نفسها مع كل سلاسل الجرائد والمجلات الرفيعة مثل "واشنطن بوست" و"نيوزويك"، ووكالات الأنباء مثل أسوشيتدبرس ويونايتدبرس انترناشونال إلخ(٥٢).

أي أن "حرية الإعلام" في أمريكا وأوروبا هي أن يكون حرا من الحكومة والدولة والمصلحة الشعبية ليقع

---

(٥٠)- الشيطان أمير العالم، مرجع سابق، ص ١٤٩
(٥١)- انظر "مخطط المتنورون، فاجان، ص ١١
(٥٢)- المرجع السابق، ص ١١

في يد التنظيم الناري "الناريين الأحرار"، أي كانها "حرية الشيطان".

وعن طريق الإعلام وتوزيع ملكيته وانتماءاته على عدة تيارات انتشر التحزب وتقسيم المجتمع الأمريكي لطوائف متخاصمة من اليمين إلى اليسار، وانتشر- بحسب فاجان- الخلاعة والشذوذ الجنسي (الفجور)[٥٣]، وكما قال أحدهم: "امنحني جيلا واحدا من الشباب وأنا سأغير كل العالم"؛ فإصلاح أو إفساد جيل واحد قادر على إصلاح أو إفساد الأجيال اللاحقة، لأنه من سيضع القوانين التي تشكل المستقبل.

▼▼▼ ألبرت بايك.. والحروب العالمية الثلاثة

وبعد تمكن الناريين في الولايات المتحدة تولى قيادتهم هناك جنرال أمريكى يدعى ألبرت بايك، صاحب التمثال الشهير في الساحة العامة بواشنطن.



تمثال ألبرت بايك نصبه الماسون الأحرار في واشنطن ١٩٠١ (صحيفة واشنطن بوست[٥٤])

وكرر بايك مهمة وايزهاوبت، وهي تحديث البروتوكولات لتناسب تطور الأحداث، فإن كان على يد وايزهابت قامت الثورة الفرنسية والأيديولوجية الشيوعية والنازية، فعلى يد مخطط بايك قامت الثورة الروسية والثورة الإسبانية، وأيديولوجية الصهيونية والحربان العالميتان الأولى والثانية ويعدون للثالثة.

فقام مشروع بايك- بحسب رسالة مؤرخة بـ ١٥ أغسطس ١٨٧١، وأبلغها لمازيني- على أن يشعل مديرو الحركة الثورية العالمية ٣ حروب عالمية و٣ ثورات كبرى للحط من الحكومات المتبقية لتصل إلى الإنهاك فالانهيار الاقتصادي، وتتشوق شعوبها لحكومة عالمية بوصفها الحل الوحيد لمشاكلهم الكثيرة.

وبعد الحروب العالمية الثلاثة وثورتين ستبقى الولايات المتحدة القوة العالمية الوحيدة، ولكن في الثورة

---

(٥٣)- انظر: نفس المرجع، ص ٣٦

(٥٤)- A homeless Confederate? Albert Pike's complicated legacy leaves statue in limbo,Washington post, 30-10-2017

الثالثة، التي وصفها بايك بأنها أعظم كارثة اجتماعية ستمر على العالم، ستتفكك الولايات المتحدة بغدر من الداخل، وستقع في أيدي أتباع إبليس "مثل فاكهة شديدة النضج".

أما الحرب الأولى فستكون لإخضاع روسيا وتحويلها لمعقل للشيوعية الملحدة ونشرها في العالم، والحرب الثانية تنشئ كيانا لليهود (إسرائيل) وتنشر الصهيونية التي على يدها ستقوم الحرب العالمية الثالثة بالتركيز على تغذية الصراع بين إسرائيل ودول الشرق الأوسط[٥٥]... هذا الكلام قبل ١٨٧١ !

وتأسس المذهب الجديد، أي الصهيونية، فعلا نهاية القرن ١٩ وإعلانه في مؤتمر بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧ والمميز فيه عن بقية المذاهب أن معظمها، الليبرالية الرأسمالية والشيوعية، تسابقت لخطب وده.

ومن أدلة صحة وجود هذا المخطط ونسبة ما حدث من حروب وثورات عالمية له، ما يتعلق بالثورة الثالثة التي قال إنها ستفتك بأمريكا من داخلها عبر الهجرات الأجنبية، وهو ما أشار إليه بعد ١٣٠ سنة من وضع مخطط بايك الباحث الأمريكي صمويل هنتنجتون صاحب كتاب "صراع الحضارات"، ففي كتاب آخر له باسم "من نحن؟" (منشور ٢٠٠٤) حذر من استمرار فتح أبواب أمريكا أمام الهجرات قائلا إن كثرة الأعراق والثقافات والديانات ستمحو الهوية الأمريكية الأنجلو بروتستانتية، ولغتها الإنجليزية، وستخلق بكل تأكيد صراعات بين هذه الثقافات والأعراق تفتك بالولايات المتحدة من الداخل[٥٦].

فيا ترى ماذا سيكون نصيب مصر من هذه الثورة الثالثة الكبرى؟

لأنه بالتأكيد لن تشمل الولايات المتحدة وحدها، فإن كانت ستفجر الولايات المتحدة وهي قطب الناريين الباقي، فبالتأكيد سيكون تم تفجير بقية البلاد قبلها لتفرغ الساحة لمن تبقى من الشعوب ليستعبدهم حفنة "الناريين" وحكومتهم الوحيدة، فهل سيكون تفجير مصر من الداخل عبر الأمواج التي تتدفق عليها بالملايين من البشر من مختلف الأعراق والأديان والثقافات باسم لاجئين ومستثمرين وعمالة وفنانون وراقصات وأزواج وزوجات أجانب إلخ، وذلك بعد تفكيك وجدان الشعب ما بين إخواني وشيوعي وليبرالي وعروبي وملحد ووو إلخ، وبعد غرس مصر لأقصى قاع الديون والقروض والاستثمارات العالمية؟

وإن كان وايزهاوبت أسس "محافل الشرق الأعظم" الماسونية فإن بايك أسس مجالس الطقس البالاديني الجديد أو المعدل (**Palladian Rite N.P.R**) مع احتفاظه بمنصب الحبر الأعظم للماسونية العالمية والقائد الأعلى الفخري للمجالس العليا في مصر والبرازيل وتونس وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا وإسبانيا وإنجلترا وويلز وإيرلندا وأسكتلندا واليونان إلخ، وسافر إلى بعض هذه البلدان لافتتاح المجالس بها[٥٧].

وفعلا فإنه في ذلك التوقيت- سبعينات وثمانينات القرن ١٩- شهدت انتشارات واسعا للمحافل الماسونية، وعلنا، في مصر على يد مستوطنين أجانب أو وافدين جدد من الشوام واليونانيين واليهود وإنجليز وغيرهم

---

[٥٥]- انظر الشيطان أمير العالم، مرجع سابق، ص ٢٩٠- ٢٩٢

[٥٦]- راجع "من نحن؟"، صمويل هنتنجتون، ترجمة أحمد مختار الجمال، المركز القومي للترجمة، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٩

[٥٧]- انظر الشيطان أمير العالم، مرجع سابق، ص ٢٣٧- ٢٣٨

تحت دعاوى أنها جمعيات خيرية وتنويرية تصل مصر بمنابع الثقافة في أوروبا.

فماذا أضاف في هذه المجالس؟

يقول وليم جي كار إن مازيني وبايك اتفقا سنة ١٨٧٠ على وضع دستور ماسونية عليا مركزية، وفيما تولى بايك منصب الحبر الأعظم للماسونية العالمية تولى مازيني منصب رئيس العمل السياسي، يعني رئيس الحركة الثورية العالمية، ووضع بايك الطقس البلاديني المعدل، وأبرز أشكال التعديل فيه هو تسمية "قداس قتل أدوناي".

ويسمي "الناريون" الله بـ"أدوناي" مثل اليهود، وخلال طقوس الدرجات العليا في محافلهم يقيمون قداسا لانتهاكات حرمات الله وممارسة كل ما يغضبه، كانتهاك الأعراض، وتعذيب النساء، وقتل الأطفال، يسمونها "قتل أدوناي"، أي انتهاك شريعته وسلطانه على الخلق، ويصبون فيها كراهيتهم للمسيح الذي كشف أمرهم، وبعد تجنيد أعضاء جدد في الماسونية، وخاصة في الدرجات العليا في المجالس البالادينية، يسمى الأعضاء "إخوة" أثبتوا أنهم انشقوا عن الرب والمسيحية[٥٨].

وفي ١٩٢٥ نشر الكاردينال "كارو أي رود رجز" أسقف سانتياجو عاصمة تشيلي كتابا باسم "سر الماسونية بعد نزع النقاب عنه" شرح كيف نشأ الناريون، فقال إنهم جميعة سرية في قلب جمعية سرية أكبر هي الماسونية، واستدل على ذلك بأن الماسونيين من الدرجات ٣٢ و ٣٣ العليا لا يعرفون ما يدور في المحافل التي تدرب النساء على كيفية التسلل لنجوم المجتمع وكبار رجال الدول من بوابة العلاقات غير المشروعة[٥٩].

ويجري استقطاب نجوم المجتمع هؤلاء من بوابات أخرى غير النساء، كالمشاركة في مبادرات نشر المحبة والسلام العالمي والتآخي والعمل الخيري والتنوير ودعم اللاجئين والحوار مع الآخر.

ويتفاخر الناريون "بأنه لا يمكن وضع ولو جزء صغير من أي تشريع من خلال أي برلمان دون أن يكون لديهم معرفة كاملة عنه، وبدون إعطاء موافقتهم عليه[٦٠]".

كما أن الماسون المختارين ليكونوا في الدرجات الأعلى، أي الناريين، يُجردون من كل انتماء ديني- بما فيهم اليهود لا يصبحون يهودا- ولكن الجميع أتباع وعبيد للشيطان فقط، مثل "ليمي" الذي اختاره الجنرال بايك لخلافة مازيني في إدارة حركة الثورة العالمية وتجرد لعبادة الشيطان بعد أن كان حاخاما يهوديا[٦١].

هؤلاء من قال عنهم الإنجيل (سفر رؤيا ٣: ٩): هنذا أجعل الذين من مجمع الشيطان، ومن القائلين إنهم يهود وليسوا يهودا، بل يكذبون.

---

(٥٨)- نفس المرجع، ص ٢٨٢

(٥٩)- انظر أحجار على رقعة الشطرنج، ص ٢٥

(٦٠)- الشيطان أمير العالم، ص ٢٨٤

(٦١)- أحجار على رقعة الشطرنج، ص ٢٥

وقال عنهم القرآن (البقرة آية ١٤): وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم إنَّما نحن مستهزئون.

▼▼▼ شهادة فاجان وتوطين اللاجئين

وهنا نعود إلى شهادة المخرج الأمريكي مايرون فاجان الذي تعرف على دور توطين اللاجئين بأمريكا في نشر وتمكين تنظيم الناريين فيها، وبدأ الموضوع معه حين حضر واقعة فتحت له باب التساؤلات، وكرَّس حياته بعد ذلك لكشف هذا التنظيم وخطره على أمريكا في الإعلام ومن خلال أعماله الفنية.

ففي سنة ١٩٤٥ حضر فاجان بناء على دعوة من المؤلف جون.ت. فلين اجتماعا في واشنطن، وشاهد مجموعة أفلام سرية جدا عن الاجتماعات السرية اللي تمت في "يالتا" بين الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت والسوفيتي جوزيف ستالين لتقسيم العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وكان من نصيب السوفيت أوروبا الشرقية والبلقان وبرلين، في إطار رسم ملامح النظام العالمي الجديد[٦٢].

وبسبب ما عرفه فاجان في هذا الاجتماع والأفلام كتب مؤلفه "مخطط النورانيين" أو في بعض الترجمات "مخطط المتنورين"، وأسس جمعية السينما للتثقيف والتعليم **(CEG) Cinema Educational Gild** سنة ١٩٤٧ لنشر التحذيرات وكشف الشخصيات المتورطة.

فشرح فاجان كيف أرسلت عائلة روتشيلد صنيعتها اليهودي جاكوب شيف إلى الولايات المتحدة ليستكمل مسيرة زرع فكر الناريين في مراكز القرار الأمريكي، فسيطر على الشركات الضخمة أولا، ومن بوابة الاقتصاد والرشاوى سيطر على الحزبين الجمهوري والديمقراطي، وساعد شيف في ذلك تدفق اليهود من أوروبا وروسيا إلى الولايات المتحدة باسم لاجئين مضطهدين.

وبدأت الحكاية بأنه لتحقيق تواجد رسمي للناريين داخل أروقة الكونجرس والبيت الأبيض- بعد السيطرة على البنك الاحتياطي كما سيطروا سابقا على بنك إنجلترا- كان مطلوبا السيطرة على أحد الحزبين، الجمهوري أو الديمقراطي، لأنه عن طريق النواب سيكون لهم صوت رسمي في الكونجرس وعن طريق مرشح الحزب للرئاسة سيكون لهم وجود رسمي في البيت الأبيض.

ووقع الاختيار على الحزب الديمقراطي لأنه الحلقة الأضعف والأقدر على السيطرة عليه لأسباب، منها فقر الحزب في عدد الناخبين، وعلى هذا قرر شيف، مد الحزب بأعداد كافية للمنافسة وموالية للناريين، فجلب هذه الأعداد من الخارج على شكل لاجئين ومهاجرين[٦٣].

ووقع اختياره على العجينة الطيعة في هذا الأمر، اليهود، لأنهم من أكثر الطوائف قدرة على التكتل في

---

[٦٢]- النظام العالمي الجديد كلمة ظهرت منذ ٢٥٠- ٣٠٠ سنة، وتتكرر كل فترة بنفس الكلمات كأنها كلمة السر لبدء مرحلة جديدة من مخطط الناريين، فهي بعد ٥٠ سنة ظهرت على لسان الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب بعد إسقاط الاتحاد السوفيتي لما أدى الغرض منه للاشارة إلى إعادة تنظيم العالم بعد التخلص من القطبية الثنائية والدخول في مرحلة القطب الواحد كمرحلة من مراحلة الحكومة العالمية الواحدة.

[٦٣]- انظر "مخطط المتنورين"، مايرون فاجان، مرجع سابق، ص ١- ٢٥

هدف واحد، وتنفيذ المهام الموكلة لها مهما طال أمدها، ومن أكثرها حبا للتسلط على غيرها.

وتطلب هذا صناعة أحداث مؤلمة تهدد وجود اليهود في عدة دول ليتشجعوا على الهجرة، وفجأة في سنة ١٨٩٠ اندلعت في روسيا سلسلة مذابح جماعية قُتل فيها آلاف اليهود، رجال ونساء وأطفال، على يد شعب الكوساك، وحصلت مذابح مماثلة في بولندا ورومانيا وبلغاريا، وجميع هذه المجازر بتحريض من عملاء "روتشيلد"؛ فتدفق اللاجئون اليهود من هذه البلاد إلى الولايات المتحدة، واستمر الأمر على هذه الحال مدة ما بين ٢٠- ٣٠ عاما بسبب استمرار المذابح[٦٤].

تلقفت الجمعيات الخيرية التابعة لمؤسسات "شيف" و"روتشيلد" وعملائهم اللاجئين، ووزعتهم بخريطة مدروسة في المدن الأمريكية، وخاصة شيكاغو وبوسطن وفيلادلفيا وديتوريت ولوس أنجلوس، وهي المدن التي بها كثافة تصويتية ضعيفة للحزب الديمقراطي[٦٥].

وبمرور الوقت أصبح هؤلاء اللاجئون "مواطنين عاديين"، وتم تثقيفهم وإرشادهم ليسجِّلوا تحت اسم الديمقراطيين، وأصبحت هذه الأقليات تجمعات من الناخبين ترهن صوتها للمموليها وأولياء نعمتها[٦٦]، وبعد فترة قصيرة أصبحوا جماعات ضغط "لوبيهات" تقود الحياة السياسية لأمريكا، وتجرها لصناعة حرب وراء حرب وفرض نموذج واحد على العالم في الحياة، خاصة بعد أن أصبحت مقرا للأمم المتحدة.

وإضافة لهدف صنع تكتلات انتخابية موجهة لصالح الحزب الديمقراطي، كان لجلب المهاجرين الجدد هدف آخر وهو" القضاء على وحدة الشَعب الأمريكي" التي بدأت تتشكل بعد حرب الاستقلال.

وفي ذلك يقول فاجان إن جاكوب شيف سعى لذلك عن طريق خلق الأقليات والنزاع العنصري، فأدخل إلى الولايات المتحدة أقلية متكتلة مثل اليهود، مع تحريض أقلية أخرى هي "المواطنين السود"، واللعب على وتر أن كل منهما "مضطهدة"، وبذلك أمكن استخدام هاتين الأقليتين بشكل جيد لخلق الصراع الأكبر في أمريكا، وهذا ما تحتاجه جماعة الناريين لإنجاز مهمتها.

وبدأت الاحتكاكات العرقية والكلام عن اضطهاد المهاجرين والسود باحتكاكات في الجامعات والكليات المحمية بقرارات إيرل وورن **Earl Worren** ، ولتغذية الشعور العرقي والأقليات أسس "شيف" جمعية مدنية ١٩٠٩ باسم "الجمعية الوطنية لرعاية المواطنين الملونين" **NAACP** بحجة رعاية المضطهدين والمهمشين وحقوق السود واليهود المهاجرين، وادعى أن تخصيص جمعيات لهم يقوي الوحدة الوطنية

---

[٦٤]- انظر المرجع السابق، ص ٢٥- ٦٢

[٦٥]- الجمعيات الخيرية المكلفة بتوطين اللاجئين تبلورت فيما بعد في المفوضية العليا لشئون اللاجئين في الأمم المتحدة التي تدعم توزيع اللاجئين على الدول المستهدفة كل فترة، إضافة لسلسلة أخرى من الجمعيات مثل "الهيئة اليسوعية لخدمة اللاجئين" ومنظمة كاريتاس الكاثوليكية وغيرها، وكثير منها له نشاط في مصر، إضافة لجمعيات خيرية محلية.
فحين تدفق ملايين اللاجئين على مصر من بعد ٢٠١١، وهو عدد غير مسبوق في تاريخنا، تلقفتهم بسرعة عجيبة تنظيمات وجمعيات خيرية محلية ودولية، ووزعتهم بطريقة مدروسة على المحافظات، ودعمت إيجاد فرص عمل وصار لهم أعمال تجارية ثرية في كل شارع وحارة بسرعة البرق، وبطريقة تدعو للتساؤل، وكأن هذه الجمعيات كانت في انتظارهم في وقت معلوم.

[٦٦]- المرجع السابق، ص ٢٦

***وحتى الآن تقوم سياسة الحزب الديمقراطي على فتح امريكا أمام الهجرات من كل جنس؛ لأن أغلب داعميه من المهاجرين، وأصبح هذا موضع خلاف حاد بينه وبين الحزب الجمهوري، خاصة بعد تولي دونالد ترامب الحكم، ورفعه شعار "أمريكا أولا"، ووضعه قيودا على الهجرة.

بضمان حقوقهم، لكن الحقيقة هدفها كان تغذية مشاعر الانفصال العرقي أو الطائفي عن المجتمع والتميز والاضطهاد بداخلهم، وساعدوا في إبراز شخصيات مثل مارتن لوثر كينج، وستوكلي كارميشيل، وبارنارد روستن[٦٧]، وكلهم باسم المساواة وحقوق الإنسان.

وفي ١٩١٣ بدأت المرحلة التالية لمرحلة الوجه "الخيري" لهذه الجمعيات العرقية والطائفية، وهو الوجه المسلح لبدء عمليات الصدام.

فتشكلت جمعية باسم **Anti-defamation of the B'nai B'rith** والمعروفة في أمريكا باسم **AFL** بمثابة بوليس سري بحجة حماية الأقليات والمضطهدين، أعضاؤها مسلحين، بحيث إذا وقع شجار بين أبناء تلك العرقيات، سواء عارض أو مصطنع، يتدخلون سريعا بالسلاح، فيتضخم الأمر.

وملحوظة هامة، أنه في وسط تجمعات المهاجرين اليهود القادمين من روسيا بنيويورك- قبل الثورة الروسية- عاش القيادي الشيوعي تروتسكي كلاجئ ليتدرب وسط عصاباتهم على أعمال الإرهاب التي نشرها الشيوعيون في روسيا خلال الثورة، وأنفق بسخاء على التدريبات رغم أنه لم يكن يعمل، في دلالة على أنه يتلقى تمويلا خفيا، وسافر مع ٣٠٠ من المجرمين المدربين ليقابل فلاديمير لينين في سويسرا على متن سفينة ممولة من شيف ومعهم ٢٠ مليون دولار أمريكي ذهبي لتمويل الثورة الروسية[٦٨].

فتحت ستارة "اللاجئين" و"المهاجرين" تُبتلع أكبر الأمم، وتسقط أقوى الحكومات، قالها الأجداد في أمثالهم الفصيحة التي لم يتعظوا بها: "ثلاثة لو اتفقو على بلد خربوها"، و"اليد الغريبة تخرب البيوت العامرة"[٦٩].

وأقام لينين وستالين في سويسرا لفترة، حيث المأوى الآمن للناريين وأموالهم وخططهم، ومن سويسرا شحنوا عصابات اللاجئين في قطارات إلى روسيا، ليقوموا بمهمتهم في نشر الحرائق والمذابح التي تم نسبها لقيصر روسيا رومانوف، ثم قتله هو وعائلته حتى لا يطالب أحد منهم بالعرش مستقبلا[٧٠].

▼▼▼ الثورة الروسية

كشفت الشهادات السابقة أن وراء غبار المعارك والصراعات السياسية والاقتصادية والفكرية بين الشيوعية الروسية الشرقية والرأسمالية الأنجلوأمريكية الغربية يختبئ سر كبير مضحك جدا، ومر جدا، وهو أن الشيوعية تمولها أساسا البنوك الغربية الرأسمالية في بريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة.

وشاع وسط الجماهير أن الشيوعية حركة عمالية قامت لتدمير الرأسمالية، ولكن ضباط المخابرات في

---

[٦٧]- المرجع السابق، ص ٢٧

*** هذا النموذج كرروه في عدة دول، وفي مصر يؤسس من يصفون أنفسهم بالحقوقيين المدعومين من الخارج جمعيات وحركات لما تصفه بدعم المهمشين والمسيحيين والنوبيين وأهالي سيناء واللاجئين والمجنسين إلخ

[٦٨]- "مخطط المتنورين"، مايرون فاجان، مرجع سابق، ٢٩- ٣٠

[٦٩]- العادات والتقاليد المصرية، جون لويس بوركهارت، ترجمة إبراهيم شعلان، مرجع سابق، ص ٩٧ و١٠٨

[٧٠]- "محطط التنويرين"، مرجع سابق، ص ٣١

كل من الولايات المتحدة وبريطانيا حصلوا على وثائق أصلية تبرهن أن الرأسماليين العالميين هم الذين مولوا كلا المعسكرين المتحاربين في كل الحروب والثورات، بحسب أحد هؤلاء الضباط وليام جي كار[٧١].

وخيط الثورة الروسية قديم جدا، ومرتبط بحركة الهجرة واللجوء أيضا التي يدور حولها هذا الكتاب، فقد شهد القرن ٨ الميلادي هجرات قبايل الخزر التركية من بطن آسيا إلى شرق أوروبا، قمعت السكان الأصليين لتكون مملكة الخزر التي استمرت ٥٠٠ سنة، ولسبب غير معروف اعتنق حكام ونخبة هذه القبايل اليهودية بدلا من المسيحية السائدة في أوروبا[٧٢] رغم عدم محبة اليهود لاعتناق غيرهم لديانتهم.

بعد ٣ قرون تسللت هجرات روسية لنفس المناطق، وتصارعت مع مملكة الخزر حتى سيطر الروس وضموها لروسيا، لكن ظل حاخامات الخزر يوقدون صدور القبايل على روسيا وتحين فرصة للانتقام.

واستغلوا فترة قوة الدولة الروسية في تكوين نفوذ اقتصادي لهم، بكنز الذهب والفضة بطرقهم الملتوية في الربا والاحتيال، مع نشر الفتن والكراهية بين أهل البلد، وافتعال مشاكل تدفع السلطات لإصدار قوانين لمعاقبة اليهود، فيستغلونها لنشر قصص أنهم مضطهدين، حتى أضعفوا الدولة.

وفي النصف الثاني من القرن ١٩- بعد خلق الشيوعية على يد ماركس خلقو روابط تنتشر بين العمال والمزارعين تحرضهم ضد القياصرة مستغلين سوء أحوالهم، ومدعومين بتمويل من بارونات المال، وأشهر قادة هذه الروابط ستالين وتروتسكي وفلاديمير لينين، حتى أشعلوا ثورة ١٩١٧ الشيوعية.

وبالتزامن- وعلى طريقة الثورة الفرنسية- جري نشر الخلايا الفوضوية عبر نظرية "النهلستية"، والمواخير وبيوت الدعارة التي تستقطب رجال الحكم والجيش والعائلة الحاكمة ونجوم المجتمع بقيادة الشهواني الشهير راسبوتين، وتكبيل الدولة في قروض بعد توريطها في حروب خارجية، وتقريب أجانب من دوائر الحكم باسم خبراء ومستشارين[٧٣].

وسبق أن تحدث القيصر إسكندر الثالث عقب صدور قوانين مايو ١٩٠١ في بيان رسمي عن أن الفوضويين واليهود هم السبب الأول في الأزمات الاقتصادية والفوضى التي حلت ببلاده.

وبالفعل كانت معظم أسماء الحركات الفوضوية التي قادت الثورة الروسية هي من الأجانب ومنهم اليهود مثل جوليوس تسيدير بهلوم قائد حزب المنشفيك، وفلاديمير لينين، وتروتسكي، وروزا لكسمبورج رئيسة

---

[٧١]- انظر: أحجار على رقعة الشطرنج، مرجع سابق، ص ٢٢

[٧٢]- انظر: مملكة الخزر اليهودية وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين في العصور الوسطى، محمد عبد الشافي المغربي، ص ٩- ١٣

*** والخزر كلمة تعني ضيق العين جدا مثل عيون الصينيين واليابانيين وشعوب شرق آسيا (نفس المرجع)

[٧٣]- النهلستية مبدأ فوضوي انتشر في روسيا وأوروبا القرن ١٩، ينكر كل سلطة على الإنسان، سواء الأديان أو الحكومات أو الأخلاق أو المجتمع أو العادات والتقاليد، ويدعو لتكون الفوضى أسلوب الحياة.

*** وجريجوري راسبوتين (١٨٦٩- ١٩١٦) هرب من قريته بعد اتهامه بسرقة جواد، فالتحق بأحد الأديرة متخفيا باسم راهب، وعاش حياة بوهيمية لا يغتسل بالأشهر، والتحق بمنظمة متطرفة "خاليستي" تشجع على الفجور الجنسي، واتبع مذهبا شيطانيا يوهم الناس بأن التقرب إلى الله يلزمه أولا أن يقوم الإنسان بالفواحش والرذائل بوعي كامل منه ثم يتوب عنها.

الحزب الشيوعي البولوني، وروفائيل إبراهيموتموفيتش رئيس الحزب الشيوعي الألماني[٧٤].

انتهت الثورة إلى إعدام القيصر وعائلته بما فيها من أطفال، وإشعال حرب أهلية عن عمد- على نمط الثورة الفرنسية- أزهقت أرواح مئات الآلاف، بما فيهم من أطفال ونساء، وإعدامات بلا محاكمات، بخلاف ملايين الفقراء ماتوا تحت وطأة المجاعات والأوبئة والفوضى، لم يهنأوا بالشعارات التي رفعتها الشيوعية عن أنها قامت "لنصرة" الضعفاء، ثم تحولت روسيا إلى "الاتحاد السوفيتي" راعي صناعة الثورات المسلحة وقلب نظم الحكم في العالم بشلالات دم وحروب أهلية أغرقت دولا في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وشرق أوروبا لتنصيب حكومات شيوعية ليس لها ولاء لوطن، بل تضم بلادها إلى طريق إعلان "دولة البروليتاريا الاشتراكية العالمية"، وأنصارها حتى اليوم من أكبر مشجعي الهجرات وخلط الشعوب.

▼▼▼ الحربان العالميتان الأولى والثانية

في نفس الوقت الذي كان يجري إعداد وتنفيذ الثورة الروسية، كانت تدور الحرب العالمية الأولى العالمية ١٩١٤- ١٩١٨، ليعيش العالم بأسره السنين الأربع الرهيبة في طوفان دم لف العالم كله بشكل لم تشهد الإنسانية له مثيلا من قبل، ودارت مصانع الأسلحة تطحن وتبيد ملايين الناس، وتعبأ الدولارات في بيوت المال العالمية، وانقسم العالم لمحاور من غير أي سبب مقنع للحرب التي أعلنت انتصار الصهيونية والشيوعية والليبرالية الرأسمالية على حد سواء، وبدأ تنفيذ مشروع إسرائيل بوعد بلفور الذي كتبه اللورد روتشيلد نفسه منتشيا سنة ١٩١٧ الخاص بدعم بريطانيا لإقامة وطن لليهود بفلسطين تتويجا لنشاط إرسال الهجرات اليهودية إلى هناك منذ سنة ١٨٤٠ باسم مستثمرين ولاجئين ومهاجرين.

وأعلنت الدول المنتصرة- رافعة شعار الحرية- موافقتها على إعلان الحماية البريطانية على مصر غصبا عن مصر، وظهرت عصبة الأمم كأول كيان تطبيقي لمشروع "حكومة العالم الواحد"، وصارت الصناعات الاستراتيجية اللازمة لصناعة السلاح في زمن الحرب مثل الحديد والصلب والأسمنت والكيماويات في يد بارونات المال مثل فرديرك ناتان، رئيس الوكالة اليهودية في فلسطين فيما بعد؛ ولذا نفهم لماذا سعوا لإغلاق مصانع الحديد والصلب والكيماويات والأسمنت التي أنشأتها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر، أو على الأقل نزعها من يد الدولة وخصخصتها ببيع بعضها للأجانب ووضع بعض آخر في يد رجال أعمال يسهل التحكم فيهم من الخارج.

وفي سفره الضخم بعنوان "عبر ثلاثين عاما" أقر ويكهام ستدي رئيس تحرير "التايمز" بالنفوذ الخفي لسادة المال العالميين وقال في الصفحة ٣٠١- ٣٠٢: "إنني ألح بصورة خاصة في القول بأن الذين يسيطرون على القضايا العالمية هم سادة المال العالميين، وبأنهم هم محركو الأحداث بصورة خاصة"، وفي المؤتمر الصهيوني العام الذي انعقد في المجر ١٩١٩ قال أحد الخطباء: "إننا نحن الذين خلقنا عصبة الأمم،

(٧٤)- من نشروا الفكر الشيوعي والفوضي في مصر أيضا يهود، وعلى رأسهم هنري كورييل كما سيتضح في فصل لاحق.

وسوف نتابع السير وراء السلطة المرشدة.. أما أهدافنا ومهمتنا فهي محددة سلفا"[٧٥].

ولم يكد العالم يفيق من جراح الحرب العالمية الفاجرة الأولى حتى تم جره للحرب الفاجرة الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥) بتغذية الصراع بين النازية واليهود والشيوعية وإشعال حرب جديدة حصدت أرواح ٥٠ مليونا لتتفوق على الحرب السابقة في أنها أبشع مجزرة في التاريخ تحقق آمال إبليس في الحد والحط من الجنس البشري، وانتهت إلى: إعلان قيام إسرائيل، تأسيس الأمم المتحدة، وضع قوانين دولية لمنح حقوق للاجئين تذكرنا بالامتيازات الأجنبية في زمن الاحتلال بهدف توطينهم ليحكموا البلاد من داخلها، وتقسيم العالم لمعسكرين متصارعين هما الشيوعي والرأسمالي، لفترة مؤقتة، انتهت في ١٩٨٩ بإسقاط الاتحاد السوفيتي بعد أن أدى دوره في إنهاك العالم بدعم الثورات المسلحة، ليبدأ عصر القطب الواحد، وحروب الإرهاب "الديني"، وتهيأة العالم لإعلان الحكومة العالمية الواحدة رسميا.

أما الحرب العالمية الثالثة المخطط لها أن تكون الطريق إلى ظهور هذه الحكومة، وساحتها الشرق الأوسط، وسلاحها هو الجماعات الإرهابية "الدينية"، فسيتم الإشارة إلى تفاصيلها وعناصرها وأماكنها- المذكورة في "الوثيقة الكندية" عن فحوى ما دار في المؤتمر الاستثنائي "للجنة الطوارئ لحاخامي أوروبا" المنعقد في بودابس ١٢ يناير ١٩٥٢- وموضع مصر منها في الجزء الثاني إن شاء الله.

▼▼▼ الجهر بعبادة الشيطان

في عام ١٩٦٦ جهرت جماعة في الولايات المتحدة بعبادة الشيطان وتأسيس كنيس له (مجمع الشيطان) في ولاية كاليفورنيا بموجب قانون يتيح حرية الأديان في الولاية صدر في نفس السنة[٧٦].

وأصدروا كتابهم المسمى بـ"الإنجيل الأسود" يحتوي على عقيدة إبليس، وملخصها أن كل ما يرضي الله يغضب إبليس، وكل ما يغضب الله يرضي إبليس؛ ولذا فإن انتشار المذابح في الحروب والجماعات الإرهابية والفوضى الجنسية والفجور "الشذوذ الجنسي" في الإعلام، والجهر والتفاخر بالرذيلة والخيانة، واستغلال النساء والأطفال في الجرائم القذرة، واللعب في الجنس البشري عبر الهندسة الوراثية والاستنساخ، والسخرية من الرموز الوطنية والدينية هو دينهم الذي ينشرونه في كل مكان، وسيكون لمصر منه نصيبا عبر فروعهم التنظيمية وتلاميذهم الذين ينشرون هذا تحت اسم "إقامة الشريعة الإسلامية"، أو"حرية التعبير والاعتقاد".

وتطبيقا لهذا تقول الآيات القرآنية:

إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا (١١٧) لعنه الله وقال لأتخذنَّ من عبادك نصيبا مفروضا (١١٨) ولأضلنَّهم ولأمنينَّهم ولآمرنَّهم فليُبتكُنَّ آذان الأنعام ولآمرنَّهم فليُغيرنَّ خلق الله ومن

---

(٧٥)- أحجار على رقعة الشطرنج، مرجع سابق، ص ١٩٧

(٧٦)- في الدساتير الحديثة توجد عبارات مثل "المساواة التامة بين المواطنين"، والالتزام بتوفير حرية العقيدة وحق المواطنين في ممارسة شعائرهم"، وذلك دون تقييد، وهو ما يستغله أصحاب المذاهب المشبوهة لإجبار الحكومات على أن تتيح لها مساحة تواجد "شرعي".

يتخذ الشيطانَ وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا (١١٩) (النساء)[٧٧].

وفي مجامع الشيطان، المعلن منها والسري، فإن عبادتهم تسمى بـ"القداس الأسود"، يمثل الكهنة دور الشيطان، وينتهكون حرمات النساء وأجسادهن وكرامتهن بشكل لا يطاق، تنفر منه الوحوش الهائمة على وجهها في الصحاري، إضافة لذبح الصغار كقرابين للشيطان، كرمز لقتل "أدوناي"، إي إله "الجوييم"[٧٨].

ونشر بيتريم سوروكين من جامعة هارفارد كشفا لهذا الجانب في كتاب عنوانه "الثورة الجنسية الأمريكية" **The American Sex Revolution** بيَّن فيه أن السلوكيات الجنسية المنحرفة تلعب دورا رئيسيا في الحياة السياسية الأمريكية الحديثة، وأن الرشوة الجنسية والابتزاز الجنسي متفشيان بقدر تفشي الفساد المالي"[٧٩].

وبعد ٣٠ سنة من الجهر بعبادة الشيطان في أمريكا انتقلت إلى مصر عام ١٩٩٧، لتنفخ في البوق أن الخطر اقترب من مصر بقوة.

بدأت القصة في قصر البارون في القاهرة آواخر التسعينات، تحولت لقضية رأي عام ثم تجسدت في أفلام سينما قدمت للمشاهد الفواحش بما فيها اللواط والسحاق والفجور علنا ("عمارة يعقوبيان"، "حين ميسرة" كأمثلة)، واهتمت بنشر الغل والدم والقبح وتمويت الحياء والنخوة بالتمعن في مشاهد الاغتصاب والقتل والذبح (طقوس القداس الأسود وقتل أدوناي) باسم حرية الفن والتعبير، وبعد فوضى ٢٠١١ ظهرت في أثواب جديدة، على الأرض وفي الإنترنت، وحطمت عقول وقلوب عدد كبير من أولاد مصر، وما ماتت النخوة في شعب إلا مات الوطن، وسلموه كسلعة من السلع لأقرب مشتري، بل لمحل نخاسة يُباع فيه بيع الرقيق تحت أي اسم براق، مثل تشجيع الاستثمار، أو منح وبيع الجنسية والأرض للخروج من أزمة، أو لقبول الآخر وحق الاختلاف وتحقيق السلام العالمي.

▲▲▲ بلاغ الحقيقة

بحسب ما سبق، فإن تدمير العالم يكون بنزع الوطنية والدين والأخلاق منه، وتحويله إلى معسكرات وتيارات متصارعة، كل معسكر يرى أنه الأحق بقيادة العالم، ولكن الحقيقة الساخرة أنه لن يظفر أي منهم بقيادة العالم، سيهدمون بعضهم بعضا، ويحطمون البلاد، ليتسلم التنظيم الأكبر العالم بلا مقاومة.

ولذا في كتابه "الشيطان أمير العالم" يقول جي كار إنه تبين دائما أن الثورات التي وقعت في أوروبا وروسيا والحروب العالمية كان مخططا لها قبلها بسنوات طويلة، وعلى هذا فإن اللوم فيما يجري في العالم

---

(٧٧)- يغيرن خلق الله، أي تغيير فطرة الله في الجسد والأخلاق والأشكال والأدوار والعلاقات، وأن يسعى الرجل ليكون كالمرأة أو تسعى المرأة لتكون كالرجل. (تفسير الشعراوي في برنامج خواطر الشعراوي على التلفزيون المصري)

(٧٨)- الشيطان أمير العالم، مرجع سابق، ص ١٥٠

*** ومن هنا تشجيع هوليوود وشركات الإنتاج الفني حول العالم الإساءة للنساء بتقديمهن بشكل رخيص في المسلسلات والأفلام والأغاني والإعلانات، والتفنن في مشاهد اغتصابهن أو المشاهد الجنسية عامة، لأنه بموت احترام النساء في النفوس يموت احترام الأمومة والأسرة، ووقتها سيموت احترام الأرض والعرض، فيكون التسليم لإبليس سهلا.

(٧٩)- المرجع السابق، ص ١٨٩- ١٩٠

لا ينصب على الشيوعية والرأسمالية والنازية وبارونات المال العالميين وحدهم، بل ما وراء كل هذا، وهو الشيطان نفسه، والسبيل لهزيمته، هو كشف مخططاته، وعدم الإنجرار وراء دعوات الثورات المسلحة والحروب والصدامات المسلحة[٨٠].

ولذا انتقد الحكومة البافارية أنها لما اكتشفت وثيقة وشخصيات مؤامرة وايزهاوبت لم تحرق جذور الشجرة الخبيثة، بل قلمت أفرعها فقط بحبس أو حظر أو نفي أعضائها، وكان يلزم قلع الجذور وحرقها، مستشهدا بقول الإنجيل: "كل شجرة لا تضنع ثمرا جيدا تُقطع وتُلقى في النار" (متى ٧:١٩)، فوايزهاوبت وأتباعه ظلوا أحياء يبخون سمومهم ويبتكرون في سويسرا وإيطاليا وألمانيا وبريطانيا ثم أمريكا أثوابا جديدة يظهرون بها، وصحيح أن الشر لا نهاية له، لكن إذا حدث وأحرقت شجرة هؤلاء لكان ما بقي منه أهون بكثير مما تعانيه البشرية الآن، فالشر درجات.

وهذه نفس خطيئة مصر في معظم جولاتها مع الشيطان والشعوب التي دفعها الشيطان دفعا لاحتلال مصر، فلم تنتقم مصر منها الانتقام اللائق، فكم تسامحت مصر مع شعوب احتلتها وذبحتها ونكلت بها، فعادت وقبلت استيطانها في مصر، وتسامحت مع تنظيمات فرَّقت بين أبنائها كتنظيم الإخوان المسلمين، وسلمت اقتصادها لنفس من نهبوها واحتلوها وذبحوها؛ أي بيوت مال روتشيلد العالمية وإخوانه، ممثلة اليوم في صندوق النقد الدولي وتحالفات المستثمرين الأجانب وخبراؤهم ومستشاريهم ومنظماتهم الدولية، ليس كمصر دولة تقطع من تاريخها الصفحات السوداء مع أعدائها كأن لم تكن، فتظل تدور في نفس دائرة الاحتلال والتوهان أجيال ورا أجيال، ما تكاد تفوق وتتحرر من كبوة أو احتلال حتى تنزلق قدمها في وحل احتلال جديد.

وببلاغ الحقيقة الكاملة لعامة الناس، يقول جي كار، فإن معرفة الحقيقة (حقيقة وأساليب الصراع القديم المتجدد بين الخير والشر) ستجعل بالتأكيد الغالبية يشغلون أنفسهم بإنقاذ بلادهم وأرواحهم، وسوف تضع حدا للخمول واللامبالاة، وكما أخبرنا السيد المسيح، الحقيقة سوف تحررنا (روحيا) من الأغلال التي يتم شد وثاقها علينا أكثر وأكثر كل يوم بواسطة قوى الظلام الروحية[٨١].

وبالمثل يقول القرآن: فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (٩٨) إنه ليس له سلطان على الَّذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٩٩) إنَّما سلطانه على الَّذين يتولَّونه والَّذين هم به مشركون (١٠٠) (سورة النحل).

ولهذا استعرضنا ما سبق حول المسيخ الدجال وتنظيماته في هذا الكتاب، لأن هذه التنظيمات الهكسوسية باختلافاتها الظاهرية، وبأرواحها الشريرة، وهدفها النهائي الواحد، حطَّت كلها في أرض مصر الطيبة في القرن ١٩، وتوغلت وتغلغلت في القرن ٢٠ مع تغلغل الاحتلال الإنجليزي والجالياتي، وتجني الآن ثمارها خططها في القرن ٢١؛ فكان يلزم معرفة خطوط عريضة عنها لنحاول أن نفهم ونرى ماذا جرى للفلاحين، ومن يأخذهم ويفرغهم من فلاحيتهم المقدسة ليكونوا مسخا مضحكا، ومن يدير أمورهم في هذا العصر

---

[٨٠]- الشيطان أمير العالم، مرجع سابق، ص ١٥

[٨١]- المرجع السابق، ص ٩٩

الصعب المشبَّر.. ربما حينها، ربما، ننجو من الإبادة القادمة.

♦♦♦ ضياع الهدف من أهل الخير

يقول المسيح لعبيد الشيطان: "يا أولاد الأفاعي، كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار؟" (متى ١٢: ٣٤)

إن الشيطان وأتباعه بضاعتهم الكذب، قلب الحقايق، قلب الهرم رأسا على عقب، الحرية عندهم احتلال والاحتلال حرية، والظالم يسمونه عادلا والعادل يسمونه ظالما، واستقلال الدولة برأيها واقتصادها يسمونه استبدادا وتسليم نفسها للعالم يسمونه نجاحا وانفتاحا، وثورة الخير يسمونها انقلابا ديكتاتوريا، والإصلاح تخريب والتخريب إصلاح، وثورة الشر يسمونها ثورة الحرية، والنصر هزيمة والهزيمة نصر، والوطنية يسمونها عنصرية كريهة وتمكين الأجانب يسمونه احترام الآخر، حماية وحدانية الوطن يسمونها إقصاء، وتفتيت الوطن إلى هويات وطوائف وفصائل يسمونها تسامح مع حق الاختلاف.. إنه "قاموس المسيخ الدجال"، التصنيف يكون حسب ما إن كان الحدث مع أو ضد المسيخ الدجال.

فإذا كان الشيطانيون (الناريون) مكشوفون في الكتب المقدسة وكتب التاريخ القديم والحديث إلى هذه الدرجة كما رأينا فلماذا ينجحون في جولات كثيرة؟ حتى أنهم باتوا يتحدثون عن مخططاتهم علنا؟ لماذا وصلوا إلى أن سيطروا على العالم حتى وقعت في براثنهم مصر نفسها، عدوة الشيطان الأولى في العالم؟



يسار الناظر عملة أصدرها أغسطس عليها التمساح رمز مصر ومكتوب "فتح مصر" ابتهاجا باحتلال الرومان لها بعد إغراقها بالديون (المتحف البريطاني)، وعلى اليمين روتشيلد يقدم شرابا مغريا "الديون" للتمساح حتى سكر واحتلت بريطانيا مصر ١٨٨٢ (www.rothschildarchive.org) فهكذا حين تضعف ذاكرة الدولة وتنسى أساليب عدوها وتفقد هدفها تقع في نفس الفخ مرة وراء مرة

تحدى إبليس الله "قال فبعزتك لأغوينَّهم أجمعين" (سورة ص: ٨٢)، فمن هذه الجرأة يأخذ أتباع كل تنظيم عالمي جرأتهم في الباطل طالما لا يجدون نفس قوة التحدي في أهل الخير لنصرة الله وبلدهم.

أتباع التنظيمات العالمية مستمرون لأنهم يرون هدفهم النهائي، يعلمون أن كل شخص منهم جندي في الطريق الطويل إليه، ينفذ خطوة من الخطوات، ولذا لا يملون ولا ييأسون، لديهم اطمئنان أن جهودهم سيكون لها ثمرات، لأن أعدائهم (أهل الخير) لا هدف لهم، و"بيعيشو اليوم بيومه"، ولا يربطون بين

الأحداث، ولا يشعرون بأنهم في حرب دائمة مع الشر، فخطواتهم قصيرة ومشتتة، ولا يطمحون لإنجاز كبير، وإذا فازوا على الشيطان (فساد أو احتلال) في معركة أسكرتهم الفرحة، وتراخت إرادتهم، وظنوا أنهم "خلصوا على الشر للأبد" (كما حدث لمصر بعد انتصارها على قبايل شعوب البحر في الأسرة ٢٠ أو بعد انتصار أكتوبر ١٩٧٣ مثلا).

يترجم لينين هذا في قوله إنه ربما يحتاج الأمر إلى ٣ آلاف سنة قبل أن تصل الحركة الثورية العالمية إلى مرحلتها النهائية، وليقووا في نفسهم الأمل دائما ويعملوا بجد وهم سعداء وبأعصاب هادية فإن شعارهم "وحيث أنه لا يجب لأي شيء أن يجعلنا نحيد عن خطتنا المرسومة فإنه يتعين علينا أن نخوض في عملنا الذي بدأناه حديثا كما لو أن الغد سيجلب لنا النجاح"[٨٢].

ولكن هذا لا يعني أن الشيطان وألاطيشه مشيئتهم نافذة، وأن قوتهم بلا حدود، فالحقيقة أنهم ضعاف كلوح الزجاج المكسور، ومصدر قوتهم الوحيد أن أهل الخير ضعاف الذاكرة، لا يرونهم، وأحيانا إذا رأوهم يحبطون أنفسهم عن مواجهتهم ويستسلمون للأمر الواقع بحجة أنهم "مش قدهم".

أما حين يخرج من أهل الخير أصلاب قوية تعرف أن دورها وشرفها في الحياة هو محاربة الشيطان وألاطيشه، ويتبعون الأسباب، فإنهم يحققون انتصارات مدوية تهز الشر كأنه شجرة خاوية أمام العاصفة العاتية، مثلما فعل المصريون حين التزموا بأصول الخير "ماعت"، وحاربوا بها الشر وسط همجية العالم في الزمن القديم، فأخرجوا لنا أعذب وأنبل حضارات الخير، وكما حاربوه مجسدا في الهكسوس بأنواعهم قديما وفي ١٩٥٦ و١٩٧٣، وكما فاجئوا الشر في ثورات ١٨٨١ و١٩١٩ و ١٩٥٢ التي قامت ضد الشر وتنظيماته وتياراته، على عكس الثورات الإنجليزية والفرنسية والروسية التي قامت لتمكين هذا الشر وبنوكه وتنظيماته وتياراته.

ثورة ١٨٨١ (هبت في وجه بنوك روتشيلد وجيوشه وأعادت لمصر شعار مصر للمصريين ووحدت المصريين حول زعيم منهم)، ثورة ١٩١٩ (هبت وزلزلت جبيش الاحتلال الروتشيلدي، وغرست شعار مصر للمصريين في الفن والأدب والاقتصاد والسياسة والدين)، ثورة ١٩٥٢ (أتمت إجلاء جيش الاحتلال الروتشيلدي وبنوكه ومعظم جالياته، واستردت حرية قرار وأرض واقتصاد مصر للمصريين، ورفضت الشيوعية والرأسمالية والإخوان المسلمين معا).

ولذا وصف الإعلام الأجنبي الذي يديره بارونات المال ثورات مصر هذه بأنها "انقلابات ديكتاتورية على الشرعية"، أي انقلاب على الشيطان والاحتلال، فيما وصفوا الثورات الإنجليزية والفرنسية والروسية بأنها "ثورات مجيدة ونصيرة للحرية"، أي حرية الشيطان وحرية الأجانب في الاحتلال والسيطرة على غيرهم.

الخلاصة.. أهل الشر لا ينتصرون علينا لذكائهم، ولا لكثرة مالهم، ولا لعنف إرهابهم، ولكن لأنهم شعب

---

[٨٢]- الشيطان أمير العالم، وليام جي كار، ص ٢١٥ و ٢١٩

"مُخَطِط"، أي يجيد وضع الخطط والصبر عليها، وتعديلها حسب الظروف الدولية، وتوجيه الرأي العام بما يخدمها، ويحفظون تاريخهم وتاريخ غيرهم جيدا.

أما مصر- منذ ضاعت منها ماعت ووصية العهد الحارسة- فتسير بعشوائية، خطواتها مرتبكة مشتتة، خطوة لليمين وأخرى لليسار، وخطوة للخلف وأخرى للأمام، لا ترى هدفها النهائي، لا تضع هدف أساسا، لا ترى الشمس رغم أنها بنت الشمس (رع)، تتخبط في الظلام، حجبها عنها حسن نواياها بالغير، ونسيانها تاريخها ودروسه، وكثرة الاحتلالات التي رمت على عينيها التراب، ومجاملاتها الحالية لبعض الدول بحجة روابط إسلامية أو عربية أو إنسانية وسياسية، رغم أنهم جميعا لا يرعون فيها إلًا ولا ذمة، ولو وجدوا الفرصة فيها التهموها، كما فعلوا سابقا مرارا.

وعلى هذا، ستفوز مصر في هذا السباق الشرس وتحمي نفسها من الإبادة، حين تعود أمة "مُخَطِطَة".. تتذكر وظيفتها ووصية العهد، واعية بتاريخها كله متصلا لا مجزءا، وبتاريخ غيرها من الأمم، لتكون "على نور"، تعرف ماضيها الحق، ترى مستقبلها وخطط أعدائها بوضوح، وتشلها وتكسر سمها، كما فعل حور (حورس) مع الشيطان، وتسقي هذا كله لأبنائها في المدارس والغيطان والورش وكل مكان جيل ورا جيل.

في فيلم "موعد مع إبليس" (إنتاج ١٩٥٥) تخفى إبليس في شكل إنسان طيب وحنون وناجح هو د.نبيل (محمود المليجي) ليتقرب من الإنسانِ الغافل الدكتور رجب (زكي رستم) مستغلا حسن نواياه التي أعمته عن أن يشك فيه، وحرَّك فيه الطمع للمال مستغلا فقره، وجرَّه لارتكاب الخطايا ليقع أسيرا له.. ووقع- كما وقعت مصر- لكن في لحظة صحوة ضمير بداخله وغضبة (ماعت) من هذا الذل، انتفض رجب، ورفض إغراءات إبليس، فلما هدده الأخير استعاذ بالله في وجهه، وأكد إيمانه وإصراره على الخير، ألقى في وجهه بالثروة الحرام، فأفلت من إغراءاته وتهديداته... ونجا من الفخ.

"إنها [ماعت] لا تتغير ولا تتبدل منذ زمن الذي أوجدها"

(الحكيم بتاح حتب)

"إن صلاح الأرض (مصر) ينحصر في تطبيق الماعت"(٨٣)

(الفلاح الفصيح في شكواه الثالثة)

---

(٨٣)- تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

صبحت بلادنا للمغشوش مورد

وصانعها ظمآن

شرم برم.. حالي غلبان[١٣٩٧]

(١٣٩٧)- عبد الله النديم، صحية التنكيت والتبكيت، العدد ٩، بتاريخ ٧- ٦- ١٨٨١

المشهد ١٩: الاحتلال الإنجليزي

(١٨٨٢- ١٩٥٢)

(هلفتة الشخصية المصرية)

بالاحتلال الإنجليزي أصبحت مصر تأنّ تحت ٤ احتلالات (احتلال رباعي)، الاحتلال العثمانلي، والاحتلال العلوي، والاحتلال الإنجليزي، والاحتلال الجالياتي، أي من الجاليات الأجنبية الذراع القوية والسند للاحتلالات الثلاثة.

فتابعنا أنه بهذا الذراع يسيطر الاحتلال العسكري على معظم المناصب والثروة والفنون والإعلام؛ مما يساعد في استمرار إزاحة أولاد البلد عنها بحجة أنهم غير كفء، كما أن كل احتلال من الاحتلالات الثلاثة لم يكن له من جنسه جالية بأعداد تسمح له بقبض الزمام على مفاصل الحياة في مصر، فكان يستعين في ذلك بالجاليات الأجنبية المستوطنة ويمنحها الامتيازات لتكون فوق المصريين، ويستقدم جاليات جديدة.

وتبدلت الطبقة الحاكمة، وإن لم يكن هذه المرة تبدلا تاما، لم تكن عملية الكشط كاملة، لكن أضيف الإنجليز بجانب العيلة العلوية والسلطان العثمانلي، وإن كان المنتدب البريطاني هو الحاكم الحقيقي وقتها، إضافة لجعل الأوروبيين رقم ١ في المناصب، يليهم الشوام واليهود والأتراك والشركس والعربان.

♦♦♦ الجيش في الاحتلال الإنجليزي (فلاحون- إنجليز- مجنسون)

أما ما تم كشطه كاملا.. فهو الجيش المصري من أول قائده العام (أحمد عرابي) وحتى الجنود، بروح الانتقام الهكسوسية الهمجية، فقد تأكدوا أنه بوجود هذا الجيش جسدا ورأسا في يد مصريين ولائهم لبلدهم ليس إلا، فلن يبقى لكل المذكور أعلاه (إنجليز وعثمانلية وأسرة علوية وجاليات) سلطة في مصر.

❶ حرمان المصريين من رتبة ضابط

تابعنا أن أول قرار اتخذه توفيق عقب الاحتلال هو تسريح الجيش المصري الذي أظهر مقام الفلاح من جديد، وأعقب هذا إجراءات لتحويل إلى جيش لا يصل فيه الفلاح إلى مرتبة الضابط.

ويحكي تقرير بعثة اللورد دوفرين، التي جاءت عقب الاحتلال لتنظيم أمور الاحتلال في مصر، أنه تناقش

مع الخديوي وشريف باشا (تركي) حول مصير الجيش، واتفقوا جميعا على ألا يكون مصريا خالصا، وبتعبير كرومر، فإنهم باستعراض مسيرة الجيش المصري، وأن قدرته الذاتية على القتال تزداد إذا كان الجندي تحت إمرة ضابط مصري، فإنهم توصلوا إلى أن "وجود جيش مصري تحت قيادة ضباط مصريين كان أسوأ من السوء نفسه"- بالنسبة للقوة الأجنبية الحاكمة- وتشاوروا هل إذن يجلبون مرتزقة من كل الأجناس (مثلما كانت خطة نابليون لصناعة جيش في مصر حال استقر الاحتلال الفرنسي)، أم يكون من الأتراك والشركس والكرد والمشردين الذين لا مأوى لهم من حوض البحر المتوسط، أو أن يصرفوا النظر عن إنشاء جيش من الأساس ويكتفون بالقوات البريطانية.

واقترح الجنرال الإنجليزي فالنتين بيكر أنه بعد إبعاد الضباط المصريين المشتركين في ثورة ١٨٨١ التي وصفها بأنها "غير وطنية"، يجري تجنيد مسلمي البوسنة وألبانيا وبلغاريا على أن يكون الضباط من الإنجليز؛ منعا لتكرار الثورة[١٣٩٨]، وانتهوا إلى تكوين جيش، أو ما يشبه الجيش، جنوده من الفلاحين، وضباطه من العائلات الأجنبية- المجنسة فيما بعد- كالتركية والشركسية والكردية، والقيادة وكبار الضباط والقائد العام "السردار" من الإنجليز[١٣٩٩].

ويقضي الجندي ٦ سنوات خدمة، عدا ٦ أخرى يقضيها في الاحتياط أو البوليس، وبرر الإنجليز طول الخدمة بأنه لتزويدهم بالتدريب اللازم، والجهاز الإداري بكامله في يد ضباط وموظفين إنجليز[١٤٠٠]، ولم يكتفوا بذلك، فأقام دوفرين جيشا موازيا اسمه "الجندرمة" لمراقبة وقمع الجيش النظامي، أي مليشيا مسلطة على رقبة الجيش.

وبرر ذلك بأن: "إيجاد قوة مدنية موالية يمكن الاعتماد عليها عند اللزوم لقمع أولى بوادر أي ثورة عسكرية"، كما تحجج بالحاجة لها في صد غارات البدو، وأفرادها متطوعون وليسوا مجندين ليسهل فرزهم وتحديد ولاءاتهم، وجعل مرتباتها أعلى من الجنود، وتخضع لقيادة أوروبية، وجعل البوليس ١٦٠٠ شخص، وسلمه لقيادة أوروبية بدوره بحجة طمأنة الأوروبيين بعد مذبحة الإسكندرية[١٤٠١].

وفوق هذا ألغى الإنجليز التجنيد الإجباري بأن وضعوا سنة ١٨٨٦ نظام البدل النقدي للإعفاء من التجنيد للحد من عدد جنوده وتفريغه من قوميته وروحه الوطنية، فبهذا النظام صار التجنيد مختصا بالفقراء، وتحول الأمر كأنه عب وسخرة لصالح الأجنبي، وحُرمت البلاد من روح الجندية الحقة وما يستتبعها من شعور التضامن بين أبناء الوطن بتعبير الرافعي، كما حُرم الجيش من المصريين المتعلمين[١٤٠٢].

أما الشرطة، فعينوا مفتشا أوروبيا صار له الكلمة العليا على وزير الداخلية، ومفتشين إنجليز في المديريات صارت لهم السلطة الفعلية لا المديرين، وهو ما تسببت في صراع مع نوبار الأرمني، وزير الداخلية فيما

[١٣٩٨]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، د. سامي عزيز، ٢٥٨- ٢٥٩، ومصر الحديثة، كرومر، ج٢، ص ٥٦٩

[١٣٩٩]- انظر: الجيش المصري في السياسة (١٨٨٢-١٩٣٦)، عبد العظيم رمضان، مرجع سابق، ص ٣٦- ٣٩ و٧٨

[١٤٠٠]- نفس المرجع، ص ٧٨

[١٤٠١]- انظر نفس المرجع، ص٤٠- ٤٣

[١٤٠٢]- انظر: مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عبد الرحمن الرافعي، ط ٣، دار المعارف، ص ١٦٢، ومصر الحديثة،ج٢، ص ٥٧٠

بعد[١٤٠٣]، حين تفرغوا لصراع السلطات واقتسام الغنايم.

❷ إبادة الآلاف من جنود ثورة ١٨٨١

جاء في كتاب "مصر للمصريين" لسليم النقاش أن قرار حل الجيش المصري ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ "قصد به صرف العساكر التي جاهرت بالعصيان، والاكتفاء بمحاكمة الضباط وكبار قادة الجيش"[١٤٠٤].

لكن الواقع أنهم لم يكتفوا بمحاكمة الضباط وكبار القادة، والحكم عليهم بالقتل والحبس والنفي والتشريد، وإبعاد الفلاحين عن رتبة الضابط، ولكن انداروا أيضا على الجنود الفلاحين أبناء الثورة لينتقموا منهم بالتشريد والنفي والقتل الجماعي... في غابات السودان.

كتب دوفرين إلى وزير خارجية بلاده جرانفيل في ١٨ نوفمبر ١٨٨٢، أي بعد شهرين من الاحتلال، أن الجنود المصريين الذين ساعدوا عرابي وجرى تسريحهم سيجرى إرسالهم إلى السودان للتخلص منهم بالأمراض والأوبئة[١٤٠٥]؛ فلملم الجنود المسرحين وبعثهم هناك لكي لا ينشروا الفكر الوطني وحقائق ما جرى وسط قراهم.

وعن حالة الجنود لما وصلوا إلى السودان قال الكولونيل ستيوارت الذي أرسلته بريطانيا للسودان لتقديم تقرير عن الجنود فيما بين ديسمبر ١٨٨٢ ومارس ١٨٨٣: "لم يكونوا يشعرون بأن هناك واجبا مقدسا يقتضيهم الدفاع عن سلطان الحكومة الشرعي في الوقت الذي يحتل العسكر الأجنبي بلادهم، ويسود بينهم الاعتقاد بأن الخديوي إنما أرسلهم إلى السودان ليلقوا فيه حتفهم[١٤٠٦]".

وحصل فعلا ما بات يُعرف باسم "إبادة الجيش العرابي في شيكان"، أنه في نوفمبر ١٨٨٣ وفي حملة مشئومة على كردفان كان ٧ آلاف من المشاة المصريين على الأقل بين ١٠ آلاف أبيدوا بالكامل في غابة على يد الدراويش (أنصار المهدي المزعوم في السودان)، ولم ينج إلا ٦٠٠، وذلك لأن البريطانيين زجوا بهم بدون سلاح ولا تدريب في الغابات، وهي قواعد المهدي الحصينة، ورفض الإنجليز أن يبقى الجنود في الخرطوم لصد الهجوم عليها، وأصرت على أن يُلقى بهم في الغابات[١٤٠٧].

وبالإضافة إلى معارك أخرى يتبين أنه أبيد ٣٢ ألف مصري في الحلفاية والقطينة والحريف وأبو حراز والخرطوم وكسلا وستار من سنة ١٨٨٤- ١٨٨٥[١٤٠٨]، ليس عن ضعف منهم أو جبن، ولكن لتعمد عدم تدريبهم وتسليحهم بما يكفي ورميهم في غابات مجهولة، واختيار الضابط الغير كفء هكس قائدا، وهذا الرقم يعني أن عملية التجنيد لم تتوقف، فكلما أُبيد آلاف يرسل الخديوي توفيق والبريطانيون آلافا أخرى،

[١٤٠٣]- انظر: مصر الحديثة، اللورد كرومر، ج٢، مرجع سابق، ص ٥٧٧- ٥٨٨

[١٤٠٤]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، د. سامي عزيز، مرجع سابق، ص ٢٥٨

[١٤٠٥]- انظر: الجيش المصري في السياسة (١٨٨٢-١٩٣٦)، مرجع سابق، ص ٥٤

[١٤٠٦]- نفس المرجع، ص ٥٥

[١٤٠٧]- انظر: المرجع السابق، ص ٥٣- ٥٧

[١٤٠٨]- انظر: راجع إحصائيات عدة معارك في نفس المرجع ص ٦٠- ٦٣

وكأن هدفهم إبادة أكبر كم من الشباب المعروف أنه كان في ثورة ١٨٨١.

وفي بعض المعارك التي يلزم فيها انسحاب الجنود، كانت بريطانيا تصدر لهم الأوامر بالانسحاب دون غطاء يحميهم، وترفض إرسال المدد والنجدة لهم، فأبيد جراء ذلك أعداد كبيرة، بما فيهم نساء وأطفال كانوا مع مصريين مقيمين هناك ضمن الجيش.

يقول الرافعي: "وكان غرض الإنجليز من إنفاذ هذ الجيش هو التخلص منه في حروب السودان، وقد تم لهم ما دبروه، إذ أبيد معظمه في واقعة شيكان"، وفيما بعد علق الجنرال جوردون: "كلما فكر إنسان في فداحة الخسائر في الأرواح في السودان منذ سنة ١٨٨٠ لا يمتنع عن أن يتمنى إعدام السير أوكلن كولفن والسير إدوار ماليت والسير شارلس ديلك"[١٤٠٩]، إنه مدبحة دنشواي العظمى، فصل من فصول إبادة الإنجليز للهنود الحمر في أمريكا، فصل ما زال يقطر دما من عروق الفلاح لا يراه المصريون، حجب أخباره عنهم وقتها سيطرة الاحتلال الحديدية على الصحافة، فمرت المذبحة العظمى دون ثورة أو غضب يليق بضخامة الحدث.

في المقابل، فإنه عندما احتاجت بريطانيا تشديد قبضتها على السودان، لجأت هذه المرة إلى تسليح الجنود المصريين وتدريبهم لتوفر لهم أسباب النصر، ففي سنة ١٨٩٦ ومع الزحف الطلياني والفرنسي على أفريقيا قررت استعادة السودان كاملة، واستعادته فعلا سنة ١٨٩٩ كاملا الجنود المصريين الذين رفضت نجدة إخوتهم قبل ذلك.

وأثارت عمليات المصريين حينها إعجاب الإنجليز أنفسهم، فقد هزم المصريون عبد الرحمن النجومي بشكل ساحق في عدة معارك منها طوشكي أغسطس ١٨٨٩، وقتلوا ١٢٠٠ شخصا وأسرو ٤١ آلاف آخرين مقابل ٢٥ شهيدا مصريا و١٤٠ جريحا، وأزالوا خطر كوش (الاسم القديم للسودان وما ورائها في التاريخ المصري القديم) عن مصر لأول مرة منذ ١٨٨٥، فعلق كرومر حينها بأن الانتصار أعطى الثقة للجيش المصري وللشعب المصري ولأوروبا[١٤١٠].

ومما شجع الإنجليز على إعادة تسليح الجيش في هذه المعارك أنهم ظنوا أنه لم يعد هناك حركة وطنية يخشونها بعد أن قاموا بتصفية من شاركوا في الثورة، غير أنهم أبقوا على الجيش المصري بأسره (تقريبا) في السودان حتى لا تؤدي "استعادة الثقة بالنفس" إلى التفكير مجددا في الثورة على الاحتلال[١٤١١].

وشارك المصريون في حرب جديدة في السودان سنة ١٩١٦ لصد حركة السلطان دينار، واحتلوا دارفور وقضوا على دينار، فاضطر حاكم السودان الإنجليزي أن يشيد بالمصريين في احتفال رأس السنة الهجرية ١٣٣٥ هـ- ١٩١٦م بأنه يسجل "بمزيد من الفخر والإعجاب الخدمة العظيمة التي قام بها الجيش المصري

[١٤٠٩]- مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عبد الرحمن الرافعي، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ص ١٦٠- ١٦١، وتفاصيل في: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، ط٤، ص ١٦- ١٨

[١٤١٠]- انظر: الجيش المصري في السياسة (١٨٨٢-١٩٣٦)، مرجع سابق، ص ٧٦

[١٤١١]- انظر: نفس المرجع، ص ٧٦- ٧٧

وضباطه البواسل في دارفور رغم الصعاب العظيمة التي كانت تعترضه من رمل وقلة مياه وصعوبات جبلية"[١٤١٢].

أما مستقبل الجيش بعد هذا التاريخ، ومالذي أجبر الإنجليز وأسرة محمد علي على قبول دخول الفلاحين إلى الكلية الحربية والتخرج كضبابط بداية من ١٩٣٦، فسنعرفه في الكلام عن نتايج انتفاضة ١٩٣٥.

♣♣♣ السكان وتعريف المصري في الاحتلال الإنجليزي (الرباعي)

حتى الاحتلال الإنجليزي ظلت كلمة "فلاح" هي الفيصل بين المصري الحقيقي الذي لا يعرف له أصل- أو لا يريد أن يعرف- إلا الأرض وبين المستوطنين المتمسكين بأصول أجنبية دخيلة في المعاملات بين الناس وبعضها، يعرفون بعضهم بشكل أصدق مما تنطق به الأوراق الرسمية.

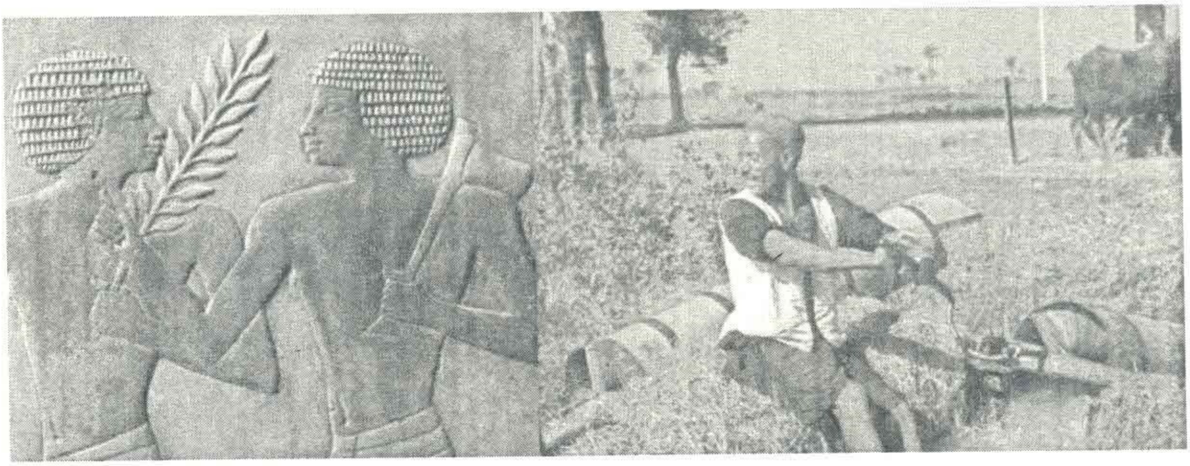
وفي ختام هذه الرحلة الطويلة المرهقة مع الاحتلالات الطويلة للبحث عن مصر الحقيقية وأبنائها، نقرأ هذه الكلمات لباحث يبدو أنه مر برحلة شبيهة بها، وهو هنري حبيب عيروط الذي يسجل في كتابه "الفلاحون" الصادر أول طبعة ١٩٣٨ بعد جولته بين الورق في كتب التاريخ والرحالة وبين الفلاحين في جولاته على الأرض بين القرى المصرية: "نحن نعرف يقينا أن سكان مصر الحاليين الفلاحين منهم على الأقل ينحدرون من المصريين القدماء من عهود الفراعنة، ويتصل نسلهم بدون انقطاع مدة خمسين قرنا لم يختلطوا خلالها بالأجناس الأخرى تقريبا"، ورغم استيطان العربان على حواف القرى إلا أن الامتزاج كان محدودا، و"الفلاحون، وسكان الريف على الأخص، يحتفظون بملامحهم وأشكالهم التي تميزهم على العناصر المتعددة الآتية من مختلف بلاد الشرق الأدنى"، وإن "الفلاحين يزيد عددهم عن ثلاثة أرباع مجموع السكان، فهم بهذا العدد، وبما هم عليه من وحدة العنصر وأصالته يعتبرون هم الأمة نفسها، لا طبقة من طبقاتها الاجتماعية، هم الأمة بخصائصها ومميزاتها القومية، تلك الأمة التي أنتجت أول حضارة عرفها التاريخ".

ويتابع: "إن هذا الشعب العظيم، خلدت صفاته ومميزاته، ومضت الأجيال وهو هو لم يتغير من صفاته شيء، رغم ما تعاقب فوق أرضه من حكام وديانات وثقافات ومدنيات ولغات منذ عصور الفراعنة"، ورغم توالي الفرس والإغريق والرومان والعرب والترك والفرنسيين والإنجليز إلا أن "قوة الأمة وأصالتها كانت أقوى من الزمن، وأصلب من أحداثه"، وأنه رغم الصراعات التي جاء به محتلوه إلا أنه كان "هادئا ثابتا كقاع البحر تحت الأمواج الثائرة"، ورغم أن كثرة الصراعات والاحتلالات أبادت أو حولت تركيبة وجنس بلاد كثيرة حوله (ويضرب أمثلة)، إلا أن "مصر من بين جميع البلاد حدث لها ما حدث لغيرها [من احتلالات وصراعات]، ولكن شيئا من ثبات الطبيعة وعمق الكيان في مصر وفلاحها لم يمسه التغيير والتحول.. لقد كان الفلاح يصمد للأحداث التي تجري حوله، ويقهرها بثباته، ويصبر لها حتى تمر وتنتهي وهو ثابت ثبات الصخر، وكم بادت شعوب وانقرضت ولم يبق منها إلا الأطلال (....) لكن الفلاح المصري

(١٤١٢)- انظر نفس المرجع، ص ١٢٤٠ ١٢٥

ظل يتحدى الزمن ويغالب أحداثه، ويصارع عوامل الفناء والانقراض فيصرعها ويبقى هو شامخ الكيان على مر الأجيال".

فإن "تفاصيل حياته اليومية كما تدل عليها نقوش المقابر الفرعونية أو الأساطير القبطية أو كتابات مؤرخي العرب أو المعلقون والسواح الأوروبيون يخيل إلينا أنها حلقات من سلسلة أو فصول من كتاب واحد، وإن هذه الأزمان التي تفصلها عن عصرنا لم تؤثر في أشكالها أو تغير من ملامحها"، وإننا "لنلمح الفلاح المعاصر نفسه في عاداته وكثير من تقاليده من خلال الصور التي يرويها هيرودوت وتيودور الصقلي وسترابون والمقريزي وفانسيلت والأب سيكار وفولنييه وغيرهم، الفلاح القديم الذي يتحدث عنه هؤلاء هو فلاح اليوم، بدون تطور أو تحول"، وليس هذا في صفاته الأخلاقية وعاداته وتقاليده فقط، بل في جنسه أيضا "وهنا يخطر لنا هذا السؤال وهو: كيف حدث هذا الثبات الجثماني وذلك التوازن النفساني والاجتماعي، وهذا السمو المعنوي العجيب لشعب من الشعوب، والجواب على ذلك هو أثر الأرض المصرية والبيئة المصرية.. نعم هذا هو الجواب على ذلك السؤال".



بينهم ٣٥٠٠ سنة، نفس الملامح، نفس العزم، نفس عذوبة البسمة وسماحة الوجه، والغصن الأخضر الذي لم يسقط منه أبدا (النقش المصري القديم من معبد الدير البحري، والصورة الحديثة من الإنترنت)

وإضافة للتفسير الجغرافي يضيف هنري عيروط تفسيرا آخر لكلمة أثر الأرض المصرية وهو التصاق الفلاح بأرضه: "والفلاح بحكم وضعه الغريب بين المالك والأرض، يجد نفسه بين المطرقة والسندان، ولكنه أقرب إلى الأرض منه إلى الملاك، وكلما ألحت عليه ضربات المالك ازداد لصوقا بالأرض"، وحصل ما يقوله سولي برودوم "زواج سابق على التاريخ بين شعب وحقل قد صنعا نفسيهما فيما بينهما"، وانعكس هذا على ثبات ما بين الفلاحين المصريين من أقصى مصر لأدناها "من تناسق وتجانس وخصوبة" مثل الأرض المصرية الملتصقين بها وذات صفات واحدة على طول امتدادها على ضفتي النيل.

وبجانب الالتصاق بالأرض ومنهة الزراعة وجغرافية مصر، أرجع أسباب عيروط احتفاظ المصريين الحقيقيين بوجودهم أغلبية إلى نفور الفلاحين من الزواج من البدو والأجانب عموما، ويرونها "فضيحة"، كما أن البدو والأجانب تعالوا في الزواج والاختلاط التام بالفلاحين، فلم يحصل إلا نادرا، إضافة إلى عامل الخصوبة وكثرة الإنجاب بين الفلاحين، وقلة أعداد المهاجرين مقارنة بعدد المصريين، وتفضيل الغزاة

والمهاجرين العيشة في المدن لا في الريف "وعلى هذا فالعنصر المصري يحافظ دائما على سلامته بين الأقباط والمسلمين على السواء"(١٤١٣).

وربما سبب آخر يضاف إلى ما عدده هنري عيوط، وهو الأمية، أي احتفاظ الفلاحين بأميتهم المغلقة على مدرستهم الكبرى مما توارثوه من حكمة وعادات وأخلاق ومعارف، ولم يختلطوا بثقافات محتليهم إلا نادرا؛ ويقوي هذا الفرض التغير المخيف الذي بدا في الشخصية المصرية جسمانيا وأخلاقيا حين خرجت من أميتها الريفية لتتعلم، لا لتتعلم هويتها ومصريتها، ولكن تتعلم ثقافات أجنبية تركها محتلوها، وتقبل على الزواج بالأجانب، فبدأ التحول الكبير الخطير من الشخصية المصرية الفلاحية إلى الشخصية "المرقعة"، في النصف الثاني من القرن ٢٠ وحتى اليوم.

ونلقي نظرة على تعدادات السكان في عصر الاحتلال العلوي والإنجليزي، لتتبع أعداد المصريين والمستوطنين الأجانب، ومراحل تغير تعريف المصريين في الأوراق الرسمية أيام الاحتلال.

أجرت الحكومة ٧ إحصاءات للسكان زمن الاحتلال الإنجليزي، سنذكرها ببعض التفصيل لأهميتها في معرفة طبيعة سكان مصر بعد ٣ آلاف عام من الاحتلالات والهجرات، وهل حقا ذابت الهجرات جميعا في مصر أم ظل كثير منها منفصلا عن أولاد البلد ليحصدوا المزايا التي يهبها المحتل للأغراب ويحموا أنفسهم من الأعباء المفروضة على أولاد البلد كالعونة والسخرة والعمل الشاق والضرايب الفاحشة والحرمان من المناصب العليا.

١ (تعداد ١٨٨٢)

أول تعداد جرى سنة ١٨٨٢، وأصدرته الحكومة في كتاب بعنوان "الكشاف للديار المصرية وعدد نفوسها"، وبلغ السكان ٦,٨٠٦,٣٨١ نفسا، أي حوالي ٧ مليون، منهم:

٦,٤٦٩,٧١٦ أهالي مقيمون

٢٤٥,٧٧٩ عربان (قبائل) مقيمون ورحل

٩٠,٨٨٦ أجانب

وكان الحال على ما هو عليه في السابق، وهو أن الأغلبية الكاسحة من السكان هم المصريون "أولاد البلد"، ويتركزون في الأرياف والمديريات، وبعضهم في القاهرة والإسكندرية، أما الأجانب من كذا جنسية فيتركزون في القاهرة والإسكندرية ومدن قناة السويس، والعربان على أطراف القرى والمدن.

ويلاحظ في هذا الإحصاء أن أكثر المحافظات سكانا لم تكن القاهرة، بل الدقهلية في الوجه البحري،

(١٤١٣)- الفلاحون، هنري حبيب عيروط، ترجمة محيي الدين اللبان ووليم داوود مرقص، المركز القومي للترجمة، ص ٣٥- ٤١، و ١٥٢- ١٥٤

٥٨٦,٠٣٣، ثم مديرية جرجا في الوجه القبلي، ٥٧٨,١٤٤، فيما بلغت القاهرة ٣٥٢,٤١٦- مذكورة في الإحصاء باسم مدينة مصر المحروسة وليس القاهرة- وهو ما يعني أن عدد الفلاحين أي أولاد البلد المتمركزين في الأرياف كان الغالبية الكاسحة[١٤١٤].

❷ (تعداد ١٨٩٧)

ثاني الإحصاءات جرى في يونيو ١٨٩٧ وبلغ سكان مصر ٩,٧٣٤,٤٠٥ نفسا؛ أي بزيادة حوالي ٣ مليون عن السابق، وهو أكثر تفصيلا من سابقه، لأنه شمل إحصاء السكان على أساس الجنسيات والديانة والمذاهب والمهن والذكور والإناث، وقسم السكان إلى مصريين وعربان وأجانب.

واستخدم كلمة "مصريين"، بعد أن استخدم الإحصاء الذي جرى في إحصاء ١٨٨٢ كلمة "أهالي مقيمون"، ولكنه قسم كلمة مصريين إلى ٣ أقسام: مصريون أصليون + رعايا الدولة العثمانية (أتراك، شوام، عرب، مغاربة، أرمن، يونان إلخ) + العربان.

١- المصريون الأصليون، وهم من وصفوا نفسهم في التعداد بأنهم مصريون ولم ينسبوا أنفسهم لأصل آخر: ٨,٩٨٠,٢٧٨ بنسبة ٩٢,٢٥ %.

٢- العربان المستوطنون والرحل: ٦٠١,٤٢٧ بنسبة ٦,١٨%.

٣- الأتراك ورعايا الدولة العثمانية من شعوب عربية وغير عربية: ٤٠,١٢٦ ألفا بنسبة ٠,٤١%.

أما من صنفهم على أنهم أجانب فهم: الأوروبيون والأمريكيون والروس والجنسيات العربية وغير العربية التي يعتبرونها رعاياهم بموجب الامتيازات الأجنبية الممنوحة لهم: ١١٢,٥٧٤ بنسبة ١,١٦ %.

وفي هذا الإحصاء يُلاحظ أن القاهرة- لأول مرة- تصبح الأكثر عددا في السكان بين المحافظات؛ لكثرة الهجرة من الأرياف للعمل في المصانع والمشروعات الجديدة وتحتاج أيدي عاملة رخيصة الأجر، مع زيادة الهجرات الأجنبية إليها أيضا[١٤١٥].

كما يُلاحظ زيادة كبيرة في الأوروبيين والعربان لاستمرار الإنجليز في فتح حدود البلد بلا ضوابط، وجرى تعريف العربان في الإحصاء كـ"مصريين" لأول مرة.

❸ (تعداد ١٩٠٧)

الإحصاء الثالث جرى سنة ١٩٠٧، وبلغ مجموع نفوس الديار المصرية ١١,١٨٩.٩٧٨ بزيادة مليون ونصف عن الإحصاء السابق، وصدر تفصيل ذلك في كتاب "تعداد سكان القطر المصري لسنة ١٣٢٥

[١٤١٤]- الكشاف للديار المصرية وعدد نفوسها، نظارة الداخلية إدارة التعداد، تعداد السكان ١٥ جمادي الثاني ١٢٩٩ هـ (٣ مايو ١٨٨٢ م)، ج ٢، مكتبة قصر عابدين المودعة حاليا بدار الكتب.

[١٤١٥]- لمزيد من المعلومات انظر تعداد سكان القطر المصري ١٣١٥ ه/ ١٨٩٧ م، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية، القاهرة، ١٨٩٧، ص ١١- ١٣، مودع بدار الكتب، وتعداد سكان القطر المصري، نظارة المالية إدارة التعداد لسنة ١٨٩٧، ص ١٢- ٢٥، مودع بدار الكتب

هجرية - سنة ١٩٠٧ ميلادية".

وصنف السكان هذه المرة إلى مصريين (وقسمهم إلى وطنيين- أي أهل البلد الأصليين- وإلى عربان، وعثمانيين (أتراك وسوريون وحجازيون وأرمنيون وسودانيون إلخ)، ثم الجاليات الأوروبية: إنجليز، فرنساويون، يونانيون، إيطاليون، نمساويون، ألمان، بلجيك، إلخ، وظل المصريون الأصليون (الوطنيون) كالعادة هم الغالبية الكاسحة، وجاء فيه:

- الوطنيون: ١٠,٣٦٦,٠٤٦

- العربان المقيمون: ٥٣٦,١٣٦

ولم يتناول الإحصاء العربان الرحل ولكن نقل عن العمد تقديرهم بـ ٩٧,٣٨١

- العثمانلية من عدة أجناس: ١٣٠,٩٢٧

- الأجانب (أوروبيون وأمريكيون وروس إلخ ورعاياهم): ١٥٨,٨٥٦

ويُلاحظ في هذا الإحصاء زيادة اليونانيين والإيطاليين والعثمانيين للضعف مقارنة بالإحصاء السابق، فيما ظل عدد العربان والإنجليز والفرنسيس شبه ثابت[١٤١٦].

④ (تعداد ١٩١٧)

بلغ السكان: ١٢,٧١٨,٢٥٥، بزيادة مليون ونصف فقط عن السابق، رغم مرور ١٠ سنوات.

وهو أول تعداد بعد استقلال مصر عن السلطنة العثمانلية، وفيه اتخذ تصنيفا جديدا لسكان مصر، فصنفهم إلى رعايا الحكومة المحلية، ورعايا الحكومة العثمانلية، ورعايا الحكومة البريطانية، ورعايا الحكومة الفرنسية، ورعايا الحكومة الإيطالية، ورعايا الحكومة الأمريكية، لكثرة الامتيازات الأجنبية التي حصل بموجبها مستوطنون على رعوية حكومات أجنبية من غير بلادهم، وجاء فيه:

١- رعايا الحكومة المحلية، وهم معظم السكان (١٢,٣١٢,٣٠٦) وقسمهم إلى: (مصريون، وعرب، وبدو، وأرمن، ويونانيون، وأتراك، وسوريون، وسودانيون، ويهود، وبرابرة، وجنسيات أخرى، والمقصود بهم المسئولون أمام الحكومة المصرية ولا يدخلون في تبعية حكومات أجنبية)

المصريون: ١١,٠٢٦,٩٠٢

عرب: ٣٨,٧٧٦

(١٤١٦)- لمزيد من المعلومات انظر تعداد سكان القطر المصري في سنة ١٣٢٥ هـ- سنة ١٩٠٧ م، نظارة المالية، المطبعة الأميرية بمصر، ١٩٠٩، مودع بدار الكتب

بدو: ٤١٧,١٣٤

أرمن: ٣,٤٩٤

يونانيون: ١٧,٦٢٢

برابرة: ٧٠,٤٤٧

إسرائيليون (أي يهود): ١٤,٤١٧

سودانيون: ٣٦,٩١٧

أتراك: ١٧,٩٠٣

جنسيات أخرى: ٩,٤٩٤

ويُلاحظ هنا أن المصريين لهم الغلبة الكاسحة، يليهم البدو (العربان) ثم العرب (أبناء الجزيرة العربية) والسودانيون فالترك واليونانيون كالشذرات.

٢- رعايا الحكومة البريطانية، أي حكومة الاحتلال، وهم: (بريطانيون، أستراليون، إسرائيلون، كنديون، مصريون، يونانيون، مالطيون، هنود، إلخ) ٢٤,٣٥٤، والبريطانيون منهم ٩,٠٤٢ فقط والباقون وهم الأغلبية أتباع.

٣- رعايا الحكومة الفرنسية (فرنسيس، جزائريون، إسرائيليون، مراكشيون، سوريون، تونسيون، مصريون، إلخ) ٢١,٢١٠، بينهم ٨,٨١٦ فرنسيا فقط والأغلبية من الأتباع.

٤- رعايا الحكومة الإيطالية (إيطاليون، يونانيون، إسرائيليون، أريتريون، طرابلسيون، مصريون إلخ) ٤٠,١٩٨ بينهم ٣٢,٥١٩ إيطاليا والأقلية من الأتباع.

ودخول مصريين ضمن أتباع حكومات أجنبية ناجم عن وجود أجانب حصلوا على الجنسية المصرية واحتفظوا بتبعيتهم لقنصلية البلد الأصلي، أو مصريين اختاروا تقديم خدمات للقنصليات الأجنبية مقابل أن تظللهم بمظلة الامتيازات الأجنبية وكأنهم أجانب، وأصبحوا على حس هذا من ذوي الثروات الطائلة.

٥- رعايا الحكومة العثمانية (أتراك، عرب، سوريون، أرمن ويونانيون، إسرائيليون، إلخ) ٣٠,٢٩٧، بينهم ٨,٤٩١ تركيا فقط، والأغلبية من الأتباع.

٦- رعايا الحكومة الأمريكية: ٥١٤ فقط

٧- اليونانيون: ٥٦,٧٣١

٨- جنسيات غير تابعة لحكومة معينة وهم: (عرب وحبش ومجريون وبلجيكيون ودنماركيون وبلغاريون، وفرس، وروس) إلخ ومعظم هؤلاء أعداد قليلة ما بين عشرات أو مئات لكل جنسية[١٤١٧].

وفي الإجمال، إذا طرحنا مجموع المصريين من إجمالي السكان، سيظهر أن عدد المصريين ١١,٠٢٦,٩٠٢، مقابل ١,٧٩١,٣٥٣ لبقية الأعراق والجنسيات، أي ١١ مليون مصري مقابل نحو مليون و٨٠٠ ألف خليط أجنبي من العرب والعجم، وهو فارق شاسع يجعل الخليط الأجنبي عدديا غير مؤثر رغم أنه أعلى عدد للأجانب عرفته مصر في تاريخها، ولكنه صار مؤثرا لأنه المتصدر للثروة وتملك الأراضي والمناصب والسكن في واجهات المدن، والتعليم، والمالك للسلاح، والمتملك الأكبر للصحافة.

ولكن كما جاء في رواية "خان الخليلي" لنجيب محفوظ:

"ألا تعلم أن رعاع الغزاة انتهبوا في الماضي أراضينا بحكم الغزو؟ وها هم أولاء يكونون طبقة عالية ممتعة بالجاه والسؤدد والامتيازات لا حصر لها".

5 (تعداد ١٩٢٧)

السكان ككل: ١٤,١٧٧,٨٦٤ بزيادة ٢.٥ مليون نسمة عن الإحصاء السابق.

وقسم السكان بنفس تقسيمة إحصاء ١٩١٧، أي رعايا الحكومة المحلية، ورعايا الحكومة البريطانية، ورعايا الحكومة الفرنسية والإيطالية والأمريكية ويونانيون إلخ، ولكن اختفى التصنيف الخاص بـ "رعايا الدولة العثمانية"، وذلك لزوال السلطنة العثمانية سنة ١٩٢٣، وظهرت تركيا، فلم يعد اليونانيون والأرمن والشوام مثلا من رعاياها، فحل محل هذا التصنيف بند "أتراك"، وألحق بتصنيف الأجانب.

ورعايا الحكومة المحلية بلغوا ١٣,٩٥٢,٢٦٤، والمصريون منهم ١٣,٥٧٢,٢٥٢، فيما الرعايا غير المصريين من عرب وأتراك وسوريين وسودانيين ويونان وأرمن إلخ بلغوا ٣٨٠,٠١٢ شخص.

واختفى عمل تصنيف خاص للعربان، فيما ظهر تصنيف "عرب" ضمن رعايا الدولة المصرية من الأجانب، وبلغوا ١٨١,٩٤١ ألفا.

وبلغت جملة التبعيات الأجنبية الأوروبية والآسيوية والأمريكية والأفريقية من كل الجنسيات بمن فيهم الأتراك ٢٢٥,٦٠٠ نسمة[١٤١٨]، وإذا أضفنا هذا العدد على عدد رعايا الدولة المصرية من غير المصريين بلغ عموم الأجانب من كل الجنسيات ٦٠٥,٦١٢، في تراجع حاد لعددهم عن التعداد السابق.

وملاحظة هامة في ذلك الإحصاء، أن المصريين ما بين عمر ٥٠- ٦٠ عاما بلغ ٧٥٣,٣٦٤ أي ثلاثة أرباع المليون فقط من جملة الـ ١٣,٥ مليون مصري، وهو مؤشر محزن لأنه يعني أن معظم المصريين

[١٤١٧]- الأرقام السابقة للمصريين والأجانب من كتاب تعداد السكان لعام ١٩١٧، إصدار وزارة المالية، الجزء الثاني، الجدول الثامن، مكتبة جهاز التعبئة العامة والإحصاء، ص ٥١٩- ٥٣٠

[١٤١٨]- تعداد سكان القطر المصري لسنة ١٩٢٧، وزارة المالية، مكتبة جهاز التعبئة العامة والإحصاء، جدول ٢٦ و ٢٨، ص ١٩٣- ٢٣٤

كانوا يتوفون قبل بلوغ الـ ٥٠ عاما.

6 (تعداد ١٩٣٧)

بلغ عدد السكان ككل ١٥,٩٢٠,٦٩٤ بزيادة مليون وثلاثة أرباع المليون عن الإحصاء السابق.

ورعايا الدولة المصرية بلغوا ١٥,٧٣٤,١٧٩، المصريون منهم ١٥,٥٣٨,٧٠٨، وبقية العدد البالغ ١٩٥,٤٧١ ألفا موزع على الرعايا الأجانب بين الأتراك ١٦,٣٨٨ والسوريون ٣٠,٢٧٤ والعرب (أهل الجزيرة العربية) ٧٧,٦٨٧ والسودانيون ١٣,٠٥٥، وجنسيات أخرى بأعداد أقل.

أما تبعيات الحكومات الأجنبية (بريطانيون، أتراك، فرنسيون، إيطاليون، يونانيون، يهود، سوريون، فلسطينيون، سودانيون، عرب إلخ) فبلغت ١٨٦,٥١٥ بنقص حوالي ٤٠ ألفا عن الإحصاء السابق.

وإذا ضممنا عدد رعايا الحكومات الأجنبية إلى الأجانب من رعايا الحكومة المصرية فيصير عدد كافة الأجانب في مصر وقتها ٣٨١,٩٨٦ ألفا.

وظهر تدني عدد الأجانب في المحافظات حتى أنه في محافظة المنيا مثلا لم يكن بها من الأجانب (بما فيهم من أتراك وأوروبيين ويونان وسوريين وسودانيين وعرب إلخ) سوى ١٠٩٢ وفي سوهاج ٢٥٩، وقنا ٥٣٣، وفي الوجه البحري بلغ في المنوفية مثلا ٤٩٢، وفي الغربية (كانت تضم الغربية وكفر الشيخ) ٢٩٨٦، أما تركيزهم الأكبر فظل في الإسكندرية فبلغوا ٨٨,٣٥١ و القاهرة ٦٠,٨٣٢ ومدن القناة الثلاثة ٢١,٧٧٧.

وفي هذا الإحصاء اختفى- لأول مرة- تصنيف كلمة يهودي وإسرائيلي فيما يخص الجنسيات، وصار اليهودي يُذكر بالجنسية الملحق بها[١٤١٩]، فطوال التاريخ وحتى ١٩٢٧ كان اليهود يعاملون كجنسية مستقلة بنفسهم، فقط يُقال يهودي، لا يُنسب لمصر ولا إيطاليا ولا فلسطين ولا تركيا إلخ، وهم راضون بذلك ولذلك لا يجوز احتسابهم حينها مواطنين أو من جملة أهل البلد.

ويلاحظ استمرار تراجع عدد الأجانب في هذا الإحصاء بفضل مساعي الحكومة تطبيق مبدأ ثورة ١٩١٩ "مصر للمصريين" ودستور ١٩٢٣ الذي نص على قصر الوظائف على المصريين، ومساعي إلغاء الامتيازات الأجنبية، وإن كان هذا تم بالتدريج البطئ، ومقدمات الحرب العالمية الثانية التي دفعت بريطانيين وفرنسيين ويهود إلخ للرحيل خوفا من غزو الألمان لمصر، وكان هذا الرحيل خير لمصر، إضافة لدخول بعض الأجانب في الجنسية المصرية بموجب قوانينها سيئة السمعة.

7 (تعداد ١٩٤٧)

بلغ عدد السكان ككل ١٨,٩٦٦,٧٦٧ بزيادة ٣ مليون عن الإحصاء السابق.

[١٤١٩]- تعداد سكان القطري المصري لسنة ١٩٣٧، ج٢، الجدول ٢٨ و٢٩، وزارة المالية، مكتبة جهاز التعبئة العامة والإحصاء، ص ٢١٧- ٢٤٧

وذكر الإحصاء أن هذا الإجمالي لا يشمل العربان الرحل المقدر عددهم ب ٥٥٠٧٣ ألفا.

وهذا الإجمالي صنفه التعداد إلى مصريون بلغوا ١٨,٨٢٠,٨٥٢ نسمة، فيما الأجانب (عرب وعجم) ١٤٥,٩١٢ نسمة، وبذلك يكون نقص المصنفون أجانب إلى أقل من النصف مقارنة بالتعداد السابق الذي بلغ فيه الأجانب ٣٨١,٩٨٦ ألفا[١٤٢٠]، ويعود هذا أيضا لفرار أجانب من وجه ألمانيا وإيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية، وتراجع الامتيازات الأجنبية وزيادة إجراءات التمصير.

ونلاحظ أنه بداية من إحصاء ١٩١٧ توقف تصنيف المصريين إلى "وطنيين" أو "أصليين"، وأعراق أخرى كالعربان، والعثمانلية (أتراك وسوريون وحجازيون وأرمنيون وسودانيون إلخ)، بل اعتبرهم عرق واحد أو تصنيف واحد وهو "مصريون"، أما العثمانلية من الأعراق الأخرى ولم يتجنسوا بالجنسية المصرية فجرى تصنيفهم كرعايا أجانب، منهم ما يتبع رعوية الدولة المصرية ومنهم من يتبع دول أجنبية.

♦♦♦ جنسيات الاحتلال الجالياتي

وبعد حصر الأعداد، تستحق الجاليات في عصر الاحتلال الإنجليزي أن نفرد لها مساحة خاصة بتصنيف كل جالية؛ لما أحدثته من شروخ ما زالت تتسع في الجسد المصري بما نزحته من أموال، وبما زرعته من تيارات "النتش والنعكشة" (تيارات ومذاهب دينية وسياسية وثقافية هدفها فشكلة الهوية المصرية)، وما نشرته وأدخلته لمصر من جرائم وعادات ما زالت أنيابها تنهش في جسد الأمن بمصر.

ونعرضها هنا مع نبذة تاريخية عن تسلسل وجودها في مصر تلخيصا لما ورد عنها في الفصول السابقة لتكتمل الصورة.

❶ (اليونانيون)

اشتهروا باسم "الأروام" لكونهم الجالية الأجنبية الأكثر عددا وقت الاحتلال الروماني لمصر، وهو لفظ ظل يميزهم عن بقية الأوروبيين الذين عرفهم المصريون بـ"الفرنجة"، واشتهروا أيضا باسم "جريجي".

وكما تابعنا في العصور السابقة ظهر اليونان في مصر لأول مرة كجالية زمن الاحتلال الخاسوتيمي كتجارومرتزقة،وفي زمن الاحتلال اليوناني صاروا الأكثر غنى في البلاد، واحتكروا الإسكندرية ونقراش (نوكراتيس) والمنشاة (بطلمية) وخصوها بامتيازات وجنسية لهم استمروا محتفظين بمعظمها زمن الاحتلال الروماني، ولما ثار المصريون ضدهم عدة مرات أعملوا فيهم السيف، ولما أزاح الاحتلال العربي الرومان رحل بعضهم عن مصر وبقي آخرون للعمل في الدواوين مع العرب والتجارة، ولعل لهم نصيب فيما عرف

(١٤٢٠)- التعداد العام للسكان لسنة ١٩٤٧، ج٢، وزارة المالية والاقتصاد (مصلحة الإحصاء والتعداد)، جداول أرقام ١ و٣٦ و٣٧ ص ٢ و٣٦٦-٣٧٣، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٣، مودع بدار الكتب

بـ"قبط الدواوين"، ومنهم من انزوى على نفسه.

وطوال الاحتلالات التالية توقف قدوم اليونانيين إلى مصر، ولم يظهر لليونانيين جالية جديدة إلا زمن الاحتلال العثمانلي الذي جلب يونانيين معه إلى مصر بعد أن احتل اليونان وصار اليونانيون من الرعايا العثمانلية، وانزووا في حارات كحارة الأروام، ودار عددهم حول ٥ آلاف، ولم يقفز هذا العدد بشكل كبير إلا بحكم محمد علي الذي استكثر منهم هو وبنوه، واحتلوا الإسكندرية من جديد على حس ما استنزفه الاحتلال العلوي من عرق ودم المصريين في مد ترعة المحمودية إليها وعمل المواني، في تعداد ١٩٤٧ وصلت الجالية اليونانية لأقصى عدد لها وهو ٩٣,٦٥٦ شخصا، خاصة مع الأزمات التي ضربت اليونان، وكما عبرت عن الحال رواية "السمان والخريف" لنجيب محفوظ فإنه حتى الأعوام الأولى من ثورة ٢٣ يوليو كانت الوجوه اليونانية تطارد المرء في الإسكندرية أينما كان، في الشرفات والنوافذ، وعلى قارعة الطريق، حتى سوق الخضار والدكاكين كانت تحتلها الوجوه اليونانية[١٤٢١]".

وكوّن اليونانيون ثروات باهظة بعملهم في كل فروع التجارة مشروعة وغير مشروعة، صغيرة وكبيرة، بداية من البارات ونوادي القمار والبغاء والربا والمقاهي وبيع الخضروات والأجبان وحتى الشركات الكبرى، وحافظوا على هيئتهم وانتمائهم الإغريقي ولغتهم وتزاوجهم من بعضهم، وصبغوا مباني الإسكندرية بطابعهم، مثلما كانوا أيام الاحتلالين اليوناني والروماني، حتى أن فكري أباظة عاب عليهم تحويل مديريات مصرية (محافظات) إلى مستعمرات رومية، بعد أن أصبحوا فيها هم الملاك وهم المزارعون، وهم دون غيرهم أصحاب المصالح، وحققوا هذا بعد أن كانوا مجرد تجار إسفنج وسردين على شواطئ البحر عن طريق عملهم في الربا وإغراء "البسطاء والأغبياء" بالديون، معتبرا أن احتلال الأروام أدهى وأمر من احتلال الإنجليز[١٤٢٢].

وعبر عن هذا روذاكيس في رواية "أوديسا العصر الحديث" لليوناني ميشيل بيريذيس بقوله: "إننا ننتمي إلى أصل واحد، وحققنا في مصر ما عجزنا عن تحقيقه في بلادنا، أنشأنا وطنا واحدا لكل اليونانيين[١٤٢٣]"، فاليونان في بلادهم معظم التاريخ لم يتكتلوا في كيان واحد، كانوا دويلات لا دولة، فهم أهل شقاق وحروب ضد بعضهم، وهو ما جعلهم مهاجرين للخارج معظم تاريخهم، ويعملون كمرتزقة وقراصنة، ولكنهم في مصر توحدوا ليكونوا كيانا قويا ضد المصريين، وأيضا ضد الجاليات الأخرى المتصارعة معهم على كعكة النفوذ في مصر "نهيبة الدنيا".

وحين غزا الفرنسيس مصر كانوا عونا لهم في احتلالها وتعريفهم بأسرارها بكتيبة الأروام، وهو نفس الدور الذي لعبوه مع الاحتلال البريطاني؛ فساعده بعضهم في احتلال الإسكندرية عبر مشاركتهم في أعمال الشغب المدبرة ١١ يونيو ١٨٨١ وقتل المصريين العزل بالرصاص.

[١٤٢١]- مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، مرجع سابق، ج ٣، ص ٧٧
[١٤٢٢]- نفس المرجع، ج ٢، ص ٢١١
[١٤٢٣]- نفس المرجع

وخلال الحرب العالمية الثانية شكلوا تنظيما مسلحا لدعم بريطانيا في الحرب، وأمدوها بالتبرعات المادية، ولم يخلُ الأمر من تشجيع يونانيين آخرين للحركة الوطنية، حتى أن بعضهم مشى في مظاهراتها[١٤٢٤] ضد بريطانيا وإن كان معظم هؤلاء فعلوها لأنهم كانوا شيوعيين معادين للرأسمالية البريطانية وليس تضحية لأجل مصر ذاتها.

ويصف أحمد لطفي السيد في عصره أحد طرقهم في نزح ثروة المصريين بصورة مختصرة دامعة وبليغة فيقول إن "الرومي يجيء به طلب الرزق إلى مصر منفردا، يدخل إحدى قراها البعيدة عن مراكز الحكومة فيتزلف إلى كبار أهلها، فيفسحون له في مساكنها ملجأ يأوي إليه، فلا يزال بتجارته الرابحة من بيع الزيتون والجبن بأضعاف القيمة بثمن آجل [التقسيط والربا] حتى يصبح ذا مال يقرضه إلى الفلاحين بالربا الفاحش، ولا يلبث على هذه الحال قليلا من الزمان إلا وهو دائن لأغلب أهل البلد، ينزع ملكية أرضهم ويستخدمهم فيها عمالا بسطاء"[١٤٢٥].

وهذه الأيام يتابع الناس في الأفلام القديمة مشاهد لحانات خمور والنادل "الجارسون" الأجنبي يخدم مصريين سكارى فيها، فيشير لهم بعض المصريين أمام الشاشات ببراءة طفولية يقولون: "شوف إزاي كنا زمان؟ كان الخواجات بيصبولنا الكاسات ويخدمونا"، والبرئ غفلان عن ثمن "الصبة" و"خد اشرب يا خبيبي وانسى"، وهي تسكير المصري لشفط جيوبه وتهريب ماله برَّة، ويكون اليوناني في مصر "السيد"، والمصري في الدرجة العاشرة "سكران"، لما نسي تحذيرات عبد الله النديم من هذا المصير[١٤٢٦]:

باعوا الفدادين للأروام.. بالأوهـــام.. وأصبــح الوطن غلبـــــان

والبيه صبح باع الألماس.. في حب الكاس.. والبيت وساعته والغيطان

اسأل بقى جرجي وينّي[١٤٢٧].. مش تسألني.. تلقى الفلوس راحت اليونـــان

تلقى الفلوس في إيطاليا.. أو ألمانيا.. واللا فرنسا يا نعســـــان

يا ميت خسارة وندامـة.. والله غرامة.. نبيع بكاس خمرة الأوطـــان

فوقو بقى يا ولاد اليوم.. من دي النوم.. إلا العزيز منكم ينهــــان

② (اليهود)

كما في بقية العالم، لم يعتبر اليهود أنفسهم من أبناء الوطن في أي عصر قدموا فيه إلى مصر، وفي

(١٤٢٤)- نفس المرجع، ص ج ٣، ص ٧٧، وج ٢، ص ٢١١
(١٤٢٥)- قصة حياتي، أحمد لطفي السيد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مرجع سابق، ص ٤٣- ٤٤
(١٤٢٦)- عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية، مرجع سابق، ص ٢٤٤
(١٤٢٧)- جرجي وينّي من الأسامي الشهيرة المعروف بها اليونانيون

عقائدهم يتعلمون أن الدين والجنس عنصران متلازمان لا فاصل بينهما[١٤٢٨] فمهما طال بهم المقام يتكتلون محتفظين بأن دينهم ووطنهم هو "اليهودية"، ويأخذون صف الاحتلال ضد أبناء البلد إذا كان هذا في مصلحتهم، وبشكل أعمق وصفهم كارل ماركس، وهو من عائلة يهودية: "والجنسية الوهمية لليهودي هي جنسية التاجر، جنسية رجل المال"[١٤٢٩].

وكما رأينا في فصول سابقة، أول ظهور تعرفه الآثار لليهود في مصر حين جاءوها لاجئين فارين من البطش البابلي زمن الأسرة ٢٦، ورغم هذا باعوا مصر للغزو الفارسي، وفي زمن الاحتلال اليوناني والروماني كثر عددهم في الإسكندرية، ومع الاحتلال العربي كان من شروط المقوقس في الصلح مع عمرو بن العاص بقاء اليهود في مصر، وبقوا يعملون في التجارة والطب والصرافة والربا والذهب، ولسبب غير معلوم تناقص عددهم بشكل حاد حتى ظهروا في تقدير عدد السكان زمن محمد علي ٥ آلاف يهودي، ثم عادوا للزيادة كالطوفان بفعل المحافل الماسونية وقانون تمليك الأراضي للأجانب والامتيازات الأجنبية.

وأخذوا- مثل بقية الأجانب- موقعا متميزا داخل مصر لم يحلموا بمثله في العالم، ومن أوائل من سعى لضم اليهود للحماية والامتيازات الأجنبية هو الثري اليهودي موسى مونتيفوري حين تدخل لدى محمد علي ليسمح بأن يكونوا تحت الحماية البريطانية ويتم إعفاؤهم من بعض الضرايب[١٤٣٠].

وفي ١٨٩٦، قبل المؤتمر الصهيوني في بازل بسنة واحدة، جاء لمصر جوزيف ماركو باروخ، ليؤسس جمعية صهيونية في مدينة القاهرة حملت اسم باركو خابا، أجرت اتصالا بتيودور هرتزل الذي حضر إلى الإسكندرية والقاهرة في ٢٣ مارس ١٩٠٣، والإسكندرية حينذاك مركزا لتجمع اليهود، فقد تمركز فيها ٤٥% من عددهم في مصر[١٤٣١]، وتمتع هرتزل بحرية الحركة.

وبسبب الامتيازات الأجنبية وحماية المحافل الماسونية والقنصليات، وغفلة المصريين المحيطين، غزا اليهود كل المجالات؛ إذ كسر اليهود خصوصية وقيود حارة اليهود التقليدية إلى درجة لم يكن لها مثيل في العالم، فتسللوا لنسيج المجتمع موزعين بدرجات في أحياء الجمرك والعطارين والرمل وباكوس وكرموز واللبنان ومحرم بيك والمنشية وحي مينا البصل وحي الميناء[١٤٣٢].

ومن قائمة الجمعيات الإسرائيلية يتضح أنهم كانوا مؤسسين دولة داخل الدولة، تضم شبكة مصالح ومؤسسات تقدم لهم كافة الخدمات، كالمدارس والمستشفيات والصحف والجمعيات الخيرية والاستثمارية، والمعلن منها اتخذ طابعا خيريا لحماية اليهود من العوز، مثل جمعية "أزرات" تأسست ١٨٨٥ لمساعدة الشحاتين اليهود، وجمعية "بيكور هوليم" تأسست ١٩٠٩ لمساعدة المرضى، وجمعية "هيد فيميت" تأسست

[١٤٢٨]- اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان، مصطفى كمال عبد العليم، مكتبة القاهرة الحديثة، ط ١، ١٩٦٨، ص ٢٩٨
[١٤٢٩]- كارل ماركس أو فكر العالم سيرة حياة، جاك أتالي، ترجمة محمد صبح، دار كنعان، ط١، دمشق، ٢٠٠٨، ص ٧٢
[١٤٣٠]- الجالية البريطانية في مصر ١٨٠٥- ١٨٨٢، ناهد السيد علي زيان، مرجع سابق، ص ٣٦٢ هامش رقم ٣٥٤
[١٤٣١]- هنري كورييل- الأسطورة والوجه الآخر، الدكتور حسين كفافي، مرجع سابق، ص ٢٩
[١٤٣٢]- المرجع السابق، ص ٢٩- ٣٠

١٩٣٠ لبناء دور العجزة، والمستشفى الإسرائيلي في سيدي جابر، ومستشفى إسرائيلي في سبورتنج، وجمعية قطرة اللبن لمساعدة التلاميذ اليهود الفقراء، وهذه الأنشطة تملأ سماء الإسكندرية، أما الجمعيات السرية التي تمارس نشاطها السياسي تحت الأرض، فأكثر من هذا بكثير، وتسري بخيوط عنكبوتية لا تُرى، ومن ثمرة نشاطهم السري إنشاء "الفيلق اليهودي" خلال الحرب العالمية الأولى على يد اليهوديين القادمين من روسيا فلاديمير جابوتسكي وجوزيف ترمبلدور، وبدأ تحت ستارة تشكيل قوة بوليسية "لحفظ النظام بين المهاجرين الجدد[١٤٣٣].

وبعد زمن طويل من إظهار الوجه الثقافي والاقتصادي والخيري، ظهر الوجه المليشياوي للجمعيات اليهودية بعد أن استقوت بوعد بلفور ١٩١٧؛ فظهرت فرق مسلحة بوضوح في شوارع الإسكندرية التي باتت شبه مستوطنة لهم، واستعرضت قوتها في عروض مسلحة سارت بها من الورديان وحتى المعبد اليهودي قبل أن ينضموا للقتال مع بريطانيا في الحرب، وأسسوا مكتبا لتشجيع الهجرة لفلسطين وتكونت لجنة باسم "اللجنة المشايعة لفلسطين" وزعت منشورات في الإسكندرية تطالب بالاكتتاب لجمع التبرعات من أثرياء اليهود وإرسالها لفلسطين لإقامة مستعمرات زراعية لليهود باسم استثمارات.

وإضافة للاحتكار الثقافي والاقتصادي صدَّر اليهود وجها آخر ودودا للمصريين، خاصة بعد ثورة ١٩١٩ التي أعلت مبدأ "مصر للمصريين"، لسهولة معرفة أسرار البيوت، فكانوا يعيشون متجاورين مع المصريين في ود وحب بالغين، فاليهود في حياتهم اليومية ودودون يحافظون على الجيرة، وخصوصا أن المرأة اليهودية لها دور مهم في حياة الأسرة والمجتمع المحيط بها، وكل من عاصر تواجد اليهود في مصر يذكر هذا، فالمرأة عندهم محور كل شيء[١٤٣٤].

ولعب اليهود دورا وحاسما في خروج المرأة المصرية بالمدن إلى ميادين عمل غير معهودة، وتغيير الحياة الاجتماعية، ولكن ليس بشكل يحفظ هوية وسمات وكرامة الست المصرية، فاليهوديات خرجن قبلها للعمل بالمتاجر وتقليد الرطانة بالكلمات الأجنبية، والدخول في المغامرات العاطفية، وشجعن المصريات على الحياة التي وصفت بالعصرية، فحتى وجودهن في الترام يستغلنَّه في التحدث مع من يجلسن بجوارهن عن باريس وأزياءها وحياة النساء في أوروبا والرقص الحديث عن المغامرات العاطفية، وكثير من اليهوديات يفرضنَّ أنفسهنَّ على الشباب المصري المجاور لهنَّ في العمل أو السكن، ومعظم أبناء جيل العشرينيات والثلاثينيات تعرفوا على حياة العاطفة والجنس من خلال يهوديات[١٤٣٥].

وأبدع الأديب صالح مرسي في مسلسله التلفزيوني الشهير "رأفت الهجان" في التعبير عن هذا، فهذه سارة تنسج خيوط العلاقة المحرمة مع عدلي ظابط الشرطة لتعرف منه المعلومات التي تجمعها الشرطة

(١٤٣٣)- المرجع السابق، ص ٣٠- ٣١

*** والشيء بالشيء يُذكر، فإن أشهر عصابات الولايات المتحدة حاليا، وأكثرها همجية، وهي عصابة "إم إس ١٣"، نشأت في ثمانينات القرن ٢٠ أيضا بحجة أنها مجرد حراسة لتجمعات المهاجرين من السلفادور، باعتبارهم بني جلدتهم وأدرى بطبائعهم، وتسعى لتخفيف الأعباء عن الشرطة، ثم ظهر السبب الحقيقي بتحولها لأكبر العصابات إجراما، ومصدرا للمرتزقة في العالم، فهو ذات الأسلوب المكرر.

(١٤٣٤)- نفس المرجع، ص٣٢ و٣٥

(١٤٣٥)- انظر مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، ج ٣، مرجع سابق، ص ٤٨٦- ٤٨٧

عن اليهود، وذاك الصايغ بنيامين حنانيا يتحدث عنه جيرانه بكل ود لمعاملته الطيبة معهم، وهم "زي الأطرش في الزفة" يجهلون ما بين اليهود والصهيونية.

وفي عشرينات القرن ٢٠ أصبح اليهود رقما صعبا في السيطرة على اقتصاد مصر، فصاروا ضمن المحتكرين لصناعات الصحافة والنشر والطباعة وتجارة الورق والسينما والفنادق وتجارة القطن والغزل والنسيج، ومعظم الشركات بداية من مالكها حتى كاتب الآلة الكاتبة من اليهود، و٩٨% من العاملين في البورصة يهود، وأنشأوا شركة التصدير الشرقية للسيطرة على الاستيراد والتصدير سنة ١٩٢٠، وامتلكوا سلسلة المحلات التجارية الكبرى لتوزيع منتجاتهم الداخلية أو المستوردة، ومن أشهرها عمر أفندي وهانو وبين صهيون- بن زيون (بنزايون) وشيكوريل وشملا والصالون الأخضر وداود عدس، وفي البنوك أسسوا بنكي مواصيري وزليخة، هذا بخلاف بيوت وبنوك الرهونات، وحتى في بنك مصر لهم عضوان في مجلس إدارته، ويساوي خطورتهم في السيطرة على البنوك سيطرتهم على تجارة الذهب والفضة والماس.

وللسيطرة على سوق العقارات أسسوا شركات عقارية مثل شركة مصر الجديدة، وشركة المعادي، وشركات وادي كوم إمبو، وشركة مساهمة البحرية، واشتروا الأراضي الزراعية والسكنية، حتى أن حي سموحة بحاله في الإسكندرية كان جزء مما تملكه المليونير اليهودي سموحة، يعني باختصار كانت مصر في جيبهم(١٤٣٦)، وأكبر مُعين لهم في هذه السيطرة الرهيبة هو الربا والرهونات والتسهيلات التي حصدوها من الامتيازات الأجنبية والمحتلين، والأهم هو توهان المصريين عن خطرهم.

وعلى أساس أن الثقافة في خدمة الاقتصاد، أنشأوا مطبعتين، وهكذا انتهزوا أي فرصة لنشر الثقافة- الكتب التي يريدون تسويق أفكارها- خلال الصحافة والمطابع وتجارة الورق التي يسيطرون عليها تماما، وبتعبير حسين كفافي فالمصريون حينها في غفلة لا يدرون ما يجري خلف ظهورهم من مكائد ومؤامرات لحسن نيتهم، ومن ناحية أخرى لضحالة ثقافتهم وقلة تعليمهم، فهم حديثي عهد بمثل هذه الأمور من التعليم والثقافة، وأيضا لعزوفهم عن العمل في هذه المجالات(١٤٣٧).

ولأن الإعلانات من وسائل السيطرة على الرأي العام، استولت شركة الإعلانات الشرقية التي يديرها اليهودي هنري حاييم على معظم الإعلانات، ومدير عام الإعلانات في "الأهرام" و"دار الهلال" يهوديان(١٤٣٨)، وغزوا السينما فور أن حطت رحالها في مصر، وأبرز يهود هذه الصناعة توجو مزراحي وإيلي درعي ويوسف موصيري صاحب شركة جوزيف فيلم، ولم ينكسر احتكار اليهود للسينما إلا على يد طلعت حرب حين أسس شركة مصر للتمثيل والسينما واستديو مصر، وأرسل بعثات لتعلم السينما في الخارج على حساب بنك مصر، وكذلك كان ليوسف وهبي دور مشهود في تمصير السينما.

وساهم تحكم اليهود في البضايع الداخلة والخارجة لمصر والثقافة والفن في أن يتيسر لهم التدخل في

(١٤٣٦)- هنري كوربيل الأسطورة والوجه الآخر، حسين كفافي، مرجع سابق، ص ٢٦- ٢٧ و٥٤- ٥٥
(١٤٣٧)- نفس المرجع، ص ٢٥
(١٤٣٨)- نفس المرجع، ص ١٧٢

رسم الذوق المصري، والتحكم في الأسعار.

ونصل للخط الأحمر، للهدف الأكبر.. دخل اليهود مخادع الحكم، فكانت واحدة من عائلة قطاوي وصيفة الملكة نازلي، ووصلوا لاختراق الجيش عبر زواج ضباط في الجيش، منهم عاملون في إدارة المخابرات، بيهوديات- كعادة كافة التنظيمات السرية الهادفة للسيطرة- ومنهم ديدار فوزي بنت المليونير الصهيوني داوود عدس تزوجت الرائد في الجيش عثمان فوزي، وهي من جرَّته إلى الشيوعية؛ لأنها صديقة لهنري كورييل[١٤٣٩]، ولنتخيل لو هذا الضابط صار لأي سبب رئيسا لمصر فتكون تلك الدخيلة والصهيونية "السيدة الأولى لمصر"!

ومعظم العائلات اليهودية التي سيطرت على الاقتصاد وافدة حديثا إلى مصر، وخاصة خلال القرن ١٩ في عهد حكم عيلة محمد علي، وليسوا مصريين كما يقول البعض- إلا أن بعضهم حصل على الجنسية المصرية بموجب القوانين المشئومة الخاصة بالتجنيس بداية من أول القرن ٢٠، وليتغلبوا على شعار "مصر للمصريين"، ولكن لم يعتبروا أنفسهم سوا خدام لمشروع تنظيماتهم الخاصة، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا القليل، ولذا من أكبر الأخطاء التاريخية أن يقال أنه كان يوجد في مصر في أي عصر "يهود مصريون"، بل الواقع أنهم "يهود في مصر"، و"جالية يهودية"، وكتب التاريخ القديمة نفسها لا تصفهم بغير هذه الصفة التي عرفتهم بها الأجيال السابقة في كل بلد.. أنهم غرباء دخلاء.

وتزايدوا بشكل كبير خلال الحربينِ الأولى والثانية بعد وفودهم باسم لاجئين من أوروبا وروسيا، ففي الإسكندرية وحدها وصل في أول الأربعينات اليهود إلى ما بين ٣٠-٤٠ ألف نسمة[١٤٤٠]، وفي ذلك يقول حسين كفافي في "هنري كورييل الأسطورة والوجه الآخر"، إنه في ظل ما أسماه بالتسامح الديني "كان اليهود يعيشون بين ظهرانينا كجزء من الشعب المصري، وكجزء من الأمة العربية، إن كانوا في مصر أو لبنان أو سوريا أو اليمن أو العراق أو فلسطين، أملاكنا بجوار أملاكهم يشترون منا ونشتري منهم، ويبيعون لنا ونبيع لهم، وما يحدث في مصر في المقابل كان يحدث أيضا في فلسطين.. هم يحفرون ويخططون ويتآمرون ويزرعون العملاء هنا وهناك، ويلجمون هنا ويتركون اللجام على الغارب هناك، والعرب في غيبوبة، وسببها أن ثقتنا في اليهود كانت مفرطة"[١٤٤١].

والغفلة لفت حتى الحكومة والأحزاب، فلما حصل الخلاف بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد حول إدارة حزب الوفد أصدر عبيد "الكتاب الأسود" يتهم النحاس أنه هضم حقوق "الأقليات" لما اشترى من داود عدس اليهودي عزبة في البحيرة بسعر بخس، ورد عليه النحاس بأن السعر مناسب، وعدس ألح عليه لأنه يريد أن يشتري بثمنها عزبة في فلسطين[١٤٤٢]، فانشغل عبيد والنحاس بخلافاتهما حول ثمن العزبة، ولم ينشغلا بمصدر أموال عدس، ولا لماذا اختار شراء عزبة في فلسطين.

(١٤٣٩)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، ج ٣، ص ٤٧٦، وهنري كورييل الأسطورة والوجه الاخر، ص ٢٠٨

(١٤٤٠)- هنري كورييل الأسطورة والوجه الآخر، ص ٨٢

(١٤٤١)- نفس المرجع، ص ١٢٩

(١٤٤٢)- المرجع السابق، ص ١٢٩- ١٣٠

وانتشر اليهود تحت الجلد، يشكلون أعينا ترصد أي حركة، وصارت تجمعاتهم مراكز لدوامات بث الإشاعات والفكر الهدام وإفشاء الرذيلة وخلق بلبلة ودوامات الجدل، محرفين الكلم عن مواضعه، ومن ذلك أنهم سوقوا لفكر كارل ماركس حول ازدراء الدين، فيما اليهود في بيوتهم يعبدون الله سرا، ويحافظون على تراثهم، ويحيون لغتهم بعد أن كانت لغة ميتة، وروجوا لفكر نيتشة ودارون وعالم النفس اليهودي سيجموند فرويد، تنفيذا لكتاب بروتوكلاوت صهيون: "يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا على العالم، إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس، ولكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو أرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه" وذلك في الوقت الذي كانوا يجمعون الشباب اليهودي على صعيد واحد هو الصهيونية[١٤٤٣]".

ولم تتقلص الهيمنة اليهودية على اقتصاد مصر إلا بعد ٣ عودات يهودية إلى الخارج، الأولى ما بين الحربين العالميتين، والثانية بعد حرب ١٩٤٨ وقيام إسرائيل، والثالثة بعد العدوان الثلاثي الذي شاركت فيه إسرائيل ١٩٥٦ واكتشاف تورط يهود في عمليات إرهابية وتفجيرات بالقاهرة.

وبعد.. ففي برنامج تلفزيوني سنة ٢٠١٨ تفاخر موسيقار شهير بأنه عاش طفولته قبل ثورة ١٩٥٢ والقاهرة معبأة بالأجانب، وأنه سكن في عمارة بها يهود "طيبين"، وأن وجود هذه الجاليات- ومنها اليهود- متراصة بجانب المصريين "فخر لمصر".. هكذا! يبدو أن للفخر معاني أخرى.

3 (الشوام)

عرفنا منهم في تاريخنا القديم من اشتهروا باسم "الرتنو"، و"العامو"، وظهروا "محبين" لمصر وقت قوتها، "غادرين" بمصر وقت ضعفها، ومحاولات قبائل الشام وشمال شرق الجزيرة العربية المجاورة لها للاعتداء على الحدود المصرية والتسلل لداخل مصر لغرف خيراتها لم تتوقف طوال التاريخ.

وفشلها أو نجاحها في هذا توقف على الصحوة المصرية من عدمها، فرأيناهم لما غفل حكام مصر نهاية الدولة القديمة تسللوا وعملوا في بعض المهن ونشروا الفتن حتى ساهموا في إسقاط الأسرة ٦ ونشر الفوضى "الزفتة"، وطاردهم لخارج مصر حكام الأسرات ١٠ و١١ و١٢، غير أنه في نهاية الأسرة ١٢ عادت الغفلة بأن تسللوا مع هجرات أخرى في شكل تجار وعمالة ومهاجرين بين بلدين "صديقين" استغلالا للعلاقات التجارية القوية بينهما وقتها، حتى ضعفت مصر مجددا في الأسرة ١٣ فاحتلوا أراضي بالوجه البحري وعشنا محنة مصر معهم باسم "الهكسوس"، وتكرر الأمر في الدولة الحديثة بطردهم ثم عودتهم باسم أنهم "أبناء البلاد المفتوحة" حتى سيطرت عائلة "إرسو" السورية على أمور البلاد في نهاية الأسرة ١٩ قبل أن يقضي عليها ست نخت والد رمسيس الثالث.

واختفوا من المشهد حتى ظهروا بعد الأسرة ٢٦ ضمن المرتزقة والتجار الذين استعانت بهم هذه الأسرة، واستمروا على هذا الحال أيام اليونان والرومان باسم كنعانيين وفينيقيين وآراميين، وخف تواجدهم

[١٤٤٣]- انظر: نفس المرجع، ص ٢٧- ٢٩

أيام العرب لأن الكوفة ودمشق وبغداد أصبحوا العواصم الأكثر جاذبية في الفرص، ثم عادوا للهجرة إلى مصر أيام المماليك فارين من وجه التتار لما هزموهم، وأخذوا فرصتهم أكثر أيام العثمانلي فشاركوا في نهب مصر أرضا وتجارة وعقارات ومناصب في القضاء والأزهر.

وفي أيام محمد علي، ظهر نوعية جديدة من الشوام، هي المتأوربون، أي من أتوا في زي أوروبي من خريجي مدارس الإرساليات التبشيرية ويتحدثون بألسنة أوروبا وعملوا لصالح القناصل الأوروبية خاصة فرنسا ثم بريطانيا خلال الاستعانة بهم في مشاريع الوالي وأولاده.

وإلى جانب التجارة، ركَّزوا على الثقافة والصحافة والمسرح والسينما ونشر المحافل الماسونية؛ فكانت الأنشطة التي برعوا فيها هي الأكثر شبها بأنشطة وتوجهات اليهود، ونشر جزء منهم فكرة القومية العربية، والجزء الآخر زرع فكر السلفيين والإخوان المسلمين.

وحام عدد الشوام أيام الاحتلال الإنجليزي والجالياتي حول ٣٠ ألفا، يقل أو يزيد حسب الظروف، متفرقين في تبعيتهم بين رعايا للحكومة المصرية أو للسلطنة العثمانية أو بريطانيا وفرنسا.

ومثل غيرهم، تراجع وجود الشوام في الاقتصاد والعدد بعد ثورة ١٩٥٢ وقرارات التأميم، وإن بقي لهم وجود في السينما والغناء، مع الابتعاد- ظاهريا- عن التدخل في شئون البلاد؛ نظرا للقبضة القوية التي كانت للدولة المصرية، إلا أنه ظل لمثقفيهم وفنانيهم سيطرة في سحب مصر إلى الفكر العروبي ومغامراته الفاشلة كما سنرى، واقتنص بعضهم الجنسية المصرية باستيطانهم في مصر أيام الوحدة المشئومة مع سوريا.

4 (الإيطاليون)

منذ رحيل الرومان (أجداد الإيطاليين) عن مصر لم يأتوها إلا كتجار أيام العبيديين أو الأيوبيين، واشتهروا باسم البنادقة، وتركزوا في الإسكندرية، وكانوا عيونا لحملات الفرنجة "الصليبية"، واستمروا يفدون بعدد قليل ومتقطع في ثوب التجار في العصور اللاحقة.

أما فرصتهم الذهبية فهي الاحتلال الإنجليزي- العلوي- الجالياتي، متمتعين بفرص العمل التي فتحتها لهم مشاريع وقصور محمد علي وأولاده، محميين بمظلة الامتيازات الأجنبية، حتى شكلوا ثاني أكبر جالية أوروبية بعد اليونان، خاصة وأن بلدهم وقتها يغلي من الأزمات الاقتصادية.

وزاول الإيطاليون مهن التجارة والصناعات الكهربائية والموسيقى وهندسة المباني، وبصمات أصابعهم الفنية في المباني الفخمة لذلك العصر، وترددوا في القصور معلمين للموسيقى أو الإتيكيت واللغات وخدم، ونشطوا في العمل السياسي والطائفي، مثل نشر الشيوعية في مصر، وخلال الحرب العالمية الثانية انقسموا بين المعادين للفاشية أو المؤيدين لها الذين كانوا يتمنون أن تغزو إيطاليا مصر ليحكمها موسيليني كما

حكمها من قبل يوليوس قيصر(١٤٤٤)، ويتعطشون لاستقبال الجنود الإيطاليين الذين هتفوا والسفن تنقلهم لغزو الحبشة: "بعد الحبشة سيأتي دور مصر"(١٤٤٥).

واختلف موقف الإيطاليين من الحركة الوطنية في مصر، ففي حين أيدها بعضهم، خاصة خلال ثورة ١٩١٩ مثل نادي خريجي الجامعات والمدارس الإيطالية، عادها البعض الآخر(١٤٤٦)، بل فقد الموسيقار الإيطالي مارانجوني حياته في صدام مع القوات البريطانية، وخطب إيطاليون في الأزهر خلال ثورة ١٩١٩، وذلك لأن منهم شيوعيون ضد بريطانيا مثل روزنتال أحد مؤسسي الحزب الاشتراكي في مصر، ومنهم من كان غاضبا من تميز البريطانيين عن بقية الجاليات الأوروبية، ففي الواقع يعتبروا وقفوا مع بلدهم أو مذهبهم ضد بريطانيا وليس مع مصر، وفي المقابل كان هناك إيطاليون مع الاحتلال البريطاني ضد مصر مثل "الفيدراليين الإيطاليين(١٤٤٧)".

ومثل بقية الجاليات، تدرب الإيطاليون على حمل السلاح وعمل المليشيات، خاصة وقت الحرب العالمية الثانية، وكأنهم يهيئون مصر لحروب ومعارك داخلية في حال ما دخل الألمان والإيطاليون لمصر بين الفريق المؤيد لذلك منهم والفريق الرافض، وارتدى مناصرو موسيليني القمصان السوداء، رمز الفاشيست، وعملوا بها استعراضات حماسية في الشوارع(١٤٤٨).

وكبقية الجاليات أيضا، شكَّل الإيطاليون جمعيات خاصة بهم ثقافية وإعلامية ومدارس خاصة لترسيخ هويتهم ومذاهبهم، بما فيها الهدامة كالشيوعية والفاشية، وحين شبت الحرب العالمية الثانية بلغ عدد الجالية الإيطالية ما بين ٦٠-٧٠ ألفا، اعتمدت في نفوذها على انتشارها في النواحي الثقافية والاقتصادية، إضافة لوجود أذرع لها داخل القصر الحاكم، حيث كانت جزءا هاما من الحاشية التي تحيط بالملك فاروق، مثل أنطون بوللي، وكانوتشي(١٤٤٩).

وتصدر الإيطاليون مع اليونانيين والأرمن نسبة الأجانب المتورطين في نشر الجريمة في مصر، خاصة الجرائم الكبرى كالمخدرات والدعارة وتزييف العملة والقمار والغش التجاري، وتميزوا مثل اليونانيين بالتواجد في الريف والحواري على شكل محلات بقالة، ما يسهل لهم التعرف على أحوال الناس ويكون لهم في كل مكان عيون، والتسويق لبضائعهم المشروعة أو الفاسدة (كالخمر والقمار والربا) في كل مكان.

5 (الأرمن)

عرفت مصر الأرمن خلال الاحتلال العبيدي (الفاطمي) قادمين من الشام لما استعان بهم العبيديون

(١٤٤٤)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، مرجع سابق، ج ٣، ص ٧٦- ٧٨

*** كل من ذاقوا المجد والثروة خلال احتلالهم لمصر يتوقون لإعادة احتلالها، وتكتلهم فيها باسم جاليات أو استثمارات خطوة في هذا الطريق.

(١٤٤٥)- حقيقة الانقلاب الأخير في مصر، رشدي البراوي، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، ١٩٥٢، ص ١٥٨

(١٤٤٦)- مصر والحرب العالمية الثانية، محمد جمال الدين المسدي، يونان لبيب رزق، عبد العظيم رمضان، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ص ٧٦

(١٤٤٧)-انظر: الأجانب في مصر ١٩٢٢- ١٩٥٢ دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١٤٣- ١٤٤

(١٤٤٨)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، مرجع سابق، ج ٣، ص ٧٧- ٧٨

(١٤٤٩)- مصر والحرب العالمية الثانية، مرجع سابق، ص ٧٥- ٧٦

كمرتزقة في جيشهم ضد المغاربة والترك والسودانيين، وتراجع وجودهم وقت الاحتلال المملوكي الذي كان الجيش فيه مكونا من المماليك المجلوبين من بطون آسيا وشرق أوروبا.

ثم علا نجمهم مرة أخرى وتوافدوا على مصر أيام محمد علي ضمن الخبرات الأجنبية التي استعان بها في مشروعاته، ومنهم يوسف بوغوص الذي صار رئيسا لديوان التجارة، ويعقوب آرتين، ورفع شأنهم الخديوي إسماعيل بأن جعلوا من أحدهم، وهو نوبار، أول رئيس وزراء في تاريخ مصر الحديث مدعوما من بريطانيا التي ساعدها في احتلال مصر اقتصاديا ثم سياسيا وعسكريا.

وخلال الحرب العالمية الأولى هبطت على مصر موجة جديدة هم الفارون من معارك العثمانلية، واستقبلهم بنو جلدتهم المقيمين في مصر وهيأوا لهم سبل المعيشة، وأكرمتهم الحكومة كلاجئين في الوقت الذي كان أهل البلاد يعانون من النهب المنظم والتشرد على يد الجيش البريطاني وبقية الجاليات بما فيها الأرمن القدامى، فكان مشهد من أسخف مشاهد التاريخ، المصريون يسوقهم الجيش البريطاني كعمال سخرة ورائه في الشام وأوروبا والعراق ليساعدوه في الحرب، ومن يفر من السخرة يتشرد من قرية لقرية، وإذا عثر عليه يحترق ظهره جلدا أو يُحبس أو يقيد ليلقى به في السخرة، في حين أهالي البلاد المشتعلة فيها الحرب يأتون لمصر وتستقبلهم الحكومة والجاليات مكرمين آمنين وينزع لهم المال من عروق المصريين باسم "تبرعات".

ورغم هذا الإكرام انضم أرمن إلى الاحتلال البريطاني في محاولة قمع ثورة ١٩١٩ مقابل مكافآت مالية، لأنهم كانوا يرون أن بريطانيا هي مصدر حمايتهم وضمان بقائهم، وأطلق بعضهم الرصاص على المتظاهرين المصريين؛ فرد متظاهرون بالهجوم على محلات ومنازل من وصفوهم بـ"ناكري الجميل"(١٤٥٠).

غير أن آخرون سعوا للتخفيف من حدة الوضع بإظهار التضامن مع الحركة الوطنية، حتى أن بعضهم شارك في استقبال سعد زغلول حين عاد من المنفى، وأسسوا "الاتحاد القومي للأرمن المصريين"(١٤٥١).

وكاليونانيين، عملوا في كل المجالات، من المهن البسيطة وحتى المناصب الحكومية الكبيرة، والاستحواذ على التوكيلات التجارية التي ضخَّمت ثرواتهم، ومهروا في صناعات، وعملوا بالسينما والغناء والرقص وبيوت الدعارة والمقار والخمور، ونشروا أنواع جديدة من المخدرات كالهيروويين.

والشغل الشاغل لهم هو ما يسمونه بـ"قضية الأرمن"(١٤٥٢)، ورغم انتهاء أزمة بلادهم "أرمينيا" منذ سنوات طويلة إلا أن بعضهم باقون في مصر، وحريصون على استمرار كونهم عرق مختلف عن المصريين في ثقافتهم وطريقة معيشتهم وأسماءهم ويحتفظون بلغتهم ويورثون هذا للأجيال، ولهم نواديهم، مثل "چوچانيان" و"هوسابير"، ومدارسهم وكنائسهم ووسائل إعلامهم الخاصة بلغتهم مثل "أريف"

(١٤٥٠)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٠٩

(١٤٥١)- انظر: المرجع السابق، ص ٤٨

(١٤٥٢)- قضية الأرمن تتعلق بمذابح قال الأرمن إن العثمانيين ارتكبوها ضدهم خلال الحرب العالمية الأولى، ورغم أن تاريخ العثمانيين ملئ بالمذابح ضد المصريين والشوام والعراقيين أيضا، إلا أن اهتمام الأرمن بإحياء الحديث عن المذابح التي تعرضوا لها سنويا، واستخدامهم للأرمن المتواجدين حول العالم بمثابة شبكة عالمية تضغط على حكومات الدول المتواجدين فيها للاعتراف بأن ما حدث لهم جريمة إبادة جعل مذبحتهم هي الظاهرة عما سواها، ويتخذونها وسيلة لتعاطف العالم معهم، وقبول استمرار استيطانهم في بلاد معينة منها مصر، وتوحيد الأرمن في العالم مثلما يفعل اليهود بما يسمونها الهولوكوست.

و"هوسابير"[١٤٥٣]، مما يساهم في تجزئة سكان مصر وولاءاتهم، وبات يحسبهم البعض على المصريين لكن كطائفة، فيُقال طائفة الأرمن المصريين (فيما صفة مصري الحقيقية لا تقبل شريك بجانبها) فتتحول مصر مع الوقت لبلد "طوائف وأعراق" توسع الشروخ و"البعكشة" في الجسد المصري الواحد، خاصة وأن منهم من بات يلتحق بالجيش كجنود بعد حصولهم على الجنسية المصرية، فيها ولاءهم باقي لأرمينيا.

ويشكو الأرمن من أنهم تعرضوا لإبادة على يد العثمانيين- وحولها جدل- وفي نفس الوقت يمارسون هم جريمة الإبادة للهوية المصرية، فأي جالية أجنبية تأتي لمصر وتعتزم الاستيطان الدائم بها ولا تصبح مصرية ظاهرا وباطنا، وتحتفظ باسم خاص بها وهوية ولغة وقضية خاصة بها هي تساهم في تبديل هوية مصر وتجزئتها، بمحو مساحة من هذه الهوية وتعبئتها بلون وطائفة دخيلة، فتصبح مصر كالثوب المرقع، مختلف الانتماءات، مكون من طوائف متصارعة، المصريون بينها مجرد "مكون" من "المكونات"، وهذا سيظهر خطره بوضوح إذا ما سقطت الحكومة المصرية الخالصة يوما ما، وإعادة توزيع الأدوار والمغانم كما حدث في مصر أيام الاحتلالات، ويحدث في سوريا والعراق حاليا، ووقتها لن تكون سقطة مصر كالسقطات السابقة.. هذه المرة إبادة.

6 (الأتراك)

عرفت مصر الأتراك لأول مرة على يد الخلافة العباسية أيام أحمد بن طولون، وازدادوا كمرتزقة أيام العبيديين والأيوبيين والمماليك، حتى احتلوا بني عثمان مصر، وفي عصر محمد علي وأولاده استمر الاستعانة بمماليك أتراك وشركس حتى أيام إسماعيل، وتولت العائلات التركية المناصب الهامة في البلاد بالمشاركة مع الأرمن واليونان من الموصوفين بالرعايا العثمانلية.

وظل هؤلاء فئة منفصلة عن المصريين كالماء والزيت، تنظر لهم بتعالي أحمق، وتعتبر كلمة "فلاح" شتيمة وليس أنه صاحب الفضل عليها والوحيد صاحب الأصل العريق في البلد، فيما ينظر لهم الفلاح على أنهم "الغُز" الأغراب غلاظ الأكباد، حتى علا نجم بعض المصريين وتقلدوا وظائف عليا وأصبحوا من ذوات الأملاك، فكان الحكام يزوجونهم بتركيات وشركسيات ليتطبعوا بالثقافة التركية وتنتقل أموالهم للأتراك بالميراث، ولا ينقلون الطابع المصري الوطني للإدارة.

وتراجع التدفق التركي على مصر بعد عصر إسماعيل الذي أوقف جلب مماليك جدد بعد آخر دفعة جلبها من الشركس، وانحسر طابع الحياة التركية في عائلة محمد علي وعائلات تركية أو مهجنة[١٤٥٤].

ورغم زوال الاحتلال العثمانلي العثماني عن مصر ١٩١٤ إلا أن العائلات العثمانلية ظل لها حظوة في مناصب البرلمان والوزارة والجيش حتى الثلاثينات بسبب احتفاظهم بالنفوذ والأراضي التي تملكوها بموجب قوانين عيلة محمد علي، وحتى لما نصَّ دستور ١٩٢٣ تحت ضغط مبدأ ثورة ١٩١٩ "مصر للمصريين" على أن

(١٤٥٣)- انظر: الأرمن في مصر، شيري عبد المسيح، تحقيق صحفي بجريدة "وطني"، ٢٤- ٤- ٢٠١٥

(١٤٥٤)- انظر: كبار الملاك والفلاحين من ١٨٣٧- ١٩٥٢، رءوف عباس وعاصم الدسوقي، مرجع سابق، ص ١٠٠- ١٠٢

ينحصر تقلد المناصب في المصريين، اقتنص الأتراك المناصب بحصولهم على الجنسية المصرية بالقوانين المشئومة مثل عائلة أحمد زيور باشا وعدلي يكن باشا وحسين رشدي وغيرهم.

وفيما ذابت قلة منهم بين المصريين وصاروا منهم، ظل آخرون- حتى الآن- لم يندمجوا إلا بورقة الجنسية، يتباهون بأصولهم وتاريخ وأسامي عائلاتهم التركية رغم سوء سمعة هذه الأصول وما جلبته على مصر من رزايا وهمجية وسفك للدماء.

في نفس الوقت اتجهت عائلات تركية افتقرت بسبب الديون أو لأي سبب آخر إلى الزواج بفلاحين أثرياء بداية من العمد وحتى الباشوات المصريين للاستفادة من ثرواتهم.

وعبرت عن ذلك أفلام مثل "ابن الحداد" ليوسف وهبي (إنتاج ١٩٤٤) وفيه تزوجت أسرة تركية أوشكت على الإفلاس من مصري كوَّن ثروة كبيرة من ورشة الحدادة حتى أصبح صاحب مصنع للحديد والصلب، وظلت فترة "تتعنظز" عليه وعلى أهله بعد الزواج منه، وأيضا مسلسل "الشهد والدموع" للكاتب أسامة أنور عكاشة بزواج دولت بنت العائلة التركية بحافظ الفلاح لأن أبيه صار حلوانيا غنيا، وكأنها "صفقات" غير معلنة، يأخذ التركي المال والمركز مقابل أن يستفيد الفلاح بالصيت الذي كان للأتراك ويفرح بكلمة "اتجوز بنت باشوات"؛ فظل الأتراك يكسبون من المصريين طوال الوقت، سواء بالسلاح في زمن الاحتلال العثمانلي أو بالزواج والجنسية المصرية والميراث بعد زواله، ولم يتم عقابهم على ما فعلوه بمصر من نهب وإذلال واغتصاب وكرابيج ومذابح.

أما إن كان المصري فقيرا فيرفضونَ أن يقترب منهم، مثلما صرخ شوكت باشا (زكي رستم) في وجه أنور العامل الفقير (أنور وجدي) حين دافع عن زواجه من ليلى (ليلى مراد) حفيدة الباشا التركي ورفض إرجاعها لجدها، وقال له: "دي مراتي"، فرد الباشا بعنف: "اخرس يا كلب، أوعى تقول الكلمة دي تاني، إنت مين علشان تتجوز ليلى حفيدة شوكت باشا السنجهدار بن عاصم باشا؟!" (بنت الأكابر إنتاج ١٩٥٣).

والمتوقع أن أبطال الفيلم بدلا من أن يردوا عليه كما ورد بكلام من عينة أن الناس سواسية والأخلاق هي الفيصل أن يكسروا غطرسته بقولهم: "على أساس تتكبر على المصريين، إنت ما تعرفش مصدر الثروة اللي بتعايرنا بيها إيه ولا أجدادك جايين منين وعملوا في مصر إيه؟".. ويجعل الذين ما زالوا يتباهون عليها بأصول أجنبية احتلالية يفوقوا، فإما يعيشوا مصريين لا يعتزون إلا بمصر وفلاحها وأرضها وأصلها وأهلها، وإما يعودوا إلى البلاد التي يتباهون بها، لكن خلت الأفلام المصرية وقتها من هذا الرد التاريخي الذي يعيد لمصر ذرة من حقها بسبب قوانين رقابة السينما الصادرة ١٩٤٧ ونصت على"عدم التعريض بالألقاب أو الرتب أو النياشين"، وعدم التعريض بالوزراء والباشوات ومن في حكمهم ورجال القانون والدين والأطباء ورجال الجيش والبوليس[١٤٥٥]، وكثير من هؤلاء كانوا من عائلات تركية ومملوكية.

وحتى الخمسينات ظل بعضهم متمسكا بلغته القديمة ويفضح أصلهم التركي لهجتهم[١٤٥٦]، أما عددهم

(١٤٥٥)- السينما والدولة في الوطن العربي"، سمير فريد، مرجع سابق، ص ١٠٦
(١٤٥٦)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، مرجع سابق، ج ٣، ص ٦٤

ففي ذروة نفوذهم في مصر لم يتعدَ ٣٠ ألفا من الأتراك والرعايا العثمانيين من دول أخرى.

7 (العربان)

كلمة عربان تطلق حتى أول القرن ٢٠ على القبايل البدوية والعربية والبربرية القادمة من الجزيرة العربية والشام شرقا أو من نواحي ليبيا غربا، واحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم وغاراتهم وغلظتهم.

وتاريخ مصر ملئ بمحاولات الغزو القبلي لمصر من الجهتين كما تابعنا في الفصول السابقة، وكان الجيش المصري يصدها ذات اليمين وذات اليسار، ولا تنجح في الاستيطان على الأطراف إلا في أوقات الغفلة المصرية القاتلة، ثم تعود مصر لتطردها، حتى جاء الاحتلال اليوناني الذي أتاح لقبائل عربية وشامية الاستيطان باطمئنان على أطراف الوجه القبلي قرب البحر الأحمر وأطراف محافظة الشرقية ليخدموا حركة التجارة الدولية ما بين الهند وجزيرة العرب والبحر المتوسط والشام.

وجاء عدد محدود من بطون القبائل مع الغزو العربي وبعده، وزوال الحكم العربي وتراجع سلطانهم ذابت قلة منهم وسط المصريين فيما ظلت البقية محافظة على توريث أصولها الأجنبية لأبنائها ليظلوا منفصلين عن الفلاحين في الروح والمكان، وحاصدين للمزايا التي يوفرها المحتلون لغير المصريين، ويستقوون على الفلاحين ببلطجة السلاح، وأذاقوهم كل ألوان العذاب في الأرض والرزق والعرض، خاصة أيام المماليك والعثمانلية، وسلمتهم أسرة محمد علي أراضي والتزامات مقابل الكف عن السلب والنهب، فصاروا من كبار متملكي الأراضي وأصحاب سطوة في مناطق استيطانهم وبعضهم انخرط في المناصب الحكومية مثل عائلات محمد سلطان وأباظة ومحمد محمود وعبد الرحمن عزام.

واختلف عددهم في الإحصاءات بحسب ظروفهم في الاستقرار أو الترحل، وبحسب قبول الحكومة لهم في أوقات طردهم في أوقات، وقدم تعداد ١٩٠٧ أكبر رقم لهم من مقيمين ورحل، ودار حول ٦٠٠ ألف[١٤٥٧]، وظلوا- كبقية الأجانب- فئة خاصة ليست محسوبة على المصريين، ويُدرجوا في إحصاءات السكان بشكل منفصل حتى نهاية القرن ١٩ وأوائل القرن العشرين[١٤٥٨]، فبحسب قوانين الجنسية الصادرة في ذلك التوقيت اعتبرهم القانون مصريين، ونفضوا بعضهم عن كاهله البداوة والعنف، وإن ظل بعضهم يُفاخر بأصوله القبلية الأجنبية حتى اليوم، متعاليا على الهوية المصرية العريقة التي في أرضها أصبح ذا شأن بعد حياة التشرد والسطو والجاهلية.

8 (الفرنسيس)

للفرنسيس دور حيوي في إرسال حملات الفرنجة "الصليبية" على مصر، ورغم فشلها ظلت شرارات الطمع تصوب من أعينهم على مصر؛ فكونوا جالية بها مع بداية الاحتلال العثمانلي من عشرات التجار

[١٤٥٧]- تعداد سكان القطر المصري في سنة ١٣٢٥ هـ- سنة ١٩٠٧ م، نظارة المالية، المطبعة الأميرية، ١٩٠٩، مودع بدار الكتب

[١٤٥٨]- كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري (١٩١٤- ١٩٥٢)، عاصم الدسوقي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٢٨- ٢٩

تسكن حي الإفرنج بالقاهرة والوكالات بالإسكندرية، إضافة لنشاطهم اللحوح كإرساليات تبشيرية (كاثوليكية) ورحلات المستشرقين التي قامت بدور المخابرات في نقل أخبار مصر لباريس حتى غرست الحملة الفرنسية أسنانها في مصر، ورغم رحيلها تركت أقدامها في مصر من علماء وضباط أغروا محمد علي بالاستعانة بهم لتنفيذ المشاريع التي لم يطل بالحملة الوقت لتنفيذها، فساهموا في تحديث الجيش والطب والهندسة ونظم الري وإدخال صناعة الصحف، وصبغوا بعض عمارة القاهرة وقصورها بلونهم[١٤٥٩].

ووصل شغف الفرنسيس أن النساء في فرنسا بداية القرن ١٩ ارتدوا وزرات (قطعة قماش ملفوفة حول الوسط) مكتوب عليها "العودة إلى مصر"[١٤٦٠]، ضمن الشغف بالحضارة المصرية والرغبة في إعادة الاحتلال الروماني لها.

ورغم أن الاحتلال العسكري لمصر بداية من ١٨٨٢ إنجليزي، إلا أن الاحتلال الثقافي كان فرنسيا، فالعائلات الغنية تتطبع بالحياة الفرنسية في الملابس وعادات الطعام والشراب وحتى الكلام والتحيات (بونجور، بنسورا، أوريفورا، باردون، ميرسي إلخ)، والأهم هو الانجذاب للأفكار التحررية التي نشرتها الثورة الفرنسية خلال المحافل الماسونية والصالونات أو بتعلم أبناء الأغنياء والبعثات في جامعات فرنسا.

واهتم الفرنسيس اهتماما خاصا بالآثار- امتدادا للنشاط الماسوني في هذا الأمر- فكثرت بعثاتهم التنقيبية وساهموا في تأسيس المتحف المصري، وسعوا مع الإنجليز بكل الطرق لمنع سيطرة المصريين عليه ليظلوا محتكرين لعلم المصريات[١٤٦١]، واهتمو بالتعليم لنشر ثقافتهم عبر مدارس الراهبات والإرساليات، وركزوا في تجارتهم على الرهونات والبنوك والاستثمار العقاري كما فعل اليهود والبريطان واليونان لكونها الأنشطة الأكثر نزحا لجيوب المصريين، والأسرع طريقا لوضع اليد على أملاكهم.

وصل أكبر عدد للفرنسيس إلى ٢٤- ٢٥ ألف شخص في تعداد ١٩٢٧ ثم بدأ في التناقص كغيرهم[١٤٦٢]، وجاهروا بتأييدهم لدول الحلفاء التي تضم بلدهم فرنسا، واستغلوا أموالهم وإعلامهم لتنفيذ تنفيذ تعليمات فرنسا لهم داخل مصر، فكونوا "الفرقة الفرنسية المحاربة في الشرق"، وأنشأت فروعا لها في المدن المصرية الكبرى[١٤٦٣] التي تحولت لساحة مليشيات على جمرة ساخنة، وكافة الجاليات الأجنبية مسلحة، تنتظر ساعة الصفر لتفجر معاركها مع خصومها.

9 (الإنجليز)

ظهروا كجالية مع الاحتلال العثمانلي معتمدين على الامتيازات الأجنبية التي أخذوها منه في القرن ١٦ لتفتح حركة التجارة، ولكن ظل عددها دون العشرات لشدة المعاملة التي يلقونها من المماليك والسكان عامة، فلم تكن

[١٤٥٩]- انظر: الجالية الفرنسية في مصر (١٨٨٢- ١٩٥٦)، نوريس محمد سيف الدين، دار الكتب والوثائق القومية، ص ١٩- ٢١
[١٤٦٠]- الماسونية والماسون في مصر ١٧٩٨- ١٩٦٤، مرجع سابق، ص ٢٥٤
[١٤٦١]-انظر: تأسيس المدرسة الوطنية لعلم المصريات، وائل إبراهيم الدسوقي، موقع الأهرام- بوابة الحضارات، ١٣- ٧- ٢٠١٦
[١٤٦٢]- الجالية الفرنسية في مصر (١٨٨٢- ١٩٥٦)، مرجع سابق، ص ٤٢
[١٤٦٣]- انظر: مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، ج ٣، مرجع سابق، ص ٨٠

صورة الإفرنج الغزاة في الحملات "الصليبية" غادرت الأذهان بعد، حتى جاء محمد علي كمكسب غير متوقع لهم في ترحيبه بالأوروبيين ومعاقبة من يسيء لهم، حتى سموه "حامي حمى الأجانب ضد التعصب الأعمى"[١٤٦٤]- كعادتهم في تفخيم الحكام الذين يفضلونهم على أهل البلد- وبعثت إنجلترا الإرساليات الإنجليزية البروتستانتية "الإنجيلية"، ودفعت بنوك روتشيلد وإخوانه المسيطرة على الحكومة الإنجليزية رجال الأعمال والمرابين إلى مصر للعمل في البنوك وشراء الأراضي، ونهب الآثار وإغراء إسماعيل بالمشاريع والقروض وتمكين جاليات أخرى بعينها كاليهود والشوام.

وعلى يد الجالية جرى اغتيال صناعات مصرية مميزة كالمنسوجات بمعاهدة "بلطة ليمان" التي أبرمتها إنجلترا سنة ١٨٣٨ مع العثمانلية، فمنحت المعاهدة البريطانيين إدخال بضائعهم ولو على حساب المنتج المصري، والتعامل المباشر مع التجار المحليين، وعدم دفع رسوم جمركية مما جعل البضائع الإنجليزية أرخص من المصرية، ومع الاحتلال الإنجليزي تملكت الجالية مكابس ومحالج القطن لتصدير منتجاته بأرخص الأسعار لمصانع بريطانيا[١٤٦٥]، وساهمت في تحسين زراعة قصب السكر وإنتاج السكر وزراعة القطن ومشاريع الري، أما الصناعات التي تنافس الاقتصاد البريطاني كالغزل والنسيج فوقفت لها بالمرصاد.

ورغم قلة عددهم لكنهم أصبحوا من أكثر الجاليات انتشارا في ربوع مصر لكثرة أنشطتهم التجارية وسيطرتهم على المناصب الحكومية في الوزارات والشركات والموانئ والمدارس وتملكهم عزب وأراضي، فانتشروا في القاهرة والإسكندرية ومدن القناة والأقصر والقليوبية، ومعظمهم يعيشيون في شبه عزلة لا يختلطون بالأهالي إلا قليلا؛ فالبريطاني لا يأنس إلا بأبناء جنسه، ويسكنون أحياء خاصة تظهر فيها الفروق الطبقية بين أغنيائهم وفقرائهم، ويمتازون بمساعدة بعضهم في توفير الفرص[١٤٦٦].

وخلال مقاومة المصريين للنفوذ البريطاني، كما حدث في ١٨٨١ و١٩١٩، سعت الصحافة البريطانية الصادرة في مصر مثل "إيجيبشيان جازيت" في تضليل الرأي العام بوصف المصريين بأنهم عنصريين، وأن دافعهم لرفض البريطانيين هو "التعصب الديني"، وليس الدافع الوطني[١٤٦٧]، وهي تهمة"عصرية" معتادة اخترعتها أوروبا- أو محافلها "النارية" ضد من يرفض سيطرة الأجنبي.

⑩ (السودانيون)

طول التاريخ وحتى القرن ١٩ فإن كلمة السودان لا تعنى البلد الذي نعرفه بحدوده الحالية جنوب مصر، لكنه يعني القبايل السود من السودانيين الحاليين والحبش والزنوج والأريتريين والصوماليين وكل الأفارقة من بعد الشلال الثاني للنيل بعد الحدود المصرية الجنوبية.

وتطلق عليهم المراجع التاريخية الأجنبية كلمة "السود"، أو "العبيد"، وأخرى "الأثيوبيين" وأخرى

[١٤٦٤]- انظر: الجالية البريطانية في مصر (١٨٠٥- ١٨٨٢)، مرجع سابق، ص ١٥-٤٨ و٥٦

[١٤٦٥]- انظر: نفس المرجع، ص ٧٨ و١٣٧ و١٢١

[١٤٦٦]- المرجع السابق، ص ٣١٦

[١٤٦٧]- نفس المرجع، ص ٢٧٨

توسعت في كلمة النوبيين لتشمل كل هؤلاء أيضا وليس النوبة بمعناها الذي نعرفه كمصريين الآن وهي التي بين الشلالين الأول والثاني.

أما مصر فسمتهم في تاريخها القديم "كاش"، أو "كوش" وهم الشعوب التي تعيش ما بعد الشلال الثاني، أما النوبة في أسوان فسماها المصريون "الواوات" و"بانحسي" وهي ضمن الحدود المصرية، وكان الكوشيون في حالة عدوان دائم على الحدود المصرية بغزواتهم اللحوحة وسلاحهم الشهير (السهام)، غير أنه في معظم أزمنة الحكم المصري القديم كانت الغلبة لنا في ردهم خائبين، ووضع سنوسرت الثالث في الأسرة ١٢ حدودا محصنة لمصر مع كوش عند الشلال الثاني قرب وادي حلفا، ولم يسمح لهم بتعديها إلا للتبادل التجاري في سوق أسوان ثم يعودون لبلادهم، وبعد تحالف كوش مع الهكسوس ضد مصر غزاهم الجيش المصري ليشل حركتهم وحكمهم لمئات السنين اصطبغت فيها كوش بصبغة مصرية لحد ما في الدين والثقافة والعمارة.

ولما نكبت مصر نفسها بفتح حدودها للأجانب وتوطينهم نهاية الدولة الحديثة واحتلتها قبائل شعوب البحر المستوطنة فقدت السيطرة على كوش التي استغلت الصراع بين هذه القبايل على عرش مصر واحتلتها في عهد الكوشي بعنخي، وأزاح الأشوريون بدورهم الاحتلال الكوشي، وعادت كوش إلى عادتها القديمة في الإغارة من حين لآخر على أسوان، وتُقابل بالهزيمة في معظم الأحيان خلال الاحتلالات التالية، وأسمت هذه الاحتلالات من بعد الاحتلال اليوناني كوش بـ"النوبة"، حتى جاء محمد علي وغزا كوش لاستجلاب المقاتلين والذهب وتنشيط التجارة، وما كانت إلا ممالك وقبائل متصارعة وليس بدولة كاليوم، وعاد إسماعيل لغزو السودان- رغم الديون التي ترزح تحتها مصر- وأهلك عشرات الآلاف من الجنود المصريين ليكون "إمبراطور أفريقيا"، وامتدت فتوحاته لتصل إلى أوغندا، وكل هذا (من أسوان إلى أوغندا) أسموه "السودان"، وباتت تحت سيطرة مصر مؤقتا حتى احتلها الإنجليز فعليا ومصر اسميا باتفاقية ١٨٩٩.

وكجالية داخل مصر، عرفناهم كأعداء وأسرى حرب وتجار ودافعي الجزية خلال أزمنة الحكم المصري القديم، وظهروا كعبيد أيام اليونان والرومان والعرب، ثم مرتزقة في الجيش أيام ابن طولون وكافور الحبشي، واستكثر منهم العبيديون (الفاطميون) كمرتزقة وعبيد، وعادوا لمكانة العبيد والجواري دون المشاركة في الجيش أيام المماليك والعثمانلية، ثم بجوار العبيد عادوا للجيش كمقاتلين أيام محمد علي وأولاده والإنجليز.

ولم تظهر مسميات "أشقاء" و"إخوة"، وأن مصر والسودان "شقيقتان" إلا أوائل القرن ٢٠ خلال مكافحة الاحتلال الإنجليزي للبلدين من باب توحيد الجهود ضد الاحتلال وحماية حقوق مصر في مياه النيل- رغم أن السودانيين رأوا أن مصر بلد احتلال كبريطانيا- ثم ما تبع هذا من تغلغل خيوط القومية العربية القادمة من الشام، والتي اعتبرت أن كل البلاد الناطقة بالعربية "أشقاء".

وبعد إلغاء تجارة العبيد أيام إسماعيل ظهر السودانيون في مصر كجالية تبحث عن فرص عمل في البلد الغني الآمن المتساهل، وبلغ أقصى عدد لهم في تعداد ١٩١٧ حوالي ٣٧ ألف شخص.

والخلاصة فيما يخص تركيبة السكان أيام الاحتلال الإنجليزي..

ظلت مصر كما هي طوال الاحتلالات كأنها بلدين في بلد واحد، بلد مكون من أعراق متعددة ومتنافرة الأجناس والملامح والطباع واللغات والمصالح، ترفل وسط الأحياء الغنية والمباني الشاهقة والفنادق، من يراه يعتقد أنه بين أغنى شعوب العالم، وبلد آخر عبارة عن أهالي يبدون كأنهم من دم واحد، روح واحدة، ملامح وطباع متجانسة، وملابس متشابهة أشهرها الجلابية الفلاحي والطاقية "اللبدة"، يغطون المساحات الشاسعة من الريف ومن الحارات في المدن، يسميهم الأجانب بكلمة الفلاحين وأولاد البلد، وهم أنفسهم يصفون أنفسهم بالفلاحين ولا يعلم لها معنى إلى أنه "ابن الأرض"، ومن يتجول بينهم يرى معظم بيوتهم فقيرة وأزقتهم الضيقة ومعظمهم ملابسهم رثة؛ فيشعر كأنه بين واحدة من أفقر بلاد العالم.

وشهد على ذلك فارمان المتوفي في ١٩١٠ بقوله إن الفنادق الحديثة الفاخرة، وزيادة وسائل الرفاهية، وقضاء شتاء ممتع في العاصمة أو في الوجه القبلي [مثل فنادق ومشتى الأجانب في أسوان] في مجتمع قوامه أناس مثقفون مهذبون وضباط إنجليز مؤدبون لما يخلب لب السائح الذي يعلم عن طريق العدد الوفير من الكتب الإنجليزية والتصريحات الشفوية أن هناك تغيرا عجيبا في مصر، وهو يعيد هذا القول على مسامع أصدقائه ويجعله أساسا لمقالاته في الصحف والمجلات والكتب، ولكن من النادر أن يدخل هؤلاء السائحون كوخا من أكواخ الفلاحين، أو يدققوا البحث في الأحوال الحقيقية التي تعيش فيها هذه الطبقة[١٤٦٨].

وقبل ذلك كانت إصلاحات إسماعيل تترك هذا الأثر في نفس السائح حينما يرى التغير العجيب الذي جعل الناس في أوروبا يسبحون بحمده، ولكن الإصلاحات المدهشة التي قام بها هو وخلفاؤه- بحسب تعبير فارمان- لم تغير حال الفلاحين، فلسوف تجدهم إذا شئت أن تتعرف على أحوالهم يعيشون في نفس الأكواخ، وفي نفس البؤس الذي كانوا يعيشون فيه في سالف العصر، بل وأشد.

وأرجع ذلك إلى أن نظام فرض الضرايب الذي طبقته بريطانيا "كان كطاحونة تطحن بدقة، وتحصل على كل ما يمكن من الدقيق، ولا يبقى لهؤلاء الذين ينتجون ثروة البلاد بكدهم سوى النزر اليسير مما تغله الأرض، ولا تترك لهم فرصة لزيادة نصيبهم، ولذا كثيرا ما تحدث المجاعة إذا تلف المحصول[١٤٦٩]".

وعن تأثير هذه الجاليات مستقبلا نقرأ كلمات صالح جودت صاحب كتاب "مصر في القرن التاسع عشر" المنشور سنة ١٩٠٤: "ولا ننكر أن مصر نالت في هذا القرن درجة من التمدن لم تسبقها إليها بلاد شرقية، فمدت بها الخطوط الحديدية، فسهلت المواصلات وشقت الترع ونظمت الشؤون العمومية، ولكن بفضل مزاحمة الأجنبي كان الخير من كل ذلك لغير ساكنيها، وإن من يدرس أخلاق المصري ويعلم ما

[١٤٦٨]- مصر وكيف غُدر بها، مرجع سابق،، ص ٣٧٠

[١٤٦٩]- المرجع السابق، ص ٣٧٠ -٣٧١

*** هذا شبيه بما تقوم به وسائل إعلام وصفحات إنترنت بنشر صور الفنادق والمباني الفاخرة والأحياء الغنية وغيرها من مظاهر الحياة الثرية في زمن إسماعيل أو توفيق أو فاروق، ويقول للناس إن هذه هي "مصر زمان"، وهكذا كانت "حياة المصريين"، وقتها، ويجهل أن هذا كان معظمه يتمتع به الأجانب من عجم وعرب ومجنسين، ولم يكن مسموحا لمعظم المصريين بالعيش فيه، أو على الأقل غير قادرين على ذلك.

طبعت عليه نفسه من التسليم والوداعة وحسن الظن لا يبعد عليه معرفة كيف تسلط الأجنبي على ماله، وكاد يستأثر ببلاده فيجعله فيها غريبا".

وينهشه القلق وهو يشاهد لهث مصريين متعلمين وراء الأوروبيين في لغتهم وملابسهم وعيشتهم بعد أن سبق وقلدوا اليونان والرومان والعرب فقال إنه يخشى أن يكون قد قُضي على مصر "بألا تصير مصرية أبدا"[١٤٧٠].

▼▼▼ نتائج الاحتلال الإنجليزي (إفساد المصريين[١٤٧١])

إن كان الخطوة الأولى التي سارع المحتلون لتنفيذها لتطمئن قلوبهم هي تصفية الجيش المصري من جنود الثورة، فإن الخطوة الثانية هي تصفية الشخصية المصرية نفسها من مصريتها، وحشوها بعادات وتقاليد وأفكار دخيلة تجعلها مسخا مضحكا، أو بحسب أحد التعبيرات "هلفتة الشخصية المصرية"، بحيث لا تعرف لها شخصية.

إن أرض مصر الطيبة لا تخلق الشر.. ولكن حين يغفل حور ويتحكم الهكسوس، يهاجر إليها ويرتع الشر.

وطوال الاحتلالات، من الخاسوتيمي إلى العلوي، تركز النزح الأجنبي على الثروة والعرق والدم، أي فرض السيطرة بالسيف وتسخير المصريين في الزراعة والبناء، وأحيانا نزح دماءهم بحدفهم في حروب غيرهم.

وكونه يوجد حينها في مصر أغلبية فلاحية أصيلة تتبع الأرض وأقلية خليطة دخيلة تتبع المحتل، ترتب على هذا أن في مصر مدرستان:

▲المدرسة الكبرى: المدرسة المصرية المتربعة في الأرياف تقتات على ما ترثه من قيم ماعت ينقلها الفلاحون لأولادهم شفهيا بالأخلاق والأفكار والتقاليد والأغاني والأمثال الشعبية الموروثة جيلا بعد جيل.

▼ومدرسة صغرى: هي المدرسة الغازية المتربعة في المدن الكبرى، ليس لها منهج محدد، بل ألف منهج وألف دين وعقيدة لأن لكل جالية منهجها.

ولاحظنا أنه لم يذهب المحتلون خلال تلك العصور إلى المصريين في الأرياف عن عمد لتغيير شخصيتهم، أو تحويلهم إلى شيء آخر غير أنهم أولاد البلد الفلاحين، ولم يرغبوا في أن يحولوهم إلى يونان أو رومان أو عرب أو مماليك أو أتراك، بل اهتم المحتلون بالانعزال عن المصريين، والإبقاء عليهم فلاحين بصفة "مغلوبين"، حتى في القوانين والأوراق الرسمية كما رأينا في تفريق القوانين اليونانية والرومانية والعربية

(١٤٧٠)- مصر في القرن التاسع عشر، صالح جودت، مطبعة الشعب، القاهرة، ١٩٠٤، ص ٦- ٨

(١٤٧١)- صدر في ١٨٨٢ كتاب بعنوان "إفساد المصريين- قصة العار"، للبرلماني الأسكتلندي سيمور كار، حكى قصة إفساد الأوروبيين لسعيد وإسماعيل بتعويدهم على الديون لتسهيل احتلال مصر، أما إفساد المصريين الحقيقي فهو ما سيطلق صفارته كرومر وهدفه المصريين الحقيقيين وشخصيتهم.. ليستمر احتلال مصر ولو بدون جيش أجنبي.

والإنجليزية إلخ في المعاملة والتصنيف بين الجاليات التابعة لهذه الهويات وبين الفلاحين، وإذا ما قام الفلاحون بثورات يكون قمعها ماديا، أي بالسلاح.

وأي عادات سيئة دخيلة أو تقيحات انتقلت من الأجانب إلى الشخصية المصرية هي نتيجة للأوقات التي تعيش فيها الجاليات الأجنبية بجانب المصريين حين يصعب عليها الإقامة في المدن مثلما فعلت القبايل والعربان، أو حين يتسربَ بعض المصريين للمدن، أو ينالون قسطا من التعليم الأجنبي ووظائف، ولم يظهر شيء منظم يُراد به محاصرة الهوية المصرية الفلاحية إلا في قرار غلق المعابد المصرية وقمع الدين المصري القديم، والتغلغل المتعمد من الطرق الصوفية في الريف.

إلا أنه بداية من الاحتلال الإنجليزي أصبح إفساد الفلاحين سياسة رسمية، لها كتبها، وتقاريرها الدورية للمتابعة من المندوب البريطاني، وخططها المرحلية، بهدف تصفية الشخصية المصرية تماما، بحيث لا يظل الفلاح فلاحا، بل مسخا بواحا.. وكما قال حافظ إبراهيم لعميد هذا الإفساد كرومر:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذّبت حواشيه حتى بات ظلما منظما[١٤٧٢]

وإذن.. لماذا لجأ الاحتلال الإنجليزي إلى الإفساد المنظم لشخصية مصر؟

فوجئ الإنجليز أنه برغم غرق الأرياف في الجهل والخرافات والفقر المدقع والإذلال، ورغم كل التقيحات التي نخرت جلدها من الاحتلالات، إلا أن هذا النخر لم يتعدَّ الجلد إلى العظم والنخاع، فظل العظم والنخاع والروح في سلامة كبيرة، كالشجرة المباركة، جدرها في الأرض سليم وعفي، وإن اصفرت الأوراق وتشرخت الفروع الظاهرة فوق الأرض لكثرة ما تعرضت له من إهمال وعطش وهواء فاسد.

وأعلنت هذه الجدور المباركة عن نفسها في الثورة التي زلزلت العالم حقا وحكامه روتشيلد وإخوانه، ثورة ١٨٨١.

إن أبناء إيسة وأوزير ما زالوا بالملايين لحما ودما، هؤلاء الفلاحين ما زالوا يشعرون أنهم أصحاب الأرض، وأنهم الشعب السيد الواحد.. ما زالوا يحبون بعضهم بعضا حتى فوجئنا بأنهم لما عادوا للجيش عاد الغيط والجيش جسدا واحدا، إنهم ما زالوا متعلقين بالأرض ويعرفون معنى الدين والوطن، إنهم ما زالوا رغم كل الإذلال لهم يرون في أنفسهم شخصية مميزة حرة تستحق أن تحكم نفسها بنفسها، عادوا ليقولوا مصر للمصريين، إنه ما زالوا يرفضون الغريب، وما زال فيهم الشهامة التي جعلتهم يضحون بما عندهم ليسترد لهم جيشهم بلدهم، إنهم ما زالوا يرون أنفسهم أشرف من محتليهم، إنهم ما زالوا ينبضون: تحية لكي يا عين حور.

[١٤٧٢]- قصيدة "مصر تشكو الاحتلال" في ديوان حافظ إبراهيم، جمع وشرح: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٣٣٩

معنى هذا، أنهم سيثورون مرات أخرى، وستفلت مصر من الاحتلال (المسيخ الدجال) يوما، ستقلدها بقية الشعوب، ويحفظ كل شعب أرضه من السقوط في فخ التنظيمات العالمية والإمبراطورية، وهذا لن يتناسب مع خطط الحرب العالمية الثالثة والثورة الثالثة، لن يكفي تصفية رجال الثورة والجيش، بل تصفية وتفريغ الشخصية المصرية ذاتها، كشوال دقيق طاهر يتصفى بالتدريج ليُعبأ على مهل.. بأي قمامة.

فاتجه النزح، ليس فقط إلى المال والدم والعرق، بل لتخريب المدرسة المصرية الكبرى... حتى النخاع، خاصة أنه يصعب إبادة المصريين كبشر في الوقت الحاضر- آنذاك- لأنه لن يوجد أصبر ولا أمهر منهم في زراعة المساحات الواسعة أو التعامل مع النيل وشبكة الري، وتشييد المباني العملاقة، ولا أقنع منهم فيما يخص الأجر، كما أنه كان انتهى زمن استيراد العبيد لاستخدامهم في العمل الشاق بعد إبادة الشعوب الأصلية كما جرى في أمريكا وأستراليا.

فليبقَ المصريون إذن- مؤقتا- مدام يمكن تصفية ما يُخيف في شخصيتهم، وتحويلهم إلى مجرد أحجار على رقعة شطرنج، ونستفيد من عرقهم ودمهم ومهاراتهم، وهو ما يتبع أيضا منهج الإفساد العالمي الذي تابعنا خيوطه في خطة تنظيم "الناريين" لتسهيل إحكام سيطرة فئة قليلة على العالم.

يقول الدكتور سامي عزيز بعد غوصه الطويل في الصحافة الصادرة في مصر عقب الاحتلال الإنجليزي، ولخصها في كتابه "الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي" إنه بعد أن تم الاحتلال ١٨٨٢: "كثرت المحاولات التي تستهدف خلق مجتمع جديد تتغير فيه القيم المادية والمعنوية والمثل التي يسترشد بها الشعب، لا في الأوضاع السياسية فحسب، بل في كافة نواحي الحياة الأخرى".

وباتت الصحافة أهم أدوات هذا التغيير، يواصل عزيز: "إذ استخدمها العهد الجديد لإحداث "تغيرا في العقائد المذهبية والسياسية، ومحاولة إحداث تغيرات متلاحقة في كيان الشعب، وهز مقوماته التي رسخت حتى تسهل زحزحتها، ثم دكه بعد ذلك لإرساء مقومات أخرى جديدة تتفق وأهداف الحاكم الجديد واتجاهاته"[١٤٧٣].. ألا يكونوا مصريين.

وصراحة تحدث كرومر[١٤٧٤] عن هذا في كتابه "مصر الحديثة"، وأنه لا يخشى منافسة أوروبا لبريطانيا في مصر، ولكن ما يهمه هو صنع الثقة بين بلاده وبين المصريين، فيقول: "كان على الإنجليز مهمة كبرى هي محاولة ربط مصر بهم، وصبغها بصبغتهم أو بالصبغة التي ترضي فيما بعد أن تكون البلاد جزءا لا يتجزأ من الدولة البريطانية، كل هذا دون إثارة إحدى الدول، ودون عنف، ودون اتخاذ إجراءات قاسية، ولكن

[١٤٧٣]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٥- ٦

[١٤٧٤]- اسمه في الأساس إيفلن بيرنج وعائلته من أصل ألماني أسست بنكا في لندن مثل عائلة روتشيلد، ورغم ضعف كفاءته في بداية حياته إلا أنه بالواسطة والمحسوبية الخاصة بعائلته تدرج في وظائف دبلوماسية هامة في الهند، وانتقل لمصر ليعمل عضوا بصندوق الدين المشنوم، ثم تولي لمدة ٢٣ سنة منصب القنصل أو المندوب البريطاني من ١٨٨٣- ١٩٠٦، وغادر مصر بضغط من الرأي العام لدوره في مدبحة دنشواي، أصدر كتابه "مصر الحديثة" يمجد فيه الاحتلال الإنجليزي ويزعم أنه صاحب "فضل" على مصر ويصف المصريين بـ"نكران الجميل"، لأنهم ثاروا في وجه الاحتلال (انظر: مقدمة د. أحمد زكريا الشلق لكتاب مصر الحديثة، اللورد كرومر، المركز القومي للترجمة، ط ١، ترجمة صبري محمد حسن، القاهرة، ٢٠١٤، ص ١٩- ٣٩)

بهدوء وصبر وطول أناة"[١٤٧٥].

أول ما فعله الاحتلال الجديد في هذا الطريق هو إخراس الصحافة الوطنية بتصفيتها، وإنشاء عدد أكبر من الصحف غير المصرية، واستيراد وتشجيع الشوام واليهود والمغاربة والأرمن على إصدار صحف تعبر عن أفكار غير مصرية لإغراق السوق والأفكار بهم، فلم يكن في مصر وقتها عدد يكفي من المثقفين المصريين المتشبعين بالأفكار الأجنبية المسمومة لينشروها.

واستدل سامي عزيز على هذا بعدد ونوعية الصحف التي تفجرت في زمن الاحتلال الإنجليزي: "وتؤيد هذه الفكرة كثرة عدد الصحف والمحلات التي تناولت كافة نواحي النشاط البشري فهناك صحف للزراعة وأخرى للطب وللعلوم والقضاء والسياسة والأدب، لكن "كل منها يحاول تعميق مفاهيم جديدة في أذهان المصريين لم يكن لهم بها عهد".

وفي مقابل مطاردة الصحفيين المصريين- مثل عبد الله النديم- وكسر أقلامهم والاستيلاء على أملاكهم، فإن الصحف الشامية التي اضطرت لمغادرة مصر خلال ثورة ١٨٨١، عادت بعد موقعة التل الكبير، ليسيطروا على الساحة، وحصل أصحاب جريدة "الأهرام" على ١٨٠ ألف فرنك عن مطبعتهم التي راحت في حريق الإسكندرية في حين أن المطبعة لا تساوي أكثر من ٥٠٠ فرنك.. انظر للفارق، كما حصل سليم النقاش على ٤٠ ألف فرنك "تعويضا" عن احتراق المطبعة أيضا[١٤٧٦].

وللاقتراب مما يحتويه قلب هذه الصحف وأصحابها لمصر نقترب مما حواه قلب مؤسس جريدة "الأهرام" بشارة تقلا، يقول عرابي في خطاب منه إلى محاميه الإنجليزي برودلي عن صور الإهانة التي تعمد الخديوي وأتباعه إرسالها للمصريين في المعتقل: "وبعد ساعة فُتح الباب، وإذا بمحرر جريدة الأهرام اسمه (بشار تقله) فظننت أنه جاء ليزورني ويهون علي المصاب لكونه كان معنا قبل الحرب، وكان يحلف بدينه وشرفه أنه كواحد منا، وأنه من دعاة الحرية، وكنا نجله ونكرمه، وإذا به أتى بوقاحته ليشمت بنا، وقال لي بنفور: عرابي أي شيء سويت، رأيت أي شيء صار لك، فعلمت أنه ذو وجهين، وأنه لا شرف له، فلم أجاوبه"[١٤٧٧].

وعلم كرومر تأثير الصحافة على المصريين، سواء من يقرأون أو من تتلى عليهم ما في الصحف في العيلة أو القرية أو الحارة، فقال: "إن السواد الأعظم من المصريين من أعظم الناس تصديقا لما يقال"، ويؤرخ الصحفي الشامي فارس نمر (من صناع القومية العربية الأوائل) لصدور جريدة "المقطم" سنة ١٨٨٩ بأنه حضر من الشام مع زميليه يعقوب صروف وشاهين مكاريوس (مؤسس محفل اللطائف الماسوني) تلبية لدعوة كبراء مصر (الإنجليز والخديو) الذين اقترحوا عليهم إصدار صحيفة في مصر، وأنه "استدعيت إلى الداخلية فوجدت اهتماما ملحوظا وعناية تامة، وطلبت اسم "المقطم" ولما سئلت عن السبب في اختيار هذا

[١٤٧٥]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٢٢٤

[١٤٧٦]- المرجع السابق، ص٧٠ نقلا عن صحيفتي "الفلاح" ١٨٩١، و"الوقائع المصرية" ١٨٨٣

[١٤٧٧]- كيف دافعنا عن عرابي وصحبه، أ.م. برودلي، ترجمة وتحقيق عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٤٢

الاسم بالذات قلت لأنه الجبل الذي بنيت من حجارته الأهرام الثلاثة"[١٤٧٨].

فهل كان احتفاؤه ببناء الأهرام أم حلما بهدم الفلاح الذي بنى الأهرام؟

وهنا ملامح سريعة للمجالات التي نخر بها الاحتلال في عضم ونخاع المصريين، وهدم المدرسة المصرية الكبرى (ماعت)، وإدخال الفلاحين- لأول مرة- مدرسة المسيخ الدجال، ووسائله في هذا: الصحافة، المدارس، السينما، الأحزاب، التيارات والمذاهب الأجنبية، الدمج بالجاليات الأجنبية.

❶ (عبادة الاحتلال)

تابعنا أن تمجيد الاحتلال ظهر في مصر على نطاق ضيق جدا، أيام الاحتلال الروماني، وإن كان في حقيقته ليس تمجيدا للاحتلال ذاته، بل لبعض الحكام الرومان الذين ساعدوا على إفساح المجال لانتشار المسيحية، حتى مجد بعض المتعلمين قسطنطين مثلا؛ فكان تمجيدا للدين في الأصل، والخطيئة كانت الخلط بين الدين وبين المحتل، وكذلك فعلوا حين مجد بعضهم احتلال مصر باسم الخلافة الإسلامية.

أما الاحتلال الإنجليزي فسيسير على نظام المحافل الماسونية التي أتى بها نابليون لاستقطاب ولاء المصريين باسم "الإخاء العالمي"، وذلك بغرس تمجيد الاحتلال ذاته كاحتلال- لأول مرة في التاريخ- كأجانب يحكمون البلد، أيا كان دينهم أو لغتهم أو جنسهم، بأن يربط بين تقدم مصر وتحضرها وبين وجود هذا الأجنبي.

وبتعبير سامي عزيز فإنه "يعتبر إصدار المقطم الحلقة الثالثة من حلقات إحكام الحصار حول الرأي العام في مصر؛ إذ كان أصحابه الثلاثة يصدرون مجلة "المقتطف" العلمية في مصر منذ ١٨٨٥، ثم أصدر شاهين مكاريوس مجلة "اللطائف" الأدبية الاتجاه عام ١٨٨٦، ثم صدر "المقطم" الذي اختص بالنواحي السياسية"، وجميعها تدعو لمحبة الاحتلال والفرنجة بين المصريين، ومحاربة مبدأ مصر للمصريين.

وفي أول عدد لها عقب موقعة التل الكبير خرجت "المقتطف" لترسل تهنئة في افتتاحية عدد نوفمبر ١٨٨٢ على "خمود نيران الثورة المصرية، ورجوع ماء مصر إلى مجاريها، وانكساف شمس باغيها، ولا عجب أن حدا إليها حادي العمل وأوى إليها طائر السلام".

وعن سبب اختيار هؤلاء الشوام الثلاثة، وغيرهم من شوام جاءوا قبلهم أو بعدهم وسيطروا على الصحافة في مصر يقول عزيز "وقد نشأ أصحاب المقطم في أكبر مدرسة غربية تأسست في الشرق، وهي الكلية الأمريكية في بيروت، وعرفوا التمدين العصري وبرعا في العلم الجديدة، وقد اقترن فارس نمر في ١٨٨٨ بابنة قنصل إنجلترا السابق في الأسكندرية، ثم سافر إلى لندن واجتمع فيها بكبار السياسيين، ولا غرابة إذن

[١٤٧٨]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٩٦

في أن يصف نمر وجود الإنجليز في مصر بأنه "كان أكبر نعمة، وسوف يستمر كذلك لهذا القطر"(١٤٧٩).

وقالت عنهم صحيفة "الأستاذ" التي أصدرها عبد الله النديم بعد انتهاء فترة نفيه إن الصحفيين الشوام الثلاثة: "التزموا في جريدتهم اليومية تنفير الأمة، وتحسين الاعتراف بسلطة الغير"، أي قبول الاحتلال والتخلص من الحمية والغيرة الوطنية.

ولا يجد كرومر حرجا في أن يصف "المقطم" بأنها "موالية للإنجليز"، كما قال مارتن هارتمان الذي أرَّخ هذه الفترة في كتابه "الصحافة العربية في مصر" إن الإنجليز يدفعون مبلغا ضخما من المال لـ"المقطم"، ويفسر هذا بقوله "فهو لسان حالهم، ويحاول الإنجليز استخدامه في مصر كوسيلة لإفساد الرأي العام، فكان أصحابه أكبر المدافعين عن مصالح إنجلترا، ولا شك في أنهم كانوا رجال أعمال من الطراز الأول".

وتدفق التمويل على أصحاب "المقطم" من الخزينة المصرية- جيوب الفلاحين- من أوسع أبوابها، فاختارت السلطات الحاكمة مطبعة المقطم لتطبع مطبوعاتها الحكومية بدلا من المطبعة الأهلية، وعلقت صحيفة "البسفور إجبسيان" الصادرة في مصر بالفرنسية: "وهكذا اكتشفت طريقة جديدة على حساب مصر لزيادة مكافأة تلك الصحيفة العربية التي تعمل جاهرة لخدمة الإنجليز"، كذلك علقت صحيفة "الفلاح" بأن وزارة الداخلية تطبع في مطبعة "المقطم" جرنال "وقائع البوليس" بمبلغ ٥٠٠ جنية في السنة، في حين أنه لو طبع في مطبعة أخرى لم يكلف أكثر من ٥٠ جنيها، كذلك اختارت حكومة الاحتلال الصحيفة الشامية لطبع ما يخص المحاكم، وتحدث كرومر عن مصادر أخرى للتمويل حين أشاد بأن "المقطم" تطبع تقاريره السنوية باللغة الإنجليزية عن أحوال مصر وتترَجمها للعربية والفرنسية وتوزعها على المشتركين.

ولكي تصل الصحيفة إلى أكبر عدد في أقصى أرياف مصر، فإنه إضافة لكثرة مطبوعاتها والأعداد التي تطبعها، فإن إنجلترا خصصت لها مطبعة خاصة تصدرها في شكل يسهل طيه إلى طيات صغيرة يسهل حملها في جيوب العمد ومشايخ البلاد، حتى تسمت هذه المطبعة بـ"مطبعة حجم المقطم"، وأصبحت الصحيفة المناصرة للاحتلال توزع ضعف أو ثلاثة أمثال عدد نسخ صحيفة "المؤيد" المعادية للاحتلال على سبيل المثال(١٤٨٠).

أما ما سجلته للتاريخ والأجيال المعاصرة لها والمقبلة- مقدمة نفسها على أنها مصرية وتتحدث بلسان المصريين- خاصة أن نادرا من الناس من يعرف حقيقة وجنسية من وراء الصحف، ويتصورون أن هذا هو "كلام المصريين المتعلمين المتنورين" فيقلدونهم، فإنها بررت وقوفها مع الاحتلال بقولها: "لما نال مصر من خير على يديه"، وفي ١٨٨٩ وما تلاها نشرت مقالات منها ما عنوانه "هل مصر في تقدم؟" لترد بأن مصر "تقدمت وتتقدم وهي الآن في تقدم لا ينكره إلا طامع بنا أو ذو رغبة، كيف لا، وهي رائعة في ظل خديويها ووزيرها، وآمنة بهمة أعوانها الإنجليز من كل طارق"، وعن تحسن الأحوال المالية قالت: "يطول بنا تعداد الفوائد الجمة التي أدخلت عليها".

(١٤٧٩)- المرجع السابق، ص ٦٦ و٩٧

(١٤٨٠)- المرجع السابق، ص ٩٨- ٩٩

ودعت لزيادة الأجانب في القضاء المصري: "كذلك تحسنت المحاكم الأهلية، ولكنها تحتاج إلى زيادة التدقيق في انتقاء القضاة، ولا بد من زيادة الإنجليز عما هم عليه الآن"، كذلك ما يخص التعليم: "والضرورة تقتضي إبقاء زمام التعليم بأيدي الأساتذة الأوروبيين"، وفي ١٨٩٠ و١٨٩١ وصفت ثورة مصر بأنها "البلاء الذي نزل بالبلاد في عام ١٨٨٢ وكيف صال شيطان الفوضى"، مقدمة الشكر للإنجليز لأن يدهم "أرجعت المياه إلى مجاريها، وشيدوا دعائم الحضارة، فهل نُلام إذا شكرناهم وفاء للدين الجميل"(١٤٨١)... وبالطبع لم يكن هناك جميل للاحتلال إلا على هذه الصحف وأصحابها الهكسوس.

وفي ١٧ أبريل ١٨٩٠ نشرت مقالا وصفه سامي عزيز بأنه "الأشد قسوة على الشعور الوطني"، حول مطالب المصريين بجلاء الإنجليز، قال فيه أصحاب "المقطم" (صناع القومية العربية)، أنكروا فيه حق المصريين في الحرية التامة، وسخرت من تاريخهم القديم: "العاقل يرى أتباع سياسة المحاسنة والموادعة، ثم ما هو الاستقلال الذي يبكونه والحرية التي يندبونها؟ ففي زمان أي الآباء والجدود تمتعوا باستقلال وحرية حرموهما الآن؟ ومتى كان زمام البلاد في قبضة يدهم وسلب الآن منهم؟ وأي شيء تغير عليهم، وما ضرهم إذا انفردت بالنفوذ دولة واحدة بينهم لا سبع عشرة دولة أجنبية، وأي خسارة خسروها بتقليد رجال من الإنجليز وظائف كان يتقلدها غيرهم من سائر الأجانب، وما ضرهم وجود فرقة من الجنود الإنجليزية لزيادة توطيد الأمن، ومشاورة دولة واحدة لا مرضاة سبع عشرة دولة، لهذا كله لا نزال نتبع سياسة المحاسنة ونحض على ترك سواها، فهي النافعة لهذا القطر والكافلة لتأييد الاستقلال".

وبعد ٤ أيام كتبت في صفحتها الأولى "علمنا أن ما كتبناه تحت عنوان الاحتلال والاستقلال حلّ لدى العقلاء محل القبول لمطابقته مصلحة البلاد وأحكام العقول"، أما حين رفض المصريون ما جاء فيها وصفتهم بـ"الأعداء" الذين حاولوا "كسر أقلامها"، وشكرت كرومر على دفاعه عن الصحيفة "فحال اللورد كرومر بينهم وبين ما يشتهون"(١٤٨٢).

هكذا من فروا من وجه الاحتلال العثمانلي في بلادهم بالشام، واخترعوا "القومية العربية"، ليختلقوا "قومية ومجدا" لبلدهم يحاربون به الاحتلال العثمانلي، جاءوا إلى مصر ليضللوا أهلها ويقنعوهم بـ"مزايا الاحتلال" الإنجليزي وضرورة القبول به ونبذ القومية المصرية الأصيلة، مدام الاحتلال ليس عثمانيا.

وحاربت صحيفة "البال مال جازيت" مبدأ "مصر للمصريين" قائلة إنه "لا يصح أن تكون سياسة إنجلترا مبنية على اللائحة الوهمية وهي مصر للمصريين".

ودخل على الخط صحفيين أرمن، فسخَّر ألكسان صرافيان صحيفة "الزمان" للدعوة للاحتلال، وعلق قسطاكي الحلبي في كتابه "تاريخ صدور الصحف": "إن الاحتلال راق للأرمني ألكسان فصدر جريدة الزمان، وصار يتغنى على صفحاتها بمزايا هذا الاحتلال، ويتمناه لعاصمة بني عثمان لراحة بني

(١٤٨١)- نفس المرجع، ص ١٠٠-- ١٠١

(١٤٨٢)- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، سامي عزيز، ص ١٠٢- ١٠٣

جنسه"[١٤٨٣]، فاتخذ شوام وأرمن من مصر قاعدة لتصفية حسابات "بني جسنهم" مع العثمانلية، عبر محاربة العثمانلية باعتباره "احتلالا"، في حين يؤيدون إنجلترا باعتبارها "نعمة لمصر".

وحتى صحيفة "البرهان" العثمانلية الصادرة في مصر حاربت "مصر للمصريين"، لما عادت للصدور، فكتبت في ١٨٨٣ عن الدعوة إلى "المسالمة والتوفيق بين القلوب بلا نظير للجنسية والمعتقد، وقد جمعت إنجلترا من جنودها ما يكفي لردع العصاة الذين تمزقت قوتهم بعد ٣٠ دقيقة"[١٤٨٤]، في سخرية من المصريين في موقعة التل الكبير.

ويرصد الخديوي عباس حلمي الثاني في مذكراته- وكان في بداية حكمه رافضا للاحتلال الإنجليزي- أن "الصحافة المصرية كانت في تلك الفترة إلى حد ما في أيدي أجانب أو فريق من الأمة يؤثر إرضاء مطامحه على المحافظة على مصلحة مصر".

ويعلق حينها الصحفي المصري سلامة موسى على كثرة الصحف الأجنبية في مصر بقوله: "وكان عارا علينا أن يوكل تكوين الرأي العام المصري إلى أقلام غير مصرية، غريبة عنا في المزاج، لا يشغل قلوب أصحابها ما يشغل قلوبنا من أماني وآمال، وكان علينا جميعا أن نقرأ كل يوم ما يكتبه لنا الصحفيون غير المصريين فيما يجب علينا وما لا يجب أن نتبعه في سياسة بلادنا من الخطط، وكانت الصحف والمجلات غير المصرية (الأجنبية) تنساب بين العامة كأنها الحيات السامة، وبها هذر وهذيان وسخف لتسميم العامة وإضعاف عقولها"[١٤٨٥].

وضمن حاشية الاحتلال الإنجليزي أو العثمانلي الصحفية كان مغاربة، منهم محمد بيرم الخامس هرب من تونس من وجه الاحتلال الفرنسي إلى الأستانة، ومنها جاء ليجاهد ضد الاحتلال الفرنسي من مصر، فكان "جهاده" مناصرة الاحتلال الإنجليزي باعتبار أن الإنجليز أعداء فرنسا، ولم يهتم بمصلحة مصر التي "يجاهد" من فوق أرضها ومن خيراتها، وكان من أوائل من مزج الدين بالسياسة لإقناع المصريين بعبادة الاحتلال عبر صحيفته "الأعلام"، وذلك بأن دعت إلى أن أوامر الدين تقضي باتباع الحاكم (توفيق التابع للإنجليز حينها)، فتقول الصحيفة: "فالخديو توفيق منذ صعد منصة الخديوية كان أول خطاب له مؤذن بإجراء الحرية، ومن فروعها حرية المطبوعات، ولقد رأينا إصدار جريدتنا تنحو "منحى" الملاءمة بين الشريعة والسياسة"، وأنه "لذلك أسسناها لتعضيد سياسة حكومتنا السنية".

واستدعت من التاريخ أحداثا تخص مسلمين وفصلتها تفصيلا جديدا لتبرر بها تأييد الإنجليز، فقالت في ١٨٨٥ (بعد ٣ سنين من كسر ثورة ١٨٨١) : "إن الرسول أمر جمعا من أصحابه وفيهم ابنته بالاحتماء بملك الحبشة وهو نصراني من ظلم مشركي العرب، وأقاموا عنده مدة، وهذا دليل لجواز الاحتماء بغير المسلم، وقد استدل به الفقهاء في الأفراد والعلة جارية في الكل، والحالة الراهنة شاهدة به، فإن لم يكن تسلط

[١٤٨٣]- نفس المرجع، ص ١٠٤- ١٠٥

[١٤٨٤]- نفس المرجع، ص ١٠٦

[١٤٨٥]- المرجع السابق، ص ١١١، نقلا عن كتاب سلامة موسى "الصحافة حرفة ورسالة"

الإنجليز الذي هو عبارة عن حراسة فقط مع بقاء الأمور على مجراها كان تسلط غيرهم وحالة الذين تحت أيديهم معلومة ولو مع أبناء ملتهم"، ويلقح بهذا الكلام أن الإنجليز أفضل من العثمانلية[١٤٨٦].

ومن صحافة التجارة بالدين صحيفتي "الاعتدال"، و"البرهان للمغربي حمزة فتح الله لصالح السلطان العثمانلي، وصب نارا على عرابي وكل المصريين في عز احتدام المعارك مع الإنجليز، فظل يفسر الآيات والأحاديث بما يعني أن عرابي مذنبا، وشكا منه عرابي في مذكراته وأورد أجزءا مما كتبه.

ثم تحولت جريدة "البرهان" ومعها "الزمان" العثمانيتين لدعم الإنجليز ضد أي حركة وطنية جديدة تتنفس بعد الاحتلال، داعية المصريين إلى الاستكانة، قالت "الزمان" في صفحتها الأولى: "الاعتدال أسلم فلم تمر بك الأيام التي تنسيك هذه الغصص والصروف التي جلبتها أعوان الحماقة"، في إشارة إلى ثورة ١٨٨١، وطالبت "البرهان" ١٨٨٣ بتشكيل لجنة من الإنجليز والمصريين لتتبع الوطنيين بعد ظهور أخبار عن تشكل جمعيات سرية تسعى لاستكمال طريق ثورة ١٨٨١ ضد الإنجليز: "حتى يطهر القطر من رجس المفسدين"، كاشفة عن تخوفها من صحوة فلاحية جديدة: " فكنا قد ظننا أنه لا يجرأ أحد من أبناء البلاد على هذا السعي الممقوت غير أن شواهد الأحوال نبأتنا بغير ما كان في الحسبان"، معتبرة أن كل مصري يقاوم الإنجليز "خائن أثيم".

وفي ١٨٨٤ دعت صحيفة "الزمان" المصريين إلى النوم وترك السياسة لمن يفهم فيها، خصوصا أن الله "أرسل إنجلترا لتساعد المصريين"[١٤٨٧]:

وإذا العناية لاحظتك عيونها   نم فالمخاوف لهن أمان

أمر آخر مدهش جدا، أن اليهود والشوام المسيحيين دخلوا على خط الطرق الصوفية الشائع منذ الاحتلال المملوكي فيما يخص بث روح "الرضا بالظلم"، وكراهية أي مال أو منصب- ولو كان قليلا- حتى يموت أي دافع لمقاومة النهب الأجنبي لثروة البلد، فنجد الحاخام اليهودي مزراحي صاحب جريدة "الحقيقة" يكتب مقالات في ١٨٩٠ ضد المال!: "وكم من الناس سفكوا الدماء حبا بالمال، وكم انصرفوا بعيدا عن الأحبة والأصدقاء طمعا فيه، ومحبو المال كالأسرى في أيدي الشياطين، ثم إن المال يحمل صاحبه على الظلم" وذلك "بعكس الفقير، فهذا بالكاد يسند رأسه عل مخدة النوم فيرقد مستريحا، أما ذاك (الغني) فيحيا الليل تائها في بيداء الأفكار"، ولم يخبر الكاتب اليهودي القراء هل هو وبنو ملته تنازلوا عن أطنان المال والذهب التي جمعوها في مصر أم لا؛ ليصبح "مرتاح البال".

بالمثل فعلت صحيفة "المقطم" فتقول: "فالقنوع من ربَّى نفسه على الرضا والسرور، فيرى البهجة والحبور في نور الشمس وضياء القمر وتلألؤ الكواكب"[١٤٨٨].وليسرح المصريون مع الكواكب بعيدا عن سبب الكدر الأساسي وهو الاحتلال وأعوانه.

(١٤٨٦)- المرجع السابق، ص ١٢٥- ١٢٦

(١٤٨٧)- نفس المرجع، ص ١٣٢- ١٣٨

(١٤٨٨)- انظر: الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ١٣٩- ١٤٠

ودخلوا على خط الروايات في تزوير التاريخ للأجيال المعاصرة والقادمة، فكتب إسكندر شاهين (ابن أخ مكاريوس شاهين) رواية غرامية باسم "تحفة العصر أو الإنجليز في مصر" يعدد فيها محاسن الإنجليز في مصر وأشكال الارتباط بينهم وبين المصريين وتعرض لثورة ١٨٨١، وخصصت وزارة المعارف جوائز على من يفوز من المصريين بمعرفة اللغة الإنجليزية[١٤٨٩].

ويصف سعد زغلول- وهو أحد المشاركين في ثورة ١٨٨١- لمحمد عبده متحسرا على الاضطرابات والتقلبات التي لعبت في الرأي العام بعد سنين قليلة من الثورة: "الناس أخذوا في نسيان ما فات من الحوادث وأهوالها، وقلت قالتهم فيها، وخفت شماتة الشامتين منهم، وأصبح المادحون للإنجليز من القادحين فيهم، وبالعكس"، وسعى لإصدار صحيفة باسم "العدالة" ليرد فيها على مشاعر الاستكانة والأكاذيب التي تروجها صحيفة "المقطم" لكن اختياره قاضيا أوقفه عن الاستمرار.

أما محمد عبده نفسه فبعد حبسه ثم نفيه عقابا على اشتراكه في الثورة، فإنه حين قبلت حكومة الاحتلال عودته من المنفى اشترطت عليه عدم العمل في الصحافة[١٤٩٠].

وبذلك سارت الحياة رتيبة هانئة للاحتلال في سنواته الأولى، حتى عاب حافظ إبراهيم على الشباب التفاهة وتجاهل المثل العليا، مع الاهتمام بالغريب أكثر من أهله المصريين، وقال في ١٩٠٤:

أمة قد فتّ فى ساعدها ... بغضُها الأهلَ و حبُّ الغربا

وهى والأحداث تستهدفها ... تعشق اللهو و تهوى الطربا

لا تبالى لعب القوم بها ... أم بها صرف الليالى لعبا[١٤٩١]

وظلت الحركة الوطنية خافتة مطمورة تحت الرماد حتى فجرتها مرة أخرى مدبحة دنشواي.

ويعترف كرومر بأنه رغم هذا الضغط الصحفي لكن "الوطنية الحقيقية استمرت حية طوال الاحتلال، ولو أن صوتها كان خافتا إلى حد كبير"، ويستدل سامي عزيز على استمرار جذوة ثورة ١٨٨١ وتعلق الناس بها باستمرار اشتداد الصحف العربية والتابعة للإنجليز والعثمانلية وفرنسا في تحقير شأن عرابي والفلاحين، فحين تردد أن عرابي قد يعود لمصر ١٨٨٥ تصدت جريدة "المحروسة" لصاحبها الشامي خليل النقاش بنصح ملك إنجلترا: "أن لا تأذن لزعيم القتلة المخربين الآثمين في ١٨٨٢ أن يرجع مارا بالأسكندرية أو مصر فإن في هاتين المدينتين نساء ورجالا وأطفالا قد فجعوا بأفلاذ أكبادهم بسبب زعيم العصابة". وقد تقصد بهؤلاء العائلات الأجنبية التي مات بعض أفرادها خلال الأحداث.

[١٤٨٩]- نفس المرجع، ص ٢٥٣ و٢٥٧

[١٤٩٠]- نفس المرجع، ص ٦٩- ٧٠-

*** قارن بين هذا الحال وبين شكوى فنانين ومخرجين ومؤلفين في الدراما والسينما المصرية حاليا من غلق الأبواب في وجوههم في تقديم فن مصري يحمي القيم والكبرياء المصريين، في حين الأبواب مفتوحة على آخرها أمام شركات إنتاج أجنبية أو محلية مشبوهة وفنانين وافدين يقدمون أسوأ أنواع الفن، ويصورون المصريين على أنهم هلافيت وبلطجية ودواعر، ويبعدهم كل البعد عن قضاياهم الحقيقية.. والتاريخ للغفلان دواير.

[١٤٩١]- انظر المرجع السابق، ص ١٤١، وقصيدة "غادة اليابان" في ديوان حافظ إبراهيم، مرجع سابق، ص ٣٢١

ولما ناقش مجلس العموم البريطاني عودة عرابي من المنفى لأن المسألة بينه وبين بريطانيا مسألة سياسية انزعجت "المقطم" في ١٨٩٠ لتقول: "هل اغتصاب البلاد وسفك دماء العباد واهتضام الحقوق مسألة سياسية"[١٤٩٢]. فاعتبرت أن عرابي والفلاحين "اغتصبوا" مصر، كأنها تقرأ في قاموس المسيخ الدجال، من يحرر بلاده "مغتصب"، ومن يحتل بلاد غيره بالسلاح أو بالصحافة "محرر".

وحاربت "المحروسة" القومية المصرية، فكانت اتجاهاتها لدَعم السلطان العثمانلي وفي نفس الوقت دعم الثقافة الفرنسية ونشر صالوناتها[١٤٩٣]، ويقول الشامي فارس نمر إن "المصريين عندما يتحدثوا عن الاستقلال إنما يعنون حالة مشابهة لما عليه تركيا من سوء إدارة وإرهاب وبربرية في كل صورها"[١٤٩٤]، أي لا يصلحون للاستقلال.

وكان لصحافة الشوام في مصر ٣ أفرع: الأول آداة تابعة لانجلترا تدعو للاحتلال الإنجليزي وتهاجم السلطان العثمانلي ومنها "المقطم"، "المقتطف"، "اللطائف"، "الاتحاد المصري".

والثاني أداة تابعة لفرنسا تدعو للثقافة والنفوذ الفرنسي في مصر، وتؤيد أحيانا السلطان العثمانلي ومنها "المحروسة"، "مصر"، "التجارة"، "الأهرام".

والثالث سيظهر في وقت متأخر وهو تابع للجماعات الساعية لإحياء الخلافة الإسلامية عقب خلع السلطان عبد الحميد الثاني ١٩٠٨، ومنها "المنار" و"الفتح"، وسيكون لها دورها في تكوين تنظيم الإخوان المسلمين.

والأفرع الثلاثة، مع محاربتهم لبعضهم، إلا أنهم متفقون على كراهية ثورة ١٨٨١ ومحو "مصر للمصريين"، وتمزيق الوحدانية المصرية بانتماءات مسمومة لدول ومذاهب أجنبية وعبادة الأجنبي.

واشتعلت نيران صحيفة "الوطن" على عبد الله النديم لأنه من المصريين القلائل الذين قدموا صحافة مصرية حقيقية، مع ما هو معروف عنه من دور جليل في ثورة ١٨٨١، فاعتبرته لا يصلح صحفيا، وبكلامه عن تحرير مصر من الإنجليز يتدخل فيما لا يعنيه: "وخطأ هؤلاء الناس تصديهم مما لا يعنيهم وحشر أنفسهم في زمرة السياسيين[١٤٩٥]"، مع أن النديم من زعماء ثورة ١٨٨١.

ومن المؤلم أن صحيفة "الوطن" صاحبها "مصري"، هو ميخائيل عبد السيد، وإن كان العجب يقل إذا علمنا أن صاحبها خريج مدارس الأمريكان التبشيرية بالقاهرة، ذات المدارس التي تخرج منها الصحفيون الشوام في بلادهم، مدارس الإرساليات التبشيرية في الشام، وكان له صدقاته الوطيدة بهم.

وصارت هذه الصحف وغيرها لا تذكر عرابي والفلاحين المتمسكين بالثورة إلا بكلمة "العصاة"،

[١٤٩٢]- الصحافة المصرية ومواقفها من الاحتلال الإنجليزي، سامي عزيز، ص ١٣٥- ١٣٦

[١٤٩٣]- جريدة المحروسة..صفحات من تاريخ مصر السياسي والأدبي، تحقيق بجريدة الشرق الأوسط، العدد رقم ١٤٦٥٠، بتاريخ ٧- ١- ٢٠١٩

[١٤٩٤]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ١٣٧

[١٤٩٥]- نفس المرجع، ص ١٣٦

"الطاعون"، "الطغاة البغاة"- "العصابة"، "الفئة الباغية"، "الأشقياء المفدسين المتمردين"، وتصف الخديو والإنجليز ومن سار ورائهم بأنهم "أصحاب المروءة"، و"المحررين"، و"المصلحين"[١٤٩٦].

وخلال تنظيمه لأمور احتلال مصر أوصى دوفرين في تقريره بأنه "يلزم لجعل هذه النظم مثمرة وفعالة أن تمنح الصحافة حرية تامة"، لكن حرية لمن؟ فعقب هذه الكلمة لقيت الصحف المصرية حتفها واحدة وراء الأخرى كالـ"الطائف"، و"المفيد"، و"السفير"، و"النجاح"، ومنتشيا قال فارس نمر إن الحرية المعطاة للصحافة في مصر أوسع نطاقا من حرية الصحافة في فرنسا ذاتها، فيما قال حسن حسني صاحب صحيفة "النيل" (صاحبها عثمانلي مؤيد للإنجليز) إن "الحرية المعطاة لجرائدنا المصرية هي فوق الكفاية"، ويصف الصحفيون الشوام مصر بأنها "مصر الحرة"، التي اتخذها "الأحرار"، يقصد الشوام "موطنا لهم"، وأنها انتفعت بهم كما انتفعوا بها، ويعلق على هذا سامي عزيز: "يتبين أن حرية الصحافة في عهد كرومر إذن كانت أسطورة ضخمة كثر الحديث عنها"[١٤٩٧].

❷ (تلميع الأوربة.. قلع الجذور)

ليس شيء يربط بين أبناء الشعب وبينهم وبين وطنهم مثل وجود أشياء متماثلة بينهم في الفكر والأكل والكلام والعادات والتقاليد واللبس والسلوكيات، لأنها تصنع الألفة وشعور الوحدانية، وليس يربط شعب بأمة أجنبية مثل أن تتحول هذه الأشياء من وطنية إلى تقليد الأمة الأجنبية، فلا يرى لنفسه معنى ولا قيمة إلا حين يلبس ويأكل ويشرب ويفكر ويتكلم ويعيش مثلها، حتى يتمسك بها تمسك الرضيع بأمه، وإن كانت احتلالا فتاكا.

ولوحظ أن الصحف التي أصدرها الشوام على أنها صحف حقوقية أو زراعية أو علمية أو أدبية تسخر هذه المجالات لتلميع الاحتلال أيضا- وليس فقط الصحف السياسية- وإغراء المصريين بالبعد عن كل ما هو مصري، فمثلا "المقتطف" العلمية حين تصدر مقالا علميا عن تكوين الثروة في بريطانيا تشيد بطرق بريطانيا في تكوين الثروة وأنها قدوة للأمم، ومجلة "الحقوق" القضائية لصاحبها شبلي شميل (خريج مدرسة الأمريكان ببيروت) تكتب أن مصر "لم ترتع منذ قرون عديدة بما ترتع به في الأزمنة الحاضرة من بحابح الأمن والعدالة"، وصحيفة "اللطائف" الأدبية لصاحبها شاهين مكاريوس قدمت الملكة فكتوريا- التي تم في عهدها احتلال مصر- بأن من مآثرها أنها أسست في" الشعب الإنجليزي حب الاستعمار"، وهكذا جرى حصار الوعي المصري في الحاضر والمستقبل في كل الاتجاهات، ومداومة الاطلاع على مثل هذا المحتوي "ستتكون منه رواسب ترسخ بمرور الوقت حتى تصبح يقينا"[١٤٩٨] وليس صعبا اختبار صحة هذا الكلام، فإن طاعون تمجيد الاحتلال الذي نراه في كثير من المصريين المتعلمين اليوم وإشادتهم بعصور الاحتلالات أكبر برهان.

[١٤٩٦]- المرجع السابق نقلا عن جولة في "الأهرام"، "المقتطف"، "المحروسة"، ""الوطن"، وغيرها
[١٤٩٧]- نفس المرجع، ص ٧٥- ٧٩ و١٨٤
[١٤٩٨]- المرجع السابق، ص ١١٦- ١٢١

ومن وسايل تكريه المصري في أي شيء يخص الفلاح المصري، حتى قيمه، هو ربط كل خلق حميد بأوروبا وليس بمصر، حتى لو يوجد مثله أو أفضل منه في القيم المصرية، فاهتمت صحف الحزب الفرنساوي الشامية مثل "المحروسة"، و"الأهرام" بتسويق كل ما هو فرنسي في الأدب والسلوكيات والعادات وطرق الكلام، ودعت صحف الحزب الإنجليزي كـ "المقطم"، و"اللطائف" و"الاتحاد المصري" للاقتداء بالملوك والأدباء الإنجليز، فمثلا تقول الصحيفة الأخيرة: "ما من شيء يفضي إلى الملل نظير الحديث المكرر حتى ولو كان قائله من فطاحل الرجال، ولو اقتدى هؤلاء بالإفرنج واقتصروا على إظهار أفكارهم باختصار لأراحوا الناس"، رغبة في إشعار الفلاح بأنه متخلف لا نجاة له إلا أن يكون مسخا أوروبيا.

وأشهر مظاهر تقليد المصريين- بعض المتعلمين- لأوروبا استسهال شرب الخمر، القمار، ترك الجلابية الفلاحي والتباهي بالموضة الأوروبي، استخدام التحيات والتعبيرات الأجنبية، استسهال العلاقات المحرمة بين شباب وشابات ويسمونها "شقاوة"، أو "حياة عصرية"، "حفلات الرقص الغربي"، "تصميم المنازل واختيار أثاثها على الطراز الفرنسي والإيطالي، الاتجاه للزواج بالأجانب، تسمية الأسامي الأجنبية، سباقات الخيل، انزلاق بعض المصريين إلى المذاهب الغربية الدينية الوافدة كالبروتستانت والكاثوليك، والمذاهب السياسية كالليبرالية الرأسمالية باعتبار أن الحزبية رغم ما تجلبه من فرقة وخصومة هي الأساس الصحيح لحياة ديمقراطية، انتعاش التفكير المادي، اعتبار كل الأخلاق المصرية "دَقة قديمة"، تفضيل الآداب والروايات الأوروبية، اختصار كلمة حضارة في أوروبا، إلخ.

وعلى حد وصف أحد الكتاب الفرنسيين وقتها فإن "الاحتلال لن يأتي بشعب جديد إلى مصر، ولكنه يعمل بصبر على تغيير الأسس التي تقوم عليها مقومات الشعب"[١٤٩٩].

ولمس هذا عبد الله النديم، وهزَّ قومه المصريين هزًّا قبل نفيه الأخير يقول إن تفرنج البلاد يمحو التقاليد المصرية والعادات المصرية، ويضعف الإيمان بالخلق الإسلامي نفسه إلى الأبد[١٥٠٠]، كما رصده طه حسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"، وأن البلد تحولت في التعليم ونظام الحكم إلى النمط الأوروبي: "ما في ذلك شك ولا نزاع، نحن كون أبناءنا في مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكوينا أوروبيا لا تشوبه شائبة"[١٥٠١]"، وإن كان هذا لم يتعدَّ الأغنياء والمتعلمين.

وصرح كرومر في كتابه "مصر الحديثة" بأن الشرط الأساسي لتوظيف المصريين "تشبعهم بالحضارة الأوروبية، وأن يكونوا قد حصلوا على التعليم اللازم لتطبيق النظريات الغربية في النظم الحكومية"، وبالمثل يقول ألفريد ملنر في كتابه "إنجلترا في مصر"، إن "هدف الاحتلال لم يكن نجلزة أصحاب السلطة المصريين من ناحية المبادئ السياسية، لكن كان الهدف نجلزتهم من الناحية المعنوية حتى يؤدوا مهامهم بنفس الروح التي يؤديها بها الفرد الإنجليزي".

[١٤٩٩]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٢٤٣

[١٥٠٠]- نفس المرجع، ص ٢٢٥

[١٥٠١]- مستقبل الثقافة في مصر، د. طه حسين، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ص ١٦- ١٨ و ٣٤

وباطمئنان توقع كرومر نجاحه وهو يقول عن المصريين: "فهم مغرمون بالتقليد"، وأنه "طالما بقي الإشراف الإنجليزي في البلاد فإن المصريين سيحاولون تقليد كل ما يقوم به الإنجليز، وهكذا لن تكون هنك حاجة كبرى إلى استخدام عدد ضخم من الإنجليز في المناصب الصغيرة"(١٥٠٢).

وشعر بوطأة هذا صبحي حميدة في كتابه القيم "في أصول المسألة المصرية" في الأربعينات- أي بعد نضج سياسة كرومر لحد ما- ونهض يحذر قومه المصريين: "وبذلك يتولى الإشراف على أحوال مصر على وجه العموم العناصر الفتية التي نالت نصيبا من التربية الغربية دون أن يكون لها حظ كبير من الثقافة الشرقية الصحيحة، ويدفع بها التيار الغربي إلى أجهزة الحكم دون العناصر التي كان يحق للمجتمع بتكوينه الزراعي الديني أن يرسلها إليها (المتمسكين بأنهم فلاحين) لو لم يكن هذا التيار الغربي بمقتضياته الاجتماعية ونفوذه السياسي، والجو الغربي الذي ينفذ على هذا النحو إلى حياتنا العامة والخاصة جميعا يدفع بظواهرها إلى النضوج العاجل، ولكنه يضعف في نفس الوقت من حيويتها ويميل بها عن مجراها الطبيعي، وتصاب بالسطحية والاضطراب والسقوط في التقليد"(١٥٠٣).

وإلى جانب تسليم الصحافة والتعليم لأجانب، اهتم الإنجليز بالدفع بعدد كبير من الجاليات الأجنبية إلى مصر باسم عمالة أو لاجئين فارين من الحروب، فارتبطوا بالمصريين جيرانا وزملاء عمل وفي الأسواق والمواصلات وحولوا المحلات إلى أوروبية للمنتجات الأوروبية والسلع الأوروبية واللبس الأوروبي والأكل الأوروبي، لنشر الذوق الأوروبي في كل أمر، ثم تعزز هذا بالسينما(١٥٠٤)، وتحول قلب القاهرة "وسط البلد" بأسامي محلاتها الأجنبية "شيكوريل، هانو، ريفولي، تسيباس، جروبي، إلخ" بما تحويه من بضايع أجنبية وموظفين أجانب، ولغة أجنبية إلى قطعة من أوروبا، حتى سخر الصحفي محمد التابعي في مقالة بمجلة "آخر ساعة" سنة ١٩٤٢ يطالب بافتتاح سفارة مصرية في وسط القاهرة(١٥٠٥).

❸ (صناعة المسخ الأوروبي).. صندوق معبأ بالقمامة

وعن اقتلاع الجذور قال كرومر ما يعني أنه لا يهمه أن يتحول المصريون المسلمون إلى مسيحيين، أو أن يتحول المصريون المسيحيون الأرثوذكس إلى المذهب البروتستانتي الإنجليزي، لكن المهم أن يتخلص من جذور شخصيته المصرية وما يرتبط بها من إسلام أو مسيحية، فيجد نفسه متقلدا للحضارة الأوروبية، وبمعنى أصح هدفه أن يكون تابعا، ويقول: "فالحضارة الأوروبية تقضي على دين دون أن تستبدل به غيره، فالمصري الذي قد نطلق عليه "صاحب التفكير الحر" يجد نفسه في خضم هائل دون مرشد أو هاد، إنه لا يجد من تاريخه الماضي ولا من ظروفه الحاضرة سندا أخلاقيا يعتمد عليه، إنه يرى دينه راغبا عن التجديد، أما الدين الذي يقبل الإصلاح والتجديد فهو دين آخر، لذلك فإنه يتجه إلى ترك الدين جانبا، وهذا فإنه بحرمان نفسه من عقيدته لن يجد رادعا أخلاقيا، وفي الوقت نفسه يحاول تقليد الأوروبي، ولا يترك هذا

(١٥٠٢)- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٢٤٣

(١٥٠٣)- نفس المرجع، ص٢٣٢

(١٥٠٤)- انظر: الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٢٨٢

(١٥٠٥)- تطور الرأسمالية المصرية، نخبة من الباحثين، دار الكتب والوثائق القومية، مرجع سابق، ص ٢٦

المصري عقديته خلف ظهره فحسب، بل إنه يترفع عنها ويزدريها، وهكذا يندفع مغمض العينين بين أحضان الحضارة الأوروبية غير مدرك لحقيقة هامة، هي أن ما يراه ليس سوى المظهر الخارجي لتلك الحضارة، بينما تستقر المعنويات المسيحية [البروتستانتية الأوروبية] تحت هذا المظهر وتتحكم في تحركاته، ويصعب على مقلد الحضارة الأوروبية أن يحصل عليها".

وسمى هذا النوع من المصريين بـ"المسلمين الأحرار"، الذين "تركوا ماضيهم وتاريخهم، وأصبحوا لا يكترثون لشئون دينهم الذي ولدوا فيه، ولا يهابون التصريح بالإلحاد"، و"اعتزم الأحرار المسلمون اتخاذ القواعد التي جرى عليها الغرب في تقدمه ورقيه واتخاذها أساس لما أنشأوه من إصلاحات"[١٥٠٦].

إن هذا الكلام حرفيا هو ما رسمته يد وايزهاوبت وبايك وبروتوكولات تنظيم "الناريين" عن زعزعة إيمان الشعوب بأصولها وحضارتها ودينها وقيمها لقلع جذورها فتصبح "ريشة في هوا" مهزوزة وسهلة التسيير من الخارج... هو نفس الكلام حرفيا.

ففي كتابه الشهير "أحجار على رقعة الشطرنج"، نقل وليام جي كار أنه في ١٥ أغسطس ١٨٧١ أخبر الجنرال بايك نائبه مازيني في رسالة بعد عرض مراحل تدمير الأديان والحضارات القديمة أنه نتيجة لذلك "ستكون هذه الجماهير بحاجة متعطشة إلى أية عقيدة وإلى من تتوجه إليه بالعبادة، فتلاقي عندئذ النور الحقيقي.. من عقيدتنا نحن- عقيدة النورانيين الشيطانية التي ستصبح ظاهرة عالمية، وستقدم آنئذ وأخيرا إلى الجماهير بصورة علنية..وسيكون تولدِ هذه الظاهرة نتيجة لرد الفعل العام لدى الجماهير تتبع مباشر تدمير المسيحية والإلحاد معا وفي وقت واحد"[١٥٠٧].

مصريون ليسوا بمصريين، ومسلمون ليسوا بمسلمين، ومسيحيون ليسوا بمسيحيين، حتى الملحدين سيفاجئون بأنهم ليسوا بملحدين.. جميعهم بين قرون الشيطان راكعين.

وتولت صحف شامية تطبيق هذه السياسة، فتبنت "المقتطف" الدعوة للتحلل من الدين، ويقول المؤرخ لصحافة ذلك العصر قسطاكي الحلبي إن "كلمة المقتطف قد ترجع بداهة لذهن القراء اقتطاف ما فيه نفع الناس من العلوم، ولكن أصحاب هذه المجلة جعلوا جُل اقتطاف المقتطف على كل بدعة ظهرت على وجه الأرض بشكل أن لا تعرف أصل مبتدع البدعة، كالشك في كل شيء دون أن يقولوا هذه بدعة، وكذلك التهكم على الأديان دون أن يذكروا فولتير وروسو وماركس وأناتول فرانس، بل وبالنغمة التي اعتادوا عليها وهي: هذا يقبله العقل وهذا يرفضه؛ تضليلا للبسطاء وسليمي النية، وفي نفس الوقت يغدقون المدح في "عظمة العظماء وجبابرة العقول" الملحدين وكارهي الأديان ودعاة المجون ويضعونهم أو يسلمونهم للناس كأنهم فلاسفة وحكماء، وينشرون أقوالهم كتعاليم أحق أن تتبع؛ فيرددها الناس دون أن يعرفوا حقيقة أصحابها وأهدافهم، كذلك تقديم الله على أنه "غير عادل" بسبب وجود أغنياء وفقراء[١٥٠٨].

[١٥٠٦]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٣٠٢
[١٥٠٧]- أحجار على رقعة الشطرنج، وليام جي كار، مرجع سابق، ص ٢١
[١٥٠٨]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، سامي عزيز، ص ٣٠٢

4 (عبادة القوة المادية) أخلاق المرتزقة

في نفس الوقت سوقت "المقتطف" لنظرية داروين، ليس من باب الشرح والإطلاع على علوم الآخرين، لكن من باب التسويق لها كأنها دين وهم دعاته، وهي نظرية تقوم على زرع النفعية والأنانية في النفوس، وكراهة الأخلاق والتضحية لأجل الآخرين، فتقول "البقاء للأقوى"، والضعيف لابد أن يضمحل، وهو "مذهب حيواني صرف"، وبما أن الإنجليز "أقوى الأمم"، وقد احتلوا مصر الضعيفة فعليهم أن يتمتعوا بخيراتها- وعلى الشعب المصري الضعيف أن يشكر لهم صنيعهم ويباشر زرع أراضيه بكل اطمئنان[١٥٠٩].

هي لب عقيدة كل احتلال ومعتدي، أنه "صاحب الحق في مصر لأنه صاحب حق فتحها بالسيف"، أي بالقوة فالبقاء للأقوى، وتتمم مذهب آدم سميث بأن الأقدر على كسب الثروة- بأي طريق-فهو أحق بثروة الأمم.. فلماذا نقاوم الاحتلال إذن؟ ولماذا لا تترك الشعوب أوطانها وثرواها في المستقبل تديرها حكومة عالمية واحدة.. إن قدمت نفسها على أنها الأقوى؟

كذلك يقدس مذهب دارون المادة من ناحية أخرى حين يقول إن الكون كله أصله المادة، ولا شيء وراء المادة (لا إله ولا جنة ولا آخرة) وحتى الفكر والعاطفة مجرد مظهر من مظاهر المادة، فلا نفس ولا روح ولا دين ولا إله، وقدمت "المقتطف" المذهب في ٨ صفحات، وقالت إنه "انحاز إليه كافة العلماء"، وعكف شبلي شميل، صحفي شامي هاجر لمصر، على التسويق لكتاب داروين، وحرصت الصحف على أن يكون مذهبه أداة جدل ومناقشة، ودعم الجهرِ بالإلحاد لأنه "على أساس علمي".

وتقول "المقتطف" عن أهدافها من عرض مثل هذه النظريات وعن سبب تخصصها في العلوم من أساسه: "إن المطلع على أحوال المجلات العلمية "يحكم بأن أتعابها تزيد على أرباحها، والذين ينشئونها في الشرق يخطئون أكبر خطأ إذا اتخذوها وسيلة لاكتساب المال، والمقصد الأول من المقتطف ترغيب القراء في العلوم والمعارف وتربية ذوقهم عليها"[١٥١٠]، هل يعني هذا أنها لملمت ثوبها وتركت الشام إلى مصر لتعلم المصريين النظريات العلمية حتى لو خسرت من أجلهم المال؟!

جاءت الإجابة من الجمعية البريطانية الفلسفية (مجمع فيكتوريا) برسالة تمدحها فيها وتقول: "علم مجمعنا من المصادر الصادقة بأعمالكم المفيدة والفوائد العديدة الصادرة عن المقتطف في نشر العلوم والمعارف وبث روح البحث والمطالعة في مصر خصوصا والشرق عموما، لذلك ندعوكم إلى عضوية مجمعنا إذ غايتنا الاتحاد مع من يسعى هذا المسعى الحميد في أقطار العالم"[١٥١١]. فلماذا مجمع فيكتوريا التي احتلت مصر في عهدها وجلس ابنها بجانب توفيق في موكب "نصر الفتح الإنجليزي"، حريصة على "نشر المعارف" في مصر؟ وأي معارف هي المقصودة؟

تأتي الإجابة هذه المرة من كرومر وهو يتحدث عن إيمانه "بأن التقدم المادي الذي سينتج بعد الاحتلال

[١٥٠٩]- انظر: نفس المرجع، ص ٣٠٣

[١٥١٠]- المرجع السابق، ص ٣٠٣- ٣٠٤

[١٥١١]- نفس المرجع، ص ٣٠٥

سيكون سببا في خلق رأي عام يتفاعل مع الاحتلال ويتعاون معه في شئون الحكم، ويمنع الأهالي من الاتجاه نحو معادة الإنجليز".

ويشخص كرومر ببصره في المستقبل ثم يعود إلى عصره مطمئنا، ومركزا على الفلاحين المصريين، مخزن الحضارة والروح الطاهرة: "الأجيال القادمة من الفلاحين المصريين سينظرون بعين التقدير إلى أن ما ينالهم من خير هو نتيجة للسياسة البريطانية فتتدفق عليهم الخيرات المادية التي تأتي في أثر الحضارة الأوروبية وتفتح أمامهم الطريق للتقدم المعنوي ورفع المستوى الفكري"، ويؤكد أن هذا الاعتقاد سوف يدوم "، وأنه "ليس هناك أدنى شك في أن هذه السياسية سوف تتحقق"[١٥١٢].

ومن أول مظاهر هذا التحقق- إضافة لاكتساب عادة الجدل والمنظارة لأجل المغالبة لا المناقشة، والتشكك في كل شيء- أخذ بعض المصريين يستبدلون بالقديم الذي كانوا عليه الجديد الذي وصل بلدهم على أيدي الأوروبيين"؛ فالقروش القليلة التي استطاع بعضهم توفيرها حين انتهت الضرايب العشوائية الموروثة من أيام إسماعيل وتوفيق صاروا يدفعونها في أنواع من الأكل والأثاث والملابس والفسح والمطاعم لم يكونوا محتاجين لها، ولم تضف لهم شيء سوى "التلذذ بإحساس أنه يعيش زي الأوروبيين"، وقال عبد الله النديم في جريدة "الأستاذ" ١٨٩٢ محذرا من هذا الغزو إنه: "زمن هجمت فيه جيوش الأزياء والتقاليد فانتزفت دم ثروتنا"، وعززت الصحف الشامية هذا الإحساس بتلخيص إحساس التفوق عند المصري في اتباع العادات الأوروبية.

وكصدى للنظريات المادية حرصت الصحف التابعة للإنجليز على تربية "روح المرتزقة" عند المصريين، بمعنى أنه مدام الاحتلال يأتي لي بمصلحة مادية فإن "الأصلح" هو التمسك بالاحتلال، بغض النظر عن الكرامة والشرف والاعتماد على النفس، فتقول "المقطم" في ١٨٩١ مثلا: "إذ لا يخفى أن أكثر صادرات القطر المصري ترسل إلى إنجلترا، والتجار لا يبعثون بحاصلاتهم إلى إنجلترا إلا لأن سوقها فيها أحسن من غيرها، ولو حدث حادث يمنع إرسال الحاصلات المصرية إلى بلاد الإنجليز [كثورة أو مقاومة أو مقاطعة] لخسرت الديار المصرية خسارة لا تقدر، أفلا يليق بهذا القطر أن يحافظ على سوق لا غبن فيها ولا مشقة مهما بذل من الجهد في ذلك"[١٥١٣].

ويرصد معاصرون مظاهر هذه الدفقة الغزيرة والملحة من الثقافة الأجنبية، أن شاع شيء آخر جديد جدا هو ظهور "صراع الأجيال"، فيقول لوثروب ستودارد إنه في فترة صغيرة جدا فإن التباين العقلي والأخلاقي أخذ يتسع بين أفراد الجيل الواحد، وحدث سوء الفهم بين الآباء والأبناء، وتنكر الأبناء لآبائهم، واشتد التنافر بين القديم والجديد[١٥١٤]"، فالابن يرى نفسه "شاب عصري"، وأبيه "موضة قديمة".

ويصف عبد الرحمن الرافعي المعاصر لهذا الوقت الحال: "وأصبح سبيل النجاح سواء في المناصب أو

(١٥١٢)- نفس المرجع، ص ٣٠٥- ٣٠٦ نقلا عن كتاب جون مارلو "تاريخ العلاقات المصرية البريطانية ١٨٠٠- ١٩٥٣)
(١٥١٣)- انظر: الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، سامي عزيز، مرجع سابق، ص ٣٠٦- ٣٠٧
(١٥١٤)- نفس المرجع، ص ٣٠٦- ٣٠٧ نقلا عن كتاب ستودارد: "حاضر العالم الإسلامي" الصادر ١٩٢١

الحياة الاجتماعية هو الولاء للاحتلال والزراية بالمبادئ الوطنية وقلة الإخلاص للبلاد، ودرج الناس على هذه الحالة وألفوها، حتى عدوها كأنها حالة عادية، وكان الخروج عليها ضرب من السخف أو الجنون، وهكذا يمسخ الحكم الأجنبي نفسية الأمة، ويفقدها الروح القومية والكرامة"[١٥١٥].

ورفعت صحيفة "الآداب" لصحابها علي يوسف صوتها برفض ما يجري أن الأجانب "تسوروا بلادنا، ونصبوا لنا شباكا ليستنزفوا ماء الثروة، ويمتصون عروق الحياة"، وتحاول إحياء الغيرة الوطنية في روح المصري: "فيا أيها المغرور المصري أخبرني، هل كان أولئك الناس يتكبدون المشاق من الأماكن الشاسعة شفقة عليك ورغبة فيك ليكسبوك درهما أو يمنحوك دينارا؟"، وتنبه إلى أن الأجانب اتخذوا من القمار حرفة عن عمد في مصر لكثرة أرباحها: "أحببت أن أذكر السبب الذي دفع الناس إلى غرس هذه الثمرة في أرض مصر التي أصبحت بفضل همتهم هشيما تذروه الرياح"، ويصدق على كلامه عبد الله النديم في "الأستاذ" بأنه: "لو نوفر القرشين اللي معانا نشتغل بيهم في تجارة علشان نصبح أغنياء وتفضل البلد ماسكة حيلها شوية"، ويعطي أمثلة على ما فعله الربا والخمر والقمار حتى في الأغنياء: "يزرع المائة فدان ولا تراه إلا مقترضا لا يجد من القوت إلا الضروري"، وقوبلت صحيفة "الآداب" بمتاعب عطلت صدورها حتى تركها علي يوسف ليصدر "المؤيد"[١٥١٦].

ويعلق عبد الله النديم ساخرا في "الأستاذ": "وهكذا أصبحت البلاد مسرحا لجرائد كثيرة تتكلم بما تريد وتتصرف في أفكارها كيف تشاء، هذه تقول أنا وطنية، وهذه تدعو للإنجليز أو لفرنسا، وهذه مذبذبة، وهذه علمية، وهذه تورد لهم من مصادرات الأديان ما يوقعهم في الشك والتردد، وهذه دينية، وهذه حقوقية، وهذه طبية، وتركت إنجلترا للجرائد أن تخوض في المواضيع المتضادة، وتلعب بالأفكار الجامدة، ونحن في بحار اللهو غارقون"[١٥١٧].. وسبق أن حذر النديم من هذا قبل الغزو الجديد[١٥١٨]:

صبحت بلادنا للمغشوش مورد

وصانعها ظمآن

شرم برم.. حالي غلبان

وفرّق الاحتلال تصنيفاته على الصحافة، فكما اعتبر الوطنيين "عصاة"، وأتباع الاحتلال "شرعيين"، صنف الصحف التابعة للاحتلال بـ"المعتدلين"، والصحف المعادية له بـ"المتطرفين"، وهو تصنيف ما زال يُستخدم حتى الآن في تصنيف الوطنيين وغير الوطنيين.

صحيح أن مصر لو كانت حرة وقتها من أي احتلال عسكري واستيطاني لكانت وصلتها الرياح السموم من الخارج أيضا، لكن صحيح أيضا أنه لو وصلتها وهي حرة في قرارها، حرة في تشكيل ثقافتها، تحفظ

(١٥١٥)- نفس المرجع، ص ١٥١

(١٥١٦)- المرجع السابق، ص ٣٢٨- ٣٣٠

(١٥١٧)- نفس المرجع، ص ١٤٨

(١٥١٨)- عبد الله النديم، صحيفة التنكيت والتبكيت، العدد ٩، بتاريخ ٧- ٦- ١٨٨١

عهد ماعت وقيمها، صاحية لدورها في العالم، لكان تلقف هذه الأفكار الجديدة أبناءها المخلصون أصحاب السيطرة على الإعلام والسينما والتعليم، ووزنوها بميزان ماعت والقيم المسيحية والإسلامية الصافية، ولتعاملوا معها معاملة من يتعرف على البضاعة الجديدة فيأخذ منها أحسنها ويرمي الردئ- مثلما حاول النديم ومحمد عبده وغيرهم- ولاحتمى المجتمع بقيمه الخالدة، ولكانت المضار أقل بكثير(١٥١٩).

ورغم كل ما سبق ظل المصريون الحقيقيون يتكالبون على الصحف التي يرونها وطنية حقا، مثل "الأستاذ" للنديم التي كانت أحيانا تنافس في توزيعها صحف كالأهرام والمقطم(١٥٢٠)، وبعد أن اشتد هجوم النديم على صحيفة "المقطم" ودورها التخريبي، توعدته الصحيفة الشامية بالنفي من بلاده، وحينها يقول النديم متعجبا في ١٨٩٣ عن أصحاب "المقطم" وغيرها: "الذين صادف دخولهم مطرودين من وطنهم غيبة طبقة المنشأين المصريين إذ ذاك كمحمد عبده وحسن حسني وإبراهيم اللقاني والهلباوي وحسن الشمسي وأحمد سمير ووفا محمد وسعد زغلول، فما لبثوا أن كفروا بالنعمة، وأنكروا المعروف، وانحازوا للغير، وأحبوا أعداء الله ونبيه والسلطان والخديو و..."، أي جاءوا من الشام واستغلوا خلو الساحة من مؤسسي الصحافة من المصريين الذين طاردهم الإنجليز ليفرضوا أنفسهم على الساحة المصرية.

فسعت الصحافة الدخيلة للتخلص من عبد الله النديم أيضا، وكادوا له عند كرومر، وطلب كرومر من الخديو عباس حلمي نفي النديم من البلاد، وعلم النديم بهذا وأشار له في العدد الأخير من صحيفة "الأستاذ" الذي ودع فيه المصريين على أمل العودة لبلده مرة أخرى، وأغلقت صحيفة "الأستاذ" أبوابها مكلومة، أكثر الصحف تعبيرا عن نبض الفلاح وحبا له، فطُرد من مصر ابنها الذي ضحى لأجلها كم لم يضحِ أحد، ليبقى فيها الأجنبي يضحي بها كما لم يضحِ أحد، ويتوفى النديم مكمودا بعيدا عن بلاده ويدفن غريبا، فيما الأغراب يدفنون في مصر، ويقدمهم مؤرخون للأجيال على أنهم "أصحاب الفضل والنعمة" على المصريين في تنشيط الصحافة والثقافة.

نفيت واستوطن الأغراب في بلدي ودمروا كل أشيائي الحبيبـاتِ
خانتك عيناكِ في زيفٍ وفي كذبِ أم غرك البهرج الخداع مولاتي
أصبح والسيف مزروع بخاصرتي والغدر حطم أمالي العريضاتِ

5 (نزع الثقة بالكفاءة المصرية)

اتهمت "المقطم" مرارا المصريين بالعجز عن إدارة بلدهم، وأن هذا "العجز" يلزمهم بالإبقاء على الاحتلال: "لأن مصر لم تتعلم أن تدبر أمورها بنفسها، بل إن الإنجليز يديرون ماليتها، وفي ١٨٨٣، بعد موقعة التل الكبير، خرجت صحيفة "البرهان" لصاحبها المغربي حمزة فتح الله تقول: "إن إنجلترا أنفقت

(١٥١٩)- قارن بين مستوى الفنون المصرية كالدراما وبرامج التلفزيون والسينما وهي تحت سيطرة الدولة وبين مستواها لما تركتها تماما لشركات إنتاج أجنبية أو مشتركة أو لشخصيات مستوردين للنظريات والأفكار الأجنبية بلا تمييز.
(١٥٢٠)- انظر إحصائية توزيع الصحف في الصحافة المصرية وموقعها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ١٢٣

نقودا عظيمة وأراقت دماء كثير من رجالها، وليس مقابل ذلك- كما يقول الجاهلون- هو توظيف رجالها في الإدارات والمصالح حتى تكون البلاد كأنها بلادهم، كلا، فإن توظيف رجالها كغيرهم من رجال بقية الدول ليس إلا لعدم كفاءة أبناء البلاد للقيام بكل الأعمال".

ويقول سامي عزيز: "وهكذا تحولت القضية إلى مناقشة مدى الكفاءة المصرية وعدم قدرة المصريين على القيام بالأعمال والمهام، وأصبح الدفاع عن تعيين الإنجليز في المناصب المختلفة مادة تتبارى فيها الصحف على اختلاف نزعاتها.

ولوحظ أنه لعدة سنوات بعد مجئ الإنجليز تزايد معدل الجرائم في مصر بشدة، وركزت صحف الإنجليز مثل "المقطم" على نشر الحوادث بشكل شبه يومي، وتحدثت في ١٨٩١ عن "عجز المصريين عن ردع المعتدين واللصوص"، وأسهبت في نشر شكاوى الناس من اختلال الأمن، وبذلك مهدت السبيل إلى اعتناق بعض الأهالي فكرة الاستعانة بالأجانب لإعادة الأمن العام، وتأكد هذا حين هللت "المقطم" لتعيين كتشنر مفتشا عاما للبوليس في مصر، وتقافزت سطورها من الفرحة لتقول: "هذا أهم ما يتحدث به الناس في هذه الأيام، فهو الذي سيجدد نظام البوليس ويغير ترتيبه ويدبر أموره على خير وجه" وملأت ذات العدد بأعمدة تتكلم عن خصاله وكفاءته، داعية إلى ألا يتعجل الناس النتائج، بل أن يبقى كتشنر في منصبه سنين حتى يأخذ فرصته في إعادة الأمن[١٥٢١].

ولم يهتم فارس نمر صاحب "المقطم" بإبراز ضيق المصريين من تحكم الأجانب في وظايف البلد وأخذ مرتبات أضعاف مرتبات المصريين، بل يقول: ""الجانب الأعظم من المصريين إذا لم نقل كلهم راض بنتائج الأعمال التي تمت في مصر منذ الاحتلال الإنجليزي".

عن أي مصريين يتحدث الشامي فارس نمر؟ ذاك الذي جاء لمصر طريدا ليتمتع بالاحتلال ويتملك بجانب الصحف مئات الأفدنة من أرض المصريين بتسهيلات من الاحتلال، منها ٢٠٩ فدان في المنيا اشتراهم دفعة واحدة سنة ١٨٩٨ من أراضي الدايرة السنية (التي كان يتملكها إسماعيل وبيعت لسداد الديون)، وهي أساسا أراضي الفلاحين التي استولى عليها الخديوي بكل أنواع القهر.[١٥٢٢]

وعبر عن زور ما يقوله فارس نمر شاعر النيل حافظ إبراهيم في روايته "ليالي سطيح"، مسجلا ضيق المصريين من الهجمة الشامية على بلادهم، فيقول إنه "تخطى أهالي الشام العمل في الصحافة في مصر إلى التجارة ثم إلى المناصب الحكومية؛ فضيقوا الباب أمام الناشئة المصرية وهي الراغبة في ذلك العمل تصرف إليه همها وتقف عليه علمها"[١٥٢٣]، وليس ذلك لمهارة زائدة عند الشوام، فلم يقدم أحدهم ما قدمه رفاعة الطهطاوي وعبد الله النديم ومحمد عبده وأحمد حلمي وطه حسين وعباس العقاد وغيرهم من صحافة وثقافة تقوي عزم مصر، وتقوي الإنسان في وجه الشيطان، وإنما سيطروا لأنه توفر لهم فرص وتمويل

[١٥٢١]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٢٤٧- ٢٤٩

[١٥٢٢]- راجع جدول يضم أسماء الشخصيات التي اشترت أراضي الدايرة السنية بالتقسيط، وكثير منهم أتراك وشركس وألبان وشوام ويهود ووعربان وأرمن إلخ في: تطور ملكية الأرض الزراعية ١٨١٣- ١٩١٤ وأثره على الحياة السياسية، د. علي بركات، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ص ٤٧٦

[١٥٢٣]- انظر: الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٢٥١ و١٠٥

سخي من حكومة الاحتلال والسفارات الأجنبية، بخلاف اشتغال بعضهم بالربا وتجارة الأراضي، وما قدمته لهم الإرساليات الأجنبية من تدريب.

وساعد كرومر في التسويق لـ"شطارة" الشوام، مقابل تحقيره لكفاءة المصريين، وذلك أنه لما أراد إسماعيل تحويل مصر لـ"قطعة من أوروبا"، وتلبيسها البرنيطة اشتد الطلب على موظفين يتقنون اللغة الفرنسية إلى جانب العربية لأن معظم أعمال الإدارة بالفرنسية، فيقول كرومر: "ولم يكن هناك كبير أمل في قيام المصريين المسلمين أو الأقباط بذلك، ومن ثم اشتدت الحاجة إلى العنصر السوري، وكانت فرصة اهتبلها أهل الشام، فهم يملكون كل ما تستلزمه الإدارة في مصر: إتقان العربية والفرنسية وشغف بالعمل والطموح"، و"عندما استولى الإنجليز على شئون الإدارة في مصر واتت الظروف السوريين مرة أخرى، فالإنجليز يجهلون اللغة العربية، ولا يعرفون سوى القليل من الفرنسية، ولم تكن هناك فائدة كبرى ترجى من وراء استخدام مسلمي مصر وأقباطها، وهكذا لم يكن هناك سوى السوريين الذين كانوا في نظر الإنجليز أرقى من المصريين سواء منهم من أخذ بالتمدن أم لم يأخذ"، وكان للسوريين دورهم في تثبيت الاحتلال في بدايته بحسب كرومر أيضا: "وعلى أية حال فقد خدم السوريون في الإدارة المصرية تحت الإشراف الإنجليز وكان لذلك نتائج طيبة وخاصة في بداية الاحتلال"[١٥٢٤].

وتسبب هذا في النفور بين المثقفين المصريين والسوريين، وبررت صحيفة "الاتحاد المصري" التي أسسها لبنانيون للشوام التدخل في شئون مصر بأنهم أول من أسسوا الجرائد العربية (كانت الصحافة في مصر موجودة على يد رفاعة الطهطاوي وغيره قبل أن يأتيها الشوام) وردت على جريدة "المؤيد": "لأن صاحبه يعيرنا بلبنان، يعيرنا بجبل رفيع الشأن في التاريخ، أتعامى عن أن اللبنانيين هم السابقون على إنشاء الجرائد العربية ومنها النجاح والمقتطف والأهرام والطبيب والشفاء والمقطم واللطائف والحقوق والمحروسة، فأصحابها من أهالي لبنان"[١٥٢٥]، فاستخدمت الصحيفة سلاح الدعاية وتزوير التاريخ، فقدمت نفسها كـ"أصحاب فضل"، متجاهلة أن معظم الصحف الشامية تعمل في مصر إما لصالح إنجلترا أو فرنسا، وتنفق على نفسها ببذخ من الخزينة المصرية، ومن دعم الاحتلال.. أي تستحق معاملة المحتل الغاصب.

ولإخفاء صفة المحتل الغاصب عن نفسها، ردت أيضا الصحيفة على من يرفض تدخلهم في الشأن المصري بتمييع معنى الوطنية، والضرب في "مصر للمصريين"، بتمييع كلمة المصريين نفسها لتشمل كل الأجناس الخاضعة للاحتلال العثمانلي- رغم كراهة الكثير من الشوام للاحتلال العثمانلي.

فيقول صاحب "الاتحاد المصري" سنة ١٨٩٠: "وتعريفات الوطنية كلها تنطبق على حالة المصريين والسوريين؛ فهي تتناول كل فرد من أفراد الرعية على شرط أن يكون خاضعا لشرائع الدولة، وهل السوري والأرمني وغيرهم من العثمانيين يعتبرون أنفسهم غرباء والحكومة عثمانية أم يعدون أنفسهم عثمانيين والحكومة أجنبية، وإذا أريد الاقتصاد على القانون العثماني كان لجميع السوريين المقيمين في

(١٥٢٤)- نفس المرجع، ص ١٠٦- ١٠٧

(١٥٢٥)- نفس المرجع، ص ١٠٨

مصر حق الظهور لدى الحكومة بمظهر المصريين جنسا وواجبا وحقا"، ثم أوردت أقوال القانون الدولي في الوطنية والجنسية لتأييد رأيها.. وهنا لجأت لحجة أنهم تبع "الرعية العثمانلية" لتبرير أن يتحكموا في مصر كأنهم "مصريين"، وبعد سقوط السلطنة العثمانلية ستظهر كتابات شامية تبرر هذا بـ"القومية العربية".

وحين أصدر رياض في ١٨٩٠ قرارا بوقف توظيف الشوام في الحكومة، تدخل كرومر وأصدر أمرا للوزارة بأنه: "طالما كان هناك جندي بريطاني واحد في شوارع القاهرة فلن يصدر قرار يفرق بين الناس على أساس الجنسية أو الدين"؛ فرفعت الصحيفة آيات الشكر إلى السير بارنج (كرومر) "بلسان المصريين والسوريين واجب الشكر (فهو) صاحب الفضل الذي لا يعبأ بتفاوقت المذاهب واختلاف المشارب، بل يقابلها بكرامة الطبع واستقلال الضمير، وشهد الله أن السوريين كإخوانهم المصريين لا ينكرون منافع الإصلاح الظاهرة على يديه، ولا يملون من توجيه الثناء إليه، ومصر في نظر الإنجليز بلد أراقوا في نجاتها من الفوضى الدماء، وكانت لديهم بعد متاعبهم غالية لا يهون عليهم أن يخرجوا منها لمجرد طلب لدولة غريبة قبل أن يتموا مشروعاتهم ووقاية مصالحهم"[١٥٢٦]. فتحدثوا من جديد باسم المصريين.

ثم صدر القانون في نفس السنة- ١٨٩٠- بمنح السوري الذي عاش في مصر ١٥ سنة الحق في التوظف لدى حكومة مصر[١٥٢٧]، وبعدها بسنين قليلة أخذوا في قانون الجنسية سيء السمعة في حمل الجنسية المصرية باعتبارهم من الرعية العثمانلية، وذلك في أول قانون للجنسية المصرية.

وأراحت "المقطم" المصريين من عناء الحلم بإدارة بلادهم والمناصب الكبيرة، بأن تقول لهم إنهم لا يستحقون ولا يصلحون لإدارة بلدهم قبل "مرور أيام طويلة وتوالي الأعقاب؛ لذلك فإن إعداد الأمة لا يتم في زمان قصير بل لا بد له من زمان كاف، وهذا ليس من أقوال الإنجليز، بل هو مبني على أقوال علماء مشهورين من المصريين، والإيطاليين والفرنسيين"[١٥٢٨].

بالتزامن كان يجري تفليس وتطفيش المصريين أصحاب ورش ومحلات وإجبارهم على إغلاقها بشكل مباشر أو غير مباشر لتنفسح الساحة للمستوطنين الأجانب، فإلى جانب إغلاقها لأن بعضهم عاجز عن دفع الضرايب- الغير ملتزم بها الأجنبي مما يتيح له فرصة منافسة المصري في الأسعار- فإن قدرة الشركات الأجنبية على تسويق منتجاتها عبر الصحف التي تملكها أو تملك دفع مبالغ الإعلانات الباهظة فيها لتلميع منتجاتها كان له دور أيضا في المنافسة.

يقول المؤرخ الاقتصادي شارل عيساوي في ١٩٤٧ إن هجرة الفنيين والعمال الأجانب إلى مصر أدت- مع الكساد- إلى اختفاء غالبية الصناعات المحلية بسبب المنافسة الأجنبية[١٥٢٩]، وتلقى الحرفيون المصريون

[١٥٢٦]- المرجع السابق، ص ١٠٨- ١٠٩

[١٥٢٧]- نفس المرجع

[١٥٢٨]- نفس المرجع، ص ٢٥٢

[١٥٢٩]- التحليل الاقتصادي والاجتماعي لمصر، شارل عيساوي، ترجمة د. محمد مدحت مصطفى، بوب بروفيشنال برس، القاهرة، ص ٣٦

الفقراء ضربة شديدة عندما توافد الحرفيون الأجانب (ترزية- ساعاتية- صناع أحذية إلخ)[١٥٣٠] المحميين بقناصلهم، وجذبهم للزباين بما شاع وقتها من تسويق للبضايع والصنايع الأجنبية.

ولأن الجيل- أي الجيل الذي حضر ثورة ١٨٨١- ما زال فيه الرمق والوطنية وكراهية الإنجليز، فإن "المقطم" والإنجليز من وراءها نشرت في ١٨٩٠ مقالة تأمل أن يطول الاحتلال حتى ينتهي هذا الجيل ويأتي الجيل القادم على اساس تربية إنجليزي ومحبة للاحتلال: "لا يوافق مصلحة إنجلترا أن تترك لهم البلاد حتى يمضي هذا الجيل، ويقوم بعده جيل آخر رُبي على الثقة بالإنجليز، واعتبار أعمالهم ليحفظ لهم عهد الولاء، ويقيم على وداد منهم متى غادروا البلاد"[١٥٣١].

ويرسم الشامي فارس نمر للإنجليز سياسة لتربية النشء المصري ليتربى مواليا للإنجليز والأجانب بعد انتهاء الجيل الحالي، بدلا من الإقصاء التام للمصريين عن الوظائف الذي طالبت به أصوات أخرى؛ فيحث الإنجليز على دراسة أخلاق وشخصية المصريين وعوايدهم و"أن يعاملوهم ويقدروهم حق قدرهم فيكسبون حبهم لهم، وأنا واثق أنه متى رقي النابغون من شبان المصريين إلى المناصب العليا وسلموا زمام المهام في بلادهم ورأوا موظفي الإنجليز يعاملونهم بحسب ما هم أهله وما تستحقه كفاءتهم ينبت الميل إلى الإنجليز في أفئدة المصريين متنقلا من فريق إلى فريق حتى يعم جمهور المصريين"[١٥٣٢].

وعن خلخلة الجهاز الحكومي ليكون "إنجليزيا"، حتى وإن كان موظفوه مصريين يقول عباس حلمي الثاني في مذكراته إنه عجز عن معرفة أغوِار سياسة نجلزة الإدارة المصرية: "فكان يلزمني كي أتبين مدى الجرأة التي زعزعت بها حكومة اللورد كرومر مقومات الحياة المصرية أن أغرق في تيه الإدارة المصرية، ولم يكن ذلك بالأمر السهل الميسور، ولا يسعني أن أصور بدقة سياسة النجلزة عميقة الأسس"، واعتبر كرومر في "مصر الحديثة" أنه نجح في تحقيق هدفه بعد ١٠ سنوات فقط من معركة التل الكبير[١٥٣٣].

وعلى هذا فإن من يريد علاج مشاكل الجهاز الحكومي المصري المعاصر له أن يبحث في دهاليز أساليب تكوينه أيام الإنجليز، بخلاف ما تركته عليه بصمات الاحتلال العثمانلي وإدارته المملوكية.

5 (التعليم.. أي شيء إلا أن يكون مصريا)

يعتبر مؤرخون أن كرومر والمفتش الإنجليزي لوزارة المعارف دانلوب أفسدا التعليم في مصر.. لكن السؤال: ومتى كان التعليم في "مصر المحتلة" صالحا حتى يُفسده كرومر ودانلوب؟ هل يوجد في مصر تعليم مصري من الأساس؟

[١٥٣٠]- تطور الرأسمالية المصرية، نخبة من الباحثين، دار الكتب والوثائق القومية، مرجع سابق، ص ٢٥

[١٥٣١]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٢٥٢

[١٥٣٢]- المرجع السابق، ص ٢٥٢

[١٥٣٣]- نفس المرجع، ص ٢٥٦

كرومر ودانلوب ربما الأصح أن يقال زادا في إفساد التعليم.. أما نقطة البداية فهناك.. بعيدة بعيدة، قبل ١٦٠٠ سنة، عند الإمبراطور الروماني تيوديوس حين أمر سنة ٣٩٥ م بغلق المعابد المصرية.. بيوت العلم والفن والأدب والحكمة والمدرسة المصرية الصميمة.

من يومها ومن يصل لفرصة تعليم في مصر فهو يتلقى:

١- التعليم اليوناني: المعاهد ذات الثقافة الإغريقية أيام الاحتلال اليوناني والروماني.

٢- التعليم العربي/الشيعي (العبيدي)/ العثمانلي: المساجد والمدارس الفقهية والزوايا الصوفية والجمعيات المسيطر عليها الثقافة العربية والشيعية والصوفية والعثمانلية من الاحتلال العربي وحتى اليوم.

٣- التعليم الفرنسي والإنجليزي: المدارس الحديثة منذ الاحتلال العلوي على يد مناهج ومدرسين أجانب والإرساليات الأجنبية.

٤- التعليم البزرميط (مرقع) : الحكومي من نهاية القرن ١٩ وحتى اليوم، خليط من كل ما سبق، مناهجه موروثة من ثقافات تركتها الاحتلالات أو موضوعة بناء على نظريات حديثة أجنبية أيضا، ويزاحمه تعليم أجنبي آخر من المدارس الإنجليزية والفرنسية واليونانية والأمريكية والتركية واليابانية.

أين التعليم المصري إذن؟

هل منهم تعليم يعلِّم المصري الثقافة المصرية؟ أو الاعتزاز بتاريخه المصري القديم والحديث فوق كل تاريخ؟ أو علَّمه كراهية الاحتلال أيا كان دينه أو جنسه؟ أو أنه من العار أن يضيف أي هوية دخيلة إلى جانب مصريته؟ هل يتعلم أن يعتز بأنه فلاح مصري؟ أو يدرس الحكمة والفلسفة المصرية وأخلاق أجداده الراقية؟ ويكتشف ما هو موصول بينها وبين المسيحية والإسلام بعيدا عن التشويهات التي ألصقتها المذاهب والثقافات الأجنبية بالمسيحية والإسلام؟ أو يمجد الأكل المصري واللبس المصري والعمارة المصري والأعياد المصري؟ أو أن يحب إخوته المصريين لأن الإخوة المصرية مقدمة على كل شيء؟

هل في أي مدارس في مصر تعليم يعلم المصريين حقيقة ما عانوه من كل الاحتلالات السابقة؟ كلها بما فيها العربي واليوناني والأيوبي والمملوكي والفاطمي وليس الاكتفاء بذم احتلالات وتمجيد احتلالات أخرى؟

هل توجد مدارس تعلم المصريين الاعتماد على النفس وليس الانبهار بالأجنبي؟ وأن في شخصيته وأرضه من الإمكانيات ما تجعله حاجته للخارج في أضيق الحدود؟ هل يعلمون المصري أنه إنما خلق بنَّاء لحضارة لها شخصيتها الخاصة جدا، وأن سبب تعليمه أن يضع طوبة في بنائها الشامخ أيا كانت مهنته فيعيش بإحساس الهمة والمسئولية والروح العالية؟ هل يعلمونه أن يتبنى "قضية مصر"؟ هل يوجد في التعليم الجاري في مصر شيء اسمه "قضية مصر" من الأساس؟

هل يشرحون للمصريين حقيقة الخطط العالمية التي تستهدفهم والتيارات والمذاهب والجاليات التي تتغلغل وسطهم؟ هل فيهم تعليم يشرح للمصريين أسباب صعودهم وأسباب سقوطهم عبر التاريخ؟ هل يتعلم المصري أنه إنما خُلق ليكون جنديا في معركة الخير ضد الشيطان، ولن يكون كذلك طالما يعيش تابعا؟

أما ما فعله كرومر فهو زيادة تتويه المصري، وفرض الثقافة الإنجليزية والولاء لها لتعلو فوق أنواع التعليم والثقافات الأخرى المنافسة له أو مدارس الكنيسة والأزهر، وبداية ألغت حكومة الاحتلال الجديد ما كان ميسرا من تعليم مجاني، وبرر كرومر هذا بأن هدفه تشجيع التعليم "ذلك لأن من يريد أن يتعلم عليه أن يثبت ذلك بدفع نفقات تعليمه"، ودافع عنها الأرمني يعقوب أرتين وكيل وزارة المعارف بأن عدد الطلبة الذين يتعلمون المجانية من الأفضل أن يقل، وإلغاء أي مدارس تجهيزية خارج العاصمة، وأغلقت معظم المدارس، واكتفوا بالكتاتيب، حتى أن عدد التلاميذ الابتدائي كان في ١٨٧٣ حوالي ١٠٠ ألف تلميذ وكان عدد السكان ٥ مليون نسمة، وبعد ربع قرن من الاحتلال الإنجليزي انخفض عدد التلاميذ الابتدائي إلى ١٦ ألف رغم أن السكان وصل عددهم ١١ مليون وتفاخرت الصحف التابعة للاحتلال مثل "المقطم" الشامية ب"التقدم" الذي حققه الاحتلال في التعليم بأن تورد إحصائيات عن زيادة عدد الكتاتيب، دون أن تشير إلى حال المدارس الثانوية والعالية[١٥٣٤].

وصراحة قال كرومر: "لقد اعتبرنا أن توفير مستوى موحد للتعليم [تعليم كرومري] هو الضمان الوحيد ضد قيام الديماجوجيين الذين قد يعملون على إثارة الشعب ضد الحكام الأجانب"، واكتفى بتخريج طلاب سطحيين يتسلمون وظائف الحكومة يتعاملون معها بنفس السطحية دون حمية وإبداع وإحساس بالمسئولية، وفي نفس الوقت أسرف كرومر في إحضار مدرسين من أوروبا بحجة "تحسين التعليم"، في حين الغرض هو تشريب الجيل الجديد من المصريين الروح الأوروبية، ومدحت صحيفة "الوطن"، هذا الاتجاه، في ١٨٩٠، خاصة حين جرى تعيين دنلوب مفتشا لوزارة المعارف- أي المسئول الأول عنها- واعتبرت أن تعليم التلاميذ اللغة الإنجليزية وبمدرسين إنجليز لا علاقة له بالنواحي السياسية، بل إنه يهدف إلى تخريج شبان يتعلمون كيف يكونون مصريين !.

وتعترف مضابط مجلس شورى القوانين في جلسة ٢٤- ١٢- ١٨٩٤ بإهمال التعليم ويقرر أن "نشر التعليم قد تقهقر تقهقرا كليا عما كان عليه قبل ذلك، وأن القابضين على زمام نظارة المعارف قد سعوا بكل اجتهاد إلى طرق تقليل التعليم وسد أبوابه بكل حيلة في وجه الأمة"، ويقول الرافعي إن الحكومة مسخت برامج التعليم وحرصت على استبعاد التاريخ القومي الصحيح من المناهج لكي تنشأ الأجيال جاهلة بتاريخ بلادها، محرومة من غذاء النفوس في الوطنية؛ فلا يفرقون بين الاحتلال والاستقلال[١٥٣٥].

وبدلا من أن يتعلم الأجنبي لغة البلد دعت الصحف التابعة للاحتلال أهل البلد للاستغراق في تعلم لغة الأجنبي المحتل، فقالت صحيفة "الاتحاد المصري" الشامية وهي تدعي أنها تتكلم باسم المصريين: "وقد

[١٥٣٤]- الصحافة المصرية وموقفها من االاحتلال الإنجليزي، سامي عزيز، ص ٢٧١

[١٥٣٥]- نفس المرجع، ص ٢٧٢- ٢٧٧

قضت علاقتنا بالإنجليز وهم بجانبنا أن نحسن التكلم بلسانهم فضلا عن درس عاداتهم وأخلاقهم"، وتحولت مناهج التعليم إلى اللغة الإنجليزية، وحتى اللغة العربية دعت صحيفة "المقتطف" الشامية إلى كتابتها بحروف لاتينية، ويقول محمد حسين هيكل إن سياسة الاحتلال بهذا أحرزت نجاحا في زعزعة العقيدة الدينية واقتلاع مقومات الوطن والوطنية، مستدلا على أنه بعد ٣٠ سنة فقط من الاحتلال "الناشئة لم تكن تأخذ بحظ عملي في التوجيه السياسي، بل كانت عاكفة عكوفا تاما على الدرس، ولم يكن يدور بخلد أحد في المدارس تلاميذ وأساتذة أن يدعو إلى إضراب لغرض سياسي، ومن ذا يدعو وكثرة الأساتذة كانت من الإنجليز[١٥٣٦]".

ورغم أجهزة دعايته الضخمة لم ينطلِ كلام كرومر على الجميع، فصاح حافظ إبراهيم في وجهه سنة ١٩٠٧ ساخرا من كلامه أنه نشر في مصر الحرية وطوَّر الزراعة وأصلح التعليم، وأنه "مصلح مصر"، إنه يمن علينا بأنه أجدب الشخصية المصرية[١٥٣٧]:

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى   وأن أصبح المصري حرا منعما

أعِد عهد إسماعيل جلدا وسخرة   فإني رأيت المَنَّ أنكى وآلما

عملتم على عز الجماد وذلنا   فأغليتم طينا وأرخصتم دما

وأنك أخصبت البلاد تعمدا   وأجدبت في مصر العقول تعمدا

واقتحم المهاجرون الشوام - بعد وفاة رفاعة الطهطاوي- حركة الترجمة، خاصة في الآداب، ولم يسيروا سيرة الطهطاوي وتلاميذه في ترجمة المفيد حقا للمصريين من علوم وفنون تناسب شخصيتهم وتقوي عزمهم في المقاومة، فيقول سامي عزيز إن اختيار هؤلاء الشوام المتشبعين بالثقافة الأوروبية وجاءوا متحالفين مع الاحتلال لم تكن عشوائية؛ فاختاروا ترجمة تُخضع الشخصية المصرية لأوروبا، مثل ترجمة "المقطم" لرواية "الشهامة والعفاف"، نقلا عن رواية للإنجليزي ولتر سكوت تقدم الإنجليز على أنهم فرسان ذوو شهامة وعفة نفس، وصدرت مجلة الراوي الأدبية لصاحبها اللبناني خليل زبنية، وأغلب مقالاتها صدى لنفوس ضعيفة مهزومة، وتتحدث عن التعساء والأمانة، وموضوعات تشف عن القلق والهوان والعذاب[١٥٣٨]، وتسبب هذا في تسهيل وإغراء المصريين في الجري وراء الاقتباس من الآداب الأجنبية أكثر من أن يؤلفوا الروايات التي تعبر عن الحال الصميمة لمصر، ومنها انتشرت أفكار وقيم ما كان يدور في الخلد أن يؤمن بها مصريون، وإن تصدى لهذا الغزو كتاب مصريون مثل حسين هيكل وتوفيق الحكيم ويحيي حقي لإخراج روايات من صلب الأرض المصرية.

وجاء الكتاب الشوام والمغاربة وأمثالهم "يملأهم الغرور" بتعبير سامي عزيز، كأنهم هم من يعلمون

(١٥٣٦)- المرجع السابق، ص ٢٧٩- ٢٨١
(١٥٣٧)- من قصيدتا "مصر تشكو الاحتلال"، و"وداع اللورد كرومر في ديوان حافظ إبراهيم، مرجع سابق، ص ٣٣٩- ٣٤٢
(١٥٣٨)- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٢٨٤- ٢٨٥

المصريين الآداب والفنون- متجاهلين كل الرواد المصريين- وكتاباتهم "لا تستطيع أن تدرك إحساسات الشعب الأصيلة، فتشحذها وتنميها، وتضيف إليها كل ما من شأنه أن يدفع بالبلاد إلى طريق الرقي في مختلف النواحي، بل كانت الكتابات بعيدة كل البعد عن مثل ذلك، مما كان له أثر في توجيه ميول بعض القراء بالأساليب المقنعة إلى الإنتاج الرخيص والثقافة السطحية"[١٥٣٩].

وتسبب هذا التحول السريع في لغة التعليم والثقافة إلى "تخلخل ثقافي"، و"زلزال عقلي ووجداني"[١٥٤٠]، ويمكن فهم أثره لو تذكرنا أنه ثاني تحول عنيف في اللغة والثقافة عند المصريين في تاريخهم بعد أن تحولوا إلى اللغة العربية، وإن كانوا في التحول للعربية تحولوا بالبطيء جدا، حتى اختمرت العربية في ثوب وروح فلاحية حلوة مميزة بسبب ما بقي من اللغة المصرية في النطق والألفاظ والتركيب والقيم والأفكار، لكن الثقافة الأوروبية ولغاتها جاءت جرعات سريعة متدفقة إجبارية في المدارس، ويلزم المصري باعتناقها ونطقها كما هي، وبكل ما فيها من قيم وأفكار واستخدامها كما هي، بلا تحريف أو تغيير، وإلا ضحكوا عليه لأنه "فلاح لا يعرف التمدن واللغات".. وبهذا كان الزلزال الوجداني أشد.

❻ (إفساد المنبع.. الست المصرية)

"أشبع جوفها، واستر ظهرها، وعطر بشرتها بالدهن العطر، فالدهن ترياق لها... واسعدها ما حييت، فالمرأة حقل نافع لولي أمرها، ولا تتهمها عن سوء ظن، وامتدحها تضعف شرها، فإن نفرت راقبها، واستمل قلبها بعطاياك تستقر في دارك، وسوف يكيدها أن تعاشرها ضرة في دارها".

(الحكيم بتاح حتب.. ٢٧٠٠ ق.م[١٥٤١])

لم تكن الست المصرية تحتاج إلى أجنبي كي "يحررها"، احتاجت فقط، هي ومصر كلها، أن يرحل الأجنبي عن أرضها وسماها، بجيوشه وعاداته وتقاليده وهوياته وقيمه وجالياته وعقده وتكبره وشروره وكرابيجه، وحينها تنقشع الغيوم، وتعود القيم المصرية لعرشها، وكل شيء لأصله.

وضمن مشروع المحتلين لـ"تمدين مصر" ظهر ما اشتهر باسم "قضية المرأة"، مستغلين بعض العادات السيئة التي أدخلتها قبايل بدوية وعثمانلية في النظرة للمرأة وتقييدها في "الحرملك" بأن تبنى الإنجليز والمغرمون بتقليدهم ما سموها بـ"تحرير المرأة".. أي تحرير؟ ومما؟

وإن انضم لهؤلاء مصريون بحسن نية، فإن البعض انجرفوا بلا بصيرة، ومجموعة تعمدت أن يكون "التحرير" هو نزعها من سمات الست المصرية الأصيلة وحياتها الفلاحية التي حفظت- رغم الاحتلالات- في الأرياف تماسك الأسرة وربطت أولادها بأرضهم وقيمهم ماعت/مصر للمصريين، لتتحول لمسخ أوروبي مضحك ينشيء أجيالا تتمرغ في تراب الأجانب.

(١٥٣٩)- نفس المرجع، ص ٢٨٤
(١٥٤٠)- نفس المرجع، ص ٢٨٦
(١٥٤١)- الأسرة في المجتمع المصري القديم، د. عبد العزيز صالح، دار القلم (وزارة الثقافة)، القاهرة، ١٩٦١، ص ٧

يقول كرومر في كتابه "مصر الحديثة"، وتقاريره الدورية التي يرسلها لبلاده عن الحال في مصر "الكتاب الأزرق": "إن الوضع العام للمرأة في مصر يقف عقبة في سبيل الوصول إلى أي تقدم في الفكر والعقل، وهو ما يجب أن يصاحب الحضارة الأوروبية إذا أردنا أن نجني فوائدها في مصر"، والعلاج في نظر كرومر هو العمل على تعليم المرأة "فإن هذا التعليم سيعمل على تغيير العادات والأفكار في البلاد، وإن الجيل الناشيء في مصر سيتطلب في المرأة شيئا آخر يغاير نظام الحريم، فهو يرجو أن يجد زوجته على قدر من المعرفة، وليس هناك من شك في استطاعة المرأة التأثير في الرجل، وهي إذا اتخذت مظاهر الحضارة الأووبية سيكون تأثيرها قويا على الرجل، فعاطفتها تفوق عاطف الرجل وهي أشد منه انفعالا"[١٥٤٢].

والتعليم كلمة مغرية وجميلة والكل ينشدها، لكن حين تخرج من محتل أو متأثر بالمحتل يلزم أن نتوقف لنسأل: أي تعليم؟ أي مناهج وأفكار؟ ولأي هدف؟

ويمزج كرومر بين تعليم المرأة وهز معتقداتها؛ فهي "بحكم ضعف عقيدتها الدينية عن الرجل ستكون أقدر على تخليص نفسها من الأفكار والعلاقات التي أحاطت بها منذ مولدها"، وفي نفس الوقت يطالب بأن يستمر تعليم الفتاة المصرية مدة طويلة "وإذا لم يستطع رجل الإصلاح الأوروبي أن يثبت جدارته لا في تعليم الفتاة فحسب بل وكذلك في رفع مستواها، إذا لم يحدث ذلك فإنه لن ينجح في بث الثقافة والتعليم الأوروبيين بين الرجال".

ومباشرة تحدث عن أن هدف التعليم الأوروبي للمرأة هو الهدف الذي أعلنه من التعليم عموما في مصر، إخراج المصري من مصريته ليكون أوروبيا بالتدريج: "ومن الشواهد على ذلك تعليم الفتاة، فإن الرأي العام المصري تغير تغيرا شاملا في هذا المجال، وإن نهضة تعليم الفتاة سيكون لها تأثيرها في الجيل المقبل من المصريات، وفي أخلاقهن ومكانتهن، وهيهات أن يتشرب المقلدون المصريون روح التمدن الأوروبي إذا لم يحدث تغير تدريجي في مقام المرأة المصرية"[١٥٤٣].

والتعليم المصري السليم لا يفصل بين المرأة والرجل، لا يجعل لهذا قضية وذاك قضية، بل يعالج الأمور كقضية عائلة ووطن، أما التعليم الأوروبي فسعى في الانفصال والانقسام بما سماه بـ"قضية المرأة"، وشحنها بكل ما تعادي به الرجل بتقديمها أنها "مضطهدة" دائما منه ومن المجتمع كله.

ومنه ما اختصر "قضية المرأة"، في أن تعيش "الغرام"، قبل زواجها، فاختزل دورها كست مصرية ودورها الوطني في مشاعر من نوع واحد، وشجع هذا نوعية معينة من الروايات والسينما.

وممن تزعم حركة "تحرير" المرأة مجلة "الراوي" لصاحبها اللبناني في ١٨٨٨، التي بدأت "التمدين" بالكلام عن الحب في حياة المرأة، وأنها "إذا كانت خالية من العمل فارغة الفؤاد من حب زوج يكون كبح

(١٥٤٢)- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٢٩٦- ٢٩٧

(١٥٤٣)- المرجع السابق، ٢٩٦- ٢٩٧

لجماح شهواتها فلا تأمن من غائلة هواجسها"، وغصت الصحف بإعلانات عن سيدات (شاميات وجنسيات أخرى) على استعداد لتقديم دروس في الجغرافيا واللغات والآداب الاجتماعية[١٥٤٤]، وأصبح من معالم "البيت العصري" في بيوت الأغنياء استحضار مدرسين لتعليم الفتيات، ليس ما يخص الثقافة والحضارة المصرية والاعتزاز بها، لكن تعلم مزيكا أجنبي على البيانو ولغة أوروبية ترقع بها لسانها، وقراءة الروايات الأوروبية، والأكل بالشوكة والسكين، واللبس على الموضة الأوروبية وغيرها من سلوكيات أجنبية، مع السخرية من الست الفلاحة قدر المستطاع.

وصدرت أول صحيفة مخصصة للمرأة على يد اللبنانية هند نوفل وهي مجلة "الفتاة" سنة ١٨٩٢، فعلى حد وصف هارتمان كان الباب مفتوحا لأن المرأة المسيحية السورية "تتمتع بجرأة غير عادية"، وقوبلت بترحيب شديد من صحيفتي "المقطم" الشامية و"النيل" لصاحبها العثمانلي، وأفردت الصحيفة عددها الأول للإشادة بـ"جلالة ملكة إنجلترا فيكتوريا المعظمة"، "حامية الدين والإيمان وإمبراطورية الهند"، وتخصصت في تقديم الرجل والمرأة الإنجليزيين كقدوة، وأن كل سلوك متحضر يجب أن يؤخذ منهما، فحتى الحياء والشهامة جعلوها إنجليزية: "فالحياة من أجل الصفات المعتبرة في النساء، وحسبنا شاهدا ما نراه من التقليدات الإنجليزية، فإن الرجل منهم لا يقدر أن يأتي بأي عمل يؤول بتكدير حاسات النساء، ولا أن يتلفظ بأقل كلمة ذات معان كثيرة احتراما وإجلالا لهن"[١٥٤٥].

واللافت أن من وضع في أيديهن في البداية معظم صحف وأنشطة "تحرير المرأة"، هن نساء- إضافة إلى أنهن أجنبيات- فإنهن مختلفات في الدين، مسيحيات يخالفن المصريات المسلمات في دينهن، ومسيحيات كاثوليك أو بروتستانت مخالفات للمصريات المسيحيات الأرثوذكس؛ ليخرج من تحت أيديهن "المسخ"، الذي قال عنه كرومر صراحة: "مسلمون وليست فيهم خواص إسلامية، وأوروبيون وليست فيهم خواص أوروبية"[١٥٤٦] وبالطبع مصريون وليست فيهم خواص مصرية.

وساعد الإنجليز على إحراز بعض النجاح[١٥٤٧] أنهم يعرفون خطتهم، وأهدافها، ومداها، والصبر عليها ولو طالت السنين، تقوم على تنفيذها حكومة وتنظيمات، والصحف التابعة لهم تسير فيها يوميا، فيما بقية الصحف والشخصيات الوطنية المعادية للإنجليز جهودهم ذاتية من قلوب مخلصة، ليس ورائهم حكومة، بل غالبا تطاردهم الحكومة التابعة للاحتلال[١٥٤٨].

ورغم هذا حصل العجب، بقي لهم سحرهم في حفظ ماعت متقدة في النفوس، يغذيها ظهرها- سليم الفطرة لحد كبير- وهو الريف، لا سند لهم إلا رابطة الأرض والسماء، بل المعجزة أن مصر بعد ثورة ١٨٨١ ظهرت أكثر عملقة أولادها الحقيقيين بدافع الوطنية الثورية في كل المجالات، فمن وسط الحصار الصحفي

[١٥٤٤]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٢٩٦

[١٥٤٥]- نفس المرجع، ص ٢٩٨- ٣٠٠

[١٥٤٦]- نفس المرجع، ص ٣٠٠

[١٥٤٧]- أكبر نجاح مستمر لسيطرة الصحف التابعة للإنجليز والعثمانلية وفرنسا هو أن بعض المصريين يظنون حتى اليوم أن عرابي هو سبب احتلال الإنجليز لمصر، وليس أنه والشعب كله حاولوا إنقاذ مصر من السيطرة الأوروبية بعد سيطرة الإنجليز والفرنسيس على الحكومة والاقتصاد، وحاولوا منع الغز المعد له مسبقا، بل إن من أسباب الثورة التخفيض الأوروبي الحاد في عدد الجيش المصري كي تكون البلد بلا حامي.

[١٥٤٨]- نفس المرجع، ص ٢٥٧

والتعليمي والسياسي والاقتصادي خاضوا حرب إنشاء الجامعة المصرية، رغم أنف كرومر، ونجحوا، وخاضوا معركة أن يكون صوت المصري الحقيقي مسموعا، بمواهب مثل طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وحافظ إبراهيم وسيد درويش وأم كلثوم المعتزين بفلاحيتهم، وخاضوا معركة أن تظل المصرية فلاحة مصرية مهما علا نجمها ونجحوا، وخاضوا معركة إعادة الفلاحين كضباط في الجيش بداية من ١٩٣٦ ونجحوا، وخاضوا معركة إثبات أن المصري صانع ماهر بمشاريع بنك مصر ونجحوا، وخاضوا معركة أن المصري عالم بارع مثل د. علي إبراهيم ود. مصطفى مشرفة ونجحوا، وخاضوا معركة النخوة باستمرار كراهية الاحتلال ونجحوا..

وسيعلنون كلمتهم في دنشواي وثورة ١٩١٩ وانتفاضة ١٩٣٥ وثورة ١٩٥٢.

❽ (تحول مصر لساحة للعصابات الدولية والجريمة المنظمة)

يقول يعقوب لانداو، مؤلف "تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية ١٥١٧- ١٩١٤": "كان الماسون يمارسون الإجرام في المدن المصرية، وتجد في المحافل الحماية والعون"[١٠٤٩].

وليس الماسون فقط من يجدون الحماية والعون، بل معظم الجاليات، في الامتيازات الأجنبية وفي حماية بعضهم لبعض مستغلين نفوذهم الاقتصادي والسياسي والثقافي، إضافة إلى أن بعض الأجانب يجدون براحا في ارتكاب الجريمة لأنهم غير معروفين وسط المجتمع، لا يخشون اللوم ولا يحكمهم الحياء.

ولكثرة العدد وتنوع الجنسيات والأديان والتيارات والتنظيمات امتلأت مصر بأشكال من الفساد والجرائم والصراعات بأشكال جديدة وكثيفة، ووصلت لعمق المحافظات مع انتشار هؤلاء خارج القاهرة والإسكندرية، ومما ساعدهم أيضا في الإحساس بالأمان وهم ينشرون العصابات المنظمة في مصر أن جهاز البوليس كان يفتقد لوسائل البحث الجنائي الحديثة مقابل مهارة المجرمين القادمين من الخارج في ابتكار وسائل جديدة للجريمة والهروب وجلب الأدوات الحديثة اللازمة لارتكاب جرائمهم[١٠٥٠].

▼ (المخدرات)

قبل هذا الاحتلال الجالياتي كان في مصر الحشيش- وهو كما تابعنا دخل مصر على يد تجار تابعين للطرق الصوفية بحسب ما أخبرنا الجبرتي- وهم أجانب أيضا- وبعد الحرب العالمية الأولى وتدفق الأجانب بكثرة جاءوا بالكوكايين والهيروين الأكثر تدميرا حسب تقارير وزارة الداخلية سنة ١٩٢٨[١٠٥١].

وهربوا من العقاب بالامتيازات الأجنبية فكان القبض على تاجر مخدرات يلزمه الحصول على إذن قنصله أو عدة قناصل لو الشبكة متعددة الجنسيات، وأن يذهب القناصل مع البوليس لحظة القبض، وقد يتباطئون

[١٠٤٩]- الماسون والماسونية في مصر ١٧٩٨- ١٩٦٤، ١٩٦٤، ص ١٤٧

[١٠٥٠]- انظر: مجتمع القاهرة السري (١٩٠٠- ١٩٥٣)، عبد الوهاب بكر، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ص ٦

[١٠٥١]- الأجانب في مصر ١٩٢٢- ١٩٥٢ دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، محمود محمد سليمان، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٣١٧

فيفلت المجرم من العقاب، وفي ذلك قال توماس رسل، حاكم بوليس القاهرة (من ١٩١٧- ١٩٤٦) في مذكراته إن العدو الأكبر لمصر هو تاجر المخدرات الأجنبي بسبب ما يتحصن به من امتيازات أجنبية[١٥٥٢].

وقاد شبكات المخدرات في مصر اليونان والإيطاليون والأرمن، وشارك في جلب وتوزيع المخدرات جنسيات أخرى كالسوريون والمغاربة واليهود والتونسيون والأحباش، خاصة المنطويين تحت لواء قنصليات تحصنهم بالامتيازات الأجنبية أيضا، وبحسب "رسل" فتركيا واليونان كانتا مصدر عصابات تهريب المخدرات لمصر[١٥٥٣].

▼ (انتشار الدعارة)

في الأسرة ١٩- خاصة مع انفتاح مصر أيام الدولة الحديثة بشدة أمام الشعوب الأخرى- أوصى الجد الحكيم "آني" المصريين بقوله: "احذر المرأة الأجنبية التي لا تُعرف في بلدتها [لا يعرف أهل البلدة المقيمة فيها من هي ومن أين أتت]، ولا تنظرن إليها، ولا تعرفنَّها في جسدها، لأنها فيضان (من الشر) عظيم وعميق، لا يعرف الرجل دورانه"[١٥٥٤].

وفي عصرنا يحكي توفيق الحكيم أنه لما اشتعلت الحرب العالمية الأولى فرَّ كثير من الأوروبيين لمصر، وأقدمت بعض نساءهم على الدعارة، وصرنَّ أداة لنزح جيوب المصريين الذين اغتنوا من السوق السوداء وأسعار القطن في الحرب، مثل العمد الذين يحضرون من الريف خصيصا للإنفاق على هؤلاء[١٥٥٥]، وأطرف تمثيل لهذه الحالة مَسرحية "إش" لنجيب الريحاني عن العمدة كشكش بيه الذي أتى من القرية ليمطر الأجنبيات في أوكار الخمر والقمار بماله وعرق الفلاحين حتى فقد ماله، واضطر لبيع أملاكه في مزاد ومد يده لأخذ قرض من الخواجة[١٥٥٦].

وأقدم ظهور منظم معروف لبيوت البغاء في القاهرة أيام الأيوبيين، وزاد أيام المماليك والعثمانلية، وسموها "بيوت الخواطي" أي الخاطئات، تعمل بها الجواري والغجريات، لكنها كانت مستنكرة، وأسست حملة نابليون بيوت بغاء للجنود الفرنسيس، ثم نظَّف محمد علي القاهرة من هذه البيوت لكنه ألقى بالداعرات إلى الوجه القبلي، وبتدفق عشرات آلاف الأجانب- نسبة كبيرة منهم حثالة وصناع جريمة- في عهد خلفائه انتشرت تلك البيوت تحت ظل الامتيازات الأجنبية والاحتلال الإنجليزي[١٥٥٧].

يقول المراسل جون نينيه في برقيته للصحف الأوروبية سنة ١٨٨٠ إن اليونانيين والأرمن من أشهر من عملا في "البغاء"، يوقعون في شباكهم الإماء والجواري الذين يستغني عنهم أسيادهم لأسباب مالية أو لغيره، فمثلا في المقهى الكبير لحديقة الأزبكية المدار بواسطة يوناني ما بين ٥٠- ١٠٠ امرأة تركية

(١٥٥٢)- نفس المرجع، ص ٣٢٠
(١٥٥٣)- نفس المرجع، ص ٣٢٣
(١٥٥٤)- فجر الضمير، هنري بريستيد، ترجمة سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١١، ص ٣١١
(١٥٥٥)- توفيق الحكم في حوار ببرنامج "النهر الخالد"، إنتاج التلفزيون المصري، تقديم سعد الدين وهبة
(١٥٥٦)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، ج ٢، مرجع سابق، ص ٢٠٥
(١٥٥٧)-انظر: مجتمع القاهرة السري (١٩٠٠- ١٩٥٣)، مرجع سابق، ص ١١- ٢٤

وشابات وجميلات ومزينات جالسات كل مساء حول تربيزات وهن يتناولن مشروبات على صوت الموسيقى في انتظار منديل العاشقين(١٥٥٨)، وهذا بخلاف من يتسرب إلى القرى من غجريات وغيرهن باسم غوازي.

ويقول توماس رسل إنه عندما ذهب البوليس للقبض على ريفون الفرنسية بصحبة القنصل الفرنسي قالت إنها باعت بيت الدعارة لجنتلي الإيطالية، ولما استدعوا القنصل الإيطالي قالت إنها باعته لأجنبي آخر، وهكذا كانوا يجيدون التلاعب بالقانون استنادا على الامتيازات الأجنبية(١٥٥٩).

وفي البداية كانت بيوت الدعارة غير رسمية، ثم انتزع الأجانب بدعم من قناصلهم تصاريح رسمية لخدمة جنودهم وجالياتهم، يقوم عليها يونان وأرمن وإيطاليون وفرنسيون إلخ، وصار لها شوارع مشهورة في القاهرة وبعض المحافظات، وهذا بخلاف صيد الشباب في الشوارع، فلم يتركوا الأمر اختيارا للفاسد الذي يذهب إلى أوكارهم بقدميه، ولكن يغرون ويصطادون من هم في الشوارع، وبعد تفاقم الأمر وزوال الامتيازات الأجنبية أصدرت الحكومة القرار رقم ٧٦ لسنة ١٩٤٩ بإغلاق بيوت الدعارة(١٥٦٠).

ولم يقتصر انتشار الدعارة على المواخير، فجرى نقلها بفعل فاعل إلى شاشات السينما لتنتشر أوسع، فساهمت أفلام وروايات في الإقبال على أوكار الخمر والفسوق بنشر التعاطف مع الداعرات عبر تصوير الداعرة (محور الفيلم) في شكل المظلومة التي دفعها الفقر أو قسوة أفراد الأسرة إلى بيع جسدها مقابل المال، وهو أمر لم يكن له ظل في الواقع، كما سبقت الإشارة، ولكنه فكر أجنبي دخيل على مصر لتشجيع مصريات على الانزلاق في هذا البئر النتن، وتبرير الجرائم مهما قبحت، وإسكات الضمير أمامها، فيسهل الإقبال عليها والمجرم يتوهم أنه ضحية وليس مجرما.. وهكذا يتجرد المصري من الشّهامة والنخوة.

وهنا ملاحظة تستلزم وقفة، إن معظم الأفلام قدمت أن من أسسن بيوت الدعارة ويعملن فيها "مصريات"، وكذلك الراقصات وصاحبات بيوت القمار، وزعماء العصابات والمجرمين مصريين، ولا تشير إلى دور الأجانب والاحتلال في هذا، فكأن الجرائم أنشأها ونشرها مصريون، حيث كانت السينما تتحسس من أن توجه لها تهم الإساءة للأجانب؛ وهو ما ضلل الأجيال المقبلة التي ظنت أن الأخلاق السيئة كانت اختصاص مصري في حين الأجانب لم يكونوا إلا "خير" على مصر.

ويروي المخرج محمد كريم في مذكراته مثالا أن جريدة "لابورص" نشرت في ١٩٣٢ تطالب بمنع فيلم "أولاد الذوات"، وترجمت "المقطم" نص المقال الذي جاء فيه: "فقد أرادوا به أن يروجوا الدعوة لدى المصريين لكراهية المرأة الأوروبية"، وكيف يخرجون في مصر فيلما كهذا مبنيا على التعصب دون أن يكون حتى على شيء من الفن؟"، وقالت "المقطم" إن أجانب قدموا شكوى لوزارة الداخلية لمنع الفيلم، ومنعته الوزارة في البداية ثم أجازت عرضه لأن اللجنة المنتدبة وجدت أنه ليس فيه ما يسيء للمرأة

(١٥٥٨)- رسائل من مصر، جون نينيه، مرجع سابق، ص ٢١٥

(١٥٥٩)- الأجانب في مصر ١٩٢٢- ١٩٥٢ دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٢٥

(١٥٦٠)- نفس المرجع، ص ٣٢٦

الأوروبية[١٥٦١]، وبهذا تُحفظ سمعة المرأة الأوروبية رغم جرائمها، وتُترك سمعة الست المصرية وكافة المصريين نهبا مستباحة للشعوب والتاريخ المزور بالصوت والصورة.

▼ (نوادي القمار)

يقول كلوت بك إنه في زمن محمد علي كان قليل من المصريين يعرفون الكوتشينة، وبالتالي لا يعرفون الألعاب المترتبة عليها أساسا، ومنها القمار[١٥٦٢].

وبالتدفق الأوروبي انتشر القمار في المقاهي والمنازل والكازينوهات، محميين أيضا بالامتيازات الأجنبية وشرط أخذ إذن القناصل وصحبتهم لحظة اقتحام أوكار القمار، وإضافة للشكل التقليدي له ظهرت أنواع أخرى للمقامرة مثل رهانات سبق الخيل أيام إسماعيل بدعوى أنها من "مظاهر التمدن".

كذلك انتشر ما يسمى بالألعاب الأمريكية، واستغل الأجانب فيها المقاهي في صيد زبائنهم وأصبح لهم العديد من المقاهي والكازينوهات منذ ١٩٢٧، وهي عبارة عن صندوق مغلق يلقي اللاعب فيه عملة معدنية ثم يحرك يدا خاصة باللعبة تمنح اللاعب قطعة حلوى أو قطع نحاسية يدفعها ثمن للمشاريب أو لا تمنحه شيئا، وشفطت هذه اللعبة نقود الصبية والشباب[١٥٦٣]، فكانت نوادي القمار وسباقات الخيل لنزح أموال الأغنياء، وألعاب المقاهي لنزح أموال الفقراء... حلب البقرة حتى آخر نقطة دم.

ولتتحول مصر إلى ما وصفه حافظ إبراهيم وهو ناقم على حال مصر في قصيدته التي وجهها إلى كرومر عقب مدبحة دنشواي، متحسرا على حال الأمة التي أوصلتها إلى المدبحة[١٥٦٤]:

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم   هى أمة تلهو.. وشعب يلعب!

▼ (عصابات السرقة الدولية)

السرقة موجودة في المجتمع المصري وغيره منذ نشأة البشر، فهي والقتل والنصب والرشوة أقدم الجرائم، ولكن ازدادت خطورتها في مصر زمن الاحتلالات بعد أن قام عليها عصابات دولية متعددة الجنسيات، تبدع أساليب للنصب والسرقة لم يكن يعرفها المصريون، ومسلحين بأحدث أدوات تساعدهم على عملهم.

وساهمت الامتيازات الأجنبية في كثرتها وتنوعها، وهو ما أشارت إليه صحيفة "الأهرام" في عددها ٤ مايو ١٩٢٤ حين تحدثت عن صعوبة ترحيل اللصوص الأجانب لامتناع القنصليات التابعين لها عن التأشير على جوازات سفر هؤلاء الأجانب كي يحموا بلادهم من جرائمهم، وفي نفس الوقت يصعب عقابهم داخل

(١٥٦١)- "السينما والدولة في الوطن العربي"، سمير فريد، ضمن أبحاث كتاب "الهوية القومية في السينما العربية، ص ١٠٣

(١٥٦٢)- لمحة إلى مصر، كلوت بك، ترجمة محمد مسعود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١، ص ٤٠٣

(١٥٦٣)- الأجانب في مصر ١٩٢٢- ١٩٥٢ دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٢٦

(١٥٦٤)- ديوان حافظ إبراهيم، مرجع سابق، ص ٣٣٩

مصر، وقاد العصابات يونان وأرمن وإيطاليون وروس ومالطيون وجنسيات أخرى[١٥٦٥].

وحين يكون المجرمون أجانب تزداد صعوبات مكافحة الجريمة أمام رجال الأمن لسبب آخر، أنه غير متوفر ملفات كافية عنهم، وغير معروف أصلهم وفصلهم، ولهم تشعبات في الخارج تسهل هروبهم.

▼ (التزييف والغش التجاري)

بانتشار العملات الورقية محل المعدنية، انفتح الباب واسعا لظهور عصابات تزييف العملة من اليونان والأرمن والإيطاليين والروس وجنسيات أخرى، مع ما لهذا من تأثير في نهب مال المصريين، محتميين أيضا بالامتيازات الأجنبية[١٥٦٦]، وقلدهم فيما بعد مصريون ضعاف نفوس ضموهم إلى عصاباتهم.

أما الغش التجاري فانتعش بتزايد تدفق البضائع والاستثمارات الأجنبية، ومنها وضع السلع على أنها مستوردة وهي محلية للمغالاة في ثمنها أو أن يبيع السمن الصناعي على أنه طبيعي، حسب ما أوردت صحيفة "المصور" في مايو ١٩٤٠ أو بيع بضائع مقلدة على أنها أصلية، ورفضت المحاكم المختلطة قانونا لمكافحة الغش التجاري ولم يطبق إلا بإلغاء هذه المحاكم سنة ١٩٤٩[١٥٦٧].

وروت جريدة "الجمهور المصري" أن محاكم القاهرة نظرت خلال سنة ١٩٥٠ ثلاثة آلاف قضية من قضايا الغش: غش الدقيق والمواد الدهنية والجبن والحلوى واللبن والكحول إلخ، وقالت إن سوس الانحلال والانهيار ينخر في جسد الدولة، وعللت السبب في أن الوزراء هم من ذوي الأطيان، ومعظم أعضاء البرلمان من أصحاب العقارات ومن الممولين والمستوردين والمصدرين ومن أصحاب النفوذ، وأصحاب رءوس الأموال يسيطرن على الحكومة، وكبار الموظفين هم ذوو نفوذ في مختلف الدوائر الرسمية، ومن هؤلاء جميعا تتألف القوة الحاكمة التي تسيطر على مفاتيح الدولة، ومن العادة أن أمثال هؤلاء المتغلبين من أرباب السلطان لا يهتمون لغير مصالحهم الخاصة[١٥٦٨]، ومعظم من أشارت لهم الجريدة ما بين أجنبي طازة ومجنس ومستمصر وبعض المصريين.

▼ (حانات الخمرة)

رغم أن شرب الخمر ليس جديدا ولكنه أخذ شكلا جديدا بانتشار الحانات علنا على يد الحملة الفرنسية، ومع فتح الباب للجاليات الأوروبية زمن عائلة محمد علي انتشرت في القاهرة والإسكندرية ومدن القناة بحجة توفير نمط حياة للأجانب كما تعودوا عليه في بلادهم، ثم انتشرت في مدن أخرى وبعض القرى على يد الخواجات، وإن تخفت وراء اسم مقاهي في القرى، وأصبحت تجارة كبيرة هدفها إفساد المصريين، والإثراء السريع، ونزح الأموال للخارج.

وبالاحتلال الإنجليزي انتشرت كما لم يحدث من قبل، وبتصاريح، الإعلانات في الصحف الشامية عن

[١٥٦٥]- الأجانب في مصر ١٩٢٢- ١٩٥٢ دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٢٦

[١٥٦٦]- المرجع السابق، ص ٣٢٧

[١٥٦٧]- نفس المرجع، ص ٣٢٨

[١٥٦٨]- المذكرات، محمد كرد علي، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٨، ص ١١٩٠

الخمور تبين ممزيات "الصنف العالي" وارد فرنسا وإيطاليا واليونان،[١٥٦٩]، ثم جاءت السينما لتشجع المصريين على "القربعة"، وتصور- زورا- كأنه لا بيت "متحضر" يخلو من الخمر، وأن لشاب إذا أهمه شيء فليذهب إلى "الخمارة"، فهي ملجأه ومسلاه ومتواه والصدر الحنين "عشان ينسى".

ويؤكد السياسي والرحالة الإنجليز سكاونت بلنت دور إنجلترا في هذا، فيتحدث في كتابه "مذكراتي" عن: "نعمة الاحتلال على اليونانيين أصحاب الحانات الذين أخذوا ينتشرون في القرى، ولا شك أن الفلاح الذي يتعاطى الخمر سيفقد استقلاله الاقتصادي فيمد يده للاقتراض ثم لا يلبث أن ينزلق في مهاوي الرذيلة"، وأنه لما أثار الموضوع "مرارا مع بارنج، ووعد باتخاذ الإجراءات اللازمة، وكانت النتيجة التي وجدتها بعد فترة هي زيادة عدد الحانات"[١٥٧٠].

فاليوناني كأنه رسول إبليس، ينزل القرية في يده زجاجة خمر يغري الفلاح الميسو لحد ما بأنها ستنسيه الهم، وفي اليد الثانية كيس المال لتكتيفه بالربا ليسدد ديونه التي اقترضها "علشان يقربع" الخمر، ويهمل عمله ويفقد حذره، وينتهى به الأمر في النهاية لإعطاء مواشيه وداره لليوناني مقابل الدين.

ومنعت الحكومة الترخيص للمصري بفتح حانات وسمحت للأجنبي في الأحياء ذات الكثافة الأوروبية التي تسمى بالحي الأوروبي، ولكن انجرَّ مصريون ضعاف النفوس للعمل في هذا المجال بأن يفتح حانة بترخيص يحمل اسم شخص أجنبي ويتفق معه على أخذ مبلغ أو اقتسام الأرباح، وبذلك يستفيد من الامتيازات الأجنبية، وعلى هذا وصلِ وباء الحانات لمساحة واسعة في مصر، فلجأت الحكومة للحد من انتشارها بمنع إضافة شوارع جديدة للأحياء المسماة حينها بالأوروبية[١٥٧١].

وقدم عبد الله النديم المعاصر لانتشار حانات الخمر صورة عما فعلته من خراب في بعض المصريين وضياع أرضهم وأموالهم وهيبتهم حين نقلها الخواجات للقرى، فيقول[١٥٧٢]:

ضحكت على عقولنا الخواجات.. والدين مات.. والكل يتهاون غفلان

اللي يقلد أوروبي.. في دي الشرب.. ما يقلده في حــب الأوطــان

عجب عجب حتى التخريف.. وصل الريف.. والخمرة تشر على الكيمان

تلقى العُمد قبل الإمساك.. شربو الكنياك.. فانظر صيام من بات سكران

باعوا الفـدادين للأروام.. بالأوهــام.. وأصبـح الوطــن غلبـــان

ومع ملاحظة أن اليونان والإيطاليين والأرمن والمالطيين لهم الحضور الأقوى في كافة أنواع الجرائم من

[١٥٦٩]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، سامي عزيز، مرجع سابق، ص ٢٢٥- ٢٢٦

[١٥٧٠]- نفس المرجع

[١٥٧١]- الأجانب في مصر ١٩٢٢- ١٩٥٢ دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٢٨- ٣٢٩

[١٥٧٢]- عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية، نجيب توفيق، مرجع سابق، ص ٢٤٤

قمار وغش وسرقة ودعارة ومخدرات وخمور يمكن تفسير لماذا كان بعض هؤلاء أكثر انتشارا من بقية الجاليات في ربوع المحافظات والأرياف، ويتسترون في شكل أصحاب مقاهي ودكاكين.

واختصرت روايات مصرية صورة كل ما سبق بشكل بليغ، فشرحت رواية "قلوب خاوية" أحد طرق الخواجات للثراء في مصر، وهي عن الخواجة ميشو أخذ من مهنة الحلواني ستارة لعمله الحقيقي وهو الربا، فيسلف الجنيه بريال لحد ما عمل فلوس اشترى بها الأرض، وفي رواية "الماء العكر" هبط الخواجة خريستو على الريف في بحر شبين وفتح قهوة كستارة يبيع فيها لأهل البلد كل شيء ويغريهم بالقروض حتى كتف معظم أهل البلد بالديون، وأوصل قهر الفلاحين من الخواجات وتحكمهم فيهم في عقر دارهم حتى خسروا أراضيهم أن قتل فلاح الخواجة اليوناني بضربة فاس على رأسه، كما في رواية "طرح النهر"(١٥٧٣)، ولم يكن هذا من خيال الأدباء بل قتل الفلاحون بالفعل مرابيا يونانيا وهددوا مرابين يهود بالقتل في عدة حوادث خلال ثورة ١٨٨١ (١٥٧٤).

▼ (النزح والتهريب)

نشطت الجاليات الأجنبية في نزح الأموال التي تكسبها في مصر إلي خارجها بأشكال مشروعة أو غير مشروعة لتصب في بلدانهم الأصلية أو البنوك العالمية، أو لتمويل تنظيمات معينة، أو في شكل فتح مشروعات وفروع لهم في الخارج باسم استثمار، فصارت مصر بحسب وصف وزير الاقتصاد الأسبق عبد الجليل العمري "زي البقرة اللي ضرعها ممدود لبرة وبيتحلب برة".

وطبيعي أن يتسبب اندفاع الأموال المصرية للخارج في خفض قيمة الجنيه المصري في الأسواق العالمية، نتيجة مباشرة لزيادة عرضه للبيع عند إجراء التحويل من مصر إلى الخارج(١٥٧٥).

وزادت وتيرة تهريب الثروات مع الحرب العالمية الثانية، فمثلا كان اليهود يحولون أموالهم من مصر إلى السودان استفادة من انعدام الرقابة الجمركية بين البلدين، ومن هناك تحول إلى أحد البنوك في الخارج لتشتري بضائع وأسلحة يجري تصديرها إلى إسرائيل، وتقدمت عائلة يهودية- أثناء حرب ١٩٤٨- بطلب تحويل مبلغ يزيد على ٣٠ ألف جنيه، ولما طالبت مراقبة النقد مستندات إثبات ملكية الأموال المطلوب تحويلها رد البنك القائم بدور الوسيط في عملية التحويل بأن أصحاب الطلب سحبوا أموالهم وغادروا البلاد نهائيا، وكانت العائلة نجحت بالفعل في الهجرة وتهريب كل أموالها عن طريق السوق السوداء التي يديرها اليهود أيضا(١٥٧٦).

وبذلك فإن معظم أموال الأجانب- وبعض الأثرياء المستمصرين والمصريين والعائلة الحاكمة- تم

(١٥٧٣)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، ج ٢، مرجع سابق، ص ٢٠٥
(١٥٧٤)- الفلاحون بين الثورة العرابية وثورة ١٩١٩، علي بركات، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٢٢، ١٩٧٥، ص-٢١٧
(١٥٧٥)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، ج ٣، ص ٤٧٦
(١٥٧٦)- المرجع السابق، ص ٤٧٧
*** من الأعمال الفنية التي تعرضت لهذا التاريخ مسلسل "رأفت الهجان" للكاتب صالح مرسي في الجزء الأول وأوضح نشاط اليهود في تهريب الأموال من مصر إلى الخارج لدرجة أنهم أصبحت "حرفة" للكثير منهم ويأخذون عليها سمسرة

تهريبها للخارج قبل ١٩٥٢، فما أممته ثورة ٢٣ يوليو لا يساوي نقطة في بحر ما هربوه من مصر.

وبجانب اليهود نشط في هذا الجال البريطانيون والمالطيون، والأخطر من ذلك هو النشاط المحموم وغير المسبوق في تهريب الآثار والذهب لخارج مصر، وفي المقابل تهريب البضائع المحظورة والخطرة من الخارج إلى داخل مصر كالمخدرات والبارود[١٥٧٧] لنشر الضياع والعنف بين الناس، فينزحون من مصر إلى الخارج الخير ويهربون إلى داخلها الشر.

⑨ تمييع الجنسية المصرية (تجنيس الأجانب لأول مرة)

"أعطى ما لا يملك لمن لا يستحق"[١٥٧٨]

بجانب تمييع وتدمير الأخلاق والقيم ذاته، فإن تصفية الشخصية المصرية تضمنت هتك قدسية كلمة "مصري" و"ابن البلد" بعد أن بدأت تعود لوضعها في ثورة ١٨٨١، بل تفريغها من قدسية أن يكون حاملها مصريا خالصا، ليس له أي انتماء في الجنسية أو العرق أو المذهب لأي بلد آخر.

وتابعنا أنه في عصور الاحتلالات جرى السطو على صفة "مصري" ليتسمى بها المحتلون أحيانا، رغم انفصالهم التام عن المصريين الحقيقيين (الفلاحين)، ورغم احتفاظهم بالانتماء لأعراق وبلاد أخرى، بل حتى المماليك وصفهم المقريزي والجبرتي بـ"المصرلية"، وهم لا ينتمون إلا لنفسهم.

ومع ارتفاع صحية "مصر للمصريين"، وعودة كلمة مصريين لحقيقتها وأهلها، ورغبة المصريين الحقيقيين في إنهاء تحكم التركي والشركسي واليوناني والسوري واليهودي والعرباني إلخ في بلاده خلال الثورة في ١٨٨١، ظهر إلحاح في تسمية الأجانب بـ"المصريين" من بوابة القانون والأوراق الرسمية، أو ما عُرف بالتجنيس، بحيث يحمل الجنسية المصرية أجناس أخرى بمجرد الولادة في مصر أو لإقامتهم فيها لسنوات محددة، وبموجب هذا لا يصبح من حق المصري الحقيقي الاعتراض على وجود الأجنبي المجنس في الحكومة وكل المجالات.. فقد حلَّ الاحتلال بالقانون محل الاحتلال بالسيف.

ففي عهد الخديوي عباس حلمي صدر قانون يسمح بمنح الجنسية المصرية للأجانب- بعد أن سمح سعيد بتمليكهم الأرض- فأسقط من يد المصري حجته في طرد المحتل أنه "أجنبي"، ولكن القصة جذورها تمتد إلى عصر إسماعيل بصدور قانون الجنسية العثمانية، ومنه نتتبع مسيرة قوانين الجنسية المصرية.

❶ قانون الجنسية العثمانية سنة ١٨٦٩

أصدره السلطان العثمانلي على نسق التشريعات الأوروبية، وبه أصبح كل من يقيم في الولايات العثمانية يُسمى عثماني، فاستقلت الجنسية بذاتها وانقطعت صلتها بالدين، وأصبح كل الرعايا من مسلمين وغير

(١٥٧٧)- انظر الجالية البريطانية في مصر (١٨٠٥- ١٨٨٢)، مرجع سابق، ص ٣٤٣

(١٥٧٨)- عبارة قيلت عن وزير الخارجية البريطاني آرثر بلفور لما أصدر وعدا بتقديم فلسطين وطنا لليهود، ومنح الجنسية المصرية للأجانب هي تقديم مصر لأجانب يتحكمون في مصيرها ويشتركون في ثروتها ويملكون مناصبها عبر التجنيس.. فلا يفرق الأمر شيئا عن طريقة أخذ اليهود لفلسطين بالاستيطان وبوعد بلفور.

مسلمين يتمتعون بما لهم من حقوق سياسية ومدنية على السواء[١٥٧٩]، وإن كان هذا نظريا ولم يطبق حقا، خاصة بالنسبة للمصريين الذين لم يأخذوا حقوقا تساويهم بالوافدين والمستوطنين العثمانيين.

وبتحقيق إسماعيل استقلالا ذاتيا إلى حد ما ظهرت الرعوية المحلية، أي الاعتراف بشخصية خاصة بسكان مصر تميزهم عن العثمانيين الوافدين، وأصبحت تظهر في قوانين مثل الخدمة العسكرية المقتصرة على من يقيم بمصر من العثمانلية إضافة للمصريين، وإن ظل للعثمانيين المستوطنين تميزا على المصريين في المناصب والثروة.

❷ قانون المنتخبين سنة ١٩٠٠

في ١٩ يونيو ١٩٠٠ أيام عباس حلمي الثاني صدر قانون يحدد من هم المصريون الذين يحق لهم انتخاب مجلس شورى القوانين، فجاء فيه: عند إجراء العمل بقانون الانتخابات الصادر في أول مايو سنة ١٨٨٣ يعتبر من المصريين الآتي بيانهم:

١-المتوطنون في القطر المصري قبل ١٨٤٨ بصفة دائمة، وأريد بهم أهل البلد الأصليون ولم يبرحوا أرضهم.

٢- رعايا الدولة العثمانية المولودون في مصر من أبوين مقيمين في مصر دائما لإمكان توطن هؤلاء والاندماج مع أهل البلد.

٣- رعايا الدولة العثمانية المولودون فَي مصر وقبلوا بدخول الجيش أو دفع البدلية.

٤-اللقطاء.

وأجاز للرعايا العثمانية المقيمين بمصر منذ أكثر من ١٥ سنة التجنس أيضا إذا رغبوا في ذلك[١٥٨٠].

وبذلك دخل منذ ١٩٠٠ الآلاف لصفة مصري ولم يكونوا كذلك، والرعايا العثمانيون مقصود بهم كل شخص تابع لبلد يحكمها السلطان العثماني كالتركي والعراقي والسوري والحجازي والجزائري والتونسي والأرمني إلخ، أما الأجنبي فهو كل من ليس من ولاية عثمانية، وسبب إدخال هؤلاء في كلمة "مصري"، أن كثيرا من أعضاء مجلس شورى القوانين وأعضاء الحكومة أساسا من هؤلاء العثمانلية الوافدين، فطبيعي أن يحشروا أنفسهم في صفة "مصري" ليحتفظوا باحتكارهم للمناصب والثروة.

❸ قانون الجنسية المصرية سنة ١٩٢٦

وهو أول قانون يصدر باسم الجنسية المصرية بسبب سقوط السلطنة العثمانية، وصدر في ٢٦ مايو ١٩٢٦ لإعادة تحديد من يحمل الجنسية المصرية، ولكن القانون لم يقره البرلمان لما رأوا فيه من توسيع مبالغ فيه

[١٥٧٩]- انظر: الأجانب في مصر ١٩٢٢- ١٩٥٢ دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، محمود محمد سليمان، مرجع سابق، ص ١٥

[١٥٨٠]- انظر نفس المرجع، ص ١٥- ١٧

في منح الجنسية، وألغوه سنة ١٩٢٨ [١٥٨١].

④ قانون الجنسية المصرية سنة ١٩٢٩

ظل العمل بالقانون العثمانلي حتى صدور قانون مارس ١٩٢٩، ويعتبر أول قانون مصري ينظم حالة الجنسية، وفيه حدد من هو المصري وفصله عن العثمانلي.

المادة الأولى: يعتبر داخل في الجنسية المصرية:

١- كل أعضاء الأسرة المالكة.

٢- كل من يعتبر عند نشر القانون مصريا بحسب المادة الأولى من الأمر العالي الصادر ٢٩ يونيو سنة ١٩٠٠ (أي السكان القدماء).

٣- من عدا هؤلاء من الرعايا العثمانيين المقيمين عادة في القطر المصري حتى ٥ نوفمبر ١٩١٤ وحافظوا على الإقامة حتى نشر هذا القانون.

أما من يمنح الجنسية المصرية فحسب المادة ٦ هم:

أولا: من ولد في القطر المصري أو في الخارج لأب مصري.

ثانيا: من ولد في القطر المصري أو في الخارج من أم مصرية مدامت نسبته لأبيه لم يثبت قانونا (أبناء العلاقات الغير شرعية؟)

ثالثا: من ولد في القطر المصري أو في الخارج من أبوين مجهولين ويعتبر لقيطا ما لم يثبت العكس.

رابعا: من ولد في القطر المصري أو في الخارج لأب أجنبي أيضا إذا كان هذا الأجنبي ينتمي بجنسه لغالبية السكان في بلد لغته العربية أو دينه الإسلام.

ووسعت المادة ٨ باب التجنيس بإتاحة التجنيس لحالة جديدة، وهي من أقام بمصر ١٠ سنوات وتوافر فيه حسن السير والسلوك وله مصدر رزق ويعرف العربية[١٥٨٢]، فصار التجنيس "لكل من هب ودب".

فهو أولا أكد على لصق العيلة العلوية بالجنسية المصرية رغم استمرار اعتزازهم بأصولهم الأجنبية وتعاليهم على الفلاح وانفصالهم عنه (وذلك بعد تعالي أصوات تطالب بإنهاء حكمها باعتبارها عائلة أجنبية مثل مقالات الصحفي أحمد حلمي والتي سُجن بسببها بتهمة الإساءة للذات الخديوية الفخيمة سنة ١٩٠٩)، وجامل العثمانيين، خاصة أن كثيرا من النواب وكبار الملاك الذين وضعوا القانون هم أصلا من العثمانيين ورعاياهم الذين

[١٥٨١]- الأجانب في مصر ١٩٢٢- ١٩٥٢ دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١٨

[١٥٨٢]- المرجع السابق، ص ١٩- ٢٠

استوطنوا مصر كالأتراك واليونان والأرمن والعرب والشوام، ويريدون الحصول على صفة مصري للوصول إلى الوظائف المدنية والحربية والمناصب الهامة بعد أن نص دستور ١٩٢٣ على أن تكون هذه الوظائف للمصريين فقط، وأيضا ليتماهوا مع المجتمع ويقدموا له مبررا قانونيا لتملكهم معظم أراضي البلاد بعد ارتفاع صوت "مصر للمصريين" من جديد بثورة ١٩١٩.

وثانيا فتح الباب واسعا للأوروبيين والأمريكيين والروس والأفارقة إلخ للتسمي بتسمية مصري لأول مرة بالمادة الخاصة بتجنيس من أقام في مصر ١٠سنوات أو ولد في مصر، أو ولد في بلد يتحدث العربية ودينه الإسلام، وبهذا صارت كل الأجناس لها فرصة احتلال مصر.. بالقانون.

ومثال لهذا مصوراتي روسي اسمه سلامون أوشيرف طلب الجنسية سنة ١٩٣١ بحجة أنه في مصر منذ أكثر من ١٠ سنوات ويعرف العربية- طبيعي أن يتقنها في هذه المدة- وله حرفة، وحصل عليها بالفعل بحسب مذكرات وزارة الداخلية المودعة بدار الوثائق القومية بالقلعة[١٥٨٣].

وإن كان فتح باب التجنيس للعثمانيين ورعاياهم سببه أن كثير من النواب وكبار الملاك منهم، فغير مفهوم فتح الباب على مصراعيه هكذا أمام بقية الأجانب إلا خضوع من وضعوا هذا القانون لضغوط أو صفقات مع الجاليات الأجنبية أو الاحتلال الإنجليزي، ليكون امتدادا للامتيازات الأجنبية التي تعطي للأجانب مزايا ليست لهم، وتطبيقا- مقصود أو غير مقصود- لمشروع كرومر وملنر بالتدويل.

وبالفعل، فإنه مع التطبيق العملي لهذا القانون ظهرت عيوبه، خاصة وأنه صدر ومصر غير كاملة السيادة، وتحت الاحتلال ويعتبر امتدادا للامتيازات الأجنبية، فقد بلغ عدد المجنسين ١٣,١٠٢ أجنبيا دفعة واحدة في تعداد ١٩٤٧ من عدة جنسيات، أكثرهم من اليونان والأرمن[١٥٨٤] لتظل حيل المسيخ الدجال مستمرة لسلب مصر من أهلها ومصريتها بكل طريقة.

❺ قانون الجنسية المصرية رقم ١٦٠ لسنة ١٩٥٠

لزم صدور قانون جديد ومصر في حالة السيادة (الشكلية بعد معاهدة ١٩٣٦) ومختلفة عن عام ١٩٢٩؛ وكانت الامتيازات الأجنبية انتهت تماما سنة ١٩٤٩، على أن يوزن التشريع بميزان مصلحة الدولة العليا، فصدر القانون رقم ١٦٠ لسنة ١٩٥٠.

واختلف عما سبقه في أنه لغى تجنيس من ولد في مصر لأجنبي ولد أيضا في مصر مدام يعرف العربية ومسلم، ولغى فكرة وحدة الجنسية في العائلة، بمعنى أنه لغى دخول الزوجة الأجنبية تلقائيا في جنسية الزوج بمجرد زواجها، بل يلزم الأمر تقديمها طلبا وتوافق عليه الدولة[١٥٨٥] إلا أن معظم بقية المواد تبقى على مساوئ ما مضى رغم المطالب بأن يبتعد عن الانفتاح المهين في التجنيس.

[١٥٨٣]- المرجع السابق، ص ٢٠

[١٥٨٤]- نفس المرجع، ص ٦٨

[١٥٨٥]- المرجع السابق، ص ٢٢

فهو جمع المواد من ١-٥ في مادة واحدة هي المادة الأولى، بل وأضاف ميزة للرعايا العثمانيين السابقين وهي منح الجنسية لمن لم يحافظ على إقامة دائمة في مصر بعد ٥ نوفمبر ١٩١٤ حتى ١٩٢٩ لو طلبوا خلال سنة من هذا التاريخ دخولهم في الجنسية المصرية، ووافق وزير الداخلية على هذا الذي يتضح أيضا أنه لم يكن إلا مجاملة لصالح عائلات من أصول أجنبية من رعايا عثمانلية سابقين وبقايا أقاربهم وبني جلدتهم من الوافدين الجدد.

والمقصود في هذه المرة بالرعايا العثمانيين من لم يختاروا الجنسية التركية أو أي بلد آخر استقل عن تركيا بعد معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ [١٥٨٦]، أي يكون تركيا أو سوريا أو عراقيا أو حجازيا أو جزائريا إلخ، ولكنه لم يحصل على جنسية هذه البلاد، فأعطوه الجنسية المصرية بدلا من أن يعود إلى بلده الأصلي أو يسعى ليتجنس بجنسيتها، وذلك بالرغم من أنه بداية من ذلك التاريخ بدأت الدراسات تظهر لتحذر من زيادة عدد السكان في مصر.

إنها صناعة من حلم بهم كرومر: مسلمون وليسوا بمسلمين، مسيحيون وليسوا بمسيحيين، مصريون وليسوا بمصريين".. وليس الجنسية المصرية أو الدين عندهم إلا كلمة في خانة على ورقة.

"قالت الأعراب آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم" (الحجرات الآية ١٤)

⑩ التقدم في مشروع "تدويل مصر"

(نداء إلى العالم للهجرة إلى مصر)

ما سبق يصب، أو هو نتيجة وصدى، لمشروع تدويل مصر كما جاء على لساني ملنر وكرومر.

يقول ألفرد ملنر، وزير المستعمرات البريطاني وقت ثورة ١٩١٩ عن التأثير المستقبلي للامتيازات الأجنبية بانشكاح: "ليس في الشرق بلاد كمصر يكثر فيها النزلاء الأوروبيون ويتمتعون بمزايا خصوصية، ويحتلون مراكز مهمة في التجارة والتعليم والصناعات العلمية والأدبية والهيئة الاجتماعية ودواوين الحكومة أيضا"، وأن "المدن المصرية الكبيرة، ولا سيما الإسكندرية، أصبحت مدنا أوروبية من وجوه كثيرة"، وأعرب عن عشمه في أن مصر ستظل "بلادا دولية على الدوام بمعنى ما"، لأنه اعتبر أن "لا حل للقضية المصرية يدوم طويلا ما لم يراع فيه ضمان المصالح الأوروبية العظيمة الحصينة في وادي النيل[١٥٨٧]"، أي لن يخفوا ضغطهم عن مصر إلا بتعهد مصر باستمرار أن تكون "دولية للجميع"، وليس "للمصريين"، فيما يمكن وصفه بـ"تدويل مصر".

وسبقه كرومر في أحد تقاريره المرسلة لإنجلترا عن مصر ضمن "الكتاب الأزرق" في ١٩٠٤ أنه خطط لنظام حكم تشترك فيه الجاليات الأجنبية في مصر في الحكم، ويكون صوتهم مسموعا، مبررا ذلك:

[١٥٨٦]- نفس المرجع، ص ٢١- ٢٢

[١٥٨٧]- انظر: الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى نهاية أزمة مارس ١٩٥٤، عبد العظيم رمضان، مكتبة مدبولي، ط ٢، القاهرة، ص ٤٥- ٤٦

"إذ أن الأجانب المقيمين في مصر لا يمكن اعتبارهم أجانب بالمعنى الذي ينصرف إلى الفرنسي المقيم بإنجلترا أو الإنجليزي المقيم في فرنسا؛ وتقتضي السياسة الصحيحة والعدل أن يعد هؤلاء الأجانب مصريين"(١٥٨٨).. ولقي هذا قبولا واسعا عند الجاليات الأجنبية- دعَّم ما ادعته إنجلترا لنفسها من أنها في مصر من أجل "حماية الأجانب والأقليات".

وهذه الطريقة "إشراك الأجانب في حكم مَصر" عبر مشروع كرومر تم ترجمتها في وقت لاحق عبر القوانين سيئة السمعة الخاصة بالجنسية المصرية "الاحتلال المقنع"، وإدخال أجانب في البرلمان.

وفي هذا الجو المسموم، اشتدت مطالب المصريين بالكف عن الامتيازات الأجنبية التي جعلت مصر بلد أجانب لا بلد مصريين، وأظهر محمد عبد الباري في كتابه "الامتيازات الأجنبية" سنة ١٩٣٠ بحقائق التاريخ والقانون فساد الحجج التي يتذرع بها الأجانب لاستمرار هذه الامتيازات وكأنها صارت "حق مكتسب"، ومنها حجة أن "مصر منشأ الامتيازات"- أي هي السبَّاقة في منح الامتيازات للأجانب منذ قرون طويلة- وسبقت حتى تضمينها في معاهدات مع السلطنة العثمانلية، وأنه حتى لو ألغت السلطنة هذه المعاهدات أو تحررت مصر من السلطنة فإن مصر يجب أن تلتزم بمنح هذه الامتيازات للأجانب بموجب "العرف والعادة"(١٥٨٩)".

وهذا كلام حين يتجرأ الأجنبي على النطق به، يمتلأ الحلق مرارة أن يفكر الأجانب بأننا بهذا الهوان لدرجة أن يرى تمييزه فوق المصريين هو "حق بحكم العرف والعادة"، لكن هذا "الهوان" له جذور بعيدة، فطوال التاريخ- في عصور أزمنة الحكم المصري الحرة أو عصور الاحتلال- يجد في مصر معاملة مميزة لا يجدونها في بلادهم ولا بلاد غيرهم، وإن كانوا أسرى حرب وعبيد، ويضيء وجه حكامها حين يوصف أحدهم بأنه "حامي حمى الأجانب"، ويحكم "بلد التسامح" و"بلد الفرص".

وكعادة المحتل في تقديم كل خطوة يفعلها كـ"جميل" على رقبة أهل البلد، فإنه حتى حين أبدى كرومر ميلا لإنهاء الامتيازات الأجنبية لإزاحة مزاحمة الدول الأوروبية لبريطانيا خرجت صحيفة "الاتحاد المصري" الشامية التابعة له لتهلل أن معجزة ستتحقق بأن المصري سيتساوى في بلده بالأجنبي: "فإذا لم يكن للإنجليز عمل يحمد في هذه الديار شكرا لهم سعيهم المتواصل في محو آثار الامتيازات القديمة حتى يصبح الوطنيون مساويين للأجنبي"(١٥٩٠).

وصورة أخرى من صور الامتيازات الأجنبية التي نشطت زمن الاحتلال الإنجليزي هو تحويل مصر إلى "شركة متعددة الجنسيات"، فبمفهوم ملنر، فإن تدويل مصر يعني أن تكون مصر شركة تشترك في استيطانها وإدارتها دول أوروبية عبر جالياتها، تجمعهم مصالح في السيطرة على مصر، وليس هذا رأي الغرب فقط، بل رأي شخصيات وتنظيمات من الشرق أيضا تريد أن يكون لها أسهم في هذه "الشركة".

(١٥٨٨)- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، سامي عزيز، مرجع سابق، ص ٢١٥- ٢١٦

(١٥٨٩)- انظر: الامتيازات الأجنبية، محمد عبد الباري، مرجع سابق، ص ٣٣- ٣٤

(١٥٩٠)- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، سامي عزيز، مرجع سابق، ص ٢١٧

فحصل أنه في الوقت الذي يجذب الغرب مصر من ذراعها بكل قسوة نحوه، يجذب العرب أيضا مصر من ذراعها الثاني بكل قسوة نحو ""التدويل"، وهي على وشك التمزق بين هذا القلب الجاحد وذاك.

فتحدث شوام صراحة أن مصر بلد "دولية"، لا تخص أبنائها فقط، وكتب أحد صناع القومية العربية في أول القرن العشرين، محمد كرد علي، مؤسس أول مجمع للغة العربية ومقره دمشق، مقالة في مجلة أسسها في مصر اسمها "المقتبس" بعنوان "الهجرة إلى مصر" سنة ١٩٠٧، عرض فيها للهجرات التي هبطت على مصر في عصور الاحتلالات، ودعا كافة الجنسيات للهجرة مجددا إلى مصر بحجة أن "مصر من حيث هي مهاجر الأرض فهي دولية كما يقول الساسة أو مشتركة بين أجناس وأديان شتى".

وتفاخر بأن بني جنسه الشوام يحصدون فيها الثروة الباهظة، وأنه "قدرت ثروة السوريين فيها بخمسين مليون جنيه؛ أي بعشر ثروة القطر، وهكذا سائر الأمم ولاسيما الروم والطليان والفرنسيس، فإن فيها من هذه الأجناس ألوفاً اغتنموا من خيراتها واتخذوها دار هجرتهم وطناً ثانياً لهم"[١٥٩١]، متجاهلا أن هذا تسبب في أن ٩٠% من أصحابها الحقيقيين لا يملكون ١٠% من ثروة بلدهم.

أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس

كل دار أحق بالأهل إلا في خبيث من المذاهب رجس

ومحمد كرد علي قال هذا فيما يعلم أنه هو وشوام آخرون يهربون من الشام إلى مصر فرارا من الصراعات والمذابح الطائفية والعرقية الناتجة عن تعدد الهجرات واختلاف الأعراق والطوائف في الشام، فكأنهم لما عجزوا عن التوفيق بين هذه الأعراق والطوائف اختاروا أن تكون مصر "الوطن الاحتياطي" لهم ولغيرهم، فيوعزوا لأهلها بقبول هذا لأنها "بلد لكل الأجناس"، يلجأ إليها الشامي والغربي والشرقي عموما ليأخذ فيها ما عجز أن يأخذه في بلده، فيرتاح المهاجر إليها من تمزق بلاده، ويكابد المصري من تكالب الطوائف والأعراق على بلده.

ورغم أنه من أنصار تيار "الجامعة الإسلامية"، أو"الجامعة العثمانية"، إلا أن مصطفى كامل سخر من الصحف التي تقول إن مصر بلد "لكل الأجناس"، فيتعجب في جريدة اللواء سنة ١٩٠٢ ممن "يقول للمصريين إن مصر ليست وطنا لكم بل وطن للعالم أجمع"[١٥٩٢].

باب آخر اتخذه الغرب والشرق حجة للتدويل أيام الإنجليز، هو قناة السويس.

فبعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ جن جنون البريطانيين وفقدوا صوابهم، وأعلنت الوزارة الإنجليزية الجديدة- رغم انتمائها لحزب العمال الذي يقول إنه نصير الشعوب والحريات- على لسان وزير الخارجية هربرت موريسون أن "بريطانيا ستقابل القوة بالقوة إذا اقتضى الأمر لبقاء قواتها في منطقة قناة السويس، وأن

(١٥٩١)- "الهجرة إلى مصر"، محمد كرد علي، مجلة المقتبس، العدد ١٨، بتاريخ ١٥- ٧- ١٩٠٧

(١٥٩٢)- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، مرجع سابق، ص ٢٩٥

الحكومة البريطانية لن تذعن لمحاولة مصر تمزيق المعاهدة[١٥٩٣]".

وألقى تشرشل زعيم المحافظين خطابا في البرلمان يؤيد حكومة العمال، فاجتمع الحزبان ضد مصر، كما اجتمعا ضدها في الاحتلال، وقال تشرشل إن "إقدام حكومة مصر على إجلاء الإنجليز عن منطقة قناة السويس والسودان ضربة أخطر وأكثر مهانة للكرامة من اضطرارها إلى الجلاء عن عبدان بإيران[١٥٩٤]".

وقبل اللجوء للقوة، تحايلت بريطانيا بأمر جديد يحل محل المعاهدة، وينبئ عن أنها تعتزم ألا ترد قناة السويس إلى مصر عقب انتهاء فترة الامتياز سنة ١٩٦٨، وهو ماعرف بمقترحات الدول الأربعة.

والدول الأربعة هي بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وتركيا، وقدموا مقترحات للحكومة المصرية في أكتوبر ١٩٥١ لمعاهدة للدفاع المشترك مع الدول الأربعة، تحل محل معاهدة ١٩٣٦، تقضي بأن تكون حماية قناة السويس منوطة بقوات دولية تشترك فيها مصر وبريطانيا وأمريكا وفرنسا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا، ويكون لجزء من هذه القوات حق البقاء في مصر حتى في حالة السلم، ثم استمرار الحكم البريطاني في السودان مع إنشاء رقابة دولية صورية لا تحد من سيطرة الإنجليز فيه، وجعل علاقة مصر بالسودان علاقة مياه فحسب[١٥٩٥].

ولاستنزاف مصر كما حدث في الحرب العالمية الأولى، فإن المعاهدة الدولية المقترحة تطالب مصر بتقديم الأموال والتسهيلات للإنفاق على القوات الدولية الجديدة فيما يخص القوات العسكرية والمواصلات والمواني إلخ، سواء وقت الحرب أو وَقت السلم بحجة أن هذه هي تكاليف "حمايتها"، أي "حماية" مصر.

كما تضمنت تحويل القاعدة البريطانية في قناة السويس إلى قاعدة للتحالف الدولي؛ مما يصعب المهمة على الجيش المصري في استردادها يوما ما، ووضعها بعيدا عن أي دائرة تفاوض.

وقدمت لمصر "إغراء" في سبيل قبولها المعاهدة الجديدة، وهو أن التحالف الدولي سيشارك في تدريب الجيش المصري ورفع كفاءته، ويوافق على أن يكون لمصر منصب كبير في التحالف، ولكن القيادة العليا ستكون للحلفاء وليس للجيش المصري.

وبذلك يعود الجيش المصري تحت قيادة إنجليزية كما كان قبل معاهدة ١٩٣٦.

ولعبت بريطانيا في المقترحات الجديدة بورقة مياه النيل حين تكلمت عن عمل سلطة خاصة لمشروعات النيل بمساعدة البنك الدولي تشمل ضمانا دوليا لاتفاقيات مياه النيل[١٥٩٦]؛ أي يضعوا روح مصر وسر حياتها في يد بنوك روتشيلد وتنظيم الناريين بتدويل نهر النيل من المنبع، وبذلك يتحول الاحتلال البريطاني إلى احتلال دولي يصعب المهمة أمام الشعب المصري في مواجهته، لأنه سيواجه عدة دول لها قوات ومصالح

[١٥٩٣]- مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، ص ٣٤

[١٥٩٤]- نفس المرجع، ص ٣٥

[١٥٩٥]- مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، ص ٣٥- ٣٦

[١٥٩٦]- نصوص اتفاقية تدويل مصر منشورة كاملة في: مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عبد الرحمن الرافعي، مرجع سابق، ص ٣٩

في مصر، وبالطبع جاليات.

قوبلت هذه المقترحات بالرفض حينها... لكنها عادت بعد ١٩٧٤ ثم ٢٠١١ بصور أخرى، أشد قوة.

١١ حصار الهوية بغزوات محافل المسيخ الدجال (النداهة)

تعالوا نبحث سويا عن الإجابة العزيزة لسؤال أديبنا الحائر صلاح عبد الصبور: "لا أدرى كيف ترعرع فى وادينا الطيب هذا القدر من السفلة والأوغاد"، وإن كان أديبنا قصد بالسؤال شيئا آخر إلا أننا نريد معرفة الإجابة على نفس السؤال لو أشرنا إلى ظهور التنظيمات الإرهابية والجمعيات السرية في مصر واختلال القيم والمعايير- خاصة عند بعض المتعلمين- وظهور "مصريين" يجهرون بكراهيتهم لمصر وحضارتها وحبهم للاحتلال، بل ورغبتهم في إعادة مصر للاحتلال سوا الأوروبي أو العثمانلي أو العربي أو أيا من كان تحت أسامي "الإسلام هو الحل"، و"إحياء الخلافة"، و"الوحدة العربية"، و"الإخاءالإنساني"، و"الحريات"، و"الديمقراطية"، و"الانفتاح على العالم"، وغيرها.

فأرض مصر الطيبة- كما تابعنا- لا يطرح طينها الشر منذ غلب حور ست، ولكنها- في وقت غفلتها وغياب ماعت تستقبل الشرور الوافدة، وتجد لها مكانا بمعونة الغرباء الأوغاد.

وإن ما سبق كله من مخططات وقوانين (عبادة الاحتلال، نشر الجريمة المنظمة، التدويل، التجنيس، شحن الجاليات إلى أرض مصر، تحقير قيمة المصري، وغيرها)، لم يكن ليجد له إثمار واستمرار في مصر بدون أن تتلقفه محافل ومذاهب تحارب الهوية المصرية والوطنية، وتتماهى وتندمج مع هويات أجنبية فينقسم المصريون إلى أحزاب تحارب بعضها، وتسلم بلدها طوعا للاحتلالات "دون شعور بأن ما تفعله خيانة"، بل خدمة للدين، أو للعروبة، أو للإخاء الإنساني والسلام العالمي.

وفترة الاحتلال الرباعي (الإنجليزي، العلوي، العثمانلي، الجالياتي) على قصرها (٧٠ سنة) لكنها أخصب فترات تاريخ مصر في زرع هذه المحافل من كل لون، وما زالت تدنس أرض مصر، وما زالت تفرخ أشخاصا يأخذون مصر إلى طريق السقوط النهائي- الإبادة- ومنها (الماسونية، الشيوعية، السلفية والإخوان المسلمين، القومية العربية، الليبرالية الرأسمالية، الإرساليات التبشيرية)، وهي "تيارات الهكسوس" الجديدة التي أضيفت للتيار القديم (الطرق الصوفية).

هكذا حال مصر منذ بدأ أولاد البلد يعودون للحياة من جديد، تتخطفها تيارات أجنبية "تشوه وشها" و"تتوهها بين شين وزين"، و"تطرطش نظريات الغش عليها".. كالنداهة.

و"النداهة" حكيوة تراثية مصرية عن امرأة أجنبية عن القرية، تقف لرجالة القرية في الطريق المظلم، تتسحب وتتلوَّى لهم كالحيَّة، تبهرهم بجمالها، وتندهم بأساميهم كأنها تعرفهم، وتغويهم بكلام معسول يشعرهم بذاتهم ورجولتهم، فيسيل ريق الرجل، وتتخدر أعصابه، لا يترك الفرصة لعقله يسأل-من هذه الغريبة وماذا تريد، ويجري نحوها في الظلام... وإذ فجأة تشد قبضتها عليه وتغوص به في الترعة أو في

أي مكان مجهول، وبعد أيام يفاجئ به أهل القرية مرميا على نفس الطريق مقتولا، أو مجنونا، خاصة لو عرف أسرار عالمها الذي خطفته إليه، والعجيب أنه رغم تكرار حكايتها لكن ينسى الرجالة ويقعون في فخ النداهة رجل وراء رجل.. ويقول حكماء القرية إن النجاة من النداهة بذكر الله ورش ملح نحوها وعدم الرد عليها لما تنده[١٥٩٧].

وهكذا حين خرج بعض المصريين- ممن أخذوا قسطا من التعليم- من تحت الركام والأطلال التي هالتها عليه الاحتلالات الطويلة ليبصروا الحياة من جديد في القرن ١٩، خرجوا من تحتها بجسد تملؤه التقيحات، وذاكرة مفقودة، وعيون تتحسس خطواتها من بعد طول الظلام، وقفوا على ركام هذه الاحتلالات يتلفتون حولهم، يسألون: أين نحن؟ من نحن؟ إلى أين نسير؟ وأمامهم ألف طريق وطريق، على ناصية كل طريق تقف النداهة، تغريهم وتمنيهم بالجنة في نهاية الطريق، فاختارت كل مجموعة منهم أن تسير وراء نداهة في طريق، فتشتت بالمصريين السبل، وتفرقوا، وتحولوا من أن يكون هدفهم أن يجدوا طريق مصر السليم الذين يحضنهم جميعا، إلى خصوم، وبدلا من أن يناصروا مصر وحدها لتكون طريقهم إلى السماء، باتوا يناصرون أعداءها !

وهذه هي بالحرف حكاية أهل الشر مع المصريين بداية من الاحتلال الفرنساوي وحتى الآن، لا يكتفون بالسلاح كما كانوا في الاحتلالات السابقة، بل يغوون مصر بالكلام المعسول عن جمالها ومكانتها، وعن أنهم هم منقذوها من ظالميها ومحتليها ومن الجهل والتخلف، فإذا ما صدقهم مصري وجرى إليهم وقع في الفخ واتشقلب كيانه، وانتهى به الحال لو طال بهم المقلم إلى قتيل، أو مجنون، أو عميل خاين، أو دلدول، أو مسخ، وفي أحسن الأحوال تايه تمزقه الحيرة.

▼▼▼ الغزو الماسوني لمصر (العولمة)

حلَّت المحافل الماسونية في مصر مع الفرنسيس سنة ١٧٩٨- كما تابعنا في الكلام عن الاحتلال الفرنساوي- ورصد الدكتور وائل إبراهيم الدسوقي في رسالته للماجستير من جامعة عين شمس عن الماسونية في مصر تطورها منذ ذلك الحين وأشكالها وتأثيراتها على المصريين حتى صدور قرار الرئيس جمال عبد الناصر بغلق المحافل الماسونية ١٩٦٤، ونعرض أجزاء منها هنا، ومن دراسات أخرى مصرية وأجنبية حول نفس الأمر.

يدَّعى الماسون أن ديانتهم هي الديانة المصرية، وأماكن إقامتهم بمثابة المعابد المصرية، وهم أنفسهم بمثابة رجال الدين المصريين[١٥٩٨]، والنتيجة أنهم يعتبرون أنفسهم الحكام الحقيقيين لمصر!

وبحسب ما ذكره الماسوني الشامي والكاتب الشهير جرجي زيدان الذي جاء ليقيم في مصر خلال القرن ١٩ في كتابه "تاريخ الماسونية العام" فإنه بعد رحيل الحملة الفرنسية وغلق محفل "إيزيس" الذي أسسه

١٥٩٧- حكايات من ندهتهم "النداهة" من أهل مصر، نورهان فتحي وسارة درويش، موقع صحيفة اليوم السابع، ٥- ١٢- ٢٠١٥

(١٥٩٨)- الماسونية والماسون في مصر ١٧٩٨- ١٩٦٤، د. وائل إبراهيم الدسوقي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ص ٢٥٢- ٢٥٤

كليبر أسس إيطاليون استقدمهم محمد علي لمشاريعه محفلا في الإسكندرية على الطريقة الأسكتلندية سنة ١٨٣٠، ثم توالت المحافل في المحافظات وصارت بالعشرات، وتمتع أعضائها بحماية الامتيازات الأجنبية التي تكفل لهم حرية الحركة والحماية من المحاسبة والرقابة.

كما تمتعت المحافل الماسونية برعاية محمد علي وأولاده من بعده، وخضعوا لها تحت إغراء الخبراء الذين بقوا من مخلفات الحملة الفرنسية أو جلبهم لتنفيذ مشاريع تحديث الصناعة والتعليم، وما يرفعونه من شعارات الحداثة والتطوير والإنسانية والعمل الخيري، فانضم للمحافل الأمير حليم ابن محمد علي، والخديوي توفيق وابنه محمد علي، وعمر طوسون (حفيد الوالي سعيد) كمظهر من مظاهر ارتباطهم بـ"التحضر الأوروبي" كما توهموا، وأصبح الماسون في مراكز القرار؛ ما أكسب المحافل "شرعية" أمام الناس، ويخفي وجهها الحقيقي كأوكار للجاسوسية وإضعاف العقيدة الوطنية والدينية.

وتفرعت المحافل لفرنسية وإيطالية ويونانية وبريطانية وأمريكية إلخ، فصار لكل دولة ذراع في مصر باسم محفل ماسوني، وأشهرها المحفل الأكبر الوطني المصري التابع لفرنسا برئاسة إدريس راغب (مستوطن يوناني)[١٥٩٩]، ورفع هذا المحفل تقريرا في ١٣ مارس ١٩٣٣ للملك فؤاد يفخر فيه بأنه صار له ٤٨ محفلا في مصر تعمل جاهدة على نشر الماسونية في ربوع البلاد دون كلل[١٦٠٠].

تهافت المستوطون الأجانب من أصحاب المناصب الهامة والنفوذ الاقتصادي وقليل من المصريين الأغنياء على الانضمام للمحافل الماسونية التي باتت الأماكن والصالونات الأكثر "رقيا" للتجمع في نظرهم، وتعطي "الوجاهة"، كما أنها أماكن جيدة لصنع الصفقات المالية والسياسية، وتربيط العلاقات.

ولأن المحافل الماسونية هي الدرجات الدنيا لتنظيم "الناريين" السري، فهي تسير على طقوسه، ومنها أن يحلف العضو وهو معصوب العينين يمين الولاء المطلق لرئيس المحفل الذي يجهل من هو أحيانا، ويجهل هل هو خير أم شرير، ويتعهد بكتم أسرار ما يحدث بداخله، وقبول التعرض للموت بأبشع الطرق إن خالف ذلك، ونظام الترقية داخل المحفل على أساس الدرجات، وما يعنينا هو أن يكون العضو مؤيدا للفكر الأممي (الدولي) الذي يعليه فوق الوطن وفوق الدين تحت مبرر "الإخاء الإنساني".

فرفعت المحافل الماسونية شعار الثورة الفرنسية "إخاء، حرية، مساواة"، والمقصود بالإخاء هو تآخي أعضاء المحفل في نفس الهدف، وأن تصبح الماسونية "عشيرتهم" ومصلحتها فوق مصلحة الوطن حتى أن شخصا يدعى حسين نور الدين في محفل "صلاح الدين" بالمنصورة قال: "لو لم أكن ماسونيا لوددت أن أكون ماسونيا"، والحرية والمساواة مقصود بهما إزالة الفروق الوطنية والدينية بين كافة البشر، وهي فكرة لتسهيل حركة الأجانب داخل البلد المستهدف، حتى أنها أول من تصدت لما سمته بـ"كراهية الأجانب" في الوقت الذي كان المصريون يسعون لتحرير بلادهم من الاحتلال الجالياتي.

[١٥٩٩]- إدريس راغب ابن إسماعيل يكّي (الشهير بإسماعيل راغب) مملوك اليوناني اشتراه محمد علي وجلبه من تركيا ومنحه ٥٠٠ فدان تضاعفت إلى ١٣ ألف فدان بخلاف ثروة من الذهب، وتولى مناصب خطرة كوزارة الجيش والخارجية والمالية ثم رئاسة الوزارة أيام عرابي سنة ١٨٨٢ (موقع ذاكرة مصر المعاصرة التابع لمكتبة الإسكندرية)

[١٦٠٠]- انظر: الماسونية والماسون في مصر ١٧٩٨- ١٩٦٤، مرجع سابق، ص ٣١- ٣٥

وبعد فترة من التخفي وراء وجه العمل الخيري والحداثة كشفت الماسونية وجهها العسكري، فاخترقت الجيش لاختراق الحركة الوطنية، خاصة في عصر إسماعيل، وضمت لها عدد من الضباط تحت إغراء شعارات الحرية وكحلقة وصل بالحضارة الأوروبية، ولكن انقطعت صلة ضباط الجيش المصريين بالماسونية بعد الاحتلال في عام ١٨٨٢ وحتى أوائل العشرينيات من القرن العشرين، وبناء على ما ذكره الخديوي عباس حلمي في مذكراته لم ينتسب الضباط الوطنيين إلى المحافل الماسونية لتشككهم في طبيعة ونوايا تلك المحافل التي امتدت إلى الجيش(١٦٠١).

وخصص كتشنر، المندوب السامي البريطاني، سنة ١٩٠٩ محفلا تسمى باسمه، محفل كتشنر رقم ٣٤٠٢، هدفه رصد ما يجري داخل الجيش، وجذب الضباط له ولأهداف بريطانيا من ورائه.

وعلى ذات النمط اخترقت الماسونية الاقتصاد فخصصت محافل لتجار القطن بالإسكندرية، مثل محفل "الإسكندرية رقم ٤١٨٤" سنة ١٩٢١، وبعد العدوان الثلاثي ١٩٥٦ فتشت قوات الأمن المحفل ووجدت ما يدل على أنه وكر للتجسس والنشاط الصهيوني بحسب ما نشرت مجلة "آخر ساعة" حينها، كما تخصص محفل "السيرابيوم رقم ٥٣١٢" سنة ١٩٣١ للعاملين في قناة السويس من كل الجنسيات(١٦٠٢).

ومن أشكال الاختراق لقصور الحكم تدخل المحافل في الصراع بين إسماعيل وحليم حول العرش(١٦٠٣)، وناصر ماسون شوام وإيطاليون وفرنسيون ويهود حليم لابتزاز إسماعيل حين يرفض بعض مطالبهم.

وبالرغم من من أن الماسونية تعمل على عزل الحكام في السر، فإنها تنافقهم وتهادنهم في العلن ليتركوا لمحافلها حرية العمل والانتشار، وإعطائها الشرعية عندما يرى الناس أن الحاكم نفسه يدعمها، فتكررت رسائل الماسونية بالنفاق للحكام من محمد علي لعباس وسعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس وحسين كامل وفؤاد وفاروق وعبد الناصر، ومن رسائل المداهنة أن وفدا ماسونيا زار توفيق بعد توليه الحكم، وخطبوا بين يديه يطلبون الرعاية الخديوية، ويحثونه على الاستمرار في عضوية الماسونية لأن الانتماء لها "شرف" يجب على كل الملوك الحصول عليه "لما تعطيه من الرفعة والعزة لصاحبها"، ورد عليهم توفيق بوعدهم برعاية محافلهم؛ لأن المحافل مرجو منها المساهمة في "تمدن" المجتمع(١٦٠٤).

ومن خبثها فإنها تملقت في نفس الوقت الحركة الوطنية لاختراقها وتضليلها، فأظهرت دعمها لعرابي وسعد زغلول ومحمد فريد، ووصلت في اختراقها للحركة أيام محمد فريد لدرجة إقناع محيطين به بتأسيس حركة سرية هي تنظيم "التضامن الأخوي"، اعتمدت العمل المسلح ولو ضد المصريين أنفسهم بحجة الخيانة، وهو أمر دخيل على المصريين، وطقوس الانضمام إليها مشابهة لطقوس الانضمام للماسونية، فالعضو يقدم البيعة لرئيس التنظيم في غرفة مظلمة معصوب العينين، ويقسم على الطاعة العمياء واضعا

(١٦٠١)- المرجع السابق، ص ١١٨

(١٦٠٢)- نفس المرجع، ص ٥٦- ٥٧

(١٦٠٣)- لما أجبر إسماعيل عمه حليم على ترك مصر كي لا ينازعه العرش ذهب للأستانة وهناك ترأس محفل "مجلس عال تركي" الماسوني مدى الحياة. انظر: "تاريخ الماسونية العام"، جورجي زيدان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١١٣

(١٦٠٤)- انظر الماسونية والماسون في مصر، وائل إبراهيم الدسوقي، دار الكتب والوثائق القومية، مرجع سابق، ص ١٥٢- ١٥٥

يده على المصحف والسيف، ولو حنث بالقسم يقبل الإعدام.

ونفذت الجمعية اغتيالات جاءت بالضرر لمصر، لأنها لم تلتزم بخطة العمل الوطني الذي تزعمه سعد زغلول، واستهدف بعضها شخصيات مصرية مثل اغتيال رئيس الوزراء بطرس غالي ١٩١٠ على يد إبراهيم الورداني عضو الجمعية، الذي مع نبل مقصده في إنقاذ قناة السويس من الضياع بعد أن وافق غالي على تمديد امتيازها للإنجليز، إضافة لدوره في إصدار أحكام مذبحة دنشواي، إلا أن فتح باب اغتيال الشخصيات المصرية يفتح على مصر نار حرب أهلية، وكل شخص له خصومة مع أحد يقتله بحجة أنه خائن، وهو ما كان سيعصف بالحركة الوطنية عصفا، وهذا الهدف الأساسي للماسونية.

كما تسببت الجمعية في خسارة كبيرة لمصر حين اغتالت السيرلي ستاك الإنجليزي عام ١٩٢٤ في غمرة مفاوضات سعد زغلول مع الإنجليز حول الجلاء، واستغل الإنجليز الحادثة لكسر ثورة ١٩١٩.

وملفت أن بعض أعضاء جمعية "التضامن الأخوي" كانوا منضمين كذلك للطرق الصوفية، ويجمع بين هذه الطرق والماسونية فكرة الطاعة العمياء لرئيس المحفل أو شيخ الطريقة؛ ما يؤشر إلى أن كل التنظيمات السرية من النوع "العالمي"، بالبلدي الفصيح "منفدة على بعضها".

وتنفيذا لوصايا زعمائها وايزهاوبت وبايك، في الاهتمام بالإعلام لنشر أفكارهم اعتمدت المحافل على الصحافة، فأسست صحف "الميثاق" و"اللطائف" و"الماسونية" و"النصوح" و"الأخبار الماسونية" و"المجلة الماسونية"، و"المقطم"، وغيرها[١٦٠٥]، وأكثرها موالي بكل جرأة للاحتلال الإنجليزي، وفي ذلك يقول دسوقي إن الاحتلال البريطاني لم يكتفِ في تلك المرحلة "بالوصول إلى الأرض والرزق والكبرياء الوطني فقط، وإنما أخذ يزحف أيضا إلى صميم رقعة الفكر ذاتها".

ومن ملامح تلك الدولة الروتشيلدية العنكبوتية ما لاحظته دراسة دسوقي أن الصحف الماسونية لم تتعرض للإيقاف أو الحظر على النشر في أوقات الطوارئ وفرض الأحكام العرفية التي فرضها الخديوي أو الإنجليز، في حين كان يتم تطبيق هذا الحظر والغلق على الصحف المصرية[١٦٠٦].

وإن كان الأوروبيون أغلبية في هذه المحافل، فقد حل في المرتبة بعدهم الترك والشركس[١٦٠٧]، ودبج الشعراء الماسون في الماسونية قصائد الغزل للدعاية لها، وتقديمها للناس على أنها رأس الفضيلة، كعادة المسيخ الدجال في تقديم الباطل حقا والحق باطلا، ومنها الشاعر محمود رمزي نظيم[١٦٠٨]:

يا معشر الماسون أنتم عصبة الله   تمم نورهـا وسنـاءها

تتعاونون لنشر كل فضيلة   أخفى الزمان عن العيون رواءها

(١٦٠٥)- الماسونية في مصر، علي شلش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٨٣، والماسون والماسونية في مصر ١٧٩٨- ١٩٦٤، وائل إبراهيم الدسوقي، مرجع سابق، ص ٥٨

(١٦٠٦)- الماسون والماسونية في مصر ١٧٩٨- ١٩٦٤، ص ٥٨ و٢٨٥

(١٦٠٧)- المرجع السابق، ص ١٤٥

(١٦٠٨)- الماسونية في مصر، علي شلش، مرجع سابق، ص ٨١

ودعمت المحافل من بعد الحرب العالمية الأولى الصهيونية بجمع التبرعات لها واحتضان الحركات الإرهابية الوافدة باسم لاجئين وتجار وعمالة، أو بضم صهاينة كأعضاء يتمتعون بحماية هذه المحافل، وأشهر العائلات اليهودية الثرية التي انضمت لها عائلات قطاوي وشيكوريل وموصيري وروصانو وشملا، وكلها عائلات أجنبية وافدة في القرنين ١٩ وأول القرن ٢٠، يجمعون الأموال بشراهة وبكل الوسايل من جيوب المصريين، فكأن الفلاح المصري صار دون أن يدري من أكبر ممولي الصهيونية والإرهاب.

ومن أمثلة احتضان المحافل والعائلات للحركات الصهيونية أن محاميا يهوديا اسمه ليون كاسترو وفد على مصر مبعوثا من المنظمة الصهيونية العالمية ليؤسس فرعا لها في القاهرة ١٩١٧ (في سنة وعد بلفور)، وفي فترة صغيرة جدا وحَّد صفوف الخلايا الصهيونية المتناثرة، وكوَّن الفرع، وأصدر المجلة الصهيونية سنة ١٩١٨، بل وتسلل إلى صفوف حزب الوفد واكتسب ثقة سعد زغلول حتى ترأس تحرير صحيفة **La Liberte** لسان حال الوفد، واستثمر وجوده داخل صفوف الحركة الوطنية المصرية لصالح الحركة الصهيونية حتى منتصف الأربعينات، وأسس اليهودي ألبير ستراسلسكي بعد عام ١٩٣٥ منظمة صهيونية في مصر باسم "حزب التصحيحيين"، ودعمته عائلة موصيري اليهودية الثرية.

وفي ١٩٢٢، وبعد أن بدأ الفلسطينيون يشعرون بخطر اللاجئين اليهود وتقع احتكاكات بينهم، أصدر المحفل الأكبر الوطني المصري برئاسة إدريس راغب نداء للفلسطينيين بعدم الاعتداء على اليهود، وأن يقبلوا بتوطينهم فيما وصفه بـ"الوطن المشترك" باسم "الحرية والإخاء والمساواة"[(١٦٠٩)].

ومثلها مثل الإرساليات التبشيرية اهتمت المحافل الماسونية بنشر المدارس الأجنبية في مصر والحد من نفوذ التعليم الحكومي، فكانت عبر صحفها دائمة التدخل في التعليم وطرح آرائها بشأنه، ومعظم الأوقات تركز على السيئ فيه ولا تبرز الإيجابيات؛ لكي تضعف ثقة الحكومة المصرية في نفسها وتجعلها طيعة أمام نصائح واستشارات المحافل الماسونية أو الخبراء الذين تقدمهم لها، فكتبت صحيفة "الأخبار الماسونية" مقالا بعنوان "التعليم في مصر- الحالة المحزنة للمدارس المصرية"، وتعللت في تدخلها بذلك بأنها تحمل أمانة تربية أولاد المصريين، وتسابقت لإنشاء المدارس الأهلية (الخاصة) ومنها مدرسة "الاجتهاد الوطني"، وكذلك المدارس الحرفية[(١٦١٠)].

أما عن وظيفتها الأساسية في إلغاء فكرة الحدود والوطنية في العقول والصدور، فكشف جورجي زيدان في "تاريخ الماسونية العام" أن "لائحة يورك"- موضوعة ٩٢٦ م- التي تنظم عمل الماسون وعلاقتهم ببعضهم وبالعالم جعلت من معاونة الماسون الوافدين ركنا أساسيا في نشاطهم، فتقول المادة ١٥ من اللائحة: "وعلى الماسون أن يترحبوا بالرفاق الذين يأتون إليهم من بلاد بعيدة، بعد أن يعطوهم الإشارة الماسونية، وأن يهتموا بمصالحهم، وأن يساعدوا جميع الإخوان عندما يعلمون باحتياجهم إلى المساعدة إذا

(١٦٠٩)- انظر: الماسون والماسونية في مصر ١٧٩٨- ١٩٦٤، ص ١٠٤- ١١٠
(١٦١٠)- نفس المرجع، ص ٢٧١، ٢٧٣

كانوا على مسافة ربع ساعة"[١٦١١].

وقادت المحافل الماسونية وصحفها الترحيب بالأجانب في مصر، تقدم لهم الرعاية والامتيازات فوق أهل البلد، فالمحافل نفسها متمتعة بحماية القناصل وتنقل هذه الحماية لأعضائها، مبررة ذلك بأن شعارات "الحرية والإخاء والمساواة" لا تفرق بين جنسية وأخرى[١٦١٢]، بالرغم من أن الماسون أنفسهم يفرقون بين الماسون وغيرهم، فينقل زيدان عن لائحة يورك موادا بهذا المعنى منها المادة ١٦: "لا ينبغي لأحد الإخوة الماسون أن يسمح بدخول أحد إلى المحفل إذا لم يتأكد كونه ماسونيا؛ لكي لا يطلع على صناعة النحت والمربعات والفادن"[١٦١٣].

وبسبب هذه الفرصة الواسعة في الحماية والمزايا التي أغدقتها الماسونية على الوافدين، تزايدت هجرة الأجانب لمصر، وردوا الجميل بأن صاروا أكبر معين لتلك المحافل، ففي نهاية الحرب العالمية الأولى فتح رئيس الوزراء حسين رشدي (تركي) الباب للاجئين جدد من أوروبا وروسيا، ونظمت لهم الحكومة عمليات الغوث، ووفرت لهم السكن والمأوى بالإسكندرية، وأمر السلطان حسين كامل بصرف إعانة مالية كبيرة لهم، وتبرع لهم الأثرياء، ودعمت ذلك المحافل الماسونية- تنفيذا لتعليمات "لائحة يورك"- ثم استقطبت منهم الكثير لخدمة أهدافها[١٦١٤].

ومن دليل كذب حديثهم عن "الإخاء الإنساني والمساواة" أن عملية الاحتضان والإغاثة هذه للاجئين الفارين من الحرب إلى مصر تجري جنبا إلى جنب مع عملية نزح الميزانية المصرية وبيوت الفلاحين الذين انقضَّ الاحتلال الإنجليزي على محاصيلهم ومواشيهم، وترحيل المصريين صغارا وكبار مقيدين إجباريا للعمل في معسكرات الحرب بأوروبا والعراق الشام، وترك آلاف العائلات المصرية الفقيرة ورائهم دون معيل[١٦١٥] وذلك تحت عين ذات الحكومة التي استقبلت اللاجئين باسم "الإخاء الإنساني".

ومارست المحافل الماسونة أسلوبها المعتاد في تخدير الحكام بأن أرسلت رسالة مدح للسلطان ووزارئه على إغاثة اللاجئين، وكتب الماسوني إدجار ساويرس، رئيس اليهود في الإسكندرية، شاكرا حسين رشدي رئيس الوزراء يقول: "لقد أثبتم مرة أخرى تحرر هذا البلد وضيافته الكريمة، وإن طائفتنا لعلى ثقة في هذه المناسبة بأنها تعبر عن عرفان يهود العالم للحكومة المصرية على الإجراءات السريعة الفعالة التي اتخذتها لمساعدة هؤلاء المطرودين البؤساء"[١٦١٦].

وضم الأجانب للمحافل الماسونية هدف استراتيجي، فهي تضمن أن ولائهم صرف لها، ولن تحركهم في

[١٦١١]- تاريخ الماسونية العام، جورجي زيدان، المرجع السابق، ص ٤٧

[١٦١٢]- نفس الفكر الاحتلالي المعادي لمبدأ أن الوطن ملك أبنائه فقط، وهو الفكر الذي يأخذ ثوب ديني في التنظيمات الدينية أو ثوب شيوعي أو ثوب ليبرالي أو إنساني باسم العولمة والاندماج العالمي، وحاليا يتبناه فنانون ولاعبو كرة قدم أيضا.

[١٦١٣]- تاريخ الماسونية العام، جورجي زيدان، مرجع سابق، ص ٤٧

[١٦١٤]- انظر: الماسون والماسونية في مصر ١٧٩٨- ١٩٦٤، ص ١٠١- ١٠٢

[١٦١٥]- تزخر وسائل التواصل الاجتماعي في السنين الأخيرة بمدح الحكومة التي قامت بـ"احتضان" اللاجئين الفارين من الحرب العالمية، ويعدون هذا علامة ازدهار ورخاء كبير لمصر وقتها، ولا يظهرون الوجه الثاني للأمر أن الحكومة فعلت ذلك بضغط من الاحتلال وصمتت أمام تعذيب المصريين ورميهم في نار الحرب وسرقة أموالهم ومحاصيلهم ومواشيهم، فآوت وحمت الأجانب، وشردت وعذبت المصريين.

[١٦١٦]- انظر: المرجع السابق، ص ١٠٢

يوم من الأيام نزعة وطنية تجعلهم ينقلبون عليها أو يتركونها مثلما فعل بعض المصريين الذين اكتشفوا أنهم انخدعوا فيها، هذا بخلاف أن كثرة الأجانب واختلاطهم بأهالي البلاد يكسر الحواجز ويضعف الشعور الوطني لدى أبناء الوطن الأصليين، خاصة لمَّا ترتبط مصالحهم بأعمال ومشاريع أجنبية.

وأيام الملك فؤاد رسخت أقدامهم في البلاد أكثر وفي وقت قياسي بفتح الأبواب أمامهم في كل المجالات حتى تولى اليهودي الماسوني يوسف قطاوي باشا وزارة المالية، أي وضع يده على خزانة مصر بحالها وأسرارها، واعتبر تعيينه في هذا المنصب تقديرا وتكريما للطائفة اليهودية.

واحتل نواب اليهود مقاعد في مجلسي الشيوخ والنواب، وتأسست لهم محافل ماسونية في القاهرة والإسكندرية وعواصم الأقاليم المختلفة ساهمت في مساعدة اليهود اللاجئين، أشهرها محفل "ابن ميمون"(١٦١٧)، وكثرت المعابد اليهودية في مصر، ووصلت في النصف الأول من القرن العشرين في القاهرة إلى ٢٩ معبدا وفي الإسكندرية ٢٠ معبدا وغيرهم في بورسعيد والمنصورة وباقي المحافظات.

وتأسس الجمعيات الثقافية ومنها "الجماعة الفنية اليهودية" بالقاهرة ١٩١٢ كما أنشئت جمعية "بخور حوليم" ١٩٠٩ و"الاتحاد الإسرائيلي" بهليوبوليس ١٩٢٢ وجمعية مصر للدراسات التاريخية اليهودية ١٩٢٥" إلخ، وتأسست الصحف اليهودية مثل النهضة اليهودية والمجلة الصهيونية ومجلسة إسرائيل ومجلة الشمس والكليم والفجر(١٦١٨)، وبالمثل حدث من بقية الجاليات واللاجئين من أوروبا وروسيا في عمل مجتمعات ومؤسسات خاصة بهم، فصارت البلاد بشكل أكبر كأنها عدة دول، خاصة في المدن.

وامتد تأثير هذا إلى نزح مال المصريين بتهريبه للخارج، فهذه الجاليات لها عائلات ومصالح في بلادها الأصلية ترسل إليها بالمال، أو تسعى لتخزينه في مكان آمن من المصادرة خارج مصر، وتزايد النزح باسم التبرعات للخارج، ففي ١٩١٨ وبعد صدور وعد بلفور أعلن البارون فليكس دي منشة، من كبار الماسون في الإسكندرية، تكوين لجنة لجمع التبرعات لتوطين اليهود في فلسطين وتأسيس الجامعة العبرية بالقدس، واسمها "اللجنة المشايعة لفلسطين(١٦١٩)، ولم يقل حينها المشايعة لإسرائيل لصرف النظر عن أهدافهم الحقيقية، وعدم استفزاز غير اليهود الذين يتم تحصيل التبرعات منهم.

كذلك كان لبعض الشوام دور يلي الدور اليهودي في نشر هذه المحافل؛ فقد التقى الشاعر السوري أديب إسحق بجمال الدين الأفغاني، وكانا في محفل ماسوني واحد في مواجهة الخديوي إسماعيل، وأظهر الوقوف مع عرابي في البداية ثم انقلب عليه وانضم لتوفيق والإنجليز.

وأتى يعقوب صروف وشاهين مكاريوس بماسونيتهم من الشام، وسرعان ما لحق بهم جورجي زيدان مؤسس مجلة "الهلال" وإبراهيم اليازجي وخليل مطران الملقب بشاعر القطرين وملحم شكور ونعوم شقير، ولم تكد تمضي ٣ سنين حتى كان صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس دعموا صلتهم بالاحتلال،

(١٦١٧)- حاييم وايزمان الصهيوني وأول رئيس لإسرائيل فيما بعد كان رئيسا شرفيا لمحفل ابن ميمون في مصر.
(١٦١٨)- انظر: الماسون والماسونية في مصر (١٧٩٨- ١٩٦٤)، مرجع سابق، ص ١٢٧
(١٦١٩)- انظر: نفس المرجع، ص ١٠٤

فتزوج فارس نمر ابنة القنصل الإنجليزي ثم زوج ابنته للسكرتير الشرقي للسفارة الإنجليزية[١٦٢٠].

ومن دوافع اعتماد المحافل الماسونية والاحتلال على بعض الشوام في نشر أفكارها في مصر معرفتهم باللغة العربية فيكونوا أقدر على التواصل مع المصريين، وتلقيهم تعليما أوروبيا في مدارس الإرساليات التبشيرية في الشام، ومنها الكلية السورية البروتستانتية الأمريكية ببيروت (الجامعة الأمريكية)، وتدريبهم على إنشاء الصحف والمسارح؛ ولذا كان لهم أيضا دور في نشر المذاهب الكنسية الأجنبية كالإنجيلية والكاثوليكية التي استهدفت إضعاف الكنيسة المصرية الأرثوذكسية.

فما يفرغون من حط رحالهم من الشام إلى مصر حتى يلقوا بأنفسهم في أحضان القنصليات الأجنبية والمحافل ليتمتعوا بحماية الأجانب، بتعبير الدسوقي.

وأصدروا- كما تابعنا- صحف "المقتطف" ١٨٨٤ و"المقطم" ١٨٨٨، و"اللطائف"، وأصدر الرئيس الأعظم للمحفل الأكبر الوطني المصري منشورا باعتبار "اللطائف" جريدة الماسون في مصر[١٦٢١].

واختلفت دوافع الانضمام للماسونية ما بين الشريرة والخيرة، فانضم لها أشخاص بحسن نية انخدعوا في شعاراتها البراقة، أو للحصول على الوجاهة الاجتماعية باعتبار هذه المحافل مراكز الإشعاع وتجمع نجوم المجتمع، ومنهم من انضم كوسيلة للترقي لأنه سيقابل فيها الوزراء، أو للتجسس على الأعضاء، أو لعقد الصفقات، أو للحصول على الامتيازات الأجنبية، أو استمتاع البعض بأنه صار "مواطن عالمي"، خاصة لما أفهموه أن التمسك بالوطنية "عنصريَة وتعصب مكروه".

▼▼▼ الغزو الليبرالي لمصر

اللون الليبرالي هو الأقرب للون الذي ظهرت به الماسونية في مصر، رافعا مثلها شعار "الحرية"، الحرية لرأس المال من أي مصدر، والحرية لحركة التجارة الدولية على حساب الصناعة الوطنية، الحرية لاستيراد عادات وتقاليد وثقافات أجنبية مخالفة لهوية الشعب، الحرية للإلحاد، الحرية لأي مذاهب دينية جديدة، الحرية لتوطين الأجانب، الحرية للاحتلال واعتباره "منقذا مصلحا"، وكل هذا مجسد في الشعار الشهير لليبرالية والرأسمالية لغزو العالم وهو "اتركه يعمل اتركه يمر".

نبعت الليبرالية السياسية من نظرية "المذهب الفردي" التي وضعها جون لوك في القرن ١٧ عن التسامح والديمقراطية- رغم أنه تاجر عبيد في أمريكا- وركزت نظرياتها الاقتصادية على "التجارة الحرة"، ومبأ يتجسد في لفظة "الأنانية"، فهي وإن كانت تتحدث عن "الحريات للجميع"، و"الديمقراطية"، لكن في التطبيق فهي استبدادية بشكل مطلق، تُخضع الجميع لـ"التاجر الدولي"، و"البنك الأجنبي"، و"الحزب الليبرالي"، و"التنظيم الدولي"، و"المحفل الدولي"، وهؤلاء- فقط- من يطبق عليهم ولهم "الحرية"، وغيرهم يطلق عليه صفتي الاستبداد والاحتكار.

(١٦٢٠)- انظر: نفس المرجع، ص ١١٤

(١٦٢١)- انظر نفس المرجع، ص ١١٥- ١١٦

وفي القرن ١٨ ظهرت مجموعة اقتصاديين فرنسيين، سموا أنفسهم "الفيزيوقراطيين" يقودهم فرانسوا كينيه، وضعوا ما عُرف بنظام "الحرية الاقتصادية"، معتمدين على مقولة فينسان دي كورناي "دعه يعمل، دعه يمر"، وهدفه كسر القيود التي وضعتها الحكومات على حركة التجارة بين البلاد لحماية صناعتها الوطنية، فيتركز التحكم في تجارة العالم وأرزاقه وإرادته في أيادي قليلة تقود العالم.

وتبع هذا نشر قيم الانحلال والمادية والأنانية المعادية للوطنية وللدين والتراحم، فيقول الفيزيوقراطي كويسني في كتابه "اللوائح الاقتصادية" سنة ١٧٥٨ إن "الإنسان الاقتصادي" يؤمن بأن السعادة الدنيوية هي غاية الحياة"، ورأى معاصرون له من علماء الاقتصاد أن الإنسان الفرد المستقل والمتحرر من شتى المجموعات إنها هو النموذج الذي يحتذى به، وأخرج برنارد مندفيل مقولته: "إن الرذائل الخاصة هي فضائل عامة، وإن البشر وهم يكافحون من أجل جني الأرباح ويتشهون طمعا الحياة المترفة إنما يوفرون العمل للفقراء ويزيدون في ثروة الأمة"[١٦٢٢].

وفي القرن ١٧ وضع آدم سميث كتابه الشهير "ثروة الأمم" افترض فيه أن الدولة هي منبع الشرور والمفاسد في الاقتصاد، وأن كل الأفراد- خاصة رجال الأعمال وطلاَّب الثروات الباهظة- ملائكة وأخيار يبحثون عن نشر العدل والصالح العام، فقال: "فلتتوقف الحكومة عن تقديم المساعدات للمشروعات، وعن الضبط والتنظيم، وعندئذ ستختفي المظالم وينتفي الجور، ولتوسع في نطاق نشاطات الفرد، آنذاك ستنطلق الطاقات وسيتقدم الاقتصاد، وستتحسن أوضاع الجماعة كلها، وأما الإشراف على المؤسسات الصناعية الخاصة وتوجيهها الوجهة التي تؤمن للمجتمع أغزر الفوائد فهذا ينبغي ألا يكون من مسئوليات الدولة، فلتدافع الدولة عن شواطئ شعبها، ولتكتف بإدارة المكاتب البريدية وإقامة العدل بين الناس، وما عدا ذلك فلتترك لكل فرد أن يبحث عن مصالحه الخاصة، حيث إنه أفضل من يعرفها ويعرف السبيل إلى تنميتها، فالدول لا تصلح أبدا للقيام بوظائف اقتصادية"[١٦٢٣]، وزعم أن "الدولة زارع سيء، وصانع سيء، وتاجر سيء"، وردا على أن هذا سيجعل الاقتصاد في يد مجموعة من الأفراد وينحرم بقية الشعب رد بأن "اليد الخفية" هي الكفيلة بالتنسيق آليا بين مصالح الأفراد لتحقيق المصلحة العامة[١٦٢٤].

ورغم ما روجته لنفسها في العالم إلا أن الحال بداخل بريطانيا يكشف عن زيف ما أشاعوه في العالم لنزح ثرواته والتحكم فيها، فرغم قيام الثورة الإنجليزية ١٦٤٠، ورغم تبنيها النظام الليبرالي الرأسمالي، ظلت الفوارق الحادة في بريطانيا حتى ١٩١٤ وجاء نقلا عن أحد تلاميذ جورج برنارد شو: "كانت إنجلترا قبل عام ١٩١٤ بلدا تسوده لا مساواة اجتماعية واقتصادية كريهة وفظة، حيث كان ترف القلة من الناس وتفاخرهم يستثيران فقر الأكثرية وبؤسها".

وأُجبرت الأحزاب الليبرالية الحاكمة في بريطانيا جبرا على التخفيف من حدة أنانيتها تحت وطأة أنشطة

[١٦٢٢]- انظر: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث (١٦٠١- ١٩٧٧)، دونالد سترومبرج، مرجع سابق، ص ٢٣٠- ٢٣٢

[١٦٢٣]- المرجع السابق، ص ٢٣٦

[١٦٢٤]- عملية الخصخصة: الضرورة والمحاذير والمتطلبات، د. محمد عبد الشفيع عيسى، مجلة بحوث اقتصادية عربية، مج ١٣، ع ٣٦، ٣٧، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٢١٧

الحركة الغابائية الاشتراكية التي ظهرت نهاية القرن ١٩، ولجوء الحركة لنقل حقائق ما يجري في المصانع من مظالم، فاستطاعت أن ترغم الحاكمين بقبول مبادئ الخدمات الاجتماعية، بل وتأميم المرافق ذات النفع العام، مثل مرفقي الغاز والماء، ووضع قوانين الضمان الصحي والتقاعد والشيخوخة، حتى قال لورد بريطاني: "لقد أصبحنا الآن جميعا اشتراكيين"، وفي ألمانيا قال بسمارك في خطبته الكبرى أمام الرايخستاج وهو يقدم مشروع الضمان الاجتماعي: "إن الدولة لا تستطيع أن تتخلى عن كل مسئولياتها إلى صالح العمال من المواطنين وسعادتهم"[١٦٢٥].

كذلك تلقت هذه النظريات الأنانية المادية ضربة قاصمة أظهرت عيوبها في الأزمة الاقتصادية سنة ١٩٢٩ وطوابير الجوعى والعاطلين تسد شوارع وتغطي أرصفة أوروبا وأمريكا؛ فاضطرت حكوماتهم للتدخل في الاقتصاد والتدخل لصالح المجموع لحد ما، بل واتخذت قرارات أخرى لتأميم مصالح وشركات خاصة في فرنسا وبريطانيا في الأربعينات لتكون ملكا للدولة.

هبَّت رياح "الليبرالية والرأسمالية" بزئيرها المدوي على مصر أيام إسماعيل حين فتح الحدود لكل أنواع الرياح العالمية، ممثلة في الاستثمار الأجنبي الرأسمالي في التجارة والعقارات والمشروعات العامة، ورأينا كيف حاولوا تحويل ملكيتها جميعا إلى ملكية خاصة، ونجحوا وجنوا الثمار بوضوح في عصر توفيق وعباس حلمي الثاني، وبالتدريج تحول القطاع الخاص إلى المالك الأول في الدولة.

أما سياسيا فظهرت الليبرالية في مساعي كبار متملكي الأراضي "الملوك الصغار" لأن يصبحوا ملوكا كبار، بأن يقلدوا تجربة الإنجليز في أن يكونوا هم الأغنياء وفي نفس الوقت أصحاب أحزاب سياسية وأصحاب كراسي البرلمان فتسقط السلطة التشريعية والتنفيذية في أيديهم؛ فيحكمون البلاد بما يناسب حماية ثرواتهم وتكثيرها، والتمتع بالنفوذ السياسي الآمر الناهي، وهو ما دفع كما رأينا كثير من كبار العائلات لمساندة عرابي حتى تحقق لهم وجود دستور وبرلمان، وبعدها انقلب معظمهم عليه خوفا من أن ينازعهم السلطة إذا ما تبنى حقوق الفلاحين الذين فوضوه التصرف باسمهم.

ولم يكن لهؤلاء الأغنياء بعد أن حملوا لقب "نواب البرلمان" برامج لتحقيق الحرية والكفاية والكرامة للشعب، وإنما برامجهم هي الوصول للوزارة، وحماية الأراضي المسيطرين عليها من المصادرة ومن فرض ضرايب كبيرة والحد من تدخل الخديو أمورهم، ولم يتمتعوا بهذه الفرصة كثيرا لما زاحمهم المحتل الإنجليزي والتجار الأجانب في الكعكعة؛ فاشتركوا في ثورة ١٩١٩ وساندوا سعد زغلول للحد من سلطة الإنجليز والملك فؤاد على رقابهم، وبعد حصولهم على بعض المكاسب بوضع دستور ١٩٢٣ وبإجراء الانتخابات وتشكيل البرلمان من جديد والسماح لهم بعمل أحزاب، انشغلوا عن قضية تحرير البلاد وتنميتها بمؤامرات وصراعات الأحزاب، مستكفيين فيما يخص قضية التحرير بأسلوب المفاوضات المستكينة حتى لا يفقدوا بأي ثورة جديدة مكاسبهم.

[١٦٢٥]- : تاريخ الفكر الأوروبي الحديث (١٦٠١- ١٩٧٧)، دونالد سترومبرج، مرجع سابق، ص ٤٦٦- ٤٦٨

وفيما يخص الأحزاب وصحفها فإن معنى الليبرالية عندهم هو "عاش الحزب وزعيمه"، وليس الحرية للجميع، بل دخلت معارك طاحنة ضد من يخالفون زعيم الحزب كما سنرى، سواء داخل حزب الوفد الذي انشطر لأحزاب، أو بين الأحزاب وبعضها، مقتدين في هذا بجون لوك، يملأ العالم ضجيجا عن الحرية والليبرالية وهو لا يقصد بها إلا الساسة الأغنياء مثله، في حين حرَّمها على غيره باستمراره المشاركة في تجارة العبيد ووضع شرائع تبيح لمالك العبد أن يقتله إذا عصاه[١٦٢٦].

وفي النهاية حصد المصريون من الليبرالية الرأسمالية زيادة الفجوة والغربة بين الغني والفقير، وبين المتعلم وغير المتعلم، وبين الريف والحضر، وزيادة الحزبية البعيدة عن الوطنية، وتحميل الفقير مسئولية فقره بالقول إنه كسلان يريد العيش على قفا الأغنياء، رغم أن الرخاء الذي يتنعم فيه "الليبراليون" الأغنياء ثمرة نشاطه وكده.

▼▼▼ غزو "الإخوان المسلمين" لمصر

من أقدم النصوص التي ذكرت كلمة "الإخوان" في الحركات السرية هو ما يخص جماعة "إخوان الصفا" التي نشأت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، في عصر الدولة العباسية، بعد سيطرة البوهيون (شيعة إسماعيلية) على الحكم فعليا فيما كان العباسيون يحكمون اسميا.

ورغم الاختلاف حول هوية هذه الجماعة، وهل هي شيعية أم لا، فإنه مما عُرف عنها أن أعضائها يسمون مذهبهم بالمذهب "الكامل" الجامع لأفضل ما في العلوم والفنون والآداب في العالم، وهو نفس ما يدعيه تنظيم الناريين لنفسه، واليسوعيون، وتنظيم الإخوان المسلمين، والماسون، خاصة وأنه ينتقي من أعضائه الأنبه والأمهر في كل مجال، ويسخر لهم الإمكانيات ليزدادوا تألقا.

ولجماعة إخوان الصفا شروط للعضوية، والعضو فيها يحمل لقب "أخ"، وتعتمد على الفكر الباطني، يعني العمل السري، ومبدأ التقية، أي تقول للناس في العلن عكس ما تخفيه، وأعضاؤها يعتبرون رسائلهم مقدسة، وهي نفس الأمور التي شاعت في التنظيمات السرية الحديثة.

وأخفى "إخوان الصفا" أسماء وهويات قادتهم الكبار، لكن قالوا في رسائلهم إنهم متغلغلون في كل الدول وبين كل الناس، في بيوت الحكام والعلماء والصناع والفنانين وكل المستويات؛ أي اعتمدت مبدأ العالمية والاختراق، وهو ما تكرر لاحقا في التنظيمات السرية بأنواعها[١٦٢٧].

وبحسب رسائلهم فإن من نشاطهم أن يحثوا الحكام على غزو البلاد الأخرى تحت إغراء تحقيق المجد' وهو ما يتوافق مع الرغبات المحمومة في إشعال العالم بالحروب دائما، وتحويل العالم لغالب ومغلوب.

وفي رسالته اللي وجهها جمال الدين الأفغاني إلى أرباب المجمع المقدس الماسوني في مصر يطلب

[١٦٢٦]- حول تناقضات جون لوك انظر: جون لوك.. مؤسس العبودية وتاجرها، سلطان عامر، صحيفة الحياة اللندنية، ١٩- ٢- ٢٠١٣

[١٦٢٧]- انظر: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، مج ١، مكتب الإعلام الإسلامي، قم بإيران، ١٤٠٥ هـ، ص ٥-٢٠

انضمامه لهم قال: "أرجو من إخوان الصفا، واستدعي من خلان الوفا، أعني أرباب المجمع المقدس الماسون، الذي هو عن الخلل والزلل مصون، أن يمنوا عليَّ، ويتفضلوا إليَّ بقبولي في ذلك المجمع المطهر، وإدخالي في سلك المنخرطين في ذلك المنتدى المفتخر"[١٦٢٨]، ومن غير الواضح هل اختار الأفغاني كلمة "إخوان الصفا" كمجرد وصف بالصدفة، أم تأثرا بتلك الجماعة، خاصة أنه ضمن الاختلاف حول أصوله يقال إنه قادم من بلاد الأفغان القريبة من فارس، والتي تبنت فكر تلك الجماعة.

ويلاحظ التشابه في الاسم بين "إخوان الصفا" و"الإخوان المسلمين"، و"الإخوان الماسون" وبين رسائل إخوان الصفا، ورسائل حسن البنا، وتضمن الاثنين الحث على "الفتوحات" و"الغزو".

وتعني "الأخ" أي العضو في المحفل الماسوني، وكل أعضاء المحفل "إخوان" وهم أيضا "الصفوة" في العالم مهما اختلفت جنسياتهم ودياناتهم، وكل من هم خارج المحفل "جوييم" أي غرباء ورعاع، حتى وإن كانوا أبناء الدولة التي فيها المحفل، وبجانب "الإخوان" في المحافل ظهرت كلمة "الأستاذ الأعظم".

ففي رسالة لتصفية خلاف بين المحفل الأكبر الوطني المصري والشرق الأكبر المصري[١٦٢٩] جاء: "أبلغ كاتم السر الأعظم عبد المجيد يونس (إخوته الماسون) أن (حضرة الأخ كلي الاحترام الأستاذ الأعظم) أحمد ماهر أصدر أمرا عاليا بالعفو الشامل عن جميع الأخوان الموقوفين والمشطوبين"[١٦٣٠].

وغني عن البيان أن لصق كلمة المصري في "المحفل الأكبر الوطني المصري"، و"الشرق الأكبر المصري"، لا تختلف كثيرا عن لصقها لجيوش وجاليات أيام الاحتلالات لمجرد وجودها في مصر، في حين لا تعبر عن مصر ولا المصريين دما ولا لحما ولا فكرا ولا انتماء.

وفي قرار من القطب الأعظم للماسونية بمصر أحمد ماهر بإنشاء المحفل الأكبر الوطني اللبناني السوري ورد في نصه سنة ١٩٣٨ "إلى جميع الشروق والمحافل الكبرى والأخوان... وبعد سرد القرار يختتمه بالقول: إن الأستاذ الأعظم لهذه السلطة هو الكلي الاحترام الأخ عطا بك الأيوبي رئيس الوزراء سابقا، والسكرتير الأعظم هو الكلي الاحترام الأخ نسيب بك البكري محافظ جبل الدروز سابقا، وإننا نرجو جميع السلطات الاعتراف بهذا المحفل الأكبر السوري والاتصال به مباشرة لما فيه خير للعشيرة"[١٦٣١].

ويخطيء من يحدد ظهور تنظيم "الإخوان المسلمين" في مصر بسنة ١٩٢٨، فهذا تاريخ رفع يافطة مكتوب عليها "الإخوان المسلمين" فوق مبنى بروضة المنيل بالقاهرة، ولكنه ليس تاريخ التأسيس للتنظيم ودخول هذا الفكر الفاسد لمصر، فمع تضعضع السلطنة العثمانلية وخلخلة أعمدتها، سارع السلطان عبد الحميد الثاني إلى حشد المسلمين في العالم حوله ليعيد إليها قوتها، وأخذ في هذا شعارات تتمحور حول

[١٦٢٨]- الماسون والماسونية في مصر (١٧٩٨- ١٩٦٤)، مرجع سابق، ص ١٥٠

[١٦٢٩]- الفرق بين المحفل والمجمع والمحفل الأعظم والشرق أن المحفل هو الوحدة الأولى للماسونية، أي الخلية الأولى لاشتراك الأعضاء، والمجمع يتكون من عدة محافل في منطقة داخل الدولة الواحدة، والمحفل الأعظم هو الهيئة التي تشرف على كل المحافل والمجامع داخل الدولة، أما الشرق فهو الهيئة التي تشرف على عدة محافل عظمى ومجامع في عدة دول (انظر الماسونية في مصر، علي شلش، ص ١٢٣- ١٢٥)

[١٦٣٠]- الماسون والماسونية في مصر (١٧٩٨- ١٩٦٤)، وائل إبراهيم الدسوقي، مرجع سابق، ص ٤٩

[١٦٣١]- نفس المرجع، ص ٦٣

"دعم دولة الإسلام ضد الكفار"، ومسوقا لفكرة أن محاولات أوروبا لإسقاط السلطنة العثمانلية هدفه الحقد على الإسلام وإزالة "الدولة الحامية له"؛ كي يُنسي المسلمين ما ذاقوه من مذلة ومرارة وفقر مدقع تحت كرابيج ووحشية العثمانلية، ويحول مشاعرهم إلى "دعم الإسلام"، و"الخلافة الإسلامية".

ومما تبنى هذه الفكرة- سواء بتنسيق مع عبد الحميد الثاني أو بدون- جمال الدين الأفغاني الذي هبط على مصر حاشدا الناس ضد الإنجليز من ناحية وحول الخلافة الإسلامية التي أسماها "الجامعة الإسلامية"، من ناحية، مؤكدا على أن الرابطة الوحيدة بين المسلم وغيره هي رابطة الدين وليس الوطن.

وحتى ثورة ١٨٨١ لم يكن في مصر جمعيات خاصة لها صبغة دينية (مسلمة أو مسيحية) نشيطة وذات طابع سري أحيانا وعالمي سوى الطرق الصوفية والإرساليات التبشيرية.

وبتأثير الأفغاني ظهرت الدعوة لـ"الجامعة الإسلامية" سنة ١٨٨٤ على صفحات جريدة "العروة الوثقى" تابعة لـ"جمعية العروة الوثقى"، وهي تنظيم سري ثوري هدفه إثارة المسلمين في مصر والهند والسودان إلخ وتحريضهم على أي حكم أوروبي والالتفاف حول الحكم الإسلامي[١٦٣٢]، ثم ظهرت "الجمعية الشرعية" السلفية على يد الشيخ محمود محمد خطاب السبكي ١٩١٢.

وجاء هتاف ثورة ١٩١٩ "يحيا الهلال مع الصليب" و"مصر للمصريين" وهو يدوي من قلوب وحناجر المصريين، ومن الأزهر والكنيسة، ويشق عنان السماء ينعش قلوب الأحرار والنبات والحجر، وحتى العصافير فوق الشجر، وفي نفس الوقت يهز أركان دولة الشيطان وفروعها المتجسدة في الاحتلال البريطاني، والمستوطنين الأجانب، والشيوعية، والصهيونية، والماسونية، وكل دعوة عالمية ضد فطرة الوطن وضد تفضيل أبناء الوطن عمن سواهم.

فبماذا يرد الغاصبون؟

بالتفريق بين المصري المسلم والمصري المسيحي من جديد، وشق ما بين الأزهر والكنيسة في مقابل تحبيب المصري في الولاء للأجانب، وربطه بتنظيمات بعيدة عن الأزهر والكنيسة المصرية وبعيدة عن مصر نفسها، فلجأت بريطانيا والجاليات الأجنبية المسلمة من شوام ومغاربة التي خافت على مكتسباتها في مصر إلى تأسيس كيان موازي للأزهر، ومنافس له.

وعلى هذا، تأسست تنظيمات دينية تنسب نفسها- وحدها- للإسلام، وتهاجم المسيحيين- خاصة المصريين منهم- وتهاجم الهوية المصرية، وتفصل بين المسلم والمسيحي، بل وتفضل المسلم الأجنبي على المسلم ابن البلد، وتطالب بإحياء الخلافة وإقامة دولة إسلامية عالمية على أنقاض مصر.

وفجأة.. تفجرت سلسلة جمعيات أخرى وصفت نفسها بالإسلامية، منها "جمعية أنصار السنة المحمدية" السلفية التي أسسها محمد حامد الفقي ١٩٢٦، وجمعية "مكارم الأخلاق الإسلامية، و"جمعية نشر الفضائل

[١٦٣٢]- تطور الحركة الوطنية في مصر (١٩١٨- ١٩٣٦)، عبد العظيم رمضان، مكتبة مدبولي، ط٢، ص ٢٩، ٣١

الإسلامية"، و"جمعية الإخاء الإسلامي"[١٦٣٣]، و في ذيلها ظهرت صحف "دينية" تخدم أهدافها، مثل "المنار" للبناني رشيد رضا، و"الفتح" للسوري محب الدين الخطيب، و"الهداية الإسلامية" للمصري محمد خضر حسين، و"هدى الإسلام" لمحمد الصيرفي، وفي فترة قصيرة كانت كل جماعة تنشيء عشرات المساجد والمدارس ذات الصبغة الدينية والجمعيات والورش والمشاريع الاقتصادية.

ولم يدر ببال الكثيرين وقتها أن يسأل من أين تدفقت الأموال على هذه الجمعيات الكثيرة، ولماذا تتابع ظهورها هكذا سريعا، خاصة وأنها اتخذت طابعا عالميا، وجمعت التبرعات للإنفاق على الطلبة الوافدين وإرسال أخرى للمسلمين في الخارج لينشروا نفس أفكارها.

وأرسلت تبرعات للثورة السورية (١٩٢٥- ١٩٢٧) بحجة دعم حق سوريا في الاستقلال[١٦٣٤]، وذلك في الوقت الذي كان المصريين هم الأولى بالدعم خلال مواجهتهم للاحتلال الإنجليزي، ومكّنت شخصيات شامية مثل محب الدين الخطيب ورشيد رضا لنفسها في مصر برفعها شعارات محاربة الإرساليات التبشيرية، وإعادة "وحدة المسلمين" بعد سقوط السلطنة العثمانلية ١٩٢٢، وأسس الخطيب بالتعاون مع عبد الحميد سعيد "جمعية الشبان المسلمين" سنة ١٩٢٧ ونشرت بين المصريين فكر "الجهاد المسلح" لنصرة المسلمين في الخارج، ونزح أموال المصريين باسم التبرعات لصالح المسلمين في الخارج، وبعدها بسنة واحدة فقط، أي ١٩٢٨، أسست فرعا لها في فلسطين ترأسه عز الدين القسام الذي تسمى الجناح العسكري لمليشيا حركة حماس باسمه فيما بعد.

وهنا.. نضجت الساحة وتهيأت لرفع يافطة على مبنى مكتوب عليها "جماعة الإخوان المسلمين" كحصاد لكل ما سبق، وكإشارة لتحقيق الهدف إلى من يهمه الأمر.

انضم الشاب (المختلف حول أصوله) حسن البنا إلى جمعية الشبان المسلمين لمدة سنة، ثم تركها ليؤسس تنظيم "الإخوان المسلمين" سنة ١٩٢٨، وذلك لأن "جمعية الشبان المسلمين" اختارت أن تنفذ أهدافها من بوابة العمل الخيري والدعوي حتى لا تتعرض لتضييق الحكومة، في حين أراد البنا- أو من ورائه- اقتحام مجال السياسة والبرلمان والعمل المسلح، وتظل جمعية الشبان المسلمين له ظهيرا.

وعن الإسم قال حسن البنا: "نحن أخوة في خدمة الإسلام، فنحن إذن الإخوان المسلمون".

وخلال سنين قليلة من إنشائها كان لجماعة الإخوان ٥٠٠ معهد للثقافة العامة، وأكثر من ٢٠ ناديا، ومدرستين ابتدائيتين، و٢٠ مكتبا أوليا لتفيظ القرآن، و١٠ مصانع يدوية للنسيج، و١٠ جمعيات تعاونية، وعيادتين مجانيتين، ولجنة للمصالحات بين الأسر والأفراد، والعديد من المساجد[١٦٣٥]، و٥٠ فرقة جوالة روجت لها الجماعة على أنها نشاط رياضي، لكن تم استعمالها للتدريب على العنف والسلاح، وأعلن "الإخوان" أنهم مصدر الشفاء الوحيد للأمة "أطباء الأمة"، وأن الإسلام هو الوطن والجنسية، وتناصحوا بعدم التعامل

(١٦٣٣)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، ج ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٥٧٧

(١٦٣٤)- الحركة القومية العربية في القرن العشرين، هاني الهندي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، بيروت ٢٠١٥، ص ٤٢٧

(١٦٣٥)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، ج ٣، مرجع سابق، ص ٥٧٧

مع غير المسلمين، خاصة في البيع والشراء[١٦٣٦].

ورفعت جماعة الإخوان شعار محاربة بريطانيا لتبرير حملها للسلاح، ولكن ظهر أن أي مواجهات مع الاحتلال استغلتها لتدريب أعضائها على ما كانت تنتويه لقلب نظام الحكم والاستيلاء عليه- مثل اشتراك الشيوعيين في أي حروب خارجية باسم التطوع بهدف التدريب على شن الحروب الأهلية والانقلابات المسلحة داخل بلادهم- ولكن الهدية الأكبر لجماعة "الإخوان" كانت قضية فلسطين التي استغلتها أكبر استغلال لتكون أقوى أسباب وجودها.

وعن سبب مشاركتهم في حرب ١٩٤٨- الفخ الذي تم نصبه للجيش المصري غير المدرب وغير الواعي وقتها- قال أحمد حسين مؤسس حزب مصر الفتاة وآخرون إن معركة فلسطين كانت فرصة ذهبية لحشد السلاح والتمرن عليه بدعوى أنه من أجل فلسطين، أما الهدف الحقيقي فهو إحداث انقلاب في مصر بالقوة[١٦٣٧].

ثم هادن الإخوان الإنجليز حتى أنهم تراجعوا عن المشاركة في المقاومة الشعبية ضد الإنجليز في القنال ١٩٥١- ١٩٥٢، وقال مرشدهم العام مأمون الهضيبي إنه "ضد العنف"، وهو ما رد عليه الكاتب خالد محمد خالد بمقالة في مجلة روزا اليوسف بعنوان "أبشر بطول سلامة يا جورج"، وروى علي عشماوي، أحد قادة التنظيم الخاص لجماعة الإخوان في مذكراته، أن السلاح الذي ساهمت في شرائه القوى الوطنية لمعارك القنال "ما لبث أن اختفى في سراديب الإخوان المسلمين[١٦٣٨]".

وفي ذات الوقت، وعلى طريقة الاختراق الماسوني، اهتموا بالتقرب من الجيش، فزرعوا ضباطا فيه من أعضائهم، أو ضموا ضباطا، مستغلين أن في تلك الفترة ماجت مصر بالتيارات المتعارضة والمتصارعة بعد ضياع زعامة ونقاء حزب الوفد، والشباب داخل الجيش، مثله مثل بقية الشباب المتعلم، يبحث عن النجاة وعن المنقد والمخلص، فيجرب في هذا التيار أو ذاك.

ومن أشهر الإخوان في الجيش عبد المنعم عبد الرؤوف، وتحدث الرئيس أنور السادات في مذكراته "البحث عن الذات" عن حرص الإخوان على اختراق الجيش بأن حسن البنا ذهب بنفسه إلى الوحدة التي كان بها السادات سنة ١٩٤٠ طالبا أن يخطب في الجنود بمناسبة المولد النبوي، وبعد أن لمس إعجاب السادات بشخصيته دعاه لزيارته في مكتبه عدة مرات في محاولة لتجنيده، ولكنه فطن لهدفه، كما أشار إلى العلاقة الوثيقة التي لاحظ أنها تربط بين البنا وعزيز المصري الذي تولى قيادة الجيش[١٦٣٩].

ووصفهم السادات في كتابه الآخر "أسرار الثورة المصرية" بالغموض، وقال إن البنا كان شخصية غامضة جدا وإنه "يعتمد على قوة كبيرة مختفية مجهولة"، ولكنه "قادر على إقناعك بأن تؤمن بهذه القوة

[١٦٣٦]- نفس المرجع، ص ٥٧٩
[١٦٣٧]- نفس المرجع، ص ٦٢٣
[١٦٣٨]- التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين، علي عشماوي، ط ٢، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، القاهرة، ص ٩١، ومصر في قصص كتابها المعاصرين، ج٣، مرجع سابق، ص ٥٩٦
[١٦٣٩]- البحث عن الذات، محمد أنور السادات، المكتب المصري الحديث، طبعة خاصة، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٣١- ٣٥

دون أن تعرف عنها أي شيء[١٦٤٠]".

هذه القوة المجهولة لمَّح لها علي عشماوي أحد قادة التنظيم الخاص في مذكراته "التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين" بقوله إن الإخوان درسوا جميع التنظيمات العالمية، وانبهروا بالتنظيمات صاحبة الفكر الباطني كالشيعية، وخاصة فرقة الحشاشين التي أسسها حسن الصباحي، وخاصة أسلوبها في فرض السمع والطاعة على الأعضاء حتى لو أمرهم زعيمها بقتل أنفسهم، كما أن الإخوان درسوا أساليب الصهيونية العالمية والمافيا فيما يخص إخضاع الخصوم وتصفيتهم[١٦٤١].

وكشف أن قيادات جماعة الإخوان مخترقة من الأجهزة الغربية، خاصة الإنجليزية، وأن سيد قطب أخبره بذلك، وضمن عملاءهم عبد الرحمن السندي صاحب خطة اغتيال محمود فهمي النقراشي، ووصف المنتمين للإخوان وما يماثلها بأنهم "مخلصون وقادتهم عملاء، ويستعملونهم في غير طاعة الله"[١٦٤٢].

وانطبقت طقوس الانضمام إلى الإخوان مع طقوس الانضمام للمحافل الماسونية، مثل البيعة والطاعة العمياء لـ"الأستاذ الأعظم"، وعدم النقاش والمجادلة، والقسم على السلاح (بجانب المصحف)، وألا يكون هناك ولاء لوطن ولا عائلة ولا أي شيء فوق التنظيم.

وهكذا يتضح أن تنظيم الإخوان المسلمين ليس تنظيما مصريا، ونشأته ليست مصرية، لم تخرجه هذه الأرض الطيبة أبدا، بل هو امتداد لفكر عالمي قديم، وبلوره في شكل تنظيمي واضح مستوطنون أجانب مثل الأفغاني ثم رشيد رضا ومحب الدينَ الخطيب وغيرهم، وتورط في حباله مصريون تائهون عن هويتهم الحقيقة، فبعد أن كانت هويتهم (أي المصرية) التي نبتتها الأرض المصرية تقضي بأن قدسية وعمار مصر هو طريق إلى الله، وبعدم العدوان على أراضي وحضارات الغير ما لم تعتدِ على مصر، هانت عليهم أنفسهم لينضوا إلى تنظيم يقوده شخصية مثل حسن البنا يتعامل مع مصر كمجرد ولاية تابعة، ويقول في "رسائل البنا" تحت عنوان "حق الإنسانية" إن تنظيم الإخوان مأمور بنشر دعوته بين الناس بالحجة والبرهان "فإن أبوا إلا العسف والجور والتمرد فبالسيف والسنان"، مرددا بيت الشعرر[١٦٤٣]:

والناس إذ ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

▼▼▼ الغزو الشيوعي لمصر

لا تبتعد الشيوعية عن الماسونية والليبرالية والطرق الصوفية والإرشاليات التبشيرية وتنظيم الإخوان المسلمين، بل هي مثلهما صورة من صور تنظيمات السيطرة على العالم لصالح فئة قليلة تفرض نفسها على بقية الشعوب بكل وسيلة.

(١٦٤٠)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، ج٣، ص ٥٨٦

(١٦٤١)- التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين، علي عشماوي، مرجع سابق، ص ٨- ٩

(١٦٤٢)- نفس المرجع، ص ١١

(١٦٤٣)- رسائل حسن البنا، موقع إخوان ويكي (الموقع الرسمي لتاريخ الإخوان المسلمين) http://www.ikhwanwiki.com

فتشترك الشيوعية مع التنظيمات السابقة في: فكرة العالمية، التنظيم فوق الوطن، الطاعة العمياء لزعماء التنظيم، العمل المسلح إن لزم الأمر، تفضيل الأجانب على أولا البلد إن كان الأجنبي من نفس التنظيم، غرس الصراع بين أبناء البلد، وإن كانت تستخدم كلمة "رفيق" بدلا من "الأخ" في وصف أعضاء التنظيم، وتختلف عنهم في أن المحافل الماسونية والليبرالية مخصصة لمخاطبة الحكام والأغنياء ونجوم المجتمع، والتنظيمات السلفية والإخوان المسلمين مخصصة لمخاطبة ذوي النزعة الدينية فقراء كانوا أم أغنياء، أما الشيوعية فمخصصة لمخاطبة الفقراء والعمال والمزارعين ومن تصفهم بالمهمشين.

والشيوعية كما رآها كارل ماركس تقوم على خلق أو استغلال الصراع بين الطبقات، وفي رأيه أن العالم منذ نشأته قائم على الصراع بين أبناء المجتمع وليس التكامل، وأن الحرية في "التخلص من كل الأديان، ومن كل الأمم أيضا" لإقامة أمة واحدة[١٦٤٤]، وهو في ذلك يمثل "إزفت" أو الثعبان عبّ (أبو فيس)- أي الصراع والفوضى- المناقضة تماما لفكرة الدولة المصرية والمجتمع المتعاون المتآلف (ماعت).

وعلى هذا نشرت الشيوعية مصطلحات، الصراع بين الأجيال، الصراع بين العامل وصاحب العمل، الصراع بين الفقير والغني، الصراع بين الأديان، الصراع بين الشعب والدولة، إلخ، لخلق مناخ الكراهية والفرقة اللازم لإشعال العمل المسلح، وبحسب تعبير ورد في حوار داخل رواية "الحصاد" فالشيوعيون "سياستهم هي أن يضعوا إصبعهم في أي ثقب يجدونه ليوسعوه، وأن يسكبوا الزيوت على نار أية فتنة مشتعلة، لا تتحقق أهدافهم إلا إذا عمَّت الفوضى"[١٦٤٥].

غرست الشيوعية بذورها في مصرَ على يد فرنسيين من تنظيم "سان سيمونين" جاءوا كعمال وخبراء أيام محمد علي، ثم تنظيم الكاربوناري المسلح الذي جاء من إيطاليا بعد فشله في إشعال ثورة بها، وفي أواخر عصر إسماعيل تأسست في الإسكندرية- التي عاش بها أعضاء الكاربوناري- جمعية "مصر الفتاة"- على غرار "إيطاليا الفتاة" التي أسسوها في بلادهم- وأغلب أعضائها أجانب، إضافة إلى مصريين، غرضها القضاء على إسماعيل القضاء المبرم- رغم أنها جمعية أجنبية- ومارست دورها تحت ستارة محاربة الاستبداد والفساد وحكم الفرد والاقتداء بالثورة الفرنسية.

وفي ١٨٩٨هبط على الإسكندرية جوزيف روزنتال، يهودي من روسيا، اشتغل في الذهب، وشارك مع حسني العرابي في تأسيس الحزب الشيوعي ١٩٢٣ مستغلا زيادة عدد العمال في مصر مع كثرة المشاريع الأجنبية، سوا عمال مصريين يعانون المظالم، أو عمال أجانب يطمعون في أخذ امتيازات أكبر مما وفرتها لهم قناصل دولهم، كما استغل الحزب معاناة الفلاحين من بطش المستولين على الأراضي، وقدم نفسه محاربا للاحتلال الرأسمالي المستغل، وأظهر الحزب تبعيته للاتحاد السوفيتي ومشروع الدولة الاشتراكية العالمية صراحة بأن أعلن قادته سنة ١٩٢٢ حين كان يحمل اسم الحزب الاشتراكي انضمامه لـ"الكومنترن" (تنظيم يضم في عضويته كل الأحزاب الشيوعية في العالم لتوحيد سياساتها)، وفي برنامجه

[١٦٤٤]- للمزيد عن آراء ماركس عن الدين والدولة والحضارات القديمة انظر: كارل ماركس، جاك أتالي، مرجع سابق

[١٦٤٥]- انظر: مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، ج ٣، مرجع سابق، ص ٦٠٩، ورواية الحصاد تأليف عبد الحميد جودة السحار

التأسيسي وضع بند صريح بـ:"الاعتراف بحكومة الجمهورية الروسية"، ولم يتضمن دولا غيرها في القسم الخاص بالعلاقات الدولية[١٦٤٦].

فلمس الحزب المشاعر المعذبة للفلاحين فجذب إليه مصريين مخلصين يسعون فعلا لتخليص الفلاحين من محتليهم، وهم لا يدركون أن من وراء الستار يقبع محتل جديد ينتظرهم وهو المحتل السوفيتي أو أي كيان يمثل دولة الاشتراكية العالمية، ومن ورائها تنظيم الناريين والحكومة العالمية الواحدة.

ومن أشهر الشخصيات الأجنبية المستوطنية التي نشرت الفكر الشيوعي في مصر هنري كورييل، وهو شق طريقه بين المصريين من بوابة إعلانه مناصرة الحركة الوطنية ضد الإنجليز.

ويسلط كتاب "هنري كورييل- الأسطورة والوجه الآخر" للدكتور حسين كفافي الضوء على مشوار هذا الوافد الغامض، أظهر الأساليب الخبيثة اللي اتبعها كورييل في نشر أفكاره وسط المصريين، ويعترف بأنه استغل وطنيتهم لأغراضه الصهيونية، ويقول إن هنري ابن المليونير دانيال كورييل من أسرة يهودية منسوبة لإيطاليا، هبطت على مصر كلاجئة في عهد محمد علي، واستفادت من الامتيازات الأجنبية ومن ولع بعض حكام الأسرة العلوية بكل ما هو أوروبي، وصارت من كبار المرابين اليهود (من أتباع روتشيلد)، حتى أسست بنكا خاصا هو بنك الرهونات الشهير في شارع الشواربي وسط القاهرة، مستغلة انتشار اليهود تحت الجلد، يشكلون أعينا ترصد أي حركة[١٦٤٧].

وفي هذا الجو ولد هنري كورييل ١٩١٤ وعاش في قصر والده المنيف في حي الزمالك، المبني من الربا المنزوع من الفلاحين، والمليء بالخدم والحشم، وفي نفس الوقت يتقرب من الفقراء المصريين ويذهب لقراهم وحاراتهم بالرغم من أنه ورث مهنة والده في بنك الرهونات، فكان يصادقهم ويواسيهم، فأسر قلوب الكثير من أبناء الطبقة الكادحة التي توهمت فيه التواضع والتمصر[١٦٤٨]، واستغل قصرا آخر لوالده في عزبة بين محافظتي بني سويف والفيوم في عمل الاجتماعات السرية بعيدا عن أعين الأمن.

في ذلك الوقت، كان الشباب المتعلم المصري يتلطم في خضم أمواج بحر الحيرة العاتية القاسية، بسبب كثرة التيارات التي تضرب أمواجها عقله في الجامعة والمساجد والصالونات والصحف والمظاهرات، خاصة بعد وفاة القدوة سعد زغلول وتفرغ حزب الوفد للمناكفات الحزبية مع منافسيه، فانجذب بعضهم لدعوة أن الرجوع لمنابع حضارة مصر هو المخلص، وبعضهم جذبه فكر الإخوان "المسلمين" بأن الرجوع للخلافة الإسلامية هو المخلص، والبعض ذهب إلى أن التفاوض مع الإنجليز والضغط عليهم بالمظاهرات هو المخلص، وانجذب آخرون لفكرة أن الشيوعية التي تحارب الرأسمالية والإمبريالية بتحريك الفقراء والكادحين وبالعمل المسلح هي المخلص.

(١٦٤٦)- لمزيد من المعلومات عن نشأة الحزب الشيوعي انظر: تاريخ الحركة الشيوعية في مصر من ١٩٠٠- ١٩٤٠، رفعت السعيد، والحركة الشيوعية في مصر من ١٩٢١ إلى ثورة يناير ٢٠١١، يوسف محمد، كتاب إليكتروني https://www.slideshare.net/thisispyramid/ss-37154739

(١٦٤٧)- انظر: هنري كورييل- الأسطورة والوجه الآخر، د. حسين كفافي، مرجع سابق، ص ٢٧- ٢٨

(١٦٤٨)- نفس المرجع، ص ٧-٨

والتيار الأخير هو مهمة كورييل، فشكَّل الخلايا الشيوعية في سرية تامة، خلايا للعمال وخلايا للطلبة وخلايا للموظفين وخلايا للضباط، بل وشكَّل خلايا مخصوصة للنوبيين (تأمل!)، وكل خلية لا تعرف أسماء الخلايا الأخرى"[١٦٤٩]. والهدف مزدوج، وهو نشر الفكر الشيوعي الهدام بين المصريين، وابتزاز الإنجليز كي لا يتراجعوا عن دعم الصهيونية أو إقامة دولة إسرائيل، فكورييل من رعاة الحركات الصيهونية الإرهابية مثل "اشترن" و"الهجاناه" الذين تسرب أعضاءهم لمصر باسم لاجئ وعامل ومهاجر، وقال عنهم كفافي إنهم كانوا يتدربون في صحراء حلوان ويتابعهم كورييل.

ويصف الكاتب الأسلوب الناعم لكورييل في تجنيد الشباب المصري في قصر والده وهو يقول إنه نصب الشباك لاصطياد أعضاء جدد ليسقطوا فيها كالغزلان الوديعة، واعتمد في صيده هذا على مخاطبة فرائسه بشعارات نشر السلام، والترويج لأنشطة حركة "أنصار السلام"، والتحرير من ربقة الاحتلال، وتقديم نفسه محبا للوطن (مصر)، وهذا فيما كان يصف نفسه في الأوراق التي كتبها ونُشرت بعد وفاته بأنه "يهودي إيطالي"، وفرنسا التي تلقى تعليمه بها هي "الوطن الوحيد الذي أشعر بالارتباط به"[١٦٥٠].

ومن بصمات الفكر اليهودي على الحركة الشيوعية أنه رغم استهدافها العمال والبسطاء إلا أنها جلبت إليهم داء الإغراق في المناقشات النظرية، والدخول في خلافات أيديولوجية مصطنعة لم يتعودها المصريون (على نمط دوامات الجدل النظري الإغريقي والبيزنطي) دون الاهتمام بالنضال السياسي بشكل حقيقي، حتى يبدو الأمر كله- بتعبير كفافي- كأنه سيناريو معد مسبقا.

وأنشأ مكتبة الميدان سنة ١٩٤١ ليروج عبرها للكتب الشيوعية والصهيونية، ليزيد من شوشرة العقل المصري، وأسس مع زملائه اليهود الحركة المصرية للتحرير الوطني "حمتو" والحركة السودانية للتحرر الوطني "حستو"، رافعا شعار مكافحة الإمبريالية، وأسس يهودي آخر هو مارسيل إسرائيل ١٩٤١ منظمة "تحرير الشعب"، واليهودي القادمة أسرته من رومانيا هلل شوارتز باسم لاجئين فارين من الحرب العالمية الأولى أسس تنظيم "إسكرا"، أي الشرارة[١٦٥١].

ويبدو أن انضمام بعض المتعلمين المصريين إلى الشيوعية جاء بعد أن أعجبتهم "الرطانة الماركسية"- بحسب تعبير كفافي- والتعبيرات الجديدة مثل بروليتاريا وبرجوازية، أو من باب الخروج عن روتين حياتهم الطبقية والاستمتاع برياضة ذهنية جديدة، وكفرصة للالتحاق بالجاليات الأجنبية التي كانوا ينبهرون بها[١٦٥٢]، والأخطر أن الشعارات الشيوعية جذبت بعض ضباط الجيش، مثل أحمد حمروش، وخالد محيي

[١٦٤٩]- انظر: المرجع السابق، ص ٩
*** وكان غريبا أن يتجه في ذلك إلى النوبيين ويتعامل معهم في كيان بعيد عن بقية المصريين، ويُلاحظ اتجاه الحركات الحقوقية واليسارية إلى النوبة لإثارة سخطها على المجتمع والحكومة حتى اليوم كما ظهر قبل وبعد فوضى ٢٠١١.
[١٦٥٠]- نفس المرجع، ص١١ و٤٣
[١٦٥١]- انظر: هنري كورييل- الأسطورة والوجه الآخر، حسين كفافي، مرجع سابق، ص ٥١- ٥٢ و٦١ و٧٢
[١٦٥٢]- انظر: نفس المرجع، ص ٧٠- ٧١

الدين، ويوسف صديق، خاصة بعد رفعها شعارات رفض الاحتلال الإنجليزي[١٦٥٣].

غير أن أعضاء مصريون لمسوا التناقض بين شعارات الشيوعية عن الفقراء وتحرر الشعوب، وبين تشجيع القيادات الشيوعية للسيطرة الأجنبية اليهودية في مصر، فبتشكيل الاتحاد الشيوعي من التنظيمات الشيوعية المتفرقة رأى شهدي الشافعي أنه ليس من المنطقي أن تكون قيادة التنظيم المفروض أنه يخدم الحركة الوطنية أجنبية، بل ومن اليهود، فطرده كورييل ١٩٤٨ هو وآخرين اتفقوا مع رأيه، ووصفهم بـ"الشيفونية"، وقبض البوليس على شهدي، وتحوط الشكوك بدور لكورييل في القبض عليه[١٦٥٤].

▼▼▼ الغزو العربي الثاني لمصر (القومية العربية)

مدح إبراهيم طالب الأزهر أمه في القرية بأبيات شعر بالعربية الفصحى لم تفهم منها شيئا.. فقالت له:

- يا إبراهيم.. كلمني بالفلاحي يا ابني

- حاضر يامّه

ومدحها بالفلاحي، ففهمت، وفرحت، ودعت له[١٦٥٥].

لم يكن عدم فهم أم إبراهيم الريفية للغة العربية الفصحى- في النصف الأول من القرن العشرين- لأنها "جاهلة" كما يصفها البعض، بل لأنها كانت لا تزال على فطرتها الفلاحي، وتتحدث بما بقي على لسانها من لغتها المصرية الأصلية، وما تكالب عليها من ألفاظ جلبتها جيوش الاحتلال، يوناني وروماني وعربي وفارسي وعثماني، ولم تكن تعرف العربية الفصحى، تلك التي ظلت قاصرة على دوائر الحكم والمعاملات التجارية في المدن ثم في الأزهر لمئات السنين قبل أن تعشش في الريف في وقت متأخر.

فلما جاء تيار القومية العربية ليقول للمصريين إنكم عرب بدليل تحدثكم باللغة العربية لم يكن ٩٠% من المصريين يفهمون العربية الفصحى، بل ولا معنى كلمة العربية الفصحى نفسها، ويسمونها "النحوي"، وما يعتبره لغة عربية هي لغته الفلاحي (العامية المصرية)، وما سواها أجنبي.

وفي فيلم "السفيرة عزيزة"، تكلم الأزهري الأستاذ حَكَم مع الجزار عباس باللغة العربية الفصحى،

[١٦٥٣]- تشتت بعض ضباط الجيش ما بين الشيوعية و"الإخوان المسلمين" والماسونية والقومية العربية، إضافة إلى من كان فيهم منتميا لأحزاب كالوفد أو لأحزاب تابعة للملك، وهو ما كان يهدد بتمزيق وحدة الجيش وتحويله إلى جماعات وأحزاب متناحرة لا تجمعها مصلحة الوطن، لولا قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي أوقفت لحد كبير هذه الشروخات.

[١٦٥٤]- هنري كورييل- الأسطورة والوجه الآخر، نفس المرجع، ص ١١٧- ١١٨

*** والشيوفنية كلمة يطلقها التابعون لتيارات تدعو لفكرة الحكومة العالمية على الإنسان حين يكون وطنيا ويرى أن وطنه فوق الجميع، ويرفض سيطرة الأجانب عليه، مثلما تصفهم الماسونية بالعنصري والمتعصب وضيق الأفق لإرهابه وإسكاته عن الدفاع عن وطنه، وذلك بالرغم من أن هذه التيارات نفسها تقوم على فكرة "الولاء التام" من أعضائها للحزب أو التنظيم الخاص بها لدرجة قد تصل لقتل أو حبس من يتمرد عليها، وتلقينهم أن هذا التيار هو "الوحيد" الذي يستحق الوجود وحكم العالم.

[١٦٥٥]- مشهد من مسلسل "أديب" تأليف طه حسين، سيناريو وحوار محمد جلال عبد القوي، إخراج يحيي العلمي، تمثيل: نور الشريف، أمينة رزق

فصرخ عباس في وجهه: "يا جدع إنت كلمني بالعربي"، فرد الأزهري: "وهل أتحدث باللاوندي؟![١٦٥٦]".

وانطوى النصف الأول من القرن العشرين ومعظم أهل الريف لا يعرفون لكلمة عرب معنى إلا هؤلاء العربان الذين كانوا يهاجمون بأسلحتهم وخيولهم وجمالهم وسط عاصفة من التراب، ملثمين أحيانا، قراهم الوديعة كقطيع الذئاب الجائعة، ينهبون محصولها وحيواناتها ويقتلون رجالها لو قاوموهم، أو هؤلاء العربان الذين ما زالوا يجوبون صحارى مصر بحثا عن غنيمة هنا أو هناك، أو العرب المستوطنين من العمد ومشايخ القرى الذين كان بعضهم- حتى ذلك الوقت- يسيئون للفلاحين، ويتسلطون عليهم ببلطجة السلاح والسلطة، ويترفعون عن وصف نفسهم بكلمة فلاح، مستندين على الثروة الفاحشة والأرض الشاسعة التي نهبوها في عصر سابق بصفقات مع الوالي أو الخديوي، وبعضهم مستوطن منذ أمد طويل، لكنهم- بتعبير طه حسين كما سنرى- ما زالوا يعيشون بروح الغزاة.

كانت حركة تغيير هويات الدول على أشدها في بداية القرن ٢٠ كما رأينا في صفحات سابقة، ورغم أنه يطلق على تلك الفترة "عصر نضوج القوميات" في أوروبا، فإنه الواقع يقول إنها عصر "تذويب القوميات" في مصر والشرق الأوسط، وإفشال الاستقلال الحقيقي لكل دولة بربطها بتيارات عالمية أو إقليمية، ومنها القومية العربية.

أعلن صناع القومية العربية أن هدفهم أن تصير المنطقة "تكتلا قويا" ضد الاستعمار، ولكن اتضح أن الهدف الحقيقي ألا تقوم لبلدان المنطقة قومة أبدا، لأن شعوبها باتت مشتتة بين عدة تيارات متصارعة، كلها تدعوها للتكتل والعالمية، وانتهى الأمر بأن معظمها لا أصبح دولة قومية لها شخصية قوية وواضحة، ولا أصبح ضمن تكتل إقليمي أو عالمي قوي وواضح.

ورد أحمد لطفي السيد على دعاة الوحدة الإسلامية والعربية في عصره بقوله: "لم يأت لنا الماضي بمثل واحد يدلنا على أن أمة من أمم العالم ساعدت مصر وحمتها من المصائب التي كان يجرها عليها طمع الأقوياء في ثروتها وفي مركزها الجغرافي النادر المثال"[١٦٥٧].

ورغم مئات الكتب حول تاريخ هذه الدعوة، إلا أن كثيرا منا ما زال ينسبها إلى الرئيس جمال عبد الناصر، ويمدحه في هذا أو يذمه، ويحملونه كافة التبعات التي حلت بمصر والمنطقة بسببها.

والذي حصل أن عبد الناصر وجيله لم يكونا إلا "ضحية لها"، و"وريث" لميراث "عروبي" بدأ قبل ناصر بـ ١٠٠ سنة، أقحمه الشوام في مصر وتبناه حزب الوفد ومثقفون في الثلاثينات؛ فتسببوا في انحراف ثورة ١٩٥٢ عن مسارها المأمول، مسار استكمال كفاح الأجداد في أن تعود "مصر للمصريين".

أما خطيئة عبد الناصر وجيله فهي أنهم ضاعفوا هذا الميراث الثقيل ونشروه في كل الأرجاء؛ ظنا أن القومية العربية وسيلة لتقوية شعوب المنطقة ضد الكتلتين الشرقية (الاتحاد السوفيتي) والغربية (أوروبا

[١٦٥٦]- فيلم السفيرة عزيزة، تأليف أمين يوسف غراب، إخراج طلبة رضوان، تمثيل: شكري سرحان، سعاد حسني، عدلي كاسب، عبد المنعم إبراهيم

[١٦٥٧]- مبادئ في السياسة والأدب والاجتماع، أحمد لطفي السيد، تعليق طاهر الطناحي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢١٧- ٢١٨

وأمريكا)، ولم يعطوا لأنفسهم فرصة للبحث عن حقيقة هذه الدعوة وأصولها الأجنبية وأهدافها البعيدة.

وبحسب اللبناني جورج أنطونيوس- وهو من مؤسسي القومية العربية ويُعرف بأنه أول مؤرخ لها- في كتابه "يقظة العرب: تاريخ حركة القومية العربية" الصادر أول طبعة ١٩٣٩ فإن أول جهد منظم لهذه الدعوة بدأ ١٨٧٥ كحركة مضادة للاحتلال العثمانلي حين تأسست جمعية سرية في بيروت من ٥ مسيحيين درسوا في الكلية البروتستانتية السورية ببيروت (بعثة تبشيرية أمريكية تحولت إلى الجامعة الأمريكية)، ثم أدركوا أهمية ضم طوائف أخرى كالمسلمين والدروز، واستعانوا بالمحفل الماسوني هناك[١٦٥٨].

واستعانوا في نشر أفكارهم بلصق المنشورات ليلا على الجدران، ونشر الدعوة همسا بين الأقارب والأصدقاء وفي التجمعات؛ خوفا من عيون العثمانلي، ونقل أنطونيوس هذه المعلومات عن أحد مؤسسي الجمعية السرية وهو فارس نمر (صهر أنطونيوس)، وهاجر نمر إلى مصر سنة ١٨٨٣، وفيها أصدر صحيفة "المقطم" لسان حال الاحتلال الإنجليزي، وصحيفة "المقتطف"- كما تابعنا- وهكذا كان مؤسسو حركة القومية العربية هم أنصار للماسونية والاحتلال البريطاني في مصر.

ومنذ ذلك التاريخ ومصر بالنسبة للقوميين العرب من الشام مشروع تجاري رابح لخدمة أهدافهم هم ومن يحركهم، فإن كان تأييدهم لمصر ضد احتلال ما (كالعثمانلي) يفيدهم أيدوها، وإن كان بيع مصر للاحتلال (كالإنجليزي) يفيدهم باعوها.

واقتصرت منشورات الحركة فيما يَخص مفهوم "القومية العربية" على المناطق الشامية، داعية إياها للوحدة على أساس الهوية العربية للتخلص من العثمانلي، وتذكير العرب بأمجادهم، وبأن الأتراك اغتصبوا منهم الخلافة، والدعوة إلى الاتحاد بين سوريا وجبل لبنان[١٦٥٩]، ثم تطورت في نهاية القرن ١٩ وأوائل الـ ٢٠ إلى الاتحاد بين سوريا ولبنان والعراق، وفي مرحلة أخرى بين هؤلاء والحجاز، وفي النهاية شملت كل هؤلاء ومصر وشمال أفريقيا.

فالحركة العربية في بدايتها كانت تركز على إحياء "مجد" الشام الغابر حين كانت الخلافة في دمشق، وذلك للتحرر من نير الاحتلال العثمانلي، وهو المجد الذي كان قائما على احتلال العرب لبقية بلاد المنطقة، ومنها مصر، لا بوحدة اختيارية وإنما الضم بالسيف، هدفها ليس تقوية بعض، بل نزح الثروات، وعومل فيها المصريين كمغلوبين أمام الغازي الغالب، وتسموا بأهل الذمة وبالموالي، وليس إخوة متساوين مع الغازي في الحقوق والواجبات.

وعرض مؤرخو القومية العربية أسبابا أخرى لاختيار الشام بالذات لرمي بذور دعوة القومية العربية فيها، منها: نشاط الإرساليات الأوروبية والأمريكية التبشيرية فيها الهادفة إلى ضم الشام إلى النفوذ الغربي بعد استقلالها عن العثمانيين، ووجود نسبة كبيرة من المسيحيين بين السكان المحتقنين من معاملتهم كأهل

(١٦٥٨)- انظر: "يقظة العرب- تاريخ حركة العرب القومية"، جورج أنطونيوس، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ص ١٤٩- ١٥٢

(١٦٥٩)- انظر: المرجع السابق، ص ١٥٣- ١٥٥

ذمة في ظل الاحتلال العثمانلي، وافتقاد الشام لهوية وطنية واحدة لتعدده ما بين عربي وكردي وسرياني وأعراق أخرى، ومسلم ومسيحي ودرزي، وتاريخ ورائهم ليس فيه وحدة وطنية، بل إمارات متنافسة ومنفصلة طوال التاريخ، فبحثوا عن ثوب يلبسونه جميعا يغطي غياب الروح الوطنية فوجدوه في اختراع سموه "العروبة".

وفيما يخص دور الإرساليات التبشيرية، قال أنطونيوس إن البعثتين التبشيرية الفرنسية الكاثوليكية اليسوعية والأمريكية البروتستانتية (الإنجيلية) قُدر لهما أن "تحضنا البعث العربي وترعياه[١٦٦٠]".

وبفعل بعثات التبشير البروتستانتية في الشام تم تعريب الإنجيل بترجمته للغة العربية في القرن ١٩، وصارت الصلوات تتلى في الكنايس بالعربية، وهذا بعدما كانت بالسريانية، وذلك لإبادة اللغات القومية المحلية ودمج أهل الشام في لغة تخدم هدف القومية العربية وهي اللغة العربية الفصحى.

واعتبر العراقي- السوري هاني الهندي، من رواد الجيل الثالث أو الرابع للقومية العربية، في كتابه "الحركة القومية العربية في القرن العشرين" أن هذا "أول انتصار فعلي للقومية العربية؛ إذ أصبحت العربية لغة الصلاة".

وضمن الشوام المسيحيين الذين أخذوا على عاتقهم التغني بالأمجاد واللغة العربية بطرس البستاني (١٨١٩- ١٨٨٣)، وناصيف اليازجي (١٨٠٠- ١٨٧١)، وخاطب ابنه إبراهيم اليازجي المسلمين والمسيحيين بحماسة تخطف القلوب، وهو يلقي قصيدته "أفيقوا يا عرب"، داعيا إياهم أن يتركوا التعصب الديني ويكونوا "إخوانا متآلفين" بتراثَهم "العربي المشترك"، وجاء بروح التعريب هذه ليبثها في عروق مصر سنة ١٨٩٤ رغم أن مصر لم تكن مشكلتها طائفية وعرقية حينها كمشاكل الشام، بل مشكلتها أن قوميتها التاريخية مختنقة تحت ضغط الاحتلالات.

أما البستاني فلقبه "المعلم" لأنه أول من أنشأ قاموسا عربيا عصريا، هو "محيط المحيط"، وأول من وضع دائرة معارف بالعربية، والاثنان مدعومان من البعثات التبشيرية الأمريكية واليسوعيين الفرنسيين بحسب هاني الهندي[١٦٦١]، وعن دوافع انضمام المسلمين- لاحقا- لهذه الحركة في الشام ثم العراق وجزيرة العرب، فمنها استعادة المجد الغابر لبلادهم في زمن الخلافة، مستقويين في ذلك بأن الرسول كان عربيا.

وفي بداية القرن ٢٠ غذَّت بريطانيا فكرة القومية العربية خلال الحرب العالمية الأولى لجذب مساعدة العرب (في الحجاز والشام) لها في الحرب ضد تركيا، ووعدت قيادات هذه البلاد بمساعدتهم في تأسيس "الدولة العربية الكبرى" تتكون من الحجاز والشام برئاسة حسين الهاشمي (الشهير بالشريف حسين) أمير مكة، وساعدوها بالفعل فيما سُمي بـ"الثورة العربية الكبرى" سنة ١٩١٦.

ولم يكن لمصر اهتمام بالثورة العربية هذه، بل كان ينمو فيها الأمل في إحياء القومية المصرية على يد طه حسين وأحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل وغيرهم، وفي مقابلها تنشط الدعوة للخلافة الذي غذاه

(١٦٦٠)- نفس المرجع، ص ٩٧

(١٦٦١)- انظر: الحركة القومية العربية في القرن العشرين، هاني الهندي، مرجع سابق ، ص ١٨٤- ١٨٦

شوام مسلمون ومستوطنون عرب مثل عبد الرحمن عزام، لإنقاذ العثمانلية من السقوط.

وبفشل إقامة الدولة العربية الكبرى بنظام الضربة الواحدة لما غدرت بريطانيا بحسين الهاشمي، بدأ نشر الفكر العروبي بين الناس بنظام النقاط والنفس الطويل عبر التنظيمات السرية والمعلنة.

فبحسب اللبناني شفيق جحا- أحد رواد القومية العربية وأحد مؤسسي هذه التنظيمات- في كتابه "الحركة العربية السرية ١٩٣٥- ١٩٤٥ "فقد تبلور أول شكل تنظيمي لذلك سنة ١٩٣٣ حين اجتمعت نخبة من شباب لبنان وسوريا وفلسطين والعراق لعقد مؤتمر بحث القضية العربية بشكل سري في بلدة قرنايل بقضاء المتن الأعلى في لبنان، وتمخض عن تشكيل "عصبة العمل القومي"، ومقرها دمشق، واصطدمت العصبة مع حزب "الكتلة الوطنية" المناصر للقومية السورية؛ ما أضعف المقاومة الوطنية للانتداب الفرنسي[١٦٦٢]، مصداقا لتحذير أحمد لطفي السيد من أن إقحام تيارات أممية على الحركة الوطنية يفسدها ويخدم الاحتلال.

وتزعم السوري قسطنطين زريق والأخوان اللبنانيان كاظم وتقي الدين الصلح مهمة تحويل تيار "القومية العربية" إلى العمل التنظيمي، أي تأسيس أحزاب وحركات تنشر هذا التيار داخل الشام والعراق، وهم ضمن من وضعوا التعريفات والمبررات الحديثة والمصطنعة لمعنى كلمة عرب وتوسيع نطاقها جغرافيا من جزيرة العرب لتشمل دول أخرى لم تعرف من قبل بأنها عربية، وحاربوا الوطنية والحدود، ويُلاحظ أنهم أيضا على صلة مستمرة بنشاط الإرساليات التبشيرية، وكأنها تفرزهم جيلا ورا جيل، فكان الأولان أستاذين بالجامعة الأمريكية (الكلية السورية البروتستانتية) في بيروت، وتقي الدين الصلح أستاذا في مدرسة البعثة العلمانية الفرنسية "مدرسة اللاييك" في بيروت، وصار رئيسا لوزراء لبنان فيما بعد.

واهتم زريق، وهو أستاذ تاريخ، بإحياء التراث العربي، وأسس مع كاظم وتقي الدين الصلح تنظيما عُرف لاحقا باسم "الحركة العربية السرية" أو "حركة الكتاب الأحمر" عام ١٩٣٥، اعتمدت العمل السري لمدة ١٠ سنوات، وكانت هي القوة الدافعة فكريا وتنظيميا لنشر تيار القومية العربية بشكله المكتمل المعروف به اليوم، وزرعه بأسلوب الاختراقات السرية في عروق الجيوش والأحزاب والحكومات والمؤسسات الثقافية والفنية والجامعات، ولولاها ما وصل هذا التيار المصطنع لما وصل إليه.

ووضعوا لها دستورا، على أمل أن يكون هو دستور الدولة العربية الكبرى التي خططوا لها، وعنوانه "القومية العربية: حقائق وإيضاحات ومناهج" في جو من السرية المطلقة، وظلت السرية أساس الحركة.

ووفق ما أورده أحد مؤسسي هذه الحركة، وهو شفيق جحا، خريج الجامعة الأمريكية ببيروت، في كتابه "الحركة العربية السرية ١٩٣٥- ١٩٤٥ (جماعة الكتاب الأحمر)"، فقد دعا هذا الدستور للعلمانية، ولدولة حرة مستقلة، وإحياء "المجد الغابر للحضارة العربية"[١٦٦٣].

واصطنعت الحركة في دستورها تعريفا ليس له ظل على الواقع أو التاريخ، وهو أن "العرب أمة واحدة"

(١٦٦٢)- انظر: الحركة العربية السرية ١٩٣٥- ١٩٤٥ (جماعة الكتاب الأحمر)، شفيق جحا، الفرات للنشر والتوزيع، ط١، ص ٣٤

(١٦٦٣)- انظر: المرجع السابق، ص ٣٦- ٣٩

حين قالت في تعريفها لكلمة العرب إن "العرب أمة واحدة.. هم من كانت لغتهم العربية، أو من يقطنون البلاد العربية، وليست لهم في الحالتين أية عصبية تمنعهم من الاندماج في القومية العربية"[١٦٦٤].

فالتاريخ يحكي أن كلمة العرب حتى عصر الفتوحات العربية تُقال فقط على سكان جزيرة العرب وقبائل استوطنت بادية الشام وجنوب العراق، وبعد الفتوحات حملت بعض القبايل المهاجرة منها إلى مصر وغيرها كلمة "عربية" معها، ولكن اقتصرت على هذه القبايل نفسها، فيما ظلت الشعوب تُعرف بهويتها التاريخية مثل الفلاحين/القبط في مصر، والزنج في وسط أفريقيا والبربر في شمال أفريقيا، وظل الفرق واضحا جدا بينهم وبين القبايل العربية المستوطنة، وتتعمد هذه القبائل استمرار هذه الفرق.

وحتى من كان يشهر إسلامه من أهل هذه البلاد ويتحدث العربية لم يكونوا يسمونه "عربيا"، بل أطلقوا عليه صفة "الموالي"، وهي صفة تعني التبعية وتجعلهم في درجة أقل من العرب[١٦٦٥]، حتى لا يتساوى المغلوب (ابن البلاد المفتوحة) بالغالب (الغازي)، ولم يُطلق على مصريين كلمة عرب أو أبناء العرب إلا في مرحلة متأخرة من الاحتلال العثمانلي ليفرقهم عن الأتراك كما ورد في بعض كتب الرحالة الأجانب.

وتتضح محاولة ليّ حقائق التاريخ والجغرافيا في أن بلادا صار يُطلق عليها كلمة عرب في السنين الأخيرة لمجرد انضمامها للجامعة العربية، مثل الصومال الذي انضم للجامعة سنة ١٩٧٠، وقبل هذا التاريخ لم يكن يُقال عليه أنه عربي، فيما متوقف تعريف أريتريا على أنها عربية أو غير عربية على أساس هل ستنضم للجامعة أم لا، ونفس الأمر على دولة جنوب السودان الناشئة عام ٢٠١١ ذات الأغلبية الزنجية.

وللخروج من المأزق التاريخي الذي يؤكد عدم وحدة شعوب المنطقة كـ"عرب" في يوم من الأيام، جعلت الحركة في دستورها اللغة العربية هي مقياس تعريف العرب حين قالت إن: "البلاد العربية هي جميع الأراضي التي تتكلم أو يتكلم سكانها اللغة العربية في آسيا وأفريقيا"[١٦٦٦].

وهنا يواجهها أيضا مأزق.. فهل الدول التي احتلتها فرنسا وصارت تتحدث الفرنسية حتى بعد الاستقلال مثل بوركينا فاسو وساحل العاج في أفريقيا صارت دولا فرنسية؟ والدول التي تحدثت الإنجليزية بسبب احتلال بريطانيا لها كجنوب أفريقيا صارت دولا بريطانية؟ وهل لو كان اليونان اختلطوا بالمصريين وتحدث المصريون اللغة اليونانية تصبح مصر يونانية؟

بل إن معظم الدول التي صار يسمونها عربية لم تتمكن اللغة العربية الفصحى من كل سكانها الأصليين إلا خلال المائة سنة الأخيرة.

واللافت أن الحركة في دستورها ضمت الدول الواقعة في أفريقيا إلى تعريف كلمة "عرب"، وهذا لأول مرة، وبالرغم من أن القائمين على وضع الدستور كانوا من الشام والعراق، ولم تشترك دولة أفريقية في

[١٦٦٤]- نفس المرجع، ص ٣٩

(١٦٦٥)- معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، أنور محمود زناتي، ط ١، دار زهران للنشر والتوزيع، عمَّان، ص ٣٨٧

[١٦٦٦]- انظر: الحركة العربية السرية ١٩٣٥- ١٩٤٥ (جماعة الكتاب الأحمر)، شفيق جحا، مرجع سابق، ص ٤٠

وضع هذا الدستور، ولم تكن معنية به، ولم يدر في خاطرها حينها أساسا الدخول في "وحدة عربية".

ومثل بقية الحركات العالمية والإقليمية، أسست "الحركة العربية السرية" فروعا سرية، في سوريا ولبنان والعراق والكويت وألمانيا (غير واضح لماذا ألمانيا، ربما لتوجه القوميين العرب للتحالف معها في الثلاثينات بعد أن خذلتهم بريطانيا)، وأطلقوا على كل فرع اسم معتمدية، ونشروا خلايا سرية في أنحاء كل بلد، كل خلية تتكون من ٥-١٠ أفراد، ويصل عقاب إفشاء أسرارها إلى الموت، حسب ما نقل مالك المصري (فلسطيني) عن تجربته في الخلية السرية التي انتسب إليها وهو في الجامعة الأمريكية ببيروت، وسجلها شفيق جحا في كتابه.

وأعضاء الحركة- مثلهم مثل إخوان الصفا والناريين والماسون والإخوان المسلمين- يعرفون أنفسهم بكلمة "الإخوان"، ويتكلم كل عضو عن زميله بصفة "الأخ"، وبات عندهم الكتاب الأحمر بمثابة "دستور الحركة وقرآنها الذي يجب حفظه وتفسيره"، حسب تعبير شفيق جحا، وفور قبول العضو يُعطَى نسخة من الكتاب الأحمر بعد أن يقسم اليمين بأن لا يبوح بكل ما سمع وقرأ ورأى عن هذا الحزب لأي كان، ويجري تكريسه عضوا نظاميا في حفل حزبي محدود يحضره ممثل عن القيادة والعضوان اللذان سعيا لإدخاله.

ويصف زهير عسيران (لبناني) في كتابه "زهير عسيران يتكلم" ما جرى في حفل تكريس العضو الجديد في مذكراته بأن القسم يتم على طاولة عليها قرآن كريم للمسلمين وإنجيل للمسيحيين ومسدس[١٦٦٧].

وأورد كتاب "أوراق كاظم الصلح" نص القسم كالتالي، ونورده هنا لإظهار حجم التشابه بينها وبين الحركات المتفرعة عن التنظيمات العالمية الأخرى، ومنها تنظيم الإخوان المسلمين:

"أقسم بالله وبشرفي وبأمتي العربية، وأقسم برجولتي وبمصيري وبإنسانيتي، وأقسم بذكرى أمواتي وشهدائي، وبحياتي وبحياة كل عزيز حبيب إليّ، الآن وقد أصبحت ركنا في الحزب، أقسم على أن استمر خادما نشيطا مخلصا لحزبي هذا وحده، وأن أتقيد بقراراته وأنظمته وقوانينه، وأنفذ ما يأمر وأمتنع عما ينهى، وأن أذيب ميولي وشهواتي وجهودي في سبيله، فأقاتل ما يقاتل، وأخالص ما يخالص، وأن أكون صديقا نافعا وعونا صدوقا لكل عضو يوآخيني في شرف الانتماء إلى الحزب، وأن أكتم كل ما أعرف أنه سر من أسرار الحزب، وما أتلقاه كسر من أسراره، فلا أبوح بشيء منه، وأجهد كل الجهد كي أحول دون إطلاع أي من الناس عليه، أفعل ذلك".

وعلى كل عضو أن يدفع ١٠% من دخله السنوي للحركة، والعضوية تتبع مبدأ التدرج، بداية من رتبة "متدرج" إلى رتبة "عون" ومن رتبة "عون" إلى رتبة ركن"، ولكل عضو اسم رمزي "حركي" جنب اسمه الحقيقي، وملزم بالكشف عن مصادر دخله وحجم ثروته للحركة[١٦٦٨].

[١٦٦٧]- انظر الحركة العربية السرية ١٩٣٥- ١٩٤٥ (جماعة الكتاب الأحمر)، شفيق جحا، مرجع سابق، ص ٥٢- ٥٥
[١٦٦٨]- انظر: المرجع السابق، ص ٥٥- ٥٨

ويقول مالك المصري (فلسطيني) بحسب ما ورد في كتاب "مالك المصري، نابلسي في الجامعة الأمريكية" إن خليته في الجامعة الأمريكية تراقب بقية الحركات فيها، سواء عروبية أو وطنية "فنؤيد هذا المرشح ونحارب ذاك، ونشارك في هذه المظاهرة مؤيدين إن كانت تتفق مع أهدافنا، أو نعترض مظاهرة أخرى ونعارضها إن كانت مناوئة لغاياتنا"[١٦٦٩]، وهكذا فكل ما هو وطني عندهم "عدو".

والأعضاء العروبيين الذين لقبوا أنفسهم أيضا بـ"الإخوان" يتبادلون الرسائل بنظام الشفرة، وكل خلية تجهل الخلية الثانية نهائيا، ووصلت درجة السرية أن كل عضو يخبئ نفسه عن أهله.

ولأن الحركة سرية لم يكن لها مقر معروف، واعتمدت على خلاياها "نقاط الاعتماد" المنتشرة في الأندية والأحزاب المنافسة والمحافل والصالونات الأدبية والجمعيات الاجتماعية والجامعات والفرق الكشفية والتنظيمات شبه العسكرية لتنشر دعوتها بنظام التبشير و"الزن على الودان"، حتى يصل أعضاؤها إلى مراكز صناع القرار، عبر الانتخابات أو غيره، وهنا يوجهون قيادة النادي أو الحزب أو الجمعية حسبما يريدون في الاتجاه العروبي، دون أن يمسك عليهم أحد أنهم تبع تنظيم مختلف[١٦٧٠].

ووصلت درجة الاختراق أنه مثلا في هيئة النادي العربي في دمشق سيطر العروبيون على الأعضاء حتى انتخبوا عضو الحركة سعيد فتاح الإمام رئيسا للنادي، وفي العراق اخترقوا هيئة "نادي المثنى" وسيطروا عليه، واخترقوا الحزب السوري القومي والحركات الكشفية مثل منظمة الكشاف المسلم في لبنان[١٦٧١]، ومن أنشطة الحركة السرية توجيه المظاهرات والاحتجاجات في الجامعات وغيرها ضد الحكومات الوطنية بحجة أنها عميلة للاستعمار.

وبذلك تكون سارت بنفس نهج جماعة الإخوان المسلمين في "اختراق الجميع"، وليس الاقتصار على اختراق الأغنياء والأجانب مثل المحافل الماسونية التقليدية مثلا؛ لأنها هدفها "تعريب" الجميع.

وفي محاربتها للقوميات الوطنية قالت "الحركة العربية السرية" في حديثها عن القومية العربية في دستورها "الكتاب الأحمر" المادة ٥ تحت عنوان "لزوم العصبية العربية وحدها" إنه: "يحرم العربي العصبيات التي تضعف العصبية العربية: كالعصبيات الطائفية والعنصرية والطبقية والإقليمية والقبلية والعائلية وأشباهها[١٦٧٢]". والإقليمية المقصود بها الوطنية، أي من يقول أنا مصري، أنا عراقي إلخ.

وتحت عنوان "تحتيم الانتظام والجهاد" ورد في المادة ٩ أن: "قعود الفرد العربي وإحجامه عن الانتظام في مواكب المجاهدين عار وضلال يشبهان الخيانة".

*** شبيه ببيعة تنظيم الإخوان "المسلمين" الذي نصه: "أعاهد الله العظيم على التمسك بأحكام الإسلام والجهاد في سبيله، والقيام بشروط عضوية جماعة الإخوان المسلمين وواجباتها، والسمع والطاعة لقيادتها في المنشط والمكره- في غير معصية- ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وأبايع على ذلك، والله على ما أقول وكيل"، ويقسم على المصحف والمسدس. انظر: المادة ٤ من الباب الثالث للائحة العالمية لجماعة الإخوان المسلمين الموضوعة عام ١٩٩٤، موقع "نافذة مصر" التابع للجماعة: https://www.egyptwindow.net/

[١٦٦٩]- الحركة العربية السرية ١٩٣٥- ١٩٤٥ (جماعة الكتاب الأحمر)، مرجع سابق، ص ٥٣

[١٦٧٠]- انظر المرجع السابق، ص ٦٥- ٦٧

[١٦٧١]- انظر: نفس المرجع، ص ٦٨- ٦٩

[١٦٧٢]- انظر: نفس المرجع، ص ٣٨٥

فصار كل من يرفض الانضمام لـ"العروبة" خائنا، مثلما أن من لا ينضم لتنظيم الإخوان "المسلمين" أو يؤيدهم كافرا أو عاصيا، ومن لا ينضم للإرساليات التبشيرية ومشروع كنيسة روما العالمي ضالا، ومن لا ينضم للمحافل الماسونية جاهلا ومن الرعاع "الجوييم"، ومن لا ينضم للتنظيمات الشيوعية رغبة في احتفاظه بوطنيته شوفينيا وشعوبيا عنصريا.

واعتمد التننظيم العمل المسلح فيما وصفه بـ"الجهاد" لتحرير ما وصفها بالأمة العربية حين تحدث في المادة ٩ من الميثاق عن أن كل "ميسور عربي" ملزم بـ"الجهاد باليد" إن استطاع، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبجنانه[١٦٧٣].

ولم يقصر "الجهاد" على أمر معين، الاحتلال الأجنبي مثلا؛ ما يعني استغلاله ضد خصومه، أيا كانوا، وبالفعل، كان من أنشطة الحركة "التدريب على استعمال السلاح"[١٦٧٤].

وفي باب الثقافة العربية قال دستور الحركة إن "كل علم أو فن أو أدب يرمي إلى الشعوبية والميعان الأممي والرخاوة في العصبية العربية مفسدة لكيانهم، فهم حرب عليه"[١٦٧٥]، بمعنى أن كل عمل وإبداع يرسخ الاعتزاز بالهوية الوطنية أو التاريخ الوطني لكل شعب (كالشعب المصري أو الشعب العراقي إلخ) هو بمثابة عمل "من أعمال الحرب"، يضع صاحبه تحت طائلة العقاب.

وبذلك محت الحركة آلاف السنين من عمر حضارة مصر والحضارات الأخرى، وحددت لهم أن بدايتهم تُحسب منذ بدء انطوائه تحت الاحتلال العربي منذ ١٥٠٠ سنة فقط، وقصر مصادر أدبهم وثقافتهم قبل هذا التاريخ على أدب وتاريخ جزيرة العرب مثل تاريخ عنترة وامرؤ القيس وحروب براقش.

وفي باب الثقافة أيضا شن دستور الحركة حربا على كافة القوميات الخاصة بقوله: "تفرض القومية العربية أن لا يقيم في الوطن العربي جماعات ذات عنصرية أجنبية تتحسس بعصبية غير العصبية العربية على الرغم من حملها جنسية الدولة، فعلى هذه الجماعات أن تتعرب إذا شاءت أن تبقى في هذا الوطن"[١٦٧٦].

وهذ بند خطير، لأن معناه لو المصري تمسك بمصريته في الثقافة الشعبية والحضارة وطريقة الكلام ونظام الحياة فمن حق المسئول عن الدولة العربية المزعومة أن يطرده من مصر بتهمة خيانة العرب!

واعتبرت أن المصري في بلده "أجنبيا"، مدام ليس عروبيا، مثلما اعتبرت محافل الماسون أن من هم غير ماسون "خوارج"، و"أجانب"، وكذلك اعتبرت جماعة إخوان الصفا و"الإخوان المسلمين" و"الشيوعية" إلخ كل من لا ينتمي إلى فكرهم المصطنع.

[١٦٧٣]- الحركة العربية السرية ١٩٣٥- ١٩٤٥ (جماعة الكتاب الأحمر)، شفيق جحا، مرجع سابق، ص ٣٨٨
[١٦٧٤]- انظر نفس المرجع، ص ٨٥
[١٦٧٥]- نفس المرجع، ص ٤٠٣
[١٦٧٦]- نفس المرجع، ص ٤٠٤

وفي تناقض صارخ يؤكد روحها الاحتلالية قال في المادة ٢٨ تحت عنوان "دوام الصلة الوطنية مع العرب المغتربين": "يجب أن تقوم الثقافة العربية بقسطها في إبقاء العروبة على أبنائها الذين هاجروا إلى الديار الأجنبية في طلب الرزق أو دفع الظلم حتى تحبب إليهم العودة إلى الوطن فيشتركوا بتعميره والدفاع عنه، أو تظل صلتهم به ناهضة متينة فيخدموا أمتهم من منازل هجرتهم"[١٦٧٧].

ففي الوقت الذي أعلن الحرب على أي شخص في دول المنطقة يرفض التعريب والولاء للدولة العربية، طالب "العرب" المغتربين بأن يحافظوا على "عروبتهم" ولا يذوبوا في هوية بلدان المهجر.

وعن تعريف القومية والجنسية طالب قسطنطين زريق في كتابه "الوعي القومي" شعوب المنطقة بترك أصولهم الوطنية وترك الفخر بأجدادهم، وغالبا يقصد إذا لم يكونوا عربا، ودعاهم لمحو ماضيهم كاملا، والتطلع للمستقبل: "أكثر ما نتجه عند تفكيرنا في المسائل القومية إلى الماضي، لا إلى المستقبل، نتجادل في أصلنا، وجنسنا، وما كان عليه أجدادنا، وما حدث بين أقطارنا من العلاقات التاريخية، إلى غير هذا مما نفكر ونقول ونحن ملتفتون إلى الوراء، وبدلا من أن نكون متطلعين إلى الأمام[١٦٧٨]".

وهنا دليل آخر على تناقض فكرة القومية العربية، أو كذبها، ففي الوقت الذي تدعو فيه "الحركة العربية السرية" ومثيلاتها شعوب المنطقة لمحو ماضيها الوطني بعدم النظر للوراء، تطالبها في موضع آخر بالتفاخر بـ"الأمجاد العربية" القديمة، أي أن تنظر إلى الوراء، ولكن في اتجاه الجزيرة العربية ودمشق وبغداد (فقط)؛ لحفظ "الصلات التاريخية العربية"، وهذا يعني حفظ الماضي والتاريخ لأبناء الجزيرة العربية وبني أمية والعباسيين في الشام والعراق ونسف تاريخ مصر نسفا بحجة أنه لم يكن ناطقا بالعربية أو أنه كان له شخصيته المختلفة عنها.

ومن أشكال الإبادة الثقافية في ميثاق الكتاب الأحمر رفضه لما يسمى باللغة العامية الخاصة بكل شعب، ففي المادة ٣٦، وبعد الكلام عن تقديس اللغة العربية ولزوم إنشاء المجامع العربية والقواميس للمحافظة عليها، طالب بـ "تقريب العامية من الفصحى لينشأ جيل يكتب كما ينطق وينطق كما يكتب، على أن يؤخذ من العامية ما هو موحد في جميع الأقطار العربية أو ما هان توحيده[١٦٧٩]".

فتولت الحركة العربية مواصلة مهمة الاحتلالات السابقة في تحقير لغة كل وطن، وإدعاء أنها مجرد تحريف للغة العربية، بالرغم من أنها ليست كذلك، ووصف من يتحدث بها بأنه "جاهل"، وليس من فئة "المثقفين الراقين"، أو تتهمه بالتآمر على اللغة العربية لصالح الأعداء.

ونشطت الحركة العربية السرية في القرى تحت ستار مشاريع تنمية الريف، ونشطت في تكوين نقابات، فأسست نقابة المعلمين في المدارس الخاصة في لبنان على يد تقي الدين الصلح وشفيق جحا[١٦٨٠]، مستفيدين

[١٦٧٧]- انظر المرجع السابق، ص ٤٠٢
[١٦٧٨]- انظر: المرجع السابق، ص ٩٢
[١٦٧٩]- انظر: نفس المرجع، ص ٤١٣
[١٦٨٠]- انظر: المرجع السابق، ص ١١٥

من أسلوب الشيوعية في هذا الجانب.

وساهموا مع بقية التيارات في أن حالة التشتت والانقسام في لبنان وصلت إلى المهن نفسها، فصار مثلا هناك مدرس عروبي وآخر يساري وآخر إسلامي وآخر مسيحي وآخر شيوعي إلخ، ولا يأخذون خطوة في مهنتم ونقابتهم إلا بتوجيه التيار التابعين له.

وكعادة التيارات العالمية المعادية للدولة الوطنية، فإن الجيوش هدف أساسي لها.. لأنه طالما الدولة لها جيش وطني ومن أبنائها المخلصين لوطنهم فقط فلن تقع في براثن هذا التنظيمات.

فبعد أن توجهت الحركة العربية السرية إلى العراق اخترقت الجيش العراقي عن طريق الملازمين صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد حتى وصل عدد "العروبيين" بالجيش إلى ١٢٠ ضابطا، وكونوا تنظيما باسم "التشكيل القومي" العسكري سنة ١٩٢٧، هدفه تكوين "إمبراطورية عربية مركزية في المشرق العربي، تبدأ بالعراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن، وتشكل اللبنة الأولى في الوحدة العربية الشاملة[١٦٨١].

ثم جاء الاختراق الثاني على يد "الحركة العربية السرية" في الثلاثينات، وهدفها ألا يكون العراق هو زعيم الدولة العربية الكبرى المزعومة، ولكن أن تكون الحركة السرية- أو من ورائها من تنظيم أو دول أو شخصيات خفية- هي المسيطرة على العراق، وتم هذا بالتسلل إلى العراق في شكل زيارات طلابية، ومدرسين، ولاجئين فلسطينيين، ولبنانيين، وسوريين، وهم يخفون الأهداف الحقيقية ورائهم.

وهنا ظهر مجددا دور المهاجرين والمستوطنين الأجانب في زرع التنظيمات العالمية والإقليمية والحروب الأهلية أو الثورات الخاصة بمصالحهم وليس مصالح الوطن المزروعين فيه.

فقد استقبلتهم العراق استقبالا حسنا، وألحقتهم بوظائف في المدارس والمعاهد العراقية، فتولى اللاجئون والعاملون تشكيل فرع الحركة العربية السرية، ثم اخترقوا صفوف الجيش والدوائر الحكومية والأطباء إلخ، وانضم لهم كوادر عراقية، منها عبد السلام عارف، رئيس العراق فيما بعد[١٦٨٢].

وسيطر اللاجئون والوافدون على تنظيم صلاح الدين الصباغ بالجيش، بأن صاروا مستشارينه المقربين، وسيطروا على الإعلام تماما، كما ذكر كاظم الصلح متفاخرا، إضافة للسيطرة على نادي المثنى صاحب التأثير في الرأي العام وقادة الفكر، وجمعية الجوال العربي، وزاد من تضخيم نشاط اللاجئين هناك انتقال القيادي الفلسطيني المفتي أمين الحسيني من لبنان للعراق هو وأنصاره، وتوافد أنصار جدد إليها سنة ١٩٣٩، وصاروا يوجهون الأمور في العراق لصالحهم تحت شعار إنقاذ فلسطين ودعم العراق في التحرر من الاحتلال البريطاني[١٦٨٣]، وانضم لهم رئيس الوزراء رشيد الكيلاني، ولكن شنت بريطانيا حربا على العراق، وفشل الجيش العراقي والكتائب السورية والفلسطينية واللبنانية المتطوعة معه في صدها، فهرب

[١٦٨١]- انظر: المرجع السابق، ص ٢٤١- ٢٥٠

[١٦٨٢]- انظر: نفس المرجع، ص ٢٤٧- ٢٥٦

[١٦٨٣]- انظر المرجع السابق، ص ٢٥٦- ٢٥٨

في ليلة ٣٠ مايو ١٩٤١ معظم المسئولين السياسيين والعسكريين الكبار "العروبيون" سوا من كبار اللاجئين مثل أمين الحسيني أو من العراقيين مثل الكيلاني، وتركوا بغداد وأهلها للإنجليز، وبعد الهروب الكبير، تمكنت المخابرات البريطانية والأمن العراقي من تعقب الهاربين، وأعدمت عددا منهم، واعتقلت آخرين، فكانت ضربة قاصمة للحركة العربية السرية، وانفكت عراها، بتعبير شفيق جحا[١٦٨٤].

وبحث الباقون من قياداتها المقيمين في الشام عن بدائل لاستمرار نشر "القومية العربية"، فأنشأ قسطنطين زريق "النادي الثقافي العربي" لينظم الندوات لطلاب الجامعة الأمريكية من الشوام والوافدين، وتخرج من هذه الندوات قيادات مثلت الجيل الرابع للقوميين العرب، مثل الفلسطيني جورج حبش مؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اليسارية فيما بعد، فيما أسس كاظم الصلح حزب النداء القومي على نمط أفكار الحركة العربية السرية، ولكنه كان علنا، وتفرع منه أحزاب على شاكلته في عدة دول[١٦٨٥]، وخرج من عباءة حبش "حركة القوميين العرب" التي سيكون لها شأن في استمالة جمال عبد الناصر في مصر قبل أن يكتشف زيفهم متأخرا فينقلبوا عليه.

ووفق شفيق جحا، فإن الحركة العربية السرية حتى ذلك الوقت- أي سنة ١٩٤٠- لم تكن انتشرت خارج الشام والعراق، لكنه نقل روايات عن وجود "غير مؤكد" لخلايا الحركة في مصر، ممثلة في أفراد قليلين، واستدل على هذا بقول عضو الحركة محمد علي حمادة في حديث لمجلة "الشراع" ١١ أبريل ١٩٨٣ إن "اتصالاتنا بمصر كان مع أعضاء ينتمون إلى خلية تابعة للكتاب الأحمر، منهم محمد صلاح الدين الذي أصبح وزيرا للخارجية فيما بعد[١٦٨٦]".

وهكذا يتضح أن الدعوة للوحدة العربية نبعت من الأماكن الثلاثة التي شهدت الخلافة العربية، وهي: الحجاز (موضع الخلافة الأولى حتى عثمان بن عفان)، والشام (موضع الخلافة الأموية بدمشق)، والعراق (موضع الخلافة العباسية ببغداد) ولم يكن هدفها "وحدة تعاون"، بل رجوع علاقة الغالب والمغلوب.

واللافت أنه كما لم يوجد وحدة عربية بين العرب الحقيقيين أنفسهم قديما، وتجلى هذا حتى بعد الإسلام في الصراع بين الأمويين والعباسيين والقبايل العربية حول الحكم و"الزعامة"، واستعانوا بالترك والفرس ضد بعضهم البعض[١٦٨٧]، فإنه أيضا عاد الصراع بينهم (في العراق وسوريا والحجاز) على الزعامة عقب فشل "الثورة العربية الكبرى" ١٩١٦، وما زال الصراع قائما كما نراه يتجدد كل فترة بين هذه الدول- ويستقوي بعضهم ضد بعض بتركيا أو إيران كما فعلوا أيام الخلافة أو بأوروبا وأمريكا- في مساعي كل منهم للحصول على "الزعامة"، ويعتبرون مصر مجرد مورد لنزح الثروة البشرية والمادية والحضارية.

(١٦٨٤)- للمزيد عن الأزمات التي جرّتها الحركة واللاجئون على العراق، واختراقهم مؤسسات الدولة، انظر الحركة العربية السرية ١٩٣٥- ١٩٤٥ (جماعة الكتاب الأحمر)، شفيق جحا، مرجع سابق، ص ٢٨٦- ٣٢٢

*** قارن بين هذا الهروب الكبير وبين صمود المصريين وقياداتهم الوطنية في ثورتي ١٨٨١ و١٩١٩، وعدم هروب القيادات رغم التهديدات والإغراءات، ولم يتركها بعضهم إلا لما أبعدهم الإنجليز بالقوة إلى المنفى، ونفس الأمر في عدم هروب القيادة المصرية في عدواني ١٩٥٦ و١٩٦٧.

(١٦٨٥)- انظر نفس المرجع، ص ٣٧٤

(١٦٨٦)- انظر المرجع السابق، ص ٣٣٠

(١٦٨٧)- حول هذه الصراعات وتأثيرها على مصر راجع الفصل الخاص بالاحتلال العربي

فعن أي "وحدة عربية" بينهم قديما أو حديثا يتكلمون؟

وعن مصر أيضا، يلوح أمامنا المقولة التالية: "قبط مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يدا، وأفضلهم عنصرا، وأقربه رحما بالعرب عامة، وبقريش خاصة، ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها".

وورد هذا عن عبد الله بن عمرو بن العاص في كتاب "فتوح مصر وأخبارها" لعبد الرحمن بن عبد الحكم[١٦٨٨]- وهو من القلائل، بل النوادر الذين تكلموا عن القبط بطريقة حسنة في عصره- فكان العرب أنفسهم يرون أن المصريين "أعاجم" وليسوا عربا، وأن الرابط الوحيد بينهم وبين العرب هو ما أشار إليه الرسول ﷺ حول زواج هاجر بإبراهيم ومارية بالرسول، وهو نسب لا يغير في هوية شعب ولا أصوله، ويحدث بين كل الشعوب يوميا، فهل لو صح مثلا أن الحسين بن علي حفيد الرسول تزوج بابنة كسرى فارس هل يصير الفرس بذلك عربا؟

وكم من مصرية منذ أيام الاحتلالات وحتى الآن تزوجت من أجانب، عرب وشوام وترك وليبيين وفلسطينيين وبريطانيين وإيطاليين وأمريكيين إلخ، فهل تتغير هوية مصر "زي ألوان اللبان السحري"، كلما تزوجت مصرية بأجنبي على حسب هوية بلد الزوج؟

وصلة النسب مع إبراهيم والرسول (ص) ووصايا الرسول بالقبط لم يراعِ معظم العرب الفاتحين لها خاطرا، فعاملوا القبط كما عاملوا بقيةَ الشعوب المفتوحة، فرضوا عليهم الجزية ومن أسلم اعتبروه من الموالي، والعربي والفارسي والتركي مكرم في مصر بمراتب أعلى من المصريين أولاد البلد، ومن سمحوا له من المصريين بأخذ مناصب هامة كانوا قلة وبسبب حوجة العرب لهم لأنهم أدرى بشئون الزراعة والمحاسبة، ومن اعترض فيهم على زيادة في الضرايب أو سوء المعاملة سحلوه وباعوه في الأسواق.

وكما كانت مصر هي الجوهرة في إمداد العرب بالحضارة والثروة في زمن الخلافة، توجهت أعين القوميين العرب إلى مصر أيضا في العصر الحديث، لا لتشاركهم "المجد" المنتظر، ولكن ليكون غزوا عربيا جديدا، ينزحوا به نهضتها الجديدة وثرواتها، وهذه المرة ليس بالسيف، فهي عادت أقوى منهم ولها جيش، فيكون السبيل أن يتم هذا برضا منها عبر إيهامها بأنها منهم وأنها "عربية"، وأن "دورها التاريخي" هو توحيد العرب.

شهادة أخرى توضح هذا الأمر، في كتاب لواحد من أبرز رموز الجيل الرابع من قيادات القومية العربية، هو هاني الهندي، تخرج هاني من الجامعة الأمريكية ببيروت (مفرزة رواد القومية العربية على مدى أجيال) عام ١٩٤٥، وانضم لجورج حبش في "حركة القوميين العرب"، واهتم بنشر الفكر القومي العربي بإصدار الكتب التي تصنع مبررات "للعروبة" فأسس "مؤسسة الأبحاث العربية" في بيروت،

[١٦٨٨]- فتوح مصر وأخبارها، عبد الرحمن بن عبد الحكم، مرجع سابق، ص ٥

*** وهكذا لم يرد في أمهات الكتب عن تاريخ مصر عقب الفتح العربي أي وصف للمصريين بأنهم "عرب"، بل الصفة بأنهم قبط وبأنهم أعاجم، وفي فترة لاحقة فلاحين، خاصة من يدخل منهم في الإسلام

وسجل شهادته، ورغم أنه متمسك في هذا الكتاب بـ"القومية العربية"، إلا أنه يظهر ما يدل على غياب أي دليل تاريخي على ما سماه القوميون العرب بـ"عروبة مصر".

يقول الهندي إنه في القرنين ١٨ ومطلع ١٩ كان مفهوم الهوية العربية غائبا عن معظم شعوب المنطقة، فيما ينتشر مفهوم الانتساب إلى "الدولة الحاكمة"، فكانت الهوية "عثمانية" بالنسبة إلى غالبية سكان المشرق العربي (الشام والعراق)، أو الانتساب إلى الدين (مسلمين أو مسيحيين أو دروز أو يهود)، بل حتى إلى الطائفة، وكانت كلمة "العرب" لا تُستعمل كثيرا، وغالبا ما كان المقصود بها "البدو" سكان البادية في بلدان المشرق العربي[١٦٨٩].

واعترف السوري ساطع الحصري، أحد رواد الجيل الثاني للقوميين العرب، وأحد أشد كارهي الحضارة المصرية، أيضا بأن هدف القوميين العرب من ضم مصر لحركتهم هو استنزافهان فقال إن مصر كانت مُعرِضة عن فكرة العروبة ولا تهتم بما يجري حولها في الشام والعراق، فيما كان أبناء البلدين ترنو أبصارهم إلى مصر لتكون ملاذا لأحلامهم[١٦٩٠].

ومع ثورة ١٨٨١ وما بعدها علت في مصر روح القومية المصرية والدولة الوطنية باعتبارها الخلاص من الاحتلال ومن التشويهات والإذلال الذي تعمد المحتلون ممارسته على المصري الفلاح وهويته، ووصلت هذه الروح لأعلاها في ثورة ١٩١٩، وعلى صداها نشطت حركات المقاومة الوطنية في بلاد أخرى محيطة رأت في الوطنية منجاتها الوحيدة من الاحتلال ومن التشرذم الطائفي والعرقي.

وعن رسوخ العقيدة الوطنية في مصر حينها قبل أن تهبط عليها القومية العربية، يقول المؤرخ العراقي عبد العزيز الدوري: "في مصر ظهرت أفكار الوطن والوطنية والحرية والمساواة قبل مناطق الوطن الكبير".

ولما بدأ التحول بفكرة القومية العربية لمصر عبر الشوام المهاجرين لمصر وجدت معارضة من معظم المثقفين والزعماء المصريين، وهو ما قابله القوميون العرب الشوام والعراقيين بحملات هجوم حادة ضد المصريين الرافضين لهذه الهوية المصطنعة الوافدة، وكرَّس ساطع الحصري جزءا من نشاطه لتحقير الحضارة المصرية وتجرأ على وصفها بـ"الميتة"؛ كي يبرر نظريته التي اسماها بـ"عروبة مصر"[١٦٩١].

كما برز الكلام في أول القرن ٢٠ عن "ظاهرة تعريب مصر"؛ ما يؤكد وعي رواد القومية العربية وقتها بأن مصر ليست عربية في الحقيقة، ولكن سيجعلونها هم "عربية" بتزوير التاريخ ليغزونها غزوا ناعما.

[١٦٨٩]- الحركة القومية العربية في القرن العشرين، هاني الهندي، ص ٨٧
[١٦٩٠]- انظر نفس المرجع، ص ١١٢
[١٦٩١]- ساطع الحصري فيلسوف القومية العربية نافخ الروح في معهد الدراسات، مجلة الأهرام العربي، سهير عبد الحميد، ٧- ٣- ٢٠١٥
*** الحصري (١٨٨٠- ١٩٦٨) مختلف حول أصله من كثرة تنقلاته الغامضة بين البلاد، ويقول إنه من أسرة يمنية سكنت سوريا، وكان مؤيدا للتتريك قبل سقوط الخلافة العثمانية ثم تحول للعروبة وألف ٥٠ كتابا حشاها بنظرياته المصطنعة حولها.

وقال عنها الكاتب البحريني- خريج الجامعة الأمريكية البروتستانتية في بيروت- محمد جابر الأنصاري إن "ظاهرة تعريب مصر حقل نموذجي لتبين تبادل التفاعل بين العروبة والإسلام خلال هذه الفترة"، وإن القوميين العرب اهتموا بـ "ضم أكبر قوة إلى "دار العرب" الجديدة، بل وجعلها مركز الثقل في هذه الدار، بعد أن كان الامتداد المكاني للفكر القومي (العربي) لا يتجاوز آسيا العربية"، أي جزيرة العرب والشام والعراق[١٦٩٢].

واختمرت الفكرة أكثر بعد أن فشلوا في تحقيق "الدولة العربية الكبرى" منفردين بدون مصر في زمن حسين الهاشمي، ثم في العراق خلال ثورة رشيد الكيلاني.

ويبدي القوميون العرب، ومنهم أنيس الصايغ (سوري) في كتاباتهم دهشتهم من أنه لماذا ظلت مصر حتى سنة ١٩٢٠ بعيدة عن فكرة "العروبة"؟، ويجيبون بأن ذلك لأن الاستعمار البريطاني استهدف إبعادها عن هذه الفكرة[١٦٩٣].

ولم يكن هذا حقيقيا، فالقوميون العرب أنفسهم يقولون إن مصر قبل الاستعمار البريطاني لم تكن تعرف شيئا عن العروبة، وظلت حتى القرن ٢٠ ترفض الانضمام لقافلة القومية العربية، كما أن الاستعمار الغربي هذا هو نفسه الذي شجع فكرة العروبة في القرن ١٩ بإرسالياته التبشيرية في الشام، وفي ١٩١٦ بدعمه "الثورة العربية الكبرى"، وفي تمكينه القوميين العرب الوافدين لمصر، وهو ذاته الذي دعم تأسيس الجامعة العربية سنة ١٩٤٥، وأنه في ذلك الوقت كان يشجع أي تيار ينزع عن المصريين روح المقاومة الوطنية، ويشتتهم ويخلق منهم شيعا متحاربين، بل لم تحارب بريطانيا القومية العربية إلا لما تبناها جمال عبد الناصر لأسباب سنعرفها- إن شاء الله- في الجزء الثاني.

وإضافة إلى المهاجرين الشوام الأوائل من دعاة الجيل الأول للقومية العربية إلى مصر، كان لعبد الرحمن الكواكبي من دعاة الجيل الثاني بعد هجرته أيضا من الشام إلى مصر سنة ١٨٩٩ دور في نشر بذور القومية العربية، معتبرا أن رابط اللغة أعلى من رابطة القومية الوطنية والجنس، وكان لكلامه صدى، خاصة أنه يمزج الدعوة للقومية العربية بمكافحة الاستبداد والظلم العثماني الذي عانى منه الجميع[١٦٩٤]، ولكن ظل تأثيره على أفراد معدودين من المصريين وليس جماعات.

وفي مرحلة تالية نشط الكلام عن القومية العربية في مصر بعد سيطرة الشوام على قطاع كبير من الصحف في مصر التي تنشر أفكارهم، ثم بدأوا في عمل التنظيمات مثل جمعية الشورى التي أنشأها شوام وروَّجت للقومية العربية في الفترة بين الحربين العالميتين[١٦٩٥].

أما من كان لا يستجيب لدعوتهم القومية العربية ويكشف زيفها فكانوا يطبقون عليه ما وَرد في دستور وميثاق "الحركة العربية السرية" من أنه عدو يجب شن الحرب عليه وهزيمته.

(١٦٩٢)- الحركة القومية العربية في القرن العشرين، هاني الهندي، مرجع سابق، ص ٣٠

(١٦٩٣)- المرجع السابق، ص ١٦٨

(١٦٩٤)- انظر نفس المرجع، ص ١٩٦- ١٩٧

(١٦٩٥)- انظر نفس المرجع، ص ٢١٤- ٢١٥

ففي الغزو العربي الأول حين كان المصريون يثورون على التواجد أو الظلم العربي في زمن الخلافتين الأموية والعباسية كان جيش الخليفة يرد عليهم بالسلاح، بالقتل والحرق والسبي، وذلك لأنه الأقوى حينذاك، أما لما تبدل الحال وصارت مصر هي الأقوى فلجأوا إلى غزوها بوسيلتين: الأولى هي التودد للمصريين للقبول بالقومية العربية، والثانية هي الإرهاب والاغتيال المعنوي بتهديد المصريين الرافضين لهذه الدعوة بأنهم عملاء للاحتلال وأعداء العرب وعنصريون ولو استطاعوا لاحقوهم في أرزاقهم أو هددوا حياتهم وشوهوا سمعتهم مثلما فعلوا مع طه حسين ولطفي السيد، فيما يشبه أسلوب اليهود في وصف من يرفضون تغلغلهم بأنهم "معادون للسامية" و"عنصريون".

ويشير لطفي السيد لمثال من مرحلة التودد حين كان التيار العروبي ما زال ضعيفا وليس له أنصار يُذكرون من المصريين في كتابه "قصة حياتي" أنه "في سنة ١٩١١ ظهرت لأول مرة بوادر ما يسمونه "البنارابيزم" أو الجامعة العربية، وفي هذا الحين وفد على مصر رجلان من أعيان الشام ولبنان، هما السيد شكري العسلي من دمشق والسيد ثابت من أعيان بيروت، والغرض هو ضم سورية إلى مصر ولقياني ضمن من لقيا من المشتغلين بالسياسة وأهل الرأي، ولم أكن متفقا معهما في هذا الرأي، لا لتعذر هذا الطلب فحسب، بل لأني لم أره في مصلحة مصر"، وحين لمسا رفضه هو وآخرين لطلبهما قالا: "مصر فيها مال وسوريا فيها رجال!"[١٦٩٦].

وهي عبارة تكشف عن نواياهم أن مصر بالنسبة لهم مصدر لنزح المال، وأنهم يعتبرون أن "الرجال" الذين لهم حق السيطرة في النهاية بعد التمكن من مصر هم السوريون، وأنهم امتداد لفكر العربان الذين نظروا للمصريين وهم ينهبونهم في الغارات على أنهم "ولدوا خصيصا لإنتاج طعام العربان"، وأنه "لا توجد مهنة أكثر نبلا من أن تعيش من خيرات الغير دون مشقة".

وبعد خذلان بريطانيا لـ "الثورة العربية الكبرى" ١٩١٦ زاد تودد القوميين العرب للمصريين بالتوجه لزعيم الثورة المصرية الصاعدة آنذاك، سعد زغلول، والمخترق الأعظم للساحة المصرية وقتها بالفكر العروبي- إلى جانب الشوام- هو عبد الرحمن عزام- مؤسس جامعة الدول العربية- الذي دعا سعد زغلول لإقامة وحدة بين مصر والبلاد العربية، ولكن سعد زغلول حدد هوية الثورة حين اتصل به بعض الساسة العرب وهو في باريس، وعرضوا عليه توحيد جهودهم ضد الاستعمار، فقال لهم سعد: إن قضيتنا مصرية وليست عربية"[١٦٩٧]".

ولنا أن نتخيل مصير ثورة ١٩١٩ إذا ما تشتت قادتها وانخرطوا في قضايا الصراعات الداخلية للشام والعراق، وتاهوا وسط تعدد ولاءات قيادات تلك الشعوب بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا والأتراك والعرب.

وانتبه كثير من المصريين وقتها لخطورة المستوطنين الوافدين الذين جاءوا لفرض هويتهم على مصر بدلا من أن يتبنوا هم هوية مصر مداموا اختاروا الاستيطان فيها، ولعلاقات بعضهم مع الاحتلال، ووصف

[١٦٩٦]- قصة حياتي، أحمد لطفي السيد، مرجع سابق، ص ٨٤
[١٦٩٧]- مصر في قصص كتابها المعاصرين، ج ٢، مرجع سابق، ص ٦٤٩

محمد جبريل في كتابه "مصر في قصص كتابها المعاصرين" المشاعر بين المصريين وتلك الجاليات وقتها بـ"العزلة"، قائلا إن "مبعث الإحساس بالعزلة بين الشعب المصري والجاليات العربية من سوريين ولبنانيين ومغاربة وتونسيين وغيرهم أنهم كانوا يتمتعون بالامتيازات نفسها التي كانت تتمتع بها الجاليات الأجنبية الأخرى، وأن تلك الامتيازات كانت هي الجرح الأكبر في جسد الشعب المصري".

وأضاف أنه للحق فإن احتلال العناصر الشامية مناصب الدولة شكل جزءا من الدافع الثوري عند المثقفين المصريين، ومع ذلك فإن الخلافات ثارت بين المثقفين المصريين والمثقفين من الشوام؛ لأن المصريين كانوا يستندون إلى عدالة قضيتهم الوطنية، وحق مصر في الاستقلال، بينما لاذ غالبية الشوام بسلطات الاحتلال كحليف في الصراع ضد الوطنيين، ولعلنا نذكر الدور الذي أداه أصحاب صحيفة المقطم (الشوام) في دعم الاحتلال، وهو دور لم يكن هينا على الإطلاق، وكانوا سببا في نفي عبد الله النديم للمرة الثانية[١٦٩٨].

كذلك تزايدت كراهية المصريين للشوام نتيجة للأرباح الطائلة التي حققها التجار الشوام بوسائل لم يراعوا فيها المصريين، ويستكمل جبريل رصده لتلك الفترة بأن الفلاح تعامل مع تجار ومرابين يتحدثون العربية، لكنهم يسلبونه حقوقه وأرضه وماله، ويستندون لجدار الامتيازات الأجنبية، وزاد من تلك الكراهية أن الشوام كانوا يحصلون على فرص أفضل في الوظائف الإدارية، وبلغ الأمر حد مهاجمة مصطفى كامل للشوام، ونعتهم بالدخلاء في مصر، وإن أعلن، فيما بعد، أنه كان يعني الشوام الموالين للاحتلال.

فرغم أن الشوام عددهم قليل في مصر، إلا أنهم كانوا الفئة الثانية من الأجانب بعد الأوروبيين التي أسبغ عليها الاحتلال البريطاني رعايته وامتيازاته، وقال كرومر عنهم "إن السوريين كانوا يحتلون إلى حد كبير في مصر المركز الذي يحتله اليهود في أوروبا"، و"في كل قرية من قرى مصر، لابد من وجود مرابي، وأن هذا المرابي إذا لم يكن يونانيا فهو سوري"، واعترف بأن الاحتلال أزاح المصريين المسيحيين من عمل الكتبة الذي كانوا متخصصين فيه من قبل في الحكومة، وأحلَّ محلهم السوريين بحجة أن النظام الحسابي للمصريين صارا "عتيقا وباليا"؛ ما "تسبب في قدر كبير من السخط والتذمر بين أفراد المجتمع القبطي"، وأنه في العموم "تنظر أغلبية السكان إلى السوريين نظرة كراهية واستياء"، خاصة وأن "المرابي السوري يشتهر بجشعه للربح وبقسوته، يزاد على ذلك أن ابتزاز المرابي السوري للأموال تسهل بفضل تقدم مسيرة الحضارة في مصر"[١٦٩٩].

كما عبر الشاعر حافظ إبراهيم في كتابه "ليالي سطيح" عن النظرة التي ينظر بها المصري إلى الشوام الطامعين في بلده: "إنني لا أكذب الله، لقد أكثرتم من التداخل في شئونهم فعز عليهم ذلك من أقرب الناس إليهم، نزلتم بلادهم فنزلتم رحبا، وتفيأتم ظلالها فأصبتم خطبا، ثم فتحتم لهم أبواب الصحافة فقالوا أهلا، وحللتم معهم في دور التجارة فقالوا سهلا، ولو أنكم وقفتم عند هذا الحد لرأيتم منهم ودا صحيحا وإخلاصا

[١٦٩٨]- مصر في قصص كتابها المعاصرين، ج٢، ص ٦٥٠

[١٦٩٩]- انظر تطور الحركة الوطنية في مصر (١٩١٨- ١٩٣٦)، عبد العظيم رمضان، مكتبة مدبولي، ط٢، ص ٧٤- ٧٦، و"مصر الحديثة"، كرومر، ج٢، المركز القومي للترجمة، ترجمة صبري محمد حسن، مرجع سابق، ص ٢٥٨، و٢٦٢- ٢٦٣

صريحا، ولكنكم تخطيتم ذلك إلى المناصب، فسددتم طريق الناشئين، وضيقتم نطاق الاستخدام على الطالبين[١٧٠٠]".

وقاد الكاتب سلامة موسى عام ١٩٣٠ حملة بعنوان ضد "النفوذ العربي في مصر" في الثلاثينات دعا فيها إلى أدب مصري يخاطب المصريين بلغتهم، ويحرك في نفوسهم الأماني المصرية.

وقال: "ولن ننتظر من الصحفي السوري أن يؤدي لنا هذا الواجب، بل هو لا يستطيعه لو أراده، لأن نفسه غير أنفسنا؛ فلسنا ننتظر من الجرائد والمجلات السورية أن تطالبنا بدرس الحضارة الفرعونية كما فعل الدكتور هيكل (محمد حسين هيكل)، وأن يثبت على هذه الدعوة، بينما المجلات السورية تتهمه بالإلحاد من أجلها، ولسنا ننتظر منها أن تدعونا إلى وطنية مصرية مقصورة على حدود مصر الجغرافية كما فعل الأستاذ لطفي السيد في "الجريدة" مع الإهانات المتكررة التي لقيها من العامة على ذلك، والخلاصة أن الصحيفة التي يقرأها المصري يجب أن تكون مصرية بالدم والروح والمزاج، لأنها مرآة نفسه في اليوم والغد، تمثل رجاءه في الاستقلال والحرية، وتنشد له أدبا مصريا يتفق ومزاجه ولغته وبيئته ومصريته".

وشاور سلامة موسى على رشيد رضا القادم من الشام ليهاجم المصريين الذين رفضوا فكرة "الجامعة الإسلامية"، ووصفهم بـ"العملاء للاحتلال"، فقال موسى عنه: "السوري القح الذي ليس في دمه قطرة واحدة من دماء المصريين"، وتساءل: "لماذا لا تكون بلاده الأصلية أولى منا بخدمته وحماسته، إن وطنه الأصلي قد يحترق بالاستعمار، وقد يعيش في فوضى وشقاق، لكنه لا يغار عليه، بل يغار على المصريين وهو ليس منهم".

وبالأسلوب نفسه قال عن السوري محب الدين الخطيب: "انزح إلى بلادك وهلم بغيرتك هذه للدفاع عن وطنك الأصلي"، وانتقد كذلك مصطفى صادق الرافعي مؤكدا خلو دمه من المصرية، فهو مصري الرعوية ولكنه سوري الأصل، ونصحه بالرحيل إلى وطن آبائه.

وعن الآفات والفتن التي صاحبت كثرة الشوام قال سلامة موسى: "وبعد، فنحن نقول لهؤلاء السوريين، سواء تمصروا أم لم يتمصروا، إنه لا يليق بهم أن يدخلوا بلادنا ويعيشوا بالإفساد والوقيعة بين أبنائها المسلمين والنصارى والشبان والشيوخ، وشبابنا لا يرغب في الفساد أو الكفر أو الشيوعية[١٧٠١]".

ورغم وعي هؤلاء الزعماء والمثقفين المصريين بخطر القومية العربية، إلا أنها وجدت لها سبيلا بين مثقفين مختلفين، مستغلة أجواء التعاطف مع ثورة عمر المختار ضد الإيطاليين في ليبيا، والثورة السورية ضد الفرنسيين، والثورة العراقية ضد الإنجليز، والقصص اللي تُحكى عن وحشية المحتلين وعن بطولات العرب، حتى جاءت قضية فلسطين لتجعل من التعاطف مع "العروبة" تيارا رئيسيا ضمن التيارات التي تتناطح في مصر وتتسابق على خطفها في الثلاثينات والأربعينات.

[١٧٠٠]- انظر مصر في قصص كتابها المعاصرين، ج ٢، ص ٦٥٠

[١٧٠١]- مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، ج ٢، ص ٦٥١

ولذا تعتبر الصهيونية ومشروع دولة إسرائيل "فاتحة خير" للقوميين العرب لاستخدام "قضية فلسطين" في شحن مشاعر المصريين للتحول عن هويتهم المصرية ومبادئ ثورة ١٩١٩ إلى الهوية العربية ومبادئ الحركة العربية السرية، مستغلين العامل الديني في القضية كالقدس والمسجد الأقصى، بالرغم من أن الحركة القومية العربية علمانية، لكن استخدمت النغمة الدينية للشحن على النمط المكيافيلي، وصنع فكرة أن إنقاذ فلسطين وتحرير كافة دول المنطقة من الاستعمار لن يكون إلا بالتكتل في "الوحدة العربية".

وفي هذا يقول محمد جابر الأنصاري في كتابه "تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ١٩٣٠-١٩٧٠": "لقد كانت فلسطين هي العامل الحاسم الذي حوَّل السياسيين المصريين نحو سياسة عربية شاملة"، وكان ثمرة ما سماه "تعريب مصر سياسيا" في الفترة من ١٩٣٠- ١٩٣٦[١٧٠٢].

وساهم التيار السلفي في جر مصر للتعريب بنشاط محموم، وسلاحه في هذا الجمعيات والإعلام، فقامت الصحف السلفية، خاصة التي أنشأها شوام سلفيين مثل رشيد رضا ومحب الدين الخطيب، بمهمة توجيه المصريين لقضايا خارجية، فأبرزت الحديث عن الثورة السورية في العشرينات ضد الفرنسيس وحق الشعب السوري في الاستقلال وجمعت التبرعات لمنكوبي الثورة[١٧٠٣]".

وازدحمت القاهرة بالمؤتمرات وراء المؤتمرات، والندوات وراء الندوات، والصحافة والصالونات المسيطر عليها من الشوام مشتعلة بالدعوة لمناصرة فلسطين والتوحد العربي ضد الاستعمار لإنقاذ فلسطين، وأن من يتهاون في ذلك أو يصر على مبدأ مصر للمصريين فهو "عميل للصهاينة".

وقام الفلسطيني محمد علي الطاهر بدور في شحن عواطف المصريين ناحية فلسطين بتأسيس جريدة "الشورى" و"الشباب" في القاهرة يتكلم فيهما عن التدمير والقتل الذي تمارسه العصابات الصهيونية ضد الفلسطينيين[١٧٠٤]؛ وترك هو فلسطين والجهاد فيها لكي يجاهد في مصر.

وفي ١٩٣٨ بدأت القاهرة استضافة مؤتمرات تأخذ صفة "عربية"، وهو أمر لم يكن مألوفا، فشهدت مؤتمرا برلمانيا للشعوب العربية، وفي نفس العام عقد المؤتمر النسائي العربي في القاهرة بدعوة من هدى شعراوي- رئيسة الاتحاد النسائي المصري- للنظر في تطورات أوضاع فلسطين، كما شاركت مصر مع العراق والسعودية واليمن وشرق الأردن في مؤتمر المائدة المستديرة الذي دعت إليه بريطانيا في ١٩٣٩ بلندن لدراسة القضية الفلسطينية، وهو أول مؤتمر تحضره مصر بصفة رسمية حول فلسطين[١٧٠٥].

وبالتزامن، ظهرت السينما والمسرح كسلاح هام في يد القوميين العرب والشوام الوافدين، ومن تأثر بهم فيما بعد من المصريين.

ففي الأربعينات ومطلع الخمسينات تم حشو الأفلام بأوبريتات وقصص بدوية وشامية ومغربية، تفوح

[١٧٠٢]- الحركة القومية العربية في القرن العشرين، مرجع سابق، ص ٤٢٥
[١٧٠٣]- انظر: نفس المرجع، ص ٤٢٧
[١٧٠٤]- انظر نفس المرجع، ص ٤٣٦
[١٧٠٥]- انظر نفس المرجع، ص ٤٤٠

منها أجواء الشام ولبنان والحجاز وبلاد المغرب، خاصة وأن كثيرا من منتجي الأفلام أو الممثلين والمطربين كانوا من هذه البلاد، مثل فريد الأطرش وأسمهان أصحاب الأوبريتات العربية والبدوية الشهيرة، وفجأة.. حولوا صورة الرجل البدوي بعقاله البدوي الذي يحمل ذكريات الأطماع والغارات والاعتداءات المرَّة في صدور المصريين إلى صورة الرجل البطل المغوار الذي يحمل كل صفات البطولة والحرية، ويلزم أن يقلده المصريون ويفخرون بأن يحملوا هويته.

وفي فيلم "غرام وانتقام" (إنتاج عام ١٩٤٤).. مشاهد لا تُنسى.. لأنها لم تكن عشوائية.

تعرض سهير (أسمهان) على جمال (يوسف وهبي) أن يضع موسيقى استعراض غنائي لحفل خيري.

المشهد:

سهير متحمسة: موضوع التابلوه جديد من نوعه، هيعجبك، سميته مصر الفرعونية.

جمال مبتسما: فكرة وجيهة يا هانم.. ولكن مش مبتكرة، لأنه غيرنا سبقنا فيها.

سهير: أومال تقترح إيه؟

جمال: اقترح تخليد مصر العربية، مصر الحديثة.

هكذا.. اعتبر واضع الفيلم أن الهوية المصرية الأصيلة "موضة قديمة"، ويلزم السير وراء "الموضة الجديدة" في ذلك الوقت، وهي القومية العربية، لنخلق "مصر الحديثة"، وكأن هويات الأوطان وفطرة الله في البشر تخضع لـ"الموضة" مثل تسريحة الشعر أو أنها تتبدل بمرور السنين.

وبالفعل، تم نقل الكاميرا إلى الشام لتصوير جزء من الفيلم هناك، في غير ضرورة درامية لذلك، وتغني سهير أغاني شامية وسط أجواء بدوية، وبعدها يلقي الدكتورة بشارة (بشارة واكيم) خطبة عصماء باللهجة الشامية ترحيبا بسهير، تقول:

"يا بنت مصر ولبنان يا نجمة الأمة العربية، خففتِ وجاع المرضان تحيا الشهامة المصرية، شامي فلسطيني وعراقي وابن البلاد النيلية، نسب صايرله زمان باقي ولاد عموم بالجنسية، وهلًّا بالفكر الراقي حتصيروا وحدة عربية".. وصفق الجميع منشكحين.

واللافت أن الفيلم من إنتاج ستديو مصر الذي أسسه طلعت حرب بروح ثورة ١٩١٩ ليجعل السينما مصرية وتخدم الهوية المصرية، وبطل الفيلم هو يوسف وهبي الذي سخَّر شبابه ليقدم مسرحا مصريا بعد أن كان الأوروبيون والشوام يسيطرون على هذا المجال، فكان هذا من علامات قوة تأثير القوميين العرب رغم قلة عددهم على المصريين.

وكما يقول المثل المصري الفصيح "الزن على الودان أمر من السحر"، فكثرة الأنشطة الثقافية والضغط

العاطفي الذي مارسه القوميون العرب الوافدون في مصر وربطهم للوحدة العربية بالتحرر من الاحتلال الأوروبي والقضاء على الصهيونية أفرز هذا التحول.

واشتهرت أوبريتات فريد الأطرش العروبية، وأهمها "بساط الريح" (فيلم آخر كدبة إنتاج عام ١٩٥٠)، الذي ينتقل من بلد إلى بلد في المنطقة يعرض مزاياها بلهجة أهلها وأزياءهم، سوريا ولبنان والعراق وتونس، ثم يحط رحاله في مصر.. ولم تكن هذه الجولة لتقريب تلك البلدان إلى المصريين عشوائية.

ولوحظ هذا أيضا في اختيار قصص أفلام اعتمدت على تسويق الأدب العربي وقصص شخصيات ليست مصرية، بل عربية لا تنتمي للمصريين دما ولا روحا ولا تاريخا، ولا تفيدهم في قضية التحرر من الاحتلال، ومن ذلك فيلم "سلاّمة" (١٩٤٥) من تأليف أحمد علي باكثير (يمني عاش في مصر) وتمثيل أم كلثوم، ويقوم على قصة جارية في الحجاز خلال العصر الأموي، وتدور المشاهد في أجواء وبلهجة لا تخص المصريين بصلة، وفيلم "رابحة" (١٩٤٥) تأليف بيرم التونسي وتمثيل كوكا ومحمد الكحلاوي، وفيلم "عنتر وعبلة" (١٩٤٥)، عن قبيلة بني عبس، بطولة سراج منير وكوكا، وفيلم "ليلى العامرية" (١٩٤٨) عن قصة قيس وليلى إنتاج الشركة السورية اللبنانية للسينما، وتمثيل يحيى شاهين وكوكا، وكوكا أخذت على عاتقها تقديم الأفلام باللهجة البدوية، وتقديم قصص وافدة من بطن جزيرة العرب.

وفي الأفلام التي تتحدث عن زواج مصريين ببنات البدو لابد أن يُظهروا المصرية في صورة تمثل العار والخلاعة، والبدوية في صورة الشريفة بنت الأشراف، تقف لتلقي على سمع المصرية عبارات لتعلمها الشرف والعفة، مثل فيلم "رابحة"، وفيلم ""طريق الشوك" (إنتاج ١٩٥٠) لحسين صدقي والمطربة التونسية حسيبة رشدي، ويقول الظابط مجدي (حسين صدقي) لبنت القبيلة: "إنتي عربية وفيكي شرف العرب، ومقامك غالي عندنا"، وفي ذات الفيلم قال لزوجته المصرية: "ياريت أخلاقك زي أخلاق بنات العرب"، ولم يقدم الفيلمان نموذجا لمصرية شريفة... والمثير للعجب أن الفتاتين العربيتين في الفيلمين ينتميان لقبيلتين ظهرتا تحترفان السلب والنهب والسطو على الغير، ورغم هذا قدمهم على أنهم "أشرف" من المصريين ونموذج يُحتذى.

إنه قاموس المسيخ الدجال.. تورط فيه مصريون متعلمون دون وعي، وسيكونون أدواته الطيعة لسنين طويلة.

فمنذ الثلاثينات استهدفت حملة تعريب مصر الأدب والسينما لتصل إلى كل مصري ولو في أقصى الريف، واشتد الزن في الأربعينات، ولم تكن قصص زواج المصريين بالبدو في أفلام مثل "رابحة" وغيرها سوى تزويج قسري لمصر بالقومية العربية.

ويشرح الكاتب المصري محمد جبريل في "مصر في قصص كتابها المعاصرين" كيف بعد أن نجح الشوام في إقناع بعض المثقفين المصريين بـ"القومية العربية" في الثلاثينات، ومنهم زعماء بحزب الوفد، بدأ سعي محموم لتعزيز ذلك في الصحف، وحتى السينما ليصل إلى كل الناس، ويضيف: "ولعل الأفلام المصرية

أسهمت في تعميق المعنى من خلال التكلم باللهجات العربية، وتقديم الرقصات والأغنيات العربية، والاستعراضات التي تؤكد عروبة المنطقة وتوافق ظروفها [١٧٠٦]".

وحشر اللغة والملابس والهوية البدوية والشامية صار من الأربعينات كأنه فريضة على الأفلام حتى لو لم تتناول قصة بدوية وشامية، مثلما نرى في فيلم "أنا قلبي دليلي" (إنتاج ١٩٤٧) بحشر أغنية شامية "يا بنت الإيه قتلتيني" للمطرب اللبناني محمد سلمان في الفيلم الذي يتكلم عن قصة مصرية صرفة، وحشر أغنية شامية للفنان السوري إلياس مؤدب في أوبريت "حبيبي المجهول" في فيلم "عنبر" (إنتاج ١٩٤٨)، وتخصيص أغنية وأوبريتان كاملان للأغاني والرقصات والملابس الشامية في فيلم "ليلة العيد" (إنتاج ١٩٤٩) منهم أوبريت اسمه "أنا قلبي جامعة دول عربية" لشادية وإلياس مؤدب يظهر فيه الزواج بين الشامي والمصرية، وانتهى بإزالة اسم "المصرية" لتصبح "العربية"، وهي إشارة واضحة المغزى.

وملاحظ أن منتج أو مخرج معظم هذه الأفلام أنور وجدي، وهم من أب سوري، ويظهر أنه بدل أن يستكمل تمصير نفسه في مصر راقت له فكرة تعريب أو سورنة مصر، وسخَّر فنه لتحقيقها.

ومن هذه الأفلام الكثير، ولم يكن لهذا تفسير إلا تقريب وتحبيب اللهجة والثقافة الشامية والبدوية للمصريين تمهيدا لقبول القومية العربية وتغيير جلدهم، ومحو الذكريات الكئيبة لمناظر غارات العربان على قراهم، وتسلط وتجبر الشوام والمغاربة على الفلاحين، أو تعاونهم مع المحتلين ضدهم، ولكي يفقدوا سلامة موسى ومن مثله حجتهم في الاختلافِ الثقافي واللغوي بين المصريين والشوام حين قال: ""هؤلاء وغيرهم من ذوي الأصل العربي هم في نظر الفلاحين المصريين أجانب بسحنتهم ولون بشرتهم ولهجتهم، ولو وقف الشيخ رشيد رضا أو محب الدين الخطيب بين جماعة من الفلاحين لما استطاع أحدهما أن يتفاهم وإياهم بكلام مفهوم"[١٧٠٧].

ووضع عبد الرحمن عزام- المتمسك بأصوله القبلية العربية- تبريرا لما وصفها بعروبة مصر يلوي به التاريخ فيقول: "قَبِل المصريون دين العرب، وعادات العرب، ولسان العرب، وحضارة العرب، وأصبحوا عربا في طليعة العرب[١٧٠٨]"، وتجاهل عزام أن قبول الدين لا علاقة له بالهوية الوطنية، فالدين المسيحي ليس دينا فلسطينيا أو آراميا لمجرد أنه نزل في فلسطين وبلغة أهلها، واليهودية ليست دينا مصريا لمجرد أنهم يقولون إن التوراة نزلت في مصر، ولا المصريين المسيحيين صاروا فلسطينيين لأن المسيحية نزلت في فلسطين، فكذلك الإسلام ليس دينا عربيا لمجرد أنه نزل في جزيرة العرب وبلغتهم، وليس المسلم بالضرورة يصبح عربيا لأنه قبل الإسلام أو تعلم اللغة العربية لأجل فهم القرآن.

ولم يُفهم أي "حضارة عربية" قبلها المصريون؟ فالعرب استفادوا من الحضارة المصرية أكثر بكثير فلماذا لم يصبحوا هم مصريون؟ واستفاد العرب من حضارة اليونان فلماذا لم يصبحوا يونانيون؟ والكثير

(١٧٠٦)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، ج ٢، مرجع سابق، ص ٦٧٠
(١٧٠٧)- انظر: نفس المرجع، ص ٦٥١
(١٧٠٨)- انظر: الحركة القومية العربية في القرن العشرين، مرجع سابق، ص ٤٣١

من العادات العربية التي دخلت مصر كانت تحت رعاية الاحتلال، أي مفروضة فرضا بواقع الاحتلال، فهل لأن الفرنسيين فرضوا لغتهم أو عاداتهم على الجزائر تكون الجزائر فرنسية؟

وزاد على ذلك بمغالطات علمية حين قال: "وإن أكثرية دماء المصريين ترجع إلى العرق العربي، وإن فردا واحدا من ٩٠% من سكان مصر لا يستطيع أن ينكر أن عروقه تجري فيها الدماء العربية".

وأي فحص في أوراق التاريخ يُظهر أن الفلاحين الذين تجري في عروقهم دماء وطين مصر دائما هم السواد الأعظم في بلادهم، بمتوسط ما بين ٨٥% على الأقل طوال أيام الاحتلالات وحتى الاحتلال الإنجليزي، كما رأينا في الفصول السابقة، بل وكان العرب أحرص ما يكون على قلة الزواج بالفلاحين، وفي الحالات التي حصل فيها زواج، فلماذا لا يقول إن العرب الذين استوطنوا مصر وتزوجوا من بناتها اختلطت دمائهم بالدماء المصرية فحقا عليهم أن يعتبروا أنفسهم مصريين هوية وثقافة؟ خاصة وأنهم هم الوافدون على مصر لا العكس، ولماذا المصريون فقط هم من وجب عليهم تغيير هويتهم وهم بداخل بلادهم ويصبحوا عربا لمجرد أن قلة منهم تزوجت بعرب وافدين؟ ولماذا لا يصبحون يونان أو أتراكا أو إنجليز بما أن قلة منهم أيضا تزوجت من هؤلاء؟ لماذا يغير ابن البلد هويته ولا يغيرها الوافد؟ أم هو قانون الاحتلال هو الذي ما زال يسري في عروق ودماء عبد الرحمن عزام؟

هو قانون المسيخ الدجال......

ولوحظ أن عبد الرحمن عزام سعى بكل قوته لإبعاد نفسه فعلا عن الدماء المصرية، فهو إضافة لأصوله القبلية العربية الوافدة حرص في زواجه على أن يتزوج مرتين من قبايل عربية تعيش في ليبيا ليخرج أبنائه أنقياء الدم العربي، وزاد على ذلك بأن كرَّس حياته لإيهام المصريين بأنهم ليسوا مصريين، وهو ما يضع حوله دائرة مليئة بعلامات الاستفهام.

فليس من الواضح مثلا أنه مادام عزام يعتز كل هذا الاعتزاز بعروبته القديمة، ولم يحب أن يكون مصريا، فلماذا عاش في مصر ولم يذهب للعيش في الحجاز ليكون عربيا خالصا دما وإقامة، لماذا يشد توب العروبة شدا من الحجاز وليبيا وإلباسه لمصر، أم أنه تعامل مع مصر كغنيمة حرب؟

واستدل آخرون على ما يصفونها بـ "عروبة مصر" بوجود قبايل عربية في مصر قبل وصول عمرو بن العاص استوطنت شرق الوجه القبلي أو حواف محافظة الشرقية أيام الاحتلال الروماني، ولكنهم لا يفسرون لماذا إذن لا نقول إن مصر يونانية أو رومانية لأن اليونان والرومان استوطنوها ألف سنة؟ واحتلوا مدنا أو قلب مدن كاملة، وأعدادهم كانت أضعاف عدد العرب؟ ولماذا لا نقول إن مصر يهودية واليهود استوطنوها أيضا في ظل ذلك الاحتلال مئات السنين؟ فمصر وقت الاحتلال اليوناني والروماني كانت تزخر- خاصة في المدن- بأعراق مستوطنة كثيرة، ولم يحق لواحدة منها أن تفرض جنسيتها وعرقها على مصر، والأولى أن من يستوطن مكانا هو الذي يصطبغ بهويته لا أن يصطبغ المكان بهويته الأجنبية فيرتكب عملية إبادة جماعية للشعب المصري كاملة الأركان، وتخالف فطرة الله في اختلاف هويات

الشعوب "وجعلكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" (الحجرات الآية ١٣)، وقال لتعارفوا، أي تعاونوا، لا ليمحي شعب شعبا آخر جسديا أو حضاريا لمجرد أنه احتله واستوطنه.

وبجانب سلاح تزوير التاريخ تفنن القوميون العرب أيضا في سلاح الترغيب، أقوى سلاح في السيطرة على المصريين، وإن لم يفلح هذا السلاح مع سعد زغلول لقوة شخصيته ومصريته، فإنه أفلح مع قيادات مصرية أخرى، فحين سافر مكرم عبيد، القيادي البارز بحزب الوفد، إلى الشام سنة ١٩٣١، التف حوله خطباء الشام في حفل تكريمي له، دعا فيه الزعيم السوري لطفي الحفار إلى زعامة مصر للبلاد العربية، ولكنه وضع شروطا، وهي أن "تكونوا معنا عربا لا شرقيين ولا فراعنة".

وكان رد عبيد صادما وسريعا لما قال: "إن المصريين عرب... وأقصد بقولي المصريين عرب هو هذه الوشائج وتلك الصلات التي لم تفصمها الحدود الجغرافية ولم تنل منها الأطماع السياسية منالا" [١٧٠٩].

فانجرَّ حزب الوفد وراء نغمة زعامة مصر للمنطقة العربية، رغم أن مصر لم تكن لتحتاج استيراد هوية عربية لتكون زعيمة، بل لأنها هي الزعيمة والرائدة تكالب عليها هؤلاء لتنضم إلى مشروعهم، ولم ينتبه إلى أنه حين رمى له الحفار طعم "زعامة مصر للعرب" بشرط تخليها عن "هويتها المصرية"، فهو في الحقيقة يجردها من زعامتها الفطرية، وأنه يجرها جرا لتكون مجرد "ولاية"، أو "محافظة"، في الدولة العربية الكبرى المنتظرة، والتي إن قامت فلن يُسمح للمصريين إلا أن يكونوا "فواعلية" لبقية الشعوب فيها.

وانضم لرفع لواء العروبة في مصر كذلك الأديب زكي مبارك والأديب أحمد حسن الزيات الذي عمل مدرسا فترة في العراق، وتأثر بالقوميين العرب الناشطون هناك في تجنيد الوافدين، فعاد "عروبيا".

وحين أحست القومية العربية بأنها وضعت لها قدما في مصر في الثلاثينات أخرجت من شنطتها سلاح الاغتيال المعنوي والإرهاب الذي تحدث عنه دستورها "الكتاب الأحمر"، فأمعن "القوميون العرب" الطعن في رافضيهم ومنهم طه حسين رغم أنه لم يدعي لقطيعة مع العرب، بل وهو وزير للمعارف قدم مساعدات لدول عربية مثل الكويت كإرسال معلمين على حساب الخزانة المصرية بعد أن رفض المعلمين الفلسطينيين التدريس هناك لضعف الأجر- قبل تدفق البترول- ورغم أنه عاشق للأدب العربي لدرجة أنه لا يتحدث إلا بالعربية الفصحى، ولكن جريمته عندهم أنه أراد الاحتفاظ لمصر بمصريتها وأن يكون ولاء المصري لمصر ولا يقبل احتلالها من عربي أو عجمي[١٧١٠].

وذلك أن طه حسين تحدث عن الظلم الذي عاناه المصريون من الاحتلال العربي ضمن غيره من الاحتلالات لما كتب في جريدة "كوكب الشرق" سنة ١٩٣٣ يقول: "إن المصريين قد خضعوا لضروب من البغض وألوان من العدوان جاءتهم من الفرس واليونان، وجاءتهم من العرب والترك والفرنسيين"[١٧١١].

[١٧٠٩]- مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، ج ٢، مرجع سابق، ص ٦٦٨
[١٧١٠]- السفير عاطف: الاستثمارات الكويتية في مصر تبلغ نحو ١٥ مليار دولار، موقع صحيفة الراي الكويتية، ٣٠- ٣- ٢٠١٦
[١٧١١]- الحركة القومية العربية في القرن العشرين، هاني الهندي، مرجع سابق، ص ٤٢٨

ورفض طه حسين شرخ الشخصية المصرية وجعلها مصرية وعربية في آن واحد فانتقد من انحرف من المصريين وسار وراء "القوميين العرب"، وقال عنهم تحت عنوان "المصرية والمجادلون": "زعموا أنهم قادرون على أن يكونوا مصريين محتفظين بمصريتهم، حريصين على شخصيتهم، وأن يكونوا عربا ينتمون إلى عدنان وقحطان، ويلجون في الفن بهذا النسب والحرص عليه والرغبة في مواطنه القديمة، أي أنهم قادرون على أن يكونوا مصريين وحجازيين أو يمنيين في وقت واحد، كأن الوطنية لعبة في أيديهم شديدة المرونة، يعطونها ما أحبوا من الصور، وما شاءوا من الأشكال، ولم أرَ عقولا بلغت من القدرة على التوفيق بين هذه النقائص كعقول أصحابنا هؤلاء الذين يريدون أن يحتفظوا بشخصية مصر والحجاز واليمن، أي يجعلوا الوطنية أمرا شائعا، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم وطنيون".

وبشكل أكثر جرأة يلمس طه حسين الجرح حين ينتقد من يتمسكون بأصول قبلية عربية ويسعون لفرضها على مصر: "ولو أنهم عقلوا ما يقولون وفهموا ما يذهبون إليه لقالوا غير خائفين ولا وجلين إنهم لا يزالون يعتبرون أنفسهم في مصر فاتحين يؤيدهم السيف، وتبصرهم السنان، جناية ليس أكبر منها، وذنب ليس أعظم منه خطرا على مصر، فإنهم يريدون بعد ثلاثة عشر قرنا مضت على الفتح أن يقسموا المصريين بعروبتهم الكاذبة إلى غالب ومغلوب، ومع أنهم يعلمون أن مزية الفتح والتغلب قد ذهبت من أيديهم منذ زمن بعيد إن صح أنهم من نسل الفاتحين حقا، وقد أصبحوا الآن مغلوبين قد فتحت عليهم بلادهم، وأصبحت حقوقهم السياسية العامة في أيدي غيرهم بحكم القوة والقانون والتاريخ معا.. إن الويل لمصر إذا لم تكن قد استطاعت أن تصبغ هؤلاء الفاتحين بصبغتها الخاصة في ثلاثة عشر قرنا من الزمان[١٧١٢]".

نعم الويل لمصر يا طه حسين.. الويل لها ممن لا يزالون يخدرونها ويضللونها بأن كل الهجرات والاحتلالات "ذابت" في مصر و"تمصرت"، وفي نفس الوقت يطالبون مصر بأن تلبس هي لبس وقناع الهويات والهجرات من كل صنف، والتي ادعوا أنها "تمصرت"، وعادوا اليوم لفتحها بهجرات جديدة تشتاق لعصور احتلالها لمصر..

شاهت وشوشنا.. توهنا بين شين وزين

ولسه ياما وياما ح نشوف كمان

وينفلت من بين إيدينا الزمان [١٧١٣]

وعلى إثر مقالة طه حسين الكاشفة للجرح وللأقنعة ولَّعت المعركة بين مصر والعروبيين، فاحتشد فريق للدفاع عن طه، وعلى رأسهم سلامة موسى، وفريق ضده وعلى رأسهم عبد الرحمن عزام[١٧١٤]، واستعمل العروبيون سلاح الإرهاب ضد المصريين، فنشرت صحيفة "المقطم" الشامية أن مقاطعة الكتب "ستتبع مع

(١٧١٢)- انظر: مصر في قصص كتابها المعاصرين، ج ٢، مرجع سابق، ص ٦٥٢
(١٧١٣)- أغنية مقدمة مسلسل أرابيسك، كلمات سيد حجاب، ألحان عمار الشريعي، غناء حسن فؤاد
(١٧١٤)- الحركة القومية العربية في القرن العشرين، مرجع سابق، ص ٤٢٨

كل كاتب مصري يطعن في القومية العربية ويشجع الروح الشعوبية[١٧١٥]".

وبالفعل، أحرقت "عصبة العمل القومي" كتب طه حسين في ميدان عام بالعاصمة السورية دمشق في ١٩٣٣، وتجرأت على الحضارة المصرية*** قائلة إن طه حسين "واحد من الذين يهونون أمر العرب، ويصغرون من شأنهم، ويرفعون الصوت بالدعوة التي يكرهونها مُرَّ الكراهية، ألا وهي الفرعونية[١٧١٦]".

فاتهموا طه حسين وغيره من مصريين بأنهم يصغرون من أمر العرب لمجرد اعتزازهم بمصريتهم، في حين لا يعتبر هؤلاء العروبيون خطتهم للسطو على مصر وكراهيتهم للقومية المصرية وحضارتها ومساعيهم للتصغير من شأنها مقابل تمجيد العرب والشوام تهمة أو جريمة.. ولماذا يا ترى يكرهون الدعوة للقومية المصرية "مُرَّ الكراهية" !

ويعد هذا تنفيذا حرفيا لما ورد في دستور "الحركة العربية السرية" (الكتاب الأحمر) عن أن كل من يرفض العروبة ويتمسك بهويته الوطنية يكون قد ارتكب "عملا من أعمال الحرب" ووجب معاقبته.

وبعد الاطمئنان لوجود مكان لهذا التيار في الحكومة وبين المثقفين بدأت مرحلة جديدة وهي تأسيس الجامعة العربية، وجاءت في وقت حرج لمصر، فالحكومة والأحزاب مطحونة في خلافاتها الداخلية مع بعضها أو مع الملك، فيما الشعب يطالبهم بالتوحد لإجبار بريطانيا على الجلاء، والبلد بحاجة إلى روح ثورة ١٩١٩، وجدان واحد وشعب واحد بشعار واحد تحت راية واحدة، لا أن يتم تقسيمه بين ألف راية.

وتجاهل عبد الرحمن عزام كل هذا، وطاف في رحلات مكوكية السعودية وبلدانا أخرى لإقناعهم بفكرة الجامعة، وتم توقيع ميثاقها فعلا في ٢٢ مارس ١٩٤٥، وقامت أول مؤسسة توصف مصر فيها بشكل "رسمي" بأنها عربية، لأول مرة في التاريخ المديد، ولتصبح مجبرة "بالقانون" على تشتيت جهودها في قضايا المنطقة في الوقت الذي تحدده الجامعة أو "الشعوب العربية".

وتيسر للقوميين العرب هذه الغنيمة على يد الملك فاروق، ففاروق فشل في أن يكون زعيما للمصريين، فلم يخرج منه موقف مشهود ضحى فيه لأجلهم، وانكسرت صورته بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذي تأكد فيه من جديد أن العيلة العلوية تدين بتوليها العرش للإنجليز، وبجانب فساده الشخصي كان دائم الصراع مع الوزارات، وخاصة وزارة حزب الوفد، فتاق للزعامة من باب آخر، وهو زعامة المنطقة وتبني قضية فلسطين، فساعد على إنشاء الجامعة العربية وتوريط الجيش في فخ ١٩٤٨.

وكان مثيرا للإشفاق أنه في حين انجرفت الحكومة في مصر لهذا التيار، كانت حكومات البلاد العربية الأصل حقا (السعودية) وحكومات البلاد التي خرجت منها دعوة القومية العربية (سوريا ولبنان والعراق) تتباعد عنه حين لم تجد نفسها ستكون زعيمة للعرب، حتى قال مصطفى النحاس إنه "أثناء المشاورات التي

(١٧١٥)- نفس المرجع، ص ٤٣١

*** الشعوبية أو الشعبوية مصطلح سياسي يستخدمه دعاة تكوين الإمبراطوريات أو الحكومات الإقليمية والعالمية لوصف وإرهاب المتمسكين بهوية شعوبهم وأوطانهم وبحدودها، والرافضين للتدخلات الأجنبية، مثلما يرهبونهم بمصطلح شوفينية.

(١٧١٦)- مصر في قصص كتابها المعاصرين، ج ٢، مرجع سابق، ص ٦٥٥

أجراها سنة ١٩٤٤ بخصوص الوحدة لم يجد حكومة عربية واحدة مستعدة للتنازل عن ذرة من سيادتها واستقلالها لجامعة الدول العربية التي يُراد إنشاؤها، أو لأية هيئة عربية سواها[١٧١٧]".

ومع ذلك لم تيأس التنظيمات والشخصيات العروبية، وظلت تضغط نفسيا لفرض هذا التيار وإقناع الحكومات به، لدرجة وصفوا من يتمسك بقوميته الوطنية كـ "المصرية" أو ما يطلق عليها "الفرعونية" في مصر، و"الفينيقية" في لبنان بأنه يأتي بـ "بدعة"، مع أن الهوية الوطنية- خاصة في مصر- هي الأصل طوال آلاف السنين، والقومية العربية هي الطارئة منذ وقت قريب.

ورغم تأسيس الجامعة العربية فإنها لم تحقق الأهداف المعلنة، فقد كان الاتفاق بين تنظيمات القومية العربية هو إقامة دولة عربية من الخليج للمحيط، في حين اختلفوا على الصيغة وآلية التنفيذ، هل تكون فيدرالية أم كونفيدرالية، ملكية أم جمهورية، علمانية أم دينية، رأسمالية أم اشتراكية، يمينية أم يسارية، وهل تتحالف مع الكتلة الشيوعية ولا الرأسمالية، وبسبب هذه الخلافات أصبح هدف حركة القومية العربية شعارا فارغا بدون مضمون، والأمل بالوحدة حلما متعذر التحقيق، بتعبير شفيق جحا[١٧١٨].

أما الخلاف الأكبر فكان سيظهر إذا ما وصلوا لخطوات ملموسة في طريقة "الوحدة"، ويخص من سيكون الحاكم، وأين ستقع العاصمة، هنا ستهوى كل الأعمدة التي أقاموها على الرمل، وتنهار أمام تفجر المطامع والجري وراء اصطياد الزعامة لشعوب كثير منها لم يتفق يوما على هدف واحد داخل حدود بلده، وهو ما رأيناه حين نسف السوريون تجربة الوحدة المشئومة مع مصر بعد أن كانوا هم أنفسهم دعاتها، وشنوا على مصر حربا بلا هوادة لأن عبد الناصر لم يسمح بأن تكون مصر خاضعة لهم.. فهل اختلقوا القومية العربية وحاربوا الحضارة المصرية، بل اسم مصر نفسه، لتكون مصر زعيمة لهم حقا كما خدعوا حزب الوفد وفاروق ثم عبد الناصر؟ يا تعس من لا يزال يرددها.

▼▼▼ غزو الإرساليات التبشيرية لمصر

يظن بعضنا أن الإرساليات التبشيرية تستهدف الإسلام بتحويل المسلمين إلى المسيحية، ولكن هذا ليس هدفهم الأول، خاصة في مصر.

فهدفهم الأول- المرتبط بمشروع السيطرة على العالم- هو تحويل المصريين المسيحيين من المذهب الأرثوذكسي (الذي يجعل الكنيسة المصرية هي مرجعيتهم الدينية الوحيدة) إلى المذهب الكاثوليكي (الذي يجعل كنيسة روما هي مرجعيتهم)، أو إلى المذهب البروتستانتي "الإنجيلي"[١٧١٩] (الذي يجعل الكنيسة الإنجليزية أو المشيخية الإنجيلية في الولايات المتحدة هي المرجعية)، وبذلك تكون مرجعية المصريين المسيحيين خارج بلدهم؛ مع ما لهذا من خطر حين تتدخل كنائس روما وبريطانيا وأمريكا في الأمور السياسية لصالح دولها ومشاريعها القديمة المتجددة.

[١٧١٧]- انظر: الحركة العربية السرية ١٩٣٥- ١٩٤٥ (جماعة الكتاب الأحمر)، شفيق جحا، مرجع سابق، ص ٣٢

[١٧١٨]- انظر نفس المرجع، ص ٣٣

(١٧١٩)- الجالية البريطانية في مصر (١٨٠٥- ١٨٨٢)، ناهد السيد علي زيان، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١، ص ٢٥٢

ونشط هذا الهدف خاصة بعد أن أظهرت الكنيسة المصرية (الأرثوذكسية) نفورا من حملات الفرنجة (الصليبية)، ولم تتعاون معها، وكانت تلك الحملات تحت رعاية كنيسة روما (الكاثوليكية).

■ (الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية/ كنيسة روما الفاتيكان)

سعت كنيسة روما لإخضاع كنيسة مصر، لتكون لها عونا وقت الحاجة تحت ستارة الاتحاد الديني والخلاص، بالإقناع والإغراء بعد أن فشلت في إخضاعها بالسيف، وحانت لها الفرصة حين صدرت الامتيازات الأجنبية في الاحتلال العثماني في القرن ١٦ التي منحت حماية وحصانة للتجار الروم بحجة تسهيل انتقالاتهم وحمايتهم من الاعتداءات، فبدأت كنيسة روما ترشق عيناها نحو مصر من جديد.

يقول الدكتور جيفري برون في مؤلفه "تاريخ أوروبا الحديث" إن كنيسة روما (الفاتيكان حاليا) في محاولة فرض نفسها على المسيحيين في العالم كانت "تعتمد على ما يُشاع [ويخالفها فيه الأرثوذكس] من أن المسيح أسند إلى بولس الرسول حكم مملكته من بعده، وبولس أحد حواريي المسيح، ويزعم بابا الفاتيكان أنه خليفته، وفي نفس الوقت قامت طوائف أخرى باسم الدين المسيحي ابتلعتها الكنيسة الكاثوليكية بسرعة، وأوقفت نموها، مدعية أنها هي المؤسسة الوحيدة التي لها السلطة على الناس، فقد منحها المسيح ورسوله من بعده هذه السلطة التي تمركزت في أيدي بطاركة روما الذين يعرفون بالباباوات، ومن الكفر أن يقوم لها منافس في أي من البقاع الأخرى ... ولا خلاص لهم إلا بطاعتها[١٧٢٠].

كما ابتدع بابا كنيسة روما جيلاسيوس الأول "نظرية السيفين" تتحدث عن وجود قوتين تتقاسمان العالم، السلطة السياسية (سلطة الإمبراطور)، والسلطة الدينية (سلطة البابا)، والثانية عنده أهم وأجَل من الأولى، فالملوك والأباطرة- حسب النظرية- هم أبناء الكنيسة، وعلى هذا فالعالم كله يجب إخضاعه للكنيسة[١٧٢١]، واللافت أنه نفس فكر تنظيم الإخوان المسلمين وبنفس الشعار "السيفين المتقاطعين".

ولتحقيق هذا الهدف التوسعي، وبعد فشل تحقيقه بالحروب المسماة بالصليبية، ظهر في أوروبا بعد القرن ١٣ تنظيمات تتبع كنيسة روما، هدفها الانتشار في العالم عبر العمل الخيري والثقافي، لتنشر الإيمان بحسب مذهبها، وللتخديم على الأهداف الاحتلالية لأوروبا، ومنها اليسوعيين والفرنسيسكان والدومنيكان، وبثتهم في العالم تحت اسم إرساليات تحمل للعالم الهداية والعمل الخيري والعلوم الحديثة.

وبحسب دراسة نشرتها مجلة "المشرق" في لبنان بعنوان "بعثتا اليسوعيين لدى أقباط مصر (١٥٦١-١٥٦٣ و١٥٨٢-١٥٨٥)، فإن اليسوعيين أرسلوا أولى بعثاتهم التبشيرية عام ١٥٦١، و ضمن أعضائها يوحنا المعمدان إليانو، كان يهوديا، لإقناع كنيسة مصر بالاتحاد مع كنيسة روما "الذي لا بد منه لنيل الخلاص الأبدي"، وباعتبار أن بابا روما هو "نائب المسيح حقا وخليفة القديس بولس"، وأنه المخول له

[١٧٢٠]- تاريخ أوروبا الحديث، جيفري برون، ترجمة علي المزروقي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، عمَّان، ٢٠٠٦، ص ٥٣

*** والبابا في عرف كنيسة روما هو نائب المسيح باعتباره خليفة بطرس، وهو معصوم لا يجوز نقده ولا مخالفته، ويشبه في هذا عقيدة الولي الفقيه عند الشيعة الذي يدعي أنه نائب المهدي المنتظر، ويمثل هذا الإدعاء حاليا المرشد الأعلى لإيران.

[١٧٢١]- نفس المرجع، ص ٥٩- ٦٠

قيادة الشعوب المسيحية والبت في أحكام الكتاب المقدس؛ ولذا وجب على الجميع "الخضوع" لكنيسة روما [١٧٢٢].

لكن تجرعوا الخيبة، فرغم استمرار البعثة ٧ شهور، وحسن الضيافة المصرية الذي أغرى اليسوعيين بأن رسالتهم ستلقى قبولا، إلا أنهم تلقوا رسائل من البابا المصري ملخصها "ليسوا مستعدين للاتحاد".

تحايلت كنيسة روما على استقطاب الكنيسة المصرية من باب آخر فعرضت على البابا أن يرسل الشبان إلى روما "ليحصلوا فيها على تربية وثقافة متينة"، فكانت ردود البابا "ما ألفناه"- بحسب تعبير الكاتب ليبوا اليسوعي- "الموافقة المبدئية وتأجيل التنفيذ لخوفه الشديد من غير المؤمنين".

ورغم ذلك قامت البعثة اليسوعية بجولة في الريف المصري، لتطّلع على أحواله، حتى إذا ما عجزت عن استمالة رأس الكنيسة، يمكن أن تستقطب أفرادا من المصريين المسيحيين إلى مذهب روما.

وكان لافتا أنه حين زارت البعثة دير الأنبا أنطونيوس- أقدم الأديرة المصرية قرب البحر الأحمر- تشاجر الرهبان والبعثة اليسوعية، وتبادلا السباب، "وأكد الأقباط أنهم سيحافظون على إيمان آبائهم بكامله، كما هو مدون في كتبهم، وأنهم لن يقدموا الخضوع لروما، مفضلين أن تُقطع رؤسهم على تغيير أي شيء في إيمانهم"، وردَّت الكنيسة هدايا بابا روما إليها، وهو ما ردت عليه البعثة في رسائلها بوصف الرهبان بأنهم في "ضلال هائل"، و"جهل مطبق"، ووصف كنيسة مصر بأنها "ناكرة للجميل"[١٧٢٣].

واستمرت البعثات تأتي بتشجيع من قنصل فرنسا في مصر، مارياني[١٧٢٤]، واستخدم القنصل نفوذه في الضغط على بابا مصر، وإن نجحت البعثة الثانية التي قادها أيضا يوحنا المعمدان إليانو في استمالة بعض الأشخاص للكاثوليكية، ولكنها انتهت بالفشل في إقناع الكنيسة المصرية بالتوقيع على وثائق الخضوع للكنيسة روما التي تحملها في جعبتها.

بحث اليسوعيون عما يصفونها بـ"التناقضات" في عقيدة الكنيسة المصرية ليقنعوها بتركها و"الخضوع" لروما، غير أنهم اكتشفوا أن هذا الاتجاه العدائي تسبب في نفور المصريين منهم، فلجأوا إلى الأسلوب الأنجح مع مصر، وهو الدحلبة والتسلل والتودد، بالتركيز على أوجه الشبه بين الكنيسة المصرية وكنيسة روما، وأوجه الالتقاء بينهما، ليكون ذلك تبريرا أكبر للاتحاد أو "الخضوع[١٧٢٥]".

وجاء حكم محمد علي كفرصة من ذهب لكنيسة روما، خاصة بعد استعانته بعدد كبير من الفرنسيس والأوروبيين والأرمن في مشروعاته، وبنوا مدارس وكنائس كاثوليك لهم بحجة حاجة أبناء العاملين لها.

وإضافة إلى البعثات القادمة رأسا من أوروبا، توافدت بعثات متمثلة في الشوام خريجي المدارس التبشيرية

(١٧٢٢)- "بعثتا اليسوعيين لدى أقباط مصر (١٥٦١- ١٥٦٣و ١٥٨٢-١٥٨٥)، شارل ليبوا اليسوعي، مجلة "المشرق"، العدد ١، ١ يناير ١٩٩١، ص ٩٣

(١٧٢٣)- انظر المرجع السابق، ص ٩٤- ١٠٧

(١٧٢٤)- منذ حملات الفرنجة (الصليبيين) لم تتوقف مساعي فرنسا- التي تزعمت تلك الحملات- لوضع موطأ قدم لها في مصر وراء أي ستار.

(١٧٢٥)- انظر: المرجع السابق، ص ١٠٦

اليسوعية في الشام، ليكونوا لهذه الإرساليات عونا، وكانت الإرساليات اليسوعية وصلت لبنان قبل أن تصل إلى مصر بـ ١٠٠ سنة، واستهدفت الطائفة المارونية لتوثيق علاقتها بكنيسة روما، وبفرنسا، وحسَّنت من مستوى تعليم ومعيشة المارون مقارنة ببقية السكان، واقتنص الملك الفرنسي لويس الرابع عشر من السلطان العثماني الموافقة على وضع المارون تحت حماية فرنسا، ومنحهم الامتيازات الأجنبية كنوع من الاحتلال المعنوي الذي ساعدها على احتلالها العسكري الرسمي للبنان وسوريا في القرن ٢٠، وتصف ليلى الصباغ في كتابها "الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر" هذه الإرساليات بأنها الطلائع الأولى للاستعمار الحديث على الأرض العربية، لأن تلك الإرساليات مصحوبة بجاليات أوروبية كونت مستوطنات ونفوذا اقتصاديا، وتوغلت في أسرار البلاد، فكانت مراكز الغزو الأولى التي استقبلت الجيوش الأوروبية لاحتلال سوريا ولبنان[١٧٢٦].

وبالقياس فهذا ما خططت له في مصر، أن يتحول المصريون المسيحيون- أو أجانب مجنسين بالجنسية المصرية- إلى "مسمار جحا" لأوروبا في مصر، وسنارة الاحتلال.

ولينتشروا في مصر اعتمدوا ٤ وسائل: اللغة الفرنسية + الكنيسة + المدرسة + المستشفى، ينشرون هذه الرباعية أينما حلوا لاستقطاب المسلم والمسيحي بوجه "تنويري وإنساني وخيري"، حتى وصلوا الوجه القبلي مثل المنيا وأسيوط، وأبرز مدارسهم الفرنسيسكان والفرير والجزويت وسان جوزيف والراعي الصالح والقلب المقدس[١٧٢٧]، ولاستقطاب الناس حتى من غير المتعلمين أنشأوا المستوصفات، كالمستشفى الإيطالي واليوناني، والملاجئ لتربية أيتام يخرجون منتمين لهم، وأظهروا للناس معاملة راقية وحانية جدا. ، وبالتدريج أخذوا لهم مكانا في مصر وقدموا أنفسهم على أنهم "طائفة" لها حقوق وواجبات؛ ما ساهم في تشريخ الجسد المصري وإدخاله في فخ الطوائف وتعدد الانتماءات الذي لا يليق به.

■ (الإرساليات البروتستانتية/ كنيسة إنجلترا والمشيخة الأمريكية)

كما أن وجود الليبرالية الرأسمالية لازم لتبرير وجود الشيوعية بحجة محاربة الرأسمالية المتوحشة، ووجود الشيوعية لازم لتبرير وجود الليبرالية بحجة محاربة الديكتاتورية، ووجود تنظيمات "الإخوان المسلمين" والسلفية والليبرالية لازم لتبرير وجود القومية العربية بحجة محاربة الدولة الدينية والإمبريالية، ووجود القومية العربية والإرساليات المسيحية لازم لتبرير وجود التنظيمات الإسلامية بحجة محاربة أعداء الإسلام، ووجود كل هؤلاء لازم لتبرير وجود المحافل الماسونية والليبرالية بحجة محاربة التعصب الديني والقومي، وهكذا، كل تيار يلزم وجود نقيض له لتبرير وجوده، كذلك فداخل التيار الواحد يوجود تيارات نقيضة لبعضها لزيادة تبرير وجوده، فمثلا بجانب الإرساليات الكاثوليكية توجد الإرساليات البروتستانتية المنافسة، وهكذا تتحول مصر من مصر الواحدة إلى أرض المتناقضات والممالك التي تمسك في خناق ورقاب بعضها بعضا بعد حين، ويكونون ثعابين عبّ (أبو فيس) التي تعطل مركب رع السايرة.

[١٧٢٦]- انظر: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ليلى الصباغ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩، ص ٧٨٩ و ٩٠٩- ٩١٠

[١٧٢٧]- انظر: الجالية الفرنسية في مصر (١٨٨٢-١٩٥٦)، نوريس سيف الدين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ص ٢٤- ٢٦

فبعد الكاثوليك جاء البروتستانت، وهم طائفة مستحدثة، ظهرت في القرن ١٦ بأوروبا حين انشقت جماعة بقيادة مارتن لوثر عن كنيسة روما، ويعني اسمهم "المحتجون"، واشتهروا باسم "الإنجيليين"، وكنائسها الرئيسية في إنجلترا والولايات المتحدة، وهدفه التحرر من التقاليد الكنسية، وآمنوا بالمسيح فقط، ورفضوا تبجيل القديسين، وتركوا لكل شخص أن يفسر الكتاب المقدس حسب رأيه الخاص، وفي كل مكان يذهبون إليه يميلون إلى دعم الحركات الاحتجاجية والتمرد على أي سلطة دينية أو سياسية ، خاصة لو كانت وطنية أو منافسة لهم.

وحتى منتصف القرن ١٩ اقتصر وجود هذا المذهب في مصر على التابعين للقنصليات الأجنبية، ولكن في سنة ١٨٥٠ استصدروا قرارا [illegible] أي فرمان عثمانلي، بأنهم أقلية مسيحية في مصر ومن حقهم أن يعقدوا اجتماعات في [illegible] مصر.

والاحتلال البريطاني ١٨٨٢ هو فرصتهم الذهبية للانتشار في ربوع مصر وبناء كنائس لهم لأن بريطانيا بروتستانتية [illegible] الذين استقدمهم الاحتلال [illegible] بمشاريعه في مصر والاستقواء بهم ضد [illegible]بين، وجاء أكثر البروتستانت من إنجلترا والولايات المتحدة والشام، وأظهروا اهتماما شديدا بالنظافة والأناقة، وتعلموا الطريقة المصرية في الكلام؛ ليسهل عليهم الوصول للناس بسرعة في القرى والنجوع.

ومن عوامل انتشارهم أنهم [illegible] الذاهب، وأخذوا امتيازا غريبا وهو إعفاء المصريين الملتحقين بهم من العمل الشاق الذي يُخصص له المصريين [illegible] الحديد والطرق والإعفاء من الالتحاق بالجيش، فجذبوا إليهم مسلمين ومسيحيين.

ورغم هذه الإغراءات، فإنهم مثل الكاثوليك، وجد البروتستانت معارضة قوية من الكنيسة المصرية، فلما حاولوا "إخضاع" البابا كيرلس الخامس وطلبوا منه الالتحاق بحماية ملك بريطانيا، سألهم "هل يموت ملككم؟ فقالوا: نعم، فقال لهم: "إننا تحت حماية ملك لا يموت"، وأيده الخديوي إسماعيل في صموده[١٧٢٨] بعد اشتداد خلافه مع بريطانيا.

وقابل البروتستانت ذلك باتهام المصريين بـ"التعصب"، ورهبان دير وادي النطرون بـ"الجهل"[١٧٢٩]، مثلما فعل الكاثوليك سابقا حين رفضت كنيسة مصر "الخضوع" لبابا روما، فرغم أنهم جاءوا يبشرون بما يسمونه الإخاء والتسامح، إلا أنهم يشترطون لوصف الناس بالتسامح والتنوير أن يلتحقوا بهم، أو يتركوهم يتوغلوا في البلد، فإن رفضوا صار الرافض "متعصبا وجاهلا وعنصريا".. قاموس المسيخ الدجال.

وفي هذه النقطة تجلى الهدف الحقيقي للإرساليات التبشيرية، وهو إلحاق المصريين بالتبعية لأوروبا وتفتيت وحدتهم من باب الدين، فعاطفة التبعية الدينية تجلب ورائها تبعية سياسية، وتكسر مقاومة المصريين

(١٧٢٨)- انظر: الجالية البريطانية في مصر (١٨٠٥- ١٨٨٢)، ناهد السيد علي زيان، مرجع سابق، ص ٢٦٠

(١٧٢٩)- انظر: نفس المرجع

للمحتل الأوروبي أو الأمريكي لو كان الكنيسة الأجنبية التابعين لها تؤيدهم.

ويُلاحظ أن الإرساليات البروتستانتية قامت في مصر بنفس الدور الذي قامت به من قبل في الشام، وهو المساهمة في إضعاف اللغة الأصلية للبلد، فكما نشرت اللغة العربية في كنائس الشام بدلا من السريانية، كذلك فعلت في مصر بتشجيع إلقاء العظات في الكنايس بالعربية أو بالمصرية الدارجة بدلا من اللغة المصرية القديمة (القبطية)، وحكى القمص بولس جورج في سلسلة مقالات على موقع "الأنبا تكلا هيمانوت" عن تاريخ الإرساليات التبشيرية أنهم يلقون العظة بأسلوب مؤثر وعاطفي جدا، وباللغة المصرية الدارجة، فكانوا يصلون إلى الناس أسرع من الكاهن الأرثوذكسي المصري، لأن الكنايس المصرية وقتها كانت ما تزال تلقي العظات بالقبطية(١٧٣٠).

وإلى جانب الإرساليات التي تستهدف المصريين كثرت الكنايس التابعة لليونانيين والأرمن؛ ما يتيح الفرصة لحكومات أجنبية للتدخل في مصر من بوابة حماية الكنايس التابعة لجالياتها و"الأقليات"(١٧٣١).

وفي النهاية...

يقول أتباع الحكومة الإسلامية العالمية إن الأرض حق للإسلاميين فحلال لهم كيفما شاءوا

ويقول أتباع الشيوعية العالمية إن الأرض حق للعمال "البروليتاريا"، فحلال لهم كيفما شاءوا

ويقول أتباع الصهيونية العالمية إن الأرض حق لليهود فحلال لهم كيفما شاءوا

ويقول أتباع تنظيم الناريين إن الأرض حق للشيطان فحلال لأتباعه كيفما شاءوا

ويقول صناع القومية العربية إن الأرض حق للقوميين العرب فحلال لهم كيفما شاءوا

ويقول أتباع فكر كنيسة أوروبا "الإمبراطوري" إن الأرض حق لأتباع المسيح فحلال لهم كيفما شاءوا

ويقول أتباع حكومة الشيعة العالمية (فارس) إن الأرض حق لشيعة آل البيت، فحلال لهم كيفما شاءوا

وكلهم دينهم الحقيقي أنه (لا وطن، لا حدود، لا حقوق أصيلة لأصحاب بلد في بلدهم، الغاية تبرر الوسيلة)، فملأوا العالم حروبا وأطماعا وفقرا وصراخا وأشلاء ودماء وصليل سيوف وزلزلات قنابل.. وقهقهات الشيطان.

وتقول مصر على لسان ماعت إن كل وطن أحق بأهله، ولا اعتداء إلا على من اعتدى، وليتفرغ كل

(١٧٣٠)- تاريخ دخول الطوائف (الكاثوليك والبروتستانت) في مصر وهدفها، القمص بولس جورج ، موقع الأنبا تكلاهيمانوت)

(١٧٣١)- مع احترام أن يعتقد الإنسان فيما يشاء، إلا أنه يبقى أن المعتقدات التي تربط الشخص بروابط خارجية، وتجعل مرجعيته الأولى في تسيير أمور حياته وما يترتب عليها من علاقته بوطنه موجودة في الخارج، في الفاتيكان أو كنيسة إنجلترا وأمريكا مثلا، يبقى خطرا على الأمن القومي، مثل خطورة فكر تنظيم الإخوان المسلمين والشيوعيين والماسون والطرق الصوفية والشيعة.

أهل بلد لحماية وعمار بلدهم وهويتهم، لا يمدون عيونهم لأوطان غيرهم، ولا يفرض غريب هويته على بلد غيره، ولتتقدس الحدود، ولتتعارف البلاد والشعوب، ولتتعاون على البر والتقوى؛ فتتراجع الحروب، وتعمر البلاد، وتهدأ الإنسانية المضللة.

مصر (كيمة).. كلمة الحق المجسدة على الأرض.

والحق يلزمه قوة وعي تحميه، ويشير لها أحمد لطفي السيد حين دعا المصريين للعروة الوثقى "سما تاوي"[١٧٣٢] التي تحميهم من مشاريع الإمبراطوريات الاحتلالية بكل أنواعها:

"إن الوطن ورباط الأرض فقط يجب أن يكونا أساس كل الجهود السياسية والفكرية، فآلاف السنين من عبق التاريخ المصري القديم مزجت مع أحداث التاريخ المصري الحديث لتكون شخصية مصر الفريدة"[١٧٣٣].

❷❶ فتح باب "الجهاد" التطوعي برّة لأول مرة (الخروج الأسود)

بناء على ما سبق من تمييع القومية المصرية وربط المتعلمين المصريين بمشاريع إمبراطورية خارجية، ظهرت- لأول مرة- في تاريخ مصر ظاهرة "الجهاد والتطوع في الخارج".

فطوال الاحتلالات كان خروج المصريين من بلدهم للعمل أو للحرب في الخارج يتم بقوة الاحتلال نفسه الذي يشفطهم إلى عاصمته لبنائها وتحديثها، وكما أجبرت الأسرة العلوية والسلطنة العثمانلية المصريين على الحرب لصالح طموحاتهم التوسعية في السودان والحبشة والقرم والشام.

ولكن بداية من القرن ٢٠، وبتأثير الاحتلال الجالياتي الاستيطاني، بدأت ظاهرة لها بصماتها الخطيرة على مستقبل مصر، وهي سفر المصريين إلى الخارج للعمل أو القتال، بإرادتهم، وبدت ظاهرة أن مصري "يتطوع" من نفسه في كتائب أو ما يسمى مقاومة شعبية لصالح شعوب أخرى مريبة، خاصة وأنها كانت بذرة تكوين التنظيمات الإرهابية في وقت لاحق.

بدأ "الخروج الأسود" سنة ١٩١١- ١٩١٢ قبل الحرب العالمية الأولى عندما شكَّل عبد العزيز زكي علي (الشهير بعزيز المصري) متطوعين مصريين ليحاربوا مع السنوسيين الليبيين لصالح تركيا ضد الاحتلال الإيطالي لأسباب دينية.

ولعزيز المصري تركيبة غريبة، فهو شركسي ولد في القاهرة، تخرج من الأكاديمية العسكرية العثمانية بتركيا، وشارك في حروب لدعم الجيش العثماني في ليبيا إلى جانب السنوسيين ١٩١٢ حتى انقلب عليه

[١٧٣٢]- سماتاوي كلمة مصرية مكونة من "سما" أو صما أي يوحد و"تاوي" أي الوجهين القبلي والبحري، فمعناها "توحيد الوجهين"، وهي شعيرة تُقام في الاحتفالات القومية المصرية، بأن يقوم اثنان يمثلان حور وست بالربط بين اللوتس (علامة على الوجه القبلي) والبردي (علامة على الوجه البحري) بإحكام، كنوع من الاحتفال بوحدانية الأمة المصرية، وتذكيرا بقصة أوزير وست التي انتهت إلى تسليم مصر بحكم مركزي قوي وروح واحدة إلى يد قائدها حور، وهي تعبر عن وحدانية روحية أكثر منها أرضية، فلولا وحدانية الروح المصرية لما تحققت وحدانية أرضها آلاف السنين.

[١٧٣٣]- أحمد لطفي السيد، معاركه السياسية والاجتماعية، عواطف سراج الدين، نهضة مصر، ط١، القاهرة، ٢٠١١

السنوسيون أو انقلب هو عليهم وقاتلوا بعضهم البعض، وفرَّ للأستانة وسماه الأتراك هناك (قاهرة لي عزيز علي) أي (عزيز علي المصري) ، وشارك مع كمال أتاتورك وجمعية الاتحاد والترقي في عزل عبد الحميد الثاني ١٩٠٨، وأصبح ولائه مزدوج للعرب والترك وأن تقوم دولة يشارك الترك والعرب في حكمها معا، وعندما بدت كراهية أتاتورك للعرب وحكم عليه الترك بالإعدام نادى بدولة عربية مستقلة وأسس جمعية سرية عسكرية اسمها "العهد" ١٩١٣، وشارك مع دعاة القومية العربية مثل العراقي نوري السعيد في تشكيل حركات لاختراق الحكومات المناهضة للقومية العربية، وتحالف مع الإنجليز- رغم احتلالهم لمصر- حين شارك في الثورة العربية التي نشبت في الحجاز والشام ١٩١٦ ضد الحكم التركي حتى انقلب على قائد الثورة حسين الهاشمي أو انقلب حسين عليه وحكم عليه بالإعدام[١٧٣٤]، وهكذا حياته تحالفات وانقلابات لا يحكمها ولاء واضح.

أما مصر التي ينتسب إليها بالاسم فكانت آخر ما يشغل اهتمامه طوال شبابه، رغم ما كانت تقاسيه من الاحتلال البريطاني، بل كان حريصا على نزح أبنائها في حروب تطوعية بالخارج.

وحين ضاق به الترك والعرب لم يجد له مأوى إلا مصر، فعاد لها من مغامراته، وتزوج أمريكية، وتولى في الثلاثينات منصبا خطيرا هو مفتش عام الجيش المصري في وزارة علي ماهر رغم أنه خريج كلية عسكرية أجنبية ولم يعمل في الجيش المصري من قبل، وكما جاء في رسالة السفير البريطاني في مصر مايلز لامبسون إلى حكومته عن تقييم الموقف آنذاك في البلد فقد تسبب هذا التعيين في تذمر داخل الجيش، لأن عزيز المصري ليس من رجاله[١٧٣٥].

وصار من أكبر دعاة تيار القومية العربية، حتى أغوى ضباط في الجيش المصري لدعم ثورة رشيد الكيلاني في العراق ١٩٤١ وأن يُهربوه بطائرة تبع الجيش إلى العراق ليشارك فيها، ولما فشل في الهرب ساهم في تدريب المقاومة الشعبية ضد الإنجليز في القناة ١٩٥٠- ١٩٥١، ودعم فكرة التخلص من الاحتلال الإنجليزي والعائلة الحاكمة[١٧٣٦] بعد أن أصبح مواليا لألمانيا ويدعم غزوها لمصر بحجة تحريرها من الإنجليز، واخترق الجيش المصري ليقنع ضباطه بالولاء لألمانيا بزعم أنها المساعد الأكبر في التخلص من الإنجليز- حلفائه السابقين- أي يحبب الضباط في فكرة الترحيب بغزو أجنبي، ورغم مشاركته في إسقاط الخلافة العثمانية لكنه صار مقربا من تنظيم "الإخوان المسلمين".

فهو تركيبة شاذة مشتتة الانتماءات كثيرة الانقلابات مجهولة الأهداف، وتسبب في تشتيت عقل مصر في أحوالها الداخلية وعلاقاتها الخارجية، واللافت أن يُطلق عليه الأب الروحي لحركة الضباط الأحرار، ويُمجد في كل كتاب، رغم أنه لم يساهم في عمل يخص مصر إلا في نهاية رحلته، وليس لأجل مصر نفسها بل لصالح حلفائه من ألمان وقوميين عرب يسعون لـ"النط" مكان الإنجليز، وأيضا ساهم في تشتيت مسيرة الضباط، فبعد أن كانت قضيتهم مصر فقط، أدخل فيهم فكرة القومية العربية، وبعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢،

[١٧٣٤]- انظر: موسوعة هذا الرجل من مصر، لمعي المطيعي، دار الشروق، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٣٤٠- ٣٤٨
[١٧٣٥]- انظر: مصر والحرب العالمية الثانية، محمد جمال الدين المسدي، يونان لبيب رزق، عبد العظيم رمضان، مرجع سابق، ص ٦٩
[١٧٣٦]- للمزيد: مقال "عزيز المصري سندباد العسكرية الأب الروحي للضباط الأحرار"، حمد أبو العينين، صحيفة الأهرام، ٥- ٤- ٢٠١٣

ورغم إكرام الثورة له، إلا أنه دعَّم ضدهم الضابط الإخواني عبد المنعم عبد الرءوف لما طردته الثورة من الجيش لأنه من كوادر "الإخوان المسلمين" قائلا للكاتب لمعي المطيعي إن "شخصا واحدا يحوز تقديره وإعجابه" من الضباط الأحرار هو عبد المنعم عبد الرءوف وليس جمال عبد الناصر كما يُشاع(١٧٣٧).

عاش شعلة نار هدفها إيقاد الثورات والحروب في أي مكان، لا يعرف العيش بعيدا عن صوت الرصاص وريحة الدماء، لا وطن له، بلده هي الحرب أو الثورة والتنظيمات المسلحة، فأينما كانت الحرب- عادلة أو غير عادلة- فهناك بلده.. فالصح أن يسموه عزيز الشركسي أو عزيز زكي (اسمه الحقيقي) وليس عزيز المصري، فمصر ليست عنده إلا محطة من محطات، أو عزيز الألماني لأنه لم تتوثق علاقة له بأحد مثلما توثقت بالألمان الذين أرسلوه للعمل وسط معظم الأحداث.

وتوأمه في هذا التشتيت لوجدان ودماء وثروات المصريين عبد الرحمن عزام، ساهم بقوة في دفع المصريين للحرب في الخارج لصالح غيرهم، فشارك مثل عزيز الشركسي في الحرب لدعم السنوسيين وتركيا في ليبيا، وساعد الليبيين مع محمد صالح حرب والليبي أحمد الشريف السنوسي لاحتلال الواحات المصرية بحجة اتخاذها قاعدة لمهاجمة الإيطاليين، فسلَّم أرض البلد لأجانب، ودون تنسيق مع الحكومة القائمة.

ومحمد صالح حرب كان حينها قائدا في الجيش المصري، ورغم جريمته هذه تولى منصب وزير الحربية سنة ١٩٣٩ ثم رئيسا لجمعية الشبان المسلمين، فتلميذا للإخواني حسن البنا.

كما ذهب عبد الرحمن عزام ليحارب مع تركيا في حرب البلقان ١٩١٤، وعندما عاد انضم لحزب الوفد- بأسلوب الاختراق- وآل على نفسه نشر فكر الخلافة الإسلامية والعروبة في صفوف الحزب الذي قام أساسا لإحياء القومية المصرية، وواضح أنه نجح في تغيير ميول مصطفى النحاس ومكرم عبيد اللذين تبنيا معه فكرة إقامة الجامعة العربية و"تعريب" مصر سياسيا وثقافيا.

وعمل على "شعشعة" تولي الخلافة الإسلامية في عقل أسرة محمد علي، وذكر عزام في مذكراته أنه أرسل لفؤاد وهو ما زال أميرا بأن يكون ملكا على ألبانيا، وأن ١٠٠ ألف مسلم في ألبانيا يؤيدون أي أمير مسلم من أسرة محمد علي، ودعمت إيطاليا الفكرة التي فشلت بتدخل النمسا(١٧٣٨)، وبعد سقوط السلطنة العثمانية ١٩٢٣ تطلع فؤاد إلى أن تكون مصر مقرا للخلافة، وانعقد مؤتمر إسلامي بالقاهرة للترويج للفكرة ولكنه فشل لخلافات الجنسيات الوافدة من بلاد أخرى حول حقيقة الخلافة ومن يكون خليفة(١٧٣٩).

وأكمل عزام مهمته هذه مع فاروق وهو يغريه بأن يكون خليفة للمسلمين وزعيما للعرب؛ ما دفعه للموافقة على إنشاء الجامعة العربية على حساب الهوية المصرية- كمرحلة إلى الخلافة- وتحويل جزء من ميزانية مصر للجامعة ولفلسطين، وتوريط رجالها لينزفوا الدم في فخ حرب ١٩٤٨.

(١٧٣٧)- راجع حديث المطيعي عن حواره مع عزيز زكي (عزيز المصري) في "هذا الرجل من مصر"، مرجع سابق، ص ٣٤٠- ٣٤١
(١٧٣٨)- المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، نخبة من أساتذة التاريخ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٤٦٨
(١٧٣٩)- انظر: نفس المرجع، ص ٤٩١- ٤٩٢

وقبل الحرب العالمية الثانية أقنع بالاشتراك مع عزيز الشركسي رئيس الوزراء علي ماهر بتأسيس كيان مسلح شعبي خارج نطاق الجيش باسم "الجيش المرابط" بحجة مقاومة الإنجليز، واتضح فيما بعد أنه أراد بهذا الكيان إحياء فكرة الجهاد الشعبي للتطوع في الخارج، وأنه استغل هؤلاء المقاتلين للتغرير بهم في فلسطين عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨ على غرار الكتائب التي أسسها في نفس الوقت تنظيم "الإخوان المسلمين" الذي يلتقي معه عزام في حلم الحكومة الإسلامية العالمية.

وسخَّر لهذا الهدف كتابه "الرسالة الخالدة" الذي كال فيه المديح للاحتلال العثمانلي ووصفه بـ"الرحيم العادل"، وأشاد بالعرب الذين "أخلصوا للعثمانيين" أكثر مما أخلصوا لأهلهم العرب، ومجَّد الحروب التوسعية وامتلاك العالم بحجة رد البشرية إلى الحق ونصرة المظلوم، وغلفها باسم "الإخوة الإنسانية"، وحارب الوطنية قائلا إنها "شر" و"سبب الاضطراب العالمي"[١٧٤٠]، داعيا لتشكيل هيئة تمهد للنظام العالمي الجديد وإعلان الحكومة العالمية الواحدة التي تقدم لها كل الشعوب الولاء[١٧٤١]، وما هذا إلا ترجمة لمشروع تنظيم الناريين ولكن بلون إسلامي، كما أن الصهيونية ترجمة له بلون يهودي، والإرساليات التبشيرية ترجمة له بلون مسيحي.

ولو قرأ أحد كتاب الرسائل لحسن البنا وكتاب الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عزام لأحس أن من كتبهما شخص واحد، حتى تحتار هل البنا هو أستاذ عزام أم عزام هو أستاذ البنا، فهما نفس الأسلوب والأفكار، يصبغ معظم حديثه بأدلة عن الرحمة ومحاسن الأخلاق في الإسلام بطريقة تدغدغ المشاعر، ويفخخ هذه الرسائل بالهدف الحقيقي وهو جر المسلمين وراء فكرة الحكومة الإسلامية العالمية على أنقاض الأوطان وعلى حساب غير المسلمين من أبناء الأوطان، وشعارهما السيف لمن عارض إقامتها.

وتولى عبد الرحمن عزام مناصب حساسة في الدولة كوزارتي الأوقاف ومسئول بدرجة وزير في الخارجية، استغلها في شحن موارد مصر لمناصرة القضية الفلسطينية والقومية العربية ونشط في هذا أكثر لما بات أول أمين عام للجامعة العربية ١٩٤٥.

وانطلاقا من إيمانه بالخلافة الإسلامية لم يقصر عمل الجامعة على العرب، بل شحن مصر والجامعة العربية لتقدم التبرعات والمتطوعين لدعم أندونيسيا في كفاحها ضد الاحتلال الهولندي، وذلك في الوقت الذي لم يكن كثيرا من الحكام والمثقفين يعرفون أين تقع أندونيسيا على الخريطة أصلا.

ولذا لم يكن غريبا أن يسير حفيده أيمن الظواهري، زعيم تنظيم "القاعدة" الإرهابي، وحفيدته مها عزام المنتمية لجماعة "الإخوان المسلمين" في طريق شحن الشباب المصري لعمل مليشيات إرهابية في الداخل والقتال باسم الجهاد في الخارج بحجة مناصرة قضايا المسلمين والخلافة الإسلامية، فذلك هو الطريق الذي صنعه جدهما جنبا إلى جنب مع عزيز الشركسي وشوام مهاجرين لمصر.

[١٧٤٠]- الوطنية الحقة لم تكن أبدا سببا لاضطراب العالم، فهي تدعو إلى أن يحمي الشعب بلده من المعتدين، وألا يعتدي على بلد لم يسبق أن اعتدى عليه، فلو التزمت الشعوب بهذا لما حصلت الحروب، وإنما الحروب تتفجر حين تطمع الشعوب في بلاد غيرها كي تقيم إمبراطورية تعلي بها عرقها أو دينها على بقية الشعوب، وتتوسع لتحكم العالم، فلم يعرف العالم عدوا كمشاريع الإمبراطوريات العالمية بأي شكل كانت.

[١٧٤١]- انظر: الرسالة الخالدة، عبد الرحمن عزام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ص ٣٤ و٩١- ١٠٠، و١٥٣، و٢٠٥- ٢٠٨

ولما أقنع عزام الحكومة وفاروق بحدف المصريين، سواء من الجيش أو المتطوعين، بلا رحمة لفخ حرب ١٩٤٨ بحجة الدفاع عن العروبة والإسلام، كان يعلم فرق التسليح وعدم التدريب وما عليه الجيش المصري من إهمال من جانب الإنجليز والملك على حد سواء، ووقع خلاف في البداية بينه وبين النقراشي باشا وإسماعيل صدقي حول الحرب، ولكن أسلحته السحرية وغفلة المصريين مكنته من هدفه.

فهكذا كان عبد الرحمن عزام وعزيز الشركسي (عزيز المصري)، لا ينتميان لمصر لا بالدم ولا بالولاء، وسخرا نفسيهما لنزع الحرية والعزة والاستقلال من نفوس المصريين ليزرعا بدلا منهم مشاعر الخنوع والخضوع والولاء لغيرهم سوا للعرب أو للترك أو الأوروبيين، أو أيا من كان، المهم ألا يكون مصريا !

❸❶ استمرار التحقير المتعمد للمصريين

ولا يعيش الهكسوس- بشرا أو فكرا كالتيارات السابقة- إلا إذا ماتت الروح والشخصية الوطنية ليفسحوا لنفسهم مكانا في البلد، وعلى هذا لاحظنا أن كل تيار هكسوسي مما سبق يحقر الوطنية والقومية المصرية ويعتبرها نوعا من العنصرية المكروهة أو من التخلف وضيق الأفق، أو حتى من الكفر.

أما فيما يخص هكسوس البشر فيقول الصحفي الأمريكي " ويلتون واين"- عاش في مصر آواخر الاحتلال الإنجليزي- في سرده للمزايا التي تمرغ فيها الأجانب في مصر حينها واستغلالهم هذا في كسر خواطر المصريين: "كانوا يعيشون فَي مصر في مستوى من اليسر والأناقة لم يكن يستطيع أن يعيش فيه من الغرب إلا أغنى الأغنياء، مثل هؤلاء الأجانب لم يكونوا يحترمون المصريين ولا الثقافة المصرية، وقليل منهم تعلم اللغة العربية، أما النساء فقد تعلمن منها ما يكفيهن لتوبيخ أحد الخدم، وأما الرجال فلكي يشتموا سائق سيارة، ولكن كان من النادر أن تجد مقيما أجنبيا يتعلم قراءة اللغة العربية الصعبة أو التكلم بها إلى درجة التحدث على مستوى مقبول. كان مجتمعهم يعتبر اللغة العربية لسانا خاما مبتذلا لا يصلح إلا كلغة شارع وبين طبقة الخدم"[١٧٤٢].

وظلت كلمة "ابن الأصول"، و"ابن عائلة عريقة"، و"ابن الأكابر"، و"ابن الذوات"، و"ابن ناس"، شبه محتكرة على الأجنبي من أي جنسية كان- ولو كان في بلده لا يساوى منديلا متسخا ملقى على الرصيف- وسليل العبيد والمرتزقة والمحتلين والعائلات المستوطنة التي لم تتمصر إلا في شهادة الجنسية، وحرَّموا هذه الكلمة على المصريين الذين ظلوا يحصرونهم في كلمة "فلاح" و"الشعبي" و"ابن البلد" و"الخدام"، مهما وصل بعضهم لمناصب، رغم أن الحقيقة أن "ابن الأصول" و"ابن العائلات العريقة الأصول" هو ابن الأرض، الموصولة عروقه بأعمق أعماقها، مهما كان فقيرا، لا يحمل لونا ولا هوية إلا لون وهوية الأرض التي يعيش عليها، وليس الدخيل أو المتمسك بلون أراضي أجنبية، ورغم أن "ابن الأكابر" هو ابن من يحافظون على استقلال هذه الأرض وحريتها من الدخلاء ليظل كل أهلها أكابر بالنسبة للأجانب، وليس

(١٧٤٢)- عبد الناصر.. قصة البحث عن الكرامة، ويلتون واين، مكتبة مدبولي، ط ١، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٢٠

الأجنبي الذي اغتصبها بالغزو أو البلطجة أو النصب أو الامتيازات الأجنبية، ورغم أن "ابن الناس" هو ابن الناس الكرام الذين احتفظوا بأحلى ما في "الناس" وهو عدم العدوان على غيرهم وعدم إذلال من لم يعتدِ عليهم، وليس الأجانب الذي انحدروا من مستوى "الناس" إلى مستوى الشياطين بالعدوان على أراضي غيرهم وإذلال أهلها المسالمين.

فظلت المعايير "مقلوبة"، خاضعة للتزوير، مثلما قال "إيبو ور" منذ ٤٥٠٠ سنة متحسرا على حال المصريين بعد تمكن المستوطنين الأجانب من بلدهم نهاية الأسرة ٦: "تخربت الأقاليم، وتوافدت قبائل قواسة غريبة إلى مصر، ومنذ أن وصلوا لم يستقر المصريون في أي مكان (...) وأصبح الأجانب مصريين في كل مكان... وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا أغرابا وأهملوا جانبا[١٧٤٣]".

ووصل الأمر لمنتهاه، يواصل "إيبو ور" مدهوشا ملتاعا: "لقد تجاسر بعض الخوارج فحرموا البلاد الملكية (الحكم المركزي).. انظر! إن سر الأرض (مصر) الذي لا يعرف أحد حدوده قد أفشي، وأصبح مقر الملك رأسا على عقب.. انظر! إن مصر قد أصبحت تصب الماء [لغيرها][١٧٤٤]".

انظر! إن مصر قد أصبحت تصب الماء لغيرها.. !

❹❶ توزيع أرض مصر على المحتلين والمستوطنين (بالتمليك/ الرهن/ التجنيس)

في تمثيلية "فكرة خاطئة" حسنين (محمود عبد الغفار) يشكر صاحبه جلال (صلاح قابيل) أنه وفر له عمل في تجارته، فيقول له: "لولاك كان زماني لسة بشتغل بكيلتين درة في السنة" و "بشتغل بلقمتي".

وفي فيلم "الحرام"، يقضي الفلاحون ستات ورجالة يومهم في الغيط منكبين على وجههم في العمل الشاق، تنزل على ظهورهم عصاية الخولي إذا حاول أحدهم أن يرتاح قليلا، وفي وقت الأكل يفرد الشغيلة مناديلهم لتكشف عن كسرة خبز جافة وبصلة يلتهمونها لتقوي بدنهم النحيل، وفي نهاية اليوم تنضم أيديهم "المشققة" على ملاليم قليلة يفرحون بها ليسدوا جوع من ينتظرونهم في البيت[١٧٤٥].

هذه الكلمات والمشاهد تمر على ملايين المتفرجين دون أن يدركوا معناها، ومرارتها، وبعضنا يظنها مبالغات، أو من زمن قديم جدا، ولا يدرك ظلت لزمن قريب جدا إلا من نشأ في قرية حكى له أهلها ما كان فيها، أو من قرأ جيدا عن توزيعة أرض مصر في أيام الاحتلال.

ترسخ الحال في توزيعة الأراضي على ما تابعناه في زمن الاحتلال العلوي بين (العيلة الأرناؤوطية الحاكمة، والموظفين الكبار شراكسة وأتراك وأرمن ويونان وشوام ويهود وأوروبيين وغيرهم، وشيوخ البدو، وندرة من المصريين)، أما بعد دخول شريك جديد في نزع الثروة وهو الاحتلال الإنجليزي فقد

[١٧٤٣]- الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، عبد العزيز صالح، مرجع سابق، ص ٣٦٠

[١٧٤٤]- موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، مرجع سابق، ص ٣٠٩

[١٧٤٥]- مسلسل "فكرة خاطئة" قصة رسمي فارس، إخراج أحمد صلاح الدين، بطولة صلاح قابيل ومحمود عبد الغفار، وفيلم "الحرام" قصة يوسف إدريس، إخراج هنري بركات، بطولة فاتن حمامة

تضخم نصيب الأوروبيين ورعاياهم في كعكة الأرض.

يقول ألبرت فارمان عن الحال بعد مرور ٢٥ سنة من الاحتلال الإنجليزي: "أما الأراضي فيمتلكها الأجانب بسرعة، وقد أصبحت بعض الشركات الإنجليزية وبعض الأفراد ملاكا لمساحات كبيرة من الأرض، ولكن بصرف النظر عمن يمتلك التربة، سواء كان أوروبيا أو تركيا أو من الأهالي، فإن حالة هؤلاء الذين يعزقونها، ويحفرون القناة ويطهرونها، ويقيمون الجسور على النيل، ويقومون بالجزء الأكبر من العمل الذي يتطلبه الري، لن يتغير من الناحية المادية[١٧٤٦]".

وبسبب تدفق الجاليات الأجنبية على مصر، وفتح باب بيع أراضي مصر واسعا وبشكل متسارع غير مسبوق للأجانب ارتفعت أسعارها لأرقام خيالية، وبالتالي صار الأمر أصعب بالنسبة للمصري الساعي لأن يشتري هو أيضا قطعة أرض أو بيت.

وسمح القانون حينها بنزع ملكية الأرض من الفلاح، ولو كانت فدانا واحدا، لو عجز عن تسديد ديون الربا، فتسبب هذا في زيادة ضم الأوروبيين واليونان والشوام واليهود العاملين في الربا والرهونات لمزيد من الأملاك المصرية، يضمونها بشغف إلى صدورهم غنيمة جديدة من أرض مصر، فيما يتحول مالك الأرض المصري إلى مستأجر لها أو أجيرا.

وتخفف هذا سنة ١٩١٣ حين أصدر المعتمد البريطاني كيتشنر ما عُرف باسم "قانون الخمس فدادين" الذي يُحرم نزع ملكية أقل من ٥ أفدنةً بسبب الديون؛ ما حفظ الفرصة لبعض المصريين ليكونوا من مُلاك الأرض.. ولكن لماذا اختار القانون ٥ أفدنة فقط، في حين سمح بنزع ملكية ما فوق ذلك؟

رمت سياسة الاحتلال إلى خلق طبقة من صغار الملاك المصريين يستفيد منها؛ لأن وجودها يجعلها صمام أمان يمنع حدوث ثورات على الاحتلال، لأنها وإن كانت فقيرة لكنها ليست معدمة[١٧٤٧]، كما أن بقاء مال في يدها يتسبب في زيادة استهلاك الخدمات والسلع التي تصدرها أوروبا لمصر، وفي نفس الوقت تظل طبقة غير مؤثرة في النفوذ لأنها تسيطر على القليل من الأرض.

وبعد أن كانت أراضي الدولة هي الأراضي الزراعية والبور، أصبح خلال ١٠٠ سنة من حكم أسرة محمد علي ثم الاحتلال الإنجليزي معظم الأرض الزراعية مملوكة لعدد محدود من الأفراد، ومعظم أملاك الدولة من الأراضي البور.

وتقسمت الملكيات الزراعية إلى ٣ فئات، كبار الملاك وهم من معهم ٥٠ فدانا فما فوق (حتى عشرات الآلاف من الأفدنة)، وتصنيف آخر جعلهم من يملكون ١٠٠ فدان فأكثر [وهي نفس العائلات الوافدة في معظمها التي أثرت وتملكت الأراضي بقوانين مخصوصة وإنعامات أيام محمد علي وإسماعيل]، ومتوسطي الملاك وهم من معهم من ٥- ٥٠ فدان، وصغار الملاك وهم من معهم أقل من ٥ فدادين، وهم أغلبية

[١٧٤٦]- مصر وكيف غُدر بها، ألبرت فارمان، مرجع سابق، ص ٦٦

[١٧٤٧]- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، د.سامي عزيز، ص ٢٣٦

الملاك، أما أغلبية أهل الريف فمن مستأجري الأراضي والعاملين بأجرة من عمال التراحيل، أي لا يملكون قيراطا ولا سهما[١٧٤٨].

وفي تقرير لجنة الشئون المالية بمجلس النواب عام ١٩٤٥، ونشرته جريدة أخبار اليوم ٧- ٧- ١٩٤٥جاء أن الملكيات الكبيرة تستغرق ربع المساحة المنزرعة، وبلغ عدد المعدمين ١١ مليون نسمة من بين ١٧ مليون نسمة (الإحصاء التقريبي لسكان مصر عام ١٩٤٥)[١٧٤٩].

وأوردت مصلحة الإحصاء الجدول التالي عن توزيعة ملكية الأراضي الزراعية لحد ديسمبر ١٩٤٦[١٧٥٠].

بيان ملكية الأراضى بالمملكة المصرية موزعة على الملاك
لغاية ديسمبر سنة ١٩٤٦

فئـــات المـلاك	مجموع ملكية كل فئة بالفدان	عـــدد المـلاك
لغاية نصف فدان	٣٩٧,١٨٥	١,٣٨٢,٦٣١
أكثر من نصف فدان لغاية فدان	٣٥٥,٧٦٧	٤٩٢,٠٨٤
أكثر من فدان لغاية فدانين	٤٩١,٠٢٨	٢٣٦,٣٥٦
أكثر من فدانين لغاية ٣ أفدنة	٣٨٩,٤٥٨	١٧٣,٥٢٨
أكثر من ٣ أفدنة لغاية ٤ أفدنة	١٦٣,٤٦٧	٤٩,٣٠٧
أكثر من ٤ أفدنة لغاية ٥ أفدنة	١٨٢,١٣٣	٣٩,٩٧٠
أكثر من ٥ أفدنة لغاية ١٠ أفدنة	٥٦٤,١٤٣	٨٣,٤٠٣
أكثر من ١٠ أفدنة لغاية ١٥ فدانا	٣٣٠,٢٥٣	٢٧,٣١٩
أكثر من ١٥ فدانا لغاية ٢٠ فدانا	٢٤٠,٨٤١	١٤,١٥٧
أكثر من ٢٠ فدانا لغاية ٣٠ فدانا	٢٩٠,٩٦٥	١١,٩١٩
أكثر من ٣٠ فدانا لغاية ٥٠ فدانا	٣٥٧,٠٦٣	٩,٢٠٠
أكثر من ٥٠ فدانا لغاية ١٠٠ فدان	٤٦٦,٤٥٦	٦,٨٥٨
أكثر من ١٠٠ فدان لغاية ٢٠٠ فدان	٤٤٣,٩٨٨	٣,١٧١
أكثر من ٢٠٠ فدان لغاية ٤٠٠ فدان	٣١٧,٥٧٥	١,١٠٢
أكثر من ٤٠٠ فدان لغاية ٦٠٠ فدان	٢٣٧,٣٨٧	٤٦٢
أكثر من ٦٠٠ فدان لغاية ٨٠٠ فدان	١١٧,٤٦٧	١٧٧
أكثر من ٨٠٠ فدان لغاية ١٠٠٠ فدان	٩١,٣٣١	١٠١
أكثر من ١٠٠٠ فدان لغاية ١٥٠٠ فدان	١٩٤,٧٦٨	١٦٦
أكثر من ١٥٠٠ فدان لغاية ٢٠٠٠ فدان	٦٨,٧٠٧	٣٩
أكثر من ٢٠٠٠ فدان	٢٠٢,٨٨١	٤٢
مجموع التوزيع	٥,٩٠٣,١٤٣	٢,٦٣٦,٠٩٦

وفيه يتضح بأرقام تقريبية أنه حتى قبل ٦ سنين من قيام ثورة ١٩٥٢ فإن من يتملكون أراضي زراعية في

(١٧٤٨)- للمزيد عن توزيعة الأراضي ونزع الملكية من الفلاحين انظر: تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤- ١٩٥٢)، فاطمة علم الدين عبد الواحد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٨، وكبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري (١٩١٤- ١٩٥٢)، عاصم الدسوقي، مرجع سابق، ص ٢٨-٢٩

(١٧٤٩)- تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤- ١٩٥٢)، مرجع سابق، ص ١٣

(١٧٥٠)- بيان عن مصلحة الإحصاء نشره عبد الرحمن الرافعي المؤرخ وعضو مجلس الشيوخ قبل ثورة ٢٣ يوليو في كتابه "في أعقاب الثورة المصرية ثورة ١٩١٩"، ج٢، دار المعارف، ط٣، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٣٦٩ وأول طبعة له صدرت ١٩٤٩.

مصر وقتها هم أكثر بقليل من ٢ مليون و٦٠٠ ألف من إجمالي عدد السكان حينها البالغ ١٧ مليونا، أي أن ١٥% فقط من السكان يملكون أراضي، ومعظم هؤلاء الملاك يملك الواحد منهم أقل من فدان واحد، بما يساوي ١٢% من الأراضي، فيما تملك فئة قليلة جدا معظم الأراضي، ومنهم ٤٢ شخصا الواحد منهم يملك أكثر من ألفين فدان.

فمن يملكون نصف فدان فأقل حوالي مليون و ٤٠٠ ألف، ومن يملكون من نصف فدان إلى فدانين حوالي نصف مليون شخص، وهذه مساحة لا تكفي صحابها المعيشة طوال العام، ويلجأ معظم أصحابها وأولادهم للعمل في أرض الغير بالأجرة أو لأي عمل آخر للوفاء بالحاجات الأساسية للعيشة.

ومن يملكون ما بين ٣- ٥ أفدنة- وهو أقل معدل مناسب لسد الاحتياجات الأساسية طوال العام- يبلغ حوالي ٢٦٣ ألف، ومن يملكون ما بين ٥ أفدنة إلى٥٠ فدان حوالي ١٤٥ ألفا.

أما من يملك الواحد منهم ملكيات كبيرة بين ٥٠ فدان و٤٠٠ فدان فهم ١١ ألف شخص فقط، ومن يملك الواحد منهم ملكيات أكبر ما بين ٤٠٠ إلى ألف فدان فهم ٧٠٠ شخص فقط، أما من يملك الواحد منهم ملكيات مهولة وهي من ألف إلى ألفين فدان فهم ٢٠٥ شخص فقط، ومن يملك الواحد منهم ملكيات فوق العقل وهي أكثر من ألفين فدان فهم ٤٢ شخصا يتحكمون في الأرض ومن عليها وفي سياسة البلد كلها.

وبذلك يكون من يملكون ٥٠ فدان فما فوق أقل من نصف % من الملاك، و٠٧, %من إجمال السكان.

ومن يملكون ٤٠٠ فدان فما فوق ٠٣,% من مجموع الملاك، و٠٠٥,% من عدد السكان ككل، وهما ما يصطدم بكل مقاييس العقل، فالفروق بين الناس والفقر والغنى موجود وفطرة من الله في كل زمان ومكان، ولكن أن تكون الفروق بهذا الشكل وكأنها الفرق بين السماء السابعة والأرض السابعة فيعبر عن منتهى الظلم، خاصة وأن معظم هذه الأراضي وصلت إلى أصحابها- ومعظمهم دخلاء- بطرق غير شرعية هضمت حقوق بقية أهل البلاد، وبقوانين وتسهيلات من الاحتلال، وهو ما تابعناه في كيفية حصول كبار المتملكين على تلك الأراضي بالنهب أو كهبات يغدقها الحاكم على نفسه وأفراد عائلته وكبار الموظفين والأجانب، أو أخذها بالامتيازات الأجنبية، أو عبر استنزاف الفلاحين بالروهونات والقروض، أو بنظام العهدة والوسية، أو ببلطجة السلاح مثل قبائل العربان، أو بتسهيلات في البيع والشراء تتوفر لأفراد العائلة الحاكمة وكبار الموظفين والأجانب دون بقية الناس.

وحيلة أخرى للاستحواذ على أراضي الدولة ابتدعها المستثمرون الأجانب، وهي إقناع الحكومة بعدم جدوى أن تكون الدولة مالكا للأرض، وأنه الأفضل بيع أراضي الدولة جميعها للأفراد يستثمرونها فيما تتفرغ الدولة لشئون أخرى، حتى باعت الحكومة لهم حوالي نصف مليون فدان في الفترة من ١٩١٤- ١٩٤٩، خاصة في البحيرة والغربية والشرقية، وقع أغلبها في يد كبار المتملكين، خاصة وأن بعضهم كان مشاركا أساسا في السلطة بصفة وزير أو مدير مديرية أو نواب بالبرلمان، كما سعوا للإلغاء مصلحة

الأملاك الأميرية، أي لإلغاء أن تملك الدولة أراضي من أساسه، ولكن لم يفلحوا في ذلك بشكل كامل[١٧٥١].

وظل الحاكم الأرناؤوطي وعائلته المتملك الأكبر للأرض في مصر حتى سنة ١٩٥٢، سوا عبر ما ورثه من الحاكم السابق، أو بالسطو والتحايل، إضافة لما استحدثه عباس الثاني من حصيلة بيع النياشين والألقاب (الباشا والبك)، واستصلاح أراضي جديدة على نفقة أجهزة الدولة، وهذا بخلاف المرتب السنوي والمخصصات الملكية.

فالملك فؤاد تسلم الحكم في ١٩١٧ وبحوزته ٨٠٠ فدان وتضاعفت بسرعة نفخ البالونة إلى ٢٨ ألف فدان حتى سنة وفاته ١٩٣٦، وتضاعفت هذه الأرض بأسلوب نفخ البالونة السريع أيضا إلى حوالي ٤٩ ألف فدان في يد فاروق وأمه وإخوته الخمسة، أي أضافوا ٢١ ألف فدان على ما ورثوه من أبيه خلال ١٦ سنة فقط[١٧٥٢]، هذا بخلاف المجوهرات والأموال المكدسة في البنوك داخل وخارج مصر والأوقاف إلخ، وبخلاف ما تملكه بقية فروع عائلة محمد علي من آلاف الأفدنة الأخرى.

♦♦♦ ظهور مبادرات للإصلاح الزراعي

أدى تدهور مستوى ميعشة السكان في الريف وزيادة عدد المعدمين والعاطلين والسخط المنتشر ضد الحكومة وكبار المستولين على الأرض إلى ظهور مبادرات لإصلاح حال الفلاح.

ومنها مبادرة تخفيض الإيجار للتخفيف عن الفلاحين، وقادها رئيس الوزراء إسماعيل صدقي سنة ١٩٣٢ للحد من أزمة تدهور أسعار القطن وعجز الفلاحين عن سداد تكاليف الأرض خلال الأزمة الاقتصادية العالمية الشهيرة، ورفض غالبية النواب المبادرة، ولكنه نجح في تمريرها وتخفيض الإيجار بنسبة ٣٠%[١٧٥٣]؛ وذلك خلال التنافس بينه وبين حزب الوفد الذي كان في صفوف المعارضة ويقود حملة في القرى ضد صدقي وأساليبه في البطش.

ونسمع في ذلك مبررات الرافضين من النواب أصحاب الملكيات الرهيبة، وكيف نظروا إلى الفلاحين سواء من المستأجرين أو الأجرية كما وردت في محضر جلسات مجلس النواب رقم ٢٧ في ٤ أبريل ١٩٣٢ لنستوضح أي نوعية من الشخصيات كانت تقدم نفسها على أنهم "نواب الأمة".

فرأى النائب إبراهيم الهلالي أن قانون تخفيض الإيجارات قانون "جائر ظالم"، و"ما كان يحق للمجلس أن ينظر في هذا المشروع أو يعيره جانبا من الالتفات"، وقال: "أريد أن أؤدي واجب الدفاع عن الملاك، وعجيب أن يكون المزارع الذي تكفيه قطعة من الخبز وقليل من الجبن أجدر بالعطف من المالك المرهق بالنفقات الذي ألف عيشة البذخ والترف هو وأسرته"، وأيده النائب السيد عبد السلام رجب بقوله: "أما فيما

[١٧٥١]- انظر: كبار الملاك والفلاحين من ١٨٣٧- ١٩٥٢، رؤوف عباس وعاصم الدسوقي، مرجع سابق، ص ٦١- ٦٦
[١٧٥٢]- انظر: كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري (١٩١٤- ١٩٥٢)، عاصم الدسوقي، مرجع سابق، ص ٥٠
[١٧٥٣]- تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤- ١٩٥٢)، فاطمة علم الدين عبد الواحد، مرجع سابق، ص ١٥

يختص بالمستأجر الصغير فمثله كمثل الفأر يكفيه من القوت قليل من الذرة يتلمسه في جوانب الغيط"[١٧٥٤].

هكذا ورد بالنص ! وهكذا كان تقييمهم للفلاح الذي على كتفيه قامت ثورتا ١٨٨١ و١٩١٩ اللتان صنعتا لهم هذا البرلمان الذي يتحدثون فيه، وخاض معارك مع الإنجليز سالت فيها دماؤه واحترق محصوله لكي تجري انتخابات تأتي بمن ظنهم "نواب الشعب" إلى البرلمان، وليحققوا له شعار الثورة "مصر المصريين"، الذي فسره بعض هؤلاء النواب بأن مصر للمصريين المجنسين من أصول غير مصرية، أو فقط من هم من فطاحل متملكي الأرض، أما غير ذلك فمجرد "فئران يكفيها من القوت قليل من الذرة في جوانب الغيط".

ونشرت "الأهرام" في ٣ نوفمبر ١٩٣٦ تحقيقا صحفيا عن أحوال المستأجرين، ومنهم فلاح باع جاموسته لسداد الإيجار لأنه بسبب تكاليف الزراعة، ورغم عمله هو وأولاده طوال العام في الأرض، لم يكفه الربح أن يسدد الإيجار فضلا عن أن يضمن عيشه لمدة عام قادم[١٧٥٥].

وبعد هذا التاريخ لم تجرؤ أي وزارة على تحقيق مطالب أخرى بتخفيض القيمة الإيجارية، حتى عندما أبادت الملاريا والكوليرا عشرات الآلاف من المصريين بعد ذلك بسبب سوء التغذية الناجم عن إجهاد الجسم بالعمل مع قلة الغذاء والرعاية الصحية، فكانت أشبه بوباء مقترن بمجاعة.

فحين انتشر وباء الملاريا سنة ١٩٤٢ في مديرتي قنا وأسوان وأصاب أكثر من ربع مليون شخص توفي منهم ٢٠ ألفا أغلبهم من الأجرية والفقراء، واتَضح أن ارتفاع عدد الوفيات يرجع لسوء التغذية، ومما كشف الحال أكثر أنه لما أرسلت الحكومة الأطباء والأدوية للمرضى رفض بعضهم قبول العلاج قائلا إن العلاج يتطلب الأكل الكافي وليس الدواء، وعلق عبد الواحد الوكيل وزير الصحة آنذاك بقوله: "إن الإصلاح الحق لهذه الحالة التعسة إنما يكون بتعديل النظام الاجتماعي تعديلا يسمح برفع مستوى المعيشة بين الفلاحين، ويمكنهم من العيش عيشة إنسانية يحصلون منها على أبسط مطالب الحياة الآدمية".

وقال مصطفى النحاس، رئيس الوزراء، في نفس السنة في بيانه أمام البرلمان عن الملاريا إن "العيب الكبير الذي أدى إلى فقر أغلبية السكان هو كثرة الملكيات الزراعية الكبيرة[١٧٥٦]".

ومتفقا معه قال مكرم عبيد في مجلس النواب سنة ١٩٤٢ أيضا: "الحق أني مررت بقرية من قرانا، ورأيت الفلاح يكاد يأكله العمل، وغيره يأكل، ويلبسه العري وغيره يرفل، ويضنيه العيش القذر والمأوى القذر، حتى لكأن المسكين يخرج من الجنة لكي يدعنا نحن ندخلها[١٧٥٧]".

ورغم هذا لم يجرؤ حزب الوفد على المساس بالملكيات الكبيرة- فكثير من أعضائه من أصحاب هذه الملكيات، واكتفى بمصمصة الشفاة وكلمات الإشفاق على الفلاحين واقتراحات للإصلاح تضمنت وضع حد

[١٧٥٤]- المرجع السابق، ص ٤٨- ٤٩
[١٧٥٥]- نفس المرجع، ص ١٥
[١٧٥٦]- الأرض والفلاح.. المسألة الزراعية في مصر، إبراهيم عامر، مرجع سابق، ص ١٢١
[١٧٥٧]- نفس المرجع، ص ٧٧

أدنى لأجور العمال الزراعيين يكفي المستوى اللائق للمعيشة، وتعميم المياه الصالحة للشرب في القرى، وبيع أراضي الحكومة المستصلحة والبور لصغار المزارعين مع توفير وسائل الري والصرف(١٧٥٨).

ولكن لم تعدم مصر في أواخر الأربعينات من يعلن سخطه على هذا الوضع ويطالب بوضع حد لابتلاع الأغنياء مزيدا من الأرض، فظهرت مبادرات لوضع قوانين تفرض بالقوة الجبرية على هؤلاء الكف عن ضم وشراء مزيد من الأرض عبر تحديد الملكية.

ومن دوافع المطالبين بتحديد الملكية أن من كان قادرا على شراء أرض في ذلك الوقت هو من عنده أرض أصلا، فسدوا الطريق أمام معظم الفلاحين مهما وفروا من أموال في شراء أراضي، كما أن زيادة عدد السكان مع الثبات النسبي لمساحة الأرض زاد من سعر الأرض من ناحية، وزاد البطالة من ناحية؛ لأن الباشوات يفضلون السيطرة على الأراضي الخصبة أكثر من استصلاح الأراضي جديدة، فتقل فرص العمل أمام العمال الزراعيين، كما يرفض معظم الباشوات استثمار أموالهم في عمل مصانع تفتح فرص عمل جديدة للناس.

ففي ١٩٤٥ تقدم محمد خطاب، عضو حزب الهيئة السعدية والنائب في مجلس الشيوخ، بمشروع قانون لوضع حد أعلى للملكية الزراعية قدره ٥٠ فدان، وأقرت لجنة الشئون الاجتماعية المشروع بعد رفعه الحد الأقصى إلى ١٠٠ فدان، على ألا يسري هذا على الملاك الحاليين وورثتهم، ومع ذلك رفضه المجلس لأن معظم نوابه أيضا من كبار الملاك(١٧٥٩) الطامعين في ضم مزيد من الأرض.

وتحول الهجوم على خطاب في المجلس إلى "هدير وزئير"(١٧٦٠) بحسب تعبيره، فاستقال من الحزب الذي رفض المشروع، وحين انتهت عضويته في مجلس الشيوخ، وكان عضوا معينا، رفض النقراشي (رئيس الحزب ورئيس الوزارة وقتها) إعادة تعيينه، فرشح نفسه للعضوية بدايرة عابدين فحاربته الحكومة وسقط في الانتخابات، وقال رئيس مجلس الشيوخ في تصريح لمجلة المصور "إن مجلس الشيخ وجد ليحد من المشروعات الثورية ومن الطفرات التي يندفع إليها تطرف الآراء باسم التقدم الذي لا يتفق وشرع البلاد"، لكن خطاب لم ييأس وكرر تقديم المشروع للمؤتمر الزراعي الثالث ١٩٤٩ وفي ١٩٥٠ مؤكدا أن السبب في انخفاض مستوى معيشة أغلب السكان وفقرهم هو الملكيات الزراعية الكبيرة(١٧٦١).

وبدلا من تحديد الملكية ظهر اقتراح بيع أراضي- ليست من الأراضي الخصبة التي يهيمن عليها رابطة المتملكين الكبار- ولكن أراضي مستصلحة، ولكن هذه أيضا سيقع أكثرها في يد القادر على الشراء من الميسورين والأجانب، وليس أغلب السكان الأجرية أو المستأجرين أو المالكين لأقل من فدان- ٥ فدادين.

وضرب البلد وباء جديد سنة ١٩٤٧ هو الكوليرا حصد أرواح أكثر من ١٠ آلاف نفس غالبيتهم من

(١٧٥٨)- انظر: تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤- ١٩٥٢)، مرجع سابق، ص ١٤٠- ١٤١

(١٧٥٩)- انظر: الأرض والفلاح.. المسألة الزراعية في مصر، مرجع سابق، ص ١٢١، ومقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عبد الرحمن الرافعي، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ص ١٧١- ١٧٥

(١٧٦٠)- الصراع الإجتماعي والسياسي في مصر منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى نهاية أزمة مارس ١٩٥٤، مرجع سابق، ص ٧٣

(١٧٦١)- كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري (١٩١٤- ١٩٥٢)، عاصم الدسوقي، مرجع سابق، ص ٣١٢- ٣١٤

فقراء الفلاحين أيضا[١٧٦٢].

وفي محاضرة ألقاها وكيل وزارة الشئون الاجتماعية المساعد في فبراير ١٩٤٨ ونشرتها مجلة المصور ١٨-٢-١٩٤٨ حاول تهدئة حدة المطالبة بالإصلاح مبرءا الحكومة بأن "الواقع أن الفلاحين المصريين يكونون ثلاثة أرباع السكان، وحالتهم ليست بالحالة الطارئة التي يمكن علاجها علاجا سريعا حاسما، بل هي نتيجة عدة عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية تضافرت منذ أجيال لتصل بهم إلى هذه الحالة[١٧٦٣]".

وأثناء انتخابات ١٩٤٩ البرلمانية طالب ٧٦ مرشحا مستقلا بتحديد الملكية الزراعية وزيادة الضرايب "حتى يحوّل ملاك الأرض استثماراتهم للصناعة" ليتوقفوا عن ضم مزيد من الأرض، وطالب الدكتور راشد البراوي في السنة نفسها بتعديل نظام حيازة الأرض بما يؤدي إلى تعميم الملكيات الصغيرة والملكيات المتوسطة، وطالب الدكتور أحمد سحين بمشروعات "تساعد على نشر الملكيات العائلية الصغيرة، وتنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر ووضع حد أدنى لأجور العمال الزراعيين"، ونادى إبراهيم شكري عضو مجلس النواب ١٩٥٠ بتحديد الملكية بألا تزيد عن ٥٠ فدانا للمالك، وأعلن النائب علي الشيشيني مشروعا لتحديد الملكية ب ١٠٠ فدان مع زيادة ٦٠ فدانا للولد و٣٠ فدانا لكل من البنت والزوجة[١٧٦٤].

وبذلك دارت مقترحات الإصلاح حول الحد من تضخم الملكيات الكبيرة القائمة- دون المساس بها- ومنع تكون ملكيات كبيرة جديدة، ولم يتطرق أحد إلى عدم شرعية الملكيات الكبيرة القائمة من الأساس، وأنها حق للدولة وللفلاحين لأن معظمها أُخذ بطرق غير مشروعه أو بمعونة المحتلين وبتسخير الفلاحين وسلب حقوقهم، سوى إشارة بسيطة وردت بفرض ضريبة إضافية على الأراضي التي تملكها أصحابها بالمنح والهبات تمييزا لها عن الأراضي التي تملكها أصحابها بالشراء لإحداث التوازن الاجتماعي[١٧٦٥].

ومن التطورات الإيجابية أيضا أنه بعد الحرب العالمية الثانية علت أصوات بتحريم تمليك الأجانب للأراضي المصرية، فقدم المؤرخ والنائب في مجلس الشيوخ عبد الرحمن الرافعي سنة ١٩٤٨ مشروع قانون يحظر على الأجانب تملك الأراضي الزراعية وأراضي البناء والعقارات المخصصة للسكن، مستدلا على خطر تملك الأجانب للأراضي والعقارات بإحصاء صدر ١٩٤٦ أظهر أن الأجانب يملكون ٣٥٧,١٩٢ فدانا من الأراضي الزراعية البالغة ٥,٩٠٣,١٤٣، إضافة لما لهم من أملاك عقارية على جزء كبير من الأراضي المملوكة للمواطنين، وأن ١٧ أجنبيا يملك الواحد منهم أكثر من ألف فدان، واستمرار هذا الأمر خطر على الكيان القومي[١٧٦٦]، وإذا وضعنا في حسابنا أن معظم كبار متملكي الأراضي أساسا من عائلات تركية وشركية ويونانية وعربان، حصلوا على الجنسية المصرية حديثا بموجب قوانين التجنيس سيئة السمعة الصادرة بداية القرن ٢٠، يتبين أنه في الحقيقة فإن معظم كبار متملكي الأراضي والعقارات هم عائلات أجنبية.

(١٧٦٢)- انظر: تاريخ العمال الزراعيين في مصر، مرجع سابق، ص ١٢ و١٦ وهوامش المقدمة ص ٢٢- ٢٣

(١٧٦٣)- نفس المرجع، ص ١٤

(١٧٦٤)- الأرض والفلاح.. المسألة الزراعية في مصر، مرجع سابق، ص ١٢٢- ١٢٣

(١٧٦٥)- انظر هذه الإشارة في: كبار الملاك والفلاحين من ١٨٣٧- ١٩٥٢، مرجع سابق ص ٣١٢- ٣١٤

(١٧٦٦)- انظر: في أعقاب الثورة المصرية ثورة ١٩١٩، عبد الرحمن الرافعي، ج٢، مرجع سابق، ص ٣٠١- ٣٠٤

ولما أحس كبار الملاك بكثرة المطالب ووعي الفلاحين بها لجأوا إلى حيلة بيع أراضيهم لأولادهم(١٧٦٧) حتى يصعب تحديد الملكية الزراعية عليها.

وفي كتابها الصادر سنة ١٩٣٦ بعنوان "الريف المصري" تتحدث الدكتورة عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" ملتاعة عما شاهدته في قرية مكثت فيها فترة للاستشفاء، ورأت أن طعام معظم أهلها أرغفة الذرة الجافة وبضعة أعواد من حشائش الأرض كالجعضيد، وشربتهم مياه ملوثة تسري فيها الجراثيم والديدان، وملابسهم "أحيانا لا تكفي ستر العورة".. أليست هذه نفس الحال التي يصفها المؤرخون والرحالة عن حياة المصريين الحقيقيين في كل عصور الاحتلالات؟ أين نتائج المشاريع الكبرى للمحتلين إذن؟ من حلب خيرها؟

وتعجبت بنت الشاطئ ممن يغنون للنيل ولا يهتمون بالفلاح الذي يستخرج الحياة من النيل، وقالت إنه ليس من العدل أن يزرع هو ويحصد غيره وحدهم، ويشقى هو ليؤخذ الخير من يديه لعمارة وتزيين وتنظيف المدينة وحدها، ساردة مشاهد لآباء وأمهات يعصرهم الألم وهم يحملون القمح القليل الذي زرعوه أو الطيور التي ربوها ليبيعوها في السوق ويشتروا بضائع ضرورية كالزيت والذرة دون أن يتركوا منها شيئا لأطفالهم يتذوقوه، وصرخت في وجه الحكومة وكل من يتجاهل الفلاح أو يسخر منه بوصفها لهم إنهم من "الجاحدين" ويأخذون ما لا حق لهم، مختتمة بكلمات شبيهة بكلمات الحكيم إيبو ور وهو يأمل في قدوم المخلص الذي يعدل الحال: "فليت شعري، أية يد رحيمة حازمة تلك التي ستوقظ الأمة من تغافلها وتنبهها إلى واجبها؟!(١٧٦٨)".

أما من يهرب من الريف لقلة العائد ويذهب إلى المدينة للعمل فواعلي في بناء القصور ومنشآت الحكومة فبعضهم يتغير حاله للأحسن، وبعضهم لا يجد حظا أحسن من حظ أخيه في الريف لسخافة الأجور التي يجدونها يوما ولا يجدونها أياما، وينطق بحالهم حسين (محمد الدفراوي) الذي يقوم بدور فواعلي في فيلم "كل هذا الحب" (إنتاج ١٩٨٨): "وإيه ذنبنا نبيع عمرنا وشبابنا عشان ناكل عيش وبصل ونشرب شاي؟"، فرد عليه صاحبه ناصر (يحيي شاهين): "ذنبنا إننا دخلنا البندر ومفيش على راسنا طرابيش ولا برانيط".

▲▲▲ غضبة الفلاح

ولم تكن هذه الحالة تمر على الفلاح دون أن يعبر عن أنفته وغضبه ويسعى لأخذ ثأره، وإن كان متأخرا وعلى فترات متباعدة رغم الغيظ والنار التي تغلي في صدورهم بسبب ما وصفه الدكتور عبد العظيم رمضان بتشتت أفراد الفلاحين ومعتقداتهم الاستسلامية وعدم وجود شكل منظم لهم(١٧٦٩).

وكانت الغضبة الكبرى هي ثورة ١٩١٩ التي حملها الفلاحون على أكتافهم ورووها بدمائهم قبل أن يختطفها الإقطاعيون ويحصدون بها مكاسب جديدة لهم في البرلمان والحكومة وضم المزيد من الأرض.

وفيما يتمنع الإقطاعيون المسيطرون على البرلمان والحكومة عن اتخاذ خطوات تنصف الفلاح بعد

(١٧٦٧)- انظر: الأرض والفلاح.. المسألة الزراعية في مصر، مرجع سابق، ص ١٢٣
(١٧٦٨)- الريف المصري، بنت الشاطئ، مكتبة ومطبعة الوفد، القاهرة، ١٩٣٦، ص ١-٢٤
(١٧٦٩)- الصراع الإجتماعي والسياسي في مصر منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى نهاية أزمة مارس ١٩٥٤، مرجع سابق، ص ٤٩

الثورة، أخذ هو يقوم باحتجاجاته التقليدية في شكل الامتناع عن دفع الضرايب والإيجار، التوقف عن حصد المحاصيل، هجر الأرض التي يستنزفه فيها الباشا، التحايل على إجراءات الحجز على محاصيل الفلاح وممتلكاته المنزلية وماشيته، وأحيانا يصل به المدى للعنف مثل حرق المزروعات قبل حصدها أو حرقها في الأجران بعد حصدها للانتقام من المتملكين الأجانب أو غيرهم.

وفي سنة ١٩٥١ سطر الفلاحون ملاحم رفض الخضوع لأوامر متملكي الأرض في استنزافهم وإهانتهم كما حصل في أراضي يتملكها البدراوي بقرية بهوت وأميرا العيلة الحاكمة يوسف كمال ومحمد علي والخاصة الملكية وفؤاد سراج الدين وعبد اللطيف طلعت[١٧٧٠].

وظهر استمرار تحكم روح الغزاة في ردود فعل هؤلاء على احتجاجات الفلاحين، فلم تختلف عن أساليب آبائهم وأجدادهم الذين استولوا على هذه الأراضي تحت ظل سيف الاحتلال، ولا عن أسلوب الإنجليز في دنشواي، ففي قرية بهوت سنة ١٩٥٠ رفض الفلاحون دفع الإيجار، فوضعهم الإقطاعيون في السجون، وحُكم عليهم بعقوبات قاسية، وفي قرية "كفور نجم" التي بها أراضي يتملكها محمد علي – ولي العهد قبل ميلاد أحمد فؤاد، قام الفلاحون باحتجاجات قوبلت بالعنف، واستشهد الفلاح عواد وهو يقول: "إن الأرض أرضنا، ولنا فيها أكثر مما لصاحب السمو ولي العرش[١٧٧١]".

❺❶ استمرار عصر عروق مصر بالديون للأجنبي

"لكي تدفع مصر".. هو عنوان فصل ورد في كتاب "الاستعمار البريطاني في مصر" بقلم إلينور بيرتز، الصادر ١٩٢٧، وأظهر أن سياسة الاحتلال هدفها الأول "استنزاف وابتزاز" مصر لآخر قطرة.

ويقول إن أهداف خطة "بيرنج إخوان" [شركة تابعة لعائلة كرومر][١٧٧٢] في مصر هي عينها أهداف خطة فروهلنج وجوشن [بيوت المال العالمية]، وهي أن يعتصر رأس المال البريطاني ربحا متزايدا تبتزه الطبقة الحاكمة المصرية من الفلاحين الكادحين، وأن تزداد طاقة مصر الانتاجية حتى يمكن الحصول على أعظم النتائج من اعتصار طبقة الفلاحين، ثم إخضاع الطبقة الحاكمة المصرية بشكل مباشر بعد أن ضُربت الإسكندرية بالقنابل، وتحطمت الحركة الوطنية بقيادة عرابي، واحتلت القوات البريطانية مصر، وأُدخل الموظفون البريطانيون في جميع المصالح الهامة، وخاصة في وزارة المالية، وفي الجيش[١٧٧٣].

وفي ديسمبر ١٨٨٥ في أيام توفيق (١٨٧٩- ١٨٩٢) استدانت الحكومة مبلغا باهظا جدا، هو ٨ مليون جنيه ونصف مليون جنيه لدفع تعويضات الإسكندرية للأجانب، وسداد العجز الحاصل في إيرادات السنة

[١٧٧٠]- انظر: الأرض والفلاح.. المسألة الزراعية في مصر، مرجع سابق، ص ١١٣- ١٣١

[١٧٧١]- انظر: المميزات العامة للتركيب الطبقي في مصر عشية ثورة يوليو ١٩٥٢، جمال مجدي حسنين، مجلة الطليعة، س٧، ع ٤، القاهرة، ١٩٧١، ص ٥٩- ٦٠

[١٧٧٢]- أحد شركات أو بيوت المال تأسست في لندن ١٧٦٣، وتتبع عائلة "إيفلين بيرنج" الذي عُرف باسم اللورد كرومر.

[١٧٧٣]- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١٥

الماضية، ثم استدانت مليونين آخرين تحت بند إصلاح الري[١٧٧٤].

وكانت مهمة سير إفلين بيرنج (كرومر) المباشرة هي أن يضمن دفع فوائد الدين القائمة دفعا منتظما، ويفتح مصر سوقا لمنتجات الصناعة البريطانية التي أخذت تحس وطأة منافسة الصناعة الألمانية المتطورة بسرعة[١٧٧٥].

16 استيراد القمح بعد تسخير الأرض للقطن

قرر كرومر زيادة مساحة زراعة القطن لصالح مصانع النسيج في لانكشاير ببريطانيا على حساب المحاصيل الغذائية، ويمكننا أن نعرف نتيجة هذه السياسة من الحقيقة التالية.

كانت صادرات القطن في السنوات السابقة لنظام "بيرنج إخوان" مليوني قنطار في العام، قيمتها ٨ ملايين من الجنيهات، ثم أصبحت في نهاية الفترة [بعد ٢٥ عاما من حكم كرومر] ٧ ملايين قنطار تساوي أكثر من ٣٠ مليونا من الجنيهات، فهي زيادة عظيمة في الدخل.

ولكن، في ذات الوقت تحولت مصر من بلد كان يعتمد على نفسه في إنتاج حاجاته الغذائية إلى بلد مستورد لها، ربما لأول مرة في تاريخه، وبعد أن كانت مزرعة القمح للإمبراطورية الرومانية القديمة صارت مستوردة للقمح بفضل الإمبراطورية الرومانية الجديدة وأعوانها في الاحتلال العلوي والجالياتي.

ففي سنة ١٩٠٨ استوردت مصر موادا غذائية بما قيمته أكثر من ٥ مليون جنيه، وهذه المواد يضطر الناس لشرائها بأسعار أغلى منها في البلاد الأوروبية، فمثلا كان سعر القمح في مصر في ذلك العام يزيد ٥٠% المائة عن سعر القمح في إنجلترا.

النتيجة، يقول إلينور بيرتز، أن هذه السياسة جعلت المصريين أكثر اعتمادا على مستغليهم، فبدلا من أن يبيعوا الفائض من محصول القطن لا غير، أصبحوا الآن يعتمدون أكثر ما يعتمدون على بيع القطن، ثم تمشيا مع التغيير أصبحوا مجبرين على شراء الغذاء المستورد المنقول من أماكن سحيقة؛ فأصبحوا واقعين في يد الوسطاء مرتين[١٧٧٦].

وما أتعس شعب يعتمد على من يحتله في غذائه !

17 استمرار عصر مصر بمشاريع الاستثمار الأجنبي

وإضافة لذلك، خلقت سياسة تنمية إنتاج القطن لسد حاجة المصانع الإنجليزية "سوقا رائجة لمنتجات الصناعة البريطانية، والضرايب يتم تحصيلها من الفلاحين "لتدفع للمقاولين الأجانب نظير قيامهم بمد

[١٧٧٤]- مصر في القرن التاسع عشر، صالح جودت، مكتبة الشعب، القاهرة، ١٩٠٤، ص ٤٧
[١٧٧٥]- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ١٥
[١٧٧٦]- المرجع السابق، ص ١٦- ١٧

السكك الحديدية أو بأعمال الري أو بأعمال عمرانية أخرى، وبهذه الطريقة ضمنت سوقا دائمة للمصنوعات البريطانية الثقيلة أو المصنوعات الخاضعة للسيطرة البريطانية".

ويتفاخر كرومر بهذه المشروعات في كتابه "مصر الحديثة"، وبأنه بين سنة ١٨٨٨- ١٩٠٤ صرف من الاحتياطي ١٦ ونصف مليون جنيه على الأعمال العامة بما فيها أعمال الري والسكك الحديد وإصلاح الموانئ"[١٧٧٧]، ويقدم هذا على أنه جميل على مصر، رغم أنها مشروعات منتقاة بعناية لخدمة حركة تجارة وصناعة ونقل بضائع الاحتلال.

وفي ١٨٩٨ تعاقدت الحكومة مع جون إيرد وشركاه على مقاولة لبناء خزان أسوان بمبلغ مليوني جنيه إنجليزي[١٧٧٨] لزيادة المحاصيل فيزيد العائد، ويشير لهذا ملنر، وزير المستعمرات، وهو يقول: "إذا كان لابد من إدخال إصلاح دائم في مصر فأول الأمور هو أن نجعلها قادرة على الدفع[١٧٧٩]".

ولتجميع أي أرباح تسقط في يد الجاليات الأجنبية أو المصريين تأسس البنك الأهلي المصري وعضو لجنته اللندنية كان أحد أقارب إيفلين بيرنج (كرومر)[١٧٨٠]، والأخطر أنه أخذ من الحكومة امتياز إصدار العملة المصرية، رغم أنه بنك خاص وإدارته أجنبية، ومسيطر عليه من بنك إنجلترا الخاص أيضا الواقع تحت إدارة روتشيلد وإخوانه من بيوت المال العالمية.

وفي ظل تدفق المال في يد الاحتلال والجاليات نشأت شركات رأسمالها بريطاني وأجنبي لاحتكار السوق المصري، ومنها شركة مصرَ لحلاجي الأقطان المتحدين، شركة سينا للتعدين، شركة الأراضي المتحدة المصرية، شركة سكة حديد الدلتا، شركة إنجلو إيجيبشيان أويل فيلد ليمتد وشركة شل للبترول، وشركات سجائر بريطانية ثانوية كثيرة أو شركات محلية للمياه والنور وشركات النقل البحري وشركات التموين بالفحم التي تعمل في الموانئ وشركات التأمين على الحياة، وبحسب موري هاريس في كتابه "مصر تحت حكم المصريين" فإن ٩٠% من أعمال التأمين في مصر في يد منشآت بريطانية[١٧٨١].

كان طريق المال بين مصر وبريطانيا في اتجاهين، الأول من مصر لبريطانيا وهو خيرات مصر من محاصيل ومواد خام ونقود، ومن بريطانيا إلى مصر وهي رأس المال الفايض في بنوكها الذي جمعه روتشيلد وشركاه، ويأتي لمصر في صورة استثمار خاص (غسيل أموال)، ولكن في مجالات تزيد من إحكام الخناق على رقبة مصر، وفي نفس الوقت أرباحها سريعة وخيالية، فاستثمروا في الرهونات والعقارات والأراضي الزراعية، يمتلكون أكبر قدر من أملاك مصر، ويوجهون السياسة الزراعية والصناعية كيفما يشاءون في نوعية المحاصيل والمنتجات بما يتوافق مع حاجات مصانع أوروبا، وفي نفس

(١٧٧٧)- نفس المرجع، ص ١٨
(١٧٧٨)- مصر في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ٦٠
(١٧٧٩)- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، د.سامي عزيز، مرجع سابق، ص ٢٣٤
(١٧٨٠)- انظر: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٠، ٦٦
(١٧٨١)- المرجع السابق، ص ٥٥

الوقت تزيد أسعار الأراضي والمساكن في مصر[1782]، وهو ما يمثل عبئا على المصريين الذين لا يكادون يلاحقون الزيادات في الأسعار مثل الأجانب، وتغريهم شركات الرهن والبنوك الأجنبية بالاقتراض لتنمية أراضيهم أو مشاريعهم، وحين يتعثرون تقع هذه الأملاك في يد الأجانب.

وفي ذلك قال حافظ إبراهيم سنة ١٩٠٧ متحسرا على سقوط أملاك مصر بيد الأجانب باسم استثمار، وما هي إلا شرك (فخ) يصطاد ضحاياه، وهو نفس ما حذر منه عبد الله النديم من قبل[1783].

ألم يكفنا أنا سُلبنا ضياعنـــا — على حين لم نبلغ من الفطنة المدى

وزاحمنا في العيش كل ممارس — خبيــر وكنــا جاهليـن ورقدا

وما الشركات السود في كل بلدة — سوى شــرك يلقى به من تصيدا

18 ظهور الخصخصة في العصر الحديث

ربما أول نوع من الخصخصة في تاريخ مصر، وتسليم اقتصاد الدولة ليد حفنة من الأفراد الأجانب، كان في فترة الاستيطان الإغريقي ثم الاحتلال الروماني حين تسلم حفنة تجار أجانب مصر بجانب أراضيها، وأنشأوا وكالات تجارية متعددة الجنسيات كما تابعنا.

وفي عهد سعيد زُرعت بوادر خصخصة أملاك مصر بالسماح بتملك الأجانب للأراضي والعقارات من جديد، ولكن تعذر عليهم تملك مشروعات الدولة مثل السكة الحديد، غير أن كثرة الديون وفرت لهم الفرصة في عهد إسماعيل وتوفيق ثم عباس حلمي الثاني، فحينها أهدرت الحكومة كثيرا من أراضي ومشروعات الدولة والمرافق العامة والأصول ببيعها رسميا إلى الأجانب، وبثمن بخس.

ففي ١٨٩٤ باعت الحكومة قدرا عظيما من أطيان الوجه البحري "تفتيش بسنديلة" لشركة أجنبية بثمن بخس، ولم تعطها لشركة وطنية سعت لشرائها[1784]، وفي ١٨٩٧ تنازلت الحكومة عن حق استخراج الملح والنطرون لشركة أجنبية، وفي ١٨٩٨ باعت إلى شركة إنجليزية "بواخر البوسطة" الخديوية بمبلغ لا يتجاوز ١٥٠ ألف جنيه، واعترض السلطان العثمانلي رسميا على هذا البيع، وكثرت أقوال الناس لما فيه من الغبن الظاهر على الحكومة[1785]، وفي ١٨٩٨ عقدت الحكومة اتفاقية مع شركة مختلطة لبيع أطيان الدائرة السنية لهذه الشركة بمبلغ ٦,٤٣١,٥٠٠ جنيه[1786].

19 استمرار سفك الدم المصري في المذابح

(1782)- المرجع السابق، ص ٦١- ٦٨

(1783)- ديوان حافظ إبراهيم الأعمال الكاملة، حافظ إبراهيم، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ص ١٨٣- ١٨٤

(1784)- مصر في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ٥٤

(1785)- المرجع السابق، ص ٦٠

(1786)- المرجع السابق، ص ٦١

▼ (مدبحة دنشواي)

أصدر الاحتلال قانونا سنة ١٨٩٥ بتوجيه من كرومر ينص على عرض قضايا المنازعات بين الأهالي وجيش الاحتلال على محاكم نصف عسكرية لا تُستأنف أحكامها بعد تأكده من استمرار سخط الفلاحين عليه رغم ما وصفها بـ"الإصلاحات"، وفي ظل هذا القانون تمت محاكمة دنشواي ١٩٠٦، وهي على حد تعبير إلينور بيرتز في كتابه "الاستعمار البريطاني في مصر": "واحدة من أبشع ما روى التاريخ من مظالم العدالة البريطانية الشائنة ضد شعب مستعمر[١٧٨٧]"، كان هدفها معاقبة الفلاح أن رفع رأسه ورفع عصاه على جنود الاحتلال من جديد بعد ثورة ١٨٨١.

والقصة أن جماعة من ضباط الإنجليز خلال صيدهم للحمام في قرية دنشواي بالمنوفية، في اليوم التعيس ١١ يونيو ١٩٠٦؛ فأصابوا الفلاحة أم محمد بنيرانهم وتسببوا في حرق جرن القمح، فثارت غيرة أهالي القرية، ونادوا: "الخواجة حرق الجرن وقتل أم محمد".

وأطلق الإنجليز الرصاص الحي فأصابوا شيخ الغفر عامر عدس، وشحاتة داود، وعلي الدبشة، وطارد الفلاحون الغاضبون الضباط الإنجليز بالعصي والحجارة.

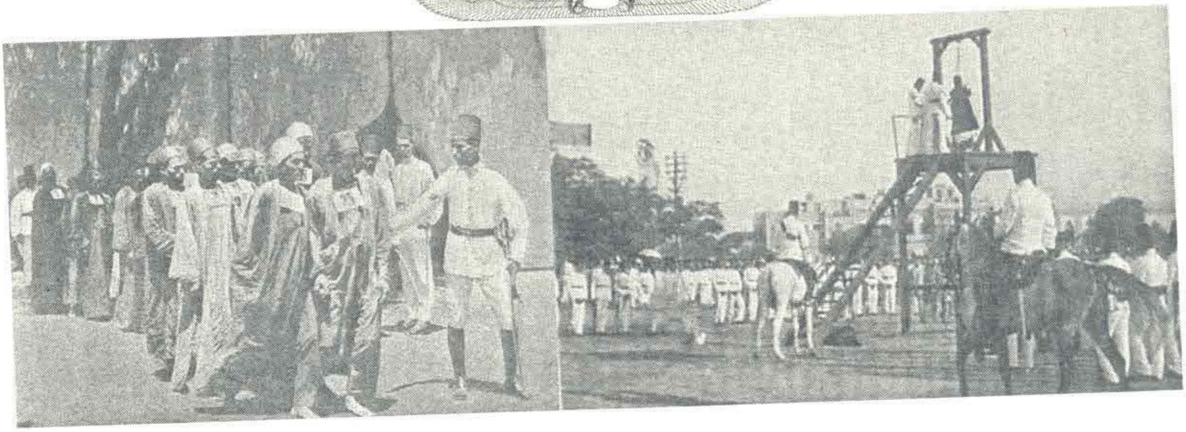
وخلال هروب الضباط أصيب أحدهم "الكابتن بول" بضربة شمس ومات، وتركه زملائه وهربوا، فتجمع حوله الأهالي، ولما عاد بعض الضباط اتهموهم بأنهم سبب قتله، وطاردوا الأهالي، وقبضوا على بعضهم، وهرب أحدهم وهو سيد أحمَد سعيد في بطن طاحونة، وقتله فيها الإنجليز بأبشع وسيلة، انهالوا عليه ضربا بالسونكي حتى قطعوه إربا.

وانعقدت محاكمة سريعا، ومما يُدمي القلب تورط قضاة "مصريين"- بجانب الإنجليز- في هذه المحكمة يرأسهم بطرس غالي ومن أعضائها فتحي زغلول، وفي المقابل ترأس فريق الدفاع عن الفلاحين أحمد لطفي السيد أحد حاملي لواء "مصر للمصريين".

وانتهت المهزلة إلى شنق واستشهاد ٤ من الأهالي هم درويش زهران، حسن محفوظ (٦٥ سنة)، يوسف سليم، والسيد عيسى سالم، وجلد ٧ آخرين، وحبس ١٢ ما بين سنة والمؤبد مدى الحياة في يوم ٢٨ يونيو ١٩٠٦، وذلك بالرغم من أن تقرير الأطباء الإنجليز أثبت أن وفاة الضابط بول سببها ضربة الشمس وليس إصابة على يد الأهالي، ولكن هذه الأحكام لم تكن عقابا على جريمة قتل، ولكن على جريمة أشنع في رأي إنجلترا، وهي تجرؤ المصريين على أن يتحدوا الإنجليز ويرفضوا تدخلهم في قريتهم.

ونكاية في الأهالي، قرر الإنجليز تنفيذ الأحكام وسط القرية وحشود الأهالي وأقارب المحكوم عليهم بالإعدام والجلد ليشاهدوا قتل وجلد أحبائهم بأعينهم، ولم يراعِ في ذلك الستات أو الأطفال أو الأباء أو الأمهات، ونُفذ الحكم وسط وصرخات الأهالي التي شقت عنان السماء.

[١٧٨٧]- نفس المرجع، ص ٢١



أبطال دنشواي في ثيابهم الدالة على حالتهم من الفقر في طريقهم للجلد والشنق عقابا على أن الفلاح رفع رأسه وعصاه على الغازي

أول المشنوقين أكبرهم سنا وهو حسن محفوظ، فاضت روحه وهو يدعو على عمدة القرية لأنه شهد ضده، وثاني المشنوقين أصغرهم سنا، وهو يوسف سليم، صاح قبل أن يتأرجح جسده الطاهر على الحبل أمام أهله: "اللهم انتقم من الظالمين.. اللهم انتقم من الظالمين".

وعملية الشنق تجري كانت بجوارها عملية الجلد، وإبراهيم السيسي يصرخ والكرباج ذي الثمانية أفرع ينهال على ظهره العاري: "سقت عليكم النبي، يا هو، اشنقوني أحسن"، حتى سقط مغشيا عليه، والكرباج يستمر في سلخ ظهره...ومجلود آخر هو عزب محفوظ، لم يقل شيئا ولحم ظهره يتقطع، ولكن سمعوا له صوتا كنباح الكلب، وكأنه فقد عقله من الألم.

آخر المشنوقين محمد درويش زهران، وهو أكثرهم ثباتا، حتى أنه لما تأخرت عملية الشنق دقائق، صاح في الشنَّاق: "شهل يا أخي شهل".. وبعد لحظة.. هوى جسد زهران، وهوت معه- كما قالت صحيفة "المؤيد"- قلوب الستات المتجمعات، ولطمن الخدود، وتُرك فترة في الهواء يتأرجح يمينا وشمالا، زيادة في مكايدة الأهالي.

ويصف عباس محمود العقاد هول الحادثة على المصريين: "كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ في أسوان، فأغمى على واحد منا، ولم نستطع إتمام القراءة، إلا بصوت متهدج تخنقه العبرات"[١٧٨٨].

ويصفها الأديب أحمد أمين: "وأذكر أني قرأت الجرائد يوم محاكمة بعض أهالي دنشواي، وكنت معزوما في الإسكندرية على العشاء، فبكى الحاضرون جميعا وتركوا مكانهم من غير عشاء"[١٧٨٩].

وهكذا تزلزلت أرواح وعروق المصريين، وخنقهم البكاء، من أسوان إلى الإسكندرية، في وقت واحد، على الوطن الواحد الذي يُشنق أمامهم في يوم الزلزلة العظيم، وبهزات لم تبارح وجدانهم حتى اليوم.

وسرى نبأ زهران وإخواته سريان مية الفيضان في أرض مصر الطيبة، فنسج له الأدب الشعبي شعرا

(١٧٨٨)- التفاصيل المذكورة حول الحادثة وأكثر منها في كتاب "حكايات من دفتر الوطن"، صلاح عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مشروع مكتبة الأسرة، ١٩٩٨، ص ٣٠٩- ٣٥٤.

(١٧٨٩)- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ١٥٧- ١٥٨

تدفق من عروق المصريين الموصولة باستشهاد أوزير مظلوما وتصميم حور على أخد تاره من أهل الشر، فغنّوا ملتاعين:

يوم شنق زهران كانت صعب وقفاته

أمه بتبكي عليه فوق السطح وإخواته

لو كان له أب ساعة الشنق لم قاته

صبرك علينا يا ظالم بكره راح تندم[١٧٩٠]

نفذ أهل الشر حكم الشنق والجلد والحبس في ٢٣ مصريا شريفا لتهمة غير موجودة، في حين لم يتم محاكمة الضابط الذي أصاب الفلاحة بالرصاص، أو من قتلوا الفلاح في بطن الطاحونة وجعلوا أكبر حتة من جسده في حجم القرش تعريفة، بحسب وصف بعض المجلات المعاصرة للمذبحة[١٧٩١].

ولم تمر مذبحة دنشواي مرور الكرام كما مرت مذابح سابقة نُصبت للمصريين خلال الغارات والتحصيل الظالم للإتاوات وخلال مقاومتهم لمظالم المماليك والترك وعيلة محمد علي؛ فالمصريون بات عددهم أكبر في الصحافة، والصحف انتشرت تحمل معها أخبار المذابح بعد أن كانت تجري ولا يعلم المصريون عما يحدث لبعضهم شيئا، وكثر عدد المصريين في الحكومة لتدرجهم في التعليم والوظائف، سواء من عائلات ميسورة استطاعت إلَحاق أولادها بالتعليم العالي مثل سعد زغلول ومصطفى كامل وأحمد لطفي السيد، أو الفقراء الذين شقوا طريقهم بصعوبة في سلك التعليم مثل أحمد حلمي وعباس العقاد، جعلوا ألسنتهم هي الكرابيج التي يردون بها على كرابيج الاحتلال بعد أن فقدوا مجددا الدرع والسيف (الشرطة والجيش).

بدأ العقاب بداية من مقاطعة واحتقار من شاركوا الإنجليز في المذبحة مثل إبراهيم الهلباوي الذي عانى من احتقار المصريين له، واعترف بذلك في مذكراته[١٧٩٢]؛ فشعر بجريمته الشنيعة، وسعى ليكفر عنها، ويذكر دائما الاحتلال الإنجليزي، حتى في وجه القادة الإنجليز، بـ"المغتصب"، و"الكريه"، وأنهم لم يفيدوا مصر بشيء، بل غدروا بها كأكبر غدر حصل لأمة في ذلك الزمان، ودافع عن قتلة السردار الإنجليزي السير لي ستاك سنة ١٩٢٤ [١٧٩٣].

ورغم ذلك مات الهلباوي سنة ١٩٤٠ تشيعه أبيات حافظ إبراهيم يقول عنه فيها[١٧٩٤]:

(١٧٩٠)- مقدمة في الفولكلور القبطي، عصام ستاتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ١٠٠- ١٠١

(١٧٩١)- إن كانت جرائم الإبادة الجماعية لا تسقط بالتقادم فأين مقاضاة بريطانيا على مذابح دنشواي وقلاع الإسكندرية وغيرها من مذابح أجرتها في ثورة ١٩ وما بعدها؟

(١٧٩٢)- مذكرات إبراهيم الهلباوي، تحقيق عصام ضياء الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٨٢

(١٧٩٣)- المرجع السابق، ص ١٩٧- ١٩٨، و١٨٦

(١٧٩٤)- ديوان حافظ إبراهيم، مرجع سابق، ص ١٨٠

أيه يا مدرة القضاء ويا من ساد في غفلة من الزمان وشـادا

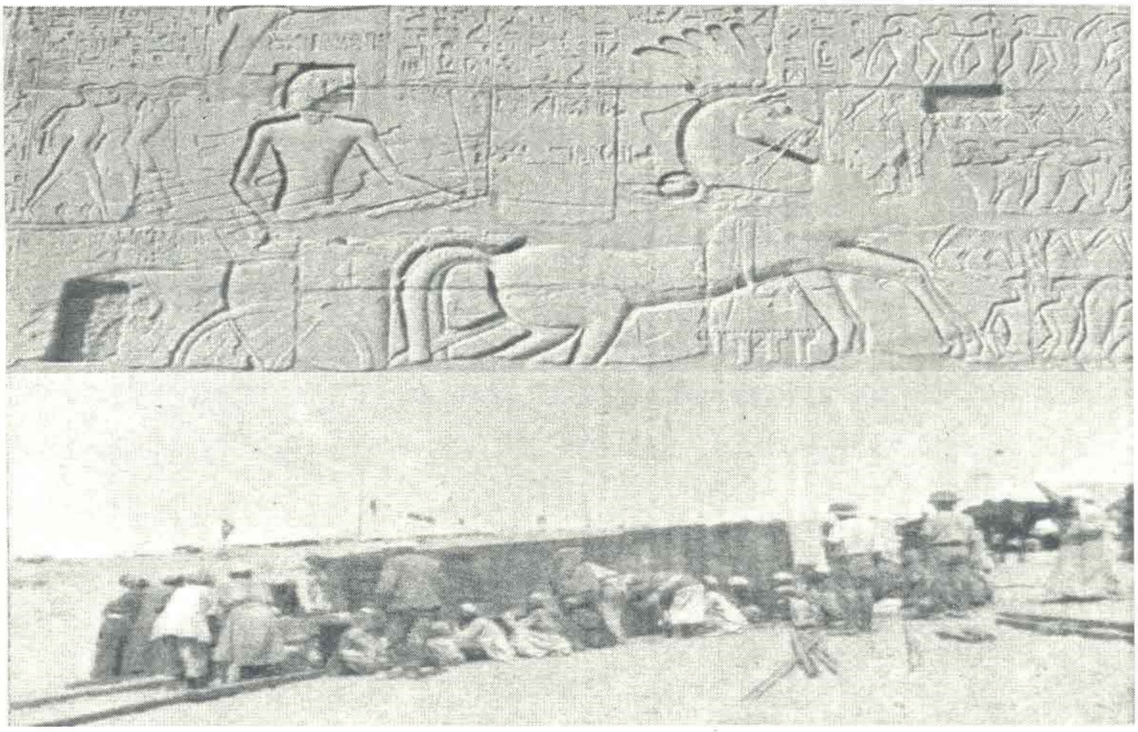
أنتَ جلادنــا فلا تنس أنّــــا قد لبسنا على يديك الحـدادا

ويحكي يحيى حقي أن الهلباوي خطب بعد سنوات من المحاكمة في سرادق لحزب الأحرار الدستوريين يدعو لتخليص البلد من الاحتلال، وقوبل بتصفيق، وفجأة هتف شخص "يسقط جلاد دنشواي"، فكأنه أعاد مشهد المذبحة للوجدان كأنه اليوم، فإذا الناس، بما فيهم المقربين من الهلباوي، يهتفون ورائه بصوت كالرعد "يسقط جلاد دنشواي"، وكأنه صوت مصر ينطلق من حلوقهم على رغم إرادتهم[١٧٩٥].

▼مذبحة الحرب العالمية الأولى

هناك مذابح في التاريخ على بشاعتها تضيع وسط غبار التاريخ وكثرة أحداثه، هي أشد في هولها وعدد شهدائها من دنشواي ١٩٠٦، منها المذبحة التي نزف فيها آلاف المصريين الدم في مصر والشام وأوروبا في حرب ليس لهم فيها مصلحة، كما نزفت عرقهم، لما أعاد الإنجليز السخرة والكرباج وحولوا اقتصاد مصر لحنفية تمول الجيش الإنجليزي طوال الحرب من ١٩١٤- ١٩١٨.

ويأتي الحديث عن ألوان قتل وخطف وأسر وتسخير المصريين في هذه الحرب في الحديث عن عودة نظام السخرة لصالح الحرب.



من أعلى سيتي الأول يعبر طريق حور (حورس) الحربي في سيناء قادما من فلسطين منتصرا يقود أمامه الأعداء أسرى، ومن أسفل الإنجليز يقودون أمامهم المصريين كأسرى حرب للعمل في جر تنكات المياه وتمهيد المكان للعدو الإنجليزي عند طريق حور في الحرب العالمية الأولى.. نفس

(١٧٩٥)- حكايات من دفتر الوطن، مرجع سابق، ص ٣٦٥- ٣٦٦

الطريق، مع اختلاف المصير.. شهقة التاريخ.. فيما أذنبنا، فيما قصرنا؟ (مصدر الصور: معبد الكرنك، وموقع **australian war memorial**[١٧٩٦])

20 نزف المصريين في السخرة للأجنبي

تباهى كرومر بأنه ألغى السخرة والكرباج، وحصل إلغاء السخرة بالتدريج لا دفعة واحدة، غير أنه ظهر أنه مجرد إلغاء مؤقت لتهدئة خواطر المصريين بعد الاحتلال ولأسباب أخرى، فقد أعاد الاحتلال السخرة بألعن أشكالها مثلا لحفر القنوات والخنادق والعمل بالمعسكرات البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى.

وبتعبير بيرتز فإن من المستحيل أن نعطي في مساحة ضيقة صورة كاملة عما فعله البريطانيون في مصر أثناء الحرب، ولكن لعل بعض الأمثلة توضح الحالة التي أثارت كراهية الحكم البريطاني كراهية عامة، كما أثارت ضده الضجر الواسع وخلقت التأييد العام للحركة الوطنية في ١٩١٩[١٧٩٧].

ففي إحصائية نشرها ليفتننت كولونيل إلجود **Elgood** (كومندان الجيش الإنجليزي ببورسعيد) عام ١٩٢٤ في كتابه "مصر والجيش" برر إعادة السخرة سنة ١٩١٦ بأنه بدونها لن تتوفر الإمدادات اللازمة للفرق الاحتياطية وخاصة في أعمال حفر الخنادق ونقل المؤن.

كان الحصار يضرب على جموع الريفيين أثناء ذهابهم إلى الأسواق، ثم يرسلون إلى أقرب "نقطة عمل"، وبينما الأغلبية تقابل مصيرها بالتسليم قاوم البعض، وآخرون فروا إلى المناطق المجاورة رجاء السلامة، ولكن كانت نهاية هؤلاء جميعا واحدة؛ فالمقاومة تخمد، ويقبض على الفارين، ثم يسلمون إلى ضباط القرعة، وفي ١٩١٧ و١٩١٨ الضغط يزيد ويزيد كلما اتسعت المعارك وطالت، فقد دلت التجربة على أنه ليس هناك عمال أفضل من المصريين في إقامة الجسور ومد السكك الحديدية على السواء، وبدأ الفلاحون يفرون من بعض القرى[١٧٩٨].

وبهذا عادت "عيشة المطاريد" للمصريين لينضم الاحتلال البريطاني إلى ما قبله فيها، فلم يكن تخفيف قبضته عن الفلاحين في بعض الأوقات إلا فترة استرخاء.

وبحسب إلينور بيرتز أيضا، استولى السماسرة على الحمير والجمال التي لا تقوم بغيرها الزراعة، واستولى مكتب الإمدادات بنفس الطرق على المحاصيل[١٧٩٩].

ويصف سعد زغلول بدوره ما حصل في مذكراته، ويقول إن المسئولين عن جمع الناس: "يتخطفون الناس في الأسواق، ومن الطرقات، ومن المساكن في القرى، ويحملونهم على أن يكتبوا طلبا بالتطوع في الحملة! ومن أبى من المخطوفين أن يختم ضُرب حتى يختم!"، ويضرب مثالا بأنه في أطسا: "جاءتهم قوة

(١٧٩٦)- NATIVES OF THE EGYPTIAN LABOUR CORPS MOVING A WATER-TANK AT EL FERDAN
https://www.awm.gov.au/collection/C4098

(١٧٩٧)- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٦

(١٧٩٨)- نفس المرجع، ص ٢٦- ٢٧

(١٧٩٩)- نفس المرجع، ص ٢٧

من العساكر والخفراء، وسقتهم إلى المركز مكبلين في الحديد، وهناك ضُربوا حتى ختموا!"، وعدى الفُجر كل الحدود بأن "بعض الأهالي في فارسكور امتنعوا، وقامت بينهم وبين العساكر مشاجرة، أدت إلى إطلاق النار عليهم، وقتلت ثلاثة نسوة فيهم"(١٨٠٠).

وقاوم الفلاحون الانقياد للسخرة بكل وسيلة؛ فيما عاود الإنجليز استعمال الكرابيج ضد الرافضين، وأخذوهم تحت تهديد السلاح، بما فيهم أطفال وشيوخ في السبعين، بعد أن تباهوا أمام العالم بأنهم ألغوا الكرباج(١٨٠١)، ومنذ بداية الحرب تعالت الصيحات في طلب العمال المصريين، ليس فقط من الجبهة المصرية، بل من جبهات الحرب الأخرى، وذلك بعد أن أظهرت فرقة عمال مصرية أرسلت إلى "مدروس" باليونان ١٩١٥ بناء على طلب قيادة جيش البحر المتوسط من الكفاءة ما سرى صيته في جميع الميادين، حسب اللورد لويد(١٨٠٢)، وذلك أيضا بعد أن تفنن الإنجليز وصحافتهم في الحط من كفاءة المصريين في أعمال تخص تعمير بلدهم.

وبالإضافة إلى الفرق الإضافية، جنَّد الاحتلال ١٧٠ ألف مصري في فرق المواصلات بالجمال، وقُدر مجموع المصريين المجندين في مختلف القوات بحوالي مليون مصري، وهو عدد ضخم جدا.

واختطفت قوات الاحتلال عشرات الآلاف من المصريين تحت اسم زائف وهو "متطوعين" وشتتهم في عدة قارات، فألقت بهم في المعارك في شبه جزيرة جاليوبلي على ضفة الدردنيل عند تركيا، وفي العراق وفلسطين وبلجيكا وفرنسا إلخ، في أسوأ الظروف الصحية والغذائية والمناخية وقلة التدريب(١٨٠٣)، وتفرق المصريون، وتوفي وأصيب الكثير منهم بالسلاح أو من المرض والكدح والإهمال، وغاصت أجسادهم الطاهرة لتدفن يتيمة في ثلوج فرنسا وأحراش العراق وجبال الشام.

ومن غير المعروف على وجه الدقة عدد الضحايا والمصابين المصريين في الحرب أو بسوء المعاملة، ومن القليل المنشور ٧١٣ شهيدا في فرق المواصلات بالجمال بسبب انعدام الوقاية(١٨٠٤).

ويحفظ لنا التاريخ أنين الأمهات والزوجات على هؤلاء في نواحهم الآسر الذي نقله يونس القاضي وسيد درويش من أفواههم في القرى "يا عزيز عيني"(١٨٠٥):

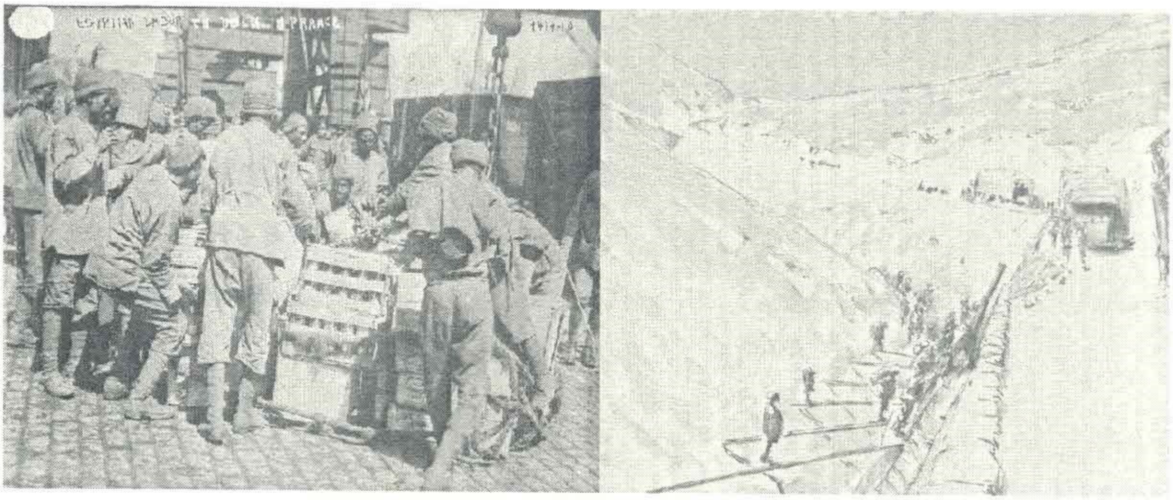
بلدي يا بلدي السلطة خدت ولدي

يا عزيز عيني أنا بدي أروح بلدي

يا عزيز عيني أنا نفسي أشوف بلدي

(١٨٠٠)- مذكرات سعد زغلول، تحقيق عبد العظيم رمضان، ج ٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ص ١٨٧
(١٨٠١)- تطور الحركة الوطنية في مصر (١٩١٨- ١٩٣٦)، عبد العظيم رمضان، مكتبة مدبولي، ط٢، ١٩٨٣، ص ٦٧
(١٨٠٢)- نفس المرجع، ص ٦٧
(١٨٠٣)- انظر: تاريخ الطبقة العاملة المصرية من ١٩١٩- ١٩٢٩، أمين عز الدين، دار الشعب، القاهرة، ص ٥- ٦
(١٨٠٤)- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٧
(١٨٠٥)- أغنية يا عزيز عيني، كلمات محمد يونس القاضي، ألحان وغناء سيد درويش

وصارت مصر أسيرة حرب بكل معنى الكلمة، بناسها وزرعها وصناعتها وموانيها ومواصلاتها، وربع مليون جندي بريطاني وهندي وأسترالي ونيوزيلندي يدنسون أرضها، بخلاف تسكين وإطعام وتشغيل طوفان الأوروبيين والشوام والأرمن والليبيين الفارين من بلادهم خلال الحرب، وكثير منهم استغل ستارة اللجوء لنشر الجرائم والكبش والغرف من "نهيبة الدنيا" مصر.



يمين الناظر رسم للعمال المصريين يمهدون الطرق الوعرة في صحاري ميادين الحرب، وعلى الشمال مصريون يتولون العمل الشاق في معسكرات الحرب بفرنسا (المصدر: مكتبة الكونجرس ومتحف الحرب الإمبراطوري[١٨٠٦])



اللاجنون الأرمن يتدفقون ويغرسون أقدامهم في مصر ليحييوا في أمان وثراء في الوقت الذي تنخلع أقدام المصريين منها لتحارب بدلا عنهم في أوروبا خلال الحرب العالمية الأولى، ولاجنون أوروبيون يلهون آمنين بعد أن تدفقوا على مصر في الحرب العالمية الثانية رغم الأزمة الاقتصادية التي خنقت المصريين حينها (الصور: صحيفة ديلي ميل البريطانية وموقع [١٨٠٧]**auroraprize**)

فى مذكرات د. عصمت سيف الدول شهادة فلاح ممن عملوا فى الجبهة الفرنسية، يحكى يونس عبد الله من قرية الهمامية مركز البدارى أسيوط أنه سافر لفرنسا مع أكثر من ٥٠٠، قسموهم إلى فرق لحفر الخنادق تحت المطر والثلج، ومات أحدنا متجمدًا من البرد فحملته عربة يجرها بغل إلى مكان مجهول، فأضرب الفلاحون عن العمل، وأخبروا ضابط مغربي يشرف عليهم بأنهم يريدون العودة لبلادهم، حضرت

(١٨٠٦)- Egyptian labour corps, repairing the nebi Mosa rooad (الرابط الإلكتروني في قائمة المراجع)

Egyptian labor on dock in France(الرابط الإلكتروني في قائمة المراجع)

(١٨٠٧) (الرابط الإلكتروني في قائمة المراجع)- ARMENIANS THANK PEOPLES OF THE MIDDLE EAST

Egyptian camp during World War II,Dailymailonline,11- 6- 2017

قوة فرنسية يقودها جنرال قال لهم: "نحن نحارب وأولادنا تموت وأنتم ترفضون العمل.. نحن نعرف حالتكم قبل أن تحضروا إلى هنا.. حقيقة أنكم متعبون لكنكم تعيشون عيشة الآدميين بدلًا من عيشة الكلاب التى كنتم تعيشونها"... عندئذ ثار أحدهم وضرب الجنرال الفرنسى بالكوريك فشق صدره، وفى لحظة فتحت القوة الفرنسية النار على المجموعة فماتوا جميعًا، عدا يونس الذي ظل أسبوعا يُعالج من جرحه بعد أن أقنع الضابط المغربي الفرقة الفرنسية بتركه(١٨٠٨).

➊➋ نزح مصر باسم "التبرعات" للأجنبي (لأوروبا، لأفريقيا، للعرب)

"التبرعات".. بداية من الاحتلال الإنجليزي ستكون آداة من أدوات نزح الميزانية والجيوب المصرية، إما جبرًا مثل الأموال التي يأخذها الاحتلال غصبا من الحكومة باسم تبرعات خلال حروبه، أو اختيارا بتسليط العاطفة على المصريين ليتبرعوا لليبيا وفلسطين وسوريا وأندونيسيا والأرمن وأوروبا وكل من كان.

وبحسب إلينور بيرتز، أجبر الاحتلال الحكومة على أن تدفع ٣,٥ مليون جنيه، مساهمة منها [إتاوة] في نفقات الحرب العالمية الأولى، وسلم مبلغ ٦٠٠ ألف جنيه إلى الصليب الأحمر البريطاني، وهو مبلغ فرض إجباريا على القرى في مصر والسودان(١٨٠٩)، وهذه الأموال يشيع البعض الآن أنها "تبرعات" طوعية من مصر لدول الحلفاء حتى لا تطالب بها، ولتبييض وجه الاحتلالين الإنجليزي والعلوي بأن المصريين كانوا مرتاحين وعندهم فائض من الأموال في عصرهم لدرجة التبرع لأوروبا، وكذلك أن مشاركة المصريين في الحرب لم يكن جبرا تستحق مصر عليه تعويضات، ويستحق الإنجليز العقاب، بل كان "تطوعا".

وأكد نفس المعلومات سعد زغلول كشاهد عيان في مذكراته عن حوادث مايو ١٩١٤، وأضاف أن الحكومة بعد أن "سلبت من الأمة ٣,٥ مليون جنيه وقدمتها هدية للحكومة الإنجليزية"، سلمت الأمة للفقر وغلاء الأسعار، فحددت أسعار القطن والمحصولات بأبخس الأثمان- أي صاروا يبيعون بأقل أسعار- وفي نفس الوقت حظرت عليهم التصرف في محصولاتهم قبل أن تأخذ السلطة منها احتياجاتها، وسلطت الحكام [المسئولين] على الناس يجمعون منهم الأموال تحت أسماء التبرع للهلال الأحمر، ويوم فرنسا، ومنكوبي الحجاز، وغير ذلك.. واختتم "إن الناس حيارى في أمرهم والله لطيف بهم"(١٨١٠).

إذن ينزعون من عروق المصريين المال والأرواح والرجال بالكرباج والقتل لإغاثة منكوبي بريطانيا وفرنسا والحجاز وكل من كان.. فمن لمنكوبي مصر؟

(١٨٠٨)- حول مصر والحرب العالمية الأولى، أحمد جمال، صحيفة الأهرام، السنة ١٤٣، العدد ٤٨١٩٨، بتاريخ ٢٢- ١١- ٢٠١٨

*** أبناء هؤلاء الفلاحين منذ ٢٠١٤ بدأوا يحتفلون رسميا مهللين بمشاركة أجدادهم في الحرب، يعدونها افتخارا كبيرا، يفتخرون بأن أجدادهم ساقهم عدوهم كأسرى حرب إلى جبهات قتال في حرب فاجرة، حرب باطل مع باطل، ومن يرفع رأسه محتجا على هذا الاستعباد تُزهق روحه ويُلقى جسده في مدافن مجهولة، يفتخر بعض الأحفاد بهذا ولا يتجرأون خلال "الاحتفال" على انتقاد بريطانيا وفرنسا أو مطالبتهما بالإقرار بالذنب والاعتذار والتعويضات... ! يا أمة ضحكت من جهلها الأمم.. رغم أنها جوهرة الأمم.

(١٨٠٩)- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٢٧

(١٨١٠)- مذكرات سعد زغلول، تحقيق عبد العظيم رمضان، ج ٨، مرجع سابق، ص ١٨٦- ١٨٧

ويكتب زغلول متعجبا ومتحسرا أن السلطان أحمد فؤاد والوزراء برروا تقديم هذه الملايين لبريطانيا باسم تبرعات بأنها "اعترافا بجميل بريطانيا العظمى التي حمت البلاد من الغارات!"، وأن الشعب لما علم بذلك "استنزل عليهم اللعنات"[١٨١١]، فقد سلبوا قوت الشعب وفي نفس الوقت طوقوا رقبته بجميل للغازي.

كما استولت بريطانيا على الرصيد الذهبي لمصر، فقصرت التداول على الأوراق النقدية (الجنيه الورق) وألغت العملة الذهبية، وبُهت الناس وهم يرون العملات الذهبية تختفي من السوق ويجبرون على استعمال ورق، واعتبروا ساخرين وهو يقلبون الأوراق النقدية في أيديهم أن "الدنيا قلت بركتها"، في حين كان ذهب مصر محبوسا في بنك إنجلترا التابع له حينها البنك الأهلي المصري؛ فارتفعت الأسعار أضعافا، وزاد الغلاء[١٨١٢]، خاصة وأن غذاء الفلاحين من محاصيل ومواشي وردته بريطانيا لجيوشها.

❷❷ نزح مصر في حروب ليست حروبها

تابعنا كيف استنزفت إنجلترا عشرات آلاف الرجال من المصريين في توسعاتها في السودان، كما استنزفت أموالهم لإقامة مشاريعها هناك، وكيف نزحت الرجال والمال خلال الحرب العالمية الأولى، ونصل الآن إلى فخ ١٩٤٨.. فكيف تورطت مصر في هذا الفخ؟

القصة تتضح أكثر ونحن نلمس تغلغل فكر تنظيم الإخوان المسلمين والقومية العربية في مصر وإقناع المصريين بتسخير بلدهم رجالا ومالا لقضايا غيرهم، والتف دعاة المذهبين حول الأحزاب والحكومة، مستغلين أحلام حزب الوفد وفاروق في زعامة العرب والمسلمين، فقررت في ١٢ مايو ١٩٤٨ قذف الجيش في ساحة فلسطين، وبدأت الحرب فعلا في ١٤ مايو.

أي أن إعداد الجيش للحرب لم يأخذ أكثر من يومين...في حين أن الأسرة المصرية "لما تحب تتفسح في جنينة الحيوانات" يلزمها أسبوع لتجهيز نفسها.

وبحسب أحمد حمروش، أحد قيادات حركة الضباط الأحرار، فإنه قبل هذا التاريخ لم يكن اتفاق بين القوى السياسية حول دخول الحرب بالجيش النظامي، بل الأرجح المشاركة بحرب عصابات من المتطوعين يعاونهم رجال الجيش بشكل غير نظامي، باعتبار أن الإسرائيليين مجرد عصابات.

وعارض بعض الساسة، ومنهم رئيس الوزراء السابق إسماعيل صدقي، قذف الجيش إلى الحرب، قائلا إنه غير مستعد وغير مسلح بما يكفي، وفي فلسطين سيواجه العالم الغربي الذي يدعم الإسرائيليين، وبالمثل كان موقف رئيس الوزرا وقتها محمود فهمي النقراشي.. ولكن فجأة غيَّر النقراشي موقفه في ١١ مايو، وطلب عقد جلسة سرية للبرلمان لمناقشة الأمر في ١٢ مايو، ويقول حمروش إنه لما اعترض فؤاد سراج الدين، زعيم المعارضة الوفدية فى مجلس الشيوخ، وإسماعيل صدقي، خشية أن يتعرض الجيش للطعن من

[١٨١١]- نفس المرجع، ص ١٦١- ١٦٢

[١٨١٢]- انظر: الحركة القومية العربية في القرن العشرين، هاني الهندي، مرجع سابق، ص ١٦٤، وموقع البنك المركزي المصري على الإنترنت: "نبذة تاريخية عن تطور النقود في مصر"

الخلف، طمأنهما النقراشي بأن العصابات اليهودية ضعيفة، والإنجليز يؤيدون الحرب عليها، وسيكون الأمر للجيش "نزهة"[١٨١٣].

وعلق نجيب محفوظ على ذلك وهو يستعيد الذكرى المرَّة بأن الدافع الأكبر للحرب كان المظاهرات والتأجيج والتعبئة النفسية التي ضغطت لدخول الحرب، معتبرا أن الحكومة "خدعت الشعب"، وهي تطمأنه بأن الجيش قادر على دحرَ هذه العصابات، رغم عدم تأهيله بأي شكل من الأشكال.

ويصف حمروش حال الجيش حينها بأنه يعانى من نقص التسليح، فلم تكن بريطانيا أمدته بالأسلحة التى طلبها، وهو بعيد عن خوض المعارك منذ سنوات طويلة، ليس به نظام التشكيلات، أي أن أسلحته منفصلة لا تنسيق بينها، وتدريبه على المناورات قاصر، ومنذ أن سيطر الإنجليز على الجيش لم يرى الناس طوابير الجيش إلا فى مواكب المحمل النبوى والجنازات، ورغم ذلك نجحت الدعاية الجارفة في إشعال الحماس للقتال[١٨١٤].

ولا يخفى أن المظاهرات والتعبئة والدعاية كان يقودها الجمعيات والصحف السلفية والإخوانية والقوميون العرب، وانجرف لها الغافلون.

والحرب جاءت على هوى فاروق، فقد ينتصر الجيش ويصبح زعيما، ويسكت تلك المظاهرات التي تدوي منذ أشهر في الشوارع تحتج على فساد رجال الحكم والغلاء الذي دفع بعض الجنود إلى وضع أرغفة الخبز على سناكى بنادقهم أثناء المظاهرات[١٨١٥].

فضجَّ الناس بالبشرى وكدُّوا حناجرهم هتــافا أو دعــاء

هداك الله من شعب برئ يصرفه المضلّل كيف شاء[١٨١٦]

وقضت الخطة العربية بأن يتقدم الجيش المصري بسرعة حتى يافا في فلسطين على بعد ٢٠ كم من تل أبيب، وهناك تلتقي الجيوش العربية القادمة من الشرق (الأردنية والعراقية)، ومن الشمال (السورية واللبنانية)، وبذلك تكون تل أبيب محاصرة وتُجبر على التسليم وطرد قواتها وتنصيب الحكومة الفلسطينية الشرعية التي تشكلت قبل قرار الحرب.

ولكن.. لم تنفذ معظم الجيوش الخطة الطموحة، أما الجيش المصري فنفذ دوره فيها، وتوغلت قواته بسرعة في فلسطين مستخدمة الطريق الساحلي لتستولي على المستعمرات اليهودية[١٨١٧]، واتضح فيما بعد أن حكام سوريا والعراق وحتى عبد الرحمن عزام أمين عام الجامعة العربية لم يكونوا متفقين على خطة ولا قرار سياسي يحدد الهدف من الحرب، وتركوا الجيش المصري لمصيره.

[١٨١٣]- انظر: أسرار دخول مصر حرب فلسطين "الحلقة الأولى"، محمود صلاح، مجلة الأهرام العربي، ٢٨-١٠-٢٠١٧

[١٨١٤]- انظر: نفس المرجع

[١٨١٥]- انظر: المرجع السابق

[١٨١٦]- مصرع كليوباترا، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١١

[١٨١٧]- هنري كورييل- الأسطورة والوجه الآخر، د.حسين كفافي، مرجع سابق، ص ١٤٤- ١٤٥

وفي مذكراته، قال المشير طه الهاشمي إنه خلال اجتماعه في دمشق ديسمبر ١٩٤٧ مع اللوء إسماعيل صفوت قائد القوات العربية المقرر مشاركتها في الحرب، تساءل: أنا لا أدري ما هي المهمة التي أنيطت بي؟ هل القصد إشعال النار في فلسطين حتى لا تنطفئ لغرض سياسي، أم القصد القضاء على الصهيونية في فلسطين؟

وهنا اختلفت الإجابات، ففي حين قال رئيس الوزراء السوري وأحد القوميين العرب، جميل مردم، إن الهدف الأول هو المقصد، احتج على ذلك الرئيس السوري شكري القوتلي- من القوميين العرب أيضا- وطالب بالهدف الثاني الذي تم إعلانه لشعوب المنطقة، وفي اجتماع آخر في دار عزت دروزة [المفكر الفلسطيني وأحد القوميين العرب المتبنيين السخرية من الحضارة المصرية لصالح القومية العربية] في فبراير ١٩٤٨ كرر إسماعيل صفوت نفس السؤال أمام أمين الحسيني وعبد الرحمن عزام، فلم يعطه الأخير جوابا شافيا(١٨١٨).

وهكذا كان من اصطنعوا القومية العربية، ثم سوقوها للناس خلال الثلاثينات والأربعينات على أن من أهدافها إنقاذ فلسطين، يلقون بالجنود والشعوب الغافلة عامة في أتون معركة ليس لها هدف سوا إشعال الأوضاع لمصالح وحسابات خاصة بهم هم ومن ورائهم من تنظيمات سرية عالمية.

وكم هو مثير للإشفاق والغيظ منظر الجنود والمتطوعين المصريين وهم يمرون بجانب القوات البريطانية التي تحتل بلادهم ويتركونها خلفهم قابعة فوق أرضهم ليذهبوا إلى فلسطين يهبونها دمائهم وشبابهم.. وكم هو مثير للإشفاق وخبط الكف على الكف منظر الشباب المصري وهو يترك بلده ومستقبله لكي ينقذ فلسطين، في الوقت الذي تترك طوابير الشباب الفلسطيني بلدها للاحتلال الإسرائيلي وتذهب إلى مصر تختبئ بداخلها وتتنعم بثرواتها وأمانها، ثم يهزأ البعض ويسخر من الشباب المصري بعد الحرب بحجة أنهم "الجيش المهزوم"، وأنهم "من ضيع فلسطين".

فليس كلمات تصف هذه المشاهد الخارجة عن المنطق سوا أن النكبة الحقيقية لم تكن نكبة فلسطين التي وجد أبناؤها ممن تركوها ألف بديل لها، ومن بداخلها وجدوا ألف معين لهم، بل هي نكبة جديدة لمصر، والعقاب الذي حلَّ بها مرة أخرى لما ضيَّع بعض أبناؤها- خاصة المتعلمين- نعمة الشفاء والنهوض وشروق ماعت التي هيأها لها الله في ثورة ١٩١٩ لتعالج جراحها وتعيدها لطريق النور الصحيح الذي ضاع منها منذ توطين قبائل شعوب البحر قبل ٣ آلاف عام.

فتشتتوا في ألف طريق، وسلموا بأيديهم مصر أسيرة مرة أخرى للآخرين، يمتصون خيرها ودمائها وذاكرتها، ويتركونها تبكي وحيدة في نهاية المشوار، يضحك حولها من استنزفوها، منها وعليها، وهم يجلدونها بكرابيجهم، ويصرخون في وجهها: أنتي من ضيعتينا وأنتي الواجب عليكي أن تفعلي لنا كذا وكذا، وأنتي وأنتي وأنتي ...!

(١٨١٨)- انظر: الحركة القومية العربية في القرن العشرين، هاني الهندي، مرجع سابق، ص ٤٧٦- ٤٧٨

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم   يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

قالها المتنبي بعد زيارته لمصر[١٨١٩]، وسخر فيها من الإخشيديين والمستوطنين في مصر، وإن ما يصدق على المصريين في هذه الحرب التي يؤخذ فيها دمهم ومالهم وأرضهم طوعا- باسم الدين والعروبة- بعد أن كانت تؤخذ غصبا، فيجري الاستعباد بالمزاج بعد أن يكان يجري بسيف الإجبار، ربما أن يكون البيت:

أغاية الدين أن يستعبدكم غيركم   يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

3 2 اضطهاد لغة الفلاحين في معركة "العامة والعربية".. الخنجر السابع

نهضت اللغة العربية على يد أزهريين وأدباء مثل محمود سامي البارودي وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي وطه حسين، فيما سماه أهل الأدب "الإحياء والبعث"، حتى انتشرت بشكل لم يحدث من قبل في مصر، وفي المقابل تراجعت خطوات جديدة اللغة المصرية تحت وطأة انتشار التعليم وكثرة الملتحقين بالمدارس والجامعات التي نفَّرت طلابها من استخدام "العامية المصرية"، وصار من يحب الاحتفاظ بما بقى من اللسان المصري وكلماته الراسخة في الأرياف والحارات ينهره "المثقفون"، ليقولوا له إن هذا كلام "الرعاع"، و"الفلاحين"، و"الجهلة"، و"الناس البلدي"، رغم أنه أعذب الكلام وأسرعه في الوصول للأفهام والقلوب والتعبير عن المعنى المقصود.

وكلما سار مشوار التعليم، كلما سقطت في الطريق كلمات مصرية لتحل محلها كلمات عربية فصحى أو كلمات إنجليزية أو فرنسية من باب إظهار "التمدن"، و"الثقافة".

بل حتى لو نطق المصري كلمات عربية بالفصحى أو كلمات إنجليزية أو فرنسية بطريقة تناسب مخارج الحروف الفطرية في حلقه سخروا منه، بالرغم من أن العربي أو الإنجليزي أو الفرنسي إن نطق الكلام المصري بطريقة غير صحيحة بما يناسب مخارج الحروف الفطرية في حلقه لا نسخر منه، بل نرحب بأنه مجرد عرف الكلام المصري وتحدث به.. فلماذا نسخر من أنفسنا ونجبر حلوقنا أن تتلوى لتنطق لغات غيرنا بطريقتهم لا بطريقتنا في حين لهم الحرية لينطقوا كلامنا بطريقتهم؟

هو مشوار اضطهاد واغتيال لغة.. وإبادة هوية... على يد أهلها قبل أعدائها.

واختلق مثقفون عرب ومصريون ما اشتهر باسم "المعركة بين اللغة العربية واللغة العامية" بين أدباء لا يعترفون بأدب إلا لو كان بالعربية الفصحى، وبين من يرون أنه لا وصول حقيقي للمصريين ولا تعبير سليم عن حياتهم وما في صدورهم إلا بالمصرية الدارجة، وهي صورة من الصراع القائم بين الهوية المصرية وتيار القومية العربية لمسناه في دستور "الحركة العربية السرية" (الكتاب الأحمر) وهو يدعو إلى محاربة كل من يتحدث بالعامية.

[١٨١٩]- مع المتنبي، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ٢٧٨

وبالتزامن، بقصد أو بدون، هبط التقويم القبطي بما يحمله من شهور مصرية عريقة من مكانته الرسمية- لأول مرة في التاريخ- فبعد أن معتمدا رسميا إلى جانب التقويم الهجري حلَّ في ١٩٠٠ محله التقويم الإفرنجي الميلادي من جديد، وأصبح استخدام الشهور المصرية قاصرا على أهل الريف لارتباطه بالزراعة والأعياد القومية القديمة كشم النسيم وعيد رأس السنة المصرية "النيروز"، وكذلك داخل الكنيسة.

4 2 عقدة الخواجة "طالع نازل"

واصلت فتنة عقدة الخواجة نشر خلاياها السرطانية في الجسد المصري أيام الإنجليز، خاصة مع تزايد عدد المتعلمين والمبتعثين للخارج، ووصول التأثيرات الأجنبية إلى الأرياف، وجرى مثلا ما رأيناه في رواية "قنديل أم هاشم" ليحيي حقي حين عاد الدكتور إسماعيل من بعثته في ألمانيا ساخطا متأففا من أهل حارته في حي السيدة زينب، قبل أن يعود لصوابه ويعرف أن دوره بعد أن صار متعلما أن يساهم في ترقية الحارة ويعالج مشكلاتها بعلمه لا أن يحقر من شأنها، وآخرون لم يفعلوا مثله، بل ترفعوا عن أهلهم وانخرطوا في "التفرنج" وصاروا كالمسخ.

في المقابل زادت صلابة مصريين آخرين وتمسكهم بمصريتهم لما اطلعوا على حياة الأجانب داخل أو خارج مصر، وسخروا ما استفادوه من علم ومكانة لصالح المصريين، مثلما فعل رفاعة الطهطاوي وعبد الله النديم، من قبل، ومثلما فعل بعد الاحتلال الإنجليزي محمد حسين هيكل الذي دفعه حنينه لوطنه وهو يدرس الدكتوراة في باريس إلى أن يكتب رواية "زينب" لتكون أول رواية حديثة تعلو بالفلاحين على السطح، ونشرها ١٩١٤ بإمضاء "مصري فلاح"، وبرر في مقدمة الرواية سبب اختيار هذه الصفة بأنه كان يشعر بأن "أبناء الذوات" [العائلات التركية وغيرها من أصول أجنبية] ممن يزعمون لأنفسهم حق حكم مصر ينظرون إلينا جماعة المصريين وجماعة الفلاحين بغير ما يجب من الاحترام، فأردت أن استظهر على غلافة الرواية التي قدمتها للجمهور يومئذ، والتي قصصت فيها صورا لمناظر ريف مصر وأخلاق أهله أن المصري الفلاح يشعر في أعماق نفسه بمكانته، وبما هو أهل له من الاحترام، وأنه لا يأنف أن يجعل المصرية والفِلاحة شعارا له يتقدم به للجمهور، يتيه به ويطالب الغير بإجلاله واحترامه[١٨٢٠]".

ووصلت أعلى درجات تحدي الفلاحين ممن نجوا من السقوط في فتنة "عقدة الخواجة" في ثورة ١٩١٩، واعتزاز سعد زغلول بأنه فلاح، وجسدت السينما حالة المصريين الثابتين والمصريين التايهين في فيلم "الأفوكاتو مديحة" (إنتاج ١٩٥٠) عبر محمد (يوسف وهبي) الذي رغم أنه حصل على تعليم عال لكنه ظل يفخر بأهله في القرية وأصله الفلاحي ويخدمهم بعلمه، في مقابل أخته مديحة (مديحة يسري) التي حولها اختلاطها بالأغنياء والمتفرنجين في الجامعة إلى ناقمة على القرية قبل أن تعود إلى صوابها وأصلها الطيب حين تخلى عنها المتأوربون في محنتها واحتضنها أبناء القرية.

[١٨٢٠]- زينب.. مناظر وأخلاق ريفية (رواية)، محمد حسين هيكل، دار المعارف، ط ٥، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٨

▲▲▲ ثورة ١٩١٩.. عودة الروح

ربما لم نشعر كمصريين حتى اليوم بحجم المفاجئة التي زلزلت الاحتلال الإنجليزي وجالياته حين هبّت ثورة ١٩١٩ من إسكندرية إلى أسوان، بنفس صيحات ثورة ١٨٨١ مصر للمصريين لتُسقط كل جهوده في تصفية الثورة الأولى والشخصية المصرَية كتمثال هش سقط على أرض صلبة فحوَّلته هشيما تذروه الرياح.

فنعم أثَّرت الحملات ضد ثورة ١٨٨١ في بلبلة الأفكار، وتورط مصريون في تحميل عرابي مسئولية الاحتلال الإنجليزي، نعم تورط مصريون في التقليد الأعمى للفرنجة بسبب تحكم المحتلين في التعليم والصحافة، لكن لم يكن هذا النوع من الثقافة المسمومة غطى مساحات واسعة من مصر، فبقي منها من تملؤه النخوة ليقول للاحتلال: لا، وتملؤه القومية المصرية ليقول: مصر للمصريين.

ولعل السر أيضا في "الزعيم"، فطوال تاريخ الاحتلالات والشعب المصري "مطلوقة في عروقه النار"، يفور ويقاوم أحيانا، ويخمد أحيانا، وأعلى درجات الفوران تلك التي يجد فيها زعيما من روحه، يتصدر المشهد، ينظم الصفوف، ويقود شعبه بكل جسارة، لا ينتظر من المحتل وعدا ولا يخشى منه وعيدا.

بدأت الحكاية بأنه بعد إعلان الهدنة التي أطفأت نيران الحرب العالمية ١٩١٨ وإعلان الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون مبدأ حق تقرير المصير اقترح رشدي باشا، رئيس الوزراء، أن يذهب إلى لندن لعقد اجتماع مع وزارة الخارجية البريطانية وتقدم مطلب الاستقلال بعد أن قدمت لها مصر الغالي والنفيس في الحرب، فلحس البريطانيون- كالعادة- كلامهم عن تقدير دور مصر في الحرب، ورفضوا الاقتراح؛ فتشكل وفد غير حكومي برئاسة سعد زغلول، وهو وقتها نائب رئيس الجمعية التشريعية المعطلة (البرلمان)، لعرض مطالب مصر في الاستقلال على مؤتمر الصلح (مؤتمر باريس للسلام) الذي عقده المنتصرون سنة ١٩١٩ لتقسيم غنائم الحرب، ووضع أسس النظام العالمي الجديد تحت رعاية بيوت المال العالمية التي أججت الحرب.

لكن بدأ الإنجليز في التضييق عليه لمنع سفره بأن رفضوا إعطاء الوفد جوازات السفر، واعتبروه لا يمثل المصريين، وردا على الحمق الإنجليزي احتشد المصريون في كل حارة وقرية لجمع توقيعات تؤكد أنهم يكلفون أعضاء الوفد بأن يكونوا وكيلا عنهم في الحديث أمام المؤتمر، وجمعوا التبرعات لإعانة الوفد؛ تكرارا لما فعلوه عند تفويض أحمد عرابي أمام الخديوي.

وجاء في نص الورقة الموقع عليها: "نحن الموقعين على هذا أنبنا حضرات سعد زغلول باشا، وعلى شعرواى باشا، ومحمد محمود باشا، وعبد العزيز فهمى بك، ومحمد على بك، وعبد اللطيف المكباتى بك، وأحمد لطفى السيد بك، ولهم أن يضموا إليهم من يختارون، فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا، فى استقلال مصر استقلالا تاما[١٨٢١]".

[١٨٢١]- ثورة ١٩ بعد تسعين عاما، الأقباط والثورة، جابر عصفور، جريدة الشروق، ١٨ يونيو ٢٠٠٩

وتقدم مصريون مسيحيون بقائمة أسماء منهم لينضموا إلى سعد ويشاركوا الشرف الوطني- كي لا يتخذها الاحتلال حجة أن المسيحيين قابلين بالاحتلال- ومنهم واصف غالي ابن بطرس غالي الذي اغتيل في ١٩١٠، وكان واصف في باريس، فذهب إليه سفير بريطانيا بباريس خصيصا لينزع الصفة الوطنية الجامعة عن تحرك المصريين ضد الاحتلال، وقال له: "كيف تضع يدك في يد من قتلوا أباك؟ فقال واصف: هذا خير لي من أن أضع يدي في يد من قتلوا وطني"[١٨٢٢].

▼▼▼ وعيد بلفور للمصريين

أرسل وزير الخارجية البريطاني آرثر بلفور إلى المندوب البريطاني وينجت في مصر رسالة في ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ يطالبه بمنع الوفد الشعبي من السفر لباريس بأية وسيلة، وباستخدام الشدة، واصفا طلبات الوفد بالاستقلال التام بأنها "متطرفة"، واعتبر أن المصريين غير مؤهلين للحكم، وبالفعل نفذت القوات البريطانية وعيده فحاصرت الوفد لمنع التوكيلات وهددت العمد والأعيان الذين يجمعونها[١٨٢٣]، حتى وصلت إلى سفك الدماء بلا هوادة لما انفجرت الحركة الوطنية بعد ذلك.

ولجأوا لوسيلة أخرى لوأد الحركة الوليدة وهي إخفاء زعمائها، فقبض الإنجليز على زغلول و٣ من أعضاء الوفد ونفوهم إلي مالطة في ٨ مارس ١٩١٩، وكتموا الخبر عن الشعب بتحكمهم في الصحافة حتى يوم ١١ مارس كي لا يثور غضبه عند عملية النفي.

بدأت النشر صحيفة "الإيجيبشيان ميل"، وبعده نشر الإنجليز تحذيرا للشعب في الصحافة من أن "البلاد لا تزال تحت الحكم العسكري (المعلن منذ ١٩١٤)؛ ولن يُسمح بالاجتماعات أو الاحتجاجات العامة، وسُيعاقب كل من خرج على هذا الأمر"، وبعد يومين صدر أن "أي شخص يتلف أو يخرب أو يعطل بأية وسيلة السكك الحديدية أو المواصلات التليفونية والتغرافية أو يحاول أن يرتكب فعلا من هذه الأفعال يعرض نفسه لأن يُرمي بالرصاص[١٨٢٤]".

ورغم ذلك عرض الشعب نفسه للرصاص، خرجوا في المظاهرات، وأضرب موظفو الحكومة والعاملون في المهن الأخرى، وقطع غاضبون السكك الحديدية خلال نقلها جنودا بريطانيين، ووقعت حوادث هجوم ضد جنود الاحتلال، لقد ثارت جميع الناس في كل مكان.

قتلت بريطانيا في الأيام الأولى للثورة ١٠٠٠ مصري، واجتاحت بأسلحتها عدة قرى، حتى جاء في الكتاب الذي أصدره زغلول والوفد المصري في باريس أن قرى أبيدت عن بكرة أبيها، واعترف

[١٨٢٢]- مذكرات فخري عبد النور: ثورة ١٩١٩، دار الشروق، ط١، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٢

[١٨٢٣]- دار المندوب السامي في مصر، ماجدة محمد حمود، ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ٢٣- ٢٥

*** يشتهر بلفور بين المصريين بأنه صاحب الوعد المشئوم بعمل "وطن" لليهود في فلسطين، لكن معظمنا يجهل دوره في تقديم مصر "وطن" للإنجليز والجاليات الأجنبية باستمرار احتلالها واغتيال أي حركة وطنية تطالب باستقلالها حتى غاصت يداه وقدماه في دماء المصريين خلال ثورة ١٩١٩، وهذا مما يجب أن نراجع أنفسنا فيه أنه: لماذا نحفظ تاريخ غيرنا أكثر مما نحفظ تاريخنا؟ فلماذا نعرف دور بلفور في احتلال فلسطين ولا نعرف دوره المشئوم في احتلال مصر؟

[١٨٢٤]- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، أحمد رشدي صالح، فصل ترجمة كتاب الاستعمار البريطاني في مصر لإلينور بيرتز، ص ٢٨

س.هارمزورت أحد المتحدثين بلسان الحكومة البريطانية في مجلس العموم بأن من قُتل من المصريين بلغوا حوالي الألف، وفي ٢١ مارس نشر الجنرال بلفين تحذيرا للمصريين في منشورات أسقطتها الطائرات أنه سيعاقب على كل تخريب أو تدمير للسكك الحديدية بأن تُحرق القرى المجاورة لمكان التخريب[١٨٢٥]"، وأحرق فعلا عدة قرى في تكرار لحرق القرى زمن الاحتلالات العربي والمملوكي والعثماني والفرنساوي.

- وأعلن بلاغ رسمي آخر أنه "تقرر أن تزور القوات الحربية الأجزاء القصوى في البلاد لتعيد تنظيم السلطات المدنية، وتقبض على المعتدين، وتتخذ أية خطوات تراها لازمة لإعادة النظام إلى نصابه"، وفي هذا إشارة إلى أن الثورة تلتهب في كل قرى البلاد من أقصاها إلى أقصاها.

ونشرت "إيجيبشيان ميل" أنه في ٢٤ مارس ألقيت القنابل بالفعل على قرى غربي مديرية البحيرة، وفي أول أبريل كانت ١٦ فرقة متحركة تعمل في وجه بحري، وحكم على ٥١ مصريا بالإعدام ونفذ الحكم في ٢٨ منهم لاتهامهم بقتل ضابطين وخمسة جنود[١٨٢٦]، في دنشواي جديدة وأكثر عنفا من سابقتها، ونصبت قوات الاحتلال مشانق المحاكم العسكرية في أرجاء البلد، ولم يفلت منها حتى رجال الشرطة الذين ساعدوا الثوار، ففي أسيوط حكم بالإعدام على البكباشي محمد كامل محمد مأمور البندر، ونفذ فيه الحكم ١٠ يونيو ١٩١٩، وحكم على ثائرين آخرين بالأشغال الشاقة[١٨٢٧].

وهنا.. نتوقف عند واقعة مهمة تذكرنا بما حصل في مذبحة الإسكندرية ١١ يونيو ١٨٨٢ التي هدفت لتبرير وجود الاحتلال بأنه لحماية الأجانب من المصريين، فإنه في ٢٢ و ٢٤ مايو ١٩٢١ حدثت مصادمات بين المتظاهرين والبوليس المحكوم إنجليزيا والقوات البريطانية، وداخل الأحياء التي يسكنها الإيطاليون واليونانيون فوجئ المصريون بالإيطاليين واليونانيين يطلقون عليهم النيران، فوقعت اشتباكات بينهم استشهد فيها ٤٣ مصريا وقتل ١٢ يونانيا و٣ من جنسيات أوروبية أخرى، وبحسب فخري عبد النور- أحد أعضاء الوفد حينها- فإن الشكوك تحيط بأن الضابط الإنجليز "انجرام" مأمور الضبط بالإسكندرية له أصابع في هذا الصدام، خاصة وأن ونستون تشرشل تحجج بهذه الحادثة لتبرير استمرار الاحتلال بقوله إن بلاده لو سحبت الجيش البريطاني من القاهرة والإسكندرية لتم القضاء على الجاليات الأوروبية هناك[١٨٢٨]، وهكذا تتكرر ألاعيب الاحتلال ويستمر في استغلال المستوطنين الأجانب سلاحا ضد أهل البلد، ومبررا لقتلهم واحتلالهم.

وكادت المذابح تصل لرقاب وصدور قادة الثورة، فينقل عباس العقاد عن السفير الأمريكي الأسبق في مصر، موتون هول، ما ورد من شهادة له في كتابه "مصر ماضيا وحاضرا ومستقبلا"، إن اللبني خطط لقتل سعد زغلول ورفاقه بإعدامهم بتهمة الثورة والخيانة العظمى، إلا أنه من الواضح أن بريطانيا رفضت خطته

(١٨٢٥)- نفس المرجع، ص ٢٩
(١٨٢٦)- نفس المرجع
(١٨٢٧)- مذكرات فخري عبد النور: ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، ص ٧٦
(١٨٢٨)- نفس المرجع، ص ١٥٢ و١٥٨

لحساب ما، واكتفت بعملية النفي[١٨٢٩].

وهو نفس ما جرى مع عرابي.. نفس الخطة، نفس التهمة، نفس المصير، لنفس السبب، أن كلا منهما قاد الفلاحين أولاد الشمس ليقولوا للمحتلين أولاد الظلام... لا.

استمرت الاحتجاجات بأشكالها المختلفة من إضرابات ومظاهرات من حين لآخر حتى نهاية ١٩٢١، وقام اللنبي بمحاولة نهائية ليحمل الحكومة المصرية على توقيع معاهدة، ولكنه فشل في محاولته، ومنع اللنبي سعد زغلول من أن يعقد اجتماعات سياسية، أو أن يستمر في نشاطه السياسي، وهدده بالنفي، وفي ٢٣ ديسمبر ألقى القبض عليه، ورحل إلى السويس ليبعث إلى سيلان، منفى عرابي الشهير.

وحين بلغ الخبر الناس، احتشدوا في مظاهرات حول بيت الأمة بالقاهرة، ففرقها البوليس المحكوم بضباط إنجليز بعد استشهاد اثنين وإصابة ٩، وقبض على ٥ من قيادات الوفد منهم مصطفى النحاس.

ورغم كل شيء، ظلت الثورة "قايدة نار" ٣ سنين، ففي ٢٥ ديسمبر ١٩٢١ أرسل اللورد اللنبي التقرير التالي إلى لورد كيرزون: "القاهرة جميع المدارس مضربة، إضراب موظفي الحكومة عام الآن، عدد القتلى المصريين في القاهرة ١١، وفي يوم ٢٣ قتلت الجماهير كهربائيا أوروبيا فقيرا يسكن الأحياء الفقيرة، عدد المقبوض عليهم حتى الآن ١٨٦، الإسكندرية لم يحدث تغيير، الموقف في يدنا. بلغ المقبوض عليهم حتى الآن ٢٨٩ منهم ٢٣٢ صبيا. وصل مندوبو حكومة جلالة الملك. منطقة القنال حدثت مظاهرات عنيفة هذا الصباح، وسلمت المدنية آخر الأمر إلى السلطات الحربية التي اضطرت إلى أن تطلق النار على الجموع التي رفضت أن تنصرف، الخسائر قتيل و٣ جرحى مصريون، ويؤيد القوات الحربية ٦٠ من لابسي الستر الزرقاء من حرس السفن"[١٨٣٠].

▲▲▲ ثمرات ثورة ١٩١٩

بتعبير يحيي حقي لبرنامج "شريط الذكريات" في التلفزيون المصري فإن ثورة ١٩١٩ هي ثورة الاستقلال في كل شيء، وليس فقط الاستقلال الحربي، فقد سعى كافة المصريين في كل المجالات لتأكيد هذا الاستقلال، وإثبات جدارتهم لإدارة بلادهم في كافة النواحي.

ونلتقط أمثلة من هذا بما يسمح به المجال في استعراض لمحات من نتائج الثورة على حياة مصر.

❶ أول رئيس وزراء مصري بإرادة مصرية منذ مئات السنين

عرابي هو أول وزير حربية مصري منذ مئات السنين بفضل ثورة ١٨٨١، وصار بطرس غالي أول رئيس وزراء مصري، ولكن تعيينه بعد حادثة دنشواي التي ترأس محكمتها الهمجية جعلت تعيينه يظهر

(١٨٢٩)- سعد زغلول سيرة وتحية، محمود عباس العقاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٧، ص ٤١١
(١٨٣٠)- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٠- ٣١

كمكافئة من الاحتلال، خاصة وأنه عمل سنيدا للاحتلال منذ اصطف لجانبه فور معركة التل الكبير.

أما الوزارة التي جاءت بسعد زغلول رئيسا لها فالجديد أنها ليست مصرية فقط في رئيسها، ولكن الأهم أنها اختيار مصري محض، جاءت بها ثورة الشعب وليس الإنجليز أو الخديوي الأرناؤوطي، وجاءت بأول انتخابات حرة، رأي الفلاحين فيها واضح وحاسم، فانتخبوه رئيسا للوزارة بعد أن انتخبوه بدمائهم قبل أحبارهم في توكيلات التفويض له رئيسا للوفد المتحدث باسم مصر في مؤتمر الصلح بباريس، ويشببها في ذلك انتخابهم المباشر لعرابي حين فوضوه ليطالب بحقوقهم أمام الخديوي الأرناؤوطي.

فرغم كل ما فعلته بريطانيا من قتل ونفي وحبس وتقسيم وإرهاب على مدى ٥ سنين، إلا أنه في أول انتخابات برلمانية تجري في مصر يناير ١٩٢٤ فاز الوفد بأغلبية المقاعد، وبرهنت جموع الناخبين أنها كانت تشد أزر سعد زغلول حتى ذلك المدى[١٨٣١].

❷ إفشال فرض الحماية البريطانية رسميا

خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الأولى منتصرة، فازداد بطشها بطشا، وغرورها غرورا، وظنت أن مصر دانت لها للأبد، وتكتلت معها دول غربية في الموافقة على فرض حمايتها على مصر؛ ففوجئت بانفجار ثورة ١٩١٩ التي أجبرتها على سحب الحماية المزعومة.

❸ أول برلمان مصري منتخب شعبيا

جاءت ثورة ١٩١٩ بأول برلمان منتخب شعبيا حقا في انتخابات ١٩٢٤ التي جاءت بسعد زغلول.

❹ دستور ١٩٢٣

كان دستور ١٨٨٢ ثمرة من ثمرات ثورة ١٨٨١ كأحد مطالبها التي أصرت عليها، وهو تطور هايل وقتها، لكنه لم يركز على الحقوق الخاصة بالشعب المصري، بل ركز على حقوق وواجبات نواب مجلس النواب، ومعظمهم غير مصريين في الحقيقة، وطلبوا هذه الحقوق والواجبات لحماية نفوذهم ومنع الحاكم من مصادرة الأراضي التي سقطت في حجورهم، وجاء دستور ١٩٢٣ بعيدا عن الطموحات الشعبية الحقيقية أيضا، وجرى تفصيله ووسعد زغلول في المنفى، إلا أنه تضمن ميزة أنه نص على أن مصر دولة مستقلة، وهو إن كان استقلالا صوريا، ولكنها المرة الأولى التي يُعترف فيها بأن مصر دولة غير تابعة منذ مئات السنين.

فقد نصت مادته الأولى على: مصر دولة ذات سيادة، وهي حرة مستقلة، ملكها لا يجزأ ولا ينزل عن

(١٨٣١)- انظر: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٢

شيء منه، وحكومتها ملكية وراثية، وشكلها نيابي[١٨٣٢].

❺ التعليم الأولي إلزامي ومجاني

نشأت المدارس أيام محمد علي بشكلها الحديث، وزادت أيام إسماعيل ولكن توفير التعليم ظل حسب مزاج الحاكم، يوفره أحيانا ويغلق المدارس أحيانا، فألزم دستور ١٩٢٣ الدولة بتوفير التعليم الأساسي بصفة دايمة وبالمجان، وكان هذا هدف من أهداف بعض قادة ثورة ١٨٨١.

فنصت المادة ١٩ على: "التعليم الأولى إلزامي للمصريين من بنين وبنات، وهو مجاني في المكاتب العامة"، ولكن لأن واضعي الدستور وضعوا المادة فقط لضمان التأييد الشعبي للدستور، دون رغبة حقيقية في تعليم الشعب حتى لا ينافسهم في المناصب والثروات ويطالب بحقوق المصريين، فإن تطبيق هذا المادة لم يتم إلا بالتدريج البطئ جدا، لم تبن الحكومة المدارس الكافية لتصل للناس في الأرياف، ولم تصدر قانونا بتطبيق المادة الدستورية، وعافر طه حسين ونجيب الهلالي بمبادرات فردية لإلزامها بتطبيقه حتى تم هذا للابتدائي سنة ١٩٤٣ وصدر قانون للثانوي ١٩٥٠، ولكن ظلت تماطل في بناء المدارس اللازمة لتوصيل المجانية للأرياف، ويستدل على هذا من مضابط النواب في مجلس النواب في جلستي ٢٣-٥- ١٩٣٣ و ٩-٦- ١٩٣٧ يطالبون فيها بعدم التوسع في إنشاء المدارس خوفا من أن تحدث "ثورات نفسية حين يتعلم ابن الصراف وابن الساعي" بتعبير النائب وهيب دوس، وأنه يكفي تعليم أبناء الفقراء القراءة والكتابة والحساب لأن الهدف من تعليمهم "ليس إعداد محامين" بتعبير النائب عبد الله لِملوم، وأن تعرض أبناء الريف للتعليم وحياة المدينة جعلهم يلبسون "البلاطي والجوارب والأحذية ويحملون أدوات العمل على أكتافهم وهم ركوب فوق الدراجات" ويخرجون بـ"الجلاليب المكوية"، ولو استمر الحال على ذلك "سيأتي بعدهم قوم يركبون السيارات لا يزعم وازع ولا يدفعهم إلى حقولهم دافع"، ويتحول "أصحاب الجلاليب الزرقاء إلى أصحاب الجلاليب المكوية" بتعبير النائب محمد عزيز أباظة[١٨٣٣]، مع الإشارة إلى أن معظم النواب إضافة إلى أنهم وصلوا لمنصب النائب على أكتاف صاحب الجلاليب الزرقاء فإن كثيرا منهم مستوطنين قدمت عائلاتهم لمصر مشردة أو من بطون الجاهلية بالغارات أو التسلل أو على كتف احتلال، وبدلا من أن يتمصروا حقا عاشوا يعاملون الفلاح ابن الحضارة بروح الغزاة الغالبين.

❻ "تمصير" الوظائف العامة.. شكليا

ومن مكاسب ثورة "مصر للمصريين" في دستور ١٩٢٣ أن تقتصر الوظائف العامة العسكرية والمدنية على المصريين فقط (المادة ٣)، ويشكل الوزارة مصري (المادة ٥٨)، وليس أحدا من العائلة المالكة (المادة ٥٩).. ولكن بدا التمصير شكليا، فقد أحدثت كلمة "مصري" خلافا، فبينما أراد المكباتي أن من يتولى الوزارة يكون "مولودا مصريا"، أصر حسين رشدي (التركي) على أن يكون فقط "مصري" (مجنس)، ليتسنى الفرصة لبني جلدته الحصول على هذه المناصب، فظل يتسلل للمناصب الهامة مستوطنون أجانب، مثل أحمد زيور باشا

(١٨٣٢)- راجع ظروف وضع دستوري ١٩٢٣ و١٩٣٠ في: تاريخ الدساتير المصرية، وقع الهيئة العامة للاستعلامات
(١٨٣٣)- كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري (١٩١٤- ١٩٥٢)، عاصم الدسوقي، ص ٣٠٤- ٣٠٦

الذي صار رئيسا للوزراء (من عائلة شركسية تحمل الجنسية اليونانية)، وهكذا ظلت معظم مناصب الدولة العليا في الحقيقة مصريا اسمها، أجنبية واقعا. كما ماطل الأوروبيون في ترك الوظايف التي أخذوها بعد الاحتلال، وآخرون تحايلوا بالرجوع لنفس الوظايف بنظام العقود بعد خروجهم منها.

❼ بدء تمصير الاقتصاد

دين مصر العام وقتها ٩١ مليون جنيه، تدفع الخزانة ٣ مليون ونصف مليون فوائد سنوية[١٨٣٤].

ويدمي القلب أن يرُى الفلاحون أمام محلات الربا والبنوك الأجنبية يلحون عليها أن تصبر عليهم عند عجزهم عن سداد ديونهم، أو يرُى ملامح القهر في وجوههم حين يخسرون أراضيهم ومنازلهم لعجزهم عن سداد الديون وحجم الفوائد التي تفرضها القلوب الأجنبية الغليظة عليهم.

فاعتزم طلعت حرب انشاء بنك مصري يمول الفلاحين دون ابتزازهم- وهي فكرة بدأ عرابي وآخرون تنفيذها في ثورة ١٨٨١ ولم يطل بالثورة العمر لاستكمالها- فكان بنك مصر الذي أنشأه عبر حملة لشراء الأسهم، ساهم فيها الأغنياء والفقراء، كل بما يقدر عليه من جنيهات كثرة أو قلت.

ولم يتوقف البنك عند هذا الحد، لكن أرسى سلسلة شركات ومصانع هدفها ليس فقط الربح، ولكن توفير الصناعات المصرية لتقليل اعتماد المصريين على السلع الأجنبية، ولتوفير فرص عمل للمصريين في أماكن مصرية، يشعرون فيها بكيانهم وحريتهم، بعيدا عن تحكم صاحب رأس المال الأوروبي.

ففي ١٩٢٦ أنشا بنك مصر ٤ شركات مصرية أكبرها تعمل في الغزل والنسيج؛ فقل استيراد المصريين للمنسوجات والملابس، وفي نفس السنة اشترت شركة مصرية أكبر مصانع السجائر في مصر، وفي ١٩٢٧ صدر قانون الشركات وينص على أن يكون في كل شركة مديران مصريان على الأقل، وأن يحتفظ بنسبة معينة من رأسمالها للمصريين، وصدر قانون في سبتمبر ١٩٢٧ بإعطاء امتيازات خاصة للجمعيات التعاونية التي يكون جميع أعضائها مصريين[١٨٣٥].

ورغم كل وسايل الأجانب لتحطيم ثقة المصريين بمهاراتهم، انطلقت حملات تشجع شراء المنتج المصري ومقاطعة الإنجليزي، ساعد فيها الشعراء والمطربون بتحميس الناس، ومنهم يونس القاضي وسيد درويش وصوته يلعلع بكلمات شبيهة بكلمات عبد الله النديم وهو يدعو خلال ثورة ١٨٨١ لدعم المنتج المصري:

مش بزيادانا بقينا عـــرة   وكل حاجة من شغل برة

شوف الخواجا قلع عينينا   وآخر المتمة فلس علينـــا

[١٨٣٤]- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ترجمة كتاب الاستعمار البريطاني في مصر للبريطاني إلينور بيرتز، مرجع سابق، ص ٥٢

[١٨٣٥]- المرجع السابق، ص ٥٧- ٥٨

وقال:

إمتى بقى نشوف قرش المصري يفضل في بلده ولا يطلعشي[١٨٣٦]

8 تمصير الفن

في معظم الاحتلالات، وبعد غلق المعابد المصرية ومنع معظم الاحتفالات المصرية القديمة الرسمية، اختفت الفنون المصرية من الساحة العامة، وخاصة المدن التي يستوطنها الأغراب، وغاصت مع المصريين بين الحقول في الأرياف، يزينون بها مناسباتهم الشعبية والخاصة، ولا يسمعها إلا هم.

على الجانب الآخر، كانت الجزر المنعزلة، أي المستوطنات الأجنبية غارقة في الفنون الأجنبية الخاصة بها، وحتى ما استفادت به من الفنون المصرية لا يكون معلنا أنه من الفنون المصرية.

ولكن الفرصة التي توفرت لبعض المصريين الموهوبين في التوجه إلى العاصمة والاقتراب من أهل السلطة أخرجت بعض الفن المصري من عقاله، وتمثل هذا في عبده الحامولي، ومحمد المسلوب، ومحمد عثمان القادمين من المحافظات والأرياف بروحهم المصرية وما في وجدانهم من نغمات وكلمات مصرية، فزحزحت الركاد العثمانلي والمستورد في بحيرة الفن بموجات مصرية عذبة.

وشاعت عن طريقهم الأغنيات بالكلام المصري، وتراجع لحد ما الكلام العثمانلي، حتى لقب عبده الحامولي كان مصريا، فناداه معاصروه باللقب المصري العريق "سي" (وهي كلمة مصرية قديم خالصة ومؤنثها ست) وأصبح "سي عبده"، وألماظ تسمت بـ"الست ألماظ"، ولم يناديهم الناس بأفندي وهانم.

هذه الدفعة هي الأرضية التي تلقفتها ثورة ١٩١٩ مجسدة في سيد درويش الذي عمل وسط العمال والمزارعين، فنقل نغماتهم ووجدانهم وتعبيراتهم المصرية الحلوة إلى أغانيه ليصبح "فنان الشعب" ويغني آلام وآمال الشعب وليس الحاكم الأجنبي، فأكمل إعادة الفن المصري إلى عرشه، وليمجد قيمة أولاد البلد، فغنى للمزارعين والعمال والزعما الوطنيين والصنايعية والست المصرية ولصنع في مصر وشرف الأصل المصري وحضارة الأجداد.

ولمع حينها رواج أغنيات تشدو بحب مصر، فيما عرف بالأغاني الوطنية، فلم يكن شائعا في الساحة العامة في فترات الاحتلالات أن يشدو مطربا مشهورا بحب مصر، فهزّ سيد درويشَ بكلماته وكلمات يونس القاضي وعبد البديع خيري وبيرم التونسي الوجدان بأغاني مثل "قوم يا مصري"، و"أنا المصري كريم العنصرين"، وأيضا "بلادي بلادي لكي حبي وفؤادي" المأخوذة من نبضات مصطفى كامل.

ومع سيد درويش وبعده، سار على نفس الخطى أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وزكريا أحمد وغيرهم ممن

[١٨٣٦]- سيد درويش فنان الشعب والثورة الدائمة، السيدة زهرة، مجلة أدب ونقد، العدد ٢٤٧، القاهرة، مارس ٢٠٠٦، ص ٧٠

كانت المصرية عنوانهم الأول كلمة ولحنا وأداء.

وفي النحت، تراجع صنع التماثيل المصرية مع الاحتلالين اليوناني والروماني، وحلت محلها التماثيل اليونانية والرومانية، ولم يشجع العرب والمماليك النحت، ثم جاء الأوروبيون زمن محمد علي ليشيدوا تماثيل بطريقتهم للحكام الأرناؤوط، فجاءت ثورة ١٩١٩ بمحمود مختار من على شط الترعة في عمق الريف ليكون أول مصري يلتقط الإزميل الذي سقط من يد أجداده- حسب التعبير البليغ الشائع عنه- ويعيد به الإعجاز المصري في إنطاق الأحجار لتتكلم من جديد بالمصري؛ فيصنعها مصريون بملامح مصرية لشخصيات مصرية، فشاع في أعماله تماثيل المزارعين، والعمال، وزعماء الأمة مثل سعد زغلول، وأشهر أعماله تمثال "نهضة مصر" الذي جسد في صورة الفلاحة مع أبو الهول آمال الأمة في التحرير والفخر بكل ما هو مصري من فن وملابس وملامح وأسامي، وشمخت الفلاحة بملابسها الريفية منصوبة الضهر وسط العاصمة لأول مرة منذ الاحتلالات.

وفي المسرح، قدمت المعابد المصرية أول مسرح، هو تمثيل حكاية إيسة "إيزيس" وأوزير "أوزيريس" وحكاية حور (حورس) وست في الاحتفالات الرسمية والدينية سنويا[١٨٣٧]، وتوقف كغيره من فنون مصرية مع صاعقة الاحتلالات، ولما عاد المسرح لمصر بصورته التقليدية في القرن ١٩ كان المسيطرون على ساحته اليهود والشوام والأوروبيون لإمكانياتهم المادية، وتدريبهم على يد الأوروبيين، وكان مبتذلا في أكثره، وإن سعى عبد الله النديم لإعادة المسرح المصري الراقي عبر المدرسة حين كان يعمل مدرسا قبل ثورة ١٨٨١، وكتب وقدم مسرحيات، منها "الوطن".

ومن بعده قليل من المصريين من استطاع أن ينضم للمسرح قبل ثورة ١٩١٩، ومنهم علي الكسار، وبعد الثورة انتقلت روح الفخر بالهوية المصرية إلى المسرح، وتلقفها يوسف وهبي بفرقة "رمسيس"، وساهم في تمصير المسرح سيد درويش ونجيب الريحاني وبديع خيري، فكرا ولغة، ونُقل عنه الريحاني قوله: "عايزين مسرح مصري، مسرح ابن بلد، فيه ريحة الطعمية و"الملوخية، مش ريحة البطاطس المسلوقة والبفتيك".

وبعد دخول السينما لمصر وسيطرة اليهود والأجانب عموما عليها بأفكارهم المسيئة، سعى طلعت حرب لتمصيرها بتأسيس شركة مصر للتمثيل والسينما واستديو مصر؛ لإيمانه بأن الاقتصاد ليس هدفا في حد ذاته، بل هو وسيلة لخدمة الشعب بتعليمه القيم التي ترسخ اعتزازه بنفسه وتحفظ هويته، وأوفد بعثات لتعليم فنونها في الخارج، والتزمت بعض الأفلام قضايا نصرة الفلاح وابن الحارة وتشجيع الصناعة المصرية مثل فيلمي "بيومي أفندي" و"العزيمة".

⑨ تمصير الأدب

قبل ثورة ١٩١٩ كانت معظم أعمال الشعر والروايات والكتب تأخذ طابعا عربيا إسلاميا، سواء في المضمون أو اللغة العربية الرصينة باستثناء قليل يجسده عبد الله النديم الذي تجرأ وقدم أعمالا باللغة

[١٨٣٧]- تاريخ المسرح عبر العصور، مجيد صالح، الدار الثقافية للنشر، ط١، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٥

المصرية الحديثة تدور في أجواء الحارة والريف ومحمد حسين هيكل الذي قدم رواية "زينب" ١٩١٤ عن الريف، ووقعها باسم "مصري فلاح"، وبعد ثورة ١٩١٩ دبت روحها في أوصال الأدباء، فتدفقت الأعمال الأدبية العاشقة للقومية المصرية، وسخروها للبيئة المصرية، ومنهم توفيق الحكيم ويحيي حقي ونجيب محفوظ ويوسف وهبي الذي كتب أفلاما تمجد أهل الحارة والريف ، و"ابن الحداد" و"ليلى بنت الريف".

⑩ الأزهر والكنيسة في روح واحدة

بعد مئات السنين من الرزوح تحت حكم أباطرة رومان أعلوا شأن المسيحي- وخاصة لو أجنبي- على ابن البلد، ثم الخلافة الإسلامية التي أعلت شأن المسلم- وخاصة لو أجنبي- على ابن البلد لفَّ الثوب الوطني المصريين خلال ثورة ١٨٨١، وبشكل أوضح ظهر هذا في ثورة ١٩١٩ فهتف الشيخ أمين الخولي خلال مظاهرات ١٩١٩ بأعلى صوته إن "المصري النصراني أقرب لي من المسلم التركي"، وفي قول آخر: "إن ما بين مسلمي مصر وأقباطها أقرب مما بينهم وبين المسلمين الأتراك"، فكان محوا لمئات السنين من التفريق الشيطاني بين المصريين.

وأنشد الشاعر محمد عبد المطلب بيته البليغ(١٨٣٨):

كلانا على دين به هو مؤمن	ولكن خذلان البلاد هو الكفر
إذا ما دعت مصر ابنها نهض ابنها	لنجدتها سيان مرقس أو عمرو

وخرج الأزهريون والقساوسة ممسكين بأيدي بعضهم، متراصين الأكتاف في الشوارع، يواجهون رصاص الاحتلال هاتفين "تحيا مصر"، "يحيا الهلال مع الصليب"، وظهرت الدعوة إلى أن يتبنى الأزهر ليس فقط قضايا المسلمين، بل هوية مصر أيضا، وتدعيم أركان الشخصية المصرية، كما جاء في كتاب طه حسين "مستقبل الثقافة في مصر"، وكتابات الشيخ أمين الخولي.

ومن اللافت أن ممن خطبوا في الأزهر القس سرجيوس، وكان قبل ثورة ١٩١٩ دائم الشكوى من تدهور أحوال المصريين المسيحيين منذ دخول العرب لمصر، ولكن حين حانت اللحظة الفارقة في حياة مصر كلها، انضم للشيخين الخطيبين محمود أبو العيون ومصطفى القاياتي لتحميس الناس على الجهاد ضد الإنجليز، وقال قولته المشهورة من فوق منبر الأزهر: "إذا كان الإنجليز يتمسكون ببقائهم فى مصر بحجة حماية القبط فأقول ليمت القبط وليحيا المسلمون أحرارا"، و"إذا كان استقلال المصريين يحتاج إلى التضحية بمليون قبطى، فلا بأس بهذه التضحية(١٨٣٩)".

وخلال وضع دستور ١٩٢٣، كانت المواطنة من المبادئ التي استغرقت مناقشات كبيرة، وارتفع شعار "الوطنية ديننا"، ورفض المصريون المسيحيون أن يكون للمسيحيين نصيبا "كوتة" في المقاعد بالتعيين

(١٨٣٨)- شعراء الوطنية في مصر، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، ط٣، ص ٢٣٥
(١٨٣٩)- ثورة ١٩ بعد تسعين عاما، الأقباط والثورة، جابر عصفور، جريدة الشروق ، ١٨- ٦- ٢٠٠٩

لتسد النقص في حال عدم انتخاب عدد ملائم منهم، وقالوا، وفق ما نقل سلامة موسى، إننا أمة مواطنة، ويجب أن يتساوى الجميع في الانتخاب، ولا يكون هناك تمييز بين المواطنين، ولا يكون هناك مزية لأحد على بقية أبناء الوطن[١٨٤٠].

ونختتم هذه اللمحات من ثورة ١٩١٩ ودورها كخطوة عزيزة في مشوار تحرير مصر من أسرها وسجنها بقول سعد زغلول وهو في منفاه في مالطة يتابع أخبار الثورة التي تفاجئ بها شخصيا:

"فحيا الله الأمم إذا عرفت واجبها، وحياها إذا اتحدت على المطالبة، وحياها إذا هي أبناؤها خاطروا بأنفسهم في سبيل استقلالها"(١٨٤١).

وكشاهد عيان عاصر الثورة المصرية قال توفيق الحكيم في كتابه "فن الأدب":

"لقد انكشفت لعيني وقلبي معجزة مصر عام ١٩١٩، ورأيت الثورة في كل مراحلها تسفر عن روح خفية باقية أبد الدهر, نابضة تسعف مصر بين حين وحين"[١٨٤٢].

إنها هي يا حكيم.. الخالدة أبد الدهر.. روح ماعت

"إنها [ماعت]لا تتغير ولا تتبدل منذ زمن الذي أوجدها"[١٨٤٣].

(الحكيم بتاح حتب)

"إن صلاح الأرض (مصر) ينحصر في تطبيق الماعت"[١٨٤٤].

(الفلاح الفصيح في شكواه الثالثة)

▼▼▼ وسائل تصفية ثورة ١٩١٩

مثل ثورة ١٨٨١، قامت ثورة ١٩١٩ والبلد يحكمها ويتولى أعلى مناصبها ويتحكم في ثروتها المستوطنون الأجانب، القدامى منهم والقادمون طازة، ومثل ثورة ١٨٨١ فإنها لم تسعَ للتخلص من هؤلاء (الترك والشركس واليهود والشوام والأرمن واليونان وقبائل البدو المحتفظة بانتماءاتها الأجنبية إلخ)، خاصة أن بعضهم أظهر مساندة الثورة في البداية حتى يلدغونها اللدغة المميتة في اللحظة الفارقة، ويفرقوا كلمتها، مستغلين نفوذهم، يتبعهم عدد قليل من المصريين التايهين، لكن مؤثرين، ويتحدث هؤلاء باسم المصريين، فيُنحى الزعماء الحقيقيون، ويسير الغرباء ومن تبعهم بالثورة بعيدا عن مجراها، كالثعلب يهرب بفريسته منتشيا.

[١٨٤٠]- نفس المرجع

[١٨٤١]- مذكرات سعد زغلول، ج ٩، مرجع سابق، ص ٨٨

[١٨٤٢]- فن الأدب، توفيق الحكيم، دار مصر للطباعة، القاهرة، ص ٤٩

[١٨٤٣]- انظر: مقدمة علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

[١٨٤٤]- نفس المرجع

وسقطت ثورة ١٩١٩ أيضا في خطيئة ثورة ١٨٨١ وهي أن بعض قادتها فسروا "مصر للمصريين" بأن يتساوى المصري بالمستوطنين الأجانب، لا أن يعلو ويكون له السيادة وحده.. أي أنها ثورة ناقصة.

واستخدم المحتلون لتصفية الثورة نفس الأسلحة التي استخدموها في ١٨٨٢ مع أسلحة أخرى جديدة.



معظم المتظاهرين كانوا الفلاحين في القرى والمدن، بملابس بالية وأقدام حافية يحتضنون حلمهم بمصر حرة وهم أعزاء حكام لبلدهم، حتى اختطف ثورتهم من جديد الغزاة القدامى والجدد (الصور: الجامعة الأمريكية، وموقع **King's College London**[١٨٤٥])

▼ إنكار وطنية الفلاحين

يقول يحيي حقي: "بدأت الناس تألِف لأول مرة كلمة "الشعب"، تنطقها بكسر الشين، لا بأس، فلم تكن ثورة مثقفين وحدهم أو فلاحين وحدهم أو عمال وحدهم، بل ثورة الشعب كله اتحد في عجينة واحدة، ولم تعد كلمة "فلاح" سبة".

ولكن كعادتها سعت بريطانيا للحط من قدر الفلاحين، ونزع صفة الوطنية عنهم، أنكرت حقهم في أن يكون لهم أرض ووطن يدافعون عنه من الأساس، فصدرت صحفها تصف الثائرين بالغوغاء والرعاع، ولكن هذا الوصف لم يحبطهم، بل زادت تحديهم للانتقام لكرامتهم.

وعبر عن هذا الانتقام المصري جنازة الشهيد ابن القباقيبي، فالصبي ابن القباقيبي (١٤ سنة) هو ممن تصفهم صحافة أوروبا بـ"الرعاع"، ولكنه وهو الفقير، ابن حي السيدة زينب، ووحيد أبيه الذي يعمل معه في الدكان، ويسير حافيا رغم أن والده مهنته عمل القباقيب، ثار في وجه بريطانيا، أعزلا من كل سلاح، عدا كرامته ووطنيته والقبقاب الذي رفعه في وجه الاحتلال، استشهد البطل المجهول اسمه، وسقط بين أيدي أبناء وطنه الثائرين، فصنعوا له جنازة عظيمة، سار فيها الأغنياء جنب الفقراء، والمستشارون والمحامون والقضاة، والطلبة والتلاميذ، وسموها جنازة "ابن القباقيبي"، كأنهم يبعثون بها رسالة إلى

(١٨٤٥)- الجامعة الأمريكية بالقاهرة توثق رقميا مجموعة من الصور النادرة لتاريخ مصر من ١٩١٣- ١٩٢١
https://www.aucegypt.edu/index.php/ar/node/7781
Telegraphing Revolt: Protest Diffusion in the 1919 Egyptian Revolution
https://www.kcl.ac.uk/events/telegraphing-revolt-protest-diffusion-in-the-1919-egyptian-revolution

أوروبا: "انظري الرعاع يشيعون بطل الرعاع"، ولم تشبهها جنازة أخرى طوال الثورة[١٨٤٦].

وحرص سعد زغلول على إعادة الاعتبار للفلاحين الأصحاب الحقيقيين لهذا الوطن المغتصب، فيقول على رءوس الأشهاد في خطبه إن الفلاح: "يخفي تحت الثياب الزرقاء نفسا أبية وقلبا طاهرا"[١٨٤٧].

كما حرص على أن يكون ممثلا للفلاحين في روح الإباء هذه في وجه المحتلين- بعد أن فوضوه باستعادة حريتهم- فيقول عبد العزيز فهمي (عضو الوفد قبل أن ينضم لحزب الأحرار الدستوريين) لسعد وهو يصر على الاستقلال التام: "إنني ألاحظ أنك تتكلم مع وزير خارجية بريطانيا بلهجة عنيفة.. تذكر إننا شحاذون، نشحذ استقلالنا"، فقال له سعد: "أنا لا أشعر أبدا أمامهم أنني "شحاذ" بل أشعر أنني صاحب حق يواجه لصا سرق بلاده، ويطالبه بإعادتها إلى أبنائها!"[١٨٤٨].

في المقابل فإن عدلي يكن (ألباني قريب محمد علي) بعد أن استولى على أن يكون هو المفاوض "باسم المصريين"، فإنه خلال مفاوضاته مع كيرزون لم يصر على تحرير حقيقي لمصر، بل أراد "استقلالا ظاهريا"، يسد "أفواه المشاغبين والغوغاء من الوفد وخلافه"، وقال: "بالطبع نحن لا نطالب بجلاء بريطانيا الناجز عن مصر، إن بلادنا لا زالت في حاجة ماسة إلى رعايتكم، ولكن عظمة السلطان غير مطمئن من ناحية الخديوي السابق وفرنسا، وهو يرجو أن تمنحوه الفرصة ليثبت لكم أنه كفيل بالمحافظة على مصالح الإنجليز والأجانب في مصر إذا وافقتم على نقل بعض سلطات دار المندوب السامي إليه!"[١٨٤٩].

فبمثل هذا الأجنبي الذي يتحدث بصَفته "مصري"، وباسم "المصريين"... جرى اغتيال ثورات الحرية في مصر.. وإطالة أمد أسرها.

▼ تفتيت "الوفد" من جماعة وطنية إلى أحزاب

كادت ثورة ١٩١٩ أن تصل لهدفها النهائي، وهو تحرير مصر حقا، فبعد أيام اقترح اللورد على حكومته أن تعلن بشكل رسمي "انتهاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة"، وأن تستبقي بعض التحفظات دون أن ينتظر حتى يتم توقيع معاهدة، وذلك بعد أن وصله ما وصل سلفيه نابليون وكليبر من مشاعر العداء المصري وعدم الاستقرار في ظل الثورة المتأججة.

وألح في برقية أرسلها في ١٢ يناير ١٩٢٢ أن بديل ذلك سوف يكون: "إما ضم بلد معادٍ أشد ما يكون العداء نضطر أن نحكمه بالقوة، وإما أن تسلم حكومة صاحب الجلالة بكل شيء. لقد اعتدنا أن نتوقع من العالم أن يعجب بعملنا في مصر، وإني لا أتصور خاتمة أشد نكرا من التي أراها الآن".

ولكنه في نفس الوقت اقترح خطة للإبقاء على نفوذ لبريطانيا داخل دوائر الحكم في مصر، حتى لو

[١٨٤٦]- صفحات من تاريخ مصر، يحيي حقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩، القاهرة، ص ٢٣٤- ٢٣٥
[١٨٤٧]- انظر: مذكرات فخري عبد النور، مرجع سابق، ص ١٠٦
[١٨٤٨]- نفس المرجع، ص ١٦
[١٨٤٩]- باشوات وسوبر باشوات، د. حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربي، ط ٢، القاهرة، ، ١٩٨٨، المقدمة غير مرقمة

رحلت، بسياسة فرق تسد وتمزيق وتحطيم الحركة الوطنية.

فقال إن عبد الخالق ثروت (تركي) على استعداد أن يؤلف وزارة على أساس التصريح المقترح (تصريح ٢٨ فبراير)، وأن هذه السياسة جعلت من الممكن لنا "أن نكسب إلى جانبنا عضوا أو عضوين من قادة حزب سعد زغلول؛ فيضعف تأثيره إضعافا عظيما[١٨٥٠]"، وساعده في ذلك بدء الخلافات فعلا بين أعضاء الوفد حول التفاوض مع بريطانيا أم استمرار الثورة.

وإضافة لهذا، شنت بريطانيا حربا نفسية على المصريين بإبعاد الزعيم وصحبه من جديد "ليوقع اليأس في قلوبهم وقلوب المصريين من كل مستقبل مرجو لهؤلاء القوم المبعدين في السياسة المصرية" بحسب تعبير عباس العقاد، ولكن الحرب فشلت، وانسابت كلمات زغلول إلى الشعب تهدئ خاطره وتشد أزره وهو يقول لهم قبل ترحيله إلى سيشل: "إنكم أنبل الوارثين لأقدم مدنية في العالم، وقد حلفتم أن تعيشوا أحرارا او تموتوا كراما، فلا تدعوا التاريخ يقول يوما فيكم: أقسموا ولم يبروا بالقسم"[١٨٥١].

وصدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، من طرف واحد، هو بريطانيا، في غياب سعد، ونص على:

١- إنهاء الحماية البريطانية على مصر وأن تكون دولة ذات مستقلة سيادة.

٢- إلغاء الأحكام العرفية المعلنة في ٢ نوفمبر ١٩١٤.

ولكن مع هذين البندين وضعت بريطانيا ٤ شروط، سمتها "التحفظات"، هي في حد ذاتها نسف للبندين السابقين، وتقول الشروط:

٣- إلى أن يحين الوقت لإبرام الاتفاقيات بين البلدين تنظم الأمور الآتية، تحتفظ بريطانيا بتولي أمور:

أ- تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر.

ب- الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبي.

ج- حماية المصالح الأجنبية والأقليات في مصر.

د- السودان (أي تتولى بريطانيا إدارته)[١٨٥٢].

وبهذا أغتصبت بريطانيا لنفسها الحق في السيطرة على قناة السويس ومدنها والموانئ المصرية الأخرى تحت بند "تأمين مواصلات الإمبراطورية"، والاستمرار في السيطرة على الجيش كإدارة وقيادة وتسليح تحت بند "الدفاع عن مصر ضد الاعتداءات الخارجية"، والتدخل في شئون مصر تحت بند "حماية

(١٨٥٠)- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٠- ٣١

(١٨٥١)- سعد زغلول سيرة وتحية، محمود عباس العقاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٧، ص ٤٠٩ و ٣٧٨

(١٨٥٢)- المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص ٤٦٠- ٤٦١

المصالح الأجنبية والأقليات، واحتفظت لنفسها بإدارة السودان بموجب اتفاقية ١٨٩٩ التي جعلت إدارة مصر له اسمية والإدارة الفعلية بريطانية.

ويعلق على ذلك البارون فان دن بوش البلجيكي في كتابه "عشرون سنة بمصر" واصفا احتفالا أقيم في الإسكندرية بـ"الاستقلال" عقب صدور التصريح، وفيه قام البعض ليخطب ويهلل بالعهد الجديد، ثم قال: "إلا أن رجلا قصيرا على رأسه طربوشه المنحرف تقدم في مشية إبليسية ورفع يده في وقار وعيناه تلمعان ثم نادى: ليحيا الاستقلال التام! فهبطت كلماته في وسط سكوت مكروب.."[١٨٥٣].

ويعلق العقاد: أين الاستقلال؟ لا أحد يصدق أنه الاستقلال، حتى المبتهجين بيوم الاسقلال!!

وصاح أحمد شوقي شعرا:

والله: ما دون الجلاء ويومه يوم تسميه الكنانة عيدا

ربحت من التصريح أن قيودها قد صرنَ من ذهب وكنّ حديدا[١٨٥٤]

وبالتزامن مع نفي سعد زغلول ورفاقه، ومحاولة تفتيت حزب الوفد من الداخل، أقام الاحتلال حكومات صورية تخضع لديكتاتورية اللنبي فيما يتعلق بمفاوضات وضع الدستور الجديد وقانون الانتخابات[١٨٥٥]، وأقرت الدستور أبريل ١٩٢٣ دون مشاركة سعد زغلول.

❸ ترسيخ خلفاء محمد سلطان في الحكم

إنهم هم أنفسهم، نفس النوعية، وبعضهم أبناء أو أقارب نفس الشخصيات التي خانت عرابي أمثال محمد سلطان، بل خانت مصر كلها في ١٨٨٢ حين أخذوا من الثورة ما أرادوا (مجلس النواب والدستور الحافظ لنفوذهم) ثم تراصوا بجانب الجيش الإنجليزي كالمرتزقة، وصفقوا والجنود المصريين يتساقطون بمدافع الإنجليز في القصاصين والتل الكبير، تراصوا أيضا بجانب الإنجليز بعد أن أخذوا ما أرادوا من ثورة ١٩١٩ (عودة البرلمان والدستور وبنفوذ أقوى لهم)، وسيكون لهم دورهم أيضا في ضرب ثورة ١٩٥٢، سلسال مخلوق ضد حرية الفلاح، ولم يخسر شيئا، لم يدفع ثمن خيانته حتى اليوم.

يقول د.علي بركات في كتابه "تطور الملكية الزراعية في مصر من ١٨١٣- ١٩١٤ وأثره على الحياة السياسية" بعد أن استعرض مواقف كبار متملكي الأرض أعضاء المجالس النيابية والمحلية من الاحتلال الإنجليزي منذ استتب سنة ١٨٨٢: "وبتداخل موقف كبار الملاك من السلطة مع موقفهم من الاحتلال، وكلاهما يبدأ من التسليم بوجود الاحتلال أساسا، وعلى هذا فالخلاف بين كبار الملاك والاحتلال ليس خلافا حول وجود الاحتلال، وإنما هو خلاف حول المشاركة في السلطة"، وضرب مثلا: "فمجلس شورى

[١٨٥٣]- سعد زغلول سيرة وتحية، مرجع سابق، ص ٤١٠- ٤١١

[١٨٥٤]- ديوان الشوقيات، أحمد شوقي، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة ص ١٥٠

[١٨٥٥]- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٣٢

القوانين الذي احتج سنة ١٨٩٦ على عدم استشارته في المبالغ التي صُرفت على حملة السودان [لأنها ستؤخذ من محاصيل الأراضي المستولين عليها] لم يحتج على الوحشية التي صدرت ونفُذت بها أحكام دنشواي"[١٨٥٦]، ولم يتخذ موقفا لائقا إزاء حل الجيش ثم إبادة جنوده في السودان، ولا نزع الفلاحين من بلدهم ليتفرقوا على جبهات القتال الأجنبية في الحرب العالمية الأولى.

وعلى هذا فإن مشاركة معظمهم مع سعد زغلول في بداية ثورة ١٩١٩ كان احتجاجا وضغطا على الإنجليز الذين استأثروا بمحصول القطن وكلفوهم دفع جزء من تكاليف الحرب العالمية وحلوا البرلمان الذي جاءت به ثورة ١٨٨١، أما حين لوَّح لهم الإنجليز بإعادة البرلمان والسماح لهم بالأحزاب للمشاركة في السلطة تفلتوا وانسلوا من حول سعد كما تنسل الإبرة من العـ[illegible] "متطرف" في طلب الاستقلال وفي المفاو[illegible]

ويبدو أن الوفد حمل في جنباته أسباب ضعضعة الثورة، فمعظم قادته من كبار متملكي الأرض، وليسوا جميعهم سعد زغلول، أي ليسوا جميعهم هؤلاء المستعدين لل[illegible] مصر لأهلها وحريتها، في تحرير [illegible] عرابي حين وثق في كبار [illegible] الأراضي وأبناء [illegible] العلوية الذين احتشدوا حوله، وكان احتشادهم لينتزع لهم سلطات من الخديو، وحين جاءت القارعة لم يتبقَّ حول عرابي إلا الفلاحين وقليل جدا من هؤلاء الأغنياء، واندار الباقي لتصفية الثورة مع الإنجليز.

ويرصد د.عاصم الدسوقي في دراسته "كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري (١٩١٤- ١٩٥٢)" أن "اللجنة المركزية التي شكلت لقيادة الثورة من ٤٣ عضوا كان عدد كبار الملاك المشتركين فيها ٣٦ عضوا"، وتسبب بعضهم في أول انشقاق داخل الوفد بأن خرجوا لتأسيس حزب الأحرار الدستوريين في ١٩٢٢ ترأسه عدلي يكن[١٨٥٧] الألباني والعضو بالأسرة الحاكمة في انحراف خطير لمعنى مصر للمصريين، وشد هذا الحزب الثورة إلى الخمود عبر سلك طريق المفاوضات بشروط لا تناسب التضحيات التي بُذلت فيها، ومن المؤلم أن انجر ورائهم في الحزب مصريون مثل أحمد لطفي السيد ثم محمد حسين هيكل رغم اعتزازهم بفلاحيتهم وكراهيتهم للاحتلال؛ توهما بأن البرلمان والدستور سيأتي للبلاد بأفضل مما ستأتي لها به الثورة.

وحين طالب سعد زغلول بأن تضع الدستور جمعية وطنية منتخبة من الشعب، رفض عبد الخالق ثروت (تركي)، متحججا بأن الدساتير في إيطاليا واليابان والنمسا وضعها ملوكها[١٨٥٨]، وترأس لجنة الدستور حسين رشدي (تركي)، وكلاهما من أشد كارهي ثورة ١٩١٩ والفلاحين؛ ولم يشترك في اللجنة حزب الوفد ولا الحزب الوطني (الذي أسسه مصطفى كامل) احتجاجا على طريقة تشكيلها، فاستحقت صفة "لجنة الأشقياء" التي وضعت دستورا جاء على خلفية ثورة شعبية دامية بدون أن يشارك الشعب في وضعه، ووضعه غرباء في غيبة زعمائه.

[١٨٥٦]- تطور ملكية الأرض الزراعية ١٨١٣- ١٩١٤ وأثره على الحياة السياسية، مرجع سابق، ص ٤٥٣- ٤٥٤
[١٨٥٧]- انظر: كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري (١٩١٤- ١٩٥٢)، مرجع سابق، ص ٢٢٣- ٢٢٦
[١٨٥٨]- نفس المرجع، ص ٢٤٩

وبالطبع لم يقترب الدستور أو القوانين المنبثقة عنه من الأراضي التي استول عليها العائلات المعروفة منذ القرن ١٩، ولم تتضمن أي خطوات- بخلاف التعليم- لتحسين حياة الفلاحين وإعادة حقوقهم المغصوبة لهم.

ربما من أخطاء ثورة ١٩١٩ أنها لم تجعل صيحتها ضد الإنجليز والعيلة الحاكمة معا، لأن كليهما باطل، ووقتها ما كان لمثل عبد الخالق ثروت وحسين رشدي وعدلي يكن شرعية في حكم مصر أو وضع دستورها، ولكانوا فروا فرارا من مصر كما فعل بعض أمثالهم في ثورة ١٨٨١ حين خشوا انتقام الفلاحين، وإن كان في ضمير سعد زغلول أن يتحرك إلى هذه الخطوة- إزالة عيلة محمد علي- إن استمرت الثورة، فقد طالب في ذروتها بأن يكون من حق الشعب الاختيار ما بين الحكم الملكي أو الجمهوري، وكلف عبد العزيز فهمي بوضع مشروع دستور لمصر إذا ما أسفرت الثورة- كما يتعشم- عن استقلالها، فكتب فهمي في المادة الأولى: "يكون الملك فؤاد ملكا لمصر، ويخلفه صاحب السمو الأمير فاروق".

ويقول عبد العزيز فهمي إن سعد زغلول ألقى في وجهه مشروع الدستور وقال له: "موش كفاية جايب لنا الملك فؤاد.. تجيب لنا كمان فاروق!"[١٨٥٩].

وأطاح الانشقاق الذي حصل من بعض أعضاء الوفد، وتولي عدلي يكن المفاوضات وتشكيل الوزارة بآمال زغلول العريضة.. وظل جاثما على صدر مصر الإنجليز وعيلة محمد علي وخلفاء محمد سلطان.

④ التشكيك في مصرية سعد زغلول

مع سعيها لشق صف الحركة الوطنية، سعت بريطانيا لتشويه صورة الزعيم، بل حتى التشكيك في مصريته، بإرجاع أصله إلى تونس أو المغول أو الترك أو العربان، المهم أن تقول إنه ليس فلاحا أصوله متجذرة في الأرض.

وينقل عباس العقاد الجدل الذي ثار حول الأمر في فصل عنوانه "أصل سعد" من كتابه سعد زغلول سيرة وتحية"، شرح أن من أسباب انتشار هذا الجدل أنه حتى ذلك التاريخ كان السائد في مصر أن أصحاب المناصب الكبرى يكونون من غير المصريين، أو من غير الأصول المصرية البعيدة، وأنه من باب الطعن في الأمة المصرية كلها، ولإبقاء أبنائها بعيدين عما يستحقون من مكانة شاع أن الفلاح لا يستطيع أن يكون من النوابغ أو أصحاب المناصب الكبرى، حتى انتشر مثل غريب يقول "الفلاح لو اتمدن يجر على أهله داهية"، فعندما وصل سعد زغلول لمناصب عليا كوزير للمعارف ونائب رئيس الجمعية التشريعية، بل ويتزعم الأمة، استكثروا عليه هذا، فطعنوا في نسبه لطينة مصر وللفلاحين.

ويضيف أنه سأل سعدا عن حقيقة نسبه، فضحك وقال له إن ما شاع عن أن له أصلا قديما من بلاد المغرب كان حيلة وضعها المحامي الذي دافع عن سعد خلال اعتقاله في بداية الاحتلال؛ إذ أنه كان معروفا

[١٨٥٩]- مذكرات فخري عبد النور: ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، ص ١٦

أن الرعايا الأجانب لهم امتيازات تعجل بالإفراج عنهم، وكانت فرنسا بعد احتلالها لتونس أعلنت أن التوانسة في مصر من رعاياها، فكتب هذه النسبة الملفقة لي ليُعجل بأمر خروجي، ورغم ذلك خرجنا لسبب غير هذا، ولم أعلم بالأمر إلا بعد الإفراج عنا، فتلقف البعض هذه الخدعة ونسج حولها الأقاويل.

وفي رأي العقاد، فإنه حتى في حال إن كان لسعد أصل أجنبي قديم فيكفيه أنه لا يعيره اهتماما، ولا يتفاخر به، ويرى أن فخره وعزه أن يكون فلاحا ابن فلاح، خرج من وسط أصحاب الفاس والجلاليب الزرقا[١٨٦٠].. المصريين الحقيقيين.

5 التشكيك في وجود مصر !

التشكيك في أن للفلاح وطن وأرض له حق أن يرفض نهب الأجنبي لها، والتشكيك في مصرية سعد زغلول، هما مجرد صدى لما يريده الاحتلال- كل احتلال- في الأساس، وهو ألا يعود للحياة الدولة الشامخة التامة المصرية.. مصر (كيمة).

يحكي توفيق الحكيم كمعايش لثورة ١٩١٩ الدوافع وراء مشاركته في حملة إزالة الأقنعة وإعادة الوجه المصري الحقيقي لمصر بعد ١٩١٩ فيقول إنه حين توجه سعد زغلول ورفاقه إلى المندوب البريطاني لبحث وضع مصر بعد نهاية الحرب العالمية الأولى "سألهم هل ستعودون إلى سيادة الدولة العثمانية المهزومة؟ فقالوا: لا، بل تعود مصر إلى مصر.. فدهش الإنجليز وسألوا: "وما هي مصر؟! إننا لا نعرف شيئا اسمه مصر، ولكن فقط مجرد قطر اسمه "القطر المصري" كما هو موجود على الخرائط الرسمية.. يتبع سياسيا الدولة العثمانية، وحضاريا "الحضارة العربية" حسب اللغة والدين.. أما مصر، فأين هي؟ وما هي مقوماتها؟.. وما هي شخصيتها؟ وكانت الإجابة عسيرة".

"وعندئذ [يواصل توفيق الحكيم] قام رجال الفكر والفن والاقتصاد يجيبون عن السؤال ويبحثون عن مصر.. قام طلعت حرب بإنشاء بنك باسم مصر.. ونهض رجال الأدب والفن يصورون "مصر" ويعبرون عنها.. كل ذلك ليجيبوا عن سؤال الإنجليز ويقولوا لهم: ها هي ذي "مصر" التي نريد لها الاستقلال بأرضها.. فالبحث إذن في العشرينات عن "شخصية مصر" و"روح مصر" لم يكن المقصود به كما حدث أخيرا مجرد موضوع يستهدف الدراسة والكتابة والتأليف.. بل كان في أعقاب ١٩١٩ أمرا حيويا خارجا من ضرورة ملحة.. من صميم كياننا.. وهو إقناع من ينكر علينا وجودنا وحقنا في هذا الوجود.. وهذا كان شعوري الخاص يوم كتبت في العشرينيات؛ أي بعد قيام ثورة ١٩١٩ بنحو سبع سنوات رواية "عودة الروح"، أي روح مصر.. لم يكن قصدي تأليف رواية.. بل إقناع نفسي بأني أنتمي إلى بلد له كيان محدد مستقل وتاريخ طويل، نمنا فيه، وآن لنا أن نستيقظ، وتعود إلينا الروح التي اختفت عنا وعن الآخرين تحت تراب الزمن"[١٨٦١].

[١٨٦٠]- سعد زغلول سيرة وتحية، عباس محمود العقاد، مرجع سابق، ص ٣٧- ٤٣
[١٨٦١]- مصر بين عهدين، توفيق الحكيم، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٣- ١٥

الروح التي اختفت عنا وعن الآخرين تحت تراب الزمن، هي ومعظم الجسد، ولم يظهر من مصر سوى ذلك القناع الاصطناعي الذي يلصقه على وجهها غصبا الاحتلال تلو الاحتلال.

هذه الروح الناهضة التي لمسها الحكيم بفلاحيته وتربيته الريفية لم يُكتب لها- حتى اليوم- النهضة الكاملة، تلقت ضربة جديدة على رأسها أخمدتها تحت تراب الزمن من جديد.. إلى حين.

فهنا جاء دور التيارات التي أخرجتها معامل ومحافل الشيطان (المسيح الدجال) التي تناولناها باختصار في صفحات سابقة، صحيح أنها تكونت قبل الثورة، لكن وظيفتها ظهرت جدا بعدها، وتملكتها حمى هرولة في العشرينات والثلاثينات والأربعينات لفرض نفسها على المصريين، ليتشتتوا ويضلوا الطريق، ويتفرقوا ويتغربوا في جزر بعيدة عن نهرهم الخالد.

فأنت حين تقول إن مصر شيوعية تكون قد حققت كلمة الإنجليز الساخرة "وهل توجد دولة اسمها مصر؟"؛ لأن كلمة شيوعية تجردها من معنى الوطن والحدود بل هي مجرد ولاية في دولة الاشتراكية العالمية، وحين تقول إن مصر إسلامية- على الفهم الإخواني والسلفي- فمعناها أن مصر مجرد ولاية في الحكومة الإسلامية العالمية، كذلك حين تقول مصر ليبرالية رأسمالية، فهي ولاية تبع الحكومة العالمية التي تبنيها العولمة، وحين تقول مصر عربية فهي ولاية تبع الحكومة العربية، ودليل ما سبق أنه حين انضمت للأخيرة مثلا أول شيء حصل محو اسم مصر وسموها "الجمهورية العربية المتحدة"، وهكذا.

وفي الوقت الذي تجندت فيه الصحافة والجمعيات والتنظيمات والتمويلات والجاليات لنصرة هذا التيار أو ذاك، ظلت الهوية المصرية الأقل دعاية- رغم جهود رواد الدفاع عنها مثل طه حسين وأحمد لطفي السيد وتوفيق الحكيم وسيد درويش- فكل الجاليات تكالبت ضدها، وكل التيارات المتصارعة تحالفت لإخماد صوتها، وتعاملوا معها على أنها مجرد تيار من التيارات، وأضعف التيارات، وليس أنها الأصل الثابت وهم الطوارئ الشاذون.

وهذه أشد ضربة تلقتها ثورتا ١٨٨١ و١٩١٩، وفيما بعد ثورة ١٩٥٢، أن يتشتت المصريون عن مصريتهم، التي قامت الثورات لنصرتها في الأساس، ويتفرغوا للنزاع مع بعضهم بدلا من الجهاد لطرد المحتلين وهوياتهم.

وعبر أدق تعبير عنها الرواي في قصة "العسكري الأسود" فيقول: "تفتقت عنا الحرب العالمية الثانية لنجد أنفسنا هكذا زملاء في كلية أو جامعة واحدة، بنزعات سياسية وآراء في الناس والحياة لا يمكن أن يربط بينها رابط"، وذلك بعد أن "كنا جميعا نؤمن- برغم اختلاف طرقنا ووسائلنا- أن لنا رسالة واحدة نحن مبعوثو العناية لتحقيقها: إنقاذ بلادنا وتغيير مصير شعبنا تغييرا جذريا، وإلى الأبد[١٨٦٢]".

عادت النداهة... رسول المسيح الدجال.. ملأت أركان مصر، وسممت منازل الوادي الطيب.

[١٨٦٢]- انظر: مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤٩٤

على الجسر فيه جِنية

رامية شعورها طوال

تقلب ساعات على حيّة

تلدغ تموت في الحالَ

واتسحبت جوة السكك والدُور

لفت على كل الرجال بالدور

مين قد ناب الأفاعي

غير حامي عهد الرفاعي [حور]

واللي لأرضه مراعي

ما تتقلعله جدور [١٨٦٣]

وبعد الجولة السريعة مع ثورة ١ن٩١٩ نستكمل نتائج الاحتلال الإنجليزي التي لم تأخذ الثورة فرصتها لمحاربتها:

❺❷ تحزيب المصريين.. والرد بانتفاضة ١٩٣٥

الحزبية لص الوطنية.. يبدو أنه ليس للحزبية في تاريخ مصر تعريف آخر.. بل في كل العالم.

لما هلّت ثورة ١٩١٩ انضم المصريون لهيئة واحدة تتكلم باسمهم، كانت بمثابة جمعية عمومية للشعب المصري كله، تشكلت تلقائيا، ومثلت الزعامة الجامعة، وهي الوفد.

لم يكن الوفد وقتها حزبا بمفهوم الأحزاب السياسية المتصارعة الوافدة من أوروبا، ولكنه المظلة والزعامة الجامعة التي تتشوق لها الأرض لتلملم غضب الفلاحين المتناثر في القرى في هبَّة واحدة ترفع راية "مصر للمصريين"، و"الكل في واحد"، و"مصر فوق الجميع"، وحسَّ فيها المصريون بدولتهم وحكومتهم الوطنية الغائبة عنهم منذ مئات السنين.

وبعد ما أدى حزب الوفد مهمته الأولى في تجميع المصريين تحت راية واحدة لقيادة دفة التحرير ضربته الانشقاقات ليتشظى إلى أحزاب (حزب الوفد، حزب الهيئة السعدية، حزب الأحرار الدستوريين،

(١٨٦٣)- أغنية نهاية مسلسل الناس في كفر عسكر، كلمات محمود عبد الظاهر، ألحان محمد علي سليمان، غناء علي الحجار
*** وحامي العهد في ضميرنا وتاريخنا هو "حور" وكل مصري يحفظ عهده في حماية هوية مصر وحدود مصر وحرية مصر.

الطليعة الوفدية) يأكل بعضها بعضا ويكيد بعضها لبعض، ولا يرعون في الشعب إلّا ولا ذمة، بفعل من الاحتلال والسرايا وأطماع بعض أعضائه.. فضجَّ الناس، ودقت القلوب بعنف من الخوف وهي ترى منجزات ثورة ١٩١٩ تتهاوى، والملك وإسماعيل صدقي يلغون الدستور، والاحتلال يستغل خناقات الأحزاب والسرايا لـ"يتمطع"، و"يبرطع" ويرفض البوح بكلمة الجلاء في المفاوضات.. فكانت انتفاضة سنة ١٩٣٥.

وصفها المؤرخ عبد الرحمن الرافعي بقوله: "كانت مظاهرات الطلبة في نوفمبر وديسمبر من تلك السنة مظاهرات سليمة في تكوينها بريئة في مقصدها؛ إذ كانوا مدفوعين بشعور وطني عام يهدف إلى تحقيق مطالب البلاد، ولم يكن موعزا إليهم من أحد[١٨٦٤]".

هذه الانتفاضة الغائبة عن الذاكرة المصرية لولاها لتم وأد ثورة ١٩١٩، وبدأت موجات الانتفاضة تعلو منذ ١٩٣٠ لما خرجت مظاهرات تطالب إسماعيل صدقي بإعادة العمل بدستور ١٩٢٣ الذي ألغاه الملك فؤاد واستخدم الرصاص في مواجهة المظاهرات الرافضة لقراره.

ومع الحرب الإيطالية في الحبشة ١٩٣٥ تضخم عدد الجيش البريطاني في مصر، واحتل موانيها- بخلاف الأماكن المتمركز فيها من قبل- وبات يتصرف في مصر كأنه لم يحدث فيها ثورة ١٩١٩، ولا صدر تصريح ٢٨ فبراير، ووزارة محمد نسيم لاظوغلي (تركي) موالية للإنجليز وفاقدة الشعبية، فظهرت مطالب بعمل معاهدة مع إنجلترا تحجمها وتضع النقاط فوق الحروف بشأن العلاقة بين البلدين[١٨٦٥].

وعبَّر عباس العقاد- وهو من حزب الوفد- عن سخطه من انصراف الحزب عن قضية الجلاء لصالح تمكين نفسه في السلطة، وشن حملة ضارية في صحيفة "روزاليوسف" ضد الحزب، ورد عليه الحزب بأن يكف عن النقد، فكتب العقاد في ٩ سبتمبر ١٩٣٥(الموافق لذكرى ثورة ١٨٨١) مقالا بعنوان "الوزارة والنقد" قال فيه: "فالذين يريدون من الأقلام أن تسكت أو تنقد- كما يحبون- يريدون أمرا غير معقول، وليس له سابقة في نظام الوزارات والأحزاب" وفي مقالة أخرى اعتبر أن "السكوت على ذلك إجرام" ورد الوفد عليه في صحيفة الجهاد بوصفه أنه من "الحاقدين"، وسيَّر مظاهرة تهاجم "روزاليوسف" فرد العقاد بمقالة نارية: "الرئيس الجليل مكرم عبيد يسوق البلاد بدسائسه إلى هاوية الخراب لسر لو طال احتجابه فلابد له من ظهور"، وترك حزب الوفد[١٨٦٦].

وتجرأ الجيش الإنجليزي بعمل استعراض عسكري في ميدان محمد علي بالإسكندرية؛ ما أعاد للمصريين ذكريات انتشار قواته سنة ١٩١٤ بحسب تعبير "الأهرام"، ويعلق العقاد في "رزواليوسف" موجها كلامه للنحاس بسخرية مريرة:" في مصر وزارة تشهد العرض العسكري شهود الغريب في بلد الإنجليز".

وحذرت مجلة "آخر ساعة" في ٢٩ سبتمبر ١٩٣٥ من أن العالم مقبل على حرب، ولو انتصرت

[١٨٦٤]- الدستور والاستقلال والثورة الوطنية ١٩٣٥، ضياء الدين الريس، ج٢، مؤسسة دار الشعب، ص ١٤
[١٨٦٥]- انظر: نفس المرجع، ص ٣٧
[١٨٦٦]- المرجع السابق، ص ٤٧

إنجلترا سترفع أنفها متغطرسة في وجه المصريين، وإن خسرت ستقع مصر في يد محتل جديد؛ ولذا لابد أن نصل مع إنجلترا لنتيجة صريحة، أما الوعود فقد شبعنا منها، وعندنا منها أكثر من ٦٠ وعدا يتوجها القسم بشرف التاج البريطاني!"[١٨٦٧].

وردت بريطانيا بأن أوعزت لوكالة "رويترز" أن تنشر بوقاحة: "إن المقامات الرسمية البريطانية ترى من الكوارث الكبرى أن تحاول مصر استغلال الحال الحاضرة لإكراه الحكومة البريطانية على الارتباط بتعهدات أو التزامات في وقت لا شك أنه غير مناسب[١٨٦٨]".

فنشرت "الأهرام" مقالة لمواطن بإمضاء رمزي (أ.م.ف) يهاجم الأحزاب المتصارعة جاء فيها: "تجتاح مصر اليوم أزمة من الأزمات المعدودة في تاريخها، استولت فيها بريطانيا على موانيها ومطاراتها وأصبح الاستقلال حبر على ورق، وصرنا في نظر ساستهم كأستراليا ونيوزيلندة، فهل لهذه النتيجة المحزنة ثرنا في سنة ١٩١٩ وضحينا بدمائنا وأموالنا؟"، ويحث الأحزاب على ترك الصراع: "هل نسي الزعماء المحترمون أحقاد النفوس وشهوة الحكم؟" ويبحث عن المخلص كما تبحث مصر عنه في كل لحظة حرجة: "أين رجل الساعة فيدق ناقوس الخطر ويمسك بيده راية الوطن؛ فيلتف حوله الأسود والأشبال للذود عن حقوق مصر من غاصبيها وعن حدود مصر من العدو المتربص الذي يكاد يغير عليها؟[١٨٦٩]".

وظهر رجل الساعة في شباب الأمة المنزهين عن الشهوة الحزبية، فثار طلبة الجامعات والعمال في انتفاضة بدأت ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ بعد انطلاق الشرارة التي فجرت غيظ الجميع، وهي تصريح وزير خارجية بريطانيا صمويل هور ٩ نوفمبر قال فيه: "أجل، إننا عندما استشارونا أشرنا بعدم إعادة دستوري سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٣٠"، فجاء هذا تأكيدا للشكوك بأن وزارة نسيم تنسق سرا مع الإنجليز، وكان التصريح لحظة صلف بريطانية شبه صلفها لما منعت الوفد من السفر سنة ١٩١٩؛ فتحركت الروح المصرية ووقع الانفجار، وسمع صداه العالم[١٨٧٠].

واستعدت الحكومة والإنجليز لهذا اليوم الذي أعلن موعده طلاب جامعة القاهرة بنشر البوليس والجيش، وعبرت عناوين "الأهرام" عن بعض ما حدث في ذلك اليوم الرهيب، ومنها: "إضراب الطلبة واصطدامهم مع رجال البوليس"، "ضباط البوليس من الإنجليز"، "إطلاق الرصاص على المتظاهرين"، "إصابات كثيرة من الطلبة والبوليس"، "الاعتداء على قنصلية إنجلترا".

وفي المظاهرات تعاهد طلاب الجامعات والمدارس أن يكون الشباب أول من يضحي في سبيل مصر، ورددوا: "مصر فوق الجميع"، "نحن فداؤك يا مصر"، "فليسقط الاستعمار"، "فليسقط تصريح هور"،

[١٨٦٧]- انظر نفس المرجع، ص ٥٦- ٥٨

*** رصدت وزارة الخارجية المصرية عشرات الوعود البريطانية الكاذبة عن عدم نيتها احتلال مصر من سنة ١٨٧٣ وحتى احتلالها مصر ١٨٨٢، ثم وعودا كاذبة بعدم فرضها الحماية على مصر والتي فرضتها فعلا ١٩١٤، كما وعدت كثيرا بالجلاء ولم تحققه إلا بقوة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ما يفرغ بريطانيا من معاني الشرف أو الوفاء بوعد، ونشرتها في كتاب "وزارة الخارجية المصرية: القضية المصرية ١٨٨٢- ١٩٥٤"، المطبعة الأميرية بالقاهرة.

[١٨٦٨]- نفس المرجع، ص ٦١

[١٨٦٩]- انظر المقالة كاملة في: الدستور والاستقلال والثورة الوطنية ١٩٣٥، ص ٦٧- ٦٩

[١٨٧٠]- نفس المرجع، ص ٧٠- ٧٤

وبعدها زحفوا للقاهرة لزيارة بيت الأمة وضريح سعد زغلول[١٨٧١]".

كانت مطالب المتظاهرين استقالة وزارة نسيم المهادنة للإنجليز وأن يعيد الملك الدستور، فأمر الميرالاي لوكاس بك مساعد حكمدار العاصمة بإطلاق النار، ولكنهم استمروا في المظاهرات، وأقسموا بخشوع على التضحية لمصر وحدها[١٨٧٢]، فقابلتهم كونستبلات الإنجليز على كوبري عباس بالرصاص، وتلقى محمد عبد المجيد مرسي طالب كلية الزراعة أولى الرصاصات في صدره استشهد على إثرها، وأرسلت الحكومة قوة إلى المستشفى استولت على الجثة ونقلتها ليلا إلى أهله في الإسكندرية لتمنع الطلبة من إقامة جنازة مهيبة له، فسافر وفد من الطلبة لتعزية أبيه.

وبعده تلقى طالب كلية الآداب محمد الجراحي ٣ رصاصات في صدره، ظل يغالب الموت أياما والناس تتابع أخباره بشجن من الصحف، وكتب على سريره خطابا إلى بلدوين رئيس الحكومة الإنجليزية يقول فيه: "إلى بريطانيا روح الشر"، وذكر ظلمها وعدوانها على الشعوب، وتنبأ بزوال إمبراطوريتها، وطلب ورقة وكتب لزملائه هذه الرسالة: "إخواني الأعزاء: إني أشكر لكم شعوركم السامي بالنسبة لما أديته، واعتبره أقل من الواجب في سبيل البلد الذي وهبنا الحياة، بل وهب الحضارة للعالم[١٨٧٣]"، وفاضت روحه السامية، واهتزت قلوب الأمة، ففي المستشفى انكب عليه من حوله يقبلون جسده المسجى وهم يهتفون للحرية وشهدائها، وأحاطت الممرضات بالسرير يبكينه، ومشى الحزن بين الأطباء، واستحال قصر العيني إلى مأتم، والطلبة لا يفارقون المكان خوفا من أن تهرب الحكومة الجثة كما فعلت مع الشهيد محمد عبد المجيد مرسي، وعند خروجه من المستشفى أطل زملاؤه الجرحى من الشبابيك يهتفون: "نموت في سبيل مصر الخالدة".

ويوم تشييع جنازته من الأيام المشهودة، خرج الشعب لوداعه في موكب مهيب، وصارت جنازته رمزا للمأساة التي يجتازها الشعب، مأساة الحزن على المصير الذي آل إليه الوطن؛ فما زال الإنجليز يحكمونه وجهود السنين راحت هباء وزعماؤه متصارعون، وأثر هذا الحزن حتى في الزعماء الذين شعروا بما أدت إليه أعمالهم- أو تصور الناس ذلك- فجاءوا ليشتركوا في تشييع الشهيد، ورآهم الناس يبكون من فرط التأثر، يتقدمهم مصطفى النحاس وإسماعيل صدقي وأحمد ماهر، إضافة لمدير الجامعة أحمد لطفي السيد وأساتذة الجامعة والكادر الطبي للقصر العيني والعلم المصري يقود الموكب، والطلبة والطالبات يسرن خلف العلم حاملين أكاليل الزهور، وبعد الصلاة عليه في مسجد السيدة زينب هتف الناس بألم يشق السماء "العزاء يا مصر"، "فليسقط الاستعمار"، "مصر فوق الجميع"،" فليسقط الظلم وأنصار الظلم"، "فليسقط القتلة"، والستات ينوحون عليه من الشبابيك خلال سير الجنازة بكلمات زادت من بكاء المشيعين[١٨٧٤].

وهكذا تكون مصر كتلة للمحبة والالتحام والصفاء والوطنية الخالصة حين تنبذ عنها الحزبية وتتحد حول

[١٨٧١]- المرجع السابق، ص ٧٧- ٧٩

[١٨٧٢]- الدستور والاستقلال والثورة الوطنية ١٩٣٥، مرجع سابق، ص٨٨

[١٨٧٣]- نفس المرجع

[١٨٧٤]- الوصف الكامل للجنازة وتأثيرها الوطني من أقوال الصحف في المرجع السابق، ص ٩٣- ٩٥

رمز واحد لا يخص إلا مصر وحدها.

واضطرت "رويترز" أن تتحدث عن مهابة الجنازة وتعترف بأن ضابط بريطاني أطلق النار على الجراحي، واستمر الغضب، فأعلن عن إضراب ٢١ نوفمبر احتجاجا على ضرب المتظاهرين وحدادا على الشهداء، واحتجبت الصحف، وأغلق التجار محلاتهم، وأضرب المحامون، واستمرت في نفس الوقت المظاهرات، وأرسلت هيئات الأطباء وأساتذة الجامعة والقضاة احتجاجات للملك ورئيس الوزارة، واعتبر محمد محمود، رئيس حزب الأحرار الدستوريين، في خطاب أن ما فعله الشباب رفع مكان مصر في العالم[١٨٧٥].

ولكن محمد محمود وغيره من القيادات السياسية لم يتخلوا عن حزبيتهم حقيقة، فدخل حزبه في معركة مع حزب الوفد حول هل نعيد الدستور أولا أم نتفاوض مع بريطانيا على الجلاء أولا، وتحولت لمعركة في أروقة الأحزاب وص ا وانتقلت للجامعة لتنشر بين الطلاب الحزبية والانقسام حول هذا وذاك بعد الوحدانية التي أظهرتها انتفاضة ١٩٣٥، وخلال مؤتمر طلابي طعنوا في بعضهم البعض مثل الشيوخ، والصحف الأجنبية ومن ورائها حكوماتها تتابع ما يجري بسعادة، حتى قال مراسل "الأوبزرفر" في ٣٠ نوفمبر إن "المساعي التي بذلت لتأليف جبهة متحدة من العناصر السياسية المختلفة إزاء خطة بريطانيا نحو مصر فشلت فشلا تاما، ولم تكن نتيجتها سوى إظهار الطباع المتنافرة التي جبل عليها الوفديون والأحرار الدستوريون وإحياء المنازعات الحزبية"، ثم يختتم بتشفي: "فإذا كانت مصر عاجزة بهذه الصورة الجلية الواضحة عن أن تقرر ما هي في حاجة إليه حقيقة، فإنه يلوح من غير المعقول أن يتوقع المرء أن تبدي بريطانيا من جانبها إشارة يحتمل أن تخَفف وطأة القلق الحالي".

وعلقت الصحف في مصر معربة عن خيبة أملها من شيوخ الزعماء فقالت "روز الـ... نوفمبر: "يتراشقون وبيزنطة تحترق"، "فلينعم الإنجليز ولتشقَ مصر"[١٨٧٦].

لكن الأنقياء من الطلاب بدافع وطني صميم طردوا شيطان الحزبية من نفوس زملائهم، وبعد مناقشات وتهدئة للخواطر اتفقوا على التوقف عن التحزب، وساعدهم القدر بأن صمم...
آخر بعد اطمئنانه للنزاع الحزبي داخل مصر، فقال في مجلس العموم إن بريطانيا لن تقبل أن تفاوض مصر في الظروف الحاضرة، فزاد دافع الطلبة للتوحد من جديد وهم يرون البلاد تتسرب من بين أصابع أبنائها للأبد، بل وطافوا في مظاهرات على مقار الأحزاب يطالبون زعمائها بالتوحد في جبهة وطنية، ويجبرونهم لو لزم الأمر، وأنه لا يوجد دستور أولا واستقلال أولا، بل يصرون على الاثنين معا[١٨٧٧].

و"اسبهل" الإنجليز، وصباح السبت ٧ ديسمبر خرجت الصحف بهذه المانشيتات المفاجئة: "روزاليوسف": "الطلبة يصدرون قرارا وطنيا رائعا يزول به انقسامهم"، "الجهاد": بيان هام من لجنة الطبة التنفيذية العليا عن

(١٨٧٥)- انظر: نفس المرجع، ص ٩٦- ٩٩
(١٨٧٦)- انظر نفس المرجع، ص ١١٠- ١٢٢
(١٨٧٧)- انظر: المرجع السابق/ ص ١٣٠- ١٤٤

توحيد صفوفهم"، الأهرام: "توحيد كلمة الطلبة"[١٨٧٨].

انزعج الإنجليز أشد الانزعاج من هذا الالتحام السريع بحسب ما نشرته "الإيجيبشيان جازيت"، واستقالت وزارة نسيم، وأبلغ المندوب السامي لامبسون الحكومة بقبول عودة الدستور، وانتصرت الأمة على الحزبية وعلى بريطانيا روح الشر في جولة الدستور[١٨٧٩].

اما الجولة الثانية فتولتها الأحزاب، فانعكست فيها روح ضعف فيهم لا تليق بروح مصر الشابة الثائرة، وظهر الوهن الذي أنهكهم بسبب صراعاتهم مع بعض ومع القصر وقلق كل منهم على مركزه، فلم يطلب كتاب الاستقلال الذي أرسلوه للمندوب البريطاني الاستقلال بشكل مباشر وحاسم، بل تحدثوا عن تعاون بين البلدين في زمن السلم والحرب، وأقروا بالسماح بوجود قوات بريطانية في الأراضي المصرية لأجل غير محدد بحجة التحالف فأزالوا عنها صفة الاحتلال، ما تسبب في خروج معاهدة ١٩٣٦ باستقلال منقوص، وإن حملت مزايا فيما يخص زيادة عدد الجيش وتمصيره وإلغاء الامتيازات الأجنبية تدريجيا[١٨٨٠].

وحام شيطان الحزبية بسواده ثانية على الأحزاب بعد تولي فاروق الحكم، فانطوت الأحزاب الصغيرة تحت جناحه لتحارب بالأمل في شعبيته شعبية حزب الوفد، وانقسم الطلبة مجددا بسبب انحرافات الأحزاب بعد أن سيَّر حزب الوفد مظاهرات تهتف بحياة الوفد والنحاس، والملك يسير مظاهرات تهتف بحياته[١٨٨١]، وانتشر بقوة نشاط الإخوان المسلمين والشيوعيين الذين سيَّروا مظاهرات أيضا وشفطوا إليهم مجموعة من الطلبة باسم الدين وحقوق العمال والفقراء، وكانوا بداية صراعات الطلاب في الجامعات والإرهاب.

وأحس بعض الوزراء بأن "تحزيب" المصريين كأنه سياسة متعمدة، وينطق بهذا خطاب الاستقالة الذي تقدم به مصطفى مرعي من وزارة حسين سري باشا في ١٦ أكتوبر ١٩٤٩ يقول فيه:

"حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء، تحية وبعد، فإنك تعلم كما يعلم غيرك أني إنما اشتركت في حكومتك على أمل في أن لك غاية هي جمع الكلمة وتوحيد الصفوف، وأن لك هدفا، هو الاستعانة بالقوى المؤتلفة على مواجهة الخطير من مشاكلنا الداخلية والخارجية، وقد تبين أنك لا تتغيا(؟) هذه الغاية، ولا تتوسل بوسائلها، بل إنك تبدو كما لو كنت مسلطا لتجعل من كل حزب حزبين، ومن كل فرقة فرقتين، وقد رأيتك بنفسي ترى الرأي للحق وتنقضه للباطل، وتقول الكلمة وتنكرها، ولم يقع ذلك مرة واحدة، بل وقع مرارا في الخطير من شئون الدولة، أما لفظك وأما عباراتك، وأما أسلوبك في إدارة مناقشات مجلس الوزراء، فقد أصبح هذا كله مضرب الأمثال، وموضع التندر في كل مكان. لهذا أحيطك علما باعتزالي

[١٨٧٨]- انظر: المرجع السابق، ص ١٤٨- ١٥٧ و١٦٢- ١٦٤، ومن بين الطلاب الذين شاركوا في هذه المظاهرات في عدة مدن الطالب جمال عبد الناصر حينها، رئيس مصر بعد ٢١ سنة: انظر "ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، تاريخنا القومي في ٧ سنوات"، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٩، ص ٢٥٦

[١٨٧٩]- انظر: الدستور والاستقلال والثورة الوطنية ١٩٣٥، مرجع سابق، ص ١٦٢- ١٧١

[١٨٨٠]- انظر: المرجع السابق ص ١٧٢- ١٧٨

[١٨٨١]- انظر نفس المرجع، ص ٢١٤- ٢١٥

العمل في الوزارة، والله المسؤول أن يدفع عن بلادنا السوء، وأن يقيها غوائل الفساد"[١٨٨٢].

▲▲▲ تمصير وتسليح الجيش .. ألمع [illegible] انتفاضة ١٩٣٥

بعد ثورة ١٩١٩ أصبح تسليح وتمصير كافة وظائف ورتب الجيش من أهم بنود المفاوضات بين زعماء الثورة والإنجليز.

وخلال مفاوضات عدلي- كيرزون سعى الأخير لاختلاق الحجج لعدم الموافقة [illegible] يم زمام الجيش للمصريين، فشكك في استعداد المصريين من الأساس للقتال، وقال إن [illegible] ليس بها نزعة حربية، فهي فيها خير فلاحين للأرض، ولكن لما نزلت مصر شاهدت أهل الجندي يشي [illegible] العسكرية، فرد عليه [illegible] نها- بأن ذلك حدث لأن نظام القرعة كان ممقوتا والجندي عندما يؤخذ لا يعد يصلح لعمل شيء آخر[١٨٨٣]، فى اشارة لطول مدة التجنيد.

وتفننت بريطانيا- ك[illegible] من مستوى الجيش؛ لأنه لو ارتفع لن يك[illegible] الاحتلال وحجة حماية قناة السويس، والجيش في العشرينات يطلق عليه جيش من باب التجاوز، عدده ١٠ آلاف فقط، ولم يكن به سلاح للطيران ولا بحرية، وقال تقرير لجنة المالية بالبرلمان إن البطاريات قديمة ولا يمكن إصلاحها، والمدافع قليلة وعتيقة لا تصل إلا خردة، وسعت الحكومة لشراء مدافع فيكرز وهويدزر ولكن بريطانيا عطلت وصولها[١٨٨٤].

أما الميزانية فمعظمها يذهب مرتبات لكبار الضباط من الإنجليز والمستمصرين ذوي الأصول التركية والشركسية إلخ، أما الجنود المصريين فيدفعون من مرتباتهم الزهيدة للعلاج، ويحصلون على وجبتين فقط في قروانات، خاليتين من الحلوى والفاكهة، ولا يحصلون على ملابس شتوية، وينامون على أسرة خشب في الدور الأرضي أو على الأرض في الدور العلوي[١٨٨٥].

وللعجب، فإن مساعي البعض حينها لتقوية الجيش لم تكن تشمل تحسين ظروف الجنود، رغم أن الثورة رواها الفلاحون بدماءهم لإنصاف هؤلاء وملايين الفلاحين المهضومة حقوقهم، فعندما طرح نائب استجوابا عن سوء حالة الجنود قال له رئيس مجلس النواب بالنيابة: "وهل فاتنا من أين يأتي العساكر؟ (يقصد أنهم يأتون من الريف ومعتادون على الحرمان) فرد النائب: "نريد أن نتقدم كباقي الأمم"، فقال الرئيس: "إذا تعود العسكري ما تريده له من المعيشة المرفهة فماذا يصنع إذا عاد إلى بلده؟ وذلك حسبما ورد في مضبطة البرلمان لجلسة ٦-٩-١٩٢٦[١٨٨٦].

ولكن أفلحت بعض المحاولات للتخفيف عن الجنود بخفض البرلمان مدة التجنيد إلى ٣ سنوات سنة ١٩٢٧،

[١٨٨٢]- المذكرات، محمد كرد علي، مرجع سابق، ص ١٢٥٨
[١٨٨٣]- انظر: الجيش المصري في السياسة (١٨٨٢-١٩٣٦)، مرجع سابق، ص ١٤٥
[١٨٨٤]- انظر: نفس المرجع، ص ٢١٦- ٢١٧ و ٢٢٨
[١٨٨٥]- انظر نفس المرجع، ص ٢٢٢- ٢٢٣
[١٨٨٦]- انظر نفس المرجع، ص ٢٢٣- ٢٢٤

أما "النقلة" العظيمة فجاءت على صدى انتفاضة ١٩٣٥ فمعاهدة ١٩٣٦ نصت على سحب البريطانيين من الجيش، وزيادة عدد ضباطه، وعلى حس الحاجة لأعداد كبيرة من الضباط انفتح الباب أمام الفلاحين لدخول الكلية الحربية والترقي في رتب الضباط بعد أن ظلت حكرا على أبناء العائلات المجنسة، وهذا فتح مبين في تاريخ الجيش، فهذه أول مرة منذ عودة المصريين للتجنيد يدخلون الكليات الحربية، لأنه حتى حين أصبحوا ضباطا أيام الوالي سعيد كانت الترقية من تحت السلاح.

وأول دفعة بها فلاحين دخلت الكلية الحربية سنة ١٩٣٦، واللافت أنه منها تكونت حركة "الضباط الأحرار"، فقد كانوا يحملون في قلوبهم وعقولهم هموم وشكاوى وأحلام أهاليهم البسطاء في الريف والحواري[١٨٨٧]، وبعضهم كان مشاركا في انتفاضة ١٩٣٥ مثل جمال عبد الناصر، وهو أمر له مغزى كبير، أن أول دفعة مصرية تصبح من الضباط من تحت السلاح تقوم بثورة ١٨٨١، وأول دفعة مصرية تصبح من الضباط بدخولها الكلية الحربية تقوم بثورة ١٩٥٢، واضعين أرواحهم ومستقبلهم الزاهي والمكاسب التي حصلوا عليها من رتب الضباط في مهب الريح؛ فكأن المصري الحق لا يضيق مدام حمل السلاح أن تُذل مصر للأجنبي، موقنا بأن الجيش ما خُلق إلا لتعيش حرة.

هكذا علمهم حور الفلاح المقاتل، أول المنتصرين على الغاصبين: تحية لكي يا عين حور.

ورغم فتح الباب فلم يكن دخول الفلاحين للجيش هينا، فالكلية الحربية اشترطت- صراحة- أن يأتي المتقدم بواسطة، فيقول أنور السادات حاكيا تجربته في دخول الكلية ١٩٣٦: "ولكن رغم هذه التسهيلات الجديدة التي واكبت رغبتي في دخول الكلية الحَربية لم يكن التحاقي بهذه الكلية- وهو منتهى أملي حينذاك- بالأمر السهل، صحيح أنهم سمحوا لأبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة بدخول الكلية، ولكن كان باستمارة الدخول شرطان: دخل الأب وثروته ثم الواسطة.. وفي كشف الهيئة كان يُنادى رسميا علينا.. فلان ابن فلان.. وواسطته فلان[١٨٨٨]".

وبذلك فالكلية لامست الفلاحين، لكن اشترطت الدخل الثابت- أي يكون الأب موظفا أو يمتلك أرضا تدر دخلا ثابتا- إضافة للواسطة، فظل العدد الأكبر من الفلاحين وهم الأجرية في الأرض وعمال التراحيل والعاملين باليومية في الورش والمحلات والحرفيين مثلا خارج القبول رغم أحقيتهم.

❻❷ عودة المليشيات من كل راية

ما تعددت الأعراق والجاليات والهويات، والأحزاب، والرايات، إلا تخلقت وتحكمت العصابات

[١٨٨٧]- انظر: المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، نخبة من أساتذة التاريخ، المجلس الأعلى للثقافة،، ص ٥٦٧
*** في إحدى الجلسات سخر زميل صحفي من ثورة ٢٣ يوليو ومن فيلم "رد قلبي" الذي يظهر مظالم ما قبل ١٩٥٢ قائلا كيف كان الملك ظالما في حين يدخل علي ابن الجنايني الكلية الحربية؟! وهو لا يعلم أن دخول الفلاحين للكلية لم يكن بفضل الملك، ولكن بفضل الدماء والتضحيات التي قدمها الفلاحون أنفسهم في ثورتي ١٨٨١ و١٩١٩ وانتفاضة ١٩٣٥ اللتين أجبرتا الإنجليز والملك على التفاوض وخرجت معاهدة ١٩٣٦ التي نصت على زيادة عدد الجيش؛ ولأن عدد العائلات التركية والغنية عموما لا يفي بالعدد الذي يتطلبه الجيش فاضطر الملك والإنجليز اضطرارا لفتح الباب أمام الفلاحين في الكلية الحربية، مشترطين رغم هذا وجود واسطة من باشا فما فوق، ولو الأمر بيد الملك والإنجليز وحدهما ما انفتح هذا الباب أبدا، وحبس ونفي وقتل الضباط وإبادة الجيش بعد ثورة ١٨٨١ خير شاهد.
[١٨٨٨]- البحث عن الذات، محمد أنور السادات، المكتب المصري الحديث، طبعة خاصة، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٢

والمليشيات.

لم نر في مصر طوال أزمنة حريتها في الحكم المصري القديم أنها بلد مليشيات، عدا فترات تعتبر شذوذا عن طبيعة مصر ومخالفة للعهد حين انحرفت وغفلت الحكومة عن دورها، فسقطت في الهاوية كما حصل في فترات الفوضى "إزفت"، ورأينا دور المستوطنين الأجانب خلالها في نشر المليشيات والإرهاب.

ولم تصبح المليشيات عادة إلا أيام الاحتلالات، وصناع المليشيا هم المحتلون والمستوطنون ليتقووا بها ضد المصريين أو ضد بعضهم أو ضد السلطة، فملأوا مصر ببرك دماء لا تجف وغبار معارك لا ينقشع إلا قليلا.

وفي العصر الحديث قلَّت ظاهرة المليشيات بعد مذبحة المماليك وظهور الجيش النظامي أيام محمد علي وحتى أيام إسماعيل- عدا مليشيات العربان- ثم عادت في الأفق مرة ثانية بالاحتلال الإنجليزي بأن انتشرت مجددا بين الجاليات بأن تسلح اليهود واليونان والطليان والفرنسيس، بل واتخذت المليشيات شكلا "قانونيا" بعمل شرطة أوروبية مخصوصة للأحياء التي يسكنها الأوروبيون.

أما الجديد في هذا الاحتلال أن مصريين انسلخوا من ماعت وتورطوا في عمل مليشيات لقتل إخوتهم المصريين وهم "مقتنعون" أنها ليست مليشيا، بل وسيلة "شرعية" لنصرة الدين أو الفقراء أو الإنسانية بعد أن خطفتهم "النداهة" من تيار إخواني وشيوعي أو تأثرا بالفاشية والنازية مثل التنظيم الخاص التابع للإخوان المسلمين، ومليشيا جند محمد المنَشق عنه، ومليشيا القمصان الخضر التابعة لـ"مصر الفتاة"، ومليشيا القمصان الزرق التابعة لحزب "الوفد"، بل ودخل الملك فاروق حلبة الصراع بمليشيا "الحرس الحديدي"، وهذه المليشيات لم تكن موجهة للاحتلال الإنجليزي في الأساس، بل لصدور المصريين، كل حزب صنع مليشيا ليرهب خصومه.

وأول تنظيم مليشياوي كبير يوجه سلاحه لصدور المصريين هو مليشيا "التنظيم الخاص" التابع ل، "الإخوان المسلمين"، صاحب اليد السودا في اغتيال أحمد الخازندار ورجال أمن وحتى رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي، كما كان للتنظيم مليشيا أخرى من فرقة الجوالة تلبس "القمصان الكاكي".

وبالتزامن كوَّن حزب "مصر الفتاة" بقيادة أحمد حسين مليشيا "القمصان الخضر" في الثلاثينات، وأطلق على أعضائه اسم "المجاهدون"، وبعد تصاعد الخلاف بين "مصر الفتاة" وحزب الوفد أطلق عز الدين عبد القادر عضو "مصر الفتاة" النار على مصطفى النحاس سنة ١٩٣٧ انتقاما من منع حكومته إقامة معسكر لتدريب زملائه.

ويقول الدكتور عاصم الدسوقى، أستاذ التاريخ المصري المعاصر بجامعة حلوان، إن ظاهرة تسليح الأحزاب لمواجهة بعضها البعض انتقلت إلى مصر من التجربتين الألمانية والإيطالية، فمن أجل مواجهة التيارات الديمقراطية والشيوعية كون هتلر فرقة ترتدى قمصانا بنية وموسيلينى كون فرقة ترتدى القمصان

السوداء[١٨٨٩]، وانتقل الأمر لمصر بسبب ضعف الدولة المفروض أنها المحتكر الوحيد للسلاح .

وانزلق حزب الوفد رغم بدايته المشرقة في هوة الفخ المستورد، وشكَّل مصطفى النحاس في الثلاثينات مليشيا "القمصان الزرق"، للاستقواء بها ضد خصومه وضد الملك رغم أنه كان يتولى الوزارة من حين لآخر، ولنا أن نتخيل أن حكومة يكون لها مليشيا ترهب بها خصومها من بقية الأحزاب والحركات أو أي شخصيات معارضة لها رغم أن وظيفة الحكومة هي منع التحارب بين أبناء الوطن، وفوق هذا أنفق الحزب على هذه المليشيا من بند المصروفات السرية لوزارة الداخلية، أي من مال الشعب الكادح[١٨٩٠] الذي يتوق لصرف هذا المال على تقوية الجيش والداخلية في مواجهة الاحتلال والفسدة لا في صراعات الأحزاب على الحكم ونشر الإرهاب.

وسعى الوفد لرفع عدد أعضاء هذه المليشيا الوباء إلى ١٠٠ ألف، وهو عدد أضخم من عدد الجيش نفسه، تقسم قسم ولاء لمصطفى النحاس ذاته، ونص القسم: "أقسم بالله أن أظل مجاهدا لوطني تحت لواء زعيمي مصطفى النحاس لآخر رمق من حياتي"[١٨٩١].

وهكذا تسلحت الأحزاب ضد بعضها، وتسلحت ضد الحكومة، وتسلحت الحكومة ضد الأحزاب، والداهية الأكبر.. أن يتسلح الملك ضد الشعب.

ففي الأربعينات اشتد الخلاف بين فاروق وعدة أحزاب خاصة حزب الوفد بعد حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ التي كاد الإنجليز يجبرونه فيها على ترك الحكم، فاستقطب عددا من ضباط الجيش، على رأسهم الضابط الطبيب يوسف رشاد، لعمل تشكيل هدفه التخلص من خصوم الملك سوا حزب الوفد أوغيره، إضافة إلى عمل مناوشات مع الإنجليز.

ولم يكن يوسف رشاد بالطبيب أو الضابط العادي، فقد بدأت علاقته بالملك سنة ١٩٤٣حين نجح في علاجه من حادثة مرور وقعت لسيارته في القصاصين بالإسماعيلية، فنقله للعمل كطبيب خاص في القصر ومعه زوجته التركية ناهد رشاد وجعلها وصيفة أخته فايزة، فاكتسبا ثقة الملك، وبتكليف من فاروق أقنع يوسف رشاد ٦ ضبا بعمل التشكيل المسلح على أساس أن قيادات حزب الوفد "خونة" لسكوتهم على ما فعله الإنجليز بحصار قصر عابدين في ٤ فبراير ١٩٤٢، ونفذوا كذا محاولة لم تنجح لاغتيال مصطفى النحاس بالتفجيرات أمام منزله في ١٩٤٨ أو بنسف قطار يستقله إلى الصعيد[١٨٩٢]، كما حاولوا اغتيال رفيق الطرزي، أحد قيادات الوفد الشابة، واغتالوا الوزير من حزب الوفد أمين عثمان.

وبجانب استهداف المصريين، استهدف تنظيم "الحرس الحديدي" خصوم الملك من الشيوعيين، مصريين وأجانب، وبعض الإنجليز، ويصف سيد جاد، أحد أعضاء التنظيم، في مذكراته التي حملت اسم "الحرس

[١٨٨٩]- قبل ٢٣ يوليو اختلفت الألوان والهدف واحد!، موقع جريدة المال، بتاريخ ٣١- ١- ٢٠١٣

[١٨٩٠]- انظر: أصحاب القمصان الملونة.. الأمة تستخدم الشرطة علي الأمن العام لا لإخضاعها إدارة الأمن العام، يونان لبيب رزق، صحيفة الأهرام، العدد ٤٣٢٩١، بتاريخ ١٦- ٦- ٢٠٠٥

[١٨٩١]- انظر: تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨- ١٩٥٣، يونان لبيب رزق، مرجع سابق، ص ٣٩٦- ٤٠٠

[١٨٩٢]- الحرس الحديدي كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه، سيد جاد، الدار المصرية اللبنانية، ص ٥١

الحديدي كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه" بعض أعضاء التنظيم بـ"التطرف"، و"ناهد رشاد" بأنها "الملكة السرية والحقيقية" لمصر؛ لتأثيرها على الملك لما تولت منصب كبيرة الوصيفات(١٨٩٣).

وتسبب اختلاف انتماءات الأعضاء السياسية، ما بين موالي للملك أو شيوعي أو موالي لتنظيم الإخوان المسلمين أو مقربين من النازية خلال الحرب العالمية أو بلا انتماء، في فشل معظم عملياتهم، ثم بدأت الانشقاقات داخل التنظيم ما بين موالي بشكل تام للملك وما بين معارض له، ودخلوا في مرحلة تصفية بعضهم في أتفه خلاف ولو كان على حب امرأة(١٨٩٤).

وساءت العلاقة بين التنظيم وفاروق لما أصابه الضجر والإحباط بعد تمكن حزب الوفد من الحكم، ورأى كل طرف أن الآخر عبء عليه، حتى أن بعض أعضاء التنظيم مثل مصطفى كمال صدقي دعا لقتل فاروق، ومنه من هدده لما "كره مصر والمصريين والحرس الحديدي وقبل لقب جنرال فخري" في الجيش الإنجليزي- بتعبير سيد [illegible] فهمي عبد الحميد محاولة اغتيال له من أعلى منزل يطل على القصر(١٨٩٥).

وبذلك دخل الملك مرحلة أبشع في إساءة استخدام منصبه، فبعد أن تورط في صنع مليشيا، ورَّط ضباطا في الجيش والداخلية للاشتراك فيها، ثم دفعهم لرفع السلاح على بعض ليضع البلد على [illegible] لانفجار وحرب أهلية لو توسع الأمر.

واعترف سيد جاد انه كان يخطط لتوسيع "الحرس الحديدي" حتى يكون مجرد إرسال بصـ[illegible] المستهدف كافية لإ[illegible]ـه للخط الملكي، وإلا يكون في انتظاره مدافع "الأشميزر"، والأخطر أنه كان يخطط لتشكيل حرس حديدي للإسلام وحرس [illegible] للعرب- بحسب [illegible] أحد الرؤساء عن الصف الإسلامي أو العربي اخترقت جثته رصاصات "الأشميزر"(١٨٩٦)، وهو ما [illegible] في الوقت الحالي مليشيا الحرس الثوري الإيراني التى يستخدمها النظام الإيراني في إرهاب خصومه في الداخل والخارج(١٨٩٧) وتصبح مصر دولة إرهابيه.. فإلى [illegible] هؤلاء الناس ينوون أن يذهبوا بمصر؟!

وهكذا.. لكل جالية مليشيا تتحفز للأخرى، وللمعارضة والحكومة والأحزاب والتنظيمات الدينية مليشيات، وللملك مليشيا، وروايح الارهاب الأحمر تفوح من كل شارع، والجيش والداخلية يتفتت ولائهما بين مصر والملك [illegible] ات الهكسوس، ومعظم الشباب ضايع وحاير.. و"ماعت" تختنق.

(١٨٩٣)- نفس المرجع، ص ١٥

(١٨٩٤)- نفس المرجع، ص ٢٥- ٢٦

(١٨٩٥)- المرجع السابق، ص ٢٢ و٧١ و١٤٨

(١٨٩٦)- الحرس الحديدي.. كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه، سيد جاد، مرجع سابق، ص ٢٥- ٢٦

(١٨٩٧)- مليشيا الحرس الثوري أنشأها الخميني عقب الثورة الإيرانية ١٩٧٩ لتكون تنظيما موازيا للجيش يستخدمه ضد خصومه ويمنع الجيش من أن يغير نظام الحكم الثوري الذي يصفه الخميني بالإسلامي، وله دور في دعم الجماعات الإرهابية في البلدان التي تستهدف إيران السيطرة عليها مثل مصر والعراق واليمن ولبنان وسوريا ونيجيريا، ومن أذرعه حركات حماس والصابرين والجهاد الإسلامي بفلسطين وجماعة حزب الله بلبنان ويتحالف مع تنظيم الإخوان المسلمين وتنظيمات إرهابية أخرى في مصر.

حين أراد المؤرخ المصري مانيتون أن يصف الفوضى التي ضربت البلد في "الزفتة الأولى" بعد تفرد بعض المحافظين بإدارة المحافظات وثرواتها بعيدا عن الحكومة المركزية ونشر الأجانب الفتن فيها؛ ما أدى لسقوط الأسرة ٦ قال إنه لم يستقر في مصر حاكم يلتف حوله الناس، حتى أنه حكمها٧٠ ملكا في ٧٠ يوما، ويبدو أنها صيغة مبالغة للتعبير عن عدم الاستقرار.

ومنذ ١٨٧٨- ١٩٥٣، أي خلال ٧٥ سنة بداية من أول وزارة في تاريخ مصر الحديث وحتى سقوط عائلة محمد علي، شهدت مصر ٧١ وزارة، بمتوسط وزارة كل عام، وفي عهد فاروق وحده (١٥ سنة) تولت ٢٣ وزارة[١٨٩٨]، وهذا أيضا عدد مهول يدل على عدم الاستقرار في ظل الروح الحزبية.

فتعبأت فترة حكم فاروق بضجيج حزبي وصراعات محمومة بين الأحزاب وبعضها أو بين الأحزاب والملك، أو داخل الحزب الكبير نفسه (الوفد)، وتغير سريع في الوزارات التي لم يدم بعضها إلا أياما؛ ما أدى لعدم إنجاز مشاريع تنمية واسعة وحقيقية، بل إن بعض الوزارات تعمدت إيقاف مشاريع وزارات سابقة حتى لا يُحسب نجاحها للحزب المنافس الذي كان يشكل تلك الوزارات.

اتسمت معظم الأحزاب بالطبقية، فمثلا حزب "الأحرار الدستوريين" تبع كبار متملكي الأرض، وحزب "الهيئة السعدية" تبع الطبقة البرجوازية، وفي وقت سابق كان يوجد حزبا "الاتحاد" و"الشعب" تبع الملك مباشرة- حل محلهما الحرس الحديدي فيما بعد- فيما كان حزب الوفد الوحيد "للكل"، قبل أن يتشظى إلى أحزاب ويتحول بدوره إلى حزب لكبار المتملكين وليس للشعب بداية من الثلاثينات، وهو ما جعل الأحزاب تستعلي على الشعب مثلما حدث في مواقفها المتعنتة إزاء الملكية الزراعية وأحوال الفلاحين وجنودهم، ويرى بعضها أنه يكفيهم عيشة أكل العيش الناشف والبصل وسكن الأكواخ.

ويعرض المؤرخ الشهير الدكتور يونان لبيب رزق في كتابه الجامع "تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨- ١٩٥٣" ملامح هذا الاضطراب الكبير.

ومنها أنه بعد تولي فاروق الحكم سنة ١٩٣٧ تفجرت أول مواجهة بينه وبين وزارة حزب الوفد حين طلب الملك أن يكون قسم الجيش على الولاء للملك، فيما طلب الوفد أن يكون قسم الجيش على الولاء للدستور؛ كي يترك للجيش مساحة التحرك ضد الملك إذا واصل سيرة أسلافه في الإخلال بالدستور، وحاول أن يحد من صلاحيات الوزارة التي يطمع الوفد في أن يتولاها معظم الأوقات.

واستعرض كل منهما قوته على الآخر، فسيَّر حزب الوفد مظاهرات ضد الملك تهتف "النحاس أو الثورة" يقودها مليشيا القمصان الزرق، وسيَّر الملك مظاهرات من طلبة الأزهر تهتف له وهو يخرج يحييها، وتدخل الإنجليز على خط الأزمة فأبلغ السفير البريطاني الملك في لقاءه يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٣٧

[١٨٩٨]- راجع تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨- ١٩٥٣، يونان لبيب رزق، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٥

بأنه قد يفقد ثقة بريطانيا إذا ما استمر في سياسته، وأنه بذلك يعرض عرشه للخطر[1899].

وتوصل الوفد والملك إلى صفقة بأن يوافق الوفد على قسم الجيش بالولاء للملك وليس الدستور، وأن يحل الوفد مليشيا القمصان الزرق، مقابل أن يترك الملك للوفد تعيين أعضاء مجلس الشيوخ وسن قوانين دون الرجوع للملك، وتعيين أو فصل الموظفين بكل درجاتهم[1900].

وغيَّر فاروق في شعار الجيش من (الله، الوطن، الملك) إلى (الله، الملك، الوطن) تعاليا على مصر، فجعل نفسه أكبر منها ومقدما عليها[1901].

غير أن الصدامات [illegible] خاصة بعد تدخل أحزاب المعار[illegible]ة وأحمد ماهر رئيس مجلس النواب على الخط وشن حملة على وزارة الوفد تتهمها بأنها "أفسدت الأمن والتعليم وخنقت الحريات"، و[illegible] بإقالة الوزارة.

واستمر هذا النوع من [illegible] الوزارات حتى تولد عن هذا الجو حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ البغيض، تحركت ال[illegible]بريطانية إلى سرايا عابدين في قلب القاهرة لتجبر الملك على الإتيان بخصمه اللدود حزب الوفد--الذي يراه الملك التهديد الوحيد لنفوذ عائلة محمد علي منذ عرابي- وقدم السفير البريطاني لامبسون للملك ورقة التنازل عن العرش إذا لم يكلف مصطفى النحاس بالوزارة[1902]. فأذعن فاروق كعادة آبائه.

وبتعبير يونان لبيب [illegible]، فهذا الحادث بداية النهاية لحزب الوفد، وبداية النهاية للملك أيضا، أي سحب الشعبية من كل منهم[illegible] حزب الوفد اظهروه بمظهر من أتى على دبابات الإنجليز، والملك ظهر بمظهر الضعيف الذي لا يستطيع أن يكلف أو يقيل الوزارة إلا برضا الاحتلال، وفي ذات الوقت أعطى هذا الفراغ في الزعامة الفرصة لعلو نجم الشيوعيين وتنظيم "الإخوان المسلمين"، وبدأت تتبلور نواة تنظيم الضباط الأحرار داخ[illegible]ضبا من أن تصل المهانة بالبلد إلى حد أن يظل، بعد كل هذا الكفاح، من يحكمها يعينه الإنجليز.

وأتاح هذا التفكك للجاليات التدخل لدى بريطانيا لتعيين أو إقالة الوزراء حسب مصالحها، مثلما حدث حين تدخلت بريطانيا في التعديل الوزاري في وزارة النحاس ١٩٤٣ بأن طلبت سحب وزارة الشئون الاجتماعية من عبد الحميد عبد الحق لأنه أصدر بيانات "أزعجت" الجالية الأجنبية[1904].

أما شعبيا، فالشارع يغلي من كذا اتجاه، إما لدوافع وطنية بحتة تطالب بالجلاء وتهاجم الأحزاب والفساد والغلاء، أو بدوافع من تنظيم الإخوان والشيوعيين الذين يريدون ملء الفراغ، فتحركت مثلا مظاهرات

(١٨٩٩)- المرجع السابق، ص ٤٠٢- ٤٠٣

(١٩٠٠)- نفس المرجع، ص ٤٠٢- ٤٠٣

(١٩٠١)- انظر: مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عبد الرحمن الرافعي، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٩٤

(١٩٠٢)- انظر المرجع السابق، ص ٤٢٥- ٤٣٦

(١٩٠٣)- تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨- ١٩٥٣، مرجع سابق، ص ٤٣٦- ٤٣٧

(١٩٠٤)- نفس المرجع، ص ٤٥٣

الطلبة الشهيرة ٢١ فبراير ١٩٤٦ من جامعة القاهرة باتجاه ميدان الإسماعيلية (التحرير)، وبحركة غادرة انفتح كوبري عباس ليتساقط الطلبة شهداء غرقى في مياه النيل الأسمر الذي احتضنهم باكيا- كما احتضن أوزير من قبل- أن يكون هذا مصيرهم بعد الثورات التي قامت بها البلد لتعود مصر إلى حريتها وتكون هي فوق الجميع.

وشاركت السيارات البريطانية في دهس المتظاهرين خلال مسيراتهم[١٩٠٥]؛ ما زاد من عدد الشهداء ليصل إلى العشرات، ونظمت الجامعات والمدارس والمحلات إضرابات وتظاهرات تحية للشهداء، وأصبح هذا اليوم فيما بعد يوم الطالب العالمي.

تحت هذه الضغوط فتحت الحكومة جولة جديدة من المفاوضات مع بريطانيا على الجلاء، وشكَّل النقراشي من حزب الهيئة السعدية فريق التفاوض، فيما رفض حزب الوفد المشاركة في الفريق بعد رفض شرطه بأن يكون نصف الأعضاء من حزبه وأن يرأس الفريق[١٩٠٦]، فهو أراد ترؤسه حتى إذا ما أحرز المفاوضون نصرا يُنسب للوفد لا للهيئة السعدية، حتى أنه لما لجأ النقراشي لمجلس الأمن الدولي لحل القضية المصرية أرسل الوفد برقية إلى المجلس يقول فيها: "الحكومة المصرية التي رفعت دعوى أمام مجلس الأمن لا تمثل على أي وجه شعب وادي النيل"[١٩٠٧].

حركة غدر في الصميم.. فكيف لحزب أن يحرج حكومة بلاده أمام العالم وهي تطالب الاحتلال بالجلاء عن بلدها وتشحذ همة العالم ليناصرهاِ في ذلك، ويقول إنها لا تمثل الشعب لمجرد منافسات حزبية على الحكم؟ ولكن هكذا، إذا ما تمكنت الحزبية الدخيلة من النفوس هانت بداخلها الأوطان.

وواجه النقراشي أساليب التحايل والكذب التي تسلحت بها بريطانيا لتتبرأ من أي وعود بالجلاء، حتى ضجَّ النقراشي ووصف الإنجليز بالقراصنة في خطابه أمام مجلس الأمن ٢٨-٨-١٩٤٧ قائلا عن معاهدة ١٩٣٦ إنها ليست إلا "أثر من آثار أيام القراصنة التي يجهد العالم في نسيانها"[١٩٠٨].

وانتهت هذه الجولة باغتيال النقراشي في ١٩٤٩ على يد تنظيم الإخوان المسلمين بحجة الرد على قراره بحل التنظيم، وإن كانت أصابع بريطانيا يمكن ألا تكون بعيدة عن الأمر، خاصة أنه بعد عودته أعلن أن خطة وزارته تجاهل إنجلترا تجاهلا تاما و"أننا سنولي وجهنا شطر الجيش المصري سياج الوطن، فنقويه بزيادة عدده والاستعانة بالدول الأخرى لجلب عِدده والخبراء والمستشارين اللازمين له، وسندعم الإصلاح الداخلي ما في وسعنا[١٩٠٩]".

وتجمعت السحب السودا في سماء مصر مع ازدياد الغليان، حتى سعت الأحزاب في ١٩٥٠ لغسل يدها مما

[١٩٠٥]- المرجع السابق، ص ٤٨٨ *** حادثة تشبه ما تردد عن مشاركة سيارات دبلوماسية لبعض السفارات في دهس المتظاهرين سنة ٢٠١١

[١٩٠٦]- انظر نفس المرجع، ص ٤٨٨

[١٩٠٧]- المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، نخبة من أساتذة التاريخ، المجلس الأعلى للثقافة، ص ٥٤٧

[١٩٠٨]- في أعقاب الثورة المصرية ثورة ١٩١٩، عبد الرحمن الرافعي، ج٣، دار المعارف، ط٣، ص ٢٣٦

[١٩٠٩]- انظر: المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ص ٥٤٨

***والنقراشي هو صاحب قرار إنهاء وجود البعثة البريطانية العسكرية من الجيش المصري ١٩٤٦، وسبق هذا رفض الضباط المصريين بإباء تنفيذ أوامر الجيش البريطاني تسليمهم الأسلحة التي وزعها عليهم خلال الحرب العالمية للدفاع عن مرسى مطروح من هجوم الألمان.

ينتظر البلد، فأرسلت أحزاب الأحرار الدستوريين والهيئة السعدية والحزب الوطني وغيرهم- عدا الوفد الذي كان في الوزارة- كتابا مشهورا لفاروق يحـ... أنه "في ... حاشية الملكية أشخاص لا يستحقون هذا الشرف، فأساءوا النصح وأساءوا التصرف"، وأن "النظام النيابي قد أضحى حبرا على ورق" بتدخلات الملك، وتنبأوا بقيام ثورة شعبية قائلين إن "احتمال الشعب مهما يطل فهو لابد منته إلى حد، وإننا لنخشى أن تقوم في البلاد فتنة لا تصيبن الذين ظلموا وحدهم، بل تتعرض فيها البلاد ... مالي وسياسي وخلقي فتنتشر فيها المذاهب الهدامة بعد ... اسوأ تمهيد"، وأنه بسبب هذا الاستغلال "استفحل الغلاء إلى ... نسبة له مثيل، وحرموا الفقير قوته ... بتصحيح الأوضاع الدستورية "تصحيحا شاملا وعاجلا"[1910].

ويقول محمد حسين ... في ... الملك غضب غضبا شديدا على الذين أرسلوا الكتاب واحتفظ بأسمائهم في حافظته يخرجها بين الحين والآخر حتى لا يغفر لهم أبدا[1911].

وتحركت الرمال تحت أقدام الجميع.. فتوالت بشكل سريع الوزارات، وزارة إبراهيم عبد الهادي، ثم وزارة حسين سري بالاتفاق مع تشابمان أندروز أحد مسئولي الخارجية البريطانية، وهكذا ظلت يد بريطانيا تتدخل في اختيار الوز... ١٩٥٠ ... فوزارة الهلالي، فحسين سر... يوم ... يوليو ١٩٥٢.

وصلت نار الاضطرابات إلى الأزهر، فعزلت الوزارة شيخ الجامع الأزهر عبد المجيد سليم بعد غضب الملك عليه لأنه في ...

وشهدت المرحلة صفقة بين الملك والوفد لتوازن السلطات، حتى أن وزارة الوفد نصبت نفسها محامية عن الملك في الاتهامات الموجهة لمن حوله، ويضرب محمد حسين هيكل في مذكراته مثال على ذلك من موقعه كرئيس لمجلس الشيوخ أنه لما قدم مصطفى مرعي استجوابا حول ما تردد عن استيلاء كريم ثابت (لبناني) المستشار الصحفي للملك على ٥ آلاف جنيه من أموال جمعية المواساة، وعن العبث في صفقات الأسلحة والذخائر الفاسدة المستوردة من أوروبا للجيش في حرب ١٩٤٨ دافع فؤاد سراج الدين، وزير الداخلية العضو بحزب الوفد، عن ثابت، ونفى التهمة عن الأسماء المذكورة، وهم رجال الملك[1913].

وسط هذا كله، ماذا كان يا ترى يدور في نفوس وعقول المصريين منذ الثلاثينات حتى ثورة ٢٣ يوليو وهم يعيشون هذه الأحداث والصراعات، وكيف كانوا ينظرون للمستقبل؟

كان لتحويل الأحزاب والملك الحركة الوطنية من "معركة تحرر شعبية" إلى صراعات على النفوذ

(١٩١٠)- انظر: تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨- ١٩٥٣، مرجع سابق، ص ٥١٤، ومقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عبد الرحمن الرافعي، مرجع سابق، ص ٢٠٩- ٢١١

(١٩١١)- تاريخ الوزارت المصرية ١٨٧٨- ١٩٥٣، مرجع سابق، ص ٥١٤

(١٩١٢)- انظر: نفس المرجع، ص ٤٩٠- ٤٩٨

(١٩١٣)-انظر: نفس المرجع، ص ٥٠٥- ٥٠٦

تأثيره المدمر على نفسية الشباب الذي غرق في مشوار البحث عن الذات وعن المخلص، وتقاذفته أمواج تيارات الهكسوس والنظريات الأجنبية المتطرفة في كل المجالات، وانجذب للزعامات الأجنبية الصاعدة كهتلر وموسيليني بعد غياب الزعامة الوطنية(١٩١٤).

وفي رواية عنوانها معبر هي "نفوس مضطربة" صدرت عام ١٩٤١ لأحمد زكي مخلوف، يقول الراوي: "لقد زهق الشباب من جدل الأحزاب وهذه الفتنة الضاربة بين الزعماء، لماذا توجد في البلاد أربعة أو خمسة أحزاب؟ لماذا يكون عشرة أو عشرون زعيما؟ وما هي سياسة كل حزب؟ وما هدف كل زعيم؟ لا أحب تكوين الأحزاب بحالتها الراهنة، إذ لا مبادئ مرسومة لها، ولا سياسة موضوعة، ولا برامج للإصلاح الاجتماعي، إنما هو زعيق وصياح وسباب" (١٩١٥).

ولخص المشهد والتأفف الشعبي من التعددية المريضة شهدي باشا في رواية "الرجل الذي فقد ظله" لفتحي غانم: "البلد فيها دلوقت شيوعيين وإشتراكيين وإخوان مسلمين وعفاريت زرق، ما كناش بنسمع عنهم قبل الحرب"، و"أتلفت الأحزاب كل شيء في البلد" بحسب تعبير أحمد حسين في كتابه "إيماني"، بالرغم من أنه هو نفسه كان رئيسا لحزب "مصر الفتاة"(١٩١٦).

وبتعبير يونان لبيب رزق فإن النظام القديم- الأحزاب والعيلة العلوية- تآكل، وصار المناخ مهيأ في انتظار قوى سياسية جديدة تنقض عليه وتنهي استمراره الذي أصبح عبئا على الأمة(١٩١٧).

وهذه القوة إما "الإخوان" المدعومين غربيا أو الشيوعيين المدعومين شرقيا.. أو الجيش.

أما أسوأ ما في الأمر فهو أن عدوى التحزب انتقلت للجيش، فصار به خلايا إخوانية وخلايا شيوعية وخلايا وفدية وخلايا فاروقية (ولائها لفاروق شخصيا)، بل وتتشكل داخل الجيش خليه صوفية عسكرية بحسب ما سجله الضابط سيد جاد أحد أعضاء مليشيا الحرس الحديدي التابعة للملك فاروق في كتابه(١٩١٨)، وهذا يذكرنا بأن أعضاء تنظيم "التضامن الأخوي" الذي قتل بطرس غالي كان بعضهم أعضاء في طرق صوفية أيضا؛ ما يفتح باب البحث في الأهداف الحقيقية لهذه الطرق بداية من الاحتلال العبيدي وحتى اليوم.

ووزير الحربية يُختار بحسب الانتماء الحزبي للوزارة الحاكمة أو تبعا لولائه للملك شخصيا، وكل خلية إخوانية وشيوعية ووفدية وصوفية تستغل موقعها في الجيش لتخدم تيارها.. وهكذا كان الجيش- لو استمر الحال سنوات قليلة أخرى- في طريقه ليكون أحزابا وشيعا تصارع بعضها لا تصارع الاحتلال، وولائها للأجانب لا للوطن، في صورة مرعبة تشبه الجيوش المرتزقة والطائفية في دول أخرى.

28 في مصر.. أكبر قاعدة عسكرية ومركز للتجسس في العالم

(١٩١٤)- انظر: مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤٩٣

(١٩١٥)- المرجع السابق، ص ٤٩٤

(١٩١٦)- انظر: مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤٩٧

(١٩١٧)- تاريخ الوزارت المصرية ١٨٧٨- ١٩٥٣، مرجع سابق، ص ٥١٣

(١٩١٨)- الحرس الحديدي كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه، مرجع سابق، ١٩٩٣، ص ١١٧ و١٣٨ و١٤٧

تحولت مصر لأحد أكبر مراكز التجسس والمؤامرات والمكائد في العالم بعد تحولها لأكبر مصب للاجئين والمجرمين والجاليات الأجنبية من كل الجنسيات.

فهذه الجاليات تنتمي لطوائف وتيارات متصارعة كالمارون والشيعة والكرد والإخوان والقوميون العرب والشيوعيين واليهود والفاشيين والأرمن إلخ، كما تنتمي لدول متحاربة ضد بعضها كفرنسا وروسيا وبريطانيا وإيطاليا وألمانيا وتركيا والشام وليبيا واليونان.

كل هؤلاء يتجسسون على بعضهم البعض، ويكيدون لبعضهم البعض؛ ما دفع لانتشار ظاهرة المليشيات وتسليح كل طائفة وعرقية، وتحولت مصر بعد انتشار الجيش البريطاني في أرجائها إلى سجن كبير، خاصة في فترتي الحربين العالميتين، بما ارتبط بذلك من أحكام عرفية ومحاكمات عسكرية ونزح مالي في إعادة لمشهد انتشار الجيش الروماني في مصر بكثافة لقمع الثورات المصرية.

وبلغ الجيش البريطاني قبل ثورة ٢٣ يوليو١٩٥٢ بأيام ٧٥- ٨٠ ألف جندي، في مخالفة وقحة لمعاهدة ١٩٣٦ التي نصت على ألا يزيد عن ١٠ آلاف من القوات البرية و٤٠٠ طيار وموظفين إداريين[١٩١٩]، بل واستعد لجلب قوات أمريكية وتركية بحجة اضطراب الأوضاع في مصر والحاجة لتأمين قناة السويس، ووصِف حينها الوجود البريطاني بمصر بأنه أكبر قاعدة عسكرية في العالم.

▲▲▲ أجراس ثورة ٢٣ يولِيو ١٩٥٢

وفي عز هذا المناخ المخيف الذي ينبئ بأن مصر تمشي في اتجاه سقوط كبير جديد على يد من يدعون أنهم نخبة الأمة وحكامها ومساعي بريطانيا والجاليات إلى "البقاء للأبد" مرَّت يد الله الحانية على مصر تهدئ روعها وترسل لها ما يحوِّل دفة السلاح المصري إلى صدر العدو لا إلى الصدر المصري.

فبعد فشل المفاوضات بين وزارة الوفد وبريطانيا ١٩٥١ لتعديل معاهدة ١٩٣٦، فاجئ رئيس الوزارة مصطفى النحاس المصريين والعالم يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١، وفي مشهد تاريخي وسط البرلمان بقوله إنه "من أجل مصر" وقع معاهدة ١٩٣٦، و"من أجل مصر أيضا" يلغي هذه المعاهدة[١٩٢٠].

أشرق وجه البلد بالفرحة والحماسة، وأبدى الناس استعدادهم للبذل والتضحية، فكانت المقاومة الشعبية ضد القوات البريطانية على ضفاف القنال[١٩٢١].

وهنا نتوقف قليلا عند مشاهد سريعة خلال المقاومة، ففي السويس مشهد غفلت عن تجسيده شاشات السينما والتلفزيون رغم ما به من أحداث تختصر معنى الاحتلال، وذلك أن أرسكين، القائد العام للقوات البريطانية في القناة، طلب من محافظ السويس إخلاء حي أحمد عبده، وفيه ٣٠٠ أسرة، بحجة شق طريق

[١٩١٩]- مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عبد الرحمن الرافعي، مرجع سابق، ص ٣٥- ٣٦

[١٩٢٠]- الثورة المضادة في مصر، غالي شكري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ١٩١

[١٩٢١]- الثورة المضادة في مصر، غالي شكري، مرجع سابق، ص ١٩١

بين وابور تكرير المية ومعسكرات الإنجليز في ٥ ديسمبر ١٩٥١، بعد شهرين من إلغاء معاهدة ١٩٣٦، فرفض المحافظ وبلغ وزارة الداخلية التي أمرته بعدم تنفيذ أوامر الاحتلال وطالبته بمقاومته.

وبعد يومين في ٧ ديسمبر حشد الاحتلال قوة من ٦ آلاف جندي، ب ٢٥٠ دبابة و ٥٠٠ مصفحة وبغطاء من الطائرات الحربية، وطوقت الحي في الليل، وهددت السكان بالاقتحام، يعزز إرهابها زمجرة البوارج البريطانية في الميناء وهي مصوبة مدافعها ناحية المدينة في حالة تأهب لقصفها بالقنابل عند أول إشارة، في نفس مشهد محاصرة البوارج البريطانية للإسكندرية سنة ١٨٨٢، وفي المقابل كان السكان عزلا، وقوة البوليس في المدينة ٤٠٠ جندي مسلحين بالبنادق لا غير، فما كان من المحافظ إلا أنه اضطر لمخالفة وزارة الداخلية خوفا على السكان من سقوط البيوت فوق رؤوسهم حال قصف المدينة، فأخلى السكان الحي حاملين القليل مما قدروا عليه، وخرجوا للمجهول، ودمرت الدبابات الحي وحولته خرابا[١٩٢٢].. نفس ما فعلته الاحتلالات السابقة بلا استثناء، فكلهم يا عزيزي إذا تمكنوا من مصر دواعش.

وفي قرية القرين بمحافظة الشرقية لما رأى رجالها الخطر يقترب ظلوا ساهرين ليلهم حاملين سلاحهم على عواتقهم، فلما أغار عليهم الإنجليز استشهد ٥ فلاحين في حين قتلوا ٢٠ إنجليزيا، وكم كان الأثر عميقا في النفوس أن يشهد العالم جنازة تضم ٥ شهداء في موكب مهيب ومن حولهم جموع الهاتفين مكبرين، وأمامهم سارت الموسيقى تعزف لحنا حزينا، وأجراس الكنايس تدق عاليا وأصوات المؤذنين تهلل وتكبر، وما إن بلغت الجنازة مقرها الأخير حتى ارتفعت أصوات النساء يزغردن في فرح لا في مأتم، ومن الشهداء شهيد لم يبلغ الحُلم فاستقبله رفاقه الصغار عند القبر هاتفين باسمه "إلى جنة الخلد"[١٩٢٣].

وفي الإسماعيلية، التي شالت عبئا ضخما في المقاومة الشعبية؛ لأن قيادة جيش الاحتلال فيها، تكررت استفزازات الاحتلال للأهالي، واستعرض عضلاته على قوات الأمن المصرية بالاعتداء على ثكناتها من غير سبب كالوحش الجائع، وفي ليل ٢٤ يناير ١٩٥٢ احتشدت قوات ضخمة من البريطان بالدبابات ومدافع الميدان، وطوقت مبنى المحافظة وثكنات بلوكات النظام (قوات الداخلية) بشكل مفاجئ.

وفي الصبح ٢٥ يناير أرسل البريجادير أكسهام قائد القوات البريطانية في الإسماعيلية إنذارا لقائد بلوكات النظام اللواء أحمد رائف يطلب منه تسليم كل أسلحة قوات البوليس، وجلاء رجال البوليس عن ثكناتهم ومنطقة القناة كلها، مجردين من السلاح، فرفض قائد البوليس الإنذار الوقح، خاصة بعد الاتصال بوزير الداخلية فؤاد سراح الدين الذي أيده في رفض الإنذار، فكرر أكسهام إنذاره وهو يهدد بنسف الثكنات ومبنى المحافظة، فأصر القائد المصري على الرفض، فنفذ أكسهام إنذاره ورمت المدافع الثقيلة المحافظة بطوفان القنابل، فرد الجنود المصريون على الضرب بأسلحتهم البسيطة- بنادق- في معركة غير متكافئة استمرت ساعتين، وخلالها استشهد ٥٠ من رجال البوليس وأصيب ٨٠ آخرين، وخسر الإنجليز ١٣ قتيلا على الأقل، وتحققت كلمة القائد المصري بأن قوات الاحتلال لن تأخذ المحافظة إلا ورجال البوليس مقدمين

(١٩٢٢)- انظر: الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، مرجع سابق، ص ٢١٩- ٢٢٠
*** نفس مشهد إخلاء الإسرائيليين لبعض الفلسطينيين من منازلهم.. ولكن مصر لا بواكي لها
(١٩٢٣)- مذكراتي في السياسة والثقافة، ثروت عكاشة، مرجع سابق، ص ٨٧٦- ٨٧٧

كل ما عندهم، بما فيه أرواحهم، حتى انحنى لهم أكسهام محييا شجاعتهم[١٩٢٤].

▼▼▼ حريق القاهرة الثاني (اللهو الخفي يعود)

أشعل "مجهولون" القاهرة بشكل مفاجئ نهار ٢٦ يناير ١٩٥٢، بعد يوم واحد من معركة الإسماعيلية، ومصر لم تدفن بعد شهدائها، ولم يُعرف على وجه اليقين حتى اللحظة مَن هو "اللهو الخفي" الذي أحرق العاصمة، مثلما لم يُعرف من هو "اللهو الخفي" الذي دمَّر عشرات الكنايس في طول مصر وعرضها في وقت واحد أيام السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون في "واقعة الكنايس" التي أعقبها الحريق الأول للقاهرة[١٩٢٥].

وسارعت الحكومة بإعلان الأحكام العرفية، وانتهز الملك الفرصة وأقال وزارة النحاس، وفي نفس الوقت يجهز نفسه لت[illegible] إذا ما تصاعدت الأمور[١٩٢٦]، مثلما جهز جده محمد علي نفسه للهروب إلى الشام حين غزت مص[illegible] ١٨٠٧، وأقام في ٢٦ يناير ١٩٥٢، اليوم الثاني لمعركة الإسماعيلية، حفلة كبيرة دعا لها كبار رجال الدو[illegible] بمولد ولي العهد أحمد فؤاد، و[illegible] شارك الشعب مشاعر الحداد[١٩٢٧]، تماما كما احتفل جده توفيق بتثبيته [illegible] "نصر الفتح الإنجليزي"، فيما جثث الآلاف من المصريين [illegible] والشوارع، والبلد يلفها السواد.

حقق حرق القاهر[illegible]
الاحتلال، وعتَّم على معركة الإسماعيلية، ونقل المصريين في الإعلام الدولي من كونهم مقاومين للمحتل إلى "ظالمين" وهمج" نشروا الفوضى، فكانت ضربة كبيرة للمقاومة شغلت الجميع.

وفي هذا قال جمال عبد الناصر فيما بعد، وكان هو وضباط آخرون يشاركون في المقاومة الشعبية بصورة سرية في معارك القناة: "حُرقت القاهرة وحرق معها كفاحنا في القنال، ومن ذلك اليوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ بدأنا نفقد الصبر، وبدأنا نفكر في العمل الإيجابي، وآثرنا أن نصرع الفساد قبل أن يصرعنا، وأن نحطم الطغيان قبل أن يحطمنا[١٩٢٨]"، وهو ما كان بعد ٦ شهور.

(١٩٢٤)- انظر الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، ص ٢٢٠- ٢٢٢

(١٩٢٥)- في يوم جمعة من سنة ٧٢١ ه/ ١٣٢٠ م أيام الناصر قلاوون ظهر فجأة رجل مجذوب (أو يصطنع أنه كذلك) يصرخ وسط جامع قلعة الجبل عقب الصلاة: "اهدموا الكنيسة التي في القلعة.. اهدموها"، وأكثر الصياح، وفي نفس الوقت ظهر رجل في الجامع الأزهر من الفقراء (يطلق حينها هذا اللفظ على الصوفية) وصاح: "اهدموا كنائس الطغيان والكفرة. نعم. الله أكبر. فتح الله ونصر"، واستغرب الناس أمرهما ولكن لم يعثرا لهما على أثر، وفجأة انتشر من وصفهم المقريزي بغوغاء العامة وهدموا كنيسة الزهري وقتلوا من فيها ونهبوها، وهدموا كنيسة بومينا في الحمراء ونهبوها وتسارع الأمر حتى هدموا ٦ كنائس وسبوا البنات، وتتابعت أخبار هدم كنائس أخرى في الفسطاط وسط هرج ومرج فأرسل قلاوون قواته لكف النهَّابة عما يفعلون، واتضح أنه شاع بينهم أن السلطان أمر بذلك، وما أمر بشيء، وهم ذهول جاءهم أخبار بهدم ٤ كنائس بالأسكندرية وكنيستين في البحيرة وأيضا هدم ٦ كنائس في ساعة واحدة بقوص في الوجه القبلي ثم كنائس دمياط وغيرها وغيرها من أقصى مصر إلى أقصاها، وبنفس تحريض هؤلاء المجاذيب الذين يظهرون فجأة ويختفون فجأة، فأمر السلطان بقتل النهَّابين، وبعد شهر وقع حريق بالقاهرة والفسطاط أتى على الكثير من البيوت والمحلات والمراكب واستمر ٤ أيام، وعلم أن ورائه بعض الرهبان للانتقام مما حصل للكنائس، فأحرق السلطان عددا منهم، وبقي حتى اليوم لغز المجاذيب والمتصوفة الذين حرضوا الجهلة على هدم الكنايس في عدد من مدن مصر -في وقت واحد خفيا (انظر: "تاريخ الأقباط المعروف بالقول الأبريزي للعلامة المقريزي"، تحقيق عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، القاهرة، ص ١٩٧- ٢٠٩)

(١٩٢٦)- الحرس الحديدي كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه، سيد جاد، مرجع سابق، ص ٣١- ٤٣

(١٩٢٧)- انظر: مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ص ١٢٤

(١٩٢٨)- مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عبد الرحمن الرافعي، مرجع سابق، ص ١٢٩

مين اللي قال مكتوب علينا الهوان

لا الدنيا سيرك ولا الزمن بهلوان

شى الله يا طاهرة .. يا رئيسة الديوان

آن الأوان نبقى احنا.. آن الأوان

وآديكو يا ولاد الأصول شاهدين

ياللى الزمان.. خدكم لفوق فى صعوده

ورجع وخان.. ضعتوا ف بروقه ورعوده

عودوا لأصولكو.. تانى للأرض عودوا

ده اللى يمد جدوره.. يشتد عوده

يا قلبى داحنا وبكره.. متواعدين

حكمة وقالوها جدودكم الخالدين

ياللي اكتشفت إن إنت عشت في خداع

وإن ماضي العمر ع الفاضي ضاع

صحصح كدة وفتح عينيك الوساع

وافرد شراع المجد ومد الدراع

لبكرة تلقى بكرة بين الإيدين

وأميرة راجعة أميرة في عابدين(١٩٢٩)

ومصر راجعة... لعرشها المخطوف من مئات السنين.

(١٩٢٩)- آن الأوان، تأليف سيد حجاب، ألحان عمار الشريعي، غناء هشام عباس، أغنية مقدمة مسلسل "أميرة في عابدين"

"ألا تعلم أن رعاع الغزاة انتهبوا في الماضي أراضينا بحكم الغزو؛

وها هم أولاء [illegible] بالجاه والسؤدد والامتيازات لا حصر لها[١٩٣٠]".

(١٩٣٠)- رواية خان الخليلي، نجيب محفوظ، مكتبة مصر، ط٦، القاهرة، ص ٦٢

المشهد ٢٠: هل كان لتوطين الأجانب إيجابيات؟

(نظرة المصريين لمن احتلوهم اليوم)

يرى باحثون أنه كما كان للأجانب- سواء احتلال عسكري أو استيطاني كل هذه الرزايا والنكبات التي حلت على مصر فإنه لهم أيضا "إيجابيات" و"إنجازات"، ويصل الأمر بأن يقولوا أن لهم "فضل" على مصر.

وأصدروا كتبا وسطروا مقالات للإشادة بدور اليونانيين والرومان والمماليك والعرب والأسرة العلوية والإيطاليين واليونانيين والأرمن والإنجليز والفرنسيس والترك والشوام، وحتى اليهود، وكُل يرى هذا "الفضل" على مصر حسب معتقداته وانتماؤه، فمنهم من يرى "الفضل" في المزج بين الحضارة المصرية والأوروبية عبر الاحتلال اليوناني والروماني في القديم، وتحديث مصر على الطريقة الأوروبية بالاحتلال الفرنسي والإنجليزي، ومنهم من يراه في نقل الإسلام واللغة العربية إليها عبر الاحتلال العربي، ومنهم من يراه في "تخليص" و"تحرير" مصر من احتلال سابق، مثل ما يقولون إن الإحتلال اليوناني "حرر" مصر من الفرس، والعربي "حرر" مصر من الرومان، والأيوبي والمملوكي "أنقذ" مصر من الفرنجة "الصليبيين" والتتار، والعثمانلي "حمى" مصر من البرتغال، والعلوي "حرر" مصر من الاحتلال المملوكي- العثمانلي، وبالطبع فإن من يؤمنون بهذه الأشياء يرفضون وصف هذه الاحتلالات بأنها احتلال من الأساس.

كذلك يشيرون إلى "الإنجازات" المادية أو الثقافية والعمرانية التي تمت في عصور هذه الاحتلالات بأنها دليل "فضل" هؤلاء على مصر، مثل مكتبة الإسكندرية والنهضة الحضارية في الإسكندرية أيام اليونان، والمساجد والأسبلة والعمائر الفخيمة أيام الاحتلال المملوكي، وموسوعة وصف مصر وأفكار التحديث التي جاء بها الاحتلال الفرنسي، وتحويل هذه الأفكار لمشروعات في الصناعة والتعليم والزراعة إضافة لتجنيد المصريين أيام الاحتلال العلوي، والعمائر الفخيمة ومشروعات النقل والمواصلات والبنوك وانتشار الصحف والسينما زمن الاحتلال الإنجليزي، أما الجاليات الأجنبية (الاحتلال الجالياتي والاستيطاني) فيذكرون لها أن هذه المشروعات كلها كان لها فيها من التخطيط والتنفيذ نصيب كبير.

♦♦♦ فمن يتحدث باسم المصريين ويقول هذا الكلام؟

منهم أبناء هذه الاحتلالات، أي من جاءوا في موكبها، وما زالوا مقيمين في مصر، لكنهم لم يتمصروا حقا رغم كرور السنوات إلا بورقة الجنسية، فيسخرون حياتهم لوضع كتب أو قصص تمجد الاحتلالات المنتمي

لها أجداد قدامى لهم لإعطائها شرعية، مثل بعض المنتمين لليونانيين أو الأرناؤوط أو الأرمن أو قبايل عربية أو الترك أو المماليك إلخ، وكذلك باحثين يونانيين أو فرنسيس أو إنجليز أو أرمن أو عرب أو أتراك إلخ صرف يعيشون ف بلدانهم فيكتبون من باب الاعتزاز بالفتوحات أو الأنشطة الخاصة بها.

ومنهم أبناء تيارات الهكسوس، أي المرتبطين بتيار الخلافة الإسلامية (تنظيم الإخوان والسلفيين)، أو تيار الليبرالية الرأسمالية أو الشيوعية أو الصوفية أو الماسونية أو القومية العربية أو الإرساليات التبشيرية، وكل أبناء تيار من هؤلاء مرتبط باحتلال معين يجهد ليعطيه شرعية، مثل ارتباط تيار الخلافة بالعرب والعثمانلية، أو ارتبا... ...الية والإ...اليات بالفرنسيس والإنجليز والجاليات الأوروبية، أو ارتباط القومية العربية بالعر...

ومنهم من ليس بداخله غرض سيء... للمعلومات التي تقدمها المدارس في مصر (حكومية أو أجنبية) ...سلسلاتهم ...ماء، ويشكل آرائه منها فقط.

والسؤال..

◆◆◆ هل حقا هناك جيش أجنبي "حرر" مصر، و"أ..." مصر؟

جيش الإسكندر لما هزم الفرس واحتل مصر، هل بذلك ... منافس له ليـ...؟

جيش الرومان لما هزم البطالمه واحتل مصر، هل بذلك حررها أم تخلص من منافس ...لها هو؟

وجيش العرب لما ...س حررها أم تخلص من منافس له ليحتلها هو؟

جيش العبيديين (ا... ...ب (الخلافة العباسية) واحتل مصر، بذلك حررها أم تخلص من منافس له ليحتلها

وجيش الأيوبيين لما هزم العبيديين واحتل مصر، هل بذلك حررها أم تخلص من منافس له ليحتلها هو؟

المماليك لما هزمو... ...ر، بذلك حرروها أم تخلصوا من منافس لهم ليحتلوها هم؟

وجيش العثمانلية لما هزم المماليك واحتل مصر، بذلك حررها أم تخلص من منافس له ليحتلها هو؟

جيش الفرنسيس حين هزم المماليك واحتل مصر، بذلك حررها أم تخلص من منافس له ليحتلها هو؟

ومحمد علي مدعوما بالثورات الشعبية على الفرنسيس والوالي العثمانلي لما هزم المماليك والعثمانلية واحتل مصر، هل بذلك حررها أم تخلص من منافس له ليحتلها هو؟ بل وتخلص من قادة الثورات لينفرد بالحكم.

وجيش الإنجليز حين كسر ثورة التحرير المصرية ١٨٨٢ ثم هزم السلطنة العثمانلية في الحرب العالمية

الأولى واحتل مصر، هل بذلك حررها أم تخلص من منافس له ليحتلها هو؟

هل محتل واحد من هؤلاء حين طرد المحتل السابق له وقف وسلَّم مصر لأهلها؟

هل محتل واحد من هؤلاء قال لقد "حررناكم" أيها الأحبة المصريون وهاكم صولجان حكم مصر وعرشها وثرواتها تعود لكم هنيئا مريئا ونحن عائدون لبلادنا و"نشوف وشكو على خير" و"ربنا يديم المعروف"؟

هل محتل واحد من هؤلاء حين تمكن من حكم مصر أعاد المصريين لمكانتهم الأصلية، أن يكونوا الأسياد في بلدهم، أم أبقوا عليهم مسخرين وخادمين للمحتل الجديد والجاليات الأجنبية وفي أسفل الدرجات؟

هل محتل واحد من هؤلاء حرص على أن يكون الجيش مصريا خالصا؟ المناصب مصرية خالصة؟ أو أعاد توزيع الثروة والأرض على أصحابها المصريين الحقيقيين؟

هل محتل واحد أو جاليات أجنبية أنصف ثورة قامت تنادي: "مصر للمصريين"؟

♦♦♦ متى احتاجت مصر في أي عصر هجرات أجنبية لتبني نفسها ؟

وكدليل على ما يعتبرونه "فوايد" الاستيطان الجالياتي في ميادين العمارة والفنون والزراعة والصحافة والصناعة والأدب، يضرب باحثون أمثلة منها ما شهدته مصر في العصر الحديث:

ففي الصناعة: ساهمت الجاليات الأجنبية منذ محمد عي وحتى ثورة ١٩٥٢ في تطوير صناعات قديمة مثل السكر وتبييض الأرز والتعدين والنسيج، وإدخال صناعات جديدة أو إحياء صناعات اندثرت أو قلَّت مثل صناعة الثلج والمياه المعدنية وصناعة السفن وسباكة الحديد[١٩٣١].

وفي الزراعة: ساهمت الجاليات الأجنبية واستثماراتها في توسيع رقعة الأراضي الزراعية عبر شركات استصلاح الأراضي والسدود وتوسيع زراعة القطن حتى باتت مصر رقم (١) فيه عالميا.

وفي العمارة: نشروا الطابع الأوروبي في العمارة، الفرنسي والإيطالي واليوناني، خاصة في الإسكندرية ووسط القاهرة ومدن القناة، حتى باتت بعض الأحياء تتفوق في جمالها على أحياء أوروبا.

وفي الثقافة: انتشرت المدارس الحديثة والصحف والمجلات وعاد المسرح لمصر بعد طول غياب، وظهرت السينما في مصر مبكرا مقارنة بمعظم الدول، وانتشر علم المصريات والآثار والمتاحف.

وفي النقل والاتصالات: صارت مصر من أوائل دول العالم التي ظهر فيها السكك الحديدية والتليفونات والبريد وأحدث السيارات، وتملك أهم ممر ملاحي عالمي وهو قناة السويس.

كل هذا لا ينفيه المصريون، والسؤال:

[١٩٣١]- انظر الجالية البريطانية في مصر (١٨٠٥- ١٨٨٢)، مرجع سابق، ص ١٢١- ١٣٠

- هل المصريون طوال تاريخهم القديم المديد ناس "كتعة"، يعني عجزوا عن إدارة بلدهم واختراع وتطوير أرقى الفنون والعلوم أم كانوا مثالا لتقديم حضارة مشهودة أضاءت العالم وكانت له المنارة؟

- هل لو لم تقع مصر في الاحتلال العسكري والاستيطاني كانت ستتوقف عن الإبداع أم كانت ستبدع دورات حضارية جديدة كعادتها- مثل النهضة والولادة الجديدة بعد الزفتة الأولى والزفتة الثانية في التاريخ القديم- لا تقل رقيا وإبداعا عما ورد إليها على يد الاحتلال الاستيطاني والعسكري، بل تفوقها كمالا وجلالا، والأهم أنها ستحتفظ بطابع وهوية مصرية تكون لنا عَلَما أمام العالم بدلا من أن نتفاخر بأن عمائر بلدنا وثقافتنا صارت "يونانية" و"عربية" و"فرنسية" و"إيطالية"، و"فرنسية" و"إنجليزية"، كأنَّا لمن نكن يوما صناع حضارة، أو كأنَّا لم نكن يوما من الأساس شعبا له بصمته وشخصيته.

- هل البلد التي بنت منف واون وواسط (طيبة) وسايس وأبجو (أبيدوس) وغيرها عشرات المدن الشامخة كانت تنتظر أن يأتيها الإغريق ليعلموها بناء المدن فنقول إن لهم فضل في بناء الإسكندرية؟

- هل الأفضل أن تأتي إلينا احتلالات عسكرية واستيطانية فتصب على رأسنا وأرضنا صبا هويتها وثقافتها وتُلزمنا بها، أم أن نظل أحرارا، لا يملك بلدنا سوانا، وننتج ما يعبر عن دمنا وروحنا ودورنا في الحياة، ونتفاعل مع الحضارات والشعوب الأخرى تفاعل "التعاون"، و"تبادل الخبرات"، لا الفرض والقهر؟

- لمن كانت هذه المشروعات التي جرت أيام الاحتلالات وشارك فيها مستوطنون أجانب؟ هل للمصريين أم للأجانب في الأساس؟ ولصالح تحرير واستقلال مصر وإعادتها لمكانتها وهويتها الأولى أم لصالح ترسيخ الاحتلال وأن تكون مصر مشاعا لكل الأجناس؟

- كم من المصريين استفادوا من الأراضي المستصلحة أو ملكوها مقارنة بما تملكه منها الأغراب؟

- كم مصري من ولاد البلد استطاع أن يسكن العمارات الفخيمة المزخرفة في الإسكندرية ووسط البلد ومدن القناة التي كانت شبه حكر على الأجانب؟

- هل معظم الزرع والحفر والبناء كان بسواعد المصريين أم الأجانب؟ وكم تكلف المصريون من عرق وسخرة لتظهر مثلا السكك الحديدية والعمارات الفخيمة وقناة السويس والشوارع الممهدة على الأرض؟

- هل الصحافة والمدارس التي أسسها الأجانب كانت تكتب وتعلم لصالح مصر أم لصالح الأجنبي؟ وتنشر الأخلاق والأصول المصرية أم تسعى لتعليم المصريين محبة المحتل وتلبسهم هوية من أذلوهم؟

- كم طائفة ومذهب غرسته الجاليات في جسد مصر ليشرخوه ويخلقوا صراعات بين المصريين؟

- هل كان يستطيع الإغريق بناء الإسكندرية والإنفاق عليها كل البذخ الذي كان، وهل كانت ستظهر الفسطاط والقاهرة والكنايس والأسبلة والمساجد والقصور والقلاع المميزة في عصر الخلافة الإسلامية، وهل كان محمد علي وأولاده والإنجليز وكافة الجاليات قادرون على تنفيذ قناة السويس والسكك الحديد وتشييد

العمارات والقصور الفخيمة والمصانع بدون أموال وعرق وشقا وأيدي الفلاحين، بل وبدون ما ورثه العالم من علوم وفنون وعمارة وإدارة مصرية؟

- ولماذا نجحت أسرة محمد في مصر وفشلت في الشام، ولماذا ازدهرت مشاريع الفرنسيس والإنجليز والجاليات الأجنبية في مصر أكثر من دول أخرى احتلوها في المنطقة إن لم يكن الفضل الأول في ذلك لأبناء مصر وكدهم؟

- لماذا تحول بعض من أتوا من أوروبا وجزيرة العرب والشام والمغرب من لاشيء أو حياة البداوة إلى أغنياء وأسماء معروفة ومراكز مرموقة في الفن والسياسة والاقتصاد إن لم يكن الفضل لمصر لا لهم؟

- هل تساوي كل الإنجازات المنسوبة للأجانب منظر المصريين يساقون أسرى في الحبال ليزرعوا وسية الروماني فلان واليوناني علان والعربي سلان والإنجليزي تلان إلخ؟

- هل تساوي الانجازات المنسوبة للأجانب منظر المصريين أطفال وكبار سن وستات يتساقطون موتى من الإعياء والإرهاق في العمل أو الضرب بالكرابيج أو من البرد أو العطش كما حدث في مشاريع عدة أيام العرب والمماليك والعثمانلية ومحمد علي والإنجليز وغيرهم؟

- هل تساوي منظر المصريين يختطفهم الاحتلال وأعوانه من الشوارع والبيوت هم ومحاصيلهم وحيواناتهم ليحاربوا بالسخرة في حروب العثمانلي والإنجليزي ومحمد علي وإسماعيل وغيرهم؟

- هل تساوي منظر المصريين وهم يفاجئون "كل يوم والتاني" بذئاب العربان الجوعى تنقض على قراهم وتنهش أموالهم وأجسادهم وأعراضهم ومحاصيلهم وأراضيهم؟

- هل تساوي منظر المصريين وهم كالأيتام بين اللئام بعد فقد الحكومة والجيش والداخلية التي منه فيتحكم فيه العربي والعجمي في قريته ويتسلط ويعامله معاملة العبيد ويتحجج بأنه "بيحميه"؟

- هل تساوي سرقة تعب وفن وفكر المصريين الذي أصبح منسوبا لليونان أو الرومان أو العرب أو العبيديين وغيرهم، فيقال فن يوناني وروماني وعربي وفاطمي وإسلامي ولا يُذكر نصيب المصريين فيه وكأن مصر ماتت مع مجئ الاحتلال الإغريقي؟

- هل تساوي أن تاريخ مصر بداية من الاحتلال الخاسوتيمي وحتى الاحتلال العثمانلي لا يكتبه تقريبا إلا المحتل والجاليات الأجنبية، فيظهر لنا أحوال و"إنجازات" الأجانب في مصر، في حين نكاد لا نسمع صوتا للمصريين ولا نعرف آرائهم وأحوالهم من ألسنتهم كأنهم غير موجودين؟

- هل تساوي سرقة صفة "المصريين" من أولاد البلد، ولصقها بالجاليات الأجنبية من مستوطني مصر، فيكاد من يقرأ كتب المؤرخين والرحالة لا يعرف عند كلامهم عن "المصريين" من يقصد بالضبط؟

- هل تساوي عقد الخواجة "اللي راكبة معظم المتعلمين" وانحناءة الضهر وركوع النفس أمام "اللي يسوى وما يساوش" من الأجانب بعد تعود هؤلاء المتعلمين على أن يسيروا وراء الأجانب؟

- هل تساوي الإنجازات المنسوبة للأجانب حرمان المصريين من متعة الطموح والترقي والعلم وحرية الحركة وحتى متعة الأكل مئات السنين وهو يراقبون كل سفيه ووضيع يدخل بلدهم فيتحول في لحظة لصاحب جاه ويأمر ويتأمر عليهم؟

- هل تساوي أن يملك أرضنا الأجانب سوا بالغصب أو بالربا أو من الحكومة بالشرا والهبات ويصبح الأجنبي "صاحب أرض المصريين"، وهم الذين يتوسلون إليه ليسمح لهم بأن يعملوا فيها أو يسكنوا؟!

- هل تساوي أن يتحول الشعب الواحد الوحيد في العالم إلى شعب مغروس بالطوائف والمذاهب والقبائل والأعراق الأجنبية تنهش بعضها بعضا وتحول المصريين لفرق تقتل بعضها بعضا؟

- هل تساوي أن [illegible] خونه [illegible]"، يستحلوا [illegible] يمات الدولية والبلاد الأجنبيه بعد ان نسوا أصولهم المصرية الشريفة وارتموا في أحضان الشيوعية والماسونية والإخوان المسلمين والليبرالية والإرساليات والروح القبلية والحربية؟

- هل تساوي أن تظل مصر مئات السنين [illegible]

- هل تساوي أن ننسى حضارتنا ويشوهها العالم وتشنع علينا الشعوب التي احتلتنا واستوطنتنا أننا كنا شعب من الكفرة والفسقة رغم أننا كنا من أعظم- إن لم نكن أعظم- شعب وأكثره تدينا مقارنة بهم؟

- هل تساوي أن تتجرأ الشعوب التي نهبت بلادنا أن تتكبر علينا وتقول نحن من حررناكم من الاحتلال كما يقول العرب إنهم "حررونا" من الاحتلال الروماني، وأسرة محمد علي أنهم "حررونا" من الاحتلال المملوكي إلخ، والأدهى أن مصريين يكررون ورائهم نفس الكلام؟

- هل تساوي أن يُساق المصريون رجال وستات وأطفال للبيع في أسواق الرقيق كما بهم فعل العربان والمماليك والعثمانلية داخل مصر أو يتجرجروا لبيعهم في أسواق الحجاز كما فعل عمرو بن العاص أو في بغداد كما فعل الخليفة المأمون؟

- هل تساوي أن تُساق كفاءات المصريين في كل صنعة وحرفة وفن مقيدين ليبنوا بلاد آشور وفارس وإسطنبول حين احتلنا تلك البلاد، فيما يتركون مصر قاعا صفصفا؟

- هل تساوي اغتصاب ستات مصر وبالجملة أمام أهاليهنَّ أو على الطرقات أو يُساقوا إلى بيوت المغتصبين على يد العربان والمماليك والعثمانلية والفرنسيس المسلحين خلال هجماتهم على القرى، ويشاهدنَّ آبائهنَّ العُزل يقتلون أمامهنَّ وهم يدافعون عنهنّ؟

- هل تساوي أن يتعطل المصريون كل فترة ليقوموا بثورات رهيبة ضد المحتلين تستمر شهورا أو سنوات ليتخلصوا منه، ثم تنزف أرواحهم بالآلاف حين يقابلها المحتل بسيوف مرتزقة وأوباش الأرض؟

- هل تساوي أن يحكم مصر العبيد والجواري والمرتزقة ويذلوا الفلاحين الأحرار؟

- هل تساوي أن المصريين بعد أن كانوا النجوم اللامعة في سماء الدنيا آلاف السنين يصبحون مجرد خدم وفواعلية، بل مسخرين بلا أجر ليس في مشاريع تخدم بلدهم حقا، بل عند المستوطنين الأجانب؟

- هل تساوي منظر المصري الحُر، ابن الأرض، وابن ماعت، ينحني ليقبل يد المستوطن الأجنبي- جبرا أو اختيارا- باعتباره "السيد" متملك الأرض التي فيها رزقه، ليكسب رضاه أو ليؤجل له ميعاد دفع الإتاوات والضرايب أو ليرد له أولاده وزوجته الذين أخذهم رهنا عنده حتى يدفع المعلوم؟

- هل تساوي أن يكون ترتيب الطبقات في معظم عصور الاحتلالات هو: الطبقة الأولى المحتل العسكري، الطبقة الثانية الجاليات الأجنبية، الطبقة الثالثة العبيد والجواري، الطبقة الرابعة المصريين، أي أننا في بلدنا أقل من العبيد والجواري؟

- هل تساوي أنه من كثرة معايشتنا للأجانب وكثرة فرضهم لأذواقهم علينا أصبحت مصر بلد "مرقعة"، كل حاجة فيها تبع هوية وتبع بلد، سوا العمارة أو اللبس أو اللغة أو المدارس أو الفنون أو حتى فرش بيوتنا وأكلنا وأسامينا وأسامي شوارعنا ومدننا، وكأننا بلد "لا جدر لها ولا أصل"؟

- هل يساوي الإنجازات المنسوبة للأجانب سرقة ما تم سرقته من الآثار المصرية منذ الاحتلال الأشوري وحتى الآن.

- هل تساوي فقدان المصريين للسانهم المصري البليغ، اللغة المصرية، روح حضارتهم، فيتجرأ علينا الشعوب وتقول: لو كنتم حقا حضارة عظيمة ما فقدتم لغتكم وما أصبحتم منقادين لثقافات غيركم؟

- هل تساوي أن تتجرأ علينا الشعوب لتقول إنكم شعب خليط من الغزاة ولستم مصريين، فلا هوية لكم، ويتخذوا هذا حجة لتحقيق مشروع تدويل مصر لكل الأجناس ولكل الهويات والثقافات بعد أن كانت هي صانعة أول وأبهى هوية وطنية؟

- هل تساوي أن اليوم يتجرأ علينا يهودي وزنجي وسوداني وأوروبي وعربي وأمازيغي وألباني بل حتى الغجر (كما سنرى إنشاء الله في الجزء الثاني) ليقولوا إنهم من صنع حضارة مصر لمجرد أن بعضهم سكن فيها لفترة كغزاة أو عبيد أو أسرى حرب أو حتى لم يسكنها، وأن من في مصر اليوم غزاة، ويخططون بمساعدة تنظيمات دولية للنزاع معنا على مصر بحجة أن لهم فيها حقوقا تاريخية؟

- هل الأصح والأعدل والأنسب مع ما جرى في التاريخ أن يقال للغزاة وجالياتهم "فضل" على مصر، أم أن لمصر "حقوقا" عندهم لم تُفتح ملفاتها بعد؟ وإن عليهم أن يتحدثوا مع مصر معتذرين محني الرءوس

على ارتكبوه في حقها من جرايم ونهب وقتل وإذلال لا أن يتمادوا في الظلم والكذب والحديث بلسان المسيخ الدجال ويطلبوا منها أن تشكرهم هي.

إن بريطانيا أرغمت مصريين تحت إرهاب السلاح أن يوقعوا على أنهم ذهبوا للمشاركة في الحرب العالمية الأولى كـ"متطوعين" وليس مسخرين مغصوبين، وأرغمت الحكومة أن تحسب الملايين التي نهبتها بريطانيا من خزانة مصر للحرب على أنها "تبرعات"، وليست سرقات أو ديون، وذلك كيَ لا نطالبها يوما بحقوق دماءنا وعرقنا واحتلالها لنا، فهل من يرفعون في وجهنا كلمة "فضلهم" على مصر يريدون هم أيضا ألا يفتح أي جيل مصري حقيقي ملفات حقوق مصر على هؤلاء؟

في النهاية.. يشهد [illegible] في تاريخ الاحتلالات أي مشروعات يسميها البعض "إنجازات" إلا وفعلته مصر في [illegible] يدنسها المحتلون، بل وفاقتهم عظمة وجمالا وإجلالا، في العمارة، مشاريع الري، تطوير الزراعة، الصناعات، الفنون بكل ألوانها، الآداب والأخلاق والحكمة، القوانين، النظام، [illegible] ات العامرة التي يسيل لها ريق طلاب العلم في الدنيا، مؤسسات التعليم، تأسيس أعظم الجيوش، [illegible]، وغير [illegible].. لم نكن نحتاج للاحتلال والذل كي تفعلها لنا شعوب أخرى عرفت [illegible] نا.. لم نكن نحتاج [illegible] فما لهذا خُلقنا.

♦♦♦ ألم تتمصر الهجرات الأجنبية وال[illegible] في أي عصر؟

ما معنى التمصر؟

إن لمصر وجه واحد فقط، ليست دولة متعددة الأوجه ولا مرقعة، فمن استوطن مصر وص[illegible] لهذا الوجه بكل ملامحه، ينظر خلفه وأمامه فلا يرى الا أرض مصر، ويفخر بلقب الفلاح، ذاك هو المتمصر، وما يلبس أن يكون [illegible] أجنبي، أما ذاك الذي يأتي لمصر بروح الغزاة او الطمع والسيطرة، ويجتهد ليضيف وجها [illegible] أجنبية فوق وجه مصر، ويعيش بثقافة البلد التي أتى منها ظاهرا أو باطنا، فلا يفرق شيئا عن الغازي المسلح الذي يأتي ليسرق مصر أرضا وهوية.. حتى لو حمل الجنسية، وحتى لو عاش في مصر ألف سنة.

ماذا لو تمصرت الهجرات الأجنبية حقا؟

لو تمصرت ما سقطنا في بئر احتلالات ٣ آلاف سنة؛ لأنها بعدم تمصرها صار الجيش حكرا على الأجانب، والمستوطنون يعاونون المحتل الجديد، ولو تمصرت ما شربنا كؤوس الذل والمذابح والإفقار ألوانا ما خطرت على قلب بشر، وما بات يُنظر إلى تاريخ مصر على أنه فترات منفصلة لأن كل هجرة كبيرة أو احتلال صبغ عليها لونه بدلامن أن يكتسي هو بلون مصر.

لو تمصرت الهجرات الأجنبية حقا ما وجدنا طوال عصور الاحتلال أن المستوطنين الأجانب هم "أغنياء البلد"، وأصحاب المناصب الكبرى، والمسيطرين على الجيش والداخلية والمالية والأرض العزيزة

وكل أمر، فيما المصريون الحقيقيون يُنظر لهم على أنهم المسخرين لإنعاش حياة هؤلاء.

لو تمصرت حقا ما احتفظ المستوطنون بلغاتهم ولما تغيرت لغة مصر الرسمية مرتين، ولما طغت الثقافة اليونانية والعربية على ساحة الثقافة، وباتت الثقافة المصرية الشعبية يُنظر لها نظرة متدنية.

لو تمصرت ما دار بيننا سؤال عن "الهوية"، وما عانى المثقفون من البحث في "أزمة الهوية".

لو تمصرت الهجرات حقا ما شهق الزمان مفجوعا بنكبة أن العبيد وقطاع الطرق وأهل غارات الصحاري يحكمون الأحرار، فحكم هؤلاء مصر.

لو تمصرت حقا ما كنا رأينا مدنا (كالإسكندرية والقاهرة) في بعض العصور مغلقة على المستوطنين الأجانب والمصريون محرم عليهم دخولها، ولو عاشوا فيها فيُنظر لهم على أنهم "غرباء" أو"رعاع".

لو تمصرت الهجرات حقا ما وجدنا الفصل الواضح بين المصريين والمستوطنين حتى القرن ٢٠ في كل شيء، بل حتى قيام ثورة ١٩٥٢ كان سهل معرفة المصري من اليوناني من الشامي من الأرمني من الإنجليزي من الإيطالي من العرباني من السوداني من التركي، سوا بسبب الأسماء أو الملامح أو أماكن الإقامة أو المهن المشهورين بها أو اللغة واللهجة أو احتفاظ وافتخار المستوطن بأصله الأجنبي أو بالمواقف المتباينة إزاء مصر في أوقات المحن.

لو تمصرت حقا ما ظلت عائلات- حتى اليوم- تسقي أولادها مع الرضاعة أن عائلتهم أصلها من تركيا أو الحجاز أو المغرب أو الشام أو الأرمن إلخ، فيشب الفتى مشتت الانتماء ما بين أنه مصري حسب شهادة الميلاد وما بين أنه في الأصل من بلد آخر أو قبيلة يحفظ له نصيبا من المحبة والولاء.

وفي نفس الوقت.. تمصر فعلا بعض المستوطنين، ولكن ما أقلهم، بل ما أندرهم مقارنة بطوفان المستوطنين الذين تلذذوا بعيشة المتسيد فوق رقاب أهل البلد والمتلذذ باحتفاظه بأصله الأجنبي، وهؤلاء الذين تمصروا حقا نذكرهم بكل الخير، وربما لأنهم تمصروا حقا من قلبهم وبكل عروقهم عاشوا في وجدان المصريين بأعمالهم، عاشوا مصريين مثلهم مثل أي مصريين، لأنهم هم احترموا وافتخروا بأن يكونوا مصريين وفقط، بل قدموا أعمالهم وحياتهم خدما لمصر وأهلها، للفلاحين، وعاشوا مصريين لا قبل هذه الكلمة صفة ولا بعدها صفة، لا قبلها نسب ولا بعدها نسب.

ومن هؤلاء مثلا عبد البديع خيري (عائلة أبيه تركية وأمه مصرية)، ونجيب الريحاني (عائلة أبيه عراقية وأمه مصرية)، ليلى مراد (عائلتها يهودية)، فتش في أعمال هؤلاء ومواقفهم، هل ترى فيها لونا غير لون مصر؟ هل ترى فيها أي ذكر أو تفاخر بالبلد الأجنبي الذي قدمت منها عائلاتهم؟ بل العكس، الريحاني مثلا أخذ على عاتقه حينما كان المسرح يطغى عليه اللون الأجنبي أن يقدم فنا مصريا خالصا يعبر عن آلام وآمال الفلاحين والحارات، وعبد البديع خيري أخذ على عاتقه أن يعيد بالاشتراك مع سيد درويش العزة الحضارية في عروق المصريين وبالاعتزاز بأجدادهم المصريين، ولولا حديث مؤرخين عن

وجود أجداد أجانب لهؤلاء ما شعرنا لثانية واحدة أنهم من عائلات تنتمي لبلد أجنبي.

ولكن كم من المستوطنين كان لديه نفس الروح ونفس التمصر الحقيقي.. وهل من تمصر كانوا صدفة وحالات فردية أم القاعدة، إن أنَّات الأجداد المعبأ بها صدر التاريخ مما كابدوه من توالي المحتلين والمستوطنين، والتقيحات العميقة في الجسد المصري، والشروخ في الوجدان والعقل المصري، بل الإرهاب الذي ينشر اليوم الدم في كل مكان ويجد من بين سكان مصر ملايين تبرره، تجيب بصدق و"بلا زواق"، و"بلا تزوير" عن هذا السؤال.. رغم كل الكتب وكل الأفلام وكل المسلسلات التي وضعها المستوطنون وأحفادهم الذين لم يتمصروا إلى اليوم، وبعض المؤرخين، لمدح المحتلين وتوطين الأجانب في مصر.

حابي:

اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليه

ملأ الجو هتافـــا بحياتيْ قاتليـــه

أثّر البهتان فيه وانطلى الزور عليـه

ياله من ببغــاء عقله في أذنيــــه

ديون:

حابي، سمعتُ كما سمعتَ وراعني أن الرّميّة تحتفي بالرامي

هتفوا بمن شرب الطلا في تاجهم وأصار عرشهم فراش غــرام

ومشى على تاريخهم مستهزئا ولو استطاع مشى على الأهرام

بل مشوا على الأهرام، بل حاولوا تدميرها، بل سخطوا فكرة الهرم وصارت مصر هرما مقلوبا لما نسيت وصية الهرم:

"إن البوابات [الحدود] التي فوقك كبوابات حامية.... إنها سوف لا تفتح للغربيين، إنها سوف لا تفتح للشرقيين، إنها سوف لا تفتح للجنوبيين، إنها سوف لا تفتح للشماليين، إنها سوف لا تفتح لهؤلاء الذين في وسط الأرض، إنها سوف تفتح لحورس[(١٩٣٢)]". (نصوص الأهرام)

"إن الذي يفعل الماعت فذلك الذي يكون بعيدا عن الضلال"، "يحل العقاب دائما بالذي يتخطى قواعدها[(١٩٣٣)]". (الحكيم بتاح حتب)

(١٩٣٢) ـ الوصية الواردة في نصوص الأهرام، القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، ص ١٢٥- ١٢٦

المراجع العربية والمترجمة مرتبة بترتيب أحداث العصور

١- الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول مصر والعراق)، عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو، ط٢ منقحة، القاهرة، ١٩٧٣
٢- حضارة مصر القديمة وآثارها- ج١، عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ٢٠٠٦
٣- موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، الجزء ١٧، الهيئة العامة للكتاب، مشروع مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٠
٤- مصر الفرعونية، أحمد فخري، الهيئة العامة للكتاب، مشروع "مكتبة الأسرة" القاهرة، ٢٠١٢
٥- الفن المصري القديم: سيريل ألدريد، ت. أحمد زهير، وزارة الثقافة، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٩٠
٦- تاريخ الفن في العالم القديم، علي رضوان، ط ٢، دار شركة الحريري، ٢٠٠٤
٧- الأسرة في المجتمع المصري القديم، عبد العزيز صالح، دار القلم (وزارة الثقافة)، القاهرة، ١٩٦١
٨ - تاريخ مصر القديمة، نيكولا جريمال، ت. ماهر جويجاتي، دار الفكر لدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، القاهرة، ١٩٩٣
٩- "الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة"، سيريل ألدريد، ت. مختار السويفي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط٣، ١٩٩٦
١٠- فجر الضمير، جيمس هنري بريستيد، ت. سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١١
١١- قصة الحضارة، جيمس هنري بريستيد، ت. أحمد فخري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١
- تطور الفكر والدين في مصر القديمة، جيمس بريستيد، ت. زكي سوس، دار الكرنك للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦١
١٢- مصر الفراعنة، آلان جاردنر، ت. نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣
١٣- الأهرامات المصرية، أحمد فخري، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٦٣
١٤- ماعت فلسفة العدالة في مصر القديمة، أنَّا مانسيني، ت. محمد رفعت عواد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩
١٥- الوعي السياسي عند قدماء المصريين، فايز أنور عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣
١٦- الخطاب السياسي في مصر القديمة، مصطفى النشار، دار قباء للطباعة والنشر، ط ١، القاهرة، ١٩٩٨
١٧- تطور المثل العليا في مصر القديمة، محمد علي سعد الله، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٨٩
١٨- الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء، محرم كمال، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨
١٩- اللغة المصرية القديمة، عبد الحليم نور الدين، دار الأقصى للطباعة والنشر، ط ٩، القاهرة، ٢٠١٢
٢٠- القومية وتعبيراتها عند المصري القديم حتى نهاية التاريخ المصري القديم، نجلاء فتحي شهاب، رسالة دكتوراة، كلية الآثار جامعة القاهرة ٢٠١٢
٢١- الشرطة والأمن الداخلي في مصر القديمة، بهاء الدين إبراهيم، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، (غير مؤرخ)
٢٢- حكام الأقاليم في مصر الفرعونية (دراسة في تاريخ الأقاليم حتى نهاية الدولة الوسطى)، حسن محمد محيي الدين السعدي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩١
٢٣- مجموعة الملوك المسماة "سوبك حتب" في الأسرة ١٣، أحمد محمود صابون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (غير مؤرخ)
٢٤- معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة، مانفريد لوكر، ت. صلاح الدين رمضان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠
٢٥- الفكر الفلسفي في مصر القديمة، مصطفى النشار، الدار المصرية السعودية للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤
٢٦- رؤى جديدة في تاريخ مصر القديمة، رمضان عبده علي، وزارة الآثار، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة (غير مؤرخ)
٢٧- المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الإمبراطورية ١٥٧٠ ق.م- ١٠٧٨، أحمد قدري، ت. مختار السويفي، محمد العزب موسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤
٢٨- مواقع الآثار المصرية القديمة، ج١، عبد الحليم نور الدين، ط ٨، الخليج العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٩
٢٩- المتحف المصري، محمد صالح علي وهووريج سوروزيان، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، (غير مؤرخ)
٣٠- متون هرمس الحكمة الفرعونية المفقودة، تيموثي فريك وبيتر غاندي، ت. عمر الفاروق عمر، المجلس الأعلى للثقافة،

(١٩٣٣)- تقديم علي رضوان لكتاب "الماعت.. فلسفة العدالة في مصر القديمة"، مرجع سابق، ص ١٢-١٥

القاهرة، ٢٠٠٢ ، جيمس هنري بريستد، ت. أحمد فخري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١
٣١- انتصار الحضارة ...كر، دار القلم (وزارة الثقافة)، القاهرة، ١٩٦١
٣٢- إخناتون، عبد المنعم [illegible] ...ارق، دونالدريد فورد، ت. بيومي قنديل، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٠
٣٣- أخناتون ذلك الفرعون [illegible] ت. رفعت السيد علي، دار العلوم للنشر والتوزيع، ط١،
٣٤- رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم، تريفور برايس،
القاهرة، ٢٠٠٦ ، فرانسيس فيفر، ت. فاطمة البهلول، دار الحصاد، دمشق،
٣٥- الفرعون الأخير رمسيس الثالث: أو زوال حضارة عريقة
(غير مؤرخ) ...لى قبل الميلاد، جونتر فيتمان، ت. بعد الجواد مجاهد، المركز القومي للترجمة، القاهرة،
٣٦- مصر والأجانب في [illegible]
٢٠٠٩ ...ن مصر"، ت. محمد صقر خفاجة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧
٣٧- هيردوت يتحدث ... ج٥، ط١، دار الكتب
٣٨- مختصر تاريخ العراق (تاريخ العراق القديم)، علي شحيلات وعبد العزيز إلياس الحمداني،
العلمية، بيروت، ٢٠١٢ ...كندر الأكبر حتى الفتح العربي، مصطفى عبادي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٩
٣٩- مصر من الإس... دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية
٤٠- الحياة في مصر في العصر الروماني، نافتالي لويس، ت. آمال الروبي،
والاجتماعية، ط ١، القاهرة، ١٩٩٧ ، آمال الروبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
٤١- مظاهر الحياة في مصر في العصر الروماني اجتماعيا واقتصاديا وإداريا
القاهرة، ١٩٧٥ ...لإنسانية والاجتماعية، ط٢،
٤٢- تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان، أبو اليسر فرج، عين للدراسات والبحو[illegible]
القاهرة، ٢٠٠٢ ...العصر المسيحي"، رأفت عبد الحميد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهر[illegible]
٤٣- الفكر المصري في ...ر الإسلامي، زبيدة عطا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١
٤٤- الفلاح المصري بين العصر القبطي و[illegible] ...ب يعقوب صليب، مطبعة قاصد خير، القاهرة، ١٩٦٤
٤٥- الفن القبطي الم[illegible] العصر [illegible] الروماني [illegible] الحديثة، ط ١، القاهرة،
[illegible] حماس [illegible]
٤٦- اليهود في مصر [illegible]
١٩٦٨ ...اهرة، (غير [illegible]
٤٧- تاريخ مصر في ... البطالمة والرومان، محمد إبراهيم السعدني، [illegible]
٤٨- تاريخ الكنيسة القبطية، [illegible] ...ية، القاهرة، (غير مؤرخ)
مطبعة دار العالم العربي، القاهرة، (غير مؤرخ)
٤٩- حضارة مصر في العصر القبطي [illegible] القاهر[illegible] ١٠٠[illegible]
٥٠- تاريخ الأمة القبطية، يعقوب نخلة روفيلة، ط٢، مؤسسة مار مرقص لدراسات التاريخ
٥١- تاريخ اللغة القبطية، كمال فريد إسحق، مؤسسة بيتر للطباعة والتوريدات، القاهرة، (غير مؤرخ)
٥٢- مصرع كليوباترة، أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، (غير مؤرخ)
٥٣- فتوح مصر وأخبارها، أبو القاسم بن عبد الحكم، مكتبة مدبولي، سلسلة صفحات من تاريخ مصر، القاهرة، ١٩٩[illegible]
٥٤- فتح العرب لمصر، ألفريد بتلر، ت. محمد فريد بك أبو حديد، مكتبة مدبولي، ط٢، القاهرة ١٩٩٦
٥٥- تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة عبد العزيز صالح، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ٢٠١٠
٥٦- كتاب الأصنام، أبو المنذر هشام الكلبي، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، ط٣، القاهرة، ١٩٩٥
٥٧- تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٤، ط ٢، دار
المعارف، القاهرة، (غير مؤرخ)
٥٨- تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي "رؤية قبطية للفتح الإسلامي"، عمر صابر عبد الجليل، عين للدراسات والبحوث الإنسانية
والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٣
٥٩- الولاة وكتاب القضاة، ...مر محمد ابن يوسف الكندي، طبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨
٦٠- أحسن التقاسيم في [illegible] المقدسي المعروف بالـ[illegible] مكتبة مدبولي، ط٣، القاهرة، ١٩٩١
دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠١٥
٦١- الدولة العباسية مراحل [illegible] قصور الثقافة، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٢
٦٢- الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، [illegible] إسكندر، مكتبة المحبة، القاهرة، (غير مؤرخ)
٦٣- تاريخ البطاركة، ساويرس بن المقفع، تلخيص وتعليق ميخائيل [illegible]
٦٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي المسعودي، المكتبة [illegible]رية، ط ١، بيروت، ٢٠٠٥
٦٥- أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، أبو الحسن المسعودي، ط ١، مطبعة عبد الحميد حنفي، القاهرة، ١٩٣٨
٦٦- أحمد بن طولون، سيدة إسماعيل كاشف، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة، ١٩٦٥
٦٧- مصر في عصر الإخشيديين، سيدة إسماعيل كاشف، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٠
٦٨- أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية، أدولف جروهمان، ترجمة حسن إبراهيم حسن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥
٦٩- مع المتنبي"، طه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، (غير مؤرخ)

٧٠- المكافأة وحسن العقبى، أحمد بن يوسف الكاتب (ابن الداية)، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٠
٧١- اللهجة المصرية الفاطمية دراسة تاريخية وصفية، عطية سليمان أحمد، ١٩٩٣، نسخة إلكترونية غير مذكور اسم الناشر
٧٢- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، تقي الدين المقريزي، تحقيق محمد زينهم- مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨
٧٣- إغاثة الأمة بكشف الغمة، تقي الدين المقريزي، تحقيق كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٧
٧٤- الفاشوش في حكم قراقوش لابن مماتي، عبد اللطيف حمزة، كتاب اليوم، القاهرة، (غير مؤرخ)
٧٥- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، عبد اللطيف البغدادي، ط ٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨
٧٦- تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق، محمد عبد الله عنان، دار البنين للنشر والتوزيع، (غير مؤرخ)
٧٧- رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، المجلد الأول، مكتب الإعلام الإسلامي، مدينة قم بإيران، ١٤٠٥ هـ
٧٨- تاريخ الأقباط، المقريزي، تحقيق عبد المجيد دياب لكتاب القول الإبريزي للعلامة المقريزي لصاحبه مينا إسكندر الجامع لما ذكره المقريزي عن الأقباط، دار الفضيلة، القاهرة
٧٩- مصر في عهد الولاة من الفتح العربي إلى تاريخ الدولة الطولونية، سيدة الكاشف، دار المعارف (غير مؤرخ)
٨٠- تراث الأدب القبطي، شنودة ماهر ويوحنا نسيم يوسف، مؤسسة القديس مرقس لدراسات التاريخ القبطي، القاهرة، ٢٠٠٣
٨١- فضائل مصر وأخبارها وخواصها لابن زولاق، تحقيق علي محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩
٨٢- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٢، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٨
٨٣- المجتمع المصري في مصر الإسلامية من الفتح العربي وحتى العصر الفاطمي، هويدا عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤
٨٤- تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، عمر الإسكندري وأ.ج. سفدج، ط ٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦
٨٥- الفاطميون تاريخهم وآثارهم في مصر، أميرة الشيخ رضا فرحات، كتاب-ناشرون، بيروت، ٢٠١٣
٨٦- الدولة الفاطمية- تفسير جديد، أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، طبعة خاصة عن الهيئة العامة للكتاب لمشروع مكتبة الأسرة، ط٢، ٢٠٠٧
٨٧- الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، حسن إبراهيم حسن، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٢
٨٨- اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تقي الدين المقريزي، تحقيق جمال الدين الشيال، ط٢، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦
٨٩- السلوك لمعرفة دولة الملوك، تقي الدين المقريزي، تحقيق سيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٩٧٢
٩٠- السلوك لمعرفة دول الملوك، المقريزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ج ١، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧
٩١- السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين المقريزي، ج ٢ ق ١، محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٦
٩٢- السلوك لمعرفة دولة الملوك، تقي الدين المقريزي، ج٤ ق٢، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢
٨٩- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي، تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين، ج ٩، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢
٩٣- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، دار ابن حزم، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣
٩٤- قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، وفاء محمد علي، ط ١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٧ ه
٩٥- الحياة الاجتماعية في مصر خلال العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨ هـ/ ١١٧١- ١٢٥٠م)، رشا خليل أحمد علي، ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، مايو ٢٠١٠
٩٦- الحياة الاقتصادية في مصر في العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨ هـ/ ١١٧١- ١٢٥٠م)، فوزي خالد علي الطواهية، (دكتوراة)، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٨
٩٧- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين بن واصل، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، (غير مؤرخ)
٩٨- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، بهاء الدين (ابن شداد)، تحقيق محمد محمود صبح، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٢
٩٩- تاريخ دولة المماليك في مصر، وليم موير، ت. محمود عابدين وسليم حسن، ط ١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥
١٠٠- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، ١٩٩٢

١٠١- القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨- ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧ م)، مجدي عبد الرشيد بحر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩
١٠٢- تراث العبيد في حكم مصر المعاصرة، دراسة في علم الاجتماع التاريخي"، دكتور ع.ع، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، (غير مؤرخ)
١٠٣- أحوال العامة في مصر في عصر المماليك البرجية، أحمد ماجد عبد الله الجبوري، (رسالة ماجستير) جامعة آل البيت، بغداد، ٢٠١٥
١٠٤- بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن إياس الحنفي، تحقيق محمد مصطفى، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤
١٠٠- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، عمر الإسكندري وسليم حسن، ١٩١٦، مكتبة مدبولي، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٦
١٠٥- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، زكي مبارك، ج ١، ط ١، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٣٨
١٠٦- البحر المورود في المواثيق والعهود، عبد الوهاب الشعراني، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤
١٠٧- الدرر واللُمع في بيان الصدق في الزهد والورع، عبد الوهاب الشعراني، تحقيق أحمد فريد المزيدي ومحمد عبد القادر نصار، ط١، دار الكرز للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٥
١٠٨- الأعلام قاموس تراجم، خير الدين الزركلي، ج ٨، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢
١٠٩- مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، إلهام محمد ذهني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١
١١٠- الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ليلى الصباغ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٩٨٩
- الأرض والفلاح في مصر في العصر العثماني، جمال كمال محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠
١١١- الشوام في مصر منذ الفتح العثماني حتى أوائل القرن التاسع عشر، السيد سمير عبد المقصود، الهيئة العامة للكتاب (سلسلة تاريخ المصريين)، القاهرة، ٢٠٠٣
١١٢- المغاربة في مصر في العصر العثماني، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، منشورات المجلة التاريخية المغربية، ١٩٨٢
١١٣- كشف الغمة في ... ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المجلة التاريخية المصريه، المجلد ٢٣، سنة ١٩٧٦
١١٤٠- النزهة الزكية في ولاة مصر والقاهرة المعزية، محمد بن أبي السرور البكري ... م، تحقيق عبد الرازق عبد الرازق عيسى، العربي للنشر والتوزيع
١١٥- الريف المصري في القرن الثامن عشر، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة مدبولي، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٦
١١٦- ملكية الأراضي ... كتوراة)، د. حمدي الوكيل، الهيئة المصـ... ـة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧
١١٧- النوادر الشعبية المصرية، إبراهيم شعلان، ج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢
١١٨- موسوعة الأمثال الشعبية المصرية، د. إبراهيم شعلان، ج١، ط١، دار الأفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٣
١١٩- العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي، جون لويس بوركهارت، ترجمة إبراهيم شعلان، ط ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠
١٢٠- عجايب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٢
١٢١- النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، المقدم محمد فرج، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (غير مؤرخ)
١٢٢- بونابرت في مصر، كرستوفر هيرولد، ت. فؤاد أندراوس، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨
١٢٣- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، جوزيف ماري مواريه، ت. كاميليا صبحي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠
١٢٤- الجنرال يعقوب ... استقلال مصر ... بال، دار الشروق، ط١، القاهرة، ٢٠٠٩
١٢٥- تاريخ أوروبا الحديث، جيفري برون، ت. علي المزروقي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، عمَّان، ٢٠٠٦
١٢٦- البعثات التعليمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس الأول وسعيد، عمر طوسون، مطبعة صلاح الدين، الإسكندرية، ١٩٣٤
١٢٧- عصر محمد علي، عبد الرحمن الرافعي، ط ٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥
١٢٨- عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم (مصر ما بين ١٨٣٣- ١٨٣٥)، إدوارد وليم لاين،، ت. سهير دسوم، ط ٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩
١٢٩- النكبات (خلاصة تاريخ سورية منذ العهد الأول بعد الطوفان إلى عهد الجمهورية بلبنان)، أمين الريحاني، المطبعة

العلمية ليوسف صادر، بيروت، ١٩٢٨
١٣٠- لمحة إلى مصر، كلوت بك، ت. محمد مسعود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١
١٣١- الحرف والصناعات في عهد محمد علي، صلاح أحمد هريدي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥
١٣٢-صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي الجيش المصري البري والبحري، عمر طوسون، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦
١٣٣- الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بالقرم (١٨٥٣- ١٨٥٥)، عمر طوسون، مطبعة المستقبل بالإسكندرية، ١٩٣٦
١٣٤- الجيش المصري في القرن التاسع عشر، محمد محمود السروجي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧
١٣٥- مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ١٩٨٣
١٣٦- مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، رفاعة رافع الطهطاوي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٨
١٣٧- المرشد الأمين للبنات والبنين، رفاعة رافع الطهطاوي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٨
١٣٨-مصر وكيف غُدر بها، ألبرت فارمان، ت. عبد الفتاح عنايت، الزهراء للإعلام العربي، ط١، القاهرة، ١٩٩٥
١٣٩- من تراث عبد الله النديم: التنكيت والتبكيت، دراسة تحليلية عبد المنعم الجميعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤
١٤٠- رسائل من مصر (١٨٧٩- ١٨٨٢)، جون نينيه، ت. فتحي العشري، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥
١٤١- مذكرات الزعيم أحمد عرابي، دراسة وتحقيق عبد المنعم إبراهيم الجميعي، مجلد ١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥
١٤٢- مصر للمصريين، سليم النقاش، ج ٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨
١٤٣- مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨- ١٨٨٢، ألكسندر شولش، ت. رءوف عباس حامد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، القاهرة، ١٩٩٩
١٤٤- الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث، ميخائيل شاروبيم، مكتبة مدبولي، ط ٢، القاهرة، ٢٠٠٤
١٤٥- الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ١٩٨٣
١٤٦- كيف دافعنا عن عرابي وصحبه، أم.م. برودلي، ت. عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧
١٤٧- التاريخ السري لاحتلال الإنجليزي لمصر- رواية شخصية للأحداث، ولفريد سكاون بلنت، ت. صبري محمد حسن، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠
١٤٨- مصر المصرية بتغني، فؤاد حداد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٢
١٤٩- تاريخ النهب الاستعماري لمصر ١٧٩٨- ١٨٨٢، جون مارلو، ت. عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦
١٥٠- فراعنة من؟ علم الآثار والمتاحف والهوية القومية المصرية من حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى، دونالد مالكوم ريد، ت. عبد الرءوف عباس ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥
١٥١- تطور الرأسمالية المصرية، مجموعة باحثين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١
١٥٢- مذكراتي في نصف قرن، أحمد شفيق باشا، ط١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٤
١٥٣- الامتيازات الأجنبية، محمد عبد الباري، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٣٠
١٥٤- الكشاف للديار المصرية وعدد نفوسها، نظارة الداخلية إدارة التعداد، (٣ مايو ١٨٨٢ م)، ج ٢، القاهرة
١٥٥- تعداد سكان القطر المصري ١٣١٥ ه/ ١٨٩٧ م، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية، القاهرة
١٥٦- تعداد سكان القطر المصري، نظارة المالية إدارة التعداد لسنة ١٨٩٧، القاهرة
١٥٧- تعداد سكان القطر المصري في سنة ١٣٢٥ ه- سنة ١٩٠٧ م، نظارة المالية، المطبعة الأميرية بمصر
١٥٨- تعداد السكان لعام ١٩١٧، إصدار وزارة المالية، ج٢،الجدول الثامن،مكتبة جهاز التعبئة العامة والإحصاء، القاهرة
١٥٩- تعداد سكان القطر المصري لسنة ١٩٢٧، وزارة المالية، مكتبة جهاز التعبئة العامة والإحصاء، القاهرة
١٦٠- تعداد سكان القطري المصري لسنة ١٩٣٧، ج٢، وزارة المالية، مكتبة جهاز التعبئة العامة والإحصاء، القاهرة
١٦١- التعداد العام للسكان لسنة ١٩٤٧، ج٢، وزارة المالية والاقتصاد (مصلحة الإحصاء والتعداد)، المطبعة الأميرية، القاهرة
١٦٢- مصر في القرن التاسع عشر، صالح جودت، مطبعة الشعب، القاهرة، ١٩٠٤
١٦٣- قاموس الشتائم المصرية (أصول وحكايات الشتائم)، عمرو المنشاوي، إبداع للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٧
١٦٤- الجالية البريطانية في مصر (١٨٠٥- ١٨٨٢)، ناهد السيد علي زيان، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١
١٦٥- الجالية الفرنسية في مصر (١٨٨٢- ١٩٥٦)، نوريس محمد سيف الدين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٢
١٦٦- أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢، جاك تاجر، مؤسسة هنداوي، القاهرة، (غير مؤرخ)
١٦٧- حكايات من دفتر الوطن، صلاح عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مشروع مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٨

١٦٨- مقدمة في الفولكلور القبطي، عصام ستاتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، القاهرة، ٢٠١٤
١٦٩- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، أحمد رشدي صالح، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، (غير مؤرخ)
١٧٠- مذكرات إبراهيم الهلباوي، تحقيق د.عصام ضياء الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥
١٧١- سعد زغلول، سيرة وتحية، عباس محمود العقاد، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١٧
١٧٢- مذكرات سعد زغلول، تحقيق عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧
١٧٣- قصة حياتي، أحمد لطفي السيد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، (غير مؤرخ)
١٧٤- صفحات من تاريخ مصر، يحيي حقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩
١٧٥- الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، يونان لبيب رزق، ج ١، مركز تاريخ الأهرام، القاهرة، (غير مؤرخ)
١٧٦- ديوان حافظ إبرا[illegible]عمال الكاملة، حافظ إبراهيم، مؤسسة هنداوي [illegible] (غير مؤرخ)
١٧٧- ديوان حافظ إبرا[illegible] أحمد الزين [illegible]ية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧
١٧٨- ديوان الشوقيات، أحمد شوقي، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، (غير مؤرخ)
١٧٩- فن الأدب، توفيق الحكيم، دار مصر للطباعة، القاهرة [illegible]
١٨٠- الماسونية والماسون في مصر ١٧٩٨- [illegible] الوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٥
١٨١- "تاريخ الماسونية [illegible]" [illegible] مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة [illegible]
١٨٢- الماسونية في مصر، علي شلش، الهيئة المصرية العامة للكتاب [illegible] ١٩٩٣
١٨٣- أحجار على رقعة [illegible] [illegible]رلي، دار [illegible] ١٩٧[illegible]
١٨٤- الشيطان أمير العالم، وليم جاي كار، ت. [illegible] إبراهيم، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، -
١٨٥- مخطط المتنورين، مايرون فاجان، ت. علاء الحلبي، سوريا، نشر إلكتروني
١٨٦- عبادة الشيطان وسلطان القديسين، حلمي القمص يعقوب، كنيسة القديسين مارمرقس الرسول، الإسكندرية، (غير مؤرخ)
١٨٧- بروتوكولات [illegible] مكتبة [illegible] ١٩[illegible]
١٨٨- الخطر اليهودي [illegible]
١٨٩- مملكة الخزر اليهودية و[illegible] والمسلمين في العصور الوسطى، محمد عبد الشافي المغربي [illegible] لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، (غير مؤرَخ)
١٩٠- موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية، رشاد الشامي [illegible] لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ٢٠٠٢
١٩١- من نحن؟، صموئيل [illegible] المركز ال[illegible] ط ١، القاهرة، ٢٠٠٩
١٩٢- مصر الحديثة، اللورد كرومر، المركز القومي للترجمة، ت. صبري محمد حسن [illegible] القاهرة [illegible]
١٩٣- كبار الملاك والفلاحين من ١٨٣٧- ١٩٥٢، رؤوف عباس وعاصم الدسوقي، النسخة الإلكترونية المنشورة على موقع الدكتور رؤوف عباس
١٩٤- كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري (١٩١٤- ١٩٥٢)، عاصم الدسوقي، دار الثقافة الجديدة، ط١، القاهرة، ١٩٧٥
١٩٥- دار المندوب السامي في مصر، ماجدة محمد حمود، ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،، ١٩٩٩
١٩٦- مذكرات فخري عبد النور: ثورة ١٩١٩، دار الشروق، ط١، القاهرة، ١٩٩٢
١٩٧- في أصول المسألة المصرية، صبحي وحيدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٥
١٩٨- شعراء الوطنية في مصر، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، ط٣، القاهرة، (غير مؤرخ)
١٩٩- في أعقاب الثورة المصرية ثورة ١٩١٩، عبد الرحمن الرافعي، ج٢، دار المعارف، ط٣، القاهرة، ١٩٨٨
٢٠٠- تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، عبد الرحمن الرافعي، ج١، مطبعة النهضة، ط١، القاهرة، ١٩٢٩
٢٠١- تطور الحركة الوطنية في مصر (١٩١٨- ١٩٣٦)، عبد العظيم رمضان، مكتبة مدبولي، ط٢، ١٩٨٣
٢٠٢- باشوات وسوبر باشوات، د. حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربي، ط ٢، القاهرة، ، ١٩٨٨
٢٠٣- الجيش المصري في السياسة (١٨٨٢-١٩٣٦)، عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢
٢٠٤- مبادئ في السياسة والأدب والاجتماع، أحمد لطفي السيد، تعليق طاهر الطناحي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٦٣
٢٠٥- أحمد لطفي السيد، معاركه السياسية والاجتماعية، عواطف سراج الدين، نهضة مصر، ط١، القاهرة، ٢٠١١
٢٠٦- تاريخ الطبقة العاملة المصرية من ١٩١٩- ١٩٢٩، أمين عز الدين، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠
٢٠٧- خان الخليلي، نجيب محفوظ، مكتبة مصر، ط ٦، القاهرة، (غير مؤرخ)
٢٠٨- مصر في قصص كتابها المعاصرين، محمد جبريل، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٩
٢٠٩- مصر بين عهدين، توفيق الحكيم، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٣
٢١٠- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، (غير مؤرخ)
٢١١- هنري كورييل- الأسطورة والوجه الآخر، حسين كفافي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣

٢١٢- الحركة القومية العربية في القرن العشرين، هاني الهندي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، بيروت ٢٠١٥
٢١٣- الحركة العربية السرية ١٩٣٥- ١٩٤٥ (جماعة الكتاب الأحمر)، شفيق جحا، الفرات للنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ٢٠٠٤
٢١٤- يقظة العرب- تاريخ حركة العرب القومية، جورج أنطونيوس، ت. ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٨، ١٩٨٧
٢١٥- التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين، علي عشماوي، ط ٢، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، القاهرة، ٢٠٠٦
٢١٦- كارل ماركس أو فكر العالم سيرة حياة، جاك أتالي، ت. محمد صبح، دار كنعان، ط١، دمشق، ٢٠٠٨
٢١٧- الحركة الشيوعية في مصر من ١٩٢١ إلى ثورة يناير ٢٠١١، يوسف محمد، كتاب إليكتروني
٢٨- موسوعة هذا الرجل من مصر، لمعي المطيعي، دار الشروق، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٧
٢١٩- الرسالة الخالدة، عبد الرحمن عزام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٤
٢٢٠- مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، ط٢، دار المعارف، القاهرة، (غير مؤرخ)
٢٢١- تاريخ اللغة العربية في مصر والمغرب الأدنى، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، (غير مؤرخ)
٢٢٢- تاريخ المسرح عبر العصور، مجيد صالح، الدار الثقافية للنشر، ط١، القاهرة، ٢٠٠٢
٢٢٣- السينما والدولة في الوطن العربي"، سمير فريد، ضمن أبحاث كتاب "الهوية القومية في السينما العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، بيروت، ١٩٨٦
٢٢٤- معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، أنور محمود زناتي، ط ١، دار زهران للنشر والتوزيع، عمَّان، ٢٠١١
٢٢٥- يهود مصر (١٩٢٢- ١٩٥٦)، رشاد رمضان عبد السلام، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٤
٢٢٦- تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤- ١٩٥٢)، فاطمة علم الدين عبد الواحد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧
٢٢٧- الأرض والفلاح.. المسألة الزراعية في مصر، إبراهيم عامر، الدار المصرية للطباعة والنشر والبحوث والحسابات العلمية، ١٩٥٨
٢٢٨- الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، شحاتة عيسى إبراهيم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، (غير مؤرخ)
٢٢٩- الأجانب في مصر ١٩٢٢- ١٩٥٢ دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، محمودمحمد سليمان، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، القاهرة، ١٩٩٦
٢٣٠- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، سامي عزيز، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨
٢٣١- مجتمع القاهرة السري (١٩٠٠- ١٩٥٣)، عبد الوهاب بكر، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١
٢٣٢- تطور ملكية الأرض الزراعية ١٨١٣- ١٩١٤ وأثره على الحياة السياسية، علي بركات، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، (غير مؤرخ)
٢٣٣- التحليل الاقتصادي والاجتماعي لمصر، شارل عيساوي، ت. محمد مدحت مصطفى، بوب بروفيشنال برس، القاهرة، ٢٠١٢
٢٣٤- المذكرات، محمد كرد علي، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٨
٢٣٥- أصول التاريخ الأوروبي الحديث، أشرف صالح، دار ناشري للنشر الإلكتروني، ط١، الكويت، ٢٠٠٩
٢٣٦- تاريخ الفكر الأوروبي الحديث (١٦٠١- ١٩٧٧)، دونالد سترومبرج، ت. أحمد الشيباني، ط٣، دار القارئ العربي، القاهرة، ١٩٩٤
٢٣٧- زينب (رواية)، محمد حسين هيكل، دار المعارف، ط ٥، القاهرة، ١٩٩٢
٢٣٨- الريف المصري، بنت الشاطئ، مكتبة ومطبعة الوفد، القاهرة، ١٩٣٦
٢٣٩- الفلاحون، هنري حبيب عيروط، ت. محيي الدين اللبان ووليم داوود مرقص، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩
٢٤٠- الحرس الحديدي كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه، سيد جاد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣
٢٣٣- مذكراتي في السياسة والثقافة، ثروت عكاشة، ، ط ٣، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠
٢٤١- الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى نهاية أزمة مارس ١٩٥٤، عبد العظيم رمضان، مكتبة مدبولي، ط ٢، القاهرة
٢٤٢- قصة الاقتصاد المصري من عهد محمد علي إلى عهد مبارك، جلال أمين، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٢
٢٤٣- مصر والحرب العالمية الثانية، محمد جمال الدين المسدي، يونان لبيب رزق، عبد العظيم رمضان، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة (غير مؤرخ)
٢٤٤- تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨- ١٩٥٣، يونان لبيب رزق، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ١٩٧٥

٢٤٥- المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، نخبة من أساتذة التاريخ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩
٢٤٦- الدستور والاستقلال والثورة الوطنية ١٩٣٥، ضياء الدين الريس، ج٢، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، (غير مؤرخ)
٢٤٧- مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عبد الرحمن الرافعي، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧
٢٤٨- حقيقة الانقلاب الأخير في مصر، رشدي البراوي، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، ١٩٥٢
٢٤٩- عبد الناصر.. قصة البحث عن الكرامة، ويلتون واين، مكتبة مدبولي، ط ١، القاهرة، ٢٠١٠
٢٥٠- ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، تاريخنا القومي في ٧ سنوات"، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٩
٢٥١- الثورة المضادة في مصر، غالي شكري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (غير مؤرخ)
٢٥٢- البحث عن الذات، محمد أنور السادات، المكتب المصري الحديث، طبعة خاصة، القاهرة، ١٩٨٠

253 -Alan Gardiner, Egyptian grammar, 3 edition, Griffith institute Ashmolean museum, Oxford, page 555

الدوريات والصحف:

١- فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، عبد العز ... مجلة المجلة (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر)، س ٣، ع ٢٦، القاهرة، ١٩٥٩

٢- الفكاهة والكاريكاتير في الفن المصري القديم، عب ... مجلة "المجلة"، العدد رقم ٨٨، بتاريخ ١-٤-١٩٦٤، القاهرة

٣- بلاد النوبة: تاريخها وآثارها، عبد المنعم أبو بكر، مجلة المجلة، س٣، ع٢٨، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٩

٤- اللغة المصرية لغة البلاد الأصلية، جرجس فيلناؤس ... مة، العدد ٧، س ٩ ... ١٩٢٣، القاهرة

٥- الفلاحون بين الثورة العرابية وثورة ١٩١٩، علي محمد بركات ... رية، المجلد ... ، ١٩٧٥
٦- سـيناء تراب وتراث مصر منذ الأزل ، علي رضوان، صحيفة الأهرام، العدد ٥٠ ... ، ٢٦- ٣ -٢٠٠٨
٧- "بعثتا اليسوعيين لدى اقباط مصر (... ١٦٢٣ ...)، شارل ليبوا ... مجلة المشرق" ... ١ يناير ١٩٩١
٨- "الهجرة إلى مصر"، محمد كرد علي، مجلة المقتبس، العدد ١٨، بتاريخ ١٥- ٧- ١٩٠٧
٩- بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية، زكي محمد حسن، المجلة الجديدة، العدد رقم ٣، ١-٣-١٩٣٨
١٠- درس تهذيب تحاور به تلميذ مع نديم، عبد الله النديم، التنكيت والتبكيت، العدد ٤، السنة الأولى، ٣- ٧- ١٨٨١
١١- الزعيم أحمد عرابى رحلة كفاح من أجل الوطن.. من الثورة إلى المنفى، الأهرام، ٩- ٩- ٢٠١٦، السنة ١٤١ العدد ٤٧٣٩٤
١٢- سيد درويش فنان الشعب والثورة الدائمة، السيدة زهرة، مجلة أدب ونقد، العدد ٢٤٧، القاهرة، مارس ٢٠٠٦
١٣- ثورة ١٩ بعد تسعين عاما، الأقباط والثورة، جابر عصفور، جريدة الشروق ١٨ يونيو ٢٠٠٩
١٤- جون لوك.. مؤسس العبودية وتاجرها، سلطان عامر، صحيفة الحياة اللندنية، ١٩- ٢- ٢٠١٣
١٥- ثورة ١٩ بعد تسعين عاما، الأقباط والثورة، جابر عصفور، جريدة الشروق، ١٨ يونيو ٢٠٠٩
١٦- حول مصر والحرب العالمية الأولى، أحمد جمال، صحيفة الأهرام، السنة ١٤٣، العدد ٤٨١٩٨، بتاريخ ٢٢- ١١- ٢٠١٨
١٧- "عزيز المصري سندباد العسكرية الأب الروحي للضباط الأحرار"، حمد أبو العينين، صحيفة الأهرام، ٥ أبريل ٢٠١٣
١٨- أسرار دخول مصر حرب فلسطين "الحلقة الأولى"، محمود صلاح، مجلة الأهرام العربي، ٢٨-١٠-٢٠١٧
١٩- أصحاب القمصان الملونة.. الأمة تستخدم الشرطة علي الأمن العام لا لإخضاعها إدارة الأمن العام، يونان لبيب رزق، صحيفة الأهرام، العدد ٤٣٢٩١، ١٦- ٦- ٢٠٠٥
٢٠- المميزات العامة للتركيب الطبقي في مصر عشية ثورة يوليو ١٩٥٢، جمال مجدي حسنين، مجلة الطليعة، س٧، ع ٤، القاهرة، ١٩٧١
٢١- قبل ٢٣ يوليو اخ... الألوان والهدف واحدا!، موقع جريدة المال، بتاريخ ٣١- ١- ٢٠١٣
٢٢- ساطع الحصري فيلسوف القومية العربية نافخ الروح في معهد الدراسات، مجلة الأهرام العربي، سهير عبد الحميد، ٧- ٣- ٢٠١٥
٢٣- الأرمن في مصر، شيري عبد المسيح، تحقيق صحفي بجريدة "وطني"، ٢٤- ٤- ٢٠١٥
٢٤- عملية الخصخصة: الضرورة والمحاذير والمتطلبات، محمد عبد الشفيع عيسى، مجلة بحوث اقتصادية عربية، مج ١٣، ع ٣٦،٣٧، القاهرة، ٢٠٠٦

المواقع الإلكترونية:

سيرة محمد رياض رئيس الوزراء، موقع ذاكرة مصر المعاصرة
http://modernegypt.bibalex.org/Types/Persons/Details.aspx?type=minister&ID=e4EED6HD8Byir7vnNn6Z7w%3D%3D

الجامعة الأمريكية بالقاهرة توثق رقميا مجموعة من الصور النادرة لتاريخ مصر من ١٩١٣- ١٩٢١
https://www.aucegypt.edu/index.php/ar/node/7781

موقع التسامح، كورش الأكبر والتسامح الديني:
https://tolerance.tavaana.org/ar/content/%D9%83%D9%88%D8%B1%D8%B4-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%83%D8%A8%D8%B1-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B3%D8%A7%D9%85%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86%D9%89

صراع الأحمر والأبيض.. الأهلي والزمالك في عصر الجبرتي، عبد العزيز جمال الدين، موقع الأهرام، بوابة الحضارات، ٦- ١-٢٠١٨
http://hadarat.ahram.org.eg/Articles/%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D8%AB/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%87%D9%84%D9%89-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%85%D8%A7%D9%84%D9%83-%D9%81%D9%8A-%D8%B9%D8%B5%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%A8%D8%B1%D8%AA%D9%8A-290715

- ما بين القديم والحديث، بيجول باسيلي
http://www.copts-united.com/C U/Branches CPTS/Egyptian Studies/Egy Coptic Lang/Abouna Pigol Part1.htm

- بعد دراسة استغرقت عامين.. العلماء يثبتوَن أن الملك رمسيس الثالث قتله متآمرون وذبحوه بسكين حاد، أ ش أ، بوابة الأهرام، ١٧- ١٢- ٢٠١٢
http://gate.ahram.org.eg/News/284515.aspx

-قبل ٢٣ يوليو تعددت الألوان والهدف واحد
http://www.almalnews.com/Story/30812/19/%D9%82%D8%A8%D9%84-%D9%8A%D9%88%D9%84%D9%8A%D9%88-1952---%D8%A7%D8%AE%D8%AA%D9%84%D9%81%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%84%D9%88%D8%A7%D9%86-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%87%D8%AF%D9%81-!%D9%88%D8%A7%D8%AD%D8%AF

- تأسيس المدرسة الوطنية لعلم المصريات، وائل إبراهيم الدسوقي، موقع الأهرام- بوابة الحضارات، ١٣- ٧- ٢٠١٦
http://hadarat.ahram.org.eg/Articles/%D8%A3%D9%81%D9%83%D8%A7%D8%B1/%D8%AA%D8%A3%D8%B3%D9%8A%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AF%D8%B1%D8%B3%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B7%D9%86%D9%8A%D8%A9-%D9%84%D8%B9%D9%84%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B5%D8%B1%D9%8A%D8%A7%D8%AA-100716

- رسائل حسن البنا، موقع إخوان ويكي (الموقع الرسمي لتاريخ جماعة الإخوان المسلمين)
http://www.ikhwanwiki.com/index.php?title=%D8%B1%D8%B3%D8%A7%D8%A6%D9%84 %D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%85%D8%A7%D9%85 %D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%87%D9%8A%D8%AF %D8%AD%D8%B3%D9%86 %D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%86%D8%A7#.D8.AD.D9.82 .D8.A7.D9.84.D8.A5.D9.86.D8.B3.D8.A7.D9.86.D9.8A.D8.A9

- اللائحة العالمية لجماعة الإخوان المسلمين الموضوعة سنة ١٩٩٤، موقع "نافذة مصر" التابع للجماعة:
https://www.egyptwindow.net/

- السفير عاطف: الاستثمارات الكويتية في مصر تبلغ نحو ١٥ مليار دولار، موقع صحيفة الراي الكويتية، ٣٠- ٣- ٢٠١٦
http://www.alraimedia.com/Home/Details?Id=557c9baa-37b1-4303-a548-df308e2241c9
- الباحث رياض فارس لـ"روزاليوسف": قسطنطين.. ملك لا يستحق لقب القداسة، روزاليوسف، ٢-١٢- ٢٠١٧
https://www.masress.com/rosadaily/1209571
- رئيس الوزراء يدشن الطاحونة التي أعيد ترميمها في حي "مشكنوت شأنانيم" في أورشليم القدس، موقع ديوان رئاسة الوزراء (الإسرائيلي)، ٢٨- ٨- ٢٠١٢
http://www.pmo.gov.il/Arab/MediaCenter/Events/Pages/eventtahana280812.aspx
- "نبذة تاريخية عن تطور النقود في مصر"، موقع البنك المركزي المصري
https://www.cbe.org.eg/ar/BankNote/Pages/HistoricalOverview.aspx
تاريخ دخول الطوائف (الكاثوليك والبروتستانت ...) فيها، القمص بولس جورج ، موقع الأنبا تكلاهيمانوت
https://st-takla.org/articles/fr-boles-george/...nal/history.html
- تاريخ الدساتير المصرية، الهيئة العامة للاستعلامات
http://www.sis.gov.eg/section/10/2128?lang=ar

-Exhibition - Rothschilds in Caricature, 8: F...

https://www.rothschildarchive...itions/rothschild_in_caricature/feeding_time

...THE EGYPTIAN LABOUR CORPS MOVING A WATER-TANK AT EL FERDAN
https://www.awm.gov.au/collection/C4098
Egyptian labour corps, repairing the nebi Mosa rooad
https://www.iwm.org.uk/collections/item/object/18093
Egyptian ...
http://www.loc.gov/pictures/resource/ggbain.25773/?co=ggbain
ARMENIANS THANK PEOPLES OF THE MIDDLE EAST
https://auroraprize.com/en/aurora/article/multimedia/10514/armenians-thank-peoples-middle-east-0
Incredible images show the everyday life of thousands of Yugoslavian refugees who spent 18 months at an Egyptian camp during World War II
https://www.dailymail.co.uk/news/article-4593114/Images-Yugoslavians-Egyptian-refugee-camp-WWII.html
Telegraphing Revolt: Protest Diffusion in the 1919 Egyptian Revolution
https://www.kcl.ac.uk/events/telegraphing-revolt-protest-diffusion-in-the-1919-egyptian-revolution
English octopus cartoon ١٨٩٤ -
https://atlanticsentinel.com/2017/08/the-octopus-in-political-cartoons/1894-/english-octopus-cartoon

الفهرس

نكبة توطين الهكسوس
(النكبة المصرية)



هويتى مصر

